

أبو فهر
محمود محمد شاكر

المعنى

رسالة في الطربق الى ثقافتنا

بمفتاح كل كتاب فنفسه
فأقرأ الفهرس قبل كل شيء

أبوفهم
محمود محمد شاكر

المدني

رسالة في الطربوق إلى ثقافتنا

”مفتاح كل كتاب فهرس جامع“
فأقرأ الفهرس قبل كل شيء

الناشر

دارالمدني بحدة

شارع الصحافة حي مشرفة

تليفون : ٧٨٨٠٠٧٨٨ - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

مطبعة المكدني

العويشة السعودية بمصر

٦٨ شارع النباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصوري

مكتبة الخانجي

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

رقم الإيداع : ٢٠٩٨ / ٨٧

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بعمارة
شارع النجاشية - القاهرة - ٥٠٠٨٧٨٥١

أبوفهم
محمود محمد شاكر

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال رسول الله ﷺ :

« أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّي إِذَا عَلِمَهُ » (١)

الحمد لله حمداً يُبَلِّغُنِي رِضَاهُ ، وَإِنْ كَانَ جَهْدُ الْحَمْدِ لَا يَفِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِهِ . اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَن تَقْصِيرِي فِي حَمْدِكَ وَمَرْضَاتِكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي ، وَضَعِيفٌ فَقَوِّنِي ، وَخَائِرٌ فَسَدِّدْنِي ، وَمَرِيضٌ فَاشْفِنِي ، وَجَاهِلٌ فَعَلِّمْنِي ، وَعَاصٍ مُذْنِبٌ فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَاةً أُرْزَلَفَ بِهَا إِلَى مَغْفِرَتِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا يَحْشُرُنِي فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَيُدْخِلُنِي فِي شَفَاعَتِهِ يَوْمَ لَا شَفِيعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ . وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى أَبَوَيْهِ الرَّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى سَائِرِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ . رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

كَلِمَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ، إِلَى قَارِئِ كِتَابِي هَذَا : « الْمَتْنِيُّ »

لَكِنِّي تَكُونُ عَلَيَّ بَيِّنَةٌ

(١) هو من حديث أبي سعيد الخدري ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواها أحمد في المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذي في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جاء ما أخبر به النبي ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتته أحمد في المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

١ - أعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبانى ، فى حيرة زائغة ، وضلالة مضنية ، وشكوك ممزقة ، حتى خفت على نفسى الهلاك ، وأن أخسر دنيائى وآخرتى ، محتقبا إنما يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت . فكان كل همى يومئذ أن ألتبس بصيصاً أهتدى به إلى مخرج يُنجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة على من كل جانب . فمئذ كنت فى السابعة عشرة من عمري سنة ١٩٢٦ ، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦ ، كنت منغمساً فى غمار حياة أدبية بدأت أحس إحساساً مُبهماً متصاعداً أنها حياة فاسدة من كل وجه . (١) فلم أجد لنفسى خلاصاً إلا أن أرفض متخوفاً حذراً ، شيئاً فشيئاً ، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف ، يهدم السدود ، ويقوض كل قائم فى نفسى وفى فطرتى .

ويومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذاء ماضية : أن أبداً ، وحيداً منفرداً ، رحلة طويلة جداً ، وبعيدة جداً ، وشاقة جداً ، ومثيرة جداً . بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله ، أو ما وقع تحت يدي منه يومئذ على الأصح ، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى ، كأنى أقلبهما بعقلى ، وأرؤهما (أى : أرئهما مختبراً) بقلى ، وأجسهما جساً بصرى وبصيرتى ، وكأنى أريد أن أتحسسهما بيدي ، وأستنشى (أى : أشم) ما يفوح منهما بأنفى ، وأسمع ديب الحياة الخفى فيهما بأذنى = ثم أتذوقهما تذوقاً بعقلى وقلى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى ، كأنى أطلب فيهما خبيئاً قد أخفاه الشاعر الماكر بفته وبراعته ، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفواً أو سهواً تحت نظم كلماته ومعانيه ، دون قصدٍ منه أو تعمّدٍ أو إرادة . (٢)

(١) انظر مقدمة كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ، ومواضع أخر مما كتبت .

(٢) قد حسمت قضية « التذوق » ، ولم سميت منجى منج « التذوق » ، فى كلمتين نشرتهما فى مجلة =

٢ - لا تَقُلْ لِنَفْسِكَ : « هَذَا مَجَازٌ لَفْظِي » ! كَلًّا ، بَلْ هُوَ أَشْبَهُ بِحَقِيقَةٍ أَيْقَنْتُ بِهَا ، لِأَنِّي سَخَّرْتُ كُلَّ مَا فَطَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَيْضًا ، كُلَّ مَعْرِفَةٍ تُنَالُ بِالسَّمْعِ أَوْ الْبَصَرِ أَوْ الْإِحْسَاسِ أَوْ الْقِرَاءَةِ ، وَكُلَّ مَا يَدْجُلُ فِي طَوْقِي مِنْ مِرَاجِعَةٍ وَاسْتِقْصَاءٍ بِلا تَهَاوِينَ أَوْ إِغْفَالٍ = سَخَّرْتُ كُلَّ سَلِيْقَةٍ فَطَرْتُ عَلَيْهَا ، وَكُلَّ سَجِيَّةٍ لَانَتْ لِي بِالْإِدْرَاكِ ، لَكِنِّي أَنْفَذْتُ إِلَى حَقِيقَةِ « الْبَيَانِ » الَّذِي كَرَّمَ اللَّهُ بِهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَهَذَا أَمْرٌ شَاقٌّ جَدًّا ، كَانَ ، وَمُثِيرٌ جَدًّا ، كَانَ ، وَلَكِنِ الْمَطْلَبَ الْبَعِيدَ هَوْنًا عِنْدِي كُلَّ مَشَقَّةٍ وَضُنَى .

٣ - اِكْتَسَبْتُ يَوْمَئِذٍ بَعْضَ الْخَبْرَةِ بِلَغَةِ « الشَّعْرِ » ، وَبَفَنِّ الشُّعْرَاءِ وَبِرَاعَاتِهِمْ . ثُمَّ أَنْفَتَحَ لِي ، فِي خِلَالِ ذَلِكَ ، بَابٌ آخَرٌ مِنَ النَّظْرِ . قَلْتُ لِنَفْسِي : « الشَّعْرُ » كَلَامٌ صَادِرٌ عَنِ قَلْبِ إِنْسَانٍ مُبِينٍ عَنِ نَفْسِهِ . فَكُلُّ « كَلَامٍ » صَادِرٍ عَنِ إِنْسَانٍ يَرِيدُ الْإِبَانَةَ عَنِ نَفْسِهِ ، خَلِيقٌ أَنْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ مَا أُجْرِيَتْهُ عَلَى « الشَّعْرِ » مِنْ هَذَا « التَّنْوِيقِ » الشَّامِلِ الَّذِي وَصَفْتَهُ آنِفًا . فَأَخَذْتُ أَهْبَتِي لِتَطْبِيقِ هَذَا « التَّنْوِيقِ » عَلَى كُلِّ كَلَامٍ ، مَا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ . فَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الشَّبَابِ الْجَرِيءِ عَلَى قِرَاءَةِ كُلِّ مَا يَقَعُ تَحْتَ يَدِي مِنْ كُتُبِ أَسْلَافِنَا : مِنْ تَفْسِيرِ لِكِتَابِ اللَّهِ ، إِلَى عُلُومِ الْقُرْآنِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، إِلَى دَوَاوِينِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشُرُوحِهَا ، إِلَى مَا تَفَرَّعَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ مِصْطَلَحِ الْحَدِيثِ وَكُتُبِ الرِّجَالِ وَالْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ ، إِلَى كُتُبِ الْفُقَهَاءِ فِي الْفِقْهِ ، إِلَى كُتُبِ أَصُولِ الْفِقْهِ وَأَصُولِ الدِّينِ (أَيْ : عِلْمِ الْكَلَامِ) ، وَكُتُبِ الْمَلَلِ وَالتَّنَحُّلِ ، ثُمَّ كُتُبِ الْأَدَبِ وَكُتُبِ الْبَلَاغَةِ ، وَكُتُبِ النَّحْوِ وَكُتُبِ اللُّغَةِ ، وَكُتُبِ التَّارِيخِ ، وَمَا شَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ . وَعَمَدْتُ فِي

= النِّقَافَةُ فِي الْعَدَدِينَ : ٦١ (أَيْ كُتُبُهَا) / ٦٣ (دَيْسَمِيرُ سَنَةِ ١٩٧٨) ، وَأَنِّي لَا أَعْنِي بِهِ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ الْكُتَّابِ : « يَتَنَوَّقُ الْجَمَالَ » وَ « يَتَنَوَّقُ الْفَنَّ » ، فَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ ذَالٍ عَلَى مَنَهِجٍ . وَلَيْسَ هَذَا مَكَانَ بَيَانِهِ مَرَّةً أُخْرَى . وَلَمْ أَتَمِّمْ كِتَابَةَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ، وَسَأَنْشُرُهَا قَرِيبًا بِعِنْوَانِهَا : « الْمَتْنِيُّ لِيَتْنَى مَا عَرَفْتُهُ » .

رحلتى هذه إلى الأقدم فالأقدم . كُلُّ إرثِ آبائي وأجدادي ، كنت أقرؤه على أنه إبانةٌ منهم عن نخبايا أنفسهم بلُغَتِهِمْ ، على اختلاف أنظَارِهِمْ وأفكارِهِمْ ومناهجِهِمْ . وشيئاً فشيئاً انفتح لي البابُ يومئذٍ على مِصْرَاعِيهِ . فرأيتُ عجباً من العَجَبِ ، وعثرتُ يومئذٍ على فيضٍ غزيرٍ من مُسَاجَلَاتِ صامتةٍ خفيّةٍ كالهمسِ ، ومساجلاتٍ ناطقةٍ جَهِيْرَةٍ الصوتِ ، غيرَ أنَّ جميعها إبانةٌ صادقةٌ عن هذه الأنفس والعقول .

أمَدَّتْني هذه التجربةُ الجديدةُ بِخِبرَاتٍ جَمَّةٍ متباينة متشعبية ، أتاحت لي أن أجعل منهجي في « تذوق الكلام » منهجاً جامعاً شاملاً متشعب الأضلاع والأطراف ، يزدادُ مع تطاول الأيام رَحابةً وسعةً ، وِحْدَةً ومِضَاءً ، ونَفَازاً ودِقَّةً ، وشُمولاً واستقصاءً .

٤ - ولا أزعُمُ ، معاذ الله ، أنني آبتدعتُ هذا المنهج ابتداءً بلا سابقةٍ ولا تمهيد ، فهذا حَظْلٌ وتَبْجُحٌ . بل كُلُّ ما أزعُمُهُ أنني بالجُهدِ والتَّعبِ ، وبمعاناة التفتيش في هذا الرُّكَّامِ من الكلام ، جمعتُ شَتَاتِ هذا المنهج في قلبي ، وأصلتُ لِنَفْسِي أصوله ، مع طول التنقيب عنه في مطاوي العبارات التي سبق بها الأئمة الأعلام من أصحاب هذه اللغة ، وهذا العلم ، في مباحثهم ومساجلاتهم ومُتَأَقِّفَاتِهِمْ وما يتضمَّنُه كلامهم من النقد والاحتجاج للرأى . وكلُّ ما وقفتُ عليه من ذلك ، كان خفياً فأستشَفَفْتُهُ ، ودَفِيناً فأستنبطتُهُ ، ومشتتاً فجمعتُهُ ، ومفككاً فلاءمتُ بين أوصالِهِ ، حتى استطعتُ بعد لأيٍ أن أمهد لفكري طريقاً لاجباً مُسْتَبْتَباً يَسِيرُ فيه ، أي صيرتُهُ « منهجاً » التزمتُ به فيما أقرأ وما أكتب .

ومع ذلك ، فقد كنت أتوهم في سنة ١٩٣٥ حين فرغتُ من إجراء منهجي في « تذوق الشعر » على كل كلام غير الشعر ، أنني قد سبقتُ إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦ ، أي بعد أكثر من عشرين سنة ، حين طُبِعَتْ « الرسالة الشافية » للإمام

الجرجاني ، (١) (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ، فوقفت على فصل نفيس جداً كتبه الإمام الجرجاني الكبير ، هو أوضح ما قرأته قط ، في إجراء « التذوق » على كل كلام ، في كل علم ، مهما ظننت أنه أبعد علم من إجراء « التذوق » عليه . وكلام هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كل الصراحة في الدلالة على منهجي ، إلا أنه أشبه شيء به . و « الرسالة الشافية » رسالة في إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذي بنى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصل من الرسالة ، (٢) بيان لحال المعاني : « وأن الشاعر يسبق في الكثير منها ، إلى عبارة يُعلم ضرورة أنها لا يجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى يُقضى له بأنه غلب عليه واستبد به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغاية في معناها ، ولم يبق لطالب بعدها مطلب . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيل في المنثور من الكلام ، فإنك تجد متى شئت فصلاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلها . فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل أمرى ما يُحسِنه » ، وقول الحسن (البصرى) رحمه الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من الموت » ، ولن تعدم ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ونظرت في الرسائل . »

ثم قال عبد القاهر بعقب ذلك مباشرة = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظر جيد ظاهر الجودة والبراعة والتيقظ :

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، في سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقاً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجاني في سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجي بالقاهرة) .

(٢) يقع هذا الفصل في طبعتي لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

« ومن أخصَّ شيء يُطلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعَةُ في العلوم المستخرجة ، فإننا نجدُ أربابها قد سبقوا في فصولٍ منها إلى ضربٍ من النَّظْمِ واللفظ ، أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشيئه له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصولَ على وجوهها ، ويؤدُّوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي . وذلك مثل قول سيويه في أوَّل الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأما الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظ أحداثِ الأسماء ، وبيَّنت لما مضى ، وما يكونُ ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع . »

= « لا نعلمُ أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازئُه أو يُدانيه ، ولا يَقَعُ في الوهم أيضاً أن ذلك يُستطاع . ألا ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم : « والفعلُ ينقسم بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفى ضعفُ هذا في جنبه وقصوره عنه . ومثلهُ قوله (أى قول سيويه أيضاً في الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقدِّمون الذى بيَّنه أهمُّ لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وإن كانوا جميعاً يهَمَّانهم ويعنيانهم » ، = وإذا كان الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآنِ ونظمه هذا السبيلَ ، وأن يكونَ عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجزِ ، كما ذكرنا ومثَّلنا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

٥ - فهذا الإمامُ البارِعُ اليقِظُ ، لم يجدْ = وهو يعالجُ قضيةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيقَ فكرته المبتدعة التي سبق بها الناسَ ، وهي قضية « اللفظ والنَّظْم » ، وهما عمودُ مذهبه في إعجاز القرآن وفي البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضاضةً في تطبيق فكرته في الإعجازِ ، على حدِّ من حدود « الفعل » ، وهو الحدُّ الذى كتبه إمامُ النحو سيويه ، ولم يستنكف أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التي

يَهْدِي إليها شاعرٌ مَبِينٌ أو ناثِرٌ بليغٌ ، ولم يتوقَّف في الحُكْم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممَّا لا يقع في الوَهْم أنَّ أحداً يستطيع أن يأتي في هذا المعنى بكلامٍ يُوازُنها أو يدانِيها ، وأنها كلامٌ بَيِّنٌ قد بلغ الغاية في البيان ، « ولم يبق لطالِبٍ بعده مُطَلَّبٌ » .

وعبد القاهر حُكْمٌ حُكْمًا لم يبيِّن لنا مَأْتَاهُ ولا تفصيلَه حين قال : إن المعنى الذي جاء في معنى كلام سيويه هو قولهم : « والفِعْلُ ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ » ، ثم قال : « وليس يخفى ضعفُ هذا في جَنْبه وقُصُوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كُلِّ شيءٍ ، فهذا الذي استضعفه إلى جَنْبِ كلام سيويه ، إنما هو نصُّ كلام أستاذه وإمامه الذي يُعَالَى في أستاذيته ويقدمه تقدماً على سائر النحاة ، أبا عليٍّ الفارسيّ في كتابه « الإيضاح » في النحو ، والذي عُني هو نفسه بشرحه شرحه شرحين : أحدهما كتاب « المُعْنَى » ، وهو شرح مطوَّل في ثلاثين مجلِّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه في مجلِّدتين ، ولم أجد عبد القاهر في « المقتصد » ، ^(١) تعرَّض لنقد حدِّ شيخه الفارسيّ ، ولا بيِّن لنا عن وجه ضعفه أو قُصُوره . ووجدته صعباً عسيراً أن يُدرك القاريّ مَأْتَى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخفيٍّ » ، مع أنه خفيٌّ بلا شكٍّ في خفائه . فرأيتُه واجباً أن أجتهد اجتهاداً في بيان مَأْتَى هذا الحكم ، لكي يتضح لك معناه في كلام عبد القاهر . ^(٢)

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع في العراق سنة ١٩٨٢ .

(٢) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وافانق ولدى الكريم الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيويه للإمام أبي سعيد السيرافي القاضي النحويّ (الحسن بن عبد الله بن المرزبان / ٢٨٨ - ٣٦٨ هـ) فلم أره صنع شيئاً في شرح عبارة سيويه ، وإنما هو ما درج عليه النحويّون في أقسام زمان الفعل : « ماضٍ ، وحاضرٍ ، ومستقبلٍ » لا غير ، فيكون ما كتبتُه لك بعدُ أوَّل بيانٍ عن جميع عبارة سيويه بلا إغفالٍ لشيءٍ منها كما أغفلوه .

فسيبويه حينَ حدَّ « الفعل » في أول كتابه ، لم يُردْ أمثلتهُ التي هي عندنا : فعَلَّ ماضي نحو « ذهبَ » ، ومضارعُ نحو « يذهبُ » ، وأمرٌ نحو « اذهبْ » ، بل أراد بيانَ الأزمنةِ التي تقترن بهذه الأمثلة كيف هي في لسان العرب ، فجعلها ثلاثة أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترن بالفعل الماضي الذي يدلُّ على فِعْلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجلُ » ، ولكن يخرجُ منه الفعل الذي هو على مِثَالِ الماضي أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث في الزمن الماضي ، نحو قولك في الدعاء : « غَفَرَ اللهُ لك » ، فإنه يدخل في الزمن الثاني ، كما سأبينه بعد .

وأما الزمن الثاني ، فهو الذي عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « وَمَا يَكُونُ ولم يَقَعْ » ، وذلك حين تقول آمراً : « اخرجْ » ، فهو مقترن بزمنٍ مُبْهَمٍ مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجُ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثله النهي حين تقول ناهياً : « لا تخرجْ » ، فهو أيضاً في زمنٍ مُبْهَمٍ مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ ، وإن كان على مِثَالِ الفعل المضارع ، فقد سلبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَعْ ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذي نُهي عن الخروج = ومثله أيضاً في مثال المضارع في قولنا : « قاتل النفس يُقتلُ ، والزاني المُحصنُ يُرجمُ » فهما مثالانِ مضارعان ، ولا يدلّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكْمٍ ، ولم يقعَا عند الإخبار بهما ، فهما في زمنٍ مُبْهَمٍ مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ ، وهما كائنان لحدوث القتل من القاتل عند القصاص ، وحدوث الزنا من الزاني المُحصن عند إنفاذِ الرَّجْمِ = ويدخلُ في هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غَفَرَ اللهُ لك » في الدعاء ، وهو على مِثَالِ الماضي ، فإنك لا تريد إخباراً عن غُفْرانِ مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريد غُفْراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاء أن يقع .

وأما الزمن الثالث ، فهو الذى عبّر عنه سيويه بقوله : « وما هو كائنٌ لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عن حَدَثٍ كائِنَ حينَ تَجَبُّرٍ به ، كقولك : « محمد يَضْرِبُ وَلَدَهُ » ، فإنه خبر عن ضَرْبٍ كائِنَ حينَ أَخْبَرَتْ في الحال ولم ينقطع الضربُ بعد مُضَيِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلْحَقُ بهذا الزَّمنِ الثالثِ أيضاً مِثَالُ الفعلِ الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » ، فهو خبرٌ عن مَغْفِرَةٍ كانت ولا أَوَّلَ لها ، وهى كائنةٌ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَاتِ اللهِ سبحانه هو الأَوَّلُ والآخِرُ .

وبهذا البيان المَوْجَز الذى أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في بيانه ، يتبيَّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إبانةٍ كانت منه = في الحُكْمِ على عبارة أبى عليِّ الفارسيِّ بالقصور والضعف إلى جانب عبارة سيويه الجامعة المُبَيِّنَة ، فإن أباً على الفارسيِّ ، مع نَصِّه في عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّهُ ، وهو الزمن المبهم المُتَطَلِّقُ المُعْلَقُ الذى دلَّت عليه عبارة سيويه ، وكذلك فعلٌ سائرُ النحاةِ ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنَوْا به أىَّ عنايةٍ في حدِّ « الفعل » ، فلم يذكروا بأىِّ زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانهُ بالفعل الماضى أيضاً في الدعاء = ولم يذكروا في حدِّهم هذا دخولَ الفعل الماضى في الزمن الثالث ، زمن الفعل المضارع في الحال والاستقبال ، كما مثَّلتُ .

فأنت تراه عياناً الآن ، أن سيويه قد استطاع في جملةٍ واحدةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز سطرًا واحداً ، استطاع أن يُلَمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلة الفعل ، دون أن يُخَلَّ بشيء

منها . فهي جملة محكمة شديدة الإحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلموا بها في حدودهم التي كتبوها عن حدّ الفعل . فأى رجل مُبين كان سيويه !

• وأقول أنا : كان سيويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالها في كتابه ، في قمة الصفاء ، وفي ذروة اليقظة ، تسمو به أنبل عاطفة من الوفاء لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (المتوفى سنة ١٧٥ ، أو قبلها) والذي مات ولم يجمع علمه المستفيض في كتاب جامع . فبعد موت الخليل = كما حدّثنا نصر بن علي بن نصر بن علي الجهضمي رواية عن أبيه = أن سيويه لقي أباه علي بن نصر بن علي الجهضمي (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قرين سيويه في الأخذ عن الخليل والاختصاص به ، فقال له سيويه : « يا علي ، تعال نتعاون على إحياء علم الخليل » = فتعاس علي ، (أى تأخر ولم يتقدم) ، وخذل سيويه فيما أراده ، فحَمَى قلب سيويه ، وعزم على أن ينفرد بإحياء علم الخليل ، فأنبرى بكل ما في قلبه من البديانة ، والأمانة والحب والإخلاص ، مُستقلاً وحده بالعِبء ، وخلق وحده كالعقاب في جو العربية ، يُجلى بعينه النافذتين كل علم الخليل وغير الخليل ، وكل أساليب العربية ، وينقض على المعاني بضبط وإحكام كإحكام العقاب الصيود ، بكل ما في قلبه من القدرة على الإبانة والقدرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلّي لمن يقرأ كتاب سيويه بتدقيق وتأمل وأناة ، ولكن أين هذا القارئ ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيويه بحراً زخاراً ، لم يبلغ مبلغه في الجودة والبيان عن معاني النحو نحوي واحد ممن جاء بعده وعب من عبابه . وحق لعبد القاهر الإمام أن يجرى عليه مذهبه في قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختار من عباراته عبارةً مبيّنةً جامعةً ، ويجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبيّنة في شعر الشعراء ، وفي كلام البلغاء ، كعلي رضي الله عنه ، والحسن البصري رحمه الله .

٦ - أَظُنُّنِي قَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ لِكِتَابِي هَذَا : « الْمَتْنِيُّ » ، وَأَبْعُدْتُ بِكَ الرَّحْلَةَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَبْعُدْ بِكَ ، فِي الْحَقِيقَةِ ، لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَقْفَ بِالِدَلِيلِ الْوَاضِحِ ، عَلَى أَنَّ الْمَنْهَجَ الَّذِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْهَدَهُ لِفِكْرِي ، كَانَ نَابِعاً مِنْ صَمِيمِ الْمَنْهَاجِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي سَنَّ لَنَا آبَاؤُنَا وَأَسْلَافُنَا طُرُقَهَا = وَأَنَّ كُلَّ جُهْدِي فِيهِ ، هُوَ مَعَانَاةٌ كَانَتْ مِنِّي لِتَبْيِينِ ذُرُوبِهَا وَمَسَالِكِهَا ، ثُمَّ إِزَالَةَ الْعِبَارِ الَّذِي طَمَسَ مَعَالِمَهَا ، ثُمَّ أَنْ أُجْمَعَ مَا تَشَتَّتْ أَوْ تَفَرَّقَتْ مِنْ أَسَالِيِبِهَا ، مَعْتَمِداً عَلَى دَلَالَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَجْبُوءٌ تَحْتَ أَلْفَاظِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَمُسْتَكِينٌ فِي نَظْمِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَهَذَا يَكَادُ يَكُونُ أَمراً مُسَلِّماً بِيَدِيهِهِ النَّظْرُ فِي شَأْنِ كُلِّ لُغَةٍ وَوَرَثَاتِهَا . وَالَّذِي لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى اسْتِيعَابِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ وَعَلَى اسْتِشْفَافِ خَفَايَاهَا ، غَيْرُ قَادِرٍ الْبَتَّةَ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ مِنْهَا أَدْبِيّاً لِلدِّرَاسَةِ إِزْرَتْ هَذِهِ اللُّغَةَ ، فِي أَيِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ هَذَا الْإِزْرَتْ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كُلَّهُ تَبَجُّحاً وَغَطْرَسَةً وَزَهْواً وَغُرُوراً وَتَغْرِيراً ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي حَيَاتِنَا الْأَدْبِيَّةِ هَذِهِ الْفَاسِدَةِ .

هَذَا هُوَ جَوْهَرُ حَدِيثِي عَنِ مَنِهْجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » كُلُّهُ شِعْراً وَنَثْراً ، وَأَخْبَاراً تُرَوَّى ، وَعِلْماً يُكْتَبُ أَوْ يُسْتَخْرَجُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ إِبَانَةٌ عَمَّا تَمُوجُ بِهِ النُّفُوسُ ، وَتَنْبِضُ بِهِ الْعُقُولُ . فَفِي نَظْمِ كُلِّ كَلَامٍ وَفِي أَلْفَاظِهِ ، وَلَا بُدَّ ، أَثَرٌ ظَاهِرٌ أَوْ وَسْمٌ خَفِيٌّ مِنْ نَفْسِ قَائِلِهِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ دَفِينِ الْعَوَاطِفِ وَالنَّوَازِعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ أَوْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ = وَمِنْ عَقْلِ قَائِلِهِ ، وَمَا يَكْمُنُ فِيهِ مِنْ جَنِينِ الْفِكْرِ ، (أَيْ مُسْتَوْرِهِ) ، مِنْ نَظَرٍ دَقِيقٍ ، وَمَعَانٍ جَلِيَّةٍ أَوْ خَفِيَّةٍ ، وَبِرَاعَةٍ صَادِقَةٍ ، وَمَهَارَةٍ مُمَوَّهَةٍ ، وَمَقَاصِدَ مُرْضِيَّةٍ أَوْ مُسْتَكْرَهَةٍ . فَمَنِهْجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » ، مَعْنَى كُلِّ الْعَنَايَةِ بِاسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الدَّفَائِنِ ، وَبِاسْتِدْرَاجِهَا مِنْ مَكَامِنِهَا ، وَمَعَالِجَةِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَلَفْظِهِ مَعَالِجَةً تُتَبَّحُ لِي أَنْ أَنْفِضَ الظَّلَامَ عَنْ مَصُونِهَا ، وَأَمِيطَ اللَّثَامَ عَنْ أَخْفَى أَسْرَارِهَا وَأَغْمَضَ سِرَائِرِهَا . وَهَذَا أَمْرٌ

لا يُسْتَطَاعُ ولا تكون له ثَمَرَةٌ ، إلا بالأناة والصَّبْر ، وإلا باستقصاء الجُهد فى التثبُّت من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجَارِي دلالاتها الظاهرة والخفية ، بلا استكراهٍ ولا عَجَلَةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوَّل ، وبلا تَوَهُّمٍ مُسْتَبِدِّ تُخَضِّعُ له نَظْمَ الكلام ولَفْظَه .

٧ - وأمرٌ كريمةٌ ، أيها القارىء ، وبِغِيضٍ إِلَى كُلِّ البُعْضِ ، أن أحدثك عن أعمالى ، ولكن لا بُدَّ مما ليس مِنْهُ بُدٌّ ، لكى تكون على يَنِينَةٍ .

قد مضى الشبابُ وطُوى بِسَاطُه ، ومضت تلك الأيامُ الغوايرُ المضيئةُ فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرى ، حين آستوى لى المنهجُ واستبان . فكان أوَّلَ عملٍ طَبَّقْتُ فيه منهجى فى « تذوق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وعلماً يُكتب أو يُستخرج ، هو كتابى « المتنبى » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتابى خالياً من كُلِّ إبانةٍ عن هذا المنهج أو إشارةٍ إليه . فكان صدوره يومئذ مفاجأةً وجَّهت أنظار الأدباء جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسان العربى ، إلى اسمٍ مَجْهولٍ وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحت فى خَفَقَةٍ كَخَفَقَةٍ البرقِ أسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وأنتَ لم تشهد تلك الأيامَ كيف كانت ، ولا تجد اليومَ من يحدثك عنها غَيْرى . وكُلُّ ما بقى منها أنك تعرفنى اليومَ معرفةً مبهمَةً بلا دليلٍ يرشدك ، إلا هذا الصيْتُ الكاذبُ الذى لا أظنُّ أن له عندك حقيقةً تعرف بها صدقَه ، والذى أكسبته تلك المفاجأة المثيرة المتقدمة المُوغَلَّةُ فى البعد عنك .

كان السببُ فى هذه المفاجأة المثيرة ، أن جمهرة الأدباء والقارئین يومئذٍ ، وقعوا على

كتاب فيه ترجمة للمتنبى ، مكتوب على منهج وجدوه فريداً متميزاً ، مبايناً مدبه كل المباينة ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتي كانت تغمر ساحة الأدب ، ولا تزال تغمرها مع الأسف . وهذا أمر تستطيع أن تستوثق من صحته بالنظر في كل ما كتب الكاتبون عن الشعر والشعراء وغير الشعراء قبل هذا الكتاب . كانوا يحسون إحساساً خفياً بهذه المباينة الظاهرة ، وقد عبر عن هذا الإحساس الخفى أقراني وأساتذتي وشيوخى الكبار ، معارضين أو مُثنيين ، كل عبر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساس الخفى ، بكلام مكتوب ، أو حديث جرى بينى وبينهم .^(١) ولأنى أصدرت هذا الكتاب خلواً من مقدمة تتحدث عن منهجى الذى بنيت عليه ترجمتى للمتنبى ، فقد كان ما لا بُد أن يكون . فالحياة الأدبية الفاسدة التى سن للناس سنّها شيوخنا الأدباء الكبار ، والتي نعيش فيها إلى هذا اليوم = وآفات أخرى كانوا يتعاشون بها ، وبثوها فى تلاميذهم وأشياعهم = كل ذلك لم يكن يُتيح لأحد ، إلا من عصم الله ، أن يجد من وقته ساعاتٍ للتأمل والأناة والصبر ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المؤلف الذى وجدته أمامه مطبقاً فى كتاب كامل ، وأحس به كل منهم إحساساً خفياً دعاه إلى المعارضة أو الشاء . وهذا خذلان كبير ، غفر الله لنا ولهم ، وتجاوز عن سيئاتنا وسيئاتهم .

كان ما لا بُد أن يكون ، فبقى منهجى منهجاً غير بين ، بل صار منهجاً مغموراً تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاء من بعد

(١) مستجد طرفاً من ذلك فى « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعى ومصطفى عبد الرازق ، وأخوه على عبد الرازق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقرينى وأخى سعيد الأفغانى ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ - ٧٩ = وما كان فى أول لقاء لى بالدكتور طه ص ٩٩ - ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغانى ، فكلامه وكلامى مثبت فى ص : ٥٢٣ - ٥٧٤ ، وكلمة الرافعى مثبتة فى ص : ٥٧٧ - ٥٧٩ ، وفؤاد صروف فى تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ - ١٣٤) .

الأساتذة الكبارِ أجيالٌ صنَعَتْهُمُ السُّننُ التى سُنُّوها فى حياتنا الأدبية ، والأساتذة الكبار هم القِمَمُ وهم القدوة ، فاتَّسَعَ الحَرَقُ بفعلِ مُرورِ الأيامِ والسنين ، وفسد الأمرُ فساداً وبيلاً . فكان لا بُدَّ أن يبقى منهجى هذا مطموساً مغموراً ضربةً لازِبٍ . وضربةً لازِبٍ أن يكون كذلك ، لأننى أنا أيضاً قد رضيتُ لكتابى « المتنبى » ولمنهجى فيه أن يبقى مطموساً مغموراً مُدَّةَ أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ ، إلى كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشره . ولكن ههنا حديثٌ آخرٌ سأحدِّثك عنه بعد قليل .

٨ - لا تُحَسِّبْ أنى قد فارقْتُ منهجى وأغفلته مُدَّةَ أربعين سنة ونيف ، ولا تُقل : أنت الملوِّم ! فلمَ توائيتَ ونكصتَ وتثاقلت فلم تنصُرْ منهجك ولا بينتَهُ للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ ممن يُريدُ أن يعرف ، أمّا الذى لا يُريدُ أن يعرف فليس يبنى وبينه عمَلٌ = : إن منهجى فى « تذوق الكلام » شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وبياناً عن علمٍ مُستخرج ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمس البعيد ، وكلاماً يقوله الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعبُ الأثحاء كما حدِّثتك آنفاً ، وهو مطبَّقٌ تطبيقاً بيناً فى كلِّ ما كتبه هذا القلم الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءً كان ما كتبتُهُ بحثاً أو نقداً أو تعبيراً عن ذاتِ نفسى فى كلِّ منحنى من مناحى القول والبيان ، أو تعليقا على أصول الكتب القديمة التى نشرتها وخرجت للناس .

وإن شئت أن تعلم ، فاعلم أنك واجدٌ منهجى فى « تذوق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشرها بعد فى كتاب يقرأ اليوم ، وأنت واجده أيضاً فى كتابى « أباطيل وأسماز » وكتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » ، وأنت واجده أيضاً ظاهراً

يلوح فى قراءتى وشرحى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جمهرة نسب قرئش » للزبير بن بكار ، وفى مواضع كثيرة جداً متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشره من الكتب .

بَلْ بَلْ أَنْتِ وَاجِدُهُ سَاطِعاً كُلَّ السُّطُوعِ فى ديوان « القوس العذراء » ، حيث تجد ثلاثة وعشرين بيتاً قالها الشماخ الشاعر فى قصيدته الزائية ، التى وصف فيها قوساً وقواسها الذى صنعها بيديه وسواها حتى استوت ، ففتن بحبها قواسها هذا وانطوى قلبه على الضن بها . ثم دعاه داعى الحج فأسمعه ، فانطلق خارجاً من باديته ، فوافى بها أهل المواسم ، فانبهرى لقوسه هذه تاجر غنى شديد المكر والدهاء ، فسأومه بها فأطال المساومة . قواس فقير بائس ، وغنى ملىء ماكر حلو اللفظ واللسان ، فأغتره بالمال والغنى حتى ذهل بفقره عن نفسه وهواه ، وفى غمرة ذهوله أسلم له قوسه وقبض المال ، ولم يكذ حتى استفاق ، وتلفت فلم يجد قوسه وحشاشة نفسه ، ولم تقع عينه على هذا التاجر الذى انقض على قوسه كالعقاب الكاسر وطار بها حيث لا يرى ، فأجهش البائس المسكين بالبكاء ، ونظر إلى المال الذى فى يديه ، وفاضت العين عبرة ، وسقط فى هاوية الأحزان ، وتساقطت نفسه بعد فراقها حسرات ، « وفى الصدر حزاز من الوجد حامر » .

كنت قديماً قد تذوقت ، فيما أتذوق من الشعر العربى ، بياناً حافلاً غزيراً فى أبيات الشماخ الثلاثة والعشرين . تذوقتها غائصاً فى أغوار دلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها ، بل غصت تحت تيار معانيها الظاهرة ، وفى أعماق أحرفها ، وفى أنغام جرسها ، وفى خفقات نبضها ، وفى دفقها السار المتغلغل تحت أطباقها ، فأثرت

بهذا التذوق دفاثنَ نَظْمها ولفظها ، واستدرجتُ خباياها المتحجّبة من مكامنها ، وأمطتُ اللثامَ عن أخفى أسرارها المكتّمة ، وأغمض سرائرها المُغَيّبة ، حتّى صرتُ كأنى أقرأ قصةً طويلةً في كتابٍ منشورٍ . ومضت السنون الطوال حتى كدتُ أنساها . ثم جاء يومٌ أذكرني هذه القصة الطويلة ، فانبعثتُ فجأةً من مرقدِها ، وانبعثتُ أنا أقصُ قصةَ القوسِ وقواسيها ، كما كانت أفضتُ إليّ به أبيات الشماخ ، وضمنتُها قصيدةً تزيد على ثلاثمئة بيتٍ ، كلُّ ما فيها نبيثةٌ مستخرجةٌ من بيان أبيات الشماخ ، ومن ركاز نَظْمها وكلماتها ، بلا استكراهٍ لقصةٍ أو معنىٍ أو صورةٍ . (الرّكازُ : كنزٌ مدفونٌ في باطن الثرى في معدِنه = والمعدِن : هو الذى نسميه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمها ونحسيسها) . (١) .

فهذا ، كما ترى ، منهجٌ متشعبٌ مطبّقٌ على أصنافِ الكلامِ العربيّ ، قراءةً له ، أو بياناً عنه . وبديهة العقل لم يكن من عمليّ ، ولا هو من عمليّ أى كاتبٍ مُبين عن نفسه ، أن يبدأ أوّلَ كلِّ شيءٍ فيفيضَ في شرحٍ منهجه في القراءة والكتابة = وإلاّ يفعلُ ، كان مقصراً تقصيراً لا يُقبَلُ منه بل يُردّ عليه = ثم يكتبُ بعد ذلك ما يكتبُ ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وما أنذا قد طبّقته . هذا سخفٌ مريضٌ غير معقولٍ ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبّقاً منهجه ، وعلى القارىء

(١) نشرت « القوس العذراء » أوّل مرة في مجلة الكتاب (دار المعارف) في عدد أوّل فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الغضبان كلمةً في التنويه بها . ثم نشرتها في كتابٍ سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متنٌ منظومٌ لحفظ غريب اللغة ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدارة ، في كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ، الذى أهدى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ - ٥٧/١٥ - ٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسمّاها « القوس العذراء ، وقراءة التراث » .

والناقد أن يستشِفَّ المنهجَ وَيَتَبَيَّنَه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفية ، ممَّا يجذُّه مطبَّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادُ حياتنا الأدبية ، هو الذي يُحيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تُغفلَ عن أبسط قواعد البديهة في العقل الإنساني . وكفى بهذا فساداً وبيلاً . فرغْتُ ، وأسألُ الله المغفرة ، من هذا الكلام البغيض إليّ ، متحدثاً عن أعمالى ، والذي هو شيءٌ أوجبته الصورة ، كما يقول المتنبي فيما يُروى عنه حين سُئل عن خبر نبوته !! والآن

٩ - كان منهجى ، كما نشأ واستتبَّ في نفسى ، كان منهجاً يَحْمِلُ بطبيعة نشأته رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجِّج ، لأكثر المناهج الأدبية التي كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدب الخالص وغير الأدب الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثتكَ آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكُنِّي تَكُونُ عَلَيَّ بَيْنَةَ مَرَّةٍ أُخْرَى ...

فَاعْلَمْ ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَّ تَسْمِيَتَهَا « مناهج » ، تجاوزتُ شديدَ البُعدِ عن الحقيقة ، وفسادَ غليظٍ وخالطٍ ، إذا كنتَ تريدُ أن تكونَ على ثِقَةٍ من معنى هذه الألفاظ التي تجرى الآنَ بيننا ، ولكن قد كان ما كان ، فهكذا اصطَلَحوا على تسميتها !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : (١)

(١) قلت ذلك في كتابي « أباطيل وأسمار » ، ص ٢٣ - ٢٥ ، بل الفصل كُلُّه ، بل الكتاب كُلُّه ، مشتمل على بيانٍ لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصِلٌ بما أقوله هنا اتِّصَالاً لا انفكاكاً له . فإن كنتَ جاداً في طلبِ المعرفة فاقرأه ، لأننى هنا موجزٌ أشدَّ الإيجاز .

« ولفظُ المنهج » ، يحتاج مني هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قبل المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقوم « المنهج » إلا عليه .

« فهذا الذى يسمّى « منهجاً » ينقسم إلى شطرين : شطرٍ فى تناولِ المادّة ، وشرطٍ فى معالجة التطبيق .

« فشرطُ المادّة يتطلّب قبلَ كلِّ شيء ، جمّعها من مظانّها على وجه الاستيعاب المتيسّر ، ثمّ تصنيفَ هذا المجموع ، ثمّ تمحيصَ مُفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّة متناهية ، وبمهارّة وحذقٍ وحذّر ، حتّى يتيسّر للدارس أن يرى ما هو زيفٌ جليّاً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هوى ، وبلا تسرع .

« أمّا شرطُ التطبيق ، فيقتضى ترتيبَ المادّة بعد نفى زيفها وتمحيصَ جيدها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرع . ثمّ على الدارس أن يتحرّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌّ موضعها ، لأنّ أخفى إساءةٍ فى وضعٍ إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوّه عمودَ الصورة تشويهاً بالعمق والشناعة » .

وأزيدك الآن : أنّ « شرطُ التطبيق » هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقول ، وتتناصى الحجج ، (أى أن تأخذ الحجة بناصية الحجة كفعل المتصارعين) ، والذى تسمع فيه صليل الألسنة جهرّةً أو خفيةً ، وفى حومته تتصادم الأفكار بالرّفق مرّةً وبالعرف أخرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخايباً تارةً أخرى ، وتفترق فيه الدُّروب والطرقُ أو تتشابكُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدان ، وطبيعة النزاليه من العلماء والأدباء والمفكرين . وعندئذٍ يمكنُ أن ينشأ ما يُسمّى « المناهج » و « المذاهب » .

ولكنى لا تقع فى الوهم والضلال ، ولكنى لا يُغرر بك أحد من المتشككين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فأعلم أنّ حديثى هنا هو عن الذى يسمّى « المنهج الأدبى » على وجه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه ، والتاريخ ، وعلم الدين بفروعه المختلفة ، والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكلّ ما هو صادر عن الإنسان إبانة عن نفسه وعن جماعته = أى يتناول ثقافته المتكاملة المتحدرة إليه فى تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة . ووعاء ذلك كلّهُ ومستقرهُ هو اللغة واللسان لا غير . فإياك إياك أن تنسى ذلك ، واجعله منك على ذكرٍ أبداً . وأذكر أيضاً أن هذا الذى أقوله لك ههنا عن « المنهج » ، إنّما هو أصل أصيل فى كلّ أمة ، وفى كلّ لسان ، وفى كلّ ثقافة حازها البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومللهم ومواطنهم .

١٠ - وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجلج ، منذ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مُبهماً أنّ حياتنا الأدبية حياة فاسدة من كلّ وجه ، كما حدّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

فأنا الآن مُجيبك عن هذا السؤال بإيجازٍ جامع ، على طوله ، فإنّ هذا الإحساس القديم المبهم المتصاعد بفساد الحياة الأدبية ، قد أفضى بى ، كما حدّثتك فى الفقرات الثلاث الأولى : (١ - ٣) ، إلى إعادة قراءة الشعر العربى كلّهُ أولاً ، ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه ، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) ، ومِلل ونحل ، إلى بحر زاخِر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة ، وكُتُب النجوم وصُور الكواكب ، والطب القديم ومُفردات الأدوية ، وحتى قرأت

البَيِّزرة والبَيِّطرة والفِرَاسَة بل كلُّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأتُ ما تيسَّر لي منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكي ألاحظ وأتبيَّن وأزيح الثَّرى عن الخبيء والمدفون .

تبيَّن لي يومئذٍ تبيُّناً واضحاً أن شَطْرِي المنهج : « المادة ، والتطبيق » ، كما وصفتهما لك في أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذهِلاً يخيِّر العقل ، منذ أوَّلِيَّة هذه الأُمَّة العربيَّة المسلمة صاحبة اللسان العربيِّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكتمالاً وتنوعاً على مرِّ السنين وتعاقب العلماء والكتَّاب في كلِّ علمٍ وفنٍّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أن الذى كان عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أُمَّةٍ سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكاد أقول لك غير متردِّدٍ أيضاً أنهم بلغوا في ذلك مَبْلَغاً لم تُدرك ذِروته الثقافة الأوربيَّة الحاضرة اليوم ، وهى فى قَمَّة مجدها وازدهارها وسَطوتها على العلم والمعرفة .

• كنتُ أستشِفُّ « شَطْرِي المنهج » ، كما وصفتهما ، تلوح بوادِرُهُ الأوَّل منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، ومَنْ حَفِظَتْ عنهم الفَتوى منهم ، كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمَر = كانت كاللَّمحة الخاطفة والإشارة الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين كالحسن البصرى ، وسعيد بن المُسيَّب ، وابن شِهَاب الزهريِّ ، والشَّعْبِيَّ ، وقَتَادَةَ السُّلُوسِيَّ ، وإبرهيم النَّخَعِيَّ . ثم اتَّسع الأمرُ واستعلنَ عند جِلَّة الفقهاء والمحدِّثين من بعدهم ، كإلك بن أنس ، وأبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانِيَّ ، والشَّافِعِيَّ ، والليث بن سعد ، وسُفْيَان الثَّوْرِيَّ ، والأوزاعيِّ ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن مَعِين ، والبخارىِّ ، ومُسلم ، وأبى عَمْرُو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى جعفر الطَّبْرِيَّ ، وأبى جعفر الطُّحاوِيَّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُب فصارَ نَهْجاً مستقيماً ،

وكالشمس المشرقة ، نُوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيوبه ، والفراء ، وابن سلام الجُمحى ، والجاحظ ، وأبي العباس المبرد ، وابن قُتيبة ، وأبي الحسن الأشعري ، والقاضي عبد الجبار المعتزلي ، والآمدي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابن خزم ، وابن عبد البر ، وابن رشد الفقيه وحفيده ابن رشد الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبيروني ، وابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وآلاف مؤلفة لا تُحصى حتى تنتهي إلى السيوطي ، والشوكاني ، والزبيدي ، وعبد القادر البغدادي في القرن الحادي عشر الهجري .

سنة متبعةٌ ودربٌ مطروقٌ في ثقافةٍ متكاملةٍ متماسكةٍ راسخة الجذور ، ظلت تنمو وتتسع وتستولي على كل معرفةٍ متاحةٍ أو مُستخرجةٍ بسلطانٍ لسانها العربي ، لم تُفقد قط سيطرتها على النهج المستبين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حتى اكتملت اكتمالاً مُذهلاً في كل علمٍ وفنٍ ، وكان المرجو والمعقول أن يستمر نموها واكتمالها وازدهارها في حياتنا الأدبية العربية الحديثة رَاهناً ، (ثابتاً) ، إلى هذا اليوم ، لولا ولكن صرنا ، واحسرتاه ، إلى أن نقول مع العرجي الشاعر : « كان شيئاً كان ، ثم انقضى » . (١)

١١ - وشيءٌ لو أنا أغفلته ههنا ، ولم أبينه لك ، فكأنني أغفلتُ جوهر القضية كلها وطمسته طمساً ، أعني قضية « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً في حومة الفسادِ

(١) من بيتين تترققُ فيهما عبراتُ الأسي كُله ، وحسراتُ العُمُر كُله ، يقول :

يا لَيْتَ شِعْرِي ، هَلْ يُعُودَنَّ لِي ذَا الْوُدِّ مِنْ لَيْلِي كَمَا قَدْ مَضَى ؟
إِذْ قَلْبُهَا لِي فَارِغٌ كُله ... أَمْ كَانَ شَيْئاً كَانَ ، ثُمَّ انْقَضَى

المُطَبِّقِ الَّذِي عَمَّ وَسَادَ حَيَاتِنَا الْأَدْبِيَّةَ وَطَمَّ وَطَعَى . وَحَسْبُكَ بِهَذَا مِنِّي ، لَوْ فَعَلْتُ ، غَشًّا لَكَ ، وَإِهْدَارًا لِكِرَامَةِ الْبَيَانِ ، وَخِيَانَةً لِلْأَمَانَةِ الَّتِي حُمِّلْنَاهَا كَمَا حُمِّلَهَا أَبُوْنَا الشَّيْخُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَبَعْدَ ذَلِكَ ، فَكَأَنِّي ، لَوْ فَعَلْتُ ، قَدْ آسَيْتُ بِكَ وَبَعَقَلْتُكَ ، لِأَنِّي كَتَمْتُ عَنْكَ مَا أَنَا حَقِيقٌ بِإِبَانَتِهِ ، وَمَا أَنْتَ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي اسْتِبَانَتِهِ .

فَالَّذِي نَبَّهْتُكَ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْفَقْرَةِ التَّاسِعَةِ آتِفًا ، (٩) ، وَسَمَّيْتُهُ « مَا قَبْلَ الْمَنْهَجِ » بِشَطْرِهِ فِي « الْمَادَّةِ » وَفِي « التَّطْبِيقِ » وَقَلْتُ لَكَ : « إِنَّهُ أَصْلٌ أَصِيلٌ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَفِي كُلِّ لُغَةٍ ، وَفِي كُلِّ لِسَانٍ ، وَفِي كُلِّ ثِقَافَةٍ حَازَهَا الْبِشْرُ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَمِلَلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ » = هُوَ ، بِلَا رَيْبٍ ، أَصْلٌ أَصِيلٌ فِي « الْعُلُومِ الْبَحْثَةِ » ، كَمَا نَسَمَّيْنَا الْيَوْمَ ، كَالْحِسَابِ وَالْجِبْرِ وَالْكَيمِيَاءِ ، كَمَا هُوَ أَصْلٌ أَصِيلٌ فِي « آدَابِ اللِّسَانِ » ، كَالْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَعِلْمِ الدِّينِ وَعِلْمِ الْفَلَسَفَةِ . وَالنَّاسُ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَا سَمَّيْتُهُ « مَا قَبْلَ الْمَنْهَجِ » اِحْتِيَاجًا مُلْزِمًا ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَسْتَوْفَى « الْعُلُومُ الْبَحْثَةُ » ، مَثَلًا ، قَدْرًا صَالِحًا مِنَ التَّمَوُّ وَالِاتِّسَاعِ ، حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ تَدَاخُلِ أَجْزَائِهَا بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ، لِتَصْحِيحِ مَسِيرَةِ الْعِلْمِ ، وَإِعْطَاءِ كُلِّ عِلْمٍ حَقَّهُ مِنَ الْوُضُوحِ ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِكُلِّ عِلْمٍ نَهْجُهُ وَطَرِيقُهُ وَنُمُوُّهُ بِلَا خَلْطٍ وَبِلَا تَزْيِيفٍ . وَ « مَا قَبْلَ الْمَنْهَجِ » هُوَ فِي « الْعُلُومِ الْبَحْثَةِ » ضَرْبَةٌ لَازِمَةٌ ، وَإِلَّا أَرْتَكِسَتْ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ وَالْغَمُوضِ . فَمُمْكِنٌ ، بَلْ هُوَ شَرْطٌ مُلْزِمٌ ، أَنْ يَبْرَأَ « جَمْعُ الْمَادَّةِ » وَ « التَّطْبِيقِ » جَمِيعًا مِنَ الْعَقْلَةِ وَالْإِغْفَالِ وَالتَّسْرُعِ وَالْهَوَى .

أَمَّا « آدَابُ اللِّسَانِ » فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَا سَمَّيْتُهُ « مَا قَبْلَ الْمَنْهَجِ » إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَسْتَوْفَى « الْآدَابُ » نُمُوًّا عَنْ طَرِيقِ « اللُّغَةِ » الَّتِي هِيَ وَعَاءُ الْمَعَارِفِ جَمِيعًا ، وَبَعْدَ أَنْ تَسْتَوْفَى أَيْضًا نُمُوًّا عَنْ طَرِيقِ « الثَّقَافَةِ » الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ الْمَعَارِفِ جَمِيعًا ، وَبَعْدَ أَنْ تَسْتَوْفَى حَظًّا مِنَ الْقُوَّةِ وَالتَّمَاسُكِ وَالتَّشْمُولِ وَالعَلْبَةِ عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ « اللُّغَةِ » وَهَذِهِ

« الثقافة » = حتى يُحتَاج عندئذٍ إلى إعادة النظر للفضل بين تدخُل أطرافها بَعْضُها في بعض ، طلباً لتصحيح المسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للتَّهَجِّجِ السَّوِيِّ والطَّرِيقِ المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، مَيْدَانٌ لا يُطِيقُ النزول في أرضه وبحقّه ، إلا من أُوتِيَ حظّاً وافراً من البصر النافذ ، والإخلاص المتجرّد لطلب الحق وإدراكه . وبطبيعة هذا المَيْدَانِ ، تدخُل نفسُ النازل في أرضه عاملاً حاسماً في شَطْرِي « ما قبل المنهج » : تدخُلُ أولاً من طريق معرفة « اللغة » التي نشأ فيها صَغِيراً = وتدخُلُ ثانياً من طريق « الثقافة » التي ارتضَع لِبَآئِهَا يافِعاً = وتدخُلُ ثالثاً من طريق أهوائه ومَنَازِعِهِ التي يملكُ ضَبْطَهَا أو لا يملكُها ، بعد أن آسَوَى رجلاً مُبِيناً عن نفسه . فهذا الثالث هو موضع المخافة ، الذي يستوجب الحذر ، ويقتضيك حُسْنَ التحرّي .

١ • فمن طريق « اللغة » التي نشأ فيها صَغِيراً ، فَإِنَّهُ يُسَدِّدُهُ أو يَتَهَدِّدُهُ ، الإحاطة بأسرار « اللغة » وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمُستحدثة تحمل من كُلِّ زمانٍ مَضَى وكُلِّ جِيلٍ سَبَقَ ، نَفْحَةً من نَفَحَاتِ البَيَانِ الإِنْسَانِيِّ بِخِصَائِصِهِ المَعْقَدَةِ والمَكْتَمَةِ ، أو خِصَائِصِهِ السَّمْحَةِ والمُسْتَعْلِنَةِ . وبين تمام الإحاطة باللغة وقُصُورِ الإحاطة بها ، مَزَالُ تَزُلُّ عَلَيْهَا الأَقْدَامُ ، وَمَخَاطِرُ يُخَشَى مَعَهَا أَنْ تَنْقَلِبَ وُجُوهَ المَعَانِي مُشَوَّهَةَ الخِلْقَةِ مُسْتَكْرَةَ المَرَاةِ ، بِقَدْرِ بُعْدِهَا عَنِ الأسرار الخفية المُسْتَكِنَةِ في هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاجُ إلى بَيَانٍ لا يُحَاطُ بِهِ في مثل هذا الموضع . ولكن كُنْ أبدأ على حذرٍ ، فَإِنَّهُ مُمْكِنٌ أيضاً كُلُّ الإِمْكَانِ ، أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا

الرسالة : ١١ / أصول « ما قبل المنهج » / « الثقافة » وأسرارها / « البراعة » من « الأهواء »

الباب مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابث ، واحتيالُ الْمُحْتالِ ، « حَتَّى تَرَى حَسَنًا ما ليس بالْحَسَنِ » ، كما قال الشاعر . (١)

٢ - • ومن طريق « الثقافة » ، فإن « الثقافة » ، فأعلم ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ الملتئمةِ في كُلِّ أمةٍ من الأممِ وفي كُلِّ جيلٍ من البشرِ . وهى فى أصلها الراسخ البعيد العُور ، معارفٌ كثيرةٌ لا تُحصَى ، متنوّعةٌ أبلغُ التنوعِ لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمعٍ إنسانىٍّ للإيمانِ بها أولاً عن طريقِ العَقْلِ والقلبِ = ثم للعملِ بها حتى تذوبَ فى بُنيانِ الإنسانِ وتجرى منه مَجْرَى الدَّمِ لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماءِ إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظُها من التفكُّكِ والانهيارِ ، وتحوطُه ويحوطُها حتى لا يُفْضَى إلى مَفَاوِزِ الضياعِ والمهلاكِ . وبين تمامِ الإدراكِ الواضحِ لأسرارِ « الثقافة » وقُصُورِ هذا الإدراكِ ، منازلٌ تلتبسُ فيها الأمورُ وتختلطُ ، ومَسالِكُ تُضِلُّ فيها العقولُ والأوهامُ حتى ترتكسَ فى حَمأةِ الحَيْرَةِ ، بقدرِ بُعدها عن لبابِ هذه « الثقافة » وحقائقها العميقةِ البعيدةِ المتشعبةِ . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جدًّا يحتاجُ إلى تفصيلٍ لا يحاطُ به فى مثلِ هذا الموضوعِ . وكُنْ أبدأً على حَذَرٍ ، فإنّه ممكنٌ كلُّ الإمكانِ أن يَدبَّ إليك منه ديباً خفياً ، مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابثِ ، واحتيالُ الْمُحْتالِ ، حتى « تحسبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ » ، كما يقولُ المتنبيُّ . (٢)

٣ - • ومن طريقِ « الأهواءِ » ، وهى التى تَسْرِي فى خَفَاءٍ وتَدبُّ ، إلاَّ أنَّها لا تَدبُّ

(١) هو من قول الشاعر :

يُفْضَى عَلَى المَرءِ فى أَيَّامِ مِحْنَتِهِ حتى يَرَى حَسَنًا ما لَيْسَ بِالْحَسَنِ

(٢) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

أَعْيْذُهَا نَظْرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ

ولا تأتيك إلا متبرجةً في تمام زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتردِّيةً برداءِ براءة القصد وُخلوصِ النية ، متحلِّيةً بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحذق ، حتَّى يُتاح لصاحبها أن يقتنصَ غفلتك ، ويتلعبَ عندئذٍ بك وبعقلك ما شاء له التلعب ، من حيث يُوهمك أنه قد استوعب لك جمع « المادة » ، ويُهولُ عليك تهويلِ السحرة بما يحشدُ تحت عينيك ويستكثر ، مُحفياً عنك بتمويهه من « المادة » ما قد يُبطل ما أراد به سحرَ عينيك واهتبالَ غفلتك ، ثم استلحاقَ عقلك بعقله ، إذ أنتِ عندئذٍ مفتونٌ بالزينة المتبرجة ، وبتحاسينِ رداءِ البراءة وُخلوصِ النية ، وبالُحليِّ النفيسة المتلاذقة التي يتطلَّبها « ما قبل المنهج » بشطريه : « المادة » و « التطبيق » ، إذ أنتِ هائمٌ معه ، مُريدًا أو غير مُريدٍ ، « في إثرِ كُلِّ قبيحٍ وجهه حسنٌ » ، كما يقول أبو الطيب . (٢)

١٢ - • قد بينتُ لك ما أستطعتُ طبيعةً هذا الميدان ، ميدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعةً النازلين فيه من الكتاب والعلماء والمفكرين ، ثمَّ المخاوف التي تتهددُ « ما قبل المنهج » بالتدمير والفساد حتى يُصبحَ رُكاماً من الأضاليل ، وحتى تفسدَ الحياة الأديبية فساداً يستعصى أحياناً على البرء . وأمرُ النازلين فيه أمرٌ شديدُ الخطر ، يحتاجُ إلى ضبطٍ وتحرٍّ وحذرٍ . ولا يغرركَ ما غرَى به ، (أى أولع) ، بعضُ المتشدِّقين المُموهين : « أن القاعدة الأساسية في منهج ديكرت ، هي أن يتجرَّد الباحثُ من كُلِّ

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مِمَّا أَضَرَ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هُوُوا ، وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطَنُوا
تَفَنَّى عُيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ

شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل بحته خالي الذهن حُلُومًا تامًا مما قيل ، (في الشعر الجاهلي : ١١) فإنه شيء لا أصل له ، ويكاد يكون ، بهذه الصياغة ، كذباً مُصنفاً لا يشوبه ذرؤ من الصدق ، (والذرؤ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارج عن طوق البشر . هبة يستطيع أن يخلى ذهنه حُلُومًا تامًا مما قيل ، وأن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل ، أفمستطيع هو أيضاً أن يتجرد من سلطان « اللغة » التي غدى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعد أن كان في المهد وليداً لا ينطق ؟ أفمستطيع هو أن يتجرد من سطوة « الثقافة » التي جرت منه مجرى لبان الأم من وليدها ؟ أفمستطيع هو أن يتجرد كل التجرد من بطشة « الأهواء » التي تستكين ضارعة في أغوار النفس وفي كهوفها ، حتى تمرق من مكمنها لتستبد بالقهر وتتسلط ؟ = كلامٌ يجري على اللسان بلا زمام يضبطه أو يكبحه ، محصولة أنه يتطلب إنساناً فارغاً خاوياً مكوناً من عظام كسيث جلدًا ، لا أكثر !!

فإذا كان « ما قبل المنهج » مهتدداً بالغوائل كل هذا التهديد ، كما بينته لك في الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائل قُصور الإدراك من ناحية ، وغوائل الأهواء التي تبدأ بالمخاطر الأول الذي يستهوي الباحث ، وتنتهي إلى المكر والعبث والكذب وخيانة الأمانة = إذا كان هذا ، كما وصفت لك ، فما الذي يعصم من هذا الوباء الحالق الذي يخلق المعرفة حلقاً من أصولها ؟

فالعاصم يأتي من قبل « الثقافة » التي تذوب في بُنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به = لا من حيث هي معارف متنوعة تُدرك بالعقل وحسب ، بل من حيث هي معارف يُؤمن بصحتها من طريق العقل والقلب ، ومن حيث هي معارف مطلوبة للعمل بها ، والالتزام بما يوجبه ذلك « الإيمان » ، ثم من حيث هي بعد ذلك انتماء إلى هذه الثقافة انتماء ينبغي أن يُدرك معه تمام الإدراك أنه لو فرط فيه لأداه تفريطه إلى الضياع والهلاك ، ضياعه هو ، وضياع ما ينتمي إليه .

فِراس الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلَّق بنفس النازل ميدان « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أصل « أخلاقي » قبل كُلِّ شيءٍ وبعد كُلِّ شيءٍ . وإغفال هذا « الأصل الأخلاقي » من قبل نازل هذا الميدان ، أو من قبل المتلقّي عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرة لا يتبيّن فيها حقٌّ من باطلٍ ، ولا صدقٌ من كذبٍ ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ ، ولا صوابٌ من خطأٍ . ولذلك قلتُ في الفقرة الحادية عشرة إنّه موضع المَخافة الذي يستوجبُ الحذرَ ، ويقتضيكُ حُسنَ التحرّي ، أي دِقّته ، ثم أتبعته بما قلت لك في أوّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

ورأسُ كُلِّ « ثقافة » هو « الدين » بمعناه العامّ ، والذي هو فِطْرَةُ الإنسانِ ، أيّ دينٍ كان = أو ما كان في معنى « الدين » = ويقدرِ شمول هذا « الدين » لجميع ما يكبحُ جُموح النفس الإنسانية ويَحجزُها عن أن تزيغَ عن الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ العادلة = ويقدر تغلُّله إلى أغوارِ النفس تغلُّلاً يجعلُ صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة ، ومريدًا لهذا الضبط = بقدر هذا الشمول وهذا التغلُّل في بُنيان الإنسانِ ، تكونُ قوَّةُ العواصِم التي تعصمُ صاحبها من كُلِّ عيبٍ قاذجٍ في مَسيرة « ما قبل المنهج » ، ثم في مَسيرة « المنهج » الذي ينشعبُ من شَطْرِهِ الثاني ، وهو « شَطْر التطبيق » .

وهذا الذي حدّثتُك عنه ، ليس خاصاً بأمةٍ ، بل هو شأنُ كُلِّ جيلٍ من الناس وكُلِّ أمةٍ من الأمم ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقافة » ، وكان لها بعد تمام ذلك « حضارة » مؤسّسة على لغتها وثقافتها . فهذا « الأصل الأخلاقي » هو العامل الحاسم الذي يمكنُ لثقافة الأمة بمعناها الشامل ، أن تبقى متماسكة مترابطة تزدادُ على الأيام تماسكاً وترايبطاً ، بقدر ما يكونُ في هذا « الأصل الأخلاقي » من الوضوح والشمول والتغلُّل والسيطرة على نفوس أهلها جميعاً ، سواءً في ذلك النازلون في ميدان « ما قبل المنهج » أو في ميدان « المنهج » نفسه ، وهم العلماء المفكِّرون والأدباء ، والمتلقِّون عنهم : تلامذة كانوا ،

أو أشباه تلامذة من قارئٍ أو سامعٍ أو كلِّ متطلبٍ للمعرفة . وكلُّ اختلالٍ يُعرضُ فيضعِف سيطرة هذا « الأصل الأخلاقي » ، أو يُؤدِّي إلى غموضه أو غيابه أو تناسيه أو قلة الاحتفال به ، فهو إيدانٌ بتفكك الثقافة وانهيار الحضارة إيداناً صارخاً لا معدى عنه ، مَهْمَا بلغت هذه الثقافة وهذه الحضارة ، في ظاهر الأمر أو في العيان ، مبلغاً سامقاً من العُلبَة والانتشار ، ومهما كان لها من اللألاء والتبرُّج والزينة ما يفتنُّ العقول ويسبي القلوب .

والحديثُ عن هذا « الأصل الأخلاقي » في كلِّ ثقافة يطول ويتشعب ، ولكن من المهمُّ أن تعلمَ أنه ليس قواعدٌ عقليةٌ ينفردُ العقل بتقريرها ابتداءً من عند نفسه ، لأن القواعد العقلية مهما بلغت من القوة والسيطرة لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء ، لسبب لا يمكن إغفاله في مثل هذه القضية ، وهذا السبب هو أن الأمر كله متعلقٌ بالإنسان نفسه . وكلُّ إنسانٍ صندوقٌ مُغلقٌ ، فيه من الطبائع والغرائز والأهواء المتنازعة بين الخير والشرِّ ، وفيه أيضاً من القوة والضعف ، مقاديرٌ مختلفةٌ لا تكادُ تُضبطُ أحوالها وآثارها ، وأيضاً لا يكادُ يُضبطُ ثقلها ثقلها يُفضى إلى الحيرة في شأن صاحبها . وكما لا يتشابه اثنان من البشر في الخلقة والصورة والملاح ومعارف الوجوه ، فكذلك لا يتشابه اثنان في الطبائع والغرائز والأهواء ، ولا في مقادير القوة والضعف ، ولا في مقادير الأحوال والآثار والتقلبات التي تُعرضُ لها وتنشأ عنها . فالضابطُ لهذا الموج المتلاطم المتصادم في الصندوق المغلق ، لا بُدَّ أن يكون كامناً في سريرة الإنسان نفسه ، مُسيطرًا عليه سيطرةً مستمرةً لا ينالها الوهنُ ، وفيه قوةٌ شاملةٌ قادرةٌ على أن تُمسك بهذا الموج المضطرب إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيقاً يقظاً ملازماً لا يغفل ، يكبحُ المرء عند كلِّ مُنعرِّجٍ ينعرِّجُ به إلى طريق الجور في كلِّ حُطوةٍ يخطوها ، وينبئه ويوقظه عند كلِّ التفاتةٍ تصرفُ وجهه عن سلوك الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجردة ، لا تكادُ تقومُ

بهذا العِبءِ كُلِّهِ ، بل « العقائد » وحدها هي صاحبة هذا السلطان على الإنسان ، لأنها إما أن تكون مغرورة في فطرته منذ خُلِقَ إنساناً غاقلاً مُبايناً لسائر الحيوان ، وإما أن تكون مكتسبة ، ولكنها مُنزَّلة مُنزلة العقائد المغرورة فيه ، ولأنها جميعاً هي التي يرتضعها من أمه وأبيه وجماعته منذ كان وليداً إلى أن يَشِبَّ وَيَعْقِل . ولذلك قلتُ لك آنفاً إن هذا الضابط الرقيب يأتي من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأس الثقافة هو « الدين » أو ما كان في معنى « الدين » .

وأسلافنا ، نحن العرب والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصل الأخلاقي » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكن لها شبيهة عند أمةٍ سبقتهم ، ولم يُتَّحَ لأمةٍ لحقتهم وجاءت بعدهم أن يكون لها عندهم شبيهة أو مقارب . وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حَفِظَتْ على الثقافة الإسلامية تماسكها وترابطها مدةً أربعة عشر قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القَوَارِعِ والنكباتِ ووقائع الدهرِ على طولِ هذا المَدَى ، ومع كُلِّ ما آتتْها من الضَّعْفِ ، ومع كُلِّ ما اعتَوَرَهَا أو دخلَ عليها من التَّقْصِيرِ والحَلَلِ . وبقاء هذا التماسك على طول القرون ، هو وَحْدَهُ إحدى عجائب الحضارات والثقافات التي عرفها البَشَرُ . (١)

(١) كان ينبغي هنا أن أتمم القول في نشأة « الأصل الأخلاقي » الذي بُنِيَ عليه ثقافتنا ، منذ حدث أول خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبي بكر وعمر وزيد بن ثابت في جمع القرآن العظيم وكتابته بين ذفتين ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثيق في رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة في الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم من بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علمٌ فريدٌ لا مثيل له عند أمةٍ من الأمم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاقي » على الثقافة العربية الإسلامية كُلِّها ، في جميع علومها ، وعناية هذه الأمة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذي أُلْفُوهُ في آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك ممَّا هو اليوم مجهول أو كالمجهول لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمع شتاته وإعادة النظر فيه .

١٣ - لم أنته بعد إلى جواب السؤال الذى بدأت به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلاف ، ولم ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجواب صريحاً بيّناً أميناً ، إلا بعد أن أقص عليك قصة تأريخ طويل سوف أختصره لك اختصاراً موجزاً أشد الإيجاز ما استطعت . وذلك لأن هذا الفساد لم يدخل على ثقافتنا دخولاً يوشيك أن يطمس معالمها ويطفىء أنوارها ، إلا بعد التصادم الصامت الخيف الذى حدث بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة . وإذا نحن أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبينه تبييناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضية كلها ، وأسقطناها إسقاطاً من عقولنا ، وخالفنا سنة العقلاء المميزين فى التبصر والتبين وترك التساهل عند مواطن الخطر ، وصار كلامنا فى « الثقافة » سدى كله وهدرًا ، ثم عبثاً وثرثرة وتغريراً ، كما هو حادث الآن فى حياتنا الأدبية هذه الفاسدة ، وصار الأمر كله جنباً عن طلب الحق ، واستقامة لخداع الباطل وتسويله الخفى ، واستدراجه إيانا إلى سراب مهلك .

• هم ، أعنى الأوربيين ، يرون أن أوربة سقطت فى حماة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أن أوربة التى هى قلب القارة ، كانت ساقطة فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهلية جهلاء ، أهلها همج هامج ، لا دين يجمعهم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادس عشر الميلادى (١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرة قرون . وفى خلال هذه الفترة حدث أمران مهمان ، إغفال النظر إليهما من قبلنا نحن ، يضر بتصورنا للحقيقة التى ينبغى أن يعرفها صغيرنا وكبيرنا ، ورجالنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجه الذى علّمناه فى المدارس صغاراً ، بل لا نزال نُعلّمه أولادنا ، وكان من أهم أسباب فساد حياتنا الأدبية إلى اليوم .

• الأمر الأول : « الحروب الصليبية » التي بدأت سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ،
أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، في خلالها كان الإسلام قد ظهر
بدينه وثقافته وغلبَ على رُقعة ممتدّة من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى
قلب إفريقية ، وأنشأ حضارةً نبيلةً متماسكةً كاملةً ، بعد أن ردّ النصرانية وأخرجها من
الأرض ، وحصرها في الرقعة الشماليّة التي فيها هذا الهَمَجُ الهامِجُ الذي كان يعيش فيما
يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلّ الصِّراعُ مُشتعلًا مُدّة خمسة قرون ، بين النصرانية
المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتاخّمها جنوباً . ولكن جيوشَ النصرانية لم
تستطع أن تفعلَ شيئاً يُذكرُ ، مع تطاول الأمر . وتدبّر الأمرُ قادة النصرانية ، وهم رجال
الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتهم الخشية ، وخافوا أن يُفضي الأمرُ إلى زوال سلطان
النصرانية عن جنوب أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندلس . فأرأوا أن يتجهوا إلى الشمال ،
ليدخلوا في النصرانية هذا الهَمَجُ الهامِجُ الذي لا دين له يجمعه ، ليكون بعد قليل مدداً
لجيوش جرّارة تطبّق على ثغور الإسلام وعواصمه في الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ،
هي البلاد المتاخمة لحدود العدو من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبانُ يجوبونَ شمالَ أوربة ليدخلوا الهَمَجَ الهامِجَ في النصرانية ، ويُعدّوهم
إعداداً عظيماً لخوض المعركة العُظمى بين الإسلام والنصرانية ، وكانَ جزءاً من هذا
الإعدادِ : تبشيعُ « الإسلام » في عيونهم ، وأن أهل الإسلام وثنيون ، وأن رسول الإسلام
كانَ وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذبِ والتمويهِ والبشاعةِ إلّا دخلوه ، ليُقرّوا معانيه في
قرارة نفوس أتباعهم من الهَمَجِ الهامِجِ ، ليكون حقّاً محضاً ، قد نطق به راهبٌ أو ناسكٌ
أو قسيسٌ ، فهو مُنزّه لا ينطقُ إلّا بالحقّ . فهذا الحقُّ إذنٌ ، هو عندهم قسيمُ الدّين
الذي آمنوا به واعتنقوه .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجيشتِ الجيوشُ من هذا الهَمَجِ الهامِجِ

من التُّرْمَنْدِيِّينَ والصَّقَالِبَةَ والسَكْسُونِ ، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاعِ ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت في طريقها أهل النَّصْرانية وسفحت دماءهم بفظاظة ، وبدأت تكتسحُ ثغور الإسلامِ وعواصمه الشمالية وتسفح الدماءَ المسلمة ، واستمرت قائمةً قرنين كاملين . كانت فرحةً رائعةً ، ولكنها انتهت بالإخفاقِ وباليأس من حربِ السلاحِ في سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركتُ في أنفسِ المقاتلين الهَمَجَ بصيصاً من اليَقظةِ والتنبُّه ، باحتكاكهم المستمرِّ بحضارةِ راقيةٍ كانت تفتنُّهم ، وتبعثُ في نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمعوه من رُهبانهم وملوكهم ، وتثيرُ في نفوس العائدين إلى مواطنهم ضرباً مختلفاً من القلق ، هي على قلتها يُخشى أن تنتشر في جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتضعفَ حميتهم ونحوئهم . وكانت حسرةً وغصّةً في قلوب الرُّهبان والملوكِ والمثقفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوهة عن الإسلامِ والمسلمين قائمةً راسخةً في أنفسِ الجماهير المتحمّسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

• الأمر الثاني : بطلَ عمل السلاحِ بالإخفاقِ واليأس ، وخمدت الحروب تقريباً بين الإسلامِ والصليبيّةِ نحو قرنٍ ونصفِ قرنٍ ، ثم وقعت الواقعة . اكتسحت الأرضِ المسيحيّةُ في آسية ، في شمال الشام ، ودخلت برمتها في حوزة الإسلام . وفي يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأذانُ في طرفِ أوربة الشرق . إذن ، فقد وقعت الواقعة !! واهتزَّ العالم الأوربيُّ كلّهُ هزّةً عنيفةً ممزوجةً بالخزيِّ والخوفِ والرُّعبِ والغضبِ والحقدِ ، ولكن قارنَ ذلكَ إصراراً مستميتاً على دفعِ هذا الخزيِّ ، وإماطة هذا الخوفِ والرُّعبِ ، وإشعالِ نيرانِ الغضبِ والحقدِ ، بحميّةٍ تأنفُ من الاستكانة لذلِّ القهْر الذي أحدثتهُ « محمد الفاتح » ورجاله من المسلمين الظافرين .

ومن يومئذ ، بدأت أوربة تتغير ، لتخرج من هذا المازق الضنك . وبهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل ، بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب ، معركة المعرفة والعلم الذي هيا للمسلمين ما هيا من أسباب الظفر والغلبة . لقد علموا الآن أن معركة السلاح لن تُغني عنهم شيئاً ، وهذه أمواج المسلمين تندفق في قلب أوربة غرباً ، ويدخل الإسلام سلماً بلا إكراه جماهير غفيرة ، كانوا بالأمس نصارى متحمسين في قتال المسلمين ، الوثنيين ، كما أوهمهم الرهبان ، فلم يُغن هذا الإيهام عنهم شيئاً .

١٤ - وهذا المازق الضنك في حياة المسيحية ، له تاريخ قديم سابق لا يمكن إغفاله ، بل ينبغي أن يكون واضحاً لنا كلّ الوضوح ، لأنّ غموضه سبب كبير من أسباب فساد حياتنا الأدبية إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها كلامي . فعند مجيء الإسلام ، كان سلطان الكنائس المسيحية مبسوطاً على الشام ، ومصر ، وشمال إفريقيا ، وأرض الأندلس منذ قرون طويلة سبقت . وفي طرفة عين ، في أقل من ثمانين سنة ، تقوَّض فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحة وزال زوالاً سهلاً ، وتقوَّض أيضاً سلطانها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً في الإسلام طوعاً بلا إكراه = بل أعجب من ذلك ، صاروا هم جند الإسلام وحماة ثغوره وعواصمه ، وقارعوا النصرانية وحصروها في الشمال الأوربي = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن دخلوا في العربية دخولاً غربياً وصار لسانهم لسانها = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعلم وبالسيف . وصارت دار الإسلام كلها ديار ثقافة وعلمٍ وخلقٍ وحضارة تبهّر الأنظار والعقول ، في المشرق حيث مقرّ الخلافة في

دمشق وبغداد ، وفي المغرب حيث ديار الأندلس . كيف حَدَثَ هذا ؟ سؤال جوابه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانه ، ولكنّه كان سؤالاً يتردّد في ضمير المسيحيّة كلّها .

كانَ جُزءًا من جواب هذا السؤال أن جاهدت الدولة البيزنطيّة في الشمال أن تستردّ ما ضاع ، وظلّت أربعة قرونٍ تحاول أن تعود فتخترق هذا العالم الإسلامي من طرفه الشماليّ عند الشام ، وذهبَ جهدها هدرًا ، ولم يُغنِ عنهم السلاحُ شيئًا . وكلّ يوم يمرّ ، يزدادُ رعايا الرهبان والملوك انبهارًا بالإسلام وخلقُه وثقافته وحضارته ، ولم ينبجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبان أنفسهم . وضاق الأمر ، وكاد اليأسُ يُخامر قلبَ المسيحيّة ، لا تدري ماذا تفعل في تساقط رعاياها في الإسلام ، أو في ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراه . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أن المسيحية على ما هي عليه غير مُقنعةٍ لجماهير الرعايا ؟ ولم يُجيروا جواباً ، ولا وجدوا لأنفسهم مخرجاً ، والتقت حلقتا البطان ! (البطان : حزام الرجل على البعير ، وهو مثّل يضربُ للأمر إذا اشتدّ وضاق) .

ثمّ جاء ما يبدّد هذا اليأس . هذه هي الجيوش الجرّارة من الهمج الهامج تتدفقُ من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرةً أخرى ، اختراق العالم الإسلاميّ من شماله في الشام . ونشبت الحروبُ الصليبيّة التي ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، في خلالها استولوا على جزءٍ من أرض الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمةً ، وأنشأوا ممالكً ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلةً ، وأحرزوا من كنوز العالم الإسلامي ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعرف الهمجُ الهامجُ ما لم يكنُ يعرفُ ، وامتلأت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فتنتهم به ديارُ الإسلام وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهليهم ، يتحدّثون بما رأوا ، ويصفون ما حازوا ، ويبالغون في كلّ ذلك ، وينهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم في الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشره هذه

الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قلقاً في صدق ما كانوا يسمعون من الرهبان المتحمسين المحرضين على الحرب ، وهم يبشعون لهم أمر المسلمين ودينهم وأخلاقهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القلق وتحذثوا به . هكذا كان شأن جماهير الهمج الهاجج في ديارهم ، فإذا طال هذا وتكاثر ، فإنه مما يهدد المسيحية في عُقر ديارها في الشمال كله ، بلا شك .

وانتبه بعض الرهبان والملوك وعقلاء الرجال ، ونحثوا عن مخرج قبل أن يتفاقم الأمر . فكان بينا لعقلائهم أن سِرَّ قُوَّة الحضارة الإسلامية هو العلم ، علم الدنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرة ، وهو الدين ، مُقْنِعٌ لجماهير البشر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدنيا ، كما رأوا ، هو الذى مكَّن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوة الهائلة المتناسكة التى شعروا أنها مستعصية على الاختراق ، وهذه الأبهة الهائلة التى تعيش فيها دار الإسلام .

ومضى نحو قرن ونصف من الحملات الصليبية ، وأصبح الأمر أشدَّ حرجاً ، وصار بينا أن الحروب الصليبية تُوشِكُ أن تُؤوبَ بالإخفاق مرةً أخرى . فانبعث منهم رجال يطلبون العلم والمعرفة فى أرض الإسلام ما استطاعوا ، فى المشرق وفى الأندلس ، وظهر رجال من طبقة « روجر بيكن » الإنجليزى ، (١٢١٤ - ١٢٩٤ / ٦١١ - ٦٩٣ هـ) ، ممن شاموا العرب والعربية ، وجاهدوا فى التعلُّم جهادَ المستميت بصبرٍ وذأبٍ ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائل الجهل . وهبَّ رجال من الرهبان ذوى الحمية أحسُّوا بالخلل الواقع فى الحياة المسيحية التى لم تحمِ رعاياهم من التساقط السهل فى الإسلام على طول القرون ، هبوا لإصلاح هذا الخلل . فكان من أكبرهم رجلٌ ذكى متوقِّد ، جاهد جهاداً عظيماً فى سبيل دينه ، أراد أن يزيل جهالة الرهبان والملوك ، ويمكن لهم حُجَّةً مُقْنِعَةً تحوّل بينهم وبين هذا الانبهار بالإسلام وثقافته

وحضارته . ذلك الرجل هو « توما الإكويني » الإيطالي الكاثوليكي ، (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م / ٦٢٢ - ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميته وإخلاصه ، استطاع أن يحصل قدراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَّكِنًا اتِّكَاءً كاملاً على القدر الذي استطاع أن يفهمه ويظفر به من عند كتاب الإسلام وعلماؤه وفلاسفته ومُتَكَلِّميه ، كابن رُشْدٍ وابن سينا وغيرهم ، مريداً بكل ذلك إصلاح الحَلَلِ الواقع في الحياة المسيحية ، والذي أضعف سلطان الكنيسة والرهبان على نفوس رعاياهم الذين لا سبيل لهم إلى معرفة شيء من دينهم إلا عن طريق الكنيسة والقسيسيين والرهبان . ولكن كان العائق عن أن تُؤتَى هذه النهضة ثمارها يومئذٍ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة ، وهي لغة لا تعرفها جماهير رعايا الكنيسة ، وكانت أوربة كلها تتكلم لغاتٍ كثيرةً مختلفةً ، ولَهجاتٍ شديدة التباين ولكنها لغاتٌ قَلِقَةٌ في دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأصبح الرهبان والعلماء يسرون في طريق ، ورعايا الرهبان يسرون في طريق آخر ، فهم قطع ينعق فيه ناعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وقضى الله قضاءه في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ من يونيه سنة ١٢٩١ م) ، وسقط آخر حصن كان للصليبيين في الشام ، ورجعت آخر فلول الحملات الصليبية إلى مواطنها متهاككةً يائسةً مُسْتَحْدِيَةً صُفَرَ الوجوه من الخزي والعار ، وفي قلوبها حسرةٌ قاتلةٌ على ما خرج من أيديها من متاع الدنيا وبهجتها وزُخْرُفها ، وفي سِرِّ أنفسها يأسٌ مُحِيرٌ وَيَقِينٌ مَفْرَعٌ : أن دار الإسلام ديارٌ ممتنعةٌ على الاختراق امتناعاً لا سبيل إلى تجربته مرةً ثالثةً .

وأيضاً ، قضى الله قضاءه المستور الذي لم يكشف عنه الحجاب بعد : أن لا تكون الحرب الصليبية شرّاً محضاً على المسيحية المحصورة في الشمال ، بل قدراً مقدوراً

يَحْمِلُ لَهَا فِي طَيَّاتِهِ خَيْرًا مَحْجُوبًا ، لِيَكُونَ غَدًا ، بِهَذَا الْخَيْرِ الْجَنِينِ ، عُقُوبَةً لِعِبَادِهِ فِي دَارِ
الإِسْلَامِ ، إِذْ أَعْجَبْتَهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، وَغَرَّتْهُمْ قُوَّتُهُمْ ، وَتَاهُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ زُخْرَفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،
وَرَكِبَ كَثِيرٌ مِنْ عَامَّتِهِمْ مَحَارِمَ اللَّهِ ، وَخَالَطُوا مَعَاصِيَ قَدُّهُوا عَنْهَا ، وَنَسُوا حِطًّا مِنَ الْحَقِّ
الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَتَرَكُوا مَحَجَّةَ بِيضَاءِ لَا يَضِلُّ
سَالِكُهَا ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَتْ بِهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْرَثَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ غَفْلَةً سَوْفَ
تَطُولُ بِهِمْ حَتَّى يَفْتَحُوا أَعْيُنَهُمْ فَجَاءَةً عَلَى بِلَاءٍ مَاحِقٍ . فَقَضَى رَبُّكَ أَنْ تَعِيشَ أَوْرِبَةُ كُلُّهَا
قَرْنًا وَنِصْفَ قَرْنٍ بَعْدَ إِخْفَاقِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، (١٢٩١ - ١٤٥٣ م / ٦٩٠ -
٨٥٧ هـ) فِي إِصْرَارٍ لَا يَتْرَعِزُ ، وَفِي دَابِّ لَا يَعُوقُهُ مَلَلٌ ، عَلَى أَنْ تُصْلِحَ الْحَلَلُ الْوَاقِعَ
فِي الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَعَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْ دَارِ الإِسْلَامِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ
مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، رَجَاءً أَنْ تَجِدَ مَخْرَجًا مِنْ هَذَا الْمَازِقِ الضَّنْكِ الَّذِي
حُصِرَتْ فِيهِ . وَهُوَ تَارِيخٌ طَوِيلٌ حَافِلٌ يُعْجِزُنِي أَنْ أَقْصَهُ عَلَيْكَ الْآنَ .

...

١٥ - وَبَغْتَةً ، وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢٠ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ٨٥٧ / ٢٩
مَآيُو سَنَةِ ١٤٥٣ ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ » حِصْنَ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الْمُنِيْعِ الشَّامِخِ ، مَدِينَةَ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَقَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، دَخَلَهَا قُبَيْلَ الْعَصْرِ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ
الْمَطْهَمِ ، (الضَّنْخَمُ الْبَارِعُ الْجَمَالُ) ، وَانْجَبَ إِلَى « كَنِيسَةِ أَيَا صُوفِيَا » ، وَجَمَاهِيرُ رَعَايَا
الْكَنِيسَةِ يَصُلُّونَ وَيَتَهَلَّلُونَ وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَذْفَعَ عَنْهُمْ بَلَاءَ « التُّرْكِ » ، (أَيِ الْمُسْلِمِينَ) . فَلَمَّا
عَلِمَ الرَّاهِبُ بِقُدُومِهِ أَمَرَ بِفَتْحِ بَابِ الْكَنِيسَةِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ ، وَارْتَاعَ الْمَصَلُّونَ وَمَاجُؤَا
وَاضْطَرَبُوا ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ » ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُتِمُّوا صَلَاتَهُمْ آمِنِينَ غَيْرَ مَرُوعِينَ ،
وَأَمَّنَّهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى بِيُوتِهِمْ سَالِمِينَ . وَدَنَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَقَامَ

أحد العلماء فأذن للصلاة ، وصلى المسلمون العصر في « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حُوِّلت فصارت مسجداً . وانتشر الخبر كالبرق في أرجاء أوربة ، ومادت الدنيا بالخبر ، واهتزت دنيا المسيحية الأوربية هزّة لم تعرف مثلها قط ، ولم يبق عليها راهب ولا ملك ولا أمير ولا صعلوك إلا انتفض انتفاضة الغضب لدينه . وما هو إلا قليل حتى انطلق « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام في قلب أوربة ... يا لها من فجيعه !! وكان ما كان

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها ، وعلى سرعة ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام مُنْسَاحَةً في قلب أوربة ، لم تُفَتِّ في عضد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخزي والعار حماسة وتصميماً وتحرقاً وحقدًا نحالط كل نفس من الخاصة والعامة ، وصار هم « الترك » ، (أى المسلمين) ، همًا مؤرّقًا للعالم والجاهل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبان وغير الرهبان في جنّبات أوربة غضاباً يحرّضون رعاياهم على قتال هذه « الترك » ، (أى المسلمين) ، بكل لسان قادر على الإثارة وعلى التبشيع ، تبشيع هذه « الترك » . وكلما ازداد « الترك » توغلاً في أرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوف ، وازداد التحريض على البغضاء والحقد ، ومع البغضاء المكتومة والتحريض ، زاد التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاوّل ، وأوربة بأسرها لا تنام إلا على فراش من الرّمضاء اللاذعة ، لا يدعُ لجنب ساعة من طُمأنينة ، يفرّعه شبح « الترك » ، وذكرى قرون طويلة من الإخفاق والمهانة والعار ، ولا قرار على دوى أصوات صارخة تُهيب بهم إلى رفع هذا العار ودفعه عن دينهم وعن أنفسهم وعن أوطانهم بكل سبيل . وكذلك رسخت في العظام الحيّة ، لا في النفوس وحدها ولا في العقول ، بغضاء سارية مشتعلة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تزداد على الأيام إلا توهجاً وانتشاراً ، ونزلت من النفوس منزلة « الدين » الراسخ في أعماق الفطرة .

وهذه البغضاء المشتعلة النافذة في غور العظام هي التي دفعت أوربة دفعا إلى طلب المخرج من المأزق الضنك ، وهي التي أيقظت الهمم يقظة لا تعرف الإغماض . وباليقظة المتوهجة دار الصراع في جنابات أوربة بين جميع القوى التي كانت تحكّم جماهير الهمج الهامج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة إصلاح تحلل المسيحية الشمالية مرة أخرى ، فخرج الراهب الألماني « مَرْتِن لُوْتِر » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهب الفرنسي « جون كلفن » ، (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسي الإيطالي الفاجر « نيكولو مَكْيافلي » ، (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضا صراع اللغات واللهجات المتباينة ، طلبا لاستقرار لغة موحدة لكل إقليم ، وإخراج سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكي يُمكن نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير الهمج الهامج من رعايا الكنيسة وتاريخ طويل حافل متنوع ، وجهاد مرير قاس ، في سبيل اليقظة العامة والتنبه والتجمع لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رعب « الترك » ، (أي المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذي لا يغفل عنه راهب ولا عالم ، ولا صغير ولا كبير ، ولا عامي ولا متعلم ، ولا رجل ولا امرأة . ومع اليقظة تفجر أعظم سيل يكتسح أمة الهمج الهامج ويخرجه من أغلال الجهالة ، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقرا في جوف العظام ، مع البغضاء والحقد ، ومع التصميم والإرادة ، ومع اليقظة والتنبه ، وطالت الليالي والأيام ، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان

وبغثة ، كما كان اقتحام المسلمين قلب أوربة بغثة ، تهاوت الجواجز التي كانت تمنع حركة اليقظة والتنبه في أعقاب الحروب الصليبية لأن توتى ثمارها ، (كما أشرت إليه آنفا في الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربة من أصفاد « القرون الوسطى » ، ودخلت

بعد جهادٍ طويلٍ مريرٍ في « القرون الحديثة » كما يسمونها . ومع تقوُّض هذه الحواجز ، ظهرت براعمُ الثُّمار الشهية ، وبظهورها غُضَّة ناضرةً ، زادت الحماسةُ ، وتعالَت الهِمَمُ ، ومُهَّد الطريقُ الوعرُ ، ودَبَّت النَّشوةُ في جماهيرِ المجاهدين ، وتحدَّدت الأهدافُ والوسائلُ ، وتبيَّن الطريقُ اللاجِب . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُولُ ، فارتفعتُ إحدى الكِفَّتَيْنِ شيئاً ما ، وانخفضتِ الأخرى شيئاً ما . ارتفعت كِفَّةُ أوربَّة بهذه اليقظةِ الهائلةِ الشاملةِ التي أحدثتها الهزائمُ القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلةِ الهائلةِ الشاملةِ التي أحدثتها الغرورُ بالنصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزان ، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ في جانب ، وكانت غفلةٌ لا تُحَسُّ في جانب . تاريخٌ طويلٌ مضى وغاب ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتي ، ثم لا يعلمُ إلا اللهُ متى يكون غيابه .

١٦ - والآنَ تستطيعُ أن تبيِّن أربعَ مراحلٍ واضحةً للصراع الذي دار بين

المسيحية الشمالية والإسلام :

• المرحلة الأولى : صراعُ العُضْب لهزيمة المسيحية في أرض الشام ودخول أهلها في الإسلام ، فبالغضبِ أملتِ احتراقَ دارِ الإسلامِ لتستردَّ ما ضاعَ ، تدفعُها بَعْضاءُ حَيَّةٌ متساحمةٌ ، لم تمنعَ ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمدَّ المسلمين بما يطلبونه من كتب « علوم الأوائِل » ، (الإغريق) ، التي كانت تحت يد المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراع قائماً لم يفتر ، أكثر من أربعة قرونٍ .

• المرحلة الثانية : صراعُ الغُضْب المتفجِّر المتدفِّق من قلب أوربة ، مشحوناً ببغضاءِ جاهلةٍ عاتيةٍ عنيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سفَّاحَةٍ للدماء ، سفَّحت أولَ ما سفَّحت دماءَ أهلِ دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هي الأخرى ، احتراقَ دارِ الإسلام ،

وذلك عهد الحروب الصليبية الذي بقى في الشام قرنين ، ثم ارتدّ خائباً إلى موطنه في قلب أوربة .

• المرحلة الثالثة : صراعُ العَضْبِ المكظومِ الذي أورثه اندحارُ الكتائب الصليبيّة ، من تحته بغضاء متوهّجةً عنيفةً ، ولكنها متردّدةٌ يكبُحها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرّةً ثالثةً بالسلاح وبالحرب ، فارتدّعتْ لكي تبدأ في إصلاح تحلّل الحياة المسيحية ، بالاتّكاء الشديد الكامل على علوم دار الإسلام ، ولكن تستعدّ لإخراج المسيحيّة من مآزقِ ضنكِ مؤسس ، وظلّت على ذلك قرناً ونصف قرن .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسّف في أغلالِ « القرون الوسطى » ، أغلالِ الجَهِلِ والضّياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بالٍ .

• المرحلة الرابعة : صراعُ العَضْبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينيّة ، يزيدُه اشتعالاً وتوهّجاً وقوّد من لهيب البغضاء والحقدِ الغائر في العظام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهم شبحٌ مخيفٌ مندفعٌ في قلبِ أوربة ، يُلقى ظلّه على كلّ شيءٍ ، ويفزّغُ كلّ كائنٍ حيٍّ أو غير حيٍّ بالليل وبالنهاري . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأولى لم تصنع للمسيحيّة شيئاً ذا بالٍ ، فصراعُ الغضبِ المشتعلِ بلهيبِ البغضاء والحقد هو وحدهُ الذي صنّع لأوربة كلّ شيءٍ إلى يومنا هذا .

صنّع كلّ شيءٍ ، لأنه هو الذي أدّى بهم إلى يقظةٍ شاملةٍ قامت على الإصرارِ ، وعلى المجاهدة المُتأبّرة على تحصيل العلم وعلى إصلاح تحلّل الحياة المسيحية ، ولكن لم يكن لها يومئذٍ من سبيلٍ ولا مددٍ ، إلا المددُ الكائن في دار الإسلام ، من العِلْمِ الحيّ عند علماء المسلمين ، أو العِلْمِ المسطرّ في كتب أهل الإسلام . فلم يتردّدوا ، وبالجهد الخارق ، وبالحماسة المتوقّدة ، وبالصبر الطويل ، انفكّت أغلالُ « القرون الوسطى » بغتةً عن قلبِ أوربة ، وانبعثت نهضةُ « العصور الحديثة » مستمرةً إلى هذا اليوم .

من يومئذ ، عند أول بدء اليقظة ، تحددت أهداف المسيحية الشمالية ،
وتحددت وسائلها . لم يغيب عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب
صليبية رابعة ، لأنهم كانوا يومئذ يعيشون في ظل شبح مخيف متوغل في أرض أوربة
المقدسة ببأس شديد وقوة لا تُردع ، بل هو شبح متجول يطوف أنحاء القارة كلها ،
لا يطرف فيها جفن حتى يراه ماثلاً في عينه آناء الليل وأطراف النهار ، « الترك الترك » !! .
وهذه « الترك » ، وهم المسلمون ، طلائع عالم إسلامي زاخر هائل مخيف غير معروف
لهم ما في جوفه ، مسيطر على رقعة متراحة ممتدة من الأندلس إلى أطراف تحيط بأرض
روسيا ، إلى جوف قارة آسية ، إلى جوف قارة إفريقية . وهم يعلمون الآن علماً ليس
بالظن ، أن السلاح ، في هذه المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذ قريب من قريب) ، ليس يُعنى
غناءً حاسماً ، فقد وعظمتهم المراحل الثلاث الأولى ، فنحوا أمره جانباً إلى أن يمين حينه
ويُصبح قادراً وحاسماً . لم يبق لهم ، إذن ، إلا سلاح العقل والعلم والتفوق واليقظة
والفهم وحسن التدبير ، ثم المكر والدهاء واللين والمداهنة وترك الاستشارة ، استشارة عالم
ضحيم مجهول ما في جوفه ، ولا قبل لهم بتدفق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « الترك »
الظافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحية أمام أعينهم
تساقط في الإسلام ، مرة أخرى ، طائفة مختارة ، وتدخل بحماسة ويقين ثابت في
جحافل الإسلام الطاغية ! يا لها من فجيرة !! ويرتاع مع كل فجر قلب المسيحية ،
ويعلو رهبانها ورعاياهم بغضاً للإسلام ، وحماسة وغضباً للمسيحية ، ويرسخ الإصرار في
القلوب على دفع غائلة الإسلام ، وعلى التماس قهره بكل وسيلة ومن كل سبيل ، وتتلهب
أمانتي الاستيلاء على كنوزه الباهرة التي لا تنفذ ، والتي غالى في تصويرها لهم العائدون من
الحرب الصليبية الثالثة ، (وهي الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ،
وصارت أحلاماً بهيجة يحلم بها كل صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، وراهب ورعية ، بل

صارت شهوةً عارمةً تدبُّ ديبياً في كُلِّ نفسٍ ، بل صارت غريزةً مستحكمةً من غرائز النفس الأوربية . هذا إيجازٌ شديدٌ لما كان ، وليكنْ منك على ذُكرٍ أبداً لا تنساهُ .

كان كُلُّ مَدَدِ اليَقْظَةِ ، كما قَدِّمْتُ ، مُسْتَجَلِباً كُله من علوم دار الإسلام ، من العِلْمِ الحَيِّ في علمائه ، ومن العلمِ المُسَطَّرِ في كُتبه . والسبيلُ إلى ذلك في الأمرين جميعاً كان معرفةً لسانِ العربِ . ولن أقصَّ عليكِ التاريخَ الطويلَ ، ولكن أعلمُ أن لسانَ العربِ كان له السيادةُ المطلقةُ على العالمِ ، قروناً قبل ذلك طويلاً ، وكانت المسيحيةُ الشماليةُ مجاورةً لهذا السُلطانِ المطلقِ ، ومصارعةً لأهله صراعاً طويلاً تارةً ، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارةً أخرى ، ولذلك كان هذا اللسانُ العربيُّ معروفاً معرفةً جيدةً لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية ، وفي قلبِ أوربية نفسها لمجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسي بالحديث عن هذا التاريخِ ، وقد مضت من قَبْلِ إشارةٍ إليه خاطفةً ، فالذى يعينى هنا ما كان عند بَدْءِ اليقظة في أوربية . فبالهمة والإخلاصِ والعقل أيضاً ، كان لا بُدَّ لَهُمْ من أن يزدادَ عَدَدُ الذين يعرفون اللسانَ العربيَّ ويجيدونه زيادةً وافرةً ، (١) لحاجتهم يومئذٍ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحَيِّ في علماء الإسلام ، لكي يتمكنوا من حلِّ الرُّموزِ اللُّغويةِ الكثيرةِ المسطَّرةِ في الكتبِ العربيةِ ، ولا سيما كتبِ الرياضِ والجبر والكيمياء والطبِّ والفلكِ وسائرِ علومِ الصناعة التي قلَّ من يعرفها .

فكانَ من الأهدافِ والوسائلِ ، كما ذكرتُ قَبْلُ ، بَعَثَةُ أعدادٍ كبيرةٍ ممَّنْ تعلَّموا العربيةَ وأجادوها إجادَةً مَّا ، تخرجُ لتسيحِ في أرضِ الإسلامِ ، وتجمعِ الكُتُبَ شراءً أو سرقةً ،

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسانِ العربيِّ ، بل انطلقوا يتعلمون كُلَّ لسانِ كان في دار الإسلام ، كالتركي والفارسي وغيرهما من لغاتِ كانت للمسلمين منطوقةً ، أو في القرايطيس مكتوبة .

وتُتَلَقَّى الخاصَّة من العلماء ، وتُخَالَطُ العامة من المثقِّفين والدَّهْمَاءِ ، وتُدَوِّنُ في العقول وفي القراطيس ما عَسَى أن ينفَعهم في فهم هذا العالم الذي استعصى على المسيحية واستعلَى قرونًا طويلاً . يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيَّام ، ويجوبون أرجاء هذا العالم ، ويعودون لإثمام عمليين عظيمين : إمدادِ علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطَّوْا عليها ، وإطْلَاعِهِمْ على ما وقفوا عليه فيها ، باذلين كلَّ جُهدٍ ومَعُونَةٍ في ترجمتها لهم ، وفي تفسير رُموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها = وأيضاً إطلاع رُهبان الكنيسة وملوكها على كلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما لاحظوه استبصاراً . وكانَ أهمُّ ما لاحظوه أو خَبَرُوهُ ، هذه الغفلة المُطبَّقة على أرض الإسلام ، والتي أورثهم إياها الاستنامةُ إلى النَّصْرِ القديم على المسيحية ، والاعتِرار بالنصرِ الحادِثِ بفتح القسطنطينية ، ثمَّ سماحةُ أهلِ الإسلامِ عامَّتِهِمْ وخاصَّتِهِمْ مع مَنْ دِينُهُ يخالِفُ دِينَهُمْ ، ولا سِيَّما اليهود والنَّصارى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمَّةٍ ، ولأنهم أتباعُ الرسولينِ الكرَمينِ مُوسَى وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليهما السلام ، ولأنَّ دينَ أحَدِهِمْ لا يَسْلَمُ لَهُ حتَّى يؤمِنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورُسُلِهِ لا يُفَرِّقُ بينَ أحَدٍ من رُسُلِهِ سبحانه = وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذي يَسَّرَ لهم أن يجوبوا في الأرض غير مرَّوعين ، ويسَّرَ لهم خاصةً أن يُدَاهِنُوا العلماء والعامةَ وينافقوهُم ويوهموهُم بالمكر والمِحَالِ أنَّهم طُلَّابُ علمٍ لا غيرٍ ، خالصةٌ قُلُوبُهُمْ لِحَبِّ العلمِ والمعرفة ، واللهِ عليهم بالسَّرائِرِ .

ومن يومئذٍ نشأت هذه الطبقةُ من الأوربيِّين الذين عُرفوا فيما بعدُ باسم « المستشرقين » ، وهُمُ أهمُّ وأعظَمُ طبقةٍ تمخَّضت عنها اليقظةُ الأوربيَّةُ ، لأنَّهم جُنُدُ المسيحية الشمالية ، الذين وهَّبوا أنفسهم للجهادِ الأكبر ، ورضوا لأنفسهم أن يظلُّوا مَعْمُورين في حياةٍ بدأت تموجُ بالحركة والغنى والصيتِ الذائع ، وحبسوا أنفسهم بين الجُدُرانِ المختفية وراء أكُداسٍ من الكُتُبِ ، مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسانِ أممهم التي ينتمون

إليها ، وفي قلوبهم كُلُّ اللّهب المُمِض الذي في قلب أوربّة ، والذي أحدثته فجيعَةُ سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهمَّ ليلاً ولا نهاراً إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكلِّ سبيل ، تنوّهجُ أفئدتهم ناراً أعتى من كُلِّ ما في قلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنهم كانوا يملكون من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام في ديارهم ، وعلى وجوههم سيمياء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطويّة والبشر . وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زُخرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهم ، وبفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب ، وبذلوها للملوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقة السّاسة الذين يُعدّون ما استطاعوا من عُدةٍ لردّ غائلة الإسلام ثمَّ قَهَره في عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تُخامرُ قلب كُلِّ أوربي ، أن يظفر بكنوز الدُّنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرفوا فيما بعدُ باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضل ملاحظاتهم التي زوّدوا بها رُهبان الكنيسة ، ثارت حمية الرهبان ، ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية ، وللدُّخول في قلب العالم الإسلامي لكي تُحوّل مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية ، وأن ينتهي الأمر إلى قَهْر الإسلام في عُقر داره ، = هكذا ظنّوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هي التي عُرفت فيما بعدُ باسم رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة ، وجميعهم يدٌ واحدة ، لأنهم إخوة أعيان ، أبوهم واحد ، وأمهم واحدة ، ودينهم واحد ، وأهدافهم واحدة ، ووسائلهم واحدة . ليس من همّي هنا « التبشير » ، فقد فرغت من بعض شأنه في كتابي « أباطيل وأسماؤ » ، وليس من همّي هنا « الاستعمار » ، لأننا ذُقنا طرفاً من أفاعيله تجربةً ومعاشرةً ، وإن كان من خذلان الله لنا أننا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن همّي هنا مصروفٌ إلى « الاستشراق » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأن

حاجة « التبشير » و « الاستعمار » إليه ، حاجة كانت ملحّة ، وهى إلى اليوم حاجة دائمة ، لا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طرفة عين . ومرة أخرى ، لا تنس ما حييت أنّ هذه الثلاثة إخوة أعيان لأبٍ واحدٍ وأمّ واحدة ، لا تُفَرَّق قطُّ بين أحدٍ منهم .

١٧ - من العسير ، إن لم يكن من المُحالِ الممتنع ، أن أقصّ عليك في كتابٍ كبيرٍ ، قصّة شعوبٍ مختلفة كثيرة العدد ، تناولت عليها أيّامٌ وتتابعت سنون ، منذ ذرّت عليهم شمسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعتها ، حتّى تحرّكت أوصالُ كُلِّ حيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا محالٌ . أفتظنّ ، إذن ، أنى قادرٌ على مثل ذلك في ورقاتٍ قلائلٍ ؟ كلاً ، فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوت في أوربة سُدود الجَهْل ، وانبثقت اليقظة ، وفتحت بعض مغاليق خزائن العلم ، وانقشعت ظلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهمجُ الهامجُ كتائبَ تزحفُ في أيديها مصاييح ينبعث منها بصيصٌ يُضيءُ ليكشف غيَابَ الظُّلمات ، واستنارت الطُّرق ، وازدحَمَ على سلوكها كلُّ مُطِيقٍ للزَّحف . وبالصبرِ وبالجهْدِ وبالجرأةِ وبالعزيمةِ وبنبذِ التواني ، صارت أوربة قوةً تُمدُّها فتوح العلم الجديد بما يزيدُها بأساً وصرامةً ولا أقولُ شال الميزانُ ، بل أقولُ بطلَ عملِ الميزانِ ، وصارَ في الأرضِ عالَمانِ عالَمٌ في دارِ الإسلامِ مُفتَّحةٌ عيونُهُم نيامٌ ، يُتناخم من أوربة عالماً أيقاظاً عيونُهُم لا تنامُ ، وقضى الأمرُ الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » في الصراعِ بين المسيحية المحصورة في الشمالِ ، وبين دارِ الإسلامِ التى تحجُبُ عنهم من ورائها عالماً مُبهماً مترامياً الأطرافِ ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كان ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » وضوحاً وجلاءً ، وازدادت « الوسائل » دقةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وَعَظَت أوريّة المراحل الثلاث الأولى التي لم تصنع للمسيحية المحصورة في الشمال شيئاً ذا بالٍ . « الأهداف » معروفة لك الآن ، أكبرها شأنًا هو اختراق دار الإسلام ، ثم تمزيقها من قلبها ، ثم الظفر بالكنوز الغالية التي كانت ، ولم تزل ، تراوِد كُلَّ قلبٍ ينبضُ في أوريّة بأحلامٍ شرّيةٍ مسعورةٍ إلى الغنى والثروة والمتاع ، غَرَسَتْ بذورها في أعماق النفوس أحاديثُ العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أما « الوسائل » ، فقد وُضِعَتْ لها قواعدُ راسخةٌ تُجَنِّبُهُم أخطاءَ المراحل الثلاث السابقة التي مُنِيَتْ بالإخفاق . كان على رأس هذه القواعد : تنحية السلاح جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقه في اختراق دار الإسلام ، لأنه يستثير ما لا يعلمون مَعْبَتَهُ من سوءِ العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاث الغابرةِ وأعظاً . فمن يومئذٍ صارت القاعدةُ الراسخةُ في سياسة أوريّة هي اجتنابُ استئثارِ هذا العالم الضخم المُبْهَم الذي كان « الترك » هم طلائعُهُ المظفّرةِ الناشئةِ أظاثيرُها في صميم المسيحية الشمالية في قلب أوريّة = ثمَّ العملُ الدائبُ البصيرُ الصامتُ الذي يُتِيحُ لهم يوماً مَّا تَقْلِيمَ هذه الأظايرِ وَخَلْعَهَا من جُذُورها = ثمَّ استنفادُ قُوَّتِهِ بالمناوشةِ والمُطَاوَلَةِ والمثابرةِ ، بالدهاءِ والمكرِ والسياسةِ والصبرِ المتمادي ، حتّى يأتى عليه يومٌ لا يَمْلِكُ فيه إلا أن يستكينَ ويستسلمَ ، وليكنْ كُلُّ ذلك من وراءِ الغُفلةِ ، وبالدهاءِ والرِّفْقِ تارةً ، وبالتنمُّرِ والتكشيرِ عن الأنيابِ تارةً أخرى ... وكذلك كان ما كان ، وما هو كائنٌ إلى هذه الساعة ، والله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ .

● وَفَضَّت المسيحية الشمالية قيودَ الحصارِ عن نفسها ، وخرجتُ جحافلُها مكتسحةً تجوبُ البحرَ والبرَّ . انطلقت الأساطيل من شواطئ أوريّة مُزَوَّدَةً بالعدّةِ والعتادِ والرجالِ الأشداءِ والمغامرين ، والعلماءِ والرهبانِ ، وهدفها أن تطوّقَ دار الإسلام

محيطاً بها من شواطئ المغرب إلى شواطئ الهند ، تتحسّس مواطن الضعف في أقاليمها المتطرفة ، فانقضوا على الضعيف والعاجز والغافل ، وخادعوا وناقضوا ، وأستغفلوا وأرهبوا ، وأستنزفوا ونهبوا ، وازدادوا شهوةً وشرههً وجوعاً إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام ، وأستضعفوا وسيطروا ، ولهبّ في القلوب لا تطفأ ناره . وفجأة ، وبمعمونة البحارين المسلمين العرب ، عثر كولبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م / ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحمر (أمريكا) . وما هو إلا قليل حتى تدفق السيل الجارف من أوربة ، يجذبه بريق الذهب والغنى ، وملا المغامرون القساة الغلاظ الأرض البكر ، وزحفوا فيها وأستباحوها ، وسفحوا دماء الملايين سفحاً مبيراً ، غدراً وخسنةً ، لا يردعهم رادع عن استئصال شأفتهم بقسوةٍ وعنفٍ ، وشقى كل أوربي غليلاً كان في قلبه معدداً لدار الإسلام ، وأتجهت أساطيلهم إلى إفريقية تحتطف آفاً مؤلفةً من الآمنين السود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم في السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة ، أرض الهنود الحمر ، وتهلك في هذه الرحلات آلاف كثيرة منهم تحت السياط ، وتبقى آلاف قليلة تلقى على البر لتكون تحت أيديهم بهائم مسخرةً بالذل لعماره الأرض . وظهر الفساد في البر والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيد بها فجوراً وشرههً وسفكاً للدماء ، وغطرسةً فوق ذلك تزداد على الأيام تعالياً في نشوة عارمة ، نشوة السكران الثميل إلى جانبها إفاقة من سكر ! وصارت أوربة عالماً مخيفاً مرهوب الجانب ، وتزداد كل يوم ثقافةً وعلماً ، وفهماً ويقظةً ، وتجربةً وخبرةً في كل خيرٍ وشرٍ ، وتزداد أيضاً نفاقاً وحبثاً ومكراً وغدراً بالآمنين حيث كانوا في أرجاء عالم كانت تحجبه عنهم دار الإسلام قروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعلى الأيام وهنت قوة طليعته المسلمة الناشبة في قلب أوربة ، وصارت داراً محصورةً في الجنوب ، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية في الشمال . وكذلك بدأت حضارة عتيقة تتضعع قواها وتربث حبالها ، وقامت في الأرض

حضارة جديدة غُذيت بالدم المسفوح ، ومزجت ثقافتها بالمكر والغدر والدهاء والخبث ، تؤزها نار أحقادٍ مُكْتَمَةٍ ، ثم صارت لهيباً يُؤجُّ أجاً = حضارة سوف تطبق وجه الأرض ، وهي بذلك كُله حضارة إنسانية عالمية ، أليس كذلك ؟ ويريدُها إنسانيةً وعالميةً أنها جاءت مبشرةً بدين جديد ، عقيدته مبنيةً على البغضاء والحقد والجشع والغدر وسفك الدماء .

• ومع هذه الأساطيل الفاجرة ، خرجت من مكائنها أعدادٌ وافرة من رجالٍ يجيدون اللسان العربيّ وألسنة دار الإسلام الأخر ، ومنهم رهبان وغير رهبان ، وركبوا البر والبحر ، وزحفوا زرافاتٍ ووحداناً في قلب دار الإسلام : على ديار الخلافة في تركيا ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقيا وممالكها المسلمة = خرجوا وفي القلوب حمية الحقد المكتم ، وفي النفوس العزيمة المصممة ، وفي العيون اليقظة ، وفي العقول التنبيه والدكاء ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفي الألسنة الحلاوة والخلاصة والمماذقة ، ولبسوا لجمهرة المسلمين كلّ زيّ : زيّ التاجر ، وزيّ السائح ، وزيّ الصديق الناصح ، وزيّ العابد المسلم المتبتل = وتوغّلوا يستخرجون كلّ محبوبٍ كان عنهم من أحوال دار الإسلام ، أحوال عامته وخاصته ، وعلماؤه وجُهاله . وحُلمائه وسُفهاؤه ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشه ورعيته ، وعبادته وهوه ، وقوته وضعفه ، وذكائه وغفلته ، حتى تدسّسوا إلى أخبار النساء في خدورهنّ ، فلم يتركوا شيئاً إلاّ خبروه وعجموه ، وفتشوه وسبروه ، وذاقوه واستشفوه . ومن هؤلاء ، ومن خبرتهم وتجربتهم ، خرجت أهمُّ طبقة تمخّضت عنها اليقظة الأوربية « طبقة المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجارهم ، رسّت دعائم « الاستعمار » ، ورسخت قواعد « التبشير » كما وصفت لك أمرهم في آخر الفقرة السادسة عشرة = والتقت حلقتا البطان ، هذه المرة ، على دار الإسلام ، واسترخت حلقتاه عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٤ ، ص : ٣٨) .

• وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلاف مؤلفة من مخطوطاتٍ من كُتُبِ دار الإسلام نفيسةٍ منتقاةٍ ، مُشتراةٍ أو مسروقةٍ ، موزعة مفرقة في جميع أرجاء أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها ، وأكب عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجرُوا دُنْيَا النَّاسِ المائجة بكلِّ زُخْرِفٍ ومَتَاعٍ ، وعكفُوا بين جُدرانِ صامتةٍ مُعلّقةٍ ، وأكداسٍ من الأوراقِ المكتوبة بلسان غير لسانِ أقوامِهِم ، يَقْضُونَ سَحَابَةَ النَّهَارِ وزُلْفَاً من الليل يَفْرِزُونَهَا ورقة ورقةً ، وسَطراً سَطراً ، وكلمةً كلمةً ، بصيرٍ لا ينفدُ وعزيمةٍ لا تكِلُّ ، ويكابدون كُلَّ مشقةٍ في الفَهِمِ والوقوفِ على أسرارِ المعاني المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربية أو غير العربية في كلِّ عِلْمٍ ومَعْرِفَةٍ وفنٍّ ، ديناً كان أو أدباً أو لغةً أو شعراً أو تاريخاً أو علمَ بُلْدَانٍ ، (جغرافية) ، أو طبياً أو رياضةً أو فلكاءً أو صناعاتٍ وآلاتٍ ، كُلُّ ذلك يدرسونه بدقّةٍ ونظامٍ وترتيبٍ ، ويتعاونون كاملين بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطع لهم رحلةٌ في قلب دار الإسلام وفي أطرافها ، يَجُسُّونَ وَيُجَرِّبُونَ ويختبرون ، ويتعلّمون ويسألون ، ويجمعون كُلَّ خَبْرَةٍ وكُلَّ تجربةٍ وكُلَّ معرفةٍ ، وكُلَّ صغيرٍ وكبيرٍ يُعِينُهُم على الدرسِ والاستفادةِ ، وعلى فَهْمِ أسرارِ هذا العالمِ الغريبِ الذي كان بالأمس ممتنعاً على الاختراقِ قروناً طويلاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التي يعكفُ نَفَرٌ منهم على دراستها متفرقةً في البلاد ، وحييسةً تحت يدِ عَدَدٍ قليلٍ جداً ، قد يكون رجلاً واحداً في قرية أو دبيرٍ ، عَمَلُوا إلى نشرِ بَعْضِهَا مطبوعةً ، لتكون تحت يدِ كُلِّ دارسٍ مستشرقٍ في أيِّ بِلَدٍ كان من بلاد أوربة ، ^(١) ولكي تكون الفائدةُ أكثرَ تماماً ، والجُهدُ أكثرَ جَدْوَى ، أنشأوا أيضاً مجلّات

(١) لا تصدّق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نَشَرَ هذه الكتب التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهمٌ باطلٌ . كانوا لا يطبعون قطُّ من أيِّ كتابٍ نشره أكثر من خمسة =

بكلّ لسان من ألسنتهم ، ينشر فيها كلّ مستشرقٍ نتائج بحثه ودراسته ، ويعرض كلّ تجاربه وخبرته وملاحظاته ، لتكون عوناً لكلّ دارسٍ مستشرقٍ وغير مستشرق ، وهي مجالات الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سمّت همّتهم فبدأوا صنّع « جماهر الإسلام » التي يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ،^(١) وكذلك صار « الاستشراق » في أوربة كلّها هيئةً واحدةً ، لها هدفٌ واحدٌ ، ونظامٌ واحدٌ ، وهمّةٌ واحدةٌ ، وفهمٌ واحدٌ ، وأسلوبٌ واحدٌ ، ونظرٌ مُشتركٌ واحدٌ ، إلى حضارة دار الإسلام قديمها وحديثها .

• كان هذا « الاستشراق » في نأياته الأولى ، بعد سبعة قرون من الصّدام الذي انتهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفرادٍ قلائل : إمّا طالبٍ معرفةٍ وعلمٍ يتعلّم من العرب المسلمين ليقتشع الجهل عن نفسه وقومه ، كما فعل « بيكن » وطبقته = وإمّا راهبٍ ذي حميةٍ ودفاعٍ عن دينه ، حين أحسّ بالخلل الواقع في الحياة المسيحية ، فكلّ همّه أن يصلح خلل المسيحية ويمكّنها من حُجّةٍ مُقنعةٍ تحوّل بين الناس وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقط فيه ، مُتكيّاً على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « ثوما الإكويني » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٣٩ ، ٤٠)

أمّا في أوّل نأياته الثانية ، عند فجر اليقظة الأوربية ، فكانت بعثاته في دار الإسلام تعود من جَولتها إلى أوربة لأداءِ عمليتين عظيمين هما : إمداد علماء اليقظة بمزيد

= نسخة ، ولم تزل هذه سنتهم إلى يومنا هذا = توزّع على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكا ، وما فضّل بعد ذلك وهو قليلٌ جدّاً ، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعوا قطّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوّقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون ، بين هذه الملايين طلباً لربح المال . هدفهم كان ما قلت لك لا غير .

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترت أن أسميها « جَمْهَرَة » ، كما سمى أسلافنا كتبهم « جمهرة اللغة » و « جمهرة الأنساب » و « جمهرة الأمثال » ، وبينت ذلك في كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرَة » « جماهر » .

مما وقفوا عليه من كنوز العلم في دار الإسلام ، يفسرون لهم رموزها ، ويترجمون لهم ما استطاعوا فهمه منها ، ثم إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٤٨) .

= أما عند انبثاق اليقظة واستحكام أمرها ، حين صارت ضوءاً شاملاً يسرى في جماهير غفيرة متنوعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبت أفواج منها زاحفة زحفاً متتابعاً على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصعدةً في طريقها إلى التفوق والغلبة والانتشار ، بلا قرين ، (أى نظير) ، يكافئها في اليقظة والتنبه والتصميم ، يصدها ويكفكف من غلوائها ، ويعوق من زحفها = وعندئذ أيضاً كان « الاستشراق » قد كسب هو أيضاً يقظة فائقة ، وبصيرة نافذة ، وتنبهاً لامعاً ، وتكونت الطبقة الأولى من « المستشرقين » الجادّين النابيين ، التي سوف ترثها طبقة أساطين « الاستشراق » ودهاقين الكبار ، (« الدهقان » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضى القوى على التصرف) ، فهؤلاء جميعاً الذين وقع عليهم العبء الأكبر في تيسير الأمر للزحف الأوربية المتتابعة المستمرة التي اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيّرت وجه الحياة فيها تغييراً بعيد الغور ، لم يزل سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

١٨ - ينبغي أن يكون بيننا لك أن أوربة عند استواء يقظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذى بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم ، وأنها مقبلة على زحف شامل يخرق قلب دار الإسلام ، لا بقعقة السلاح ، بل بوسائل أحر أمضى من وقع السلاح ، أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلمائها وعمامة جماهيرها المثقفة . وهذا الزحف الصامت المصمم الخفي الوطء ، سوف يضم ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانع

ومغامرٍ ومدرّسٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وجندىٍ وسياسىٍ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأفاقٍ وصفاقٍ ومتكسّبٍ . والنّية أن تتكوّن من هؤلاء الأشتاتِ جالياتٍ كبيرةٍ تُقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطولُ عشرتهم أو تقصُر ، ولكل امرئٍ منهم اتجاؤٌ أو هوىٌ أو أسلوبٌ أو فهمٌ . فأمرٌ مخوفٌ أن يخالطوا عالماً له دينٌ وحضارةٌ باقيةٌ الآثار ، كان له الغلبةُ والتفوقُ والسيادةُ من قبلُ قروناً طويلاً ، كما جرّبوا وعلموا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقرّةٌ في أنفسهم ، تحميهم من التفريق والضياع فيه ، وتُحصنهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهر أسلافُهم غُبروا ، فصارَ حتماً أن يكونَ في مُتناوَلِ هؤلاءِ صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّةٍ ومهارةٍ ، ومُقنعةٌ أيضاً لكلِّ عقلٍ مُتطلّعٍ ، يُصوّرُها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبتّلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرةِ بكلِّ ما في دار الإسلام قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقِيقِ العلوم عند خاصّة المسلمين ، إلى خفيِّ أحوال المسلمين من عاداتهم ومعايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُوَلهم وأقاليمهم وبلدانهم التي تُعطي أكبر رُقعةٍ من الأرض . وهم قد جمعوا كلَّ ذلك وعكفوا عليه وتأمّلوه ودرسوه ونظّموه وربّوه بعنايةٍ فائقةٍ ، وبهمّةٍ وجَلَدٍ وتنبّهٍ ونفّاذٍ بصيرٍ . فكلُّ دارسٍ منهم مأمونٌ عند كلِّ أوربيٍّ ، من أوّل طبقة الرهبان والسّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقوله ، مصدّقٌ فيما يقوله ، في أمورٍ لا سبيلَ لأحدٍ منهم إلى معرفتها ، لأنها تتعلّقُ بأقوامٍ لسانهم غير لسانهم ، ولا يقومُ بها إلاّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللسان الغريب ، مُتّصفٌ بصفتين لا بُدَّ منهما حتى يكون مأموناً مُصدّقاً :

الصفة الأولى : أن في قلبه كلَّ الحميّة التي أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة

في الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقل =

وأن في صميم قلبه كُلُّ ما تُكِنُّه المسيحيّة الشماليّة من البغضاء النافذة في غُورِ العِظام ،
والتي أورثتها الحروب المتطاولة ، كما وصفتها لك آنفاً في الفقرة الخامسة عشرة والسادسة
عشرة ، (ص : ٤٢ - ٤٦) .

الصّفة الثانية : أن في صميم قلبه كُلُّ ما تحمله قلوبُ خاصّة الأوربيين وعامّتهم ،
وملوكتهم وسوقّتهم ، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حيازة كُلِّ ما في دار
الإسلام من كنوز العلم والثروة والرّفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواقٌ أورثهم إياها
الاحتكاكُ المستمرُّ قرونًا بهذه الحضارة الزاهية الغنيّة التي كانت يومئذٍ في دار الإسلام .

وبهاتين الصّفتين يكون مؤهلاً لحمل هُموم المسيحية الشماليّة التي ظلّت قرونًا
محصورة في الشمال ، ودليلٌ إخلاصه المُطلق لهذه الهُموم ، هو تبثُّله الذي يقطع ما بينه
وبين زهرة الحياة الدُّنيا وزينتها من حوله ، حبساً بين جُدرانٍ تضمُّ ركّاماً من أوراقٍ قديمةٍ
مكتوبةٍ بلسانٍ غير لسانِ قومه ، قد رضى لنفسه أن يبقى اسمه في دنيا الناس مغموراً
غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٤٨) .

وبديهى أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفت صفتهم ، هم أسبق الناس إلى معرفة
هذه الحاجة الملحة التي تضمن للزحف الأكبر على دار الإسلام أن يسير على هُدًى
لا يختل ولا يضل ، ويعصم أكبر قدرٍ ممكنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخل دار
الإسلام ليطول مقامهم بها ، ويجرى بينهم وبين من يخالطونهم ما يجرى بين الناس من
التفاوض وتجادب الأحاديث = يعصمه أن ينهر بما يرى أو يسمع ، أو أن تضعف حميته ،
أو تلين قنائه ، أو يتردد ويتلجلج . لا بُدَّ إذن من أساس يرتكز عليه تفكيره ، ومن صورةٍ
سابقة شاملة ثابتة يثقُ بها ويطمئنُ إليها ، ويثقُ أيضاً بصدقها وأمانتها ، حتى يتمكن من
أن يرفض أكثر ما يرى وما يسمع ، إذا هو خالف ما يعتقد أنه الصورة الوثيقة

المأمونة التي سوَّغَهُ إِيَّاهَا دَارِسٌ عَارِفٌ بِأَحْوَالِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ . وَاسْتَقْلَلُ « الْمُسْتَشْرِقُونَ » بِحَمْلِ هَذَا الْعِبَاءِ الْجَدِيدِ الثَّلَاثِ ، (انظر ما سلف ص : ٥٤) ، فَكَتَبُوا لِحَمَاهِيرِهِمْ آفَاقاً مِنَ الْمَقَالَاتِ ، وَمَعَاتٍ مِنَ الْكُتُبِ ، تَتَنَاوَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَخُصُّ أُمَّمَ دَارِ الْإِسْلَامِ فِي مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا . كَتَبُوا فِي الْقُرْآنِ ، وَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ ، وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، وَفِي الْفِقْهِ ، وَفِي تَفَاصِيلِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَفِي الْأَدَبِ ، وَاللُّغَةِ ، وَالشُّعْرِ ، وَفِي الْفُنُونِ وَالْآثَارِ ، وَفِي عِلْمِ الْبُلْدَانِ ، (الجغرافية) ، وَفِي تَرَاجِمِ رِجَالِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي الْفِرْقِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَفِي الْفَلَسَفَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِي عِلْمِ الْكَلَامِ = فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُ وَمَا لَمْ أَذْكَرْ ، كَتَبُوا وَأَلْفَوْا وَصَنَّفُوا ، لَكِنْ لِهَدَفٍ وَاحِدٍ لَا غَيْرُ : هُوَ تَصْوِيرُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَضَارَةِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ ، بِصُورَةٍ مُقْنَعَةٍ لِلْقَارِئِ الْأُورُبِيِّ ، وَبِأَسْلُوبٍ يَدُلُّهُ عَلَى أَنَّ كَاتِبَهَا قَدْ خَبَرَ وَدَرَسَ وَعَرَفَ وَبَذَلَ كُلَّ جُهْدٍ فِي الْاِسْتِقْصَاءِ ، وَعَلَى مَنَهِجٍ عِلْمِيٍّ مَأْلُوفٍ لِكُلِّ مَثَقِّفٍ أُورُبِيِّ ، وَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ الَّتِي وَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، بَعْدَ خَبْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَعَرَقٍ وَجُهْدٍ وَإِخْلَاصٍ ، حَتَّى لَا يَشُكُّ قَارِئٌ فِي صِدْقِ مَا يَقْرَؤُهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ اللَّبَابُ الْمُصَنَّفِيُّ مِنْ كُلِّ كَتَرٍ ، وَالْمَبْرَأُ مِنْ كُلِّ زَيْفٍ ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ .

• كَانَ جَوْهَرُ هَذِهِ الصُّورَةِ ، الْمَبْتُوثُ تَحْتَ الْمَبَاحِثِ كُلِّهَا ، هُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ هُمْ فِي الْأَصْلِ قَوْمٌ بُدَاةٌ جُهَّالٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ كَانَ ، جِيَاعٌ فِي صَحْرَاءَ مَجْدِيَّةٍ ، جَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَادَّعَى أَنَّهُ نَبِيُّ مَرْسَلٌ ، وَلَفَّقَ لَهُمْ دِيناً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَصَدَّقُوهُ بِجَهْلِهِمْ وَاتَّبَعُوهُ ، وَلَمْ يَلْبَثْ هَؤُلَاءِ الْجِيَاعُ أَنْ عَاثُوا بِدِينِهِمْ هَذَا فِي الْأَرْضِ يَفْتَحُونَهَا بِسُيُوفِهِمْ ، حَتَّى كَانَ مَا كَانَ ، وَدَانَ لَهُمْ مِنْ غَوْغَاءِ الْأُمَمِ مَنْ دَانَ ، وَقَامَتْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ قَلِيلٍ ثِقَافَةٌ وَحَضَارَةٌ جُلُّهَا مَسْلُوبٌ مِنْ ثِقَافَاتِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَالْفُرْسِ وَالْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ ، حَتَّى لَعَنَهُمْ كُلُّهَا مَسْلُوبَةٌ وَعَالَّةٌ عَلَى الْعِبْرِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ وَالْآرَامِيَّةِ وَالْفَارَسِيَّةِ

والحَبَشِيَّة . ثم كَانَ من تصارييف الأقدار أن يكون علماء هذه الأُمَّة العربية من غير أبناء العرب ، (المَوَالِي) ، وأن هُوَلاءِ هم الذين جعلُوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلَّها معنى . هذا هو جوهرُ الصورة التي بَثَّها المستشرقون في كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلام ، وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم ، وأن هذه الحضارة إنما هي إحدى حضارات « القرون الوسطى » المظلمة التي كان العالم يومئذٍ غارقاً فيها = يعنون عالمهم هم = يَجْرِي عليها حُكْمُ قرونهم الوسطى ! بَثُّوا تلك الصورة في كُلِّ كُتُبهم بمهارة وحِدْقٍ وَخُبْثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقْنِعُ القارئ الأوربي المثقف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ في نَظَره حضارة الإسلام وثقافته انحطاط « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهُواً بأنَّ أسلافه من اليونان والآريين كانوا هم رُكائز هذه الحضارة المزيّفة المفلّقة ديناً ولُغَةً وعِلماً وثقافةً وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربيُّ ، أيّاً كان ، غَطْرَسَةً وتعالياً وجَبْرِيَّةً ، ولا يرى في الدُّنيا شيئاً له قيمةٌ ، إلا وهو مستمدُّ من أسلافه اليونان والآريين والهَمَجِ الهاج !

ومن خلال الصراحة العارية التي طرحت كُلَّ حجابٍ ، أو الصراحة المتحجّبة بالبراءة وخلوص النية وحبِّ العلم ، أو بالصراحة الحيّية التي أمالها الخَفَرُ ، (شدة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصافِ ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيّة متحركة في جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التي تستعصي على قبول هذه الصورة واضحة لم تخلُ من غَمَزٍ خبيءٍ ولَمَزٍ خفيٍّ يستدعى حُضور هذه الصورة بطريقةٍ ما . وكذلك نجح « الاستشراق » في تحقيق هدفه كُلِّ النجاح ، واستطاع أن يُدرج الإسلام وشرائعه وثقافته وحضارته في مُستنقع « القرون الوسطى » الذي طَمَرته « النهضة الحديثة » ووَطئَهُ « عصرُ الإحياء والتنوير » بأقدامه وَطْأةً المُتثاقِل . وبذلك عَصَمَ العقل الأوربي المثقف من أن يزلَّ زَلَّةً ، فيرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهاره كما انبهر أسلاف له من قَبْلُ تساقطوا في

الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُناة مجده على مدى اثني عشر قرناً على الأقل . واعلم أنى على عميد هُنا أتناسى عمل « الاستشراق » في السطو على الكنوز المخبوءة كانت في علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه في نقله سراً إلى علمائهم في زمن الثأنة وما بعدها ، ليبنوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقوا الأبواب على ذكر ما سطوا عليه بالضبة والمفتاح ، حتى لا يعلم حبيته أحد ، حتى ولو كان أوربياً قحاً = وأتناسى على عميد منى أيضاً حديث السفاهة والبذاءة التي جرت على السنة ذهاقينهم من المطاعن في القرآن العظيم ، وفي رسول الله ﷺ وصحابته ، إمداداً لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها النبيل في دار الإسلام وفي توابعه التي كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

• وبين لك الآن بلا خفاء أن كتب « الاستشراق » ومقالاته ودراساته كلها ، مكتوبة أصلاً للمثقف الأوربي وحده لا لغيره = وأنها كتبت له لهدف معين ، في زمان معين ، وبأسلوب معين ، لا يراد به الوصول إلى الحقيقة المجردة ، بل الوصول الموفق إلى حماية عقل هذا الأوربي المثقف من أن يتحرك في جهة مخالفة للجهة التي يستقبلها زحف المسيحية الشمالية على دار الإسلام في الجنوب = وأن تكون له نظرة ثابتة هو مقتنع كل الاقتناع بصحتها ، ينظر بها إلى صورة واضحة المعالم لهذا العالم العربي الإسلامي وثقافته وحضارته وأهله = وأن يكون قادراً أيضاً على خوض ما يخوض فيه من الحديث مع من سوف يلاقيهم أو يعاشرهم من المسلمين ، وفي عقله وفي قلبه وفي لسانه وفي يقينه وعلى مدّ يده ، معلومات وافرة يثق بها ويطمئن إليها ويُجادل عليها ، دون أن تضعف له حمية ، أو تلين له قناة ، أو يتردد في المناقحة عنها أو يتلجلج ، أيًا كان الموضوع الذي تدفعه المفاوضة إلى الخوض فيه .

و « الاستشراق » لا يُذمُّ لأنه فعلٌ كُلُّ ذلك ، لأنه بلا شكٍ قد أدَّى ما عليه لبنى جلدته أحسن أداءٍ وأتممه ، ونصر أهل دينه وأخلص لهم كُلَّ الإخلاص ، وكافح في سبيل هدفه بكلِّ سلاحٍ أجادَ صقله وتقويمه = أمّا الذى هو حقيقٌ بالذمِّ والمعَاية ، فالعاقل الذى يظنُّ نفسه عاقلاً ، والبصيرُ الذى يظنُّ نفسه بصيراً ، ثم لا يكاد عقله يدرك شيئاً هو أئين بياناً من البدائه المسلمة ، ولا يكادُ بصره يرى ما هو أظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعة .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هي كُتُبٌ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمثقف الأوربى خاصةً ، ولهدفٍ بعينه ، حقيقةً باحترام كُلِّ أوربى مثقفٍ = أو من كان بمنزلة الأوربى المثقف فى العُربة عن العريّة والإسلام = لأنها يسرت له ما لم يكن ليتيسر البتّة : أن يعرف أشياء كثيرةً متنوّعةً هو عن عالمها غريبٌ كُلُّ العُربة ، وأن يرى عالمها فى صورة واضحةٍ مصوّرةٍ بمهارةٍ ، ومصنوعةٍ بأسلوبٍ مقنعٍ مقبولٍ لا يرفضه عقله ، بل لعله يرتضيه كُلُّ الرضى . ولأنّ هذا العالم الذى يراه مصوراً عالمٌ غريبٌ عنه ، ولا سبيلٌ له إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهد العظيم الذى بذله دهاقينُ المستشرقين الكبارُ فى تصويره ، فهو غيرُ حريصٍ بعد ذلك على التحقُّق من صحّة التفاصيل التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادرٌ على التشكُّك فى سلامتها من الآفات ، ولا يخطرُ بباله أن يسأل نفسه : أهى صادقةٌ أم كاذبةٌ ؟ أهى مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

أمّا من حيثُ هي كُتُبٌ أو دراساتٌ علميةٌ جديدةٌ باحترامٍ مثقفٍ غير أوربى ، أى من أبناء العرب والمسلمين خاصةً ، أى أبناء لغة العرب وأبناء دين الإسلام ، فهذا عندئذٍ موضعُ نظرٍ = لأن الأمر ، ولا خيارَ لى أو لك فيه ، يختلفُ اختلافاً بيناً حينئذٍ ، ويتطلّب النظر فى أمرين : أمر الكاتبِ وأمر المكتوبِ معاً ، وهذا يردُّك لا محالةً إلى ما كتبتُه لك آنفاً فى شأن « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢١ - ٣٣) ، سواءً كان الكاتب عربياً

أو غير عَرَبِيٍّ ، (أى مستشرقاً أوروبياً) . ولذلك يحسنُ بك هنا أن تُعيد قراءته بتأنٍ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أن أعيد ذكره في هذا الموضوع مفصلاً ، وإنما هى الإشارة إليه لا غير . وأعلمُ أتى سائِبُ لك الأمر هنا في حالةٍ واحدةٍ ، هى حالة استحقاقِ الدراسة أن توصف بأنها « علمية » ، وهل هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميةً » بمعناها الصحيح ، الموجب للاحترام والتقدير . وكُنْ أبداً على ذكرٍ بأن ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلٌ أصيلٌ في كُلِّ أُمَّةٍ ، وفي كُلِّ لسانٍ ، وفي كُلِّ ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونحلهم » (ص : ٢٣) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من البشرِ مهما تباينا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم في أمةٍ ثقافةٌ أو حضارةٌ إلاً بالالتزام بهذا الأصلِ الأصيلِ في ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبه آنفاً من ص : ٢١ - ٣٣) .

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمت ، مكوّن من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلِّ الوضوح ، وأنا مُحدّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جدّاً ، وفيما مضى قبلُ بلاغٌ يضىءُ لك الطريق .

• فالشطر الأوّل ، « شطر جمع المادة » كما قلتُ : « يتطلّبُ جَمْعَهَا من مَظَانِّهَا على وجه الاستيعابِ ، ثم تصنيفَ هذا المجموع » ، (ص : ٢٢) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً ما ، مع ما فيه من العوائقِ الجليّةِ ، بله العوائقُ الخفيةُ التى تحتاجُ إلى بسْطٍ وإيضاحٍ = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليلِ أجزاءِ تراكيبه بدقةٍ متناهيةٍ ، ومهارةٍ وحذقٍ ، حتّى يتيسّرَ للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ واضحاً جليّاً ،

وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هوى ، وبلا تسرعٍ » ، (ص : ٢٢) . وهذا مبنى على ما سبقه ، فهو ممكنٌ للمستشرقٍ بعضه بصورةً ما ولهدفٍ ما ، ومستحيلٌ بعضه أن يكون منه عنده مثقالُ ذرةٍ بصورةٍ أُخرى ، لأنه يدخل في حديثٍ آخرٍ سيأتي بعد قليل ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

• وأما الشرطُ الثاني ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعاب أيضاً لكل احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرع » ، (ص : ٢٢) . وهذا ، بلا شكٍ ، مترتبٌ على الشرطِ الأولِ كُلِّه ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غير ممكنٍ فهو هنا أيضاً غير ممكنٍ = « ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌ موضعها ، لأن أخفى إساءةٍ في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خليفٌ أن يشوّه عمودَ الصورة تشويهاً بالغ القبح والشناعة » ، (ص : ٢٢) ، وهذا غير ممكنٍ البتة ، بل هو ممتنعٌ ، بل هو مستحيلٌ ، لأن عمَلَ « الاستشراق » كُلُّه مبنى على رسم صورةٍ محدّدةٍ قائمةٍ في نفسه ، منصوبةٍ لعينيه ، يرسمها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجلِ إحداثِ هذه الصورة المُقنعة للمثقف الأوربي يُعاني مشقة « جمع المادة » ، ويكثُر كدّاً في ممارسة « التطبيق » . وقد بينتُ لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (في الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفتُ لك حقيقة « الصورة » ، (في الفقرة : ١٨ ، ص : ٥٩ ، ٦٠) فهذا العملُ وحده ، أو هذا القصدُ المتعمّدُ وحده ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وحدها في إسقاطِ عملِ « الاستشراق » كُلِّه إلى حضيضِ الفسادِ والإفسادِ في « ما قبل المنهج » ، ومُفضيةٌ بعد ذلك إلى قذِفِ عمله كُلِّه منبوذاً خارجَ حدودِ كُلِّ ما يمكنُ أن يُوصفَ بوجهٍ ما أنه « عملٌ علميٌّ » خالصٌ . ومُحَقِّقٌ لعقله مَنْ لا يُدرُكه ، فدعُ عنك مَنْ يرتضيه ؟ ومُعْطَى على بصره من لا يُبصره ، فما ظنُّك بمن يُنافحُ عنه ؟ فإنه كما قلتُ آنفاً : « أبينُ بياناً من البدائه المسلّمة ، وأظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعة » ، (فقرة :

• والنازلون في مَيِّدانِ « المنهج » ومَيِّدانِ « ما قبل المنهج » من الكُتَّاب والعلماء ، في كُلِّ لغةٍ ، وفي كُلِّ أُمَّةٍ ، وفي كُلِّ مِلَّةٍ ، وفي كُلِّ ثقافةٍ ، لهم شروطٌ مُحَكِّمَةٌ لا يُمكنُ إغفالها البتَّةُ ، فهي أركانٌ لا يقومُ بناءٌ إلا عليها ، ولا يُمكنُ أن يسمَّى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إلا من حاز أكبرَ قَدْرٍ من هذه الشروطِ ضربةً لازِبٍ . ولم تُوجدْ على الأرضِ أُمَّةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أن ينزلَ ميدانِ « ما قبل المنهج » وميدانِ « المنهج » في أيِّ علمٍ كانَ أو فنٍّ ، إلا وهو مُطَبِّقٌ للنزولِ فيه بحقِّه ، فإذا اجتراً مجتريَّ عارٍ من الشروطِ وفعل ، نُفِي وطَرِدَ طَرْداً ، وأبوا من أن يعدُّوه في الكُتَّابِ كاتباً ، أو في العلماءِ عالماً ، أو في الباحثينِ باحثاً ، وألْقَى عمله كُلُّهُ في سَلَّةِ المهملاتِ ، كما يقولون . وجماعُ الشرُوطِ كُلِّها في هذا الشأنِ مُنوطٌ بثلاثةِ أمورٍ : لُعْتِه التي نشأ فيها صغيراً ، وثقافةُ أُمَّتهِ التي ينتمي إليها وأرتضعَ لِبَناها يافعاً ، وأهوائِه التي يَمْلِكُ ضَبْطُها أو لا يملكُه بعد أن استوى رجلاً مُبِيناً عن نفسه ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) .

• أمَّا « اللُّغَةُ » التي نشأ فيها صغيراً ، فشرطُ نُزوله الميدانِ : أن يكونَ محيطاً بأسرارها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبين تمامِ الإحاطةِ بها وقصورِ هذه الإحاطةِ ، يرتفعَ قَدْرُ ما يكتُبُه ، أو ينزلُ إلى حَضِيضِ الإسقاطِ والإهمالِ ، مع مخاوفِ ذكرتها لك آنفاً ، (ما سلف ص : ٢٧) .

• وأمَّا « الثقافةُ » ، وهي سرٌّ من الأسرارِ المثلثةِ ، وحقائقها عميقةٌ بعيدةُ العُورِ متشعِّبةٌ ، وقوامُها « الإيمانُ » بها عن طريقِ القلبِ والعقلِ = ثم « العملُ » بما تقتضيه حتى تذوبَ في بُنيانِ الإنسانِ وتجري منه مَجْرَى الدَّمِ لا يكاد يحسُّ به = ثم « الانتفاءُ » إليها انتفاءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّكِ والانهِيارِ ، وبين تمامِ الإدراكِ لأسرارِ « الثقافةِ » وقُصورِ هذا الإدراكِ ، يرتفعَ أيضاً قَدْرُ ما يكتُبُه ، أو ينزلُ إلى حَضِيضِ الإهمالِ ، (ما سلف ص : ٢٨) .

• وأما « الأهواء » فهي الداء المُبِيرُ ، والشُرُّ المستطيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إن هو أَلَمٌ بأيِّ عملٍ إمامةً خفيةً الدبيبِ بَلَهَ الوَطءِ المتثاقلِ ، أحواله إلى عملٍ مُستَقَدِّرٍ منبوذٍ كَرِيهِهِ ، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه وحُلِيِّهِ وعطوره وأتمها زينةً ، من دقَّةِ واستيعابٍ وتمحيصٍ ومهارةٍ وحِذْقٍ وذكاءٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلمِّمًا تمام الإلمام بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذٍ منافقٌ خبيثُ النَّفاقِ ، وخائنٌ لثيمُ الخيانة ، (ما سلف ص : ٢٨ ، ٢٩) .

• وهذه شروط لا يختلف في شأنها أحدٌ قطُّ في كلِّ ثقافةٍ وفي كلِّ أُمَّةٍ . فإذا كان لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناء الثقافة أنفسهم ، إلا من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِيَ منها لم يكن أهلاً للنزول في ميدان « المنهج » ، فإذا فعل فهو متكلِّمٌ لا أكثر ، ثم لا يُلتَفَتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحث والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغي قبل كلِّ شيءٍ ، أن نعرف من هو « المستشرق » الذي ينزل هذا الميدان ؟ وهل يمكن أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكمة المتَّفَقِ عليها في كلِّ لغة وثقافة ؟

• و « المستشرق » فتى أعجميٌّ ، ناشيءٌ في لسان أُمَّته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ في آدابها وثقافتها ، (ألماني ، أو إنجليزي ، أو فرنسي) ، حتى أَسْتَوَى رَجُلًا في العشرين من عُمره أو الخامسة والعشرين ، فهو قادرٌ أو مُفْتَرَضٌ أنه قادرٌ تمام القُدرة على التفكير والنظر ، ومؤهلٌ أو مُفْتَرَضٌ أيضاً أنه مؤهلٌ أن ينزل في ثقافته ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدِّمٍ ثابتةٍ . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتى يتحوَّل فجأةً عن سلوك هذه الطريق ليبدأ في تعلُّم لغةٍ أخرى ، (هي العربية هنا) ، مفارقةً كُلَّ المفارقة للسان الذي نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التي ارتضع لبانها يافعاً ، « يدخُل قِسْم « اللغات الشرقية » في جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدئ تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد

هَوِّزَ ، في العربية . ويتلقَّى العربيةَ نحوها وصرفها وبلاغتها وشعرها وسائر آدابها وتواريخها ، عن أعجميِّ مثله ، وبلسانٍ غير عربيِّ ، ثم يستمعُ إلى مُحاضِرٍ في آدابِ العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربيِّ ، ويقضى في ذلك بضع سنوَاتٍ قلائل ، ثم يتخرَّج لنا « مستشرقاً » يُفتي في اللسان العربيِّ ، والتاريخ العربيِّ ، والدين العربيِّ « !! (١) عَجَبٌ ، وفوق العَجَب !

كَيْفَ يجوزُ في عَقْلِ عاقلٍ أن تكون بضعُ سنوَاتٍ قلائلٍ كافيةً لطالب غريبٍ عن « اللُّغة » ، وهذه حاله ، أن يُصْبِحَ محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وبعجائب تصاريفها التي تجمَّعت وتداخلت على مرِّ القرون البعيدة في آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) = وأن يُصْبِحَ بين عَشِيَّةٍ وضُحَاها مؤهَّلاً للنزول في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيفَ ؟ مع أن هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكاثرة من أبناءِ هذه اللغة أنفُسهم ، ولا يبلغ هذا المبلغُ إلا القليلُ منهم ؟ كيفَ يجوز هذا في عقلٍ عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلَّمها تلقياً من أعجميِّ مثله ، ولم يخالط أهلها مخالطةً طويلةً متباديةً تُتيح له التلقَّى عنهم تلقياً يبصرُهُ ببعض هذه الأسرار . غَايَةُ ما يمكنُ أن يجوزهُ « مستشرق » في عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيمٌ بين أهل لسانه الذي يَقْرَعُ سمعَهُ بالليل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً ما بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذٍ أن يكون في منزلة طالبٍ عربيِّ في الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقلُّ منه على الأرجح ، أي هو في طبقة العوامِّ الذين لا يَعْتَدُّ بأقوالهم أحدٌ في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتيبه في كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥)

(١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلةٌ على فساد عمل « الاستشراق » ، وعلى التهويل في شأن علم « المستشرقين » بالعربية ، فاقرأه هناك .

كذلك ؟ هذا على أن « اللغة » نفسها هي وعاء « الثقافة » ، فهما متداخلان ، فمحال أن يكون محيطاً بأسرارها ، دون أن يكون محيطاً أيضاً بثقافتها إحاطةً تؤهله للتمكّن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهلاً لنزول هذا الميدان ؟

• وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمح بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشدّ وأعتى ، لأن « الثقافة » ، كما قلتُ آنفاً : « سيرٌ من الأسرارِ المثلثة في كل أمة من الأمم وفي كل جيلٍ من البشر ، وهي في أصلها الراسخ البعيد العور ، معارف كثيرة لا تُحصى ، متنوّعة أبلغ التنوع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبة في كل مجتمع إنساني ، للإيمان بها أولاً من طريق العقل والقلب = ثم للعمل بها حتى تدوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يحسُّ به = ثم للالتئام إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار » ، (ص : ٢٨) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتاء » ، هي أعمدة « الثقافة » وأركانها التي لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محققٌ إلا بها ، وإلا انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرد معلوماتٍ ومعارفٍ وأقوالٍ مطروحة في الطريق ، متفككة لا يجمع بينها جامعٌ ، ولا يقوم لها تماسكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

• وبديهيٌّ ، بل هو فوق البديهيّ ، أن شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنع على « المستشرق » كل الامتناع ، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناءٍ واحدٍ ، كما يقول أبو الحسن التّهاميّ الشاعرُ :

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُدْوَةَ نَارِ

وذلك لأن « الثقافة » و « اللغة » متداخلتان تداخلاً لا انفكاك له ، ويتراقدان ويتلاقحان بأسلوبٍ خفيٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابلٍ للفصل ، في كُلِّ جيلٍ من البشر وفي كُلِّ أمةٍ من الأمم . ويبدأ هذا التداخل والترافد والتلاقح والتمازج منذ ساعة يولد الوليد صارخاً يتلمس ثدى أمه تلمساً ، ويسمع رجع صوتها وهي تُهدِّده وتناغيه ، ثم يظلُّ يرتضع لبان « اللغة » الأوَّل ، ولبان « الثقافة » الأوَّل ، شيئاً فشيئاً ، عن أمه وأبيه حتى يعقل ، فإذا عقل تولاه معهما المعلمون والمؤدِّبون حتى يستحصد ، (أى يشتدَّ عوده) ، فإذا استحصد وصار مُطيقاً إطاقاً ما للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً ما على فحص الأدلة واستنباطها فناظر وباحث وجادل ، فعندئذ يكون قد وضع قدمه على أوَّل الطريق = لا طريق « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيدٌ جداً كما رأيت = بل على الطريق المُفضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويعمل بها حتى تذوب في بنيانه وتجري منه مجرى الدم لا يحسُّ به = وينتمي إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار ، كما أسلفت . وهذا ، كما ترى ، شرطٌ لازمٌ للبدء في الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغة » ، بعد ذلك ، هي التي تمهِّد له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنَّ أمر « الإحاطة » عندئذٍ منوطٌ كُله بالقدرة على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاء تراكيبها بدقة متناهية ، وبمهارة وحذق وحذر ، حتى يرى ما هو زيفٌ جليلاً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ولا هوى ولا تسرع ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر في « الثقافة » وعلى ترتيب مادتها بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعابٍ لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرع ، متحرِّياً وضع كُلِّ حقيقة من الحقائق في حقِّ موضعها ، لأنَّ أخفى إساءةٍ في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوِّه عمود الصورة تشويهاً بالغ القبح والشناعة ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

فَقَبَّلَ كُلَّ شَيْءٍ ، أُنِّيَ لِلْمُسْتَشْرِقِ أَنْ يَحْوِزَ مَا لَا يَحْوِزُهُ إِلَّا مَنْ وُلِدَ فِي بُحْبُوحَةِ اللُّغَةِ
وَتَقَاتِفَتِهَا مِنْذُ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، ثُمَّ نُشِئُ فِيهَا وَارْتَضَعَ وَأَدَّبَ حَتَّى عَقَلَ وَاسْتَحْصَدَ ؟
غَيْرُ مُمْكِنٍ . وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَنْ يَأْتِيَ « الْمُسْتَشْرِقِ » عَلَى الْكِبَرِ فَيَعَاشِرُ أَصْحَابَ هَذِهِ اللُّغَةِ
وَهَذِهِ الثَّقَافَةِ وَيَخَالِطُهُمْ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَيْضًا أَنْ يَنْسَى كُلَّ مَا نَشَأَ هُوَ فِيهِ صَغِيرًا
وَأَدَّبَ ، أَفَمُمْكِنٌ هُوَ أَنْ يَحْوِزَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَهُوَ مَقِيمٌ فِي بِلَادِهِ بَيْنَ أَهْلِ وَعَشِيرَتِهِ ، بَأَنْ
يَتَعَلَّمَ عَلَى الْكِبَرِ مِنْ مَعْلَمٍ يَعْلَمُ لُغَةً وَثِقَافَةً هُمَا مَعًا أَجْنَبِيَّانِ عَنْهُ وَعَنْ مَعْلَمِهِ جَمِيعًا ؟ غَيْرُ
مُمْكِنٍ . أَقْصَى مَا يَبْلُغُهُ هَذَا « الْمُسْتَشْرِقِ » بَعْدَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ مِنَ الدُّأْبِ وَالْجُهْدِ ، وَبَعْدَ
أَنْ تَشْيِبَ قُرُونُهُ ، (وَالْقُرُونُ ضِفَائِرُ شَعْرِ الرَّأْسِ) ، أَنْ يَكُونَ شَادِيًا لَا أَكْثَرَ ،
(وَ « الشَادِي ») ، الَّذِي تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، أَيْ أَخَذَ طَرَفًا مِنْهُ) ، أَيْ أَنَّهُ
إِنَّمَا تَعَلَّمَ لُغَةً أَجْنَبِيَّةً عَنْهُ وَبَسْ . (١) هَذَا صَرِيحُ الْعَقْلِ ، إِذَنْ فَخَبَّرْنِي : أَهْوَ مُمْكِنٌ أَنْ
يَكُونَ مَجْرَدُ تَعَلُّمِ لُغَةٍ أَنْتَ فِيهَا شَادٍ ، كَفِيلًا بَأَنْ يَجْعَلَكَ كَاتِبًا أَوْ بَاحِثًا فِي أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ
وَفِي ثِقَاتِفَتِهَا ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُكَ أَنْتَ فِي لُغَتِكَ وَثِقَاتِفَتِكَ ؟ أُمُمْكِنٌ هُوَ ؟ مَجْرَدُ حُطُورِ
إِمْكَانٍ هَذَا فِي وَهْمِكَ ، مُخْرِجٌ لَكَ مِنْ حَدِّ الْعَقْلِ . فَأَعْجَبُ الْعَجَبِ ، إِذَنْ ، أَنْ يُعَدَّ
أَحَدُ شَيْئًا مِمَّا كَتَبَهُ « الْمُسْتَشْرِقُونَ » فِي لُغَتِنَا وَثِقَاتِفَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، دَاخِلًا فِي حَدِّ الْمُمْكِنِ ،
وَأَنْ يَرَاهُ مُتَضَمِّنًا لِرَأْيِ حَقِيقِي بِالْاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ « عَمَلًا عِلْمِيًّا »
أَوْ « بَحْثًا مَنَهْجِيًّا » نَسْتَرشُدُ بِهِ نَحْنُ فِي شُؤُونِ لُغَتِنَا وَثِقَاتِفَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، كَمَا هُوَ السَّائِدُ
الْيَوْمَ فِي حَيَاتِنَا هَذِهِ الْأَدْبِيَّةِ الْفَاسِدَةِ . أَلَيْسَ هَذَا شَيْئًا لَا يُطَاقُ سَمَاعُهُ وَلَا تَصَوُّرُهُ ؟ وَمَعَ
ذَلِكَ فَهُوَ كَائِنٌ مَعْمُولٌ بِهِ بِلَا غَضَاظَةٍ ، أَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا ! أَلَيْسَ غَرِيبًا جَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ
لِمِثْلِ هَذَا شَبِيهٌ الْبَتَّةَ فِي أَيْ لُغَةٍ وَأَيِّ ثِقَافَةٍ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ هِيَ كَائِنَةٌ الْيَوْمَ ؟ وَقَلْتُ

(١) « بَسْ » بِمَعْنَى « حَسْبُ » وَ « فَقَطْ » ، مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعَامِيَّةِ ، وَلَكِنَّهَا قَدِيمَةٌ جَدًّا ، وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَهَا

فَارْسِيٌّ .

يوماً : « أ رأيت قط رجلاً من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لغتها ، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية ، وفي حياة المجتمع الإنجليزي ، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟ (١)

أليس غريباً أن يكون غير الممكن ممكناً في ثقافتنا نحن وحدها ، دون سائر ثقافات البشر قديمها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالة .

• وأشياء قليلة ، ولكنها عظيمة الخطر ، أحبُّ أن أنبهك إليها ، ونحن في حديث « الثقافة » ، حتى لا تختلط عليك الأمور . يوجب ذلك على علمي بفساد حياتنا الأدبية الحديثة حاضرها وغابرها ، ولأنها تسير بنا اليوم في طريق الغموض ، لا في طريق الوضوح . وقد استشرى خطر هذه السيرة بما شاع في هذه الحياة من الثثرة والادعاء والتحكّم والعجرفة وقلة المبالاة والرّهو الفارغ ، فأدى بنا ذلك كله إلى أن نألّف استعمال ألفاظٍ موهمة غامضة الدلالة ، فضفاضة المعاني ، بُجراً وبلا أناة وبلا ضبط وبلا تعمق . فالأمر يحتاج مني ومنك إلى وقفة متأنية ، ومراجعة ضابطة للفظ « الثقافة » ، لأن أمرها أجل وأخطر ممّا توهمك به النظرة الأولى . بيد أنّي لا أستطيع هنا الإفاضة في بيانها ، وما هو إلاّ الإشارة الخاطفة والتحديد لا غير = وأيضاً لأنّ لفظ « الثقافة » لفظ مستحدث في زماننا هذا ، تفشّى استعماله على الألسنة بلا ضابط وبلا دقة وبلا مبالاة .

• « الثقافة » في جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبنئ على الآخر ، أي هما طوران متكاملان :

(١) انظر كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

الطُّورُ الأوَّلُ : أُصُولٌ ثَابِتَةٌ مَكْتَسِبَةٌ تَنْغَرَسُ فِي نَفْسِ « الْإِنْسَانِ » مِنْذُ مَوْلَدِهِ وَنَشَأَتِهِ الأوَّلَى حَتَّى يُشَارَفَ حَدَّ الْإِدْرَاكِ الْبَيِّنِ ، جِمَاعُهَا كُلُّ مَا يَتَلَقَّاهُ عَنْ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَمُعَلِّمِيهِ وَمُؤَدِّيهِ حَتَّى يَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ وَبِعَقْلِهِ ، وَتَفَاصِيلُ مَا يَتَلَقَّاهُ الْوَلِيدَ حَتَّى يَتَرَعَّرَعَ أَوْ يُرَاهِقَ ، تَنْفُوتُ كُلُّ حَاصِرٍ بِلِ تَعَجُّزِهِ . وَهَذِهِ الْأُصُولُ ضَرُورَةٌ لِأَزْمَةٍ لِكُلِّ حَيٍّ نَاشِئٍ فِي مَجْتَمَعٍ مَا ، لِكَيْ تَكُونَ لَهُ « لُغَةٌ » يُبَيِّنُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَ « مَعْرِفَةٌ » تُتِيحُ لَهُ قِسْطًا مِنَ التَّفَكِيرِ يُعِينُهُ عَلَى مَعَاشِرَةٍ مِنْ نَشَأٍ بَيْنَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَهَذَا عَلَى شِدَّةِ وَضُوحِهِ عِنْدَ النَّظَرَةِ الأوَّلَى لِأَنَّكَ أَلْفَتُهُ ، لَا لِأَنَّكَ فَكَّرْتِ فِيهِ وَعَمَّقْتِ التَّفَكِيرَ ، هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ سِرٌّ مُلْتَمَّ بِحَيِّرِ الْعُقُولِ إِدْرَاكُ دَفِينِهِ ، لِأَنَّهُ مُرْتَبِطٌ أَشَدَّ الْإِرْتِبَاطِ ، بَلِ مُتَغَلِّغٌ فِي أَعْمَاقِ سِرِّينَ عَظِيمِينَ غَامِضِينَ هُمَا : سِرٌّ « النَّطْقِ » وَسِرٌّ « الْعَقْلِ » اللَّذَانِ تَمَيَّزَ بِهِمَا « الْإِنْسَانُ » مِنْ سَائِرِ مَا حَوَّلَهُ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِ ، وَتَحَيَّرَتْ عُقُولُ الْبَشَرِ فِي كَيْفِ جَاءَا ؟ وَكَيْفِ يَعْمَلَانِ ؟ لِأَنَّ « الْإِنْسَانَ » لَمْ يَشْهَدْ خَلْقَ نَفْسِهِ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَسْتَدَلَّ بِمَا شَهِدَ ، لِكَيْ يَصَلَ إِلَى نَحْبِ هَذَيْنِ السَّرِّينَ الْمَلْتَمَّينَ الْمُسْتَغْلَقِينَ الْبَعِيدِينَ ، وَإِنْ تَوَهَّمْ أَحْيَانًا بِالْإِلْفِ أَنَّهُمَا قَرِيبَانِ وَاضِحَانِ .

وَلِأَنَّ « الْإِنْسَانَ » مِنْذُ مَوْلَدِهِ قَدْ اسْتَوْدِعَ فِطْرَةً بَاطِنَةً بَعِيدَةَ الْعُورِ فِي أَعْمَاقِهِ ، تُوزِعُهُ ، (أَى تُلْهِمُهُ وَتَحْرِكُهُ) ، أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ يَدْرِكُ إِدْرَاكًا مَبْهُمًا أَنَّهُ خَالِقُهُ وَحَافِظُهُ وَمُعِينُهُ ، فَهُوَ لِذَلِكَ سَرِيعُ الْإِسْتِجَابَةِ لِكُلِّ مَا يُلَبِّي حَاجَةَ هَذِهِ الْفِطْرَةِ الْخَفِيَّةِ الْكَامِنَةِ فِي أَغْوَارِهِ . وَكُلُّ مَا يُلَبِّي هَذِهِ الْحَاجَةَ ، هُوَ الَّذِي هَدَى اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْمُوهُ « الدِّينِ » ، وَلَا سَبِيلَ الْبَيِّنَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي عَقْلِ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ « اللُّغَةِ » لَا غَيْرَ ، لِأَنَّ « الْعَقْلَ » لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا ، فِيمَا نَعْلَمُ ، إِلَّا عَنْ طَرِيقِ « اللُّغَةِ » . فَالَّذِينَ وَاللُّغَةَ ، مِنْذُ النِّشْأَةِ الأوَّلَى ، مَتَدَاخِلَانِ تَدَاخُلًا غَيْرَ قَابِلِ

لِلْفَصْلِ ، (١) وَمِنْ أَغْفَلَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَأَوْغَلَ فِي طَرِيقِ الْأَوْهَامِ . هَذَا شَأْنُ كُلِّ الْبَشَرِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ ، لَا تَكَادُ تَجِدُ أُمَّةً مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لَيْسَ لَهَا « دِينٌ » بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ ، كِتَابِيًّا كَانَ ، أَوْ وَثْنِيًّا ، أَوْ بَدْعًا ، (« الْبِدْعُ » ، الدِّينُ لَيْسَ لَهُ كِتَابٌ أَوْ وَثْنٌ مَعْبُودٌ) .

وَلِذَلِكَ ، فَكُلُّ مَا يَتَلَقَّاهُ الْوَلِيدُ النَّاشِئُ فِي مَجْتَمَعٍ مَّا ، مِنْ طَرِيقِ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَمُعَلِّمِيهِ وَمُؤَدِّبِيهِ ، مِنْ « لُغَةٍ » وَ « مَعْرِفَةٍ » = يَمْتَرِجُ امْتِرَاجًا وَاحِدًا فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ ، رَكِيزَتُهُ أَوْ نَوَاتِنُهُ وَخَمِيرَتُهُ دِينُ أَبِيهِ وَلُغَتُهُمَا ، وَأَبْلُغُهُمَا أَثْرًا هُوَ « الدِّينُ » . فَالْوَلِيدُ فِي نَشَأَتِهِ يَكُونُ كُلُّ مَا هُوَ « لُغَةٌ » أَوْ « مَعْرِفَةٌ » أَوْ « دِينٌ » مُتَقَبَّلًا فِي نَفْسِهِ تَقَبُّلًا « الدِّينِ » ، أَيْ يَتَلَقَّاهُ بِالطَّاعَةِ وَالتَّسْلِيمِ وَالِاعْتِقَادِ الْجَازِمِ بِصِحَّتِهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَهَذَا بَيْنَ جَدًّا إِذَا أَنْتِ دَقَّقْتَ النَّظَرَ فِي الْأَسْلُوبِ الَّذِي يَتَلَقَّى بِهِ أَطْفَالُكَ عَنْكَ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْكَ ، أَوْ مِنَ الْمُعَلِّمِ فِي الْمَرَاهِلِ الْأُولَى مِنَ التَّعْلِيمِ . وَيَظَلُّ حَالُ النَّاشِئِ يَتَدَرَّجُ عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَكَادُ يَتَفَصَّيْ شَيْءٌ مِنْ مَعَارِفِهِ مِنْ شَيْءٍ ، (« يَتَفَصَّى » : أَيْ يَتَخَلَّصُ مِنْ هَذَا الْمَضْيِيقِ) حَتَّى يَقَارِبَ حَدَّ الْإِدْرَاكِ وَالِاسْتِبَانَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ هَذَا الْحَدَّ حَتَّى تَكُونَ لُغَتُهُ وَمَعَارِفُهُ جَمِيعًا قَدْ غُمِسَتْ فِي « الدِّينِ » وَصُبِغَتْ بِهِ . وَعَلَى قَدْرِ شَمُولِ « الدِّينِ » لِشُؤُونِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، وَعَلَى قَدْرِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ النَّاشِئُ ، يَكُونُ أَثْرُهُ بِالْبَلْغِ الْعَمِيقِ فِي لُغَتِهِ الَّتِي يَفَكِّرُ بِهَا . وَفِي مَعَارِفِهِ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا كُلُّ مَا يَوْجِبُهُ عَمَلُ الْعَقْلِ مِنَ التَّفَكِيرِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . فَهَذِهِ هِيَ الْأَصُولُ الثَّابِتَةُ الْمَكْتَسِبَةُ فِي زَمَنِ النُّشْأَةِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْتِصَارِ .

(١) فِي حَيَاتِنَا الْأَدْبِيَّةِ الْفَاسِدَةِ ، تَرُوجُ دَعْوَةُ خَبِيثَةٍ جَاهِلَةٌ لِفَصْلِ « اللُّغَةِ » عَنِ « الدِّينِ » ، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَتَيْسَّرُ إِلَّا بِفَارِقَةِ دِينٍ ، وَالدَّخُولِ فِي دِينٍ آخَرَ يَصْنَعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ . وَلِبَيَانِ مَعْنَى « الدِّينِ » ، أَرْجُو أَنْ تَقْرَأَ أَوَّلًا مَا كَتَبْتَهُ فِي كِتَابِي « أَبَاطِيلُ وَأَسْمَارُ » ص : ٥١٣ - ٥٥٢ ، فَهُوَ مَهْمٌ هُنَا جَدًّا ، وَأَنَّ « الدِّينَ » عِنْدَنَا يَشْتَمِلُ عَلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَصُولِ الصَّحِيحَةِ الْمَحْكَمَةِ الَّتِي يَسْتَرشدُ بِهَا الْعَقْلُ فِي التَّفَكِيرِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ .

الطور الثاني : فروع مُنبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة . وهى تَنبثق حين يخرج الناشئ من إيسارِ التسخير إلى طلاقة التفكير . وإنما سُميت « الطور الأول » : « إيسارِ التسخير » ، لأنه طورٌ لا أنفكاك لأحدٍ من البشر منه منذ نشأته في مجتمعه . فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركُه ، وبدأت معارفُه يتفصى بعضها من بعض ، أو يتداخل بعضها في بعض ، ويبدأ العقل عمله المُستتب في الاستقلال بنفسه ، ويستبد بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأي الذى هو نتاج مُزاولة العقل لعمله ، فعندئذ تتكوّن النواة الجديدة لما يمكن أن يسمّى « ثقافة » . وبين أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأولى التى كانت في طورها الأول مصبوغة بصبغة « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها في الخروج على « الدين » الموروث ومناقشته رفضاً له أو لبعض تفاصيله . هذه حال النشأ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقل المفضى إلى حيز « الثقافة » .

• و « ثقافة » كل أمة وكل « لغة » هى حصيلة أبنائها المثقفين بقدرٍ مشتركٍ من أصول وفروع ، كُلها مغموسٌ في « الدين » المتلقى عند النشأة . فهو لذلك صاحب السلطان المُطلق الحفى على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطان لا ينكره إلا من لا يُبالى بالتفكر في منابع الأول التى تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيره . فثقافة كُل أمة مرآة جامعة في حيزها المحدود كُل ما تشعّت وتشئت وتباعدت من ثقافة كُل فردٍ من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومدخلهم ومخارجهم في الحياة . وجوهرُ هذه المرآة هو « اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخلاً غير قابلٍ للفصل البتة .

فباطل كل البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافة » يمكن أن

تكون « ثقافة عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليس كبير ، وإنما يُراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم ، هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبية على أمم مغلوّبة ، لتبقى تبعاً لها . فالثقافات متعدّدة بتعدد الملل ، ومتميّزة بتميّز الملل ، ولكلّ ثقافة أسلوبٌ في التفكير والنظر والاستدلال مُنتزَعٌ من « الدين » الذى تدينُ به لا محالة . فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش ، ولكن لا تتداخلُ تداخلاً يُفضي إلى الامتزاج البتّة ، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئاً ، إلا بعد عرّضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدلته وخلصته من الشوائب ، وإن استعصى تبدّثه واطرّحته . وهذا بابٌ واسع جداً ليس هذا مكان بيانه ، ولكنى لا أفارقه حتى أنبّهك لشيءٍ مهمّ جداً ، هو أن تفصل فصلاً حاسماً بين ما يسمّى « ثقافة » وبين ما يسمّى اليوم « علماً » ، (أعنى العلوم البحتة) ، لأنّ لكلّ منهما طبيعةً مُباينةً للآخر ، فالثقافة مقصورةٌ على أمةٍ واحدةٍ تدينُ بدينٍ واحدٍ ، والعلمُ مُشاعٌ بين خلق الله جميعاً ، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد .

• فإذا عرفت هذا واستبصرت حقيقته ، وأنعمت النظر فيه ، فعندئذٍ يُفضي بك النظر إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظر في « ثقافة » أمةٍ أخرى غير أمته ، إنما ينظر فيها لأحد أمرين : إما أن ينظر فيها ليكتسب منها شيئاً لأُمَّته وثقافته ، وإما أن ينظر فيها ليناظر ويناقش . وكلا الأمرين حقٌّ لا ينازعه فيه منازعٌ . وفي كلا الأمرين هو واقعٌ في مأزقٍ ضيقٍ : مأزق « اللغة » ومأزق « الثقافة » . لا يستطيع أن يأخذ إلا على قدر ما فهم من « لغةٍ » غريبة أصلاً عن لغته ، ولا يستطيع أن يناقش إلا على قدر ما يتصوّر أنه استبانهُ وأدركه من « ثقافةٍ » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنه وحده ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً في ثقافة « المستشرق » وأمته التى ينتمى إليها ، وعلى نفس القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطرٍ .

• ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فعل الأمرين جميعاً خدمةً لأمته ، كما مضى ذِكرُ ذلك في ثنايا كلامي ، فإنه قد جاء فدخل مدخلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع النزاع بيننا وبينه ، دخل لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دخل باحثاً ودارساً عليه طيلسان العلم ، (أى الرداء المميز لأساتذة الجامعات) في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدان له شروط لازمة لا تحتل . دخل في « لغة » هو فيها هجينٌ كلُّ الهجئة ، (« الهجين » الذى في نسبه عيب قاذح) ، وفي « ثقافة » هو غريبٌ عنها كلُّ العُربة . ودخوله هذا عمل مُستشع في ذاته ، لأنه اجترأ على دخول هذا الميدان بغير حقه ، ولا يُسمح بمثله في ثقافة أمته هو نفسه ، لأنه لا يملك شيئاً ذا بالٍ من مُسوغاته ، ولا تسمحُ به طبيعة ما يمكن أن يسمّى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بينت ذلك آنفاً (ص : ٦٦ - ٧٠) . أما « اللغة » فغير ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شادياً يعرفهما معرفةً ما ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بينتُ آنفاً . (ما سلف : ٦٦ - ٧٠) = وأما « الثقافة » ، وشرطها أشدُّ وأقسى ، (انظر ص : ٢٨ ، ٦٨) فيحول بينه وبينها أهوالٌ لا يجتازها إلا من عرف « اللغة » معرفةً أستاذٍ متمكّن ناشئ في هذه « الثقافة » وفي لغتها . وفوق ذلك كله ، « المستشرق » ناشئ في لغة وفي ثقافةٍ أخرى قد رسخت في نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بينتُ آنفاً ، مصبوغة صبغةً شديدة في اليهودية والمسيحية ، وهما ملتان بُبايتهما ملة الإسلام مُبآينةٌ تبلغ حدَّ الرّفص والمناقضة . وثقافته هذه تُنازعه حيث ذهب في البحث والدرس ، فممكن أن يناقش « ثقافة » الإسلام ، ممكن ، لأن هذا حقه ، ولكنه مستحيلٌ كلُّ الاستحالة أن يكون في ثقافتنا نحن « باحثاً » أو « دارساً » يبدى رأياً يستحقُّ النظر والاحترام ، في قرآنها وحديثها وتفسيرها وفي تفسير شرائعها ، وفي تاريخها وفي آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٥٩) ، مستحيلٌ ، لأنه ممتنعٌ عليه امتناعاً لا يملك الفرار منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجريء المُستبشع وركوب هذا المركب الوعر ، كانت ضرورةً تحمله على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهل ملته ، بما أوجبه الصراعُ المحتدمُ قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة في الشمال ، فانبعث يكتب ما يكتب حاملاً هموم المسيحية الشمالية في أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٥٨) ، لأسبابٍ فصلتها آنفاً ، و « ليصور الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي (المسيحي) ، وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد نجح ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء ، وعلى منهج مألوف لكل مثقف أوربي ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص ، حتى لا يشك قارئ منهم في صدق ما يقرؤه ، وأنه هو اللبّاب المصفي من كل كدر ، والمبرأ من كل زيف ، وأنه هو الحق المبين والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٥٩ وما قبلها وما بعدها) . وفعل « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٥٦ ، ٥٧) .

وهذا العمل على ما فيه من المعابة ، هو بلا شك أيضاً ، حق خالص للمستشرق لا ينازعه فيه منازع ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربي المسيحي وحده لا لغيره (انظر ما سلف : ٦١) ، حتى ما كان من ذلك كله سفاهةً وبداءةً لا غير (ص : ٦١) ، كل ذلك حقه ، وما كان فيه من إثم فحسابه على الله سبحانه لا علينا . وكل ذلك أيضاً لا يوجبُ عندي أن يوصف عمل « المستشرق » هذا بأنه مبني على تحبث الطوية ، لأن تحبث الطوية يقتضي أن تكون تعرف الحق أبلغ مستنيراً ، ثم تطمسه مُريداً لإفساد الحق على غيرك . و « المستشرق » بعيد كل البعد عن أن يعرف الحق مُعتمداً دامساً ، فكيف يعرفه أبلغ مستنيراً . و « المستشرق » ، كما علمت ، لم يعمد إلى إفساد حق على المثقف الأوربي المسيحي ، بل عمد إلى حياطته حتى لا ينبهر بدين عدوه المسلم انبهاراً مجرّبةً

عاقبته على مرّ القرون الطوال بالتساقط في الإسلام . وفوق ذلك كله ، فإن هذا المسلك ، مسلك « الغاية تسوّغ الوسيلة » ، مسلك مألوف مستحسن محبّب إلى الحضارة الأوربية السائرة على هدى « مكياڤلى » الذى هداهم إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإن كان ديننا ، نحن المسلمين ، يُنكره ويأباه علينا كلّ الإباء . وإذا كان من حقنا أن نصف « المستشرق » بحُبّ الطويّة ، فذلك جائز لنا في عمل آخر من أعماله ربّما أشرت إليه فيما بعد .

• أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص : ٦٦) ، فلن أضيع وقتى ووقتك في الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهماً ، حتّم أن يبرأ منه كلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهَةَ الفطرة في الإنسان تقضى بأن « الأهواء » مرفوضة في كلّ عملٍ يستحقُّ أن يوصف بأنه عملٌ شريف أو عملٌ علمي . وظاهرٌ من كلّ ما كتبت لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من قرع رأسه إلى أخمص قدميه ، غارق في « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواء » بلا نكير ولا أنفة ، بل هى تسوّغ استعمال رذيلة « الأهواء » في الدنيا وفي الناس بلا حرج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم وإخضاعها بكلّ وسيلة لسلطانها المتحضّر !! والدلائل على ذلك لا تخفى على بصيرٍ ذى عينين تُبصران ، فهى تسوّغ ذلك في العلم وفي الثقافة وفي السياسة وفي الدين وفي كلّ شيء ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوّغها أيضاً في الدعوى الغريبة العجيبة التى لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم ، دَعْوَى أنها « حضارة عالمية » ، وفحواها أن العالم كله ينبغي أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبّل برضى غَطْرستها وفجورها الغنى الأثخاذاً الفاتن !

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقة « المستشرق » الذى انتفض بهموم المسيحية الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل ملته وخاض في مَعْمَعان حياة

أمتة الثقافية والسياسية مدافعاً شديداً الحمية ، ومحامياً عن أقوامه أبلغ المحاماة ، وهو شيء لا يعيننا ، أو كان ينبغي أن لا يعيننا هو ولا ما كتبه في ثقافتنا قلاماً ظفراً ، لما عرفت من استحالة قدرته على معرفة العربية إلا مثل تجلّة القسّم ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يكفر المرء قسّمه ولا يُبالغ) ، ومن عجزه المطلق عن استبانة وجه الحق في ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوف عنهما بحجاب من ثقافته التي نشأ فيها وليداً واستمر حتى شابت قروئه . فما باله شغل ناسنا بالحديث عنه ؟ أجل ، كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان مما أفضى إلى انتدابه إلى إلقاء محاضرات في جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجب من ذلك استلحاقه بهيئات الجامعات اللغوية في بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أى ناس نحن !

٢٠ - كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان ؟ قصة طويلة عريضة ملؤها الغرائب والعجائب ، والمضحكات والمبكميات ، والحسرات والآهات ، من مبدئها إلى منتهاها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصّها عليك كاملة بتفاصيلها ، ولكن أتى يكون لي ذلك الآن ؟ فأقنع منى بالاختصار المفهم ، والإيماء الخاطف ، واللّمحة الدالة ، إبراءً للذمة ، ذمّتي أنا ، وأداءً للأمانة التي حُمّلتها لأستودعها بين يديك . وأنت مخير بين خطّتين لا ثالثة لهما : إمّا أن تتقصّى المكنون الغائب من تفاصيلها المشتتة في تاريخك وكتبك ، بعقل وهمّة وجدّ ويقظة وبصر وإدراك ، وبأنفة من قبول الدُّلّ والعار والمهانة = وإمّا أن تمّلتها فتطرّحها عن كاهلك قابلاً لمزيد من الدُّلّ والعار والمهانة ، مستحلياً خداع النفس بأوهام سؤلتها لك حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، والتي ألفت بكلّ فسادها في حياتنا اللغوية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية ، بل في صميم حياتنا الدينية أيضاً ، حتى أوشك أن يضيع كلّ شيء كان غير قابل

للضياع . فأخترت لنفسك منهما ما شئت . فإن آخترت الخُطَّة الأولى ، فاصبر على لأوائها ومَشَقَّتْها ولا تَجَزَّعْ ، وكن رابط الجأش لا تستحوذ عليك المخاوف والرَّهبةُ ، ولا تهولنك أسماء الرجال المُحدَثين الكبار ، والتي لها دوى وضخامة ، فإنَّما هي طبل فارغ ، وزق منفوخ ملؤه هواء . وأعلم أن الأمر جدُّ كلُّه ، فإن داخله الهزل خرجت منه صيفر الديدن . ولا يغررك زُحرف الألفاظ الوَسيمة المتلاذبة ، مثل قولهم : « الجديد والقديم » و « الأصالة والمعاصرة » ، و « التجديد والتقدم » ، و « الثقافة العالمية » و « الحضارة العالمية » و « التخلف والتحضُّر » ، فإنَّما هي ألفاظ لها زنين وفتنة ، ولكنها مليئة بكلِّ وهم وإيهام وزهو فارغ مُميت فاتك ، تُوغل بنا في طريق المهالك ، وتستزلُّ العقل حتى يرتطم في رَدْعَةِ الحبال ، (أى طينته اللزجة) ، فإن استبان لك أول الطريق ولكن هبت وترددت ، فاستمع عندئذ لتصيحة الحسن البصرى رضى الله عنه : « إنَّ مَنْ يُخَوِّفُكَ حَتَّى تُلْقَى الأَمْنَ ، أشفقُ عليك ممَّن يُؤمِّنُكَ حتى تلقى الخوفَ » ، كان الله فى عونى وعونك .

• غبر ما غبر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشاخ المنيع ، وعلى تدفق كتائب الإسلام فى قلب أوربة العارقة فى حَمأة قرونها الوسطى ... غبر ما غبر على فرجة أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كلُّه بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غرناطة آخر حصون الإسلام فى الأندلس ، (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وغبر ما غبر على جزع المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذلة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٤١ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقط رعايا الرهبان فى الإسلام طواعيةً واختياراً ، ودخولهم بحماسة ويقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦) ... غبر ما غبر ، ودخلت دار الإسلام فى سِنَّة

لذيذة أورثتها نشوة النصر المؤزر ، ودخلت أوربة كلها في عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار ، وبلغ السيل الربى ، فكانت يقظة محسوسة في جانب ، وغفوة لا تحس في جانب ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٤٤ ، ٥٠) ، وانطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دار الإسلام محصورة في الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية في الشمال ، وشيئا فشيئا فقدت دار الخلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها ، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة ، (اقرأ ص : ٥٢) .

يومئذ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان ، مئتا عام ويومئذ آنس قلب دار الإسلام ركزا خفيا فأرهف له سمعه . سمع نقيض أركان دار الخلافة وهي تقوؤ ، فتوجس توجسا غامضا لشر مستطير آت لا يدري من أين ؟ فهب من جوف الغفوة الغامرة أشتات من رجال أيقظتهم هدّة هذا التقوؤ ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها . رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدث بأمتهم ، فهبوا بلا تواطؤ بينهم . كانوا رجالا أيقاظا مفرقين في جنّات أرض مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه في قرارة أنفسهم مبهما من خطرٍ مُحدثٍ . أحسوا الخطر فرأوا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام : خلل « اللّغة » و « خلل العقيدة » و « خلل علوم الدين » و « خلل علوم الحضارة » . وبأناة وصبر عملوا وآلفوا وعلموا تلاميذهم ، وبهمة وجدّ أرادوا أن يُدخلوا الأمة في « عصر النهضة » ، نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام . من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم لك هنا مجرد ذكرٍ باختصار : (١)

(١) كتبت في مجلة الهلال في عددي مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فصلا عنهم ، وقطعتنى الشواغل عن إتمام القول في شأنهم وشأن « النهضة » التى أحدثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

الرسالة : ٢٠ / « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر

- ١ - « البغدادى » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب » (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) فى مصر .
- ٢ - « الجبترى الكبير » ، « حسن بن إبراهيم الجبترى العقيلى » ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدثك عنه بعد قليل .
- ٣ - « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التميمى النجدى » ، (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .
- ٤ - « المرئضى الزبيدى » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسينى » ، صاحب « تاج العروس » (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .
- ٥ - « الشوكانى » ، « محمد بن على الخولانى الزبيدى » ، (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أن « عصر النهضة » عندنا واقع بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكر هذا ولا تنسه أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللثام عن التعبير الفاضح الذى طفحت به حياتنا الأدبية الفاسدة المهلكة .

هبّ « البغدادى » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فألف ما ألف ليرد على الأمة قُدرتها على « التدقيق » ، تذوق اللُغة والشعر والأدب وعلوم العربية^(١) وهبّ « ابن عبد الوهاب » يكافح البدع والعقائد التى تخالف

(١) اقرأ ما كتبه عن « التدقيق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب

الذى بين يديك .

ما كان عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد ، وهي ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عامة الناس في بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رجّة هائلة في قلب دار الإسلام = وهب « المرتضى الزبيدي » يبعث التراث اللغوي والديني وعلوم العربية وعلوم الإسلام ، ويحيي ما كاد يخفى على الناس بمؤلفاته ومجالسه = وهب « الشوكاني الزبيدي الشيعي » محيياً عقيدة السلف ، وحرّم « التقليد » في الدين ، وخطّم الفرقة والتناؤد الذي أدى إليه اختلاف الفرق بالعصبية = أما خامسهم ، وهو « الجبرتي الكبير » ، فكان فقيهاً حنفياً كبيراً نابهاً ، عالماً باللّغة ، وعلم الكلام ، وتصدّر إماماً مفتياً وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، ولكنه في سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، ولّى وجهه شطر « العلوم » التي كانت ثراثاً مستغلقة على أهل زمانه ، فجمع كتبها من كل مكان ، وحرص على لقاء من يعلم سير أفاظها ورؤوسها ، وقضى في ذلك عشر سنوات (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرموز كلّها ، في الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلّها ، حتى التجارة والخراطة والحداة والسّمكرة والتجليد والنقش والموازين ، وصار بيته زاخراً بكلّ أداة في صناعة وكلّ آلة ، وصار إماماً عالماً أيضاً في أكثر الصناعات ، ولجأ إليه مهرة الصناع في كلّ صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كلّ ذلك بنفسه ، وعلم وأفاد ، حتى علم خدّمه في بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرّخ ، (تاريخ الجبرتي ١ : ٣٩٧) :

« وحضّر إليه طلاب من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك في سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوّة إلى الفعل ، وآستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجرّ الأثقال ، واستنباط المياه ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصت عليك من أخبارهم ، ومن اتّصلهم بالعلم الحثّي عند علماء دار الإسلام ، لحلّ رموز الكتب العربيّة ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ ، ٥٣ - ٥٥) . و « الجبرتيّ الكبير » رحمه الله ، كان على نُحلق أهل الإسلام ، فلم يضمنّ على أحدٍ من هؤلاء الإفرنج بشيءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنّ ، (اقرأ ما سلف : ٤٨) ، بل عمل بما أدبه به نبيّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتُمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » ، ^(١) ولو علم « الجبرتيّ » بجبيئة أنفسهم وهم يتملّقونه ويتخشّعون بين يديه ، فلا أدري ماذا كان يفعل ، وهو الفقيه المُفتي رحمه الله ؟

هذا طَرْفٌ لا يجزىءُ عن « النهضة » التي كانت في دار الإسلام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، قضصته عليك خَطْفاً ، لتعرفَ بعد ذلك ما كان كيفَ كان ؟

• دَوّت أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء دار الإسلام ، وأشتاتٍ غيرهم ، مؤذنةً بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأمة ولُغتها وثقافتها ، واستعادةٍ لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ لبعثها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أو علمٍ مستبين ، بالذى كان يجرى في ديار المسيحيّة الشماليّة من يقظةٍ ونهضةٍ وبعثٍ جديد . ونصيحةٌ وتنبيةٌ : لا تنظرِ إلى الفرقِ الهائلِ الكائنِ اليومِ بين الشمالِ المسيحيّ والجنوبِ الإسلاميّ ، فإنّك إن فعلتَ ضللتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كان حُطوةً واحدةً تُستدركُ بالهمّةِ والصبرِ والدأبِ والتصميمِ لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليقظةَ الأوربيّةَ كانت بعدُ في أوّل الطريقِ وتتكىءُ انكساءً شديداً على ما كان عندنا من

(١) هو حديث أبى هريرة ، رواه أبو داود في السنن ، « كتاب العلم » والترمذى في « كتاب العلم » ، ورواه أحمد في مسنده في مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فضلاً مهمّاً جدّاً في حلّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

العلم المسطور في كتبنا برموزه التي تحتاج إلى استبانة وفهم ، وعلى العلم الحى الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدثك الجبترى المؤرخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبترى الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءة « المستشرقين » عليه ليهتدوا به اهتداءً مما إلى حل هذه الرموز واستبانها وفهمها . وكل الفرق بين اليقظتين يومئذ هو أن يقظتنا كانت هادئة سليمة الطوية منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونصرتها في حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظة » متباعدة الديار ، غير متاسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التوصل ، وشيكة الالتئام = وأما يقظتهم هم ، فكانت متفجرة بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفى ، وشملها مجتمع بالضغينة المتقدمة ، وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والخداع والمكر ، كما حدثتكم آنفاً فأطلت الحديث ... أى هما يقظتان كانتا في زمن واحد ، إحداهما من طبيعتها الرفق المهذب ، والأخرى من طبيعتها العدوان الفاجر ، فأنظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمر أراد الله أن يكون . ودع عنك ما تقوله اليوم حياتنا هذه الأديبة الفاسدة .

• كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأناة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يجوبون دار الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يلاقون الخاصة من العلماء ، ويخالطون عامة المثقفين والدهماء ، (اقرأ ص : ٤٨) ، وفي قلوبهم حمية الحقد المكتم ، وفي النفوس العزيمة المصممة ، وفي العيون اليقظة ، وفي العقول التنبه ، وفي الوجوه البشر والبراءة ، وفي الألسنة الحلاوة والتلق ، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زي ، وتوغلوا يستخرجون كل مخبوء ، (اقرأ ص : ٥٣ وما بعدها) = وكانت بلادهم يومئذ قريبة عهد بعصر النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياء ، فهم على أتم معرفة بأسرار اليقظة كيف تبدأ وإلى أين تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لاجابة فيه أن ما كان يجرى في دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر

الهجري ، (الثامن عشر الميلادي) ، إنما هو « يَقْظَةٌ » حقيقية ، و « نهضة » كاملة ، و « إحياء » صحيح ، مُنبثقُ كُلِّهِ من يُنبوعِ صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمَسَتْ معالمه كُرُّ الدُّهورِ والقرونِ ، هو جميعُهُ في حوزةِ دارِ الإسلامِ ، وهم في يَقْظَتِهِمْ هذه يومئذٍ عالمةٌ عليه ، ولا يَسْتَقُونَ إلا من ثِمادِهِ بعد جُهدِ جهيدٍ ، (« الثأْدُ » ، حُفِرَ فيها ماءٌ قليلٌ) ، فوجَفَتْ قلوبُهُمْ وَرَجَفَتْ من هَوْلٍ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّتْ لدارِ الإسلامِ « اليَقْظَةُ » واستوت وبلغتْ أَشَدَّها ، واستقامتْ خُطواتُها على سَنَنِ الطريقِ .

• وعلى عادة « المستشرقين » التي حَدَّثْتُكَ عنها ، (اقرأ ص : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٦) ، وهُمْ حَمَلَةٌ هُمومِ المسيحية الشمالية ، والذَّادَةُ عنها وَحُمَاتُها المستبسلون ، هبوا هبةَ الفزعِ من هذه « اليَقْظَةُ » ، فتسارعوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ممَّا هو جارٍ تحت أعينِهِمْ في دارِ الإسلامِ . ووضعوه بَيْنًا جَلِيًّا ، مشفوعاً بمخاوفِهِمْ ومُلاحظاتِهِمْ ونُصَحِهِمْ وإرشادِهِمْ ، تحت أبصارِ ملوكِ المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها ورُهبانها ، وبصُرِّوهم بالعواقبِ الوَخيمةِ المَخُوفةِ من هذه « اليَقْظَةُ » الوليدة التي بدأت تَنسَاحُ في أرجاءِ دارِ الإسلامِ . وتناجوا بينهم نَجْوَى طويلةً ، يُقَلِّبونَ النَّظَرَ في أهدافِهِمْ ووسائلِهِمْ ، (اقرأ ما سلف ص : ٤٥ وما بعدها) ، وتبيَّنوا الخطرَ الداهِمَ الذي جَاءَ يتهددهم ، إذا ما تَمَّتْ هذه « اليَقْظَةُ » ، واشتدَّ عُوْدُها ، واستقامتْ خُطواتُها على الطريقِ اللاحِبِ . وببديهةِ العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرٌ ، هو العملُ السَّريعُ المحكَّمُ ، واهتبالُ العَفْلةِ المحيطةِ بهذه « اليَقْظَةُ » الوليدة ، كما حَدَّثْتُكَ آنفاً ، ومعاجلتُها في مَهْدِها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتصبحَ قُوَّةً قَادِرَةً على الصِّراعِ والحركةِ والانتشارِ ، فإنَّ تَمَّ ذلك ، فما هو إلا أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَدَعَةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مغبَّةَ الصِّراعِ المُشتعلِ بين سِلاحيينِ متكافئينِ ، وثقافتينِ مُتكاملتينِ . لا يضمنُ أحدٌ لأَيِّ الفِئتينِ تكونُ الدُّولةُ والعَلْبَةُ والسِّيَادَةُ = ومرةً أُخرى أقول

لك : لا تنظر الآن إلى الفرق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة ، والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تُستدرك باليقظة وبالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر . ولعلم « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فرغهم الأكبر . لا تنس هذا أبداً ، وكُنْ على حذرٍ من الضلال ، ومن التضليل والتغريب الذي تعجُّج به اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، وألسنتها الثرثرة المتشدقة بأوهام « الأصالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزلية : « قضية موقفنا من الغرب » ! يالهُ من عارٍ فاضح ، ويالهُ من عبثٍ رزينٍ مُتعاقلٍ ! ما علينا ؟

• « الاستشراق » كما رأيت قبل هو عين « الاستعمار » التي بها يُصيرُ ويحدِّقُ ، ويده التي بها يُحسُّ ويبطشُ ، ورجله التي بها يمشى ويتوغَّلُ ، وعقله الذي به يفكرُ ويستبينُ ، ولولاه لظلَّ في عميائه يتخبَّطُ . ومنَّ جهل هذا فهو ببدائه العقول ومُسلِّماتها أجهل . فلما فرغ « الاستشراق » فرغت معه كلُّ المسيحية الشمالية ودولها التي كانت أساطيلها تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، وتتوغَّلُ بسيطرتها على سواحلها ، متحسِّسةً طريقها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف ، بالدَّهَاءِ وبالمكر وبالخدِيعَةِ ، وبالتنمُّرِ أحياناً حين يتطلَّب الأمر التنمُّرَ والترويعَ

كانت دُول أوربة كُلُّها في صراعٍ مستميتٍ فيما بينها على نهش أطراف دار الإسلام ، واستنزاف ثروتها وكنوزها وخيراتها بشراهةٍ لا تشبع . وكان أكبر الصِّراع المتوحِّش على الطَّرْفِ البعيد في الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام في دار الخلافة (تركية) أن تصنعَ لإنقاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر . كان أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السَّبْقُ لإنجلترا ،

فأنشأت ما يسمونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أول جهاز استعماري قوي وذلك في سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) ، وتبعها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعماري باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ) ، ولا يغرك لفظ « شركة » ، فإنه في الحقيقة جيش غاز مسلح ، مهمته النهب والسلب وقطع الطريق ، وتخويف الضعفاء الذي لا يملكون عن أنفسهم دافعاً . بدأ الصراع بين « الشركتين » في الهند = أي « اللصين » = صراعاً مستحراً مستميتاً ، وظل محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطاني المحنك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ - ١٧٧٤ م / ١١٣٨ - ١١٨٨ هـ) في معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هي والأسبان وغيرهم من حلبة الصراع في الهند دامية وجوههم وأكبأدهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصيد الغزير .

ففي ذلك الوقت جاءهم النذير ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المدهم الذي تهددهم به « يقظة » دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، وظهور الجبتي الكبير (١١١١ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) في مصر هو والزبيدي ومن قبله البغدادي (انظر ص : ٨١ ، ٨٢) . كان نذير « الاستشراق » مروعاً وحاسماً . أما إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرع مُستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالدهاء والمكر والدسائس جاءت في زى الناصر والمعين لتتدسس إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظة تنقية « الدين » مما تراكم عليه من البدع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتخذ بذلك عندها يداً ، وبهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها ، وأبعدت إنجلترا الرحلة من ناحية أخرى ، تولب عليها من حولها لتطوقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أسلوب بريطانيا حيث حلت من الأرض .

وأما فرنسا التي عادت من الهند تلحق جراح هزائمها ، فكان وقع النذير مختلف الأثر ، مختلف الأسلوب ، في قصة طويلة من تنبه « الاستشراق » لما يجري في دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد في الهند ، فإن لفرنسا نصيباً قريباً تعدد العدة للظفر به ، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيق ، ممكن أن يكون لها عليه السلطان الأعظم . ومن قبل ظلت تدبر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيب في مصر وفي الجزائر ، ومعنى ذلك أنها عادت مرة أخرى تفكر في اختراق دار الإسلام ، الأمر الذي كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكان نذير « الاستشراق » يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المخوفة العواقب ، يقظة « اللغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادي والزبيدي وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبتي الكبير وتلاميذه . « يقظة » في ديار تضم أقدم بيتين من بيوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصلين اثني عشر قرناً مؤثلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يترددان في أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . فاليقظة التي تأتي من قبلهما سوف تؤدي إلى يقظة دار الإسلام كلها ، بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب . فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟

وقيض الله لفرنسا قائداً أوروبياً محنكاً مظفراً شديد البأس ، خواضاً لغمرات الموت ، ضرسته الحروب في أوربة حتى صار اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يقهر ، هو الصليبي المكيافلي المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلما فرغ من حروبه في أوربة منصوراً نصرأ مؤزراً ، أصاح سمعه لنذير « الاستشراق » ، ولتصح وإرشاده ، فقدّر أن الحين قدحان

ليكون أول قائد أوربي استطاع بقوته التي لا تُقهر ، أن يحترق قلب دار الإسلام من الشمال ، وأن يُداهم « اليقظة » التي أرقت منام « الاستشراق » ، وأن يبطش بها في عُقر دارها بطُشة جبارٍ عاتٍ لا يُبقى على شيء ، وفوق ذلك كله : أن يُردّ لفرنسا هبتها التي ضاعت يوم طردتها بريطانيا طرداً مخزياً من دار الإسلام في الهند القصية البعيدة ، وبذلك تنفرد فرنسا وحدها بالمجد السنّي كله ، وتكللها المسيحية الشمالية عندئذ بأكاليل الغار .

وفي أول يوليه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هوى نابليون هوى العقاب على مهّد « اليقظة » في الديار المصرية ، هوى على الإسكندرية فجأةً بجحافل وأساطيله مزودة بكلّ أداة للحرب جديدةٍ مما تمخّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغار « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفة من العلماء في كلّ علمٍ وفنٍّ ، معهم كلّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُستحدث . فاستباح الإسكندرية ودمّر ما دمّر ، ثم طوى الأرض طياً مكتسحاً في طريقه شمال مصر ، حتى دخل القاهرة في العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يوليه ١٧٩٨ م) . وذُعر الخلق ، فبدأ يُداهنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخ » في رجال الأزهر ، كي يستجيبوا لمحالهِ ومخاطلته ، فلما رأى امتناعهم على تطاول الأيام ، عَجَل فأطلق جنوده الغزاة ، ليطفئوا ما استقرّ في قلوبهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأترك الجبرتي المؤرخ يصف لك ما حدث في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، قال الجبرتي ، (تاريخ الجبرتي ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسّيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهَدَمُوا ما وجدوه من المتاريس ... ثم دخلوا إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخيول ، وبينهم المُشاة

كالوعول ، وتفوقوا (أى : قاءوا) بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيوطهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاصع ، والودائع والمحبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبألوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه » . (١)

وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جداً ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماءها ، لم يتكبدوا المشقة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقفار ، إلا ليخرجوا هذه الأمة من الظلمات إلى النور ، أى من عصر الجهالة المظلمة إلى عصر العلم المضىء ، أى لنبدأ « عصر النهضة الحديثة » فى بلادنا نحن ، أو كما يقال !! هكذا ينبغي أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقل لك آنفاً إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحسرات والآهات ؟

• « قصة مقحمة » ، وأنا أصحح تجارب هذه الرسالة لطبيعتها ، وقفت على فصل مهم جداً ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥) ، فرأيتُ أن أقحمها بين الكلامين ، لكى تصحح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرعى وحِدتى يقول الدكتور زكى :

(١) للأستاذ محمد جلال كَشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فقرأه لأنه مفيد .

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطئ الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أي قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بستين ، وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين في تخصصاتٍ علمية مختلفة ، فكان مما صنعه أولئك العلماء ، أن استدعوا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفًا ، مشبكي الأيدي جاراً مع جاره ، ثم يمسون الواقف بسلكٍ مكهربٍ ، فتسرى رعدة الكهرباء في جميعهم ، وأما هم فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاز من تلك الألعاب الصبانية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجديد ، ما يجعل إنساناً موجوداً هنا موجوداً في بلاد الغرب في وقتٍ واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس في علومهم ذلك ، لأنه محال ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحانية .

« وإني لأنظر إلى تلك اللحظة التي قال فيها الشيخ ذلك الذي قاله للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدي ، أنظر إليها على أنها لحظة البدء في أحد طريقتي اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمات . فطريقٌ منها اختاره الرافضون للغرب ، أي الرافضون للعصر وما أنتجه من علوم ترتب عليها ما ترتب من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد ممّا ألا تُقفل أمام العصر الجديد أبوابنا ونوافذنا ، وكانت نقطة البدء في الطريق الثاني هي رفاة رافع الطهطاوى . »

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلق عليه إلا بالتسليم الخاشع لبراعته في تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمته لك هنا متبرّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يملك مثلي أن يُفيدك إيّاه . ونعود إلى ما كنا فيه (ثم اقرأ ما سيأتي في الفقرة رقم : ٢٢) .

• فاقراً الآن معى تاريخك بعين عربيّة بصيرة لا تغفل ، لا بعين أوربية تخالطها نخوةً وطنيّة ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، غفر الله له ذنوبه ، فى كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوّر نظام الحكم فى مصر » .

قضّى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر ، على أكبر قوةٍ مقاتلةٍ فى دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتتهم ومزّقهم كلّ مزقٍ ، وتتبعهم ينهبُ القرى فى الأقاليم ويبيدُ من أهلها ما يبيد . وبقي جمهورُ الأُمّة فى القاهرة أعزلٌ بلا سلاح يدفعُ به عن نفسه ، وبلا حكومةٍ تديرُ شؤونه . واضطرب أمر الناس وماج ، فأنشأ نابليون حكومةً جديدةً سماها « الديوان » ، وهو مهزلةٌ من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدُّ « الديوان » نظاماً جديداً جاء يصلحُ فساد نظام المماليك المصرية !! تعدّه كذلك ، لأنها تنظرُ بعين أوربية تخالطها وطنيّة غافلة . وكُلُّ ما فى الأمر أن نابليون وضع هذا النظامَ الهازلَ الماكر ، لأنه كان قد قرّر فى نفسه أن فرنسًا ينبغى أن تبقى فى مصر إلى الأبد . ومعنى هذا : أن يكون مَصيرُ مصر ، هو مصيرُ « الجزائر » التى اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أظنّك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام فى الجزائر .

بقى هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهرٍ فى القاهرة يخربُ ويفعلُ الأفاعيل ، وفى فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوِّخ سورية بقوّته التى لا تُقهر ، وظلّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهرٍ ، وحاصر « عكّا » ، ولكنّ المقاومة التى لقيها هناك ، اضطرتّه إلى رفع الحصار عنها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشه وعشراتٍ من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانثور » خليله ومستشاره فى شؤون دار الإسلام . كانت

هزيمته في « عكا » هزيمة منكرة ، فآب إلى القاهرة وفي قلبه الخوف من العواقب التي تَفْجُوهُ بها دار الإسلام ، واستشفَّ ببصيرته وذكائه أن أمر الحملة قد انتهى إلى غير رجعة ، وأحسَّ بما تغلَى به القاهرة غلياناً سوف يُفضي إلى الانفجار ، فانتَهز فرصة اضطراب الأمور في بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكرَّر راجعاً إلى فرنسا في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وترك الأمر كُلَّهُ لخليفته « كليبر » ليعانى منه ما يُعانى ، وقد كَتَمَ عنه عزمته على السَّفر ، ثم راوَعَهُ حتَّى رحل قبل أن يلقاه .

• وما كاد « كليبر » يستقرُّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قليلاً ، حتى أفاقت القاهرة من ذهولها واستعدت لمقاومة الغزاة ، وانفجرت الثورة فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس - ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال - ٢٤ ذي القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » في سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريق مجنون من الفظائع والجرائم ، وضرب القاهرة بمدافعها فخرَّب الدُّور والقصور والمساجد والحمامات والنوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقى ذلك كُلُّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتي ، مما لا تزال آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنيَّة ! وأُحمدت الثورة ، وظنَّ « كليبر » أن مصر كُلُّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنأ بظنِّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابُ كاسِرٍ ، هو المجاهدُ « سليمان الحلبي » ، فعاجله بطعنة خنجرٍ في قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلی أيُّها الحراس » ، « وخرَّ صريعاً لليديين وللقيم » ، وذلك في يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيو ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقع هذا المصير ، فنَجَا بجلده هارباً ، وهو يُنشد ما قاله بشَّار بن بُردٍ :

إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةٍ أَوْ نَكِرْتَهَا نَخَرَجْتُ مَعَ الْبَايِ عَلَيَّ سَوَادُ (١)

(١) « أنكرته ، ونكرته » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « الباي » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرج من وكره بقلس قبيل الفجر . و « على سواد » يعني خرج فجراً يلقه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

• ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون في مصر ، « مينو » القائد المكيافلي الشقي الكذاب المنافق الأرعن في يونيو ١٨٠١ م (المحرم ١٢١٥ هـ) . كان حاكماً لرشيد من قبيل نابليون ، فأصاخ سمعهُ لسخفاء « الاستشراق » ومخادعهم الكبار ، فقرر ، أو قرروا له ، أن يتقرب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه « أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانية والأديان الرديئة » ، ^(١) ثم ظن أكذب الظن أنه من أسرة فرنسية عريقة ، فهو خليق بأن يصاهر أسرة من أهل رشيد ، شريفة النسب ، من بيت النبوة ، فأجمع أمره على محاولة التقدم إلى الشيخ الجارم العريق النسب ، أن يزوجه إحدى أبنتيه ، فلم يكذب الخبر ينمى إلى الشيخ حتى أسرع مُبادراً فزوجهما رجلين من المسلمين قبل أن يتقدم إليه هذا الخبيث العريق الحباثة ، ولكن وقع في حبال « مينو » السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ^(٢) فزوجه ابنته المطلقة « زبيدة » في الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطير « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدي إلى رجل عربي مسلم ، في حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، يكون كل تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوء وأناة فقال : « وكانت حادثة زواج مينو ، فريدة في بابها ، لم يسبقه إليها أحد من قواد الجيش الفرنسي ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » . يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة في التعبير ، يعبر العربي المسلم ! ويقول : « تهكم زملائه » ؟ . ^(٣) ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والآهات والحسرات ؟

(١) ما بين القوسين هو نص ما جاء في وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندرى ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسننا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل

مجيء الحملة ، كما سأشير إليه في قضية المشايخ والديوان في الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

(٣) هو نص كلام الرافعي في « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

وبقى « مينو » في إمارته ، يلاقى الأمرين ، وينزل بالناس المصائب والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية في الأرض فساداً وتخريباً ، حتى انتهى جلاء هذه الحملة الجاهلة التي جاء بها الفتى الصليبيُّ المُحترق « نابليون » ليحترق دار الإسلام في أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامع العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمر « اليقظة » التي كانت فيها تدميراً لا يُبقى ولا يذرُ ، ثمَّ كان الجلاء الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

٢١ - ولكن ، هل يليقُ بي أن أكُفِّ ، وأدعَكَ مُصْغِياً إلىَّ تترقبُ بقيَّةَ

الحكاية ؟

... رحلت فلؤلُ جيش الفتى السفاح المغرور « نابليون » ، وجَلَّتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلْقَعاً تَصْفِرُ فيه الرِّيحُ ، وَأَنكَشَحَتْ عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً . (١) كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدُن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبركها ومنتزهاتها ، أقدمَ على تدميرها تدميراً كاملاً بَرَبْرِيٌّ جاهلٌ مُسْتَحْفٍ في زِيٍّ متحضرٍ ! ولكن صار هذا التدميرُ ، في عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسولُ الحَضارةِ الذي جاء ليخرجنا من ظُلُمات الجهل إلى عصر النور والتنوير !! لا تضحك ولا تبك ، ولكن أطرقُ إطراقةَ الخِزْيِ والمهانةِ والعار . وكيف لا تطرقُ إطراقةَ الخِزْيِ إذا انكشف لك الحجابُ عن نية هذا المكيافلي الخبيث . كان

(١) لا تحسب أن « انكشح » عامية ، بل هي عربية صحيحة . « أنكشح القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هدف هذا البريرى المتحضر (!!) أن يجزّب عاصمةً من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركها تاريخاً يُروى في وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ، (١) أى يتركها أثراً بعد عين ، حتى إذا تمكّن في الأرض هو وجنسه ، أنشأ على أنقاضها البائدة مدينة فرنسيّة جديدة ، تعبّر تعبيراً فصيحاً عن العبقرية الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسى ، والرقّة الفرنسية !! يعمرها يومئذ شعبٌ فرنسى أصيلٌ كريم المحتد ، يخدمه شعبٌ عربىٌ مستأنسٌ مروّضٌ ترويضاً حسناً على إلف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسى الخالد ... كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث في دار الإسلام في « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المحرّبة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كل جنس ، سرّقوا كلّ نفيس من الكتب ، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائمٌ بين أعيننا إلى هذا اليوم ، يصيحُ شاهداً على نفسه بالسّطو على ذخائرنا التى يمتنون علينا بعد ذلك ، في حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٥٤ ، ٥٥ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائمٌ في جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وروسية وغيرها من البلدان ، وفي الأديرة والكنائس ، وفي جميع أرجاء العالم المتحضر !! وكان همهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب « علوم الحضارة » أولاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كلّها بلا تمييز . ورحم الله

(١) هو كتاب « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجّلوا فيه كلّ صغيرة وكبيرة في مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخية ، يتلذذون بها حين يقرأونها .

الشيخ الجبرتي المؤرخ ، فإنه أرخ لدمار القاهرة ، ولكنه بغفلة لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية إلا في مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح ، وإنما هي الحسرة لا غير . من ذلك أنه ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتي ١ : ٦) بعد أن عدّد أسماء كتب التاريخ التي كانت في القاهرة ، ثم قال :

« قلت : وهذه أسماء من غير مسميات ، فإننا لم نر من ذلك كُله إلا بعض أجزاء مدشّنة بقيت في بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدي الصحّافين ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهم .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتي ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجللاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم ، ولو التي سرّوها من مصر » ، هكذا في الشرط ، والصحيح : « ولو التي سرّوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتي ما كان أشدّ غفلة عن أمور كثيرة لم يذكرها واضحة ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتي الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمر نفسه في مغمّة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرها . و « لعل له عُذراً وأنت تلوم » .

• لم يكن هذا السطو الجائع على كُتب دار الإسلام في القاهرة ، والذي تولى كبره « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعاونهم من اليهود ومستشركي سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً مجرداً رغبة « الاستشراق » في أداء عمله ، من استمدادٍ لثقافة أممه من علم دار الإسلام المسطور في الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ - ٤٩ - ٥٤ -

٥٦) ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغاية الأولى المقدّمة على كل غاية ، هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب « اليقظة » التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مَهْدِها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم . ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ ، هي التي يَسَّرَتْ الطريقَ إلى هذه « اليقظة » التي حمل عبء البدء بها « الجبرتي الكبير » وتلامذته ، و « البغدادى » و « الزبيدي » وتلامذتهما ، فكان لا بُدَّ للاستشراق وقلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله ، فهو الهدف الأكبر : وأد « اليقظة » في عُقر دارها . وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء ، وما عمّ أحياءها من الثَّوَارِ والفتن الكبار والصغار ، ثم قمعها بفجور وشراسة ، وتحضُّر أيضاً ، = كان ذلك كله حدثاً متبادياً كافياً أدى إلى تشتيت شمل تلامذة « الجبرتي » و « البغدادى » و « الزبيدي » وتفرقتهم في الأرض ، وضياعهم في الهرج والمرج . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفّاحين العتاة ، أن يكون دُهاة « الاستشراق » على علم بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يترددون على البيت العامر بالصناديقية ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقروا على صاحبه « الجبرتي الكبير » ، كما حدثتكَ آنفاً ، (اقرأ ص : ٨٣) = لا أستبعد أن يكون وكر « الاستشراق » قد أغرى سفهاء السفّاحين بتعمد قتل بعضهم غيلةً أو جهرةً ، لا أستبعد ، والله أعلم أى ذلك كان . فكان السبب الأكبر الدافع إلى هذا السطو الجائع ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايا » من تلامذة أئمة « اليقظة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليقظة » ، وهي الكتب النفيسة ، وأن يتركوهم في نخبة القاهرة حسرى حيارى حيرة « الجبرتي » الصغير المؤرخ ، حين شرع في تأليف تاريخه ، فافتقد كتب « التاريخ » التي « ذهبت بقايا بقاياها في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسييس ما وجدوه إلى بلادهم » ، أو كما قال . حسرة قاتلة ، ولكن حياتنا

الأديبة ، أو نهضتنا الحديثة ، كما يسمونها ، لا تلقى بالأى إلى حصرة مسكين بائس حائر
كالجبرتى الصغير !

• وُئدت « اليقظة » أو كادت ، وُخربت ديارها أو كادت ، واستوصلت شأفة
أبنائها أو كادت ، واقتلعت أسبابها بالسطو أو كادت ، والحمد لله على نعماء « الحملة
الفرنسية » التى كان سفاحها المبير « المتحضر ! » ينوى أن ينشىء لبقايا السيف
والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهذمة « قاهرة جديدة » ، يستمتعون فيها بجمالها
وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقصورها ومنتزهاتها ، ويتبخثون فى شوارعها خدماً فارهين
للسادة الأحرار أبناء « الحرية والإخاء والمساواة » !

لقد شغلتنى قصة وأد « اليقظة » وقصة الخراب والتدمير ، وقصة السطو الدنىء
= شغلتنى عن ندالة هذا السفاح الصليبي المبير ، وما كان من بشاعة سفحه الدماء فى
القاهرة ، وأوامره إلى قواده فى الأقاليم أن يوغلوا فى سفك دمائ « الترك » ، أى المسلمين
المصريين ، وأن يتشبهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كل يوم خمسة أو ستة ، ويأمر أن
يُطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع
هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، (١) فى
قصة طويلة فظيعة ليس لها شبيهة ، هى أفضع من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهاز المستكن فى أحشاء
« جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يربأ لهما ويهديهما الطريق ، (« يربأ » ، يرقب من

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت

هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قواده فى يوليه سنة ١٧٩٨ .

مكان عال ويتطَّلَع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامًا في أودية الضلال . كان هذا الجهاز الخبيث المتخفى في عبادة العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًا بدار الإسلام وأهلها وسكانها ، منذ انساح في قلب دار الإسلام في تركيا وهو يدبُ مستخفياً في أرجائها ، ثم في الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٥٣) = ومنذُ مُقامه في دار الإسلام في الهند أكثر من مئة وخمسين سنة ، في ظلّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ٨٧ ، ٨٨) . كانت خبرةً متغلغلةً بجماهير الأمة مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروف الاسم والمكان والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوة ، وبمكامن الهوى الميال الذي يستجيب ، والإرادة المصممة التي تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظمّةً واضحةً المعالم في ذهن « الاستشراق » . ومع تطاول السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهود وشذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهم لتوسيع رقعة خبرته تارةً ، ولبث أفكارٍ مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصتها وعامتها ، وللتحكّم في تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أخرى = ثم للتمكّن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتنٍ تفرّق شمل الناس وتمزّقهم وتشغلهم عن الكيد الخفى الذي يُراد بهم . كلُّ هذا كان يتمُّ في هدوءٍ وصبرٍ وتسترٍ ، ومن وراء العقلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع في كلِّ زيّ : زيّ التاجر ، وزيّ السائح ، وزيّ الباحث المنقّب ، وزيّ العالم الذي لا يشغله شيءٌ غير العلم ، وزيّ المُسلم الذي رضى بالله ربّاً وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٥٣) .

فالحملة الصليبية الفرنسية التي استجابت لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكناً في أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يُرشدُه « الاستشراق » ويهديه . وهي لم تُقدِّم على اختراق دار الإسلام في مصر ، إلا وهي مُزوَّدة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسُكَّانها ، ومدخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامتها وسوقها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءت ومعها الدجالون العتاة « علماء الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبرائها وأعاونها من اليهود وشذاذ الآفاق ، وكلُّهم يدُّ واحدة على إحداث انبهارٍ مفاجيء يصدمُ وعى الشعب خاصته وعامته صدمةً تذهله عن المكر المَسْتور المُفضى إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتيح للغزاة تثبيت أقدامهم في الأرض والسيطرة عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تدع للمقاومة طريقاً إلا طريق الاستسلام العاجز للمصير المُظلم ، مَصِيرٌ مُعْتَم لا يستفيقُ الشعبُ إلا وهو مُرتكسٌ في ظلماته عاجزاً غير قادرٍ على طلب الخرج من ظلماتها المدهمة ، في « القاهرة جديدة » زاهرة زاهية الألوان ، قامت على أنقاض « القاهرة قديمة » مدمرة غابت في قنم الذكريات !!

• كان أول الطريق إلى هذا المصير المُظلم إنشاء « الديوان » ، ^(١) وليس يعينني هنا من أمره شيء إلا خبوه المدفون فيه ، والخدعة التي ينطوى عليها ، فيما تصوَّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يولييه ١٧٩٨) ، وذكر في أمر إنشائه أسماء مشايخ

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهم الرافعي ! ، تحكُم القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة في « تاريخ الجيرقي » ، أو في « تاريخ الحركة القومية » للرافعي ، ولكن اقرأها بعين عربية بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعي وغيره .

بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكر المفاجيء وحده دليل على أن الأمر كان مُعدًّا إعدادًا كاملاً قبل أن تطأ قدمه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد آخترت بعد تدبير مُحكم ودراسة قام بها « الاستشراق » وأعوأته منذ فكر في شنّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » .^(١) ومعنى ذلك أنه يريد أن يُودع سلطة الحكومة الظاهرة الموهّبة ، في يد فئة ذات هيبة عند الناس ، وأن يكونوا جميعاً ممن يُمكن أن يستجيبوا بشكلٍ ما استجابة تدين بالولاء لجيشه الغازى ، ليروض بهم قوى المقاومة ويخدعها ويفتت في عضدها . وهذا شيء لا يُقدم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خبرة سابقة بأصحاب هذه الأسماء وبمواطن ضعفهم التى تقعدُ بهم عن المقاومة ، وتُسؤل لهم أن يُحسنوا « استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كُله إلا عن طريق جهازٍ مدربٍ قد طال عهده باختبار الناس وتقصى أحوالهم من قريب . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذى كان يعرف لغة أهل البلاد ، والذى كان يتجول فى الأرض المصرية من قبل ويلبس لأهلها كل زيّ ، كما حدثتكَ آنفاً . وكل المنشورات التى كان أصدرها هذا المكيفلى ، لتلقى وتذاع على المصريين منذ أول دخوله أرض مصر ، تدل صياغتها على أنّ صاحبها وصاحب مضمونها له خبرة طويلة بألفاظ أهل الإسلام ، وبعقائدهم ومشاعرهم . فبيّن أنّ صاحبها هو « الاستشراق » لا غير ، وهو يظنّ أنه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنه بهذه الصغائر السخيفة قادرٌ على أن يخدع أمة كاملة عن قتال عدوها الغازى ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداع السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ،

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ١٠٤ .

هو اندلاع الثورات في أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، وأكبرها ثورة القاهرة وأحيائها في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بحرافه وعُدِّه ، فارتكب في قمعها من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء أيضاً ، وسفح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنه نذر وأوفى بنذره أن يزيد ، فيضحى عند مشرق كل شمس بخمسة أو ستة ، تقطع رؤوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة ، كما أسلفت (ص : ١٠٠ تعليق : ١) . ولا شك عندى أن هؤلاء الخمسة أو الستة هم من طلاب العلم في الأزهر ، ومن المحرضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام = وأن « الاستشراق » هو الذى كان يقدمهم لهذا الجزار المشمعل ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابيين من ورثة « الجبرتي الكبير » و « الزبيدي » ، أى أنهم كانوا من طلاب « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شىء لوأدها فى مهدها . وإلا فحدثنى ما كان معنى اختصاص خمسة أو ستة بالذبح عند مشرق كل شمس ، وهذا هو وجنوده يعيشون فى الأرض ويذبحون المئات من صناديد المقاومة ومعاوير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبرتي المؤرخ » ، فإنه سقط عنه فى كتابه أن يقيد لنا أسماء القتلى ، وصيفاتهم ، وأسماء هذه الذبائح الذى كان يضحى بها جزّار القاهرة . « لعل له عُذراً وأنت تلوم ! »

• كان « الاستشراق » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يوجهه ويلقنه ويدربه على أساليب المداينة التى يظن أنها تروج على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانور » المستشرق الداهية المحنك المتستر الخفى

الوطء ، ^(١) (انظر ما سلف ص : ٩٣) ، كان خليل نابليون وَنَجِيَّهُ الذي لا يفارقه في الحَلِّ والتَّرْحَال ، فهو الذي أَوْحَى إليه ما أَوْحَى ، وأَوْهَمَهُ أن « تدجين » المشايخ الكبار من رجال الأزهر في « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يألف البيوت من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام في مصر حتى تستكين له وتخضع ، وظلَّ هذا الوَحْيُ الجاهل الساذج كامناً في أحشاء الجُزَّار ، ولم تعظه ثورة القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهر من مجيئه ، ولا وعظته هزيمته في « عكا » ، فإنه بعد فراره بنفسه من مصير محتوم ، كما أسلفت (انظر ص : ٩٤) كتب رسالته إلى « كليير » كبشِ الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجب أن تحذر رُوحَ التعصُّب وتُنوِّمها إلى أن تتمكن من استئصالها . إذا حُزت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنَّكَ تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها ، وأفكار كلِّ زعيم من زعماء الشعب . لا شيء أقلَّ حَظراً من المشايخ الذين يرهبون القتال ولا يعرفون طُرُقَه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصِّبين » . ^(٢)

ومسكينٌ هذا الجُزَّار ، فإنَّ تدجين المشايخ الكبار في « الديوان » ، لم يمنع الثورة أن تقوم ، وذلك لأن « المشايخ الكبار » لهم عند عامة المسلمين ، هيبة العلم ، وطاعتهم

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجول في دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجيرتي : « كان ليبياً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية واليطيانية والفرنساوية » ، تاريخ الجيرتي ٣ : ٦٨ ، وسماه « فتوره » .

(٢) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملة في كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أما الرافي في « تاريخ الحركة القومية » ، (٢ : ٩٧ - ١٠١) فإنه بعثر الرسالة بعثرة مفسدة ، لينزع منها سُمها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتي بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الرافي .

واجبة علينا فيما هو طاعة لله ولرسوله ، ولكن هيبة العلم ليست بممانعة جماهير الأمة من عصيانهم وترك طاعتهم إذا هم خالفوا صريح أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغزاة لدار الإسلام ، فإن قتال الغزاة عند المسلمين واجب وفرض عين على كل قادر على القتال ، إلا في حالة واحدة : إلا أن يخافوا أن يضطلّمهم العدو لقلّة عددهم وكثرة عدد العدو ، (« اصطلمهم العدو » ، استأصل شأفتهم وأبادهم) ، فجائز عندئذ أن يلقوا إليهم السّلم ، (« ألقى إليه السّلم » ، استسلم له وصالحه) ، بيد أن في قتالهم الشهادة ، وهي إحدى الحُسنيين ، (« الحُسنيان » ، النصر أو الشهادة) . وفي حالة هذا الجزر ، أن جيشه قلة فاجرة تغزو كثرة مسالمة تفرّق عنها حُماتها من جيش المماليك المصرية ، فصار واجبا على الكثرة أن تقاتل هذه القلة بكلّ سلاح ما استطاعت إليه سبيلاً . ولذلك لم تستمع الأمة عامتها وخاصتها للمشايخ المُدجّنين في « الديوان » لمهادنة الغازي ، واستمعت لصغار طلبة العلم في الأزهر الذين رفضوا نصيحة المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعة لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورة القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسير ليس هذا مكانه الآن ، ولكنهم ضعّفوا وجّبوا وأخطأوا على كلّ حال (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجح أن هذا الجزر وشيطانه المستشرق « فانتور » ، لم تنفعهما عظة ثورة القاهرة وهزيمة « عكا » ، لأن غياب « الاستشراق » وغطرسته وتعالیه لم تمكّنهما من فهم هذه الحقيقة التي دلّت عليها الثورة الجائحة التي هدّدت مصير الحملة الفرنسية وحدّدت تحديدًا ظاهراً أدى إلى أن يلوذ جزّارها بالفرار ، تاركاً مصير حملته وخليفته « كليبر » للمقادير تقضى فيهما قضاءها . لم يفهم هذان العُلجان ، (« العُلج » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسّمياها « تعصّباً » ، مع أنها إحدى

البدائيه المسلّمة ، لأن دفع عدوان الغازي وكرهيته حقّ طبيعيّ لكلّ جماعة من البشر يغزوها غازٍ في عُقرِ ديارها ، بديهيةً مُسلّمة بلا ريب = وأخطأ أيضاً في تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقسيسين في ديار المسيحية الشمالية ، لأن المشايخ لا حُرّيّة لهم وراء الكتاب والسنة ، والأمة كلّها مطالبّة أن تحاكمهم بما يوجبهُ الكتاب والسنة . أما القسيسون فالإيدي وحدهم الحكم المطلق بأرائهم ، ليس لأحد من رعاياهم أن يسألهم ، وليس في أيدي رعاياهم شيء يحاكمونهم إليه ، وإنما هي الطاعة المُصمّنة لحكم الرهبان والقسيسين . وهذا فرق ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يعمى عنه إلا « مستشرق » ، وجزّار .

• أيقنَ الجزائرُ وشيطانُه « فانتور » أن تدجينَ المشايخ الكبار في « الديوان » قليلةٌ جدواها فيما كانوا يُؤمّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومهادنتها للغزاة . أرقبهما خيبةُ الأمل في تدجين المشايخ ، فلما خرجا إلى سورية لتدوينها وطال حصارُ « عكا » ، وأيقنا بأخرة أن الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أيقنا أيضاً أن محاولة اختراق دار الإسلام بالسلاح كانت زلّة لا تُقال عُثرُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجع . وكلّ الدلائل كانت تدلُّ على أن دار الإسلام في مصر = بعد تمزّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماة مصر = قد بدأت تُخرج من غمار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفتك بالحملة القليلة العدد ، وإن كانت مُزوّدةً بأحسنِ العدد . ومع ذلك لم يبأس الجزائرُ المغرورُ أن تجرى المقادير على وفق آماله ، وعسى ولعلّ ، فربّما كانت الغلبة لهذه القلّة المزوّدة بما ليس في أيدي الجماهير الكثيفة مثله من سلاح متفوق . عسى ولعلّ ، وبينا النيّة على هذا الأمل ، وبحثا عن وسيلةٍ أخرى يُقدّران أن تكون أبلغ أثراً ، وأجدى في السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصارُ « عكا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف

ص : ٩٣ ، ٩٤) ، وتخلّى عن الجزائر شيطانه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفَ الببال ، ثم رحل عنها بعد قليل إلى فرنسا ناجياً بحُشاشةٍ نَفْسِهِ من مَصِيرٍ كان كأنه يراه ماثلاً عياناً . ولم يكد يستقرُّ حتى أرسل إلى « كليبر » ، خليفته على مصر ، رسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكن رَوْعَ « كليبر » ويسدّد خُطاهُ في سياسته في مصر !! والذي يهمنى هنا من هذه الرسالة ^(١) = وقد اقتبستُ منها آناً ، (ص : ١٠٥ / تعليق : ٢) = ما جاء في خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السفنُ الحربيّةُ الفرنسيةُ بلا ريبٍ في هذا الشتاء أمام الإسكندرية أو البُرس أو دمياط . يجب أن تبني برجاً في البُرس .

« اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصٍ من الممالك ، حتى متى لاحت السفنُ الفرنسيةُ تقبضُ عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفّروهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً كافياً من الممالك ، فاستعِضْ عنهم برهائن من العرب ومشايخ البُلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يُحجزون مدةً سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثناءها عظمة الأُمَّة (الفرنسية) ، ويعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولَمَّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتُ قد طلبتُ مراراً جوقةً تمثيليةً ، وسأهتُمُ اهتماماً خاصاً بإرسالها لك ، لأنها ضروريةٌ للجيش ، وللبَدءِ في تغييرِ تقاليد البلاد .

(١) ينبغي دراسة هذه الرسالة بعناية ، وبنظر صحيح غير النظر الذي ذهب إليه الراجعي في كتابه .

• وقبل كل شيء ، ينبغي أن أقطع سياق الكلام ، لأقف بك على ضرب شنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوُّثها بالأهواء الغالبة التي تستخفي ، ثم تستهين بعقلي وعقلك . فأول من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض في كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعني الرسالة) محفوظ بالنصّ الأصليّ في وزارة الحرية الفرنسية (وثيقة نمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثر له في اللغة العربية ، رأينا أن نأتي على تعريبه بدقّة وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور في سنة ١٩٢٥ ، فجاء الراجعي ، غفر الله له ذنوبه في ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها في كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٢ : ٩٧ - ١٠١) ، أي بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالته (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهي وثيقة على جانبٍ عظيم من الأهمية ، كتبها بامعانٍ وتفكير ... وهي رسالة مطوّلة أشبه بتقرير وإف ، لذلك رأينا أن نعربها مع شيء من الشرح والبيان » .

والغنى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابه وترجمته ، مع أنه يعرف الكتاب وصاحبه بلا شكّ عندي أنا خاصّةً ، ^(١) واستأنف للرسالة ترجمةً جديدةً ولم يسقها متكاملةً ، بل بعثها وقطعها وجزأها في نحو خمس صفحاتٍ من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذي نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتي :

(١) بل أقول لك : إن كتاب الراجعي إن هو إلا تطبيق للبرنامج الذي وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتاب في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذي سنّ للراجعي الطريق بلا شكّ ولا ريب ، ومع ذلك فلم يذكره الراجعي بكلمة واحدة في مقدمته أو في كتابه !

« وتعرّضَ في رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفتته التفكير فيها »
« في تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من رهاثن العرب ومشايخ البلاد (العمدة) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، في حالة استئناف المواصلات البحرية ، ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك : [أن يروا عظمة الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغتنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم] .

« ثم وعدَّ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقةً من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل [لتسدَّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية] » .

والاختلاف بين النصين بينٌ جداً ، ودلالة أحدهما غير دلالة الآخر ، ومعناه غير معناه . فرَّق بين : « يعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولما يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنَّ الأوَّل دالٌّ على أنه يريدُ أن يَسْتَفْسِدَهم ويَهْرِمَهم ويَعْدِمَهم ويمتئهم ، ويكوّن منهم في مصرَ حزباً تحت سيطرته يكون نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسسة على مكيافلية نابليون = أما الثاني فإنه ينزِعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمرُ كُلَّهُ أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجردُ أمنيّة ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول في قوله في شأن فرقة الممثلين . فرَّق بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبداء في تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدَّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأوَّل دالٌّ على غرضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ،

فهذه أيضاً سياسة مكيافلية = أمّا الثاني فإنه ينزَعُ أيضاً سَمَّ العبارة ، ويجعلُ الأمرُ كُلَّهُ مجردَ عرضٍ شيءٍ جديدٍ على الناسِ حتى إذا استحسنوه أَلْفَوْهُ ، وهذه مجردُ أمنيّةٍ ساذجةٍ تكونُ أو لا تكونُ . هذا كُلُّهُ فضلاً عن مقدّمة الرافعي التي تجعل هذه السياسة المكيافلية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا نَخْطُرُ لَهَا ، يا سبحان الله !!

فنصُّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصِّ ترجمة الرافعي ، وأدُلُّ على سياسة جزّار القاهرة ومدّمِّرها ومُفسِدِ أخلاقِ الشدّاذِ من أبنائها مدة إقامة جيشه فيها . وليس النصُّ الفرنسيُّ بين يديّ الآن ، ولكنّي أرى في أولهما الأمانة وسلامة الطويّة ، وفي ثانيهما ترك الأمانة وتبييت النية على نزع سَمِّ العبارة إكراماً لنا بليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين في كتابيهما كان كاتباً مُدَجِّناً ، وكان صَغُوه ، (أى مَيْله) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنسا مصدرِ الثور والتنوير !! وكما يقول المثل العامّي : « ما أسخِم من سِتّي إلا سيدي » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فسّاداً يستعصى على الإصلاح الشامل السّريع الأمين . وقبيحٌ جدّاً أن تتغاضى حياةً أدبيّةً عن مثل هذا القُبْح ، فضلاً عن أن ترضاهُ ، فضلاً عن أن تتواصى به حتى يكونَ سنّةً مألوفةً ، لا يكادُ ينكرها قارىءٌ أو أديبٌ أو أستاذٌ ، وإلْفُ القبيحِ مَتَلَفَةٌ للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلُّهُ سببٌ واضحٌ ، سوف أحدثك عنه في الفقرة التالية :

٢٢ - لَمَّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشاغخ في يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام في غفلة هائلة شاملة أحدثها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدفّق جيوش دار الإسلام في قلب أوربة ، وعَمِيَّتْ دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة

والحديث في ديار المسيحية ، والتي قامت على الإصرار والمجاهدة والمثابرة وإصلاح خلل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى انفكت عنها أغلال « القرون الوسطى » بعثة ، وانبعث نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كفة المسيحية الشمالية ، وانخفضت كفة دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٣ - ٤٥) .

ويومئذ تحددت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحددت وسائلها ، ولم يغيب عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لا بقعة السلاح ، وما هو إلا سلاح العمل والعلم والتفوق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الصبر والمكر والدهاء واللين والمداهنة وترك الاستشارة ، استثارة عالم ضخم مجهول ما في جوفه ، ولا قبل لهم بتدقيق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « الترك » الظافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦ - ٥١) . وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفي الوطء يخترق دار الإسلام في تركيا والشام ومصر والجزائر لابساً كل زي : زي التاجر ، وزي السائح ، وزي العالم الباحث ، وزي المسلم طالب العلم ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفي الألسنة الحلاوة والخلاصة والمماذقة . وعلى مر الأيام والشهور والسنوات ، توغلوا زرافاتٍ ووحداناً في قلب دار الإسلام يأخذون أهلها من وراء الغفلة ، ويستخرجون كل مخبوء كان عنهم من أحوال الخاصة والعامة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاء ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويزورون (أى يختبرون) القوة والضعف ، والذكاء والغفلة ، وتدسسوا حتى إلى أخبار النساء في خدورهن ، ولم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجموه ، وفتشوه وسبروه ، وذاقوه واستشفوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٥٣ - ٥٦ / ٨١ - ٨٦) .

مضت السنون و « الاستشراق » في عمَل دائب وتدييرٍ متمادٍ ، وسياحةٍ في دار الإسلام ، ولا يكفون عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بكلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما خبروه من الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعدُّون ما استطاعوا من عُدةٍ لردِّ غائلة الإسلام ثم قَهَره في عُقر داره ، وتحقيقِ الأحلام والأشواق التي كانت تُخامرُ قلب كلِّ أوربيٍّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٤٨ ، ٤٩) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلاديُّ ينصرم ، كانت تركية لم تفقد بعد هويتها في قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصة الحرب الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتي انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتي هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِر فيها لويس التاسع ملك فرنسا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعلوا في « دار ابن لقمان » ، وتولَّى أمر حراستهم الطواشي « صبيح » ، وذلك كان في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلاديِّ ، أي بعد أربعة قرون ، كان أوَّل من حرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام في مصر ، هو الفيلسوف الرياضي الألماني « ليينتر » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسي ، وقضى أربعة أعوام في باريس (١٦٧٢ - ١٦٧٦ م) ، في بلاط لويس الرابع عشر ، فقدم إليه في سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحرضه فيه على اختراق دار الإسلام في مصر ، ويقول له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق (أي في دار الإسلام) ، إلى ما شاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثنائها ، وهناك لا تخسرون عطف أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فأعجب

لفيلسوف رياضي ألماني لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسب عطف المسيحية الشمالية وتستحق ثناءها ، وتضمن بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاء الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « لينتز » الفيلسوف الرياضي !! منبهةً لسانة فرنسا على غزو دار الإسلام في مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يكن ذلك من « لينتز » عفو الخاطر ، بل كان عن متابعة واعية لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويؤيدون متقفى المسيحية الشمالية بما خبروه وسبروه من دخائل دار الإسلام في مصر وغير مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملة هموم المسيحية الشمالية ، والمجاهدين المتبتلين في سبيلها ، كما حدثتكم آنفاً في مواضع متفرقة .

وظل هذا التحريض كامناً في قلب ساسة فرنسا منذ منتصف القرن السابع عشر ، وهو ينمو على الأيام ، وينمو معه الإعداد لغزو دار الإسلام في مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دي شوازل » ، الذي طمع أن تحتل فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضات مع تركيا ، التي بدأت تضمحل قوتها وهيبتها ، والتي شجب سلطانها على مصر وكاد ينحل ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته في سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة ١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا في الأستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنة يرقب اضمحلال تركيا ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام في مصر ، فكتب غير مرة إلى حكومته يحضها على احتلال مصر ، تحقيقاً لمطامع « دي شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دي توت » ، المجرى الأصل الذي استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركيا ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركيا في سبيل الانحلال لا محالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته

الحكومة مرة أخرى إلى ثغور الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم تقريراً إلى الحكومة يبين فيه مزايا احتلال مصر وسهولة تحقيق هذا الاحتلال . ثم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً في شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأن ذلك يكسب فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم . وفي هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسا في الإسكندرية المسيو « مور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمن رأيه في قرب تفكك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريره مؤيداً لتقارير « دي سان بريست » و « البارون دي ثوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية ترددت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركيا ، القائم ظاهراً على الود والصدقة ، وتحسباً ، للبودر التي ظهرت مقدّمة للثورة الفرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر في يناير ١٧٩٣ م ، وتتابع شكوى التجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة المماليك المصرية وما يلقونه من العنت ، فعينت الحكومة المسيو « شارل مجالون » قنصلاً عاماً لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون » هذا تاجراً فرنسياً أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشغلاً بالتجارة ، (١) فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيناً فيها عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين في مصر ، ومصرحاً بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردّهم ، وحرّض حكومة الجمهورية على أن تتأهب لاحتلال

(١) انظر أى خيرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مقامه في دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو في حيز « الاستشراق » بلا شك ، كما سترى .

مصر . وفي سنة ١٧٩٧ م ، ارتحل « مَجَالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضُّ رجال الدولة على احتلال مصر ، ويبين لهم المزايا التي تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بأراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر في سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أي بعد تحضيض « مجالون » بسنة واحدة .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفة عيني عن مقدّمي هذه التقارير والمذكرات التي رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً بيديها العقل ، لأنّه صاحبُ الفضل الأوّل في نشأة طبقة الساسة الذين هم رجال « الاستعمار » ، والذين توجّهوا كلّ التوجّه لإعداد العُدّة لاختراق دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٩) ، و « الاستشراق » هو الذي كان يُمدّهم بخبرته الواسعة المتبادية بأحوال دار الإسلام ، ولولاه ما عرفوا قبلاً من دَيبير = ولأنّه أيضاً كان دائم الحضور في دار الإسلام أبداً ، يلاقى الخاصة من العلماء ، ويخالط العامّة من المثقّفين والدهماء ، ويستخرجُ حَبء ما في هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكلّ دقيق وجليل يوماً بعد يوم ، في ملاحظة واعية لا تغفل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٤٨ ، ٥٣) .

ولو تأملت قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ م ، ثمّ ما جاء بعد مئة عام ، من طَمَع الدوق « دى شوازل » في مفاوضة تركية في أمر التنازل عن مصر لفرنسا في سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى ثوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٣٦ م إلى سنة ١٧٨٣ ، وبعدهما المسيو « مجالون » من سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعام واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضورُ طلاب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءتهم علم

الهندسة على الشيخ الجبّرتي الكبير في سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ما سلف : ٨٣) =
لو تأملت هذه التواريخ لرأيتها جميعاً واقعةً وقوعاً تاماً في عصر يقظة دار الإسلام ونهضتها
الصحيحة التي تولّى أمرها الخمسة الكبار من رجالنا ، وهم : « البغدادي » في مصر ،
(١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبّرتي » الكبير في مصر ،
(١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، في جزيرة
العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزبيدي » في
مصر ، (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) ، و « الشوكاني » في اليمن
(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ما سلف : ٨٢) . فهذه
« النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفها على حقيقتها ، ولا يعرف مَعْبَتها غير
« الاستشراق » ، فيومئذ هبَّ « المستشرقون » ، حملة هموم المسيحية الشمالية ، هبوا هبةً
الفرع ، وتسارعوا ينقلون كلَّ صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيناً جلياً تحت أبصار ملوك
المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورهبانها ، وبصروهم
بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبينوا لهم الخطر الداهم الذي جاء
يتهددهم إذا ما تمَّ تمام هذه « اليقظة » واشتدَّ عودها ، واستقامت خُطواتها على الطريق
اللاحب = وأنه ليس للمسيحية الشمالية خيارٌ سوى العمل السريع المُحكّم ، واهتبال
الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومُعاجلتها في مهدها قبل أن يتمَّ تمامها ويستفحل
أمرها ، وتُصبح قُوَّة قادرةً على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تمَّ ذلك ، فما هو
إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جدَّةً ، وعندئذ لا يضمنُ أحدٌ مَعْبَةَ الصراع
المشتعل بين سلاحين مُتكافئين ، وثقافتين مُتكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأىِّ الفئتين
تكون الدُّولة والغلبة والسيادة . فزِع « الاستشراق » لعلمه أن الفرقَ بيننا وبينهم كان
يومئذٍ خطوةً واحدةً تُستدركُ باليقظة وبالهمة والصبر والدَّابِّ لا أكثر ، (اقرأ ما سلف : ٨٦ ،
٨٧) . وكما ترى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عينُ « الاستعمار » التي بها يُصير

ويحدِّق ، ويدهُ التي بها يُحسُّ وبيطش ، ورجلُهُ التي بها يمشي ويتوغَّل ، وعقلُهُ الذي به يفكر ويستبين ، ولولاهُ لظُلَّ في عميائه يتخبَّط ، (ما سلف : ٨٧) .

وقد حدثتكَ من قبل ، (اقرأ ما سلف : ٨٨ ، ٨٩) أن نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدلِّهم الذي تهددهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروِّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قام « محمد بن عبد الوهاب » ، وبالدهاءِ والمكرِ والدسائسِ جاءت في زِيِّ الناصر والمعين ، لتندسَّسَ إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتخذَ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتويها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّب جاراتها وتخوفهم ، لتطوِّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التي طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فأبت إلى ديارها تلعقُ جراحها ، وجعلت تُعدُّ العُدَّة وتفكرُ في اختراق دار الإسلام في مصر ، لواد « اليقظة » المخوفة العواقب التي بعثها « البغدادى » . و « الزبيدى » و « الجبرتي الكبير » في مصر ، فهي « يقظة » يُحشى أن تؤدَّى إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب ، فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟

أظنُّه بات الآن منكشفاً لك كلَّ الانكشاف ، حَبُّ العلاقة بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذٍ في دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكرات التي كتبها رجال « الاستعمار » من ساسة المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلَّ الانكشاف ، أنه لولا خيرة « المستشرقين » حملة هموم المسيحية ورهبانها المتبتلين الذي كانوا يجوبون دار الإسلام ويُقيمون فيها فيطيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاء الساسة بالملاحظات والمخاوف ، كما اتفقت هذه التواريخ هذا الاتفاق البين الذي عميت عنه اليوم حياتنا الأدبية الفاسدة كلَّ الفساد ، وألستُّها الثرثرة المتشدقة بأوهام « الأضالة

والمعاصرة» و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزلية « قضية موقفنا من الغرب » ، على الصورة التي لا يزال يرددها الدكتور زكي نجيب محمود فيما يكتب ، مستنداً بمحادثة لم تحدث قط بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سندٌ تاريخي صحيح ولا باطل ، وإنما هي كذبٌ مُصمَّتٌ ، لا أدري مَنْ تكذبه ، ففتن به الدكتور زكي وحُبب إليه تردادُه مرَّاتٍ فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ٩١ ، ٩٢) .

والذي لا شك فيه أن « جذور قضيتنا » كامنَةٌ في نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذي أدَّى إلى انقراض الفتى الصليبيِّ المُحترقِ المُبِيرِ « نابليون » بغتةً على دار الإسلام في مصر ، لوأدِ « اليقظة » و « النهضة » ومعاجلتها في مهدها قبل أن يشتدَّ عودها وتستفحل ، فيسفح الدماء سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحى عند مشرق كلِّ شمسٍ بخمسةٍ أو ستَّة ، ويُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ويأمر قواده أن يتشبهوا به ، (ما سلف : ١٠٠ ، ١٠٤) ، ويهديه « الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة الناهيين من ورثة « الزبيدي » و « الجبرتي الكبير » ، (ما سلف : ١٠٤) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتت بالإرهاب مَنْ أفلت من برائته الملوثة الدامية . ولكي يضمن هذا الجزار بعد ذلك أن لا يشبَّ الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين . وضع هذا الفتى الأهوَجُ المحترق مشروعَه الذي بينه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من المماليك ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدة سنة أو سنتين ، ليشاهدوا في أثناءها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادوا على لغتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزبٌ يُضمُّ إليه غيرهم » ، ووعده كليبر أن يرسل إليه جوقه تمثيلية « لأنها ضرورية للبدء في تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٠٨) = وأراد بذلك أن يضمن تمزيق « الثقافة المتكاملة » التي هي ثقافتنا ، وأن

يقتلعها من جذورها ، ويحفر لها قبراً تتألق أنواره الفرنسية الساطعة ، ويدفن فيه « اليقظة » و « النهضة » إلى غير رجعة .

ثم يكتب إلى الجنرال « زاو نَشك » قومندان المنوفية ، في ٣٠ يولييه ١٧٩٨ م :
« يجب أن تعاملوا التُّرك ، (أى المسلمين) ، بمتهى القسوة ، وإني هنا أقتل كُلَّ يوم ثلاثة ، أمرُّ أن يُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، فهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجَّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ،
(ما سلف : ١٠٠) ، وكذلك فعل نابليون نفسه في القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالي والجنود الفرنسيين متكافئة ، أما تفوق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التي استعملوها في هدم الدُّور والمساجد ودكَّ القاهرة دكًّا متواصلًا . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبطل قدرة « السلاح المتكافئ » على مقاومة جُنده وإبادتهم جَهرةً واغتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماء إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هي « جذور القضية » التي غفل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليوم غافلةً عنها كُلَّ الغفلة ، فكتَّابنا ومؤرِّخونا اليوم هم كما قال المتنبي في ملوك زمانه :

أَرَانِبُ ، غيرَ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ ،
مُفَتَّحَةٌ عِيُونُهُمْ نِيَامُ

والأرنبُ تنامُ مفتوحةً العين ، فرمما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذًا هيِّنًا بلا مؤونة ولا تعبٍ !!

ولكن ، لا أستطيع أن أتترك حتى تكون على بينة واضحة من عمل

« الاستشراق » في دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائماً طويلاً الأمد ، متعدداً وجوه النشاط ، منذ أخذ يدبُ ديبياً مستخفياً في نأناة زحفه الخفيّ الوطاء على دار الخلافة في تركيا ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقيا وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٥٣ ، ١٠١) . فعلى تطاول السنين ، ومع ازدياد خبرته يوماً بعد يوم بكلّ صغيرة وكبيرة في دار الإسلام ، ومع شعوره بالأمن وهو يجوب دار الإسلام غير مرّوع ، ولسماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع من دينه يُخالف دينهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسرّ ذلك لهم خاصة أن يُداهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويوهموهم بالمكر والمحال أن صدورهم بريئة ، وقلوبهم خالصة لحبّ العلم والمعرفة = وأيضاً لما كانت دار الإسلام غارقة فيه من العفلة المطبقة التي أورثتهم إياها الاستقامة إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القريب بفتح القسطنطينية وتدفق جيوش الترك المظفرين في قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٤٨) = كل ذلك زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعداد العدة لتحقيق « الأهداف » و « الوسائل » التي طوى عليها قلبه ، بفهم وبصيرة وإخلاص وعقل وصبرٍ ودهاءٍ ورفقٍ وتسرُّرٍ ، (اقرأ ما سلف من : ٤٧ - ٥١) .

ومن يومئذ بدأ « الاستشراق » تحقيق الزحف الشامل الذي يُعدّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقة سلاح ، زحف صامت مصمّم خفيّ الوطاء ، سوف يضمّ الوفاً مؤلّفة من أشتات الناس على اختلاف أجناسهم ، ما بين تاجر وصانع ومغامرٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وسياسيٍّ وراهبٍ وطالبٍ معرفةٍ وأفاقٍ وصفّاقٍ ومتكسِّبٍ ، والنية أن تتكون على الزمن من هؤلاء الأشتات جالياتٍ كبيرة تقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطول عشرتهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٥٦ ، ٥٧) . كان « الاستشراق » هو الذي يُعبيء هذه الجيوش ويحمّل أفرادها ما يحمله هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذيهم بكلّ ما في

قلبه من الأحقاد المكتّمة ، ولهيب البغضاء الغائرة في العظام ، ويدربهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والتفاق في معاشرة أهل دار الإسلام ، ويُعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبه ، ومراقبة كل صغيرة وكبيرة من أحوال من يخالطونهم من العامة والخاصة ، والملوك والسوقة ، والرجال والنساء .

وتطاولت السنون حتى استطاع « الاستشراق » أن يكوّن في قلب دار الإسلام جاليات صغيرة متخيرة بفهم ودقة من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادها الرجال الذين يحترفون التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام ، ويقيمون في دار الإسلام مدداً طويلة ، حتى يألّفوا الناس ويألّفهم الناس ، ويتقوّض جدار التوجّس والتخوف والشك في هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع آمنة غير مفرّعة ولا مروّعة . فلما كان زمان « اليقظة » و « النهضة » في دار الإسلام في مصر خاصة ، في القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، (انظر ما سلف : ١١٦) ، هب « الاستشراق » هبة الفرع الأكبر ، وكان نذيره الحاسم المروّع للمسيحية الشمالية بالخطر المدهم الذى تهددها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جاليات كبيرة من تجّار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفرغ المماليك المصرية ، وارتابوا في هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زرافاتٍ ووحداناً باسم التجارة ، وخامرهم الشك في مقاصدهم وفي تحركاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم العنت والمشقة حتى تُبور تجارتهم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسى خاصة إلى التجار أن يجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً في مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١١٥) ، والذى ظل يقدم إلى حكومة فرنسا التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار

الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردعهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضّ رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجاب له « تاليران » وزير الخارجية ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١١٦) .

وفى خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألماني « لينتزر » لويس الرابع عشر الفرنسى على غزو مصر فى سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١١٣ ، ١١٤) ، وبين صرخة « مجالون » فى سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى فى مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجنّد فيها جنوداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحملهم ما فى قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذّيهم بالأحقاد المكتّمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ، ويدربهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أفتنة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق فى معاشرّة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبّه والمراقبة = ويحشد معهم أيضاً طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، ويستزلّ طوائف من شدّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسفلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبث أفكار درسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصّتها وعامّتها ، وللتحكّم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكّن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتنة تُفرّق شمل الناس وتمزّقهم وتشتعلهم عن الكيد الخفى الذى يُراد بهم . وكلّ هذا كان يتمّ فى هدوءٍ وصبرٍ وتسوّجٍ ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، (اقرأ ما سلف : ١٠١) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جلياً واضحاً فى زمان الحملة الفرنسية ، وفى البلايا التى حدثت منهم خلال ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما

كاد يفتُ في عَضُدِ الثَّوَارِ ويبعثر خطاهم ويشتت شَمْلَهُمْ . وتستطيع أن تقف على جليّة أمر هذا البلاء فيما أثبتته الجبرتيّ الصغير في تاريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفي الجزء الأول والثاني من تاريخ الحركة القومية للرافعيّ ، (١) لولا ما في هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فأحذره أشدّ الحذر .

وفي خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثر عدد « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر في كلّ زِيّ : زِيّ طلبة العِلْمِ والمعرفة ، وزِيّ السائح المتجول في ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطرهم شأناً مَنْ لبس منهم زِيّ أهل الإسلام ، وجاور في الأزهر ، ولازم حضورَ دروس المشايخ الكبار ، وصلّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتاب فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها ، وإتّما هو مسلم كسائر المسلمين الذي يجاورون في الأزهر من كل جنس ولونٍ . وكثيرٌ من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامةً طويلةً متتاليةً ، كالمستشرق الداهية المحنك المتستر الخفيّ الوطءِ « فانتور » ، الذي قضى أربعين سنة يتجول في دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطانَ نابليون ومستشاره وخليته ونجيه الذي لا يفارقه في الحلّ والتّرحال ، (انظر ما سلف : ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، وكان ، كما قال الجبرتيّ : « لبيّاً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطللياني والفرنسي » ، (تاريخ الجبرتيّ ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبرتيّ الصغير لم يحدثنا عنهم قطُّ في تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كان غافلاً كَلَّ الغفلة ، إلا أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

(١) انظر ما كتبه عن الرافعيّ فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ - ١١١ .

« وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجمٌ بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ، ويُعبّرون عنه بقولهم : « شفاء شريف » ، والبُرْدَة للبوصيري ، ويحفظون جملةً من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظُ سوراً من القرآن ، ولهم تطُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهادٌ كبيرٌ في معرفة اللغة والمنطق ، ويبدأون في ذلك الليل والنهار . وعندهم كتبٌ مُفردَة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهُل عليهم نقلُ ما يريدون من أيِّ لغةٍ كانت إلى لغتهم في أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرتي ٣ : ٣٤ ، ٣٥) .

وهذا الذي حدثنا عنه الجبرتي بعد الحملة لا يتمُّ لأحدٍ إلا بعد أن يكون قد أطل الإقامة في دار الإسلام ، وبعد التلقّي الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماج الكامل بأهل الإسلام . وإغفال الجبرتي الحديث عن أحد منهم قبل الحملة ، دليلٌ بينٌ على أن ذلك كُله قد تمَّ في خفاء وتسترٍ ، لم يُتَح لمثل الجبرتي أن يتنبه لهم ، أو أن يعرف من أمر وجودهم في مصر شيئاً يحمله على التنبه . و « فانثور » الذي أقام في دار الإسلام في مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرتي عنه شيئاً إلا بعد مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقىَه عندئذٍ مكشوفَ القناع ، فوصفه لنا بما وصفه ، كما مرَّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » في دار الإسلام في مصر ، مجرد طلب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجولون ويراقبون عمل الجاليات التي حشدوها وتولوا تغذيتها وتربيتها على ما في قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التي أفرزتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتهم بجماهير الأمة مجتمعةً وبطوائفها المختلفة ، خبرةً متغلغلةً تفضي إلى خبرةٍ بأفراد رجالِ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبمواطن ضعفه وقوته ، وبمكامين

الهوى الميَّال الذى يستجيب ، وإرادة المصمَّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرة مدروسة مننظمة واضحة المعالم فى ذهن « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٠١) .

• وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدرى كيف اختلَّت هيبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعسف القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضره فى صورة منكِّرة ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ على الصعيديّ العدويّ والشيخ الجدّايّ وجماعة كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيديّ العدويّ للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصرَّخ : والله أكسير رأسك . فصرخ عليه الصعيديّ وسبّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليسرَّجىّ (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومَن اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسَّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكِّنون جدَّته و جدَّتهم ، وأحضره الشيخ عبد الباقي من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبرق ٢ : ١٨) .

• واتفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازندار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من محبسه . فلما رأى العريشى شيخ السادات رمى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوف الرأس وهو يقول : « بيتك خراب يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وصار يصرخ على خدمه : « أمسكوه ، اقتلوه » ، وشيخ السادات يقول له : « أى شىء هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشى فى صحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسكتوها . يقول الجبرق : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقفل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبرق ٢ : ١٨) .

• وقد نقلت هاتين الحادثتين لأنهما بدءُ الانشقاق الذي حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبَّها المشايخ إلى عسف المماليك وجورهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظلم عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم في سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرقية بلبيس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاغتاظ حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والخوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلق كثير من العامة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميراً يسألهم عن مطالبهم ، فقال المشايخ : « نريد العدل ، ورفق الظلم والجور ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . فقال لهم : « حتى أبلغ » ، وانصرف ولم يعد لهم بجواب ، وانفض المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية ، وابتوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . وكان

القاضي حاضراً بالمجلس ، فكتب حُجَّةً عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، ^(١) ورجع المشايخ وحول كل واحدٍ منهم وأمامه وتحلفه جملةً عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسَبَ ما رسم ساداتنا العلماء ، بأنَّ جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة من مملكة الديار المصرية » = ويعقب الجبرتي على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنُّوا صحَّته ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهرٍ ، ثم عاد كُلُّ ما كان مما ذُكِرَ وزيادة » (الجبرتي ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

• وأخفى الجبرتي عنَّا كُلَّ ما كان في سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التي يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحدٍ في غُرة ذى الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع السنتين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التي تقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيين إثر ذلك في أوائل السنة التالية ، كما سيأتي خبر ذلك مفصلاً » ، ثم شرع في ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ - ٢٧٥) ، ختامَ الجزء الثاني من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جداً ، كأنَّ مظالم المماليك التي عادت جَدَّعة ، ونَقَضَهم الحُجَّة التي وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكن لها وقعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغِلَ الجبرتي عن سرِّد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيين ، فاختصر السنوات الثلاث اختصاراً ليس له شبيه في كتابه .

(١) أخطأ الجبرتي خطأً كبيراً حين لم يثبت في كتابه نصَّ هذه الوثيقة كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حالٍ أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التي حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانات للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأُتلف في زمان الحملة الفرنسية .

• كُـلُّ هذا كان يَقَعُ بمرأى ومَسْمُوعٍ من « المستشرقين » وأعوانهم ، وأدرك « المستشرقون » أن هذه الحوادث المتتابعة التي انتهت بإعلان المماليك تَوْبَتَهُم ورجوعهم عن مظالمهم ، حتى اضطرُّوا إلى توقيع وثيقة يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، وتعهدوا فيها برفع المظالم عن الناس ، إنما كان نتيجة متوقَّعة نابعة من « اليقظة » و « النهضة » التي أخذت تُعْمُ دار الإسلام في مصر = وتبينوا أيضاً أنَّ مشايخ الأزهر قد صاروا طليعة هذه « اليقظة » وقادتها ، وأن سُلْطَانَهُم على العامة والجماهير ، قد أُرْهِب المماليك وأفزَعَهُم . ولولا أن الجبرتي قد أخفى عنا موقف المشايخ والجماهير في ثلاث سنواتٍ بعد توبتهم ، ثم نقضهم العهد وعودتهم إلى الجور والظلم ، لرأينا الصِّراعَ واضحاً جلياً بين المشايخ قادة الجماهير ، وبين المماليك الذين غرَّهم ما كانوا يتمتعون به من السلطان على الجماهير ، وما استمرَّأوه من إيقاع الجور والمظالم ، وسكوت الجماهير واستكانتهم لهم زمناً طويلاً قبل ذلك = ولعرفنا أيضاً أسماء كثير من المشايخ الذين كانوا طليعة « اليقظة » وقادتها في هذه المدة من تاريخ دار الإسلام في مصر = ولربَّما عرفنا أيضاً أسماء مَنْ آنحاز من أمراء المماليك يومئذ إلى المشايخ والجماهير ، وأنشَقَّ عن جَمْهرة الأمراء المماليك الذين أصروا على جورهم ومظالمهم وعنادهم ، ورجعوا عن تَوْبَتِهِم التي شهدوا بها على أنفسهم في الوثيقة أنهم تابوا ورجعوا عن المظالم .

• ومع ذلك ، فقد أوقفنا الجبرتي على أسماء ستة من المشايخ الكبار الذين شاركوا في الثورة على المماليك وهم : « الشيخ العريشي » مفتي الحنفية ، و « الشيخ السادات » ، والسيد نقيب الأشراف « عمر مكرم » ، و « الشيخ عبد الله الشراوى » شيخ الأزهر ، و « الشيخ البكرى » ، و « الشيخ محمد الأمير » . وهؤلاء الستة كانوا ضمن التسعة الذين سجَّل أسماءهم « نابليون » في أمره الذي أصدره بتكوين « الديوان » في أول ساعةٍ وَطِئَتْ قدمه فيها القاهرة ، (يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ هـ / ٤ يولييه سنة ١٧٩٨ م) ، وكان تمام التسعة : « الشيخ مصطفى الصاوى » ، و « الشيخ سليمان

الفيومي » و « الشيخ موسى السرمي » ، فرفض ثلاثة من الستة الأول أن ينضموا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحل محلهم نابليون ثلاثة آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمهورى » و « الشيخ يوسف الشيراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجاب هؤلاء التسعة من المشايخ العلماء الكبار لغازٍ مسيحي بهذه السرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريح أوامر الله وأوامر رسوله بقتال الغزاة لدار الإسلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامة الشرع ؟ كيف خافوا وضعفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة في رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغي أن يكون لهذه السرعة في الاستجابة بلا تردد تفسير يقبله العقل ، ويمهد لهم عُذراً يقبله العقل أيضاً على مَضض .

• لما أظَلَّ زمانُ مجيء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شك للمستشرقين المقيمين في دار الإسلام في مصر ، نشِط « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شدَّاذ الآفاق الذين عبَّأهم وجنَّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٢٣) = نشِط « الاستشراق » نشاطاً سريعاً خفي الوطاء في ميادين مختلفة ، لبث أفكار درسوها وأحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام في مصر ، للتحكم في تصريف أموره وغاياته ، وللتمكن من إشعال نيران الفتن حين تنزل الحملة الفرنسية أرض مصر ، ليفرقوا بهذه الفتن شمل الناس ويمزقوهم ويشعلوهم عن الكيد الخفي المكيفلي الذي يُرادُ بهم ، (ما سلف : ١٠١ ، ١٢٣) .

كان أكبر نشاط « الاستشراق » موجَّهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرَّات ، حتَّى خضعوا ووقَّعوا على وثيقة

يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، ويتعهدون فيها برفع المظالم التي أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشرع ، ولكنهم لم يَفُوا بذلك ، فنقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جَوْرهم ومظالمهم وزيادة ، كما قال الجبرتي فيما سلف قريباً . ولا شك أن نقض هذه الوثيقة ، قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضباً وكراهيةً لطائفة الأُمراء المماليك الذين لا يَرَعُونَ لله إلاّ ولا عهداً ولا ذِمَّةً ، ولا يُقيمون للشرع حُرْمَةً ، ولا للمشايخ هَيْبَةً ولا كرامة . كان هذا كُلُّه معلوماً واضحاً عند « الاستشراق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزولُ جُنْد الفرنسيين ثغر الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضةً ، فلم يهتم أمراء المماليك بشيءٍ من ذلك ولم يكثرثوا به اعتماداً على قُوّتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بنجيوهم ، (الجبرتي ٣ : ٣) . وعندئذ خرج « الاستشراق » من مكانه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يتزيّون بزى أهل الإسلام ، وبجاورون في الأزهر لطلب علم الدين والدُّنيا مسلمين ، وبخالطون المشايخ الكبار في دروسهم وبيوتهم ، لا يميّزهم شيء عن سائر المسلمين المجاورين في الأزهر من كلِّ جنسٍ ولونٍ = وطافوا على المشايخ الكبار ، ورفق ودهاءٍ ومكرٍ فاتحوهم في شأن الفرنسيين الذين شاع أنهم قد دنا نزولهم أرض مصر ، فنصيحةً لله ولرسوله وللمسلمين بينوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيين ، وأن الذي يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهم بأنواع الإيذاء والتعدّي ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام في مصر بألوانٍ من الجور والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجُرأتهم على هيبه المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأنَّ كلَّ هدف الفرنسيين هو رفع الظلم الواقع على تُجّارهم ، وتخليص حقّ الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد في يد العلماء والفضلاء من أهالي مصر .

وظلُّوا يفتُلون لهم في الذُّرورة والغاربِ برفقٍ ودهاءٍ ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيين لم يُقدِّموا على نيَّة القضاء على دولة المماليك ، إلاَّ باتفاقٍ مع السلطان العثماني ، لأنهم أحبَّواهُ المخلصون ، والمماليك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترمون النبيَّ ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا في رومية وخرَّبوا كرسيَّ البابا الذي كان دائماً يُحُثُّ النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخُ لهذا وأمثاله ، ولقِلَّة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ، لأنَّ مثل هذا الحديث قلوب أكثرهم وغرَّتْهُم الأمانى ، وعدُّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودةٌ بالمماليك ، يُفاوضونهم ويهونون عليهم شأن الفرنسيين ، ويُمَنُّونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدموا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الفرور بقوتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمَّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوِّفونهم من تهوُّر المماليك ، وأنهم لا علم لهم بقوة الفرنسيين ، وما في حوزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يملك مثله المماليك ، وأنَّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سرَّعان ما يفرون من وجه الفرنسيين ، ثم يتفرَّقون شَدَر مَدَر ، ويتركون القاهرة مكشوفةً بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهَّبون لإحداثِ فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيين القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أن يستثيروا حَمِيَّتِها ، وأن يُغرَّوها بأنَّ استجابتهم للفرنسيين إنما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانةً أن يناصروا الفرنسيين ، ويناصبوا المسلمين العداء ، حتى تعلو راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعيَّة لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعة المستكينة لدين المسيح . بيد أن الكنيسة القبطية أعرضت عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بينه لنا المستشرق الإنجليزي « إدوارد وليم لين » في كتابه « المصريون

الرسالة : ٢٢ / حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية ، لما لم تستجب لإغرائهم

المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخاصيات اعتباراً في حُلُق الأقباط تعصّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تُفوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار في الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين ميلاً للإسلام » . (١)

لذلك لم يستجب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولّوا وجوههم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط مالية الممالك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جابى المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمَّ جهرةً إلى الفرنسيين ، فكُون منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشه فتنةً كبيرةً ، وبلاءً وبيلاً . (٢)

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » ص : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : فى باب « الأقباط » ، على ما فى هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبداً يُعْرِى على شهادة الزور ، وأن القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسوّلون ويستدينون نقوداً لا يردونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية فى الافتراء والظعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلن .

(٢) . تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة فى تاريخ الجيرى ، وفى كتاب الرافعى ، وفى كتاب الأستاذ محمد جلال كَشك ، الذى سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

• لما وقعت الواقعة ، ونزل جند الفرنسيين أرض الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحرى يحرقون القرى ويسفكون الدماء ، سبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وكتبه المستشرقان « فانتور » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُل ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيون بزى الإسلام ، وجاءتهم أنباء حرائق القرى وسفك الدماء ، حين قاوم المصريون الجيش الغازى ، كما توعد نابليون فى منشوره كل من يقاومه . ثم بعد أيام قلائل وصل نابليون مشارف القاهرة ، ولقى جيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرعب ، وتفرقوا شذر مذر ، وتركوا القاهرة عارية مكشوفة ليس لها حام يحميها ، فكان ذلك كله مصداقاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجفت قلوبهم ، وخافوا أن يحل بالقاهرة ما حل بقرى الوجه البحرى من الفظائع . فلما دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعة من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون لتمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذى دعا هؤلاء للاستجابة خوفهم على مصير القاهرة التى تركت بلا حام يحميها ، بعد أن أخذها حُماتها من صنديد الحرب والقتال ، وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حَقن دماء العامة رجالاً ونساءً إلا المهادنة ، وإلا الصبر والسكينة حتى يكشف الله هذه العُمة بما شاء سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أول زلّة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أول نجاح حازه « الاستشراق » فى « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأمة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماع إلى هؤلاء المشايخ « المدجنين » ، واستمعت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صيغار طلبة العلم بالأزهر الذين

رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزائر القاهرة أرضاً لم تطأها من قبل قدم غازي صليبي محترق كالميكافلي « نابليون » ، الذي غر هؤلاء التسعة ، وخذعهم حُسن استقباله لهم وتوقيعهم خِداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٠٢ - ١٠٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفح الدماء ليلاً ونهاراً ، جَهْرَةً وَخُفِيَةً ، لم يستثن الجزائر ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأة عاجزة ، حتى انكشع هو وجنوده من أرض مصر بعد ثلاث سنوات خِزائياً مقهورين ، (ما سلف : ٩٢ - ٩٦) .

٢٣ - لم تذهب معاناة دار الإسلام في مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدْرًا ، فإن ثوراتها على جُند الفرنسيين قد أخرجت من غمارِ الناس ومن مشايخ الأزهر قادة جُددًا قد نَجَّدهم الصِّراعُ والقتالُ وعَلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماة القاهرة والسَّاهرين على الدِّيادِ عنها ، على قُرب عهدهم بمزاولة الحماية والدِّفاع . ومضت أربع سنوات بعد رحيل الفرنسيين ، واضطربت أمور إدارة البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادة الجُدد من جماهير الشعب في مصر ، رُقباءً على كُلِّ مَنْ يحاول أن يتصدَّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأْيُ المشايخ والقادة على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمئة من الجُند في أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد علي سرششمة » ، و « سرششمة » دَرَجَةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود في الدولة العثمانية ، كان ذلك في سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد علي سرششمة » هذا ، الذي أسند إليه أمرُ ولاية مصر في سنة

١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، في الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قطُّ شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر في « الدخان » ، ثم انضمَّ إلى الجند ، ولكنَّه كان ذكياً داهيةً عريق المكر ، يلبسُ لكلِّ حالةٍ كِبوسها ، وكان مُغامراً لا يتورَّع عن كذبٍ ولا نفاقٍ ولا غديرٍ . وفي أثناء مُقامه في مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقبُ اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وينظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودة إلى ولاية الأمور في مصر ، فناقضهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودة والنصح وسلامة الصدر ، حتَّى انخدع به المشايخ والقادة ، وآثروا ولايته على ولاية المماليك ، فنصَّبوه والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كلُّ جهده في إسناد ولاية مصر إليه . وكان ما أراد الله أن يكون .

• لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسي ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كلُّ المراقبة من أوَّل يوم جاء فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكلِّ ما كان يجري في مصر منذ رَجيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد علي سرشمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصل » هم « الاستشراق » نفسه في صورته السياسية = فبدأوا يفتلون له في الذرورة والغارب ، ويوغرون صدره على المشايخ والقادة الذين نصَّبوه والياً على مصر ، ويخوفونه عاقبة سُلطانهم على جماهير الأمة . وصادف ذلك استجابةً طبيعيةً ، لما في قلب هذا المغامر الجريء من الذهء والخُبث وتُرْك التورُّع عن القدر وإنكار الجميل وحبُّ التفرد بالسلطان الذي ناله بغتةً ، ولم يكن قطُّ في حياته يتوهم أن ينالهُ أو ينال ما هو دونه بكثير .

فكانت أوَّلُ غدريةٍ غدرها « محمد علي سرشمة » هذا بالذي نصَّبَه والياً على مصر ، وبذل له في ذلك كلُّ جهْدٍ ، وهو قائد الأمة مشايخها وجماهيرها ، نقيبُ

الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأن نزع عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط في أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدار بأربع سنوات فقط ، وبقي السيد عمر في منفاه الأول هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءها في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفى رحمه الله في تلك السنة نفسها . ثم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليوهى سلطانهم على جماهير الأمة ، ويفتت قوة الجماهير بعسفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيت شملهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبل ومن بعد . وكذلك ظفر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومهد لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة ، وأوغر صدر هذا الجبار ، ومكن في قرارة قلبه بغض الأزهر وشيوخه وطلبة العلم المجاورين فيه ، وانفرد هو بأذن هذا الجاهل الجريء المستبد ، يوحون إليه بما يريدون وما يبيئون ، ويؤمنون ما بدأوا به من وأد « أليقظة » التي تهددهم بها دار الإسلام في مصر ، على يد مسلم جاهل غير أهوج ، لا يعرف كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التي حَفِظَتْ دار الإسلام قروناً طَوَّالاً ، وكانت لُبُّ « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التي كان قريباً جداً أن تُوتى ثمارها .

• وثبت هذا الطاغية « محمد علي سرشمة » قواعد مُلْكه ، وازداد إطباق « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصة الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فتئت تخوف الدولة التركية وتولبها على مهّد « اليقظة » في جزيرة العرب ، والتي قام بها وأسسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ -

١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٨) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التآلب ، حتى جرّدت حملات متتابعة لقمع « اليقظة » الوهابية ، وآبت في جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد على سرششمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين ، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ - ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زين أخيراً لمحمد على سرششمة أن يستجيب ، ليحقق مآربه في واد « اليقظة » التي كادت تعم جزيرة العرب ، وأمّذوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك في سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، فى سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد على سرششمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلّه مسلم ، واستباح الديار والأموال والنساء ، وهدم المُدن ، فكان هو وابنه إبراهيم وسائر أولاده طُغاةً من شرّ الطُغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنى لها ، ولا ينتفع بها إلا مؤرثوها من دُعاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربها فى واد « اليقظة » التى كانت تهدّدهم بها دار الإسلام فى جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة فى دار الإسلام فى مصر ، فيومئذ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفت (انظر : ١١٨) ، وتمّ كلّ ذلك على يد مسلمين جَهلة يُوجّههم « الاستشراق » والمسيحية الشمالية من حيث لا يُبصرون ولا يعلمون ماذا يُراد بهم ، ولا إلى أى هُوّة من الهلكة يُساقون . والأمرُ لله من قبل ومن بعد .

...

• يقول الكاتب المؤرخ المُدجّن « عبد الرحمن الرافعي » في كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد علي » ص : ٤٥٢ في باب « البعثات العلمية » :
« لو تأملت ملياً في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة ، واختلجت في نفس محمد علي ، لعجبت لعبقريته كيف أنبت هذا المشروع . ففي ذلك العصر لم يفكر حاكم « شرقى » ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية = وسلطانها كان يملك من الحَوْل والسلطة أكثر مما يملك محمد علي = لم تفكر حينذاك أصلاً في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرة ، في ذلك العصر ، وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرة وهمة عالية » ... تأمل ثم تأمل ، ويا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدجّنين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجنديّ الجاهل « محمد علي » ، بل كانت نابعة من عقولٍ تخطّط وتدبّر لأهدافٍ بعيدة المدى ، استغلّت ما في نفسه من المطامع ، وحبّه للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهي تراقب أهواءه ومطامعه ، فجعلت تغذّيها وتزيدها توهّجاً ، لتجعله قُوّة في قلب دار الإسلام ، تُنازع دار الخلافة في تركية سلطانها ، وتنشق عنها انشقاقاً يزيد في تفكك دار الإسلام ، ويُسرّع في انهيار دار الخلافة ، وفي تمزيقها وضعفها وارتخاء قبضتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهّد للمسيحية الشمالية السبيل إلى تخطف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاء ممزقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القُوّة الجديدة ، قُوّة محمد علي ، في قبضة المسيحية الشمالية ، تصرفها كيف تشاء ، وتقضى عليها قضاءً مُدمراً يوم تحتاج إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصناعات التي تتعلق ببناء الجيش المصريّ لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلة العدد ، ينتفع بها محمد علي في حروبه في جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ -

١٨١٩ م) ، وفي تحطُّف أجزاءٍ أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التحطُّف في ضعفها وتفكُّكها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطةً كاملةً ، وصاروا عقله الذي يفكرُ به ، وصارَ هو دُمِيَّةً في أيديهم يحركونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تحطيم « اليقظة » التي كانت في جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنه ، وأرسي قواعد ملكه في الديار المصرية = كان في فرنسا رجلٌ كبيرٌ ممَّن شاركوا في الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليل نابليون ونَجِيه ، وانتخب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخصُّ مصر ، هو المسيو جومار (آدم فرنسوا جومار - ١٧٧٧ - ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » في إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار يَحْتُّ « الاستشراق » الفرنسي وقناصله في مصر ، على إغراء محمد على بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفذ مشروع « نابليون » الذي بيَّنه لخليفته « كليبر » في رسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » في أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعضع عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفرهم إلى فرنسا ، فإذا ما وصلوا حُجزوا مدَّة سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذي يرادُ به تكوين حزبٍ للفرنسيين في مصر ، معتمداً على الولاية من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولَّون حُكْم البلاد في زمانه ، فإن

« جومار » قد طُوِّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمس وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكوّن حزباً لفرنسا في مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظم فرصة باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السن من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضِّ يَبْقُونَ في فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولّون المناصبَ صغيرها وكبيرها ، ويكون أثرهم أشدّ تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر . هكذا طُوِّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

نجح جومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله في إغراء محمد علي بإرسال بعثة كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يولييه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلّها تحت إشراف « جومار » يصنعها على عينه . كانوا شبّاناً صغاراً ، ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يُغنى عن « الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أمّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدي « المستشرقين » يوجّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها ، ويُعطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفَقَ عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها ، ثم يرُدّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد علي التي أسَّسها ، وهو ودولته في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومَشُورَتهم ، لا يستطيع فكاًكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلّم علماً قطّ ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلا وهو في الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أول بعثة في سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقوا اللّغة والعلوم والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولون المناصب والأعمال . وهذا شيء غريب جداً أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت نواصي العلماء في سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمال وجلائل الأمور . شيء غريب جداً !! وهم قبل سفرهم لم يحصلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليس هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

• وكان في هذه البعثة الأولى ، رجُلٌ قد خرج مع البعثة إماماً لها ، ليراقب أفراد البعثة ، ويصلى بهم الصلوات الخمس ، هو « رفاة رافع الطهطاوى » ، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) في أسرة رقيقة الحال ، فأتته حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من مُتون العلم المتداولة على بعض العلماء في بلده ، ثم تُوفّي والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو في السادسة عشرة من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم في نسلك طلبة الأزهر ، يتلقّى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محباً للأدب . وفي سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيّن واعظاً وإماماً في أحد أليات جيش محمد على . فهذا إذن شابٌ في الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأن يذكر في « الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أمته ثلاثة عشر قرناً في حضارة متكاملة مترامية الأطراف ، متباينة الدرجات ، متنوّعة العلوم ، قد بلغت في العظيمة والجلالة مبلغاً لم تدركه قبلها أمة من الأمم .

ثم يُختار هذا الشاب في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحب بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكياً ، نعم . كان محباً للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوى العزيمة ، نعم . كان نابهاً بين أقرانه ، نعم ، ولكنّه على ذلك كُله في

الخامسة والعشرين من عمره ، غريرٌ بينُ العرارة ، طرئُ العود ، قد جاء من أقصى الصعيد ، ومن ظلماته وبؤسه وفقره وخصاصته ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ثم أقام تسع سنواتٍ فى القاهرة ، فى حواري الأزهر المهذمة المخربة بيوتها بفعل الفرنسيين ، الضيقة طرقاتها ، المظلمة أزقتها = ثم يركب سفينة فرنسية تتلأأ أنوارها ترمى به إلى قلب باريس (فى القرن التاسع عشر) ، بحداثتها وميادينها وأنوارها ومباهجها ، وما لا رآته من قبل عين كعينه ، وما لا خطر على قلب كقلبه . أئى فتنة تذهب بعقل هذا الفتى ، وترجئه رجاً لا قبل لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أئى صيدٍ سمين تلقفه « المسيو جومار » بخبرته وحُكمتِهِ وتجربته وبصره النافذ ؟ فتى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكى ، محبٌ للعلم والتحصيل ، قوى العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطقتها قدمه ، لم يرَ مثلها من قبل ، ورآه مُقبلاً بأقصى عزيمته على تعلم لغته الفرنسية ، معجباً بها وبأهلها كُلى الإعجاب ، فأخذه « جومار » من قريب ، فكان له صيداً أئى صيدٍ ! يقول الرافعى المؤرخ المدجن فى كتابه (٣ : ٤٧٦) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاعتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاة ، فكان ذا نفس طامحة إلى العُلا ، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية ، وعكف عليها من تلقاء نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها » . ويقول رفاة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلمها ثلاث سنوات .

ولم يكذ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار ودُهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتى الأزهرى الصعيدى المفتون مخلصٌ من أحابيلهم ودُهائهم ومكرهم ورقة حاشيتهم ومداهنتهم ، فاستغلوه أبرغ استغلالٍ ، وصبوا فى أُذنيه ، وطرحوا فى قرارة قلبه معانى

وأفكاراً قد بيّتها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها حين تنمو في دَحِيلَةِ نَفْسِهِ ، (١) وهم يزيدونه فِتْنَةً بِإِشْهَادِهِ رَوَائِعِ الْمَحَافِلِ الَّتِي تَتَأَلَّقُ أَنْوَارُهَا ، وَتَتَأَلَّقُ تَحْتَ أَنْوَارِهَا أَيْضاً مَفَاتِنِ النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ ، وَالرِّجَالِ ذَوِي الْأُبْهَةِ يَخْتَالُونَ فِي شِمَائِلِ الرِّقَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، فِرَادُوهُ فِتْنَةٌ ، وَزَادُوا غَفْلَتَهُ غَفْلَةً ، وَانْتَزَعُوهُ انْتِزَاعاً مِمَّا كَانَ يَعِيشُ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الصَّعِيدِ وَبُؤْسِهِ وَفَقْرِهِ ، وَمِنْ حَوَارِي الْأَزْهَرِ الْحَرْبَةِ وَطَرَقَاتِهَا الضَّيْقَةَ وَأَزَقَّتْهَا الْمَظْلَمَةَ ، حَتَّى نَسِيَ نَفْسَهُ الَّتِي صَاحَبَهَا خَمْساً وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَتَنَكَّرَ لِمَاضِيهِ الْقَرِيبِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَسَارَعَ يَنْجُو بِحَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ خَطَايِفِهِ الَّتِي تَلَاخَقَهُ .

وقضى رفاة رحمه الله ست سنوات في باريس من سنة ١٢٤١ - ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ - ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها في تعلّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفي الثلاث الأخر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب في المعادن ، وفنّ العسكرية ، والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعى ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدّثنى بربك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات في ثلاث سنوات ، إلا أن يكون ذلك كُله خطفاً كَحَسُو الطائر ، وأن يكون ما أَلْفَهُ رفاة وكتبه سطواً مجرداً على كُتُبٍ كُتِبَتْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَبَايِنَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّلَلِ وَالخَطَأِ وَسُوءِ الْفَهْمِ . وَلَكِنْ رفاة الطهطاوى على ذلك كُله إِمَامٌ جَاءَ يُخْرِجُ مِصْرَ وَأَهْلِهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ !! يَا لِلْعَجَبِ ! وَلَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ يُحْمَلُ مِنَ الْعَبْقَرِيَّةِ فِي إِنْشَاءِ « مَدْرَسَةِ الْأَلْسِنِ » ، مَا حُمِّلَ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، الْجَاهِلُ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ قَطُّ ، مِنَ الْعَبْقَرِيَّةِ فِي الْإِهْتِدَاءِ إِلَى إِرسَالِ

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه : « أنوار الجليل ، في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصنّف فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابي « أباطيل وأسما » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

« البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسا خاصة ! (انظر ما سلف : ١٣٩) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، في سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاة الطهطاوى ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرة من ثمار « الاستشراق » ودّهاته الذي احتضنوه وربّوه وغدّوه ونشأوه مدة إقامته في باريز ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غرور أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجّن !

وبأقلّ التأمل في مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكّ فيه أن رفاة الطهطاوى نفسه لم يكن مؤهلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان في مصر يومئذ من المصريين من هو مؤهل لتدريسها ، فلا مناص من استقدام من يُظنّ فيه أنه مؤهل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصة ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الذّهاة من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاة الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضع رفاة الطهطاوى أساساً لمدرسة مملّقة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصلّة كلّ البتّر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التي كان الأزهر مهدها على قرون متطاولة ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام في مصر . وكذلك أحدث رفاة الطهطاوى صدعاً مبيناً في ثقافة الأمة ، وقسمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » في ناحية ، و « مدرسة الألسن » في ناحية ، وكذلك حقّق رفاة لدهاة « الاستشراق » أهمّ ما يتوقون إليه ، من وأد « اليقظة » الواحدة المتماسكة التي كان الأزهر مركزها منذ عهد « البغدادي » ، و « الزبيدي » و « الجبرتي الكبير » = وفي وقت كان فيه محمد على

الجاهل يحطم أجنحة الأزهر ، ويضعه في قفص لا يستطيع الإفلات منه ، ويدبر كل مكيده لإسقاط هيئته وهيبته مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلاً بين قضبان من الحديد وجدران من الصُخور = ومرت الأيام والسنون ، وهذا الصُّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام في مصر أدراج الرياح .

٢٤ - وُئدت « اليقظة » التي كان الخمسة الكبار أبطالها وصناديدها ، (ما سلف : ٨٢) ، وكان ذلك نصراً مؤزراً ناله « الاستشراق » بدهائه ومكره وثاقب نظره ، نالهُ من وراء غفلة دار الإسلام في مصر ، ومن وراء الجهل الذي أسندت إليه أمور البلاد ومصائرهما ، وأقام « الاستشراق » على قبر « اليقظة » بناءً جديداً راسخ الأساس ، ظل يرقاه ويحوطه ويزيده رُسوخاً ومتانةً واتساعاً وسُموقاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبة والسيطرة وتمام التمكّن من إخضاع دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاح ، وبلا مواجهة بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإمّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمّا يحكمان السلاح حتى يُقضى لإحدهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعاشة وإيثار السلم . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومزقت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » في ديار المسيحية الشمالية ، بلا قرن يكافئها وينازلها ، وإنمّا هو الخضوع والاستكانة لا غير . وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان !

وذهب محمد على سرشمة ، وذهب ملكة وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصدع في ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثات الخاضعة المستكينة تتوالى ويقع أعضاؤها في قبضة « الاستشراق » يصنع أعضاؤها على

عينه ، والبلية التي أحدثها رفاة الطهطاوى تتعاضم ، وصار الأزهر الذى كان فى يديه تعليم الأمة أسيراً يرسف فى أصفاده وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخله إلا أبناء الفقراء والمساكين = ونازعته تعليم الأمة المدارس الجديدة التى وضع أساسها رفاة الطهطاوى فى مدرسة الألسن ، وانشطرت تعليم الأمة شطرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسع ، وأصبحت المناهج تتباين تبائناً شديداً . أما مناهج الأزهر فى عزلة فجعلت تضعف وتذوى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو ولكن نموها قائم على القشور التى تعر ولا تُغنى قليلاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاة الطهطاوى ، وجعلت تزداد تباعداً مقطوعاً الأوصير من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها الأمة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعةً من « الثقافة المتكاملة » التى تجدد نفسها تجديداً يزيد قوة ووضوحاً ، بل كانت غراساً غريباً يزيداً بعداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام فى مصر ، ولا تكسيها قوةً ووضوحاً ، بل تكسيبُ أبناءها تنكراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها أمتهم = وكذلك صار أبناءها حزياً جديداً ، مئله وحبه وإكباره للمصدر الذى صدر عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره ، كما أراد نابليون بمشروعه الذى عهد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) ، وطوره تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ١٤٠ ، ١٤١) . وتم بذلك البلاء الماحق ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

ومضت الأيام والسنون ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي فى ثانى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، ويظل يرسخ قدميه فى البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزب » الذى أنشأه « الاستشراق » الفرنسى غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزي يدمر كل ما أنشأه الفرنسيين من مدارس ويشتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزي فى مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزي أن يبدأ فى

تكوين « حزب » قوى يناصره عن طريق التحكُّم في التعليم ، فأُسند أمر التعليم إلى قسيسٍ مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيثٍ هو « دنلوب » ، فدُعِر « الحزب الفرنسي » ، ونشرت جريدة الأهرام التي كان صَغوُّها كُلُّها إلى الفرنسيين ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذي أفرع حِزْب فرنسا ، فنشرت في عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتي :

« قُضِيَ الأمر ، وصدر الأمرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عاماً لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، في هدم الدراسة الثانوية التي هي أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضِيَ الأمر » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدَّال على فزع « الاستشراق الفرنسي » من هذا الحَدَث المؤدِّي إلى القضاء على « حزب فرنسا » الذي أنشأته المدارس القديمة ، وتخوِّفه من هذا « الحزب الإنكليزي » الجديد الذي يتولَّى « الاستشراق الإنكليزي » إنشاءه عن طريق المدارس التي سوف يشرف عليها « دنلوب » القسيس المبشِّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضِيَ الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنكليزي » ليُحدث في ثقافة الأمة المصرية صدعاً متفاقماً أُنحِث وأعتى من الصَّدع الذي أحدثه « الاستشراق الفرنسي » ، ووضع دنلوب أُسس « التفرغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفرغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّد إلى ملئه بماضٍ آخر بائدٍ في القَدَم والغموض ، لم يبق من ثقافته شيءٌ البتَّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغ بقايا الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفرغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتمائين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم ، وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت وبادت ثقافتها ولم يبق

منها إلا أطلال من الحجارة ، مهما بلغت في العظمة والجلال ، فهي فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة ، إنما هي آثار لا تُعنى شيئاً ولا تُؤتى ثمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفرغ » سوف ينشئ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تتهتك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، حتى يتم تفرغها تفرغاً كاملاً من ماضيهم كله ، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم ، وإنما هي علوم الغزاة ، وفنون الغزاة ، وآداب الغزاة ، وتاريخ الغزاة ، ولغات الغزاة . ومع كل ذلك ، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قشور ومقتطفات تُوهم النفوس الظائمة المُفرغة بأنها نالت شيئاً يُذكر ، والحقيقة أنها نالت غذاءً تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير .

● وقد قصصت قصة هذا التفرغ في مقدمتي لكتابي « المتنبى » وسميتها « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ - ٢٩) ، وقد قصصت عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيث انتهى . فهذا كله جواب السؤال الذي بدأت به الفقرة العاشرة (ص : ٢٣) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، في حياتنا الأدبية ، حتى رفضتها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجج ، منذ بدأت قديماً أحس إحساساً مبهماً أن حياتنا الأدبية فاسدة من كل وجه ، كما حدثتلك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثي هنا ، فإنني اختصرته اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخل ، وعسى أن أكون قد أدت بعض أمانة القلم وبعض أمانة العلم ، وأدبت أيضاً ، أيها القارئ ، بعض حَقك على = وعسى أن أكون قد بلغت مبلغاً يُرضى الله ورسوله في اتباع أمره إذ

قال ﷺ : « أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّي إِذَا عَلِمَهُ » ، وهو حديثه ﷺ الذي بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمدُ لله وحده ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخيرته من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظَةَ الْعِلْمِ ، وَالنَّاطِقِينَ بِالْحَقِّ وَالِدَاعِينَ إِلَيْهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ .

ذيل الرسالة

والآن ، لم يبق إلا أن أضع بين يديك قصة « التفرغ الثقافي » الذي ختمتُ به كلماتي آنفاً في « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبى » ، [ص: ١٩ - ٣٤] ، في التصدير الذي سمّيته : « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتي أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذي تلقى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ في دوامة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي .

وشهادة الدكتور طه حسين من موقع « الأستاذية » لهذا الجيل .

فاقرأهما بتدبرٍ وأناةٍ ، حتى تُلمَّ بأطراف البلاء الذي حاق بي وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتى لا تدخل تحت المعنى الذي قاله أبو عبادة البحرى :
ومن العجائب ، أعين مفتوحةً وعقولهنَّ تجولُ في الأحلام

= أحلام « النهضة » و « التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تنقضي !! أحلام جعلت صدمة التدهور مستمرةً متتامةً متفاقمةً إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها هذه الرسالة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

قلتُ : «ومرّت الأيام والليالي والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهي السنة التي كتبت فيها هذا الكتاب «المتنبى» وهمى مصروفٌ أكثره إلى «قضية الشعر الجاهلي» ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بي هذه القضية في رحلة طويلة شاقّة ، ودخلت بي في دُروبٍ وعرّةٍ شائكةٍ ، وكُلّما أوغلتُ

انكشفت عنى غشاوة من العمى ، وأحسست أنى أنا والجيل الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تمّ تفرغنا تفرغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كُله ، من علومه وآدابه وفنونه . وتمّ أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان فى الماضى متكاملأً متماسكاً ، مزقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تمّ ملءُ هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإننا لنستقبله استقبالَ الظامىء المحترق قطراتٍ من الماء التّمير المثلج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبين لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصّة طويلة قد تعرّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، (١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيننا عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوة والغنى ، وعالمُ الضعف والفقر = أو عالم الغزاة الناهيين ، وعالم المستضعفين المنهوبين . كان عالم الغزاة الممثل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً ، فهو صيّدٌ غزيرٌ يمدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلو والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحول عملٌ سياسى محضٌ ، لا غاية له إلا إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تاماً لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفذ ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسى المحض المتشعب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُله بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرةً على كلِّ شىء ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، لىضع للأمة نظام التعلیم المدمر الذى لا نزال نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامه إعداد أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادة هذا التحول الرفيق العميق ، ويراد منهم أن يؤسسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحول إلى غاية يُراد لنا أن نبلّغها على تمدى الأيام . وكان الغزاة يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد البيغاوات ، تتضمن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية ، مقرونًا بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكشفوا أمّتهم بأن ما أعجبوا به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سرُّ ضعفنا وانهارنا . وقد وجدت ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً . فكان الرأى أن تنشأ أجيال متعاقبة من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحول ، عن طريق تفرغهم تفرغاً كاملاً من ماضيهم كلّهم ، مع هتك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددٌ من تضم من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاة ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا ! بل زاد بشاعة وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربى والإسلامى بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفرغ الأجيال من ماضيها المتدفق فى دماها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاج إلى ملء بماضٍ آخر يغطى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعرقٍ فى القَدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفرغ المتواصل .

في ظل هذا التفرغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة التي تخرج مفرغة أو شبه مفرغة إلى « البعثات » ، وهذا التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا التغليب المتعمد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حية حياة ما ، وباقية على تماسكها وتكاملها = في ظل هذا كله ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقوم على أصل واحد في جوهره ، هو ملء الفراغ بما يناسب آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعض هذا الفراغ ، فهي تحدث في النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرح مثلاً ، وكان له شأن أي شأن ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربي في تكوينه كله . وأيسر سبيل كان إلى إمداده بمادته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربي ، مسلوخة يعادُ تكوينها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصح ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمّون هذا حياءً ومكرًا : « التمصير » !! بيد أنه عبث مجرد ، وسطو لا رقيب عليه . أمّا الكتاب الجادون ، فكان أكثرهم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربي في الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً ما ، وإن كان أكثره خطفاً وسطواً ينسبه الكاتب إلى نفسه بلا رقيب ولا محاسب .

والقصة أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحور فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرَقَّع بأفكارٍ مسلوقة مختطفة ، ثم توزع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاج والتقليد . [وهذا أمر لم يزل مستمرّاً بقوة إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمّة مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! ^(١) والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين : ميل ظاهر إلى

(١) في السنوات الأخيرة ، وُجِدَت ألفاظ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل قولهم : « المعاصرة » و « الحدائث » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الراض مُلماً إماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميل سافرٍ إلى الغلوِّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبه متميزاً فى نفسه تميّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميّزه أن الله قد يسرّ له الاطلاع على آداب وفنون وأفكارٍ تعب أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه تُخطوط من صورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاح له .

ولكن هذه الصورة لا تتمّ وحدها . فى خلال التحوُّل الاجتماعى الثقافى المتصاعد المتكاثراً ، كان هناك جانبٌ راكِّدٌ مخنَّقٌ ، لم يفرِّغ هذا التفرِيع ، ولكن ضُربَ عليه حصارٌ مفرِّغٌ وبيئٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتناسك ، ولكنه كان يزدادُ على مرِّ الأيام تَخَلُّلاً وتفكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، فى هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضى محافظةً مآ ، ولكن قبضته كانت تسترخى شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التى يُرمى بها ، والتى تزلزلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفتح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التى أدَّت إلى تفرِيع « تلاميذ المدارس » من ماضىها ، وإلى تهتك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبية الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كان ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوعة ، والذى يهمنى منها هنا هو ما يتعلّق بأمر « السطو » لا غير . كان الذى يحول بينهم وبين بلوغ

هذا الغرض ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهم لسان غير العربية ، قلما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصة ، إلى إجابة باب يتيح لهم أن يطالعوا = أو يُصدّموا على الأقل ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأى فى آداب العربية وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا مؤفوراً فى مؤلفات « المستشرقين » عامّة ، لأنه هو كل عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كل الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كله . (١) فكان لا بُدّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجال كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، لا يربطهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسان العربى وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر. فكتبوا مقالات ونشروا كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفتهم بها معرفة تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبرة عن اتجاه « الاستشراق » لا غير .

فكانت كلها « سطواً » مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثاً فى ثنايا كل ما يكتبون . وكذلك تيسر لكل من لا يعرف غير العربية لساناً ، أن يجد ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقال عن ماضيه ، وبمناهج لم يالفها أيضاً . ولكن حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عاماً مؤثراً تأثيراً نافذاً فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وفدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشبهة فيهم تُوجب الحذر منهم ، فأضعف الحذر أثر ما يكتبون فى أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرغين من ماضيهم أثر بليغ . ومع ذلك ، فإن الهدف لم يذهب هدرًا ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسر

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

السبيل للساطين، وجعل « السطو » المباشرُ أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرب إلى الأذهان سبيل الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » في دراسة آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو لَصِيْقٌ دَخِيلٌ عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلَّ القليل ، وَمَنْ هو نَابِتٌ في لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، وَمَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوق آدابها تذوقاً شاملاً = والتذوق وحدة عُقْدَةُ العُقْدِ = وَمَنْ هو مسلوبٌ كُلُّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضلاً عما يكنه في سريره من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجددة في تشويه صورتها تشويهاً متعمداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا؟ أم أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنى ، إلا أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة في أنفُس أهلها = ثم لا يأتي التجديد إلا من متمكّن النشأة في ثقافته ، متمكّن في لسانه ولغته ، متذوق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخه في تاريخها وفي عقائدها ، في زمانٍ قُوَّتُها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خيبرها وشرّها ، مُحَسَّساً بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديد » تجديداً إلا من حوارٍ ذكّي بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقدة التي تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤيةٍ جديدةٍ نافذة ، حين يلوح للمجدد طريقٌ آخرٌ يمكنُ سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطع تشابكاً من ناحية ، ليصله من ناحيةٍ أخرى وصلأً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلَّ عُقْدَةً من طرفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسةً .

فالتجديد إذن حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة ، يتولاها الذين يتحركون في داخلها كاملة حركة دائبة ، عمادها الخبرة والتذوق والإحساس المرهف بالخطر ، عند الإقدام على القطع والوصل ، وعند التهجم على الحل والربط . فإذا فقد هذا كله ، كان القطع والحل سلاحاً قاتلاً مدمراً للأمة ولثقافتها ، وينتهي الأمر بأجياها إلى الحيرة والتفكك والضياغ ، إذ يورث كل جيل منها جيلاً بعده ، ما يكون به أشد منه حيرة وتفككاً وضياغاً .

هذه هي العاقبة التي تفرض نفسها فرضاً ، وما أبشعها من عاقبة .

فما ظنك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحل مراداً لذاته ، وكان مراداً أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصل وربط في داخل التكامل والتماسك الذي يجعل لهذه الثقافة معنى وحياة وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكار « المجددة » إلا ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريب عن الثقافة ، منتسب إلى ثقافة غازية مبيانية ، وهو مع ذلك ناقص الأداة ، لا خبرة له بتشابكها وعقدها ، ثم هو في نفسه لا يضم لها إلا التدمير والاستهانة ، لغرض راسخ في قرارة النفس ؟ = ثم ما ظنك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيد على أن يكون « سطواً » مجرداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامها إقحاماً على ثقافتهم ، لا الحاجة أدى إليها النظر والفكر والتدبر ، بل بالهوى وحب الظهور من مُفرغ ، أو من شبيهه بالمفرغ ، من ثقافته المتكاملة المتناسكة ؟ ما أبشع العواقب عندئذ ، وأبشعها التدهور المستمر !

وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن ، جيل المدارس المفرغ ، أن يتلقى صدمة التدهور الأولى ، لأنه نشأ في دوامة دائرية من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهي التي يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فورهم في تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كل مستعمر منهم يشدد قبضته على ما وقع في يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفع هذا التحول دفعاً شديداً ، لكي يتم له أن يُخضع عالمنا « المتخلف »

لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، في مصر ، مع الرجة العظمى التي أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتي انتهت بعد قليل بفجعية مزقت الأمة تمزيقاً مفرعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضّرة !! وتبدّدت نفوسنا وتفتّشت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المُتمادى المُريب المروع .

وفي ظلّ هذا كلّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، (١) وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غير ممزّقة كلّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرّغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كلّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذي ينبغي له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب في متابعته ، ومن إعادة النظر في ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمرّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذي أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذي تتضمّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفيّ للثقافة التي كان ينبغي أن ننتمي إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التي أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكي نلحق بثقافة العصر الذي نعيش فيه ، وبمناهجه في التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك في خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذي يُشيبُ الصغير ويُفني الكبير ، هو الذي سيتولّى الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلّمون اليوم على أيديهم .

والقصةُ تطوّل ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قصّها على وجهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيّد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، ١٥٤

إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيل المدارس المفرغ ، كان في خلال ذلك قد كبر ، وانفلق عن فريقين : فريق قانع بما تجود به عليه أقلام الأساتذة الكبار من « تلخيص » و « تجديد » ، فهو لا يزال إليهم متطعاً ، وبهم متعلقاً ، ثم لا يزيد = وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخصونه ، وما كانوا « يجددون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصح . وأحس أيضاً أن « الأصل » الذي يقرؤه بلغته ، مضىء حتى ، مكثف ، عميق الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لونه خامدة حياته ، متخلخل ، قريب المتناول .

ومع هذا الذي أحس به ، فإنه من حيث لا يدري يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخصين المجددين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسير هين . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانت علائق لم تمزق كل التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يعطوا تلخيصهم نفحة من سر أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدر منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار ، ثم من نفي ما هو غث أو ساقط ، ومن إخفاء « السطو » إخفاءً فيه ذرؤ من المعرفة . أمّا هم ، فقد فرغوا تفرغاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التي ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسون في أنفسهم ما يشبه العجز ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصيب الذي كان فيه جيلنا يومئذ ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا ، وهي تشعر شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخصين » و « المجددين » مع أن الأمر ، كما قلت ، قائم في الحقيقة على « السطو » البين أو الخفي ، على أعمال ناس آخرين يكتبون في لغاتهم بألسنتهم ، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن ! ومع ذلك فإن جيلنا والأجيال التي تتابعت بعده ، لم تُرد

أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئاً آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السُنَّة التي سنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهم شيء يقولونه ، حين يرثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التي أشرت إليها آنفاً ، وتكاثمتها هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمر بعد ذلك كما قيل في المثل : « خلا لك الجؤ فيضي وأصفرى » !!

...

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التي صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد في سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلوم أن الدكتور طه في سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « في الشعر الجاهلي » ، زعم أن له منهجاً يدرسُ به تراث العرب كُله ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشك » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم يُمحُ أكثره ، أن يمحو منه شيئاً كثيراً » [في الشعر الجاهلي ص : ٣] .

ثم انطلق في كتابه هذا مستخفاً بكلِّ شيء ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذي يذُبه المجددون عظيمة جليئة الخطر ... وحسبُك أنهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهاً إلى هذا الحدِّ ، بل هو يجاوزُهُ إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناسُ على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » ، [في الشعر الجاهلي : ٦] .

والاستخفاف الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، أما الذي كان يقوله في أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف . وأما الذي كان يدور بين طلبته الصغار « المفرغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكان شيئاً لا يكاد يُوصف ، لأنه كان استخفافاً جاهل واستهزاءً خاو ، يردّد ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيام ، كانت العاقبة وخيمة جداً . كبر الصغار الذين تأثروا بما قاله في سنة ١٩٢٦ ، فقد فطمتهم السن ، وفطمتهم معرفة جديدة حازوها ، وتنكروا ، أو كادوا ، للثدي الذي كان يُرضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحمية وطلب الصدارة في ميدان « الثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنهم جاؤوا يراحمون الأساتذة الكبار في مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النهج الذي مهّدوه لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أي الحضارة الأوربية = والذي هو في حقيقته سطو مجرد ، ولكنهم لم يسيروا سيرة الأساتذة في معالجة « القديم » حتى يُخيّل للناس أنه إحياء للقديم وتجديده له ، بل كان الغالب على أكثرهم هو « رفض القديم » والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به . وعندئذ أحسّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذي أضاء لهم الطريق بالضجة التي أحدثها كتابه « في الشعر الجاهلي » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذي تولى هو كبر إحدائه ، ظاهراً جداً ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « في الشعر الجاهلي » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات انتهى منها في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكان مُحصّلاً رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأول في سنة ١٩٢٦ ، الذي أعلنه في أوّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما تُسمّيه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي مُتخلّعة مُختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ في أن ما بقي من الشعر

الجاهلى الصحيح قليل جداً ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلّ على شيء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إغناءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بأراء من يُحيطون به من جيلنا الذى بلغ الفطام واستقلّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدّث إلى المتحدّثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن أُلخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شراً غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود
« وجهيل ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهيل أيضاً .

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجّع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وبعض ما صار حتى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ - ١٧) .

« هذا الشاب ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربه
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانه بإحدى اللغات
« الأجنبيه ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً متنفساً ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته ويعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدثُ إليك كأنه ينطق بوحى أبولون . فيعلنُ إليك
« فى حزمٍ وجزمٍ أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
« قد أظلمهم عصر « التجديد » وأن الأدب القديم يجبُ
« أن يُترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويملاؤن
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمسك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمام هو التطور ، وهو الحياة وهو الرقى . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
« القديم ولا تنفرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنما تحبُّه وترغبُ
« فيه وتُحسُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ
« هذا الشابُ ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
« أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوداً
« عليه ، وإنما يتجاوزهُ إلى غيره من الناس . فهو يتحدثُ ،
« وهو يعلمُ ، وهو يكتبُ ، وهو فى هذا كله ينفثُ السمَّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسحُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلحُ منه للبقاء .
« وأكادُ أتخذُ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإتّما اتّخذوا
« منها صوراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردّة ،
« لا أكثر ولا أقلّ !!

« والذين تَلَفَتْهُمْ الحضارة الحديثة إلى أنفسهم ، وتدفعهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياة لمصر
« إلّا إذا عُنيَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ،
« وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عِنَايَتَهَا بما يمَسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنّوا لمن بعدهم السنن فى
الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّة جدّاً لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدّت
بعدهم إلى يومنا هذا ، بل هى تكشف عن جُذور التدمير المفرع الذى يشمل اليوم
المُجْتَمَع العربى كُله حيث تُنطق العربية ، (١) لا بل حيث يدين غير العرب بالإسلام ،
ويُوجب عليهم إسلامهم أن يضعوا العربية فى المقام الأوّل ، لأن إسلامهم لا يكون إسلاماً

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفرع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى
العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى
وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسح فى نفوس الناس المعنى الصحيح
لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت
دخولاً مفرعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إلا بالقرآن ، وهو الذي نزل عليهم بلسان عربي مبين ، وإلا بسنة الرسول الأُمِّي العربي ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهي أيضاً بلسان عربي مبين .

وليس من همي هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضح مدى صدقها حيث صدق توقع الدكتور في تكاثر عدد مَنْ وَصَفَهُمْ من « المثقفين » في شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين في زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكن الذي يجب عليّ أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هي وجه آخر لشهادتي التي كتبتها هنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقلتها أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذي تلقى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ في دوامة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ١٦١] .

ثم قلت في ختام ما سميته « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » [كتاب المنسي : ١٢٢ ،

١٢٣] .

أما الآن ، فإني أتلفت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أشفق من مغبة السنن التي سنّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنة « تلخيص » أفكار عالم آخر ، ويقضى أحدثهم عمره كله في هذا التلخيص ، دون أن يشعر بأنه أمرٌ مخوف بالأخطار ، ودون أن يستتكمف أن ينسبه إلى نفسه نسبة تجعله عند الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحب فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريمة . ومع ذلك فهو أهونٌ من « السطو » المجرد ، حين يعمد الساطي إلى ما سطا عليه ، فيأخذه فيمزقه ثم يفرقه ويُغرّقه في ثرثرة طاغية ، ليخفي معالم ما سطا عليه ، وليصبح عند الناس صاحب فكر ورأي ومذهب يُعرف به ، ويُنسبُ كلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونٌ من « الاستخفاف » بتراث متكامل بلا سبب ، وبلا بحث ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يعلمون علماً جازماً أنه غير

مطبقٍ لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهون مما فعلوه وسئوه من سُنَّةِ « الإرهاب الثقافي » الذي جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلف » و « التقدم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضي » و « ثقافة العصر » = سيّاطاً مُلهِبةً ، بعضها سيّاطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتى ، وبعضها سيّاطُ عذابٍ لمن خالفَ وأبى .

أتلُفْتُ اليومُ إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعلِ الأساتذة الكبار ! لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياةً أدبيّةً وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مدى نصفِ قرنٍ ، وتجددت الأساليب وتنوَّعت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى في الناس طليقاً عليه طيلسانُ « البحث العلمي » و « عالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولة إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم في كُلِّ قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قلُّ ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنه صادقٌ صديقاً لا يتخلف . فالأديب منّا مصوّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف منّا مفكّرٌ بعقل سواه ، والمؤرِّخ منّا ناقدٌ للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان منّا نابضٌ قلبه بنبضِ أجنبيٍّ عن تراثِ فنّه .

وأما الثرثرة والاستخفافُ ، فحدّث ولا حرج ، فالصبيُّ الكبير يهزأ مزهواً بالخليل وسيبويه وفلان وفلان ، ولو بُعث أحدُهم من مرقدِهِ ، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلّم ، لأجمه العرقُ ، ولصارَ لسانه مُضغّةً لا تتلجلجُ بين فكّيه ، من الهيبة وحدها ، لا من علمه الذي يستخفُّ به ويهزأ .

والله المستعانُ على كُلِّ بليّةٍ ، وهو المسئولُ أن يكشفها ، وهو كاشفها بمشيئته ، رَحمةً بأمةٍ مسكينة ، هؤلاء ذنوبُها كانوا ، وأشباةُ لهم سبقوا ، وغفرانك اللهم .

أبوفهم
محمد محمد شاكر

الأحد ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

الفهارس

صنعها

الأستاذ/ أحمد الشريف
رئيس المجلس المحلي بأسوان

١ - الحديث النبوي الشريف

« ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس » ١٥٠ ، ٥٥

« من سئل عن علم فكتمه » ١٢٢ ، ٨٤

•••

٢ - الأمثال العربية

« اتخذ الليل جملاً » ٩٤

« التقت حلقتنا البطان » ٥٣ ، ٣٨

« بلغ السيل الزبى » ٨١

« لليدين وللقيم » ٩٤

« مثل تجلة القسم » ٧٩

•••

٣ - الأمثال العامية

« ما أسخم من سبى إلا سيدى » ١١١

•••

٤ - الشعر

- | | |
|-----------------------|--------------------------------|
| بشار : ٩٤ | (١) خرجت مع البازي على سواد |
| أبوالحسن التهامي : ٦٨ | (٢) متطلب في الماء جذوة نار |
| | (٣) وفي الصدر خزاز من الوجد |
| للشماخ : ١٩ | حامز |
| للعرجى : ٢٥ | (٤) أم كان شيئا كان ثم انقضى ؟ |
| | (٥) أن تحسب الشحم فيمن شحمه |
| المتنبى : ٢٨ | ورم |
| ١٠٤ ، ٩٨ : | (٦) لعل له عذرا وأنت تلوم |
| المتنبى : ١٢٠ | (٧) مفتحة عيونهم نيام |

- (٨) وعقولهن تجُولُ في الأحلام البحتري : ١٥١
 (٩) هُوُوا ، وما عَرَفُوا الدُّنْيَا
 وما فَطَنُوا المتنبي : ٢٩
 (١٠) حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ : ٢٨

• • •

٥ - الكتب

- أباطيل وأسمار لأبي فهر : ٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٤٤
 أنوار الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل للطهطاوى : ١٤٤
 الإيضاح لأبي علي الفارسي : ١١
 البردة للبوصيري : ١٢٥
 برنامج طبقات فحول الشعراء لأبي فهر : ١٨ ، ٦٧ ، ٧١
 تاج العروس للزبيدي : ٨٢
 تاريخ الجبرتي : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٣
 تاريخ الحركة القومية للرافعي : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
 ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 تفسير القرآن الكريم للطبري : ١٩
 جمهرة نسب قريش لابن بكار : ١٩
 حديث الأربعاء لطفه حسين : ١٦٣
 خزانة الأدب للبغدادي : ٨٢
 دراسات عربية وإسلامية : ٢٠
 دلائل الإعجاز للجرجاني : ٩
 الرسالة الشافية للجرجاني : ٨ ، ٩
 رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ١٥١
 سنن الترمذي : ٥
 سنن أبي داود : ٨٤
 سنن ابن ماجه : ٥
 الشفاء للقاضي عياض : ١٢٥
 طبقات فحول الشعراء لابن سلام بشرح أبي فهر : ١٩

- فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض : ١٠٥ ، ١٠٩
في الشعر الجاهلي لظه حسين : ٣٠
القرآن الكريم : ٩ ، ١٠ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٢
القوس العذراء شعر ألى فهر : ١٩
القوس العذراء وقراءة التراث للدكتور محمد أبو موسى : ٢٠
الكتاب لسيويه : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤
المتنبى لألى فهر : ٥ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٤٩
المتنبى : ليتنى ما عرفته لألى فهر : ٧
المسند لابن حنبل ، بتحقيق أخى أحمد محمد شاكر : ٥ ، ٨٤
المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم لإدوار وليم لين : ١٣٣
المغنى للجرجانى : ١١
المقتصد للجرجانى : ١١
ودخلت الخيل الأزهر لمحمد جلال كشك : ٩١ ، ١٣٣
وصف مصر : ٩٧

•••

٦ - الصحف والمجلات

- الأهرام : ٩١ ، ١٤٨
الثقافة : ٧
جريدة الجهاد : ١٦٢
الكتاب : ٢٠
المقتطف : ١٦
الهلل : ٨١

•••

٧ - الأعلام

- آدم (عليه السلام) : ٧ ، ٢٦
 الآمدى : ٢٥
 (إبراهيم عليه السلام) : ٥
 إبراهيم بن محمد على (الخديوى) : ١٣٨
 إبراهيم النخعى : ٢٤
 إبليس : ٩٠
 إحسان عباس : ٢٠
 أحمد حافظ عوض : ١٠٥ ، ١٠٨ ،
 ١٠٩ ، ١١١
 أحمد بن حنبل : ٥ ، ٢٤ ، ٨٤
 أحمد محمد شاکر : ٨٤
 إسماعيل (عليه السلام) : ٥
 إسماعيل خديوى مصر : ١٥٢
 الأشعري (أبو الحسن) : ٢٥
 الألفى (محمد بك) : ١٢٧ ، ١٣٣
 الأوزاعى : ٢٤
 البخارى : ٢٤
 بشار بن برد : ٩٤
 البغدادى (عبدالقادر) : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٨ ،
 ٨٩ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٥
 أبوبكر الصديق (رضى الله عنه) : ٣٣
 البكرى (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩
 البيرونى : ٢٥
 بيكن (روجر) : ٣٩ ، ٥٥
 تاليران : ١١٦ ، ١٢٣
 الترمذى : ٥ ، ٨٤
 توفيق بن إسماعيل : ١٤٤
 توما الأكوينى : ٤٠ ، ٥٥
 ابن تيمية : ٢٥
 الجاحظ : ٢٥
 الشيخ الجارم : ٩٥
 الجبرقى الكبير (حسن بن إبراهيم) : ٨٢ ،
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٤٥
 الجبرقى : (المؤرخ : عبدالرحمن) : ٨٣ ،
 ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١
 الجداوى : ١٢٦
 الجرجانى (عبدالقاهر) : ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
 ١٣ ، ١٤ ، ٢٥
 أبو جعفر الطحاوى : ٢٤
 جنكيز خان : ١٠٠ ، ١١٩
 جومار (المسيو آدم فرانسوا) : ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧
 ابن حزم : ٢٥
 الحسن البصرى : ٩ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٨٠

الزبير بن بكار : ١٩
زكى نجيب محمود (الدكتور) : ٢٠ ، ٩١
٩٢ ، ١١٩
الزهري (انظر : ابن شهاب الزهري) :
زيد بن ثابت (رضى الله عنه) : ٣٣
السادات (الشيخ) : ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤
سان بريست (الكونت) : ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٦
السرسى (الشيخ موسى) : ١٣٠
سعيد الأفغانى : ١٧
أبو سعيد الخدرى : ٥
أبو سعيد السيرافى : ١١
سعيد بن المسيب : ٢٤
سفيان الثورى : ٢٤
ابن سلام الجمحى : ١٩ ، ٢٥
سليمان الحلبي : ٩٤
سيبويه : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،
٢٥
ابن سينا : ٢٥ ، ٤٠
السيرافى (انظر : أبو سعيد)
سيف الدولة : ٣٩
السيوطى : ٢٥

الشافعى : ٢٤
الشبراخيتى (الشيخ يوسف) : ١٣٠
الشرقاوى (الشيخ عبد الله) : ١٢٧ ،
١٢٩

أبو حنيفة الإمام : ٢٤

الخليل بن أحمد الفراهيدى : ١٤ ، ٢٤
أبو داود : ٨٤
الدمنهورى (الشيخ مصطفى) : ١٣٥
دنلوب : ١٤٨ ، ١٥٣
الدواخلى (الشيخ محمد) : ١٣٠
دى توت (البارون) : ١١٤ ، ١١٥ ،
١١٦
دى ساسى (البارون سلفستر) : ١٤٣
دى شوازل (الدوق) : ١١٤ ، ١١٦
ديكارت (رينيه) : ٢٩

الرافعى : (عبدالرحمن) : ٩٣ ، ٩٥ ،
١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
١٢٤ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥
الرافعى (مصطفى صادق) : ١٧
روسو (جان جاك) : ١٤٤
ابن رشد الفقيه : ٢٥
ابن رشد الفيلسوف : ٢٥ ، ٤٠
رقاعة الطهطاوى : ٩٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٧

زاينوشك (الجنرال) : ١٢٠
زبيدة (بنت السيد البواب) : ٩٥
الزبيدى (المرتضى) : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٤٥

العفيقى (الشيخ عبدالباق بن عبد الوهاب):

١٢٦ ، ١٨٥

العقاد (عباس محمود): ١٧

أبوعلّى الفارسى: ١١ ، ١٣ ، ١٧

على بن أبى طالب (رضى الله عنه):

٩ ، ١٤ ، ٢٤

على عبدالرازق: ١٧

على بن نصر الجهضمى: ١٤

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه):

٢٤ ، ٣٣

عمر مكرم (السيد نقيب الأشراف):

١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤

١٣٦ ، ١٣٧

أبو عمر بن العلاء: ٢٤

عمرو بن العاص (رضى الله عنه):

١٣٠

عيسى بن مريم (عليه السلام): ٤٨ ،

١٢١ ، ١٩٤

فانتور (= فتورة): ٩٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤٠

الفراء: ٢٥

قولتير: ١٤٤

الفيومى (الشيخ سليمان): ١٣٠

قتادة السدوسى: ٢٤

ابن قتيبة: ٢٥

ابن قيم الجوزية: ٢٥

الشعبى: ٢٤

الشماخ: ١٩ ، ٢٠

ابن شهاب الزهرى: ٢٤

الشوكافى: ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧

الشيابى (محمد بن الحسن): ٢٤

الصاوى (الشيخ مصطفى): ١٢٩

صبيح (الطواشى): ١١٣

صروف (فؤاد): ١٧

الصعيدى العدوى: ١٢٦

الطبرى (أبو جعفر): ١٩ ، ٢٤

طه حسين: ١٧ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣

الطهطاوى (رفاعة رافع)

عادل الغضبان: ٢٠

ابن عبد البر: ٢٥

القاضى عبدالجبار المعتزلى: ٢٥

عبدالله بن عباس (رضى الله عنه):

٢٤

عبدالله بن عمر بن الخطاب: ٢٤

عبدالله بن مسعود: ٢٤

العثيمين (الدكتور عبدالرحمن بن سليمان)

١١

العرجى: ٢٥

العريشى (الشيخ عبدالرحمن): ١٢٦ ،

١٢٩

عزام (الدكتور عبدالوهاب): ١٧

محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٥ ، ٩ ، ٣٣ ،
 ٥٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ،
 ١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ،
 محمد بن عبد الوهاب : ٨٢ ، ٨٨ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧ ،
 محمد أبو موسى (الدكتور) : ٢٠ ،
 محمد الأمير (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٤ ،
 محمد خلف الله أحمد : ٩ ،
 محمد زغلول سلام : ١٠ ،
 محمد علي (سرشمة) (والى مصر) :
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 محمد الفاتح : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٨٠ ،
 السيد محمد البواب : ٩٥ ،
 محمد مصطفى هدارة (الدكتور) :
 ٢٠ ،
 محمد هاشم عطية : ١٧ ،
 مسلم (الإمام) : ٢٤ ،
 مصطفى عبد الرازق : ١٧ ،
 مكياقلى (نيكولو) : ٤٣ ، ٧٨ ،
 مور (المسيو) : ١١٥ ،
 موسى (عليه السلام) : ٤٨ ، ١٢١ ،
 مونتسكيو : ١٤٤ ،
 مينو (الجنرال) : ٩٥ ، ٩٦ ،
 نابليون (بونابرت) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

كرومر (اللورد) : ١٤٨ ،
 كشك (محمد جلال) : ٩١ ، ١٣٣ ،
 كلايف (روبرت) : ٨٨ ،
 كلفن (جون) : ٤٣ ،
 كليبر (الجنرال) : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
 ١١٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ،
 كولبس (كريستوفر) : ٥٢ ،
 لوثر (مَرْتِن) : ٤٣ ،
 لويس التاسع : ١١٣ ،
 لويس الرابع عشر : ١١٣ ، ١٢٣ ،
 لويس الخامس عشر : ١١٤ ،
 لويس السادس عشر : ١١٤ ، ١١٥ ،
 ليينتز (الفيلسوف) : ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١١٦ ، ١٢٣ ،
 الليث بن سعد : ٢٤ ،
 لين (ادوار ولیم) : ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ابن ماجه : ٥ ،
 مارسيل : ١٣٤ ،
 مالك بن أنس : ٢٤ ،
 المبرد (أبو العباس) : ٢٥ ،
 المنتبى (أبو الطيب) : ١٧ ، ٢١ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ١٢٠ ،
 مجالون (المسيو شارل) : ١١٥ ،
 ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

	١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
أبو هريرة (رضى الله عنه) : ٨٤	١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
يحيى بن معين : ٢٤	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
المعلم يعقوب : ١٣٣	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
أبو يوسف : ٢٤	١٤٧
يوسف بك (المملوك) : ١٢٦	نصر بن علي بن نصر الجهضمي : ١٤

• • •

٨ - المعالم والمؤسسات

الأزهر الشريف (الجامع ، والحتى) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥

الجامع العتيق بالفسطاط (جامع عمرو) : ٨٩ ، ٩٦

جيش الأقباط : ١٣٣

دار العلوم : ١٥٥

دار المعارف : ٩ ، ٢٠

الديوان : ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤

شركة الهند الشرقية البريطانية : ٨٨ ، ١٠١

شركة الهند الشرقية الفرنسية : ٨٨ ، ١٠١

كرسى البابا : ١٣٢

كنيسة أيا صوفيا : ٤١ ، ٤٢

الكنيسة القبطية المصرية : ١٣٢ ، ١٣٣

الماجنا كارتا : ١٢٨

مدارس الجاليات الأجنبية : ١٥٣

المسرح : ١٥٤

المجمع العلمي الفرنسي : ١٤٠

مدرسة الألسن : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧

نظارة المعارف العمومية : ١٤٨

•••

٩ - المواضع والبلدان

	الآستانة : ١١٤ ، ١١٥
تركية : ٥٣ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٢ ،	آسية : ٣٦ ، ٤٦
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،	أرض الهند الحمر (= أمريكا) : ٥٢ ،
١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩	٥٥
	الاسكندرية : ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٨
جرجا (مديرية) : ١٤٢	١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٤
الجزائر : ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٢	إفريقية : ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣
جزيرة العرب : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩	١٠١ ، ١٢١
١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،	أمريكا (انظر : أرض الهند الحمر)
١٣٩ ، ١٤٠	انجلترا (انظر : بريطانيا) :
	الأندلس : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧
دار ابن لقمان : ١١٣	٨٠
دمشق : ٣٨	أوربة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
دمياط : ١٠٨ ، ١٣٧	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
رشيد : ٩٥	٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦
روسية (= الروسية) : ٤٦ ، ٩٧	٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧
رومية : ١٣٢	١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤١
	١٤٥
السودان : ٩٨	باريس : ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٥
سورية : ٩٣ ، ١٠٧	البرلس : ١٠٨
الشام : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠	بريطانيا (إنجلترا) : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ١٠١ ، ١١٢ ،	٩٧ ، ١١٨ ، ١٣٧
١٢١ ، ١٢٣	بغداد : ٣٨
شمال إفريقية : ٣٧	بليس (شرقية) : ١٢٧
	بيزنطة : ٤٧

القسنطينية : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١١١

١١٢

مصر : ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧

المغرب : ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٨

المنصورة : ١١٣

المنوفية : ١٢٠

الهند : ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ١١٨

هولندا : ٩٧

الوجه البحري : ١٠٤ ، ١٣٤

اليمن : ٨٢ ، ١١٧

الصعيد : ١٠٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤

الصنادقية : ٩٩

العين : ٣٥

طنطا : ١٣٧

طهطا : ١٤٢

عكا : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

غرناطة : ٨٠

فرنسا : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،

١٤٨

القسطاط : ٨٩ ، ٩٦

القاهرة : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١١ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٤٢ ، ١٤٣

فهرس

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

- ٥ - فاتحة الرسالة / ٦ - مدخل الرسالة ، وبدء الرحلة / ٧ - الرحلة إلى المنهج / ٨ - الاهتداء إلى المنهج ،
وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه / ١٠ - تفسير جديد لأزمة الفعل عند سيبويه / ١٤ - سبب تأليف سيبويه
كتابه / ١٥ - منهجى في تذوق الكلام / ١٦ - منهجى في التذوق ، وكتابه «المتنى» كيف استقبل /
١٧ - كتابى «المتنى» كيف استقبل / ١٨ - لم أفارق منهجى قط في مقالاتى وكتبى / ١٩ - لم أفارق منهجى في
«القوس العذراء» (وهى شعر) / ٢٠ - تذوق شعر الشماخ / ٢١ - كلام فى «المنهج» و«ما قبل المنهج» ،
ما هو ؟ / ٢٢ - «ما قبل المنهج» ، المادة ، والتطبيق / ٢٣ - كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة /
٢٤ - أصول «المنهج» من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٢٥ - أصول «ما قبل المنهج» ، وبيان ذلك /
٢٧ - أصول «ما قبل المنهج» ، اللغة وأسرارها / ٢٨ - أصول «ما قبل المنهج» ، الثقافة وأسرارها ، «البراءة» من
«الأهواء» / ٢٩ - العواصم التى تحمى «ما قبل المنهج» / ٣٠ - العواصم التى تأتى من قبل «الثقافة» /
٣١ - رأس كل ثقافة هو «الدين» ، الأصل الأخلاقى / ٣٢ - «الأصل الأخلاقى» الفريد بالكمال فى ثقافتنا /
٣٤ - تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٣٥ - التفسير الصحيح لقضية «الحروب الصليبية» / ٣٦ - إخفاق
«الحروب الصليبية» ، ثم فتح القسطنطينية / ٣٧ - تأريخ «المسيحية الشمالية» فى المازق (أوربة) وتفسيره /
٣٨ - إخفاق «الحروب الصليبية» وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٣٩ - بحث «المسيحية الشمالية» عن مخرج ،
ظهور «بيكن» وطبقته / ٤٠ - ظهور «توما الإكوينى» وطبقته ، واستمدادهم من المسلمين / ٤١ - فاجعة فتح
القسطنطينية وأثرها فى أوربة / ٤٢ - فتح القسطنطينية لم يكن شرًا على أوربة / ٤٣ - الإصلاح الدينى فى أوربة ،
«لوثر» و«كلفن» ، واستمدادهم من المسلمين / ٤٤ - مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام /
٤٥ - المرحلة الرابعة هى التى أدت إلى «عصر النهضة» / ٤٦ - إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة /
٤٧ - مدد «عصر النهضة» كله مأخوذ من دار الإسلام / ٤٨ - بدء ظهور طبقة «المستشرقين» وأهدافهم
ووسائلهم / ٤٩ - وصف حقيقة طبقة «المستشرقين» وعملهم للتبشير والاستعمار / ٥٠ - أهداف المسيحية
الشمالية وحقيقتها / ٥١ - أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٥٢ - انفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف
أمريكا ، وكيف كان ذلك / ٥٣ - إبادة الهنود الحمر هو خلق الحضارة الأوربية ، «الاستشراق» / ٥٤ - عمل
«الاستشراق» و«المستشرقين» ونهت ثرائنا / ٥٥ - حقيقة «الاستشراق» ، وظهور دهاقته الكبار /
٥٦ - «المستشرق» حامل هموم المسيحية الشمالية ويمثل أهدافها / ٥٧ - لأى هدف كتب «المستشرقون»
ما كتبوا؟ وصفة «المستشرق» / ٥٨ - ما كتبه «المستشرقون» موجه إلى المثقف الأوربى لا غير / ٥٩ - الصورة
التي صوروا بها العالم الإسلامى للمثقف الأوربى / ٦٠ - عمل «الاستشراق» موجه للمثقف الأوربى لحمايته /
٦١ - «الاستشراق» يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٦٢ - كتب «المستشرقين» لا توصف بأنها علمية /
٦٣ - أسباب نقي صفة «العلمية» عن كتب «المستشرقين» / ٦٥ - «المستشرق» عارٍ من شروط «المنهج»
و«ما قبل المنهج» / ٦٦ - نشأة «المستشرق» تمنعه من الدخول تحت شروط «المنهج» الثلاثة / ٦٧ - شروط
«المنهج» : «اللغة» و«الثقافة» و«البراءة من الأهواء» / ٧٠ - تنمة القول فى خلق «المستشرق» من شروط
«المنهج» / ٧١ - سر «الثقافة» المثلّم ، ولم ؟ / ٧٢ - طوران فى الطريق إلى «الثقافة» : الدين واللغة /
٧٤ - «الدين واللغة» غير قابلين للفصل / ٧٥ - «ثقافة عالمية» كلمة باطلّة ، ولم ؟ / ٧٦ - لغة «المستشرق»

و « ثقافته » تخرجه من شروط « المنهج » / ٧٧ - دوافع « المستشرق » في الكتابة حَقِّقْ له / ٧٨ - ختام قضية « الاستشراق » / ٧٩ - قصة ملؤها المضحكات والمبكيات / ٨٠ - كيف كان الأمر في القرن الحادى شعر الهجرى / ٨١ - « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين / ٨٣ - الجبرئى الكبير والإفرنج (المستشرقون) / ٨٤ - الفرق بيننا وبين أوربة في ذلك الوقت / ٨٥ - « الاستشراق » وتحوُّفه من نهضتنا يومئذٍ / ٨٦ - « الاستشراق » ونذيرُهُ للمسيحية الشمالية / ٨٧ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار / ٨٨ - صراع بريطانيا وفرنسا في دار الإسلام في الهند / ٨٩ - وَقَع نذير « الاستشراق » في فرنسا، نابليون / ٩٠ - « نابليون » السَّفَاحُ مَدَّمَرُ القاهرة / ٩١ - قصةٌ مُقْحَمَةٌ / ٩٣ - حقيقة « الحملة الفرنسية » في مصر / ٩٥ - « مينو » الخبيث، وجلاء الفرنسيين عن مصر / ٩٦ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته / ٩٧ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نفائس الكتب / ٩٩ - سرقة الكتب لوأد اليقظة، وسفح دماء رجالها / ١٠٠ - سفح الدماء لوأد اليقظة / ١٠١ - جهاز « الاستشراق » وعمله في دار الإسلام / ١٠٢ - « الاستشراق » وفكرة نابليون في خديعة « الديوان » / ١٠٤ - « الاستشراق » كامنٌ في أحشاء جزَّار القاهرة نابليون / ١٠٥ - سياسة جزَّار القاهرة في « إنشاء الديوان » / ١٠٦ - إخفاق نابليون ومستشرقوه في ترويض الجماهير المصرية / ١٠٧ - نخبة أمل الجزَّار في « تدجين » المشايخ / ١٠٨ - رسالة نابليون إلى خليفته كبير وخطَّرها / ١٠٩ - نص الرسالة وكيف عَيَّبَ بها الرافعى، فضيحة !! / ١١٢ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم، وزحفهم البطيء / ١١٣ - « ليينتر » الفيلسوف الألماني يحرِّض فرنسا على غزو مصر / ١١٤ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر / ١١٦ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « اليقظة » في مصر / ١١٩ - إرهاب نابليون ومقاصده في رسالته إلى « كبير » / ١٢٠ - مقاصد « نابليون » وإرهابه وجنور قضيتنا مع الغرب / ١٢١ - عمل « الاستشراق »، والزحف الشامل على دار الإسلام / ١٢٢ - جاليات المسيحية الشمالية في قلب دار الإسلام / ١٢٣ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين / ١٢٤ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة في دار الإسلام في كل زِيٍّ / ١٢٥ - عمل « الاستشراق » في إقامة الطويلة بدار الإسلام في مصر / ١٢٦ - بدؤُ سقوط هيبة المشايخ عند الماليك المصرية / ١٢٧ - الثورة على الماليك، والمشايخ الذين كانوا على رأسها / ١٢٩ - ثورة المشايخ على الماليك جُزءٌ من « اليقظة » / ١٣٠ - المشايخ الثَّوار، كيف استجابوا لدعوة نابليون لإنشاء « الديوان » / ١٣١ - ما كان « الاستشراق » يوحيه إلى المشايخ عند دُنُو الحملة الفرنسية / ١٣٢ - ما كان « المستشرقون » يفعلونه مع الماليك، ومع الكنيسة القبطية / ١٣٣ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية لَمَّا لم تستجب لإغرائهم / ١٣٤ - سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ١٣٥ - إسناد المشايخ ولاية مصر لمحمد على / ١٣٦ - صفة أخلاق محمد على، ومراقبة « الاستشراق » له / ١٣٧ - غَدَّر محمد على بالذى ولأه مصر، السيد عمر مكرم / ١٣٨ - إحاطة « القناصل » بمحمد على، وتحريضه على غَزْو جزيرة العرب / ١٣٩ - قصة فكرة البعثات إلى أوربة / ١٤٠ - « جومار » وتطويره مشروع نابليون إلى بعثات طلبة / ١٤٢ - رفاعة الطهطاوى وخبره، وما فعل به « المستشرقون » / ١٤٥ - حقيقة « مدرسة الألسن » التى أنشأها رفاعة الطهطاوى، وخطَّرها / ١٤٦ - خاتمة الرسالة، وتمتة القول في خطر « مدرسة الألسن » / ١٤٧ - الاحتلال الإنجليزي لمصر، وجعل التعليم كله في قبضة المبشِّر « دنلوب » / ١٤٨ - « تفرغ » طلبة المدارس من ماضيهم، وبَعَثُ الانتاء إلى « الفرعونية » البائدة / ١٤٩ - ختامُ الرسالة ؛ والحمد لله وحده .

١٥١ - ذيل الرسالة، قصة « التفرغ الثقافى » ..

١٦٩ - الفهارس العامة .

١٨١ - فهرس رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .

مقدمة هذه الطبعة
وفيها ذكر نصرٍ جديدٍ مهمٍّ جدًّا

• كان من قصة كتابي «المتنبي» أني كتبتُه سنة ١٩٣٦ م ، وافترضت فيه فرضاً يُعينني على تفسير بعض ما في شعره ، وعلى تفسير ما في أخبار حياته وصلاته بأهل عصره ، وكان هذا الفرض الذي افترضته أنه علويُّ النسب ، كان مجرد فرض جرى . وكان ما كان من رضئ واستنكار ، وبعد اثنتين وعشرين سنة (سنة ١٩٥٨ م) أطرفني أحمد راتب النفاخ صديقي وتلميذي وأستاذي بترجمة كتبها ابن عساكر ، منقولة عن تاريخه ، وفيها أن المتنبي أَرْضَعته امرأة علوية من آل عبيد الله . فهو إذن أخو العلويين من الرضاة ، وبعد أربع سنوات أيضاً سنة ١٩٦٢ م ، تلقيتُ من أخي أحمد ترجمةً للمتنبي كتبها ابن العديم في كتابه « بغية الطلب » ، فكان فيها أيضاً ما في ترجمة ابن عساكر أنه أَرْضَعته امرأة علوية ، وكان فيها فوائد كثيرة عن المتنبي لم نعرفها من قبل ، (انظر كتاب المتنبي : ٥٤ - ٥٦) ، كان هذا كله مفاجأة .

• ثم كانت مفاجأة أخرى جاءتني في سنة ١٩٨٤ م ، فإن صديقي وولدي الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العُثيمين أهداني نسخة مصورة من ديوان المتنبي ، بشرح الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٨ هـ) ، وهي نسخة عتيقة نفيسة كتبت في سنة ٥٩٣ هـ فوجدت في الورقات الأخيرة منها ترجمةً للمتنبي كتبها على بن عيسى الربيعي النحوي ، (انظر باب التراجم ص : ٥٨٥) ، فكانت أيضاً مفاجأة أخرى ، فإذا الذي كان خيراً يذكره المترجمون ، صار حديثاً يحدث به المتنبي عن نفسه بلسانه ، رجلاً هو الربيعي الذي كان آخر من لقي المتنبي وودّعه وهو بشيراز ، ولقي المتنبي بعد ذلك بأيام قليلة مصرعهُ مقتولاً ، كما تعرف ذلك في ترجمته .

يقول على بن عيسى الربيعي :

« وقال لي : مولدى بالكوفة ، ورَضَعْتُ بِلَبَانِ عَلَوِيَّةٍ مِنْ آلِ عبيد الله بن يحيى » ،

(انظر التراجم ص : ٥٨٩ ، وانظر التعليق عليه) .

وكانت في هذه الترجمة غرائب ، منها خبرُ ابن عمِّ للمتنبى بالكوفة ، رآه الربيعيُّ ، وذكر له نسبه ، وأنه لا يعرف باقي نسبه ، لأنه منقطع ، وليس في شيء من الكتب ، وهو مهمُّ جداً ، (ص : ٥٩٠) = وخبرٌ مهمُّ جداً في الدخلة الأولى التي دخلها المتنبى ببغداد مدينة السلام خارجاً إلى فارس ، وله علاقةٌ وثيقة جداً بحال المتنبى مع العلويين (ص : ٥٩٠ ، والتعليق عليه) = وذكر راوية للمتنبى ، لم نجد له ذكراً في تراجمه (ص : ٥٩٢) = وذكر عامل رَامَهْرُمَزَ من قبل معز الدولة ، وخدم أبا الطيب وقت اجتيازه بها خارجاً إلى ابن العميد (ص : ٥٩٥) = وخبرٌ رجلٍ رأى أبا الطيب ينشد شعره بعض أهل سوق البز (ص : ٦٠١) = وخبرٌ عن المتنبى في دخلته الثانية إلى بغداد ، في دار أبي الحسن العروضي ، ودخل عليه هرون بن المنجم وأنشده بيتاً ، فأطرق أبو الطيب وألحق به بيتاً آخر قاله ، فأعجب الناس بسرعة خاطره (ص : ٦٠٢) = وأخبارٌ عن المتنبى في شأن كتمان نسبه ، ليست في شيء من الكتب ، (ص : ٦٠٢ ، ٦٠٣) = وخبرٌ في قراءة الربيعي على المتنبى شعره ببغداد وشيراز ، وهو مهمُّ ، (ص : ٦٠٣) = أمّا الزيادات على شعر المتنبى في ديوانه ، وليست في زيادات شعر المتنبى للراجكوتي ، فهي في هذه الصفحات : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، وعِدَّتْهَا ثلاثة عشر بيتاً ، لم أر منها شيئاً في الكتب التي بين يدي .

والحمد لله أولاً وآخراً .

نص الكلمة التي أقيمت عند
تسلّم جائزة الملك فيصل العالمية
عن « كتاب المتنبى »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، المُسَبِّغِ نَعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ،
لَا تَحِيطُ بِشُكْرِهَا أَلْسِنَةُ الشَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرِينَ وَالْمُسَبِّحِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى
مِنْ عِبَادِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ رَسُولًا إِلَى الْعَالَمِينَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ
يَكُونُ ذِكْرًا لَهُ وَلِقَوْمِهِ ذَهْرَ الدَّاهِرِينَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِيهِ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَعَلَى الْمُبَلِّغِينَ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ اسْتَطِيعَ أَنْ أَحْمِلَ هَذَا اللِّسَانَ الْعَاجِزَ عِبْدًا لَمْ يَتَحَمَّلْ مِثْلَهُ
قَطُّ ، إِذْ أَقْفَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي بَيْنَ مِثْلِ هَذَا الْخُفْلِ الْمَخْفُوفِ بِهَيْبَةِ الْمُلْكَ ، وَجَلَالِ
الْعِلْمِ ، وَأُبْهَةِ الْفَضْلِ ، ثُمَّ أَطَالَبُهُ أَنْ يَبِينَ عَمَّا يَجِيشُ فِي صَدْرِي مِنْ مَعَانٍ ، وَأَنَا فِي
خِلَالَ ذَلِكَ نَهَبْتُ مَقَسِّمَ الْخَوَالِجِ مُتَنَاقِضَةً ، تَكْبُحُنِي رَهْبَةٌ تُورِثُ الْخَوْفَ وَالتَّوَجُّسَ
وَالإِشْفَاقَ ، وَتَسْتَحْثِنِي نَشْوَةٌ تُثِيرُ الشَّجَاعَةَ وَالْجُرْأَةَ وَالْإِقْدَامَ . وَأَيُّ إِقْدَامٍ أَغْرَبُ مِنْ
إِقْدَامِي عَلَى الْمَثُولِ بَيْنَكُمْ ! وَأَيُّ جُرْأَةٍ أَعْجَبُ مِنْ جَسَارَتِي عَلَى مَخَاطَبَتِكُمْ ! وَأَيُّ
شَّجَاعَةٍ أَعْظَمُ مِنْ اقْتِحَامِي إِلَيْكُمْ سُدُودَ الرَّهْبَةِ وَالتَّوَجُّسِ وَالْخَوْفِ وَالْإِشْفَاقِ ، حَتَّى
وَقَفْتُ مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ بِاسْطِطَاءِ لِسَانِي بِالشُّكْرِ ، مُجَاهِرًا بِمَا يُوْجِبُهُ عَلَيَّ عِرْفَانُ الْجَمِيلِ
وَحَسَنِ الصَّنِيعِ .

وَمَعَ مَا يُخَامِرُ نَفْسِي مِنَ الرَّهْبَةِ ، وَقَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ ، وَلِسَانِي مِنَ الْعَجْزِ ، تَجْتَاخُنِي
سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَنَشْوَةٌ بَهِيجَةٌ ، بِأَنْ أَتَاحَ اللَّهُ لِي فُرْصَةً عَزِيزَةً نَادِرَةً ، أَهْتَبِلْتُهَا تَحْلُسَةً مِنْ دَهْرِ
شَحِيحِ ضُنِينٍ ، لَكِي أَعْبُرَ بِلِسَانِي طَلِيقٍ عَنِ فَرْحَةٍ قَدِيمَةٍ لَمْ تَزَلْ مَكْتُومَةً فِي سِرِّ

قلبي ، منذ سمعتُ بخبر إنشاء « جائزة الملك فيصل العالمية » ، في سنة تسع وتسعين وثلاثمئة بعد الألف ، وقد أوشك القرن الرابع عشر للهجرة أن ينصرم . فيومئذ تمثّلت لي الأيام المقبلة من القرن الخامس عشر الذي نحن اليوم في درج مطالعه . رأيتُ يومئذ فيما رأيتُ عالماً عربياً إسلامياً قد انتفضَ ، وهبَّ يمسحُ عن وجهه غفوةً طويلةً ، وأفاق من سِنَةٍ كانت قد أخذته وربّضت به . ثم رأيتُ عالماً يوجُ بالشواخ من علمائه وأدبائه وشعرائه ومفكره وكلّ السّاكِينِ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فإذا أظلمهم ميعادُ « جائزة فيصل العالمية » ، لم يبق على الأرض منهم شابٌّ يافعٌ ، ولا فتى ناضجٌ ، ولا كهلٌ سوى ، ولا كبيرٌ مُتقادم الميلاذ ، ولا شيخٌ فإن برى الدهرُ عظامه ، إلا وذكرُ هذه الجائزة جارٍ على لسانه مع التسييح ، ماثِلٌ لعينيه كعمود الفجر ، مَقرونًا بصورة فيصل الذي استطاع في العاشر من رمضان أن ينزع القناعَ عن عالمٍ آخرَ كان يأخذُ منا « القوة » ، ليزداد بها قوةً على قوته ، واستعلاءً على استعلائه ، وغَطْرسةً على غَطْرسته ، ويعطينا لقاءً ذلك ما نتحاسد عليه ، وما يبُدُّ البقية من قوتنا ، ويجعل بعضنا يبغى على بعض . فلما سقط القناعُ يومئذ ، تجلّت كَلْمَج البرقِ فضيحةُ ذاك العالم ، وتعرّت حقيقته ، وبان لكلّ ذى عينين أنه كان يخدعنا بنفاقه ليسترقّ منا القوة التي هي ملكٌ لنا ، وحقٌّ لا ينازعنا فيه منازعٌ ، ثم يُزيّف لنا بغطْرسته كلّ حقيقة ، ويبهّرُ أعيننا بدهائه ومِحَالِه ومخاتلته ، لكي نَعْمَى عن بشاعة مَكْرِه بنا ، وقُبْح استعلائه علينا .

ورأيت أيضاً ، فيما رأيت ، أهل القرن الخامس عشر ، إذا ذكروا القرن الرابع عشر ، يعدّون فيصلاً رجُل هذه الأمة وسَهْمَهَا حين طاشت السُّهَام ، وركناً من أركانها الشداد وقد وهت الأركان ، فإذا ذكروا الجائزة المقرونة باسمه ، أثارَتْ في كلّ نفسٍ وقلبٍ ما تراه عياناً في الوجوه وفي الأعين ، من بشاشة الانتماء الحميم إلى عالمٍ عربيٍّ إسلاميٍّ متراحٍ فوّار ، لا إلى عالمٍ آخر لا يجمعنا وإياه انتاءً ولا وشيجةً ، وسمعتهم يومئذ يقولون : ذاك عالمهم هم ، لا عالمنا نحن . ما أجل ما رأيتهُ يومئذ من عالمٍ ، وما أروعها من حياة . وإذا أراد الله شيئاً ، فكلُّ بعيد قريب .

أما الآن ، ونحن في أول معارج القرن الخامس عشر ، فإنه ليحزُنني ويكدرُ عليَّ سعادتي ونشوتي ، أن لم يُقدَّر لي أن أجد لما تمثَّلتُه في خاطري تحقيقاً يَنفِى غلَّتِي ، وما هِيَ إِلَّا حَسَوَة خاطفةٌ كَحَسَو الطائر ، بيد أني أومن بأن ما هو كائنٌ سيكون ، بإذن الله وتوفيقه ونُصرتِه لعباده الصادقين إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه بالسُّتْم وقلوبهم ، ثم لم تفرِّقهم الأهواءُ والفتن ، وإلاَّ فهو الخِذلان الكبير ، نعوذ بالله رب العالمين من خذلانه ، ونستدفع به وبرحمته كُلَّ بلاءٍ .

هذه رؤية رأيتها يومئذٍ لعالمٍ مستكينٍ وراء حُجُب الغيب ، أوجزتها لكم في كلماتٍ . ولم يبق عندي شيءٌ يمكنُ أن أقوله لكم ، سوى أني أجدُ حابسًا يحبسُنِي عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم . وحابسي في مكاني قصةٌ محيرةٌ لا أملك إلا أن أقصَّها عليكم . وذلك أني تلقَّيت من الأمانة العامة للجائز تهنئةً بجزائقي إيَّاهَا هذا العام ، عن كتابي « المتنبى » والذي نشرته سنة ١٩٧٦ ، ولا كتاب لي عن « المتنبى » سواه . فلمَّا كان بعد حين ، وقرأت نصَّ قرار الأمانة العامة ، أذهلني العجبُ . فقد تبين لي كُلُّ التبين أن الجائزة ممنوحة لكتابٍ آخر غيري ، كان من تصاريف الأقدار أن اسمه يواطىء اسمي ، واسم كتابه يواطىء اسم كتابي ، وقد نشر هو كتابه هذا في سنة ١٩٣٦ ، أي منذ ثمانٍ وأربعين سنة . وبلغ علمي أن هذا الكاتب القديم قد غاب هو وكتابه معاً منذ سنة ١٩٣٧ غيبَةً منقطعةً مستمرةً إلى يوم الناس هذا . فإذا كان قرارُ الأمانة يشهد لِسَمِيِّ الغائب بأنه مستحقُّ الجائزة ، فإن تهنئتها لي بالجائزة ، ودعوها إيَّاي إلى الرياض ، ووقوفي الآن بين أيديكم ، تشهدُ لي جميعاً أكبر شهادة بأني مستحقُّ لها ، ولكن أخوف ما أخافه ، أن يُووب الكاتب القديم من غيبته ، ويخرجُ على الأمانة العامة من سردابه متأبطاً كتابه ، يطالبها بحقه في الجائزة . وهذا أمرٌ مخوفٌ على كُلِّ حال ، ولكن ليست هذه قضيتي ، إنما هي قضية الأمانة العامة تقضى فيها بما تشاء . أما أنا فتهيأت أن يطالبنى أحدٌ بشيءٍ استحقته بما كان من تهنئتي ودعوتي لتسلم جائزة هذا العام علانيةً . وأكبر من ذلك ، فمعي قرارٌ يلغِي كُلَّ قرارٍ ، هو تقديمي كتابي « المتنبى »

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ، فتقبله بأكبر الفضل على وعلى كتابي الذي
لا كتاب لي عن « المتنبى » سواه . وهذا حسبي وحسب كتابي من شرف باذخ .
لم يبق للسانى شيء يبوح به ويجاهر ، سوى الشكر . ومن شكر فقد أدى حقَّ
النعمة ، وأدى حقَّ المُنعَم ، ولم يشكر الله من لا يشكرُ الناس . والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

أبوفهم
محمود محمد شاكر

فندق الخزامى ، الرياض : ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤

٢٥ من فبراير سنة ١٩٨٤

برئاسة جائرة الملك فيصل العالمية
للأدب العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



برئاسة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي

إذ هيئة جائزة الملك فيصل العالمية، بعد الاطلاع على نظام جائزة الملك فيصل العالمية، المعدل والمصاوغ عليه من مجلد الثناء مؤسسه الملك فيصل والخبرية بالقرار رقم ٤٠٣/١١١٧/٢٣ وتاريخ ١١/٩/١٤٠٣ هـ، وعلى محضر لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي في دورتها السابعة بتاريخ ١٤٠٤/٤/١٤ الموافق ١٤٠٤/٤/١٤ قمرية:

الأسنان محمد شاكر

جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي هذا العام ١٤٠٤ هـ، وذلك تقديرًا لإسهاماته القيمة في مجال الدراسات التي تناولت الأدب العربي المقدم والمختلف في

١- تأليفه كتاب «المتنبي» سنة ١٩٣٦ م، والذي عمل كثيرًا من النقاد والعلماء والأدباء العالميين، منها: التعمق في الدراسات والجهود والاستقصاء، والتعمق على الاستنتاج والبرهان في التنزق، والربط العظيم بين الشعر والتجديد والحياة، والانسف عن ذلك في تطور أساليب المتنبي

٢- الأفاق العالمية للبحر التي ارتادها، وما كان من فضلها على الدراسات الأدبية والفكرية، وعلى الحياة الثقافية والدراسات اللغوية.

٣- مواقفها العارضة، وتحقيقاتها ومؤلفاتها الأخرى التي ترفع بها إلى مستوى عال من التقدير.

ولها هيئة الجائزة إذ ترى في ذلك كله تحقيقًا لأهداف جائزة الملك فيصل العالمية وعمها للجائزة تقديرًا لظنه للأعمال فأتمها ترجموا الله أن يبارك في أعماله، وأن يمنحها التوفيق لمواصلة جهوده المثمرة في هذا المجال

والله ولي التوفيق

رئيس هيئة الجائزة

صدّرت في الرياض برقم ٢١ وتاريخ ٢٤ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ

الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤ م

خالد الفيصل بن عبدالعزيز

الملكوت

أبو فهد
محمود محمد شاكر





بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، اللهم صل على محمد خاتم أنبيائك ورسلك ، وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل ، وعلى سائر النبيين .

وبعد ، فهذا كتاب « المتنبى » الذى كنت كتبه فى سنة ١٩٣٦ ، وخرج يومئذ فى عددٍ كامل فى مجلة « المقتطف » ، أنشره اليوم على هيئته التى كان عليها يوم صدر ، وجمعت إليه ما كنت كتبه فى صحيفة « البلاغ فى سنة ١٩٣٧ » فى قضية المتنبى بعنوان : « بينى وبين طه » ، وضممت إليه أربع تراجم للمتنبى أقدمهن جميعاً ترجمة على بن عيسى الربعى الذى قرأ على المتنبى شعره بشيراز سنة ٣٥٣ قبل مقتله ، وثلاث تراجم بعدها كتبها ابن العديم ، وابن عسناكر ، والمقرئى ، من كتب لم تزل مخطوطة لم تنشر ، وكتبت له مقدمة فيها « قصة هذا الكتاب » كما كانت ، بارئاً إلى الله من كل حول وقوة ، شاكراً له سبحانه ، شكر مقصراً لا يفى شكره بأنعمه وأياديه عنده . وأنى يبلغ شكرى له سبحانه ، وقد لطف بى فردّ على بصرى بعد إظلام ، ولولا لطفه سبحانه لبقى هذا الكتاب فى المطبعة ناقصاً لغير تمام . فالحمد لله وحده .

أما الرَّجُلُ الَّذِي أَجْرَى اللهُ عَلَى يَدَيْهِ لُطْفَهُ بِي ، وَاسْتَنْقَذَنِي بِمُرُوَّتِهِ مِنَ الْعَمَى ، وَحَاطَنِي حَتَّى عُدْتُ بِصِيرًا ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَهُ جَزَاءً إِلَّا الْإِقْرَارَ بِفَضْلِهِ ، وَإِلَّا الدَّعَاءَ لَهُ كَلِمًا أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ . صَدِيقٌ لَا تَنَامُ صِدَاقَتُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ ، وَرَجُلٌ لَا تَغْفُلُ مُرُوَّتُهُ عَنْ غَيْرِ أَصْحَابِهِ . ثُمَّ هُوَ بَعْدُ غَنِيٌّ عَنِ اللَّقَبِ بِمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ ، وَفَوْقَ كُلِّ لِقَبٍ بِسَمَاحَةِ شَيْمِهِ : « نَايِفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ آلِ سَعُودٍ » ، لَمْ يَزَلْ مِنْذُ عَرَفْتَهُ قَدِيمًا ، يَزِدَادُ جَوْهَرُهُ عَلَى تَقَادُمِ الْأَيَّامِ سَنَاً وَسِنَاءً . صَرَّحْتُ بِذِكْرِ اسْمِهِ مَطِيعًا لِمَا يُرْضِينِي ، عَاصِيًا لِمَا يَرْضِيهِ .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

القاهرة : مصر الجديدة

أبوفهم
محمود محمد شاكر

٣ شارع الشيخ حسين المرصفي

إِنَّمَا أَنفُسُ الْأَيْسَى سِبَاغٌ
يَتَفَارِسُنَ جَهْرَةً وَأَغْتِيَالاً
مَنْ أَطَاقَ التَّمَّاسَ شَيْءٌ غَلَاباً
وَأَغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاً
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الْعُضْنَفَرُ الرَّثْبَالاً

قِصَّةُ هَذَا الْكِتَابِ

/ لحظة من فساد حياتنا الأدبية

٢٩

«المتنبى» ، كتابٌ كتبه منذ اثنتين وأربعين سنة ، ونُشر في عدد مستقلٍ من مجلة «المقتطف» (يناير سنة ١٩٣٦) . ثم كانت أحداثٌ ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداثٍ كانت قبلها بسنواتٍ طوالٍ ، كان لها أثرٌ بالغٌ القسوة والسوءِ في نفسى ، فلم أملك يومئذٍ أن أكبح جماحها ، فانطويتُ على ما بى انطواءً شديداً أدّى إلى تغييرٍ منهجٍ حياتى كله . ويومئذٍ رفضتُ رفضاً قاطعاً ، بينى وبين نفسى ، أن أولّف كتاباً ، وانصرفتُ / إلى كتابة المقالات وبعض الشعر ، وأصررتُ أيضاً على أن لا أعيد نشر هذا الكتاب «المتنبى» مرةً أخرى ، وأعرضتُ إعراضاً تاماً عما كنتُ وعدتُ به فى هوامش الكتاب (١) من تأليف أربعة كتبٍ مختلفة عن «المتنبى» . وقضى الأمر ، ودخلت منذ ذلك الوقت فى عزلةٍ غريبةٍ جداً ، أشرتُ إليها مراراً فيما أكتب ولم أفسرها ، وتعددت صور هذه العزلة على مرّ الأيام ، وأصبحت هى طابعٌ حياتى إلى هذا اليوم .

فلما استجبتُ أخيراً لإلحاح جمهرة أصحابى على إعادة طبع كتاب «المتنبى» كما كتبه يومئذٍ ، وعلى طبع المقالات التى كتبتها سنة ١٩٣٧ فى جريدة «البلاغ» فى نقد

(١) انظر هذه الطبعة ، الهوامش فى ص : ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٠ وما ذكره أخى

الأستاذ فؤاد صروف فى مقدمة الكتاب ص : ١٣١

الفصول الأولى من كتاب « مع المتنبي » لأستاذنا الدكتور طه حسين ، بعنوان : « بيني وبين طه » = رأيته أمراً لا معدى عنه أن أقصَّ طرفاً من تاريخ حياتي يومئذ ، لكي أفسّر السبب الذي من أجله تركتُ تأليف الكتب ، والذي من أجله أبيتُ إعادة طبع كتاب « المتنبي » على مرّ أربعين سنة ، والذي من أجله كتبتُ ما كتبتُ في نقد كتاب الدكتور طه .

والحديث عن النفس عملٌ أكرهه ، ولكنه يكون أحياناً ضرورة لا غنى عنها . فالجيل الذي يستقبل اليوم هذا الكتاب ، لم يشهد تلك الأيام الغابرة ، ولا يعلم عنها علماً يُغنى أو يفيد ، بل لعله يعلم عن هذا الغابر أشياء / قليلة ، على غير الوجه الصحيح ، الذي كانت عليه ، وإنما اكتسبها الجيل الحاضر من الثرثرة التي تنشر أحياناً في بعض الصحف والمجلات . وقد التزمتُ في هذا الحديث أن أقصَّ ما لا مناصَ منه ، على الوجه الذي كان ، بلا إخفاءٍ للحقائق التي وقفت عليها يومئذ ، لأنها هي التي أثرتُ فيما أكتب ، وهي التي كوَّنت رأيي في الجيل الذي عاصرته ، وفي آثار هذا الجيل في الأجيال التي جاءت معه أو بعده ، متأثرةً به أو وارثةً له .

بين الثالثة عشرة من عمري والسابعة عشرة ، كنت مؤلماً أشدَّ الولوع بالرياضيات ، فدخلت القسم العلمي في « المدرسة الخديوية الثانوية » بالقاهرة ، ولكنني مع ذلك كنتُ مَشغُوفاً بالشعر ، منهوماً بالأدب ، كلفاً بالتاريخ . فلما أنشئت الجامعة المصرية لأول إنشائها ، لم يستطع ولعي بالرياضيات أن يقوم لشغفي بالأدب والتاريخ ، فتحولت مخالفاً سيرة زملائي في القسم العلمي ، والتحقّت بكلية الآداب ، فكان هذا التحول هو أيضاً بدء تحوّل حياتي تحولاً تاماً . هجرتُ الرياضيات هجراً مُصمّتاً ، وأقبلتُ على الشعر والأدب والتاريخ بقلبي كُلّه . ويوم دخلت كلية الآداب ، كنت قد قرَّعتُ منذ قليلٍ من قراءة كتابين جليلين على شيخي ، وشيخ الدكتور طه حسين أيضاً ، وهو سيد بن علي المرصفي ، رحمه الله . أوّل الكتابين :

كتاب « رغبة الآمل » ، وهو شرح الشيخ علي كتاب « الكامل » لأبي العباس المبرّد =
 وثانيهما : كتاب « أسرار الحماسة » ، وهو شرح الشيخ أيضاً على كتاب « الحماسة »
 لأبي تمام الطائي الشاعر . وفي زمان هذه القراءة كان أثر الشيخ / عليّ أثراً شديداً ، فقد
 ١٢ م أثار اهتمامي وصرف قلبي كله إلى الشعر الجاهليّ وبعض الشعر الأمويّ ، وأخذني
 ما يأخذ الشباب في ريعان طلب المعرفة . فارت بي هذه النشوة الجديدة بالشعر
 الجاهلي ، فجعلت تثبط همتي عن الشعر العباسيّ بعض التثبيط . وكان ممّا تثبطت عنه
 همّتي أشدّ التثبيط ديوان أبي الطيب المتنبي ، مع أنّه كان أوّل ديوان من الشعر قرأته
 كلّهُ ، وحفظته كلّهُ ، وفُتنتُ به كلّهُ ، فأغفلته من يومئذٍ كلّهُ . لم يكن هذا التثبيط
 استخفافاً بالشعر العباسي وما بعده ، بل لأن إغالي في الحفاوة بالشعر الجاهليّ وقراءته
 وتتبعه في دواوين شعرائه ، وفي كتب الأدب ، كان قد أوقفني على شيء مهمّ جداً ،
 شغلني واستولّى على نفسي ، حتى صار من ديدني يومئذٍ أن أحدث عنه أكثر من لقيت
 من الأساتذة الكبار الذين عرفتهم وخالطتهم وكنّت آوي إليهم مستطليعاً ومستشيراً
 وملتمساً للإرشاد . فكنت أظفر أحياناً بالتشجيع ، وأحياناً أخرى بالاستغراب وبعض
 الإعراض عما أقول .

كنت قبل ذلك أعرف « المعلقات العشر الجاهلية » وأحفظها ، كما هو شأن أكثر
 من انصرف بهمته إلى الأدب . وهذه المعلقات ، كما هو معروف ، لعشرة شعراء مختلفين
 أولهم امرؤ القيس ، ولكن حفظي إيّاها ، ومعرفتي بها وتاريخها وتاريخ أصحابها ، وبمعانيها
 وبمعاني غريب ألفاظها ، لم يزد قطّ على أن يكون زيادةً في ثروة معرفتي بالعربية ،
 وبشعرائها ، وبشعرها قديمه وحديثه . أمّا حين أخذني التّهم بالشعر الجاهليّ ، وبدأت
 أقرأ ما بقي لدينا من دواوين شعر الجاهلية شاعراً شاعراً ، ثم أشعار مئآت من أهل
 / الجاهلية ممن لا دواوين لهم ، أو كانت لهم دواوين ولم تقع لي بعد دواوينهم = فعندئذ
 ١٣ م اختلف عليّ الأمر ، ولم يعد مجرد ثروة أستزيدها في المعرفة بالعربية وبالشعر . بدأت أجد
 في هذا الشعر الجاهليّ شيئاً مبيناً مبيناً سافراً لما في الشعر العباسيّ كلّهُ ، بل أكبر من
 ذلك : أنّي افتقدت هذا الشيء أيضاً في أكثر ما قرأت من الشعر الأمويّ ، الذي

لا يفصلُ بينه وبين الجاهلية إلا المئة الأولى من التاريخ الهجري ، وهو زمنٌ قليلٌ لا يُعتدُّ به . ثم لم يكن الأمرُ راجعاً إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتها عندي أو ألفتها ، ولا إلى تغايرٍ في أوزان الشعر وقوافيه ، ولا إلى اختلافٍ في المعاني والأغراض أيضاً ، فكلُّ ذلك بلا شكٍّ قريبٌ من قريب . ثم هو بلا ريبٍ ، غيرُ راجعٍ إلى الحداثة والقدم ، كما تُوهَمُ لاجئةٌ عَصْرنا في شأن « القديم » و « الحديث » = لأنَّ الذي بيني وبين الجاهلية خمسة عشر قرناً تقريباً ، والذي بيني وبين الشعر الأمويِّ والعباسي جميعاً ثلاثة عشر قرناً تقريباً . والبعُدُ بيني وبين جملة هذا الشعر ، في الثلاثة عشر قرناً والخمسة عشر قرناً ، بُعْدٌ واحدٌ أو شبيهٌ بالواحد ، فكلُّ هذا عندي قديمٌ مُعَرِّقٌ في القَدَمِ . وكان غيرَ معقولٍ عندي أن يكون هذا الفرقُ الساطعُ الذي وجدته في نفسي بين الشعر الجاهلي والشعر الأموي ، مردوداً إلى فطرتي اللغوية أو إلى قريحتي ، لأننا في زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقةٍ في العربية فاشية في مجتمعنا اللغويِّ ، بل كل واحد منا يكتسبُ طرفاً ما من هذه السليقة بالتعلم والقراءة وطول الدربة والشقاء في المعاناة ، معاناة كلِّ فردٍ منا على حِباله وفي حَلْوَتِهِ .

وإذن ، فأنا لا أستطيع أن أجد هذا الفرقَ يلوحُ جَهرةً في نفسي = / وأنا يومئذٍ على رأس السابعة عشرة من عمري ، وعلى حداثة عهدي بطلب الأدب = إلا إذا كان الشعر الجاهليُّ نفسه يتلَفَعُ على هذا الفرق المتوهجِ كامناً في ثناياه ، وإن كنت لا أستطيعُ عجزاً أن أضع يدي عليه وأقول : ههنا يكمنُ الفرق ! وكان أكبرُ ما مهَّدَ لظهور هذا الفرقِ ، فيما أرجح ، هو أني بدأتُ أقرأ دواوين شعراء الجاهلية شاعراً شاعراً ، كلما فرغتُ من ديوان شاعرٍ بدأتُ صُحبة شاعرٍ آخر = وكلُّما وجدت لشاعرٍ جاهليٍّ علاقة ما بشاعرٍ جاهليٍّ آخر ، صحبتُ ديوانه بعده أو معه ، أو بحثتُ عما بقي من شعره في دواوين الأدب ، إذا لم يكن من أصحاب الدواوين . فلما أوغلتُ في القراءة وأكثرْتُ ، ملتزماً بهذا النظام الذي هداني إليه ولوعى بالرياضيات فيما أظنُّ = وجدتُ في الشعر الجاهليِّ شيئاً لم أكن أجدُه من قبلُ وأنا أقرأ الشعر الجاهليِّ متفرِّقاً لشعراء

مختلفين ، أو وأنا أحفظُ لعشرة شعراء مختلفين هذه « المعلقات العشر الجاهلية » ، وأدارسُها وأتبع معاني ألفاظها ، مع اختلاف معانيها وأغراضها .

وجدت يومئذ في الشعر الجاهلي ترجيعاً خفياً غامضاً ، كأنه حفيف نسيم تسمعُ حسه وهو يتخللُ أعوادَ نباتِ عميمٍ متكاثفٍ = أو رنين صوتِ شجىٍ ينتهي إليك من بعيدٍ في سكون ليلٍ دايجٍ ، وأنت محفوفٌ بفضاء متباعد الأطراف . وكان هذا الترجيع الذي آنسته مشتركاً بين شعراء الجاهلية الذين قرأتُ شعرهم ، ثم يمتازُ شاعرٌ من شاعرٍ بجرسٍ ونغمةٍ وشمائلٍ تتهادى فيها ألفاظه ، ثم يختلف شعر كلِّ شاعر منهم في قصيدةٍ قصيدةٍ من شعره ، وبدندنةٍ تعلو وتخفتُ تبعاً لحركة وجدانه مع كلِّ غرضٍ من أغراضه في هذا / الشعر . ولا تظننَّ أني أزعمُ أن الشعرَ الأمويَّ والشعرَ العباسيَّ كليهما خالي خلواً م ١٥ تاماً من مثل هذه الظاهرة ، كلاً . ولكنني بالمقارنة وجدتُ ترجيعَ الشعر الجاهليَّ ورنينه ودندنته ، مباينةً كلُّها مباينة ظاهرة لما أجده في أكثر الشعر الأمويَّ والشعر العباسي من الترجيع والرنين والدندنة . وهذا ليس مردوداً بلا ريب إلى ألفاظ اللغة من حيث هي ألفاظ ، ولا إلى أوزان الشعر من حيث هي أوزان . وكان بلوغى ، يومئذٍ ، إلى إدراك هذه الفروق أو تبيينها تبييناً يُتيح لي التعبير عنها ، أمراً متعذراً ، فما هو إلا التذوق المحض والإحساس المجرد . وهذا التذوق المتتابع الذي ألفتُه ، صارَ لكلِّ شعرٍ عندي مذاقٌ وطعمٌ وشذاً ورائحةً ، وصارَ مذاق الشعر الجاهليَّ وطعمه وشذاه ورائحته تبييناً عندي ، بل صارَ تمييزٌ بعضي من بعضي دالاً يدلُّني على أصحابه .

بمثل هذا الحديث كنتُ أفاوض الشيوخ الكبارَ ممن عرفتهم ولقيتهم ، وكان هذا الحديث هجيراًى (أى دأبى وعادتي من فرط النشوة) ، فكان يُعرضُ عني من أعرض ، ويربُّتُ على حُيلاءِ شبابى من ربَّتْ بيدٍ لطيفة حانية . كان من هؤلاء شيخٌ ساكنُ الهيبة ، رقيقُ الحاشية ، ساحرُ الابتسامة ، رفيقُ اليد واللسان ، حلُو المنطق ، خفيضُ الصوت ، ذكى العينين ، هو أستاذنا أحمد تيمور باشا رحمه الله ، فأستمع إلى نشوتى بالشعر الجاهليَّ استماعاً من طبِّ لمن حبَّ ، كما يقال في المثل .

م ١٦
 حَدَّثَهُ مراراً ، ثم جاء يوم فالتقينا ، على عادتنا يومئذٍ (سنة ١٩٢٥) ، / في المكتبة السلفية عند أستاذنا محب الدين الخطيب ، فلم يكد يجلسُ حتى مَدَّ يده إليَّ بعددٍ من مجلة إنجليزية ، (عدد يولييه ١٩٢٥ من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية) ، وقال لي وهو يتسهم : اقرأ هذه ! فإذا فيها مقالة للأعجميِّ المستشرق مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ، بعنوان : « نشأة الشعر العربي » . كنت خبيراً بهذا الأعجميِّ التكوين ، التكوين البدنيِّ والعقليِّ ، منذ قرأتُ كتابه عن محمد رسول الله ﷺ . أخذتُ المجلة وانصرفتُ ، وقرأتُ المقالة ، وزاد الأعجميُّ سُقوطاً على سقوطه . كان كُلُّ ما أراد أن يقوله : إنه يشك في صحة الشعر الجاهلي ، لا ، بل إن هذا الشعر الجاهليِّ الذي نعرفه ، إنما هو في الحقيقة شعر إسلاميٍّ وضعه الرواة المسلمون في الإسلام ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية ، وسُخِّفاً في خلال ذلك كثيراً . ولأنتى عرفتُ حقيقة الاستشراق ، لم ألق بالآ إلى هذا الذي قرأتُ ، وعندى الذى عندى من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامى .

م ١٧
 ثم بعد أيامٍ لقيت أحمد تيمور باشا ، وأعدت إليه المجلة ، فسألنى : ماذا رأيت ؟ قلتُ : رأيتُ أعجمياً بارداً شديد البرودة ، لا يستحي كعادته ! فابتسم وتلألأت عيناه ، فقلت له : أنا بلا شكٍ أعرفُ من الإنجليزية فوق ما يعرفهُ هذا الأعجمُ من العربية أضعافاً مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغَ أرذلَ العُمُر ، وأستطيع أن أتَلَّعبَ بنشأة الشعر الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعباً هو أفضل في العقل من كُـلِّ / ما يدخُلُ في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي ، ولكن ليسَ عندى من وقاحة التهجم وصفاقة الوجْه ، ما يسوِّلُ لى أن أخطَّ حرفاً واحداً عن نشأة الشعر الإنجليزي . ولكن صروف الدهر التى ترفعُ قوماً وتخفضُ آخرين ، قد أنزلت بنا وبلغتنا وأدبنا ، ما يُبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم ، وأن يجدوا أيضاً من يختارهم أعضاءً في بعض مجامع اللغة العربية !! وأغضى أحمد تيمور وهو يتسهم .

ومرّت الأيام ، وغاصَ كلامُ هذا الأعجميّ في لُججِ النسيانِ ، لأنّ هذا الأعجم وأشباهه يدرسون آدابنا وشعرنا وتاريخنا كأنّه نقشٌ على مقبرةٍ عاديّة قديمة ، (١) مكتوبٌ بلغة ماتت ومات أهلها وطمرها تُرابُ القرون !! والأسبابُ الداعية لهم إلى ركوب هذا المنهج كثيرةٌ ، أهونها شأنُ الأهواءِ والضغائن المتوارثة ، ولكن أوغلّها أثراً أنّ توجّههم إلى هذا المسلكِ ، مسلكِ الاستشراق ، هو أنّ جمهورهم غيرُ قادرة أصلاً على تذوّق الآداب تذوّقاً يجعلها حياةً في نفوسهم قبل أن يكتبوا ، وهم أيضاً مسلوبو القدرة على أن يبلغوا في لسانهم الذي ارتضعوه مع لَبانِ أمهاتهم مبلغاً من التذوّق ، يُعينهم على التعبير عنه تعبيراً يتيح لأحدهم أن يكون له شأنٌ يذكرُ في آداب لسانه . / ولهذا العجز آثروا أن يكون لهم ذكرٌ بالكتابة في شأن لغاتٍ أخرى يجهلها أقوامهم ، وهذا الجهل يستر عوراتهم عند من يقرأ ما يكتبون من بنى جلدتهم . ولأئني خبّرتُ ذلك فيما يكتبون ، وفيما يقولونه بألسنتهم ، لم يكن مثل هذه الآراء في الشعر الجاهليّ وغيره وَقَع في نفسي يثيرني ، اللهم إلا ما يُثير تقزّزي ، فما أسرع ما أسقط ما أقرأ من كلامهم جملةً واحدةً في يَمِّ النسيانِ .

كان ما كان ، ودخلنا الجامعة ، وبدأ الدكتور طه يلقي محاضراته التي عُرفت بكتاب « في الشعر الجاهليّ » . ومحاضرة بعد محاضرة ، ومع كلّ واحدةٍ يرتدُّ إليّ رَجْعٌ من هذا الكلام الأعجميّ الذي غاصَ في يَمِّ النسيانِ ! وثارت نفسي ، وعندى الذي عندى من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقوله الدكتور طه = وعندى الذي عندى من هذا الإحساس المتوهّج بمذاق الشعر الجاهليّ ، كما وصفته آنفاً ، والذي استخرجته بالتذوّق ، وبالمقارنة بينه وبين الشعر الأمويّ والعباسي . وأخذني ما أخذني من الغيظ ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ ، ولكني بقيتُ زمناً لا أستطيع أن أتكلّم .

تتابعت المحاضرات ، والغيظُ يفورُ بي ، والأدب الذي أدبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكني ، فكان أحذنا يهابُ أن يكلم الأستاذ ، والهيبة معجزةٌ ، وضافت على المذاهب ،

(١) « عادية » منسوبة إلى « عاد » قوم هود عليه السلام ، الذين أبادهم الله وطمس آثارهم .

ولكن لم تحل أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجد في نفسي ، في خفوت وتردد . وعرفت فيمن عرفت من زملائنا شاباً قليل الكلام ، هاديء الطبع ، جم التواضع ، وعلى أنه من / أترابنا ، فقد جاء من الثانوية عارفاً بلغات كثيرة ، وكان واسع الاطلاع ، كثير القراءة ، حسن الاستماع ، جيد الفهم ، ولكنه كان طالباً في قسم الفلسفة ، لا في قسم اللغة العربية . كان يحضر معنا محاضرات الدكتور ، وكان صغوهُ وميله وهواه مع الدكتور طه ، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود محمد الخضيرى . نشأت بينى وبينه مودة ، فصرت أحدثه بما عندى ، فكان يدافع بليين ورفقٍ وفهيم ، ولكن جدتي وتوهجى وقسوتى كانت تجعله أحياناً يستمع ويصمتُ فلا يتكلم . كُنَّا نقرأ معاً ، وفي خلال ذلك كنت أقرأ له من دواوين شعراء الجاهلية ، وأكشف له عما أجد فيها ، وعن الفروق التى تميز هذا الشعر الجاهلي من الشعر الأموى والعباسي . وجاء يوم ففاجأني الخضيرى بأنه يحبُّ أن يصارحنى بشيء . وعلى عادته من الهدوء والأناة في الحديث ، ومن توضيح رأيه مقسماً مفصلاً ، قال لى : إنه أصبح يوافقنى على أربعة أشياء :

الأول : أن أتكأء الدكتور على « ديكارت » فى محاضراته ، أتكأء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف ، وبما كتبه فى كتابه « مقال عن المنهج » = وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج فى محاضراته ، ليس من منهج ديكارت فى شيء .^(١)

الثانى : أن كل ما قاله الدكتور فى محاضراته ، كما كنت أقول له / يومئذ ، ليس إلا سَطوفاً مجرداً على مقالة مرجليوث ، بعد حذف الحجج السخيفة ، والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية ، التى كانت تتخلل كلام ذاك الأعجمي = وأن ما يقوله الدكتور لا يزيد على أن يكون « حاشية » وتعليقاً على هذه المقالة .^(٢)

(١) كان من أثر هذه الأحاديث بيننا ، أن بدأ الخضيرى ، من يومئذ فى ترجمة كتاب ديكارت « مقال عن المنهج » ، ونشره بعد ذلك سنة ١٩٣٠ (المطبعة السلفية) .

(٢) كان من أثرها أيضاً : أن لخص الخضيرى مقالة مرجليوث ، ونشرها فى مجلة « الزهراء » التى يصدرها صاحب المطبعة السلفية ، فى عدد ذى الحجة سنة ١٣٤٦ (إبريل ١٩٢٨) .

الثالث : أنه ، على حداثة عهده بالشعرِ وقلة معرفته به ، قد كادَ يتبيَّن أن رأبي في الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام ، أصبح واضحاً له بعض الوضوح = وأنه يكادُ يحسُّ بما أحسُّ به وأنا أقرأ له الشعر وأفوضه فيه .

الرابع : أنه أصبح مقتنعاً معي أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي ، قبل قراءة نصوصه قراءةً متذوّقةً مستوعبةً ، لغوٌ باطلٌ = وأن دراسته كما تُدرِّسُ نقوش الأمم البائدة واللغات الميتة ، إنما هو عبثٌ محضٌ .

وأتفق أن جاء حديثه هذا في يومٍ من أيّامى العصيبة . فالدكتور طه أستاذي ، وله على حقُّ الهيبة ، هذا أدبنا . وللدكتور طه على يد لا أنساها ، كان مدير الجامعة يومئذ ، « أحمد لطفى السيد » ، يرى أن لا حقَّ لحامل « بكالوريا » القسم العلمى في الالتحاق بالكليات الأدبية ، ملتزماً في ذلك بظاهر الألفاظ !! فاستطاع الدكتور طه أن يحطّم هذا العائق بشهادته لى ، / وبإصراره أيضاً . فدخلتُ يومئذ بفضله كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، وحفظتُ الجميل أدبٌ لا ينبغي التهاون فيه . وأيضاً ، فقد كنتُ في السابعة عشرة من عمري ، والدكتور طه في السابعة والثلاثين ، فهو بمنزلة أخى الأكبر ، وتوقير السنّ أدب ارتضعناه مع لبان الطفولة . كانت هذه الآداب تفعل لى فعل هوى المتنبي بالمتنبي حيث يقول :

رَمَى ، وَاتَّقَى رَمِي ، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كَاسِرٍ كَفَى ، وَقَوَسِي ، وَأَسْهُمِي

فلذلك ظللتُ أتجرّع الغيظَ بحثاً ، وأنا أصغى إلى الدكتور طه في محاضراته ، ولكنى لا أستطيع أن أتكلّم . لا أستطيع أن أناظره كيفاً ، وجهاً لوجه ، وكلُّ ما أقوله ، فإنما أقوله في غيبيته لا في مشهده . تتابعت المحاضرات ، وكلُّ يومٍ يزدادُ وضوحُ هذا السطو العُربان على مقالة مرجليوث ، ويزدادُ في نفسى وضوح الفرق بين طريقتى في الإحساس بالشعر الجاهلي ، وبين هذه الطريقة التي يسلكها الدكتور طه في تزيف هذا الشعر . وكان هذا « السطو » خاصةً ممّا يهزُّ قواعد الآداب التي نشأت عليها هزاً عنيفاً .

بدأت الهيبة مع الأيام تسقط شيئاً فشيئاً ، وكدتُ ألقى حفظَ الجميل ورأى غير مُبالٍ ، ولم يبق لتوقير السنِّ عندي معنًى ، فجاء حديث الخضيرى ، من حيث لا يريدُ أو يتوقع ، لينسفَ في نفسى كُلَّ ما التزمتُ به من هذه الآداب . وعجبَ الخضيرى يومئذ ، لأنى استمعت لحديثه ، ولم ألقه لا بالبشاشة ولا بالحفاوة التى يتوقعها ، وبقيت ساكناً ، وانصرفت معه إلى حديثٍ غيره .

م ٢٢ / وفى اليوم التالى جاءت اللحظة الفاصلةُ فى حياتى . فبعد المحاضرة ، طلبتُ من الدكتور طه أن يأذنَ لى فى الحديث ، فأذنَ لى مبهجاً ، أو هكذا ظننتُ . وبدأتُ حديثى عن هذا الأسلوبِ الذى سمّاهُ « منهجاً » ، وعن تطبيقه لهذا « المنهج » فى محاضراته ، وعن هذا « الشكِّ » الذى اصطنعه ، ما هو ، وكيف هو ؟ وبدأتُ أدلل على أن الذى يقوله عن « المنهج » وعن « الشكِّ » غامضٌ ، وأنه مخالفٌ لما يقوله ديكرت ، وأنَّ تطبيقَ منهجه هذا قائمٌ على التسليم تسليماً لم يداخله الشكُّ ، برواياتٍ فى الكتبِ هى فى ذاتها مخوفةٌ بالشكِّ ! (١) وفوجئىء طلبة قسم اللغة العربية ، وفوجئىء الخضيرى خاصةً . ولَمَّا كِدْتُ أفرغُ من كلامى ، انتهرنى الدكتور طه وأسكتنى ، وقام وقمنا لنخرج . وانصرف عني كُلُّ زملائى الذين استنكروا غضاباً ، ما واجهتُ به الدكتور طه ، ولم يبق معى إلا محمود محمد الخضيرى ، (من قسم الفلسفة كما قلت) . وبعد قليل أرسل الدكتور طه ينادينى ، فدخلتُ عليه ، وجعل يعاتبنى ، يقسو حيناً ويرفُقُ أحياناً ، وأنا صامتٌ لا أستطيعُ أن أردُّ . لم أستطع أن أكشفه بأن محاضراته التى نسمّعها كلُّها مسلوخةٌ من مقالة مرجليوث ، لأنها مكاشفةٌ جارحةٌ من صغير إلى كبير ، ولكنى كنتُ على يقينٍ من أنه يعلم أنى أعلمُ ، من خلال ما أسمع من حديثه ، ومن صوته ، ومن كلماته ، ومن حركاته أيضاً !! وكتانُ هذه الحقيقة فى نفسى كان يزيدنى عجزاً عن الردِّ ، وعن الاعتذار إليه أيضاً ، وهو / ما كان يرمى إليه . ولم أزل صامتاً مُطرقاً حتى وجدتُ فى

م ٢٢

م ٢٣

(١) انظر ما كتبه سنة ١٩٦٥ فى كتابى « أباطيل وأسمار » ، عن « المنهج » ، وعن الصراع بينى وبين

نفسى كأنى أبكى من ذل العجز ، فقمْتُ فجأةً ، وخرجتُ غيرَ مودِّعٍ ولا مُبالٍ بشيءٍ .
وقضى الأمرُ ! وبِيس الثرى بينى وبين الدكتور طه إلى غير رجعة !

ومن يومئذ لم أكف عن مناقشة الدكتور في المحاضرات أحياناً بغير هيبةٍ ، ولم يكف هو عن استدعائى بعد المحاضرات ، فيأخذنى يميناً وشمالاً في المحاورة ، وأنا ملتزمٌ فى كل ذلك بالإعراض عن ذكر سَطْوِهِ على مقالة مرجليوث ، صارفاً همى كُله إلى موضوع « المنهج » و « الشك » ، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلى والأموى والعباسى قراءةً متذوّقةً مستوعبةً ، ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلى والإسلامى = قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة ، وأنه موضوع فى الإسلام ، من خلال روايات فى الكتب هى فى ذاتها محتاجةٌ إلى النظر والتفسير . ولكنى من يومئذ أيضاً لم أكف عن إذاعة هذه الحقيقة التى أكتُمها فى حديثى مع الدكتور طه ، وهى أنه سَطَا سَطْوًا كَرِهًا على مقالة المستشرق الأعجمى ، فكان ، بلا شك ، يبلغه ما أذيعه بين زملائى . وكثُر كلامى عن الدكتور طه نفسه ، وعن القدر الذى يعرفه من الشعر الجاهلى ، وعن أسلوبه الدال على ما أقول . واشتد الأمر ، حتّى تدخّل فى ذلك ، وفى مناقشتى ، بعضُ الأساتذة ، كالأستاذ نلينو ، والأستاذ جويدى من المستشرقين ، (١) وكنت أصارحهما بالسطو ، وكان يعرفان ، ولكنهما / يداوران . وطال الصراعُ غير المتكافئ بينى وبين الدكتور طه زماناً ، إلى أن جاء ٢٤ م اليوم الذى عزمْتُ فيه على أن أفارق مصر كُلهما ، لا الجامعة وحدها ، غير مبالٍ بإتمام دراستى الجامعية ، طالباً للعزلة ، حتى أستبين لِنَفْسِي وجه الحق فى « قضية الشعر الجاهلى » ، بعد أن صارت عندى قضية متشعبةٌ كُله الشعب . (٢)

(١) سيأتى ذكرهما بعد قليل .

(٢) انظر كتابى « مداخل إعجاز القرآن » ، وكتابى « قضية الشعر الجاهلى » ، فى كتاب ابن سلام

الجمعى » ، ففيهما بيان عن هذا الشعب .

هذا مطلعُ قصّتي مع « قضية الشعر الجاهلي » ، ومع الدكتور طه خاصة ، على وجه الإيجاز . عزمْتُ يومئذ على مفارقة مصر ، ثم الجامعة ومعى ذُلُّ العجز عن مواجهة الدكتور طه برأبي في تفاصيل هذا « السطو » جهاراً نهاراً بلا قناع ، وبالذى أجده في نفسى من البشاعة ، بشاعة ادّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنه مما اهتدى إليه ، واستحقَّ نسبه إلى نفسه بعد طول معاناةٍ في البحث وشقاءٍ في الدرس ! ومع أن كُُلَّ من كتب بعد ذلك في نقد كتاب « في الشعر الجاهلي » ، قد واجه الدكتور بهذا « السطو » مواجهة مكشوفة علانية ، إلا أن عجزى أنا عن مواجهته بلسانى ، غير متهيّب ولا متأدّب ، كان يهدم نفسى هدماً ، وينسف آدأى نفساً ، ويترك في ضميرى غصّة تأبى أن تزول . كان شيئاً بشعاً لا أطيعه ، ثم زاد الأمر عندى بشاعةً فطعتُ بها ، حين نشر كتابه « فى الأدب الجاهليّ » سنة / ١٩٢٧ ، وهو نفس كتاب « فى الشعر الجاهلي » : « حُذِفَ منذ فصلُّ ، وأضيفَ إليه فُصُولٌ ، وغُيِّرَ عنوانه بعض التغيير » !! كما وصفه الدكتور فى مقدمته . كان أبشع ما فى هذا الكتاب ، الفصلُ الأوّل الذى زاده بعنوان : « الكتاب الأول = الأدب وتاريخه » ، لأنه جاء تسويغاً لهذا « السطو » ، وزيادةً فى الادّعاء بأنه قد امتلك ما سطا عليه امتلاكاً لا ريبة فيه !! واستعلاءً أيضاً = ودلالةً صريحةً على أنه لا يُبالي أقلّ مبالاةٍ بكُلِّ ما سمعه من أنه « سطا » على مقالة مرجليوث ، بين أسوار الجامعة = ولا بجميع الكتب التى ألفت وطبعت فى نقد كتابه ، والتى كشفت هذا « السطو » بالدليل والبرهان ، مع أن الأمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل ! وجميعها كتبٌ يقرؤها الناس ! كيف يكون هذا ؟ وبأى جراءة يستطيع الدكتور طه أن يلقي الناس ! أى احتقار هذا للناس ! وأى استهزاء بهم وبعقولهم هو أبشع من هذا ! لا أدرى .

ثم كان معى ما هو أفحش من هذا أيضاً . كنتُ يومئذ غمراً فى الثامنة عشرة من عمري أو أشف ، وكان من أساتذتنا مستشرقان أتى بهما الدكتور طه من إيطالية ، أولهما « الأستاذ نلينو » ، وهو شيخٌ مهيب الطلعة ، كث اللحية ، واسع العلم ، فصيح اللسان بالعربية ، ثم « الأستاذ جويدى الصغير » ، وكان شاباً وسيماً متوقداً ، لعل مكانة

أبيه الشيخ المستشرق الكبير جويدي ، هي التي رشّحته للأستاذية في مصر !! فقد دخلا بيني وبين الدكتور طه ، أو على الأصحّ : بيني وبين ما أقولُه في غيبة الدكتور طه . / كان م ٢٦ أمرهما معي عجباً من العجب ! فهما يعلمان علماً يقيناً لا شكّ فيه أن مُحصّل ما يقوله الدكتور طه ، إنما هو « سَطْوٌ » عُرِيان على ما كتبه مرجليوث ، ولكنهما كانا معي شديدي المراوغة : لا يملكان مصارحتى بأنّ هذا ليس « سطواً » ، ويمتنعان أن يقولوا صراحةً أنه « سَطْوٌ » ! وكلّ ما كنت أظفّرُ به منهما هو مطالبتي بتعظيم الدكتور طه وتوقيره بحق الأستاذية ، ثم استدراجي إلى تيه الألفاظ الغامضة : « البحث العلمي والأدبي » و « عالمية الثقافة » وما شابه هذين من ألفاظ التغيرير . فكنتُ أمتنع عن التسليم لهما بما يقولان عن « البحث العلميّ والأدبيّ وعالمية الثقافة » ، حتى يطالبا الدكتور طه بالإقرار ، وبأن يُقرّأهما أيضاً ، بأن ما يقوله مسلوخٌ كلّهُ مما قاله مرجليوث ، أو هو على الأقل متابعة لمرجليوث في رأيه الذي كتبه ونشره وقرأناه جميعاً . فلمّا لم يفعل ، ولم يفعل الدكتور طه أيضاً ، زاد الأمر بشاعةً في نفسي ، وسقطت هيبة الأستاذية وهيبة الجامعة أيضاً سُقوطاً منكراً ، وأطبّق على الارتياب والشكّ في هذه الأمور كلّها حتى ضاق صدري ، ولم أملك إلا أن أمنحهم جميعاً ظهري غير متلفّتي ، وغير مُبالٍ أيضاً بما أنا مُقدّمٌ عليه من مفارقة بلادى وأهلي ، ومن هجر الدراسة الجامعية أيضاً غير باكٍ ولا آسِف . وانطلقتُ ، ومعى صاحبان يورّقان ليلي ويُلهبان نهاري : بشاعة « السطو » ، وبشاعة التستر عليه من عارفٍ خبير ، لا يكتفى بالتستر ، بل يطالب بالتعاضى عنه ، وتوقير الساطى وتعظيمه بحق الأستاذية لا غير !!

/ ومَرّت الأيام والليالي والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهي السنة م ٢٧ التي كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهَمّي مصروفٌ أكثرُه إلى « قضية الشعر الجاهليّ » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت لى هذه القضية في رحلة طويلة شاقّة ، ودخلت لى في دُرُوبٍ وَعَرّةٍ شائكةٍ ، وكلّما أوغلتُ

انكشفت عنى غشاوة من العمى ، وأحسستُ أنى وأنا والجيلُ الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تمَّ تفريغُنا تفريغاً يكادُ يكون تاملاً من ماضينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفنونه . وتمَّ أيضاً هتُّك العلاقات بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملأً متماسكاً ، مزقاً متفرقةً مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تمَّ ملءُ هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإننا لنستقبله استقبالَ الظامىء المحترق قطراتٍ من الماء التَّمير المثلج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبيَّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصةٌ طويلةٌ قد تعرَّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، (١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيننا عندى أننا نعيش فى عالمٍ منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوة والغنى ، وعالمُ الضعف والفقر = أو عالمُ الغزاة الناهيين ، وعالمُ المستضعفين المنهوبين . كانَ عالمُ الغزاة الممثل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالمُ المستضعفين تحوُّلاً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً ، / فهو صيِّدٌ غزيرٌ يُمدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلو والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسىٌّ محضٌ ، لا غاية له إلا إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تاماً لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفدُ ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أن هذا العمل السياسى المحض المتشعب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلِّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرةً مباشرةً على كُلِّ شىء ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » في (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذى لا نزأل نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا . فأئى جَهْلٍ هذا !

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوّل إلى غاية يُرادُ لنا أن نبُلغها على تمدى الأيام . وكان الغزاة يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يرَدّدونها ترديد البيغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكشفوا أمّتهم بأنّ ما أعجبوا / به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سرٌّ ضعفنا وانهارنا . وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً . فكان الرأى أن تنشأ أجيال متعاقبة من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُله ، مع هتّك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعياً وثقافياً ولغويّاً ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددٌ من تضمّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاة ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا ! بل زاد بشاعة وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربى والإسلامى بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعرقٍ فى القَدَم والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل .

في ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة / التي تخرجُ مفرّغةً أو شِبةً مفرّغةً إلى « البعثات » ، وهذا التحوّل الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حيّة حياة ما ، وباقيّة على تماسكها وتكاملها = في ظل هذا كلّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ في جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهي تحدثُ في النفوس تطلّعاً إلى زادٍ جديد منها .

م ٣٠

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أيُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربيّ في تكوينه كلّه . وأيسر سبيلٍ كان إلى إمداده بمادّته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربيّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينها بالألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجردٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمّا الكتابُ الجادّون ، فكان أكثرهم يعتمد على تلخيص نتائج الفكر الأوربيّ في الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مأمّ ، وإن كان أكثره خطفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقصّة أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرَقّع بأفكارٍ مسلوبة مختطفة ، ثم توزّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو / والانتهاج والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرّاً بقوةٍ إلى يومنا هذا] .

م ٣١

وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا عُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! ^(١) والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين : ميلٍ ظاهرٍ إلى

(١) في السنوات الأخيرة ، وُجِدَت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل

قولهم : « المعاصرة » و « الحدائة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرفض مُلمّاً إماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميل سافرٍ إلى الغلو في شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبه متميّزاً في نفسه تميّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميّزه أن الله قد يسرّ له الاطلاع على آداب وفنون وأفكارٍ تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خُطوط من صُورة ، بجانب من الحركة الأدبية والثقافية في ذلك العهد ، وأكثرها باقٍ إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاح له ، مع أنه أشنع شيء ، وأوهأه أساساً ، وأسوأه مَعْبَة .

ولكن هذه الصورة لا تتمّ وحدها . في خلال التحوُّل الاجتماعي الثقافي المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ محتقّق ، لم يفرِّغ هذا التفريغ ، ولكن ضُرب عليه حصارٌ مفرِّغٌ وبيئٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضي المتكامل المتناسك ، ولكنه كان يزدادُ على مرِّ الأيام تَحَلُّلاً وتفكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين / المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، في هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضي محافظةً مّا ، ولكن قبضته كانت تسترخي شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التي يُرمَى بها ، والتي تزلزلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفتح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التي أدّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبية الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كان ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذي يهْمُنِي منها هنا هو ما يتعلّق بأمر « السطو » لا غير . كان الذي يحول بينهم وبين بلوغ

هذا الغرض ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهم لسان غير العربية ، قلما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، في مصر خاصة ، إلى إجافة باب يتيح لهم أن يطلُّعوا = أو يُصدِّموا على الأقل ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأي في آداب العربية وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها أيضاً !! وكان هذا موفوراً في مؤلفات « المستشرقين » عامة ، لأنه هو كل عملهم في « الاستشراق » المرتبط كل الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كله . (١) فكان لا بُدَّ ، إذن ، من / نشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون في مصر والشام وغيرهما ، ولكن جاء إلى مصر رجلٌ وافدٌ ، مع رجال آخرين كثير ، لا يربطهم في أنفسهم بهذا الماضي إلا اللسان العربي وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشيء آخر !! أنشأ هذا الرجل مجلة ، ثم بدأ يكتب مقالات ، وينشر كتباً في آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفته بها معرفة تتيح له الكتابة ، ولكنه جاء معبراً عن اتجاه « الاستشراق » لا غير .

ذلك هو « جرجى زيدان » ، الذى أنشأ مجلة « الهلال » وألف كتباً وقصصاً كثيرة منها : « تاريخ التمدن الإسلامى » ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فكانت كلها « سطواً » مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر ، مبنوثة في ثانياً كل ما كتب . وكذلك تيسر لكل من لا يعرف غير العربية لساناً ، أن يجد ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقال عن ماضيه ، وبمناهج لم يألّفها أيضاً . ولكن حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عاماً مؤثراً تأثيراً نافذاً في جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أن الرجل كان وافداً مع استقرار الاحتلال الإنجليزي في مصر (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشبهة فيه تُوجب الحذر منه ،

(١) استوفيت بيان بعض هذا في كتابي (أباطيل وأسمار) .

فأضعف الحذرُ منه ، أثر ما يكتب في أكثر قرائه يومئذٍ من هذا الجمهور ، وإن كان له في جمهور « تلاميذ المدارس » المفرغين من ماضيهم أثر بليغ . ومع ذلك ، فإن الهدف من تأليفه لم يذهب / هدرًا ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسر السبيل للساطين من بعده ، وجعل « السطو » المباشر أمرًا مألوفًا لا غبار عليه ، بل زاد فقرب إلى الأذهان سبيل الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » في دراسة آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولّى صياغتها مَنْ هو لصيقٌ دَخيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ في لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوقِ آدابها تذوقاً شاملاً = والتذوق وحدة عُقدة العُقَد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلُّ إحساسٍ بتاريخها كُلّه ، فضلاً عما يكُنّه في سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة في تشويه صورتها تشويهاً متعمداً لأغراض « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أم أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنى ، إلا أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة في أنفُس أهلها = ثم لا يأتي التجديد إلا من متمكّن النشأة في ثقافته ، متمكّن في لسانه ولغته ، متذوقٍ لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ / تاريخه في تاريخها وفي عقائدها ، في زمانٍ قوتها وضعفها ، ومع المتحدث إليه من خيبرها وشرّها ، مُحسناً بذلك كُلّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديد » تجديداً إلا من حوارٍ ذكيٍّ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقدة التي تنطوي عليها هذه الثقافة ، وبين رؤيةٍ جديدةٍ نافذة ، حين يلوح للمجدد طريقٌ آخرٌ يمكنُ سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من

ناحية ، ليصله من ناحية أخرى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحل عُقدةً من طرفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسةً .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ في داخل ثقافة متكاملة ، يتولاها الذين يتحركون في داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عمادها الخبرة والتذوق والإحساسُ المهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القطع والوصل ، وعند التهجم على الحلّ والربط . فإذا فُقد هذا كله ، كان القطع والحلّ سلاحاً قاتلاً مدمراً للأمة ولثقافتها ، وينتهي الأمر بأجياها إلى الحيرة والتفكك والضياح ، إذ يورث كلُّ جيلٍ منها جيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه حيرةً وتفككاً وضياحاً .

هذه هي العاقبة التي تفرضُ نفسها فرضاً ، وما أبشعها من عاقبة .

فما ظنُّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلُّ مراداً لذاته ، وكان مراداً أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ في داخل التكامل والتماسك الذي يجعل هذه الثقافة معنىً وحياةً وحركةً ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجددة » إلا ترديداً لصياغة غريبة ، / صاغها غريبٌ عن الثقافة ، متنسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقصُ الأداة ، لا خبرةً له بتشابكها وعُقدتها ، ثم هو في نفسه لا يضمّر لها إلا التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخٍ في قرارة النفس ؟ = ثم ما ظنُّك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطَواً » مجرداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامها إقحاماً على ثقافتهم ، لا حاجةً أدنى إليها النظر والفكر والتدبر ، بل بالهوى وحبّ الظهور من مُفرِّغ ، أو من شبيهه بالمفرِّغ ، من ثقافته المتكاملة المتناسكة ؟ ما أبشع العواقب عندئذٍ ، وأبشعها التدهورُ المستمرُّ !

٣٦ م

وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن ، جيل المدارس المفرِّغ ، أن يتلقَى صدمة التدهور الأولى ، لأنه نشأ في دوامة دائرية من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهي التي يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فورهم في تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كلُّ

مستعمر منهم يشدد قبضته على ما وقع في يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفع هذا التحول دفعا شديداً ، لكي يتم له أن يُخضع عالمنا « المتخلف » لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، في مصر ، مع الرجة العظمى التي أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتي انتهت بعد قليل بفجيرة مرقت الأمة تمزيقاً مفرعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدد الأحزاب ، وتكالب كل حزب على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضرة !! وتبددت / نفوسنا وتفتتت ، تحت ضغط هذا التحول السريع المُتمادي المُريب المروع .

وفي ظلّ هذا كُله ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، (١) وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمّتهم غير ممزقة كُلاً التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كُلاً التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذي ينبغي له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب في متابعته ، ومن إعادة النظر في ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمرّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذي أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذي تتضمّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفي للثقافة التي كان ينبغي أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التي أُولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكي نلحق بثقافة العصر الذي نعيش فيه ، وبمناهجه في التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك في خلال ما يكتبونه !! وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذي يُشيب الصغير ويُفنى الكبير ، هو الذي سيتولّى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلّمون اليوم على أيديهم .

(١) انظر ما سلف ص : ٢١ ، ٢٢ .

م ٣٨ / والقصة تطول ، ومع ذلك فليس هذا مكان قصتها على وجهها ، إذا أنا أردت أن أقيّد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفي أن أقول : إن جيلنا ، جيل المدارس المفرّغ ، كان في خلال ذلك قد كبر ، وانفلق عن فريقين : فريق قانع بما تجود به عليه أقلام الأساتذة الكبار من « تلخيص » و « تجديد » ، فهو لا يزال إليهم متطلّعا ، وبهم متعلّقا ، ثم لا يزيد = وفريق يسرّ الله له السبيل إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخّصونه ، وما كانوا « يجدّون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصح . وأحسّ أيضاً أن « الأصل » الذي يقرؤه بلغته ، مضىء حتى ، مكثّف ، عميق الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كابٍ لونه خامدة حياته ، متخلخل ، قريب المتناول . ومع هذا الذي أحسّ به ، فإنه من حيث لا يدري يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسير هين . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمّتهم كانت علائق لم تمزق كلّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعطوا تلخيصهم نفحة من سرّ أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدر منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكّنهم من الاختيار ، ثم من نفي ما هو غث أو ساقط ، ومن إخفاء « السطو » إخفاءً فيه ذرّو من المعرفة . أمّا هم ، فقد فرغوا تفريغاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التي ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسّون في أنفسهم ما يشبه العجز ، إذا ما قارنوا بين / أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة . وهذا هو الموقف العصيب الذي كان فيه جيلنا يومئذ ، م ٣٩ ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا ، وهي تشعر شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخّصين » و « المجدّدين » ، مع أن الأمر ، كما قلت ، قائم في الحقيقة على « السطو » البين أو الخفي ، على أعمال ناس آخرين يكتبون في لغاتهم بألسنتهم ، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن ! ومع ذلك فإن جيلنا والأجيال التي تابعت بعده ، لم تُرد أن تكشف هذه

الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئاً آخر سوى منح « التلخيص » و « التجديد » ، على السنّة التي سنّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهم شيء يقولونه ، حين يرثون موقع الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التي أشرت إليها آنفاً ، [ص : ٢٢ ، والتعليق هناك] وتكاثموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمر بعد ذلك كما قيل في المثل : « خلا لك الجوُّ فيضى وأصفري !! »

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التي صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد في سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

/ ومعلوم أن الدكتور طه في سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « في الشعر الجاهلي » م٤٠ ، زعم أن له منهجاً يدرس به تراث العرب كُله ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشك » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقرب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم يمنح أكثره ، أن يمحو منه شيئاً كثيراً » [في الشعر الجاهلي ص : ٢٣] . ثم انطلق في كتابه هذا مستخفاً بكلِّ شيء ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذي يذهبُه المجددون عظيمة جليلة الخطر ... وحسبك أنهم يشكّون فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهاً إلى هذا الحدِّ ، بل هو يجاوزُهُ إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » ، [في الشعر الجاهلي : ٦٦] .

والاستخفاف الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، أمّا الذي كان يقوله في أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف . وأمّا الذي كان يدور بين طلبته الصغار « المفرغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكان شيئاً لا يكاد يُوصف ، لأنه كان استخفاف جاهلٍ واستهزاء نحاوٍ ، يردّد ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيام ، كانت العاقبة وخيمةً جدّاً . كَبِرَ الصِّغَارُ الذين تأثروا بما قاله / م ٤١ في سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمَتَهُم السنُّ ، وَفَطَمَتَهُم معرفةً جديدةً حازوها ، وتنكروا ، أو كادوا ، للثدي الذي كان يُرضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحمية وطلب الصّدارة في ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبار في مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النهج الذي مهّدوه لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أي الحضارة الأوربية = والذي هو في حقيقته سطوٌ مجردٌ ، ولكنّهم لم يسيروا سيرة الأساتذة في معالجة « القديم » حتّى يُخيّل للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كان الغالب على أكثرهم هو « رفض القديم » والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به . وعندئذ أحسّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذي أضاء لهم الطريق بالضجّة التي أحدثها كتابه « في الشعر الجاهلي » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذي تولى هو كِبِرَ إحدائه ، ظاهراً جدّاً ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « في الشعر الجاهلي » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات انتهى منها في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكان مُحَصِّلُهَا رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوّل في سنة ١٩٢٦ ، الذي أعلنه في أوّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما تُسمّيه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي مُنتَحَلَةٌ مُختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ في أن ما بقى من الشعر

/ الجاهليّ الصحيح قليل جداً ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلُّ على شيء » ، [في الشعر الجاهلي م ٤٢ ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقون علينا حين تكلفونا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتدوِّقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحيطون به من جيلنا الذي بلغ الفِطام واستقلّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدّث إليّ المتحدّثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن أخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظي ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

/ « والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا م ٤٣
« خيراً خالصاً يخطعون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شراً غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود
« وجهل ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

(١) قد بينت في بعض مقالاتي أن الدكتور طه ، قد رجح عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ، بهذا الذي كتبه ، وبعض ما صار حتى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطفون في العلن ، ويتبرأون من خطفهم في السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ - ١٧) .

« هذا الشاب ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
 « يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
 « الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً منتفشاً ،
 « مؤمناً بنفسه ويدرجاته ويعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
 « ثم يتحدثُ إليك كأنه ينطق بوحى أبولون . فيعلنُ إليك
 « فى حَزْمٍ وجَزْمٍ أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
 « قد أَظْلَمُوا عصر « التجديد » وأن الأدب القديم يجبُ
 « أن يُتْرَكَ للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويملاؤن
 « أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
 « وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
 « أمامٍ هو التطور ، وهو الحياة وهو الرقى . هذا الشاب
 « وأمثاله ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
 « هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
 « القديم ولا تنفرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنما تحبُّه وترغبُ
 « فيه وتُحِبُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ
 « هذا الشابُ ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
 / « أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشُرُّه ليس مقصوداً
 « عليه ، وإنما يتجاوزهُ إلى غيره من الناس . فهو يتحدثُ ،
 « وهو يعلمُ ، وهو يكتبُ ، وهو فى هذا كُلِّهِ ينفثُ السُّمَّ ،
 « ويفسد العقول ، ويمسحُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
 « لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إِماتة القديم ،
 « وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلحُ منه للبقاء .
 « وأكادُ أتخذُ الميلَ إلى إِماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
 « ينتفعوا بها ، فالذين تُلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
 « حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
 « ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا
 « منها صوراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردة ،
 « لا أكثر ولا أقل !!

« والذين تَلَفُتْهُم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهِم ، وتدفعُهُم
 « إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياة لمصر
 « إلاّ إذا عُنيَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلاميّ ،
 « وبالآدب العربيّ قديمه وحديثه ، عِنَايَتَهَا بما يمَسُّ حياتها
 « اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
 « الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
 « ينفعوا في إقامة الحياة الجديدة على أساس متين .

/ وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنّوا لمن بعدهم السنن في ٤٥ م
 الحياة الأدبية وفي مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّة جدّاً لتاريخ الحياة الثقافية التي امتدّت
 بعدهم إلى يومنا هذا ، بل هي تكشف عن جُذُور التدمير المفرع الذي يشمل اليوم
 المُجتمَع العربيّ كلّهُ حيث تُنطقُ العربيّة ، (١) لا بل حيث يدين غير العرب بالإسلام ،
 ويُوجب عليهم إسلامهم أن يضعوا العربيّة في المقام الأوّل ، لأن إسلامهم لا يكون إسلاماً

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفرع الذي يشترك في جريمته مثقفون كثيرون ، في الأدب ، وفي
 العلم ، وفي التاريخ ، وفي الفلسفة ، وفي الاجتماع ، وفي السياسة ، وفي الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى
 وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسح في نفوس الناس المعنى الصحيح
 لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصرأ على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت
 دخولاً مفرعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إلا بالقرآن ، وهو الذى نزل عليهم بلسان عربى مبين ، وإلا بسنة الرسول الأسمى العربى ، صلى الله عليه وسلم ، وهى أيضاً بلسان عربى مبين .

وليس من همى هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضح مدى صدقها حيث صدق توقع الدكتور فى تكاثر عدد مَنْ وَصَفَهُمْ من « المثقفين » فى شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكن الذى يجب على أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجه آخر لشهادتى التى كتبتها هنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل / الذى تلقى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ فى دوامة من التحول الاجتماعى والثقافى والسياسى ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ٢٦ ، ٢٧] .

م ٤٦

المتنبى

وأنا حين قرأت هذه الشهادة يومئذ (٣٠ يناير ١٩٣٥) ، توهمت بحسن الظن أن الدكتور طه سوف يبدأ عهداً جديداً فى تفكيره وفيما سيكتبه للناس ، وأنه سيفارق السنة التى سنّها هو والأساتذة الكبار ، وإن كان قد رابنى ما أحتم به شهادته ، لأن هذه الخاتمة توشك أن تكون دفاعاً عن نفسه وتمجيداً للسيرة التى سارها هو فى « التجديد » = التجديد كما يراه هو ، لا التجديد كما يراه الجيل الذين وصفهم بأنهم « ضحايا الحضارة الحديثة ، أو ضحايا جهل الحضارة الحديثة » . وليس هذا بمستبعد ، لأن الدكتور طه يومئذ (سنة ١٩٣٥) ، كان فى قمة مجده الذى أحرزه بالضجة التى ثارت حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وهو يروح ويغدو على ذراها يملؤه الزهو ، وتستخفه الخيلاء ، ويميد به العجب . ثم جاءت بعد ذلك مقالاته فى جريدة الجهاد متتابعة من (٦ فبراير ١٩٣٥) إلى (٢٢ مايو سنة ١٩٣٥) ، وهى عن جماعة من

شعراء الجاهلية ، فكان يخلط فيها بين ما يدلُّ دلالة صريحة على رجوعه عن رأيه في الشعر الجاهلي ، وبين الالتزام بالإشارة في خلال ذلك إلى شكّه القديم الذي جعله مذهباً في دراسة هذا الشعر ، ولذلك كثر فيها التناقض !! . ولست هنا بصدد الحديث عن هذه المقالات الأربعة عشر التي / كتبها ، ولكني أقول إني وجدت يومئذ أن الدكتور طه قد دلَّ م ٤٧ فيها على أنه يحاول أن يسلك طريق « تذوق الشعر » ، الذي أشرت إليه آنفاً ، ولكنه تذوق بلا منهج ، وبلا هدَفٍ ، وعلى غير أصل .

في هذا الوقت نفسه أو قبله بقليل (سنة ١٩٣٥) ، كان أخي الأستاذ فؤاد صروف ، قد عهد إليّ أن نُصدر عددًا من « المقتطف » إحياءً لذكرى أبي الطيب المتنبى ، في مرور ألف سنة على وفاته ، وأن أكتب أنا فيه كلمة مسهبة بعض الإسهاب ، ما بين عشرين إلى ثلاثين من صفحات المقتطف . (١) تلقَّيتُ هذا التكليف متحمساً له ، ولكن لم أكُذُ أتناول ديوان المتنبى ، بعد هجره هجراً طويلاً ، كما قلت آنفاً [ص : ٢٩] ، حتى وقعت في الحيرة ! كنت في السادسة والعشرين ، وكنتُ قد قضيتُ ما بين سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٥ ، غارقاً في « قضية الشعر الجاهلي » ، وفيما قدفتني إليه من تيه متشعب المسالك والمناهج = لا ، بل في تيهٍ أعنى منه ، يخطفُ نفسي خطفاً وبعثرها شعاعاً ، في برقٍ متتابع يتركني ممزقاً بين النور والظلمة ، بين الضلالة والهدى . وذلك أن أصحاب هذا « الشعر الجاهلي » ، هم الذين نُزل عليهم القرآن العظيم ، وهم الذين طولبوا بأن يتبينوا ، عند سماعه يتلى عليهم ، أنه آية هذا النبي ، ﷺ ، الدالة على صدق نبوته ، وإن خالفت المعهود عند البشر من آيات الأنبياء والمرسلين . ولا سبيل إلى ذلك ، إلا بأن يشهد الشاهد منهم أنه كلام الله المفارق لكلام عباده من البشر على اختلاف / ألسنتهم = أي أنه كلامٌ عربيٌّ خارجٌ عن طوق البشر جميعاً ، وخارجٌ قبل م ٤٨ كلِّ شيءٍ عن طوق هذا النبي الذي يتلوهُ عليهم ، فكذلك يصير آيةً كسائر آيات

(١) انظر مقدمة الأستاذ فؤاد صروف ص : ١٣١ من هذا الكتاب .

الأنبياء من قبله ، كإحياء الميت ، وقلب العصا حية . فكيف ، إذن ، تستنى لأصحاب هذا الشعر الجاهلي أن يحكموا لهذا القرآن بأنه آية دالة على صدق التالیه عليهم ؟

وطلب الجواب عن هذا السؤال ، هو الذى قادنى إلى أن أنغمس فى قراءة تراث هذه الأمة ، من تفسير لهذا القرآن ، ومن علوم كثيرة تتعلق به وبلغته ، من النحو والصرف والبلاغة والأصول والفقه ، والحديث النبوى وما يتصل به من علم رجاله ورواته ، ثم علم التاريخ ، تاريخ الأمة ، وتاريخ رجالها ، وما وقع من الاختلاف بينهم فى ذلك كله . هذا سوى الشعر والأدب على تنوعه . وفى خلال ذلك لم يكن لى مطلب سوى مطلب واحد ! أن أجد بَرْدَ اليقين فى نفسى ، فى شأن « الشعر الجاهلي » ، وفى شأن ما نُسّميه « إعجاز القرآن » . لم يكن يدور بخلدى أن أكون عالماً فى كل هذه العلوم أو فى بعضها ! ولا دار بخلدى قط ، فى خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، أن أولف كتاباً ، أو أن أكتب بحثاً فى شيء مما أقرأ ، أو فى بعض ما اهتمت إليه وأنا أقرأ ، (١) لا هم لى ، ولا شيء يزعجنى ، سوى طلب اليقين وإبطال الشك ، والخروج من الحيرة . فلذلك ، ومع طول الممارسة لهذه الفنون والعلوم المختلفة المتباينة ، بدأت أجِدُنِي شيئاً فشيئاً مصروفاً عن تحصيل ما فى هذه / العلوم من المعارف ، إلى سيرة أخرى فى القراءة ، سيرة غريبة ، ولكنها كانت ألصق بطبيعتى ، وأعمق نفاذاً فى نفسى .

م ٤٩

كانت سيرتى فى كل هذا الذى أقرؤه ، هى سيرتى التى اخترتها آنفاً فى شأن « الشعر الجاهلي » ، وهى تذوق الكلام (٢) : تذوق الألفاظ والجمل ، وتذوق دلالتها على معانى أصحابها ، وكيف يصوغ كل صاحب فكر فكره فى كلمات ؟ وكيف

(١) إلا بحثاً واحداً فيما أظن ، جعله الأستاذ محمد محمى الدين عبد الحميد ، مقدمة للجزء الأول من شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، بعنوان : « مقدمة فى نشأة اللغة العربية ، وعلم النحو ، والطبقات الأولى من النحاة » ، ونشرته المطبعة المصرية فى سنة ١٣٥٢ هـ ، سنة ١٩٣٣ م .

(٢) انظر ما سلف ص : ١١ ، ١٧ .

يخطيء وكيف يصيب ؟ وكيف يستقيم على المعنى طلباً للحق ، وكيف يلتوى طلباً للمغالطة أو الزهو أو الظهور على الخصم ؟

ومعنى ذلك ، على وجه الاختصار ، أنى كنت أتذوق البيان الإنساني الصادر عن أصحابه فيما يريد أن يقوله كلُّ منهم ، على اختلافهم في المنازع والمشارب التي تتكوّن منها آداب البشر وعلومهم . وبيان الإنسان عن نفسه ، لو تأملته ، شيءٌ مذهل !! فكانت لذتي في الوقوف على ما يروغني من هذا البيان ، تفوق لذتي في الإبانة عن نفسي أنا أيضاً كما أبانوا ، أو في الإبانة عما أجده في نفسي وأنا أقرأ بيان هؤلاء الكاتبين الأبناء في بيانهم عما في أنفسهم . ولذلك لم يدرُ بخلدِي أن أكتب ، على مرِّ هذه الأيام الطوال ، إلا قليلاً جداً من الكلام المنشور ، وبعض الشعر . فلما وجدت نفسي مكلفاً بالكتابة عن المتنبي ، أوقعني هذا التكليف في الحيرة ، لأنني سوف أقرأ لأكتب ، لا لأتلذذ بما أقرأ . ويا بُعد ما بين المذهبين !

ومع ذلك ، فقد جاء هذا التكليف على ساعةٍ موافقةٍ لاستشارتي ، لأنه يردني إلى أول ديوان كنت حفظته كله ، وفتنتُ به قديماً كله ، ثم أغفلته / كله ، ثم ثبطني عنه م . . . كله بدءاً حفاوتي بالشعر الجاهلي ، [انظر ما سلف ص : ٩] فرأيتني الآن ملزماً أن أقرأه قراءةً جديدة ، متذوقاً لبيان هجرته هجراً طويلاً . فلم أكذب ، وأخذت ديوان أبي الطيب ، بشرح الواحدى من القدماء (. . . - ٤٦٨ هـ) ، ثم بشرح الشيخ ناصيف اليازجى من المُحدّثين (- ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م) . ولم أكد أتجاوز نصف الديوان في هذه القراءة ، حتى استوقفني أن النصف الثاني منه ، مؤرّخةً قصائده كلها أو أكثرها باليوم والشهر والسنة التي قيلت فيها هذه القصائد ، من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٧ ، إلى أول شعبان سنة ٣٥٤ ، وقد قتل المتنبي بعد ذلك بقليل في أواخر شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ . أمّا النصف الأول فهو غُفْلُ كُلِّهِ من التاريخ ، إلا حيث يُذكر أنه قاله في صباه ، أو قاله في المكتب ، وأشباه ذلك ، وهو قليل جداً ، لا يكاد يتجاوز بضع مقطوعات منه ، مع أنه يشتمل على شعره الذي قاله منذ سنة ٣١٤ ، إلى سنة ٣٣٦ تقريباً .

ولما كنتُ أعلمُ ، مما قرأته حديثاً في مقدمة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى لما جمعه من « زيادات ديوان شعر المتنبي » ، (١) وما قرأته قديماً في تراجم متفرقة للمتنبي ولمن صحبه أو رآه من العلماء الذى رَووا عنه شعره كُله أو أكثره = أن المتنبي قرأ على الناس شعره مرَّاتٍ في بلاد مختلفة ، وأنه ربَّ ديوانه بنفسه ، وأنه أملى على من قرأوا عليه مقدمات قصائده / بتواريخها ، وأن نسخاً كثيرة من الديوان ، قد صُحِّحت أو قُرئت على أصولٍ مقروءة على أبنى الطيب نفسه ، وأنها تكادُ تتفق جميعاً على الترتيب الموجود فى شرح الواحدى خاصة = لَمَّا كنتُ أعلمُ ذلك تيقُّنتُ أن أبا الطيب كان شديد الإحساس بالتاريخ حين جمع شعره ورتبه . وتبيَّن ذلك تبيُّناً واضحاً فى النصف الثانى منه ، وهو المؤرَّخة قصائده كُلِّها باليوم والشهر والسنة . وإذا كان حين جمع شعره ورتبه شديد الإحساس بالتاريخ ، من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٥٤ ، إذاً ، فهو فى القسم الأول أيضاً من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، خليقٌ أن يكون شديد الإحساس بالتاريخ ، إلا أن عَهْدَه بهذا الشعر كان قد تقادم ، فنسى الأيام والشهور والسنوات على وجه التحديد ، فرتَّب هذا القسم الأول على ما بقى فى نفسه من الإحساس الخالى بهذه التواريخ القديمة . ولكن لا يُستبعد أن يكون أبو الطيب قدَّم شعراً على شعر ، وتاريخاً على تاريخ ، بيد أننى أعتقد أن هذا التقديم والتأخير لا يكاد يتجاوز سنة أو بعض سنة على الأرجح . ومع ذلك ، ففى بعض هذا الترتيب خللٌ آخر ، وهو أن المتنبي ، كما استظهرت ذلك ، كان ربَّما مدح رجلاً فى سنة ، ثم بعد سنوات مدحه مرةً أخرى ، فكان يلحق الشعر الثانى بالشعر الأول القديم التاريخ ، فيقدِّمه بلا مبالاة . وهذا أيضاً شبيه بما فعله فى القسم الثانى من سنة ٣٣٧ - ٣٤٥ ، حين ألحق به شعراً قيل فى سنة ٣٢١ . (٢)

(١) نشرته المكتبة السلفية فى سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

(٢) فإن المتنبي ألحق بشعره الذى قاله فى سيف الدولة (من سنة ٣٣٧) إلى (سنة ٣٤٥) قصيدته الميمية

التي أولها :

* ذِكْرُ الصَّبِيِّ وَمَرَاجِعِ الْأَرَامِ *

التي قالها فيه سنة ٣٢١ ، [انظر ما سيأتى ص : ٦٦] ثم انظر أيضاً ص : ٢٩٥ ، والتعليق عليه .

/ وعلى كل حال ، فلا بُدَّ أن نكون على ذُكْرٍ دائم بهذا ، وبأن المتنبي نفسه حين جمع شعره وقرأه على الناس ، أسقط كثيراً من شعر صباه ، أو من الشعر الذى تضمَّنه القسم الأول الذى لم يؤرَّخ من ديوانه . وعلى ذلك فهذا القسم الأول محتاج إلى الاجتهاد فى ترتيبه على السنوات ، استظهاراً من الشعر نفسه ، ومن تراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر .

والإحساسُ بالتاريخ ظاهرةٌ فريدة ، مُعْرِقةُ القدم فى تاريخ عرب الجاهلية ، وقد ترك أثره اليّن فى حياتهم ، ثم فى لغتهم ، ثم فى شعرهم . فلما جاء الإسلام زاد هذا الإحساس نفاذاً ووضوحاً ، لحاجتهم إليه فى تاريخ تنزيل القرآن منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وما يترتب على ذلك من معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث ، وما ارتبط بذلك من مغازى رسول الله ﷺ سنة بعد سنة بعد الهجرة . فلما جاء عهد التدوين ، اتسع هذا الإحساسُ ، وصار واضحاً ظاهراً فى الكتب المخطوطة ، ثم فى أسانيد هذه الكتب . وكان أشدَّ وضوحاً عند علماء التفسير والحديث وعلم الجرح والتعديل . ولا أشك فى أن المتنبي قد أدرك هذا ، لأنه كان مستفيضاً على زمانه ، فكان ديوانه الذى جمعه بنفسه وقرأه على الناس ، أوّل ديوانٍ من الشعر جاءنا ، فيما أعلم ، وفيه أثر هذه الظاهرة واضحاً كُلاًّ الوضوح ، شهراً بشهر وسنة بعد سنة ، فى القسم الثانى من ديوانه .

وقد كنتُ ، وأنا أتذوق شعر الجاهلية وبعضَ الشعر الأموى ، أحوّلُ / محاولة م ٥٢ صعبَةً فى الاهتداء إلى ترتيب قصائد الشعراء على مُدَد من الزمن الذى عاشوه وقالوا فيه شعرهم ، كما مرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ، وحاولته أيضاً فى شعر عمر بن أبى ربيعة وشعر ذى الرمة . ومع أنّى لم أظفر ، أو لم أحقق كُلاًّ بغيتى ، إلاّ أننى انتفعت بذلك انتفاعاً لا بأس به فى تذوق الشعر . فلما استوقفنى القسم الثانى من شعر أبى الطيب ، ومضيتُ فى تذوقه مرتباً على التاريخ ، كان نفعُ هذا الترتيب التاريخى عظيماً ، فقد كشف لى حركة وجدان أبى الطيب فى شعره ، فى زمن طويل يمتد من سنة ٣٣٧ إلى وفاته فى سنة ٣٥٤ . فلذلك عُدتُ أقرأ الديوان كُله قراءةً ثانية ، محاولاً أن أعرف حركة

وجدانه في الشعر الذي قاله منذ صباه في سنة ٣١٤ تقريباً إلى سنة ٣٣٦ = ومحاوياً بتذوق أن أرتب قصائد هذا القسم ترتيباً تاريخياً ما استطعت . وقد فعلت ، وتبين لي أن أبا الطيب كان بلا شك ملتزماً بالترتيب التاريخي في هذا القسم ، إلا في قليل من الشعر ، كما قلت آنفاً .

فرغت من هذه القراءة الثانية ، ومن ترتيب قصائد القسم الأول كما بدا لي عندئذ ، واجتمع لدي قدر لا بأس به من الملاحظات عن أبي الطيب الشاعر ، وعن حركة وجدانه في شعره على اختلاف الأحوال والبلدان والناس الذين لقيهم ، والرجال الذين مدحهم . وبدا لي أن أقنع بهذا ، وأن أبدأ في الكتابة عن شعر المتنبي ، لا عن حياته .

ولكن قلبي القديم لم يفارقني وأنا أستجمع نفسي للكتابة . لم أستطع أن أتخلص من الإحساس الملح بالنقص في عملي هذا . فوجدته أمراً / لا مفر منه ، أن أفعل ما لم يكن في نيّتي أن أفعله يومئذ . جمعت كل ما أمكن أن يقع في يدي من تراجم أبي الطيب التي كتبها الأولون ، وما أتيت لي أن أعلمه مما كتبه المُحدثون عن أبي الطيب . ونحيت الديوان جانباً وشرعت أقرأ تراجمه القصار والطوال ، وأردت الأخبار التي فيها إلى أصولها التي نُقلت عنها ، فكان لزاماً عليّ أن أرتب هذه التراجم ترتيباً تاريخياً حتى لا أضل عن مواضع التغيير والتبديل التي لحقت هذه الأخبار ، في نقل كل مؤلف عن سبقه . وكان عملاً شاقاً طويلاً ، متعدّد الجوانب ، متسع الرقعة ، لكنه كان عظيم الفائدة . قيّدت كل ما عن لي وأنا أقرأ هذه التراجم والكتب . كنت أصطدم دائماً فيها بما يهزني وما يحيرني ، من الاختلاف الواضح بين صورة أبي الطيب التي تصوّرها هذه التراجم والكتب ، وبين صورته التي تصوّرها لي تذوق شعره مجرداً من تأثير هذه الأخبار التي رُويت عنه .

وظهر لي يومئذ ظهوراً واضحاً فرق ما بين تذوق شعر الشاعر تذوقاً يعتمد على الشعر نفسه أولاً ، ثم على ما يكون في نفس المتذوق من إدراك مُجمل لعصر الشاعر

والعصور التي قبله ، وللرجال الذين عاش بينهم وخالطهم ، وللأحداث التي تمر به أو بالناس ويكون لها أثر في شعره وفي حركة وجدانه = وبين بحث الدارس المتأني الذي يجمع أخبار الشاعر وتراجمه وآراء الناس فيه وفي شعره ، ويقارن ، ويستنبط ، ويأخذ خبراً ويردُّ آخر ، ويكشف عن مواضع الخلل في الأخبار إن اختلفت ، وعن استقامتها إن استقامت ، ويستغرق في التفاصيل الدقيقة التي تدلُّ عليها أخباره وأخبار زمانه وأخبار أهل عصره الذين لقيهم أو لم يلقهم . فرأيت يومئذ أنهما طريقان مختلفان ، وعملان متباينان ، ولكن لا غنى بأحدهما عن الآخر . وتبين لي أيضاً ، مما قرأته للمحدثين خاصة ، أن طريق الأخبار وبحثها والاعتماد عليها أو على بعضها ، ربما ضلل الكاتب ، فجعله يرى في بعض شعر الشاعر معنىً ، هو بعيد كلُّ البعد عن المعاني التي يدلُّ عليها تذوق شعره جملةً واحدةً = وأنه أيضاً ، يُشوِّه صورة الشاعر التي يصورها تذوق شعره تصويراً أصدق وأوضح وأعمق .

فلما قرَّ هذا في نفسي وفرغت من تمحيصه وتقليبه حتَّى وجدته صادقاً كلَّ الصديق ، ظننت ، والظنُّ يكذبُ صاحبه ، أني قد بلغت مبلغاً يفتح لي أبواب الكتابة عن أبي الطيب ، بلا عائق ، وأنى إذا أخذتُ القلم والورق وجلستُ إلى مكتبي ، فقد فرغت ، في طرفة عين ، مما كلفني به أخي الأستاذ فؤاد صروف . وكذلك سولتُ لي نفسي !! لم أكذُ أفعلُ حتى طارَ من رأسي كلُّ ما قرأته من شعر أبي الطيب أو من تراجمه ، ومن الكتب أو المقالات التي كتبت عنه ، وإذا أنا عاجزٌ كلُّ العجز عن أن أستجمع فكري ، وعن أن أعرفَ طريقى . وشيئاً فشيئاً أدركتُ حقيقة نفسي ، وأنى حين قضيت ما بين سنة ١٩٢٦ ، إلى سنة ١٩٣٥ في القراءة ، كما وصفت ذلك آنفاً ، لم يكن يدورُ بخلدِي قطُّ أن أكتبُ بحثاً مطوَّلاً ، أو أن أوِّلفُ كتاباً . وكذلك رأيتني قد كرهت الأمرَ كلَّه ، فوضعتُ القلم ، ونحيتُ الورق ، وفارقتُ مكتبي ، وذهبتُ إلى أخي فؤادِ أبته عُجْرِي وبُجْرِي ، كما يقال في / المثل ، أى ما تركته من ورأى ، وما أنا مقبلٌ عليه من أمامي ، والذي أمامي هو العجزُ لا غير . وسدد الله حُطْيَ فؤادِ وأكرمَه ، فإنه

أخذني أخذ رقيق شفيق ، وجعل يُحاوِرني ويُداورني ، ويقبضني ويَبسُطني ، حتى فارقتُه على عزيمة غير التي أتيتُ بها ، وكانت التي أتيتُ بها هو أن يُعفيني من الكتابة . واسترحتُ أياماً ، ثم فكّرت في الأمر تفكيراً جديداً ، يرجعُ فضلُه كُلُّه إلى فؤاد صروف . وعدتُ أقرأ الديوان وحده مرّةً ثالثة حتى فرغتُ منه ، ورأيتُ أشياءً جديدة ، لم أكن أَلقيتُ لها بالأ في القراءتين الأوليين ، وظننتُ أني قادرٌ ، وأن الطريق قد استقام وبانت لي معالمُه . وفي هذه المرة أيضاً أعدتُ ترتيب قصائد القسم الأول من الديوان ، ترتيباً يختلف بعض الاختلاف عن ترتيبى الأول ، على هَدْيٍ ما استفدته من قراءة تراجم أبي الطيب في الكتب المختلفة ، وعلى هَدْيٍ ما بدّأ لي من الرأى في هذه القراءة الثالثة في شعره .

وأجمعتُ أمرى على الكتابة . وما كدتُ ، حتى اختلط عليّ الأمر مرّةً أخرى ، وحزّتُ حيرةً طويلة كادت تُودي بعزيمتي ، حتى جاوز الحزائم الطُّبَّيين ، كما يقال في المثل ، (١) وسوّلت لي نفسي أن أدع الكتابة بمرة . وبعد لأيٍ ما ارتجعت أنفاسي المبهورة ، وعُدتُ بالسكينة ، وأصررتُ على أن أفعل ، لا حُبّاً في كتابة ما وقفتُ عليه من الآراء ، بل حياءً من فؤاد صروف لا غير .

م ٥٧ / ظللتُ أياماً أميلُ الرأى بين أساليب الكتابة ، أيّها أختارُ وأيّها أدع . لم يكن لي أسلوب خاصّ ، أو طريقُ ألفته وعهدته ، فإني كما قلتُ ، لم أفكر قطُّ في تأليف كتاب أو كتابة بحث مطوّل . ورأيتُ المؤلفين قبلي في تراجم الشعراء وغيرهم يكتبون على نهج الدراسة والبحث ، فيذكرون الرجل ومولده ونسبه وأسرته ، وعصره وأخباره ، وشخصيته ، وآراءه ، إلى آخر هذه السلسلة المعهودة في كتب المحدثين من الكتاب = أو عن حياة الرجل جملةً ، ثم تفصيل خصائص شعره ، مثلاً ، وبيان أصول المعاني التي امتاز بها في شعره مفصّلةً مجموعةً من جملة قصائده كُلِّها - وطُرُق أخرى مختلفة ، أَلفتُ قراءتها ،

(١) « الطبي » يضم فسكون ، حلمة الندى من ذوات الخف والحافر وغيرها ، فإذا انتهى الحزام إلى

الندين ، فقد بلغ أقصى غاياته ، فكيف إذا جاوزه ؟

دون أن أتخذ لنفسى رأياً في تفضيل بعضها على بعض . وخفتُ أن يأكلَ مرُّ الزمن عزميتي مرةً أخرى ، وأنا واقفٌ أميلٌ وأوازنُ بين هذه الأساليب ، فعزمت على البدء في الكتابة والفراغ منها . إنها عشرون صفحة أو ثلاثون من المقتطف ، فلا كتبها كما يتفق لي ، وسيلُ المعاني والآراء التي وقفتُ عليها في شعر أبي الطيب ، كفيلاً وحده بشقِّ الطريق ! وبدأتُ .

كتبْتُ ما يزيدُ على ثلاثين صفحة على ما خيَّلتُ ، أي على غررٍ وبلا يقينٍ من طريقي ، وقرأتها أنا وأخي فؤادٌ ، فكاد يأخذها للنشر لأول وهلة . ولكنني استأنيتُه حتى أعيد النظر فيها مرةً أخرى ، لأني كنتُ أدخر في نفسي أشياءً بدت لي في شعر الرجل ، لم أثبتها في هذه الورقات هيبةً وخوفاً من الزلل ، ومن استنكار الناس لها إن أنا كتبتها مجردةً بلا دليلٍ إلا / دليل التذوق . فأخذتُ الأوراق فقرأتها في خلوتي مرةً وأخرى ، فكرهتها أشدَّ م ٥٨ الكراهة ، ومزقتها من قوري . ولما أنبأت فؤاداً بما فعلتُ ، تجهَّم وجهه وتبينتُ في تجهُّمه أنه يقول لي : إني خذلتُه خذلاناً جارحاً . وبكى قلبي بكاءً ، فقد أخرجته إخراجاً غليظاً ، لأنه كان قد أعلن في المقتطف عن قرب ظهور العدد الخاص بأبي الطيب ، فلم أفارقه حتى وعدته بأني عمَّا قليلٍ مُنجزٌ ميعادي غيرَ مُخلفٍ ظنه . وبدأتُ مرةً أخرى على عجلٍ ، وضممتُ الأوراق التي كتبها بعض ما كنتُ أدخرته وطويته في المرة السالفة ، وذلك بعد قراءةٍ رابعةٍ للديوان ، ولمواضع متفرقةٍ من تراجم أبي الطيب في الكتب ، وفرغتُ ، وعرضتُ على فؤادٍ ما كتبْتُ ، وكاد يأخذه كما فعل أول مرةً ، ولكنني عدت فاستمهلتُه أياماً ، وبعد أخذ وردٍّ ، أعطاني الأوراق على مضضٍ .

ودخل علينا رجلٌ عظيم القدر ، كنتُ أحبه ويحبُّني . كان يومئذ شيخاً فوق الستين ، كما يقول هو ، وكنتُ أتوهمه فوق السبعين . كان ذكياً العينين ، باسم الشجر ، وربما غشتت على بسمته كآبةٌ دفينَةٌ لا تبوحُ إلا بهذه الغشاوة على بسماته . كان فتياً النفس يشعلُه دائماً ما يشعلُه من معارك النقد التي أثارها حول كتابه « معجم الحيوان » ، لا يملُّ ذكر ما وقع بينه وبين الدكتور محمد بك شرف الطيب ، صاحب المعجم الطبي ، وأنستاس الكرملتي القسّ ، وغيرهما ، ويسرُّ حججه في تفنيد أقوالهم كأنه يتلوها عن

ظهر قلب ، وهو الدكتور الطيب الفريق أمين باشا فهد المعلوف ، من رجالات أسرة المعلوف اللبنانية . وجلسنا طويلاً ، ثم خرجنا معاً ، وكان مسكنه مصر الجديدة / حيث أسكن . وتجاوزنا الحديث ، فغلبته أنا عليه ، وحدثته عما أكتبه عن المتنبي ، وعن حيرتي فيما أكتب ، وعن الجرح الذي أحدثته في قلب فؤادٍ برتددي مرةً بعد مرةً في تسليم ما كتبته إليه لينشره ، ويفي للقراء بالميعاد الذي حدده لعدد المقتطف الخاص بأبي الطيب . وفي خلال الحديث ، ذكرت له رأياً لم أكتبه في هذه الورقات ، وهو أمرٌ كنت أستشفه من تذوق شعر أبي الطيب ، حتى بلغ بي حد اليقين القاطع ، وهو أن المتنبي كان يحبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، وفاجأني الرجل مفاجأة غريبة جداً ، فقد أخذ برأسي وقبطني ، ثم أخذ بيدي ، وأبى أن يفلتها على طول الطريق ، حتى أذهب معه إلى بيته ، وكنا قد بلغنا مصر الجديدة .

كان يقيم في شقةٍ بسيطةٍ لطيفة ، واستقبلتنا قهرماناً بيته التي تقوم على تديره : سيدةً لطيفةً رقيقةً ، أصغر منه سنًا ، وهي أخته التي ترعاه ويرعاها ، وتركني معها ، وذهب وأتى وفي يده نسخة من ديوان أبي الطيب (بشرح اليازجي) ، وفتح الكتاب ، وإذا على هوامش الجزء الثاني منه فوائد جليظةٍ علَّقها على هوامشه ، أكثرها من كتاب « زبدة الحلب ، من تاريخ حلب » ، لابن العديم ، [وكان لم يطبع بعد] ، ثم قلب الصفحات حتى انتهى إلى قصيدة أبي الطيب في كافور الإخشيدي (في ربيع الآخر سنة ٣٤٧) والتي أولها :

فِرَاقٌ ، ومن فارقَتْ غَيْرُ مَدَمِّمٍ وَأُمٌّ ، ومن يَمَمْتُ خَيْرُ مُيَمِّمٍ

وقرأ البيت الأول ، ثم قال لي : هذا دليلي على أن أبا الطيب كان يحبُّ / « خولة » أخت سيف الدولة ، فأنا أسبقُ منك في الوقوف على هذه الحقيقة . ثم قال لي وهو ماضٍ في قراءة الأبيات الثلاثة الأولى : خُذْ ، يا محمود ، هذا هو الدليل القاطع ! اسمع : (١)

(١) سترى الحديث عن هذه القصيدة في ص : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، فراجعه .

رحلتُ ، فكَمَّ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ عَلَيَّ ، وَكَمَّ بِأَجْفَانِ ضَيِّعِمِ
 وَمَا رَبَّةُ الْقُرْطِ الْمَلِيحِ مَكَانُهُ أَبْجَزَعُ مِنْ رَبِّ الْحُسَامِ الْمُصَمِّمِ
 فَلَوْ كَانَ مَابِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَدَّرْتُ ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبِ مُعَمِّمِ
 رَمَى ، وَأَتَقَى رَمِي ، وَمَنْ دُونَ مَا أَتَقَى هَوَى كَاسِرٍ كَفَّى ، وَقَوْسِي ، وَأَسْهُمِي

واستفاض هذا الرجلُ الكريمُ في حديثه عن أبي الطيب وخولة ، وهو يهتزُّ اهتزازَ الأريحيَّة ، معيداً إنشاد الأبيات مرة بعد مرة . ثم أغلق الديوان وقال لي : تُحَدِّثُهُ ، وانتفع بما فيه من الهوامش المعلقة ، وامض على بركة الله ! جزاهُ الله خيراً ، فليس بيدي أنا جزاؤه ، إلا هذا الذكرُ ، وهو لا شيء في جانب ما استفدته من تعليقاته ، وما أحدث في نفسي التغييرَ بعد ذلك في كتابة ما كتبتُ عن أبي الطيب . وأيُّ شيءٍ أعظمُ أثراً في النَّفْسِ ، مَنْ أَنْ تَجِدَ فِجَاءَ رَأْيٍ يُوَيِّدُكَ فِي رَأْيٍ كُنْتَ تَخَافُ إِبْدَاءَهُ وَالْبُوحَ بِهِ ، وَإِنْ اِخْتَلَفَ طَرِيقُهُمَا فِي الِاسْتِدْلَالِ وَالِاسْتِنْبَاطِ !!

٦١ واستقرتْ نَفْسِي استقراراً كاذباً ، فحدثتُ أمين باشا عن الشعر / الجاهليِّ ، وعن طريقي في تذوقه ، وعرضُ ذكرُ امرئ القيس ، فقام من فورهِ عجباً ، وجاءني بكتاب قديم (أنسيْتُ اسمه واسم مؤلفه) ، على الصفحة اليسرى منه نصُّ الكتاب باليونانية ، وعلى اليمنى التي تقابلها ترجمة ما فيها بالإنجليزية ، وأخرج لي الموضع الذي جاء فيه ذكر امرئ القيس وذكر ذهابه إلى قيصر ، وأن هذا يُوَيِّدُ الرواية العربية في كتبنا . فقلت له : يا سيدي الدكتور ، إني بما في يدي من الكتب العربية أشدُّ ثقةً ، حتى لا أحتاج إلى مثل هذا الدليل الذي أثبتته هذا اليوناني ! فأصرَّ عليَّ أن يعطيني الكتاب لأقرأه ثم أردّه إليهِ . وقد فعلتُ ، وخرجتُ منه بأن الذي عندنا من الرواية العربية ، لا يحتاج في توثيقه إلى مثل هذا النصِّ ، ولكن ، ثم رددتُ إليه عاريتُهُ فيما بعد ، جزاهُ الله ، خيراً ، فقد كان مُحِبًّا لِلْعَرَبِ وَالْعَرَبِيَّةِ ، وَمُحِبًّا لِعَشِيرَتِهِ وَلِللِّسَانِ أَسْلَافِهِ ، لَمْ يَغْيِرْ حُبَّهُ شَيْءٌ مِمَّا يَغْيِرُ النَّاسَ . أما نُسخَتُهُ من ديوان أبي الطيب ، فهي لم تزلُ باقية عندي إلى اليوم ، وعليها تعليقاته ، وزدتُ أنا عليها تعليقات بحطِّي ، مما قرأته فيما بعد .

عُدت إلى بيتي بعد هذا اللقاء الذي فجّرتَه المفاجأة ، وبين جنبي نفسٌ تموج
 كمَوْجِ البحرِ تلاطمتْ أثباجُه . كنا في العشر الأوائل من شهر رمضان سنة ١٣٥٤
 (أوائل ديسمبر سنة ١٩٣٥) ، وجهدتني الهزات المتتابعة التي أخذتني أخذاً عنيفاً
 فلم تُفَلِّتني أياماً متعاقبة ، والذي لقيته / منها = مع جَهْدِ الصَّوْمِ ، وقلقِ النَّوْمِ ، وقلة
 الرَّاحَةِ ، وغوائلِ الحيرة = كانَ غَرَاماً وعذاباً ، والعجبُ أن عزميتي على الكتابة كانت
 تزدادُ قوَّةً وشراسةً ومضاءً ، وأنا أُرَدِّدُ في خلوتي بصوت مرتفع مرةً بعد مرة ، قول سعد بن
 ناشبِ المازني يصف نفسه ، وهي نفس « أَيْحَى غَمْرَاتٍ » لا يبالي بما هو مقدمٌ عليه :

إذا همَّ لم تُردِّعْ عزيمةُ همِّه ، ولم يأتِ ما يأتي من الأمرِ هائباً
 إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ، ونكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانباً

ومرَّ نحو أسبوعٍ وأنا لا أجدُ إلى هُدوءٍ نفسي منقداً ، وأخذتُ ديوان أبي الطيب
 مرةً خامسة ، أقرؤه لا أتوقَّفُ ولا أملُّ ولا أهدأ ، وأنا في خلال ذلك أراجعُ كلَّ ما في
 تراجم أبي الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرها ، تبعاً للخواطر التي تنشأ وأنا أقرأ
 الأبيات أو القصائد . وفي فجر الثاني عشر من شهر رمضان صليتُ ، فلما جئت آوى
 إلى فراشي ، طار النومُ من عيني ، ومع طيرانه تبدد القتامُ الذي كان يُلْفني ، وذهب
 التَّعبُ وما لقيتُ من النَّصبِ ، وتجلَّى لي طريقُ بانٍ لي كأني سلكته من قبل مرَّاتٍ فأنا به
 خبير ، وأخذتُ الأوراق التي كنتُ كتبْتُها واستمهلْتُ فؤاداً في مراجعتها ، فمزَّقْتُها وأنا
 على عجلةٍ من أمرى ، ونبذْتُها في صندوق القمامة ، وأعددت أوراقى ، وجلست على
 مكتبي ، وأخذت قلمي ، وسميتُ بذكر الله ، وكتبتُ في جانب من الصحيفة الأبيات
 الثلاثة التي تراها في أوَّل هذا السفر [ص : ١٣٧] ، والتي أوَّلها :

/ أَنَا أَبْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْبَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ

ومضيتُ أكتب ، كأني أسطرُّ ما يُملَى عليّ لا حيرة ، ولا بحثٍ عن
 أسلوبٍ وطريق ، ولا تردُّد ، ولا هيبةٍ لشيءٍ ، ولا تخرُّجٍ من غرابةٍ ما أقول وما أكتب .
 وفرغتُ من الفصل الأوَّل الذي تراه هنا [ص : ١٣٧ - ١٦١] ، وأصبح صباح الثالث عشر من

شهر رمضان ، وأخذتُ أهْبَتِي ، وفارقتُ بيتي ، وقطعتُ الطريقَ إلى دار « المقتطف » ، ودخلتُ على فؤادٍ ، فلقيني كالمُتجهِّم ، فسَلَّمْتُ ولم أُكَلِّمهُ إلا قليلاً . فنظر في هذه الأوراق القلائل التي لا تزيدُ على عشر ورقاتٍ !! ثم رفع إليَّ بَصْرَهُ وازدادَ تَجْهَمُهُ ، وقال : ما هذا ؟ فقلت : أدفعُ بها إلى المَطْبَعَةِ ! فازدادَ تَجْهَمُهُ ، ولكنَّهُ رَجُلٌ حَلِيمٌ جَمُّ الأناةِ ، فسكت ، وبدأ يقرأ ما كتبتُ ، وظللتُ أراقبُهُ ، وهو مستغرقٌ ، وجَهَامَتُهُ تنقشعُ شيئاً فشيئاً ، ولم يكِدْ يفرغُ حتى أشرقَ مُحَيَّاهُ إشراقاً ، وتهللتُ أساريهُ ، واستنار الذي كان بيني وبينه مُظلماً ، وأخذني فشدُّ على يدي . ثم التفتَ وطلب مجيء عم « عبد الرزاق » رئيس المطبعة ، وجمعت الصفحة الأولى ، واخترنا لها صورتها التي هي عليها ، كما تراها في أوَّلِ فصلٍ . وبقيت في دار المقتطف إلى قبيل المغرب ، أصحح ما يُجمع من الصفحات ، ودارت المطبعة ، وهكذا دواليك يوماً بعد يوم ، حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان . تمَّ كُلُّ شَيْءٍ ، وظهر عدد المقتطف في السادس من شوال سنة ١٣٥٤ ، (أول يناير سنة ١٩٣٦) ، ولم يكن من نصيبي أن أمسك بيدي أوَّلَ نسخةٍ منه ، لأن أبا الطيّب أراد أن يكافئني ، / فعجَّل مكافأتي على أثر الفراغ من الكتاب بالحُمى التي م ٦٤ ركبته في أواخر أيامه بمصر ، فكانت تغشاه إذا أقبل الليل ، وتنصرف عنه إذا أقبل النهار بعرقٍ ، وتركني أقول لها يوماً بعد يوم كما قال هو لحماه :

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ ، فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الرَّحَامِ !!

حين تبدد القتام الذي كان يلُفُّني ، تجلَّتْ لعيني صورة واضحة كُلِّ الوضوح ، كأنني أخذتُ كتاباً مسطوراً ، فقرأته كُلَّهُ بنظرة واحدة قبل أن يرتدَّ إلى طَرْفِي . وهذه ليست مُبالغةً ، ولكنها حقيقة مجرّدة ، ألفتها بعد ذلك وعرفتُها مرَّاتٍ ، وأظنُّ أن كثيراً من الكُتَّابِ غيري قد ألفتها مرَّاتٍ كما ألفتها . وقبل كُلِّ شَيْءٍ ، فاعلم أني إنما أقصُّ هنا قصَّةَ هذا الكتاب كما كانت ، وأسجِّل تجربتي الأولى في تأليف كتاب ، ملتزماً بالصدق ، متجنباً للمبالغة رغبةً في حُسْنِ التصوير .

حين قرأت ديوان أبي الطيب مرّات ، وحين قرأت تراجمه التي بين يدي ، وما تجمّع عندي من أخباره وأخبار عصره وأخبار من لقيهم أو مدحهم من الناس = كانت خلاصة ما انتهيت إليه أمران :

الأول : أني إذا قرأت تراجمه وأخباره وما كتب عنه ، رأيت رجلاً عاش حياة غامضة مضطربة متناقضة لا استواء فيها ، يعسر فهمها على وجه صحيح .

والثاني : ثم إنني إذا قرأت شعره جملة واحدة ، متذوقاً لكّي أرى صورة حياته التي يدل عليها شعره ، رأيت صورة أخرى لرجل آخر ، حركة وجدانه فيها واضحة كلّ الوضوح ، ولكن صورة حياته هو غامضة كلّ الغموض .

ولذلك ، فقد كنت ملفوفاً في قنّام مغبرّ ، لا أسير خطوة حتى أدخل في قنّام أشدّ غُبرةً . فلما تبدّد عني فجأة هذا القنّام ، كان عمود الصورة واضحاً كلّ الوضوح . إلا أنّ عمود هذه الصورة لم ترسمه تراجم المتنبي وأخباره الكثيرة ، بل رسمها وحددها تذوق شعره ، واستنباط معانيه ، ودلالته على شخصيّة أبي الطيب ، فكانت هي المهيمنة على أخباره الكثيرة ، تزيّف منها ما تزيّف ، وتصحّح منها ما يصحّح ، وتجلّوها جلاءً جديداً يجعلها قادرة على أن تجعل حياته واضحةً جليّةً مستويةً . وبذلك صار ما صحّح من هذه الأخبار بعدئذٍ ، قادراً هو أيضاً على أن يجعل حركة وجدانه في شعره أشدّ ظهوراً ، ويجعل صورة حياته التي يدل عليها تذوق شعره أدنى إلى الوضوح وأبعد من الغموض ، وأقدر على الالتحام بصورة الحياة التي يدل عليها ما صحّح من هذه الأخبار . فكذلك كان هذا الكتاب الذي بين يديك ، هو الصورة الحيّة لأبي الطيب ، كما رأيتها وعاشتها ، وشقيت أنا بها ، وشقيت هي بي أيضاً ، فيما أظن !

/ عمود صورة المتنبي

وإذا كان ذلك كذلك ، فينبغي إذن أن أبين « عمود الصورة » الذي بُني عليه هذا الكتاب ، كيف جاء وكيف تمّ . فهذا هو « عمود الصورة » التي يتخلّق من حوله تخطيطها ومعارفها وقسماتها ، والذي تكمن فيه شخصيّة أبي الطيب منذ مولده بالكوفة ، ثم تنمو سنّة بعد سنّة على مرّ الأيام والأحداث ، فتُفصح هي عنه ويفصح هو عنها ، بعد أن صار شاعراً تراه يغدو بها ويروح حتى يفارق الحياة .

١ - غلام « علويّ » النسب ، يولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ، ويقوم بها حتى يصير فتى ، إلى أواخر سنة ٣٢٠ . [انظر من ص ١٣٧ - ١٩٨] .

٢ - خرج إلى الشام ، وفي باديتها أظهر أنه « علويّ النسب » ، فقبضَ عليه وسُجن ، وأقام بالسجن في أواخر سنة ٣٢١ ، إلى سنة ٣٢٣ ، وهذا معناه : إبطال « النبوة » التي زعموها في الأخبار . [انظر من ص ١٩٩ - ٢٣٦]

٣ - خروجه من السجن ورحلته بعد ذلك في الشام منذ سنة ٣٢٣ ، وعودته إلى الكوفة سنة ٣٢٥ ، ورجوعه إلى الشام مرةً أخرى في سنة ٣٢٦ ، حتى سنة ٣٣٦ . (١) [انظر من ص ٢٣٧ - ٢٩٤]

٤ - / أول لقائه بأبي العشائر الحمداني ، ثم لقاء سيف الدولة ، من سنة ٣٣٦ م ٦٧ إلى سنة ٣٤٦ . [انظر من ص ٢٩٥ - ٣٣١]

٥ - حبّ « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم فراقه سيف الدولة إلى مصر من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٤ ، وكانت فيها وفاته . [انظر من ص ٣٣٣ - ٣٥٦]

(١) لم نكن نعرف يومئذ أن أبا الطيب رحل من الشام إلى مصر في سنة ٣٣٥ ، فهذا خبر جديد جداً ، أوقفنا عليه ابن العديم في ترجمته رقم : ٤ ، ورقم : ٦٦ . والمقريري رقم : ١٧ .

٦ - مجيئه إلى مصر ، وبقاؤه عند كافور الإخشيدي ، ثم فراره من مصر ، ورجعته إلى الكوفة ، ثم إلى فارس عند ابن العميد وعضد الدولة ، ثم مقتله = من جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، وخروجه من مصر يوم عرفة (٩ من ذى الحجة) سنة ٣٥٠ ، ثم دخول الكوفة سنة ٣٥١ ، ثم سائر رحلته إلى يوم مقتله بالعراق عائداً من فارس في ٢٧ من شهر رمضان سنة ٣٥٤ . [انظر من ص ٣٥٧ - ٣٩٢]

٧ - شخصية أبى الطيب : منذ كان بالكوفة طفلاً ، ثم صبياً ، ثم فتياً يعرف طرفاً من أنه علوى النسب ، ولكنه مرغمٌ على كتمان هذا النسب . ثم ثورة نفسه واضطرامها في هذه المدة ، ثم يفارق الكوفة إلى الشام ، فينفس عن ثورته بإظهار علويته ، فيقبض عليه العلويون ويجسونه ، فيأس من أمر علويته ، فتقلب هذه الثورة إلى ثورة عربىٍ نائرٍ لعربيته على حكم الأعاجم الذين يسيطرون على دولة الخلافة كلها ، فيظل بقية حياته إلى أن يموت ، تحركه هذه الثورة لعربيته ، فأفصحت هذه الثورة / عن نفسها ، وأفصح هو عنها في آياتٍ كثيرةٍ من شعره ، وأفصحت هي عن نفسها بأساليب مختلفة : في تركه مدح كثيرٍ من رجالات زمانه ، ممن التف حولهم غيره من الشعراء ، كالخلفاء في زمانه [انظر هذا ص : ٧٣] = أو في حركة وجدانه التي يحددها تذوق شعره على مدى أربعين سنة ، من سنة ٣١٤ ، إلى مقتله سنة ٣٥٤ : تحبو حيناً إذا لم يكن له في الذى يمدحه رجاءٌ يرضى هذه الثورة العربية الكامنة في نفسه ، وتتألق حيناً آخر تألقاً ظاهراً حين يكون له في ممدوحه رجاءٌ يحرك هذه الثورة أو يُدنى

من بلوغ آماله فيها . هذا جانبٌ من شخصيّة أبي الطيب الذي أظهره تذوق الشعر وبعض الأخبار .

٨ - أما الجانب الآخر من هذه الشخصية ، وهي العواطف التي لا يخلو منها بشر ، كحبّ الأب والأمّ والجدة ، وحبّ الزوجة ، وحبّ الولد والعيال ، وحبّ امرأة بعينها يغلبُ حبّ هؤلاء جميعاً وينفرُ بسلطانه على النفس = فقد استعلن حب الوالدين في حبّه لجده كما استظهرته بتذوق الشعر وبعض الأخبار في مواضع متفرقة من الكتاب = واستعلن حب الزوجة والولد والعيال ، كما تذوّقته من شعره [انظر ص : ٣١٨ ، ٣١٩] = واستعلن حب المرأة في حديثي عن « خولة » أخت سيف الدولة ، كما تذوّقته في مواضع متفرقة من شعره ، وإن لم يكن في أيدينا عنه خبر البتة .

/ الفقرة الأولى والثانية

٦٩ م

أما الفقرة الأولى من « عمود الصورة » ، والتي تتضمن القول بأن أبا الطيب « علويّ » النسب ، والفقرة الثانية التي تتضمن القول بإبطال دعوى « النبوة » وأن « المتنبي » لقب لا غير ، (١) فهما متداخلتان . والقول بأن « المتنبي » علويّ النسب ، قول لم يسبقني إليه أحد من القدماء ولا المحدثين ، ولا جاء به خبر يدل عليه ، أو يعين على افتراض هذا الفرض من قريب أو بعيد . فكيف جاء إذن ، وكيف صار جزءاً من « عمود الصورة » ، لا بل هو الصورة كلّها ، فإذا فقدت بقار « عمود الصورة » جميعاً بطلاناً كاملاً ؟

في خلال تذوق شعر أبي الطيب ، في القراءة الأولى والثانية والثالثة ، استرعى انتباهي أمر غريب جداً ، لم أجد له تفسيراً قط في أخبار أبي الطيب . وأبو الطيب كوفيّ ،

(١) انظر ما سيأتي في ترجمته للربيعي رقم : ١ ، ولابن العديم ، رقم : ٩ ، حيث روى خبراً عن المتنبي

نفسه ، في سبب تلقيه بالمتنبي ، وهو خبر جديد لم يقع في أيدي الناس من قبل .

والكوفة يومئذ دارٌ من ديار العلويين يكثرون بها ، فلم يكن غريباً ولا عجبياً أن تكون القصيدة الأولى في الديوان (وعدد أبياتها : ٤٣ بيتاً) = هي الأولى ، لأن قبلها مقطوعتان ، أولاهما ثلاثة أبيات ، والأخرى بيتان . وقد نصَّ الديوان على أنها مما قال في صباه = قالها يمدحُ بها رجلاً « علويّاً » هو « محمد بن عبيد الله العلويُّ » ، قالها فيما استظهرت سنة ٣١٨ : قبل خروجه من الكوفة ، [انظر هذا ص : ١٥١ ، ١٥٢ والتعليق فيهما] ، وبتذوقها رأيتُ أنه من لِدات أبي الطيب ، وأنه كان يحبُّه ويحفظُ له ما أسدى إليه من معروف أو صنيعَةٍ . لم يشغلني ذلك كثيراً ، فلما انتهيتُ في تذوق إلى ما قاله في سنة ٣٣٦ ، حين قدّم على ابن طُغج بالرملة ، فقال له : إني لفظتُ الناس لما بلغتك ، لفظَ المسافرِ حُثالة زاده ، إذا نزل أرضاً كثيرةَ الخير موفورتهُ :

وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلاً وثريةً بها « علويٌّ » جدُّه غير هاشم

أى أن الرجل الذي فارقه دعى من الأدعياء لا علويّ ، فاستوقفني ذمُّ هذا « العلويِّ » ذمّاً صادراً من نفسٍ جريئةٍ ، ثم لم أكد أمضي في قراءة المقطوعات بعد هذه القصيدة ، حتى رأيتُ شراح ديوانه يذكرون أن ابن طُغج ظلَّ يحاور أبا الطيب ويداوره ويرجوه مرة بعد مرة أن يقول قصيدة يمدح بها صاحبه : « أبا القاسم طاهر بن الحسن العلويِّ » ، فبعد لأيٍ ما استجاب له أبو الطيب ، وقال يمدح هذا « العلويِّ » ، ولكنه يذكر في هذا المدح ذمّاً قبيحاً ذمَّ به ذاك « العلويِّ » ويفسر سبب ذمّه ، فيقول قبل أن يدخل في المدح :

أتأني وعيدُ الأدعياءِ وأنهم أعدوا لي السُودانَ في كفر عاقبِ
ولو صدقوا في جدِّهم لَحذرتُّهم فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذبٍ ؟

فليس إذن ، « علويّاً » واحداً ، بل « علويّون » ، أرسدوا له فتياناً شداداً سوداً ليقتلوه عند مروره بكفر عاقب ، في طريقه إلى ابن طُغج ، ثم أبيات أخرى كثيرة [انظر هذا ص : ١٥٣ - ١٥٨] ، فوجدتُ ههنا شيئاً مناقضاً للذي وقرّ في نفسي منذ أوّل الديوان . ثم

انطلقت حتى فرغت / من تذوق الديوان ، ولم أر للعلويين بعد ذلك ذكراً صريحاً في شعره . م٧١
 فلما عزمت على جمع أخبار أبي الطيب وقراءتها كما قلت آنفاً ، [ص : ٤٠ ، ٤١] ،
 وأخذت رسالة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، [انظر ما سلف ص : ٣٨ ، تعليق ١] وهى
 « زيادات ديوان شعر المتنبي » دلّنى على ترجمة لأبي الطيب فى خزنة الأدب للبغدادى [١] :
 ٣٨٢ وما بعدها] ، فاستوقفنى قول الأصفهانيّ الذى قال فى ترجمة أبى الطيب : « إن مولد المتنبي
 كان بالكوفة ، فى محلّة تعرف بكندة واختلف إلى كُتّابٍ فيه أولاد أشرف الكوفة ،
 فكان يتعلّم دروس العلويّة لغة وشعراً وإعراباً » ، (١) فأيقظ هذا الخبر ما كان خافياً فى
 نفسى من أمر الملاحظتين السابقتين وتناقضهما . ووجدته أمراً ملحاً أن أطلب فى تراجم
 أبى الطيب ، وفيما قدّم به لبعض قصائده ، ما يكون من ذكرٍ للعلويين ، أو للكوفة . وفى
 هذا الطلب وجدت بعض الروايات التى تحدّثنا عن أبى الطيب ، وعن نشأته ، وعن أبيه
 « عيّدان السّقاء » ، وعن « نبوته » يُروى عن رجال من العلويين والهاشميين . ووجدت
 أيضاً أنّ الذى قبض عليه وسجنه علويٌّ أو هاشميٌّ ، وأشياء أخرى متنوّعة . فساورتنى
 الرّيب ، والتمست تفسيراً لهذا كلّهُ . ثم وجدت فوق ذلك أن بعض الذى يروى هذه
 الأخبار عن العلويين ، كان علويّ الهوى أيضاً ، ومضيتُ أستقصي وأُفلي ، وأتذوق
 الأخبار ، وأتذوق الشعر مرّة بعد مرّة ، لعلّى أجد شيئاً يهدينى إلى علاقة هذا الكوفيّ
 الشاعر ، بالعلويين الذين كانت ديارهم هى الكوفة مسقط رأسه ، وفيها منشعوه إلى أن
 جاوز السابعة عشرة .

/ وبعد تردّدٍ طويلٍ وحيرةٍ ، بين دلالة تذوق الأخبار ، ودلالة تذوق الشعر ، لم
 أجد مناصاً من أن أفرضَ فرضاً يزولُ به هذا الغموض الذى يكتنف حياة هذا الشاعر ،
 ويرفع اللثامَ عن مكنون شعره الذى دلّنى عليه التذوق . وأخذتُ هذا الفرض ، وعرضتُ
 عليه شعر أبى الطيب كلّهُ متذوّقاً متأنّياً ، فلان لى عصيّه واستقام مُعوجّه ، وأسفر

(١) انظر تصحيح نص هذا الخبر فيما يلى ص : ١٦٧ ، تعليق : ١ .

كُلُّ ما كان عليه نقاب وحجاب ، وتحرك كلُّ ما تذوّقته من شعره ، وتحركت معه أخباره . فعندئذ بلغت حدَّ القَطْع بأن أبا الطيب « علويّ » النسب فرضاً يشبه الحقيقة !! والفضل في ذلك كُله لخبر الأصفهاني الذي ذكر فيه « أولاد أشراف الكوفة » . وقد قام « عمود الصورة » كلها ، كما رأيت ، على هذا الذي ادّعيته ، وليس في يدي شيء غير لفظ الأصفهانيّ ، ثم دلالات شعر أبي الطيب . وكذلك أعملت هذا الفرض الجريء الذي لا سابق له عند أحدٍ ممن كتب عن أبي الطيب ، وجعلته محور حياته كلها إلى أن قُتل ، فكنْتُ أوّل من شكَّ في نسب أبي الطيب الذي رواه الرواة ، ولكنّي لم أقف عند الشكِّ المجرد ، كما ذهب إليه من قلّدي ، (١) بل أبنتُ عن علّة الشكِّ ، لأثبت مكانه حقيقةً أخرى ، دلّني عليها شعره ومواقفه في حياته كلها ، مما كان له ارتباط وثيق بعلة الشكِّ .

وظهر كتابي بعد ذلك ، واستنكر عليّ كثيرٌ من الناس ما قلتُ ، حتى أستاذي الرافعيّ ، فإنه تردّد في قبوله ، ولكنّه لم يستطع أن يجد حُجّة تردُّ قولي ، كما أخبرني بذلك ، بعد أن كتب كلمته عنه في الرسالة [هذا ص : ٥٧٧] ، وقال لي : إنّي لم أستطع أن أذكر « علوية » أبي الطيب صراحةً ، وقنعتُ بأن أقول إن روح أبي الطيب كانت تلازم الكاتب : « تدلُّه في تفكيره ، وتوحى إليه في استنباطه وتبصره أشياء كانت خافيةً وكان الصدقُ فيها ، ليردّ بها على أشياء كانت معروفةً وكان فيها الكذب » ، وقال : أليس هذا كافياً ؟ هذه موافقةٌ على رأيك ، وفيها توثيقٌ متلفّع بالحذر ! وليت الرافعيّ لم يحذر !

فقد مضت الأعوام من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٨ ، وقد نسيت المتنبيّ وأهملتُ كلُّ ما كتبته عنه ، وذات يومٍ دخل عليّ يتهلّل وجهه ، وتنيّر أساريره ، صديقي وتلميذي ، وأستاذي فيما بعد ، الأستاذ أحمد راتب النفاخ ، وهو اليوم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومدّ إليّ يده بورقات مكتوبة بخطّه (١٢ ورقة) ، نقلها عن ظهر نسخة

(١) هو الدكتور طه حسين ، كما ستري في هذا الكتاب ، وانظر ص : ١١٣ ، س : ٥ - ٩ .

مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب «الإبانة عن سرقات المتنبي» ، لأبي سعد محمد بن أحمد العميدى (توفي سنة ٤٣٣ هـ) ، ونقلها ناسخ النسخة من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) وقال في أولها : « هذه نبذة من أخبار أبي الطيب المتنبي رحمه الله تعالى ، مما أورده ابن عساكر في ترجمته » ، ومجرد وجود ترجمة للمتنبي منقولة عن تاريخ دمشق لابن عساكر ، كتنز لا يقدر ، لأن تراجم الأحمدين (أى من يسمّى أحمد) ، مفقودة من جميع مخطوطات تاريخ دمشق ، وقد نشرتها في آخر كتابي هذا بعنوان «أربع تراجم للمتنبي» .

م ٧٤ / أمّا المفاجأة التي ملأت نفس أحمى بشراً ، وأنارت أساريه بشاشة ، والتي هزّنتى فأيقظت ما مات بالإهمال من أمر المتنبي ، فهو ما نقله ابن عساكر عن أبي الحسن الربيعي صاحب أبي الطيب فقال :

« الذي أعرّفه من نسب المتنبي أنه : أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي ، وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمئة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله »

[ترجمة ابن العديم رقم : ٣]

وكانت مفاجأة مذهلة !^(١) ومضت أعوام بعد ذلك ، وفي سنة ١٩٦٢ ، فيما أذكر ، تلقيت أيضاً من أخي الكريم أحمد أوراقاً مصورة من كتاب ابن العديم (٥٥٨ - ٦٦٠ هـ) « بغية الطلب » من نسخة بخط ابن العديم نفسه ، محفوظة بمكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية ، وهي من الجزء الأول ، وفيها ترجمة أبي الطيب (من الورقة ٢٥ إلى الورقة ٥٢ ، إلا الورقة رقم ٤٤ ، فهي بياض بالأصل ، أى اثنتان وخمسون صفحة) ، وهي أطول ما عندنا من تراجم أبي الطيب ، وقد نشرتها في آخر هذا الكتاب في «أربع تراجم للمتنبي» . فكانت لي في هذه الورقات مفاجأة أخرى ، بل مفاجآت أخرى كثيرة ، لأنها تتضمن ، قبل كل شيء ، توثيق ما جاء في ترجمة ابن عساكر المسطورة على ظهر كتاب ، توثيقاً يرفع كل ريبة ! قال ابن العديم :

(١) بل ستأتى مفاجأة أعظم ، وهو نص كلام المتنبي عن نفسه في الترجمة الأولى المنقولة من نسخة من

شرح الواحدي على ديوان المتنبي .

« أخبرني صديقنا أبو الدرّ ياقوت بن عبد الله الرومي ، مولى
 / « الحمويّ البغدادي قال : رأيت ديوان أبي الطيب المتنبي
 » بخط أبي الحسن عليّ بن عيسى الربيعي ، قال في أوّله :
 « الذي أعرفه عن أبي الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن
 » مرة بن عبد الجبار الجعفيّ ، وكان يكتُم نسبه ، وسألته عن
 » سبب طيّه فقال وهذا الذي صحّ عندي من نسبه ،
 » قال : واجتزتُ أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله
 » السّلاميّ الشاعر ، على الجسر ببغداد ، وعليه من جُملة
 » السُّؤال رجلٌ مكفوفٌ . فقال لي السّلامي : هذا المكفوف
 » أخو المتنبي ! ^(١) فدنوتُ منه فسألته عن ذلك فصدّقه ،
 » وانتسب هذا النسب وقال : « ومن هنا انقطع نسبنا » .
 » وكان مولده بالكوفة سنة ثلاثٍ وثلاثمئة ، وأرضعته
 » امرأة « علوية » من آل عبيد الله » . [سيأتى في ترجمة ابن العديم

م ٧٥

[رقم : ٨]

وإذْنُ فالفرض الذي افترضته ، والذي استثاره خبرٌ لا يعينُ ظاهرُ لفظه ، إذا
 انفرد ، على مثل هذا الفرض ولا يوجّه إليه ، وهو قول الأصفهاني : « واختلف [يعنى أبا
 الطيب] إلى كُتابٍ فيه أولادُ أشرف الكوفة » ، = لم يكنْ جُزافاً محضاً ، كما قال لي
 يومئذ مواجهاً ، أحد الأساتذة الذي / كتب بعدي كتاباً عن المتنبي صدر بعد كتابي
 بأشهرٍ ، وعارضني في كتابه متجاهلاً لما كتبتُ ، فلم يذكرني إلا مرةً واحدةً فقال

م ٧٦

(١) أخو المتنبي لم يذكره أحد من مترجمي المتنبي ، لا قديماً ولا حديثاً بلا شك ، فهذه مفاجأة أخرى . ثم
 وجدته مذكوراً فيما بعد في تكملة تاريخ الطبري للهمداني الأول : ١٩٥ من خبر مروى عن أبي الحسن محمد بن
 يحيى الزيدي العلوي .

عني : « كاتب المقتطف » . (١) لم يكن جُزافاً ، بل كان دليلاً على أن منهجي الذي انتهجته منذ قضية الشعر الجاهلي ، في قراءة الشعر وتذوقه ، وجعله مهيمناً على الأخبار ، كما قلت آنفاً = كان منهجاً مستقيماً ، لا في دراسة الشعر فحسب ، بل في نقد الأخبار أيضاً ، وإدراك دلالتها على فساد نية رواتها أو سلامة هذه النية ، كما تراه مفصلاً في كتابي هذا !

أما هذا النص المفاجيء ، فهو صريح الدلالة على عمق علائق أبي الطيب بالعلويين منذ كان رضيعاً بين حرائر نساءهم اللواتي أرضعنه ، أو أرضعته إحداهن ، إلى أن نشأ وتعلم في كتاب فيه أولاد العلويين الأشراف ، إلى أن صار فتى في الخامسة عشرة ، يمدح علويًا ، من آل عبيد الله أيضاً ، كما رأيت . هذا النص هو الذي نصر فرضي نصراً مؤزرًا ، وألحقه بالحقيقة المقررة ، كما توقع الأستاذ فؤاد صروف في مقدمته .

وإذن ، فللمتنبي ، الذي وُلِدَ بالكوفة ، دار العلويين ، واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشرافها العلويين = إلا يكن « علوي » النسب من أنفسهم صليبةً ، فهو « علوي » ، رضاعاً ، (٢) أي هو أخوهم من الرضاع ، والرضاع لحمة كلحمه النسب ، ولذلك حرم الله به ما يحرم النسب . وكذلك يكون / بعد ذلك عجباً من العجب : أن يكون أول شعره ، وهو في الخامسة عشرة من عمره منبئاً عن حُبِّ ظاهر لثريه « محمد بن عبيد الله العلوي » وللعلويين جميعاً ، فهو :

خير قريش أباً وأمجدها ، أكثرها نائلاً وأجودها
تاج لؤي بن غالب ، وبه سما له فرعه ومحتدتها
قد أجمعت هذه الخليقة لي ، أنك ، يا ابن النبي ، أوحدتها

(١) هو الأستاذ عبد الوهاب عزام ، صاحب كتاب : « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » .

(٢) قد فوجئت ، كما قلت ، بنص المتنبي نفسه على المرأة التي أرضعته ، انظر التعليق السالف ص : ٥٥ .

وأنتك ، بالأمس كنت محتتماً ! ، شيخ معد وأنت أمردها (١)

= ثم تدلنا الأخبار بعد ذلك عن تمتعه وتخرجه من مدح علوي آخر في سنة ٣٣٦ !! لا ، بل في إصراره على أن يعرض ببعض العلويين الذين أرادوا قتله بكفر عاقب ، ويسمئهم « الأدعياء » ، ثم يرمى بهذا كله في وجه العلوي الذي اضطره ابن طفج إلى مدحه ، كما أسلفت . لا ، ليس هذا فحسب ، فإن المتنبي يومئذ لم يبلغ من الشهرة مبلغاً (سنة ٣٣٦) ، ومع ذلك فإن هذا الشريف العلوي يتلقاه بعد تمتعه ، فيقوم له عن مجلسه أمام الناس ، ويُجلسه ويجلس هو بين يديه يسمع هذا الشعر ، حتى عجب الناس مما فعل من فعل / غير معهود ، ثم يجزل له العطاء ، ويقول أحد شهود هذا المجلس : « ما رأيت ولا سمعت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب » ! هذا كله عجب يستخرج دهشة المتأمل .

٧٨ م

= لا ، بل إن ابن العديم نفسه ، أيّدني في نقد الخبر رقم : ٦٧ [انظر ص : ٦٧٥] ، فقال : « وسنذكر في ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر ، حكاية عن الخالدين ، (قلت أنا : كانا صاحبين للمتنبي ، وهو مع سيف الدولة) ، تدل على أن المتنبي كان مخالفاً للشيعة » ، فهذا تأييد أكبر لما استظهرته من عدواته لهم .

= لا ، بل إنه يروي أيضاً في الخبر رقم : ٥٠ ، [في ترجمته للمتنبي] ، حديثاً جرى بين المتنبي ، وبين بعض أشراف الكوفة » ، رواه الإمام أبو الحسن علي بن محمد الفصيحى (٥١٦ - ٥٠٠ هـ) فقال : « قدم بعض الأشراف من الكوفة ، فدخل إلى مجلس فيه المتنبي ، فنهض الناس كلهم سوى المتنبي ، فجعل كل واحد من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدد هناك ، فقال المتنبي : يا شريف ، كيف خلقت

(١) هو اختيار من أبيات القصيدة جعلته متتابعاً . وقوله « وأنتك » مخففة النون من « أنك » المشددة . وضبطت أنا « شيخ » بالضم ، على خلاف ما هو مضبوط في جميع دواوينه ، على أنه خبر « أن » كأنه قال : قد أجمعت هذه الخليفة أنك أوحّد قريش ، وأنتك شيخ معد وأنت أمردها ، وبالأمس كنت محتتماً ! = على التعجب المعترض بين « أن » وخبرها . وانظر ما قالوه في إعراب « شيخ » على أنه خبر « كنت » ، وأن « محتتماً » حال من كنت ، وما في ذلك من التوجيه في شروح الديوان .

الأَسْعَارَ بالكوفة ؟ فقال : كُلُّ رَوَايَةٍ بِرَطْلِينَ حُخْبِرٍ ! فَأُخْجَلُهُ ، وَقَصْدَ الشَّرِيفِ أَنْ يَعْرِضَ
بَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ سَقَاءً »

فهو ، كما ترى ، لم يَقم للشريف الكوفي وقد قام أهل المجلس ، على غير ما يوجبُهُ
أدب المجالس ، وهذا دليلٌ على ازدرائٍ طافج ، وشَنَّانٍ مضطرم / في أغوار النفس . ولو م٧٩
سكت المتنبى فلم يسأله كما سأله سائر أهل المجلس ، لكان تركُ القيام كافياً في إظهارِ
ما في نفسه لهذا الشريف الكوفي ، وفي إيذائه علانيةً ، ولكنه أراد أن يشفى غليل ازدرائه
وشَنَّانه ، بالهُزءِ به والسخرية مواجهةً وكِفاحاً ، فابتدر مع ذلك أيضاً يسأله كما سأله
أهل المجلس ، وتَرَكَ السؤال عن أخبار مسقط رأسه التي تجددت منذ فارقها قديماً ،
وسأله عن أسواقِ الكوفة وأسعار البيع والشراء فيها ، استهزاءً به ، وإنزالاً له من منزلة
« الأشراف العلويين » إلى منزلة سماسرة الأسواق وتجارها !! وكان في هذا الخبر أيضاً الدليل
البينُّ على أن مصدرَ القول بأن أبا المتنبى كان « سقَاءً » يبيع الماء بالكوفة ، هُم هؤلاء
العلويون أيضاً ، كما بينتُ ذلك في كتابي هذا [١٣٧ - ١٥٠] ، وذلك بينُّ في جواب
الشريف العلوي الذي أجابه به .

وهذه كلها أدلةٌ متظاهرةٌ جاءت من وراء الغيب ، لكي تدلني على أن منهجى في
« التدوُّق » يفضى إلى كشف الحُجُب عما طَمَره غُبار السنين ، وما يسترُهُ تكذُّبُ الروايةِ
ذوى الأهواء = وأننى كنتُ ، بتوفيق الله ، مُصِيباً في فَرَضِي « علوية » أنى الطيب ،
مستهدياً بهذا التدوُّق = وأننى حين أعملتُ هذا الفرضَ وحكمتُه في نقد أخبار نبوته [هذا
السفر ص : ١٩٩ - ٢١٢] ، وانتهيت إلى رفض « التَّبَوُّة » رفضاً باتاً بلا مَشْتَوِيَّة (أى بلا
استثناء) ، كنتُ موفِّقاً بحول الله وقوته ، ولم أكن جائرأ عن الحقِّ ، حين عددتُها ممَّا
أفْعَلُ افتعالاً ، وأقْحَمَ في خلال الأخبار التي ذُكر فيها أنه ادَّعى « العلوية » / إقحاماً م٨٠
خبيثاً ، لستر الحقيقة التي تضمنتها هذه الأخبار ، وذلك كالخبر الذي يقول إن المتنبى :

« ادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » ، (١) وسياقه يدل على أنه أدخل فى باب « المحال الكذب » ، من المثل الذى ضربه سيبويه حيث قال : « وأما المحال الكذب فإن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس » [انظر نقده فى هذا السفر : ١٩٩ - ٢٠٨]
ولما صار الأمر بيننا يومئذ عندى ، أتممت القول فى الفقرة الثانية من « عمود الصورة » [هذا ص : ٢١٥ - ٢٣٥] ، وهو سياق مهم جداً ، لأننى ضمننته أظهر عنصر فى شخصية أبى الطيب ، كما وصفتها فى الفقرة السابعة [انظر ما سلف ص : ٥٠ ، ٥١] ، حين تحوّل من « علوى مطالب بنسبه » إلى « عربى نائر لأمته » .

وأختم قولى هنا بشيء لا يسوءنى ، ولكنى أعيبه على كثير ممن يكتب عن المنتبى ، حين يذكر أمر « العلوية » فيما يكتب ، كأنها مسألة مقررة متفق عليها فى الذى تلقيناه عن رواة أخبار المنتبى من القدماء ! فإذا بدا لأحدهم أن يذكر مرجعاً ، لم يذكر إلا مرجعاً نقل عنى هذا رأى واستخدمه فيما يكتب !! وأنا لا أبالى بهذا الإغفال ، لأن الإغفال لا يقدر فى عملى ، / وإنما يقدر فى فهمهم ! ولكن ، هكذا زماننا وأهله ، كما وصفته ، ووصفتهم فى أوائل هذه القصة .

(١) ناقش الأستاذ عبد الوهاب عزام فى كتابه عن المنتبى أخبار هذه النبوة ، فصار يتابعنى خطوة خطوة ، دون أن يشير إلى كتابى ! ولم يستكف ، حين ناقش هذا الخبر ، أن يأخذ عنى لفظ « الإقحام » حيث قال : « فدعوى النبوة فيه مسبوقه وملحوقه بدعوى العلوية ، وكأنها مقحمة فى الرواية » ، وعلى أنها عبارة سيئة ، فهى فعل سىء أيضاً !! وانظر هذا السفر ص : ٢٠٨ ، ص : ٢٠ ، ثم ص : ٢١٣ ، ص : ٧ .

(٣ ، ٤ ، ٧) الفقرة الثالثة والرابعة والسابعة

كانت « علوية » أبا الطيب فرضاً فرضته ، واستدللت عليه بأدلة يثبتها في كتابي ، ثم أصبحت الآن ، بحمد الله ، أشبه بالحقيقة كما رأيت آنفاً . وكان التناقض ظاهراً بين شخصيته التي يُكوّنُها تذوق شعره ، وبين شخصيته التي يدلُّ عليها تذوق أخباره ، فصار الفرض الذي فرضته قادراً على إزالة هذا التناقض ، وعلى كشف بعض الغموض الذي يحيط ببعض شعره وبعض أخباره . وكان من أخباره التي حيرتني أن أبا الطيب كان « يكتُمُ نسبه ويَطويه عن الناس » ، وكانت هذه حقيقة يدلُّ عليها تذوق شعره دلالةً بيّنة ، بل أكثر من ذلك : أن الشعر والأخبار جميعاً يدلّان على أنه كان يُسأل عن نسبه . أما شعره ، فيجيب سائله بالازدراء والازورار والتعالى والثقة ، وأن فخره بنفسه لا بجذوده ، وإن كانوا هم فخر العرب جميعاً ، وأشبه ذلك في مواضع متفرقة من شعره صغيراً وكبيراً . وأما أخباره ، فالسائلون عن نسبه يزعم كلُّ منهم أنه أجابه بجواب عن علة كتان نسبه ، وهي أجوبة متباينة غير مقنعة ، كما تراه في أخباره ، ولكنها تحمل أيضاً معنى الدلّ / والاستخذاء والحيرة ، وهو تناقض مُريب . هذا على أن « كتان النسب » ، هو في ذاته أمرٌ محيرٌ ، فإنني لم أجده مثيلاً أو شبيهاً في تراجم الشعراء ، ولا في تراجم الرجال ، لا في عصره ، ولا فيما قبل عصره . وإذا كان الكتان مما يجوز أن يفعله الرجل مرّة أو مراتٍ ، وهو يجوب البوادي ويطويها ، فإنه غير جائزٍ ولا مفهومٍ أن يفعله رجلٌ وُلد بمدينة كالكوّفة ، ونشأ بها ، وبقي فيها حتى بلغ السابعة عشرة من عمره ، فأهلها يعرفون من هو = فإذا ما نزل مدينة أخرى كالمدن التي أقام بها في الشام أو في العراق أو في مصر ، كتّم هذا النسب ، ولعل آفاً من أهلها ينتسبون إلى نفس القبيلة التي ينتسب إليها ، ولكنهم لا يكتمون أنسابهم كما يكتّم هو نسبه ، ولا يتخوف أحدٌ منهم تأراً ولا طائلةً من أحدٍ ، فأى شيء يلجئ إلى الكتان ؟

كان هذا « الكتان » غريبة من الغرائب ، ولم يصبح جائزاً أو مفهوماً إلا مع الفرض الذي فرضته . فكذلك صار كتان أبي الطيب نسبه « العلوية » ، وصارت أسبابه

وعلله ، جزءاً لا يتجزأ من شخصية أبي الطيب ، لأن النسب « العلوي » ليس عارضاً يزول بزوال أسبابه ، بل هو لاحق لمن وُلِدَ « علويًا » ، وهو قائمٌ أبداً في نفس صاحبه لا يزايئه ، سواءً عادى « العلويين » وكرههم ، أو صادقهم وأحبهم . فإذا كان صاحبه مرغماً على إخفائه وكتمانه ، ولكنه مُصِرٌّ إصراراً على محاولة إظهاره ، كما فعل أبو الطيب ، ثم طوّفته أغلالٌ تُؤوده ، فلا شكَّ عندئذ في ظهور أثر هذه المعاناة في حياته وفي شعره خاصةً .

٨٣ م / وعلى ذلك ، فقد صار لزاماً عليّ أن أعود فأرتب شعره كله منذ سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، وهو القسم الأول من الديوان ، ترتيباً جديداً يجعل حركة وجدانه في شعره متسقةً مفهومةً ، على اختلاف أحواله ورحلاته في مدة تزيد على عشرين سنةً من حياته . فلما فعلت ذلك ، تبين لي ، في إعادة قراءة الديوان ، أن أكثر الغوامض المبهمة في ديوانه قد تبددت وزالت ، وتجلت لي شخصية أبي الطيب واضحةً ، وصارت حركة وجدانه في شعره ظاهرةً متسقةً في ترددها بين الثورة والخمود حيناً ، وبين الأمل واليأس حيناً آخر ، تبعاً للأحداث التي مرَّ بها في خلال عشرين سنة ، وهي أحداثٌ لا نكاد نجد في تراجمه خبراً يدلُّ عليها ، وإنما يستنبطها تذوق شعره لا غير . وعندئذ تبين لي سياق هذا « الكتان » الذي لا أجده له شبيهاً أو مثيلاً في عصره ، فإنَّ أبا الطيب وُلِدَ بالكوفة في ديار العلويين ، وبقي بها حتى كبر ، وفي سنة ٣١٧ تقريباً مدح علويًا مدحاً يدلُّ على شدة التعلُّق والحبِّ وحفظ جميل أياديه عليه ، [انظر ما سلف قرياً ص : ٥٧ ، ٥٨] . ثم علم بعد زمانٍ من جدته أمر « علويته » ، فقلق وأنف أن يبقى أمرها مكتوماً ، ولكنه لم يستطع إلا أن يفارق الكوفة إلى الشام في أواخر سنة ٣٢٠ ، وحاول أن يظهر أمر « علويته » ، فجمع جمعاً من المقاتلة تنصُرُه على إظهار نسبه العلوية ، فأخذ وسُجِنَ .

٨٤ م وهو حين دخل السجن في سنة ٣٢١ ، إنما دخله « علويًا » مُطالباً بإظهار نسبه إلى « العلويين » ، وكان الذين أدخلوه السجن وقيدوه وآذوه / وسأموه الخسْف جماعةً من « العلويين » . والذي لقيه من السجْن وفي السجْن على أيديهم ، كانت قسوته وشراسته

كافيةً في تذكيره بقوة هؤلاء « العلويين » . فلما أُطلق سراحه وخرج في سنة ٣٢٣ ، خرج من السجن « علويًا » كارهاً للعلويين مُزورًا عنهم ، أو كما يقول ابن العديم : خرج « مخالفًا للشيعة » ، وأضمر هذه الكراهة وانطوى عليها .

ولكنَّ جدته استدعتُه بعد ذلك إلى الكوفة ، فترك الشام ، سنة ٣٢٥ تقريباً ، وبقي بالكوفة زمناً ، ولكنه أكره على الخروج منها ، فعاد إلى الشام في سنة ٣٢٦ ، نائراً يائساً ، يملأ شعره تهديداً ووعيداً ، ولكنه لا يملك إلا « الكتمان » ، وما هو إلا التلويح دون التصريح ، فلم يأت في شعره الذي قاله منذ سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٣٥ لا للكوفة ولا للعلويين ذكراً ، ولا لمطالبته بإظهار نسبه بياناً .

ثم إذا بنا نفاجاً في سنة ٣٣٥ ، بشعر فيه تهديدٌ ووعيدٌ ومطالبة ظاهرة ، وذلك حيث خالف سنة الشعراء ، فافتح مديح على بن سيّار بن مكرم التميمي ، بمدح نفسه أولاً ، في قصيدته التي أولها :

أقلُّ فعالي ، بله أكثره ، مجدُّ وذا الجدُّ فيه ، نلتُ أو لم أنل ، جدُّ
سأطلبُ « حقِّي » بالقنا ومشايخ كأنَّهُم من طول ما ألتُموا مُردُّ (١)

/ وهذا سَعَى وعملٌ وتهديدٌ ووعيدٌ ، وأنه سوف يطلب حقه بالسيف . ثم نفاجاً م٨٥
مرة أخرى بذكر « العلويين » في سنة ٣٣٦ ، بعد مضيّ ثلاث عشرة سنة ، منذ خرج من السجن سنة ٣٢٣ ، وأنَّ العلويين كانوا قد أعدوا له السودان بكفر عاقب ليقتلوه ، وهو في طريقه إلى ابن طغج ، [انظر ما سلف قريباً ص : ٥٢] . ولا نكادُ نعلم لذلك سبباً البتة في أخباره ، لم فعلوا ذلك ؟ بيد أن قصيدته التي قالها في رثاء جدّته ، تكشف الثّقب عن هذه الحادثة وتدُلُّ عليها وتفسرُها .

وذلك أن جدّته أرسلت إليه قبل ذلك بسنة تقريباً ، سنة ٣٣٥ ، تستجفيه وتشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها (من عشر سنوات ، سنة ٣٢٥) ، فتوجه إلى

(١) راجع القصيدة في ديوانه ، فهي كثيرة الدلالات على ما نقول .

العراق ، فمنعه « العلويون » من دخول الكوفة ، فأرسل لها كتاباً يسألها المسير إليه ، حيث مُنع وحُيس عن دخول الكوفة ، فقَبِلَت الكتاب وفرحت فرحاً غامراً ، فلما أرادت أن تفعل ، أبلغها العلويون أنه قد مات ، فحَمَّت وماتت غمًّا . وملاً أبو الطيب مرثيته لجدته بمعانٍ كثيرة ، يُفسِّرها ويكشف غموضها الفرض الذي كنت افترضته ، والذي صار الآن أشبه بالحقيقة كما قلت .

وتَمَّ الأَحْدَاثُ بعد ذلك ، والنسب المكتوم يحرِّك وجدان أبي الطيب ، وتتحوَّل شخصيته تحوُّلاً ظاهراً غريباً بعد ذلك ، كما سَأَفَسَّرُه ، ويبقى منعه من دخول الكوفة ، الذي أدَّى إلى وفاة جدته ، كامناً يحرِّك وجدانه ، حتى إذا كانت سنة ٣٥١ ، أى بعد ست عشرة سنة ، حين خرج من مصر ، / وقطع الفيافي والفلوات حتى بلغ الكوفة ، فدخلها ظافراً مُراعِماً للعلويين الذين سَأَمُوهُ الخسف من قديم ، فلم يكد يدخلها حتى

٢٨٦

قال :

فَلَمَّا أَنْخَنَا رَكَزْنَا الرُّمَّا حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى
وَبِنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا ، وَنَمْسُحُهَا مِنْ دَمَائِ الْعِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ، وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ ، أَنِّي الْفَتَى
وَأَنِّي وَفَيْتُ ، وَأَنِّي أَبِيتُ ، وَأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ، وَلَا كُلُّ مَنْ سِيَمَ خَسْفًا أَبِي

وهذا بيِّنٌ جدًّا ، كما ترى . ولكن ولكن لم يكن « كتمان العلوية » هو وحده سرُّ الفقرة الثالثة من عمود صورة أبي الطيب ، بل كان له قرينٌ آخرٌ لا يقلُّ عنه قُوَّةً وتحريكاً لوجدانه في شعره كُلُّه ، بل لعلَّه كان أقوى منه وأعَمَقُ أثرًا في حياته .

فالمتنبي ، قد وُلِدَ بالكوفة سنة ٣٠٣ وبقي بها إلى أن جاوز السابعة عشرة من عمره سنة ٣٢٠ تقريباً ، وقال الشعر صغيراً ، من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٠ . ومع ذلك ، فالذي أثبتته في ديوانه من شعرٍ قاله في مدة مُقامه بالكوفة صبيًّا لا يزيد على ٩٤ بيتاً : سبع مقطوعات عدد أبياتها ٣١ بيتاً ، وقصيدة تفكَّه بإثباتها في شعره متندراً برجل

كوفى يدعى الفلسفة وأبياتها ٢٠ بيتاً ، وقصيدته التي مدح بها العلوي الكوفي ، وهي ٤٣ بيتاً . وهذه القصيدة والمقطوعات السبع ، تدلُّ جميعاً على همّة متميزة في إتقان الشعر / منذ هذا الزمن المبكر ، وتدللُّ أيضاً على همّة عالية موفورة الجدِّ ، وعلى ثقة شامخة ^{م ٨٧} بالنفس ، وعلى طموح بعيد لا يتردد . ومع ذلك ، فهذا الشاعر المتقن العالى الهمة الطموح والواثق بقدرته ، لم يحركه ما حرك معات من أقرانه الشعراء وغير الشعراء ، إلى فراق الكوفة الصغيرة الفقيرة تطلُّعاً إلى المجد والشهرة والصيت في بغداد عاصمة العواصم ، ومقر الخلافة ، ومجتمع أصحاب السلطان والثروة والجاه .

لا ، بل قد دخل بغداد ، حدثنا هو بذلك في خبر روى عنه ، ذكرته في هذا السفر [١٩٢ - ١٩٤] ، وحدثنا به ابن جني أيضاً فقال : أخبرني بعض أصحابنا قال : جىء بالمتنبي = يعنى شاعرنا = إلى أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، فقيل : إنّه شاعرٌ . فقال : أنشدنا ، يا فتى ، شيئاً من شعرك . فأنشده المتنبي :

مِثُّ إن لم تأخذوا بدمي ، يا لَقَحَطَانِي وَيَعْرِيَّة

قال : فمسح ابن دريد يده على رأسه وقال : لا ، بل نأخذ بدمك . (١)

وابن دريد كان ببغداد سنة ٣٢١ ، وكان دخول المتنبي بغداد ، كما استظهرته في كتابي ، سنة ٣١٩ ، أو ٣٢٠ . [انظر هذا الفرص : ١٩٧] . ومع أنه دخل بغداد وهو شاعرٌ ^{م ٨٨} طموح يريد أن يتألق ، فإن عظمتها وفتنتها لم تأخذ بلبه ، ولم يفكر ساعة في المقام بها يزاحم شعراءها الكبار الذين حازوا مجدهم ببغداد ، وفارقها إلى الشام ، لا « علويّاً » يطالب بإظهار نسبه فحسب ، بل فتى « عربيّاً ثائراً » منكرّاً للذي رآه في بغداد من استيلاء الأعاجم على سلطان الخليفة العربيّ وتحوّلهم له حتى تركوه بلا سلطان ، وكأنه

(١) هذا الخبر نقلته من مجموع أوراق لابن جني ، محفوظ بالأسكوريال تحت رقم : ٧٧٨ باسم « كتاب مجموع في علم البلاغة » . وهذا البيت ليس في ديوانه ، ولا في زوائد الراجكوتى ، وهو من شعر صباه الذى أسقطه المتنبي من ديوانه أو نسيه .

بعدئذ جعل إظهار علويته وسيلةً يتذرعُ بها لجمع الجموع ، ويشاركُ في هذا الصِّراعِ على السلطان ، فلعلَّه يصيبُ نجاحاً . وهو ، لعرويته وعلويته ، أخلقُ من هؤلاء بالسلطان .

وأنت إذا قرأت القصيدة الثانية عشرة في ديوانه ، بعد التسع التي ذكرناها آنفاً [ص: ٦٤، ٦٥] ، تراها دالةً على هذه المعاني ، وقالها قبل أن يقبضَ عليه ويسجن ، فهو يذكر فيها رحلته من الكوفة إلى بغداد إلى الشام ، وإقامته بأرض نَحْلَةَ « كمقام المسيح بين اليهود » ، ويذكر إعداد نفسه للقتال ، وأنَّ فضله الذي يفضُّله على الناس لا يقنع « بعيش معجَّل التنكيد » ، ويحدِّث نفسه بالعزِّ والعلبة ، ويحدِّث عن شرفها المُعْنِيهِ عن الفخر بالجدود ، وهم فخر الناس جميعاً ، ويقول :

عِشْ عَزِيْرًا ، أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ بَيْنَ ظَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُوْدِ
فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظْيِ ، وَدَعْ الدُّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُوْدِ

إلى أن يقول :

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا ، فَعُجِبُ عَجِيْبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْدٍ

٢٨٩ / ثم لا يزال الأمرُ به حتى يدخل السِّجْنَ ، ويعلم علمَ يقينٍ أن أمرَ إظهارِ علويته مرة أخرى ، دونه متالفٌ وسدودٌ ، فلا يزال يتردُّ بين الرجاء واليأس من ظهورِ علويته منذ خرج من سجنه ، ولكنه لم ييأس من أن يجد في أصحابِ السطوة والشوكة عربيًّا يَشْفِي ما في نفسه من الغيظ على الأعاجم الذين استفحل سلطانهم على الخلافة ، وخاصة منذ رأى الفتى العربيَّ الثائر الذي أوقع بعمر بن حابس من بني أسد ، وببني ضَبَّةَ وبني رياح من تميم ، والذي أثار إعجابَه ، فقال فيه قصيدة لم ينشدها بين يديه ، وإنما بقيت محفوظة عنده ، حتى أثبتتها في القسم الثاني من ديوانه . [انظر ما سلف ص: ٣٨ ، والتعليق هناك] كان ذلك في سنة ٣٢١ قبل سجنه ، وكان الفتى هو سيف الدولة في أوَّل نشأته ، فقال له :

وَتَعَدَّرُ الْأَحْرَارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا ، إِلَّا إِلَيْكَ ، عَلِيٌّ ظَهَرَ حَرَامِ
(أَنْتَ الْعَرَبِيُّ) فِي زَمَانِ أَهْلِهِ وَوَلِدَتْ مَكَارِمُهُمْ لَغَيْرِ تَمَامِ

وتمضى الأيام منذ خرج من السجن ، « والعلوية » و « العربية » معاً تحركان وجدانه اشتعالاً وتحموداً ، فلا تكاد تخطيء في شيء منها حديثاً عن نفسه ، وعن بعضائه للأعاجم ، وعن حُبِّه للعرب . فما يلقي من أحدٍ إلا وهو يفتش فيه عن هذا المأمول الذي يثير وجدانه ، ثم يبلغ أقصى توهُجِه ، في سنة ٣٢٦ ، حين يجده في العربيّ « بدر ابن عمار بن إسماعيل الأسديّ » وإلى طبرية ، فيحمل شعره في بدر ، نفس ثورة الوجدان التي تلقاها عند لقائه سيف الدولة العدويّ العربيّ سنة ٣٣٦ ، بعد أن حنَّكته التجارب .

٢٩٠ / وكانت سورة نفسه في العهدين ، سورة رجلٍ سياسيٍّ عربيٍّ يرقب ما يحيط به ، ويطرح على الرجل العربيّ الذي يؤمله ، ويؤمل بلوغ أمله في سطوته وشوكته = كَلِّ ما في نفسه من أهدافٍ تحددها له عُروثه واعتزازه بها . إلا أن الفرق بين العهدين واضحٌ جداً ، لأنَّ شعره في سيف الدولة ، لم يكن قاصراً على هذا وحده ، بل كان يتجاوز حدود هذا الإحساس الكامن فيه ، إلى الإحساس بالملحمة القديمة التي بدأت منذ عهد رسول الله ﷺ ، بين النصرانية الرومية ، والإسلام ، والتي ظلت تتصاعد على ثغور الشام شيئاً فشيئاً ، حتى كان زمن سيف الدولة ، فظهرت ظهوراً بيناً ، تحلَّد المتنبي ملحمة العظيمة في شعره الذي قاله في عشر سنوات ، (من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦) عند سيف الدولة . (١)

ومعنى ذلك أن أبا الطيب ، قبل أن يلقي سيف الدولة في سنة ٣٣٦ ، كانت همومه تتنازع ، بين « علويته » التي يكتُمها مرغماً ، والتي كانت تُوهله ، لو أطاق ، أن يدفع عن دولة العرب سلطان الأعاجم = وبين آماله في أن يجد عربياً ذا سلطانٍ وشوكةٍ وطموح ، يحقق له ولأمته ما لا يطيقه هو من القضاء على سلطان الأعاجم .

(١) حروب سيف الدولة في ثغور الشام ، هي طلائع « الحروب الصليبية » التي بلغت مداها في أول حملة

صليبية سنة ٤٨٩ هجرية ، أي بعد قرن ونصف تقريباً .

فلما لقي سيف الدولة ، ونزل من نفسه المنزلة التي نعرفها ، وأقام معه عشر سنوات من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ ، اندمج الأمران فصارا هَمًّا / واحداً وأملاً واحداً ، وأصبح أبو الطيب شخصية « سياسية » ذات آمالٍ كبيرة تحركه ، وقد بينت ذلك في الفصل الثاني عشر من كتابي ، [هذا السفر ص : ٣٠١ - ٣٣٢] ، ومواضع أخرى كثيرة من الكتاب من أوله إلى آخره ، تدلُّ على هذا أو تُتَّصَلُ به .

(٥ ، ٨) الفقرة الخامسة والثامنة

وأما هاتان الفقرتان من « عمود الصورة » وهُمَا تتضمنان البيان عما يحركه من عواطف الحب التي لا يخلو من جميعها بشرٌ ، فإنني وقفتُ على جميعها بتدوَّق شعره لا غير ، ومراقبة حركة وجدانه تبعاً لحركتها حِدَّةً أو فتوراً . أما الأخبارُ عن ذلك ، فليس في أيدينا شيءٌ يؤيِّدها ، أو يهدى إليها .

ومن أوَّل ذلك ، ما استخرجته استخراجاً من أن أبا الطيب كان يحبُّ خولة أخت سيف الدولة ، وقد ذكرتُ بعض حُجَّتِي فيه في الباب الثالث عشر [هذا السفر : ٣٣٣ - ٣٥٥] ، منذ كان أبو الطيب في جوار سيف الدولة ، ثم بقاء هذا الحبِّ عاملاً ظاهراً في شعره بعد فراقه في سنة ٣٤٦ ، ثم ما بعد ذلك مُدَّةَ إقامته عند كافورٍ ، ثم فراقه كافوراً إلى العراق ، ثم إلى فارس ، إلى أن قتل .

/ وهذا الذي استنبطته بالتدوَّق ، كان كثيراً جداً ، ولكنني اختصرته اختصاراً في كتابي ، ومع ذلك فإنه قد يسرُّ لي أن أقرأ شعر أبي الطيب كُله منذ نشأته قراءةً تكشف عما كانت تكنه نفسه من هذه العواطف الإنسانية ، في مطالع قصائده منذ شبابه ، وفي ثنايا حكمته التي يضمنها شعره ، ولا يبدو لأوَّل وهلة أنها من أثر هذه العواطف التي تحرك وجدانه . وقد لخص الرافعي ، رحمه الله ، رأيه فيما كتبتُ في كلمته في الرسالة حيث يقول : « والأدلة التي جاء بها المؤلف ، تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي .

ومتى لم يستطع المرء نفيًا ولا إثباتًا في خبر جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعَدُّ . [هذا السفر : ٥٧٩] .

ومضت سنواتٌ طوالٌ منذ صدر كتابي عن أبي الطيب ، وكاد هذا الفرض المستنبط أن يفوز بما يؤيده من الأخبار المروية ، كما فاز فرض « العلوية » بما يؤيده كما عرفت قبل [انظر ما سلف ص : ٥٥ ، ٥٦] . فقد دَخَلَ علينا في المجلس ليلاً صديقي الكريم الدكتور محمد سامي الدهان ، وذلك قبل مرضه الذي لم يُفْلِتْهُ حتى قَضَى نَحْبَهُ في يوليو سنة ١٩٧١ ، وكان عائداً من إحدى سفراته في البلاد التي تحوى المخطوطات العربية التي وقعت في أسر الأعاجم ، ولم يكد يجلس حتى قال : بُشْرَى ! بُشْرَى عظيمة ! وبدأ يتحدث عن سَفَرْتِهِ ، وأنه كان قد نَوَى العودة إلى دمشق = ، ولكن شيئاً جديداً قد ثَنَى عِزْمَهُ وأرغمه على أن يقطع هذه النية ويعرِّج على مصر . وذلك أنه قد ظفر بنصٍّ يؤيدني كَلَّ التأييد في مسألة حبِّ أبي الطيب حَوَلَةَ أخت سيف الدولة ، وأنه / سوف يعود إلى دمشق ، فيرسل النصَّ كله مصوراً . وتشعب الحديث بين أهل المجلس وطال ، وحان وقت انفضاضه ، وودَّعته دون أن أعرف منه شيئاً يُفيدني اليوم . وعند وداعه كرر أنه سيرسل النصَّ مصوراً ، ورحل إلى دمشق في اليوم التالي . ومضت الأيام . ومرض ، وجاء بعد ذلك نعيه ، وفقد أهل العلم رجلاً كبيراً من العلماء ، وفقدته أنا معهم ضعفين من الفقد ، وقدَّر الله أن يبقى هذا الاستنباط فرضاً مبنياً على تذوق الشعر ، حتى يكشف اللثام عن سرِّ خبرٍ من الأخبار ، وندعه حتى يكون ، وهو كائنٌ إن شاء الله .

أما عاطفة الحبِّ التي تتمثل في عواطف الناس على اختلافهم فطرةً فطروا عليها ، فإن أظهرها ظهوراً حُبُّه لجدته التي كفلته يتيماً ونشأته وسدَّتْ خُطَاهُ ، وكشفت له عن سرِّ مولده « علويًا » ، يوم أطاق أن يحمل السرِّ . وكان من عمق هذا الحبِّ في نفسه : أن ترك آثاره مكظومةً في ألفاظ شعره ، يتبينها المتذوق من وراء هذه الحجب . فلما ماتت وراثها بقصيدته الميمية ، مهَّد لي تذوقها أن أعرف مقدار الصِّدْقِ في عواطف أبي

الطيب ، وأن أقف على أسلوبه في الكشف المثلث عن هذه العواطف ، (١) وعندئذ
تمكنت من استخراج الدلالة من شعره على زواجه [الباب السابع ص: ٢٢٩، وما بعدها] ، وعلى تاريخ
ولادة ولده « محسّد » سنة ٣٢٦ [ص: ٢٤٠] ، / ثم ما كان من مرض زوجته وموتها في سنة م ٩٤
٣٣٧ [ص: ٣١٨-٣٢٢] ، وأشياء أخرى كثيرة تراها مفرقة في الكتاب .

(٦) الفقرة السادسة

كان أبو الطيب قد أتمّ الثالثة والأربعين من عُمره ، حين عزم على فراق سيف
الدولة = لم يفارقه مختاراً لفراقه ، فإن سيف الدولة كان مثلاً حياً لكل ما كان مكتوماً
في نفسه من الآمال والأحلام . وفي السنوات العشر التي لازمه فيها كان يزداد له محبةً
وتوقيراً ، وأفضى كُل واحد منهما لأخيه بأسراره وغاياته في الحياة السياسية التي
قامت على « دولة الخدم » من الأعاجم . ولم يكن مقامه للمال ، كما يقول ذلك من
يقوله ، وقد دلّتنا سيرته كلها على أنه إذا لقى العربيّ الرجل الذي يتوهم فيه آماله
وأحلامه ، لم يبالي بالمال أو (طلب المعاش) ، بل ببلوغ الآمال أو (طلب المعالي) ، كما
بينتُ ذلك في مواضع من كتابي [هذا السفر: ٣٠٤-٣٠٥] ، بيد أن « الوشاة » و « الحساد » ، قد
أكثروا السعاية في حقّه ، حتى ظنّ ظناً بلغ اليقين أن قلب سيف الدولة قد تغير عليه ،
وكان هو بطبيعته شديد التوجُّس ، وكان حبُّ « خولة » قد بلغ به شفاهاويةً بسعاية
الساعين والكائدين ، وبلغ منه هواها ذروةً شامخةً محلقةً يضيقُ بها صدره كأنما م ٩٥
يصعدُّ في السماء ، / [هذا السفر: ٣٥٧ وما بعدها] ، فاتخذ الليل مركباً وطار إلى دمشق ، وكأنه
يقول لنفسه ، ما قاله بعد ذلك بسنوات :

ضربتُ بها التّية ضربَ القمّارِ : إمّا لهذا ، وإمّا لئذا

(١) انظر الباب الثاني ص: ١٦٣ ، والرابع ص: ١٨١ ، والباب العاشر ص: ٢٧٣ ، ومواضع أخرى

إمّا راحة النسيان ، وإمّا راحة الهلاك ! أصيبَ الرجل في هوى قلبه ، وفي آماله السياسية ، وفي الرجل الذي لا يجد له شبيهاً أنى تلفتت خبرته بالرجال والأعمال ، وداخله اليأس ، وتمنى الهلاك ، ومات اللهب في نفسه ، ورمته البوادي والفلوات إلى أرض مصر ، وإلى كافور ، فلم يملك إلا أن يستقبله بما في نفسه ، فابتدأ قوله حين لقيه :

كَفَى بكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيْتَهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَى ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

ومنذ ذلك اليوم وآمال أبو الطيب كلها تتقلص ، وكل يوم يمضي بقطعة من نفسه ومن آماله تقع في حوزة الأمس الذي لا هو يرُد ولا هو يُسْتَرَدُّ . ذهب أبو الطيب الأول ، وجاء أبو الطيب الثاني ، فكان يرى ذلك رأى العين وهو يكظم في نفسه كظماً يذيب القلوب ، « فأين الشباب ، وأين الزمان ! » . وبقي على ذلك في مصر حبيساً في قبضة كافور من جمادى الأولى سنة ٣٤٦ إلى أواخر سنة ٣٥٠ . وفي هذه المدة صار شعر أبي الطيب نمطاً آخر غير النمط الذي كان أولاً مع بدر بن عمار الأسدي ، ثم تمّ تمامه مع سيف الدولة . ولكنه كان قد صار شاعراً محنكاً معقداً / المهارة في صياغة معانيه وألفاظه ، يحتاج تذوقها إلى خبرة بأساليب صياغته كلها ، منذ بدأ الشعر فتى جاداً قليل الإغضاء عن التجويد ، ثم شاباً كثوماً يزلزله ما يكتمه ، ثم مكتهاً يتفجر الشعر منه مغموساً في صبغ الحوادث التي تمر به ، فلا هي تحول ألوانها ، ولا هو ينساها أو يغفل عن آثارها في نفسه .

والآن سقط وحيداً في تيه العربة ، عاد غريباً كما بدأ ، ولكن شتان !!! فهو يقول في غربة الصبي البعيد ، واثقاً مدلاً متحدياً :

أَنَا فِي أُمَّةٍ ، تَدَارَكَهَا اللَّهُ ، (غريب) كصالح في ثمود

وهو اليوم في غربة الكبر ، أواخر عهده بمصر وكافورها ، يقول متحيراً ضائعاً مستسلماً :

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنٌ
أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ فِي نَفْسِهِ الزَّمَنُ

وإذا كان ، وهو في صباه قادراً على أن يخرج من بغداد ممتلياً النفس قوةً وتحدياً ،
حين سمع وسمع الناسُ أحدَ المماليك قادة الأعاجم ، قد وضع التاج على رأسه مكللاً
بالدُرِّ والياقوت ، وجلس على سرير من فضةٍ حوَالِيه الذهب مرصعاً بالجواهر ، ويقول
للناس متكبراً متجبراً : « أنا أُرِدُّ (دولة العجم) وأبطل (دولة العرب) » ، (١) وإذا كان
يومئذ قادراً على أن يرُدَّ على كلمته / هذه في شعره ثائراً مهذداً متوعداً هازئاً :

٩٧ م

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مَنِي مِثْلَ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبْرِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظَرِي حَتَّى أَدْلْتُ لَهُ مِنْ (دَوْلَةِ الْخَدَمِ)

.... فالآن ، مريداً أو غير مُريد ، يجد نفسه لساناً ناطقاً في « دولة الخدم » ،
ويتورط في المحنة تورطاً مؤيساً ، في طريق طويل من أوّل مقدمه على كافر سنة ٣٤٦ ،
إلى أن ينتهي عند عضد الدولة الدَّيْلَمِي في سنة ٣٥٤ ، ويختم شعر هذه السنوات المذلة ،
باليأس والضيق بهذه النَّفْثَةِ ، [وهي آخر ما قاله أبو الطيب] :

إِذَا أَسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ
وَأَنْتِ شِعْتِ ، يَا طَرْقِي ، فَكُونِي ، أَذَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكَ

كان داؤه فراق (دولة العرب) تحت ظل سيف الدولة ، فطلب البرء والشفاء في
(دولة الخدم) ، فإذا هو داء لا شفاء ، وكان أقتل الداعين ! وألقى يومئذ السلم ، مُدْعِناً
ضارعاً منقاداً لما تأتي به المقادير .

لذلك ، فقد كان شعره في هذه السنوات التسع الأخيرة من عُمره مختلفاً كل

(١) هو « بحكم التركي » ، قال ذلك في حوالى سنة ٣٢١ أيام كان المتنبي ببغداد . انظر كتاب الأوراق

للصولي ، في أخبار الراضى ص : ٦٢ .

الاختلاف من جميع شعره ، مابيناً له في الصياغة ، حافلاً بمهاراتٍ لا يطيقها إلا قلة من الشعراء الكبار ، ثم لا تتأتى لهم إلا حين يقعون في المحنة المحرقة ، بين وجوب الكتمان وضرورة الإفصاح = بين ما يُظنونه في أغوار أنفسهم ، وما يظهرونه فيما يجري على ألسنتهم . وشعر هذه السنوات / التسع ، لم يقرأه أحدٌ بعناية كافية ، وكل ما خرج به قارئو شعر المتنبي هو هذه القضية الرثة السخيفة : أن المتنبي مدح كافوراً ثم هجاه ! وأشبه ذلك من القضايا المستبردة الهالكة ، يتعالم بالحديث فيها دفاعاً عنه أو قدحاً فيه من يتعالم . وشعر أبي الطيب في هذه السنوات ، كان خلاصة تجاربه في حياته ، وجماع معرفته بالرجال والأمم ، وثمره ناضجة قد استمدت إثناءها ونضجها ومذاقها من حياته كلها ، منذ كان صبياً إلى أن بلغ ما بلغ ، حيث وقع التناقض بين آماله التي عاش بها وفيها أكثر من ثلاثين سنة (٣١٤ - ٣٤٦ هـ) ، وبين الواقع الذي يصبح فيه ويُسمى ، وهو في قبضة (دولة الخدم) أتى ذهب .

كانت ألفاظ شعره هذا تحمل كل ما يتكتمه من الكراهة والازدراء والاستنكاف مما هو فيه ، وإن كان ظاهرها يخدع سامعه عن حقيقة ما يكتمه . وقد استوقف هذا الشعر ، في حياة أبي الطيب نفسه ، بعض سامعيه أو قارئيه ، كابن جنى وغيره . فإن ابن جنى كان يقرأ على المتنبي شعره في كافور ، فرمما وقف على البيت من المدح قد انطوى على معنى من الهجاء ، فيضحك ابن جنى ، ويضحك المتنبي لأنه كان يقصد به الهجاء . والمتنبي قد أغنانا عن هذا بقوله في كافور ولقبه « الكركدن » ، [وهو حيوان عظيم الجثة ، قصير القوائم ، غليظ الجلد أسوده ، له قرن واحد ، وهو الخريت ، وحيد القرن ، شبه الأسود كافوراً به] :

وشعري مدحتُ به الكركدن بين القريض وبين الرقي

وما كان ذلك مدحاً له ، ولكنه كان هجواً للورى

/ وقد بلغ أحد المتأخرين الغاية في ذلك ، وهو عبد الرحمن بن حسام زاده الرومي /
(أى التركى) (١٠٠٣ - ١٠٨١ هـ) ، فقد ألف كتاباً سماه : « رسالة في قلب

كافوريات المتنبي ، من المدح إلى الهجاء » ، ونشره الدكتور محمد يوسف نجم . ومؤلف الكتاب تركيُّ أجاد العربية ونخالط أهلها طويلاً ، وقد كان حيث نزل في حلب والقدس ودمشق والقسطنطينية مألماً للأدباء ، وله ألف يوسف البديعي كتابيه : « ذكرى حبيب » و « الصبح المنبى ، عن حيثية المتنبي » . وقد استقصى المؤلف مدائح كافور قصيدة قصيدة ، فبين ما يضمُّه المتنبي من الذم لكافور ، وإن كان ظاهر اللفظ يوهم المدح . وهو كتابٌ غريبٌ فريدٌ . أجاد المؤلف فيه مع سوء عبارته ، وأصاب الصواب من وجهه ، وأخطأ من وجه آخر . وقد أشرت قديماً إلى المعنى الذى قصده المؤلف فى كتابى هذا ، [١٩٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ - ٣٦٦] .

ولكن القضية ليست محصورة فى ألفاظ قصدها أبو الطيب قصداً ، وجعلها رموزاً لها ظاهر مكشوف ، وباطن مضمّر ، بل القضية فى صياغة شعره فى حقتين متباينتين : تَرَكَتْ كُلَّ حَقْبَةٍ مِنْهُمَا أَثَرَهَا الْوَاضِحَ عَلَى صِيَاغَتِهِ وَالْفَاضِلَ بِلَا قَصْدٍ مُتَعَمِّدٍ ، يستطيع المتذوق أن يميّزه تمييزاً واضحاً ، لأنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا خَرَجَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ جَمِيعَةً ، مصبوغاً بصبغة الحقة التى انغمست فيها انغماساً إلى الأعماق . كان شعراً يَفْصِمُ كُلَّهُ عَنِ نَفْسٍ مُتَطَلِّقَةٍ مُتَهَلِّلَةٍ وَاثِقَةٍ ، تستخفُّها الآمال والآلام والأحزان ، ماضيةً إلى فضاءٍ فسيحٍ تبسطه البهجة المنيرة من شمسٍ مُشْرِقةٍ = فإذا به يَفْصِمُ عَنِ نَفْسٍ مُتَقَبِّضَةٍ كَثِيَّةٍ يَائِسَةٍ ، تُوَوِّدُهَا الْآمَالُ وَالْآلَامُ وَالْأَحْزَانُ ، دالفةً إلى أفقٍ ضيقٍ يقبضه / الكمد المظلم من شمس غاربة . ومن لم يُعْطِ هذه القضية حقها من الأناة والتأمل عند تذوق شعر أبى الطيب فى هذه السنوات التسع الأخيرة من حياته ، لم يظفر بطائل ، ووقع فى غثائفة الدراسات التى لا تفرّق بين تذوق الشعر ، وبين التلمّظ بالكلام ومضغه ، تعالماً بحتاً !! و « المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زورٍ » ، كما جاء فى الحديث .

وفى كتابى هذا لم أستطع أن أوفى هذه القضية حقها كتابةً ، لأنى قطعْتُ هذه

السنوات التسع في نحو ثمان وثلاثين صفحة من الكتاب ، (١) فإنني كنت في عجلة من أمرى حتى أفرغ من الكتاب في ميقَاتٍ محدِّدٍ ، كما قلت آنفاً ، وكنت قد نويتُ أن أعود فأكتب عن المتنبي كتاباً كبيراً آخر ، على هذا السياق الذي التزمته في كتابي هذا ، ولم أف بما عقدت عليه نيّتي ! إلا أن الذي كنتُ قد استفدته من تذوق شعره في هذه السنوات التسع ، كان هو في الحقيقة أقوى مُعين لي على تصفية تذوق لشعره الذي قاله قبل ذلك ، وعلى التعبير عن التذوق تعبيراً سهلاً متساوياً يفضي إلى انسياب حركة تخطيط صورة المتنبي ومعارفها وقسماتها ، وهي تتخلق حول « عمود الصورة » . فمن أجل ذلك ، لم تكن هذه الفقرة السادسة ظاهرة كل الظهور في الذي كتبتُه ، وإن كانت آثارها في الكتاب ، وفي الأبواب الثلاثة الأخيرة ، دالة على الأصل بعض الدلالة .

هذه هي الفقرة الثمان التي استوت لي منها شخصية أبي الطيب ، عن / منهج م ١٠١ محدِّدٍ في تذوق الشعر ، كلُّ فقرة منها لا تقوم وحدها معزولة عن الأخريات ، بل كانت كلُّ فقرة منها متأثرة بأخواتها ومؤثرة في سائرهما تأثيراً بالغ التعقيد ، فقربت الأمر وبسرتُه بالحديث عن كلُّ فقرة على حدة ، ليكون قارئ كتابي بعد ذلك متخففاً من كل مؤونة تُعوقه أو تنقل عليه .

العَمَرَاتُ ، ثم يَنْجَلِينِ !

حين خرج عدد المقتطف [يناير سنة ١٩٣٦] ، متضمناً كتابي عن « المتنبي » ، كنت مطيةً لحُمى عنيفة هوجاء ، فلما أقلت عنى وبدأت أفيق من بُرحائها ، كان أول ما قرأته عن كتابي هو كلمة الرافعي رحمة الله عليه ، منشورة في مجلة « الرسالة » ، [ص : ٥٧٧ - ٥٧٩] . هزنتني هذه الكلمة هزاً شديداً عند أول قراءة ،

(١) من الباب الرابع عشر إلى السابع عشر من ص : ٣٥٧ إلى ص : ٣٩٢ ، آخر الكتاب .

ففرغتُ منها وأنا لا أدري على الحقيقة ماذا قال الرافي . كنت في مَيْدِ الإِفاقةِ من الحمى ، [المَيْدُ : دوازٌ يميد بالرأسِ مصحوبٌ بالحيرة ، كالذى يجده السكران أو راكب البحر من الاضطراب] ، فجاءَ معه فرحٌ غامرٌ فمادَ هو بي أيضاً حتى أعمانى عن معانيها . كنتُ في السابعة والعشرين من عمري ، وكنت كاتباً مغموراً في الكتاب ، لا أتوهم أن أحداً من القراء يعرفنى أو يبالي بأن يعرفنى ، ولم يكن مما يخطر ببالي يومئذ أن أكون معروفاً ، وإذا بي أفاجأُ بَعْتَةَ بِناءِ أستاذِ بعيد الصيت في العرب والعربية ، وفي مجلة بعيدة الصيت في كُلِّ بُقعةٍ تعرف العربية . فعلت بي هذه المفاجأة فعل الخمر بشاربٍ لم / ١٠٢ يذُقها قط . وبقيتُ أياماً في نشوةٍ مُذهلة ، وكنت أعيش يومئذٍ وحدي ، فلم أجد من أحدثه عن نشوتي ! فلما تَمَلَّصْتُ من عَقابيل الحمى بارئاً بحمد الله ، وذهب المَيْدُ وسكنت النشوة ، راجعتُ قراءة كلمة الرافي مرّاتٍ ، فكنت أتوقف في كُلِّ مرةٍ عند قول الرافي في « المتنبى » :

« كان الرجلُ مطوّياً على سِرِّ ألقى الغموضُ فيه من أول تاريخه ،
 (يعنى علوية المتنبى) ، وهو سرُّ نفسه ، وسرُّ شعره ، وسرُّ قوته . وبهذا
 « السرُّ كان المتنبى كالمملك المغصوب ، الذى يرى التاج والسيف ينتظران
 رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفيف والغموض ، ويطلب التاج
 « بالكتمان والحيلة والأمل » .

« ومن هذا السرُّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدّر في نسقٍ
 « عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونموٌ وشبابٌ . وعرضَ بين ذلك
 « شعر المتنبى عرضاً خيلاً إلى أن هذا الشعر قد قيل مرةً أخرى من فم
 « شاعره ، على حوادث نفسه وأحوالها » .

وسببُ توقفي ، هو أتى يومَ فرغتُ من الكتاب ومن تصحيحه عند الطبع وقضى الأمر ، تقاذفنى طوال الليل رعبٌ شديد من مخافة ما يقوله الناس فيه إذا هم قرأوه ، وأمسيْتُ على غير بينة من أمرى . فهذا أوّل كتاب كتبتُه مجترياً على التأليف ، وأقدمت

إقداماً على كتابته على غير مثالٍ سابقٍ ممّا عهدته الناس في كتابة التراجم ، وقد اجترأتُ أيضاً على الإتيان فيه بما لم يسبقني إليه أحدٌ ! وفارّ بي الرُعبُ والشكُّ فيما اجترحتُ فوراً أذهب من قلبي كلَّ يقينٍ فيما كتبتُ ، وكلُّ ثقةٍ بما بذلت من جهدٍ / وتثبُّت ، ١٠٣ م واغتال الرُعبُ سلطاني على عقلي ، وسرى سَمُّ الشكِّ في قلبي طولَ ليلتي ... وركبنتي الحمى ، فلما أفقت منها أفقتُ وأنا في قبضة رُعبٍ حيٍّ وشكِّ مميتٍ ، ثم جاءت كلمات الرافعي تزيقاً ، كلما أعدتُ قراءتها دبّت كلماتها إلى صميم هذا الرُعب ديباً حتى قتلته ، وجعلت تُسرّي حيث سرى سَمُّ الشكِّ حتى أذهبته من قلبي فأحيتهُ . وعندئذٍ عرفتُ شيئاً فشيئاً حقيقة طريقي الذي سرّت فيه حين كتبتُ الكتاب ، وكأنه طريقٌ لم أسلكهُ من قبل قطُّ ! وكذلك ثبت عندى أن منهجى في « التذوق » الذي ألفته منذ أن دارست الشعر الجاهلي قديماً ، منهجٌ سليمٌ كلُّ السلامة ، لأتى حققتُ به الوصول إلى « سرِّ » كان مطوياً في شعر أبي الطيّب وفي تاريخه ، واستطعتُ به أيضاً أن أكتب بحثاً « يتحدّر في نسقٍ عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب » ، كما يقول الرافعي ، أى أن « عمود صورة المتنبي » الذي بنيتُ أكثره على هذا « التذوق » ، كان صالحاً لجعل شعر المتنبي ناطقاً نطقاً مبيناً عن شخصيته منذ وُلد إلى أن مات . وكان هذا حسبي ، بحمد الله .

وقد حدثت بعد ذلك بقليل حادثةٌ أخرى غريبة ، زادتنى ثقةً بنفسى ومنهجى . كنت ألقى الأستاذ العقاد رحمه الله ، مراراً في « المترو » ، عند نزولى إلى القاهرة أو عند عودتى ، فقد كنّا جميعاً نسكن مصر الجديدة . وكنتُ له مُحبّاً لطول قراءتى ما يكتب ، فكنتُ أسلم عليه فيردُّ السلام على عادته من الأدب المحتشم ، ولكنى كنتُ أرى ظلالاً من الجفوة في أسارير وجهه ، وينقبضُ عنى حديثه إذا حدّثته ، ولا ريبَ في أن ذلك كان لما يعرفه من علاقتى بالرافعي ، وقد كان بينهما ما كان . وكنت غير راضٍ في نفسى بالذى ١٠٤ م كان قد جرى بينهما ، وأرى أن كليهما كان ظالماً لأخيه ظلماً مبرحاً . وإذا كانت المودة بينى وبين الرافعي قد أتاحت لى أن أحدّثه في هذا الظلم مراراً ، فإن جفوة العقاد لم تترك

لى مَسَاغاً حتى أَحَدُّهُ بِمِثْلِ مَا حَدَّثْتُ بِهِ الرَّافِعِيَّ ، بيد أنى كنت مُصِيراً على أن أبلِّغ ما أريدُ مع العقاد . فلَمَّا ظهر كتابى هذا فى المقتطف ، سَوَّلْتُ لى نفسى أن أهديه نسخة من المقتطف ، مع عِلْمى أَنَّهُ يرسلُ إليه بالبريد فى كُلِّ شهرٍ ، ومع أنى كنتُ قد عقدت العزمَ على أن لا أهدي كتابى إلى أحدٍ من الأساتذة الكبار . فاستأذنته بالهاتف أن أزوره فى بيته ، فأذن لى ، وكانت كلمة الرافعى فى « الرسالة » قد نشرت فى ١٣ يناير ١٩٣٦ ، بعد أيام من صدور عدد المقتطف ، وكانت زيارتى للعقاد بعد ذلك بقليل . ولم أجد بين لقائه فى « المترو » ولقائه فى بيته كبيرَ فَرْقٍ . فلما جلستُ واطمأننتُ ، أخرجتُ عدد المقتطف ، هديةً منى إليه ، فأخذه ووضعهُ إلى جانبه ، ولم يكلمنى بكلمة واحدة فى شأنه ، وكنت أتوقع أن يكون قد قرأ العدد الذى وصله بالبريد . فكان صمته جارحاً لى أىَّ جَرَجٍ . فخرجتُ من عنده غَضْبَاناً أسيفاً .

وبعدَ أَيَّامٍ قلائلَ ، كنتُ عائداً إلى بيتى ، فلما ركبت « المترو » ، فوجئتُ بالأستاذ العقاد يُنادينى ويدعونى إلى مجلسٍ كان خالياً أمامَ مجلسه ، ووجدت فى وجهه البشاشة مكانَ الجفوة ، وفى حديثه التطلُّق مكانَ الانقباض . والعقادُ متحدثٌ قليل الأشباهِ إذا تبسَّط وقال ما قال غير محتشمٍ . وقطعنا المسافة من أول محطة المترو إلى أن بلغنا المحطة التى عندها بيته فى أول مصر الجديدة ، وهو فى حديثٍ لا ينقطع ، ملؤه النوادرُ والفكاهات التى يحبُّها / ويحسنُ سرِّدها . ثم نزل ، ولم يذكر كتابى بحرفٍ واحدٍ ، ولكنى أيقنتُ أنه قرأ الكتابَ ، وأن هذه الحفاوة أو البشاشة التى لم آلفها ، كانت أثراً من آثار قراءته كتابى . فلَمَّا صرْتُ وحيداً حتى بلغتُ بيتى ، كانت نشوتى بتغيير العقاد ، تفوق نشوتى بما كتبه الرافعى ، وكانت يداً للعقاد عندى ، إذ زادتنى ، يومئذ ثقةً بنفسى واطمئناناً إلى ما كتبتُ . وعلى الأيام ، لم أرَ تلك الجفوة مرةً أخرى . وتوثقت الصداقة بينى وبينه ، ومع ذلك لم أسمع منه مرةً كلمةً واحدةً عن كتابى إلى أن مات رحمة الله عليه ! ولكنها كانت صَنِيعَةً لا أنساها .

وبعد قليل بدأت الرسائل تأتى بأسمى على إدارة المقتطف وعلى بيتى ، وفيها

ما فيها ، وقرأت يومئذ ثناءً كثيراً من رجالٍ لا أعرفهم ، كشاعرنا الكبير الأستاذ أحمد محرم وآخرين ، فذهب عنى كُلُّ خوفٍ ومهابة ، وفي خلال ذلك أيضاً كتب أستاذ كبير كان قد علمنى في التعليم الابتدائى ، ثم الثانوى ، هو الأستاذ محمد هاشم عطية رحمه الله ، فنقدنى وسخر منى ، فرددتُ عليه في صحيفة الأهرام ردّاً عنيفاً ، ونقدنى أيضاً الأستاذ على عبد الرزاق في جريدة « السياسة الأسبوعية » ، فكَلْتُ له كيلاً كما قال في نفس الجريدة . وتتابعت الأيام ورأيتُ أسمى مذكوراً بعد تُحمولِ ذِكْرِ ، والفضلُ فى الذى بلغته مردودٌ كُلُّه إلى أخى وصديقى الذى لا أنساهُ الأستاذ فؤاد صروف ، أطال الله بقاءه .

/ كتابان في علم « السطو » !!

١٠٦ م

الكتاب الأول

ثم جاءت بعد ذلك أمورٌ مستنكرةٌ بشِعْتُ بها وضِقتُ بها ذرعاً ، لأنها رَدَّتْنى إلى حومةِ الفسادِ الذى اعتزلتُ من أجله الجامعةَ والحياةَ الأدبيةَ كلها ، لكى أصححَ طريقى ما استطعتُ إلى الغاية التى أتمنى أن أبلغها . وأهمُّ ذلك حادثان : أولهما ، جاءتنى رسالةٌ من العراقِ بعد ظهورِ كتابى بثمانية أشهر (سبتمبر ١٩٣٦) ، من رجلٍ لم أكن أعرفه من قبل . كان تاجرَ كتبٍ ناشئاً ، لم يبلغ ما بلغ من الشهرة فيما بعد ، وهو الكتيبى المشهور « قاسم الرجب » ، رحمه الله ، دلَّتْنى رسالته على أنه قرأ كتابى حرفاً حرفاً ، فإنه ضمَّنه مقابلة بين ما فى كتابى صفحة صفحة ، وبين ما جاء فى صفحات كتاب آخر طبع فى العراق سنة ١٩٣٦ ، أرسله إلىَّ بالبريد ، كما قال . ووصل الكتاب بعد أيام ، وهو كتاب « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » ، وكاتبه هو الأستاذ عبد الوهاب عزّام ، وفى آخره أنه فرغ من تأليفه « لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة

١٣٥٥ ، عاشر تموز (يوليه) سنة ١٩٣٦ « ، أى بعد كتابى بسبعة أشهر ، وختم مقدمته القصيرة بهذه العبارة :

« ومهما يكن فقد بذلتُ الجهدَ ، وأودعت الكتابَ من تفصيل سيرة الشاعر ، والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه ، ما يطوِّع له أن أقدمه للقراء ، راجياً أن يجدوه أهلاً للذكرى أبى الطيب ، ويرهوه أوسع وأعمق وأجدى ما كتبتَ عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا ، عام الاحتفال / بمضى ألف سنة على وفاته ، والله وليُّ الهدى م١٠٧ والتيسير » .

وكنْتُ أعرف عزاماً ، رحمه الله ، ويعرفنى ، فقد كنت طالباً بالجامعة ، وكان أستاذاً بها . كان غايةً في دَمائَةِ الخُلُقِ ، لِيَنَّ الجانب ، رقيق الحاشية ، سَمحاً سَهلاً طويل الأناة ، متواضعاً عند اللقاء ، خفيض الصوت ، فإذا حَدَّثته أُجَابَكَ والحياءُ يكادُ يقطعُه عن الإجابة . وكان حافظاً للشعر ، يُسمعك منه ما تشاءُ إذا نَفَسَ عنه حياؤه . وكنْتُ لذلك أحبه وأجلُّه لواسع معرفته . فلما قرأت ما ختم به مقدمة كتابه ، رابنى منه ما قال ، لأنه أمر غير معهودٍ فيه أن يتبجَّح بذكر نفسه أو أعماله . وقد نشر في سنة ١٩٣٢ ، ترجمة الشاهنامنه ، وبذل فيها جهداً كبيراً ، فكان خير ما نشر ، ومع ذلك لم يُثنِ على نفسه ، بل كان جَمَّ التواضع هاضماً لنفسه ، فكيف قال هنا عن كتابه إنه « أوسع ، وأعمق ، وأجدى ما كتب عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا » !! غريبة !! ولكى تعلم أنها غريبة الغرائب ، فاعلم أنه حين أعاد طبع كتابه هذا في مصر سنة ١٩٥٤ ، أثبت مقدمة الطبعة الأولى ، ثم ختم مقدمة الطبعة الثانية بما يلي :

« وأصدِّقُ القارئ أنى أردتُ أن أحذف من مقدمة الطبعة الأولى دعوى أن هذا الكتاب أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر . واتفق أن جاء إلى كراچى (بلدة بالهند) ، وأنا أُعدُّ الكتاب للطبعة الثانية ، صديقنا العلامة الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وهو من أوسع الناس معرفة بالشاعر ، وكان يحفظ ديوانه كُلَّهُ ، فأخذ الكتاب وقرأه ، ثم نهانى عن حذف الجملة / التى هممتُ بحذفها وقال : دَعَوَى صَدِّقٍ ، فلماذا تمحوها » !! غريبة م١٠٨

أخرى هندية الميلاد !! وستعلم السبب في إرادة حذفها ، ثم في الشهادة التي أتى بها مُخْرِجَةً له من إرادته ، فاستسلم للنهي وأثبتها راضياً عنها كُلُّ الرضى ، ولا غَرَوُ !! ولم يقنع بذلك ، بل زاد في مدح كتابه ، فوصفه مرة أخرى بأنه : « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » !! غريبة أيضاً !!

ما علينا ! تجاوزتُ المقدمة ، وأخذت الكتاب أقرؤه . فإذا به ، منذ أوله ، يتعقبني تعقباً متستراً متلفعاً بعباءة الأخبار التي رواها الرواة ، فهو يقف عند ما وقفتُ عنده منها ، ويخالفني معرّضاً غير مصرّح ، أو يُعارضني موافقاً لبعض رأبي مُغفلاً سائرهُ ، وأثرُ ألفاظي في ألفاظه واضحٌ كُلُّ الوضوح !! ويقف أيضاً على كُلِّ شعرٍ من شعر أبنى الطيب ، لم يتنبّه للوقوف عنده أحدٌ قبلي ، ويعلقُ عليه بنفس ألفاظي التي علقتُ بها عليه !! وظلَّ يسلخُ من كتابي سلخاً مرّةً بعد مرّةً ، مقتفياً آثاري ، ويقول ، وكأنَّ ما يقوله ممّا يظهر لكل قارئٍ شعر أبنى الطيب ، بلا معاناة وبلا سببٍ ، ويعرضه عرضاً كأنه اجتهداً منه لم يُسبق إليه من قبل !! وأعمالُ أخرى قبيحةٌ ، مع الأسف ، وضنُّ ضنّاً شديداً بأن يكرمني ويشرفني بذكر اسمي ، وما هو إلاّ أن يقول في ثنايا سُطور كتابه : « قال بعض الأدباء » و « رأى بعض الكتاب » و « قال كاتب المقتطف » !! يا للعجب ! فلما فرغتُ من الكتاب ، ساورني أن أكتب ، وأن أُبينَ قباحةَ هذا الأسلوب ، ولكنني تأثيتُ به ، لأنني كنتُ لم أزلُ أحبه وأجلُّه ، ولأنني رَحمتُهُ وأشفقتُ عليه من حيائه ، إذا أنا هتكتُ عرض كتابه .

/ ويشاء الله أن لا يطول عليّ التأمُّني ، فبعد أيام قلائل كنتُ جالساً في مجلس ١٠٩
أستاذنا أحمد حسن الزيات في مكتبته بمجلة « الرسالة » ، وفجأةً قطع الأستاذ حديثه وقام وأشرق وجهه ، ورحبَ وأهلَّ وسهَّل ، وإذا القادمُ هو الأستاذ عبد الوهاب عزام . فقمْتُ وسلَّمْتُ ، وجلستنا . فلما بردَ المجلسُ ، وانقضتُ لحظاتُ الحفاوة بمقدمه ، التفتُ إلى أستاذنا عزام ، وأعلمته أنني قرأتُ كتابه ، وبدأتُ أعاتبه على استنكافه أن يذكرني باسمي ، فغلبه الحياءُ ، وجعل يحاولُ أن يجامل ، وأن يجعله أمراً غير مقصودٍ البتة ، وأنه

عرض لآخرين غيري ، فلم يذكر أسماءهم . فغاظتني مجاملته ، وغاظني حياؤه أيضاً؟! فقلت له : ليس هذا بصحيح ، فإنك ذكرت الأعجمي المستشرق « بلاشير » باسمه مراتٍ ! فعجل قائلاً : لأني كنت أردّ على أقواله التي كتبها في « دائرة المعارف » ! فزادني تقززاً ، فقلت له : يا سيدي الأستاذ ، إنك أيضاً كنت تردّ على أقوالي ، منذ أول كتابك ، فعلت كذا وكذا ، وكان أسلوبك في مناقشة الأعجمي واضحاً ، وقد تعرّضت لنقد القضايا التي كتبها ، مؤيداً بالنقل عنه والإشارة إلى كلامه ، أفلمت أنا جديراً بأن أعامل معاملته على الأقلّ ! ومع ذلك ، فإن أقوال هذا الأعجمي المستشرق لا قيمة لها في الحقيقة ، وهو لو انخلع من أبهة الاستشراق ، ومن روعة الاسم الأعجمي ، ثم جاءك في زى طالبٍ لمتحنه ، لاستكثرت أن تزيدّه درجةً على درجة الصّفّر . فأى شيء هذا ؟ وهبّ أنّه جاء برأى غريبٍ ، كراهيه في أن المتنبّي « قرمطي » الرأي والهوى ، فاستحقّ أن تردّ عليه ، أفلا يستحقّ رأبي في « علوية أبي الطيب » مثلاً ، أن تذكره / وتردّ عليه ردّاً مباشراً ، كما فعلت مع الأعجمي ، دون أن تلجأ إلى التضمين الملفّف ، وإلى الإغفال المتعمّد ؟ ثمّ تزيد الأمر سوءاً حين تتعقّب ترتيبى لشعر القسم الأول من ديوان أبي الطيب ، وتوقيتى لرحلته في الشّام منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ ، إلى أن لقي أبا العشائر سنة ٣٣٦ ، مع أنّي كنت أول من نبّه إلى هذا الترتيب ، وأول من حاول هذا التوقيت ! أيليق هذا ؟ ثمّ أيليق بك أن تعارضني في كل توقيتٍ لقصائده ورحلته ، بلا جديدٍ وقفت عليه بجهدك ، وإنما أنت معتمدٌ فيه على تخاليط « بلاشير » ؟ هذا من عجيب السّجايا ، وأعجب أنّك في كتابك قد أقررت ، غير مُريدٍ !! أنك كنت تعتقد أن هذا القسم من الديوان مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما أزالك عن اعتقادك ، فمن الذي فتح لك الطريق حتّى توقفت في الأمر وبحثت ؟^(١) وطال الكلام ، ولم أدع شيئاً مما كنت أحبّ أن أقوله له كتابةً ، إلا قلته له بلساني . وختمت حديثي فقلت له : خيرٌ لك أن تعيد النظر في كتابك هذا ، ففيه آفاتٌ كثيرة أرجو أن يبرأ منها إذا أعدت طبعه مرة

(١) انظر ما يلي ص : ٨٨ ، ٨٩ .

أخرى ، فهذا أليق بك ، وأكرم بك عند الناس . (١) وكان هذا حَسْبِي ، وطرحْتُ فكرة الكتابة عن كتابه جانباً ، ولم أذكره بسوءٍ حين تعرَّضت لنقد الكتاب الآخر ، كتاب كبيرهم الذى علّمهم « السطو » ، وبَعَجَ لهم أساليبه ، ومدَّ لهم قِيَّاسَه وعَلَّله !! كما قال ابن سلامٍ فى إمام علم النحو « عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى » !!

/ وليس سببى هنا أن أفصّل القول فى نقد كتاب الأستاذ عزام ، والوقوف ١١١ م
بالقارىء على موضع موضع من أفعاله بكتابى فى كتابه ، فهو أمرٌ لا يعنينى الآن ولا غداً ، بحمد الله ، ولكنّ عنايتى هى إظهارُ فسادِ الحياة الأدبية ، فى زمنٍ مضى . (٢)
نعم ، ولكنه ألقى بذور الفسادِ التى أُنعت من بعده إلى زماننا هذا .

ذكرتُ قبل ما عانيتُه فى ترتيب تاريخ قصائد القسم الأول من ديوان أبى الطيب [انظر ما سلف ص: ٣٧ - ٤٠] ، وكان عملاً شاقاً وعَرَّ المسالك ، لأنّ اعتمادى فيه كان على « تذوق الشعر » ، وأما الأخبار وتراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر ومتى قاله ، فكان يحتاج ضبطُ تواريخها إلى حذر شديد . وقد استطعتُ ، بحمد الله ، أن أوفّق إلى توقيتها توقيتاً مقارباً للحقيقة ، ولم يسبقنى إلى التفكير فيه ، أو إلى عمله ، أحدٌ أنتفع بعلمه . ولكنى لم أعقد فى كتابى باباً بعنوان « ترتيب قصائد المتنبى » ، بل فرغت من الترتيب ، ثم بثته فى مواضعه من الكتاب منذ أوّله إلى نهاية الفصل العاشر [من ص: ١٣٧ -

(١) انظر ما سياتى ص : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) كلُّ ما فى هذه المقدمة ، وما نشرته من مقالاتى بعنوان « بينى وبين طه » ، ليس إلاً برهاناً على فساد الحياة الأدبية كيف فسدت ؟ ومن أفسدها ؟ ولا أريد بها قدحاً فى أحد ، ولا مدحاً لأحد ، ولا ثناءً على نفسى أو عملى ، فمن فهم غير ذلك ، فهو وما فهم ، ولا حيلة لى فى إصلاح الفساد . ولكن ليعلم أنى إذ عزمْتُ على صفة فساد حياتنا الأدبية ، فإننى أقولها ناصحاً لأمتى ، ومن تعرَّض للنصيحة ، فعليه أن يكون صادقاً واضحاً مُبيناً ، لا يُدَارى ولا يُجامَل ، ولا يُمارى ولا يُجادل .

[٢٩٤] . وقد كنت انتهيتُ ، في تذوقٍ لشعر أبي الطيب ، إلى أن الترتيب الذي وضعه أبو الطيب نفسه ، في القسم الأول الذي لم يؤرخ قصائده كما أرّخ القسم الثاني من ديوانه ، كان ترتيباً مقارباً للصواب . وذلك لأنه كان واضحاً أن أبا الطيب كان ، عند جمع شعره في ديوانه ، شديد الإحساس بالتاريخ في القسم الثاني ، فهو خليقٌ أن يكون شديد الإحساس به أيضاً في القسم الأول ، ولكنه كان قد نسى الأيام والشهور والسنوات ، / م ١١٢ فرتب هذا القسم على ما بقى في نفسه من الإحساس الخائب بهذه التواريخ التي قَدِمَ عهدُه بها ، [انظر ما قلته آنفاً من ص : ٣٨ - ٤٠] .

والأستاذ عزام قد قرأ كتابي بلا شكٍ !! ورأى هذه الفصول العشرة الأولى « مرصعةً » !! بالتواريخ التي تؤرّخ شعر أبي الطيب الذي لم يؤرخه هو باليوم والشهر والسنة ، وأدرك كما أدرك الدكتور طه حسين : « أن أحداً لم يسبقني إلى توقيب قصائد المتنبي هذه » [انظر ما سأتى ص : ٥٢٣] ، بل هو قرأ التعليق الذي كتبته في كتابي ، [انظر هذا السفر ص : ١٥٢ ، تعليق : ١] ، حيث قلت : « واعلم أننا نجتهد في تاريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي ، وقد وجدنا في ذلك المشقة فما فوقها ، لترجم للرجل على بينةٍ وهدى ، وستجد فائدة ذلك فيما يمرُّ بك إن شاء الله » ، فانظر الآن ماذا فعل الأستاذ عزام ؟

عقد فصلاً في كتابه بعنوان « ترتيب ديوان المتنبي » ، لا يتجاوز ثلاث صفحات من الطبعة الأولى العراقية ، وهو في صفحتين فقط من الطبعة الثانية المصرية !! وختم هذا الفصل المهم بقوله :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيري ، (مَنْ غيرُهُ هذا ! لا أدري) ، أن القسم الأول من كتاب ديوان المتنبي ، مرّتبٌ على التاريخ ، حتى عرفتُ بعد بحثٍ طويلٍ أن القصيدتين اللتين مدح بهما « مساور بن محمد الرومي » نظمتا سنة ٣٢٩ ، يُعرفُ ذلك من ولاية هذا الأمير على حلب في هذه السنة ، ومن ذكر هزيمة ابن يزداد في إحدى القصيدتين ، وكانت هزيمته في ذلك الوقت أيضاً . وهاتان القصيدتان في الديوان مقدمتان على قصائد « بدر بن عمار » / التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، وأظنُّ مدح م ١١٣

مساور كان بعد مدح بدرٍ . ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار ، قصائد كثيرة لا أظنُّ أن المتنبى نظمها بين مدحى هذين الأميرين . فهذا أضعف ثقتي بالترتيب في الديوان ، قسمه الأول = ومنعنى أن أعتمد عليه في تاريخ الشاعر ، وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيب التاريخي . فأدعُ الاعتماد على ترتيب الديوان في القسم الأول ، إلى أن أجد من الأدلة التاريخية ، ما يكفي للثقة بترتيب قصائده كلها على التاريخ . (١)

انتهى الكلام والحمد لله ... ثم إنَّ الله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلا للكلام ، فإبطال عملها إبطالٌ لنعمةٍ من أجلِّ نعم الله على الناس ، وهذا قبيحٌ بنا معشر البشر !! أليس كذلك ؟

كان يعتقد أن القسم الأول مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما أزال اعتقاده ، فأضعف ثقته بهذا الترتيب ومنعه أن يعتمد عليه في تاريخ الشاعر = كلام مستقيم ، ولكن ما معنى الجملة التالية له : « وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيب التاريخي » !! تأمل هذا الكلام ، وما يدلُّ عليه من الحيرة المفضية إلى التناقض ! ألم يقل قبل إنَّ هذا الظنُّ أو الاعتقاد ، قد جاء ما يبطله بعد « بحث طويل » ؟ هذا على كلِّ حال نصُّ كلامه في الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ . فانظر الآن ماذا كان من أمره في الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ، بعد أن انقضى على حديثنا عشرون سنة ، قال في مقدمة الطبعة الثانية :

/ « وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى بعد قليل ... ثم يسرَّ الله نشره ... فأعدت النظر ١١٤ م فيه ، وغيَّرت قليلاً ، حاشا الفصل الأخير ، فقد أعدتُ كتابته . ووجدت الكتاب ، بعد هذه المدة الطويلة ، كما وصفته في مقدمة الطبعة الأولى ، ولم يتغيَّر رأيي في شيء فيه ، فهو جديرٌ بعناية كلِّ معنَى بسيرة أبي الطيب ، حقيق بثقة كلِّ قارىءٍ . »

وظاهر بعد الحديث الذي حَدَّثتكَ عمَّا كان بيني وبين الأستاذ عزام ، أنَّه يعرض لي ، على استحياءٍ !! من وراء بُرُقع لا يراه غيري ! وانظر إلى ثنائه على كتابه ، وقد

(١) انظر كيف كان يتكلم الأساتذة الكبار : « يعتقدون » و « يعرفون » ، و « تضعف ثقتهم » ، و « يظنون » ،

و « يطلبون الأدلة » ، و يطلبون فوق ذلك أن يصدِّقهم الناس !!

وصفت لك من قبلُ حياءه ، وأنه أمرٌ غير معهودٍ فيه أن يتبجح بذكر نفسه والثناء على أعماله [انظر ص : ٨٠ : س : ١٣] ، فليت شعري ما الذى غير الرجل ! وقد ذكر أنه أعاد النظر فى الكتاب ، و « غير قليلاً حاشا الفصل الأخير » ! وسأضرب لك مثلاً على ما غير فى فصل ترتيب الديوان الذى نقلته آنفاً [ص : ٨٤ : س : ١٨ وما بعده] ، فإنه قال هناك :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى ... حتى عرفت بعد بحثٍ طويل أن القصيدتين ... » ، فكان التغيير هو هذا : « حتى عرفت بعد بحثٍ طويل مُتعب أن القصيدتين » فزيادة « متعب » ، تغييرٌ كان لا بُدَّ منه ، لأنه أمرٌ شديد الخطر ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا التغيير ! وهو يستحى أن يرانى قلتُ : « وأعلم أننا نجتهد فى تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقة فما فوقها » [انظر ما سلف ١١٥ م ص : ١٤ ، ص : ١٣ ، ١٢] ثم يقتصر / هو على وصف بحثه بأنه « طويل » ، والاقتصار على صفة بالطول مفسدة وإخلالٌ وزلة لا تُغتفر !! فصار لزاماً أن يغير فيقول : « بحثٍ طويل متعب » لتستوى كِفَتَا الميزان ! وإذا لم يكن هذا القدر من الدقة والحرص والأمانة هزلاً محضاً ، فماذا يكون ؟

وينبغى أن تستيقن ، إكراماً لى على الأقل ، أن الرجل لم يبحث بحثاً لا طويلاً ولا قصيراً ، ولا متعباً ولا هيئاً « حتى عرف أن القصيدتين اللتين مدح المتنبى بهما مُساوَر ابن محمد الرومى ، نظمتا سنة ٣٢٩ » إلى آخر ما قال . وتفسير هذا بسيطٌ جداً عندى ، لأنى أعرف ما كتبتُ ، وأعرف ما يكتب الآخرون . أمّا كشف الستار عن حيل هؤلاء المؤلفين الذين يتسترون تحت عباءة « البحث العلمى المتعب » ، ويتلعبون بعقول القراء ، ويفسدون الحياة الأدبية بتعبهم فى اختطاف ما يختطفون ، ثم بتعبهم فى إخفاء ذلك بأساليبهم المبتدلة المتنوعة ، فيحتاج إلى بسطٍ وإطالة . ولكنى سأقع هنا بما لا بُدَّ منه .

كنتُ قد قسّمت ديوان أبي الطيّب أقساماً . لم أذكر ذلك في كتابي ، ولا أجد ما يدعوني إلى تفصيل كلّ هذه الأقسام هنا ، والذي يهمنا هما القسم الأول والثاني .

القسم الأول : يبدأ من أول الديوان ، إلى آخر القصيدة ٤٨ (من شرح الواحديّ واليازجيّ أيضاً) ، ويتضمّن ٢٧ مقطوعة ، و ٢١ قصيدة من قصارٍ / القصائد . وتاريخها م ١١٦ يبدأ من أول سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٥ تقريباً . وهي ممّا قاله في الكوفة صبيّاً في الحادية عشرة ، ثم في الشام سنة ٣٢١ ، ثم في السجن سنة ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ثم في بغداد والكوفة سنة ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ثم في الشام مرةً أخرى في أوائل سنة ٣٢٦ .

والقسم الثاني : يبدأ بالقصيدة ٤٩ وما بعدها ، عند نزوله بالتنوخين باللاذقية سنة ٣٢٦ وما بعدها .

...

أما القسم الأول ، فهو يقع في كتابي هذا من أوله ص : ١٣٧ إلى آخره ص : ٢٣٦ من هذه الطبعة . وقد استشهدت بأكثر مقطوعات هذا القسم ، أمّا قصائده ، فلم أستشهد فيه إلاّ بأربع قصائد من قصائده لا غير . وكان فيه توقيت رحلته والحديث عنها ، منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ إلى الشام ، ثم سجنه ، ثم عودته إلى الكوفة وبغداد ، ثم عودته إلى الشام مرةً أخرى سنة ٣٢٦ . ولما بلغتُ في كتابي ص : ٢٣٢ ، قلت في تعليق لي هناك : « اعلم أننا تركنا في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ، ما قال من شعر في مدح رجالٍ لقيهم في طريقه بالبلاد التي نزل بها ، إذ ليس يضُرُّ إغفال ذلك » فكان مما أغفلته آخرُ قصيدتين في هذا القسم (٤٧ ، ٤٨) ، في مدح « مساور بن محمد الروميّ » الذي ذكره الأستاذ عزام .

ثم شرعتُ بعد ذلك منذ ص : ٢٣٧ في القسم الثاني ، الذي يبدأ عند نزوله على التنوخين باللاذقية سنة ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ومضيت في تاريخ هذه الحقبة إلى أن لقي بدر ابن عمار الأسدي ، من أواخر سنة ٣٢٨ ، إلى سنة ٣٣٣ على / وجه التقريب [ص : ٢٥٩ م ١١٧ - ٢٧٢] ، وتابعت التاريخ والتوقيت بعد ذلك ، إلى أن انتهى المتنبي إلى أبي العشائر الحمداني في أواخر سنة ٣٣٦ ، ثم جاء القسم المؤرخ من الديوان ، منذ نزل المتنبي على سيف الدولة في جمادى الأولى سنة ٣٣٧ .

فماذا حدث ؟ حدث أن الأستاذ عزاماً ، قد تعب تعباً شديداً حقاً ، ولكن تعبته هذا كان وهو يحاول أن يتبين في كلامي هذا التقسيم الذي فصلته هنا بعض التفاصيل ، وما فيه من التاريخ الذي لم يسبقني إليه أحدٌ ، وقد ظلّ يتعقبني في هذا القسم الأول [ص : ١٣٧-٢٣٦ قمت] ، يأخذ من كلامي ، ويفرّقه على أبواب كتابه « المدرسي » ، ثم يحاول أن يعارضني مرة بعد مرة ، بلا ذكرٍ ولا بيانٍ ، وبأسلوبٍ غير مرضي ولا مستساغ ، لأنه توقّف ، هكذا تظاهر ، على كلِّ شعري من شعر أبي الطيب أو خبر من أخباره ، كنت أنا أول من توقّف عنده وكشف معانيه . فمن ذلك أنّه حين انتهى إلى مسألة نبوته وسجنه في كتابي هذا [ص : ٢٢٦] ، وجدني قد توقفت عند شعر أبي الطيب الذي قاله وهو في السجن ، وكتب به إلى « الأمير ؟ » وذلك قوله ، [انظر ما سيأتى ص : ٢٢٧ وما بعدها] :

رَمَى (حلباً) بَنَوَاصِي الخِيُولِ ، وَسُمِّرِ يُرِقْنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ

فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ (الحَرَشْنِيُّ) ، كَشَاءٍ أَحْسَّ بَزَارِ الأَسْوَدِ

وهو من القصيدة ٣٦ من القسم الأول ، فقلت في توقفي على هذين البيتين اللذين لم يتوقف عندهما أحد قبلي : « والذي تنبّهنا له هنا ، أنه ذكر في هذه / القصيدة (حلباً) و (الحرشني) ، وقد عيّنا (أي تعبنا !!) بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها أن نعيّن السنة التي قيلت فيها ، ثم وقّنا الله لتفسير ذلك بالاستنباط » ، وذكرت الحادثة وتاريخها ثم قلت : « والخرشني هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الروم إلى جبل بيلادهم ، يقال له (حَرَشَنَّة) ، وتكون هذه القصيدة لذلك ، مما كتب أبو الطيب إلى محمد بن طغج الإخشيد التركي (الأمير) ، في أواخر سنة ٣٢٢ ، وأوائل سنة ٣٢٣ . »

فتوقف الأستاذ أيضاً ، دون أن يذكرني أو يذكر ما قلت في ذلك ، وجاء يعارضني ويتعقبني ويرغم أن (الحرشني) ، هو « بدر الحرشني » ، وأنّه ولي حلب سنة ٣٢٤ ، وكتب ذلك في فصل لطيف كُله تحلّط عنوانه : « متى سجن أبو الطيب ؟ »

وكان سبيله إلى هذا الكشف أن يلتمس كتاباً فيه « تاريخ حلب » ، فوقع على كتاب الأستاذ محمد راغب الطباخ ، فذكره ، وأخذ منه ما أخذ . وفيما هو يقلّب الكتاب وقع عَرَضاً على اسم « مساور بن محمد الرومي » الذي مدحه المتنبي بالقصيدتين (٤٧) ، (٤٨) ، وهما في آخر القسم الأول عندي . فمن هنا قال : « كنت أعتقد كما يعتقد غيري ... حتى عرفت بعد بحثٍ (متعبٍ) أن القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومي نظمتا سنة ٣٢٩ ، يعرف هذا من ولاية هذا الأمير على حلب في هذه السنة ، وفي ذكر هزيمة ابن يزداد في إحدى القصيدتين » إلى آخر ما قاله [انظر ما سلف : ص ٨٤] ، ولم يشر إلى كتاب الأستاذ الطباخ هنا البتة !! مع أن خبر « مساور » وهزيمته ابن يزداد ، وهو الذي ساقه هنا كأنه شيء معروف مشهور = وهو أسلوبٌ مُبتَدَل من أساليب التعالم = / لا يوجد له ذكر في كتب التاريخ المعروفة ، ولم يَجْر له ذكرٌ إلا في م ١١٩ كتاب الأستاذ الطباخ ، وهو نقله من مخطوطة كتاب « زبدة الحلب » لابن العديم ، الذي طبع بعد ذلك بزمان طويل ! (سنة ١٩٥١) . فالأمر كُله غير « متعبٍ » كما ترى ، وهو شيء جاء اتفاقاً ، ولكنه فرح به أيما فرح ، لأنه يتيح له أن ينقُضَ عليّ « الترتيب التاريخي » الذي سرّ عليه في كتابي ، فيقول بعد ذلك مباشرة : « وهاتان القصيدتان في الديوان ، مقدمتان على قصائد بدر بن عمار التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل ٣٢٩ ، وأظن أن مدح مساور كان بعد مدح بدر ، ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار قصائد كثيرة لا يُظن أن المتنبي نظمها بين مدائح الأميرين . فهذا أضعف ثقتي بالترتيب في الديوان » ، إلى آخر ما قال [انظر ما سلف ص : ٨٤ ، ٨٥] .

والخلاصة ، أنه لولا توقفي عند (حلب) و (الخرشني) ثم وقوفه عرضاً على ذكر « مساور » في كتاب الطباخ ، لظَلَّ الأستاذ على اعتقاده (كما اعتقد غيره !) : أن الديوان مرّتب ترتيباً تاريخياً !! فهذا هو الذي أحدث له الإشكال في هاتين القصيدتين !! ولكن الصحيح هو أن القصيدة الأولى (٤٧) ، قالها المتنبي بعد خروجه من السجن سنة ٣٢٣ ، وبعد عودته إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ثم فارق مساوراً ، وذهب إلى التنوخيين ،

على سياق ما في كتابي . أما القصيدة الثانية (٤٨) ، فقد قالها حقاً ، سنة ٣٢٩ ، وهو عند بدر بن عمار في طبرية ، بدليل ذكر هزيمة ابن يزداد فيها ، وأرجح الظنّ عندي أنه كتبها بطبرية ، وأرسلها إلى « مساور » ، وهو بحلب . ثم لما جمع المتنبي شعره ، على ما بقى في نفسه من تواريخ قصائد القسم الأول ، ضمّ القصيدة / الثانية التي قالها سنة ٣٢٩ ، إلى القصيدة الأولى التي قالها سنة ٣٢٦ ، وقد فعل المتنبي ذلك مراراً ، حتى في القسم المؤرخ ، فإنه ضمّ قصائد أو أبياتاً في تاريخ متأخر ، إلى قصائد في تاريخ متقدم ، وقصائد في تاريخ متقدم ، إلى قصائد في تاريخ متأخر ، ليكون شعره في الرجل الواحد ، مجموعاً في مكان واحد . وقد أشرت إلى ذلك من فعله فيما سلف [انظر ص : ٣٨] .

ولست هنا مريداً للوقوف على جميع ما أستهجنه من أفعال الأستاذ عزام ، وهي كثيرة جداً ، ولكني سأقفك على هذه الأشياء الغريبة التي تحرك هؤلاء الكتاب ، ملففة في الغموض والإبهام . فالأستاذ عزام ، لم يلق بالأل إلى شعر أنى الطيب عن الرجل الذي ذكره آنفاً في عرض كلامه ، وذكر تاريخ قصائد أنى الطيب فيه ، « وهو بدر بن عمار الأسدي » ، ثم أغفله في كتابه إغفالاً يكاد يكون تاماً ، ولا أدري لم ؟ إلا ما كان من قوله آنفاً : إن قصائد أنى الطيب فيه كانت سنة ٣٢٩ ، ثم لم يذكر عنه شيئاً ذا بال سوى هذا التاريخ « المحدد » !! أما أنا فقد عقدت له فصلاً كاملاً مفرداً ، هو الفصل التاسع كله [هذا السفر : ٢٥٩ - ٢٧٢] ، ورددت ذكره قبل ذلك وبعد ذلك [اطلبه في الفهرس] ، وحددت شعر أنى الطيب فيه من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ . وجعلت لقاء أنى الطيب ببدر أول إسفارة واضحة عن طبيعة أنى الطيب وأهدافه بعد أن خرج من السجن ، وعن تأملاته وآلامه وحوافزه ، حيث استعلنت « عصبية أنى الطيب للعرب والعربية ، وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العربيّ العدويّ ، هازم الروم ، / وقامع الدسائس

م ١٢١ الفاطمية بالشام وبعض العراق » ، كما قلت [ص : ٢٦١] .

وقد أحدث هذا الفصل للأستاذ عزام غمًا شديدًا ، وارتباكًا متعبًا ، ولم يستطع أن يقول فيه شيئاً في كتابه البتة ، ولم يستطع أن يتعقّبني كعادته ، فوقف بحثه « المتعب » كُله عند مسألة التاريخ التي يذكرها عرضاً بلا دليل البتة !! لأنّ الدليل لم يكن عنده في كتب التاريخ المعروفة !! ولا وجد ذكره واضحاً فيها ، فأخذه تسليماً = ثم اجتهداً من عند نفسه ! = من رجلٍ آخر ، أخفى ذكره في هذا الموضوع إخفاءً تاماً ، مع أنه ذكره في مواضع أخرى كثيرة من كتابه ، إلاّ هذا الموضوع !! (١)

فالأعجمي المستشرق « بلاشير » ، كتب ترجمة لأبي الطيب في دائرة المعارف الإسلامية ، وقد ذكره الأستاذ عزام وذكرها مراراً كثيرة جداً في كتابه ، وبأدبٍ جَمّ حتى عند أشد المخالفة . فكان ممّا قاله « بلاشير » أن المتنبي بعد « ثورته » : « رجع إلى احتراف المدح !! واستئناف حياة التجول بداية عام ٣٢٥ وقنع بمدح أهل أنطاكية ودمشق وحلب وغيرها وبعض صغار العمال في هذه المدن ، الذين كانوا يقرّون عليه في العطاء كلّ التقدير (يا سلام !!) . وذاع صيته شيئاً فشيئاً حتى أصبح في أوائل عام ٣٢٨ هـ شاعر الأمير بدر الخرشاني (هكذا ، والصواب : الخرشني) الذي ذكره في ديوانه باسم « بدر بن عمار » ، وكان والياً على دمشق ، من قبل أمير الأمراء السابق ابن رائق ، الذي كان قد احتل الشام وشيكاً . ولما كان بدرٌ من / أصليّ عربيّ ، فقد اعتبره المتنبي مولاة الذي كان ينتظره من أميد بعيد » . ثم يقول : « ولم تُدْم صداقة المتنبي لبدرٍ إلاّ حوالى عام ونصف عام » .

ثم يقول هذا الأعجمي أيضاً مادة « بدر الخرشني » من دائرة المعارف الإسلامية : « بدر الخرشني » ، أميرٌ يرجح (يا سلام !!) أنه من أهل خَرْشَنَة ويعرف أحياناً (لا يا شيخ) بنسبة ربما كانت أسطورية (يا لطيف) ! وهي « بدر بن عمار الأسدي » ، حاجب الخليفة القاهر ووُلّي على جند الأردن ، وجعل مقرّه في طبرية سنة ٣٢٨ هـ ،

(١) هذا من صميم فساد حياتنا الأدبية .

وحوالى هذا الوقت مدحه المتنبى . وفي أثناء الصراع بين ابن رائق وأمير الموصل الحمدانى ناصر الدولة ، عاد بدرٌ هو أيضاً إلى العراق ، ونال الحظوة مدة قصيرة لدى الخليفة المتقى ، ولكنه اضطر إلى الالتجاء إلى الفسطاط في مصر عند محمد الإخشيدى . وتوفى بدر هناك في نهاية سنة ٣٣٠ .

اللهم اغسِلْ حَوْتِي (أى إثمى) ، وتقبَّلْ توبتى ، فإن الأستاذ عزاماً قد أوقعنى فى إثم كبير بنقل هذا الخلط الخبيث إلى كتابى هذا . وأنا لا أشك لحظةً أن الأستاذ عزاماً قد استقدر هذا الكلام كما استقدرته ، ولذلك لم يذكره فى كتابه ، لا ناقلاً ولا مُعلِّقاً ولا ناقداً ولا مصححاً ! وعله ذلك معروفة ، وهو أن هذا الجيل من الأساتذة كان لا يملك إلا أن يقف خاشعاً مُخَبِئاً بين يدى « العلماء المستشرقين » !! فما وجدوا من « جديد » أخذوه فأذاعوا به وتقلدوه ، أو انتحلوه وتأبطوه ، وأما ما وجدوا من « خبيث » فقد أجزوا عليه السنة فى كُلِّ خبيث ، أن يُعْضُوا عنه أو أن يدسُّوه فى التراب ! / وكذلك فعل الأستاذ عزام . وأنا لا أستحلُّ نقل هذا الخَبِث دون أن أُبيِّن فساده ، وإن كان عملى هنا لا يتناول مثل هذه الخبائث .

١٢٣ م

« بدرٌ الخرشنى » ، غلامٌ رومى من « خرشنة » فى بلاد الروم ، ظلَّ يعلو شأنه حتى صار من كبار رجال الدولة . وحين ولى الخليفة المتقى فى ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان بدرٌ ببغداد ، فخلع عليه المتقى ، وقلده الحجابة ، وجعله حاجب الحجاب . ثم جرت له أمور ببغداد ، فصرف عن الحجابة سنة ٣٣٠ ، وقلده المتقى طريق الفرات ، فسار إلى الإخشيد محمد بن طغج ، أمير مصر ، مستأمناً ، فأمنه الإخشيد وولاه إمرة دمشق ، فوليا شهرين ، ومات فى ذى القعدة سنة ٣٣١ . وكذبٌ بحت أن يقال إنه جعل مقره فى طبرية سنة ٣٢٨ = أو أن يقال : إنه من أصل عربى = أو أن يقال إن المتنبى مدحه ، إلى آخر هذا الإفك .

وأما « بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى الطبرستانى » ، فهو عربى صليبةً من بنى أسد ، يقول المتنبى ، وهو أعلم ببدرٍ من يكون ، يذكر اسمه كاملاً فى شعره ، حيث يقول :

حَدَقُ يُدْمُ من القَوَاتِلِ غَيْرَهَا بدرُ بنُ عَمَّارِ بنِ إِسْمَاعِيلَ

ويذكر نسبه في العرب فيقول :

إلى البدر ابن عَمَّارِ الذي لم يَكُنْ في غُرَّةِ الشَّهْرِ الهَلَالِ

/ سِنَانٌ في قَنَاةِ بنِي مَعَدِّ ، بنِي أُسَيْدٍ ، إِذَا دَعَوْا النَّزَالَا

م ١٢٤

وينو أسد ، من معد بن عدنان . وهو ليس أسطورياً ، وليس عند العرب ما يقال له شخص « أسطوري » كالذي عند الأعاجم ، فقد ذكره محمد بن عبد الملك الفرضي الهمداني (- ٥٢١ هـ) ، صاحب تكملة تاريخ الطبري فقال : « وكان بدر بن عمار الأسدي الطبرستاني ، يتقلد حرب طبرية لابن رائق ، وهو الذي مدحه المتنبى بقصائد عدة » ، وليس له ذكر في كتب التاريخ المطبوعة التي بين أيدينا ، سوى هذا الكتاب ، وما جاء في ديوان أبي الطيب . ولم يكن والياً على دمشق قط ، وزال بحمد الله الخبث والخلط . فهما إذن رجلان مختلفان لا رجل واحد ، أحد شقيقه حقيقة والآخر أسطورة !! هذا مجرد عبثٍ مُستشرقٍ بارد .

ثم إن الأستاذ عزاماً الذي اجتنب هذا الخبث فلم يذكره في كتابه عن المتنبى ، واقتصر ، وهو في حيرة من أمر ما قرأه في كتابي ، على أن ذكر « بدر بن عمار الأسدي » في مواضع قليلة ، ولم يؤرخ له إلا في أول الكتاب (سنة ٣٢٩) ، واستخرج هذا التاريخ استخراجاً من بين التواريخ التي ذكرها بلاشير في تخاليفه السالفة بين « بدر الخرشني » و « بدر بن عمار » ، وكأن الأستاذ كان في ريبة من أمره .

وقد كنت في حديثي معه في دار مجلة « الرسالة » ، قد أشرت إلى هذا الذي كان منه في شأن « بدر بن عمار » وإغفاله ، ومضت سنوات منذ / سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ م ، حين نشر الأستاذ ديوان المتنبى ، وبذل جهداً كبيراً في الجمع بين النسخ المختلفة للديوان ، وكتب له مقدمة طويلة ، وعقد فيها باباً بعنوان « ترتيب الديوان » ، وذكر القسم الأول الذي لم يؤرخ ، وكان كلامه موهماً أن بعض هذا القسم قد عُرف تاريخه في

بعض النسخ المخطوطة ، وليس هذا صحيحاً ، والتواريخ المذكورة فيه هي مما أودعه هو كتابه عن أبي الطيب ، ولكنه انتهى أخيراً إلى غلبة الظنّ بأن ترتيب هذا القسم موضوع على الترتيب التاريخي ، ولم يزد على أن قال متواضعاً في هذه المرة : « ولم أعرف في ترتيب هذا القسم ما يخالف الترتيب التاريخي ، إلا القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد . فقد قدرْتُ أنهما نظمتا سنة ٣٢٩ » ، إلى آخر ما قاله في كتابه عن أبي الطيب . وقد أزلنا نحنُ إشكالهما آنفاً بحمد الله ، وبقي ترتيب المتنبي للقسم الأول من ديوانه سليماً مطابقاً للترتيب التاريخي .

ولما بدأ الديوان ، لم يتدخل الأستاذ عزام في حواشي الكتاب بشيء ، فإنه لما بلغ قصيدته التي قالها في سجنه ، وزعم في كتابه وفي مقدمته أن (الخرشني) هو « بدر الخرشني » ، وأن تاريخها هو سنة ٣٢٤ أو ٣٢٥ ، لم يعلق بشيء في داخل حواشي الديوان = ولما بلغ القصيدتين اللتين قالهما في « مساور بن محمد الرومي » ، والتي أرخهما في كتابه وفي مقدمته بسنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، لم يعلق أيضاً بشيء في داخل حواشي الديوان . وقد أحسن إذ لم يفعل ، وليته استمرَّ على ذلك ! غير أنه لما بلغ مدائح / ١٢٦ م أبي الطيب في « بدر بن عمار » ، لم يملك نفسه ، فقد كان حديثي يورقه منذ سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، فأحدث هذا التعليق ، وهو التعليق الفرْدُ اليتيم الذي جاء به من عند نفسه ، في هذا القسم الأول ، لا بل في سائر الكتاب قال :

« قصائد بدر بن عمار » يسهل تاريخها ، فبدرٌ كان يلى طبرية من قبل ابن رائق . وكان استيلاء ابن رائق على الشام سنة ٣٢٨ ، وقتل في رجب سنة ٣٣٠ ، فقصائد بدر نظمت بين هذين التاريخين . ثم أبو الطيب في القصيدة الآتية التي مطلعها : « بقائى شاء ، ليس هم ، ارتحالاً » ، يمدح بدرًا بقوله :

حسام لابن رائق المرَجى ، حُسامُ المتَّقَى أيامَ صالاً

وكانت خلافة المتقى في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ ، فقد نظمت هذه القصيدة

بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب من السنة التالية . والظاهر أن القصائد الأخرى توالى قبل هذه القصيدة . فشعر المتنبي في « بدر » ينبغي أن يؤرخ بسنة تسع وعشرين وثلاثمئة .

وهذا كلامٌ في غاية الغموض والإبهام والاضطراب ، سقيم التركيب لا يتركب على هذا الوجه إلا في نفس تركتها الرعدة تدور في مكان ضنك ، أشلاءً متطايرة ، وألفاظاً في ظلمة تصادم . ليس هذا خيالاً ، بل / هو تصوير للحقيقة . إما لا ، فانظر إلى سياق م ١٢٧ منطقته ! ولكن ينبغي أن تعرف ، أول كل شيء أن عدد القصائد التي قالها المتنبي في بدر ابن عمار (٥) خمس قصائد لا غير ، و ٢٣ مقطوعة . وهو كلام يتركب من ثلاث مقدمات ونتيجة ، وهذا تشقيقه وتحليله :

المقدمة الأولى : « قصائد المتنبي في بدر قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ . »

المقدمة الثانية : « القصيدة الثالثة ، نظمت بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ورجب سنة ٣٣٠ . » ، (بينهما ستة عشر شهراً) .

المقدمة الثالثة : « الظاهر أن القصائد الأخرى (الأربعة) توالى قبل هذه القصيدة = أى قبل القصيدة (الثالثة) . »

النتيجة : « فشعر بدرٍ ينبغي أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ . »

وأنا أرجح أن (المقدمة الأولى) لم تذكر إلا تمهيداً وحصراً لما يأتي بعدها ، وإلا صار الكلام سُقماً خالصاً كله ، لأنه يناقض (النتيجة) ، ولكنه أساء التعبير .

وأما (المقدمة الثانية) : فهي تجعل (القصيدة الثالثة) مترددة بين طرفين في زمن مقداره ستة عشر شهراً = ممكن أن تكون في الشهر الأول ، / أو الذي يليه ، إلى الشهر م ١٢٨ السادس عشر ، (٩) تسعة أشهر في سنة ٣٢٩ و (٧) أشهر في سنة ٣٣٠ . كل ذلك جائز .

وأما (المقدمة الثالثة) : فتجعل ظاهر الأمر أن القصيدتين الأولى والثانية ، والقصيدتين الرابعة والخامسة ، قالها المتنبي متواليه قبل (القصيدة الثالثة) ، أى هى تابعة لقصيدة مترددة بين طرفين فى زمن مقادره (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ، و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ .

ومعنى ذلك أننا إذا فرضنا أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى رجب سنة ٣٣٠ ، فالقصائد الأربع الأخرى التى توالى قبلها ، ممكن أن تقع جميعاً فى الأشهر الستة الأولى من سنة ٣٣٠ فقد خرجت (سنة ٣٢٩) خروجاً كاملاً سهلاً من تاريخ هذه القصائد !! أليس كذلك ؟

فكيف يمكن إذن أن تكون (النتيجة) الحاسمة : « ف شعر المتنبي ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » ؟ « ينبغى » يا للعجب ! هذا هو السهل الممتنع !! وهذا السهل الممتنع ، هو الذى يجعله سهلاً عليك أن تقبل منى ما وصفت به هذا الكلام ، وأنه حقيقة واقعة ، لا خيال فيها !

لا ، بل إذا فرضنا فرضاً آخر ، وهو أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى أول ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان ممكناً أن تتزحزح معها القصائد الأربع الأخرى ، راجعة القهقرى ، حتى تدخل جميعاً فى سنة ٣٢٨ دخولاً صريحاً ربما انتهى إلى أوائل هذه السنة . فكيف يمكن ، إذن ، أن تكون النتيجة الحاسمة : « ف شعر المتنبي ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ هـ ؟ يا للعجب !

م ١٢٩ / جائز جداً أن يكون الأستاذ لم يتعلم الحساب قط ، ولكن لى شعري هل يجوز أن يكون ضعيف الذاكرة أيضاً ضعفاً يجعله ينسى ما قاله فى كتابه الذى هو « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » ، والذى هو « جديرٌ بعناية كل معنى بسيرة ألى الطيب وشعره ، وحقيق بثقة كل قارىء » ، فإنه قال هناك على وجه القطع : « قصائد بدر التى نظمت فى أواخر سنة ٣٢٨ ، وأوائل سنة ٣٢٩ » ، بهذا التحديد الحاسم

والمبهم أيضاً ، وأيضاً بغير دليل ؟ وإذا صح أنه قد نسي ما قاله في كتابه سنة ١٩٣٦ ، فكيف تذكر في سنة ١٩٤٤ أن ينقله بنصه في مقدمة الديوان الذى فيه تحديد التاريخ بسنة ٣٢٩ ، على وجه القطع بقوله « ينبغي » ؟ يا للعجب ! إنه ، كما قلتُ آنفاً ، كلامٌ ، والله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلا للكلام ، فإذا فعلنا ، فذلك إقرارٌ منا له سبحانه بعظيم نعمته ، والحمد لله رب العالمين .

وفي هذا الكلام آفاتٌ أخرى كثيرة ، أنا أعلمُ من أين أتت ، ولكنى أتركها جانباً ، وأحمّلُ إثمها الرجل الذى أخذ الأستاذُ عنه ، وإن لم يصرّح بذكره . قلتُ آنفاً فى (المقدمة الأولى) التى قال فيها : « قصائد المتنبى فى بدرٍ قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، قلت : « إني أرجح أنه لم يذكرها إلا تمهيداً وحصرًا لما يأتى بعدها » ، إفراطاً فى حسن الظنّ ، وتبرئةً لكلامه من التناقض الفاحش . وهذا التاريخ المحدد فى (المقدمة الأولى) إنما هو تاريخ ابن رائق منذ ولايته على الشام سنة ٣٢٨ إلى أن قتل فى رجب ٣٣٠ ، وليس تاريخاً لبدر بن عمار ، حتى يصحّ أن تكون مقدمة حاصرة لما يأتى بعدها من التواريخ .

/ كلُّ ما فى الأمر أن بدر بن عمّار الأسدى « كان يلى حرب طبرية من قبل ابن رائق » ، كما قال المتنبى نفسه ، أى أن ولايته تبدأ سنة ٣٢٨ حين ولّاه ابن رائق . فإذا قُتل ابن رائق فى رجب سنة ٣٣٠ ، أفمعنى ذلك أن يكون ابن عمار قُتل هو الآخر (أتوماتيكياً) فى هذه السنة ؟ أو معناه أن يكون صُرف عن ولاية حرب طبرية (أتوماتيكياً أيضاً) ساعة قتل ابن رائق ؟ من أين للأستاذ أن يكون العمل الجارى فى الولايات أى يُصرف كلُّ العمال عن ولاياتهم ، إذا مات أو قُتل الذى ولّاهم ؟ أليس ممكناً أن يكون ابن عمار بقى على حرب طبرية بعد قتل ابن رائق ، سنة أو سنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، أو فوق ذلك ؟ ممكن بلا شكّ ، وإذا كان هذا ممكناً ، فما قيمة هذا التاريخ ، « سنة ٣٢٨ إلى رجب سنة ٣٣٠ » فى الحصر المؤدّى إلى حصر تاريخ شعر المتنبى فى بدرٍ بين هذين التاريخين ؟ الأمرُ كُلُّه فسادٌ وتخلُّطٌ ودَعْوَى ، ورغبةٌ فى مخالفتى ، لا أكثر

ولا أقل ، لأنني قلت في كتابي : إن المتنبى بقي في جوار بدر بن عمار : « من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب ، لا على وجه التحقيق » [انظر هذا الفرص : ٢٦٠] ، هذا كُلُّ ما في الأمر « والسلام » . وكُلُّ ما في الأمر أيضاً أن الأستاذ عزاماً ظل ثماني سنوات (من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤) ينتفض في قبضة كلماتي التي قلتها له ونحن في دار مجلة « الرسالة » ، فحاول هذه المحاولة « اليتيمة » البائسة ، في الردِّ عليّ من وراء حجابٍ ! أمّا عقول القراء ، وأمّا التحقيق التاريخي ، وأمّا أمانة العلم ، فأمور لا قيمة لها ، مادام قد بَلَغَ مِنِّي بَطْنُهُ مبلغاً حتى سَقَطَ في يَدِي ، وأطْرَقَتْ أنظر إلى الأرض ، أقرع السنَّ من ندم على ما قلتُ !!

م ١٣١ / هكذا كانت تجري الأمور ، ولا تزال تجري ، على المثل الجاري : « مِنْ دَقْنِهِ وَأَقْتَل لَّهُ » ، يأخذُ مِنِّي ويردُّ عليّ ! ويظنُّونَ أنه باب خفيّ من أبواب علم « السطو » ، فسبحان ربِّنا الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم !

إنما عرضت مثلاً مما في الكتاب لا أكثر ، أمّا سائر ما أخذه الأستاذ عزام اجترأً مجرداً ، أو سطواً عرياناً ، فلم أتعرض له هنا ، وقارىء كتابي وكتابه قادرٌ على أن يراه ، كما رأى بعضه ذلك الشاب العراقيّ الذي لم يدخُل « جامعة » ولكنه ثَقَّف نفسه بالقراءة ، وهو جالسٌ في دكانٍ صغيرٍ يبيِع فيه الكتب ، فكتب إليّ رسالة يذكر فيها أكثر من ثلاثين موضعاً في كتابي ، أخذها الأستاذ فوزّعها بالعدل والقسطاس على أبواب كتابه ، ورحم الله الشابَّ قاسمَ الرَّجَبِ الكُتَيْبِي ، فقد كانَ مثلاًً لليقظة في شبابٍ وشيوخٍ كثيرٍ ، قد نامت عقولهم واسترخت « تحت التخدير الثقافي » !

الكتاب الثاني

أما الكتابُ الثاني ... أما الكتاب الثاني ... أما الكتابُ الثاني ، وأمرنا جميعاً إلى الله ، فهو كتابُ الدكتور طه حسين « مع المتنبي » الذي نشره بعد صدور كتابي بسنة واحدة أو أقل .

قلتُ آنفاً [انظر ما سلف ص: ٣٤، ٣٥]: إني حين قرأت شهادة الدكتور / طه على جيلنا ١٣٢م المفرغ من ثقافة أمته في سنة ١٩٣٥ ، توهمتُ ، بحسن الظنِّ ، أنه سوف يبدأ عهداً جديداً في تفكيره ، وأنه سيفارق السنَّة التي سنَّها هو والأساتذة الكبار ، أعني سنَّة « السطو » وسنَّة التلخيص . ولما فرغت من من قراءة آخر مقالاته في مايو سنة ١٩٣٥ ، وجدتُ أيضاً أنه يُحاول محاولة أن يسلك طريق « تذوق الشعر » [انظر ما سلف: ٣٥] ، وهو الطريق الذي حاولتُ قديماً ، وأنا طالبٌ في الجامعة ، أن أقنعه به فيأبى ويُعرضُ ، وذلك الطريق هو كما قلتُ : « ضرورة قراءة الشعر الجاهليِّ والأمويِّ والعباسيِّ قراءة متذوقة مستوعبة ، ليستبين الفرقُ بين الشعر الجاهليِّ والإسلاميِّ ، قبل الحديث عن صحَّة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، والتماس الشُّبه لتقرير أنه باطلُّ النسبة ، وأنه موضوع في الإسلام ، من خلال رواياتٍ في الكتب ، هي في ذاتها محتاجةٌ إلى النظر والتفسير » [انظر ما سلف: ١٧] .

ثم قلتُ : [ص: ٣٥] واصفاً تذوقه للشعر في مقالاته : « ولكنّه تذوقٌ بلا منهج ، وبلا هدَفٍ ، وعلى غير أصلٍ » . وإذا أنا مخطيءٌ في الأمرين جميعاً خطأً فادحاً .

وجاءَ أسبوعُ الاحتفالِ بمرور ألف سنة على وفاة أبي الطيب ، بدار الجمعية الجغرافية سنة ١٩٣٦ . وقبيل ذلك بأيامٍ كان قارئُ الدكتور طه المصاحِبُ قد لقيني في الطريق ، فأخبرني أنّ صاحبه يرى أن المتنبي « لقيطٌ لِعَيَّة » ، فاستكبرت ذلك واستنكرته مستعيذاً بالله من سوء ما أسمع . كنتُ لم ألقِ الدكتور طه منذ فارقتُ الجامعة في سنة ١٩٢٨ ، حتى كان أسبوعُ هذا / الاحتفال . وفي أوّل يوم من الأسبوع بدأ الدكتور طه ١٣٣م

محاضرته ، واستفتحها قائلاً : « لقد شكَّ بعضُ الناس في نسبِ المتنبِّي ، وأنا أوافقُه على هذا الشكِّ » ، فكذتُ أقوم من فوري لأردَّ عليه ، ولأُعلمه أنَّي حاضرٌ غير غائب ! فقد غَظني زهوهٌ وخيلاؤه ، وعُنْجُهَيْته وهو يرثل ألفاظه ترتيباً ، ليجمع أنظارَ الناس إلى مخرَج كلماته ، كعادته في الزهوي . وكان إلى جوارى أحدُ الأساتذة المقرَّبين إليه ، فأحسُّ بما هممتُ به فأمسكني وقال : لا تَعْجَلْ ! فقلتُ له : إذن ، فأبلغ الدكتور طه أن موافقته أو مخالفته لا تساوي عندي « قرشاً ماسحاً » تتلافظه الأيدي في الأسواق ، لأنه لُفاظةٌ لا تصلحُ للتداول ! وانتهت المحاضرة .

وعند انصرافي رأيتُ أستاذنا عبد الحميد العبادي رحمه الله ، فأقبل وأخذ بيدي وخرجنا من القاعة ، وإذا نحن فجأة عند الباب خلف الدكتور طه حين انصرافه ، فعزمتُ عليَّ أستاذنا العبادي أن أسلم علي الدكتور ، فاستعلن غضبي وأبيتُ ، ولكن لم أكد حتى سمعته يقول للدكتور : هذا محمود شاكر ، يادكتور ! فوقف ، والتفت التفاتةً يسيرةً ، ومددت يدي فسلمتُ ، وغلبني الحياءُ والخجلُ ممَّا لقيني به من فرط البشاشة والحفاوة ، ثم أخبرني أنه قد قرأ كتابي كله ، وجاء بثناءٍ لم أكن أتوقَّعه ، وأطال وأفاض ، وعمرني ثناؤه حتى ساخت لي الأرض [انظر خبر ذلك فيما سيأتي : ٥٢٣] . فمات لساني في فمي ، فلم أستطع أن أنبس بحرفٍ حتى فرغ ، وهو آخذ بيدي لا يرسلها ، إلى أن ركب ، وافترقنا . غير أن صاحبنا الذي كان إلى جوارى ، لم يكذبُ خبراً ، فأبلغ الدكتور طه رسالتي إليه ، لأنني لم أكد / أبلغ باب دار الجمعية الجغرافية في اليوم التالي ، حتى وجدتُ صاحبنا على الباب ينتظرنِي ، ويأخذني إلى الدكتور طه ، فإذا هو جالسٌ ومعه الدكتور منصور فهمي وأستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق وآخرون ، فاستقبلني الدكتور مهلاً ضاحكاً أشدَّ ضحكٍ وهو يقول : لا تبرحُ أن تكونَ صعيدياً ، كما كنتُ قديماً !! واستمرَّ الحديث بيني وبينه وبين الجماعة ساعةً ، حتى دنا ميعادُ محاضرة اليوم ،

م ١٣٤

فقمنا إليها ، [انظر طرفاً من الحديث فيما سيأتي ص : ٤٢٧] .

تصرَّم الأسبوع كُلُّه ، فلا أنا سَعَيْتُ إلى لقائه مرَّةً أُخرى ، ولا هو ذكّرني فناداني ، ولكنِّي ، في الحقيقة ، قضيتُ بقية الأسبوع أَقْلَبُ أمرَ الدكتور طه في نفسي ظهراً لبطنٍ ! لم أرتح إلى هذه الحفاوة المُفْرِطَة ، ولا إلى حديثه المُسَهَّبِ الذي يَرشُحُ ثناءً وإطراءً ، ورايتني ما رايتني من أمره ، لأنِّي أعرفُه معرفةً !! فلما لقيتُ الشيخَ مصطفىَ عبد الرازق في داره بعد أيَّامٍ ، وكان قد ذكّرني في كلمته التي ألقاها في أسبوعِ المتنبّي ، بثَّتُ الشيخَ ما في نفسي من الارتياحِ في أمرِ الدكتور ، وأنِّي مُقْبِلٌ غداً على تجرُّعِ إحدَى فَعَلَاتِهِ ! فاستنكر الشيخُ حديثي استنكاراً شديداً ، وغضبَ مُزوراً عن كلامي ، وقال لي : لا تَكُنْ سَيِّءَ الظَّنِّ بأستاذك ! وأمسيك عليك لسانك وأوهامك ! ورحم الله الشيخَ ، فقد كانت صداقته للدكتور طه وحبُّه إيَّاهُ يزيدان في سلامة طويته !! ويقعدان بها على شفا حُفْرَةِ هاويةٍ لا يراها ويأبى أن يراها ، « وعينُ الرُّضَا عن كُلِّ عيبٍ كليلَةٌ » ! ولا أدري بعد ذلك ما كان ؟ وهل أحسَّ ساعةً أن الدكتور طه قد خذَلَهُ وخذَلَتْ ثِقَتَهُ / خِذْلَاناً كبيراً ، أو لا ؟ فإنَّ كُلَّ ما سمعه الشيخُ مني من شكوكٍ وريبٍ ، سرَّعانَ ما ١٣٥ م تحقَّقَ ، على الوجهِ الذي فصلَّته له تفصيلاً صريحاً . وكان ما كان ، و « رَجَعَتْ رِيْمَةٌ ، إلى عاداتها القديمة » ، كما يقال في المثل ، بل هي لم تفارقِ عاداتها قط ، ولا تملكُ أن تفارقها ضَرِيَّةً لازب .

ففي يناير سنة ١٩٣٧ ، أي بعد أقلَّ من عامٍ منذ ظهر كتابي ، كان ما توقَّعته ، كالذي حدَّثتُ به الشيخَ حَدْوَكِ القُدَّةِ بالقُدَّةِ ، كما يقال في هذا المثل وإخوته . نشرت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » كتابَ الدكتور طه « مع المتنبّي » في جزئين كبيرين ! وقد حدَّثتكَ قبل ، [ص : ٣٤] ، أن الدكتور طه في سنة ١٩٣٥ ، وما قبلها وما بعدها ، « كان في قمة مجده الذي حازه بالضجة التي ثارت حول كتابه « في الشعر الجاهلي » ، وأنه كان يومئذ يروح ويغدو على ذُرَاهَا ، يملؤه الزَّهْوُ ، وتستخفه الحُيَلَاءُ ، ويميدُ به العُجْبُ » .

اشتريت الكتاب ، وكان خسارة ! ولكن أين المفر ؟ فكل محب للقراءة مثل يوقعه حبه مراراً وتكراراً في الخسارة بعد الخسارة ، ثم لا يتوب ! هكذا كُتِبَ زماننا ! لقد جلبت على نفسي شراً كبيراً ! شرعت أقرؤه ، وأجارك الله وعصمك من كل تلف . وقعت في مهلكة من غم مطبق تُؤيس من كل نجاة . ست صفحات في صدر الكتاب [من ص : ٣ إلى ص : ٨] / وأنا تحت أقدام مزهومة ، وحطوات تتبختر ، وتحت مواطىء عجب غليظ يدوسنى جيئةً وذهباً ، منذ أول سطر :

« لا أريد أن أدرس المتنبى ... لم أترك القاهرة إلى فرنسا للبحث والدرس ... كتب لا أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين ... لا أريد إذن أن أدرس المتنبى ... فررت بنفسى وأهلى من الدرس والتحصيل ... أكره لنفسى أن أمضى في درس المتنبى أكتفى بأيسر طبعة من ديوان المتنبى لأنى لا أريد درساً ولا بحثاً ... ليس المتنبى من أحب الشعراء إلئى ... هو بعيد كل البعد أن يبلغ من نفسى منزلة الحب والإيثار أحب أن أعاند نفسى وأخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر لم أجد بأساً أن أثقل على نفسى بالتحدث إلى المتنبى إذن إنما هى قراءة المتنبى لا أريد أن أدرس المتنبى إذن ... إنما هى قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة قراءة إن صورت شيئاً ، فإنما تصور طغيان المرء على نفسه ، ولعبه بوقته وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ... قل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه . قل إنه كلامٌ يُمليه رجلٌ يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبه هدياناً ، قل إنه كلامٌ يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلامٌ يصدر عن شذوذٍ وجُموح ، فأنت محقٌ فى هذا كله ما أظننى أعرفُ أدباً مقيداً مسرفاً فى التحرج ، غالباً فى الاحتياط ، كأدبنا العربى الذى ينشئه أصحابه وهم يفكرون فى الناس أكثر مما يفكرون فى أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم ، وأصبحوا عبيداً للجماعة ، وخدماء للقراء .

« فلنتمرد على الجماعة ، ولنثر بالقراء ، ولنبتدئ الاحتياط ، إلا هذا الذى يُثير الشرر ويؤذى الأخلاق » ، انتهى تلخيصه ، من [ص : ٣ إلى ص : ٨] .

« لا أريد أن أدرس المتنبى » ، « ولا أريد بحثاً ولا درساً » !! زهوٌ بغيض ، وُخِيلاءٌ نائية ، وعُجْبٌ لا يرحم بائساً رماه حُبُّ القراءة في تَنُورٍ وَقُوْدُهُ من زَمَهِيرِ ثُرُثِرَةِ قارسة . و « شِنْشَنَةُ أَعْرَفُهَا من أَحْزَمِ » ، فهو دائماً يَحْبُّ أن « يَغِيظُ » القراء ، وأن يثير « سَخَطَهُمْ » ، وأن يعاند نفسه و « يعاند » الناس . سلسلة طويلة مكررة من الاستعلاء والاستخفاف . ومضيتُ أقرأ محتماً ما حُمِلْتُ ، فرأيتُ الدكتور قد صدقَ وعيده حيث لا خَيْرَ في الصُّدُقِ ، فما هو إلا « الذي يثير الشرَّ ويؤذي الأخلاق » . كُلُّ ذلك فَعَلَ ، وجاوزهُ إلى أكبر مما قال وأفحش ، حتى فرغ من الكتاب . ولكنني فوجئت بفصل في ثمانى صفحاتٍ [ص : ٧٠٤ - ٧١١] ختم به كتابه ، بعنوان « بعد الفراغ » ، لا يقلُّ عن الفصل الأوَّلِ إغراقاً في الزهو والعُجْبِ والُخِيلاءِ ، ولكنه جاءني أنا وحدي بأعجب العجب ، فعرفني بشأن من شئون الدكتور لم أكن أعرفه أو أعهده ، من ذلك أنه رجل نساءً ، ينسى كُلُّ ما يهضبُ به لسانه نسياناً كاملاً في أقل من نصف سنة ، ثم يعود فيذكره ، فينقضُ على نفسه ما قاله آنفاً نقضاً مبرماً !

وبيان ذلك : أنه كان مما قال لي يومَ دار الجمعية الجغرافية ، على مشهدٍ / من ١٣٨ م
الأساتذة وقوفاً حوله (١) : « يا فلان ؟ اعلم أني قرأتُ كتابك مرتين ، بل ثلاثاً ، ولا أظنُّ إلا أني عائدٌ إلى قراءته مرَّات ، وأنا أشهدكم (هكذا قال) ، أنني لم أقرأ منذ سنوات كتاباً

(١) قلت في نقدي لكتاب الدكتور ، المنشور في هذا السفر ص : ٥٢٣ ، ما نصه :

« إن الدكتور طه نفسه ، في أول لقاء لي معه في يوم من أيام أسبوع المتنبى بالجمعية الجغرافية ، وقَفَ يثنى على كتابي بما أستحیی أن أردده في هذا المكان من كلامي . ثم اعترف بأن أحداً لم يسبقني إلى توقيت قصائد المتنبى هذه ، وأنه قد رضى كل الرضا إلى آخر كلامه الذي أذكره ولا أنساه » . قلت هذا في مايو سنة ١٩٣٧ ، والذي أذكره هنا هو بعض ثنائه يومئذ ، ولا بأس إن شاء الله ، لأنني أقصُّ قصَّةً ، ولا حياءَ في القصص ، فيما أظن !!

مثل هذا الكتاب ، ولا أستثنى ، لا في العربية ولا في غير العربية ، لا عن الشعراء ولا عن غير الشعراء . وأشهد أتى ما قرأته مرة ثم عدت إليه أقرؤه ، إلا وجدت لذة أخرى فوق التي وجدت في المرة السالفة . وأشهد أنك مثلت لي المتنبى تمثيلاً ، وأنتك أحييته إحياءً كأنى أراه وأسمعه . وأشهد أنك درست المتنبى كما كان ينبغي أن يُدرس ، وأشهد أنك صوّرت المتنبى كما كان يعيش ، أو كما كان ينبغي أن يعيش . وأشهد » ، وثناءً آخر طويلاً ، فقد وجد لسانه لذة (أشهد) ، فراح يكررها على عادته .

و (من نفسى) ، أحبُّ أنا أيضاً أن (أشهد) شهادةً واحدةً على نفسى : / أنى لم أجد لإسهابه يومئذ في الثناء ، ولا لإغراقه في الإطراء ، بعض الذى وجدته لثناء الرافعى حين ذكر كتابى ، ولا بعض الذى وجدته من الراحة والبهجة في صمت العقاد عن كتابى ، [انظر ما سلف ص : ٧٦ - ٧٨] ، بل الذى وجدته جاثماً في نفسى بعد فراقه ، هو ما أفضيتُ به إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، لأننى كنت خبيراً بالرجل أعرفه معرفةً ، و « خَمْرُ أَبِي الرَّوْقَاءِ لَيْسَتْ تُسْكِرُ » ، أو هى ليست تسكرنى أنا على الأقل ؟

م ١٣٩

قال ما قال ثم نسيه ، هكذا ينبغي أن أظن ! وبعد أن فرغ من كتابه تذكر ما قاله ، فأخذه ، فأكله ، فمضغه فأجاد مضغاً ، ثم ابتلعه ، ثم عاد فاستخرجه ، فأنشأه خلقاً آخر ، فقال : « الأمر الثانى أنى أبعُد الناس عن حسنِ الرأى فيما أُمليتُ ، ولا تظنُّ أنى أريد التواضع = أو أن أغضُّ من هذا الجهد الذى أنفقته إنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوّر شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوّرنى أنا في بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى (!!) ، أكثر ممّا يصوّر المتنبى » ، (وهذه حقيقة كتابه هذا ، لكن من غير الوجه الذى أرادهُ هو !!) . ثم قال بعقب ذلك مباشرةً : « وإنه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالعواطف والخواطر التى يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجّله في كتاب ، ظنُّ أنه صوّر الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغي أن يُدرس ، على حين أنه لم يصوّر إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا ما اضطربَ فيها من الخواطر والآراء » ، وفهمت أنا تعريضه الخفى ، وفهمت أيضاً

(نظرية / اللحظات !) التي أتى بها بعد ذلك ، حين استمر يتكلم حتى ١٤٠ م سكت ووضعتُ الكتاب جانباً ، وعزمتُ أنا على أن أتكلّم .

وفي ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧ ، كتبتُ المقالة الأولى ، من المقالات التي جعلتُ عنوانها : « بينى وبين طه » . وحين بدأتُ أكتب ، كنت قد حدّدت طريقي تحديداً كاملاً ، وهو أن أواجه الدكتور طه بثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى ، أنه ، في أكثر أعماله ، « يسطو » على أعمال الناس سطواً عُريانياً أحياناً ، أو سطواً متلفعاً بالتذاكى والاستعلاء والعجب أحياناً أخرى .

والحقيقة الثانية ، أنه لا بصّر له بالشعر ، ولا يحسن تذوقه على الوجه الذي يُتيح للكاتب أن يستخرج دَفَائنه وبواطنه ، دون أن يقع في التدليس والتلفيق .

والحقيقة الثالثة ، أن منطقَه في كلامه كُلّه مُختل ، وأنه يسترّه بالتكرار والترداد والثرثرة .

ولم أجد بُدّاً من هذه المواجهة ، لأني يوم فارقت الجامعة ، سنة ١٩٢٨ فارقتها « ومعى ذلُّ العجز ، يومئذٍ ، على مواجهته برأى في تفاصيل « سنة السطو » التي سنّها لتلاميذه من بعده = ومعى أيضاً ما أجده في نفسى من البشاعة ، بشاعة ادّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنه مما اهتدى إليه ، واستحقَّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناة في البحث وشقاء في الدرس = وأن عجزى ، كان ، عن مواجهته بلسانى ، غير متهيّب ولا متأدّب ، كان يهدمُ نفسى هدماً ، وينسفُ آدابى نسفاً ، ويتركُ في ضميرى غُصّةً تأبى أن تزول . كان شيئاً بشعاً لا أطيعه » ، [انظر ما سلف ص : ١٨] . كان ذلك كُلّه مما أجد ، لا لأنه كان أمراً يمسُننى ، لا ، بل لأنه كان يسُنُّ سنةً مُتلفةً مفسدةً للحياة الأدبية والحياة / العقلية والحياة النفسية في الجيل البائس الذى أنا منه ، بسطوه سطواً عُريانياً على مقالة الأعجمى المستشرق « مرجليوث » ، ثم بسطوه على آخرين لم أذكرهم ، سطواً متلفعاً بالتذاكى والاستعلاء والعجب . ذلك عجزٌ كان ، ثم انقضى .

أما الآن ، فلا ! وإذا كان غيري قد قبل راضياً بما يفعله الدكتور بجهدهِ ونُصَبهِ ومعاناته ، أو قَبِلَ ذلك صامتاً على مَضَضٍ ، اتقاءً لَمَعْرَةَ لسانهِ ، أو هيبَةً لما حازهُ من المجد والذكر والصَّيْتِ ، أو مخافةً من سوء ظنِّ الناس به ، أو رجاءً لِخَيْرٍ يتوقَّعه على يديه ، فإنِّي أُبَيِّتُ . أُبَيِّتُ في سنة ١٩٣٧ أن أستخذى لهذا السطو والإرهاب (الثقافي) !! وأخذتُ هذه المقالة الأولى ، وذهبتُ إلى دار صحيفة « البلاغ » ، إلى أستاذنا إبراهيم عبد القادر المازني ، وسألته أن يقدِّمَنِي إلى صاحب « البلاغ » عبد القادر حمزة باشا ، ولم أذكرُ له شيئاً مما أريده ، فقدَّمَنِي إليه وانصرف . وبعد حديثٍ قصيرٍ عرفته فيه بنفسِي ، أخرجتُ المقالةَ ومددتُ يدي بها إليه ، وقرأَ العنوان : « بيني وبين طه » والأسطر الأولى ، ثم نظر إليَّ ، وقال بهدوئه الركين : قد قرأتُ عدد المقتطف ، ولكنني لم أر كتاب الدكتور طه . ثم عاد يقرأ حتى فرغ . ثم وضع المقالة أمامه على مكتبه ، وقال لي : لماذا كُلُّ هذا العُنف ؟ فبدأتُ أحدثه عن أوليَّةِ أمرِي مع الدكتور طه في الجامعة ، حتَّى بلغتُ ما كان منه يوم دار الجمعية الجغرافية ، وما أفضيتُ به من شكوكي إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما تحقَّق من هذه الشكوك بتأليفه كتاب / « مع المتنبي » . وكان حُسن استماعه لي وإصغائه ، يزيدني عُنفاً في الحديث ، فلما بلغتُ الغاية وسكُتُ ، قال لي : ألا تخافُ لدَدَ الدكتور طه ؟ فقلتُ : إني لا أهأبه ، بل أنا أعرفهُ ، وأعرفُ أنه إذا ما قرأ المقالة الأولى وما بعدها سوف يعرف ما عندي . والذي عندي من أدلَّةِ سطوه على كتابي ، مادَّةً وأسلوباً وطريقةً في تذوق الشعر ، وما عندي من أدلة سَطوه على آخرين ، سوف يمنعه أن يتكلَّم ، ولو تكلم ، « فما كلُّ بيضاء شَحْمَة ، ولا كلُّ سوداء ثَمرة » ! فضحك وقال : يا لك من مخاصم عنيد ! ثم قال : سأنشر كلَّ ما تكتبه ، ولكنني أحبُّ أن تفعل كذا وكذا نصيحةٌ ضَمَّنْتُ بعضها أوَّلَ المقالة الثانية ، [انظر هذا السفر : ص ٤١١ وما بعدها] .

ومضيتُ أكتب أسبوعاً بعد أسبوعٍ في البلاغ بعنوان واحد هو « بيني وبين طه » من بلاغ يوم السبت ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ (٣ فبراير سنة ١٩٣٧) ، إلى أن

كان اليوم الأخير من صفر الخير سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) . لم أكد أفرغ من كتابة المقالة الثانية عشرة ، حتى جاءني نعيُّ أستاذي وصديقي مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، فأنهدم في نفسي كل ما كان قائماً ، وذهب الدكتور طه وكتابه جميعاً من نفسي تحت الهدم ، فزدت كلمة في آخر المقالة هي : « ولكن وننتهي من هذه الكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه في ص : ٩٨ ، فإن في الذي يستقبل من كتاب الدكتور طه طولاً قد امتدَّ وسمَق وتسامى !! وإن في حاجة النفس لما يشغلنا عن الدكتور طه ، وما يأتي به ، أو يقع فيه ، أو يعرض دونه :

ليت الحوادث باعنتني الذي أخذت مني ، بجلمي الذي أعطت وتجريبي !

/ وانقطعت عن البلاغ أياماً طويلاً ، فلما زرت الأستاذ عبد القادر حمزة ، حاول ١٤٣ م أن يجعلني أعاود الكتابة ، فأصررتُ على تركها . وحاول آخرون ، فلم أستجب ، وكرهت كتابي وكتاب الدكتور طه جميعاً ، وعدتُ إلى عُزَلتي لا أبالي .

وكذلك لم يكن مقدراً لي أن أتمم هذه المقالات على الوجه الجامع ، لأنني لم أتجاوز في نقدي كتاب الدكتور طه الصفحة الثامنة والتسعين من ٧١١ صفحة . ونعم ، كنتُ حريصاً ، منذ أوّل ما كتبت ، أن أكشف في مقالاتي الأولى عن أساليبه المتنوعة الماهرة في « السطو » العُريان ، وعن أساليبه أيضاً في « السطو » الخفي الذي يحاول بالثرثرة البارعة ، أن يجعل ما سطا عليه ، يبدو كأنه رأى ارتآه هو بعد بحث ودرس وتنقيب وتحقيق ، إلى آخر ألفاظه التي يغرُّ الناس بها عن الحقيقة . ومع ذلك فأنا أستطيع أن أقول إن الذي ذكرته منها بلا تفصيل في مقالاتي ، هو جِماعُ أساليبه التي دَرِب عليها من قبل في كتابيه : كتاب « في الشعر الجاهلي » ، وهو الحاشية الصُّغرى على مقالة مرجليوث ، وفي تُوأمه المعدل بعد أن علّت به السنُّ ! وهو كتاب « في الأدب الجاهلي » ، وهو الحاشية الكبرى على هذه المقالة [انظر ما سلف ص : ١٤] . بيد أنني في الحقيقة لم أبلغ في الذي كتبتُه

يومئذ ، كُلُّ الذى كان ماثلاً فى نفسى بعد الفراغ من قراءة كتابه « مع المتنبى » ، وحين بدأتُ أكتب ، لأنى كنتُ أدخِر شيئاً كثيراً لأبواب الكتاب الأخرى ، من ص : ٩٩ إلى ص : ٧١١ .

م ١٤٤ / وكتاب « مع المتنبى » هو فى الحقيقة حاشيةٌ كبرى على ثلاثة كُتب : أولها كتابى ، ثم كتاب الأستاذ عزام ، ثم كتاب بلاشير عن المتنبى ، وكان الدكتور طه قد اكتسب خبرة فائقةً ، بعد عشر سنوات من (سنة ١٩٢٦ ، إلى ١٩٣٦) ، فى كتابة الحواشى (الحديثة) . ففى هذه الحاشية الكبرى جمع كُلُّ ما استطاع أن يحتجته من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن تجاوز هذه الصفحات الثمانية والتسعين التى وقفتُ عندها . وقد أقرَّ هو نفسه على ذلك بلسانه ، وذلك أنه قال فى خاتمته التى سماها « بعد الفراغ » ، بهذا الرَّهْو الغريب الذى كان يستخفه مُدلاً على القراء :

« لم أكن جاداً ولا صاحبَ بحثٍ وتحقيق ، وإنما كنتُ عابثاً أريدُ أن أداعب المتنبى ، أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً ، وليس أدلُّ على ذلك من هذه الصفحات التى تقرؤها فى صدر هذا الكتاب . فهى لا تصوِّرُ بحثاً ولا جدّاً ، وإنما تصوِّرُ عبثاً وهوّاً ، ولكننى لم أكد ألقى المتنبى وآخذ فى الحديث معه أو الحديث عنه ، حتى صرفنى عن اللهو والعبث ، [الكتابة عملٌ ظريفٌ ، أليس كذلك ؟] ، واضطررتنى إلى محاولة البحث والتحقيق ، وأى غرابة فى ذلك ؟ [لا ، لا غرابة !] ، ولم يكن المتنبى صاحبَ راحة ولا ميالاً إلى اللهو ، وإنما كانت حياته كلها جدّاً ، وجدّاً ثقيلاً ، ينتهى به وبقراءته إلى الملل أحياناً » ، (ص : ٧٠٤) .

م ١٤٥ لا ريب عندى فى أن هذا الرَّهْو كُلُّه بعبثه وجدّه ، عبثٌ محضٌ ، / وخيلاءٌ بغیضة . ومع ذلك ، فإن صحَّ عند أحدٍ أنه جدُّ ، إذا هو تورط فى الخضوع لمنطق الثرثرة ، فإن هذا الجدُّ ليس من جدّه هو ، بل من جدِّ كتاب الأستاذ عزام ، وكتاب الأستاذ بلاشير ، فهما الكتابان اللذان أخرجاهُ من العبث الجادِّ إلى الجدِّ العايب ! ولذلك صار فيما بعد ص ٩٨ ، يذكر أسماء بعض من كتب عن المتنبى وخاصة

بلاشير ، ويرصع بعض الصفحات القليلة بمحاشٍ قليلة ، يذكر فيها المراجع بالجزء والصفحة ، ويذكر أيضاً ديوان المتنبي بشرح الواحدى ، كأن هذه المراجع مراجعته هو ، وعنها أخذ ما أخذ ، ولكنها فى الحقيقة مأخوذة من كتابى عزّام وبلاشير ، والحمد لله الذى عافانى ، فليس فى كتابى ذكرٌ للمراجع . ونسى الدكتور طه أنه حدثنا فى أوّل كتابه أنه كان معتزلاً فى « قرية من قرى الألب بفرنسا » ، وأنه لم يحمل معه من مصر من الكتب ، إلا « أيسر طبعة من طبعات ديوان المتنبي » ، وشرح الواحدى لديوان المتنبي لا يدخل فى باب « أيسر طبعة » ! فمن أين له المراجع ؟ أليست هذه عجيبة من رجل كالدكتور طه ، ذكورٍ لا ينسى .

لم ينسَ ، ولكنه مُستخفّ بالقراء ويعقولهم ، ولكن الكتابة عملٌ ظريف ، وتأليف الكتب عملٌ أظرف ! فإن الدكتور طه لم يخرج فى كتابه هذا عن أن يكون عابثاً بلا جدِّ ، فقد جمع الكتب الثلاثة وعجنها عجنًا حتى كانت صلصالاً من حمٍ مسنونٍ ، يستجيب أحسن استجابة لأنامله الماهرة ، فهو يشكّل منها أشكالاً كما يشاء أو يشاء هواه !

وإذا كنتَ محبّاً للوقوف على قدرة هذا المثال المقتدر فى العبث ، فإنى / أدلّك على ١٤٦ م المقالات الثلاث الأخيرة من مقالاتى [هذا السفر : ٤٨٧ - ٥٣٠] حين اهتبل من بلاشير فكرة « القرامطة » اهتبال الصائد ، وجعل يردّد لفظ « القرمطة » و « قرمطية المتنبي » ترديداً غليظاً ، تلذذاً وتشدقاً وتشبهاً بالدين « يملأون أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ » أو كما قال : [انظر ما سلف : ٣٢] . وهذا من فعله سَطَوَ مجرداً على بلاشير . وفكرة « قرمطية المتنبي » ، على سخافتها وتفاهتها ، فكرة واهية دالّة على خلوّ عقل القائل بها من فهم « القرمطية » ما هى ؟ ولكن الدكتور ظنّ أنه قادرٌ بالثرثرة ، وبعجن ما فى الكتب الثلاثة ، على أن يجعل شعر المتنبي مبيناً عنها ، مع أن شعره دالٌّ على خلافها تمام الدلالة ، وكلامى الذى افترضه من كتابى ، وعجنه فى صلصاله ، مناقضٌ لها كلّ المناقضة . فكيف أطاق أن يفعل ما فعل ! هذا عبثٌ مجردٌ لا خير فيه . فاقرأ ، غير

مأمور ، ما كتبتُه في المقالات الثلاث ، فستعلم علم اليقين أن حياتنا الأدبية والثقافية والفكرية عامة ، قد بُذرت فيها بذورٌ من الفساد والعبث والاستخفاف ، والتعالم البغيض ، والسفَه المؤدَّى إلى انتقاض عُرى العقل عروة عروة ، حتى أثمرت هذه الثمرة اليانعة النضيرة التي تتحلَّى بها حياتنا الأدبية اليوم ، (سنة ١٩٧٧) ، وتتميزُ تمييزاً ظاهراً ، في كتابة الكُتَّاب وبحث الباحثين ! لا يكاد أحدنا يستثنى نفسه ، فهو كجليس صاحب الكير (الحداد) ، إن لم تحرقه ناره ، ناله من شرِّه ! ما علينا ، والأمر لله وحده ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليه .

م ١٤٧
وكتاب « مع المتنبى » ، بُنى على طرازٍ غيرٍ معهودٍ في كتب الدكتور / طه أو كتب غيره ممن كتب عن الشعراء ، فلذلك قلت مراراً في مقالاتي ، وفي الذى تقرأه من قصة كتابي : إن الدكتور طه لم يكن إلا مقلداً لى ، وقد وصفت نفسى آنفاً [ص : ٤٢] ، وأنا أميلُ الرأى حائراً بين أساليب الكتابة ، وذكرت طرفاً من مناهج المحدثين من كتابنا فى تأليف الكتب فى تراجم الشعراء وغيرهم ، وبينت متى استقمْتُ على الطريق وكيف ؟ [ص : ٤٦] ، وهو طريقٌ مخالفٌ كلِّ المخالفة للمعهودِ من كُتُب التراجم ، وقد انفردتُ بهذا النهج على غير مثالي سابق [ص : ٧٧] ، فإذا جاء بعدى رجلٌ يقصُّ على آثارى قصصاً ، تُخطوةً تُخطوةً ، فهو بلا ريبٍ مقلدٌ لا أكثر ولا أقل . وقد بينتُ ذلك فى مقالاتي بياناً صريحاً ، ثم قلت : « ونحن هنا لا نفخر بأننا أوَّل من كتب تاريخ المتنبى على هذا الوضع الذى تراه فى كتابنا ، ولكننا نقرُّ ذلك إقراراً للحق ، وبياناً للذى فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ آراءنا فأفسدها ، ووضعها فى غير موضعها ، واستعملها بغير حقها ، وأخرج كتابه على غرار كتابنا غير متهيب ولا متورِّع من مذممة أو إثم . وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملققة لأنفسنا » [هذا السفر : ٥٢٩] .

ومع ذلك فإن بناء كتابه قائم على جُدرٍ تُريدُ أن تنقض ، لأنَّ بناءه كان فاعلاً بغيره ، لا بنفسه ! وبناء كتابي كان بناءً « متذوقاً للشعر » بنفسه وعلى طريقته .

/ وقد ذكرتُ آنفاً ، [ص : ١٧] أن أول صرّاعي مع الدكتور طه في الجامعة ، كان م ١٤٨ صراعاً على ضرورة قراءة الشعر الجاهلي « قراءة متذوّقة مستوعبة » ، وأنى كنت أحاول يومئذ أن أقنعه به فيأبى ويعرضُ ، [ص : ٩٩] ، كان ذلك سنة ١٩٢٧ وما بعده = ثم لما جاء هو في سنة ١٩٣٥ ، وتذكر ما كنت أصارعه عليه ، حاول محاولة ما أن يسلك طريق « تذوّق الشعر » . ففعل ذلك ، ولكنه « تذوّق بلا منهج ، وبلا هدف ، وعلى غير أصل » ، [ص : ٣٥ ، ٩٩] . فلما كانت سنة ١٩٣٦ ، وقرأ الدكتور طه كتابي ، كما قال هو : « مرتين ، بل ثلاثاً ، وما أظن إلا أنى عائدٌ إلى قراءته مراتٍ » ، [ص : ١٠٣] ، ظنّ ، وأكذبُ الحديثِ الظنّ ، أنه قد قتل « تذوّق الشعر » علماً حتى طاعتُ له عواصيه ، بعد أن رأى تفسير هذه القضية ، قضية « تذوّق الشعر » التي كان أباهاً على ورفضها منى رفضاً = رآها مطبّقة تطبيقاً شاملاً لكتابي كُله .

وسوّلت له نفسه أن يفتال « تذوّق الشعر » ، ووجده أمراً لا غبار عليه أن يفعله معي ، جزاءً وفاقاً = ولم ؟ لأنه ظنّ أنّي اغتلتُ « منهج الشكِّ » وسرقتُه منه وغلبته عليه « سطواً » فاجراً ، حين شككتُ في نسب المتنبي الذي رواه الرواة !! فواحدة بواحدة ، والبادي أظلم .

وهنا نكتة لطيفة أحبُّ أن تقف عليها ، لتعرف أساليب المكر / اللطيف في م ١٤٩ الكتابة ، وفي صناعة « السطو » خاصة ، لأنها نافعة مُجرّبة ! فالدكتور طه حين قرأ كتابي ، وقام قائماً في الجمعية الجغرافية يلقي كلمته ، كان أوّل ما افتتح به كلامه أن قال [انظر ما سلف : ١٠٠] : « لقد شكّ بعضُ الناس في نسب المتنبي ، وأنا أوافقُه على هذا الشكِّ » وانطلق يردّها مراراً مائلاً بها فمه . فلما حملتُ صاحبي الذي كان إلى جوارى مألّكة (أى رسالة) يبلّغها الدكتور وهي : « أبلغ الدكتور أن موافقتُه أو مخالفتُه لا تساوى عندي قرشاً ماسحاً ، تتلافظه الأيدي في الأسواق ، لأنه لفظة لا تصلح للتداول » ،

لم يكذب صاحبي فبلغه إيّاها . فلما استدعاني في اليوم التالي ، استقبلني ، كما قلت ، مهللاً ضاحكاً أشدّ ضحك وهو يقول : « لا تبرح أن تكون صعيدياً ، كما كنت قديماً » ،
يعنى أيام جدالي إياه في الجامعة ، في « المنهج » و « الشك » و « تذوق الشعر » ، [انظر ص : ١٧] . ولا شكّ عندي البتّة في أمر الدكتور طه ، أنه حين بلغته الرسالة ، علم علماً ليس بالظنّ ، أتى أعني « الشكّ » الذي اصطنعه ، كما يقول هو ، منهجاً ، وذكر كلّ ما كنت أقوله له من القوادح المهلكة لهذا المنهج ، « منهج الشكّ » ، وعادت إليه ذكرى استخفافي به ، وأنه ليس شيئاً يعتدُّ به ، وأن أمر العلم عندنا ، نحن أهل العربية والإسلام ، قائمٌ أبداً في كلّ خبرٍ من الأخبارِ على « التبيين » ، وهذا « التبيين » هو الذي أنشأ علم « الجرح والتعديل » في الحديث ، وأن منهجه هذا لا يساوى شيئاً ، إذا ما قورن بالذي عندنا في ذلك مبدولاً لكل طالب علمٍ هو حقُّ الطالب للعلم ، لا الطالب للثرّة = وأن هذا مبدولٌ عندنا في كلّ كتابٍ = وأن / أصله كلّهُ راجعٌ إلى هداية الله تعالى لعباده المؤمنين ، حيث قال لهم في سورة الحجرات : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) ، [وقد بينتُ ذلك في كتابي : « كتاب الشعر »] .

فانظر ماذا فعل بعد ذلك ؟ أَلْف كتابه « المتنبى » ، وتجاهلَ كلّ التجاهل كلمته التي افتتح بها محاضرتَه ، والتي جهّل فيها اسمي تجهيلاً ، فقال : « لقد شكّ بعضُ الناس في نسبِ المتنبى ، وأنا أوافقُه على هذا الشكّ » وألغاهما إلغاءً = مع أن « الشكّ » منهجُه ! = وافتتح كتابه بهذه العبارة :

« قد تعودّ الناسُ أن يؤمنوا بأن المتنبى عربيٌّ خالص النسب » ، وظلّ يأكلُ الكلام أكلاً ليثبت « أن المتنبى « لقيطٌ لعنّة » ، لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً » ، واجتنب لفظ « الشكّ » اجتناباً يقظاً جداً ، وحشاً هذا الفصل والذي بعده بألفاظ « والشيء الذي ليس فيه شكّ » و « أنا لا أشك » و « لا نكاد نشكّ » ، و « أنا لا أفهم الشكّ في عربية المتنبى » = أي هي ألفاظٌ تدلُّ على نفى « الشك » جميعاً ، ثم يأتي بها

بعد كلامٍ طويلٍ في معرض شيءٍ آخر ، في قوله : « ومن حَقَّك أن تسألني لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبي ، وأظهر الشك في معرفته لأبيه وأمه ، ما دمت لا أميل إلى الجدل في عنصره العربي الصريح » ، [ص : ٢٥٠] . ومع ذلك فقد كان في هذا « الشك الملقب » مقلداً مُسيئاً .

/ وقد قلتُ آنفاً [ص : ٥٤] : « كنت أول من شك في نسب أبي الطيب الذي رواه ١٥١ م الرواة ، ولكنني لم أقف عند الشك المجرد ، كما ذهب إليه من قلدني (وهو الدكتور طه) = بل أبحث عن علة الشك ، لأثبت مكانه حقيقةً أخرى ، دللت عليها شعرة ومواقفه في حياته كلها ، مما كان له ارتباط وثيق بعلة الشك » . وقد فسرت أسباب الشك في بيان « الفقرة الأولى والثانية » من عمود صورة المتنبي بياناً كافياً [ما سلف ص : ٥١ - ٦٠] .

وهذا الأسلوب في تجاهل الألفاظ ، ثم الالتفاف حولها بألفاظ أخرى ، وإخراجها مُخرَج الأمر غير المتعمد ، وإخفاء « المحرك » وراء نقاب مُموه = هو من الأساليب الناجحة أيضاً في « علم السطو » ، والذي يقتدر عليه يبلغ مبلغاً عظيماً في باب « السطو الخفي » ، فاحفظه ، فإنه نافع جداً ، وإذا خلط بمسحوق حَبِّ « الثثرة » ، طيب نفس القارئ ، وأطفأ حرارة الفهم ، وسهل عمل العفلة !! هذه فائدة طيبة منقولة عن ابن البيطار ، العشاب الطيب !! وانتهت النكتة اللطيفة !

قلت آنفاً إن الدكتور طه ، غرته نفسه أن يغتال مني « منهج تذوق الشعر » ، كما اغتلت أنا منه « منهج الشك » جزاءً وفاقاً ، وقد رآه سانحاً له = مطبقاً في كتابي من فاتحته إلى خاتمته . رآه مطبقاً ، ولم يعرفه مفصلاً ولا مشروحاً ، لا في كتابي ، ولا في كتاب غير كتابي ، / فاجتهد اجتهاداً مبروراً ، (أي لا شبهة فيه ولا كذب ولا خيانة ، ولا يخالطه ١٥٢ م شيء من المآثم) .

ولمّا كان « موضوع » التذوّق بينى وبينه واحداً ، وهو شعر المتنبي ، رآه على نفسه سهلاً يسيراً ، وهيناً ليين المعاطف ، أن يتذوّقه كما تذوّقته ، وأن يستخرج منه حياة أبنى الطيب ، وطبائعه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانه ، وأثر ذلك على بناء قصائده ، ودلالة هذا الأثر على أحداث حياته . وقد لاقى الأمرين في هذا التذوّق ! لأنه كلما جاء إلى شعر يتذوّقه ، فوجد لسانى عنده يتذوّق ، زاحمنى عليه ، والتقى اللسانان ، ثم رفع لسانه ليكتب عن أثر تذوّقه !! وإذا هو من حيث لا يدرى قد تذوّق بلسانى ، فتطابق ذوق اللسانين ، والحمد لله ! وقد ضربتُ لذلك مثلاً أو مثلين أو ثلاثة ! وتستطيع أن تجد شيئاً من ذلك مثلاً ، في المقالة التاسعة [هذا السفر : ٤٨٧ - ٤٩٧] . وتستطيع أن تجد مثلاً آخر في المقالة الحادية عشرة حين تفرّد لسانه بالتذوّق ، في قصيدة لم أكتب شيئاً مفصلاً في تذوّق لها ، فأشرتُ إليها إشارةً ، فأخذها فاجتهد فيها اجتهاداً مبروراً فتذوّقها وحده !! وأثبت في كتابه تذوّقه هو ، فخرج منها بكلّ استنباط جديد يخالف ما كتبه في كتابي . فكانت العاقبة أن أتى بضروب مختلفة المذاق من الأخطاء ، ومن قلة البصر بالشعر ، ومن إهدار ألفاظ الشعر نفسه إهداراً لا يكون مثله أبداً من متذوّق قد عرف معنى « تذوّق الشعر » ، وإنما هو تذوّق عابثٍ مُفتعلٍ ، يحكم في الشعر والشاعر تخاليط بلاشير وأضرابه ، مع أن أوّل شرط في / « تذوّق الشعر » أن نجعله محكماً لا في شأن هذه التخاليط الأعجمية ، بل في تعديل أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو ترجيحها ، أو استخلاص الصّدق من نصوصها ونفي ما زيفه التذوّق ، [انظر هذا السفر : ٥١١ - ٥٢٠] .

فلما تخطى الدكتور مرحلة العبث واللّهو ، و « الشقاوة » في مداعبة المتنبي ومداعبة خصومه وأصدقائه جميعاً ، كما قال [انظر ما سلف ص : ١٠٨ : س : ١١ ، ١٢] ، و « شبّ عمرو عن الطوق » ، عند ص ٩٩ من كتابه أو قبلها بقليل = جاء ما صرفه عن اللّهو والعبث ، واضطره إلى محاولة البحث والتحقيق ، (بحكم السنّ على الأقل) . جاء هذا الجأى ومعه كتاب عزام بمراجعته ، وكتاب بلاشير بمراجعته ، وكتب اثنين آخرين ذكرهما بعد دهرٍ في ص ٤٢٥ من كتابه ، وزعم أن كتبهم « ليست في أيدي قراء العربية » ، لأنها

كتبت في الفرنسية والإيطالية ، (وليس هذا صحيحاً على إطلاقه !) ، فعندئذ ففكر
وقدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم استبان له النهج ، واستتب له الطريق : أن يكون
باحثاً محققاً ، وناقداً متذوقاً ، في قرْنٍ واحدٍ !! [والقرن : الحبل ، أى مجتمعين فيه معاً] ،
وهذا مركبٌ وعزٌّ شاقٌّ ، لا تصلح معه السجاياء المتناقضة في النفس الواحدة ، حين
يكون : « مِنْ سَجِيَّتِهَا الأناةُ ، ومن سَجِيَّتِهَا العَجَلَةُ ، ومن سَجِيَّتِهَا الجَدُّ ، ومن سَجِيَّتِهَا
اللهو ، ومن سَجِيَّتِهَا التفكيرُ ، ومن سَجِيَّتِهَا الهذيان » ، [كتابه ص : ٧] ، ويرضى أن تطغى
عليه بعض سجاياه هذه طغياناً « يَصوِّرُ لعبه بوقته ، وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته
لهذا الهوى أحياناً » [أيضاً ص : ٧] . / والذي هذه سجاياهُ ، ثم يكون لا يملك أمر نفسه ، ولا
يفرق في أمرها بين القبيح والحسن ، ثم يبلغ به إرسال النفس على سجيته ، أن لا يفرق
بين مواضع الجدِّ ومواضع العبث ، حتى يرضى أن يأمر قارئه غير مبالٍ : « قل إنه كلام
يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبه هذياناً ... » [ماسلف : ١٠٢] ،
فهذا بلا ريب لا يُؤمنُ على ركوب طريقٍ لا يصلح معه إلاَّ الجدُّ والصبرُ والحزامةُ ومخافةُ
العثار = إلاَّ أن يكون غير صادقٍ فيما يقول عن سجاياهُ = أو إلاَّ أن يكون مترجماً سيِّئ
الترجمة لشعر العَجِيرِ السلولِيِّ :

إذا جَدَّ عِنْدَ الجَدِّ ، أرضاكِ جِدُّهُ ، وذُو باطلٍ ، إن شئتَ أرضاكِ باطلُهُ

= أو إلاَّ أن يكون قال ما قال ، من فرط الزهو بنفسه ، والإدلال على سامعيه
أو قارئيه ، وهم من تحت سمائه ، قيامٌ شواخصُ الأبصارِ إلى أُبْهتِه في عليائه ! ولكن
ما لي أنا ولهذا ؟ فإن الله لم ينصّبني محامياً أدفع عن كرامة عقول البائسين من السامعين
والقراء !

أمّا الذى يعينى ، فهو منهج « تذوق الشعر » ، فإنه قد وقع في محنة عظيمة منذ
ص ٩٩ ، إلى آخر الكتاب ، لا ، بل كان ذلك منذ أوله أيضاً ، فقد صار مفروضاً عليه
فرضاً لازماً ، أن يكون خادماً سامعاً مطيعاً للمعارضات الخفية الماكرة التى جاء بها
الأستاذ عزام فى كتابه تحت عباءة « البحث الطويل المتعب » ، وللتخاليط التى تتخلل

كتاب بلاشير وغيره عن المتنبي ، وصارت هذه الكتب محكِّمةً في تذوق الشعر ، وفي حياة أبي الطيب ، ولم / تُعدّ للشعر نفسه ولا لتذوقه هيمنةً على شيء ، لا على حياته ، ولا على تمحيص الحوادث والأخبار التي تتصل بحياته ، [انظر ما سلف : ٤٠ ، ٤١] . وهذه المحنة القاسية الغليظة = مع إصرار الدكتور طه على تقليدي في « تذوق الشعر » على الوجه الذي توهم أنه فهمه من كتابي = أدت بالدكتور طه نفسه إلى بذل جهد كبير في التقليد حين يتعرّضُ لشعرٍ لم أتعرضُ له مكتوباً بالحبر والقلم . وأما الذي رأيت قد تعرّضتُ له ، فقد اضطرّرتُ أن يبذلُ جهداً مضاعفاً أضعافاً كثيرة في تويبه حتى يُخفي آثار سطوه عليه ، وقلّما نجح = وأن يبذلُ أيضاً جهداً أكبر في تطويعه للعجّن في خليط من أخلاط مجلوبةٍ من أرضٍ بعيدة غير أرضه ،

ومُكلّف الأشياءِ ضدّ طباعِها ، مُتطلّبٌ في الماءِ جذوةً نارٍ

« وحلمُ القِططِ كلُّه فيران » ، كما يقال في المثل العامي . فالدكتور طه بدأ كتابه مشغولاً بكتابي ، وتطبيقي فيه منهجي في « تذوق الشعر » ، وكلمة « التذوق » لا تزال أصداءها البعيدة في نفسه منذ كنت طالباً في الجامعة ، [انظر ما سلف قريباً : ١١٠ ، ١١١] . فلما بدأ يكتب ، اجتنب لفظ « التذوق » اجتناباً كاملاً متعمداً ، فكان يستعمل مكانها « التبيين » و « الاستنباط » و « الاستخراج » و « التدبّر » و « التأمل » ، وهي كلمات دائرة أيضاً في كتابي ، وخاصة حيث أختصر الكلام اختصاراً ، مجتنباً الإطالة ، فأحيل القارئ في هوامشي على شعر أبي الطيب ، لينظر فيه على الأصول / التي درجتُ عليها في الكشف عن حياة المتنبي وعن شخصيته . (١) ولكنّه حين بلغ ص ١٠٦ ، وأراد هو أيضاً الاختصار !! لم يملك إلا أن يستعمل كلمة « التذوق » ، التي تورّقه ، لأول مرة حيث قال كما أقول : « ونُخذ أنت هذا الشعر ، وقف عليه من وقتك أيّاماً ، فما أشكُّ في

(١) انظر هذا السفر ص : ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٥ ، ٣٥٠ ، ٣٨١ ، وتعليق

الهوامش فيها . ومواضع أخرى في الكتاب نفسه .

أنتك ستصل إلى ما لا أريدُ أنا أن أطيل فيه ، ولكنني واقفٌ معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد أن تذوقه ، لعلنا نتعرف على أصول فنّ المتنبي في شيء من التفصيل والوضوح . هذه أول مرة ، ثم انطلق يستعملها مراراً بعد ذلك غير متحرج . ولكن ظهر ظهوراً بيناً بعد ذلك في سائر كتبه : أنه لم يخرج قط عن أن يكون تذوقه هو التذوق الساذج الذي ألفه فيما كتبه عن بعض شعراء الجاهلية ، وعن شعر الغزليين ، وشعر أبي نواس وأضرابه ، في كتابه « حديث الأرباء » = إلا ما شد قليلاً حين تذوق بلساني بعض شعر المتنبي ، كما أشرت إليه منذ قليل .

وهو معذورٌ في ذلك ، لأن القدر الذي عرفه من تطبيق منهجي في « تذوق الشعر » ، وفي تذوق الأخبار أيضاً ، كان قدراً لا يكفى . فهو لم يستطع أن يدرك « تذوق الشعر » بمنجاة من تأثير الأخبار المروية ، كيف يكون . ولم يستطع أيضاً أن يعرف « تذوق الأخبار » أيضاً معروضةً على الشعر ، ولا كيف تكون هيمنة الشعر على الأخبار ، حتى يُزيّف « تذوق الشعر » منها ما يزيّف ، ويصحح منها ما يصحح ، لكي يجلوها جلاءً جديداً يجعلها قادرةً على أن تجعل حياة أبي الطيب ، واضحةً جليّةً مستوية . ولا كيف يكون ذلك / الصحيح من الأخبار قادراً على أن يجعل حركة وجدان أبي الطيب م ١٥٧ في شعره أشدّ ظهوراً ووضوحاً = ويجعل صورة حياته التي دلّ عليها تذوق شعره أدنى إلى الوضوح ، وأقدر على الالتحام بصورة الحياة التي يدلّ عليها ، ما صحّح من الأخبار ، [انظر ما سلف : ٤٨] . وهذه هي بعض الأصول التي يمكن أن تجعل « تذوق الشعر » قادراً على استخراج صورة صحيحة مستوية غير متناقضة لحياة الشاعر ، وتعصم الكاتب أيضاً من أن تضلّه الأخبار ، فيرى في شعر الشاعر معاني بعيدة كلّ البعد عن المعاني التي يدلّ عليها تذوق شعره جملةً واحدة ، وإلا خرجت الصورة كلّها مشوهةً تشوهاً ، [انظر ما سلف :

فلما كان الدكتور طه لم يدرك قدراً كافياً من هذا المنهج ، وكان في عجلةٍ من أمره ، وكانت العجلة إحدى سجايأه ، لأنه قد طوى نيته على تأليف كتاب عن المتنبي في صيف

سنة ١٩٣٦ بفرنسا ،^(١) ليطمس به ذكرَ كتاب كتبه كاتب مغمور حامل الذكر في يناير سنة ١٩٣٦ ، كما قلت للشيخ مصطفى عبد الرازق ، [انظر ماسلف : ١٠١ ، ١٠٦] = فإنه بدأ كتابه وانتهى منه على الصورة التي وصفها في فصل « بعد الفراغ » : « ولكن لم آخذ في الإملاء حتى دُفِعْتُ إليه دفْعاً عنيفاً ، لم أستطع له مقاومةً ولا عليه امتناعاً ، وإذا أنا أجرى في الإملاء أو أَعْدُو فيه أشدَّ العَدُو ، حتى لا يتابعني صاحبي إلا بجهد كُلِّ الجهد ، ومشقة كُلِّ المشقة ، وإذا أنا أُملي إذا أصبحتُ ، / وأُملي إذا أمسيت ، وأُملي بين ذلك ، وأبغضُ الراحة أشدَّ البغض » ، إلى آخر ما قال ، وصدق ! [كتابه ص : ٧٠٥] . لما كان ذلك وفرغ من الكتاب ، مكدوداً قد انتهى به الإعياء إلى أقصاه ، وجد نفسه لم يقل للمتنبى ولم يقل عن المتنبى كُلُّ ما كان يريد أن يقوله [ص : ٧٠٥] . ولكن حقيقة هذا الكلام أنه وجد « صورة المتنبى » التي كتبها ، صورة لا تمثّل شيئاً له قيمة ، فعبر عن ذلك بقوله : « إني أبعث الناس عن حسن الرأي فيما أُمليتُ ، ولا تظنّ أني أريد التواضع وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوّر شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوّرني أنا في بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضي ، أكثر ممّا يصوّر المتنبى » [كتابه ص : ٧٠٦] . وهذا صحيح جداً مع الأسف ، لأنه يصوّر حقيقة أعماله ، ودوافعه دائماً ، منذ كتب حاشيته الصغرى على مقالة مرجليوث المسماة « في الشعر الجاهلي » ! في سنة ١٩٢٦ ، منذ عشر سنوات ، ولم يتغيّر لا كثيراً ولا قليلاً ، وأعجزته دوافعه ، « فلم يستطع لها مقاومةً ولا عليها امتناعاً » .

(١) تبين من رسالة للدكتور طه إلى توفيق الحكيم في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، أنه قد فرغ من كتاب المتنبى قبل ذلك بأسبوع ، أي في ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ تقريباً ، فإذا كان قد غادر مصر في أواخر مايو ، فقد استغرق تأليفه ثلاثة أشهر أو أقل . وانظر كتاب توفيق الحكيم « وثائق من كواليس الأدباء » ، وفيه عجيبة من العجائب تخصّ ما كنت أريد أن أكتبه عن المتنبى ، فلا أدري كيف صار عند توفيق الحكيم منسوباً إلى نية سمع عنها ، من شاعرنا مطران ، والحقيقة أن هذه النية كانت نيتي أنا أخبرت بها شاعرنا مطران ، فلا أدري كيف انقلبت فصارت نيةً للدكتور !

ولما كان كتابه ، كما قال ، خَلِيقاً أن يصوره هو أكثر مما يصور المتنبي ! وأدرك ذلك إدراكاً يقيناً ، فإنه نظر إلى صورة المتنبي عنده ، وصورتها عندي ، فأنكر ما عنده إنكاراً شديداً ، فقد وجدها خَلِيقاً مُشِيئاً تضيق به نفسه ، [والمشياً : المختلِفُ الخَلْق ، المُخْبَلُّه ، القبيحُ الصورة] . ولكي تعلم أن هذا كما أقول ، فإني موجزٌ لك صورة المتنبي التي اختلطت في كتابه حتى خرجتُ ، فأنكرها هو أشد الانكار :

/ لقيطٌ لغيّة ، لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ، شاذٌّ لأمرٍ ليس له في يد ، لا يستطيع أن ١٥٩ م
يفخر بأسرته ، فهو يشعر بالضّعة والضعف ، (من عنده) ، ^(١) نباتٌ شعبيٌّ خالص !!
(من عنده) ، شابٌ مستعدّ لسانه للسخرية (من عندي ، والتصوير من عنده) ، صبيٌّ شعبيٌّ متشيعٌ للعلويين ، وقرمطيٌّ لحبه سفك الدماء (خليطٌ من عنده ومن عندي) ،
حائقٌ على النظام الاجتماعي والسياسي (خليط) ، قويّ الحسّ عنيف النفس (من عندي) ، يمتحن ممدوحيه ليتبين استعدادهم للخروج على السلطان (خليط) ،
صاحبٌ مذهب سياسيٍّ أشمل من القرمطية والتشيع ، وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم وسلطانهم ، وأن يرّد غير العرب من الخدم إلى طورهم الذي كانوا فيه (الأصل من عندي مع خلط) ، يَنشُدُ أميراً عربيّاً يحيى آماله ، مثل بدر بن عمار (من عندي) ، كان يسأل جدته عن خبر أبيه وأمّه ، (من عندي مع خلط) ، نشأته علّمته الحيلة والحذر (من عندي مع خلط) ، سجنه جريمة من جرائم الرأي (من عندي مع خلط) ، ما ينسب إليه من النبوة مرفوض (من عندي مع خلط) ، كفكف السجن من غلوائه (من عندي) ، شقى بالأمل في أول أمره ، شقى باليأس بعد سجنه ، فأنضح ذلك نفسه (من عندي) ، ظهور شخصيته في أوقات العنف ، وفي أوقات الحزن (من عندي) ، يشعر بالغرابة ، لولا جدّته (من عندي) ، لقاء بدر بن عمار وثب بفنّه ، فبلغ من الرقيّ ما لم يبلغه في الأيام السالفة (من عندي) ، وثب فنّه الوثبة الأولى عند

(١) هذا موجزٌ لبعض مواضع الاختلاف والاتفاق ، فيما كتبتُه في كتابي ، وما كتبه الدكتور طه في كتابه .

التنوخيين ، والثانية عند بدرٍ ، وكانت نواةً ستنتبت وتنمو وتعطى شيئاً كثيراً مختلفاً ألوانه
 م ١٦٠ في الوثبة الثالثة عند سيف الدولة ، حين وثب / وثبته الأخيرة التي رفعته إلى الأوج (كله
 من عندي) ، يمتلئ قلبه بالبهجة عند لقاء بدرٍ وأمثاله حتى يعجز عن إخفائها (من
 عندي مع خلطٍ كثير) ، يثور آيياً للضميم على من أرادوا أن يضيّموه (من عندي) ،
 جبانٌ (من عنده) ، طبيعته التي يصوّرها شعره : جوع وأحاديث ، وفلسفة في الهواء
 (من عنده) ، امتناعه عن مدح العلويّ طاهر من زهو وغرور (من عنده) ، يلتزم برأيه
 حين يستغنى ، ويضحى حين يخاف أو يطمع أو يحتاج (من عنده) ، اتخذ لنفسه
 مذهباً سياسياً وفلسفياً ، (من عندي مع خلط) ، يتخذ الشعر وسيلةً لا غاية ، وكان
 عبداً للطمع والمال ، لا للجمال والفن (من عنده) ، يمثل فكرة الجهاد بين الروم
 والمسلمين عند سيف الدولة ، وتجد فيها فناً وجمالاً (من عندي) ، ينتقل انتقالاً مفاجئاً
 في شعره (من عندي ، ولكن بغير دلالتها على شيء !) ، ذليلٌ ضعيفٌ مهينٌ بين يدي
 السلطان ، لم يكن صاحب مذهب ولا رأى ، إنما هو رجل متهاك على المنافع العاجلة
 (من عنده) ، رجلٌ مضطربٌ متلونٌ (من عنده) ، نفسٌ غير متحضرة ولا رقيقة الحسّ
 (من عنده) ، لا يقول الشعر إلا حين تدفعه دوافع كامنة أو ظاهرة (من عندي ، مع
 خلط) و « حسبك من شرِّ سماعه » .

هذه بعض ملامح الصّورة ، لم أستوعبها لأني في مقامٍ غير مقام نقد هذا الكتاب ،
 ولكنها كافية في الدلالة على شيئين : على « السطو » المجرد ، وعلى الخلط المحكم الذي
 وصفته آنفاً ! [انظر ص : ١٠٨ ، ١٠٩] . فلما أفاق الدكتور من إملاء كتابه وهدأ ، أنكرها ،
 م ١٦١ لا إنكار مقرّ بيشاعة / الصورة ، ولكن ببراعة وفلسفة وتدوّق ، فقال في فصل « بعد
 الفراغ » ، [ص : ٧٠٧ ، ٧٠٨] :

« وأكثر من ذلك أني أخذت أرى رأياً ، ما أظنُّ إلا أن كثيراً من الناس سيضيعون
 به ، ولعلهم أن ينكروه عليّ ، وقد ضقتُ به أنا وأنكرته على نفسي ، ولكنني لم أزد

إلا إمعاناً فيه ، وأطمئناناً إليه ، وتعجباً من أنى قد انتظرتُ هذه السنّ ، وهذا الطور من أطوار الحياة ، قبل أن أفطنَ إليه وأطيل التفكير فيه ، وهو : أن شعر المتنبي لا يصور المتنبي ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً ، يمكننا من أن نأخذهم منه أحداً ، مهما نبحت ، ومهما نجد في التحقيق . وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التي يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضاً ، وإنما أريد أن ألفتك إلى شيء يسير ، وهو أن ديوان المتنبي إن صور شيئاً ، فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي ، لا أكثر ولا أقل وطفق يتفلسف !

وبالطبع ، كما نقول نحن المصريين في درج الحديث ، لا يوجد شيء كهذا الذي يوهم الدكتور بكلامه أنه كائن . ولا يوجد شيء كهذا يقال فيه إن شعر الشعراء ، أو كلام غير الشعراء ، يصورهم تصويراً كاملاً صادقاً ، « يطابق الأصل ويوافقه » . لا توجد « نظرية » كما سماها ، تبلغ هذا الحد من السخف والتفاهة والإسفاف ، ويحتاج المرء معها « أن ينتظر هذه السنّ ، وهذا الطور من أطوار الحياة » ، ويحطم الثامنة والأربعين من عمره ، / وينطح بقرون رأسه جدار الخمسين ، حتى يفطن ويجيد الفطنة ، م ١٦٢ وحتى يفكر ويطيل التفكير ، حتى يتبين أنها باطلة ! ثم يحتاج بعد ذلك أن ييسر على قارئه المسكين فهم وجه بطلانها بضرب الأمثال ، فيقول : « فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من كتبي كلها صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، فكذلك أنت عاجز عن أن تخرج من ديوان المتنبي صورة صادقة ، تلائم حياة المتنبي ، كما كانت في النصف الأول من القرن الرابع من الهجرة » .

هذه ثثرة حائرة ، ومجرد عبث محض بالألفاظ ، وهو فارغ يلهو به من يكون جَمَلاً مفيدة ، من ألفاظ مسطورة : « صورة » و « أصل » و « تصوير » و « قادر » و « عاجز » و « صادق » و « تطابق » و « توافق » !! والناس حين يقولون : « صور

الكاتب صورةً صادقةً لشاعرٍ ، لا يعنون بداهةً ما حاول الدكتور أن يُوهِم به قارئه ، ويستزِلَّ عقله بتأكيدهِ المتواصلِ : « تصويراً صادقاً كاملاً !! » = عن المعنى الذى يدركه عامة الناس بالداهية ، وهو أن الذى استخرجه الكاتب من شعر الشاعر ، يجعل شعره أكثر وضوحاً ، وأظهر دلالة على فنه ، وأقوى بياناً عن طبيعته وعواطفه ، ويجعلهم أكثر قدرةً على تمثُل ما تخبئه ألفاظ شعره من موقفه تجاه أحداث حياتهِ التى عاشها ، فصاغها صياغةً مبيّنة عمّا كان يعتلجُ في نفسه حين صاغها . وهذا موضع المثل : « زى الطبل منفوخ عَ الفارغ » ، وصدق من قاله .

م ١٦٣ / وكل ما فى الأمر أن الرجل حين فرغ من كتابه ، رأى صورة ألى الطيب فى كتابه ، وقد رآها من قبل فى كتابى ، وأدرك أن بين الصورتين بوناً بعيداً ، كالبعد بين المستقيم والمعوج ، وبين الوليد الذى وُلِدَ لتمامه ، والسقط الذى وُلِدَ لغير تمام ، فاعتذر ، فأساء الاعتذار ، ولم يدر كيف يقول !

أما الآن ، وقد فرغْتُ من لَمحة خاطفة فى القسم الذى يبدأ من ص ٩٩ إلى ٧١١ ، من كتاب « مع المتنبي » ، وهو الذى لم يكن مقدراً لى أن أتمم كلامى فيه فى مقالاتى : « بينى وبين طه » التى كتبْتُها سنة ١٩٣٧ ، ونشرتها اليوم ملحقة بهذا الكتاب = أما الآن ، فإنى أتلفت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أشفق من مَعبة السنن التى سنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنَّة « تلخيص » أفكارِ عالمٍ آخر ، ويقضى أحدهم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعرَ بأنه أمرٌ مخوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستكف أن ينسبهُ إلى نفسه نسبةً تجعله عند الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريمة . ومع ذلك فهو أهونٌ من « السطو » المجرد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذهُ فيمزقه ثم يفرقه ويُغرقه فى ثرثرة طاغية ، ليخفى معالمَ ما سطا عليه ، وليُصبح عند الناس صاحبَ فكرٍ ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ،

وَيُنْسَبُ كُلُّ فَضْلِهِ إِلَيْهِ . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكاملٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظرٍ ، ثم دعوة من يَعْلَمُونَ عِلْماً جازماً أنه غير مطبِقٍ لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به / كما استخفَّ هو . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهونُ م ١٦٤ مما فعلوه وسنوه من سنّة « الإرهاب الثقافي » الذي جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضي » و « ثقافة العصر » = سيّاطاً مُلْهَبَةً ، بعضها سيّاطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتى ، وبعضها سيّاطُ عذابٍ لمن خالفَ وأبى .

أتلّفتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياةً أدبيّةً وثقافية قد فسدت فساداً وبلاءً على مدى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتوّعت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى في الناس طليقاً عليه طيلسانُ « البحث العلمي » و « عالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصوله إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم في كُلِّ قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قلّ ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صيدقاً لا يتخلف . فالأديب منّا مصوّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف منّا مفكّرٌ بعقل سواه ، والمؤرّخ منّا ناقدٌ للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان منّا نابضٌ قلبه بنبض أجنبيّ عن تراثٍ فنّه .

وأما الثرثرة والاستخفافُ ، فحدّث ولا حرج ، فالصبيُّ الكبير يهزأ مزهواً بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعث أحدُهم من مرقدِهِ ، ثم نظر / إليه نظرةً دون أن يتكلّم ، م ١٦٥ لألجمه العرقُ ، ولصارَ لسائه مُضغّةً لا تتلجلجُ بين فكّيه ، من الهيبة وحدها ، لا من علمه الذي يستخفُّ به ويهزأ .

والله المستعانُ على كُلِّ بليّةٍ ، وهو المسئولُ أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحْمَةً بِأُمَّةٍ مسكينة ، هؤلاء ذنوبُها كانوا ، وأشباهُ لهم سبقوا ، وغفرانك اللهم .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

محمود محمد شاكر

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

كتاب المُتنبِّي

* على هيئته التي نُشر عليها في عدد المقتطف ، يناير ١٩٣٦

* الشعر الذي في رأس كل فصل ، من شعر المتنبِّي

كتب فؤاد صروف قال :

« هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا ، فهو في موضوع واحد ، ولكاتب واحد .

أمّا الموضوع فأبو الطيب المتنبي .

وأمّا الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر .

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي ، وفي طرافة المباحث التي انطوت عليها رسالة الأستاذ شاكر ، ما يُسوّغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

إلى أبي الطيب المتنبي «

٣ / أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمٌّ
أَنَامَ مِلاءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا
وَيَسْهُرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

كنتُ في غُلُوِّ الشَّبابِ حينَ وقعتُ لي ، فيما كنا نتعلم من « المحفوظات العربية » ، أبياتٌ للمتنبى حفظتها في غير عناء ، وجعلتُ أُرَدِّدُهَا بكثير من اللذة والحماسة ، لأنها كانت تنطوي ، فيما أظن الآن ، على ذكر سجايا يتيه بها الشاب وتهتزُّ معاطفه ، إذ لا يزال في مستهل الحياة ، يراها ، أو يتصورها ممتدة أمامه ، ميداناً رحباً ليس له فيه إلا الاقتحام والغزو والظفر . فكَذَلِكَ كان مما حفظته ، وكأنا طبعته في ذاكرتي بأحرف من نار :

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى ، يَا نَفْسُ ، وَأَتْرِكِي
إِنْ لَمْ أَدْرِكِ عَلَى الْأَرْمَاجِ سَائِلَةً
حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
فَلَا دُعَيْتُ أَبْنَ أُمَّ الْمَجْدِ وَالكَرَمِ

أَيْنَ فَضْلِي ، إِذَا قَنَعْتُ مِنَ الدَّهْرِ
أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ ، وَنَجْمِي
رِ بَعِيثِ مُعَجَّلِ التَّنْكِيدِ ؟
فِي نَحُوسِ ، وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ

٤ / لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى
حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ولا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِينَةً وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تُرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمَلُهُ الْعَشْرُ

وعندما أراجع ديوان المتنبي الآن تمرُّ بي أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها
محمول إليّ من مَعَاوِرٍ متغلغلة في جوف الماضي . وأكثر هذه الأبيات من شعر الغزل
والنسيب الذي كان المتنبي يستهّل به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك
إلاّ نزرًا يسيرًا ، لأن رجولة المتنبي كانت هي التي فتننتني في صباى دون رِقته ونسيبه ، وقد
كنت أظن أن رجولته هذه يكون مردّها ، في الغالب ، إلى خياله المتوتّب وحده - إلى أن
قرأت أصول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ، فإذا هي ، بحسب رأى الكاتب ، متصلة
أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التي قامت عليها جدته ، « أمّ أمّه » وحوادث عصره
وحياته ، وإذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله .

وكنت أطلب العلم في جامعة بيروت الأمريكية فكان أستاذنا في الأدب العربي
« جبر ضومط » رحمة الله عليه ، مولعاً بدراسة المتنبي وتدرّسه ، فقضينا معه سنتين نحفظ
من قصائد المتنبي ما يتخيّر لنا منها ، ونمعن في حلّ أبياتها وإعراب ألفاظها ، وبمعن هو في
تفسير معانيها وبيان ما تحمل في ثناياها / من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته أن يلّمح
أحياناً إلى أن حياة المتنبي على صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لا يعي من تاريخ الشرق
العربي في ذلك العهد إلاّ اليسير ، فمرّ بهذا التلميح غير آبه .

وأكبر الظن عندي الآن - وقد اطلعت على رسالة صديقي الأستاذ محمود محمد
شاعر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة - أن أستاذنا كان قد حاول أن يجتلي بعض
هذا الغامض ، فتبينت له أشياء لم ينشرها ، إمّا التزاماً بالحذر العلمي قبل القطع برأى ،
وإمّا مراعاة للأحوال السياسية .

وعلى ذلك ظلَّ المتنبي - على علوِّ مقامه في الأدب العربي ، ونصوع معانيه ، وسموِّ حكمته ، وكال رجولته - تكتنفه في ذهني غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه .

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا ، عند طلبنا العلم ، عن ترسيخنا في معرفة أصول تاريخنا الشرق العربي ، صرفتني عن دراسة المتنبي ، فكنت فيما تلا من عهد الدراسة ، لا أذكره إلا عندما أسكن إلى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجي ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادفاً عما قد تنطوي عليه أحياناً من مُغلق المعنى ، أو مهجور اللفظ ، أو معقد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسُّهما ، بعد انقضاء عشرة قرون ، تتفجران من معاطف هذا العربي كالينبوع ، وتتطايران من عينيه كالشرر .

فلما ذكَّر المذكورون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت : هي فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك في إحياء ذِكْرِ عظيم من عظماء العرب ، ونابغة / من نوابغ اللسان العربي ، كسنته في الاشتراك في إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم . ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف في الحالين واضح .

فنحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجتزيء بمجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والإشادة بخلقه أو مثاله من الناحية الأدبية . ولكننا - إذ كان المتنبي من عباقرة شعرائنا - لا ينبغي لنا أن نجتزيء بمجمل أقوال الرواة والنقاد في حياته وشعره .

فتحدثت في ذلك مع صديقي المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر ورغبت إليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الإسهاب عن المتنبي . وأقِرُّ أنني كنت مقتنعاً - عندما أُلقيت إليه هذا الاقتراح - أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات

المقتطف ، فوعدني أن يبذل ما لديه . ولكن البحث تشعب أمامه ، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت ، فلم يرض ، وقد وجد مجال القول ذا سعة ، بالنهج المطروق . فبعد أن كتب عشرات من الصفحات مزَّقتها وبَّذها ، وعاد إلى الكتابة على نهج آخر . فأصبح المقال عدداً كاملاً من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا العدد الكامل إلا موجز سِفرٍ في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر .

ولا أخفى عن القارئ أنني مغتبط بهذا كل الاغتباط . ففي هذه الرسالة ، على إيجازها بالقياس إلى ما كان يجب أن تكون ، دلائل على تبُّحر الكاتب في تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربي ، ومقدرته على تبيين الإشارات الخفية في شعر المتنبي إلى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة في استنباط / حالات الشاعر النفسية من أبيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والأحداث التي كانت في الأمة العربية بوجه عام . وفي الغالب أن يكون عملٌ كهذا متعذراً إذا لم يوفق الكاتب إلى دليل يهديه سواء السبيل ، في تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة في العلم ، وبراعة فذة في الاستنباط . وهذا الدليل الذي هداه هو رأى جديد في أصل المتنبي ونشأته ، أشبه ما يكون بالنظرية العلمية في ميدان العلوم الطبيعية .

فالحقائق في علوم الطبيعة هي خصوم النظريات ، والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من أدوات العلم ، عمل لا ينقطع ولن ينقطع ما بقي الإنسان على فطرته في حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق ، فإذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تجيء هذه الحقائق الجديدة التي يُكشَف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية في مجملها أو لنواح منها ، فتعدّل النظرية القديمة ، أو تُطوى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط في النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عاماً مُنسَقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة ما يجعلها تحتمل تفسير الحقائق التي تستجدُّ ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة .

فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأي أولاً فيما قيل عن أصل المتنبي ووالده وذهابه إلى الكوفة لزيارة جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة في الروايات المنقولة على أساس هذا الرأي الجديد . ثم لما طبَّقه على نفسية المتنبي في شعره ، وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث العصر . ولا يبعد / أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء في حياة المتنبي وتاريخ عصره على منوال ما تولده النظريات في العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعل الأستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً في سفره المرتقب ، إن شاء الله .

ولا يسعنى في هذه السطور أن أفصل القواعد التي بنى عليها الأستاذ شاكر رأيه ، فهي كثيرة مفرقة في جميع الفصول ، وهذا البحث الظريف في حياة المتنبي وأدبه ليس إلا وليد تطبيقها .

فقد استطاع أن يكشف من شعر المتنبي عن دقائق حياته ، وينقض الروايات المنقولة إلينا عن أصله ونشأته وتنبؤه ووجه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل وأحداث عصره . وبذلك اتسقت حياة المتنبي ، واتصل أولها بآخرها ، وقُلت الفجوات في تسلسلها ، واستقام فهمها على أساس معقول من الأدب والتاريخ .

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبي ، متدبراً ، تنكشف أمامه معاني شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وتاريخ عصره من ناحية أخرى .

فقد نقض الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبي كان سقياً بالكوفة ، ورسم صورة لحدائثه في مدارس الأشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته إلى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونفى ما أُتهم به المتنبي من النبوة مستنداً على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل إلى السبب المعقول في تسمية أبي الطيب بالمتنبي .

٩ / وقد درس حياته وهو في جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمنتبى ، وأنهما كانا يعملان معاً على تحقيق الأمل السياسى لردّ الحكّومة إلى العرب ، ونزعها من يد الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبين أثر هذه الصلة السياسية في شعر أبى الطيب الذى قاله لسيف الدولة .

وأثبت فيما أثبتته من تاريخ هذه الفترة أن أبى الطيب كان يحب « خولة » أخت سيف الدولة ، وما كان لهذا الحب من الأثر في سمو شعره ، وروعة بيانه .

فؤاد صروف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا
وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا »
« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

وبعد فهذه كلمة مني عن شاعر العربية ولسانها الحكيم :

أبي الطيب المتبي

وأنا أشكر لكل من أعانني - بعلمه أو قلبه أو عطفه - عونته ، وأخص بالشكر
الفريق أمين فهد المعلوف ، والأستاذ محمد فريد نامق ، والأستاذ فؤاد صروف .

مصر الجديدة : شارع المنصورة ٢٢

أول شوال سنة ١٣٥٤

٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

ذَكَرْتُكَ بَيْنَ ثَنَائِهَا السُّطُورِ ،
 وَأَضْمَرْتُ قَلْبِي بَيْنَ الْكَلِمِ
 وَلَسْتُ أَبُوحُ بِمَا قَدْ كَتَمْتُ ،
 وَلَوْ حَزَّ فِي النَّفْسِ حَدُّ الْأَلَمِ
 تُمَزِّقُنِي - مَا حَيْثُ - الْمُنَى ،
 فَأَرْقِعُ مَا مَزَّقْتَ بِالظُّلَمِ
 فَكَمْ كَتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِرِّنَا ،
 وَفِي اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمَ
 ثَشَابَهُ - فِي كَتْمِ مَا نَسْتَسِرُّ -
 سَوَادُ الدُّجَى ، وَسَوَادُ الْقَلَمِ

محمود محمد شاكر

١٣ / أنا أبنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أبا الـ
بِأَحْسَنِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ
وَإِنَّمَا يَذْكَرُ (الْجُدُودَ) لَهُمْ
مَنْ تَفَرَّوْهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ
إِنَّ الْكِذَابَ الَّذِي أُكَادُ بِهِ
أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي تَقَلَّه

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي
« أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي
« أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي
هو أبو الطيب الملقب بالمتنبى . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ، بمحلة كانت بها تسمى
« كيندة » ، وكان أبوه الحسين سقياً يسقى الناس على جميل له بالكوفة ، وكان لقبه الذي
يُلقَّب به هو : « عِيدَانُ السَّقَاءِ » . (١)

١٤ • / حَدَّثَ عَلِيُّ بْنُ الْمُحَسِّنِ التَّنُوخِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ (الْمُحَسِّنِ بْنِ عَلِيٍّ التَّنُوخِيِّ) قَالَ :

(١) ضبطه ابن العديم في « بغية الطلب » في ترجمة المتنبى ، نقلا عن الخطيب البغدادي أنه قال : « عِيدَانُ ، بكسر العين ، وبالياء المعجمة باثنتين من تحتها » ، وكذلك ضبطه صاحب القاموس ، وذكره الزبيدي في تاج العروس فقال « هكذا ضبطه الصاغاني » ، وهكذا ضبطه الأمير ابن ماكولا في الإكمال (٦ : ٩٩) . ونقل الحافظ الذهبي في مشيبه النسبة : ٤٣٣ عن أبي القاسم بن برهان النحوي (عبد الواحد بن علي) : « إن المتنبى : ابن عِيدَانِ » ، جمع عِيدَانَة (بفتح فسكون) ، وهي النخلة الطويلة ، وأخطأ من قال بالكسر ، يريد عِيدَانِ » ، ونقله أيضاً الحافظ ابن حجر في تبصير المتنبه : ٩٠٥ . و « السقاء » ، هو الذي يسقى الماء ، بتشديد القاف ، مضبوطاً في جميع المواضع من بغية الطلب . وجاء في تكملة تاريخ الطبرى [بيروت ١٩٦١] الجزء الأول : ١٩٥ ، عن أبي الحسن محمد بن يحيى الزبيدي العلوي (انظر الصفحة التالية) : « وأبوه يسمّى عيدون السقاء » ، ولم أجد أحداً قال هذا ، مع اختلافه عن نصّ التنوخى ، فكأنه من عمل ناسخ أو من عمل الناشر ، فلا يعتد بمثل ذلك .

« اجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضي أبى الحسن بن أم شيبان الهاشمى ، (١) وجرى ذكر المتنبى فقال : كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى « عِيدَان » ، يستقى على بعير له ، وكان جُعْفِيًّا صحيح النسب » .

• وحدّث التنوخى أيضاً ، عن أبيه قال :

« حدّثنى أبو الحسن محمد بن يحيى العلوىّ الزيدىّ ، (٢) قال : كان المتنبى وهو صبىٌ ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان يُعرَف أبوه ، بعِيدَان السَّقَاء - يَسْتَقِي لَنَا ولِأَهْلِ الْمِحْلَةِ » .

(١) نقلته فى الطبعة الأولى مصحفاً : « القاضى أبو الحسين بن أم شيبان » ، وترجمت له عن الخطيب البغدادى فى التاريخ ١٢ : ٩٩ « على بن محمد بن صالح » . وهذا خطأ محض . ثم تبين لى أن الصحيح هو ما ضبطه ابن العديم وغيره « أبو الحسن بن أم شيبان » ، وهو والد المذكور آنفاً ، وهو : « القاضى أبو الحسن محمد بن صالح ابن على بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى ، ابن أم شيبان » . و « أم شيبان » هى والدة يحيى بن عبد الله جد أبيه ، واسمها كنيته ، وهى والدة يحيى بن عبد الله بن محمد ، جد أبيه ، ويعرف هو وأهله ببنى أم شيبان . وهذا القاضى أبو الحسن بن أم شيبان ولد سنة ٢٩٤ هـ ، وتوفى سنة ٣٦٩ هـ ، وهو من الكوفة ، بها ولد ونشأ ، وفارقها إلى بغداد سنة ٣٠١ هـ مع أبيه ، ثم تكرر دخوله إليها . ثم دخلها سنة ٣٠٧ هـ ، فقرأ على أبى بكر بن مجاهد ولقى الشيوخ ، ثم استوطن بغداد فى سنة ٣١٦ هـ (تاريخ بغداد ٥ : ٣٦٣ - ٣٦٥ / المنتظم ٧ : ٥٦ ، ١٠٢) .

(٢) كنت ظننت فى الطبعة الأولى أنه هو « محمد بن عمر بن يحيى » ينتهى نسبه إلى زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم . كان من أهل الكوفة ثم سكن بغداد ، وكان المتقدم على الطالبين فى وقته ، والمنفرد فى علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ هـ ، وتوفى ببغداد فى ١٠ ربيع الأول سنة ٣٩٠ هـ ، ثم حمل بعد ذلك لسنة أو أقل إلى الكوفة فدفن بها . ولكنى أرجح الآن أن هذا خطأ ، ولعل هذا المذكور « محمد بن يحيى » هو عم « محمد بن عمر بن يحيى » ، ولكن أعينى أن أجد ذكره فيما بين يدي من الكتب .

* ثم عقب على كلامى هذا عالماً الجليل الدكتور محمود مكى ، بعد سنوات من طبع هذا الكتاب فقال :

« أبو الحسن محمد بن يحيى الزيدىّ العلوى ، المذكور ، هو فيما أرجح عمّ الشريف الثرىّ محمد بن عمر بن

=

يحيى المشار إليه فى هذه الحاشية . وقد عثرت على خبر متعلق به ، جاء فيه ما لى :

- وقال أبو الحسن العلويّ الزيديّ أيضاً من حديث التنوخي عنه : « كان عيّدان ، والد المتنبّي ، يذكر أنه جُعْفِيٌّ ، وكانت جدة المتنبّي همدانيةً صحيحةً النسب / لا أشكُّ فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » .
- ثم قال التنوخي (علي بن المحسن) ، قال أبي :

« فاتفق مجيء المتنبّي بعد سنين إلى الأهواز منصرفاً من فارس ، فذكرته بأبي الحسن (يعني محمد بن يحيى العلويّ الذي مرّ آنفاً) فقال : تَرِنِي وصدِيقِي وجاري بالكوفة ، وأطراه ووصفه ... »

« وسألْتُ المتنبّي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : أنا رجلٌ أُخْبِطُ القبائل ، وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبتُ لم آمن أن يأخذني بعضُ العرب بطائلةٍ بينها وبين

« لما دخل معز الدولة بن بويه بغداد في سنة ٣٣٤ عزم على أن يبائع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلويّ ، فمنعه الصيّمريّ من ذلك وقال : « إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوامّ البلدان ، وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك . وبنو العباس قومٌ منصورون ، تعتلّ دولتهم مرةً وتصحّ مراراً ، وتمرضُ تارةً وتستقلّ أطواراً ، لأن أصلها ثابتٌ وبنيانها راسخٌ » . فعدل معز الدولة عن تعويله ، وأحدر أبا القاسم الفضل بن المقتدر بالله من دار ابن طاهر إلى دار الخلافة (الفضل بن المقتدر ، وليّ الخلافة بعدُ ، وتلقّب بالمطيع لله) [تكملة تاريخ الطبري ، للهمداني ١ : ١٤٩ (ط . بيروت ١٩٦١)] .

وقد أشار ابن الأثير إلى هذا الواقعة ولم يذكر اسم « محمد بن يحيى العلوي » صريحاً ، فقال في دخول معز الدولة بغداد ، في ١١ جمادى الأولى : ٣٣٤

« وكان أعظم الأسباب في ذلك [أي في إدار أمر الخلافة ، وذهاب ريح الخلفاء] ، أن الديلم كانوا يتشيّعون ويغالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخلّوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعثٌ دينيٌّ يحثُّهم على الطاعة ، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعةً من خواصّ أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعزّ لدين الله العلويّ ، أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعض خواصه فإنه قال : « ليس هذا برأي ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، وكان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوه » ، فأعرض عن ذلك [ابن الأثير ، الكامل

القبيلة التي أنتسب إليها . وما دمت غير منتسبٍ إلى أحدٍ ، فأنا أسلم على جميعهم
ويخافوني لساني . »

هذا ما ذهب إليه رواتنا ممن وقع إلينا كلامهم في نسب المنتبى ، يزيد بعضهم
وينقصُ بعضٌ ... وقبل أن نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من أمر « الكوفة » التي
ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ ، عسى أن تكون منه فائدةً فيما يستقبل من كلامنا .

كان تمصير الكوفة وأول أمرها ، على ما ذهب إليه أكثر العلماء ، في زمان عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك أن المسلمين لما
فرغوا من وقعة رستم بالقادسية وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما أنزلهم فيه سعد بن أبي
وقاص رضى الله عنه ، مكاناً من سواد العراق يقال له : « سُوق حَكَمَة » ، فنفض
المسلمون وجهدهم المرض ، فكتب سعدٌ إلى عمر بذلك ، فكتب إليه :
« إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير ، فعليك بالريف ،
ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً » .

١٦ / فلما ورد كتابُ عمر ، دَلَّ آبِنُ بُقَيْلَةَ (رَجُلٌ من سواد العراق) سعداً على
موضع الكوفة ، وكان يقال له « سُورَسْتَان » ، فلما أقرَّ سعدُ الرأى على اختيار الموضع
أسهم بين المسلمين ، فأسهم لنزارٍ وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سهمه أولاً ، فله
الجانب الشرقى ، وهو خيرهما ، فخرج سهمُ أهل اليمن أولاً ، فصارت خططهم في
الجانب الشرقى من الكوفة .

ومما وردَ في صفتها وحُسْنها ما يروى عن مالك بن دينار قال : كان علىَّ رضى الله
عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يا حَبْدًا مُقَامُنَا بِالْكُوفَةِ أَرْضٌ سَوَاءٌ سَهْلَةٌ مَعْرُوفَةٌ
تَعْرِفُهَا جَمَالُنَا الْعُلُوفَةُ

وما قاله محمد بن عُمَيْرِ العُطَارِدِيُّ في مجلس عبد الملك بن مروان :

« الكوفة سَفَلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البَصْرَة وحرّها ، فهي مَرِيئَةٌ مَرِيئَةٌ . إذا أتتنا الشَّمال ذهبَت مسيرة شهر على مثل رَضْرَاضِ الكافور ، وإذا هَبَّت الجُنُوب جاءَتنا رِيحُ السَّواد وورده وياسمينه وأُثرنجِه . (١) ماءُنا عذبٌ ، وعيشنا خِصْبٌ » .

فهي كما ترى أرضٌ ذات طبيعة جميلة ، حبّبت إلى كثير من المسلمين البقاء بها فأثروها على غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين عليّ ومعاوية رضى الله عنهما ، فاتخذها أمير المؤمنين عليّ قاعدة أمره ، واجتمع فيها أشياءه وغلبوا عليها ، فمن يومئذٍ والكوفة معقل من معاقل الشيعة والعلوية والزيدية إلى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي صاحبُ كتاب (أعيان الشيعة) : (٢) « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد ، ثم خربت . واليوم فيها كثير من العمران ، وجميع أهلها شيعة » .

١٧ / أمّا أمر تخطيطها وعمرانها في القرن الأول والثاني أو القرن الرابع الذي عاش فيه أبو الطيب ، فلا نكاد نجد بين أيدينا شيئاً مما روى يدُّنا عليه ، ويقفُّنا عنده ، إلا ما روى عن بشر بن عبد الوهاب القرشي من أنّه ذكر قَدَرَ الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً وثلاثي ميل ، وذكر أن فيها خمسين ألف دارٍ للعرب من ربيعة ومُضر ، وأربعة وعشرين ألف دارٍ لسائر العرب ، (وستة آلاف دارٍ لليمن) ، وذلك في سنة ٣١٤ وما قبلها .

وقد رمى إلينا المتنبى طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لعهد صباهُ ، إذ يقول وهو بالشام فيما مدح به (علي بن إبراهيم التنوخي) :

أُمْنَسِي السُّكُونِ وَحَضَرَ مَوْتاً (ووالدتي) وَكِنْدَةَ وَالسَّبِيْعَا

(١) السواد : الريف .

(٢) هو كتاب جليل على ما فيه .

يقول الواحدى : « هذه أماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال » . ولا شك أن « محلة كندة » التى ولد بها صاحبنا أبو الطيب كانت خطة من خطط الكوفة ، نزلها فى الصدر الأول من نزل من بطون كندة فسُميت بهم ، وأن سائر الكوفة - أو الجانب الشرقى منها على التحقيق - كان مقسماً مخططاً إلى أحياء كثيرة غير هذه التى ذكرها أبو الطيب فى شعره . ولكن مما نعجبُ له أن بشر بن عبد الوهاب يقول : إن دور أهل اليمن (جميعاً فى كل أحياء الجانب الشرقى) بالكوفة كانت فى سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها (ستة آلاف دار) ، ويقول صاحبُ (إيضاح المشكل فى شعر المتنبي) أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني أن (ابن النجار) حدثه ببغداد : (١)

/ « أن مولد المتنبي كان بالكوفة فى محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَاءٍ ونَسَاجِ » ، وذلك سنة ٣٠٣ . فليت شعرى أكان جُلُّ أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقى من الكوفة ، وهو خير جوانبها ، ما بين سقاءٍ ونساجٍ ؟ هذا عجبٌ أن يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكم شغل من بقى من أهل اليمن من أصحاب الصناعات ومن لف لفهم من التجار وأصحاب الأرضين . ثم ما يبقى من حَىَّ أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرفها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، وهم كَثُرٌ .

١٨

(١) كنت نقلت هذا فى الطبعة الأولى من خزانة الأدب للبغدادى (١ : ٣٨٢) ، حيث نقل القسم الأول من كتاب « إيضاح المشكل فى شعر المتنبي » ، ثم طبع هذا الكتاب فى تونس سنة ١٩٦٨ . باسم « الواضح فى مشكلات شعر المتنبي » ، والخيرُ فيه ص : ٦

و « ابن النجار » . هو « محمد بن جعفر بن محمد بن هرون بن فروة ، أبو الحسن التميمى النحوى » ، ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ، ورحل إلى بغداد ، ثم مات بالكوفة سنة ٤٠٢ . (تاريخ بغداد ٢ : ١٥٨ / ومعجم الأدباء ٦ : ٤٦٧ / وبغية الوعاة) . ولابن النجار « كتاب تاريخ الكوفة » ، قال ياقوت : « وقد رأيت » .

فهذه المبالغة وجهٌ من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) ، وسترى أن المتنبى قد مُنِيَ في حياته وبعد موته بضروب من العداوات قد جعلت تاريخ الرجل مرزلة لا تثبت عليها قدم ، ولا يهتدى فيها إلا بصيرٌ مثبتٌ . ولو نظرت إلى أقوال الأصفهاني صاحب (إيضاح المشكل) ، وما رواه في مقدمة كتابه ، رأيتُه ممن كان يتحامل على أبي الطيب ، ويذكره بالسوء في كل قوله ، وما أتى له بمحمدة إلا وأتبعها بمذمة بالغة قارصة . وهو قد ألف كتابه هذا لأصغر أبناء « عضد الدولة » = الذى مدحه المتنبى ، وكان آخر من مدح = بهاء الدولة ، وهو أبو نصر حُرَّة فيروز ، [ويقال اسمه حَاشاذ] بن عضد الدولة بُوَيَّه بن ركن الدولة بن بُوَيَّه بن فَنَاحِسْرُو الديلمي ، وكان التحاسد واقعاً بين أبناء عضد الدولة ، حتى إن المتنبى حين ذكر أخويه ، وهما أكبر من بهاء الدولة ، في مدح أبيهما دعا لهما فقال :

فَعَاثَا عَيْشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بَضْوَيْهِمَا وَلَا يَتَحَاسِدَانِ

فكأنى بالمتنبى قد أدرك ذلك منهما ، وألمَّ بطرفٍ من تحاسدِهما . وقد خابت دعوة صاحبا ، فإن شرف الدولة شيرزِيل بن عضد الدولة حارب / أخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروبٍ وحبسه . ولا أظنُّ أن بهاء الدولة كان بمنجاةٍ من ميراث أسرته من التباغض والتحاسد وسوء الظن والحقد ، بل لقد وصفه المؤرخون بأبشع الصفات ، فقالوا إنه كان « ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء ، حتى إنَّه كان خواصه يهرون من قُربِه ولم يكن في ملوك بني بُوَيَّه أظلم منه ولا أقبح سيرةً وكان به مرض الصرع ، يُصرَع في دَسْتِ المُلْك ، وَرِثَ ذلك عن أبيه » ، فليس عندي بمُستَغْرِبٍ ولا مستبعد ، أن يضطغن مثل هذا السقيم المريض القلب ، على المتنبى ، لأنه مدح أباه وأخويه ورفع من ذكرهم ، ولم يجد هو من شعراء زمانه من يقول فيه ما قاله أبو الطيب في أبيه وأخويه ، فكتب الأصفهاني كتابه تقريباً وزُلفى إليه .^(١) ومما يؤيد ذلك أن كتاب الأصفهاني في نقد

(١) كنت قد وقعتُ في خطأ غريب فظيع ، ومرَّ في كتابي هذا وظلَّ قائماً فيه مدة سِتِّ وأربعين سنة ، =

كلام ابن جنى ، وهو صاحب المتنبى ومريده ومن الضالعين معه . وسيأتى طرف من غرائب ما ذكره الأصفهاني في ثنايا القول ، يؤيد رأينا في أن الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ . (١) هذا على أنى أحشى أن يكون الأصفهاني في نفسه علوى الهوى ، كبنى بويه الديلمين ، وكانوا شيعة غلاة في التشيع .

= لم أتبه له ، ولا وجدت من تنبه له ونهني إليه ، حتى جاء عالمنا الجليل الدكتور محمود مكى ، فوضعنى على طريق الصواب . كنت قد كتبت بعد قولى : « وظفر به بعد حروپ وحيسه » ، ما نصه في الطبعتين السالفتين : « فلعل بهاء الدولة كان ممن يحقد على المتنبى ، إذ لم يمدحه أو يذكره في شعره (مع صغره إذ ذاك) » ، وهذا خطأ فادح ، فكتب لى أحنى محمود مكى معلقاً على هذه الجملة ما يأتى :

« هذا أمر بين الاستحالة ، فبهاء الدولة لم يكن قد ولد بعد . الكلام هنا عن بهاء الدولة أنى نصر نخره فيروز أصغر أبناء عضد الدولة ، توفى من داء الصرع في الرابع أو الخامس من جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ (ابن الأثير ٩ : ٩٠ / ابن تغرى بردى ٤ : ٢٣٣ ينصان على تاريخ ٥ جمادى الآخرة ٤٠٣ / الشريف الرضى ، ديوانه : ٥٩١ له مرثية فيه سجل بين يديها أن وفاته كانت في آخر نهار الأحد ، لأربع خلون من جمادى الآخرة ٤٠٣ / ابن الجوزى ، المنتظم ٧ : ٢٦٤ يذكر وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة بغير تحديد لليوم) .

وكان عمر بهاء الدولة ، على ما يذكر ابن الأثير ومعه سائر المؤرخين ، على خلاف يسير بينهم في ذلك ، كان عمره ٤٢ سنة و ٩ أشهر و ١٥ يوماً . فكان مولده كان في ١٩ شعبان سنة ٣٦٠ (وهو ما جاء نصاً في ديوان الشريف) . وأما أبو الطيب ، فكان مقتله قبل ذلك بنحو ست سنوات (قتل في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) ، وأما سيف الدولة ، فمات يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٥٦ ، أى قبل مولد بهاء الدولة بنحو أربع سنوات .

يقول أبو فهر : إشارة الدكتور مكى إلى سيف الدولة ، لأنى كنت كتبت في التعليق التالى : « وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة » ، وهو أيضاً خطأ فادح لا شك فيه . وإشارته إلى شعر الشريف الرضى ، إلى قصيدته التى أولها :

دَعِ الدَّمِيلَ إِلَى الْغَايَاتِ وَالرَّتْكَأَ مَاذَا الطَّلَابُ أترْجُو بَعْدَهُ دَرَكَأَ

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت أطراف ترجع إلى العداوة بين بنى بويه وسيف دولة وبنى حمدان [انظر

ما سيأتى ص : ١٥٩] ، وما جرّت هذه الخصومة بين أهل العصر ، والأدباء خاصة . وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين =

والآن ، وقد فرغنا من القول في محلة كندة التي ولد بها المتنبي ، وما وقع في أمرها من المبالغة ، ننظر في نسب الرجل ، لترى كيف بالغوا أيضاً في الإساءة إليه ، وتحقير مولده ، والحط من أصله ونشأته ، لأغراض خافية قد أحاطت بصاحبنا ، أضرت به في حياته ، وأفسدت تاريخه بعد وفاته .

رأيت قبل في أول ما رويناك من أقوال الرواة ، أنهم أرادوا أن يشبوا بما رووا أن الحسين والد المتنبي هو عيذان السقاء ، كان يسقى الماء على بعير له بالكوفة . وراوى القصة كلها هو علي بن المحسن التنوخي ، عن أبيه المحسن التنوخي ، ونحن نقدم فنشك في رواية المحسن التنوخي لأسباب نذكر طرفاً منها هنا ، ثم تأتي بعد أسباب أخرى تثبت ما نقوله إن شاء الله . [انظر ما سيأتى : ١٤٩] .

٢. / القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي ولد سنة ٣٢٧ ، وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ ، فكان من أصحاب الوزير أبي محمد المهلبى ، وكان المتنبي حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ، قد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى المهلبى به الشعراء وغيرهم ، كأبي علي الحاتمى صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمى ، ذكر فيها سرقات المتنبي ، وزعم أنها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبي ، ^(١) فلا عجب أن يكون

= بنى بويه الديلمين وبنى حمدان العرب التغلبيين ، وتورط الأدباء فيها فكتبوا وألفوا يريدون بما ألفوا التقرب إلى واحد من الخصمين . وأيضاً فإن بنى بويه كانوا يعرفون يقيناً أن المتنبي لم يكن خالص المدح لهم ، فقد شاب مدحه بالحسرة على لقائهم في بعض قصائده ، وما كان ذلك ليخفى عليهم وهناك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما أتى بعضه عرضاً في آخر ما نكتبه عن مدح المتنبي بنى بويه إن شاء الله .

(١) الرسالة الحاتمى ، مطبوعة ، وقد طبع صديقنا الدكتور محمد يوسف نجم كتاباً آخر للحاتمى في الحط على أبي الطيب ، سماه : « جبة الأدب » ، ونشره الدكتور نجم باسم « الرسالة الموضحة » (سنة ١٩٦٥ بيروت) . والكلام هنا أكثر انطباقاً على الكتاب الثانى .

محسن التنوخي من أعداء أبي الطيب لصلته القريبة بالوزير ، فقد بلغ به أن كان من ندمائه . ولا عجب أيضاً أن يسند التنوخي روايته (أو كذبه) إلى بعض شيوخه لئلا يفتضح . ولذلك زعم ، كما قدمنا لك ، أن القاضي ابن أم شيبان حدّثه فقال : « كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يقال له عيدان إلخ » ، والقاضي ابن أم شيبان ، يحتاج أمره إلى بعض النظر ، إذا حدث عن المتنبى ، لأنى أحشى أن تكون صلته قريبة جداً ، بحياة المتنبى وما لقيه من العلويين ، كما سأبينه فيما بعد .

وهذا الشيخ التنوخي يقول : إنه سأل المتنبى عن نسبه فما (اعترف له به) ، وكان إذ ذاك شاباً في السابعة والعشرين ، وكان المتنبى قد نيف على الخمسين ، (١) فما نظن أن القاضي التنوخي كان يجرو أن يسأل المتنبى عن ذلك ، لبعد ما بينهما ، ولتعالى المتنبى وترفعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضي بالوزير المهلبى وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) . فمن يرفع عن الوزير أبى محمد المهلبى ، وهو من هو في سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبدل مع صاحبنا القاضي / التنوخي . هذا ، فإن كان قد سأل المتنبى حقاً كما يقول ، فما يكون جواب المتنبى عن ذلك هذا الكلام الملقق الضعيف الذى يضع من رأى صاحبه ويستفسد من عقله : « أنا رجل أطوى البوادرى وحدى وأحبط القبائل » ، (٢) فلم يكن المتنبى ممن يطوى البوادرى وحده إذ ذاك ، بعد أن سار اسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبى الذى لم يخف أن يخرج غير محروس يوم قتل وقد أوعدوه ، وأرصدوا له ، وتحقق هو ذلك ، لا يقول : « ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » . وهل أذل من قوله : « وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » ؟ أهذا يقوله من أوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة فى عصر كانت تذهب فيه الأرواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السىء ؟! كلاً يا أبا على

(١) لقيه التنوخي بالأهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤ .

(٢) انظر ص : ٢٧٩ ، ومن أين استخراج الوضاعون هذا الخبر .

وقد بالغ صاحبنا التنوخي في روايته عن المتنبى حين سأله عن أبي الحسن محمد ابن يحيى العلوي الزيدي ، ومبالغته تدل على أنه كان يريد أن يولد كلاماً ، فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول قوله ، أن المتنبى حرّكته الذكرى ، فأفاض فقال عن أبي الحسن العلوي : « تَرْنِي وصديقي وجاري بالكوفة وأطراه ووصفه » .

وأخرى فمن جهل هذا التنوخي بأساليب الوضع المتقنة - التي جرى عليها شيوخ الوضّاعين وأحكموا أمرها حتى خفيت على الحفيّ البصير من العلماء والأدباء - أنه جمع بين النقائص في الكلام الواحد الذي يراد به إثبات ما لا يكون ، أو كَوْن ما لم يثبُت . فمن ذلك أنه روى أنّ أبا الرجل كان سقّاءً يسقى على بعير له ، ثم حدّث عن الرجل نفسه أنه قال : « متى انتسبت لم آمن / أن يأخذني بعض العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها » . وهذا أمرٌ من الأمر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت التّراتِ القديمة ، وألقت بالسخائم المتوارثة ، وانصرفت إلى ما جدّ من الأحداث في دولتهم وفرّق شملهم وجعل بأسهم بينهم ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، حتى لعبت بهم الأعاجم فحطّمتهم الأيام . فإذا كات العرب قد نسيت ما قدّم أو ذكرته قليلاً قليلاً ، فما خوف المتنبى مما لا يُخَاف منه؟ وما خوفه وهو آمنٌ في المدن بين الكوفة وحلب وأنطاكية ودمشق والفسطاط؟ أو كان المتنبى وحده من أهل عصره هو الذي يخشى ذاك؟ ألم يكن في عصره مثله ممن يطوى البوادي وحده؟ كلا ، وإن رجلاً قد سقط بآبائه السواقط إلى السقّاءة وغيرها من حقيرة المهن ، لا تُبغى عنده طائلةٌ ، وإن بُغيت فما يكون لمدرّكها عنده فخرٌ . و (ابن السقّاء هذا) ما عرض في شعره كُله إلى قبيلة فهجاها أو عرض بها أو لمزها بشيء ، حتى يخشى ظهور كيدٍ يُكاد به ، ولكن فعل لقالوا له كما قال الأول :

وكن كيف شئت ، وقل ما تشا ء ، وأرعد يميناً وأبرق شمالاً

نجا بك عرضك منجى الدبا ب حمته مقاذيره أن يتالا

وما عرض كعرض سقّاء وابن سقّاء ينجو به ناچ من طالب ثارٍ أو مدرّك ترة !

وهلاً أدرك هذا المترفع المتعالى على الملوك والأمراء ، عنيت المتنبى ، بنسبه رجلاً آخر غير هذا السقاء ، الذى هو أبوه ، فوقف عليه بنسبته !! ما كان يضير هذا الرجل ، لو أنه كان قد سئل عن نسبه ، كما يوهم التنوخي ، أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس معلوم غير منكور ولا محقر؟! إن الرواة قد / اختلفوا ، كما رأيت في صدر مقالنا ، ٢٣ في اسم جدّه (أبى أيه) ولم يجمعوا على شيء ، وأخطأ بعضهم في اسم أبيه فسماه (محمداً) ، واقتصر جُلّ شراح ديوانه من الأوائل ، ثم أكثر النسخ المخطوطة - على اسم أبيه وحسب ولم يزيّدوا . فهذا دليل على أن الكتبان إنما كتبتاناً للنسبة كلها لا كتبتاناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب إليه أن يلحقه من جرائمها أذى في ترة ، أو مكروهاً في ضغينة قديمة أو مُحدثة، وأى تأر يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاءً بالكوفة !

ثم إن التنوخي يروى هذا الخبر ، ويروى أيضاً أنه كان جُفياً صحيح النسب ، وما تصح نسبة سقاء إلى جُفى بن سعد العشيرة إلا أن يذكر نسبه متصلاً إلى جُفى ، لأن سقاء يدعى الانتساب إلى جُفى ، لا بد له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُد . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصٌ واحدٌ يُذكر فيه نسب المتنبى إلى رجل من جُفى لا يُختلف في أمر نسبه . فما ظنك بمن آختلف في جدّه الأدنى والذى بعده ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عمود النسب ؟

أو لم يكن الذى حفز التنوخي أن يسأل المتنبى عن نسبه فأخفاه عنه ، ليحفزه أن يسأل ابن أم شيبان الهاشمي ، أو أبا الحسن العلوي ، كيف صحّت نسبة الرجل إلى جُفى ، وخاصة بعد أن جحدته المتنبى وكنم عنه ما عرفه غيره ؟ ولو كان فعل ، لكان نَسبُ الرجل مشهوراً عندنا ، كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة .

وبعد ، ألم يكن بين العرب جميعاً من يعرف أن الرجل جُفى القبيلة غير / « ابن أم شيبان الهاشمي » و « أبى الحسن العلوي » و « أبى على التنوخي » ؟ أو قد حرصوا ثلاثتهم على أن لا يذيع نسب الرجل إلى جُفى ؟ ولو كان ذلك ، فما الذى حملهم على ٢٤

هذا الحرص ؟ والتنوخي نفسه لم يكن يعرف سبب حرص المتنبي على كتمان نسبه إلا في السنة التي مات فيها (سنة ٣٥٤) ! أكانوا ثلاثتهم لا يأمنون « أن يأخذ المتنبي بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي ينتسب إليها » ؟ وكذلك شهد الرجل (التنوخي) على نفسه في حديثه بالتخليط أو الوضع .

ولا يفوتك أن المتنبي في أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية ، وكان التنوخيون ينزلونهما من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ هناك نابتة من المودة ، ثم نمت وربت واهتزت ، فمدحهم وراثهم ، ودفع عنهم ، ورمى دونهم ، وأقام طويلاً بينهم مكرماً ، وقد كان بين أصحاب أبي الطيب من التنوحيين وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن إسحق التنوخي وراثه المتنبي ، جرى في أنطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شتموا بموته ، فلجأ هؤلاء الشامتون إلى أبي الطيب يسألونه أن ينفى الشماتة عنهم ، فكان مما قال في ذلك :

(أبناء عم) كل ذنب لا مريم
إلا (السعاية) بينهم مغفور
طار الوشاة على صفاء وداهم
وكذا الدباب على الطعام يطير

ثم عادوا فسألوه أن يزيد ، فكان مما قاله على لسانهم :

رثى ابن أينا غير ذي رحيم له فباعنا عنه ، ونحن الأقارب
وعرض أنا شامتون بموته ، وإلا فزارت عارضيه القواضب
/ أليس عجيباً أن بين بني أبي (لنجل يهودي) تدب العقارب (١)

وهذه العداوة التي كانت بين التنوحيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحد من تنوخ (كأبي علي التنوخي) ممن يذكر من أمر أبي الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله

(١) انظر ما سيأتي ص : ٢٢٨ ، فإنه مهم ، حيث ذكرت هذا البيت ، وما وقع بين التنوحيين من الفرقة بسبب العلوية والتشيع .

حتى تقطعنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون إلى هوى ، ولا يُصغون أفئدتهم إلى بغضة ،
فما ظنك بأبي عليّ التنوخي ، وهو قد اجتمعت الدلائل - كما رأيت - على وهن روايته ،
واختلاط حديثه ، وبيان هواه ؟

وليس عجيباً أن يكون التنوخي ممن يحمل لأبي الطيب في صدره شحنة لصلته
المعروفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحنة على وصف الرجل بكل نقيصة ، أو النيل
منه بكل سبيل . واعلم أن عليّاً التنوخي (والد المحسن هذا) كان ممن وُلِدَ بأنطاكية
وشبّ بها ثم رحل عنها ، فلعلّه رحل عن أنطاكية لِحدِّثِ وقع بين أهله وبين أقاربهم ، (١)
وبقيت في صدره وصدر أبنائه حزازات موروثه وأحقاد لبني عمه هناك . ولا عجب ، فقد
كانت هذه الفترة من العصر العباسي مُرجلاً يغلي بالأحقاد بين الأخوة وبنى الأعمام ،
حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه ، وهتك عرضه ، واستباح حُرُماته ، وخاصة مَنْ
رَقِيَ درجات الإمارة ، أو أدرك سبياً من السلطان كأصحابنا التنوخيين ، (وهم نسل
ملوك تنوخ الأقدمين) .

هذا ، ولو سلمنا للتنوخي رحمه الله بصحة روايته عن أبي الحسن العلوي ، وأن
الذي قاله عن المتنبي هو من لفظ أبي الحسن جملةً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند
نفسه - فعندنا في أقوال العلويين المعاصرين عن أبي الطيب سببٌ / للتوقف دون التسليم
لهم هكذا ، لا نجادل (٢)

٢٦

(١) أعنى فتنة التشيع التي فرقت الناس .

(٢) وقيل فلا تنس ما كتبنا لك : أن العصر الذي كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية
عصراً خبيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طغت فيه الدسائس ولعبت به الأهواء واستحرت الأحقاد بين الرجل
وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التي تؤويه . وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه في أثناء كلامنا ، فما
في كل موضع يمكن الإشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارئ حين يفوز
إلا بما يفطن إليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزوه سواه .

ففى ديوان أبى الطيب معنىً من المعانى ، وإخاله سراً من الأسرار ، لعله أن يكون يوماً ما مفتاحاً تتسنى له الأبواب المغلقة فى نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذى يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلياً أن نستوفى هنا بعض الرأى الذى نذهب إليه ونُقيدُهُ على مُكثٍ .

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهى إذ ذاك دارُ العلويين ، (١) ومعقل الأئمة منهم والناهبين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثله ممن ينال بالشعر ويؤمّل منه ، أن يمدح من تُرجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين فى ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم نهلَ واغترف ، (٢) واستقى وأفاض (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف .

فعجباً لأبى الطيب ، أيما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجلين ما امتدَّ به العمر ، وقد بينَّ أبو الطيب فى إحدى قصيدتيه ، وبيّنت الرواية فى الأخرى ، سبب ذلك المدح

٢٧ / قال العكبرى : « وكان محمد بن عبيد الله العلوىُّ المعروف بالمشطَّب ، (٣) هذا الممدوح قد واقع قومًا من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌّ دون العشرين سنة ، فقتل منهم جماعة ، وجرح فى وجهه فكسته الضربة حُسنًا فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا » - :

(١) من العلويين الزيدية ، والعلويين الاثنى عشرية الإمامية ، وكان بينهما فى الكوفة من الخلاف والشحناء ما بينهما .

(٢) « اعلم كما سترى بعد أن المتنبى تعلم فى كتاب للعلويين » ، هكذا قلت قديماً بل الأمر الآن أكبر من التعلم كما ستعلم بعد .

(٣) قال الأمير ابن ماكولا فى الإكمال ١ : ٨١ « الأشتر النقيب أبو الحسين محمد بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن على طالب ، مدحه المتنبى ، وكان يلقب « المصهرج » ، قاله لنا الشريف النسابة » ، وانظر جمهرة ابن حزم ص : ٥٦ (ثانية) فى سياق النسب اختلاف .

فمدحه المتنبي بقصيدته التي أولها : (١)

أهلاً بدارٍ سبائكٍ أغيدُها أبعدُ ما بانَ عنكَ خُرْدُها
فذكر فيها أن ناقته حملته إلى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح :
إلى فتىٍّ يُصدِرُ الرِّمَاحَ وقد أنهلها في القلوبِ مُورِدُها
لَهُ أَيادٍ إِلَيَّ (سَالِفَةٌ) أَعُدُّ مِنْهَا وَلَا أَعُدُّها
ثم طفق يمدحه إلى أن قال :

وَكَمْ ، وَكَمْ نِعْمَةٌ مُجَلَّلَةٌ رِيَّتُهَا كَانَ مِنْكَ مَوْلُدُهَا
وَكَمْ ، وَكَمْ حَاجَةٌ سَمَحَتْ بِهَا أَقْرَبُ مِنِّي إِلَيَّ مَوْعِدُهَا
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الـ بَرٌّ ، إِلَى مَنْزِلِي تَرُدُّدُهَا
أَقْرَ جِلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَلَا أَقْدِرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجْحَدُهَا
فَعُدَّ بِهَا لَا عَدِمْتُهَا أَبَدًا ، خَيْرُ صَلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُوذُهَا

/ والمتنبي ، كما ستعلم بعدُ ، كان أوَّل أمره وهو صبِيٌّ : « يَخْتَلِفُ إِلَى كِتَابٍ فِيهِ
أَوْلَادِ أَشْرَافِ الْكُوفَةِ » مِنَ الْعَلَوِيِّينَ ، فَكَأَنَّ (مُحَمَّدَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ الْعَلَوِيَّ) هَذَا كَانَ مِنْ
لِدَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ أَوْ أَسْنَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي الْمَكْتَبِ ، (٢) وَأَخَذَتْ بَيْنَهُمَا الْمُوَدَّةَ ثُمَّ ،
وَلَعَلَّهُ كَانَ يُفْضِلُ عَلَى الْمُتَنَبِّيِّ وَيَتَعَهَّدُهُ وَيُكْرِمُهُ فَلِذَلِكَ قَالَ : « لَهُ أَيَادٍ إِلَيَّ سَالِفَةٌ » .

٢٨

(١) الرأى عندنا أن المتنبي قال هذه القصيدة بعد مرجعه إلى الكوفة من مقامه بالبادية سنة أو أقل ، وقبل
خروجه إلى بادية كلب واللاذقية حيث سجن في دعوى النبوة ، كما يزعمون ، وقد كانت سنه حين قالها على
الأرجح عندنا خمس عشرة سنة أي سنة ٣١٨ هـ . واعلم أننا إنما نجتهد في تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي ، وقد
وجدنا في ذلك المشقة وما فوقها ، لترجم للرجل على بينة وهدى . وستجد فائدة ذلك في كثير مما يمر بك إن شاء
الله .

(٢) تقول : « فلان سن فلان » ، أي مثله في سنه ، والجمع أسنان .

فأكدت هذه المودة القديمة سبب المدح حين عاد من رحلته في البادية يتسقط اللغة وينتجع الرزق . (١) وأرجح الظن أن المتنبي حين عاد إلى الكوفة : عاد إليه صاحبه العلوي بالإفضال والتعهد ، فلما أصيب بالجراحة في حربه ، مدحه المتنبي لصدافته ومودته ، ولما أسدى إليه من معروف ، وما اتخذ عنده من صنائع .

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح ، فهو أبو القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي لم يمدحه المتنبي ابتداءً كما مدح غيره . وفي ما نرويه لك من خبره عجب ! [انظر ما سيأتى أيضاً ص : ٢٩٢ ، ٢٩٣] .

٢٩ / كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طعج وهو بالرملة لم يزل يرأسل أبا الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، ويعزم عليه في القدوم عليه ، فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُدَيِّدَةً ، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طعج) ، يسأل أبا الطيب أن يخصَّ أبا القاسم (طاهراً العلوي) بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتبهى ذلك) !! وأبو الطيب يقول : « ما قصدتُ إلا الأمير (ولا أمدح سواه) !! » فقال له أبو محمد : « عزمت عليك أن أسألك قصيدةً تنظمها فيّ فأجعلها فيه » ، [تأمل هذا !!] ، وضمّن له عنده مئاة من الدنانير ، فأجاب .

(١) هذا ما قلته منذ أربعين سنة ، أما الآن فقد صار ما قلته هنا لا يعبر عن الحقيقة . فإن علاقة المتنبي بالعلويين لم تقتصر على تعلمه في كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، بل ارتفعت علاقته إلى أخوة من الرضاع . فقد ذكر ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) في ترجمته التي سنشرها مع سائر التراجم الجديدة في آخر الكتاب ، أن المتنبي : « أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » وأسنده فقال : « أخبرني صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي مولى الحموي البغدادي ، قال : رأيت ديوان أبي الطيب المتنبي بخط أبي الحسن علي بن عيسى الربعي قال في أوله » ، وذكر ما نقلته وغيره كثير . و « علي بن عيسى الربعي » ، ممن روى عن المتنبي وأخذ عنه شعره . فالأمر إذن أجل من التعلم في كتاب أولاد أشراف الكوفة من العلويين . و « آل عبيد الله » ، هم بنو « عبيد الله بن علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب » ، ومنهم « المشطب » الذي مدحه ، كما ترى في نسبة ص : ١٥١ ، تعليق : ٣ ، والأرجح الآن أنه أخو المشطب من الرضاع على الأقل ! بل قد تبين بعد هذا ، أن المتنبي نفسه قال : « رضعت بلبان علوية من بنات عبيد الله بن يحيى » ، كما ستري في ترجمة الربعي في (سنة ١٩٨٤ هذه) = التراجم الأربع .

قال محمد بن القاسم الصوفي : « فسرْتُ أنا والمطلبي برسالة طاهر إلى أبي الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعة من الأشراف ، فلما أقبل أبو الطيب ، نزل طاهر عن سريره ، والتفاه مُسَلِّماً عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها ، وجلس هو بين يديه . فتحدّث معه طويلاً ، ثم أنشده أبو الطيب ، فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة . »

قال علي بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعتُ أن شاعراً جلس المدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير أبي الطيب ، فإني رأيت هذا الأمير قد أجلسه في مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَّ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَّ لَحْظَ الْحَبَائِبِ (١)

/ وفي هذه القصيدة التي يمدح بها رجلاً علويًا ساميَ القدر يقول :

كثِيرُ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا	يَزُولُ ، وَبَاقِي عُمُرِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ
إِلَيْكَ ، ... فَإِنِّي لَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَى	عِضَاضَ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعَقَارِبِ
أَتَانِي وَعَيْدُ (الْأَدْعِيَاءِ) ، وَأَنَّهُمْ	أَعَدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَّقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذِرْتَهُمْ ،	فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ
إِلَى لَعْمَرِي قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ	كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْعَجَائِبِ
بَأَى بِلَادٍ لَمْ أُجْرَ ذُوَابَتِي ؟!	وَأَى مَكَانٍ لَمْ تَطَّأَهُ رِكَابَتِي ؟!

(١) لا بد لنا هنا من التنبيه إلى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا في كتابه عن المتنبي ، إذ زعم أن المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح أنهما قبلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ، ومن ثم في تلك السنة رحل إلى أنطاكية قاصداً أبا العشائر الحمداني الذي وصل أسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ . وسترى ذلك في موضعه من كتابنا هذا . هذا على أن أسلوب الرجل في هاتين القصيدتين ونقسه في الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر أدنى تدبر .

وَنَقَسُ الرَّجُلُ فِي الْقَصِيدَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَدْ لَقِيَ كِيداً فِي سُنَّتِهِ تِلْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْأَدْعِيَاءِ (وَهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ الشَّرْفَ بِنَسَبَتِهِمْ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) . وَبَيَّنَّ مِمَّا وَرَدَ فِي شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ أَنَّهُ حِينَ أَزْمَعَ الرَّحِيلَ مِنْ طَبْرِيَّةَ سَنَةَ ٣٣٦ ، أُرْصِدَ لَهُ هَؤُلَاءِ الْعَلَوِيُّونَ (الْأَدْعِيَاءُ) قَوْماً مِنَ السُّودَانِ عَبِيدِهِمْ فِي طَرِيقِهِ بِكُفْرِ عَاقِبٍ لِيَقْتُلُوهُ ، (١) فَلَمْ

(١) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن ، وانظر ما سيأتى ص : ٢٥٤ .

الحمد لله وحده ، فهذه قرينة واضحة تؤكد صدق ما ذهبْتُ إليه في تفسير شعر أبي الطيب ، في هذه المسألة ، وفي علاقته بمحمد بن طُغْج حين كان محبوساً بكيد العلويين في أول شبابه ، [انظر ما سيأتى ص ٢٢٤ - ٢٣٤] ، فإن ابن طُغْج كان يصانع العلويين ، ولكنه لا يأمنهم ، وكان عَدُوًّا للقرامطة . فقد ثبت عندي أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْرَوْا بِقَتْلِهِ ، هُمُ قَوْمٌ مِنْ وَلَدِ « الْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ » ، فقد جاء في نسخة ابن جُنَيْدٍ من ديوان المنتسبي (ص : ١٩١ ، طبعة الدكتور عزام) أن المنتسبي قال : « يَهْجُو عَلَوِيًّا عَبَّاسِيًّا :

أَمَاتِكُمْ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمْ الْجَهْلُ وَجَرَّكُمْ مِنْ خِيفَةِ بِكُمْ التَّمَلُّ
وَكَيْدُ أَبِي الطَّيِّبِ الْكَلْبِ ، مَا لَكُمْ فَطَنْتُمْ إِلَى الدَّعْوَى وَمَا لَكُمْ عَقْلُ
وَلَوْ ضَرَبْتُمْ مَنْجَنِيْقِي وَأَصْلَكُمْ قَوِيٌّ لَهَدَّيْتُكُمْ ، فَكَيْفَ وَلَا أَصْلُ
وَلَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يُدْبِرُ أَمْرَهُ لَمَا كُنْتُمْ نَسْلَ الَّذِي مَا لَهُ نَسْلُ

وجاء في نسخة أخرى : « وتوعده قوم من ولد العباس بن علي بن أبي طالب بطبرية بشر ، فقال لهم أبو الطيب في ذلك » .

فهذا نصُّ قاطع ، أنهم هم الذين توعده بطبرية ، وأرصدوا له بكفر عاقب . و « وَآلُ أَبِي الطَّيِّبِ » ، الذين ذكروهم في البيت الثاني ، أبوهم : « أبو الطيب ، محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب » ، وهو الذي قتله محمد بن طُغْج الإخشيد قبل سنة ٣٣٤ ، وكان أبو الطيب جليل الحال في الأردن ، وكثر ماله وضياعه ، وكان يسكن مدينة طبرية ، فكبسَه رجالُ محمد بن طُغْج في بستانٍ له فقطعوه بالسكاكين ، وذلك في أيام القرامطة ، وكان مُتَّهِماً بالميل إلى القرمطي لعنه الله ، (جمهرة النسب لابن حزم : ٦٧ ، ومقاتل الطالبيين : ٧٠٠) . وقول المنتسبي في البيت الأخير : « لما كنتم نسل الذي ما له نسل » ، فإن ابن حزم قال في الجمهرة : ٦٧ ، « لا عَقِبَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، إِلَّا مَنْ وَلَدَهُ عَبِيدُ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ فَقَطْ » ، فالظاهر أن هَؤُلَاءِ الْعَلَوِيُّونَ الْعَبَّاسِيُّونَ كَانُوا قَلَّةً فِي الْعَدَدِ ، أَوْ كَانُوا يَتَهَمُونَ بِأَنَّهُمْ « الْعَبَّاسُ » لا عَقِبَ لَهُ الْبَيْتُ ، ولذلك قال في شعره بعد « بها علويٌّ جدّه غير هاشم » ، أي أنه دَعِيَ من الأدعياء . وليس يبعد أن يكون أبو الطيب العلوي هذا ضالعا في أمر مسجن أبي الطيب المنتسبي .

يظفروا بما أمّلوا ، وأحفظ ذلك أبا الطيب ، فلما دخل الرملة كان ، على عادته كما ستري ذلك ، ثائراً لا يفتأ يذكر ما يختلج في ضميره ، لا يُراعى ولا يُحاني ولا يتهيب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله في هذه القصيدة أيضاً :

إذا (علوي) لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلا حجةٌ للنواصب (٢)

ثم أجرى هذا الأمر مجرى المثل كعادته فقال :

/ إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصله فماذا الذي تُغني كرام المناصب ! (١)
وما قرّبت أشباه قومٍ أباعدٍ ولا بُعدت أشباه قومٍ أقاربٍ

والبيت الأخير هو حجته في نفي العلوية عنهم ، وإثبات أنهم أذعياء لا يمتنون إلى الشرف بسببٍ ولا صلة . فلو كانوا علويين ، لا جرم ، لتشابهت الأخلاق في الكرم والسمو ، ولكانوا كهذا العلوي الذي يمدحه (طاهر بن الحسن) .

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب ، قبل هذا بأيام قلائل ، يقول للأمير أبي محمد بن طُغج في مديحه :

كريمٌ نفضتُ الناسَ لَمَّا بلغتهُ كأنهم ما جفَّ من زادٍ قادمٍ
وكادَ سُروري لا يفِي بندا متي على تركه في عمري المتقادمِ
وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلاً وتربةً بها (علوي) جدُّه غيرَ هاشمِ

(وشرُّ الأرض) ، هي طبرية التي كان بها قبل مقدمه إلى الرملة .

أو ما ترى بعد أن في تجنّب المتنبي مدح العلويين ورجاهم وأثمتهم في أول أمره وهو بالكوفة ، إلا واحداً كان رفيق صباه وأحد أسنانه ، [وأخاه في الرضاع كما استظهرت في

(١) « النواصب » ، هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، واحداً « ناصبي » .

(٢) « المناصب » جمع « منصب » ، وهو الأصل الذي ينتمى إليه وينتسب .

ص : ١٥٣ ، تعليق : ١] ومن خير المُفضّلين عليه والمُتعهّدين في مُحنته وفقره - ثم في طلب الأمير منه أن يمدح طاهراً العلويّ فيمتنع ويستعصى عليه ، حتى يكثر عليه الأمير ويقول : « أنا أشتبهى ذلك » ، فيقول أبو الطيب : « ما قصدت إلا الأمير ولا أمدح سواه » ، فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج منه وَعَدَهُ ، ثم في إكرام العلويّ له هذا الإكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه في مرتبته وعلى سريره ، وهو بين جِلَّة الأشراف العلويين ، ولا يتورّع المنتبيّ إذ ذاك / أن يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض ونفى النسبة الكريمة عنهم - ألا ترى أن هناك سراً من الحفيظة بينه وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفي ديارهم ، ودرس في مكتبهم ، بين أولادهم ؟ (١)

هذا ، وسيأتى طرف من ذلك بعد ، (٢) فترى أن أبا الطيب حين خرج في أوّل أمره باللادقية ، كان الذي عدّبه وسجنه رجلٌ هاشميّ أو علويّ هو (ابن عليّ الهاشمي) ، (٣) وكان بكوتكين ، فجعل في عنق صاحبنا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له :

زَعَمَ الْمُقِيمِ بِكُوتَكِينَ بِأَنَّهُ مِنْ آلِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ
فَأَجَبْتَهُ : مُذْ صِرْتَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ صَارَتْ قِيودُهُمْ مِنَ الصَّفصَافِ

يسخر منه ، ومما أخذه به .

أفلو شككنا ، من أجل هذا ، في صحة ما يقوله العلويون عن أبي الطيب ،

(١) بل زاد الأمر على التعلم والنشأة وزاد العجب ! انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ ، وانظر توثيق مقالتي هذه في ترجمة ابن العديم رقم : ٦٨ ، من أن المنتبي كان مخالفاً للشيعه .

(٢) سيأتيك في خبر نبوته أيضاً بعد أنهم زعموا أن أبا الطيب ادعى أنه علوي حسني ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوي . وسترى بطلان ذلك إن شاء الله ، وتأويله عندنا على الرأي والنظر لا الرواية . [وقد وجدت في تكملة تاريخ الطبري ، الأول : ١٩٥ (بيروت ١٩٦١) أن المنتبي ادعى أنه حُسيني ، وذلك في رواية حديث أبي الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي] ، وكان هذا هو الصواب المحض .

(٣) انظر ص : ١٥٥ ، والتعليق : ١ .

وتوقفنا دون الأخذ بأقوالهم في ترجمة الرجل ، نكون قد أتينا أمراً كبيراً لا يقرُّنا أحد عليه ؟
لا أدري !

رأيتَ قبلُ أن الذي قال : إنَّ والد المتنبي هو « عِيدَانُ السَّقَاءِ » ، إنما هو أبو علي
المحسن التنوخي ، وهو من شيوخ العراق وأصحاب الوزير المهلبى ، فزُد على هذا أيضاً أن
المتنبي حين دخل العراق بعد فراق كافور ، أعرض عن المهلبى ، ولم يمدحه ، ولم يبال به ،
فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب / والأدباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن
ينال أبو الطيب في العراق ما نال في الشام ، فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويخصف
بذكرهم عند الملوك والأمراء ، كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كأبى فراس
الحمداني ، والسرى الرفاء ، وأبى العباس النامى ، وأبى الفرج الببغاء ، وخلق كثير من
الشعراء . وقد هجم على أبى الطيب ووقع في عرضه شعراء العراق حين أغراهم الوزير
المهلبى به حتى قالوا فيه :

أبى فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضدَ ل من الناس بُكرةٌ وعشياً
عاشَ حيناً يبيعُ بالكوفةِ المأء ، وحيناً يبيعُ ماءَ المُحيا

فرعموا أنه هو الذى كان سقاً لا أبوه ، وهاج هذا القول الحسن بن لَنَكَّك شاعر
البصرة ، وكان ، كما كان الخالديان ، (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إياه ، زاعماً أن أباه
كان يسقى الماء بالكوفة) ، فقال ابن لَنَكَّك شماتةً حين رأى وقية شعراء بغداد في
الرجل :

قُولُوا لِأَهْلِ زَمَانٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ ضَلُّوا عَنِ الرَّشِدِ مِنْ جَهْلِ بِهِ وَعَمُّوا
أَعْطَيْتُمْ الْمُتَنَبِّىَ فَوْقَ مُنْتَبِهِ فزَوَّجُوهُ بِرَغْمِ أُمَّهَاتِكُمْ
لكنَّ (بغداد) ، جَادَ الْعَيْثُ سَاكِنَهَا ، نِعَالُهُمْ فِي قَفَا السَّقَاءِ تَزْدَحِمُ

وقال أيضاً :

« مُتَنَّبِيكُمْ أَبْنِ سَقَاءِ كُوفَانَ »

ونضح - بعد ذلك - إناء ابن لنكك بما فيه .

٣٤ فذكر المتنبي بالسوء وزعمهم أن أباه كان سقياً ، من « مصنوعات » / العراق
وتجارته التي كان المهلبى (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح ، فكم اتجر صاحبنا المهلبى
بالأكاذيب في أيام وزارته ، كما روت التواريخ عنه وعن أيام أصحابه . وإلا فكيف (يصح
في الأذهان) أن يقف ابن السقاء ، هذا المتنبي كما زعموا ، في كل المواطن موقف المتعالى
المتكبر الذى لا يرى أحداً فوقه ولا أحداً مثله ، حتى سيف الدولة ابن حمدان ولي نعمته ،
وصاحبه ، ومُكْرَمُهُ على حين مَسَاءَةٍ من الزمن ؟! يا عجباً !! ألم يكن في مجلس سيف
الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ، ويتصدى له أبو فراس
وهو ينشد ، فيجبهه ويقطعه عن الإنشاد ؟ يقول المتنبي في هذا المجلس :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مَمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا بَأَنِّي خَيْرٌ مِنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبَى وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

فانظر كيف فضل نفسه على من ضمّ مجلس سيف الدولة وفيهم سيف الدولة
نفسه ، ولم يزد أبو فراس - وهو قريع المتنبي في الشعر وعدوّه لمنزلته عند سيف الدولة -
على أن قال له فيما قال : « ومن أنت يا دعى كندة » !! وفي قوله : « دعى كندة » نَظَرُ .
فما نظن الرجل ادعى لكندة ، وأصحابنا يزعمون أنه كان يخفى نسبه ! وكان أولى بأبى
فراس ، وأوقع في المتنبي ، وأوضح له في تبيّه وتعالیه على الأمراء والملوك وكبار الشعراء كأبى
فراس نفسه - أن يقول له إذ ذاك : « من أنت يا ابن سقواء كوفان » ... لو أنه كان علم
ما علمه التنوخى وأصحابه ، وشعراء العراق ، وشاعر البصرة الحسن بن لنكك ، الذين
كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلبى وزير معز الدولة أحمد بن بويه (الديلمى)
عَلَوْ بنى حمدان ، وفي رأسهم سيف الدولة (العدوى العربى) .

٣٥ / أترى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذكرهم ، ولم يُعْفهم من ذمهم لهم في شعره ، كانوا لا يتَقصَّون خبر الرجل وقد استفحل أمره بينهم ، فيعلموا أنه كان (ابن سقاء) ، فيلمزوه بذلك ، ويستخفُّوا به ، أو يعبثوا به ويتنادروا عليه ؟! وهذا ابن السقاء يتحدَّاهم ويتحدَّى سيفَ الدولة نفسه ، وأبو فراس قريعه وعدوه في ذاك المجلس إذ يقول :

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثُّرَيَّا ، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

أئنَّهم ليطلبون له عيباً فيعجزهم الطلب ، ويكون متعالماً في العراق بعد أن الرجل ابن سقاء كان يسقى الناس على بعير له بالكوفة !!

اقرأ ديوان الرجل كله ، تجده تياهاً يتسامى بنفسه على كلِّ ممدوح ، ويتعالى على كلِّ أهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سُخْرِيته وهو قد قطع أرزاقهم ، وألوى بهم وبذكرهم ، وكلامه كلامُ الواثق الذي لا يُدَاخِلُه الشكُّ ، ولا يروِّعه الكذب ، ولا يرده الافتراء ، فلو كان في نسب الرجل ، إذ ذاك مطعنٌ لطاعن ، أو في أصله تُهْمَةٌ لمتهم ، لتردَّد في قوله تردُّد الحيران ، ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والههمة والتلفيق والدسُّ عند الأمراء ومن إليهم من رجال الدولة . ولو كان في نسب الرجل شيءٌ ، لسمعت عند كل موضع من فخره في شعره نادرة يتناقلها الأدباء ، وغمزة قد غمزه بها أنداده وأعداؤه من الشعراء . ألم يسمع هؤلاء إلى قوله في فخره :

لا بقومي شُرُفْتُ بل شُرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّأ دَ وَعَوْدُ الْجَانِي وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

٣٦ / فهذا من أكبر الفخر ، فما من قوم يفخر بهم « كلُّ من نطق الضاد » غير أبناء على رضی الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . ويقول يرثى جدته وقد ماتت بالكوفة ، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة حيث نشأ وعُرف :

وَإِنِّي لِمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نَفُوسَهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبرٌ واحدٌ يُطعن فيه الرجل بأنه ابن سقاءٍ !
وما يكون لابن سقاءٍ أن يقول مثل هذا ، ويكون كل ما وصلنا من خبر أبيه إنما وصل في
خبر دُخوله بغداد في آخر عمره ، ومن رجالٍ بينهم وبين الوزير المهلبى آصرةٌ مودّةٍ
وتناديٍ ، أو شعراء آسدّهم هذا الوزير المهلبى وأغراهم بالرجل ، حتى وقعوا في عرضه ،
وولغوا في شرفِ نسبه ، وجودة قريضه وبيانه !! إنه العجبُ وما فوق العجب !

هذا ، إذا أغفلنا كلَّ الإغفال أمر « العلوية » و « العلويين » و « الشيعة » وأتباعهم
من « المتشيعين » وما كان بينهم وبين أئى الطيب من عداوة بلغت حدَّ الإرصاد له ابتغاء
قتله والفتك به ، [انظر ما سلف : ١٥٣ - ١٥٦] .

فَوَا أَسْفَا أَلَا أُكِبَّ مُقَبَّلًا
لرأسيك والصدر اللذي مليًا حَزَمًا
وَأَلَا أَلَا قِي رُوحِكِ الطَّيِّبِ الَّذِي
كَانَ ذَكِيَّ الْمِسْلِكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا
ولو لم تُكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدِ
لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا

- ٢ -

٣٧ / هما ، ولا غيرهما ، أبوه الذي كان سَقَاءً ، زَعَمُوا ، يسقى على بعير له بالكوفة ، « وكان جعفيًا صحيح النسب ... » ، وجدته ، « وكانت همدانية صحيحة النسب لا يُشكُّ فيها ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » . هما ولا غيرهما ، أصله وَفَرَعُهُ ، وقديمه وحديثه وعشيرته وأهله ، وعصبته وقومه ، والقائمون بأمره في أول حَدَاثَتِهِ ، لا عمٌّ ولا خال !!

أَمَّا أُمُّهُ فَقَدْ جَهَدَتْ أَنْ أَجِدَ لَهَا خَيْرًا وَاحِدًا ، أَوْ ذَكَرًا فِي كَلَامٍ ، فَمَا وَصَلَتْ .
أَمَّا مَا يَزْعَمُ بَعْضُ الْكُتَّابِ وَالْأَدْبَاءِ مِنْ أَنَّهُ أَرَادَ أُمَّهُ بِقَوْلِهِ وَهُوَ فِي السَّجْنِ ، وَقَدْ كَتَبَ بِهِ إِلَى الْوَالِي :

يَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيْبُ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأُنِّي غَرِيْبُ
أَوْ (لِأُمِّ) ، لَهَا إِذَا ذَكَرْتَنِي ، دَمُ قَلْبِي بِدَمْعِ عَيْنِي يَدُوبُ

فليس عندنا بشيء ، فإنه كان يسمى جدته (أمه) ، وقد جاء ذلك في قصيدته

التي رثاها بها فقال :

٣٨ / وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدِ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي (أُمًّا)

ومن قرأ قصيدته هذه وتدبرها ، وقع في قلبه اليقين أنه لم تعطفه عاطفة إلى أحد من أهله ، (ولا نستثنى أباه السقاء !!) ، إلا أن تكون هذه الجدّة الكريمة التي حملته

صغيراً وثكلته شاباً بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابه وهو متوجّه إلى العراق (ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !!) أو كما قالوا وفي قصيدته هذه إشارة دقيقة بليغة مقدّرة ، يشير بها إلى أن أمّه قد ماتت وهو صغير ، فكفلته جدّته العجوز رحمها الله ، ^(١) وذلك في قوله :

طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا فَفَاتَتْ وَفَاتَنِي (وقد رَضِيْتُ لِي ، لَوْ رَضِيْتُ بِهَا ، قِسْمًا) ^(٢)

فتدبّر الشطر الأخير فَضَّلَ تدبّر ، تجد المعنى الذي أردناه من أن أمه ماتت وهو صغير ، فكان مما (قَسِمَ) لجدته أن تحضنه ، فرضيت بذلك رضياً خالصاً ، وأحبه حباً عظيماً ، يقول في الدلالة عليه :

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا قَتِيلَةَ شَوْقٍ غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَصَمًا

وفي تسميته جدته (أمّا) بعضُ الغنى في الحجة المرّجحة لقولنا هذا .

شهد التنوخي ، أو أبو الحسن العلوي الزيّدي ، أو من تشاء ، لجدّة المتنبّي أنها كانت من « صلحاء النساء الكوفيات » ، ولعلّ هذا أمرٌ لا ريب فيه ، وإن / لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك ، فإنها هي التي تولّت تنشئة المتنبّي من صغره ، حتى كبر ، وقد شهد له أكثر أهل عصره حتى أعداؤه : أنه كان كما قال علي بن حمزة البصرى (راوية المتنبّي : كما سماه أهل المغرب) : ^(٣)

(١) كان هذا الذي قلته ظناً ظننته ، ثم جاء النص على ذلك فيما حدثنا به ابن العديم ، عن الربيعي ، أن المتنبّي أَرْضَعَتْهُ امرأة علوية من آل عبيد الله ، فدل هذا على أن أمه ماتت قبل أن يتم رضاعه ، أو لعلها ولدت له ثم ماتت في ولادها ، ولم ترضعه قط .

(٢) القسم بالكسر النصيب ، وقد مضى الشراح من أصحابنا ولم ينظروا في قوله (لو رضيت) . فاعلم أن (لو) في هذا البيت إنما تفيد الأسف والحسرة ، وهما وجه من وجوه التمني ، وللبيت موضع آخر من كتابنا هذا تتولى فيه شرحه ، فقد أفسده الشراح . [انظر هذا ص : ١٧٣ ، ١٧٤] .

(٣) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصقلية ، ولما دخل المتنبّي بغداد كان بها علي بن حمزة ، فنزل المتنبّي في داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا ببقية قوله في المتنبّي لموضعه من الكلام إن شاء الله .

« بلوثٌ من أبنى الطيب ثلاثٌ خِلالِ محمودَةٍ ، وتلك أنه ما كَذَبَ ولا زنى ولا لاط » ، وقال ابن فورَجَه : « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال » .
وقد كان أثر جدته بيناً في أوّل شعره كما ستري ، وقد ذكر المتنبي خُلُقَه في أبيات له ، منها قوله :

وترى المُرُوَّةَ والْفُتُوَّةَ والأبُو ةَ فَيَ كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِهَا
هُنَّ الثَّلَاثُ المَانِعَاتِي لَذَّتِي فِي خَلُوتِي ، لَا الخَوْفُ مِنْ تَبِعَاتِهَا

فلا شك أن أكثر ذلك من أثر جدته ، وزكاءِ نفسها ، وصلاح قلبها . وقد وصفها المتنبي فجمع ما شاء ودل عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال :

فَوَا أَسْفَا أَلَّا أَكِبَّ مُقَبَّلًا لِرَأْسِكِ وَالصَّدْرِ اللَّذِي مُلِقًا حَزَمًا
وَأَلَا الأَقْبِي رُوْحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَانَ ذِكْرِي المِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا

ويبدو لنا أن هذه العجوز الحازمة التي بينت للمتنبي أمره ، ومهدت له طريقه ، كانت مع حزمها وهديها ، وبصيرتها ، رقيقة القلب تكاد تنخلع من نفسها إذا أعطت عواطفها قيادها . ومع ذلك ، فقد كانت تَحْزُمُ أمرها ، وتقسو / على نفسها ، حتى يحيل لمن لم يخبرها أنها لا تعطى المَقَادَةَ لشيءٍ إلا للعقل والتدبير المُحْكَم . وفي الذي رووا من خبر وفاتها ، دليلٌ بينٌ على ذلك ، فإنها كتبت تشكراً إلى ولدها وخفيدها شوقها ولوعتها وطول غيبته عنها ، فلما توجه إلى العراق (من الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !! » ، انحدر إلى بغداد ، وكتب إليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد ، فلما أخذت كتابه « قبلته وحُمّت لوقتها ، وغلبها الفرح فقتلها » ، رحمة الله عليها . وقد ورث المتنبي عنها هذا ، فقد كان مع ما يبدو من شدته وصولته ورجولته ، مُتَهَالِكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلمُّ بقلبه . وفي رثاء جدته بلاغٌ لك ، إن تدبرته . وسترى ذلك أيضاً في آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة ، وعن أمره مع النساء ، أو مع المرأة التي أحبها فهليكت ، ثم أهلكه على إثرها جَوِّي داخل وأسَى دفين .

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي
وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُودِي ..
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا
دَ وَعَوْدُ الْجَانِي ، وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

وَأِنِّي لِمَنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

/ ندعُ الآن أمرَ جدِّته إلى حِينه ، إن شاء الله ، في كتابنا عن المتنبي ، ونبدأ برأى
لم نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن ...

رَوَى الأصفهانيُّ أن المتنبي ، وهو ابن السقاء !! ، « اختلف إلى كتاب فيه أولاد
أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العلوية) شعراً ولغةً وإعراباً ، فنشأ في خير
حاضرة » . (١)

وتأويل هذا ، أن العلويين ، وهم « الأشراف » ، كما يتضح من هذا النص ، كانت
لهم مكاتب خاصة يتلقَى فيها أولادهم مبادئ العلوم . ولا شك أن العلويين كانت ،
ولا تزال ، لهم مدارس خاصة بهم ، تقوم أصولها في التعليم / على أصل اعتقادهم . وقد مرَّ
٤٢ بي في قراءتي كثير من ذلك لا أذكر موضعه الآن ، وإنما أذكر أن الشريف الرضي كانت
له مدرسة سماها (دار العلم) . ونحن وإن لم نك نعلم نظام هذه المدارس العلوية ، إلا أنه

(١) الواضح في مشكل المتنبي : ٦ / والخزانة ١ : ٣٨٢ ، ويحيل إلى أن صواب هذه العبارة : « وكان يتعلم

دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » .

يتبادر إلى الفهم أن هذه الكتابات والمدارس كان لا يدخلها إلا أبناء العلويين . ونص الأصفهاني يقول بذلك . فدخول « أحمد بن عيذان السقاء » ، الذي هو المنتبي ، بين أبناء العلويين في كتاب لهم ، غريب عجيب ! فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أن بين جدة المنتبي وبين العلويين سبباً موصولاً قوياً ، هو الذي شرح صدورهم وأرضاهم أن يُدخِلُوا بين أبنائهم غلاماً كان أبوه سقاءً في بلدتهم . (١)

هذه واحدة من علاقة أبي الطيب وجدته بالعلويين . ثم إنَّ أبا الطيب فارق جدته ورَحَلَ لغير سبب معلوم إلى البادية ، ثم عاد إلى الكوفة شاعراً قوَّالاً ذا لسان ، فلم يمدح إلا « محمد بن عبيد الله المشطَّب العلوي » ، (٢) الذي قدمنا ذكره وذكر السبب في مدحه ، (٣) ولم يمدح أحداً من العلويين قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلو مرتبتهم ، وخلوص عربيتهم ، (٤) في عصر اختلطت فيه الأمور ، وصارت الشوكة إلى الأعاجم .

(١) قد يرح الخفاء الآن ، فلا عجب . فالمنتبي إلا يكن علوي النسب ، فإنه أخو العلويين من الرضاة ، لأن

امرأة علوية من آل عبيد الله ، هي التي أرضعته . انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ ، ثم ص : ١٦٤ ، تعليق : ١

(٢) لا يقرُّك ما يقوله الدكتور طه حسين في كتابه « مع المنتبي » ١ : ٧٤ ، أن المنتبي قال قصيدته في

« محمد بن عبيد الله العلوي » تربيته وصديقه ، في بغداد (لا في الكوفة) ، وأن « محمد بن عبيد الله العلوي » كان

رجلاً رصيحاً !! فإنه إنما اختطف هذا الكلام من بلاشير في كتابه « أبو الطيب المنتبي : ٦٢ ، ٦٣ » ، وأشار بلاشير في

هامش كتابه إلى مرجعه ، وهو كتاب الوزراء للصائى : ٢١٠ ، وهذه الإشارة تدلُّ وحدها على تدليس المستشرقين

وقلة علمهم ، لأن الذى في كتاب الصائى المذكور ، هو في ذكر دور ابن الفرات (قتل يوم الاثنين حادى عشر من

شهر ربيع الآخر سنة ٣١٢) وأنها كانت وقفاً ، وابتاعها جماعة « وتنقل الملك من واحد إلى آخر ، فمن ذلك الدار

التي في الطرف وتوازي سكة الحوض ، فإنها حصلت لأبي الحسين محمد بن عبيد الله العلوي الكوفي ، ثم انتقلت إلى

ورثته « (الوزراء : ٢١٠) . والكلام في دار تنقل الملك فيها من واحد إلى آخر بعد سنة ٣١٢ ، فهل عند أحد

منهما علمٌ بأمر « محمد بن عبيد الله العلوي الكوفي » ومتى فارق الكوفة ودخل بغداد ، وحصلت له دار آبن

الفرات ؟ وظاهر الخبر يدل على طول المدي في تنقل ملكها من واحد إلى آخر ، حتى انتهت إلى العلوي الكوفي

الذى مدحه المنتبي بهذه القصيدة في سنة ٣١٦ - ٣١٩ على الأكثر ، وكان العلوي الكوفي كان يوم مدحه فنى قد

بلغ الحلم ، أمرد ، أو نبتت لحيته ولم تتم ، كما جاء في قصيدة المنتبي [انظر ما سلف ص : ٥٧ / ثم ص : ١٥١ ،

١٥٢] ثم ما سيأتى ص : ٥١١ - ٥١٣ .

(٣) انظر ص : ١٥١ ، تعليق : ٣ ، ففيه نسيه إلى « آل عبيد الله » .

(٤) والمنتبي كما تعلم ، كان من أكثر أهل عصره تمجيداً للعربية وتعصباً لها .

فلما خرج صاحبنا إلى الشام ، ذكروا فيما ذكروا من (أمر الفضول الذي نُبِرَ به ، يَعْتُونَ النبوة) : أنه ادعى العلوية مرتين ، أى ادعى أنه علويٌّ صليبيٌّ ، وكان الذي قبض عليه هناك وعذبه وسجنه (ابن عليّ الهاشمي) أو : / العلوي ، لا أدري . وكان إذ ٤٣ ذاك باللاذقية سنة ثيِّفٍ وعشرين وثلاثمئة ، واللاذقية يومئذٍ دارٌّ من ديار العلويين ، يربض فيها رؤوس من الدُّعاة العلويين .

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، وأراد الخروج إلى الرملة ، أرصد له العلويون قوماً من عبيدهم السُّودان ليقتلوه ، ولكنه فاتهم بحيلته ودهائه ، ودخل الرملة يمدحُ الأميرَ أبا محمد الحسن بن عبد الله بن طُغج ، فكان مما قال في قصيدته : [انظر ما سلف ص : ١٥٤ - ١٥٦] .

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَثَرِيَّةً بِهَا (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ

ثم كان ما روينا لك من امتناعه عن مدح العلويِّ (أبن القاسم طاهر بن الحسن ابن طاهر) ، ولم يمدحه إلا بعد إلحاح الأمير وتدتيه في السؤال منه ، وكان مما قاله أبو الطيب في هذا المدح ، [انظر ما سلف : ص ١٥٤] :

أَتَانِي وَعَيْدُ (الْأَدْعِيَاء) ، وَأَنْتَهُمْ أَعُدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُمْ فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ

ثم انتزع من ذلك أمثالا في النسبة إلى العلوية المكرمة فقال :

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ فَمَاذَا الَّذِي تُغْنِي كِرَامُ الْمَنَاصِبِ ؟
وَمَا قَرَّبَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَبَاعِدِ وَلَا بَعُدَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَقَارِبِ
إِذَا (عَلَوِيٌّ) لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

فلما دعتُه جدُّته إلى العراق أن يزورها ، قصدها ، والنصُّ الذي ورد في ذلك هو هذا : « فتوجه نحو العراق ولم يُمكنه دُخُولُ الكوفة (على حالته / تلك) ، فانحدر إلى ٤٤ بغداد ، وكانت جدُّته (قد يمست منه) ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه »

هذا نصٌّ في أصول ديوانه ، فكأنه من لفظ أبى الطيب نفسه . وهو نص غريب كما ترى !! وليت شعري وشعرك ما الذى أرادَ بقوله : « لم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك » ، وهو قد أتاها قاصداً دُخولها ، ورؤية جدته التى تحبه ويحبها ، ويقطع صاحبنا الأرض من أقصى الشام إلى أسفل العراق ودخول الكوفة هممه ، ثم يمتنع من دخولها لغير سببٍ مذكور أو معقول !! إذن فلا مناص من القول بأنه قد مُنع من دخول الكوفة ، وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النص الغريب .

فإن صحَّ أيضاً ما أسنده التنوخى ، (وذلك ما أوردناه فى أول كلامنا ص : ١٣٨ ، ١٣٩) ، إلى أبى الحسن العلوى وابن أم شيبان الهاشمى ، وهما كوفيان ، وأن ذلك من كلامهما ، كثرت الأدلة التى تُوجّه الحدس والظن إلى وجهٍ بعينه ، وذلك أن بين المنتبى والعلوين سبباً مجهولاً حملهم أوّل أوّل إلى إكرامه بدخوله بين أبنائهم فى كتابهم بالكوفة ، ثم حملهم بعد على النية المعقودة للفتك به فى الشام ، ثم حملهم على منعه من دخول الكوفة ليرى جدته العجوز التى أرسلت إليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك فى هذا يقيناً وعليه اعتماداً ، رثاء المنتبى لجدته ، ففيه لطائف من الإشارة نكتفى بذكر البين منها هنا ، ثم نعود إليها بعد قليل . يقول المنتبى :

هَيْبِنِي (أَخَذْتُ الثَّأْرَ فَيْكٍ مِنَ الْعِدَى) فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فَيْكٍ مِنَ الْحَمَى

ثم يقول :

لَنْ لَدَّ يَوْمٌ (الشَّامَتِينَ) بِيَوْمِهَا لَقَدْ وُلِدَتْ مِنِّي لِأَنفِهِمْ رَغْمًا

فقد أثبت أبو الطيب أن لجدته ثم له أعداء ، كان هممه كله أو أكثره أن / يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وأن هؤلاء الأعداء قد شتموا بموتها يوم ماتت . فهذه الجدّة الصالحة العجوز قد اتخذت لنفسها أعداء يُرضون أنفسهم بالشماتة ، وهؤلاء الأعداء ، ولا بد كانوا من الكوفة ، والأرجح أنهم كانوا من العلويين ، والهاشميين ، لما رأيت قبل من الصلة أو العداوة القائمة بينهم وبين أبى الطيب المنتبى .

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المنتبي كان من أبناء العلويين ، فإن هذا يفسر كل غموض في حياة الرجل وشعره ، وفيما روى عن نسبه من الملققات . وحسبي هنا أن أمر بك مرأً على مواضع بعينها ، لترى رأيك ، وفقك الله ، فيما أردنا من القول به ، فإن رأيت حجتنا ساقطةً فأسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فإن رجحت ما نقول به
فَأَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ لِآبَائِهِمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ .

ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوج رجلٌ من العلويين ، ولا جرم أن يكون من كبارهم ، بنت جدة المنتبي ، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عيدان ، السقاء) ، (١) ولأمرٍ ما أريد هذا الرجل العلويُّ على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت إلى أمها بجنينها أو طفلها ، وحرزت حزناً أهلكتها ، فاستلها الموت وذهب بها ، وبقي الطفل فكفلته جدته وتعهدته وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلته على الطريق بعد / أن صرحت له بحقيقة أمره ، وصحيح نسبه ، وكان من ٤٦ حزمها أن حذرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه ، وأخذت عليه الموائيق والعهود ، بحبها له وحبها لها ، وأنه إن فعل كان في ذلك هلاكها وهلاكه ، فبقى على ذلك متململاً حتى كان من أمره ما كان من ادعائه العلوية بالشأم ، فقبض عليه ، فاضطرَّ إلى الإخلاق والتسليم ، وحرص على أن يطيع أمر جدته ، بعد أن علم حزمها وصواب رأيها ، وإخلاصها له المشورة ، ومحضها له النصيحة . (٢)

(١) ممكن أن يكون « عيدان السقاء » هذا جده لأمه .

(٢) سأذكر في آخر هذا الفصل (ص : ١٧٧) قصة تشبه قصة هذه القضية ، وهي زيادة ، لم أذكرها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسر لك طول تكتم المتنبي على نسبه ، وإخفائه جهده من أصحاب الألسنة المتنقلة بين الرجال ، وفسر أيضاً مخرج قصة (أبيه السقاء) ، وحرصهم على حبكها ، والتقديم لها بلطيف القول ، وحسن العبارة ، كما رأيت في أول كلامنا (ارجع إلى نقدنا لكلام التنوخي) - ويأتيك بالدليل البين في أمر دُخوله كتاب أشرف العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية - ويبين أيضاً عن السبب الذي من أجله سكت المتنبي عن مدح العلويين وعظمائهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة ، ثم تأييه على مدح أبي القاسم العلوي صاحب الأمير ابن طغج حين كان بالرملة ، ثم ما كان قبل من إرصاد العلويين له عبيدهم لقتله بكفر عاقب . وكفاك هذا ، فإننا سنبنى بقية كلامنا عن المتنبي من أول أمره على هذا الأسس أو ما يقرب منه . وبحسبك هنا أن نفسر لك بعض المعاني في رثاء جدته على هذا الأصل . ونص مقدمة رثاء جدته هو هذا :

/ « ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه ، وطول غيبته عنها ، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدته قد يمست منه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ، فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها » . [انظر ص : ١٦٩ ، ١٧٠] .

٤٧

وتأويل هذه العبارة كلها : أنه حين ورد عليه كتاب جدته أزمع الرحيل من الشام إلى الكوفة ليلقى بها جدته ، فبلغ الخبر مَشِيخَةَ العلويين ، فذهب بعضهم إلى جدته ، وأبانوا لها سوء رأيها ، ونهوها أن يكون لقاء ولدها من همها ، وأخبروها أنهم قد أجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من أمره وهو بالشام ، من إظهاره العلوية ، ورغبتيه في تحقيق نسبته إلى العلويين . فلما فجعهم الخبر بورود صاحبهم « المتنبي » على طرف الكوفة ، خرجوا إليه وأنذروه أن يكون ذلك من إرادته بعد فضوله في الشام ، وأمروه بالانحدر إلى بغداد ، ورجعوا إلى جدته فأياسوها من لقاءه بتأ . فلما استقرت بالمتنبي بغداد ، وزاد شوقه إلى جدته ، وبكى من خيفته عليها ، حمله ذلك على الكتابة إليها ، بعد أن لم يجد عن ذلك محيصاً في نفسه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ببغداد ،

ففرحت العَجُوزَ فَرَحَ اليائس من أمرٍ ، ثم أتته البُشرى بالظفر من وجهٍ آخر ، فاشتدَّ ذلك عليها ، واستبدت العواطف المعتلجة المتنازعة المتضادة بذلك البُنيان المهتم الضعيف ، فأنقضَّ بعضه على بعضٍ ، فماتت رحمةُ الله عليها ، وأثابها بما صبرت .

فلما ماتت المسكينة ثارت نفسُ الرجل ثورة اليأس ، وخاف أن يستعلن للعلويين بالعداوة وهو ببغداد : أن يقتلوه من أجل ذلك ، فأضمر ما في نفسه ، / وأشار إلى هذه المعاني من طَرَفٍ خفيٍّ . ويحسن أن نذكر هنا أن المتنبي خرج آخرَ مرةٍ من الكوفة مُرغماً على ذلك الخروج . وهذا أمرٌ طبيعيٌّ إذا صحَّ القول الذي نقول به .

فانظر الآن ماذا يقول الرجل في رثاء جدته :

بَكَيْتُ عَلَيْهَا خِيفَةً فِي حَيَاتِهَا وَذَاقَ كِلَانًا تُكَلُّ صَاحِبِهِ قَدَمًا

وقد شرح الشراح هذا البيت ، وأداروا معانيه ، ولكنه بقي في شرحهم لا معنى له ، كقولهم : « وكنت أبكى عليها في حياتها خوف فقدها ، وفرقت الأيام بيني وبينها ، فذاق كِلَانًا تُكَلُّ (فقد) صاحبه قبل الموت » ، فالعطف في الذي قالوا به « وفرقت الأيام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه . وتفسير البيت هذا :

لما أياسوها من لقائي ، وقد منعوني من دخول الكوفة ، علمتُ يقيناً أنها ستحمل ثقلاً يهدُّها ، فبكيْتُ خِيفَةً عليها من أثر الحزن فيها ، وما يبكيني أن لا ألقاها ، وكيف أبكى لذلك (وقد ذاق كِلَانًا تُكَلُّ صاحبه قديماً) ، بالفراق الذي حُمِلنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيْتُ للفراق الذي كان بيننا بمنزلة الموت ، فعُدَّتْني هي قد مِتُّ ، وعددْتُها قد ماتت (وهذا تأويل قوله : وذاق كِلَانًا) ، أي ثكلتني وثكلتُها .

ثم يقول بعد أبيات :

طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا ، ففَاتَتْ وفَاتني ، وَقَد رَضِيْتُ بي ، لورَضِيْتُ بها ، قِسْمًا (١)

(١) تفسير البيت عند الشراح هو هذا : فارقته لأطلب لها حظاً من الرزق ففاتتني هي وفاتني هذا الحظ ، =

/ فَأَصْبَحْتُ أَسْتَسْقِي الْعَمَامَ لَقْبِهَا وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعْيَ وَالْقَنَا الصُّمًّا

ومعنى البيتين عندنا : كانت العجوز رضى الله عنها قد رغبت إلى أن أكنتم أمر نسبتى العلوية إلى أن يشاء الله ، ولكنى خالفتها ، وآثرت فراقها لعلى أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم أدركه بها ، فخرجت أطلب لها (حظاً) ، أى فضلاً وخيراً في ردِّ شرف انتمائنا إلى العلويين ، ولكن شاء ربك أن تفوتنى بها الأحدثُ فتموت ، ويفوتنى أيضاً بعد موتها ذلك الحظُّ ، لما أعلمُ من أنها كانت هى السببُ فى امتناعهم عن الفتك بى إن حاولتُ أمراً ، فواحسرتاه ! لِمَ خالفتها ، وخرجت أطلب لها هذا الحظُّ ، وقد رضيتُ بى قسماً وحظاً ونصيياً ، وجعلتُ ظفرها بى عدلاً لما فاتها من الحظ الذى كنت أطلبه لها ؟ فىا ليتنى رضيت بها كما رضيت بى ، (١) وجعلتها عدلاً لما فاتنى من هذا الحظ . وعلى هذا الأصل يكون معنى البيت الثانى واضحاً بيناً فهو يقول : كنت أريد القتال والحرب لأشفى بالدم المهرق غليلها ، وأردَّ عليها حياتها فى شرف نسبتنا إلى العلوية ، فالآن وقد ماتت وفاتت ، لا حيلة لى إلا أن أسال الله أن يبرِّد قبرها بما يُدرُّ عليها من ماء الغمام . ثم قوله :

هَبِينِي أَخَذتِ الثَّأْرَ فَيْكِ مِنَ الْعِدَى فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فَيْكِ مِنَ الْحُمَى
لَيْنٌ لَدَّ يَوْمِ الشَّامَتِينَ بِيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مِنْنِي لِأَنْفِهِمْ رَغْمًا (٢)

وقد مضى بعض القول فى هذين البيتين ، (ص : ١٧٠) ، ولكن بقى أن نقول : إن هؤلاء الأعداء والشامتين كانوا من أشرف الكوفة ، لما رأيتُ أولاً ، إذ لا يعقل أن يكون

= وقد كانت راضية أن أكون قسماً لها من الدنيا ، لو رضيتها قسماً لى (والقسم النصيب) ، وقد كنت أطلب من الرماح أن تسقبنى دم الأعداء ، فلما ماتت تركت الحرب وجداً عليها ، وصرت أطلب من السحاب أن يسقى قبرها - أو كما قالوا !! فانظر هذا التفسير ، واقرأ تفسيرنا .

(١) اعلم أن (لو) فى بيت المتنبي معناها التمنى والأسف والحسرة .

(٢) الأنف ، والآناف ، بالمد والأنوف جمع « أنف » .

غير ذلك . لا يُعقل مثلاً أن يكون أولئك الأعداء والشامتون من طبقة السقائين والنساجين ومن إليهم ! ولو كان ذلك كذلك ، لما / حَفَلَ المتنبي بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رَغماً لأنوفهم ، وهو مَنْ هُوَ في الكبرياء والتسامي والغلو في الترفع والعظمة .

وعلى عادته أتى في القصيدة بإشارة عجيبة ، هي من باب التفات القلب إلى ما يَلْجُ فيه من الرأي المضمَر يقول : (١)

فَوَا أَسْفَا أَلَّا أُكِبَّ مُقْبِلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرِ اللَّذِي مُلِمًا حَزَمًا
وَأَلَّا أَلَاقِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَأَنَّ ذَكِيَّ الْمِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا

ثم استيقظت في قلبه تلك الثورة العجيبة التي أصبحت طابع شعر الرجل كله ، فأنفَتَلَ من معاني الحنان والرقة إلى معاني القسوة والعتو ، فقال :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّحْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وُلِدْتُ مِنِّي لِأَنفِهِمْ رَغْمًا

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك : « هييني أخذت الثأر فيك من العدى » فصرخ صرخته هذه ، فكأنى به يقول : أبعدوك ونفوك ، فما يضير نفهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية !! ولا تأسى ولا تحزنى ، فإنك قد ولدتنى ، وكفاك شرفاً أن تكوني لي أمماً ، فإنى مرغمٌ أنوفهم ، وحاملهم على خُطَّةِ الحَسَفِ حتى يُعطوا المَقَادَةَ وهم صاغرون . فعلى هذا فسَّرَ قوله :

وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَانَ نُفُوسُهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتَ فَأَذْهَبِي ، وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كَرَائِهَا قُدَمَا
فَلَا عَبَّرْتُ لِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِنِي وَلَا صَحِبْتَنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

(١) انظر ما سلف ص : ١٦٣ - ١٦٥ ، ثم ماسياتي : ٢٤١ - ٢٤٣ ، ثم ص : ٢٧٧ ، والتعليق رقم :

١ ، و ص : ٢٨٠ - ٢٨٣ ، ثم ص : ٣٧٢ - ٣٧٥ .

وقوله :

مَا بِقَوْمِي شُرْفُتُ ، بَلْ شُرْفُوا بِي ، وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
/ وَبِهِمْ فَخَرُ كُلُّ مَنْ نَطَقَ الضَّأَّ دَ ، وَعَوَّذُ الْجَانِي ، وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

وفخر من نطق الضاد ، هم أبناء رسول الله ﷺ ، وقوله أيضاً :

وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْعَشْمَا (١)
وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتِي وَإِلَّا فَلَسْتُ (السَّيِّدَ البَطْلَ القَرْمَا) (٢)

ثم فسّر على هذا الأصل قوله أيضاً ، وقد جعل قوم يستعظمون ما أتى به في رثاء

جدّته :

يَسْتَعْظِمُونَ أَيْبَاتًا نَأَمْتُ بِهَا ، لَا تَحْسُدُنَّ ، عَلَيَّ أَنْ يَنَامَ ، الأَسَدَا (٣)
لَوْ أَنَّ نَمَّ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِهَا أَنَسَاهُمُ الذُّعْرُ مِمَّا تَحْتَهَا الحَسَدَا

وتدبر قوله : (لا تحسُدُنَّ) ولو كان غير المتنبي - هذا الموتور صاحبُ الثأر عند

هؤلاء القوم - لقال : (لا تعجبين) أو ما يقرب من ذلك .

ونحن لو شعنا أن ننقل لك هنا ونفسر كل شيء يدلُّ من قريبٍ أو بعيدٍ على ما نذهب إليه ، لكلفنا ذلك أن نشرح لك أكثر ديوان المتنبي ، ولكن بقيت أشياء ننبه إليها . لو أنت قرأت ديوان الرجل لوقعت على كثيراتٍ من أمثالها . وذلك كقوله بعد وفاة جدّته ومرّجعه إلى الشام :

سَأَطْلُبُ (حَقِّي) بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُوا مُرْدُ

(١) يعني سيفه و « ذبابه » ، حده .

(٢) « القرم » بفتح وسكون ، السيد المعظم المكرم الذي لا يذل لشيء .

(٣) النسيم : زئير الأسد .

فقلوه : (حَقَّى) ، لا يقع هذا الموقع من شعر إلا من أَحَدِ رجلين : رجلٍ دَعَى
 ٥٢ طویل الباع واللِّسان في الدعوى والكذب ، أو رجلٍ صادقٍ / لا يكذبُ على نفسه ولا على
 الناس ، وليس المتنبى بأولهما . إذن فقد كان له حَقٌّ يطُلبه بالحرب وهو الذى سَمَّاهُ
 « حَظًّا » في رثاء جدِّته ، وإنما خَفَّفَ « الحق » في الرثاء وجعله « حَظًّا » لما أشرنا إليه من
 قبل . ومثل هذا قوله لكافور :

فَأَرَمَ بِي حَيْثُ شِئْتِ مِنِّي فِائِي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرُّوَاءِ
 وَفُوَادِي مِنَ (الْمُلُوكِ) ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

فلا عَجَبُ بَعْدُ في فخر المتنبى وتعالیه وتعاظمه ، فكلُّ مفسِّرٍ بيِّنٍ واضحٍ العِلَّةِ
 والمعنى على هذا الأصل ، وكان عَجَبًا عاجبًا عند الناس أن تبلغ الحماسة بآبن سقاء ، أن
 يفخر مثل هذا الفخر ، ويتعاضم على الملوك مثل هذا التعاضم ، وذَهَبُوا في تأويل ذلك
 مذاهبهم . ولعلَّ هذا ، إن شاء الله ، هو المذهبُ الحقُّ .

...

أحبُّ أن أختتم هذا الفصل ، بقصةٍ اخترتها من بين أشباهِها ، وهى قصة أبى
 جعفر المنصور ، ووليد كان له من إحدى بنات دهاقين الأهواز ، حيث كان مستتراً قبل
 توليه الخلافة . وقد زدتها على أصل الكتاب ، لأنى آثرتُ أن لا أُغَيِّرَ شيئاً من سياق
 الكتاب ، كما كُتِبَ منذ أربعين سنة . وهذه القصة ، شبيهةٌ بالقصة التى افترضتها آنفاً في
 مولد « المتنبى » ، وأنَّ أباه كان رجلاً علويًّا ، فتزوَّج امرأةً ، ثم حيل بينه وبين إظهار
 نسب ولده إليه ، لسببٍ من الأسباب التى توجب الكتمان إلى حين . ونقلتها من كتاب
 « الوزراء والكتاب » للجَهْشِيَارِيِّ ، [توفى سنة ٣٣١ من الهجرة] ، وهى فى كتابه
 ص : ١٢١ - ١٢٣ ، قال الجَهْشِيَارِيُّ :

« لما كان [أبو جعفر] المنصور ، [وهو ثانى الخلفاء العباسيين] ، مُسْتَرًا
 ٥٣ / بالأهواز [قبل توليه الخلافة] نزل على بعض الدهاقين ، فاستتر عنده ، فأكرمه

الدهقان بِجَمِيعِ ما يَقْدِرُ عليه ، حتَّى أُخْدِمَهُ آبَتَهُ ، وكانت فى غَايَةِ الجَمالِ ؛ فقال له أبو جعفر : لَسْتُ أَستَحِلُّ أَسْتَحْدَامَها وَالخَلْوَةَ بِها وهى جارية حُرَّة ، فزَوِّجْنيها . فزَوَّجَها إيَّها ، فَعَلِقَتْ مِنْه [أى حَمَلَتْ] . وأراد أبو جعفر الخُروجَ إلى البَصْرَةِ ، فودَّعَهُم ، ودَفَعَ إلى الجارية قَمِيصَهُ وخاتَمَهُ ، وقال : إن وُلِدَتْ فاحتفظي بولَدِك ، فَمَتَّى سمعتِ أَنَّهُ قد قام فى الناس رَجُلٌ يقال لَهُ : عبدُ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ ، ويكنى أبا جعفر ، فَصيرى إليه بولَدِك ، وبهذا القَميصِ والخاتَمِ ، فإنه يَعْرِفُ حَقَّكَ ، وَيُحْسِنُ الصَّنْعَ إِلَيْكَ ، وفارَقَهُم . فولدت ابناً ، وَتَشَأُ العُلامَ وَتَرَّغِرُ ، فكانَ يَلْعَبُ مع أَثْرابه . وملك أبو جعفر ، فعَيَّرَ العُلامَ أَثْرابهُ بأنه لا يُعْرِفُ له أبٌ ، فدخَلَ إلى أمِّه حَزِيناً كَثيباً ، فسأَلَتْهُ عن حالِهِ ، فدَكَرَ لها ما قال أَثْرابهُ ، فقالت : بلى ، والله إن لك أباً فَوْقَ النَّاسِ ! قال لها : وَمَنْ هُوَ ؟ قالت : القَائِمُ بِالْمُلْكِ . قال : فهذا أبى وأنا على هذه الحال ! هل مِنْ شَيْءٍ يَعْرِفُنِي بِهِ ؟ فأخرجت القَميصَ والخاتَمَ ، وشَخَّصَ الفَتَى فَصَارَ إلى الرَّبيعِ [مولى أبى جعفر المنصور ، وأحد رجال دولته] ، فقال له : نصيحة ! قال : هاتِها . قال : لا أقولها إلا لأمير المؤمنين . فَأَعْلَمَ المنصورَ الخَبَرَ ، فأدخله إليه ؛ فقال : هاتِ نصيحتك . فقال : أَخْلِنِي ! فنَحَى مَنْ عنده ، وبقي الربيعُ ؛ فقال : هاتِ . قال : لا ، إلا أن يَتَنَحَّى . فنَحَّاهُ ، وقال : هاتِ . قال : أنا آبنك . قال : ما علامة ذلك ؟ فأخرج القَميصَ والخاتَمَ ، فَعَرَفَهُما المنصورُ ، وقال له : ما منعك أن تقول هذا ظاهراً ؟ قال : خِفْتُ أن تَنجَحِدَ ، فتكون سبباً آخِرَ الدَّهْرِ . فضَمَّهُ إليه وقَبَلَهُ ، وقال : أنت الآن أبنى حَقًّا . ودعا المُرِيانِيَّ ، [هو أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان المُرِيانِيَّ ، أحدُ / رجال الدولة] ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنتَ تفعلُهُ بولَدى لو كان لى عندك فأفعلهُ بِهِ . وتقدَّم إلى الربيعِ فى أن يُسْقِطَ الإذنَ عنه ، وأمره بالبُكورِ إليه فى كلِّ يومٍ والرَّواحِ ، إلى أن يُظْهِرَ أمرَهُ ، فإنَّ له فيه تديراً . فضَمَّهُ المُرِيانِيَّ إليه ، وأخْلَى له منزلاً ، وأوسع له من كلِّ شَيْءٍ ، فكانَ يَغْدُو وَيُروحُ إلى المنصورِ ، ويُحْصَى به جَدًّا ، وكان الفَتَى فى غَايَةِ من العقلِ والكمالِ ، وكان المنصورُ يخلُو

معهُ ، فِيسأَلُهُ الْمُورِيَانِيُّ عَمَّا يَجْرِي بَيْنَهُمَا ، فَلَا يُخْبِرُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَكْتُمُنِي شَيْئاً ! فَيَقُولُ لَهُ [الْفَتَى] : فَمَا حَاجَتُكَ إِلَى مَا عِنْدِي إِذَنْ ! فَحَسَدَهُ الْمُورِيَانِيُّ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْهُ ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ مَكَائُهُ ، فَأَطْعَمَهُ سُمَّاً فَمَاتَ ، وَصَارَ إِلَى الْمَنْصُورِ ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مَاتَ فَجْأَةً ، ثُمَّ وَلَّى ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : قَتَلْتَهُ ! قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أُقْتَلْ بِهِ ! فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدُ أَنْ فَعَلَ بِهِ مَا فَعَلَ .

أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلَوَى شَرَفْتُ بِهَا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَا عَاش ، وَأَنْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةَ
وَالسَّمَهْرِيَّ أَخَا وَالْمَشْرِفِيَّ أَبَا
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا
حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَا
فَالْمَوْتُ أَغْدِرُ لِي ، وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ لِي ،
وَالْبُرُّ أَوْسَعُ ، وَالذُّلْيَا لِمَنْ غَلَبَا

٥٥ / ماتت أم (أحمد بن الحسين) أبى الطيب المنبى وهو وليد بعدد ، فيما زعمنا ،
فوقع إلى جدته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا ، فكفلته ، وألقت كل ذات قلبها
وكبيدها في تعهده ورعايته ، ثم في تربيته وتنشئته ، ثم في النصيحة له وتطريق وعمر الدنيا
عند قدميه ، ومنحته في ذلك حنان الأم الفاقدة على ولدها اليتيم الملطم بلا أب ولا أم .
وكانت العجوز ، كما وصفوها ، « من صلحاء النساء الكوفيات » ، وكما وصفها حبيبا
وولدها ثم حفيدها ، « حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » ، غير أنشى العقل .

وكانت امرأة متورة ، كما ذهبنا إليه فيما مضى بك ، لا تزال تجهد في قلبها الأمر
الذى يقول لها : « ها أنا ذا فلا يلفتتلك حنائك عن الجهد في تدبير العزم وإدارة الرأى
على وجوهه ، في طلب الثأر الذى لك في أعدائك / المنزليك بشر منزلة ما ترضاها
٥٦ نفس كنفسك في الطيب والزكاة » . وأطاعت العجوز أمرها بالانتصاف لنفسها
ولحفيدها ، ولا حيلة لها إلا تنشعة الصغير على غرار فذ يكفل لها إدراك ما تروم ، وكذلك
فعلت . فكان المنبى في الزمن ، ثم في الشعراء خاصة ، شخصية عجيبة ، إذا أخذتها من

يَمِينِ أَلْتَوْتُ بِكَ إِلَى شِمَالٍ ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تَطْلُبُهَا مِنْ وَجْهِ ، رَاغَتْ مِنْ وَجْهِهِ ، وَأَسْتَبْهُمُ
أَمْرُهُ عَلَى النَّاسِ بِاسْتَبْهُامِ الْغُرُضِ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ هَذَا الْإِنْسَانَ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ :
« مَلَأَ الدُّنْيَا وَشَغَلَ النَّاسَ »

لا ندرى كيف تمَّ الرأى بينها وبين العلويين أن « يختلف - الفتى أحمد - إلى
كُتَّابٍ فِيهِ أَوْلَادُ أَشْرَافِ الْكُوفَةِ » ، كما نقل الأصفهاني ، (١) ولعلمهم أرادوا بذلك أن
يُرضوا العجوز ، ويخففوا عنها ثقل همومها ، ويحملوها على المطاوعة لهم خشية أن تفجأهم
بما لا يحبون من إظهار ما أرادوا كتمانهم وإخفاءه . دخل الفتى الكتاب ، وقد قال التنوخي
في حديثه الذي أسنده إلى أبي الحسن العلوي ، وهو يعنى المنتبى : « ونشأ وهو محبٌ
للعلم والأدب فطلبه » . ولا شك أن جدته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحثه
على طلب العلم ، وتستفزه إلى ذلك ، ليتها لها ، إن شاء الله ، ما تؤمل من الفرح بنبوغه
وتفوقه على لِدَاتِهِ وَأَسْنَانِهِ مِنَ الْعُلُوِّينِ ، ويستطيع بعد أن يدرك لها « حظاً » ويطلب لنفسه
« حقاً » هُضِيمٌ وَمُنْعٌ مِنْ دُونِهِ حَتَّى أُلْقَى فِي أَسْوَأِ مَجْهَلَةٍ وَبِشْرٍ مَنْزِلَةٍ ، فِي خَفَاءٍ مِنْ
النسب ، وَقَلَّةٍ مِنَ الْمَالِ ، وَيُعَدُّ عَنْ مَسَاعِي الْمَجْدِ . وقد وجدت / العجوز أرضاً صالحة
ببطيعتها لما تريد من أمرها ، فتأدب الفتى بالعلم الذي كان يتلقاه في كتاب أولاد أشرف
الكوفة ، واجتهد في ذلك ، وبرع وفاق أصحابه ، وأخذته جدته بأخلاقٍ صالحةٍ طيبةٍ ،
وحاسبتها وحرصت على استطلاع خبره كله ، وألقت في قلبه وفكره وخياله طلبَ المجد
بالعلم ، ثم زينت له الفتوة وعلو النفس وبعدها الهمة وعظم المطلب ، وأدبته بالصدق
والأمانة وكتان السر ، وعلمته من حيلتها ودهائها وحذرهما ، سعة الخيلة ، وخفاء الدهاء ،
وتقديم الحذر . وبعد أن أدرك الفتى من الفكر ما يسر لها ما تريد أن تبوح له به ،
طَفِقَتْ تُدِيرُ لَهُ السَّرَّ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم ، والاحتباس من
ثورة الفتى إذا هي فجئته بما تريد ، حتى بلغت ما أرادت .

(١) أعود فأكرر أن الأمر قد تجاوز هذا القول ، بظهور الخبر الذي رواه ابن العديم عن الربيعي : أن المنتبى
قد أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، فكان أخاهم من الرضاة ، على الأقل ! انظر (ص : ١٥٣ ، تعليق : ١) .

وهذه المعاني كلّها دائرة في حياة المتنبي وشعره دَورانَ الدّم في عروقه ، فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره ، فلن يفوتك أن تراها جميعاً ، أو ترى بعضها ، ماثلاً غير خفيّ في كلّ موضعٍ من شعره .

ويؤيّد قولنا هذا : أنّ الغلام ، وهو صغيرٌ بالمكتب ، كانت له وَفْرَةٌ من الشّعْر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنةً جميلةً فقال له بعضُ أصحابه من الفتيان (العلويين) : يا أحمد ، « ما أحسنَ هذه الوَفْرَةَ » ؟ فكان جوابُه أعجبَ جوابٍ من صبيّ في مكتب :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى مَنشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ القِتَالِ
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةٌ يَعْلُهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ^(١)

٥٨ / فَظَنَّ ما شئتَ بغلامٍ في مثل سنّه لا يزال في أوّل طلبه للعلم يقول مثل هذا القول . ويحسُن أن نطيل القول قليلاً في هذين البيتين ، ففيهما أصول كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد .

فالأصل الأول : هو هذا الالتفات الشعريّ الجميلُ من المعنى المحدود بغرضي قائله ، إلى المعنى المتراعى بخيال سامعه ، فإن أصحابه كانوا يُعجّبونه من حسن وَفْرَتِهِ واسترسالها ولينها ، فتجاوز صاحبنا هذا بخياله من الصُّورة الحاضرة إلى الصورة التي يريد أن يراها ، شَعَثَاءَ غَبْرَاءَ يَوْمَ يَنْشُرُ مَضْفُورَهَا يَوْمَ القِتَالِ بين الغبارِ الثائرِ والدمِ المِهْرَاقِ . وهذا إثباتٌ للأصل الشعري القائم في نفسه .

والأصل الثاني : هو الرجولة والفتوة ، وبعْدَ الهِمَّةِ ، وَعِظَمِ المَطْلَبِ ، وانصرافه عن سَفْسَافِ الأمور إلى معاليها ، لا يعبأُ بِلَذَّةٍ لا تُجْدِي خيراً ، ولا تَوْتِي ثَمراً ، وإنما يَجِدُ لَذَّتَهُ فيما يأتيه بما يريد ، ولو كان فيه شقاؤه وجهده . وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسي في شعره بعدُ فقال :

(١) « الضفر » ، الخصلة المضفورة من الشعر كالغديرة . وقوله : « معتقل صعدة » أي حامل رمحه إلى

الحرب . « ويعلها » ، يسقيها من الدم مرة بعد مرة . و « الوافي السبال » ، هو الطويل اللحية .

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي ، كَيْفَ لَدُنُّهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الْأَلَمِ
الدَّهْرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمَلِي نَوَائِبَهُ وَصَبْرِي نَفْسِي عَلَى أَحْدَائِهِ الْحُطْمِ

وهذا أصل رُجُولته وفتوّته النفسية التي ظهرت واستعلنت في كل شعره حتى صار بها فذاً أَوْحَدَ .

والأصل الثالث : هو الثورة الدائمة ، فأنت تراه من صِغَرِهِ هكذا ، لا يريد إلا القتال والدم .

٥٩ / والأصل الرابع : أن هذين البيتين من صغير كقائلهما ، يُضْمِرَانِ وراءَهُمَا معنى آخر غير هذه المعاني ، وهو أنه مُنْشَأً على طلب الثأر من عدوّ ، فهو لا يزال ينقل الصورة من وضع إلى وضع آخر يُرْضِي ما يدور في نفسه من المعاني المحددة بطفولته ، وما غُدِيَتْ به من الآراء والأخلاق . وإن شئت فتدبّر السرّ العجيب في قوله « يعلّها » ، أي يسقيها الدم مرّة بعد مرّة ، لا يكتفى بواحدة . وتعجّب من قوة الأصل الشعريّ في هذا الغلام ، ومن طغيان الحقدِ والثأر على قلبه الصغير .

والأصل الخامس : هو بيانه الخفيّ عن عدوّه الذي يريد أن يجاربه ، وقد صرّح بذلك في قوله « كلّ وافى السبّال » ، فانظر من أراد هذا الصغير بهذه الصيغة ؟ أترأه عنى كلّ كبير السن ذى لحية طويلة ؟ أترى ذلك !! كلاً ، فالبيّن البيّن أنه أراد قوماً بأعيانهم كُنِيَ عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاء الذين يريدهم بهذه الصفة ؟ أليس المعقول أن هذا الصغير إنّما يتجه خياله إلى أقرب الناس إليه في بلده ، ثم إلى الذين أُوْحِتْ إليه جدّته بأنّ بينها وبينهم سَخِيمةٌ من العداوة ؟ ومن يكون هؤلاء من أهل بلده إلاّ مَشِيخَةُ العلويين الذين أنزلوا الهوان به وبجدّته ، (١) فيما ذهبنا إليه من الرأى فيما مضى .

٦٠ والأصل السادس : أن هذه الثورة التي تلبّست به وأخذت عليه مذاهبه في حياته ، إنّما هي من أثر جدّته ، إذ باحث له بسرّها ، وألقّت إليه بمكنون / صدرها .

(١) وهذان البيتان من الأدلة على ما ذهبنا إليه في قضيته مع العلويين في الذي مر بك ، ولم نذكرهما هناك

وذلك لأن الفتى الصغير لا يكاد يُدرك هذه المعاني كلها ويُسيغها حتى تظهر هكذا مُسهَّلة على لسانه ، إلا أن يكون قد أخذ بها ، وهَيَّأ لها ، وأُعطي من نفس غيره قوة تخرجه من طبيعة الطفولة ، إلى عادة الرجولة والفتوة .

ولولا أن صاحبنا أبا الطيب قد « أسقط من شعره الكثير ، وبقي ما تداوله الناس » ، (١) كما حدثنا بذلك أبو القاسم الأصفهاني ، عن أبي الفتح بن جنى ، لوجدنا فيما أسقطه كثيراً من أمثال هذا القول الذي يدل على نفسية الصبي التي كبرت معه ، وكانت هي (المتنبى) الشاعر الفرد الذي لا يكاد يخفى شعره على أقل الناس بصراً بالشعر .

وأبيات أخرى قالها وهو بالمكتب أيضاً :

إلى أي حين أنت في زى محرم وحتى متى في شقوة ؟ وإلى كم !! (٢)
والأ تُمث تحت السيوف مكرماً تُمث وتُقاس الذل غير مكرم
فنب وثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجاجنى النحل في الفم

وهي وإن كانت مما قال في صغره ، إلا أنها أمثل من الأبيات الأولى / في الدلالة على المعاني التي ذكرناها ، والأصول الستة التي استنبطناها . فتدبرها على ما قدمنا لك ، تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير ، إلا في موضع واحد قل في شعره بعد الكبر ، وذلك هو تقديم الثقة بالله ، على الثقة بسيفه ونفسه ، وهذا الموضع ولا شك من أثر جدته التي كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » . وهو يؤيد رأينا في أن العجوز كانت

(١) هذا القول يغلب على شعر صباه ولا شك ، ولا شك أيضاً أن بعض شعره في فتوته زكوهولته قد سقط ، أو أسقط ، ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفذ شيئاً .

(٢) « زى محرم » كناية عن فقره ، لقلة ثيابه التي تستره . والمحرم من الحاج لا يلبس إلا إزارين غير مخيطين .

تَمَنُّهُ نَفْسَهَا ، وَتَمَحَّضَهُ نُصْحَهَا ، وَتَرَبَّيَهُ عَلَى مَا أَرَادَتْ ، لَمْ تَكْتَفِ أَنْ تَرْكَنَ فِي تَأْدِيهِهِ وَتَثْقِيفِهِ إِلَى الْمَكْتَبِ ، أَوْ إِلَى الزَّمَنِ وَأَحْدَاثِهِ ، وَهُوَ الْمَعْلَمُ الْأَكْبَرُ وَالْأُسْتَاذُ الْبَارِعُ .

هذا وما نشكُّ في أن الفتى كان وهو بالمكتب أكثر أصحابه تحصيلاً للعلم وإقبالاً عليه ، وانصرافاً إليه ، وذلك لما ذكروا من قُوَّةِ ذَاكِرَتِهِ الَّتِي كَادَتْ تَكُونُ إِحْدَى الْخَوَارِقِ = ثُمَّ لَمَّا أَخَذَتْهُ بِهِ جَدَّتُهُ مِنَ الْأَدَبِ وَالرَّأْيِ ، وَمَا زَيَّنَتْ لَهُ مِنْ طَلَبِ الْمَجْدِ ، ثُمَّ مَا تَهَيَّأَ فِي نَفْسِ الصَّغِيرِ مِنْ أَصْلِ طَبِيعَتِهِ الَّتِي تَسْرِعُ بِهِ إِلَى السَّمَوِّ ، وَلِهَذَا كَانَ الْفَتَى مُحْسَدًا بَيْنَ أَتْرَابِهِ ، مَنْظُورًا إِلَيْهِ بَعِينٍ . فَالْحَسَدُ الصَّغِيرِ الَّذِي مُنِيَ بِهِ وَهُوَ فِي الْمَكْتَبِ ، وَمَا يَمُوجُ فِي صَدْرِهِ مِنْ حِقْدٍ وَثُورَةٍ وَبُغْضٍ لِمَنْ أَرِيدَ لَهُ أَنْ يَشْتَأَهُمْ وَيُبْغِضَهُمْ = كُلُّ ذَلِكَ كَانَ هُوَ الْأَصْلَ فِيمَا تَعَجَّبَ مِنْهُ الْمُتَعَجِّبُونَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ هَذَا الشَّاعِرِ لِلْحَسَدِ وَالْحُسَادِ وَالْوَشَايَةِ وَالْوَشَاةِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يُلَمُّ بِهِ . وَقَدْ أَلَمَّ صَاحِبُنَا بِهَذَا الَّذِي أَرْدَنَاهُ فِي قَوْلِهِ وَهُوَ بِأَنْطَاكِيَةِ فِيمَا بَعْدَ :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِيَهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا
(وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطْنِي) إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
(مُحْسَدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثْرِي) أَلْقَى الْكَمِيَّ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا

/ فهو من يوم كان في وطنه الكوفة إلى سنة ٣٢١ حين رحل إلى الشام ، كان يلقى العنت من الحسد والحساد ، وما تكذبوا به من أباطيلهم ، وما ألقوا عليه من عيوبهم . فلما استمرَّ مَرِيْرُهُ وَبَرَعَ وَفَاقَ الشَّعْرَاءَ ، وَأَكَلَ أَرْزَاقَهُمْ إِلَى رِزْقِهِ ، أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْحُسَادُ وَالْوَشَاةُ ، فَدَسُّوا لَهُ وَأَذَاقُوهُ مِنْ بَأْسِهِمْ ، فَبَقِيَ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ ، وَيَتَخَيَّلُهُ فِي صَغِيرِ أَمْرِهِ وَكَبِيرِهِ .

قلنا : إن الفتى كان أحذق أسنانه وأسرعهم إلى التحصيل ، وأحفظهم للعلم ، وظاهر شعره الذي قاله في أول أمره وصباه ، يدلُّ على أنه لم يقصِّر دَرَسَهُ عَلَى « دَرُوسِ

العلوية وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً ، بل كان كما كان إلى يوم وفاته ، متبعاً للمكتب يقرؤها ويحفظها ويحفظها ، من كتب الشعر والأدب والدين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره ، وسأنتى على طرف من شعره في سياق الدليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة ، هو صاحبنا الأصفهاني ، أن المتنبي « وقع في صغره إلى واحد يُكنى أبا الفضل بالكوفة ، فهوّسه وأضله كما ضلّ » ، هكذا قالوا !

ولا شك أن أبا الطيب قد لقي هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعد ، والقصيدة التي في ديوانه ، والتي قدّموا لها بقولهم (١) : « وقال وهو بالمكتب يمدح إنساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه » ، هي في ذكر هذا الرجل الذي ذكره الرواة ، وأولها :

كُفَى ، أَرَانِي ، وَيْلِكَ ، لَوْمَكَ ، أَلْوَمَا هَمُّ أَقَامَ عَلَى فُوَادٍ أَنْجَمًا (٢)

٦٣

ويقول فيها ، وقد ذكر اسم الرجل :

كَصِيفَاتٍ أُوحِدِنَا (أبي الفضل) الذي بَهَّرَتْ ، فَأَنْطَقَ وَأَصْفِيهِ وَأَفْحَمًا

ومن قرأ القصيدة كلها ألقاها كلها ، فما فيها بيت واحد من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غث كله ، وما ندري ما الذي جعل أبا الطيب يحرص على إبقائها في ديوانه ، وقد أسقط الكثير من شعر صباه ، على ما ذكر تلميذه ابن جني ؟ (٣) وقد أعجم صاحبنا القصيدة كلها ، وأتى فيها بكل ساقطة من ألفاظ الفلسفة وما إليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أحل ذلك بعريتها إخلالاً

(١) الأرجح أن مقدمات القصائد الموجودة في نسخ ديوان أبي الطيب القديمة ، هي من لفظه هو لا من لفظ شراح الديوان . فلذلك يجب التوثق منها ومن لفظها ، لأنها وثيقة تاريخية وأدبية تحدّد مقاصد الرجل في شعره .

(٢) ترتيب ألفاظ صدر البيت : « كُفَى لَوْمَكَ ، وَيْلِكَ [أَى وَيْلَكَ] أَرَانِي أَلْوَمَا » .

(٣) انتبه إلى قول المتنبي في مقدمة القصيدة : « وأراد أن يستكشفه عن مذهبه » ، فإن هذه العبارة تنفي ثرثرة وكلاماً غثاً قاله من قاله في شأن هذه الأبيات .

بيناً لم يقع مثله في ساقط شعره وسفسافه : والظنُّ عندنا أنه لقي أبا الفضل هذا ، وكان يدعى الفلسفة ، ويتبجحُ بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويُعرضُ نفسه لقراءة دُرسٍ فيها ، وكان في ذلك أضحوكة يُعجَبُ منها ويتفكَّه بها ، وكانت صورته في ذلك كله تستقصي الضحك وتستخرجه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تندراً به وعبثاً وسخريةً . ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك بذكر الأبيات التي تدلُّ على ما أردناه ، فإن قليلاً من التدبُّر ، فيما جمع فيها أبو الطيب من السُخف والمضحكات والمناقضات والمبالغات ، فيه دليلٌ كافٍ وإفٍ . وبينُ إذن أن المتنبي ما أثبت هذه القصيدة في ديوانه ، إلا لأنه كان يذكرُ بها شخصيةً كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغاية الاستغراب .

٦٤ / والعجب للأصفهاني ، صاحب « إيضاح المشكل » ، الذي مرَّ في أول كلامنا ذكره ، أن يزعم أن معتمها كأبي الفضل هذا النكرة ، قد هوَّس أبا الطيب وأضله كما ضلَّ ! فمن كان في بديهة المتنبي وذكائه وتوقده ، لا يلعب به رجلٌ مغمورٌ غيرُ مذكورٍ كهذا الذي ذكره . وظاهرُ أمرِ الأصفهاني ، أو من قال له ذلك ، أنه وقع إليه خبرُ أبي الطيب وتندُّره بأبي الفضل ، هذا الدعوى على الفلسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدِّ ، ونسب إلى المتنبي الأخذ عنه ، والاعتداء بسُخفه وهذيانه . فلولا جاءوا بشيخٍ مذكورٍ من شيوخ الفلسفة ، وادَّعوا ذلك فيما ادَّعوا على الرجل !!

ونحن لا ننفي عن أبي الطيب التأثير بالفلسفة وغيرها مما يداخلها أو تداخله على مذهب الأوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذٍ موجُّ متلاطمٌ بالجدل والخصام ، والعلماء يومئذٍ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون ، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلي ، والكتب المخلفة كثيرة لم تذهب بعد ، وهي كتبٌ نشأ منها بعد علم الكلام الذي اختلطت به الفلسفة وصارت أصلاً من أصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصَّحَب الذي لا يُجدي ولا ينفع في أصول الدين وعقائده ، فلسنا نشكُّ بعد أن هذا الفتى المتوقِّد = الذي قال عنه كثير ممن رأوه إنه كان

واسع العلم والمعرفة = قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل ، وأخذ بأطراف مما سمع وقرأ وحفظ ، حتى بان ذلك في شعره الأول بيانا لا خفاء فيه ، ثم قل بعد أن استحكمت قوته وغلب عليه الأصل الشعري الذي آستولى على أكثر موهبته وقدرته .

ونسوق إليك هنا طرقا من ذلك فيه غنى إن شاء الله ، يقول :

٦٥ / وضأقت الأرض حتى كان هارِبُهُمْ إِذَا رَأَى (عَيْرَ شَيْءٍ) ظَنَّهُ رَجُلًا

يريد « لا شيء » فأبدل ، وهذه من ألفاظ المتكلمة ، والخيال خيالهم ، وقال :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ (حَلَاوَةُ التَّوْحِيدِ)

وهذا من ألفاظ المتصوفة ، وقال :

كَتَمْتُ حُبِّكَ حَتَّى مِنْكَ تَكْرِمَةٌ ثُمَّ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي
كَأَنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنِ جَسَدِي فَصَارَ سُقْمِي بِهِ فِي (جِسْمِ كِتْمَانِي)

والبيت الثاني ، واللفظ الأخير خاصة ، دليل على تأثره بالمعاني الفلسفية

والمصوفية ، وهذه هي التي أخرجت له هذا الخيال السخيف ، وقوله :

فَتَى أَلْفُ جُزْءٍ رَأَيْهِ فِي زَمَانِهِ أَقْلُ جُزْءٍ بَعْضُهُ الرَّأْيُ أَجْمَعُ

فهذه قسمة حسابية !! و « الجزء » و « الجزئ » من ألفاظ المتكلمين

والفلاسفة ، وقلما يأتي أحدهما في الشعر مستحسنا ، وقوله :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ (أُصُولُ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَنْفَرُغُ)

وهذا مدح فلسفي ليس بشعر ، وانظر إلى جمعه « البراعة » وهي من الغرائب التي

تلدها الفلسفة ، وقوله :

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَائَتْ عَلَيَّ (صِفَاتُ جَالِينُوسَا)

بَشْرٌ (تَصَوَّرَ غَايَةً) فِي آيَةٍ تَنْفِي الظُّنُونَ (وَتُنْفِسُ التَّقْيِيسَا)

/ فقولُه : (صفات جالينوسا) ، يريد ما يصفه جالينوس للأمراض من الدواء ، وهو دليل على نظره في كتب الطب ، ثم قوله : (تصور غاية) ، من أساليب المتفلسفة ، وقوله : « تُفسد التقييسا » يريد « تفسد القياس » ، وهو مما يرد في كتب الكلام . ومن تتبع سائر شعره في صباه ، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ أبو الطيب وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والملل والنحل والتاريخ وسير الأوائل والأنبياء الماضين ، وغير ذلك مما كان من علوم أهل عصره ، وقد أحاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نظرَ المتفكر المتدبر ، ولولا ذلك لما وُلِعَ بذكره في شعره ، ولَمَّا دار على غير إرادة منه فيما نظن .

وقد كان في هذا القسم من شعره يلجأ إلى الأساليب الفلسفية في استخراج المعاني وتوليدها ، وكان يكثر من التقسيم الفلسفي ، والتوجيه المنطقي وغيره من ألوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتزندقة أيضاً ، حتى فسدت معاني شعره ، فلذلك كان أكثر ما تجد من ساقطه ومرذوله = مما عابه عليه النقاد ، وخاصمَه به المتعصبون عليه = هو من هذا القسم الذي قاله في صباه إلى أطراف سنة ٣٢٨ على وجه التقريب لا التحقيق . (١)

وهذا العهد من حياة المتنبي لم ترد عنه روايةٌ مؤثقةٌ مستفيضة ، وإنما عملنا فيه الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه ، واستخراج الأصول النفسية منه ، ثم مسيرها بعد وتدريجها معه حتى بلغت مبلغها في كبير شعره الذي « ملأ الدنيا وشغل الناس » .

(١) تتبَّع هذا اللون من الألفاظ والأساليب في شعر أبي الطيب ، محدداً بالوقت الذي قيل فيه ، وحصَّره في زمانه ، وقصَّره على زمن القول ، مع الانتباه إلى معرفة شيء صحيح عن الرجل الذي لُحِطَ بهذا الشعر = كُتِبَ ذلك واجب الناقد والأديب والكاتب ، قبل أن يقول شيئاً في شعر أبي الطيب ، فإن لم يفعل ، وكتب بلا حذر ، فالذي فعل هو الثرثرة لا غير .

٦٧ / عندنا أن المتنبي بقي في المكتب إلى سنة ٣١٧ تقريباً ، وكانت سنه أربعة عشر ، ولكنه كان بتوقده وذكائه في درجة من أناف على العشرين ، وقد ذكر التنوخي أنه قال الشعر صيباً ، وذكر غيره أنه كان آية في الذكاء والفطنة ، وقال غيرهما إنه من ذهابة عصره ، أي كان كذلك فيما بعد . وكان مما ورثه عن جدته ، هذا الإحساس المُرَهَفُ الدقيق الذي يهتز في قوته وكبرائه ، لا في ضعفه وذله . واجتماع الذكاء والحس المُرَهَف هما آلة كل شاعرٍ ، وقد ظفر المتنبي من كليهما بنصيب الأسد المصور ، ولذلك كان شعره أروع شعر في العربية وكثير غيرها ، وكان مُحَبِّباً إلى أهل عصره متداولاً سائراً بينهم ، لأنه كان يأخذ بنفسه المُرَهفة من شعور الناس وآلامهم وأحداثهم ، ويبنى بما يأخذ يَبُوت شعره ، وروائع بلاغاته .

وَهَبَ اللهُ هذا الذكي المُرَهف الحسَّ جَدَّةً حازمةً كانت ، فيما ذهبنا إليه ، تُوقد في قلبه نيران الثورة ، وتورثها بالحق على قوم بأعيانهم ، وتدرِّبه على كرائم الخلق كالصدق والأمانة والوفاء وحبِّ المجد ، والتطلع إلى العلياء ، والجرأة المُسْتَنَفرة التي لا تهيِّبُ ، يَحُدُّ منها الحذر الذي لا يتهاون ، والدَّهَاءُ الذي لا يتورط في موارد التلّف . وشرع الفتى يطلب العلم ويستزيد منه ، ويشتد في الطلب مُصَمِّماً معترماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يَهْلِكَ دونه . ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وترهاتها ، وجِدِّها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تتلمس الأشياء هنا وثم ، لتستقر على ما ترضى به وتأنس إليه .

٦٨ وكانت الكوفة ، التي نشأ بها وشب وترعرع وتفتنى ، لذلك العهد ، / بلداً من بلاد الإسلام ، قد رَمَتْها القرامطة بجيوشها مرَّاتٍ وفعلت بأهلها الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية في شُغْلٍ عن الكوفة بانقسامها شيعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكة الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاءٍ ، فأوقعوا بين المسلمين وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف في ثورة دائمة لا تفتت ، ولا تنقطع الحروب في ناحية إلا اتقادت نيرانها في أخرى . وانقسمت دويلاتٍ ، ولم يبق للخليفة إلا الاسم الكريمٍ يحملهُ مُرْغَمًا ويضعُهُ مُرْغَمًا لا إرادة له . ولا شك أن إحساس أبي الطيب قد ألم

بذلك كله وفصله ونقده ، وعرف الداء الذي كمن في بدن العريية واستل قوتها وقتل روحها ، فأزاد إلى ثورته ثورةً وإلى حقه حقدًا .

وكانت أخلاق الأمة قد اتضعت وفشلت بما تداخلها من أخلاط الأمم الذين لا أصل لهم يرجعون إليه ، ولا تُخلق عندهم يستندون به ، وفسدت العامة من أهل المذنب فساداً كبيراً ، واضطربت في أيدي الناس حبال الأخلاق ، وصاروا لا يقيسون الناس إلا بمقياس الظاهر ، ولا يزنونهم إلا بميزان المال . فبطلت موازين الرجال التي يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرؤولة وكرم العنصر . (١) فكان نظر الفتى إلى هذا ، مما ألقى الخطب على النار التي في صدره ، فبعضت إليه سفاسف الأخلاق وتعلق بمعاليها ، وزين في قلبه أن يكون هو الثائر الذي يرد هؤلاء الأهمال والهمج إلى مرد ، ويأوى بهم إلى مأوى ، ويقوم عليهم قيام الراعى حتى يخلصوا من الشر ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذي لا يبخس الناس حقهم ، ولا يظلمهم ، ولا يدنئهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنية ، ويجعلهم قوة مستحكمة ترد عدوان العادى وبغى الباغى ، ليصلوا بذلك إلى المجد والسلطان .

/ اصطدم هذا الخيال الذي أراد أن يحققه بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ، والبعث عن مساعى المجد ، وامتناع نفسه عن إعطاء الطاعة للأخلاق التي كان يصل بها أهل ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيء والدسيس وما إليهما من حيل الخبيثين . وقد روى الرواة أن أبا الطيب قال :

« أذكر وقد وردت في صباى من الكوفة إلى بغداد ، (٢) فأخذت بجانب مندبلى

(١) لا تحمل ، أيها القارىء ، كلامى هذا على التعميم المطلق ، فإن ذلك لا يصح البتة ، ولكن أهل زماننا من الكتاب والقراء حين يسمعون مثل هذا ، مما قيل قديماً أو حديثاً ، يحملونه على التعميم المطلق ، ويلد لهم أن يصفوا أسلافهم بكل قبيحة من القبائح ، بغياً وعدواناً على الحق وعلى التاريخ .

(٢) انظر دخول المتنبى بغداد فيما سلف [ص : ٦٥] ، وما سياتى ، انظر الفهرست .

خمسة دراهم ، وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دُكان يبيع الفاكهة ، فاستحسنتها ، ونويتُ أن أشتريها بالدرهم التي معي ، فتقدمت إليه وقلت :

- بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : أذهب فليس هذا من أكلك ، ..

فماسكت معه وقلت :

يا هذا ، دع ما يغيظ ، واقصد الثمن .

فقال : ثمنها عشرة دراهم .

فلشدّة ما جبّهني به ، ما استطعت أن أحاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

- يا مولاي ! هذا بطيخ باكُور ، بإجازتك أحمله إلى البيت ؟

فقال الشيخ : ويحك ! بكم هذا ؟

/ قال : بخمسة دراهم ..

٧٠

قال : بل بدرهمين ...

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل .

فقلت له : يا هذا ! ما رأيتُ أعجب من جهلك ؟ آستمت عليّ في هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً !!

فقال : اسكت ، هذا يملك مئة ألف دينار !

قال المتنبي : فعلمت أن الناس لا يُكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك

مئة ألف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك
مئة ألف دينارٍ .

فهذا وأمثاله من أعمال الحياة لذلك العهد اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقرَّ على أن
يجد لما يريد مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والأخذ باللين والملاطفة ، وازداد بذلك
للناس احتقاراً ، ولأعمالهم بُغضاً ، وحَقَرَ العظماء الذين لا يَعْتَمُونَ في أعين الناس
إلاَّ بالمال ، وجعل يديرُ الرأي حتى خَلَصَ إلى العزم : أن يَطْلُبَ المال ، لا ليجمعه
ويفرَحَ به ، ولكن لينال به ما يريدُ مما ينطوي عليه قلبه من حقدٍ على قومٍ ، وما يدور فيه
من معاني الإصلاح ، وما ينبغي من إيقاظ الهمة العربية للاستيلاء على السلطان المضيع ،
والمجد المفقود .

٧١ / ومع هذا ... ، كان الذكاء ، والثورة ، والنَّظْرُ ، والتجربة والاختلاطُ بالناس
واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبه من فساد أقيستهم وبطلانِ مذاهبيهم ، ثم اعتماده في نفسه على
الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى
الحكم أو السلطان أو القضاء إلاَّ بالسوء والقبیح ، ثم طبيعته الشاعرة المرفهة التي
(تلتقط صور) الأشياء ثم تنتزع منها الأخيلة الشعرية ، والحكم البليغة ... كل ذلك
أسرع بالفتى إلى ضرب من القول الساخر الذي لم تر العربية مثله في شعر شاعرٍ ، إلا أن
سخريته التي انفرد بها لم تكن بعدُ في كبره إلاَّ ضرباً من الحكمة والعبرة التي لا يفتن إليها
إلاَّ أفذاذ العقول ، ثم يدُّون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالغون في تصويرها ، بل
يضعون لها اللفظ الذي يُخْرِجُها مُخْرَجَ الحكمة ، ويزيدها روعةً في السَّخَرِ ، وستعرض
لتفصيل ذلك بعدُ . وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من سخريته في صغره تدلُّ على
ما استحكم في شعره بعدُ ، وصار في شاعريته طبيعة متأصلة مستحكمة .

مرَّ المتنبي برجلين قد قَتَلَا جُرْدًا ، وأبرزاه يعجبان الناس من كبره ، فقال :

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْدُ الْمُسْتَغِيرُ أُسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيحَ الْعَطْبِ
رَمَاهُ الْكِنَانِيُّ وَالْعَامِرِيُّ ، وَتَلَاهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ الْعَرَبِ
كِلَا الرَّجُلَيْنِ أَتَلَى قَتْلَهُ ، ... فَأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلْبِ
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ ؟ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنْبِ

قتل الرجلان ، الكنانى والعامرى ، هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجبا الناس من
كبره ، وهذا سُخْفٌ مِنْهُمَا ، إذ شغلا نفسيهما بعبثٍ لا معنى لمثله / عند المتنبي الذى
يريد فى نفسه قتل الملوك ، فمن هنا قال : « الْجُرْدُ الْمُسْتَغِيرُ » ، الذى قد أغار عليهما كما
تغير الجيوش . ثم لما فرغ من جعله كذلك ، ذكر أن هذا الفأر قد وقع فى (أسر المنايا)
كما يقع العدو فى الأسر ، حين رماه الكنانى والعامرى بالسهم كما يُرمى العدو ، وبذلك
يسخر من رجلين يجمعان قلوبهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول إلا فأراً !! ثم لا يكتفى
صاحبنا بهذا ، بل يقول إنهما أخذوا يصارعانه كما يصارع العربى خصمه مستعيناً عليه
بالقوة حتى يَكْبَهُ على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : « تَلَاهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ الْعَرَبِ » ، ثم يقول
بعد : كِلَاكُمَا تَوَلَّى قَتْلَهُ ، وذلك لِكِبَرِ الْفَأْرِ وَشِدَّتِهِ ، ولكن مَنْ مِنْكُمَا الَّذِى سَرَقَ حُرَّ
ثِيَابِهِ وَجَيَّدَ سِلَاحَهُ ، كما يسرق السارق فى الحرب من أسلاب القتلى ويخفيها عن أصحابه
من المقاتلة ؟ ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميتماه بسهميكما ، وكان
أحدكما من خلفه ، فمن منكما الذى كان من ورائه ليحتال على صرعه ؟ وقد عرفت حيلته
فى صرْعِ هَذَا الْفَأْرِ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّهُ عَضَّهُ فى ذنبيه ، وهذه الْعَضَّةُ بَيِّنَةٌ ثُمَّ !

وأنت إذا عُدت فقرأت الأبيات على ما تكلفنا شرحه ، رأيت بلاغة الرجل فى
السخرية ودقته فى اختيار اللفظ وإيجاز الصورة التى يريد أن يتفككها بها . وهذا الضرب
من الكلام من أكثر ضروب الكلام دَوْرَاناً فى شعر المتنبي ، حتى بلغ من دقته فى
وضعه ، وتُفُوذِهِ فى معرفته وإتقانه ، أنه كان يقول القول فى المدح وهو أبلغ الهجاء ، كما
فعل بكثير من ممدوحيه ، حاشا سيف الدولة ، وفى أولهم كافور الأسود الخصى .

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام أبي الطيب ، وما يضيق به صدره من الأحقاد والآراء ، ولعله كان في أصل طبيعته قريب الميل إلى المرح / والطرب في وقار ، ولولا ما كلف نفسه من المشقة للسيادة والمجد ، لكان من أبرع الناس نكتةً بليغة وأكثرهم نادرةً عالية . يدلُّك على هذا أن أبا الطيب كان قد نادى في حياته كثيراً من الأمراء ، وكانوا يحبُّونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متزمتٌ باردُ الطبع ثقيلُ الظل ، طويلُ الصمتِ جهُمُ الوجه ، مُقَطَّبٌ . ومما قاله « معاذ اللادقي » لأبي الطيب سنة ٣٢١ : « والله إنك لشابٌ خطير ، تصلح للمنادمة ملكٍ كبير » ، ومعنى هذا أن أبا الطيب كان ظريفاً خفيف الروح ، محبباً إلى النفس ، مع وقارٍ وثُودة . ومن تدبَّر سخريته في شعره كلُّه ، وجد فيه هذا المعنى ، إلا أنه لم يكن يَهْزُلُ هَزْلَ السخفاء .

كان هذا الفتى يمشى في نواحي الكوفة بآلامه وأحقادِهِ وفقره ، ويتنقل في حوانيت الوراقين يقرأ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف إلى مجالس الأئمة يستمع العربية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً إلى الحوادث التي تقع بين ظَهْرَانِي قومه ، ويتسَمَّع لما تَرِدُ به الأنباء من أخبار الدولة المترامية الأطراف ، يُضحكه ما يقع من الأحداث العجيبة التي ترفع وتضع ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيما يرتفع إلى الذروة أقوامٌ ، من العجب أن يصلوا إلى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيما يرتفع بهم إلى إمرة الأمراء ، ومشيخة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعد أن يكون هذا الفتى الثائر الذي يشهد آثار الأحداث في أمته ، كثير العجب مما يرى وما يسمع ، قليل الحفل بهذه الأصنام التي ترفعها الحوادث وتضعها ، عظيم العجب بنفسه وما أوتى من فطنةٍ وذكاءٍ وعلمٍ ولسانٍ قَوَالٍ ، لم ينل بها إلا الفقر والمسكنة والحِرمان :

لُمَ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتَ عَلَى جِدَّتِي بِرِقَّةِ الْحَالِ ، وَأَعْدَرْنِي وَلَا تَلُمِ
أَرَى أَنَا سَاءً ، وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمِ ، وَذِكْرُ جُودِي ، وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ

وقد بقي في الكوفة على ذلك - فيما نرى - إلى أطراف سنة ٣١٧ ثم خرج إلى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية إلى نجد ، وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم وأخذ يتنقل بينهم ، ليسمع ما بقي من العربية المبرأة على السنة هؤلاء القوم الذين قلت بينهم الأعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل إلا ما مرّن عليه من مشقة السفر ، واكتساب الصديق ، واختبار الخلق . ثم عاد إلى جدّته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها ، يتال من فضل بعض أصحابه متعافياً ، كمحمد بن عبيد الله العلوي المشطّب الذي مرّ آنفاً ، ١٥١٦ - ١٥٣ ، [١٦٨ ، ١٥٣] . ولعلّ العلويين الذين نكبوا جدّته كانوا يُفضّلون عليها ليتّفوا بذلك شرّ أحداثها لو حدّثتها نفسها بشيء . وبقي المتنبّي هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح أحد من العلويين أو غيرهم من رجال الكوفة وعظمائها ، وقد جاء في حديث المتنبّي الذي ذكرناه آنفاً أنه انحدر مرّة من الكوفة إلى بغداد ، وما نشك أن مخرجه هذا إلى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩ إلى أوائل سنة ٣٢٠ . (١) ودخل صاحبنا بغداد يرى العجب العاجب من الأحداث التي كانت تقع بها ، وشعب الجند على الخلفاء ، وظهور الموالي من العجم والديلم والترك على مواليهم من الأمراء والخلفاء ، وقضائهم في شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسة الأمة على الشهوات المتنازعة والأهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يرعّون . فعفّ كذلك عن مدح أحد من هؤلاء الأمراء والخلفاء ، وأنف أن يتكسّب بشعره من هؤلاء المحقرين لديه ، ورضى بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع في صدره المملوء أحقاداً مؤرّثة ، وتراتٍ لم ترّو بعد من الدم ، فعجّ صدره / بالنار المضطّمة التي لا تهدأ ، ثورّتها أفكاره ونظراته التي لا تُفتر ولا تكيل . ففي سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وإن أبت جدّته عليه ذلك ، لما كانت تخشى من تدفّعه إلى موارد التلّف بما يحمل في صدره ، وعقد قلبه على إحداث حدّثٍ لعله أن يصيب من ورائه ما يتغى وما يؤمل ، ويُدرّك به في قوم ثاراً ، ويشفي به صدر جدّته وصدره . ولعلّ هذه الآيات التي نرويها لك كانت آخراً ما قاله بالكوفة مما وصل إلينا وما لم يصل من شعره ، ولعله عنى بالخطاب فيها جدّته ، قال :

(١) انظر ما سلف : ١٩٢ ، تعليق : ٢ .

مُحِبِّي قِيَامِي ، مَا لِذَلِكَُمُ النَّصِلِ
أَرَى مِنْ فِرْنِدِي قِطْعَةً مِنْ فِرْنِدِهِ
وَحُضْرَةُ ثُوبِ الْعَيْشِ فِي الْحُضْرَةِ الَّتِي
أَمِطَ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَأَنَّهُ
وَذَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطَرْفِي وَذَائِلِي ،
بَرِيئاً مِنَ الْجَرْحِي ، سَلِيماً مِنَ الْقَتْلِ
وَجُودَةً ضَرَبِ الْهَامِ فِي جُودَةِ الصَّقْلِ
أَرْتَكُ أَحْمِرَارَ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ
(فَمَا أَحَدٌ فَوْقَ وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي)
نَكُنُّ وَاحِداً يَلْقَى الْوَرَى وَأَنْظُرُنْ فِعْلِي

وقوله : « محبي قيامي » ، يعني ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن أحداً كان يحب ذلك منه غير جدته ، مع خوفها عليه وخشيتها أن يصيبه مكروه ممن يترصص من العلويين ، فيما ذهبنا إليه . وفي الأبيات أثر يبين من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدل دلالة بيّنة على عزيمة هذا الفتى الأبي الذي يريد أن يدرك ثأراً ، ويُحدث أمراً .

ولم يمض إلا قليل بعد ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه ، على ما وقع
عندنا من الرأي ، من الكوفة إلى بغداد ، ثم خرج لوقته متخذاً / طريقه في ديار ربيعة بين
النهرين إلى نصيبين ورأس عين وحران ومنبج ، وطفق يتنقل بين القبائل في جوف البوادي
حتى انقضى به المسير إلى الشام في سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يُدانيها ، (أعنى
بعلبك ، وطرابلس وحمص) ، ثم كره الأرض التي نزلها ، ثم صعد سنته إلى منبج وحلب
واللاذقية وأنطاكية ، ومدح بها من مدح ، ثم اعتقل بحمص ، لما قالوا به من ادعائه العلوية ،
ثم النبوة ، ثم العلوية ، ثم استتیب وأشهد عليه بالكذب فيما ادعى ، ثم تاب وأطلق . هذا
موجز رحلته الأولى بالشام ، وتفصيلها غير ميسر بعد لغموضها ونقصها . ولهذا الرحلة
عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد .

- ٥ -

 سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
 وَيَنْجَلِي نَجْبِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ
 لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَأَتَ مُصْطَبِرٍ
 فَالآنَ أَقْحَمُ حَتَّى لَأَتَ مُقْتَحِمِ
 مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشُّفْرَتَيْنِ غَدًا
 وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
 فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ ،
 وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ

٧٧ / النبوة في حياة المتنبي هي أبرز الحوادث التي عُرف بها الرجل ، ثم نُيِّزَ بها بعدُ .
 وقد اختلف النَّاسُ في أمرها اختلافًا كبيرًا ، فعلينا هنا أن نذكر لك أوَّلَ ذِي بَدِئِ رِوَايَةِ
 الرُّوَاةِ فِي أَمْرِ نُبُوَّتِهِ ، تَامَةً كَمَا رَوَوْهَا ، ثُمَّ نَعْقِبُهَا بِرَأْيِنَا الَّذِي ارْتَضَيْنَاهُ ، وَقَضَيْنَا بِهِ . وَقَدْ
 جَاءَتِ الرِّوَايَةُ بِهَا عَنِ التَّنُوخِيِّ الَّذِي مَرَّ ذَكَرُهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِنَا عَنْ نَسَبِ الْمُنْتَبِيِّ ، وَجَاءَتْ
 أُخْرَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُعَاذِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ اللَّادِقِيِّ الَّذِي قَالَ : إِنَّهُ لَقِيَ الْمُنْتَبِيَّ بِاللَّادِقِيَّةِ ،
 وَبَايَعَهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَأَخَذَ بِيَعْتَهُ لِأَهْلِهِ أَيْضًا !! كَمَا سَتَرَى .

١ - رَوَى التَّنُوخِيُّ (عَلِيُّ بْنُ الْمُحَسِّنِ) ، عَنْ أَبِيهِ الْمُحَسِّنِ التَّنُوخِيِّ ، عَنْ
 الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ بْنِ أُمِّ شَيْبَانَ الْهَاشِمِيِّ الْكُوفِيِّ ، قَالَ :

٧٨ / « وَقَدْ كَانَ الْمُنْتَبِيُّ لَمَّا خَرَجَ إِلَى كَلْبٍ وَأَقَامَ فِيهِمْ ادَّعَى أَنَّهُ عَلَوِيُّ حَسَنِيٌّ ، ثُمَّ
 ادَّعَى بَعْدَ ذَلِكَ النُّبُوَّةَ ، ثُمَّ عَادَ يَدَّعَى أَنَّهُ عَلَوِيُّ ، إِلَى أَنْ أُشْهِدَ عَلَيْهِ بِالشَّامِ بِالْكَذْبِ فِي

الدعويين ، وحيس دهرًا طويلًا ، وأشرف على القتل ، ثم استتيب ، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق .

٢ - وحدّث التنوخيّ أيضاً ، عن أبيه المحسن قال ، حدثني أبو علي بن أبي حامد قال :

« سمعت خلقاً بحلب يحكون ، وأبو الطيب المنتبى بها إذ ذاك ، أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الإخشيدية ، فقاتله وأنفره ، وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه في السجن حبساً طويلاً ، فأعتل وكاد أن يتلف ، حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها بطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يُعاود مثله ، وأطلقه » (١)

ثم هذا حديث مُعَاذِ اللَّاذِقِيِّ نقله علي طوله :

٣ - « قَدِمَ أَبُو الطَّيِّبِ اللَّاذِقِيَّةَ فِي سَنَةِ نَيْفٍ وَعَشْرِينَ وَثَلَاثِمِئَةً ، وَهُوَ لَا عِدَارَ لَهُ ، وَلَهُ وَفْرَةٌ إِلَى شَحْمَتِي أُذُنِيهِ ، فَأَكْرَمْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَحَسَنِ سَمْتِهِ . فَلَمَّا تَمَكَّنَ الْأَنْسُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَخَلَوْتُ مَعَهُ فِي الْمَنْزِلِ اغْتِنَاماً لِمَشَاهِدَتِهِ ، وَاقْتِبَاساً مِنْ أَدْبِهِ قَلْتُ :

/ - وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَابٌّ خَطِيرٌ ، تَصْلُحُ لِمَنَادِمَةِ مَلِكٍ كَبِيرٍ .

- فَقَالَ : وَيْحَكَ !! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ أَنَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ !

فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَهْزُلُ ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْ مِنْهُ كَلِمَةً هَزُلُ قَطُّ مِنْذُ عَرَفْتَهُ .

(١) لهذا الحديث تنمة فيها ذكر قرآن أبي الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد .

- فقلت له : ما تقول ؟
- فقال : أنا نبي مرسل .
- فقلت : إلى من مرسل ؟
- فقال : إلى هذه الأمة الضالة المضلّة .
- قلت : تفعل ماذا ؟
- قال : أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً .
- قلت : بماذا ؟
- قال : بإدراج الأرزاق ، والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى .

- فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيمٌ أخاف عليك منه ! وعدّته على ذلك .
- فقال : بديهةً :

أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ مُعَاذُ ، إِنِّي
ذَكَرْتُ جَسِيمَ مُطَلَّبِي ، وَأَنْتِي
أَمْثَلِي تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ ،
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصاً
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِي
إِذَا امْتَلَأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي
خَفِي عَنْكَ فِي الْهَيْجَا مَقَامِي
أُخَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهْجِ الْجِسَامِ
وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْحِمَامِ ؟
لِخَضْبِ شَعْرٍ مَفْرَقِهِ حُسَامِي
وَلَا سَارَتْ وَفِي يَدَيْهَا زِمَامِي
فَوَيْلٌ فِي التَّقِيظِ وَالْمَنَامِ

- فقلت : ذكرت أنك نبي مرسل إلى هذه الأمة ، أفيوحي إليك ؟
- قال : نعم !

- قلت : فأتل علي شيئاً مما أوحى إليك !
- فأتاني بكلام / مَا مَرَّ بِمَسْمَعِي أَحْسَنُ مِنْهُ .

- فقلت : ولم أوحى إليك من هذا ؟
- فقال : مئة عِبْرَةٍ وأربع عشرة عِبْرَةٌ .
- قلت : ولم العبرة ؟ فأتانى بمقدار أكبر من الآى فى كتاب الله تعالى .
- قلت : فى كم مدة أوحى إليك ؟
- قال : جُمْلَةً واحدةً .
- قلت : أَسْمَعُ فى هذه العبرَات أن لك طاعة فى السماء ، فما هى ؟
- قال : أَحْبَسَ المِذْرَارَ ، لقطع أرزاق العُصاة والفُجَّارِ .
- قلت : أتَحْبَسُ فى السماء مطرَها ؟
- قال : إى والذى فطرها ! أما هى مُعْجِزَةٌ ؟
- قلت : بلى والله .
- قال : فإن حبست المطر عن مكان تنظر إليه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بى ،
وتصدّقنى على ما أوتيتُ من ربّى ؟
- قلت : إى والله .
- قال : سأفعل ، ولا تسألنى عن شىء بعدها ، حتى آتيك بهذه المعجزة ،
ولا تُظْهِرْ شيئاً من هذا الأمر حتى يَظْهَرَ ، وانتظر ما وُعدته من غير أن تسأله .
- ثم قال لى ، بعد أيام : أتُحِبُّ أن تنظر المعجزة التى جرى ذكرها ؟
- قلت : إى والله .
- فقال لى : إذا أرسلتُ إليك هذا العبد فاركب معه إلىّ ولا تتأخر ولا تُخْرِجْ
معك أحداً .
- قلت : نعم .

« فلما كان بعد أيامٍ تغيّمت السماء في يومٍ من أيام الشتاء ، وإذا عبّده قد أقبل فقال : يقول لك مولاى : أركب للموعد . فبادرتُ إلى الركوب معه ، وقلت : أين ركب مولاك ؟

- قال : إلى الصحراء . واشتدّ وقع المَطَرِ فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى ، فإنه ينتظرنا بأعلى تَلٍّ لا يصيبه فيه مَطَرٌ .

- قلتُ : وكيف عمل ؟

- قال : أقبل إلى السماءِ أوّل ما بدا السحاب الأسود ، وهو يتكلم بما لا أفهم ، ثم أخذ السوط فدار به في موضعٍ ستنتظر إليه

« وإذا هو على تَلٍّ بعيدٍ عن البلد نصف فرسخ ، فأتيت إليه ، فإذا هو على التلِّ لم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد / نُحِضْتُ في الماء إلى رُكبة الفرس ، والمطر في أشدِّ ما يكون . ونظرتُ إلى نحو مئتى ذراعٍ في مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسلمتُ عليه ، فردّ علىّ السلام . فقلتُ : ابسط يدك ، أشهد أنّك رسول الله . فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوته ، ثم قال :

أَيُّ مَحَلٍّ أَرْتَقَى أَيُّ عَظِيمٍ أَتَّقَى
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

« وأخذتُ بيعةً لأهلى ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة عمّت كلَّ مدينة بالشام ، وذلك بأصغر حيلةٍ تعلّمها من بعض العرب ، وهى « صَدْحَةُ المطر » يصرفه بها عن أىِّ مكانٍ أحبّ ، بعد أن يحوى بعضاً وينفث في الصّدْحَةِ التى لهم .

« قال أبو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسكّون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاضمونّه ، حتى إنّ أحدهم يصدّح عن غنمه وإبله وعن القرية فلا يصيبها شيء من المطر ، وهو ضربٌ من السّحر . وسألت المتنبى بعد ذلك : هل دخلت السكّون ؟ قال : نعم ! أما سمعت قولى :

مِلْتُ الْقَطْرَ أَعْطَشَهَا رُبُوعاً وَإِلَّا فَاسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعَا
أُمْسِي السَّكُونِ وَحَضْرَمُوتَا وَوَالِدَتِي وَكِندَةَ وَالسَّبِيعَا

« فقلت : مِنْ ثَمَّ آسْتَفَادَ مَا جَوَّزَهُ عَلَى طَعَامِ أَهْلِ الشَّامِ (وأنت منهم يا أبا عبد الله إذن ، فقد آمنت بنبوته) ؟؟ »

/ ثم قال أبو عبد الله هذا : « وما كان يُمَخَّرُ بِهِ فِي الْبَادِيَةِ ، أَنَّهُ كَانَ مَشَاءً قَوِيًّا عَلَى السَّيْرِ ، يَسِيرُ سِيرًا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ ، وَكَانَ عَارِفًا بِالْفَلَوَاتِ وَمَوَاقِعِ الْمِيَاهِ وَمَحَالِّ الْعَرَبِ بِهَا . وَكَانَ يَسِيرُ مِنْ حِلَّةٍ إِلَى حِلَّةٍ بِالْبَادِيَةِ ، وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ، فَيَأْتِي مَاءً فَيَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، ثُمَّ يَأْتِي أَهْلَ هَذِهِ الْحِلَّةِ فَيُخْبِرُهُمْ مَا حَدَثَ فِي تِلْكَ الْحِلَّةِ الَّتِي فَارَقَهَا ، وَيُؤَيِّمُهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى لَهُ . وَسُئِلَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : فَقَالَ : أَخْبَرَ بِنَبَوَّتِي حَيْثُ قَالَ : « لَا نَبِيَّ بَعْدِي » ، وَأَنَا أَسْمَى فِي السَّمَاءِ « لَا » .

« وَلَمَّا أَشْتَهَرَ أَمْرُهُ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ ، وَخَرَجَ بِأَرْضِ (سَلَمِيَّة) مِنْ عَمَلِ حَمَصٍ فِي بَنِي عَدِيٍّ (وَظَهَرَ مِنْهُ مَا خِيفَ عَاقِبَتَهُ) ، (١) قَبِضَ عَلَيْهِ آبَنُ عَلَى الْهَاشِمِيِّ فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا (كُوْتَكِين) ، وَأَمَرَ النَّجَّارَ أَنْ يَجْعَلَ فِي رِجْلَيْهِ وَعُنُقِهِ قُرْمَتَيْنِ مِنْ خَشَبِ الصَّفْصَافِ ، فَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

زَعَمَ الْمُقِيمُ بِكُوْتَكِينِ بَأَنَّهُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بِنِ عَبْدِ مَنَافٍ
فَأَجَبْتُهُ : مُذْ صِرْتَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ صَارَتْ قِيُودُهُمْ مِنَ الصَّفْصَافِ »

انتهى حديث معاذ بن إسماعيل اللاذقي (أبي عبد الله الصديق !!) الذي كان
أول من صدق نبوة أبي الطيب وآمن به وأخذ يبعثه لأهله !!

(١) في بعض الكتب هذه الزيادة .

وما دمننا قد أطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ، إن شاء الله ، لو نقلنا لك ما رواه أبو العلاء المعري أيضاً قال :

٤ - / « وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه ، أنه لما حصل في بني عديّ وحاول أن يخرج فيهم قالوا ، وقد تبينوا دَعْوَاهُ : هُهْنًا نَاقَةً صَعْبَةً ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى رُكُوبِهَا أَقْرَبْنَا أَتَكَ مَرْسِلٌ = وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل ، فتحيّل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعةً وتكرّرت بُرْهَةً ، ثم سكن نفاؤها ومشت مَشَى الْمُسْمِحَةِ ، وأنه ورد بها الحيلة وهو راكبٌ عليها ، فعجبوا له كلّ العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

« وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلب على يده سيكين الأقاليم فجرحته جرحاً مُفْرِطاً ، وأن أبا الطيب نفل عليها من ريقه وشدّ عليها غير منتظر لوقته . وقال للمجروح : لا تحلّها في يومك ! وعدّ له أياماً وليالي ، وأن ذلك الكاتب قبل منه ، فبرىء الجرح ، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون : هو كمحبي الأموات .

« وحدث رجلٌ كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل : أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلبٌ ألحّ عليهما في الثباح ، ثم انصرف . فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرجل ألقى الأمر على ما ذكر ولا يمتنع أن يكون أعدّ له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل و « الحَرْتِيقُ » سَمُّ الكلاب . »

٨٤ / هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند أكثر الرواة ، أمّا قرآنه فقد أجمعوا أنه لم يبق إلا ما نرويه لك . قال أبو علي بن أبي حامد ، الذي مرّ آنفاً :

٥ - وكان (يعنى أبا الطيب) قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن أنزل عليه ، وكانوا يحكّون له سوراً كثيرةً ، نَسَحَتْ منها سورة ضاعت ، وبقي أولها في حفظى ، وهى :

« وَالنَّجْمِ السَّيَّارِ ، وَالْفَلَكَ الدَّوَّارِ ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، إِنَّ الْكَافِرَ لَفِيْ أخطار ، آمض على سننك ، وأقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع زئج من الحد في دينه (الدين) وضل عن سبيله (السبيل) » .

قال : وهى طويلةٌ ، لم يبق منها في حفظى غير هذا .

وأنا لا أحبُّ أن أتجاوز هذه النصوص إلى ما سواها ، إلا وقد نظرت فيها وبصّرت القارىء بالتوائها وضعفها ووهنها ، ويأتيه ما استنبطناه وقد وقر في نفسه ردُّ هذه المقالة التى نُبِز بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردنا مقام البيّنة على ما أردناه ، أصبنا أو أخطأنا .
لن نعود تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التنوخى ، ثم روايته عن أبى الحسن العلوى وابن أم شيبان الهاشمى ، ففى أول كلامنا تجدُّ بعض الأدلّة على وهن رواية التنوخى ، واستسقاطنا إياها ، ولا غنى لك عن العودة إلى تذكره عند هذا الحديث عن نبوة المنتبى . [انظر القول فى التنوخى فيما سلف : ١٤٥ - ١٤٩] .

٨٥ / بيّنا لك فيما مرّ ما بين أبى الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديمٌ هو الذى أراد أن يدركه فيهم ، وينال « حقه » منهم ، ورجح عندنا الاستنباط أن يكون أبو الطيب « علويّاً » منكوباً فى نسبه وشرفه وجاهه ، وأنه كان يريد أن يظهر نسبه إلى العلويين ، ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ ، فإذا جمعت هذا الرأى هنا ونظرت فى النص الذى وقع إلينا من التنوخى عن ابن أم شيبان الهاشمى ، [رقم : ١] ، وهو علوىٌّ كبير ، ملكك الشكُّ وغلب عليك فيما روى ، فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيما قال - لو صدق التنوخى فى روايته عنه - أن أبا الطيب أدعى العلوية مرتين .

أما حديث معاذ بن إسماعيل اللاذقي [رقم : ٣] ، فنقد سنده لا يتيسر لنا ، لأن صاحبنا هذا اللاذقي مجهول لم نفع له على ذكر ، ولكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التي نُسبَ إليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله . فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وأنت تتبصر في أصل الرواية ، على وهنها وتضارُّها وتهالك معانيها التي يُفسد بعضها بعضاً ، كما ستري بعد .

فالحديث الأول ، وهو حديث ابن أمّ شيبان الهاشمي ، [رقم : ١] ، عجيب لا يفرغ العجب من اختصاره وتداخله . فهو رتب أمر ظهور المنتبى على درجاتٍ ثلاثٍ :
الأولى : ادّعاؤه العلوية = الثانية : ادّعاؤه النبوة = والثالثة : ادّعاؤه العلوية مرة أخرى .

فأما أن يدعى العلوية ، ثم يعود فيدعى النبوة ، فهو قول لا بأس به ، ولكن العجب أنه بعد هذا عقب على « النبوة » بلفظ التعقيب (ثم) ، فقال « ثم عاد يدعى أنه علوي » . فالذي يدعى النبوة ويبيّغ بها ، كما يقول / اللاذقي الصديق !! ، لا يُعقب على هذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة ، ثم انحطاطه منها إلى العلوية ، إكذاب لنفسه ، وإقرار منه بالمخرقة على الناس والعبث بهم ، ولا يكون ادّعى النبوة ثم ينحط منها إلا بعد قتالٍ يُرغم فيه على التسليم ، ولا شك أنه لو كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحبس لوقته قبل أن يتمكن من القيام بالدعوة إلى نفسه مرة أخرى بين بني كلب فيدعى العلوية . ثم لو أنه كان مُطلقاً ، ورجع عن النبوة إلى ادعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً في تكذيبه وتحقيره عند من سلّموا له بما ادعى من علويته بدءاً ، ونبوته بعد . فهذا وجه في إبطال هذا النص .

أما حديث أبي علي بن أبي حماد ، [رقم : ٢] ، ولم نعرف الرجل ، فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذي قدمناه ، إذ اقتصر صاحبه على ذكره النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام في شأن من يدعون النبوة .

فيقول أبو علي : إن لؤلؤاً أمير حمص : « استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » .

أما أن يستتبه ويشهد عليه أنه تائب ، فهذا لا بأس به ، وهو الحكم مع المتنبئين .

وأما أن يكتب وثيقة عليه ببطلان نبوته ، فهذا أمر لا معنى له ، لأن الوثيقة إنما تكتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى ، فتكون إقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطلان من المدعى نفسه ، كدعوى الملكية في العروض ، ودعوى العلوية « مثلاً » في النسب ، فتكون الوثيقة حجة عليه إذا عاد ليحتاج الناس فيما ادعاه ، بعد الإقرار على نفسه بالكذب في الدعوى الأولى . أما النبوة ، فالأمر فيها على غير ذلك ، فإن الرجل إذا ادعى النبوة ثم / استتبه وأشهد على نفسه بالكذب فيما ادعى ، ثم رجع بعد ذلك يدعيها مرة أخرى ، لم يكن يُنظر حتى يحتاج الناس فيما يدعى ، ويقول لهم : إنكم لم تأخذوا علي وثيقة مكتوبة مشهوداً علي في الكذب ، وإنما يكون جزاؤه القتل من غير إنظار ولا استتابة .

٨٧

فهذه الوثيقة التي ذكرها أبو علي ، إذا صح أمرها ، إنما تكون قد أخذت عليه في دعوى العلوية لا دعوى النبوة . فأنت ترى أن نص ابن أم شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وأن ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه = وترى أن نص أبي علي بن أبي حماد يرجح دعوى العلوية لا دعوى النبوة ، فإذا قرئت هذا إلى ما تمادينا في ذكره عن نسب المتنبئ ، وما أتينا به من الحجّة في ترجيح نسبه إلى العلويين ، لم تبعد عن الحكم بأن هذه الروايات إنما يراد بها « دعوى العلوية » لا « دعوى النبوة » .

أما ثالث الأحاديث ، وهو حديث أبى عبد الله الصديق !! معاذ بن إسماعيل اللاذقى ، [رقم : ٣] فعجب كله ، وبطلانه بين للمتدبر أدنى التدبر ، ولولا أن كثيراً ممن كتب عن المنتبى مرّ به ولم يعرض له لتركانك تحكم بوضعه من سياقه ومدرجه ، دون أن نأخذ أنفسنا بنقده . وأنت إذا تدبرت الحوار الذى زعمه أبو عبد الله هذا بينه وبين أبى الطيب ، لم تشك ساعةً فى أن الرجل كان يضع هذا الكلام وضعا ولا يرويه رواية . والعجب له !! قد آتهم نفسه فى مواضع من كلامه بقلة العقل وعمى البصيرة ، وسرعة التهور فى التسليم .

فهذا المسمى معاذاً كان ولا شك رجلاً مسلماً مُدركاً يملك من العقل مقداراً يكفى ، على الأقل ، فى الإنصات له إذا حدث ، وإلا بطل حديثه هذا / من غير محاولة منا فى إبطاله ... فإن كان كذلك ، أو أقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يصبر على الرجل حين ادعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتأدى فى الحوار معه ، ثم يصف كلام فتى فى السابعة عشر أنه « ما مرّ بسمعه أحسن منه » . فهذه إمّا أن تكون كلمة جاهل ، وإمّا كلمة وضاع يريد أن ينتقص من الرجل ، فهو بهيىء لانتقاصه بامتداحه وتعظيمه .

ثم كيف يُعقل أن رجلاً مسلماً كان فى عصر المنتبى ، ثم فى مدينة كاللاذقية ، ويدلّ كلامه على بعض العلم ، يُصدّق دعوى حبس المطر ويُعدها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوة بعد موت محمد ﷺ !

وأعجب من ذلك فى الوضع البين أن يدعى هذا المسمى معاذاً أنه أقرّ بنبوة المنتبى ، ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر ، وأنه أخذ البيعة لأهله أيضاً على الإيمان به ، فأى رجل مسلم غير جاهل ولا مفتون فى ذلك العصر ، يتهور فى الكفر بغير معجزة ولا بينة ؟

ومن عجيب سهو هذا اللاذقى فى الوضع أنه قال بعد ذلك تَوّاً : « يريد معجزة حبس المطر » ، « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو أنه كان قد اتقن

وضعه ، لزعم أنه بقى على بيعة المنتبى والإقرار له بالرسالة ، إلى أن رأى ، بعد زمانٍ ، أو سمع وأستيقن ، أن الذى فعله المنتبى وزعمه معجزة له ، أمر مشهور عند بعض العرب يتعاطونه إذا كَرَبَهُمُ المَطْرُ ، ثم يصف كما وصف أنه « صَدْحَةُ المَطْر ، يصرفونه بها عن أى مكان يجبون ، بعد أن يحووا بعضاً وينفثوا فى الصَّدْحَةِ التى لهم الخ » ، فكفر بنبوة المنتبى لذلك ، وتاب ورجع إلى الإسلام .

ثم من ضعف وَضَع هذا اللادق أنه زعم أنه كان قد رأى كثيراً من أهل السَّكُونِ وحَضْرَمَوْت يفعلون صَدْحَةَ المَطْر ولا يتعاضمونها ، فسأل المنتبى : هل دخلت السَّكُونِ ؟ قال : نعم ! وما دام / اللادقُ هذا كان قد عَرَفَ هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ، ولا دليل له على نبوته غيرها ، وهى مشهورة فى اليمن معروفة معمول بها ، كما يقول !!

وأعجب من هذا أنه يدعى أن دعوة المنتبى قد عمَّت كل مدينة بالشام وببيع له بها .

كيف يكون هذا ؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان أكثر أهلها لا يتخلفون عن صلاةٍ ، ولا يزال بين ظَهْرَانِيهِمْ عالمٌ يقرأ فى مجلسه ، أو واعظ يعظُ فى حَلَقَتِهِ ، أو خطيبٌ يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده مُعْجِزَةٌ بيانيَّةٌ ، ولا خارقةٌ كونية . وإن زعمنا أن اللادق قد آمن بالمنتبى لصدحة المَطْر ، أفتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة ، أو هذه الأُكْذُوبَةُ التى لا تعقل ؟ ليكن اللادق رجلاً لا عقل له ، أفيكون أهل الشام كلهم هذا الرجل ؟!

ويقول اللادق للمنتبى يخوفه مما يقول به من النبوة : « إن هذا أمرٌ عظيمٌ أخاف عليك منه » ، فيجيبه المنتبى بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وإنما هو شعرُ رجلٍ مُقاتِلٍ يريد الحرب ، لا مقالةً نبيّ يريد أن يؤمنَ الناس به . ثم إن الذى قاله فى الشعر يدل على غير ذلك ، فإنه قال :

ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَلْبِي ، وَأَنْتَى أُحَاظِرُ فِيهِ بِالْمُهَجِ الجِسَامِ

وليست النبوة مطلباً يُطَلَّبُ وَيُخَاطَرُ فيه بالنفس والنفيس ، وإنما النبوة أمرٌ من الله لمن أوحى إليه أن يَصْدَعَ بما يؤمر به ، فيكون عمله هدايةً للناس باللين أو بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد أن يناله ، بل / يكون أمراً يجب أن يطيعه ويعمل به ، وكذلك الآيات التي أنشدها :

أَيَّ مَحَلِّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي

فالقول فيها قريب من هذا .

أما البيتان الأخيران ، فهما الدليل على تلفيق الرجل ، فالبيت الأول هذا : « مُلِثُ الْقَطْرِ » ، أول قصيدة للمتنبى ، والبيت الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدهما المتنبى معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرموت ، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم إنَّ المتنبى ، بغير شك ، لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم وُلِدَ إلى يوم مَاتَ . أما الذي ذكر في الآيات فهو ، كما قدمنا لك ، أسماء خطط لأهل اليمن بالكوفة التي ولد بها أبو الطيب ، [انظر ص : ١٤١] .

وأيضاً ، فإنَّ هذه القصيدة التي منها هذان البيتان ، في مدح علي بن إبراهيم التنوخي ، وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن ، أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ ، على ما حققناه . (١) وهذا الذي ذكره اللاذقي في حديثه كان سنة ٣٢١ ، قبل أن يُقْبَضَ عليه . فهذه كلها أدلة بينة على وضع القصيدة وتلفيقها ، وأنها وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبى بزمان .

ومن أكاذيب هذه الرواية أيضاً ، دعواهم أن المتنبى كان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ، ومحالَّ العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلا لمن وُلِدَ بهذه البلاد / ونشأ بها ، والمتنبى دخل البلاد في السنة التي يروى فيها اللاذقي هذا الحديث ، وحُبِسَ في السِّنة نفسها ، فما

(١) الرأي هو هذا الأخير كما ستري بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره .

كان له أن يعرف مجاهل البادية ومواقع مياهها ومحال أهلها ، كما زعم ، في قلة من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء الوضاعين ؟

أما معجزات المنتبى التى ذكرها أبو العلاء المعرى ، [رقم : ٤] فلا نتكلم فيها لأن بطلانها بين وفسادها مكشوف ، ولقد علمت بهذه الأحاديث التى رويناها لك ، أنهم كانوا يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه براء ، فأولئى أن تكون المعجزات التى رواها أبو العلاء ضرباً من الكيد له ، وتأيداً لاتهمهم الرجل بدعوى النبوة . (١)

أما قرآنه ، الذى رواه أبو على بن أبى حامد ، [رقم : ٥] فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنما هو « ضرب من الهذيان » ، والعجب أن يبائع له اللأذق ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول : « ما مرَّ بمسْمَعى أحسن منه » ! [انظر ص : ٢٠١] ثم الأعجب أن نَعْمَ بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة الصغيرة التى رووها ، يزعم أبو على بن أبى حامد أنها بقيت فى حفظه !!

ولا ندرى لماذا أصيب المنتبى بهذا العَجَب !! ففى مسألة نسبه ، كانت نسبه إلى جُعْفَى بن سعد العشيرة ، التى كان يخفيها خوفاً ، لا يعرفها إلا التنوخى وابن أم شيبان ، وأبو الحسن العلوى = قرآنه لا يحفظه إلا أبو على بن أبى حامد واللأذق ، = على فرض أن اللأذق حفظ ما حفظه أبو على = ثم لا يحفظان معاً منه إلا قطعة بعينها ، مع أن

(١) انظر تمة القول فى الصفحة التالية ، والتعليق رقم : ١

اللادقّي قد ذكر تعدّادها مئة عبّرة وأربع عشرة عبّرة ، [انظر ص : ٢٠٢] واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقى من هذا العدد !!

٩٢ / وبعدُ ، فإنَّ أحداً لا يشك في أن الرجل (أبا الطيب) كان قد سجن لأمرٍ ما ، ولكن حرص هؤلاء الذين رَوينا أقوالهم على أن يجعلوا حبسه من أجل النبوة ، يجعلنا نرى أنهم جعلوا مسألة « النبوة » غطاءً يسترون به حقيقة ما قام من أجله أبو الطيب فقبض عليه . (١) ويبيّن على مذهبنا في نسب المنتبى أن الرجل حُبس من أجل « دعوى العلوية » التي ذكرها الرجل الطيب ابنُ أم شيبان ، وأقحم عليها « النبوة » ، ليجعل دعواه في علويته كذباً ، فإن الذي يدعى النبوة لا يتورّع عن ادّعاء العلوية . ثم إن هذا الرأى من ابن أم شيبان ، لو صحَّ عنه ، يزيدنا يقيناً بأن الرجل كان يعرف من أمر نَسب المنتبى شيئاً ، ويريد أن يخفيه ، وأن لا يُظهر عليه أحداً من الناس .

ومسألة القبض على المنتبى وحبسه ، لها عندنا سياق تاريخي آخر استنبطناه ، ولكن يحسن بك أن تهبىء في نفسك مرة أخرى ما قلنا به من نسبة المنتبى إلى العلويين ، وما أفضنا فيه من القول في عدة مواضع ، ليسهل عليك أن تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هذا ، ونحن والقارىء في هذا الموضوع سواء ، فمن تبين له وجه أو توجه له رأى ، فليكتب لنا به مشكوراً .

(١) فكأنه من المقطوع به أن كل هؤلاء الرواة لخير نبوة أبا الطيب ، شيعة علويون ، حاشا أبا العلاء المعري ، فإنه نفى عن المنتبى دعوى النبوة ، التي ذكرها ابن القارح الشيعي في رسالته ص : ٢٥ [رسالة الغفران ، بنت الشاطي ، الطبعة الثانية] . فقال أبو العلاء : « وحُدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة ، أي المرتفع من الأرض . وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه (يعنى ثورة المنتبى وحبسه) ، ثم قال أبو العلاء : « وقد دلّت أشياء في ديوانه على أنه كان متألهاً ، ومثل غيره من الناس مُتدلّهاً ، [رسالة الغفران ، طبعة ثانية ص : ٤١٠ ، ٤١١] . فأبو العلاء لم يذكر ما ذكره [انظر رقم : ٤] دلالة على نبوة أبا الطيب ، بل دلالة على قلة عقل من روى هذه الأخبار ، مع ظهور بطلانها .

 دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَّانِي الْبَلَاءُ
 وَأَوْهَنَ رِجْلِي ثِقْلُ الْحَدِيدِ
 وَقَدْ كَانَ مَشِيهُمَا فِي النَّعَالِ
 فَقَدْ صَارَ مَشِيهُمَا فِي الْقِيُودِ
 وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفِلِ
 فَهِيَ أَنَا فِي مَحْفِلِ مِنْ قُرُودِ
 فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ
 وَلَا تَعْبَانَنَّ (بِعَجْلِ الْيَهُودِ)
 وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى (أُرْدَتْ)
 وَدَعْوَى (فَعَلَتْ) بِشَأْوِ بَعِيدِ

٩٣ / قلنا إن المتنبى في أواخر سنة ٣٢٠ ، اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على إحداثِ حَدِيثٍ لعله يُصِيبُ من ورائه ما يبتغى وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً في قوم ، ليشفى به صدرَ جدته وصدرة ، ثم أنفذ عزمه في الرحلة عن الكوفة إلى بغداد ، ومن ثم اتخذ طريقه مُصْعِداً إلى ديار ربيعة بين النهرين ، إلى الموصل ونصيبين ورأس العين ، وانحدرَ بعدُ إلى الشام ، فقبض عليه هناك .

وكان مُرُورَ المتنبى برأس عين في أوائل سنة ٣٢١ على الأرجح ، وفي تلك السنة حدثَ حادثٌ كان من جرَّاءه أن قُتِلَ أبو الأغرِّ بن سَعِيدِ بن حَمْدَانَ / (ابن عم سيف الدولة) . وذلك أن بنى ثَعْلَبَةَ اجتمعوا إلى بنى أَسَدِ القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيء ، فصاروا يداً واحدة على بنى مالك ومن معهم من ثَعْلَبِ (وهم قوم بنى حَمْدَانَ) ، وقرب بعضهم من بعض للحرب . فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن

حمدان ، (أخو سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان) ، في أهله ورجاله ومعه أبو الأغر بن سعيد بن حمدان للصلح بينهم ، فتكلم أبو الأغر فطعنه رجل من حزب بنى ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقتل منهم ، ومُلكت بيوتهم ، وأخذوا حريمهم وأموالهم ، ونَجَوْا على ظهور خيلهم ، وتبعهم ناصر الدولة إلى الحديثة (بقرب الموصل) . فلما وصلوا إليها ، لقيهم يَأْسُ غلامٌ مُؤنِس ، وقد ولى الموصل وهو مُصْعِدٌ إليها ، فانضمَّ إليه بنو ثعلبة وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذى بين أيدينا فى كتب التاريخ ، ولكن بعض رُوَاة ديوان المتنبي أو شراحه يقولون : (١) إن المتنبي مرَّ برأس عين فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة ، وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بنى أسد ، وبنى ضبَّة وبنى رياح من بنى تميم ، فمدحه بقصيدته التى أولها :

ذَكَرُ الصَّبَا وَمَرَاجِعِ الْأَرَامِ جَلَبْتُ حِمَامِي قَبْلَ يَوْمِ حِمَامِي

وذكر ما كان من أمر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين فى أرض الموصل وما جاورها . فبيِّن أنَّ لقاء سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بنى أسد وبنى ضبَّة وبنى رياح ، كان على إثر قتلهم ابن عمه (أبا الأغر بن سعيد بن حمدان) = ٩٥ وأن مدح المتنبي سيف الدولة قد أحفظ / عليه بنى أسد وبنى ضبَّة حتى كان من أمرهم بعدُ معه ما كان - على ما نذهب إليه - من أنهم قتلوه بالعراق ، كما سيأتى بعد .

ويقول رُوَاة الديوان : (٢) إن أبا الطيب لم ينشد سيف الدولة هذه القصيدة ، ولا نَظَنُّ أن ذلك يكون دليلاً على أنه لم يلق سيف الدولة فى سنته تلك ، بل الأرجح عندنا أنه لقيه وحدَّته ، واتَّصل بينهما الودُّ قليلاً قليلاً ، وفى القصيدة أبيات تدلُّ على أن

(١) ، (٢) أسلفت فى ص : ١٨٧ ، والتعليق رقم : ١ ، أن مقدمات القصائد المثبتة فى مخطوطات ديوانه

العتيقة ، هى لفظ أبى الطيب نفسه .

سيف الدولة (وكان صغيراً في مثل سن المتنبي) أفضل عليه بعض الإفضال وأكرمه وأحبه . والعجب أن تكون هذه القصيدة ، وهي من أول قصائده في حياته ، (١) تدلُّ على حبِّ بليغ لسيف الدولة ، يقرب من حبه له بعدُ ، والذي تدل عليه مدائحه التي استفاضت بعد اتصاله به في سنة ٣٣٧ ، كقوله مثلاً :

وتعدُّ الأحرار صيرَ ظهَرها	إلا إليك على ظهر حرام (٢)
(أنت الغريبة) في زمانِ أهله	ولدت مكارمهم لغير تمام
أكثرت من بذل التوال ، ولم تزل	علماً على الإفضال والإنعام
صغرت كل كبيرة ، وكبرت عن	لكائه ، وعددت سن غلام
ورفقت في حلل الشاء ، وإنما	عدم الشاء نهاية الإعدام
غيب عليك ترى بسيف في الوعى ،	ما يصنع الصمصام بالصمصام ؟
إن كان مثلك كان أو هو كائن	فبرئت حينئذ من الإسلام

وهذا غلوٌ عجيبٌ وأنت إذا رجعت إلى مدائح المتنبي إلى أن اتصل / بسيف ٩٦
الدولة في سنة ٣٣٧ ، لم تجد دلالة الحب والتعظيم بادية في مثل هذه المعاني ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبي كان قد رأى من سيف الدولة في ذلك العهد مثلاً من أمثلة المروءة والفتوة التي كان يفتقدها في رجال عصره . وأنت ترى أن المتنبي في صغره ، كما بينا لك أوّل كلامنا ، كان يرى الرجولة والفتوة المثل الأعلى الذي يعلّق به طرفه ، وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب المجد وطلب الثار ، ولما في نفسه من الثورة على زمنه وأهله ، وعلى من ظلموه وأرادوا به شراً وذللاً ومهانةً .

وعجيبٌ أيضاً أن لا يمدح المتنبي واحداً من الخلفاء وأبنائهم وهم بالعراق ، ولا أحداً من كبار العراقيين من الأمراء ، ثم يعمد إلى مدح بني حمدان وحدهم ، ولم تكن

(١) كانت سن المتنبي إذ ذاك ١٨ سنة .

(٢) « ظهرها » ، يعنى ظهر ناقته .

شوكتهم بعدُ قد بلغت مبلغ غيرهم من الأمراء ، فذلك دليل على أنه لم يمدحهم للعطاء وحده ، بل مدحهم لأمرٍ آخر لا نكادُ ننتبين إلا أطرافاً منه . ولعلّ بنى حمدان كانوا يعرفون من أمر المتنبي شيئاً ، وكانوا يصلون جدته في حال نكبتها ، فلذلك ذكر المتنبي أبوى سيف الدولة في القصيدة ، وطلب لقبيرهما السقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذكرهما ، وذلك قوله :

صَلَّى الْإِلَٰهَ عَلَيْكَ غَيْرَ مُودِّعٍ وَسَقَى تَرَى أَبُوَيْكَ صَوْبَ غَمَامٍ

وفي مدحه لبني حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجح ذلك :

قَوْمٌ تَفَرَّسَتِ الْمَنَايَا فِيكُمْ فَرَأَتْ لَكُمْ فِي الْحَرْبِ صَبْرَ كِرَامٍ
تَاللَّهِ مَا عَلِمَ أَمْرُؤُ لَوْلَاكُمْ كَيْفَ السَّخَاءُ ، وَكَيْفَ ضَرْبُ الْهَامِ

/وعندنا أن هذه القصيدة قد أثبتت في صدر سيف الدولة محبة هذا الفتى العربي /
الطموح الثائر الذي لا يستقر ، وكان توافقهما في السن والفتوة قد جمع بين قلبيهما . (١) ولولا ما كان في صدر المتنبي من الأمانى التي لا تهدأ ولا تقتر ، لبقى معه ، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك ، ومن أهبته إلى حرب بنى أسد وبني ضبة ، لعزم على صاحبه في الرفقة في الجبل والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان ...

وخرج المتنبي من أرض بنى حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصة ، إلى عزمته بالشام . وبدأت الحوادث تأخذه أخذاً حتى رمث به في سجنه ، ولم يكن المتنبي لذلك العهد مغموراً مجهولاً ، كما يذهب إليه أكثر الكتاب ، بل كانت قصائده قبل مدخله إلى الشام قد أثبتت عليه عيون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هضموه

(١) ولد المتنبي سنة ٣٠٣ ، وولد سيف الدولة في تلك السنة .

وظلموه ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً ، وكانت دَعْوَةُ الفاطمية قد تَفَدَّتْ في بلدان العربية في تكتمها واستتارها ، مع قوتها وحصافة القائمين بالدعوة إليها ، وما كان لهم من المذاهب في التدخُّل في شؤون السياسة تدخُّلاً حكيماً خفياً مكتوماً يترفقون له ليصلوا إلى ضربِ الخلافة العباسية والقضاءِ عليها ، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية .

وكان الذي أمسك العيونَ على المتنبي ، فيما نذهب إليه ، أنه قبل أن يلقى سيف الدولة في المرة الأولى سنة ٣٢١ ، وكان في طريقه بأرض العراق ، / قال من الشعر ما وقع ٩٨ إلى هؤلاء ، فلقتهم إليه . فمن ذلك ما رُوِيَ من أن أبا سعيد المُجَيمِرِي عَدَلَهُ على تركه لِقَاءَ الملوك وامتداحهم ، فقال له :

أَبَا سَعِيدٍ جَنَّبِ الْعِتَابَا قَرَبَ رَأْيِي أَخْطَأَ الصَّوَابَا
فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحُجَابَا وَأَسْتَوْفَّقُوا لِرُدَّنَا الْبَوَابَا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ الْقِرْضَابَا وَالذَّابِلَاتِ السُّمَّرَ وَالْعِرَابَا
تَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الْحِجَابَا

فمثل هذا القول لا يذهبُ باطلاً عند أصحاب الأمر في الدولة ، ومن يضعون عيونهم على سياسة العصر ودسائسه ، وقد كان عصراً مملوءاً بكل عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرية التي لا يخطئها مُطَّلِع على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسي . وَيَبِينُ من شعر المتنبي الذي وقع في تَرْبِينَا لديوانه في هذه الفترة ، أنه حين دخل العراق لَقِيَ بعضَ الكيد على أثر ما عُرف عنه من الثورة القائمة في صدره ، ودليل ذلك قوله :

رَمَانِي نِحْسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ آسَتِهِ وَآخِرُ قَطْنٍ مِنْ يَدَيْهِ الْجَنَادِلُ
وَمِنْ جَاهِلٍ لِي ، وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ ، وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلُ
وَيَجْهَلُ أَنِّي ، مَالِكُ الْأَرْضِ ، مُعْسِرُ وَأَتِي ، عَلَيَّ ظَهْرُ السُّمَّاكِينِ ، رَاجِلُ

ولم يكتف صاحبنا بذلك ، بل خرج إلى ذكر نفسه وصفتها ، وعرض بما يُضمَر من الخروج ابتغاءً لما يُؤمَل من النَّارِ أَوَّلًا ، وما سَمَّاهُ « المجد والعلی » ثانياً ، فقال :

تُحَقِّرُ عِنْدِي هَمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى الْمُتَطَاوِلُ
/ وَمَا زِلْتُ طَوْدًا لَا تَزُولُ مَنَاكِبِي إِلَى أَنْ بَدَتَ (لِلضَّيِّمِ) فِي زَلْزِلِ
.....
يُحَيِّلُ لِي أَنَّ الْبِلَادَ مَسَامِعِي وَأَنْتَى فِيهَا مَا تُقُولُ الْعَوَاذِلُ
وَمَنْ يَبْغِي مَا أَبْغَى مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَى تَسَاوِ الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلُ
(أَلَا لَيْسَتْ الْحَاجَاتُ إِلَّا نُفُوسَكُمْ وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا السُّيُوفُ وَسَائِلُ)
(غَثَاثَةُ عَيْشِي أَنْ تَعَثَّ كَرَامَتِي وَلَيْسَ بَعَثٌ أَنْ تَعَثَّ الْمَاكُلُ)

ولا يلفتتكَ ما نحن فيه عن أن تعود إلى ما ذهبنا إليه في أمر نسبه ونكبه الأولى وهو صغير ، لتعلم سر القول في قوله : « إلى أن بدت للضيم في زلزل » ، فهو يردك إلى ذكر المشكلة القائمة في نفسه ، والتي وصفناها لك على ما وقفنا إليه ، إذ أنه بهذا الشطر قد ضمن لك معنى ما نريد من أنه كان مغلوباً على أمره ، محكوماً عليه بأمر كُله ظلم وضيم . فلما بلغ مبلغاً ، زلله هذا الضيم وقد حاول من صدره مخرجاً ، على أنه كان - كما وصف نفسه - رابط الجأش ، ثابت النفس ، ثبوت الجبل على ما يعمل تحته من العوامل البركانية التي تبتغي مخرجاً بانفجار .

دع ذا - ونعود إلى شعره في الفترة التي نحن فيها من تاريخه ، فكان مما قاله في العراق أيضاً قصيدته التي أولها : « ضيف ألم برأسي غير محتشم » ، وننقل إليك طرفاً منها لتدبره على ما رسمنا ، يقول :

لَيْسَ التَّعْلُّ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرْبَى وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِي
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرُقَهَا هِمَمِي

.....

..... / ١٠٠

سَيَصْحَبُ النَّصْلَ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
 لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتَ مُصْطَبِرٍ ،
 لِأَتُرَكَّنَ وَجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً ،
 بِكُلِّ مُنْصَلِبٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي
 تُنْسِي الْبِلَادَ بُرُوقَ الْجَوِّ بَارِقَتِي ،
 رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَأَتْرِكِي
 (إِنْ لَمْ أَذْرِكْ عَلَى الْأَرْمَاجِ سَائِلَةً
) أَيْمَلِكُ الْمَلِكِ - وَالْأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ
 مَنْ لَوْ رَأَيْتَ مَاءَ مَاتَ مِنْ ظَمًا
 مِيْعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشُّفْرَتَيْنِ غَدًا
 فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ ،
 وَيَتَجَلَّى خَبْرِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ (١)
 (فَالآنَ أَقْحَمُ حَتَّى لَاتَ مُقْتَحِمِ)
 وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
 (حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ) (١)
 وَتَكْتَفِي بِالْدَمِ الْجَارِي عَنِ الدَّيْمِ
 حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
 فَلَا دُعَيْتُ أَبْنَ أُمَّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ
 وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ - لَحْمٌ عَلَى وَضْمِ (٢)
 وَلَوْ عَرَضْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنِمِ
 (وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ)
 وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ

فهذا الذي أثبتنا لك من شعره في القصيدتين ، وما صرَّح به فيهما عن آماله وآرابه ، وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والتُّرك من خدَم الخلفاء ، (٣) وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، ثم يُعَدُّ في نظر شعبه ملكاً مملوكاً تعطى له المقادة ، وتُصرف إليه الطاعة بالإذعان والتسليم = وما يتجلى في كلماته من إرادة التغلب والثورة على الدولة عَرَبِهَا وَعَجَمِهَا = كُلُّ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ ، جَلَبَ عَلَى صَاحِبِنَا ، عَلِيٍّ / صِغْرِهِ ، اهْتِمَامَ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالِدُّعَاةِ مِنْ ١٠١

(١) انظر التعليق الآتي رقم : ٣

(٢) (لحم على وضم) جملة يكتفى بها عن الضعيف الذي لا ناصر له ، كالمرأة التي لا حامى لها ، وهذه الكناية فاعل قوله (أيملك الملك) ، والبيت الثاني بدل من قوله : « لحم على وضم » .
 (٣) انظر هذا السفر (ص : ٧٢ ، تعليق : ١) ، ... بُجِّكُمُ التُّرْكِيَّ وَمَا فَعَلَهُ .. وَمَا قَالَهُ .

العرب والعجم والترك والدَّيلم ، واهتمام أصحاب الدعوة العلوية والدعوة الفاطمية ، على التخصيص .

فلما كان اتصّاله بينى حمدان فى سنة ٣٢١ ومدّحه لهم ، دون غيرهم من الولاية والأمرء أمثالهم والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاع بهم لما عرفوا به من الصّراحة فى الحكم ، والدهاء فى السياسة ، والعصبية للعربية الصريحة ، وبُغْضهم لحكام الأعاجم الذين كانوا هم أصحاب الأمر والنهى فى الدولة كلها = ازداد اهتمام هؤلاء بالفتى العربى (المنتبى) ، وردوا أنظارهم إليه ، وأدركوا أن هذا الثائر الشاعر البليغ سيكون له شأن أى شأن ، لو ترك غير مراقب ولا مأخوذ عليه السبيل التى يبغي ، والأمر الذى يهدّد به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لا يستفحل أمره ، ويتسع عليهم الخرق من قبله ، فلا يملك له الراقع مرّقة .

ورحل صاحبنا من (رأس عَيْن) حيث مدح سيف الدولة ، متخذاً طريقه إلى الشام ماراً بحرّان ثم منبج ، ثم أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلبك ، وتردد بين هذه المدن حتى قبض عليه . وكانت هذه البلاد نفسها منازل من منازل الدعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسة ودهاء فى دعوتهم إلى قلب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الأعاجم فى الشرق ، والموالى الذين بلغوا غاية السلطان فى خدمة الخلافة العباسية ، يداً مع العلويين على الدولة العباسية . وكانت هذه البلاد أيضاً مجالاً للدعاة الفاطميين أصحاب الجيوش والسلطان بالمغرب ، وكان هؤلاء الدعاة يسعون ١٠٢
جهد السعى لضمّ العلويين إليهم ، واستمالة الولاية على اختلافهم / إلى مناصرتهم ، ليتّم لهم دخول الشام دون معارضة بعد فتح مصر - وكانوا يُعدّون له العدة - ثم يقفوا وجهاً لوجه حيال الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تمّ لهم أمر عظيم فى ما وراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على أنقاضها الدولة العلوية الفاطمية .

وكأنى بالمنتبى فى طريقه يُظهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ، ويذيع بينهم أنه علوى الأصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً فى اتخاذ العُضد قبل أن يعلن أمره

إعلاناً صريحاً ، لثلاً يواقع العلويون وينزلوا به كيدهم الذي يكيّدون له . دار دَوْرته في البلاد التي ذكرناها وأمره إلى عُلوِّ ، لما عُرف من فصاحته وبلاغته ، وحُسن سمته ، وجَمال هديه ، وتوقّد ذكائه ، وما يمتاز به من حُسن المعاشرة ولطيف المنادمة ، مع سعة العلم ، ودقة الفهم له . وكان في القبائل البادية أظهرَ أمراً ، وأشدَّ عضُدًا ، حتى كان آخر أمره بيني عدّيّ وبنى كلب ، ففشنا ذكره بينهم ، وبايعوه على العون له ، في الدعوة إلى ردّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم . وكان ظهوره في بنى عدّيّ هو الذي جلب عليه السَّجن والشقاء .

ذلك أن بنى عدّيّ هم قوم بنى حمدان ، ^(١) فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف الدولة ، ومدحه بنى حمدان عامة = سبياً في تَيْقُظ وُلَاة (مُحَمَّد بن طُغج الإخشيد) ، وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر أمره بمصر بعد . وكانت بين بنى حمدان والإخشيديين الأتراك المتعصين للدولة العباسية / عداوةٌ جلبتها المنافسة ، وكان سيف ١٠٣ الدولة مخصوصاً بهذه العداوة وحده دون بنى حمدان ، لِمَا ظهر من قوّته ، على صِغر سنه ، وجهه في توسيع سلطان بنى حمدان حتى يَضُمَّ الشَّام وما يتبعها إلى ولايته وولاية إخوته . فلا بدّ إذن للإخشيديين من مراقبة هذا الذي مَدَحَ بنى حمدان ، وأحدث حَدَثًا في القبائل التي كانت لهم مواليةً ، حَشِيَّةٌ أن يكون مُوفِداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الإخشيديين في الاستيلاء على الشام ومصر .

وأيضاً ، فإن دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشَّام نظروا إلى ذلك ، وخافوا أن يكون موفِداً من قبل سيف الدولة وبنى حمدان ، وكان بنو حمدان قد استعصوا على الدعوة الفاطمية ، مع أنهم كانوا من شيعة العلويين . وامتناعُ بنى حمدان على الدعوة الفاطمية ، كان هو السبب في مناصرتهم للخليفة العباسي وتحققهم بخدمته ، لما يعرفون من أن دعوة

(١) هم بنو عدّي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وينتهي إلى « عدّي »

هذا ، نسب بنى حمدان .

الفاطميين كانت قد ضُمَّت إليها أكثر وُلاة الأعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ما وراء الفرات وفي العراق نفسه . كان هذا هو السبب أيضاً في العداوة المتّقدة بين بنى بويه وبنى حمدان فيما بعد ، وبينهم وبين سيف الدولة خاصة ، فإن بنى بويه كانوا علويين فاطميين ، أو نظروا إلى دعوة الفاطميين نظرة الرضا .

فاجتمعت على المنتبى عيونُ الفاطميين ، وعيونُ العلويين ، (١) وعيونُ الدولة القائمة في الشام . فلما ظهر في بنى عديّ أرسلوا في القبض عليه ، فطارذوه من بلد إلى بلد ، وكان يستخفى منهم ، حتى وقع أخيراً في يد (ابن علي الهاشمي العلوي) ، في قرية يُقال لها كوتكين ، (٢) فقبض عليه وأمر النجار بأن / يجعل في رجليه وعُنقه قُرمتين من حَشَب الصَّفصاف ، فقال له المنتبى بيتين قد ذكرناهما آنفاً ، (٣) وبقي المنتبى في السجن من أواخر سنة ٣٢١ أو أوائل سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٣ ، ثم أُطلق .

١٠٤

وكان المنتبى في أوّل أمره مستخفّاً بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره إلى سيف الدولة ، فإن بنى عديّ قوم سيف الدولة - كما يتوهم - لن يتركوه في أيدي هؤلاء ، إلا أن يحملوا خبره إلى بنى حمدان ، فَيخفّ بنو حمدان إليه ، لِنِيَّتِهِمْ في دخول الشام ، ولكن نية بنى حمدان تأخّرت طويلاً ، فإن سيف الدولة لم يهدد أطراف الشام بعساكره إلا بعد ذلك بزمان طويل .

وممّا يدلُّ على استخفافه بالسجن في أوّل أمره ، ما رَوَوْا من أن أبا دُلف بن

(١) في ص : ١٥٥ ، التعليق : ١ ، ما يوشك أن يجعلني أرى أن لأبي الطيب العلوي العباسي يداً في حبس

المنتبى ، وكان أبو الطيب العلوي متهماً بالميل إلى القرامطة ، كما بينت ذلك آنفاً .

(٢) لعلها كانت قرية من (سلمية) وهي قرية من أعمال حمص .

(٣) ص : ١٥٧ ، ٢٠٤ ، قوله : « زعم المقيم بكوتكين بأنه » إلى آخر البيتين .

كُنْدَاج ، سَجَّانَ الْمُتَنَبِّي ، أَهْدَى إِلَيْهِ هَدِيَّةً وَهُوَ مَعْتَقِلٌ بِحِمَص ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ ثَلَبَهُ عِنْدَ الْوَالِي الَّذِي اعْتَقَلَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَهْوَنُ بِطُولِ الثَّوَاءِ وَالتَّلْفِ وَالسَّجْنِ وَالْقَيْدِ يَا أَبَا ذُلْفِ
 (غَيْرَ آخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بَرِّكَ بِي) ، وَالْجُوعُ يُرْضَى الْأَسْوَدَ بِالْجِيفِ ،
 كُنْ أَيُّهَا السَّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ ، فَقَدْ وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفٍ (١)
 لَوْ كَانَ سَكُنَائِي فِيكَ مَنْقَصَةً لَمْ يَكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدْفِ

/ وفي هذه الأبيات تقف كبرياءه كما هي ، لم يأخذ منها عذاب السجن وشقاؤه ١٠٥
 شيئاً ، حتى إنه ليقول للذي يبره في سجنه : « غَيْرَ آخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بَرِّكَ » ، ولولا ما أنا فيه
 من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينتزع المثل على عادته :
 « وَالْجُوعُ يُرْضَى الْأَسْوَدَ بِالْجِيفِ » ، وهي سخرية جديدة مؤلمة .

فلما طَالَ عَلَيْهِ الْأَمْدُ فِي السَّجْنِ ، لَجَأَ إِلَى الْحِيلَةِ فِي الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَكَتَبَ إِلَى ابْنِ
 طَعْفِجَ يَسْتَعِظِفُهُ ، وَيَفْتِنْدُ مَا رُمِيَ بِهِ مِنْ إِرَادَةِ الْخُرُوجِ عَلَى السُّلْطَانِ ، فَكَانَ مِمَّا كَتَبَ :

بِيَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبُ
 أَوْ لِأَمِّ لَهَا ، إِذَا ذَكَرْتَنِي ، دُمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ (٢)
 (إِنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتَكَ أَخْطَأُ ت ، فَإِنِّي عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
 عَائِبٌ عَائِبِي لَدَيْكَ ، وَمِنْهُ خُلِقْتُ فِي ذَوِي الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ)

إِلَّا أَنْ سَعَى الْفَاطِمِيينَ وَالْعُلُوِيينَ فِي إِبْقَائِهِ فِي السَّجْنِ ، وَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ خَوْفٍ
 وَالِي الشَّامِ مِنَ الْحَدَثِ الَّذِي أَحْدَثَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَبْلِ بَنِي حَمْدَانَ = لَمْ يُصْنَعْ إِلَيْهِ سَمْعَ
 الْأَمِيرِ ، فَبَقِيَ فِي سَجْنِهِ إِلَى سَنَةِ ٣٢٣ .

(١) « معترف » ، صابر لا يجزع .

(٢) لم يكتب هذه الأبيات ، إلا بعد رسالة وصلته من جدته ، انظر ص : ٢٣٠ ، فيما يلي .

وقد رُوِيَتْ له القصيدة التي كانت السبب في إطلاقه ، وفيها إشارة إلى كل هذا الذي ذكرنا لك . ويحسُنُ هنا أن نُلِمَّ ببعضها ، لتبيّن ما أرخنا لك من التاريخ .

/ يقول المتنبي يصف الأمير :

وَلَوْ لَمْ أَحْفَ غَيْرَ أَعْدَائِهِ عَلَيْهِ لَبَشَّرْتُهُ بِالْخُلُودِ
رَمَى (حَلْبًا) بِنَوَاصِي الْخَيُْولِ ، وَسُمِرَ يُرْقَنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ
وَبِيضِ مُسَافِرَةٍ مَا يُقْمَنُ لَا فِي الرُّقَابِ وَلَا فِي الْعُمُودِ
يُقَدِّنُ الْفَنَاءَ غَدَاةَ اللَّقَاءِ إِلَى كُلِّ جَيْشٍ كَثِيرِ الْعَدِيدِ
فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ (الْخَرَشْنِيَّ) ، كَشَاءٍ أَحْسَنَ بَزَارِ الْأَسُودِ
فَمَنْ كَالْأَمِيرِ آبِنِ بِنْتِ الْأَمِيرِ أَوْ مَنْ كَأَبَائِهِ فِي الْجُدُودِ

والذي تنبهنا له هنا أنه ذكر في هذه القصيدة (حلباً) ، و (الخرشني) ، (١) وقد عيّننا بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها أن نعيّن السنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله إلى تفسير ذلك بالاستنباط .

ففي جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ ، سار الدّمستق « قرقاش » في خمسين ألفاً من الروم فنازل مَلَطِيَّةَ ، (٢) وحصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ، ثم فتحها وهدم سُورَهَا وَقُصُورَهَا ، وَضَرَبَ خَيْمَتَيْنِ عَلَى إِحْدَاهُمَا صَلِيبٌ ، وَقَالَ : « مَنْ أَرَادَ النَّصْرَانِيَّةَ انْحَازَ إِلَى خَيْمَةِ الصَّلِيبِ لِنُرْدَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَمَنْ أَرَادَ الْإِسْلَامَ انْحَازَ إِلَى الْخَيْمَةِ الْأُخْرَى وَلَهُ الْأَمَانُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَنُبَلِّغُهُ مَأْمَنَهُ » ! فَانْحَازَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْخَيْمَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الصَّلِيبُ طَمَعًا فِي أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَسِيرَ مَعَ الْبَاقِينَ بِطَرِيقٍ يُبَلِّغُهُمْ مَأْمَنَهُمْ ، وَفَتَحَهَا

(١) انظر قضية « الخرشني » في ص : ٨٨ - ٩٠ ، وما فعله الدكتور عزام رحمه الله ، وما أدخل فعله هذا

على معنى القصيدة بذلك من الفساد .

(٢) بلدة مذكورة مشهورة في ديار ربيعة على حدود بلاد الروم في ذلك العهد .

بالأمان . ثم ملكوا « سُمَيْسَاط » وخرَّبوا الأعمال ، وأكثروا القتلَ وفعلوا الأفاعيلَ الشَّنيعة ،
 (وصار / أكثر البلاد في أيديهم) ، وسكتَ المؤرِّخون ١٠٧

وظاهرٌ أن والى الشام ، وهو إذ ذاك مُحمَّد بن طُغج الإخشيد ، لم يكن ليصبرَ
 على ذلك ، فلما امتدَّ الدمستق بجيوشه وقصد حلب ، خرج إليه هو ، أو بعض مَنْ
 أنفذه لقتاله ، فردَّه عن التوغُّل ، وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . (١) وقد جعلنا هذه
 الحادثة تاريخَ القصيدة ، لأنها توافق ما أثبتنا من تاريخ المتنبى ، ثم لما ذكَّر من أمر حَلب ،
 ثم لِذِكْرِ هذا « الخرشنى » = و « الخرشنى » ، هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الروم
 إلى جبل ببلادهم يقال له (خَرشنة) (٢) = وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه أبو
 الطيب إلى محمد بن طغج الإخشيد التركي ، في أواخر سنة ٣٢٢ أو أوائل ٣٢٣ سنة .

وأما قول المتنبى في هذه القصيدة يخاطب ابن طُغج :

- | | |
|---|--|
| ١ - وَقِيلَ : عَدَوْتُ عَلَى الْعَالَمِينَ | بَيْنَ وَلَا دِي وَيِّنَ الْقُعُودِ |
| ٢ - فَمَا لَكَ تَقَبُّلُ زُورِ الْكَلَامِ | وَقَدْرُ الشَّهَادَةِ قَدْرُ الشُّهُودِ |
| ٣ - فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ ، | وَلَا تَعْبَانَنَّ (بِعَجْلِ الْيَهُودِ) |
| ٤ - وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى (أَرَدْتَ) | وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوِ بَعِيدِ |

فقد ذكر في البيت الأول أنه وهو رضيع لم تتمَّ له القوَّة على الاستمساك في
 قعدته ، كان قد أتهم بالخروج على السلطان !! وهذا لم يحدث ولا شك ، وإنما هو
 إشارة لما كتبنا عنه في نسبه من النكبة التي حلَّت به وبجدته من نفى النسب العلويِّ
 الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجدته ، خوف أن يبدُر منها ما لا يحبون ، فجعل
 صاحبنا تلك المراقبة لنفسه ، إذ لم يفعلوا بها ذلك / إلا من أجل نسبه هو إلى
 العلويين . ١٠٨

(١) انظر ص : ١٥٥ ، والتعليق رقم : ١

(٢) انظر ما سلف : ٨٨ ، ٩١ ، وما بعدها .

والبيت الثاني استشارة لابن طعج ، إذ كان من أعداء العلويين في غير علانية ، وكان من أنصار العباسية ، فهو يقول له : مالي أراك تقبل في قول أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن تزن أقوالهم بما تزهم به (فقدّر الشهادة قدر الشهود) ، فلا تسمع هؤلاء الذين يضمرون العداوة (الكاشحين) .

ثم جاء البيت الثالث فوصل كلامه عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال : (ولا تعبان بعجل اليهود) ، ^(١) و « عجل اليهود » ، كناية عن أحد دعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أن العباسيين ، وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أنفسهم (كبنى حمدان) ، كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ويزعمون أن جدّهم كان يهودياً ، وأسلم ليدخل على الإسلام فاسد العقائد نكايّة . وآسدّهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوة سرّية لها أصول خاصة ، ودرجات مرّبة ، من درجة التلمذة إلى درجة داعي الدعاة ، ولكل درجة من الدرجات تعليم خاص ، ومرّبة معروفة مقيدة . فقول المتنبي : « عجل اليهود » إشارة إلى ذلك .

ولا أنسى هنا أن أعود بالقارئ إلى بيت من أبيات مَضّت في ذكر التنوخي [ص :

١٤٩] ، وهو قول المتنبي يذكر التنوحيين :

أليس عجباً أن بين بني أبٍ لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ تَدْبُ الْعَقَابُ

وقد تبين لنا بعد البحث في تواريخ العلويين أن بعض الدعاة الفاطميين كان قد

دخل اللاذقية (وهي من منازل تنوخ) ، وأدخل قسماً من التنوحيين / في الدعوة الفاطمية ، وبذلك افترق التنوحيون فرقتين : فرقة العلويين أو الشيعة ، وفرقة الفاطميين ، وهذه الأخيرة هي التي خرج منها الدروز وهم تنوحيون . وفريق الدروز يتهمون من قديم عبادة (العجل) ، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين ، والله أعلم بحقيقة أمرهم . ولعل

(١) قد حار الشراح في تفسير قوله « عجل اليهود » ، وقلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه

عندنا ، وهو الصواب إن شاء الله .

هذا هو السرُّ في قول أبي الطيب « عجل اليهود » ، يشير إلى الفاطميين ، وفي قوله : « نجل يهودى » ، يريد داعى الفاطميين الذى قَسَمَ التَّوْخِيحِينَ ، وضرب بعضهم ببعض .

وأما قوله في البيت الرابع :

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى (أَرَدْتَ) وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوٍ بَعِيدٍ

فهو عندنا من الأدلة في أن الأمر الذى قبض على المتنبى من أجله لم يكن « النبوة » ، وإنما هو الخروجُ على السلطان ، وأنت إذا قَلَبْتَ الدعويين : « دعوى (أَرَدْتَ) ، ودعوى (فَعَلْتَ) » على معنى « النبوة » ، لم يتمَّ لك تَسَاوُكُ المعانى على ذلك ، وتَمَّ لك في معنى الخروج على السلطان هذا التَسَاوُكُ ، إذ أن إرادة الخروج شَيْءٌ ، وَالْفِعْلُ الذى يُسَمَّى به الرجل (خارجاً) شَيْءٌ آخر ..

والظاهر عندنا أن السبب في إطلاق المتنبى من السجن لم يكن هذه القصيدة وحدها ، بل السببُ البليغ في هذا الرضى عنه ، فيما نرجح ، أن بعض التوخيخين العلويين (غير الفاطميين) ، كانوا قد سَعَوْا عند ابن طغج لإطلاق المتنبى ، وذلك لصلتهم ببني حمدان ، واتفاقهم معهم في المذهب (العلوية) ، وأظهروا لابن طغج موالاتهم ، فرضى منهم بهذا وأكرمهم بإطلاقه ، (١) / ولكن العلويين الكوفيين سَعَوْا من ناحية أخرى لدى الوالى أن لا يُطْلَقَهُ ، فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقة تُثَبِّتُ بطلان دَعْوَاهُ في النسبة إلى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة .

وَالَّذِي حملنا على أن نظن ذلك من أمر التوخيخين ، أن المتنبى بعد خروجه من السجن مَدَحَ التوخيخين ، وأخلص لهم ، ونزل عندهم ، ثم رجع إلى الكوفة وبقى بها مدة ، فلما عاد في سنة ٣٢٦ ، رجع إليهم وبقى عندهم ومدحهم أيضاً ، وأجاد في مدحه لهم

(١) ولا بأس أيضاً أن نذكر أن (بنى عدى) ، وهم قوم سيف الدولة ، النازلين بأرض الشام ، كان لهم شأن في ذلك ، وأرضاهم ابن طغج لما يخشى من انتقاضهم عليه إذا لم يبذل لهم الرضى في رجل قبض عليه عامله في أرضهم ، وكان في جوارهم .

إجادةً بينةً ظاهرة . وقد كان هذا الفتى وُفياً الوفاً كما وصف نفسه ، وكان يأسره الإحسان ويغلبه على أمره كثيراً ، وقد ظهر هذا الخلق في روعة المثل الذي ضربه يوماً ما فيما بعد ، وهو قوله : « وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا » .

وقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بحادث حبس المتنبي وما كان منه فيه ، وزعموا أنه كان متكبراً أحقّ الرأي ضعيف الإرادة ، فدعته كبرياؤه أول أول إلى الاستخفاف بالسجن ، ثم رجع فذل وانقاد واستخذى في قصيدته الأخيرة . وليس هذا لنا برأى ، فإن الأبيات البائية التي ذكرناها لا تدل على ضعف ، (١) وإنما كان المتنبي ، كما روينا لك ، مرهف الحس ، شاعر النفس ، فلما بلغ جدته خبر حبسه كتبت إليه ، وذكرته بما فعل وهو بدار غربة ، وعدلته على ما كان منه وشكت إليه ألمها ، وكشفت له عن ذى قلبها ، فرق وبكى ، وكتب الأبيات الأربعة على إثر ذلك ، وطبع عليها قلبه وحنانه ورقته ، لا ضعفه واستخذائه . ويكفى في الدلالة على بطلان رأيهم ، أنه جعل البيت الرابع مهاجمةً لجميع من ادعى عليه وأراد حبسه ، وهجاءً بليغاً لهم ، / وليس هذا من الحكمة ، إن كان الرجل ممن يستخذى ويضعف ، وذلك حيث يقول : (انظر ما سلف ص : ٢٢٥) .

١١١

عَائِبٌ عَائِنِي لَدَيْكَ ، وَمِنْهُ نُحِلِّقْتُ فِي ذَوِي الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ

ثم لما كتب قصيدته الأخرى الدالية ، ذكر أبياتاً يزعمون أنها تدل على مذهبهم في ثلب الرجل ، وهي قوله :

(١) انظر ما سلف ص : ٢٢٥

أَمَالِكَ رِقَى وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتُ اللَّجَيْنِ وَعِتْقُ الْعَبِيدِ
دَعْوَتِكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ ، وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعْوَتِكَ لَمَا بَرَأَنِ الْبَلَاءِ ، وَأَوْهَنَ رِجْلِي ثِقْلُ الْحَدِيدِ
وَقَدْ كَانَ مَشِيهُمَا فِي النَّعَالِ ، فَقَدْ صَارَ مَشِيهُمَا فِي الْقُبُودِ

ونحن لا نرى في هذه الأبيات شيئاً يُزري به ، لأنه إنما أراد ، كما قلنا ، أن يترفق لغرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، إذ وجد أن لا جدوى عليه من الصبر على السجن الذي يُضيق الأمل في تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذي يذلل لا يقسو في الصفات هذه القسوة التي أبرزها المتنبي في أبياته بعد ، إذ وصف من كانوا معه في السجن متهمكماً ساخراً على عادته ، فقال :

وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفِلٍ فَهَذَا أَنَا فِي مَحْفِلٍ مِنْ قُرُودِ

ثم يخاطب ابن طغج مخاطبة النَّد ، فيسأله على وجه التقرُّع واللوم ، فيقول : « فَمَا لَكَ تَقْبِلُ زُورَ الْكَلَامِ ؟ » ، ثم ينهاه ناصحاً ومحدراً فيقول : « فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ » ، ثم يأمره على وجه التعليم والتنبيه بقوله : « وَكُنْ / فَارِقاً » ، فهذا مذهب ١١٢ تعليمي في الأمر ، ينطوي على تبصير الأمير ، الذي يزعمون أن المتنبي يذلل له ، بوجه الصواب من الرأي في التفريق بين الدعويين ، وتذكير له بأنه أخطأ خطأ كبيراً بتركه التحقق من أصل الدعوى التي أقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً ، ولو كان الأمير فعل ذلك ، لبطل عنده ما يدعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للأمير . ولا نظن ابن طغج كان يخطيء إدراك هذا البيان البين في شعر المتنبي ، ومع ذلك فقد أعفاه من هفوة اللسان ، وأطلقه إكراماً للتوخين فيما ذهبنا إليه ، وما كان من مدحه له في القصيدة مدحاً لم يظفر بمثله من شاعرٍ مثل المتنبي الشاعر البليغ العربي الشريف .

فهذا كما ترى سياق تاريخي لا بأس به ، إن رأيت ذلك ، في أمر القبض على أبي الطيب ولا ذكر فيه للنبوة ، ولا يمكن أن يكون قبض عليه لهذا الهراء الذي يزعمون . وستعلم بعد أن الخالغ حدثنا عن أبي الحسين الناشئ الشاعر أنه قال : « كُنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ ، وأنا أُملى شعري في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ولم يُلقب بالمتنبى » . فهذا دليل على أن القبض عليه في سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لتعالمه الناس بالكوفة التي نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشئ ، وكلام الناشئ يدل على أن ذلك لقب نُز به الرجل ، ولم يكن بسبب هذه النكبة التي أصيب بها في سنة ٣٢١ ، أو الحدّث الذي أحدثه في تلك السنة [انظر القول في تلقيه بالمتنبى في التراجم المنشورة في آخر الكتاب وما سياتي ص : ٢٣٣ تعليق : ١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ثم ص : ٢٧٠] .

وهناك سياق آخر للتدليل على بطلان هذا الافتراء الذي رُمى به الرجل ، نستنبطه من الأسلوب الشعريّ أولاً ، ومن الحالات النفسية القائمة في شعره / ثانياً ، ومن الأصول التاريخية في أمر المتنبى في ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نُضمّر ذلك ولا نطيل به ، حتى نظهره في كتابنا ، إن شاء الله ، عن المتنبى ، بالله التوفيق . (١)

أمّا هذا النبز الذي نُبز به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم : « المتنبى » ، فليس مرجعه إلى هذا الخروج الذي كان منه في بني عديّ ، فقبض عليه ، وألقى في السجن من جرائه ، بل له عندنا مساق آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار .

(١) اعلم أننا تركنا أيضاً في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قال من شعر في مدح رجال لقبهم في طريقه بالبلاد التي نزلها ، إذ ليس يضر هنا إغفال ذلك حتى حين ، ولو فعلنا لم يكن هذا العدد من المقتطف يتسع لما نريد وما نؤمل من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذي نرتضيه ونقر عيناً به .

كان أبو الطيب من أول أمره متورعاً في تحلقه ، لا يخرج من حدود الوقار ، مترمماً لا يلين للشهوات ولا يلقي إليها مقاده ، مترفعاً عن سفاسف الأخلاق ، متمسكاً بمعالها ، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر ، وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، « فما كذب ولا زنى ولا لاط » ، ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه أو يُزنُّ به ، واستمرَّ على ذلك حياته كلها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره ، فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطرابه فيما نرى لما حضر مجلسها ، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ، محققاً لدقائقه ، طويل النظر والتدبر فيما يمرُّ به من أحداث الزمان ، كثير الاهتمام بأمر الأمة التي هو منها ، لا يفوته معمرٌ ينتقده أو خُلُقٌ يستسقطه . وكان أهل العصر / على خلاف له في ١١٤ ذلك ، وخاصة من انتسب إلى الأدب ، واعتزى إلى الشعر . فكان الأدباء والشعراء أهل شرابٍ ومعاقرٍ وهو وهزل وباطل ، لا يفرغون إلى الجد إلا بمقدار ، ولا يتورعون عن ذنبة إلا مُكرهين على الورع . فلا عجب إذا عدَّه أهل صناعته من الأدباء والشعراء غريباً بينهم .

وكان المتنبى في أول شعره يُكثر من ذكر « الأنبياء » ، ويردّد أسماءهم في شعره ، ويشبّه نفسه بهم ، ويقيس أخلاق ممدوحيه إلى أخلاقهم ، فمن ذلك قوله في نفسه :
 ما مُقامي بأرض نَحلةٍ إلا (كمقام المسيح بين اليهود)
 وقوله في القصيدة نفسها :

إن أكن مُعجَباً فمُعجَبٌ عَجيبٌ (لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ)
 أنا تَرَبُّ النَّدى ، وربُّ القوافي وسِمَامُ العِدى ، وَغَيْظُ الحَسودِ
 أنا في أُمَّةٍ ، تَدَارَكُهَا اللهُ ، (غَرِيبٌ كصالح في ثمود) (١)
 وقوله :

« أنا الذي بين الإله به ال أقدار والمرء حيثما جعله »

(١) يروى ابن جنى أن المتنبى قال : « لُقبت بالمتنبى بهذا البيت » .

فشبه نفسه بالأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس .

وقوله في رثاء التنوخى « محمد بن إسحق » :

وَكَاثِمًا (عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ) ذِكْرُهُ وَكَانَ (عَازِرَ) شَخْصُهُ الْمَقْبُورُ

/ وكان أيضاً كثير الإنذار للملوك والأمراء بعذاب بئس سياأتهم من قبله ، كقوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَفِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مَلُوكِ الْعُرَبِ وَالْعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ

فهذه أمثلة مما تناثر في شعره من هذه المعاني ، وأنت إذا نَقَضْتَ ديوانه وجدت في

معانيه المعاني التي تنبئ بالغيب ، كقوله في بدر بن عمار :

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُقَسِّمًا فِي النَّاسِ ، مَا بَعَثَ الْإِلَهِ رَسُولًا
لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ ، مَا أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

ولا نطيل بذكر الشواهد في ذلك ، فهذا أمر متعالم مشهور .

وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ ، واتصل سببه ببدر بن عمار ولزمه ، (١) وعلا عنده ، وأصاب كرامة لم يُصِبْ مثلها من قبل ، تناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم ، وطفقوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوب ، وأغراهم بذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم ، وانصرافه عن الهزل الذي يكونون فيه ، وظنوا به الكبر ، فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به . فلما وقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء في هذا الشعر ، وتشبيهه نفسه بهم ، وما هو فيه من التعفف والتورع ، أرادوا له لقباً يَنبِزونه به ، فلَقَّبوه (المتنبى) ، يريدون التشبُّه بالأنبياء ، وأخذوا يذكرونه بهذا الاسم ، ويتداولونه بينهم . ثم

(١) انظر ما سيأتى في آخر الباب التاسع (٩) ، ص : ٢٧٠

استفاضت شهرته به لَمَّا اتَّصل بأبى العشائر سنة ٣٢٦ ، وصار لا يُذَكَّرُ إلاَّ به ، بل لعلَّ سرَّهُ هذا اللَّقب فلم يُنكره .

١١٦ / وقد رأيت قَبْلَ أن القبض عَلَيْهِ كان سنة ٣٢٢ ، وأن الناشئ قال : إن أبا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة ، (١) « وهو بعد لم يُعَرَفْ ، ولم يُلقَّب بالمتنبى » ، [انظر ما سلف ص : ٢٣٢ ثم ص : ٢٧٠] ، فتلقبه بالمتنبى كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك ينتفى أن يكون قد حُبس من أجل دعوى النبوة . فلما علا أمر المتنبى وظهر ، وخشى من خشى من العلويين ومن إليهم ، أحدثوا من هذا التَّبز (المتنبى) = الذى قُصِدَ به التشبُّه بالأنبياء فى الحُلُق ، والوعيد والإنذار ، وتشبيه نفسه به فى شعره = أحدثوا قصةً مخترعةً عن نبوة زعموا أن الرجل ادَّعاهَا ، وأعانهم على صوغها ما كان من أمر حبسه حين أراد إظهار نسبه إلى الشجرة العلوية المكرومة . فكانت هذه القصص التى نفضناها وأظهرنا بطلانها ، والحمد لله .

• ثم بعد سنين طويلة من كتابة هذا الرأى الذى استخرجته وقطعتُ به ، جاءتنى ترجمة أبى الطيب فى كتاب ابن العديم « بُعْيَةُ الطلَب » ، ونقل فيها ابن العديم عن إمام من أئمة العربية = صحب المتنبى بشيراز ، وكتب عنه ديوانه بخطه ، وراه بخطه أبو الدرّ ياقوت بن عبد الله مولى الحموى البغدادي = وهو الإمام أبو الحسن على بن عيسى ابن الفرّج الرِّبَعِي ، (ولد سنة ٣٢٨ ، ومات فى ليلة السبت لعشر بقين من المحرم سنة ٤٢٠) . وقال الربعى : « ما أظنُّ أحداً صدقَ فى رواية هذا الديوان صدق (يعنى ديوان المتنبى) ، فإنى كنت أكثره (يعنى يكثر المتنبى) ونحن بشيراز ، وربما أخذَ عنى من

(١) انظر ما سأتى [ص : ٢٣٩ ، ٢٤٠] فى دخول المتنبى الكوفة ، وزواجه فى نحو سنة ٣٢٥ ، أيضاً .

كلام أبى على النحوى (يعنى الفارسى) [انظر تراجم المتنبى فى آخر الكتاب ، ترجمة ابن العديم رقم :

. [١١]

فقد روى ابن العديم فى ترجمة المتنبى [التراجم فى آخر الكتاب ، رقم : ٩] عن أبى الحسن الربعى قال : « قال لى المتنبى : كنتُ أحبُّ البَطَّالَةَ وصُحْبَةَ البادية = وكان (يعنى المتنبى) يذمُّ أهل الكوفة ، لأنَّهم يُضَيِّقُونَ على أنفسهم فى كُلِّ شَيْءٍ ، حتى فى الأسماء فيتداعون بالألقاب = ولما لُقِّبْتُ بالمتنبى ثَقُلَ ذلك علىَّ زماناً ، ثم الْفُتُّهُ » [وانظر ابن العديم أيضاً رقم : ٢٢ ، ٢٩ بل انظر ، فهو أوَّلُ ، ترجمة الربعى ، فهى أقدمهن] .

وهذا عينُ ما قلته منذ أكثر من أربعين سنة ، وعين ما قاله الناشئ الشاعر ، وإن كان القول فى تلقيبه بالمتنبى فى كتابى هذا ، يحتاج إلى بعض التعديل ، وعلى كل حال ، فقد نطلت حماقة النبوة بحمد الله .

أَبْنَى أَيْبِنَا ، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ
أَبْدَأُ غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
نُبْكِي عَلَى الدُّنْيَا ، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ ،
وَالشَّيْبُ أَوْقُرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَرْزُقُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ ، وَلِمَّتِي
مُسَوَّدَةٌ ، وَلِمَاءِ وَجْهِي رَوْنُقُ

١١٧ / خرج أبو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مُسْتَمِرَّ النفس ، مُكْتَهَلٍ القلب ، فقد جَرَّبَ أحداثَ الزمان ، وما ابْتَلَى به من النكباتِ التي عَرَقَتْهُ في سجنه ، وما كَيْدَ به من أعدائه ، فانطوى على ما به غيرَ جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابتسم للدنيا وهو يُضْمِرُ العَيْظَ عليها ، « ولكنه غَيْظُ الأسير على القَدِّ » ، (١) وكان يعمل في نفسه بما قال بَعْدُ :

هُوَّنَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْظَاثُ الْعَيْنُ كَالْحُلْمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتُهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّحِمِ
وَكَنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتَرُهُ وَلَا يَغْرُكُ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

١١٨ / فَإِن صَحَّ مَا رَأَيْنَاهُ فِي تَرْتِيبِ شَعْرِهِ ، وَمَا قَلْنَا بِهِ مِنْ أَنْ التَّنُوخِيِّينَ كَانُوا قَدْ سَعَوْا لَدَى ابْنِ طُعْجٍ فِي إِطْلَاقِهِ مِنْ سَجْنِهِ ، فَقَدْ نَخَرَاجَ صَاحِبِنَا مِنَ السَّجْنِ وَلِحَقِّ بِالتَّنُوخِيِّينَ

(١) هو للمتبي وأوله « وَغَيْظُ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَا » . وَالْقَدُّ : الْقَيْدُ مِنَ الْجِلْدِ .

باللاذقية وأقام عندهم وفي جوارهم . وكانت صلته وثيقة بأبناء إسحق التنوخي (محمد والحسين) ، فلما مات محمد رثاه ، وقد قدمنا طرفاً من ذكر ما ورد في رثائه لهذا الرجل . (١) وبين في شعره الذي رثاه به ما كان يُضمر له من الحب ، وما يفي له به من حُسن صنيعه عنده . وأخلص بعد موت (محمد) الوفاء والمودة لأخيه (الحسين بن إسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الأعداء ، أعدائه من العلويين والفاطميين والعباسيين ، فقد قصّد بعض شعرائهم قصيدة في هجاء الحسين بن إسحق ونحلّها أبا الطيب ، فكتب الحسين إلى أبي الطيب يُعاتبه ، فردّ جواب كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه :

تُطِيعُ الْحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرَّةٌ جُعِلْتُ فِدَاءَهُ وَهُمْ فِدَائِي
وَهَاجِي نَفْسِيهِ مِنْ لَا يُمَيِّزُ كَلَامِي مِنْ كَلَامِهِمُ الْهَرَاءِ
وَأَنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي ، فَتَعْدِلَ بِي أَقْلٌ مِنَ الْهَبَاءِ
وَتُشْكِرَ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّنَاءِ

ونحن نرى أن المتنبي أقام قليلاً في جوار الحسين ، ثم وافاه كتاب من جدّته = وقد كان بلغها خبر أنطلاقه من السجن = تَبُّهُ شَوْقَهَا ، وتشكو له بثها وحُزنها ، وتعزم عليه في الرحلة إليها ، وتذكر له ما كان من أمرها مع العلويين بالكوفة ، وأنها أرضتهم ، وأخذت على نفسها العهد أن يُقلع / ولذها عما تهوّر فيه من إرادته إظهار نسبه ، وبيّنت له مَعْبَةَ ما ينوي من ذلك ، ووعظته بما أصابه من قبل في سجنه ، وأخرجته في الحضور إليها ، فلم يجد قلب أبي الطيب بُدّاً من الطاعة ، وكم عَزَمَهُ عن الحسين بن إسحق التنوخي ، ولكن عزمه لم يَحْفَ على صاحبه ، فأرادته على المُكث ، فأبدى أبو الطيب رأيه بالموافقة ، وأضمر الخلاف والرحلة عن اللاذقية إلى الكوفة . وقد أشار إلى ذلك في مدحه إذ يقول ، معرضاً بعزيمة البقاء ، لِيَصْرِفَ التَّنُوخِي عَنْ أَنْ يَعَوْقَهُ :

لَكَ الْخَيْرُ ، غَيْرِي رَامَ مِنْ غَيْرِكَ الْغَنَى ، وَغَيْرِي بَغِيرَ (اللَّادِئِيَّةِ) لَأِحِقُّ
هِيَ الْعَرَضُ الْأَقْصَى ، وَرُوَيْتُكَ الْمُنَى ، وَمَنْزِلُكَ الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ

وَأَتَّخِذُ صَاحِبِنَا اللَّيْلَ جَمَلًا ، كَمَا قَالُوا ، وَانْحَدَرَ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ
بِأَحْقَادِهِ وَآلَامِهِ وَآمَالِهِ ، وَسَارَ مِنْ بَادِيَةِ إِلَى مَدِينَةٍ ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى بَادِيَةٍ ، يَنْظُرُ إِلَى الْفِتَنِ
الَّتِي مَزَقَتْ أُمَّتَهُ وَأَبْلَتْ جِدَّتَهَا ، وَمَا دَاخَلَهَا مِنَ الْإِنْخِلَالِ وَالتَّفَكُّكِ ، وَمَا أَصَابَ أَخْلَاقَهَا
مِنَ السَّقُوطِ وَالتَّسْفُلِ ، وَمَا فَعَلَتْ الدَّعَوَاتُ السَّرِيَّةُ فِي نَقْضِ مَجْدِهَا ، وَتَفْرِيقِ كَلِمَتِهَا ،
حَتَّى فَشِلُوا وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْفِتْرَةُ مِنْ حَيَاةِ الرَّجُلِ ، فِتْرَةُ نَظَرٍ وَبَصَرٍ وَتَجْرِبَةٍ ، وَأَوَانَ تَرَدُّدٍ لَا يَدْرِي
مَا هُوَ فَاعِلٌ وَلَا مَا اللَّهُ فَاعِلٌ بِهِ . فَقَدَ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى الْكُوفَةِ عَلَى غَرَرٍ ، مَرَضًا لَجِدَّتِهِ ،
لَا رَغْبَةً مِنْهُ فِي دُخُولِهَا ، وَأَخَذَتْهُ الْوَسَاوِسُ فِيمَا يُرَادُ بِهِ هُنَاكَ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ بِالشَّمَامِ
مِنْ إِرَادَتِهِ إِظْهَارِ نَسْبَتِهِ الْعُلُوبِيَّةِ . وَكَانَ الثَّأْرُ يَغَالِبُهُ عَلَى تَرْكِ النَّيَّةِ وَالْعُودَةِ إِلَى الشَّمَامِ ، لَوْلَا
مَا يَخَافُ عَلَى جِدَّتِهِ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ . فَدَخَلَ الْكُوفَةَ بِهَمِّهِ وَأَحْقَادِهِ وَآلَامِهِ سَنَةَ ٣٢٣ ،
أَوْ فِي أَوَاخِرِهَا عَلَى / الْأَرْجَحِ ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهَا ، رَأَى وَرَأَتْ جِدَّتَهُ أَنَّ ثَوْرَتَهُ لَيْسَتْ مِمَّا
يَجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا ثَمَّ ، فَانصَرَفَ إِلَى مَجَالِسِ الْكُوفَةِ وَمَسَاجِدِهَا ، يَشْعَلُ بِطَلْبِ الْعِلْمِ
نَفْسَهُ عَمَّا يُسَاوِرُهَا وَيَهْزُ مِنْهَا ، وَكَانَ لِانصِرَافِهِ هَذَا وَإِقْبَالِهِ عَلَى شُيُوخِ الْأَدَبِ وَالِدِينِ
وَالْفَلَسَفَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ عُلُومِ الْعَصْرِ ، أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَهْدِيْبِ نَهْجِهِ الشَّعْرِيِّ ، وَاسْتَجْمَامِ بِهِدَاةِ
الْعِلْمِ ، وَاسْتَجْدَاءِ بِهَا قُوَّةٍ أُخْرَى عَلَى الثُّورَةِ وَالتَّقَلُّقِ ، بَدَتْ فِي شَعْرِهِ بَعْدَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْكُوفَةِ
رَائِعَةً مَدْوِيَّةً ، كَأَنَّمَا انْفَجَرَتْ فِي لِسَانِهِ انْفِجَارَ الْبِرْكَانِ فِي زَلْزَلِ الْأَرْضِ .

وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ لَسَنَتَهُ تِلْكَ ، سَنَةَ ٣٢٣ ، عَزْبًا لَا يَأْوِي إِلَى سَكَنِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَعَلَّ
جِدَّتَهُ رَأَتْ أَنَّ تَهْدِيءَهُ مِنْهُ قَلِيلًا بِالزَّوْجِ ، فَزَوَّجَتْهُ عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ سَنَةِ ٣٢٥

قبل خروجه من الكوفة ، (١) وذلك لأن المتنبي بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ذكر لأول مرة في شعره « الأبوة » . فمِمَّا عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل به أمرٌ أو جدٌّ في حياته جديد ، فسُرْعَانَ ما يتلجَّج ذلك في صدره ولا يستقرُّ حتى يشير إليه في شعره ، لكثرة ما تليدُ الحوادث في شاعريَّة هذا الرجل من المعاني والآراء قال أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ ، يذكر المرأة :

وترى المروّة والفتوّة والأبوّ ة فيّ ، كُمل مَليحةً ، ضرّاًتها
هُنّ الثلاثُ المانعاتي لَدّتي في خلوتي ، لا الخوفُ من تبعاتها

ولعلّ ولدهُ هذا الذي ذكره في قوله : « الأبوة » هو « محسّد » الذي / ورد ذكره في خبرٍ مروِّي وهو بواسط سنة ٣٥٤ [انظر ما سيأتي ص : ٣١٧ - ٣٢٠ في ذكر امرأته وموتها] ، وفيه أنه أجاز شعراً أنشيد ، وورد ذكره أيضاً في مقتل المتنبي ، وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قُتل وهو في الثلاثين من عمره أو أقل ، لكان هذا التاريخ الذي حدّدناه لزواج المتنبي ، هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله .

١٢١

وقد كان قُرْبُ المتنبي من جدّته الحازمة في الكوفة ، وتزوُّده من العلم هناك ، مما ملأه حكمة جديدة بدأت تستعلن في شعره الذي قاله بعدُ . هذا على أنه ، مُقامه بالكوفة ، لم يمدح أحداً ، ولم يتعرَّض بشعره لمعروف ولا لمنكر ، على كثرة الأحداث التي كانت في تلك السنوات ، وعلى شدة ما لقي من العنت وهو بين أظهر أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متملماً من مُقامه ، مضطرباً في عيشه . وكان أثرُ هذا التملُّل والاضطراب في نفسه المُستحصِدة القادرة على الكتمان والاتزان في بعض الأحيان ، أن طَفِقَ يُؤلِّد هذا الشاعر معاني نفسه ، ويختار لها ألفاظها ، وينتقى

(١) انظر ما سلف ص : ٢٣٥ ، والتعليق هناك .

عباراتها ، مدققاً محصاً مفتشاً عن الكلام الموجز الذى يستطيع أن يضم فيه ما يجيش فى صدره ، ويعتلج فى نفسه ، حتى استوى على طريقة ممتدة من الأصول الشعرية التى بينها فى أول كلامنا ، ^(١) إلى الغاية التى كان يرمى إليها ، ولذلك اختلف نهجه فى الشعر الذى قاله بعد مخرجه من الكوفة فى سنة ٣٢٦ ، اختلف عن نهجه الأول اختلافاً بيناً ، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الأصل الأول الذى هو الطبيعة القائمة فى النفس ، والتى لا تتغير فى أصلها ، وإن تغيرت فى الصورة والصوغ ومذهب البلاغة والإفصاح .

هذا ، وما من شك فى أن الرواية عن هذه الفترة من حياة الرجل ، / لم تأتنا ١٢٢ بحديث يُعلم به من أمر أئى الطيب كثير ولا قليل ، إلا ما حدثنك به من أنه كان يحضر مجلس الناشئ بالمسجد الجامع بالكوفة سنة ٣٢٥ ، ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبين ، وكان لم يعرف بعُد ولم يلقب بالمتنبى ، ^(٢) إلا أن صاحبنا فى رثاء جدته سنة ٣٣٥ ، قد أفصح عن السبب فى فراقه الكوفة فى هذه المرة بعض الإفصاح ، وعرض بأشياء كانت وقعت له يومئذ هناك . يقول : ^(٣)

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتٌ أَكْرَمَ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخَمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَعِنَ لَدَى يَوْمِ الشَّامَتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وَكَلَدْتُ مِنِّي لِأَنْفِهِمْ رَغْمًا
(تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ) وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا)
(وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ) وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا)
(يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ !!) وَمَا تَبْتَغِي ؟ مَا أَبْتَغِي جَلًّا أَنْ يُسْمَى)

(١) انظر ما سلف ص : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٣٢ ، ٢٣٦ .

(٣) قد آثرنا أن ننقل لك الأبيات جميعها فى نظمها لتقرأها متديراً ، فإن فى نفس الشاعر وشعره ، الذى استبطناه منه ما أردناه هنا ، وفى نسبه هناك ، ما يتخذ دليلاً على صحة ما نقول به ، وانظر ما سأتى ص : ٢٧٧ ،

تعليق : ١ .

(كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأُنِّي
وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي
) وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ
) وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَحِيَّتِي
إِذَا فُلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفِ بُعْدِهِ ،
/ (وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ
) كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتَ فَأَذْهَبِي ،
) فَلَا عَبْرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزُنِي
جَلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيُتِمَا (١)
بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا
وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْعَشْمَا
وَإِلَّا فَلَسْتُ السَّيِّدَ الْبَطْلَ الْقَرْمَا
فَابْعُدْ شَيْءٌ مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمًا
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
وَيَا نَفْسُ زَيْدِي فِي كِرَائِهَا قُدْمَا
وَلَا صَحْبَتِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

١٢٣

قد بينا لك أولاً أن أبا الطيب بقوله لجدته في القصيدة : « هينى أخذت الثأر
فيك من العدى » وقوله : « لعن لُدَّ يوم الشامتين بيومها » - إنما أراد « بالعدى »
و « الشامتين » جماعة العلويين الذين أخفوا عنه نسبه ، فيما ذهبنا إليه ، ومنعوه الانتماء
للذوحة العلوية المباركة [ص : ١٧٠ ، ١٧٤] ، فإذا تقرر عندك هذا وارتضيته ، وجدت أن قوله
بعد ذلك :

تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

يدل على أن هؤلاء العدى والشامتين بجدته ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين
قصدها قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ = كانوا في تلك السنة التي فارق فيها الكوفة
(٣٢٥) ، أو أوائل سنة ٣٢٦ ، قد أرادوه على خُطَّةِ خَسْفٍ ، فأبى أبو الطيب أن
يركبها ، وشَمَخَ بنفسه أن يذل لأحدٍ من الناس ، أو يقبل له حكماً يريد أن يُجْرِيه عليه .

(١) قوله : « كأن بنيتهم » ، دليل على أنه أراد قوماً بأعيانهم ؛ ولولا ذلك لقال : « كأن بنيتهم » ، يرجع
الضمير إلى الدنيا ، يعنى الناس جميعاً كما قال بعد : « كذا أنا يا دنيا » . وهذا أسلوب من أساليب أبى الطيب في
الإشارة إلى أغراضه التي في نفسه ، والتي لا يريد التصريح بها ، وإنما يجعلها إشارة لمن يريد إيفاهم غرضه .

وفيه المذلة والهوان وإهدار الكرامة ، وإسقاط الفتوة والبروة ، وآثر أن يخرج عن الكوفة مُراعماً لهم ، مفضلاً آلام الغربة على الهوان في الوطن .

ويبين من الشعر أنهم كانوا يستضعفونه ، ويسفّهون رأيه في ركوب الفلوات ، وتنقله بين البلدان : بقوله : « ما أنت في كل بلدة ؟ » وقولهم : « ما تبتغي ؟ » وما تريد من فراق الكوفة ، تُذرع الأرض من بلد إلى بلد ؟ فكان جوابه أن ما يبتغيه أجل من أن يُسميه لهم . ثم استدرك على ذلك / فرغم أنهم إنما يسألونه ويلحّون عليه في استخراج ذات نفسه ومضمّرها لخوفهم منه ، وأنهم يعلمون أنه سيأتيهم بالذبح الذي يترك صغارهم أيتاماً ونساءهم ثكالى . وقد أبلغ في إنذاره لهم بعد كما ترى في الأبيات ، ورهّبهم بما يكون منه ، وذكرهم بقومه ومحتدهم وحرّيتهم وقلة مبالاتهم بالمهالك ، طبيعة قائمة فيهم ، حتى إن نفوسهم لتكاد تكرر البقاء في أبدانهم ، لما فيهم من الحرّية والشرف .

ثم أفصح المتنبي عن الذي أرادوه به في قوله :

فلا عبّرت بي ساعة لا تُعزّني ولا صحبتي مُهجة تقبل الظلماً

فكان الذي كان منهم ، كان وضعاً من عزة نفسه ومهانة لها ، وأنهم كانوا يريدون أن ينزلوا به ظلماً بيناً لا يقّر عليه حرّ . وعندنا أنهم أرادوا أن يرضوه برضيخة من المال تكون عليهم كالجزية له ، يأخذها منهم كلّما حال الحول ، على أن يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه ، غير مخالف لهم ، ولا مظهر لهم عدواة ، وإن شاء أن يمدحهم بشعره فعّل ، وله عليهم أن يعطوه في مديحه لهم مثل الذي يُحبى به من غيرهم إذا مدحه ، وكبر على أبي الطيب أن يرشى بالمال حتى يسكت عنهم ، ويقرّ على ظلمهم له وضييمهم إياه ، وفي الأرض سعة ومراد لمن شاء أن يكون عزيزاً مكرماً .

وخرج صاحبنا من الكوفة قاصداً الشام مرة أخرى ، ونزل على « علي بن إبراهيم

التنوخى » .

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى - وَرُؤْيَةُ جَانِبِهِ
 سِه - غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ
 ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الدَّلِيلَ بِعَيْشِ
 رَبِّ عَيْشٍ أَحْفُ مِنْهُ الْحِمَامُ
 مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ
 مَا لِيُجْرَحَ بِمَيِّتٍ إِسْلَامُ
 أَقْرَارًا أَلْذُ فَوْقَ شَرَارٍ ؟
 وَمَرَامًا أُنْبِغِي وَظُلْمِي مُرَامُ !

- ١٢٥ / كان شعر أبي الطيب في أول أمره ، كما حدّثناك ، قد اختلط بألفاظ لا تستقرُّ في الشعر ، وقعت إليه من ألفاظ المتكلمين والمتفلسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل في الملل والنحل وغير ذلك ، وكان أسلوبه يجرى على طريقة هؤلاء في التوجيه والتقسيم ، ثم في توليد المعاني الشعرية على طريقة أهل العصر في توليد معاني الجدل واللجاج ، لإرادة الفلج في الخصومة ، لا لتقرير الحق في القضاء والحكومة . وأتاه ذلك من قوّة حافظته وكثرة دوران هذه العلوم في فكره ، واشتغاله بالنظر فيها نظر المحقّق المفكّر ، إلا أن تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم ، بل كان في عقله الذي يفكّر به ، فكّر الشاعر الذي يتّسع بالعلوم ويمدُّ بينها وبين طبيعته الشعرية أسباباً من الشّعْر والخيال . ولما عادَ إلى الكوفة سنة ٣٢٣ ، وهى مقرُّ كثير من أئمة العلم والأدب والشعر ، ولزم مجالسهم سنّين أو أشْف قليلاً ، عمّلت هذه المجالس في تهذيب علمه الذي وقع عليه في / الصّعْر ، ١٢٦ وعمّلت طبيعته الشعرية في هذه العلوم عملها ، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتّسع في النظر ، وللترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته . ثم كان له من توقُّد

ذهنه ، واشتعال قُوى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها ، ما يحمله على أستخراج روائع المعانى التى تُوافق همّه وألمه ، وعلى توليد الآيات البيانية التى تتصل بما فى قلبه وفكره ، وعلى اجتناء العبارة التى تكون فى إيجازها بمنزلة الرّمز لما يدور فى نفسه من المعانى المطوّلة .

والآن ، وقد رجع صاحبنا إلى الشام فى جوارِ على بن إبراهيم التنوخى سنة ٣٢٦ ، كان أوّل ما قال ، هذا الشعر الذى أوجزنا لك فى صفته ، ذالاً على مذهبه الجديد ، وعلى تدرّج حالته النفسية تدرّجاً متوالياً متفاسحاً ... يقول :

أفكر فى مُعاقرة المنايا	وقود الخيل مُشرفة الهواى
(زعيمٍ للقنا الخطي عزمى)	(بسفك دم الحواضير والبواى)
(إلى كم ذا التخلّف والتوانى !)	وكم هذا التّمادى فى التّمادى !!
وشغلّ النفس عن طلب المعالى	بيّح الشعر فى سوق الكساد !!
وما ماضى الشباب بمُستردّ	ولأ يوم يمرّ بمُستعاد
متى لحظت بياض الشيب عيني ،	فقد وجدته منها فى السواد
متى ما ازددت من بعد التناهى ،	فقد وقع أنتقاصى فى ازديادى

ثم يقول بعد :

(وما العضب الطريف وإن تقوى)	(بمُنتصيف من الكرم التلاد) (١)
(فلا تغررك ألسنة موال)	(ثقلهنّ أفدة أعادى)
(وكن كالموت ، لا يرثى لباك)	(بكى منه ، ويروى وهو صادى)
(فإن الجرح ينغر بعد حين ،)	(إذا كان البناء على فساد) (٢)

١٢٧

(١) « الطريف » القريب العهد ، و « التلاد » الموروث المتقدم .

(٢) نغر الجرح بالعين (كفتح) ، إذا انفجر وسال منه الدم . ويقال : جرح نغار ، على المبالغة . وفى رواية

(ينفر) بالفاء يراد بها يتورم . والذى أثبتناه أجود معنى .

وَإِنَّ الْمَاءَ يَجْرِي مِنْ جَمَادٍ وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادٍ
(أَشْرَتْ أَبَا الْحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ نَزَلْتُ بِهِمْ ، فَسِرْتُ بِغَيْرِ زَادٍ)
وَوَلَّوْنِي مَدْحَهُمْ قَدِيمًا ، وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتَهُمْ مُرَادِي
وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَعَادٍ ، وَقَلْبِي عَنْ فَنَائِكَ غَيْرُ غَادٍ)
مُحِبِّكَ حَيْثُمَا أَتَجَهَّتْ رِكَابِي ، وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ

وكان شعر صاحبنا في هذا الباب من القول = إلى ما قبل هذه القصيدة = شعراً قريباً لم تستخرجه فكرةً عليمَةً مستوعبة لأحداث الزمن ، ولا نظرةً مجرّبة نافذة في ضمير أخلاق الناس ، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما في نفس الفتى من السموّ ، وما في قلبه من كرم العنصر ، وما تُبدي طبيعته الفتيّة من أصول الرجولة المستحكمة في طبعه وغريزته ، وما يملأ صدره من أسباب الحقد وطلب النار ، وما يكشف عن نيّته في إحداثٍ حَدَثٍ عَظِيمٍ يُجَلِّبُ فِيهِ عَلَى أَعْدَائِهِ بِخَيْلِهِ وَسُيُوفِهِ حَتَّى يُدِيلَ لَهَا مِنْ « دَوْلَةِ الْحَدَمِ » الَّذِينَ مَلَكَوا عَلَى النَّاسِ أَمْرَهُمْ ، وَصَرَّفُوهُمْ فِي أَهْوَائِهِمْ .

فانظر الآن فرّق ما بين الشعريين : هذا الشعر ، وهذا النبذ الذي أذكره لك من شعره في صباه : (١)

عِشْ عَزِيْزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
(فَرُووسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْظِ ، وَأَشْفَى لِيْغَلَّ صَدْرِ الْحَقُودِ)
فَأَطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي ، وَدَعِ الدُّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ
يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ ، وَقَدْ يَعْجِ زُ عَنْ قَطْعِ بُحْنُقِ الْمَوْلُودِ (٢)
وَيُوقَى الْفَتَى الْمِخْشُ وَقَدْ خَوْضَ فِي مَاءِ لَبَةِ الصَّنِيدِ

(١) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا أن ننظر فيه بما يغنيننا عن الإطالة في تفصيل الفروق بين شعر صباه ، وبين شعره الذي قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦ .

(٢) « البُحْنُقُ » بَرَقَّ صَغِيرٌ يُعَشَّى الْعَنْقَ وَالصَّدْرَ ، أَوْ كَالْبُرْتُسِ الصَّغِيرِ يَكُونُ لِلْأَطْفَالِ يَقِي مَلْبَسَ الطِّفْلِ مِنْ سَائِلِ اللَّبَنِ وَالرِّيقِ ، وَيَسْمُونَهُ فِي مِصْرَ « الْمَرْيَلَةَ » .

وقوله :

وَمَنْ يَبْتَغِ مَا أَبْغَى مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَى
أَلَا لَيْسَتْ الْحَاجَاتُ إِلَّا نُفُوسَكُمْ
فَمَا وَرَدَتْ رُوحَ أَمْرِي رُوحَهُ لَهُ ،
عَقَائِدُهُ عَيْشِي أَنْ تَعَثَّ كِرَامَتِي

تَسَاوَرَ الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلُ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا السُّيُوفُ وَسَائِلُ
وَلَا صَدَرْتُ عَنْ بَاخِلٍ وَهُوَ بَاخِلُ
وَلَيْسَ بَعَثٌ أَنْ تَعَثَّ الْمَاكِلُ

وقوله :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي
لَمْ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتُ عَلَى جِدَّتِي
أَرَى أَنَا سَاءً ، وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ،
وَرَبِّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مُرْوَعَتِهِ ،

وَلَا الْقِنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِي
حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرُقَهَا هِمَمِي
بِرِّقَةَ الْحَالِ ، وَأَعْذِرُنِي ، وَلَا تُلِمَّ
وَذِكْرُ جُودٍ ، وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ
لَمْ يُثِرْ مِنْهَا كَمَا أَثَرَى مِنَ الْعَدَمِ

إلى آخر القصيدة . وقد مضت منها أبيات ، [ص : ٢٢٠ ، ٢٢١] .

فندبر التّهجين في هذين الضربين من الشعر فضل تدبر ، تجد ما رسمنا لك واضحاً بيناً ، وتر أثر هذه الرحلة إلى الكوفة ، على ما بيننا لك آنفاً ، مستعلناً غير خاف . / ١٢٩
فقد بدأ صاحبننا يفكر بما اكتسب من تجرية ، وما أفاد من علم ، ويدس ما ألم به من الأحداث في شعره منتزعا للمثل ، وضارباً ببلاغته في مفصيل الحكمة ، ونافذاً بألفاظه في مضمّر أخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاء . فأنظر أين قوله أولاً : « أرى أناساً ومحصولي على غنم ... » ، من قوله بعد :

فَلَا تَعْرُرْكَ السِّنَةُ مَوَالٍ تُقْلِبُهُنَّ أَفِيدَةُ أَعَادِي

فإنَّ الموضوعَ الذي أخذَ منه المعنيين واحدٌ ، ولكنه كان في الأوَّل غَسِيلاً محصوراً غير شامل ، وكان في الآخرَ منهما حكيماً شاملاً مترامياً نافذاً إلى أصل طبيعة الكذب في هؤلاء الناس ، مُمتدَّةً من ضمائرهم إلى ألسنتهم . والسُّرُّ كُلُّ السُّرِّ في نسبة تحريك اللسان الذي يظهر المودة والولاء ، إلى الفؤاد الذي يُضْمِرُ البَغْيَ والعدوانَ والكذبَ والنفاقَ . (١)

هذا ، وقد بدأ أيضاً يَصِفُ في شعره ما وصلت إليه الأمة العربية ، إذ ملكتها الموالى من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا أوَّلَ أمرهم بمنزلة العبيد ، وذلك مما استفاده في رحلته إلى الكوفة ، وما رآه في بلاد العربية . ولم يُخَلِّ هذا مما يدور في نفسه ، وما وقع له من المصائب والمكاييد والحسد يقول وهو يمدح علي بن إبراهيم التنوخي أيضاً حين نزل به سنة ٣٢٦ ، أو كان ذلك في أول سنة ٣٢٧ :

١٣٠ (وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ، وَمَا
تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ)
(بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتَهَا أُمَّمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ كَانَتْهَا غَنَمٌ)
يَسْتَحْشِنُ الْخَزْرَجِينَ يَلْمُسُهُ
وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِ الْقَلَمِ
إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِي ، فَمَا
أُنْكِرُ أَيُّ عُقُوبَةٍ لَهُمْ
وَكَيْفَ لَا يُحْسَدُ أَمْرٌ عَلِمَ
لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ
يَهَابُهُ أَبْسَأُ الرَّجَالَ بِهِ ،
وَتَتَّقِي حَدَّ سَيْفِهِ الْبُهَمُ (٢)
(كَفَانِي الذَّمَّ أَنْتَى رَجُلٌ
أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكَتُهُ الْكَرَمُ)

(١) سيكون تفسير هذه الأسرار البيانية واستخلاص حالته النفسية منها في كتابنا عن المتنبي إن شاء الله ووفق . (هكذا قلت منذ أربعين سنة ، ولم أف بما قلت حتى اليوم ، وأرجو أن أفي بما وعدت إن شاء الله) .

(٢) « أبسأ الرجال به » ، آسهم به ، وأقربهم منه مجلساً ومودة .

يَجْنِي الْغَنَى لِلثَّامِ ، لو عَقَلُوا ، ما لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعُدْمُ
(هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسَنَ لَهُمْ ، وَالْعَارُ يَبْقَى ، وَالْجُرْحُ يَلْتَسُمُ)

ثم قوله في سنة ٣٢٧ في مدح المُغيث بن علي بن بشر العجلى :

أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى ، ما عاشَ ، وَأَتَّحَبَا

الآيات [انظر ص : ١٨١] ، وقوله له أيضاً :

فُوَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ (وَعُمُرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللَّثَامُ)
(وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِعَارٌ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّتٌ ضِخَامُ)
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ (وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ (١)
(أَرَانُبُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ ، مُفْتَحَةٌ عِيُونُهُمْ ، نِيَامُ)
(بِأَجْسَامٍ يَحْرُ الْقَتْلُ فِيهَا ، وَمَا أَقْرَأَهَا إِلَّا الطَّعَامُ) (٢)

وأبياتاً أخرى

/ وكانت حكمة المتنبي وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نظره في أمر نفسه
ودخيلتها وخاصتها ، وما يُحيطُ بها وما يؤثرُ فيها ، ويُثير من كوامنها وعواطفها ، وتبتت
فكرته على ذلك . وطفق يقلب الأمور والأحداث في الدنيا كلها على امتداد نفسه
واتساع قلبه وهمته ، فانفجر بين جنبيه ينبوع الكلام المتدفق ، وفيه من قوته ورجولته ،
ومن بيانه وفصاحته ، ومن ثأره وعداوته ، ومن تهكمه وسخريته . وخرج مديحه أيضاً عن
نهجه الأول ، فصار أدق وأبلغ في أداء المعاني ، وفي تصوير الفكرة باللفظ المُقارب ،
وانقلب من مديح معروف مقلدٍ ضعيف ، إلى مديح لا يُراد به الممدوح خاصةً ، وإنما
يريد به المتنبي أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . و « المبالغة »

(١) « المَعْدِن » ، المكان من الأرض تستخرج منه الجواهر ، وهو الذي يسمونه اليوم « المنجم » .

و « الرَّغَامُ » ، التراب .

(٢) « يَحْرُ القتل فيها » ، أى يشتد ويستحضر . و « الأقران » جمع « قرن » ، وهو كفاء الرجل في الحرب

في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو إذا ذكر الممدوح وبالغ في صفتة ، فإنما يعطى الشعرَ حقَّ نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين عَدِمَهُم في زمنه ، وكان يودُّ أن يمدحهم بهذا الشعر ، ويحفظ لهم فيه صورةً حيَّةً باللفظ الناطق البليغ ، [انظر ما سيأتي ص : ٢٦٣ ، ٢٦٤] .

فأنت ترى أن نبوغ المتنبي إنما بدأ يتجلى ويتكشف حين أرغمته هَمَاهِمُ نفسه على استيعاب ما يحسُّ به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه ، ومعرفة دقائق ما يحزُّ فيه من الآلام ، ثم المعاني التي تتولد من هذه الآلام ، أصلاً من الأصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظرٍ أو متأمِّلٍ ، ثم في هُديهِ إلى أن الشعر لا يكون شعراً إلا حين يروى من معاني القلب ويستقى منها . ولهذا كانت إجادة المتنبي بالغة أقصى غاياتها في شعره الذي قاله في تصوير رجال الحرب ، أو في رسم صور الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذي كان كحومة الوغى بغبارها ودماؤها / وقتلاها ، وقعقة سلاحها ، وتداوى أصواتها ، والتماع أسنتها وجربابها . واستمرَّ نبوغه ١٣٢ أو أكثره على هذا الباب ، حتى كان اتّصاله بسيف الدولة ، فبدأت هناك في قلبه معاني أُخِرُ ، (١) تفاسحت بها نفسه ورُحِبَتْ ، فأمتدَّت بلاغته ، وانبسط نبوغه على الحياة كلها ، فأخذ منها ، ثم أعطى حكمةً باقيةً وبياناً خالداً ، على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادُهُما من نفسه ، وما رزىء به في حياته ، وما أصابه من أحداثٍ وأهوال .

ولو تدبرت لوجدت لكل حكمةٍ في شعره أصلاً تاريخياً في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يُفَلِّته . وكأني به ، وهو يقول البيت السائر والمثل الشُّرود ، كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوي في مِسمَعِيهِ ، كلُّ ما مرَّ به مما أثر فيه ، فيقول البيت وفي كل لفظه منه سببٌ ممدود إلى ذِكْرِي يذكُرُها أو فِكْرَةَ يتخيلها ...

(١) هي معاني المرأة التي أحبها !!

ولنضرب مثلاً قريباً نُوجزه ، وعليك بَسْطُهُ ، ففي الأبيات التي وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول ...

« وَأَحْتِمَالُ الْأَذَى - وَرُؤْيَةُ جَانِيهِ - غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ »

فأين تجد الأصل التاريخي في هذا البيت ؟ أصل المعنى الذي أرادته الشاعر هو في قوله : « واحتمال الأذى غذاءً تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ » ، ولو كان غير المتنبى ، لوقف عند هذا ، فهو تمام وكفاية ، ولكن المتنبى = الذي (لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفلته) ، والذي (كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوى في مِسْمَعِيهِ كل ما مرّ به مما أثر فيه) ، والذي كان قد احتمل أذى كثيراً من وطنه بالكوفة كما مرّ بك ، والذي كان رجع إلى الكوفة ، وحمل نفسه على / معاشرته من آذوه وهَضَمُوهُ حَقَّهُ ، وأقام بينهم مُرْغَمًا يراهم في كل خَطْرَةٍ بعينه وبخياله = زاد في المعنى وتمّمه ، وأثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله : « ورؤية جانيه » ، فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هي توقيع المتنبى على البيت . (١) وهناك سرٌّ آخر في تسميته « احتمال الأذى » غذاءً ، ليس هذا موضع تفصيله ، (٢) وعلى هذا فقس بقية شعره وحكمته .

وبعد . فقد شَعَّلْنَا هذا عن تحرير القول في رحلته ومدخله الشام وقد روينا لك في أول هذا الباب أن المتنبى نزل الشام على علي بن إبراهيم التنوخي ، وأنشدناك أبياتاً من قصيدته التي مدحه بها وفيها يقول : (٣)

(١) انظر ما سيأتي ص : ٢٥٦ .

(٢) إذا قرأت المتنبى على هذا الأصل ، لم تجد الشاعر الذي يذكره الناس ملء الأفواه ، بل تجد شاعراً فذاً لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرّد في كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الأصل في شعر المتنبى ، وتفسير أكثر شعره على هذا المذهب .

(٣) انظر ص : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

أَشْرَتْ أبا الحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ نَزَلَتْ بِهِمْ فَسِرَتْ بِغَيْرِ زَادٍ

وقد اختلفوا في قوله : « أَشْرَتْ » ، أهي من الإشارة عليه بمدحهم فتكون « أَشْرَتْ » بفتح الشين - أو من « الأَشْرَ » وهو الفرح والطرب فتكون « أَشْرَتْ » بكسر الشين ، وإسناد الفرح إلى نفسه . والرواية الأولى عندنا أرجح . والظاهر أن المتنبى لما قدم على عليّ هذا باللادقية ، أشار عليه بأن يتحدر إلى (طبرية) ليمدح رجلاً - لعله من العلويين أو أشياعهم - فمدحه / مُرْغَمًا ولم يظفر منه بطائل ، فعاد إلى عليّ من فوره ١٣٤ وأنشده هذه القصيدة ، ثم قصيدة أخرى صرّح فيها بذكر بحيرة طبرية ، وما لقي هناك من الأذعياء (وهم الذين يدعون النسب إلى عليّ رضوان الله عليه) فيقول لعليّ .. (والبحيرة التي يذكرها هي بحيرة طبرية المشهورة) :

كَلَوَاكَ لَمْ أَتْرِكِ الْبُحَيْرَةَ ، وَالـ	غَوْرٌ دَفِيءٌ ، وَمَاوُهَا شَبِيْمٌ (١)
وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزْبِدَةٌ	تَهْدِرُ فِيهَا ، وَمَا بِهَا قَطْمٌ (٢)
كَانَتْهَا وَالرِّيَّاحُ تَضْرِبُهَا	جَيْشًا وَعَيْ ، هَازِمٌ وَمُنْهَزِمٌ
كَانَتْهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ	حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظَلْمٌ
تَعَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا	وَجَادَتِ الْأَرْضَ حَوْلَهَا الدَّيْمُ (٣)
فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ	جُرْدٌ عَنْهَا غِشَاوُهَا الْأَدَمُ (٤)
يَشِيئُهَا جَرِيْهَا عَلَى بَلَدٍ	تَشِيئُهُ (الْأَذْعِيَاءُ) وَ (الْقَزْمُ) (٥)
أبا الحُسَيْنِ آسَمِعَ ، فَمَدْحُكُمْ	بِالْفِعْلِ ، قَبْلَ الْكَلَامِ ، مُنْتَظِمٌ

(١) « الغور » غور الأردن . و « شبيم » بارد .

(٢) « القطم » ، هياجُ فحل الإبل لضراب الناقة .

(٣) « جادت الأرض » أحيثها بالمطر . و « الديم » جمع « ديمة » ، وهو مطر ليس فيه رعد ولا برق يدوم أياماً متتابعة .

(٤) « الماوية » المرأة ، و « الأدم » الجلد ، يصنع على قياسها لتدخل فيه المرأة صيانةً لمائها وروانها .

(٥) « القزم » ، الدنى الليم الصغير الجثة .

وصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً إلا عيبتها أنها تجرى على أرض تطؤها
أقدام هؤلاء الأدعياء من العلويين واللثام ممن ذكرهم في قوله « القزم » . ولو رجعت قليلاً
إلى ما كنا حدثناك من إرصاد العلويين له بكفر عاقب (وهي بقرب طبرية) في سنة
٣٣٦ بعد ذلك ، (١) وجدت أن الذين قصدهم بقوله : « أشرت أبا الحسين بمدح
قوم » ، هم من العلويين أيضاً ، ولعلمهم هم الذين انتهوا الفرصة حين نزل عندهم
ليقتلوه ، ففاتهم برحلته إلى الرملة في جوار أبي محمد بن طعج .

وهذا الكيد الذي لقيه ببخيرة طبرية في سنة ٣٢٦ ، وما قاساه من مدح / الذين
أشار عليه بمدحهم علي بن إبراهيم ، زلزل نفس الشاعر وهزه هزة رابية قذفت بحممه
الشعرية البركانية التي رويناها لك أولاً ، وتجد فيه أثر ذلك بيناً كقوله :

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِي ، فَمَا أَنْكِرُ أُنِّي عُقُوبَةَ لَهُمْ
وَكَيْفَ لَا يُحْسَدُ أَمْرٌ عَلَّمَ (لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ)

وبين أن علي بن إبراهيم لم يكن ليقبل من شاعر أن يمدحه ويقول في مدحه له
يصف نفسه بأن له « على كل هامة قدم » ، إلا أن يعلم ما دفع الشاعر إلى إخراج هذا
القول . وقد تحمل هذا علي لأبي الطيب ، إذ كان هو الذي أشار عليه بمدح عدو من
أعدائه ، وزين له الرحلة إليه ، وهو يعلم ما في نفس أبي الطيب لقوم هذا الممدوح
أو هؤلاء الممدوحين .

وبقى أبو الطيب قليلاً في جوار علي التنوخي ومدحه ، ثم قال له في مدحه
يودعه ، ويذكر نيته في الفراق :

وَإِنِّي عِنَّا (بَعْدَ غَدٍ لَعَادِ) وَقَلْبِي عَنْ فَنَائِكَ غَيْرُ غَادِي
مُحِبُّكَ حَيْثَمَا اتَّجَهْتُ رَكَابِي وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ (مِنَ الْبِلَادِ) (٢)

(١) انظر ص : ١٥٥ .

(٢) تأمل ما في هذين البيتين من نبرة الحزن ، وغمغمة البكاء . هما عبرتان من الدمع لا بيتان من الشعر .

وخرج المتنبى من اللاذقية قاصداً حلب ، ولكنه لم يبق بها طويلاً ، بل قصد قصداً أنطاكية حين نزها المغيث بن علي بن بشر العجلي ، فمدحه ، وذلك حيث يقول له :

لَمَّا أَقَمْتَ (بَأَنْطَاكِيَّةَ) آخْتَلَفْتُ إِلَى الْخَبِيرِ الرُّكْبَانُ فِي حَلْبَا
/ فَسِرْتُ نَحْوَكَ لِأَلْوَى عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحَلْتِي : الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى ، مَا عَاشَ ، وَأَتَّحَبَا

وكان ما لقيه أبو الطيب بطبرية لا يزال يهتد منه ، ويعتلج في قلبه وصدره ، فكان شعره في هذه الفترة شعرَ النَّائِرِ الْمُفَكِّرِ الْمُتَأَمِّلِ ، وقد كشف عن ذلك في قوله مثلاً :

فَالْمَوْتُ أَعْدَرُ لِي ، وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ لِي ، وَالْبُرُّ أَوْسَعُ ، وَالْدُنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

وفي قوله « والبرُّ أوسع لي » ، سرُّ تَقْلِقِهِ بَيْنَ بِلَادٍ كَثِيرَةٍ فِي فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَنَالَ نَيْلًا عَظِيمًا بِكَثْرَةِ التَّجْوَالِ ، حَتَّى إِذَا مَا جَمَعَ مَا يَرِيدُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَالَ وَمَا أَنْذَرَ بِقَوْلِهِ : « وَالدنيا لمن غلبا » .

وكانت قصيدته الثانية في مدح المغيث بن بشر أروع من الأولى ، وأكثر إفصاحاً عن نفسية الشاعر في تلك الفترة ، فإنه كان قد هدأ واستجم من وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَوَجَدَ الْوَقْتَ كَافِيًا ، وَالْقَوْلَ ذَا سَعَةٍ ، فَقَالَ كَاشِفًا عَنْ ضَمِيرِهِ ، وَمَصْرُحًا بِآرَائِهِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَأَوَّلَهَا ، [ص : ٢٥٠] :

فَوَادَّ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ (وَعُمَرُ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللَّثَامُ)

وفي هذه القصيدة (غير الآيات التي مرّت آنفاً) ، إشاراتٌ عجيبةٌ إلى ما في نفسه ، كقوله في المغيث :

تَلَدُّ لَهُ الْمُرْوَعَةُ ، وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعَشُقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ

فقاله : « وهى تؤذى » ، هو توقيع المتنبي على البيت كما ذكرنا ، (١) / إذ كان الرجل لا يرى فى عصره مروءة إلا وقد احتوشتها اللئام بالسوء من القول والفعل ، ويخص نفسه بذلك ، إذ كان هو صاحب المروءة التى لقي بها وبفعلها أذى كثيراً من أعدائه والحاسديه والناظرين إليه ، وكقوله أيضاً :

وَقَبْضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وَعِزٌّ (وَقَبْضُ نَوَالِ بَعْضِ الْقَوْمِ ذَامٌ)

فهو يُغرق بهذا الشطر الأخير من أرادوا أن يُنبئوه نبلاً فعف وأبى ، وآثر الفقر على أن يقبل من نوالهم شيئاً ، كما مرَّ بك فيما فرضناه فى مسألة دخوله الكوفة فى الباب السابق ، [ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣] .

ثم رحل المغيث عن أنطاكية من قوره ، فإنه لم يكن من أهلها ، كما قال المتنبي :

وَلَيْسَتْ مِنْ مِوَاتِنِهِ ، وَلَكِنْ يَمُرُّ بِهَا كَمَا مَرَّ الْعِمَامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه إلا القاضى أبا الفرج أحمد بن الحسين المالكي ، ثم على بن منصور الحاجب ، وعمر بن سليمان الشرايبي ، وهو يومئذ يتولى الفداء بين الروم والعرب ، وليس فى مدحه هؤلاء الثلاثة شئ يذكر ، فدل ذلك على أن الرجل كان قد مل ، فهو يقول ليكتسب ما يقوته ويقوت أهله ، ثم ضاق بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يكاد به ، فعزم على الرحلة إلى حمص ولبنان ، فمر فى طريقه بالفرايس من أرض قنسرين ، وهى التى فيها (حمص) ، فسمع زئير الأسد فقال :

أَجَارِكُ يَا أُسْدَ الْفَرَادِيسِ ، مُكْرَمٌ ؟ فَتَسْكُنُ نَفْسِي ، أَمْ مُهَانَ فَمُسْلَمٌ
وَرَائِي وَقُدَامِي عُدَاةٌ كَثِيرَةٌ أَحَازِرُ مِنْ لِصِّ ، وَمِنْكَ وَمِنْهُمْ

١٣٨ / فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ
إِذَا لَأْتَاكَ الرَّزْقُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَأَثَرَيْتِ مِمَّا تُغْنِمِينَ وَأَغْنَمُ

وفي خطاب أبي الطيب للأسد في هذه الأبيات ، يتجلى كل ضميره وما فيه من آثار العداوة ، وما فيه من المطالب والأمانى ، وهى تدل دلالة بيّنة على أن الرجل كان قد ملّ من مدحهم ، وأراد أن يجد منفذاً ينفذ منه إلى تحقيق آماله وآرابه في إدراك ثأره من عُداته ، وإصلاح ما أفسد الحكم القائم في البلاد العربية ، وكان يودُّ أن يلقى الرجل الذى يُعينه ويستعين به على أغراضه ، ويكشف له عن ضمير نفسه . فكان مدحُه ، هو المقدّمة للاتصال والاختبار : أن يجد عند أحد ما يؤمّل ، فمدح فى طريقه « الأنطاكى عبد الرحمن بن المبارك » ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً ، فقصد إلى لبنان فى جوار الكاتب « أبى على هرون بن عبد العزيز الأوراجي » ، وبقي عنده ومدحه مدحاً عظيماً ، ولكن الرجل لم يكن عند ظنّ أبى الطيب ، فأقام عنده يستجمُّ من مشقة السفر فى رُبى لبنان ، يصطاد ويطرُد ، ويغترف من ينبوع الجمال الذى أنبّطه الله فى تلك البلاد .

 وَمَهْمِهِ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي
 تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّبُلُ
 بِصَارِمِي مُرْتِدٍ ، بِمَخْبُرَتِي
 مُجْتَرِيٌّ ، بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلُ
 إِذَا صَدِيقٌ نَكَرْتُ جَانِبَهُ
 لَمْ تُعِينِي فِي فِرَاقِهِ الْحَيْلُ
 فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ ،
 وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلُ

١٣٩ / كان لهذا الاضطراب والملل الذي استشعره أبو الطيب في رحلاته في البلاد التي
 أوجزنا لك رَسْمَهَا ، أثر كبير في قلبه المُوَجَّع المتأمل . وكانت أيام الهدوء والراحة التي
 أهتبلها من غفلة الزمن قد جددت معاني قلبه ، ورمت في فؤاده بالحطب الذي يُوقد به
 ناره . فلما ملّ الأوراجي ولم يجد منه شيئاً ولا عزماً ، عزم على فراقه ، وجعل يتلّفت فرأى
 أبا الحسين بَدْرَ بنِ عَمَّارِ بنِ إِسْمَاعِيلِ الأَسَدِيِّ قد صَعَدَ إلى طَبْرِيَّةَ من قِبَلِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ
 بنِ رَائِقٍ لِيَتَوَلَّى حَرْبَهَا ، أَى قِيَادَةَ جَيْشِهَا وَحَمَايَتَهَا فِي سَنَةِ ٣٢٨ . كان أبو الحسين ، فيما
 نظنّ ، عَرَبِيًّا مَاضِيًّا كَالسَيْفِ ، حُلُوَ الشَّمَالِ سَمْحًا ، قَرِيبَ الْمَذْهَبِ مِنْ أَبِي الطَّيِّبِ فِي
 بَعْضِ الْعَجْمِ ، لَمَّا أَنْزَلُوهُ بِالدَّوْلَةِ مِنَ التَّفْرِقَةِ وَالتَّمْرِيقِ ، وَعَرَفَ أَبُو الطَّيِّبِ بَعْضَ أَخْبَارِهِ ،
 فَقَصَدَهُ فَرِحًا ، كَأَنَّمَا وَجَدَ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنَ الْفِكْرَةِ وَالسُّطُوَّةِ / وَالسُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالرَّجُولَةِ
 ١٤٠ الْفِذَّةِ الَّتِي أَبْدَعَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي صِفَتِهَا بَعْدَ حِينٍ أُعْجِبَ بِهَا وَفُتِنَ . وَكَانَتْ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ
 مَدَحَهُ بِهَا تَدَلُّ عَلَى مَا أَدْرَكَ أَبُو الطَّيِّبِ مِنَ الْفَرَحِ وَالنُّشُوءِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ عَلَى يَدَيْهِ :

أَحْلَمًا تَرَى ، أَمْ زَمَانًا جَدِيدًا أَمْ الْخَلْقَ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيدَا !؟
 تَجَلَّى لَنَا فَاضًا نَا بِهِ كَأَنَّا نَجُومٌ لَقِينَا سَعُودًا

فقد جمع أبو الطيب في هذين البيتين كل عاطفة ينبض بها قلبه ، وكل ما هزها واستثارها من الفرح بهذا العربي الذي :

تَعْرِفُ فِي عَيْنِهِ حَقَائِقَهُ كَأَنَّهُ بِالذِّكَايِ مُكْتَحِلٌ
(أَشْفِقُ ، عِنْدَ اتِّقَادِ فِكْرَتِهِ ، عَلَيْهِ مِنْهَا ، أَخَافُ يَشْتَعِلُ)

وبقى المتنبي في جوار بدر وفي مجالسه (وفي عربيته) من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا على التحقيق ، (١) أطال المقام في جواره ، وكأنه كان قد أحب الرجل حباً عظيماً لما يرى من مروءته وفؤوته ورجولته . والظاهر أن بدرًا قد وجد في نفسه لأبي الطيب مثل ما وجد له ، فأعان ذلك الشاعر على أن يتفتح ويوجد ويبدع ، فإن مدائحه لبدر تكاد تكون في الطبقة الثانية من جيد شعره ، وفيها أبيات في الطبقة الأولى من الشعر العربي كله . وقد بدأ نهجه أيضاً يتغير ويتميز بألوان وآيات . ولا عجب ، فقد مارس الرجل الحياة بشاعريته ، وتلقف من الدنيا عبرها وحكمتها ، وسمع منها وحفظ عنها ، وأعمل فيها ذهنه المتوقد ، وأرسلها إلى قلبه ليفتنها بناره ، ويصوغها في بيانه الذي وصفناه أولاً ، ثم زين بها كلامه .

/ ولم يكن أبو الطيب ، طوال هذه السنين ، يدع استيعاب الكتب والآراء ونقدتها ، والتبصر في أعقابها وأطرافها . وأيضاً فإنه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية ، فقد شارف الثلاثين ، وامتلأ شبابه بقوته وفؤوته ورجولته ، وعب قلبه بالآمه وأحقاده وآماله التي كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها . وأيضاً فإن الأمل في إدراك الطلب ، وبلوغ الأمنية والظفر بها ، وقرب تحقق الفلج على الخصوم ، مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاءً ونفاذاً . وقد كان له ذلك كله في جوار صاحبه وحيبه بدر بن عمار الأسدي العربي الذكي الفؤاد ، فاتخذ أبو الطيب سبيله في الشعر عجباً ، واستقام

١٤١

(١) فيما سلف ص : ٩٢ - ٩٨ ، حديث عن هذا التاريخ ، وكيف فعل أستاذنا الدكتور عزام رحمه الله ، لأننا نعيش في زمن الأعاجيب !! وزمن بلاشير الأعجمي الذي ألف كتاباً عن المتنبي ، يعتمد عليه هؤلاء الأساتذة الكبار ، مع ما في الذي يعتمدون عليه من فاحش الخطأ والفهم .

على طريقته ، ومضى على غلوائه ، ورمى الدنيا بعيني عُقاب كاسر يتلو فريسته أن تفرّ منه ، وزاده علواً ما وجد من حماية بدر له في طبرية موطن أعدائه كما حدثناك ، وأورى زناده ما لقي من عداوة بعض الشعراء له ، وما سعى به الوشاة المفسدون لدى بدر بن عمار ليقلّبوا عليه قلبه . ومثل أبي الطيب إذا أريد به الشر أنتفض انتفاضة الأسد إذا رامه عدوّ ، وفي انتفاضته تتقدّف قوته كلّها على لسانه البليغ المبين ، وذلك لقوة أعصابه ، وشدة توتّرها ، وسرعة تأثرها مع ذلك .

وفي جوار بدر بن عمار الأسدي بدأت عصبية أبي الطيب للعرب والعربية تُسفر عن وجهه ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلماتٍ قد ضريت عليها حجابها ، وهيات شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدويّ العربيّ هازم الروم ، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق . وبذلك كلّه كانت هذه / الفترة ، من ترتيب الزمن في تكوين ١٤٢ الشاعر الأكبر ، تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذ الذي استودعه الله في قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وثأره والعصر الذي عاش بين أهله مُبتلى بمعاشرتهم أو كما قال في آخر عمره يعني نفسه :

وَقْتُ يَضِيْعُ ، وَعُمُرٌ ... لَيْتَ مُدَّتَهُ فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الْأُمَمِ !!
أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبَابِهِ فَسَرَّهُمْ ... وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ !!

وقوله في صدر شبابه ، يعني أهل عصره :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعِدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثْثٌ ضِحَامُ

أحبّ أبو الطيب بدر بن عمار ، وأحبّه بدرٌ وأكرمه ورفعته إليه وعزّزه ونصّره على أعدائه من العلويين أو أشياعهم بطبرية وما جاورها ، ووجد كلاهما في صاحبه ملجأً يَأْوِي إليه . فقد كان أبو الطيب مهضوماً مُطارِداً ، وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التي أوقعها جبابرة العصرِ بالعرب ، وكان فكره متتبعاً لدهاء ذهاة السياسة الذين كانوا يعملون على قلب الدولة أو تمزيق شملها بالشعبوية العجمية البغيضة المبعوضة إليه ، وكان يرمى ببصره فلا يجد العربيّ الذي يَأْوِي إليه ، فإن وجده فبينه وبينه أهوالٌ . فلما وجد بدرًا ، ووجد في قلبه وفكره مثل الذي في قلبه وفكره ، توقّد الرجل الشاعر توقّد النار المستعرة قد وجدت طعامها من الحطب .

وبدأ يصف بدرًا العربيّ الشجاعَ المحاربَ ، ويصف الحربَ ، ويصف / كلّ قوة أو مثلاً من قوة ، ويُبدع في ذلك كلّهُ مستمداً من قلبه الجريء ، وخياله المتسامي إلى أشرف السُلطان والعلبة ، حتى خرجت مدائحُه في بدرٍ آيةً في دقّة التصوير ، وسموّ المعنى ، وشرف الغاية ... يقول في صفة بدرٍ :

(هَانَ عَلَى قَلْبِهِ الزَّمَانُ ، فَمَا	يَبِينُ فِيهِ غَمٌّ وَلَا جَدَلُ)
يَكَاذُ ، مِنْ طَاعَةِ الْحِمَامِ لَهُ ،	يَقْتُلُ مَنْ مَا دَنَا لَهُ الْأَجْلُ
يَكَاذُ ، مِنْ صِحَّةِ الْعَزِيمَةِ ، مَا	يَفْعَلُ قَبْلَ الْفَعَالِ يَنْفَعِلُ
(تَعْرِفُ فِي عَيْنِهِ حَقَائِقُهُ ،	كَأَنَّهُ بِالذُّكَاةِ مُكْتَحِلُ)
(أَشْفَقُ - عِنْدَ اتِّقَادِ فِكْرَتِهِ -	عَلَيْهِ مِنْهَا ، أَخَافُ يَشْتَعِلُ)
(أَغْرُ ... أَعْدَاؤُهُ إِذَا سَلِمُوا	بِالْهَرَبِ ، اسْتَكْبَرُوا الَّذِي فَعَلُوا)
يُقْبِلُهُمْ وَجْهَ كُلِّ سَابِحَةٍ	أُرْبِعُهَا ، قَبْلَ طَرْفِهَا ، تَصِلُ (١)

(١) يقال : « أقبلته الشيء » ، إذا قابلته به . و « السابحة » ، من الخيل تسبح في عدوها ، صفة غالبية .

و « السوابح » هي الخيل .

جَرْدَاءٌ مِلءِ الْجِرَامِ مُجْفَرَةٌ تَكُونُ مِثْلِي عَسِيْبَهَا الْخُصْلُ (١)
 إِن أَدْبَرْتُ قُلْتَ : لَا تَلِيلَ لَهَا أَوْ أَقْبَلْتُ قُلْتَ : مَا لَهَا كَفْلُ (٢)
 وَالطُّعْنُ شَرٌّ ، وَالْأَرْضُ وَاجِفَةٌ ، كَأَنَّمَا فِي فُؤَادِهَا وَهْلُ (٣)
 قَدْ صَبَعَتْ نَحْدَهَا الدَّمَاءُ كَمَا يَصْبِعُ نَحْدَ الْخَرِيْدَةِ الْخَجَلُ
 وَالخَيْلُ تَبْكِي جُلُودَهَا عَرَقًا بِأَذْمُجٍ مَا تَسُحُّهَا مَقْلُ
 سَارٍ ، وَلَا قَفْرَ مِنْ مَوَاكِبِهِ كَأَنَّمَا كُلُّ سَبَسَبٍ جَبَلُ (٤)
 يَمْنَعُهَا أَنْ يُصِيبَهَا مَطَرٌ شِدَّةُ مَا قَدْ تَضَايَقَ الْأَسْلُ (٥)
 (يَا بَدْرُ ، يَا بَحْرُ ، يَا غَمَامَةُ ، يَا لَيْثَ الشَّرَى ، يَا حِمَامُ ، يَا رَجُلُ)
 (إِنْ الْبَنَانَ الَّذِي تُقَلِّبُهُ عِنْدَكَ ، فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَثَلُ)
 (إِنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ إِذَا وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ ، فَقَدَّ بِخِلْوَا)
 (قُلُوبِهِمْ فِي مَضَاءٍ مَا أَمْتَشَقُوا ، قَامَاتُهُمْ فِي تَمَامٍ مَا اعْتَقَلُوا)
 (مِثْلُكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ ، وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوْلُ)

/ ومن تدبّر هذا النهج في المديح ، ورجع إلى مدائحه الأول ، ولم يُخَلِّ فِكْرَهُ مِمَّا ١٤٤

(١) « الفرس الجرداء » ، القليلة الشعر و « مُجْفَرَةٌ » ، عظيمة الجفرة ، وهي الوسط ، مدح في الخيل .
 و « العَسِيْبُ » ، عظم ذنب الفرس ، و « الْخُصْلُ » ، جمع « خُصْلَةٌ » ، وهو شعر الذنب ، ويستحب طول شعر الذيل .
 (٢) « التليل » ، العنق ، و « الكفل » عَجَزُ الفرس . فهي مشرفة الكفل ، عريضة الصدر . إذا رأيتها مدبرة
 لم تر عنقها من إشراف كفلها ، وإذا رأيتها مقبلة رأيت تليلها وسعة صدرها ، وغاب عنك كفلها .

(٣) « الوهل » ، الفزع والرعب .

(٤) يسرى بخيله في الفلوات فلذلك امتنع أن تكون قفراً . و « السَّبَسَبُ » المطمئن من الفلاة الواسعة ،
 يصير بخيله كأنه في الفلاة جبل .

(٥) « الأسل » ، الرماح ، تشتجر رماحه من كثرتها ، فإذا جاء مطر لم يُصَبِّ الفلاة منه شيء لتضايقه

واشتباكه .

ذكرناه في أول هذا الباب ، وجد في هذا الشعر عاطفة الشاعر التي عطفتها على بدر ، وعرف أن هذا الشعر ليس مديحاً كالذي تلوكه الألسنة ، وينقده نقاد عصرنا هذا ، بل هو تصوير الرجولة وإبرازها في ألفاظها الحية ، وتفصيل مميزات عند الشاعر ، ووجد أيضاً صيدقاً في ذلك كله ليس لشعر ، ولا لشعر أبي الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه . وهذا موضع للتدبر والتأمل ، فتدبره وتأمله ، (١) ... وتأمل قوله : « يا بدر ، يا بحر ... » ، فقد ناداه باسمه ، ثم بصفة صفة من بعض صفاته ، فلما امتد في الصفات إلى كل غاية ، ووجد أنها مما لا يُفرغ منه ، ضمّن كل المعاني التي في نفسه من صفة بدر في لفظ واحد هو قوله : « يا رجل » ، فقد كانت الصفة الجامعة لكل صفات صاحبه هي « الرجولة » ، تحتها كل كريمة من معاني النفس : من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وسناء .

وكان المتنبي ، في عشرته لابن عمار ، قد بدأ يُفسح في شعره مجالاً لإحساسه القوى بالجمال القوى المشبوب ، معبراً عنه بالعبارة المُرسلة من قلبه القوى المشبوب ، فكانت قصيدته في وصف الأسد ، والمقابلة بينه وبين بدرٍ وأسدتيه وقوته ، رائعة قليلة المثل ، مُفردة من بين الشعر العالی ، اجتمعت له فيها الحكمة / السهولة ، والبيان المشرق ١٤٥ الندى ، والخيال الجامع المقدر المبدع ، والاختيار الصافي للصفات المميزة التي تجعلك تقرأ صفة ما يصف ، وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من أن تُورد لك بعض ذلك على سبيل المثال هنا ، إذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ، ثم استحكمت فيه حتى بلغت أقصى غاياتها من شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد .

قالوا : (خرج بدر بن عمار إلى أسدٍ فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج

(١) ليس فيما بقي لدينا من (المقتطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارئ أن يعيننا بذكائه وفطنته وأدبه ، فإن غمض عليه شيء ، فليراسلنا بعنواننا ، ليتسنى لنا أن نوفي أبا الطيب حقه في كتابنا إن شاء الله ، ثم انظر ص : ٢٥٠ - ٢٥١ .

قبله إلى أسدٍ آخرَ كان يقطع طريقَ السابلة ، ويُلاحق بهم أذىً كثيراً - فهاجه عن بقرة أفترسها بعد أن شبع وثقل ، فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربه حتى مرّغه في التراب) ، فقال :

أَمَعَفَّرَ اللَّيْثُ الْهَزْبِرِ بِسَوَطِهِ ! لِمَنِ أَدَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا ؟
 وَقَعَتْ عَلَى الْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ ، نُضِدْتُ بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ ثُلُولَا
 وَرَدَّ ، إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةَ شَارِبَا ، وَرَدَ الْفِرَاتَ زَيْرُهُ وَالنِّيْلَا
 (مُتَحَضِّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ ، لَا بَيْسُ فِي غِيْلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيْلَا)
 (مَا قُوِبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا ، تَحْتَ الدُّجَى ، نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا)
 (فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا)
 (يَطَأُ الثَّرَى مُتَرْفِقًا مِنْ تَيْهِهِ ، فَكَأَنَّهُ آسِي يَجُسُّ عَلِيْلَا)
 (وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوْحِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيْلَا) (١)
 (وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزْمَجِرُ ، نَفْسُهُ عِنَّا ، لِشِدَّةِ غَيْظِهِ ، مَشْغُولَا)
 (قَصَّرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَى ، فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا) (٢)
 (أَلْقَى فَرِيْسَتَهُ ، وَبَرَبَرَ دُونَهَا ، وَقَرَّبْتُ قُرْبًا خَالَهٗ تَطْفِيْلَا) (٣)
 / فَتَشَابَهَ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ ، وَتَخَالَفَا فِي بَدَلِكِ الْمَأْكُولَا
 (أُسْدٌ يَرَى عُضْوِيَهٗ فِيكَ كِلَيْهِمَا : مَتْنًا أَزْلًا ، وَسَاعِدًا مَفْشُولَا) (٤)

١٤٦

.....
 (مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَتَّى حَسِبْتُ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولَا)
 (وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيْلَا)

(١) « العفرة » ، لبدة الأسد ، وهو الشعر النابت على قفاه .

(٢) « الكمي » الفارسي في سلاحه . و « المشكول » المقيد .

(٣) « بربر » ، زمجر وزأر ، و « البربرة » ، كلام الغضبان .

(٤) « المتن » ، متن الظهر ، و « أزل » ، قليل اللحم .

وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ ، فَادَّانِي ،
 (أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ ، تَارِكٌ)
 وَالْعَارُ مَضَاضٌ ، وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
 (سَبَقَ التَّقَاءُ كُهُ بَوْتَبَةِ هَاجِمٍ)
 خَذَلْتَهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ ،
 قَبِضَتْ مَنِيتَهُ يَدَيْهِ وَعُنَقَهُ
 سَمِعَ آبِنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ ،
 (وَأَمْرٌ مِمَّا قَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ ،)
 تَلَفَ الَّذِي اتَّخَذَ الْجِرَاءَةَ نُحْلَةً ،
 وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ ، فَادَّانِي ،
 (أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ ، تَارِكٌ)
 وَالْعَارُ مَضَاضٌ ، وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
 (سَبَقَ التَّقَاءُ كُهُ بَوْتَبَةِ هَاجِمٍ)
 خَذَلْتَهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ ،
 قَبِضَتْ مَنِيتَهُ يَدَيْهِ وَعُنَقَهُ
 سَمِعَ آبِنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ ،
 (وَأَمْرٌ مِمَّا قَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ ،)
 تَلَفَ الَّذِي اتَّخَذَ الْجِرَاءَةَ نُحْلَةً ،

فهذا شعر لو ذهبت أبيّنه وأفصله وأجلوه ، لما أعانتني هذه الورقات ولا وسعتني ، وفيما رسمته في طريق كلامي عن شاعرية الرجل كفاية لو تدبرت . وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة ، ثم من هذه في وصف الأسد ، لأن هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) ، كما يقولون ، في شاعرية أبي الطيب من النهج الأول إلى النهج الثاني الذي لزمه وسار في دربه ، وتميّز به . ففي هاتين تجد أبا الطيب فتى وكهلاً وشيخاً . ولو قسّتهما إلى ما يأتي بعد من / شعره ، لوجدت أن الرجل قد بدأ يستمرّ مرّيه بدءاً من هذه السنوات التي أقامها عند بدر بن عمار منذ سنة ٣٢٨ ، وفيهما أيضاً الأصول النفسية والشعرية والبيانية التي مددنا لك أطرافاً منها في ثنّيات القول .

ولابدّ هنا من الإشارة إلى موضع يكثر مؤرّده في شعر أبي الطيب : ذلك أن الرجل = لاستحكام أصل الرجولة والمروءة والفتوة في نفسه غير مُدّع ولا متمثل = كان إذا رأى ما يخالف الرجولة ويحطّ منها ، اهتزّت نفسه واشمأز ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحبّ

من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر ، كما يحبُّ ذلك من نفسه فحين قرَّ الأسد الثاني الذي ذكره ، من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته) ، استدعى ذلك احتقارَ أبي الطيب له ، فنارت رجولته كُلُّها لهذا الفرار القبيح من أسدٍ هو الأسدُ ، فضمَّن شعره هذا المعنى من الازدراءِ والسخرية به حيث يقول :

« سَمِعَ (آيُنُ عَمَّتِهِ) به وبخاله ، فَتَجَا يُهَرِّوِلُ أَمْسٍ مِنْكَ مَهُولًا »
« وَأَمْرٌ مِمَّا قَرَّ مِنْهُ فَرَارُهُ ، وَكَقَتْلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلًا »

فمن ألوان السخرية والتهمك والازدراء لهذا الأسد الجبان ، أنه حين وصف فراره جعله (هَرَوَلَةً) ، والهرولة حالةٌ بين المشى والعدو ، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشى وأراد العدو ، ولكن منعه الهلعُ أن يعدو ، فاصْطَلَكَ ، فصار عدوه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشى . ثم أبدى في البيت الثاني كُلاً احتقاره له بقوله : « وَكَقَتْلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلًا » ، / فما يحسن بأسدٍ أن يفرَّ ، وإِنَّمَا هُمَا حُطَّيْتَانِ : إِمَّا صَبْرٌ وَظَفْرٌ ، وَإِمَّا ١٤٨ إقدامٌ وحتفٌ ، فبذلك يُثَبِّتُ الأسدُ أنه أسدٌ لا خروفٌ ولا نعامةٌ .

ولنضرب لك مثلاً آخر في ذلك . ففي سنة ٣٤٢ أوقع سيفُ الدولة بالروم في موقعة (بطن هِنْرِيْطَ) ، وكان الدُّمُسْتُقُ وولده يجاربان ، فجرح الدُّمُسْتُقُ ، وأصيب ولده في مقتل أشفى به على الموت ، وفرَّ الدُّمُسْتُقُ تاركاً ولده في يد الموت ، فلم يُفْتِ أبا الطيب ، حين ذكر هذه الموقعة ، أن يشير إلى هذه الحادثة ، وأن يدلَّ على ازدراءه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الجبان الذي خلف مُهْجَتَهُ وولده للموت ، فكان مما قال :

لَعَلَّكَ يَوْمًا يَا دُمُسْتُقُ عَائِدٌ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يُؤُولُ
(نَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً ، وَخَلَّفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ)
(أَتَسَلَّمُ لِلخَطِيئَةِ أَبْنِكَ هَارِبًا !؟ وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ تَخْلِيلُ)
(يُوَجِّهُكَ مَا أَنْسَاكَ مِنْ مُرْشَةٍ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ) (١)

(١) « المرشة » طعنة رمح تفجر الدم فترشه رشاً .

وهذه الأبيات غاية في الدلالة على استحكام الرجولة في طبع أبي الطيب ، وأنه كان يؤذيه ويؤثره أن لا يجد في الرجل صفة الرجولة : من إقدام وصبر ومروءة وشهامة ، وما إلى ذلك من كريم الصفات ، ولو كان أولئك الرجال من أعدائه . وأعد قراءة البيت الثالث ، فكأنك بأبي الطيب ينشده متعجباً مزدرياً ، ثم ييصق على صورة هذا الجبان الدمستق .

١٤٩ / ثم رجعنا إلى ما كنا فيه ... وجد أبو الطيب في بدر بن عمار (الرجل) ، فاستقرّ وهداً حيناً ، وملاً نفسه من خلال القوة والفتوة والمروءة التي تحقق بها بدر . ولكن وقع في هدوئه واستقراره واقع هزه ونفضه ، وذلك أنه وهو بطبرية ، التي كان بها العلويون من أعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك في قوله في صفة البحيرة ، بحيرة طبرية : (١)

« يَشِينُهَا جَرِيهَا عَلَى بَلَدٍ تَشِينُهُ (الأدعياء) و (القزم) »

لم يفتأ يجد من عداوتهم له كيداً كثيراً ، حتى سَعَوْا به لدى بدر بن عمار ، وأغروا به الشعراء ليغيظوه بألسنتهم ، وكان هنالك رجل ممتع بإحدى عينيه (أعور) ، يُدعى ابن كرويس ، وكان قد اتصل ببدر ، وكان من أشد أعدائه عليه ، ولذلك قصده بالذكر من بينهم . ونحن وإن لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (الممتع) ابن كرويس ، إلا أنه يخيّل إلينا أنه كان من صنائع العلويين أو الفاطميين ، (٢) صحب بدر كالعين عليه ، ثم ليحمله ينحاز إليهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، على عاداتهم مع الأمراء وغيرهم ، تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية إلى العلوية أو الفاطمية .

فلما كان ذلك ، دخل على فرح أبي الطيب ما ردّه إلى قلقه وأضطرابه وغمومه

(١) انظر ص : ٢٥٣ .

(٢) انظر ما سيأتي أول الفصل العاشر ص : ٢٧٣ .

وهومومه ، فعاد يذكر أحزانه ، ويُقلِّب الرأى فى الفراق ، إذ لم يجد عند بدر عَضُدًا ينصره
نُصرة الحبِّ لحبيبه ، فيقول :

كَانَ الْحُزْنَ مَشْعُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الْوِصَالَ
/ كذا الدنيا على مَنْ كان قَبْلِي ، صُرُوفٌ لَمْ يُدْمَنَ عَلَيْهِ حَالًا
(أَشَدُّ الْعَمِّ عِنْدِي فِي سُورٍ) تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ آتِقَالًا (١٥٠)
(أَلْفَتْ تَرَحُّلِي ، وَجَعَلْتُ أَرْضِي) قُتُودِي وَالغُرَيْرِي الْجُلَالَ (١)
(فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَامًا ، وَلَا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالًا)
(عَلَى قَلْبِي ، كَانَ الرِّيحَ تَحْتِي أَوْجْهَهَا جَنُوبًا أَوْ شِمَالًا)

ثم يقول لبدرٍ ، بعد أبياتٍ يذكر ما لقي من أعدائه من الشعراء :

فَيَا أَبْنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ لَدْنٍ مَوَاضِعَ يَشْتَكِي الْبَطْلُ السُّعَالًا
وَيَا أَبْنَ الضَّارِّينَ بِكُلِّ عَضْبٍ مِنْ الْعُرْبِ ، الْأَسَافِلَ وَالْقِلَالَ (٢)
أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بَدْمِي ، وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالًا ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَ
وَقَالُوا : هَلْ يُبْلَعُكَ الثُّرَيَّا ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، إِذَا شِئْتُ أَسْتِفَالًا

فهو بهذه الأبيات يعرض على بدرٍ ما يلاقى من الكيد ، وَيَسْتَعْدِيهِ بِالْبَيْتِ الْأَخِيرِ
على نصرته على أعدائه . ولا ندرى ما الذى كان يكادُ به أبو الطيب ؟ ولكن نظنَّ أنهم
كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوِّ والطموح ، وما يردُّ فى أثناءه من الوعيد للطفاعة
والملوك والأعداء ، والإندار لهم أن يصيبهم من قبَله كلُّ مكروهٍ . والحقيقة أن هذه المعانى

(١) القتود ، خشب الرحل الذى يوضع على البعير . « الغريرى الجلال » ، نسبة إلى « الغرير » وهو فحل
كريم من الإبل عظيم البنيان . و « الجلال » مبالغة فى « الجليل » .

(٢) « القلال » ، جمع « قلة » ، وهى رأس كل شىء يقال : « قلة الجبل » ، أى رأسه ، يعنى أخصاء العرب

في شعر أبي الطيب مما يستجلب التنبّه لها ، والوقوف عندها ، فليس في العربية كلّها شاعرٌ قد كثرت في شعره المعارضُ كما كثرت في شعر أبي الطيب ، بل أنت تقلّب دَوَاوِين / الشعراءِ جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعاني في الإنذار والوعيد والترئص ، وخاصةً في المديح الذي يُراد به عطفُ القلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة الأيدي لقبض نوالها . وهذه المعاني مما يعكس على الشعراء مُرادهم إن راموه وتعاطوه في أشعارهم . أمّا أبو الطيب فقد جعلها عمود شعره غير مُبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة في شعره = أغنى اعتماده في كثير منه على الإنذار والوعيد = بدأ أعداؤه في جوار بدرٍ يُسمونه « المتنبّي » ويغيظونه بذلك ، ويعنون أنه يتشبه بالأنبياء ، إذ كان عمود نبوتهم الإنذار والوعيد أيضاً ، وهو قد جعل بنیان شعره على هذين . (١) ولعلّ هذا هو المراد بقوله : « أرى المتشاعرين غرّوا (بدمي) » . فهذا ذمّه عندهم كما ترى .

واشتدّ هذا الكيد على أبي الطيب حتّى حمّله على فراق بدرٍ ، إذ (نكر جانبهُ) حين لم يجد عنده كلّ ما أراد ، ووجدّه يسمع للوشاة ويصغفهم أذنه . وكان آخر ما لقي أبو الطيب من ذلك : حين سار بدرٌ إلى الساحل = ساحل طبرية = حين أضيف عمله إلى عمله بطبرية ، وكان أبو الطيب قد تخلف عن المسير معه ، فانتهر ذلك الأعور ابن كروّس ، فكتب إلى بدرٍ يقول له : « إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك » . (٢) وبلغ ذلك أبا الطيب ، فثارت نفسه وعزم الرحيل والفراق ، ولكنه أجّل ذلك حتى يعود بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن / بدرًا كان قد حمل في نفسه شيئاً من آثار سعايات الأعور ابن كروّس ، فلما عاد إلى طبرية ولقيه أبو الطيب ، فطن لما يدور في نفس بدرٍ ، وخاف أن يخذله ، فاعتمد الرحلة وطى الأرض ، ولذلك كانت آخر

(١) انظر ما سلف في آخر الباب السادس ، ص : ٢٣٢ ، ٢٣٥ .

(٢) هذا من نص كلام أبي الطيب ، في تقديمه لقصيدته التي منها الأبيات التالية .

قصيدة مقصّدة مدح بها بدرًا بينة الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا ، فهو يقول فيها :

(أنكرت طارقة الحوادث مرة ، ثم اعترفت لها فصارت ديدنا)
وقطعت في الدنيا الفلا ، وركابى فيها ، ووقتي الضحى والموهنا

وظهر فيها أيضاً خوفه أن يُسلمه بدر إلى أعدائه ، فيُصيدوا له ويفتكوا به على غرة ، فصرح لبدر بذلك حيث يقول ، يذكر أمر تخلفه عنه ، ثم مخاوفه ، ثم يُنذره :

فطن الفؤاد لما أتيت إلى النوى ولما تركت مخافة أن تظننا
أضحى فراقك لى عليه عقوبة ليس الذى قاسيت منه هيناً
فاغفر ، فدى لك ، وأحبنى من بعدها لتخصنى بعطية منها (أنا)
(وأنه المشير عليك فى بضلة) فالحرُّ مُمتحنٌ بأولاد الزنا (١)
(وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً فى مجلس أخذ الكلام اللذعنى)
(ومكاييد السفهاء واقعة بهم ، وعداوة الشعراء بئس المقتنى)
لعبت مقارئة اللعيم ، فإنها ضيف يجر من الملامة ضيفنا (٢)
(غضب الحسود ، إذا لقيت راضياً ، رزة أخف على من أن يوزنا)

ثم بقى مع بدر وهو يُضمّر فى نفسه فراقه ، فكان يتتبع مرضاته فى كثير / مما
لا يرضى به ، حتى شرب الخمر فى منادمته ، ليصرف بدرًا عمّا كان فى نفسه قليلاً ،
حتى تعرض له الساعة المواتية للفراق . فلما أتت الساعة ، بادراً واحتمل أهله ونفسه
وخرج إلى دمشق ، وقصد عملاً من أعمالها يقال له : (حمى جرش) ، كان به أبو

(١) « المشير » ، هو الأعور ابن كرويس .

(٢) « اللعيم » تعريض أيضاً بابن كرويس . و « الضيفن » ، الذى يأتى مع الضيف ولم يُدع .

الحسين على بن أحمد المرّي الخُراساني ، وكانت بينهما مودة وهما بطبرية ، فلجأ إليه ،
واحتمي بحماه ، وذلك في سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق .

لا أَقْتَرِي بِلْدَاءَ إِلَّا عَلَى غَرِي
وَلَا أُمُرٌ بِخَلْقِي غَيْرِ مُضْطَغِينِ
وَلَا أَعَاشِرُ مِنْ أُمَّلَاكِهِمْ مَلِكاً
إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثْنِ
مَدَحَتْ قَوْمًا... وَإِنْ عَشْنَا نَظَّمَتْ لَهُمْ
قَصَائِدًا مِنْ إِيَاثِ الْحَيْلِ وَالْحُصْنِ
فَلَا أُحَارِبُ مَدْفُوعاً إِلَى جُدْرٍ ،
وَلَا أَصَالِحُ مَعْرُوراً عَلَى دَخْنِ

١٥٥ / ظَفِر « ابن كروّس » الأعرور بأبي الطيب ، وأفسد عليه بدر بن عمار . وبين
أن دهاء أبي الطيب وجيلته أعانته على اجتناب الخطر الذي كان له رصداً في طبرية ،
والذي كاد يُدرّكه مرة أخرى بعد في سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويون ليقتلوه فقاتهم
إلى الرملة ، وهذا مما يرجح عندنا أن « ابن كروّس » كان من شيعة العلويين ، أو من
أنفسهم ، أو من دعاة الفاطمية . (١)

١٥٦ وكان أبو الطيب ، كما قدمنا لك ، وهو عند بدر قد بدأ يطمئن ثم هاجه هذا
الأعرور ابن كروّس ، فانطلق إلى غايّة في نفسه من الحقد والثورة والافتحام ، ولكنه كتم
ذلك . فلما نزل بعلي بن أحمد المُرّي كانت قصيدته إعلاناً / للحرب مرة أخرى ،
وزلزلة وقعت في قلبه فأخرجت قديمه من الأحقاد والترايب والآمال والآراء ، واستمر
ينتفض ويقذف بركائه بحممه ، إلى أن كان اتصاله بأبي العشائر في أواخر سنة

(١) انظر ما سلف ص : ٢٧٠ ، وما سيأتي ص : ٢٩٠ - ٢٩٤ .

٣٣٦ . (١) وكان شعره في هذه الأغراض ، ثم في هذه الفترة ، نظراتٍ متطائرةً كالشَّرر تحت ظلام الليل ، وهى مع ذلك حكيمة تقع في المَفْصِلِ ولا تُحْطِىء ، إذ كان الرجل قد تحنَّك واستحكَم واستمرَّ في الشعر على طريقته ، ممَّا وَجَدَ من الهُدَاةِ في جوار بدر ، ثم ما وجد من الكيد بَعْدُ . ولم يتَّصِلْ بَعْدَ بَدْرِ بِأَمِيرٍ يُنادمه ، بل كان يتنقل من مكان إلى مكان ثائراً مُغْضَباً مُوعِداً مُنْذِراً مُرْعِداً ، يُريدُ وَيَبْغِي ، وَيُؤْمِلُ وَيَنْتَظِرُ ، وَيَمْلُ وَيَسَامُ ، وَيَحْنُقُ ثم ينفجر ، حتى كان ما كان من لقاءه أبا العشائر ، ثم سيف الدولة . (١)

فانظر الآن إلى هذا الشعر الذى تلقى به على بن أحمد المرى ، بعد أن تردَّ النظر مرةً أخرى إلى ما كتبناه في الفصل الثامن يقول :

(لا أَفْتِخَارُ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ)	(مُدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لَا يَنَامُ)
(لَيْسَ عَزْمًا مَا مَرَّضَ الْمَرْءَ فِيهِ ،)	(لَيْسَ هَمًّا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ)
(وَاحْتِمَالُ الْأَدَى ، وَرُؤْيَةُ جَانِيهِ ،)	(غِذَاءُ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ) ^(٢)
(ذَلٌّ مِنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بَعِيشٍ)	(رَبٌّ عَيْشٍ أَخْفَ مِنْهُ الْجِمَامُ)
(كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ)	(حُجَّةٌ لِأَجَىءَ إِلَيْهَا اللَّئَامُ)
(مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ،)	(مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ)
(/ ضَاقَ ذَرْعًا بِأَنْ أَضِيقَ بِهِ ذَرٌّ)	(عَا زَمَانِي ، وَأَسْتَكْرَمْتَنِي الْكِرَامُ)
(وَاقْفًا تَحْتَ أُخْمَصِي قَدْرٍ نَفْسِي ،)	(وَاقْفًا تَحْتَ أُخْمَصِي الْأَنَامُ)
(أَقْرَارًا أَلْدُ فَوْقَ شَرَارٍ !!)	(وَمَرَامًا أَبْغِي وَظُلْمِي يُرَامُ !!)
(دُونَ أَنْ يَشْرُقَ الْحِجَارُ وَتَجْدُ)	(وَالْعِرَاقَانُ ، بِالْقَنَا ، وَالشَّمَامُ !)

(١) انظر ما سيأتى في أول الباب الحادى عشر ، والثانى عشر ، ثم ما يأتى ص : ٢٨٠ .

(٢) انظر ما قلته في هذا البيت ص : ٢٥٢ ، و « توقيح المتنبي » ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

فهذه أبياتٌ قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلها ، بحكمتها وتجربتها وعلومها وقوتها
ورُجولتها وثورتها وانتقاضها وزلازلها ، وبآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها ، وبصدقها
وعواطفها المتسعة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيح المتنبي) على كل بيت . (١)
فلا تحسبن شاعراً يستطيع أن يأتي بمثلها أو يسرق معانيها ، إلا أن يستطيع أن يسرق
نفسَ أبي الطيب وقلبه جملةً من بين جنبيه ، أو إلا أن يكون قد مُهد له في نفسه وفي
صدقه وفي آلامه وغير ذلك ما تيسر لأبي الطيب .

وألقي أبو الطيب هذه (القنابل) الحكيمة في « حمى جرش » ، ثم أدركته
مكايدُ الأعور ابن كروّس ، أو العلويين إن شئت ، فعجل بالرحيل غير مختارٍ له ، فقال
يودّع صاحبه المرئى ويعتذر له ، وقد أبان في هذه الأبيات كل الإبانة ، فهو راحل « في
عجل » ، وهو راحل عنه غير مختارٍ :

(لَأُتَنَكَّرَنَّ رَجِيلِي عَنْكَ فِي عَجَلٍ فَإِنِّي لِرَجِيلِي غَيْرُ مُخْتَارٍ)
(وَرَبِّمَا فَارِقَ الْإِنْسَانَ مُهْجَتُهُ يَوْمَ الْوَعَى - غَيْرَ قَالٍ - حَشِيَّةَ الْعَارِ)
(وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَادٍ أَحَارِيهِمْ ، فَأَجْعَلُ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ أَنْصَارِي) (٢)

١٥٨ / ثم أنطلق أبو الطيب من « حمى جرش » يتقحّم البوادي عَجِلاً يُفُورُ فَوْرَانَ
القدر على نارها المتضرمّة ، وتسعرت الدنيا في عينيه ، وتلذّعت الأفكار النارية بين جنبيه ،
فخرج شعره كمعمعة الحريق ونقيضه وزفيره وفرقعتيه ، كما سترى . ومن شدّة ما لقي أبو
الطيب من كَيْدِ هذا الأعور ابن كروّس ، كان - على عادته - يتخيّله كلما تلّفت في
مسيره واقتحامه ظلمات البادية . وقد حَفِظَ لنا أبو الطيب في شعره - على عادته أيضاً
- صورةً ناطقةً من إحساسه وعواطفه وهو يطوى البادية طياً عَجِلاً فقال : (٣)

(١) انظر ما قلته في هذا البيت ص : ٢٥٢ ، و « توقيح المتنبي » ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

(٢) أى : فأجعل نذاك بعض أنصاري عليهم .

(٣) لقد أكثرنا من نقل شعر أبي الطيب ، إذ كان السياق الآن يقتضى ذلك ، ولتلا نقطع القارىء بالرجوع =

رَكِبْتُ مُشَمَّرًا قَدَمِي إِلَيْهَا ، وَكَلَّ عُدَافِرِي قَلْبِي الضُّفُورِ
(أَوَانًا فِي بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحْلِي) وَأَوْنَةً عَلَى قَتَدِ الْبَعِيرِ)
(أَعْرَضُ لِلرَّمَاكِ الصَّمِّ نَحْرِي ، وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ)
(وَأَسْرِي فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي ، كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ)

وهذا البيتان الأخيران فيهما من رجولة أبي الطيب وتقحُّمه ومضائه وتدفعه واستهانته بالشقاء في سبيل آرابه وآماله ما فيهما ، ففسرهما لنفسك ، وأعلم أن هذا الرجل شاعرٌ مبینٌ ، قلبه في لسانه ، وعواطفه في بيانه :

(فَقُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا ، عَلَى شَعْفَى بِهَا ، شَرَوَى نَقِيرِ)
(وَنَفْسِي لَا تُجِيبُ إِلَى تَحْسِيسِ) وَعَيْنِي لَا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ)
(وَكَفِّ لَا تُنَازِعْ مَنْ أَتَانِي) يُنَازِعُنِي ، سِوَى شَرَفِي وَخَيْرِي) (١)
(وَقَلَّةِ نَاصِرٍ .. جُوزِيَتْ عَنِّي) بِشَرِّ مَنْكَ ، يَا شَرَّ الدُّهُورِ !)
(عَدَوِي كُلُّ شَيْءٍ فِيكَ حَتَّى) لَخِلْتُ الْأَكْمَ مُوَعْرَةَ الصُّدُورِ) (٢)
(فَلَوْ أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفْسِي) لَجُدْتُ بِهِ لِذِي الْجَدِّ الْعَثُورِ)
(وَلَكِنِّي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي ، وَمَا خَيْرُ الْحَيَاةِ بِإِلَّا سُورِ ؟)
(يَا أَبْنَ كَرُوسٍ ، يَا نِصْفَ أَعْمَى ، وَإِنْ تَفَخَّرَ فَيَا نِصْفَ الْبَصِيرِ)
(تُعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكْنٍ ، وَتُبَغِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ) (٣)
(فَلَوْ كُنْتُ أَمْرًا يُهْجَى هَجُونًا ، وَلَكِنْ ... ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ)

= إلى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية أخرى . فعلى القارئ أن يستنبط ويستخرج المعاني على الأصول التي درجنا عليها في كتابنا هذا . والتدبر والتأمل هما الأصول في العلم والاستنباط ، وهما عماد « التدقيق » الذي أشرت إليه في المقدمة .

(١) « الخير » ، بكسر الخاء ، الكرم والتبذل .

(٢) « الأكم » ، جمع « أكمة » ، وهي التل المرتفع . و « موعرة الصدور » ، متوقدة بالغيظ .

(٣) « لُكْنٌ » جمع « ألكن » ، وهو الذي لا يُبين بالعريّة من عجمة لسانه .

وإما تدبرت الأبيات ، فستجدن أن نفسه الكريمة الأبيّة الأنوفة المستنكفة ، قد أريد بها الشرُّ والأذى فاهترت ، وتدافعت هزّاتها في أعصابه كلّها ، فأثبتها على لسانه المبين في هذه الألفاظ المتقصّفة بأصواتها ومعانيها ، وألوانها البيانية ، في التدفّع والالتفات والانتقال ، ثم في البغض للدنيا وازدراؤها ، ثم في السخرية والتهكّم والاحتقار لهذا الأعرور الذى هاجه عن عُثّه في جوار ابن عمار .

وأراد الله خيراً بشاعرية هذا اللسان القوَال العربيّ المبين ، إذ رَمَاه بآبن كروّس بعد هذأةٍ واستجمام . فلَمَّا طَوَى البادية ، على ما وصفنا ، يقصِّدُ قَصْدَ أنطاكية ، دخلها سنة ٣٣٤ ، وكان بها « أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد الحَصِيبي » ، وكان يُنوب عن أبيه في مجلس القضاء بأنطاكية . وكان أبو عبد الله الحَصِيبي داهيةً من دُهاة عصره ، فيما نرى ، فقصده أبو الطيب / بمدحه ، وجَعَلَ أوّل القصيدة يدُلُّ على ١٦٠ ما وصفنا لك من تسعُّر الدنيا في عينيه ، وبين جنبيه ، وكانت معاني مدّحه من هذا الباب أيضاً . وقد تضمنت الأبيات التى سننقلها لك آراءه في الجيل الذى كان يتقلّب بين رجاله ، وازدراءه للرجال الذين قصدهم فلم يُلِفْ عندهم خيراً يُعِينه على حاجته التى قال فيها فيما مضى من الأبيات : (فقلُّ في حَاجةٍ لم أقض منها) [ص : ٢٧٦] ، ثم وصف رحلته بين أهل البادية ، وما كان يحذّره في أرضهم خَوْفَ الطلِّبِ أن يهتدى إليه فيدرّكه فيفتكّ به ، ثم يثورُ ويتمزّعُ في أعنة نفسه فيُنذِرُ ويوعِدُ وبذلك تعرف أن نفسه كانت على غايتها مُتوتّرةً مُستوفّزةً ثائرةً . ثم يأتيه كتاب جدّته فيَقصِّدُ العِراقَ ، فيمنعه أعداؤه من العلويين الذين أرادوا به السوء من دخول الكوفة التى بها جدته ، فيجلبُ ذلك عليه الهمُّ والألم ، فتموتُ جدّته ، فيهبجُ ويتلذّعُ ويغنُّ ويكي ، ثم تدركه رُجولته فتردُّ عليه قوة مضاعفةً ، فيبدعُ وينفردُ بقصيدة من أجزل الشعر وأرصنه ، (١) ومن

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته في رثاء جدته فيما مضى في نسبه وغيره ، وذلك لما ترى من

أنها كانت تحمل نفس أبى الطيب كلها : صريحها وورغوتها ، [انظر ما سلف ص : ١٦٠ - ١٧٧ ، ثم ص : ٢٤١ -

٢٤٣ ، ثم ما سيأتى ص : ٢٧٢ - ٢٧٥] .

أكثر شعره خاصّة دلالةً على ما في نفسه ، وعلى ما أصابه في حياته من مولده إلى يومه هذا سنة ٣٣٥ .

يقول أبو الطيب لأبي عبد الله الحَصبِيّ القاضى :

(أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِيذَا الزَّمَنِ (يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ)
 (وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْحَرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ)
 (حَوْلَى بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ) (خَلَقٌ) تُخْطَى إِذَا جُمِعَتْ فِي آسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ ؟)

/ وهذا بيتٌ يهجو بألفاظه قبل أن يهجو بمعانيه ، ويدلُّ على ما في نفس الرجل من الآلام ، وما لقي من أهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثاني من البيت الثاني صفة صادقة لعصره كما تجدها في التاريخ ، وقد أشرنا إلى صفة هذا العصر فيما مر بك :

(لَا أَقْتَرِي بَلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ ، وَلَا أُمُرٌ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَظِنِ) (١)
 (وَلَا أُعَاشِرُ مِنْ أُمَّلَاكِهِمْ مَلِكًا إِلَّا أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَتْنِ)
 (إِنِّي لِأَعْدِرُهُمْ مِمَّا أُعْنِفُهُمْ ، حَتَّى أَعْنَفَ نَفْسِي فِيهِمْ ، وَأَنِي) (٢)
 (فَفَقَّرَ الْجَهُولُ بِلَا عَقْلِ إِلَى أَدَبٍ ، فَفَقَّرَ الْحِمَارُ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنِ) (٣)
 (وَمُذْقِعِينَ بِسُبُوتٍ صَحْبَتُهُمْ عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ ، كَاسِيِينَ مِنْ دَرَنِ) (٤)

(١) « قرا الأرض واقترأها » ، تتبعها أرضاً أرضاً وسار فيها ينظر حاملها وأمرها .

(٢) « ونى بنى فى الأمر » ، ضعف وقصر وتوائى .

(٣) « الرسن » ، الحبل الذى يقاد به الحمار .

(٤) « المدقع » ، اللاصق بالدقعاء ، وهى الأرض ، من فقره وذله . و « السبوت » ، الأرض القفر

الصفصف . و « الدرن » ، الوسخ .

خُرَابٍ بَادِيَةٍ غَرْنَى بَطُونُهُمْ ، مَكْنُ الضُّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلَا ثَمَنِ (١)
 (يَسْتَخْبِرُونَ فَلَا أُعْطِيهِمْ خَبْرِي وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظَّنِّ) (٢)
 وَخَلَّةٍ فِي جَلِيسِ التَّقِيهِ بِهَا كَيْمَا يَرَى أَنَّنَا مِثْلَانِ فِي الْوَهَنِ

وهذا البيت مما يدل على ذهاء أبي الطيب وسعة حيلته ، ودقته في الحذر إذا أحيط به ، وخاف أن يظفر به عدوه :

وَكَلِمَةٍ فِي طَرِيقِ خِفْتِ أُغْرِبُهَا فُيْهَتَدَى لِي ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ (٢)
 (قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَازِلَةٍ وَكَيْنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْحَشِينِ)
 (كَمْ مَحْلَصٍ وَعُلَى فِي خَوْضٍ مَهْلَكَةٍ ، وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بِالذَّمِّ فِي الْجُبْنِ)
 (لَا يُعْجِبُنَّ مَضِيماً حُسْنُ بَرَّتِهِ ، وَهَلْ تَرَوْقُ دَفِيناً جَوْدَةَ الْكَفَنِ) (٣)
 (لَللَّهِ حَالٌ أَرْجِيهَا وَتُخْلِفُنِي ، وَأَقْتَضِي كَوْنَهَا دَهْرِي وَيَمْطُلُنِي)

١٦٢

ولا يفوتنك هنا أن أبا الطيب في هذه الفترة قد أشار إلى مطلب له بهذا البيت في هذه القصيدة ، ومن قبل ما أشار إليه في القصيدة التي قبلها بقوله : « فقل في حاجة لم أقض منها » [ص: ٢٧٦، ٢٧٧] ونحن نقفك عند هذا البيت لتجعله منك على ذكرٍ حتى يأتي تأويله فيما يستقبل :

(مَدَحْتُ قَوْمًا ، وَإِنْ عَشْنَا نَظَّمْتُ لَهُمْ قَصَائِدًا مِنْ إِبَانِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ)
 تَحْتَ الْعَجَاجِ ، قَوَافِيهَا مُضْمَرَةٌ ، إِذَا تُنْوَشِدْنَ لَمْ يَدْخُلْنَ فِي أُذُنِ

(١) « الخراب » ، اللصوص الذين يسرقون الإبل . « غرنى » جمع « غرثان » وهو الجائع الشديد الجوع .
 « مكن الضباب » ، يبيضها ، والبداة يأكلون بيض الضب .

(٢) من هذا البيت وما بعده ، أخذ التنوخي وأشباهه من أعداء أبي الطيب ، ما زعموه من أنهم سألوه عن نسبه ، فكان يقول : « إني رجل أطوى البوادي وحدي ، وأخبط القبائل . ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها » . انظر : ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) « المضيم » ، الذى نزل به الضمير ظلماً فقهره وأذله . و « البزة » ، هيئة اللابس الثياب وشارته .

- (١) (فَلَا أَحَارِبُ مَدْفُوعاً إِلَى جُدْرٍ ، وَلَا أَصَالِحُ مَعْرُوراً عَلَى دَخْنٍ)
 (٢) (مُخَيِّمُ الْجَمْعِ بِالْبَيْدَاءِ ، يَصْهَرُهُ حَرُّ الْهَوَاجِرِ فِي صَمٍّ مِنَ الْفِتَنِ)

وَيُنَّ من نَفْسِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي هَذَا الشَّعْرِ أَنَّهُ قَدْ تَطَلَّقَ وَأَسْتَنَّ فِي عَدُوهِ إِلَى غَايَتِهِ مَاضِياً لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ، وَأَنَّ لِسَانَهُ قَدْ انْدَلَقَ بِمَعَانِي قَلْبِهِ ، فَهُوَ مَبِينٌ فِي شَعْرِهِ وَإِشَارَتِهِ ، غَيْرُ حَافِلٍ بِمَا سَوْفَ يَلْقَاهُ مِنَ الْكَيْدِ فِيمَا بَعْدُ . وَلَوْلَا أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ بَرَكَانِيَّ الطَّبَعِ = يَخْمَدُ ثُمَّ يَفُورُ ، وَيَقْرُؤُ ثُمَّ يَتَقَلَّعُ = لَمَا كَانَ مِنْ أَثَرِ كَيْدِ أَبِي كَرْوَسٍ لَهُ ، مَا تَرَى فِي كَلَامِهِ مِنَ التَّنَدُّقِ وَالتَّدَافُعِ الَّذِي تَرَاهُ فِيمَا رَوَيْنَا لَكَ مِنَ الشَّعْرِ . وَيَحْسُنُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ هَذَا أَنْ تَتَّبِعَ مَا رَسَمْنَا لَكَ فِي التِّيْقِظِ لِإِشَارَةِ الرَّجُلِ ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْكَ عَلَى ذِكْرٍ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ حِينَ يَفُورُ وَيَقُولُ ، تَتْرَأَى لِعَيْنِيهِ ، وَيَدْوَى فِي مِسْمَعِيهِ ، كُلُّ مَا سَمِعَهُ أَوْ مَرَّ بِهِ ، فَهُوَ يُوجِزُ لَكَ مَا فِي نَفْسِهِ ضَمِيراً فِي آيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ .

/ وَقَدْ اسْتَمَرَّ أَبُو الطَّيِّبِ عَلَى حَالَتِهِ الَّتِي نَصِفُ ، حَتَّى اتَّصَلَ بِأَبِي الْعِشَائِرِ ، (٣)
 فَكُلُّ شَعْرِهِ فِي هَذِهِ الْفِتْرِ آرَاءٌ وَنظَرَاتٌ كُلُّهَا مُسْتَبِطٌ مِنْ يَنَابِيعِ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ لَمَّا قَلْنَا بِهِ مِنْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي نَبُوغِ الْمُتَنَبِّيِّ هُوَ (اسْتِعَابُهُ مَا يَحْسُ بِهِ مِنَ الْعَوَاطِفِ ، وَدِرَاسَةُ قَلْبِهِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَحْزُنُ فِيهِ مِنَ الْآلَامِ وَالْمَعَانِي الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْ هَذِهِ الْآلَامِ ، ثُمَّ اهْتِدَاؤُهُ إِلَى أَنَّ الشَّعْرَ لَا يَكُونُ شَعراً إِلَّا حِينَ يَرَوَى مِنْ مَعَانِي الْقَلْبِ وَيَسْتَقِي مِنْهَا) . (٤)

وَيُنَّا الرَّجُلَ كَذَلِكَ ، إِذْ جَاءَهُ كِتَابُ جَدَّتِهِ تَسْأَلُهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهَا وَتَشْكُو شَوْقَهَا

(١) « عَلَى دَخْنٍ » ، الْغَشِّ وَالْفَسَادِ الْمُسْتَوْرِ بِمَثَلِ الدَّخَانِ .

(٢) « الصَّمِّ » جَمْعُ « صَمَاءٍ » ، وَ « الْفِتْنَةُ الصَّمَاءُ » ، الشَّدِيدَةُ ، لَا يُسْمَعُ فِيهَا صَوْتٌ نَاصِحٌ .

(٣) انظُرْ مَا سَلَفَ ص : ٢٧٤ ، وَالتَّعْلِيقُ هُنَاكَ .

(٤) انظُرْ مَا سَلَفَ ص : ٢٥١ .

إليه ، وطول غيبته عنها ، فلما قصد الكوفة التي هي بها وشارفها ، حيل بينه وبين دخولها ، ورؤية جدته المسكينة ، على ما مضى في تأويل هذه الواقعة . (١) فلما ماتت رحمها الله ثارت نفسه ، وقذفت بكل مكنونها من الآلام التي لقيها ، والحوادث التي فعلت فيه فعلها ، وكاد يصرح بما لقي من كيد العلويين له في مسألة نسبه على ما فسرناه ، وما قصد به من الحسد والوشاية . ويكفي أن نشير هنا إلى بيت واحد من قصيدته في رثاء جدته لتعلم أين بلغ الألم من قلب أبي الطيب حتى مزقه ، والبيت لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل ، وفي تدبره أو تأمل لفظه غنى ، إذ كان حسرةً محبوسةً في ألفاظ ، وكمداً مكفوفاً وراء كلمات ، يقول :

(عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتُ بِنَا فَلَمَّا ذَهَبْتَنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمًا)
/ مَنَافِعُهَا : مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا ، تَغْدَى وَتَرَوَى : أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَأَ

واجتمع على أبي الطيب ما في قلبه من الألم ، وما فجأه من موت جدته ، فتنزت نفسه بقوتها حيناً ، واستسلمت بحكمتها وفلسفتها أحياناً ، وهو فيهما جميعاً حكيم بليغ ، فهو بعد أن ثار ما ثار بمثل قوله في رثاء جدته :

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتَ فَأَذْهَبِي ، وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كَرَائِبِهَا قَدَمَا
فَلَا عَبَّرْتُ لِي سَاعَةٌ لَا تُعِزَّنِي وَلَا صَحِبْتَنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

وأنطلق من بغداد = حيث كان حين ماتت جدته = قاصداً أنطاكية بالشام ،

يقول في القاضي « أبي الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي » :

أَنْعَمَ وَلَدٌ فَلِأُمُورٍ أَوْ آخِرٌ أَبَدًا ، إِذَا كَانَتْ لَهُنَّ أَوَائِلُ

(١) انظر ما سلف ص : ١٧٢ - ١٧٥ ، والتعليق هناك رقم : ١ .

مَا دُمْتُ مِنْ أَرَبِ الْحِسَانِ ، فَإِنَّمَا رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلُّ زَائِلٌ (١)
لِللَّهِوِ آوِنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا قُبْلٌ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلٌ
جَمَحَ الزَّمَانُ ، فَلَا لِدِيدٌ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوبُ ، وَلَا سُورٌ كَامِلٌ

ومثل هذا الرأى قليل عند أبى الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به ، وإنما أتاه من أنه كان قد اشتدَّ في فَوْرته إلى الغاية حتى بلغ أقصى ما تحتمله نَفْسُهُ من العَنَتِ والمشقَّةِ ، ثم أصابته فَتْرَةٌ تعقَّب ذلك لا بُدَّ منها ، فاستخرجت حكمته هذا المعنى ، وهو يحمل من اليأس والتَّعب والتَّصَبُّ ما ترى في مثل قوله : « رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلُّ زَائِلٌ » ، وقوله : « جَمَحَ الزَّمَانُ » ، فهذا كلام اليأس المستسلم ، إذا قاله / مَنْ كانٍ مِثْلُ أبى الطيبِ في تدفُّعِهِ وتَقَحُّمِهِ وثورته ، فهو أشبه بالاستجمام من التعب والشَّقْوَةِ والتَّصَبُّ . هذا على أن الحالة التي كانت متلبِّسَةً به ، لم تفارقه كَلَّ المفارقة ، بل كانت فيه أعقابٌ منها ، فلما قصدَ المعانى التي يقصدها على طبعه وغريزته ، والتي تكون بألفاظها كالقنبلة في حديدها ، خرجت منه أَلْفَافٌ تعبيراً ، وأقلَّ تفجُّراً منها في غيرها فيقول لهذا القاضى :

لَا نَجْسُرُ الْفُصْحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا بَيْتاً ، وَلَكِنِّي الْهَزِيرُ الْبَاسِلُ
مَا نَالِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ شِعْرِي ، وَلَا سَمِعْتُ بِسِحْرِي بَابِلُ
(وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَدَمَّتِي مِنْ نَاقِصِ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ)
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْلِيلِ عَصْرِ يَدْعِي أَنْ يَحْسُبَ الْهِنْدِيُّ ، فِيهِمْ بِأَقْلُ (٢)

.... وكذلك ، ولكنه أقوى قليلاً ، ما أتى به بعدُ في قصيدته لأخي هذا القاضى ، وهو « أبو سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى » ، إذ يقول في صفة نفسه :

(١) « روق الشباب » ، صفاؤه وغضارته ونضرتة .

(٢) « الهندى » ، حساب الهند المشهورون به . و « بأقل » رجل يضربُ به المثل في العيى والفدامة والجهل .

إِذَا قَدِمْتُ عَلَى الْأَهْوَالِ شَيْعَنِي قَلْبٌ ، إِذَا شِئْتُ أَنْ أَسْلَاكُمْ خَائِنًا)
 (أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ، فَلَا أَعَاتِيهِ صَفْحًا وَإِهْوَانًا)
 (وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ، إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا)
 (مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثْرِي ، أَلْقَى الْكَمِيَّ ، وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا) (١)
 (لَا أَشْرَيْتُ إِلَى مَا لَمْ يَفْتِ طَمَعًا ، وَلَا أَيْتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانًا)
 وَلَا أُسْرُ بِمَا غَيْرِي الْحَمِيدُ بِهِ ، وَلَوْ حَمَلْتُ إِلَى الدَّهْرِ مَلَانًا

وفي هذه الأبيات يلتفت ، على عادته ، إلى الأيام التي مضت له بالكوفة ووطنه ، وما لقي هناك في تحير موت جدته ، فيذكرها فيثبتها في شعره ، / والالتفات في شعر ١٦٦ المتنبى من معنى إلى معنى ، هو الذي تستطيع أن تستخرج به أسرار الرجل كلها ، إذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يدور بقلبه من الخواطر والإحساس والآلام ، ويستخرج منها معاني شعره . فالتفاتة هنا بعد رجوعه من وطنه الكوفة ، دليل على ما كان قد لقي هناك من الكيد ، وهذه الصفات التي وصف بها نفسه هي أيضاً من أثر ما لقي هناك .

ولم يلبث صاحبنا أن ثابت إليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسباب اليأس والخشوع ، وألجأته إلى طريقته الشعرية التي تميز بها وانفرد ، وهي طريقة طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهبة للقتال والنضال . ولكنه حين بدأ يعود إلى المذهب الذي جرى عليه ، كما رأيت فيما مضى ، كان لا يزال مثائباً كالمستيقظ من سبات عميق قد فتره ... فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية أيضاً حين مدح « أبا أيوب أحمد بن عمران » :

وَمَطَالِبٍ فِيهَا الْهَلَاكُ ، أَتَيْتُهَا ثَبِتَ الْجَنَانَ كَأَنِّي لَمْ آتِهَا

وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبِ غَادَرْتُهَا أَقْوَاتٍ وَحَشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا (١)
أَقْبَلْتُهَا غُرَّرَ الْجِيَادِ ، كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنَى عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا (٢)

فَذَكَرَهُ الْمَاضِي وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَغَامِرَةِ وَالتَّقْصُمِ وَالْقِتَالِ وَالْكَفَاحِ ، أَشْبَهُ بِقِصَّةِ مَنْ
يُقْصُ عَلَيْكَ حُلْمًا كَانَ رَأَاهُ فِي نَوْمِهِ ، فَهُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَى / الْمُسْتَقْبَلِ كِعَادَتِهِ ، وَلَا يُنْذِرُ ،
وَلَا يُوعِدُ ، وَلَا يَصِفُ مَا سَيَكُونُ مِنْهُ بَعْدُ ، كَمَا رَأَيْتَ فِي شِعْرِهِ الَّذِي سَبَقَ هَذِهِ الْفِتْرَةَ الَّتِي
أَصَابَتْهُ . وَيُوَيِّدُ هَذَا أَنَّ حِكْمَتَهُ كَانَتْ تَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مِنْ كَلَامِ الْأَحْلَامِ = وَكَذَلِكَ
كَانَ مَذْحُهُ = فَهُوَ يَقُولُ فِي حِكْمَتِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

فِي النَّاسِ أَمْثَلَةٌ تَدُورُ ، حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا

فَالْمُتَنَبِّيُّ لَوْ كَانَ فِي غَيْرِ حَالَتِهِ تِلْكَ ، لَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى وَرَمَاهُ إِلَيْكَ مَتَفَجِّرًا مَدْوِيًّا ،
وَلَوْ جَدَّتْ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهُ مَلَأَى بِمَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِزْدِرَاءِ لِلنَّاسِ ، وَالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ ، وَلَا يَدْعُ
فِي السَّخْرِيَّةِ وَالتَّهْكِيمِ عَلَى عَادَتِهِ حِينَ يَتَنَاوَلُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمَعَانِي ، كَقَوْلِهِ فِيمَا مَرَّ بِكَ :
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ (خَلَقَ) تُحْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا ، بِمَنْ ؟

وَكَانَتْ أَيَّامُهُ تِلْكَ هِيَ آخِرَةُ الْفِتْرِ الَّذِي حَدَّ مِنْ طَمَاحِهِ وَجِمَاحِهِ ، ثُمَّ أَتَبَرَى
كَأَشَدُّ مَا كَانَ ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ نَفْسُهُ وَتَضَامَّتْ شَتَاتُهَا ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ أَفْكَارُهُ كُلُّهَا ، فَهُوَ
يَنْقُلُ مِنْهَا فِي شِعْرِهِ نَقْلًا بَيِّنًا ، وَلَا يُضْمِرُ إِلَّا مَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِضْمَارِهِ ، وَهُوَ الْآنَ مُنْطَلِقٌ
فِي الْحَدِيثِ عَنِ نَفْسِهِ وَعَمَّا يَجُولُ فِي صَدْرِهِ . فَلَمَّا قَدَّمَ عَلَى « عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ الْأَنْطَاكِيِّ »
يَمْدَحُهُ ، قَذَفَ فِي وَجْهِهِ بِهَذِهِ الْأَيَّاتِ :

(١) « المقاتب » ، طائفة من الخيل يركبها أصحابها للغارة .

(٢) « أقبلتها » ، وجَّهتها إلى غرر الجياد تقابلها وجهاً لوجه .

أَطَاعِنُ حَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيدًا ، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ، ثم انتقاله بعد إلى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكر أنه يقاتل « الدَّهر » ، ذكر أنه يقاتله وحيداً / لا ناصر له ولا عَضُد . فلما جرى ذلك في ضميره ، أَبَتْ عليه كبرياؤه أن يَضْعُف في القتال لتوحدته وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى الذى خطر له ، فلام نفسه أن يَخْطُرَ لها هذا الخاطر ، وهو نَذِير الضعف والاستسلام والخضوع ، فقال : « وما قولى هذا القول المستضعف الدليل ، وَمَعِيَ أقوى ناصر ، وَأَشَدُّ عَضُدٍ ، وهو هذا الصبر الذى أقاتل به ، وهو عندى مُعْنٍ عن الأنصار والأشياء » ، ثم تَفَجَّرَ بعد ذلك :

وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي ، وما ثَبَّتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تَقُولُ : أَمَاتِ المَوْتُ ، أَمْ ذَعِرَ الدُّعْرُ ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الأَتِيِّ ، كَأَنَّ لِي سِوَى مُهْجَتِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَثْرُ (١)
ذَرِ النَفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ، فمُفْتَرِّقُ جَارَانِ دَارُهُمَا العُمُرُ

وهذا كله تعليق على الشطر الأول من البيت الأول ، وجدال قائم بين الفترة التى كانت قد أصابته وما علق به من آثارها ، وما أنبسطت فى نفسه من المعانى والآراء = وبين الطبيعة التى تقوم عليها شخصيته وتتميز بها نفسه ، وهى طبيعة القُوَّة والتفُحُّم ، وما تَفَجَّرَ هذه الطبيعة فى نفسه من معانى الإقدام ، وما تُولِّد له من الآراء والأحكام . فلذلك كانت الأبيات التى تليها هى انتصار طبيعته القوية المشبوبة الفتية ، وكانت الآراء التى تضمنتها هى الآراء التى كَثُرَ ورودها فى شعره ، اجتمعت فيها آراؤه فى المجد الذى يصبو إليه ، وفيما يجب أن يأخذ نفسه به لإدراكه ، وأحكامه على أهل عصره ، وفى استسقاطه لهم ، وخاصةً ملوكهم وأمراءهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً ، بل وجدهم / خِذْلَانًا لمن استنصرهم ، وخِجًا وخِذَاعًا لمن استنصحهم ، فقال فى أعقاب الأبيات التى رَوَيْنَاهَا :

(١) « الأتى » : السيل المتحدر الآتى من مكان بعيد .

- وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًا وَقَيْنَةً ،
 وَتَضْرِبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تُرَى
 (وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا ، كَأَنَّمَا
 إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يُرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصِ
) وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ
 (عَلَى لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلِّ طِمْرَةٍ
 يُدِيرُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمْ
 وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّي الْجَبِ

 وَمَا يَفْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرِ)
 وَأَهْوَنَ مِنْ مَرَأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرٌ (٤)

وأخذ المتنبي بعد ذلك يشتد في نفسه ويقوى على أثر ما أصابه من الفتور ، وأخذ يستعرض حياته كلها ويستخرج ما فيها ، ويبسط آراءه ويختار منها ، / ويصوغها في شعره ، وكل ذلك مما يبينه على ما مر به من أحداث الزمن = فإنه حين رحل عن أنطاكية قاصداً دمشق ، نزل في طريقه على « علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي » ، فكان مما ورد في شعره له قوله :

(١) « الزق » إناء الخمر ، و « القينة » ، الحسناء المغنية .

(٢) « الهبوات » جمع « هبوة » ، وهو الغبار الذي تثيره الخيل . و « الحجر » ، الكثير العدد .

(٣) « طمرة » ، فرس سريعة الوثبة . و « الحيزوم » ، الصدر . و « الغمر » ، الغل والحقد والغيظ .

(٤) أظن أن القارىء ليس في حاجة بعد إلى الوقوف به عند كل مفصل للقول ، ففى ما قدمناه من المنهج كفاية له ، وحسبه أن يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق في التدبير ، فتفجر في نفسه المعاني ، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة مجسمة في ألفاظه وأبياته . ولن تعرف المتنبي إلا أن تفعل ما نريك من الرأى .

وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادَى ، فَهَلْ مِنْ زُورَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا !!
تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهَا فِي حَدِيثٍ تَرُدُّ بِهِ الصَّرَاصِرَ وَالنَّعِيَا (١)

ثم يستذكر ما لقي من الحساد ، كآبن كرووس وغيره ممن آذوه وهو بطبرية وأنطاكية وغيرهما ، فيقول حين ذكر الليل :

أَقْلُبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الدُّنُوبَا
(وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَادَى مَشُوبَا)
(وَمَا مَوْتُ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى لَهُمْ مَعِيَ فِيهَا نَصِيبَا)
(عَرَفْتُ نَوَائِبَ الْحَدَثَانِ حَتَّى لَوْ آتَسَّبْتُ لَكُنْتُ لَهَا نَقِيبَا)

ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آرابه في الحياة وما كان منه في مسعاه للمجد وطلبه ، وما كان خرج في إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقه) المهضوم في انتسابه للعلوية كما مر بك ، ثم ما مر به من الأحداث ، ومن لقي من الناس الذين استدعوا آحتقاره لهم وازدراءه إياهم ، وهو مع ذلك مضطراً إلى مُعانة عشرتهم ومصادقتهم ، ثم يذكر موت جدته بالكوفة ، وآثر ذلك في نفسه ، وهي التي يحبها حبّ الوفاء والإخلاص والبنوة ، وذلك إذ يقول :

١٧١ / أَقَلُّ فَعَالِي ، بَلَّةُ أَكْثَرُهُ ، مَجْدُ
(سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ)
وَذَا الْجِدُّ فِيهِ ، نِلْتُ أَوْ لَمْ أَنْلُ ، جَدُّ (٢)
كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا اتَّسَمُوا مُرْدُ

.....
(أَدُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ ، فَأَعْلَمُهُمْ فَدَمُّ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُّ)
(وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ وَأَبْصَرُهُمْ عَيْمٌ ، وَأَسْهَدُهُمْ فَهَدُّ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ)

(١) « الطير » هنا هي النسور تقع على جيف القتلى . و « الصرصرة » ، صوت البازي . و « النعيب » صوت الغراب .

(٢) « الجد » ، الأولى بكسر الجيم ، الاجتهاد . و « الجد » الثانية بفتح الجيم ، وهو الحظ والنصيب .

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ ، أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ ، مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ
بِقَلْبِي ، وَإِنْ لَمْ أَرَوْ مِنْهَا ، مَلَالَةٌ ، وَبِ عَنِ غَوَائِبِهَا ، وَإِنْ وَصَلْتُ ، صَدُّ

فهذه كما ترى كلمات كلها منتزعة مما كان في حياته لذلك العهد ، وما أصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق في المطلب ، وما أورثته ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه ، على ما ذهبنا إليه أولاً ، في طريقه وهو يسعى لإدراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدته وأنزلوهما بشر منزلة ، وكانت جدته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليل ، وكان أثر موتها لا يزال يحز في نفسه = التفت قلبه إلى تلك الحبيبة التي فارقت ، وانتقل من هذه المعاني التي تراها في الآيات السابقة إلى ذكرى جدته ، فقال :

تَحْلِيلَايَ دُونَ النَّاسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ عَلَى فَقْدِ مَنْ أَحْبَبْتُ ، مَا لَهُمَا فَقْدُ
تَلِجُ دُمُوعِي بِالْجُفُونِ ، كَأَنَّمَا جُفُونِي ، لِعَيْنِي كُلِّ بَاكِيَةٍ ، خَدُّ

/ ثم تلبث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمل أحزانه وآلامه ، ورأى أن البكاء والتحبيب مما لا يجمل به . وكيف يبكي ويُعول وهو من هو في الصبر والجلد وتحمل النكبات غير جازع ولا متململ ؟ وقد لقي بصبره ، في سبيل جدته وفي سبيل نفسه ، كل نائبة ، وطوى الأرض موكلاً بذرعها غير حافل ، وقاسى من الحسد ما قاسى ، وأصابه من عداوة الناس له ما أصابه ، فأغتابوه وآذوه ، فاستدرك صاحبنا على بكاء جدته بقوله بعد يصف نفسه وما كان منه وما كان من أعدائه :

وَإِنِّي لَتُعْنِينِي مِنَ الْمَاءِ نُعْبَةٌ* وَأَصْبِرُ عَنْهُ مِثْلَمَا تَصْبِرُ الرَّيْدُ (١)
وَأَمْضِي كَمَا يَمْضِي السَّنَانُ لِطَيْبِي وَأَطْوِي كَمَا تَطْوِي الْمُجْلَحَةُ الْعُقْدُ (٢)
وَأَكْبِرُ نَفْسِي عَنِ جَزَاءِ بَغِيَّةٍ ، وَكُلُّ آغْتِيَابٍ جُهْدٌ مَنْ لَا لَهُ جُهْدُ
وَأَرْحَمُ أَقْوَامًا مِنَ الْعِيِّ وَالْعَبَى وَأَعْذِرُ فِي بُغْضِي لِأَنَّهُمْ ضِدُّ

(١) « النُّعْبَةُ » ، الجُرْعَةُ مِنَ الْمَاءِ ، « الرَّيْدُ » جمع « ريداء » ، وهى النعام ، وهى أصبر حتى عن الماء .

(٢) « أَطْوِي » ، أى أجوع . و « المجلحة العقد » ، الذئب الجريئة ، فى أذناها التواء كأنه عقدة .

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، وممّا يَلجُ في صدره ويعتلج في نفسه ، انحدر إلى دمشق ولم يقم بها إلا قليلاً ، وقصد طَبْرِيَّةَ ، وذلك في سنة ٣٣٦ ، ولعلَّ آبن كَرُوسَ كان قد غادرها إذ ذاك . والظاهر أن أبا الطيب إنما دَخَلَهَا في جِوَارِ بعض أصحابه ، ومَنْ كانوا يُكْرَمونه من أهل الفضل والنبل ، وأطمأن قليلاً بها ، ثم هاجت العلويَّة عليه مرة أخرى ، وأثبتوا عليه عَدَاوتهم ، / وأرادوا أن يكيدوا له كيِّداً ليخلصوا منه ومن أفعاله . ١٧٣ ونحسب أن أبا الطيب كانت له في البلاد التي دخلها شبيعةٌ تشاركه الرأي وتتعصَّب لمذهبه في السياسة ، وتزِيد في تعصُّبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً في إثارة الفتن في كثير من البلاد التي دخلها .

وأنت ، فلا تظنَّ أن مثل أُنَى الطيب كان إذا دخل بلداً دخله صامتاً مَخِيطَ الشفتين ، لا يفتحهما إلا حين ينشد قصيدته في « المديح » في مجلس من يمدحه ، ثم ينصرف إلى داره مُنزويّاً في ركن من أركانها ، حتى يأذن له شيطانُ شعره بقصيدة أخرى ، وهكذا وهلم جراً . كلاً ، فإننا لا نشك في أن أبا الطيب = ذلك الظريف المجلس ، الحاضر البديهة ، الحلو النادرة ، الأديب النفس ، صاحب الرأي في السياسة ، وطالب الحكمة أنى كانت ، والثائر على حُكَّام عصره ، والمُزْدَرِي لأهل زمانه = والذي تَتَبَّين في شعره مواضع التجربة الطويلة ، والخبرة النافذة ، والتمرس بالأخلاق عاليها وسفاسفها ، والذي كان شعره قطعةً من إحساسه وطبيعته ، وممّا يمَسُّها ممّا يدور حولهما أو يدانيهما من إحساس الناس وطبائعهم = والذي كان شعره ينمُّ على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة التي لا تهدأ إلا ريثما ترتدُّ إليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة = والذي لم تكن هذه الظاهرة في شعره دَعْوَى أو باطلاً أو ظاهراً لا باطنَ له ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لوقع فيها التخالف على تناول السنين ، ولَنَقَصت وضعفت بضعف الأسباب الجالبة لها = والذي كان أيضاً ذا لسان وبيان ، وكان جَدِلاً طَلَّقَ اللسان أُنَى النفس ، لا يهابُ أن يصارح وأن يكشف عن ضميره على شِدَّة ما لقي من الكيد والمكر والترُّص والرَّصَد ، ثم كان (الرَّجُل) الشاعر الفرد من أهل عصره الذي كشف عن / سيِّئات العصر ، ١٧٤

وصورَ رذائله كُلِّها في كثير من شعره = والذي كان قريباً من الأمراء ، أثيراً عند كثير ممن لقيهم = أقول : أنا لا أشك ، ولا تشكَّنَّ أنتَ ، في أن أبا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل في الأدب والسياسة ، وتمرَّس بالناس وتمرسوا به ، وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً في تناول الآراء والأفعال والأحداث التي وقعت في الدولة العربية ، وبين رأيه فيها في مجالس أصحابه ، وتناقلت الألسنة ما كان يقول ، ووجد حسناؤه من تكشُّفه وصراحته مطعناً ومقتلاً يطعنونه فيه ، وظفر الوشاة بغذاء قلوبهم وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكشف به من الرأي ، وما يُبديه من النظرات والأفكار ، فسَعَوْا به إلى أعدائه ، وإلى الذين كانوا يُضمِّرون له السوء من أصحاب السلطان ، أو من كانوا يعادون أبا الطيب لأسباب خفيت عن السُّعاة والوشاة ، وإن لم يخف عنهم أن هؤلاء كانوا ممن لا يميلون إلى بقاءه بينهم ، أو ممن يتربصون أن يظفروا به قبل أن يفوتهم بحذره ودهائه .

فبين أن أبا الطيب دَخَلَ « طبرية » ، على حالته تلك التي نصيف ، مراغماً للعلويين ، ثم لمن كانوا يكيِّدون له قبل على عهد « بدر بن عمار » ، والذي كان يتولَّى كبر ما يأتون به هو الأعورُ ابنُ كروس كما مرَّ بك . وكان أبو الطيب في هذه الأيام التي بقيها بطبرية حذراً متوجَّساً يترقب ، وكان بالرملة إذ ذاك (سنة ٣٣٦) الأمير « أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طعج » ، فلما أتاه الخبر بأن أبا الطيب نازل بطبرية ، طمع في مديح أبي الطيب ، وودَّ / لو نزل عليه وأقام عنده مكرماً ، فلم يزل يُراسله أن يتحمَّل إليه وينزل عنده ، فأضمر أبو الطيب الرحلة إليه ، وكان الخبر قد بلغ العلويين أن « أبا محمد ابن طعج » راسله وعزم عليه في الرحلة إليه ، فألفوها نُهْزَةً مُعْتَرِضَةً أن يفتكوا به ، وتوهَّموا الطريق التي سيركُبها أبو الطيب ، ولا بُدَّ ، في رحلته ، فأرصدوا له جماعة من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها « كَفْرُ عاقب » ، وأمروهم أن لا يُفْتَلُوا الرجل إلا جئةً دامية . والظاهر أن أبا الطيب كان قد جرى في خاطره أنهم فاعلو مثل ذلك ، فخالف الطريق التي درَج السابلة على ركوبها ما بين طبرية والرَّملة ، فلما فات الرصد ،

وبلغه ما كانوا قد عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له ، رثت نفسه ، وزفر زفرته من هذا الكيد الملاحقه بكل طريق ، وثارت في صدره الزوبعة التي كانت تثور فيه كلما أبتلى ببلاء من العداوة ، أو أصيب بمصيبة من الكيد والمكر السيء . فلما دخل الرملة ليمدح الأمير أبا محمد ابن طنج ، كان يفور ويغلي ويتقلقل ويتفجر ، فلم يأخذ نفسه بأداب المدح والزيارة المبتدأة ، ورَمَى في وجهه ممدوحه بقنايله قبل أن يلج إلى مديحه فقال :

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا ، طِلَابِي نُجُومُهَا ، وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الْأَرَاقِمِ (١)
 مِنَ الْجِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ ، إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحَلْمِ طُرُقُ الْمَظَالِمِ
 وَأَنْ تَرِدَ الْمَاءَ الَّذِي شَطْرُهُ دَمٌ ، فَتُسْقَى ، إِذَا لَمْ يُسَقَ مَنْ لَمْ يُزَاحِمِ
 وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ ، مَعْرِفَتِي بِهَا ، وَبِالنَّاسِ ، رَوَى رُمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
 فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ ، وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَأْثِمِ

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) ، قبل أن يمدح ابن طنج ، فقال :

/ إِذَا صَلُّتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفَاتِكِ ، وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ (٢) ١٧٦

وقد قدمنا لك في أثناء القول أن أبا الطيب كان إذا نزل به نازل مما يكرهه من الغم والهَم ، اشتد به ذلك وأخذ عليه نفسه ، فينصرف فكره كله إلى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما أجلب عليه من العداوة وعداواتهم . ولا يزال يحدق ببصره في هذه الحالة ، مُستوعباً كل إحساس في نفسه ، وكل ما مرَّ به وأصاب منه ، حتى تتفجر في قلبه ونفسه ينابيع البيان ، فينتزع الحكمة من قلبه ولها أصول تاريخية ضاربة فيه . فإذا تدبرت الأبيات السالفة وجدت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كلها ، على ما سُقناه في حديثنا .

ثم إن أبا الطيب لما كرهه أمر العلويين الذين أرصدوا له بكفر عاقب ، ارتد إلى

(١) « الأرقام » ، جمع « أرقم » ، وهو الحية الخبيثة المخوفة .

(٢) « صال يصل صولاً ومصالاً » ، سطا على عدوه سطوة جبار .

الحالة التي وصفنا ، فلم يزل يدورُ ذلك في فكره بين قلبه ولسانه ، فلم يُقدِر أن يمتنع عن ذكره في شعره الذي قاله في مدح أبي محمد خاصةً ، ثم في شعره الذي قاله بعدُ لطاهر العلوي كما سترى . فمما قال لأبي محمد يذكرُ هذا الكيدَ الذي كيد به في طبرية :

كَرِيمٌ لَفَظْتُ النَّاسَ لَمَّا بَلَغْتَهُ كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمٍ
وَكَادَ سُورِي لَا يَفِي بِنَدَامَتِي عَلَى تَرْكِهِ فِي عُمَرَى الْمُتَقَادِمِ
(وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً بِهَا (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ)

والظاهر أنه كانت بين الأمير آبن طُغج وهذا العلوي الذي كاد هو وشيعته لأبي الطيب في مخرجه من طبرية ، عداوة قائمة ، وأن هذا الكيد / كان لسبيين : الأول ، ما كان بين العلويين وبين أبي الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية ، وهذا الأمير الذي خرج أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إياه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلي ما أنشدناه :

بَلَا اللَّهُ (حُسَادَ) الْأَمِيرِ بِجِلْمِهِ ، وَأَجْلَسَهُ مِنْهُمْ مَكَانَ الْعَمَائِمِ
فَإِنَّ لَهُمْ فِي سُرْعَةِ الْمَوْتِ رَاحَةً ، وَإِنَّ لَهُمْ فِي الْعَيْشِ حَزَّ الْغَلَّاصِيمِ (١)

هذا ، وقد بقي أبو الطيب في جوار الأمير أبي محمد بالرملة مكرماً ، يصحبه الأمير في رحلاته ، ويحضره مجلسه ، ويرافقه في زيارته ، ويفضل عليه كل الإفضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان بغض الأعاجم فيه طبيعة ثانية قائمة لا تفتُر . وكان من أصحاب هذا الأمير رجل من شيوخ العلويين بالرملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولأهله أياد كثيرة عند بني طُغج ، فلم يفت الأمير أبا محمد ما في مدح أبي الطيب له ، وقد ترك أن يمدح رجلاً جليلاً كصاحبه هذا « أبي القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي » ، (٢)

(١) « حز الغلاصم » ، قطع الأعناق . و « الغلصمة » لحمه ناتمة عند رأس الحلقوم .

(٢) نسب أبي القاسم ، مستوفى في جمهرة ابن حزم : ٥٥ ، ٥٦ .

فرغب إلى أبي الطيب أن يمدحه ، وكان من أبي الطيب ما كان في امتناعه على ما مرَّ بك ، (١) فلما أجاب أبو الطيب الأميرَ إلى مدحه مُرْغَمًا ، حاملاً على نفسه = إذ كان قلبه لا يرضى أبداً عن هؤلاء العلويين الذين آذوه ، والذين لقي من كيدهم بالأمس القريب ما لقي ، من إرصادهم لقتله = قال قصيدته يمدح أبا القاسم / طاهر بن الحسن ١٧٨ ابن طاهر ، ولكنه قدّم قبل مديحه هذه الأبيات ، وفيها ما فيها من لَمَزِ قَوْمٍ من (العلويين) ، لعلهم أن تكون بينهم وبين طاهر قرابةً دانية . والخطاب في الأبيات لامرأة ذكرها في تشبيب القصيدة :

وَلَمْ تَدْرِي أَنَّ الْعَارَ شَرُّ الْعَوَاقِبِ	تُخَوِّفُنِي دُونَ الَّذِي أَمَرْتُ بِهِ
يَطُولُ اسْتِمَاعِي بَعْدَهُ لِلنَّوَابِ	(وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَّ مُحَجَّلٍ
وَقُوعُ الْعَوَالِي دُونَهَا وَالْقَوَاضِبِ	يَهُونُ عَلَيَّ مِثْلِي إِذَا رَامَ حَاجَةً
يَزُولُ ، وَبَاقِي عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ	كَثِيرُ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا
عِضَاضَ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعَقَّارِبِ	إِلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَى
أَعَدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ	(أَتَانِي وَعَيْدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ
فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ ؟	وَلَوْ صَدَّقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذَرْتُهُمْ

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) قبل مدح الشريف العلوي ، كما مرَّ بك في قصيدة الأمير ابن طُجج ، (٢) فقال فيما يلي ذلك :

إِلَى ، لَعْمَرِي ، قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ	كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْعَجَائِبِ
بَأَى بِلَادٍ لَمْ أُجِرْ ذُوَابَتِي !؟	وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَّأَهُ رِكَابَتِي !؟

وقد مضى ذكر هذه القصيدة وذكر أبياتٍ أخرى منها ، فاكتفينا بما مضى منها

(١) انظر ص : ١٥٣ - ١٥٧ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٩١ .

عن الإعادة . (١) على أن هناك أشياء أخرى ، كان أولى بنا التوسع في تفصيلها ، ولكننا أجَّلناها إلى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق .

/ ثم عزم أبو الطيب الرحلة من الرملة إلى جوار « أبي العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي » ، فخرج من الرملة في سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث إلا ما كان من أمر إسحق بن إبراهيم بن كيغلع في طلبه منه أن يمدحه ، فهجاه بقصيدته المشهورة التي أولها :

لَهْوَى النَّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعَلِّمُ عَرَضًا نَظَرْتُ ، وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ

فلما بلغت ابن كيغلع ، أراد قتل أبي الطيب ، وكان إذ ذاك بطرابلس ، فخرج منها ، فأتبعه ابن كيغلع خيلاً ورجلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب إلى بعلبك ، ثم إلى دمشق ، ثم خرج من هناك إلى أنطاكية ، فلقي أبا العشائر . وكان مما قال لهذا الأعور ابن كيغلع :

أرسلت تسألني المديح سفاهة !! صفرأ أضيق منك ، ماذا أزعم ؟ (٢)
وأرغت ما لأبي العشائر خالصاً ، إنَّ التَّنَاءَ لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعَمُ
ولمن أقمت على الهوان بيا به تَدُنُو فَيُوجَأُ أَخْدَعَاكَ وَتُنْهَمُ (٣)

ثم طفق يمدح أبا العشائر إلى أن قال :

وَالْوَجْهُ أَزْهَرُ ، وَالْفُؤَادُ مُشَيِّعٌ ، وَالرُّمَحُ أَسْمَرُ ، وَالْحُسَامُ مُصَمَّمُ
(أفعال من تلد الكرام كريمة ، وفعل من تلد الأعاجم أعجم)

فكان أبا الطيب ، كان قد ملّ الأعاجم واستنقصهم ، وفيهم الأمير أبو محمد بن طنج الذي كان قد نزل عنده آنفاً بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله .

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٤ - ١٥٦ .

(٢) « صفرأ » ، اسم أم ابن كيغلع ، وفي البيت إشارة سيئة .

(٣) « وجأ عنقه » ، لژه وضربه من عند قفاه . و « نهمة » ، زجره واشتد في زجره وطرده .

 أَضْبِرْ عَنكَ ، لَمْ تَبْحَلْ بِشَيْءٍ ؟
 وَلَمْ تَقْبَلْ عَلَيَّ كَلَامَ وَاشٍ ؟
 وَمَا وَجَدَ أَشْتِيَاقُ كَأَشْتِيَاقِي ،
 وَلَا عُرِفَ أَنْكِمَاشٌ كَأَنْكِمَاشِي
 فَسِيرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي ،
 وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

١٨١ / أردنا في الباب السالف أن نذكر على نفس أبي الطيب ، وما تميّزت به من شعراء العربية جميعاً ، وما أنطوت عليه من القوة والرّجولة ، وما كان يزلزلها من الثورة التي لا تزال تهزه من قرارة قلبه ، فتنتلق زلازها من قلبه إلى لسانه ، فيثبت لسانه في شعره عدد هزات الزلزلة وقوتها ، فلذلك نقلنا إليك طائفة من شعره على التوالي في ترتيبها الزمني حتى هذا العهد الذي بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غير الأول ، وذهب في الشعر مذهباً عجباً ، وتحولت معاني نفسه من غرضٍ بعينه ، إلى غرضٍ آخر غير مفارقٍ للأول ، بل منه استمد ، وعليه بنى . (١)

١٨٢ / خرج أبو الطيب من الرملة بقلبه وبنفسه وبآرائه قاصداً أنطاكية التي كانت في

(١) انظر ما سلف في أول الفصل العاشر ، وكانت قصائد أبي الطيب غير مؤرخة في ديوانه ، ولكن منذ اتصل بأبي العشائر وسيف الدولة جاءت قصائده كلها مؤرخة بالسنة والشهر واليوم ، وانظر ما قلته آنفاً ص : ٣٧ - ٤٠ ، ثم ص : ٨٣ - ٩٠ ، وهو مهم جداً .

يد بنى حَمْدَانَ التَّغْلِبِيِّينَ . وكان يلي أمرها ، من قبل سيف الدولة ، أبو العشائر الحَمْدَانِيَّ الشاعر المبدع ، والمحاربُ الباسلُ ، والعربيُّ الخالصُ الحبُّ للعرب والعربية ، الشديدُ العداوةَ للروم والترك والدَّيلم الذين توالت غاراتهم على الدولة العربية بالجيوش تارة ، وبالدهائن والمكايد والتمزيق تارةً أخرى . وكان المنتبى قد عرف بنى حَمْدَانَ من قبل ، وعرف منهم خاصةً سيف الدولة ، (١) الذى صَارَ الآن سنة ٣٣٦ صاحبَ الشام ، والمستولَى على أمرها ، والمُنْتَرِعِهَا من يد بنى طُعُجِ الإخشيديين الأتراك .

دَخَلَ أبو الطيب أنطاكية ليلقى العرب والعربية في مجلس بنى حَمْدَانَ ، وقد رمى دَبْرَ أذنه وتحت قدمه ، الأعاجمَ وما مدحهم به . وأراد أن ينقل شعره من تكلف المديح إلى التطلق والاسترسال في مدح مَنْ هُم من رأيه ، وَمَنْ يجد فيهم مَرْضَاةَ نفسه وآماله . ولكن كان قَبْلُ قد مدح القَوْمَ العلوجَ ليستخرج منهم بَعْضَ أموالهم التى غلبوا الأمة العربية عليها ، وليكون على مَقْرِبَةٍ من مكرهم ودَسَّهم ، وعلى علمٍ بما يضمرون لأمته من الشرِّ الغالب على قلوبهم وعقولهم = فهو الآن قد وجد قُوَّتَهُ وأهله وعشيرته ، فليأتهم بكل غريبة من القول ، ولينجِّدْ ذكْرَهُم في شعره ، وليهدأ قليلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يَحْزِمَ رأيه وتديبه مع هؤلاء القوم ، عَلَى أن يعيدوا مجدَّ العربية ، (ويُدِيلُوا من دَوْلَةِ الخدم) الذين غلبوا على سياسة الأمة ، ورَمَوْا / بها في موارد الهلاك والفسل ، فهذا سرُّ قوله لأبى العشائر في قصيدةٍ مدحه بها ، والتي نقلنا أبياتاً منها في رأس هذا الباب :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ المعالي) وَسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ المَعَاشِ)

فهو إنما قَدِمَ على بنى حَمْدَانَ لما ذكرنا لك ، لا للتكسب بالشعر ، وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه .

(١) قد مضى ذلك في سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية إن شاء الله - انظر من ص : ٦٩ -

رأيت قبل أن المتنبى كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجّدها وعظّمها ، ثم
بيدى آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم يُنذِر ويوعد
ويهدّد . فلما بدأ اتّصّاله بينى حَمْدان ، ترك هذا المنهج ، وأدّخر قوته كلّها لأمرٍ غير هذا
الأمر ، وأسبغ على بنى حَمْدان ما كان يُسبغ من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو
يصفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم إلى غاية السموّ في القوّة والسلطان والسماحة
والمروّة وعظّم المطلب ، ولم يذكر نفسه إلاّ حين يُخرجه الوُشاة والساعون بالشرّ بينه
وبينهم .

فلما اتّصل أبو الطيب بأبي العشائر ، ونال منه مكانته ، وأدرك عنده طلّباته ،
بدأت وشاية الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها مرّة أخرى ، ومدّت الفتن أعناقها من قبل
شيعة العلويّين والفاطميين والإخشيديين والعباسيين ، على ما نذهب إليه ، وشعر أبو
الطيب بما هنالك ، فدلّ أبا العشائر عليه بلطيف القول غير مُصرّح فقال :

فَيَا بَحْرَ الْبُحُورِ ، وَلَا أُورَى ، وَيَا مَلِكَ الْمُلُوكِ ، وَلَا أَحَاشِي
/ كَأَنَّكَ نَاطِرٌ فِي كُلِّ قَلْبٍ ، فَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ مَحَلُّ عَاشٍ ؟
الْأَصْبِرُ عَنْكَ ؟ لَمْ تَبْخَلْ بِشَيْءٍ ، وَلَمْ تَقْبَلْ عَلَيَّ كَلَامَ وَاشٍ ؟

١٨٤

فَمَا خَاشِيكَ لِلتَّكْذِيبِ رَاجٍ ، وَلَا رَاجِيكَ لِلتَّخْيِيبِ خَاشٍ ،
أَرَى النَّاسَ الظَّلَامَ ، وَأَنْتَ نُورٌ ، وَإِنِّي مِنْهُمْ لِأَلِيكَ عَاشٍ (١)
(بُلِيْتُ بِهِمْ بَلَاءَ الْوَرْدِ يَلْقَى) ، هُنَّ أَوْلَى بِالْخِشَاشِ (٢)

(١) « عشا إلى النار يعشو ، فهو عاشٍ » ، إذا أبصر في الليل المظلم فقصد قصدها .

(٢) و « الخشاش » عودٌ صغير يُجعل في عظم أنف البعير ، ويُشدُّ به الزمام ، ليكون أسرع لانقياده .

وعندى في هذا البيت نظر ليس هذا موضعه .

والظاهر أن أبا العشائر كان قد أصمّ أذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد ، وما كانوا يريدون من تقليب قلبه عليه ، كما فعلوا بقلب « بدر بن عمار » من قبل ، فلما لم يأذن لهم أبو العشائر أولّ أولّ ، زادوا في التشهير بالرجل ، وفي اجتلاب الأكاذيب في ذمّه وتقيصته ، وفي التعريض به وبأدبه ، وجعلوا يذكرون ما كان في شعره من الثورة والإنذار والوعيد وذمّ الناس ، ويُعدّدون مواضع فخره على من مدحه ، ويدلّون على سوء أدبه في مدحهم إذ يقدم مدح نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح بمدوحه بمثله أو بما يقاربه ، ووقع إليهم ما كان يُنَبِّز به لدى « بدر بن عمار » من تسميته بالمتنبي ، (١) فزادوا عليه ، ووضعوا من عند أنفسهم القصص في تطويل الحكاية ، وتعظيم أمرها . وبدأ العلويون أيضاً يعرضون بمسألة نسبه ليخرجوه أن يصرّح بنسبه العلوية ، فعندئذ لا يجدون حرجاً من أن يأخذوه كما أخذوه أولّ مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجن بضعة سنين . فلما بلغوا هذا المبلغ وضاق بهم / أبو الطيب ، لم يجد بُدّاً من العودة إلى طريقته الأولى حين يُحرج ، فكان مما قال في ذلك كله قبل أن يلج إلى مدح أبي العشائر :

١٨٥

(أنا ابن من بعضه يفوق أبا البـ)
 (وإنما يذكر الجلود لهم)
 فحراً لعضب أروح مشتملة
 وليفخر الفخر إذ غدوت به
 أنا الذي بين الإله به آل
 جوهرة تفرح الشراف بها ،
 ساحب ، والنجل بعض من نجله)
 من نفروه ، وأنقلوا حيلة (٢)
 وسمهري أروح معتقلة (٣)
 مرتدياً خيره ومتعلة
 أقدار ، والمرء حيثما جعله
 وغصة لا تُسيغها السفلة

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وأنها كانت لما كثر في شعره من الإنذار والوعيد ، انظر ما سلف ص ٢٣٢ - ٢٣٦ ، والتعليق هناك .

(٢) يقال : « نافره فنّره » ، أي فاخره فغلبه في الفخر وألزمه الاستخاء .

(٣) « العضب » ، السيف الماضي . و « اشتمل » ، تقلد حمائله على منكبه . و « السمهري » ، الرمح . و « اعتقل الراكب الرمح » ، جعله تحت فخذيه ، ويحير آخره على الأرض وراءه .

(إِنَّ الْكِذَّابَ الَّذِي أَكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهُ)
 فَلَا مُبَالَ ، وَلَا مُدَايَ ، وَلَا وَآ
 وَدَارِعَ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقَى
 وَسَامِعَ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ
 (وَرُبَّمَا أَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِيَ)
 (وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ ،)
 نِ ، وَلَا عَاجِزٌ ، وَلَا تُكَلِّهُ (١)
 فِي الْمُلتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَةَ
 يَحَارُ فِيهَا الْمُتَنَقِّحُ الْقَوْلَةَ
 مَنْ لَا يُسَاوِي الْحُبْرَ الَّذِي أَكَلَهُ)
 وَالذُّرُّ ذُرٌّ بِرَغْمٍ مَنْ جَهَلَهُ)

ومن صدق الرجل في محبته لأبي العشائر خاصة ، وبني حَمْدَانَ كَافَةً ، فَعَلَّ مَا لَمْ
 يَفْعَلُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَاسْتَدْرَكَ عَلَيَّ مَا ذَكَرَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّجْبِيلِ فَقَالَ :

مُسْتَحْيِيًّا مِنْ أَبِي الْعِشَائِرِ أَنْ أُسْحَبَ فِي غَيْرِ أَرْضِيهِ حُلَلَةً

وقد أشار أبو الطيب في هذه القصيدة إلى أنهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد ،
 أنهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبي العشائر ، وزعموا أنه / إنما كان يمدحُه للتكسب
 والنيل من فواضيل ماله ، وتكذبوا عليه بكل تقيصة تُفسد عليه قلب أبي العشائر
 فقال :

مَالِي لَا أَمْدَحُ الْحُسَيْنَ ، وَلَا أَبْذُلُ مِثْلَ الْوُدِّ الَّذِي بَدَلَهُ ؟
 أَلْخَفَتِ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَثْرًا ! أَمْ بَلَغَ الْكَيْدُ بَانَ مَا أَمَلَهُ ؟

ولكنَّ أبا العشائر كان قد عرف ، فيما نظنُّ ، سِرَّ الكيد الذي يكاد به أبو
 الطيب ، ولعلَّ سيف الدولة أيضاً قد بلغه مَقْدَمُ أبي الطيب على أبي العشائر ، فكتب
 إليه أن يحرِّصَ على الرجل ، وَلَا يَسْمَعْ فِيهِ لِمُنْتَقِصٍ وَلَا ذَائِمٍ ، وَلَا مُتَكَذِّبٍ ، لما يعلم من سِرِّ
 الرجل الذي أنطوى عليه في أمر نسبته العلوية ، كما قدَّمنا . فذلك لم يجد الوُشَاةَ أُذُنًا

(١) « التُّكَلَّةُ » و « الوُكَلَةُ » ، الذي يكمل أمره إلى غيره عجزاً عن القيام به .

صاغيةً ولا سَمِيعَةً ، فأنصرفوا برغمهم . ونال أبو الطيب الكرامة والعزة في جوار أبي
العشائر ، وهدأ واستقر قراره ، وأطمأن قلبه ، مُنتظراً مَقْدَمَ سيف الدولة إلى أنطاكية في
مسيره في نواحي البلاد التي استولى عليها بالشأم . وفي هذه الفترة من الطمأنينة
والسكينة والكرامة لدى أبي العشائر ، استجمم الرجل لقوته ، وأدّخر لسيف الدولة ذخائر
قلبه وكرائم فؤاده .

 وَعِنْدِي لَكَ الشُّرْدُ السَّائِرَا
 تْ ، لَا يَخْتَصِمَنَّ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
 قَوَافٍ ، إِذَا سِرْنَ عَنْ مَقُولِي ،
 وَتَبِنَ الْجِبَالَ ، وَخُضِنَ الْبِحَارَا
 وَلِي فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قَائِلٌ ،
 وَمَا لَمْ يَسِرْ قَمْرٌ حَيْثُ سَارَا
 سَمَا بِكَ هَمِّي فَوْقَ الْهُمُومِ ،
 فَلَسْتُ أَعُدُّ يَسَارًا يَسَارَا
 وَمَنْ كُنْتُ بَحْرًا لَهُ ، يَا عَلِيُّ ،
 لَمْ يَقْبَلِ الدُّرَّ إِلَّا كِبَارَا

- ١٨٧ / في سنة ٣٣٧ كان سيف الدولة « أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان العدوي التغلبي » ، قد استولى على أكثر الشام ، ووقف للروم يرد غاراتهم على أطراف بلاده ، ويوقع بهم إيقاعاً شديداً ، وغلبت مقدرته الحربية كل من كان في عصره من القواد ورؤوس الفتن التي عملت في انتكاس الدولة العربية وهلاكها . وكان يؤمل له أن يتسع ملكه اتساعاً عظيماً ، لولا ما كان من الأحداث العظيمة ، ثم ما كان في الدولة من دسائس الأعاجم التي فرقت القلوب ، فلم تدع أمة من الناس إلا دخلت بينهم فمزقتهم شر ممزق ، وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً . وأيضاً ما كان من دعوة
- ١٨٨ / العلويين لقلب الخلافة التي بالعراق من عباسية سنية إلى علوية شيعية . وأيضاً ما كان من الدعوة السرية الجارفة التي كان يقوم بها دعاة الفاطميين ، وكانت هذه أشد البلايا التي ابتلى بها العالم العربي كله ، إذ أدخلت فيه ما ليس من طبيعته ، وقذفت به في ظلمات نهارها

من ليلها ، وكان دعائها قد تفرَّقوا في كل مكانٍ من سلطان الدولة العباسية ، ليقفوا بين الأمراء ، وليحوزوا إلى دعوتهم فئةً غالبيةً تُعينهم على ما يريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدة من المغرب الأقصى إلى ما وراء خراسان .

وكان بنو حَمْدَانَ من شيعة العلويين ، ومن المتحقِّقين بخدمة الدَّعوة العلويَّة ، إلاَّ أنهم كانوا عربياً يَدْعُونَ إلى العلوية للعربيَّة ، لما وجدوا من غلبة الأعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الأعاجم ، ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرُّون هذه الدعوة ولا يسلمون لأصحابها بالنسبة الفاطمية المكرومة = رجعوا فانحازوا إلى الدولة العباسية ينصرونها وينصرون الخليفة (النَّائم) على كرسى الخلافة . هذا ، مع إكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدى بنو حَمْدَانَ من الدهاء ، وسعة الحيلة ، وحُسن السياسة والتدبير في التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لا قِبَل لأحدٍ من أهل ذلك العصر في الإتيان بمثله ، أو القيام على أقلِّ منه . وقد أثبت بنو حَمْدَانَ بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والإسلام من الفتن الباغية التي فعلت أفاعيلها لعهدهم في تضييع السلطان العربي ، وانتقال الشوكة والعزة إلى الحكم العجمي الشعوري الفاسد الطويِّة ، الباغى بكيده الإيقاع بالعرب ودينهم ولسانهم . (١)

وكان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان أكثرهم دهاءً وأوسعهم / حيلة ، وأشدَّهم حباً للعرب ودينهم ، وأكثرهم سعياً في ردِّ الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمهم همّة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكرمهم خلقاً آسراً ، وكان من بينهم محبباً للأدب قائماً على خدمته ، وكان بطبيعته شاعراً حُلُو اللسان ، خفيف الروح ، بياني الفكر . وكان مبغضاً للأعاجم ولسانهم الذي أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بُوَيْه .

(١) انظر لهذا الفصل من الكلام ، ما سيأتى ص : ٣٢٧ - ٣٣١ ، وما قبلها أيضاً .

والظاهر أن سيف الدولة كان قد عَزَمَ في نفسه أن ينال بهِمَّتَه غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته ، وكان أوَّل ما أنفذ من ذلك أن زاحم بمناكبه الإخشيديين في الشام حتى أزاحهم عن أكثرها وردَّهم إلى الرَّملة ، واستأثر دونهم بأكثر البلاد الشامية ، حتى هَلَعَ منه الإخشيد ، فتزَلَّف إليه بأن زوجته ابنة أخيه ، ولم يُجِدْ ذلك كثيراً ولا قليلاً في إطفاء نار العداوة المستعرة بين الدم العربي والدم الأعجمي الغريب . واستمرَّ سيف الدولة في طلب التوسُّع والغلبة ، ولولا ما لقي من حروب الروم ، وما أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، لكان تَمَّ له ما أراد . فإن حروب الروم ، قد استهلكت كلَّ قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته في توطيد حكمه في الشام ، حتى إذا استجمع أدواته واستوفز بقوته ، مال إلى العراق فردَّ أمر الحكم إلى نصابه في يد واحدة لا تضطرب ولا ترتجف . وذلك لما كان يرى من تقسُّم الأمر في بلاد الخلافة ، وضياع السلطان بين الموالى ، وما جرَّ ذلك من المذابح المتواليه في كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة في كل ناحية من النواحي . ونحن نظن أن السبب في كثرة غزوات الروم ، في عهد سيف الدولة ، لبلاد الشام وأطرافها ، أن الذين كانوا يفتنون الناس ببغداد من الأعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون ، علموا بأمر سيف الدولة / وما اعترم ١٩٠ من الميل عليهم ميلةً رابيةً ، فأوعزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، وأوقعوا في قلبه أن سيف الدولة إنما يريد أن يُزِيلَ الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتمَّ لهم بذلك ما أرادوا من صرَّف سيف الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال أرضهم ، وانتزاع السلطان من أيديهم . [انظر ما ساق ص : ٣٢٧ - ٣٣٠] وكان سيف الدولة على علم بما يُبيِّتون له من المكر ، فكان ينزل الروم ويوقعهم ، ويُعدُّ انتصاره وهزيمة الروم ، انتصاراً لدعوته العربية وهزيمة للأعاجم أصحاب هذا المكر ، وهزيمة لمن وقع في حبالهم من العرب الذين لهم سلطان في سلطان هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره في العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس الفتنة ، وعلى الذين تولَّوا كِبَرَ هذا المكر السيء والكيد الخفي . وأجَّدت هذه الوقائع - التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم - عداوة أصحاب السلطان من

الأعاجم للدولة بنى حَمْدَان ، فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع إلى سيف الدولة وأزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرهما ، وبذلوا في مَسْعَاتِهِمْ أموالاً وذخائر . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسخاء وبَسْطِ الْيَدِ لِلْعَافِينَ والمريدين ، طبيعةً مركَّبةً في أَصْلِ نُحْلُقه ، لأَعْيَوْه ، ولأَخْرَجُوا من دَان له ورَضِي به وبِحُكمه ، ولأَعَانِهِمْ على ذلك ما يرون من المظالم التي ارتكبتها سيف الدولة مُدَّة حكمه وسُلْطَانِهِ .

هذا ، وقد كان أبو الطيب ، حين دخل أنطاكية قاصداً أبا العشائر في سنة ٣٣٦ ، عليماً بأمر سيف الدولة ، مُدْرِكاً للمكاييد السياسية التي أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ الهمم العربية ، / مستيقناً من أن غَرَضَ سيف الدولة فيما فعل ، إنما هو ضربُ الضربة القاضية على الفتن التي أوْهَتْ قوة الدولة العربية وَفَتَّتْ في عَضُدِهَا ، وأن الرجل كان قد اتخذ لأمره أحكم سياسة وأبرعها وأحسنها وأدقها وأبلغها في الوصول إلى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، يرمى بكل نفسه إلى هذا الغرض الذي يسدُّ إليه سيف الدولة ، فكان اتفاقهما في الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهمهما ، ولما تمَّ بينهما من المودة والحب والكرامة .

١٩١

وأخرى ، أن أبا الطيب ، كما وصفناه لك أولاً ، كان يرمى ببصره إلى (الرَّجُل) ، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها ، وصفات الكمال بأسرها ، كما كان يراها قلبه ويحلمُ بها فؤاده وأوهامه . و « الرجل » في أحلام أبنى الطيب هو صورةٌ مثلها له ضميره ، من أحقادِهِ وآلامِهِ وثورته . فهو الرجل الضَّرْبُ الشجاع المستبسل الذي لا يهاب ولا يفتر ، بل يتفحَّم ولا يزداد على البلاء إلا مضاءً وعزيمة = وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى أعقاب الأمور لا يَعْبَى ولا يَعْفَل ولا ينام = وهو الرجل المحارب الذي لا تغمضُ له عينٌ ، ولا يصبر على ضييمٍ ، ولا يَقْرُّ على ظلمٍ = وهو الرجل الفتى العربي الذي داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه فيها مدخلاً ومخرجاً ، وأعمل فكره

في إنقاذ أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصورة في دم أبي الطيب تدور فيه دوران الدم ، فإذا وجد (الرَّجُل) حنَّ إليه كأشدُّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبَدَل له ذات نفسه وضمير قلبه ، فتراه لا يمجد نفسه في شعره الذي يمدح به (الرَّجُل) ، بل يبتذل كل كريمة من الصفات لهذا الممدوح مُضْرِباً عن ذكر ثورته ، تاركاً وعيده وإنذاره وتهديده ، إلا أن يُخرج كما حدثناك قبل . / وقد رأيت فيما مضى أن هذا قد وقع من أبي الطيب حين لقي « بدر بن عمار الأسدّي » ، وهو الفتى العربي (الرَّجُل) ، [ص : ٢٥٩ - ٢٧٢ ، وانظره في الفهرس] .

وهذه الظاهرة الغريبة في شعر أبي الطيب تدل على أنه ما كان يبغى بقوله اكتساب المال وأدخاره للعيش ومرافق الحياة ، بل كان يريد أن يحقق آماله التي يسعى إليها في ردِّ السلطان لقومه العرب الأماجد . ولهذا تجده لم يقرَّ سنواتٍ في جوار أحد ، إلا في جوار هذين العربيين : « بدر بن عمار » ، و « سيف الدولة » . وذلك لما كان يرى منهما من الجهاد في سبيل الغرض الذي أنطوت عليه جوانحه . وكان أبو الطيب سريع الفراق لمن مدح حاشاهما ، إما لأنه لم يجد عندهم عزماً إذا كانوا من العرب ، وإما لأنه إنما مدح بشعره للإجازة والمال الذي هو ملاك كل عمل ، إذا كان ممدوحه من غير العرب . فهذا موضع توله في شعره لأبي العشائر الحمداني :

فَسِيرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ الْمَعَالِي) وَسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ الْمَعَاشِ)

قالوا : « كان أبو العشائر والي أنطاكية من قبل سيف الدولة ، فلما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية ، قدم المتنبي إليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب ، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فاشترط المتنبي على سيف الدولة ، أوّل اتصاله به ، أنه إذا أنشده مديحه ، لا ينشده إلا وهو قاعدٌ ، وأنه لا يُكلّف تقييل الأرض بين يديه ، فنسب إلى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلّع إلى ما يريد

١٩٣ منه ، فلما أنشده قصيدته الأولى التي أولها : « وفاؤكما كالربيع أشجاء طاسمه » ، / حسن موقعه عنده فقرّبه ، وأجازته الجوائز السنّية ، ومالت نفسه إليه وأحبه ، فسلمه إلى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة .

ونحن لا نسلم بكل ما ورد في هذا النص ولا نثق به ، إذ كان مروياً عن غير ثقة مأمون معروف ، وإنما هو مما يتداوله الأدباء على علاته دون نقد أو تجريح ، ويحسن بنا أن نحدّثك عن نقده قليلاً ، فإن في النّقد بركةٌ وخيراً ليست لشيء من الكلام .

فأول ذلك ، أن هذا اللقاء في سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبي الطيب لم يكن أول لقاء ، ولم يكن أول تعارفٍ بينهما ، فقد حدثناك قبلُ أنه لقي سيف الدولة وأحبه ، وأحبه سيف الدولة في سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبّي بعد مخرجه من الكوفة متوجّهاً إلى الشام ، وكان لقاؤهما برأس عين من أرض الموصل الذي كان يدين لبني حمدان بالطاعة إذ ذاك ، [ص : ٢١٥ - ٢١٨ ، ٢٢٢] . ولا شك أن سيف الدولة ، وكان إذ ذاك صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، قد فرّح بمدح أبي الطيب له ، وأبقى ذلك أثراً في نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربي ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والأدب ، هذا فضلاً عما استنبطناه هناك من العلاقة بين بني حمدان وأبي الطيب وجدّته ، وأنهم كانوا يفضلون عليها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علمٍ بما أصابها من نكبتها في ابنتها وحفيدها .

وأخرى ، ... أن النص يقول إن أبا العشائر قدّم المتنبّي إلى سيف الدولة « وعرفه منزله من الشعر والأدب » . وهذا عجيبٌ من أمر سيف الدولة الأديب الشاعر السياسيّ المطلع على كل ما كان في البلاد العربية ، المتتبع لكل / حدّث في السياسة والأدب ، عجيبٌ أن لا يكون قد وصل إليه طرفٌ من شعر أبي الطيب يعرف منه منزله في الشعر والأدب ، فيأتي أبو العشائر فيعرفه تلك المنزلة !!

وثالثة : أن النص يقول إن سيف الدولة قد دخل تحت شروط المتنبّي حين اشترط عليه أن لا يُنشد إلا وهو قاعد ، وأنه لا يُكلّف تقبيل الأرض بين يديه . ونحن لا ندرى

لماذا يَدْخُلُ سيفُ الدولة تحت هذه الشروط ؟ ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط إذا كان قد جاءه على غير معرفة مُتَّصِلَةٌ بينهما ، وكان قد جاءه مُسْتَمِيحاً طالباً رِفْدَهُ وَمَالَهُ وفواضله ؟ وهَلَّا أَجَّلَ ذلك إلى أَجَلِهِ ، فيمدحه وينشده ، حتى إذا حَسُنَ موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فَيَتَّقَى بذلك سُوءَ الرَدِّ ، وينال بالإذن لَهُ بما يشترط رِفْعَةً تَكْبِثُ حُسَادَهُ ، وَتَغِيظُ عُدَاتَهُ ، ويكونَ فِعْلُهُ هذا أدلَّ على حُسن سياسته ، وسَعَةِ حيلته ، ويكونُ أشبه بتدبير أبي الطَّيِّبِ ، كما مرَّ بك في مواضع من كلامنا !!

والرابعة : أن في النَّصِّ كلمةٌ يُرَادُ بها الغَضُّ من أبي الطيب وتحقيره ونسبته إلى الجفاء والغلظة والجلافة ، إذ زَعَمَ واضعها أنَّ سيف الدولة سلم أبا الطيب « إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شك ، وكان قد اتَّصَلَ بكثير من أصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مرَّ بك أنه كان قد دخل لُبْنانَ وشارك في الطراد والصيد ، وكذلك حين كان في جوار « بدر بن عمار » وغيره ممَّن مدح . وكيف نَظُنُّ أنَّ أبا الطيب كان قد طَوَى هذه السنين كلها / بالشام ، مع ما كان فيه من العُجْبِ بقوته وفروسيته ، وذكر ذلك في شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلُّم ذلك أو المشاركة فيه ، مع أنها كانت من الانتشار والذيع بإمكان لا يجهل ؟

فهذه الرواية ، كما ترى ، لا تصلح أن تكون سِيِّاقاً للقاء أبي الطيب سيف الدولة . وأعلم أنَّ أكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يراؤُها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يُروى في تراجم رجالنا كان مما يراود به مَضْعُجُ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء . = هذا على أنها ربُّما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها في هذه النصوص ، لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلا بها ، ولا يستمر إلا عليها . فلمثل هذا كان لابد لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، وردُّ بعضها

والأخذ ببعض ، حتى لا تتقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يفوتنك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أنت أن تقرأ أو تكتب .

والسياق التاريخي عندنا للقاء أبي الطيب سيف الدولة هو ما ترى :

نزل أبو الطيب ضيفاً على أبي العشائر ، يمدحه ويخبره ويروّز ما عنده من الهمة ، وما في هذه الهمة من المطالب ، وما في مطالبه من الموافقة لما في ضميره من الآراء والأحكام . وكان يريد بذلك أن يكون على كئيب ومقرّبة من بني حمدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقق في نفسه ما عرف عنهم / من خير ، وليرى رأيه في البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً في الأرض على ما كان عليه من قبل حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمواقي الموافق الذي يستطيع أن يهب له قلبه ووجهه ، ورأيه وحكمته ، وتجربته وخبرته ، وآراءه في السياسة التي كان جاهداً في معرفة خفيّاتها ومضمراتها طول حياته . وكان يخصُّ بإرادته هذه سيف الدولة ، وهو علمُ بني حمدان إذ ذاك ، والمستولى على الأمد من رجال عصره ، والذي عهد فيه أبو الطيب حين رآه في سنة ٣٢١ رجولةً متحفزةً للوثبة ، وسمع من أخباره ما يكاد يحقق توسّمه في ظفره وفلججه على خصومه وخصوم أبي الطيب نفسه .

وبقى أبو الطيب سنةً في ظلّ أبي العشائر ، وكان فتىً من فتیان بني حمدان ، قد جمع أداة الفتوة ولم يستكملها ، وكان أديباً مقتدرًا مولعاً بالأدب ، مبعجلاً للأدباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تقع له الدرّة الجميلة في شعره ، والنادرة البديعة ، غير متعمّد ولا جاهد . وأحبّ أبو الطيب صاحبه أبا العشائر ، وأحبه أبو العشائر وأكرمه وأضفى عليه من كرمه ولينه وحنانه ، وقد حفظ له أبو الطيب هذه اليد التي له عنده ، حتى إنه لما غضب عليه بعد - لأمر سيأتي ذكره فيما يستقبل من كلامنا - وأرسل إلى أبي الطيب بعض غلمانهم ليوقعوا به وهو بظاهر حلب ، ورماءً أحدهم بسهم أخطأه ، وقال له وهو يرميه : « خذه ، وأنا غلام أبي العشائر » = لم يُحفظ ذلك أبا الطيب على أبي

العشائر ، ولم يَسْتَدْعِ هذا العزمُ على قتله هِجَاءَهُ أبا العشائر ، بل قال : . . . : [ثم انظر ما سبق ص : ٣٤٤ - ٣٤٧] .

وَمُتَّسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ
(فَهَيْجَ مِنْ شَوْقِي ، وَمَا مِنْ مَدْلَةٍ)
/ وَكُلُّ وَدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى
(فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا ،
وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الْفِدَاءُ لِنَفْسِهِ ،
(فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا - يَكُ قَاتِلًا)
وَلَلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفُ
حَنَنْتُ ، وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ الْوَفَّ (١٩٧
دَوَامَ وَدَادِي لِلْحَسَنِ ضَعِيفُ
فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَّرَنَ الْوَفَّ (١٩٧
وَلَكِنَّ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ
بَكْفِيهِ . فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ (١)

وهذه الحادثة وما كان من أبي الطيب فيها ، وما قال من الأبيات السالفة ، دليل قاطع على أن الرجل كان إذا أحب وأخلص الحب لم يحوله شيء عن حبه = وأن هجاءه الذي كان منه لبعض من مدحهم ، إنما كان منه لأنه لم يكن يضمن لهم حبا البتة ، بل كثيراً ما كان يخفى بين جنبيه احتقارهم وازدراءهم ، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وقف بأبوابهم . وهي أيضاً دليل على ما قطعنا به ، في موضع من كلامنا ، من أن أبا الطيب كان ودوداً أوفياً ، كريم الخلق ، وفياً لمن وفى له وأحبه وبأذله الود . وقد صدق صاحبنا ولم يكذب إذ وصف لنا نفسه يوماً ما فقال :

خُلِقْتُ الْوَفَّ ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

وهذا موضع من أخلاق أبي الطيب ونفسيته ينبغي الوقوف عنده وتدبره ، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضون حين يذكرون أخلاقه ، حتى إنهم من اضطرابهم في فهم أخلاق الرجل ونفسيته ، رموه بالاضطراب والملل في الصداقة والود . وليس الأمر على ما ظنوا ، بل هو كما ترى في كلامنا هذا . ورحم الله أبا الطيب ، فقد حمل من نكد الدنيا في حياته وبعد موته ما لقي من أرزاء .

(١) أي فليقتلني بكفّيه لا بكفّيه غيره ، ولكن أبا الطيب أخرج المعنى في أسلوب غاية في البراعة .

/ هذا ، وقد لقي أبو الطيب وهو في جوار أبي العشائر ، كما حدثناك في الباب السابق ، كيداً كثيراً ، وتقول عليه المتقولون ما شاءوا ، وآذوه وكثروا عليه الوشاية والسعاية ، وغرّوا بدمه وثلبه ، وكان ما زعمناه من تشهيرهم به إذ تَبَزَّوه باللقب الذي عُرف به بعد وهو (المتنبى) . (١) ولم يكن كل ذلك مما يردُّ أبا الطيب عن غايته التي قصد من أجلها أبا العشائر ، فبقى صابراً حتى كانت سنة ٣٣٧ .

ففي جُمادى الأولى من هذه السنة قدم سيف الدولة - من حربه مع الروم وظفروه بحصن بَرْزَوَيْه - إلى أنطاكية التي كان بها أبو العشائر وأبو الطيب ، فاستقبله أبو العشائر ، وأبلغه ما كان من مَقْدَم أبي الطيب عليه ، وإكرامه له ، ووصف له ما حَسُن عنده من نُحْلَق أبي الطيب ، وما وجد فيه من الفتوة والمروءة ، وما أعجب به من حُسْن عشرته ، وجميل أدبه في المنادمة والمسامرة ، وما عليه أبو الطيب من الطَّبِيعَة الثائرة الجبارة ، وما انطوى عليه قلبه من محبة العرب وبُغْض الأعاجم ، وما سمعه من آرائه في سياسة الأمة ، وما ابتليت به من البلاء الأعجمي والفتن الآكلة رطب الحياة العربية وبابسها ، وذكر له شعره الذي مدحه به فذكر سيف الدولة ذلك الفتى العربي الصُّبُوح الوجه ، الحسن السَّمْتِ ، صاحب الوفرة المسترسلة التي تسيل إلى شحمتي أذنيه = ذكر ذلك الذي أنشده مديحه في سنة ٣٢١ وهو يتدفق بفصاحته وبيانه ، ويتقلع بقوته وشدته وحماسته وحِدَّة شبابه = ذكر سيف الدولة تلك الشخصية الطاغية بسحرها وجمالها وجلالها ، والتي لا تدع للنسيان في الذاكرة يداً ماحية / أو مفسدة ... وقد كان أبو الطيب كما وصفوه « رَجُلًا مِلءَ العين قوياً بديناً خليقاً شخيصاً ، عادى الخلق ، قوياً الأساطين ، وثيق الأركان ، جيّد الفصوص ، فيه جفاءً وخشونة » . ذكره سيف الدولة واستيقظت في قلبه المحبة النائمة في غوره ، وتجمعت له أخباره التي كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة ، فتقدّم إلى أبي العشائر أن يستدعيه لساعته ، شاكرًا له حسن وفادة الرجل وإكرامه له .

وكذلك لاقى العربيُّ الثائرُ الشاعرُ الفدُّ ، العربيُّ الفاتحُ الغازيُّ المجاهدُ الفدُّ ، على شوقٍ وحنينٍ ، وحننٌ الدم إلى الدم ، وعَلِقَتِ النفسُ بالنفسِ ، وتعانقت القلوبُ في ساعةٍ من غَفَلاتِ الدهرِ ، أخرجت كِلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثاني فاتحةً مَجْدِ أبي الطيب ، وخلودِ ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه .

وفي هذا اللقاء التاريخي الذي انتفضت فيه القلوب ، ورمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفسُ الرجلِ البليغِ ، واجتمعت لها كلُّ حَوَادِثِهَا وما مرَّ بها من الأهوالِ ، في مجلسِ أميرِ العربِ الفاتحِ المجاهدِ الظافرِ ، وتقاذفت المعاني من قلبه إلى لسانه ، ووقفت محبوسةً في هذه الأبيات التي ضَمَّهَا الشاعرُ إلى قصيدته بعدُ في مدح أميره وأمير قومه : (١)

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيْتُهُ عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤَيَّدَاتٍ قَوَائِمُهُ (٢)
مَهَالِكُ لَمْ تَصْحَبْ بِهَا الذُّبَّ نَفْسُهُ ، وَلَا حَمَلْتُ فِيهَا العُرَابَ قَوَادِمُهُ
(فَأَبْصَرْتُ بَدْرًا لَا يَرَى البَدْرُ مِثْلَهُ ، وَخَاطَبْتُ بَحْرًا لَا يَرَى العِبْرَ عَائِمُهُ)

ثم قال البيت الذي تنازعت كل عواطف قلبه ، ونوازع فؤاده ، وآراء فكره ، وفصح بيانه :

(غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلَا وَأَصِيفٍ ، وَالشَّعْرُ تَهْدِي طَمَاطِمُهُ) (٣)

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذي بقى للعرب في صفة أمير فدٍ من أمرائهم ، ردَّ به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال مَعْقِلًا للعرب والعربية إلى يوم الناس هذا ... ألا وهو الشام الذي يضم فلذة أكباد الفاتحين من المهاجرين والأنصار ، ومن سَبَقَهُم

(١) أنشد أبو الطيب هذه القصيدة في مجلس آخر غير هذا المجلس الذي وصفناه لك ، ثم انظر مثل ذلك من فعل أبي الطيب ، في أبيات يقولها ابتداءً ، ثم يضمها شعره ، ص : ٣٤٠ ، والتعليق رقم : ٢ ، وما سيأتي ص : ٣١٢ - ٣١٥ .

(٢) « مؤيدات » ، شديداً الأيد ، وهو القوة .

(٣) « الطماطم » جمع « طمطم » ، وهو العبي الذي لا يُفصح ، يعرض بشعراء زمانه .

إليها في الجاهلية من العَرَائيق الصُّباح من بنى غَسَّان . وكان ذلك أيضاً بدءَ المجد الخالد
 للسان العرفي ، والفكر العرفي الصريح في ديوان شاعر فذٍّ من شعراء العربية ، لم يُرزق
 الشُّعرُ ولا الحكمةُ مثله ذا لسان وبيان ألا وهو أبو الطيب المتنبي ، واحد الشعراء
 الذي جاء (فملاً الدُّنيا وشغل الناس) .

ولا بدُّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضوع من الكلام ، وندع صِفَةَ ما نحن فيه
 من لقاء الأَسَدَيْن العَرَبِيَّين الفاتحين . زعمنا لك فيما مضى أن تلك الأبيات الأربعة
 المذكورة آنفاً ، كانت مما ثارَ في قلب أبي الطيب في هذا المجلس الأول ، قبل أن يحتفل
 بيانه لقصيدته الأولى التي أنشدها سيف الدولة في تلك السنة . (١) وهذا موضع تدبُّرٍ
 وبصيرٍ ، لا نحبُّ أن ندعه قبل أن نسوق إليك من أخباره طرفاً ، حتى تَنهَجَ لِنفسك نهجاً
 مقارياً يعينك على استخراج / أسرار أبي الطيب ، واستنباط ما كان يلجُّ في نفسه من
 العواطف ... بلى ، وهو عندنا قانونٌ من قوانين شِعْرِ أبي الطيب ونَفْسِهِ ، تستطيع به أن
 تعرف خَفِيَّات ما في شعره من ضمائره ومبهماتِه . هذا ، وسنكشف لك عنه فيما
 يَسْتَقْبِلُ كَشْفاً مَبِيناً إن شاء الله . (٢)

كان أبو الطيب = على ما وصفنا لك من قُوَّة النفس وحِدَّة الطبيعة = مُرَهَفَ
 الحسِّ ، سريع التأثر ، تنطلق عواطفُه كُلُّها في ساعة من ساعات حياته ، فلا تلبث أن
 تستثير كل قُوَّة فيه ، وتجتمع كلُّ قواهُ حين ذلك ماضيةً من قلبه إلى لسانه ، لتثبت عليه
 عَدَدَ هزاتِ الزلزلة التي وقعت في قلبه ونفسه ، ويفزع لسانه إلى بيانه ليُبين عنه ما يبغى
 من الإبانة ، فيحتفل بيانه كله في أبياتٍ قليلةٍ تكون هي أول القصيدة عند أبي الطيب ،
 ثم يدَّخرها صاحبنا لأجلها وموضعها ، فيثبتها في مكانٍ من شعره . وكثيراً ما تقع هذه

(١) انظر ما سلف ص : ٣١١ ، تعليق : ١ .

(٢) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التي صنعت لأبي الطيب حكمته ، وأيدت بيانه

ببيانه النسوي البليغ .

الآيات في موضع لا تتساقط فيه معاني الكلام على قاعدة مطردة من حَقِّ المعنى وتتابعه ، فلذلك تبقى هذه الآيات التي تحمل في ألفاظها هزات نفسه واقعة بين كلامين ، ولا تكون هي صلةً بينهما ، بل تكون كالفارق الفاصل . وهذا هو ما نسميه في شعر أبي الطيب موضع (الانتقال) . ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسية التي كان عليها الرجل . فإذا تبصرت فيها ، واستخرجت معانيها ، وفصلت كلامها وألفاظها ، وفسرته على الأصول الشعرية والنفسية القائمة في شعر أبي الطيب ونفسه كما قدمناها لك = استطعت أن / تتلمس في ظلام التاريخ الحلقات التي ينبغي أن تصل بعضها ببعض ، فيسرى التيار بينها فتضيء لك ، فتتكشف المعاني في شعر الرجل ، وتبين المواضع الغامضة المظلمة من حياته وهذه هي الطريقة التي اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك ، وقد تحققنا صدقها ، ووجدنا إسعادها لنا في المشكلات التي وفقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها .

ويجمل بنا هنا أن نعود بك إلى الآيات التي ذكرناها ، ونبين ذلك فيها ونسألك أن تعذرنا إذا قصرنا ، وأن تسددنا إذا أخطأنا ، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبر لا يفت منه الملل ، فلا حكم لملول ولا متترع .

يقول أبو الطيب قبل الآيات التي روينها لك يصف سيف الدولة :

لَهُ عَسْكَرًا حَيْلٍ وَطَيْرٍ ، إِذَا رَمَى	بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
أَجَلَّتْهَا ، مِنْ كُلِّ طَائِعٍ ، ثِيَابُهُ ،	وَمَوْطِئُهَا ، مِنْ كُلِّ بَاغٍ ، مَلَاعِمُهُ (١)
.....
سَحَابٌ مِنَ الْعُقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا	سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

(١) « الأجلة » جمع « جلال » ، وهو جمع « جُلَّ » ، وهو كساء تلبسه الخيل لتصون ظهورها . « الملاجيم » ،

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، ومن صفته جُيوشَ سيف الدولة وما كانت تأتي به من أهوال الحرب ، وما يكون منها في ساحات الوغى ، فيقول غير متخلص إلى غرضه = على ما يريد علماء البلاغة !! من حسن التخلص = فيقول يَصِف نفسه وما لاقى هو من الأهوال والمهالك :

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقَيْتُهُ عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤَيَّدَاتٍ قَوَائِمُهُ

/ الأبيات الأربعة التي آخَرُهَا :

٢٠٣

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِأَوَاصِيفٍ ، وَالشُّعْرُ تَهْدِي طَمَاطِمُهُ

ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر ، فيقول يذكر نفسه ورحلته :

وَكُنْتُ إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً بَعِيدَةً سَرَيْتُ ، فَكُنْتُ السَّرَّ وَاللَّيْلُ كَاتِمُهُ

ثم (ينتقل) أيضاً بعده فيذكر سيف الدولة فيقول :

لَقَدْ سَلَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَجْدُ مُعَلِّمًا ، فَلَا المَجْدُ مُخْفِيهِ ، وَلَا الضَّرْبُ ثَالِمُهُ

فلهذه الانتقالات المتتالية وقفنا عند الأبيات الأربعة التي قدمناها ، وتبصرنا فيها وفي معانيها ، وفي دلالات ألفاظها واحدةً واحدةً ، ورددنا البصر إلى مقدم أبي الطيب إلى أنطاكية في جوار أبي العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مقدم سيف الدولة إليها في سنة ٣٣٧ ، ثم في اللقاء الذي رَوَوْا خبره على عِلَّاتِهِ ، ونفضنا الأبيات ومعانيها ، وتَلَمَّسْنَا الحَلَقَاتِ فِي ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء الذي كان في تلك السنة بين أبي الطيب وسيف الدولة ، ونحن ننظر بعين لا تَحْسُرُ إلى ما قَدَّمْنَا من التاريخ في صدر هذا الباب ، وما عرفنا من حُلُقِ أبي الطيب وآرائه وأغراضه وآماله ، وما وقفنا عليه من حُلُقِ سيف الدولة وآرائه وأغراضه وآماله ، ثم حكمنا كما رأيت أنها كانت أوَّلَ ما قال أبو الطيب من

قصيدته تلك ، وأتممنا الرأي على ذلك ، واعتمدناه ، وسيرنا على بركة الله . فانظر ماذا نرى : (١)

٢٠٤ / ثم نعودُ إلى ما كنا فيه لقي أبو الطيب سيف الدولة ، وخرج من مجلس أمير العرب ، وهو يقول كما قال أولاً في بعض من مدح بأنطاكية :

مُفَدَّى بآبَاءِ الرَّجَالِ ، سَمِيدَعَا هُوَ الْكَرْمُ الْمَدُّ الَّذِي مَا لَهُ جَزْرُ
وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشُّوقُ نَحْوَهُ يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقِينَا ، صَعَّرَ الْحَبِيرَ الْحَبْرُ

واحتفلت نفس الشاعرِ الثائرِ البليغِ لهذا اللقاءِ ، ونسى نفسه وما كان يذكرها به من القوة والفتوة ، وما كان طولَ عمره يصفها به من صفات الرجولة والكمال ، ووجد آماله في آمال سيف الدولة ، وآراءه في آرائه ، وعواطفه في عواطفه ، فألقى في مدح (الرجل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه ، وألغى ذكر نفسه ، ورمى بين يدي سيف الدولة الدرَّة الأولى في تاج بني حَمْدَانَ مشرقة متألقة تسطع وتتضوأ .

وفي هذه القصيدة الأولى التي أولها : « وَفَاؤُكُمْ كَالرَّبِيعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ » ، رجعت إلى أبي الطيب قُوَّة التصوير والتمثيل ، فرسم صورة سيف الدولة كأحسن ما تأتي من بنان مُصَوَّرٍ صَنَعَ لَبِيقٍ حَادِقٍ مُبْدِعٍ ، ووصف المجلس الذي كان فيه سيف الدولة كأنك تراه . وذلك أنه دخل عليه وقد جلس في فَازَةَ من الديباج عليها صورة ملك الروم ، (٢)

(١) اعلم أننا لو أردنا أن نقفك عند لفظ لفظ من الأبيات ، ونكتب لك الرأي كله مقيداً لطوبنا بذلك ورفات من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن إتمام هذا العدد من المقتطف . فلا بد لك إذن من النظر ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم نبلغه بضعفنا ، وفقنا الله وإياك .

(٢) الفازة : المظلة تقوم على عمود في وسطها . وهي أشبه بما يتخذها الناس في يومنا هذا على شواطئ

وصور رياضي بدوحها وطيرها ووحشها وحيوانها . فكان مما قال في صفة تلك الفازة ،
والأسد المقيى في ذراها :

٢٠٥ / وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيَّةِ كُلِّهِ
عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تُحْكَمْهَا سَحَابَةٌ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوجِّهِ
تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحاً بِهِ
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجٍ ، كَأَنَّهُ
وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ
تُقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطِئِهِ ،
قِيَاماً لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كِيَّةٌ
قَبَائِعُهَا تَحْتَ الْمَرَافِقِ هَيْبَةٌ ،
لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَرَجُلٍ ، إِذَا رَمَى
أَجَلَّتْهَا ، مِنْ كُلِّ طَاغٍ ، ثِيَابُهُ ،
(فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ ،
(وَمَلَّ الْقَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ ،
لَقَدْ سَلَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَجْدُ مُعَلِّمًا
عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ الْأَغْرَّ نِجَادُهُ

حَيَا بَارِقٍ فِي (فَازَةٍ) أَنَا شَائِمُهُ
وَأَغْصَانُ دَوْجٍ لَمْ تُعَنَّ حَمَائِمُهُ
مِنَ الدُّرِّ ، سِمَطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَازِمُهُ (١)
يُحَارِبُ ضِدُّ ضِدِّهِ وَيُسَالِمُهُ
تَجُولُ مَذَاكِهَ ، وَتُدْأَى ضَرَاعِمُهُ (٢)
لَأَبْلَجٍ ، لَا تَيْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ
وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُمُهُ وَبِرَاجِمُهُ (٣)
وَمَنْ بَيْنَ أُذُنَيْ كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهُ
وَأَنْفَذُ مِمَّا فِي الْجُفُونِ عَزَائِمُهُ (٤)
بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
وَمَوْطِئُهَا ، مِنْ كُلِّ بَاغٍ ، مَلَاعِمُهُ
وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تُزَاجِمُهُ)
وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهُ (٥)
فَلَا الْمَجْدُ مُخْفِيهِ ، وَلَا الضَّرْبُ ثَالِمُهُ
وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ

(١) « الموجه » ، ذو الوجهين .

(٢) يصف الخيل (وهي المذاكي) ، والأسود وهي تحتل صيدها من الظباء النافرة . « دأى الصيد » ، ختله ليصيده .

(٣) البراجم : مفاصل الأصابع .

(٤) القبائع : ما يكون على قوائم السيوف من الخلى ، يعنى السيوف المحلاة بالذهب والفضة .

(٥) تأمل تكرار « مل » في البيتين الأخيرين ، وتكرار « مما » ، وهي تدل على الكثرة .

تُحَارِبُهُ الأعداءُ ، وهي عبيده ، وتُدخِرُ الأموالَ ، وهي غنائمُهُ
 / وَيَسْتَكْبِرُونَ الدهرَ ، والدهرُ ذُوتهُ ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الموتَ ، والموتُ خادِمُهُ
 وَإِنَّ الذِي سَمِيَ عَلِيًّا لَمُنْصِفٌ ، وَإِنَّ الذِي سَمَاهُ سَيْفًا لَطَّالِمُهُ
 وَمَا كُلُّ سَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ حُدَّهُ ، وَتَقْطَعُ لَزَبَاتِ الزَّمَانِ مَكَارِمُهُ (١)

٢٠٦

فاقرأ ، ثم اقرأ ، ثم تدبر ، ثم عد إلى النهج الذي أشرنا إليه في الحديث عن « بدر بن عمار » ، ووصفه الأسد هناك ، وقارن بين ما ترى هنا وما ترى ثم ، تجد التقارب بينا واضحا ، والنفس الشعرى البليغ العظيم ممتدا من زمان بدر إلى هذا الزمان غير منقطع . وتدبر هذه الأبيات الأخيرة وما سَمَّها به أبو الطيب من ميسمه الذي يتلذع بنا قلبه ، والذي صار علامة بينة في كل شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد هذا . وفي الذي قدّمنا ذكره وما أشرنا إليه كفاية للبصير المتدبر .

وبقى سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب إلى جواره وفي مجلسه ، وبين أصحابه وفي ركابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بشره ، وقربه ، وامتدّ الحديث بينهما في بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما أدركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة أن محدّثه رجلٌ داهية بصيرٌ مُحَنِّكٌ قد نَجَّدته الحوادث ، وله رأىٌ ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدّها بعد اللقاء الأول في سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه ، فيما زعمنا ، من نكبتة الأولى في نسبه / من قبل العلويين أصحاب الأمير بالكوفة ، فزاده قرياً وكرامةً ومحبةً ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً في أنطاكية وغيرها ، لِمَا عُرِفَ من صرامة سيف الدولة وتحرّزه وتشدّده حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردت إلى ما كان بين سيف الدولة وأبي فراس

٢٠٧

(١) « اللزبات » جمع « لزبة » ، شدائد الدهر التي تفقر الناس .

الحمدانيّ ، فإنّ القَرَابَةَ والرَّحِمَ لم تنفع أبا فراس في القرب من سيف الدولة ، مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً في طاعته ومَرْضَاتِهِ ، حامياً لحقيقته ، مفضّياً له في حروبه وغزواته بنفسه ودمه ، ممجّداً له في شعره ، مخلصاً ذكرَ غزواته وحروبه . كلُّ هذا لم يقرب أبا فراس من سيف الدولة قُربَ أبي الطيب منه ، مع تقدّمهما في الشعر والأدب ، ومع أن أبا فراس كان أولى بالتقديم والتكريم من أبي الطيب لِحُسْنِ بِلَائِهِ في الحرب ، وقَدَمِ عِشْرَتِهِ لسيف الدولة ، وسبقه في تمجيدهِ وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك إن تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظلمين بظله ، والمبتدئين في طاعته وخدمته ، لم يكن من أجل الشعر وحده وحسب ، بل للذي بلاءه سيف الدولة من آراء أبي الطيب وأفكاره وعواطفه في الأمور السياسية التي كان يسعى في تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ورجاله المحنكين من ذوى الدَّهَاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا مطالب سيف الدولة في أول هذا الباب . (١)

ثم عزم سيف الدولة الرحيل عن أنطاكية إلى حلب مقرّ حكمه ، ولكن أبا الطيب لم يصحبه في رحيله هذا ، فعزم عليه سيف الدولة أن يلحقه بحلب . / وعندنا أنّ الذي عاق أبا الطيب عن صحبة سيف الدولة في هذا الرحيل ، أمرٌ يخصُّهُ هو ، وليست له فيه إرادة . وقد قلّنا الرأى في شعر المتنبي في تلك الفترة وما بعدها بقليل ، وتدبرنا كلام الرجل على الأصول التي قدمنا لك منها أطرافاً في كلامنا ، وظفرنا بأشياء دلّتنا على أن هذا الأمر الذي عاقه كان مما يقطع في قلبه ويؤجعه في عواطفه ، وتبيّن لنا أن هذا الأمر هو مَرَضُ زَوْجَتِهِ ، والظاهر أنها كانت حاملاً ، ثم جاءها المخاض فأعضلت وعسرت ولادتها ، ثم رمّت ذا بطنها وماتت [انظر ما سلف ص : ٢٣٩ ، ٢٤٠] ، وكان مرضها ذلك في حَمَلِهَا ، ثمّ ما تركت له وراء ظهرها = ولعلّ الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك = هو الذي منع أبا الطيب أن يصحب سيف الدولة يوم رحيله من أنطاكية .

٢٠٨

(١) تلبث نجد بقية الحديث بعد قليل في هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر .

وتأويل ذلك : أن أبا الطيب كان ولا شك عازماً على رُفقة سيف الدولة ، ولولا ما فَجِئُهُ مما لا حيلة له في رده لَفَعَلَ ، فإنه حين أزمع سيف الدولة الرحيل عن أنطاكية قال له أبو الطيب :

نَحْنُ مَنْ ضَايِقَ الزَّمَانَ لَهُ فِيكَ ، وَخَائِتُهُ قُرْبِكَ الْيَوْمَ

وقال أيضاً في يوم رحيل سيف الدولة ، وقد كثُر المطر وكاد يعوقه عن عزمته :

رُوبِدِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ تَأَنَّ ، وَعُدَّهُ مِمَّا تُنِيلُ
وَجُودَكَ بِالْمَقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً ، فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلُ
لِأَكْبِتَ حَاسِداً وَأَرَى عَدُوًّا ، كَأَنَّهُمَا وَدَاعُكَ وَالرَّحِيلُ

فهو في البيت الأول يذكر ما يتليه به الدهر من العوائق ، وما يُضايقه / به من ٢٠٩
الأرزاء التي تحول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خصَّ نفسه
بذلك إذ يقول : « نَحْنُ مَنْ ضَايِقَ الزَّمَانَ لَهُ فِيكَ » ، ولا نظنُّ أن قد كان إذ ذاك ما يمنع
أبا الطيب من الرُفقة ، إلا ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كادَ المطر
يعوق سيفَ دولة ، بان الفرخُ في كلام أبي الطيب مقروناً بالحسرة ، لما يعلم من أن ذلك
لن يَقْطَعَ فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلَّل له بعَلته التي
ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التي عليها امرأته ، فوقع في بيتٍ من
قصيدته الأخيرة التي ذكرنا أولها ، ما يدلُّ على ما في نفس الرجل من آثار ما كان فيه من
الكرب ، على عادته التي أسلفنا بيانها في مواضع . فقال لسيف الدولة :

فَلَوْ جَاَزَ الْخُلُودُ تَحَلَّدَتْ فَرْدًا (وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا خَلِيلُ)

فهذا الحزنُ الغالب على الشطر الأخير ، والمتمثَّل في كلماته ، وفي عبارته عن
المعنى الذي أرادَهُ حين استدرِك بقوله : « ولكن » بعد الذي كان من فرحه وطربه وتدفق
نفسه بالآمال ، واستبشاره بقاء سيف الدولة ، والذي كشفت عنه قصيدته الأولى :
« وفاؤكما كالربع أشجَاهُ طاسمه » ، على ما مضى في كلامنا = كلُّ ذلك يدلُّ على أن

الرجل كان قد أدركه ما أحزنه وغمّ قلبه ، وردّ عليه فرح نفسه غمًا وحسرة وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدَّهر بالفراق والموت . وهذا بيّن كما ترى .

وانتقل أبو الطيب - بعد موت امرأته بقليل - من أنطاكية إلى حلب ، ثم ماتت والدة سيف الدولة ، فقال له في عزائه قصيدته المشهورة ، وأولها من دموع أبي الطيب التي كان يبكي بها ، وقد جاء فيها :

٢١٠ / نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ ، نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ نَحِيَالٍ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ
فَصِيرْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ تَكْسَرُ النَّصَالَ عَلَى النَّصَالِ
وَهَانَ ، فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا (لِأَنِّي مَا أَتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي)

(يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَتَمْشِي)
.....
أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورزاياها ، وما فيه من الحزن الغالب على عقله وعواطفه ، بعد الذي كان من أفراحه ، دليل على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وآبتلى ببلاء ألمه وحز في قلبه ، لا يزال يدفعه إلى القول الباكي الحزين . ثم يستمر على ذلك في شعره مدّة ، فإنّه في هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان من أسر الخارجي :

تُفْكُ العُنَاةَ ، وَتُعْنِي العُفَاةَ ، وَتُعْفِرُ لِلْمُنْذِبِ الجَاهِلِ
فَهَنَّاكَ النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ وَأَرْضَاهُ سَعْيُكَ فِي الْآجِلِ

يعنى سيف الدولة ، وهذان البيتان في ختام القصيدة ، فكان حقّ الشعر أن يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذي كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل ، ولكن نفس الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن ، وغمّتها الدنيا (التي ليس لها خليل) بما جلبت عليها من أرزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير

متخلص ولا حافل (بالمناسبة ومقتضى الحال) ، فقال في عَقْب هذين البيتين ، بيتين
آخرين غريبيين عن معنى الدعاء وعن معنى المدح ، / اجتمعت فيهما مرارة الحياة كلها ،
ثم جعلهما ختام القصيدة ، قال :

(فَدَى الدَّارُ أُخُونَ مِنْ مُومِسِ ، وَأُخَدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحَايِلِ)
تَفَانَى الرَّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

إنهما نفثة مكروبٍ حزينٍ ، قد أَدَمَّتْ قلبه غَدَرَاتِ الدَّهْرِ ، قال له الدهرُ :
« تُحَدُّ » ، ففرح وابتهج ، ولم يكذ حتى قال له : « هَاتِ » ، فطارت البهجةُ ، وأطبقَ عليه
الكربُ الخائق المظلم .

فأنت ترى الآن أن هذه المعاني التي قيَّدناها لك ، آخِذٌ بعضها ببعضٍ ، على
طَرَازٍ لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وَقَدْ كان سيف الدولة سأل أبا الطيب بعد
ذلك أن يسير معه إلى الموصل ، لَمَّا أزمع هو المسير إلى نُصْرَةِ أخيه ناصر الدولة ، فاعتذر
له أبو الطيب عن المسير معه بقوله :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ ، فَمَا تَحُولُ تَنُوفَةٌ دُونَ اللِّقَاءِ ، وَلَا يَشِطُّ مَزَارُ
(إِنَّ الَّذِي خَلَّفْتُ خَلْفِي ضَائِعٌ ، مَا لِي عَلَى قَلْقَى إِلَيْهِ خِيَارُ)
(وَإِذَا صُحِبْتَ فَكُلِّ مَاءٍ مَشْرَبٌ (لَوْلَا العِيَالُ) ، وَكُلُّ أَرْضٍ دَارُ)
إِذْنُ الأَمِيرِ بَأَنْ أَعُودَ إِلَيْهِمْ صِلَةٌ تَسِيرُ بِذِكْرِهَا الأَنْبَارُ

فلو أن امرأته كانت إذ ذاك باقية لم تَمُتْ ، لَمَّا عَزَّ على أبي الطيب أن يفارق
(عياله) في رفقته وصحبته . ويبيِّن من قوله : « إِنَّ الَّذِي خَلَّفْتُ خَلْفِي ضَائِعٌ » ، أنه
يعنى صغيراً من ولده لا يطمئن قلبه إذا فارقَهُ مُضِيْعاً ليس له من يُعُولُه أو يكلِّوهُ ويرعاه ،
وَأَتَمَّ ذلك المعنى بقوله : « مَا لِي عَلَى قَلْقَى إِلَيْهِ خِيَارُ » . وفي الأبيات جميعها حنان الأبوَّة
مائلٌ بين لا خفاء فيه وَحَسْبُكَ هذا من كلامنا ، فإذا رَجَعْتَ إلى الديوان ، فتدبَّر
قصائده بعد ذلك ، / ففيها من مثل هذا كثير . ولا يفوتنك أن تذكر ما قدمناه من دقة
٢١٢

إحساس هذا الرجل ، وسُرعة تأثره ، وظهور هذا التأثر في شعره إذا كَرِه أمرٌ يَغُمُّه أو يثيرُهُ أو يَهيجُ كبريائه ، وما يكون من جَرَاء ذلك في شعره من الانتقال من معنى إلى معنى غير عالٍ (بحسن التخلُّص ومقتضى الحال) .

وقد قال أبو الطيب هذه الأبيات الرائية في آخر سنة ٣٣٧ ، وفي شهر صفر من سنة ٣٣٨ ، مات أبو الهيجاء عبدُ الله بن سيف الدولة بحلب ، فرثاه أبو الطيب ، وختم رثاءه بثلاثة أبياتٍ ، فاقراها متبصراً متدبراً ، قال :

أُنْبِكى لِموتَانَا ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تُفوتُ من الدُّنْيَا ، وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلٍ
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ ، تَيَقَّنْتَ أَنَّ المَوْتَ ضَرَبَ مِنَ القَتْلِ
(وَمَا الدهرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤمَلَ عِنْدَهُ حَيَاةٌ ، وَأَنْ يُشْتاقَ فِيهِ إِلَى النُّسْلِ)

فقال : « أنبكي لموتانا » ، مقالة رجلٍ قريب عهدٍ بنكبة الموت ، يخاطب رجلاً مثله قريب عهدٍ به . ثم ذكر الاشتياق إلى « النسْلِ » ، مع ما في البيت من المرارة الظاهرة التي لم يذهب طعمها من قلبه بعد . إنه بيتٌ فاضٌ عن قلبٍ مفجوع يتفطر حزناً ، ويقطر ياساً . كلُّ ذلك دليل صريحٌ على أن أبا الطيب كان يخاطب نفسه كما يخاطب سيف الدولة ، لأن بلواهما واحدة .

...

اجتمع على أبي الطيب ، كما ترى في أول صحبته لسيف الدولة ، أفراحٌ قلبه ببقاء أمير العرب الذى أحبه وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وأفكاره وسياسته ، وأحزانٌ قلبه بفقد امرأته ، ثم صغيره الذى جدد له ما بقلبه من أحداث الزمان ومصائبه من الآلام . فكان تنازُعُ الفرح والحزن في تلك / النفس المزهفة الشاعرة الثائرة ، سبباً في استخراج كوامنها ومضممراتها وذخائرها . وأخذ أبو الطيب يروِّض ما عنده من العواطف والأفكار ، ويتأمل ما تجدد في قلبه من المعانى التى ولدتها الأفراح والآلام ، ويستوعب ما في ضميره من الأحداث القديمة التى تركت وسمها فيه ، ويرمى ببصره إلى ما يستقبله في ظل سيف

الدولة . وينظر فيما وجد عند الأمير من العطف عليه والإكرام له ، ومن تقديمه على القدماء من أصحابه وشعرائه ورجاله . وشغلته الأيام بما يتجدد فيها مما يخصه ومما لا يخصه ، وحوته المجالس ، مجالس العلم والأدب والشعر والسياسة ، وأحاطت به الدنيا كلها مهياً كأنما أعدت له ، ليأخذ منها ما شاء ويدع ما شاء ، ... فكان هذا كله ترفقاً من القدر لصنع هذه الشاعرية الفذة ، وتربيتها وتغذيتها وتنشئتها على غرار فذ ، يكون به أبو الطيب شاعر العرب والعربية الذي (ملاً الدنيا وشغل الناس) .

وكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدًا لها من غلوائها ، وصرفاً لها عن الفكر في الكبرياء ، إلى الكبرياء في الفكر ، فأصبح أبو الطيب ينظر في الحياة نظرة التدبر والتحريض ، يقلب الرأي ، ويعبر الفكرة ، ويقيس الأشباه والنظائر ، ويرد الأمور إلى أصولها ومنازعتها ، ويتنزع جوهر المعاني من بين أعراضها ، لا يأتلي في ذلك جهداً ولا يقصر . فمن هنا تواردت عليه المعاني ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومقرراً ، فإذا قصد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافد هذا البيان من الحوافر والدوافع والعواطف ، ابتدرت هذه المعاني من منازلها بين قلبه وفكره ، إلى منازلها بين أبياته وقصائده . وهذا هو أحد الأسرار العظيمة في بيان هذا الشاعر العظيم .

/ وتلاً مجد سيف الدولة في شعر أبي الطيب ، فقربه وزاده عطاءً وإقطاعاً ، ٢١٤
 وأسبغ عليه نعمة لم يكن أبو الطيب ينتظر مثلها أو يؤملها ، فوقع ذلك من نفسه موقع
 الأمنية التي تحققت من نفس اليأس الذي ضجر بأمانيه ، وقد استيقنت نفسه أنها لن
 تتحقق . وكان هذا أيضاً - مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان في نفسه - عوناً على صنع
 شاعرية الرجل وصقلها وجلالها ، لتكون المرأة التي تتراءى فيها حقائق الحياة وفلسفتها
 وحكمتها وبيانها وما لها وما عليها .

ولم يكن سيف الدولة يجهل ما سيكون من هذا الرجل أول ما لقيه ، بل يقيننا أنه

كان قد انكشفت له نفسية أبي الطيب فأخذها من حيث ينبغي أن تؤخذ ، وعرف أن هذا الذي مدحه بأنطاكية سيكون مخلد ذكره ، وحافظ أخباره وصفاته في شعره . وليس مثل سيف الدولة يغفل عن ذلك أو يتجاوز به بصره . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملة متقنة ، وكان بصيراً بنقد الشعر ، نافذاً في إدراك أسرار البيان . وأيضاً ... ، فقد كان ما عليه سيف الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل في شعر أبي الطيب ، فإنه كان يعرف يقيناً بصبر صاحبه سيف الدولة بالأدب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصر ، وتقليب المعاني واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الألفاظ واجتباؤها ، وكان ذلك من أبي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلاً عليه في نظر سيف الدولة رجل غير من الشعراء أو لسواه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه إلى سيف الدولة غيره من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ ... كلاً ، وكذلك فاق أبو الطيب كل من سبقه أو جاء بعده من شعراء العربية ، / فقد اجتمع له من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحد منهم .

وبعد أيضاً ، فقد كان من العوامل في هذا النبوغ الفذ الذي استعلن في أبي الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان في جوار سيف الدولة ، وما تيسر له من الرزق الذي لم يكلفه همًا ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمضغ لقمة من عيشه إلا ومعها تكدها وهمها وشقاؤها . وأيضاً فقد علمت قبل أن هذا الرجل كان من صغره محباً للعلم والأدب ، لا يدع استيعاب ما يقع إليه من الكتب في كل فن وعلم ، ففي جوار سيف الدولة ، تيسر له من ذلك ما لم يكن يتيسر ، فقد كان مليئاً بماله الذي أفاده ، يشتري ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطع أيامه بالتزود من كل علم ، والاستزادة في كل فن ، وقد وهبه الله ذاكرة واعية ، وفهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرة تأخذ من ذخائرها ما تشاء ، وتنضو عنه ما يعلق به ، وتجلوه جلوة العروس في ثياب عرسها . وكذلك اتفق لأبي الطيب في هذا العهد كل ما يعينه على النبوغ والسبق .

قلنا قبل إن سيف الدولة قد قرَّب أبا الطيب وزاده كرامةً ومحبةً لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، مع ما عُرف عن سيف الدولة من تحرزه وتشدده حتى على الكثيرين من أهله ، وضرينا المثل بأبي فراس الحمداني وهو من هو في قربه من سيف الدولة لقرابته ورحمه ، وتحققه بخدمته ، والذهاب في طاعته ومَرْضَاتِهِ ، وتمجيده في شعره ، وتخليد ذكر وقائعه وحرابه ببلاغته وبيانه / = وأشرنا إلى أن السياسة كانت أيضاً مما قرَّب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامرِهِ وِخْلُوتِهِ . ولعلَّ هذا الأمر الأخير = مع ما قدمنا ذكره من أحوال سيف الدولة وأبي الطيب ، وما فيه من النبوغ والدهاء ، = هو الذي جعل لأبي الطيب عند سيف الدولة منزلةً لا تدانيها منزلة أحدٍ من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا يبابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع يباب أحدٍ من الأمراء مثل ما اجتمع يباب سيف الدولة من الشعراء والأدباء .

وقد تتبعنا ديوان أبي الطيب كله لنظفر بالدليل على أن سيف الدولة كان قد استصَفَى أبا الطيب واتَّخذ منه أخصاً يمنحه وُدّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدِّثه بآماله في السياسة والحكم ، فوقعنا على أشياء من ذلك لا بأس من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه في كلامنا من استنباط المعاني وردِّ بعضها إلى بعض . هذا ، على كثرة ما يتَّصل بهذا من أحوال أبي الطيب وسيف الدولة ، مما لا نستطيع أن نجمله لك في فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارئ أن لا ينسى ما مضى من القول فيضعه في موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبيانا ، وأن يستأنى لما يستقبل فيجمله محله ليرتبط الأوَّل بالآخر ، وينكشف له ما يغمُض عليه أو يستبهم مما نحن فيه .

كان أبو الطيب ، كما رأيت أولاً ، رجلاً ثائراً بما في نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم في البلاد العربية ، وقد ذكر ذلك في كثير من شعره الذي مضى بك ، وهدد الأمراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتيهم به من القتل والفتك ، وخصَّ بالذكر

٢١٧ والحِجْدُ والوعيدُ الأعاجمَ الذين كانوا / قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أوّل أمره إلى أن اتصل ببدر بن عمارٍ . وكان ، كما قلنا قبل ، يؤمّل أن يجد في بدر بن عمار (الرجل) الذي يستعين به على آماله وآرابه ، ويحقّق بعونه له ، ما كان يدور في نفسه من المطامع السياسية : من ردّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصاله ببدر ، ولم يكثر من ذكر وعيده وإنذاره وآرائه ، وفسّرنا هذا هناك ، [ما سلف ص : ٢٥٩ - ٢٧٢] فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا في هذا الفصل ، من توافق الرجلين في المذهب السياسي ، والرأى الذى يريانه لإنقاذ العرب من عادية الأعاجم وغيرهم ممن يكيّدون بالفتنة لأمتهم ، هدأ أبو الطيب هدأته تلك ، وانصرف بيانه إلى تمجيد صاحبه ، كما فعل حين كان في جوار بدرٍ . وقد ألمنا بحالة أبى الطيب النفسية وفسّرناها ، وبيننا أنّ ذلك عادة له إذا لاقى العربىّ المحارب الفاتح الذى يؤمل في وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التى تسمو بهمته إلى غزو الأمة ، وإنقاذها من البلاء الذى حلّ بها وأوهاها وفرّق شملها . وجمعنا إلى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب إليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع أهله وقربته ، والمتصلين به من أصحاب الفكر والرأى والدهاء . وقد مضى بك أيضاً أنّ أبا الطيب كان قد ذكر ، حين قدم إلى أنطاكية على أبى العشائر ، أنه لم يأت مستميحاً ولا طالب رِفْدٍ وعطاءٍ ، بل أشار إلى مُرادِهِ ومبتغاه الذى من أجله قصد أنطاكية ، [ما سلف : ٢٩٦] ، فقال :

فَسِيرْتُ إِلَيْكَ فِي (طَلَبِ الْمَعَالِي) وَسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ الْمَعَاشِرِ)

٢١٨ = وتبيننا من شعر أبى الطيب في المدة التى سلخها في ظلّ سيف الدولة / من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ ، أنه كان يقول الشعر في سيف الدولة ممجّداً له ورافعاً من ذكره وذكّر غزواته وحروبهِ ، وقد تآزرت عوامل نفسه كلّها على منّحه التجويد والإبداع في ذلك . وتفسير ذلك عندنا أن هذا الرَّجُلَ الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجّه كل ما كان في قلبه من القوة التى دفعته إلى مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها ، إلى مدح هذا الرَّجُلِ (سيف الدولة) ، ووصفه ووصف حروبهِ وغزواتهِ ، فصارت القوة

التي كانت بيّنة في شعره الأول إلى هذا الشعر ، فكان وحده هو أبداع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورةً أخرى من شعره الأول ، إلا أنها أقوى وأتم وأمثل في التجويد والتصوير .

ثم فارق أبو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والإخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مُستقصياً لأخباره في كل بلد ينزله ، متتبِعاً لشعره الذي يقوله لكل من مدحه من بعده . وكان أيضاً لا يزال يُهدى إليه من هداياه ، مع أنه فارقه ومدح غيره ، بعد إكرامه له إكراماً لم يلق مثله أبو الطيب قبل اتصاله به . وكان أيضاً يُكاتبه ويَتَلَقَى منه بعض كتبه = وكلُّ هذا دليلٌ على أن المحبة التي كانت بين الرجلين لم تكن محبة أمير لشاعره وحسب ، بل كانت صداقةً لا يقطع فيها حَدٌّ من أحداث الزمان ، أو سَعَى الوشاة والمُتَوَلِّين .

هذا وقد رَوَوْا أن سيف الدولة أنفذ إلى أبي الطيب ، وهو بالكوفة سنة

٣٥٢ بعد نُخْرُوجه من مِصر ، وبعد أن فارقه بسِتِّ سنواتٍ ، / هَدِيَّةً مع أحد أقاربه ،
٢١٩ فكتب إليه قصيدة أهداها إليه كما أهدى ، فكان مما ورد في هذه القصيدة ، يخاطب
سيف الدولة :

أَنْتَ طُوْلَ الْحَيَاةِ لِلرُّومِ غَازٍ ،	فَمَتَى (الْوَعْدُ) أَنْ يَكُونَ الْقَفُولُ ؟
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ،	فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَن مَسَاعِي	لِكَ ، وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ
مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا ،	كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ (١)
لَسْتُ أَرْضَى بِأَنْ تَكُونَ جَوَاداً ،	وَرَمَانِي بِأَنْ أَرَاكَ بِخَيْلٍ

(١) « الشمول » هي الخمر .

نَعَصَ الْبُعْدُ عَنْكَ قُرْبَ الْعَطَايَا ، مَرْتَعَى مُخْصِبٌ وَجِسْمِي هَزِيلٌ

مَا أَبَالِي ، إِذَا اتَّقَنْتُكَ اللَّيَالِي ، مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُهَا وَالْحُبُولُ

وقد ذكرنا قبل أن سيف الدولة كان قد عزم في نفسه أن ينال بهيمته غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظلّ حكومته ، وكان أوّل ما أتم من ذلك أن زحّم الإخشيديين بمناكبه حتى أزاحهم عن أكثر البلاد الشامية وردّهم إلى الرملة ، وأراد أن يوطد سياسته وحكمه بالشام ، حتى إذا أعدّ العدة ، واستجمع الأداة ، تحفّز بقوته كلها على العراق فمال عليه ميلةً رابيةً ، ليزيل عنه سلطان الموالى الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالى ، أو أكثرهم ، ممن استقل بالدويلات ، من شيعة العلويين الذين أطاعوا داعية الفاطميين ، وكان سيف الدولة لا يُقرّ بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية ، مع أنه / علويّ المذهب . كانت هذه هي سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هي إرادته ، ليجمع شمل العرب ويردّ الحكم إلى اليد التي لا تضطرب ، وإلى الفكر الذي لا يخلّجه من مكانه كيد الكائدين للعربية من أصحاب الفتن والدسائس [انظر ما سلف ص : ٣٠١ - ٣٠٤] فجاء أبو الطيب يقول في هذه الأبيات :

أَنْتَ طَوَّلَ الْحَيَاةَ لِلرُّومِ غَازٍ ، فَمَتَى (الْوَعْدُ) أَنْ يَكُونَ الْقُقُولُ ؟

وَسِوَى الرُّومِ خَلَفَ ظَهْرَكَ رُومٌ ، فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟

ففى البيت الأول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وعدّه أن يقفّل من غزو الروم الذين يهدّدون أطراف الشام ، ويُعدّ العدة لغزو غيره ، فإن قوله (الوعد) معرّفًا ، دليلٌ على تخصيص وعْدِ بعينه ، ولا يكون كذلك إلّا أن يكون وعداً وعده سيف الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة إلى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ، ويزيل عنه سلطان الموالى والأعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سيف الدولة فى البيت الثانى فقال : (فعلى أىّ جانبك تميل ؟) . وقد جعل القائمين

بالحكم ، والمستولين على السلطان في العراق ، « رُوماً » ، لما أشرنا إليه قبل ، من أن هؤلاء لما وقفوا على عزيمة سيف الدولة في إزالتهم عن العراق ، أو عزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، إذ أوقعوا في قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذي كان يمدُّ سلطانه على الشام يوماً بعد يوم ، إنما يريد بذلك أن يُزيل المُلك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، وبذلك يتم لهم ما يريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه إلى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته ، حتّى إذا / ما أراد أن يميل عليهم ، يكون قد فقد صفوة المحاربين معه في ٢٢١ قتال الروم ، فلا يصيب إذ ذاك في حربهم وقتلهم ظفراً ولا نصراً ، [انظر ما سلف ص : ٣٠٢ - ٣٠٤] ، وهذا التعبير من أبي الطيب دليل على أنه كان يعرف سير هذا الأمر كما يعرفه سيف الدولة ، ثم إن أبا الطيب أخذ يهون على سيف الدولة أمر غزو العراق ، ويُعريه بالإقدام على ما وعدّه من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهل العراق فقال :

مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا ، كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ

فهو بهذا يُعريه بهم ، إذ كانوا قوماً أهل سكرٍ وعزْبدةٍ ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذي لم يكن يفرغ من غزوةٍ ويقفل منها حتى يبادر إلى أخرى يصيب فيها النصر والظفر ، أو التجربة في القتال والمِران على مكر الحرب وتخدعها . وهذا الذي كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبي الطيب ، كان هو السبب في أن أبا الطيب حين دخل العراق في تلك السنة ، لم يعبأ بأحد من السلاطين والحكام وأولى الأمر من الوزراء ، واستكبر عن جميعهم ، فلم يمدح منهم أحداً ، حتى الخليفة لم يفكر في مدحه ، بل رآعهم جميعاً حتى كان ما كان من أمر الوزير المهلبى وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراء بالوقوع في عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الأدباء على معاندته ومُجادلته للغضّ منه والإضرار عليه ، كما مرّ بك في أوائل كلامنا ،

[انظر ما سلف ص : ١٥٨ - ١٦٠] .

وأيضاً ... ، ففي ذى الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيف الدولة إلى أبي الطيب كتاباً (بِحَظُّهُ) يسأله المسير إليه ، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها إليه ، أولها :

/ فَهَمْتُ الْكِتَابَ ، أَبْرَ الْكُتُبِ فَسَمِعْتُ لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
وَطَوْعاً لَهُ ، وَأَبْتَهَاجاً بِهِ ، وَإِنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبَ

فإذا كان هذا الكتابُ ، كما وردت الرواية ، قاصراً على رغبة سيف الدولة إلى أبي الطيب في أن يلحقَ به ، ويكون في جواره ، فيكون قولُ أبي الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطه وأسقطه ، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) ، يسأله أن يسير إلى الشام ؟ وما في هذا الطلب مما يحتاج إلى « الفهم » ؟ وما فيه مما تقتضى الإجابة عنه أن يخبره بأنه قد فهمه ؟ أيكون هذا أو يُعقل !! واليُبَيِّنُ أن سيف الدولة كتب إلى أبي الطيب - بعد القصيدة التي مرَّ ذكرها ، والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحها - كتاباً يشرح له فيه الأمر ، غير مصرِّح بشيء ، ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضهما ، ويبيِّن له ما هو فيه من الكرب والضيق ، وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته ، ولوقى لأبي الطيب بالذي وعده من فتح العراق . ولهذا لم يأتمن سيف الدولة أحداً على هذا الكتاب الذي كتبه إلى أبي الطيب ، فكتبه إليه (بخطه) حَيْطَةً وحذراً أن يشيع ما ورد فيه . وقد أراد سيف الدولة في كتابه هذا أن يزيد أبا الطيب بياناً ، ولكنه لم يستطع خشية الأحداث التي لا يملك صرْفَهَا ، من وقوع هذا الكتاب في يدِ عدوٍّ من أعدائه ، ولذلك طلب من أبي الطيب أن يقدِّم عليه بالشَّام فيخلُو به ، ويشرح له الأمر في غير كناية ولا تعريض ، ولكن أبا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشارات الخفية ، فكتب إليه :

/ فَهَمْتُ الْكِتَابَ ، أَبْرَ الْكُتُبِ فَسَمِعْتُ لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ

فهذا الذي أفضنا فيه دليلٌ كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب أسرارٌ سياسيةٌ تخصُّ أغراضهما وآمالهما في إعادة المجد العربي ، وإزالة الحكام الطاغين من الموالي ، وقمع الفتن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد ، وهم لا يقدرُون مَعْبَاتِهَا وعواقبها ، ولا يزنون أمرها ، إذ يتخذها أعداء العرب والإسلام ذرائع لقضاء آرائهم في تمزيق

الأمة ، وتفريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، يُقيموا على أنقاضها ما تسوُّله لهم
أحقادهم وضعائهم من الأوهام والأحلام . وحَسْبُكَ دِلالة على صواب ما قلناه ، أنه قاله
له : « فسمَّعاً لأمرِ أميرِ العربِ » ، فتسميته سيف الدولة « أمير العرب » ، تعريضٌ ظاهرٌ
الدلالة على ما في نفس أبي الطيب من صفة هذا الشجاع المحارب ، صفةٌ تُجِبُّ كُلَّ
صفة .

لِعَيْنَيْكَ ، مَا يَلْقَى الْفَوَادُ ، وَمَا لَقِيَ
وَلِلْحُبِّ ، مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي ، وَمَا بَقِيَ
وَأَحْلَى الْهَوَى ، مَا شَكَ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ
وَفِي الْهَجْرِ ، فَهَوَ الدَّهْرَ يَرْجُو وَيَتَّقِي
سَقَى اللَّهُ أَيَّامَ الصَّبَا مَا يَسْرُهَا
وَيَفْعَلُ فِعْلَ الْبَابِلِيِّ الْمُعْتَقِ
إِذَا مَا لَبَسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ
تَحَرَّقَتْ ، وَالْمَلْبُوسُ لَمْ يَتَحَرَّقِ

- ٢٢٥ / (١) قد رأيت قبل أن الحوافر التي اجتمعت على أبي الطيب من أول أمره إلى عهد اتصاله بسيف الدولة ، إنما كانت ترفقاً من القدر وتطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذ الذي صار به صاحبنا شاعر العرب ولسان العربية الذي استحکم في عصره ، وضرب بحكمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أداة نبوغه وأسبابه ما تيسر لنا جمعه في هذه الكلمة ، إذ كانت الأشياء مرهونة بأوقاتها من المعاني ومنازلها من الكلام .
- ورأيت أن اتصاله بسيف الدولة نقل قلب الرجل من منزلة إلى أخرى ، نقله من منزلة الإحساس الشخصي الموحد ، إلى منزلة الإحساس الشخصي / المتولج في الاجتماع ٢٢٦ المزاجي في سياسته ، المؤمل في سيف الدولة رد السلطان إلى العرب والعربية ، بعد الغلبة

(١) كان حق هذا الباب أن يسبقه في ترتيبنا باب آخر ، نذكر فيه ما تميز به شعر أبي الطيب ، ونفصل فيه أسلوبه كله على تدرج لا يتفاوت ، ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت ، وانظر ما سلف ص : ٢٣٤ ، وما قبلها .

والظفر وتحقيق الأمانى . وكان هذا سبباً في انتفاض قلب (الرَّجُلُ الشاعر) بالفرح المستولى عليه ، الغالب على عواطفه . ثم كان أيضاً ما استنبطناه ممَّا سَبَّبَ في هذا القلب أسباباً للألم والحزن والأنين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع في هذا القلب بين الفرح الغالبة والحسرة المتمكنة ، سبباً في استخراج مكنوناته ، وتوليد المعاني الجديدة من الصراع الهائل الذى كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طوره الأول المحدود بحده ، إلى الطور الثانى المتفاسح المترامى إلى كلِّ غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها .

وكان هذا الرجل الشاعر إنما يعتمد في توليد معاني شعره على استيعاب ما بنفسه من الأفراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدَّ ، ثم الاستغراق في تأمل هذه الذخائر التى في نفسه وردَّ بعضها إلى بعض ، وربط الغائب منها بالشاهد ، وعطف الأول منها على الآخر ، وكأنما كانت تتراءى لعينه حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتتردد في سمعه أصوات قلبه موصولة بأصوات الناس وكلامهم ما قلَّ منه وما عظم . وكان هذا الاستغراق في تأمل ما بنفسه ، هو أحد الأسرار العظيمة في تصوير شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتنميتها إلى الغاية التى هى عليها في شعره .

وقد بينا قبل أن من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس المرهف ، وما وهبه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التى لا يحبُّ لها ضرام ، وراثته كان ذلك من جدته ، أو فطرة فطره الله عليها غير موروثه . وكان / هذا الرجل في أول أمره مطالباً بشأراً قد نشئ عليه ، وأخذ به من صغره ، حتى شغل فكره وعقله ، وتدقق في بنيانه كله تدقق الدَّم ، وصار أصلاً من الأصول التى قامت عليها كل حالته النفسية = على ما ذكرناه أولاً ، وتدرجنا في بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة = وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهى السن التى تستحكم فيها الأصول ، وتستقرُّ المذاهب ، ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره حولاً ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصةً من كان مثل المتنبي قد عركته الأيام من صغره ، وتحاملت عليه ورمت به في ثورها حتى آستوى على صورة بعينها ، واستمر

مريرة على ما فيه من القوة المستحصدة والمُنة الدائبة الفورة والنزاع ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تطمئن .

هذا ، وقد استوقفنا ، ونحن نتبع شعر الرجل على طريقتنا ومذهبنا ، الفرق الكبير الكائن بين شعره الأول ، وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ، وتدبرنا الأسباب على ما بيناه قبل ، فلم يستو عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحسب ، فعدنا نجدد الرأي لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا إلى السبب الأكبر في هذا التجويد الفذ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروحنا في شعر الرجل نَفْحَةً من نَفَحَات « المرأة » التي تكون من وراء القلب تصنع للشاعر المبدع بيانهُ ، وتتخذ من فتها النسوي مادةً تُهيئها لفنِّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فآتمنا الأمر على ذلك ، ورجعنا إلى شعر أبي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثلنا « المرأة » بينهما وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيئ له فته ، فاستوى الأمر على ذلك . وطلبنا الدليل ، فدلنا على المرأة التي / سكنت قلب أبي الطيب ٢٢٨ = وهو في ظل سيف الدولة = وجعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماء .

كان صاحب الحكمة أبو الطيب يصنع حكمته بالتدبر في معرفة نفسه ، واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءته « المرأة » ، وأرادت كبريائه على الخضوع لها والتصرف بأمرها ، وقعت نفس هذا المرأة بأسرارها وأحداثها بين نظرات أبي الطيب النافذة المتولجة إلى ما وراء الواقع والحس الملموس ، وبين نفسه بأحداثها وأسرارها وما أنطوت عليه وما تجللت به . ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هي تمام نفس الرجل المحب وتكملتها ، كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكتملة التامة بالمرأة المحبوبة ، إنما هي دراسة للكون كله ، فإن العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلا بعيني من يعشق ، وهي على ذلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحب القوي النافذ الذي يملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غلبته على القلب والنفس

والفكر . فلهذا حين أَحَبَّ أبو الطيب = الرجلُ الثائرُ المتكبرُ الشاعرُ الحكيمُ البيانيُّ
الفكر واللسان = كان أمتدادُ نفسه وتراميها إلى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء
والحكمة والفكر ، ولم يستطع أن يكون ، بعد أن غلب الحبُّ قلبه وتفاسح به ، شاعراً
غزلاً رقيقَ البيان . وهذا هو السرُّ عندنا في ضَعْف مادة العَزَل عند أبي الطيب ، وقُوَّة مادة
الحكمة وما إليها ، مما هو من طبيعته المتأصلة فيه على ما فصلناه في أثناء كلامنا . وليس
يَصِحُّ عندنا أن لا يكون أبو الطيب عاشقاً صباً متدُّهاً ، / ما لم نجد في شعره غزلاً
ولاً أنيناً وحيناً وبكاءً .

٢٢٩

والآن ، وبعدَ هذه المقدمة ، نحاول أن نعيِّن لك « المرأة » التي أحبَّها أبو الطيب
على ما يتفق لنا ، (١) إذ كان ترتيبُ هذا الموضوع من الكلام ممَّا يستدعي النظر في أكثر
شعر أبي الطيب وتقليبه على المذهب الذي اتخذناه ، فيخرج الأمر من حدِّه ولا تتسع له
هذه الورقات .

لما ماتت أختُ سيف الدولة الصُّغرى ، وقف أبو الطيب يُعزِّيه وَيُرثيها ، ويسلِّيه
ببقاء أُخْتِهِ الكُبرى ، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ ، وبعد
سبع سنواتٍ من مُقامه في حضرة سيف الدولة ، فأنشده قصيدته التي أولها :

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزِيَّةِ فَضْلاً تَكُنِ الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجْلاً

وظفق يمدح سيف الدولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضوع من العزاء ، إلى أن قال :

أَيْنَ ذِي الرِّقَّةِ الَّتِي لَكَ فِي الحَرِّ بِ إِذَا اسْتُكْرِهَ الحَدِيدُ وَصِلاً ؟
أَيْنَ حَلَفْتَهَا غَدَاةَ لَقِيَتِ الـ رُومَ ، وَالهَامُ بالصُّورَامِ تُفْلَى
(قَاسَمْتَكَ المُنُونُ شَخْصِينَ جَوْرًا جَعَلَ القِسْمُ نَفْسَهُ فِيهِ عَدْلًا)

(١) اعلم أنا كنا نؤمل أن نسط القول في هذا الباب ، ولكن حالت دون ذلك أحوال .

(فَإِذَا قِسْتَ مَا أَخَذْنَ بِمَا غَا دَرْنَ ، سَرَى عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَى)
 (وَتَيَقَّنْتَ أَنَّ حَظَّكَ أَوْفَى ، وَتَبَيَّنْتَ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى)

٢٣٠ / فأبو الطيب يطلب من سيف الدولة أن يقيس أخته الصغرى التي ماتت ، إلى أخته الكبرى التي بقيت له ، فإذا فعل ذلك كان سلوى له وتسريةً للهم عن قلبه . ولا ندرى كيف يتفق أن يحطّر لشاعر يرثى امرأةً محجبةً ماتت ، أن يذكر أخرى = وتكون أختها = ويعزّي أباها بهذا العزاء الغريب ؟ ثم يزيد في قوله له : إنك إذا فعلت ذلك الذى دلتك عليه ، « تَيَقَّنْتَ » أن حظك فى بقاء هذه الكبرى أوفى من حظ الموت فى أخذ الصغرى ؟ وكيف يُيقن أبو الطيب سيف الدولة من حسن حفظه ببقاء الكبرى ، إلا إذا كان هو على يقين من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك ، إلا وهو يعرفها معرفة تُفضى به إلى هذا اليقين ؟

ثم مضى أبو الطيب فى القصيدة كلها يمدح سيف الدولة ، ولم يتعرض لهذه الفتاة أخته الصغرى إلا فى موضع آخر ، إذ يقول :

حَظْبَةٌ لِلْحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ ، وَإِنْ كَانَتْ الْمُسَمَاءَ تُكَلَّا
 وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئًا ذَاتُ حِذْرِ ، أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلًا

فالعجب أن يكون ذلك عزاءً ، فإن أبا الطيب قد قدّم الكبرى فى المنزلة ، فكان أولى إذن أن تموت الكبرى ، إذ هى ولا شك عند أبى الطيب أفضل من هذه الصغرى التى لم تجد من الناس كفوًا يكون لها زوجاً ، فاخترت الموت بعلاً لها !! وهذا التناقض يدلنا على أن الرجل كانت قد اقترنت فى عينه صورة الكبرى بصورة الصغرى ، فاضطرب قوله ولم يمض على سنين ونهيج ، وذلك لاضطراب نفسه الذى أظهر ما فى قلبه وكشف عنه فى تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين : « فَإِذَا قِسْتَ إلخ » .

٢٣١ / فلما ماتت الكبرى هذه التى ذكرها هنا = وهى خولة أخت سيف الدولة ، فى سنة ٣٥٢ ، أى بعد ذلك بسنوات ثمان ، وكان أبو الطيب يومئذ بالكوفة ، فورد عليه

خبرها ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون في ذِكر خولة هذه ، وستة أبياتٍ في ذكر الدنيا وتكدها ، ولم يذكر سيف الدولة إلا في سبعة أبيات منها . هذا مع أن القصيدة التي رثى بها الصغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مُفردةً ، إلا في بيتين هما : « خطبة للحمام » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى في ثلاثة أبيات هي « قاسمتك المنون » ، وجعل بقية القصيدة ، وعدتها (٤٢) بيتاً ، في مدح سيف الدولة ، إلا قليلاً في الحكمة والحياة . أليس هذا عجيباً !

كان الفرق بين القصيدتين بيناً واضحاً لا خفاء فيه ، وكانت الثانية في رثاء « خولة » عاطفة قد أخذها الحزن وغلبها البكاء ... يقول أبو الطيب ، وافتتحها بخطاب خولة :

يَا أُخْتِ خَيْرِ أُخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ	كِتَايَةٌ بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
أَجَلٌ قَدْرِكَ أَنْ تُسْمَى مُؤَنَّةً ،	وَمَنْ يَصِفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ
(لَا يَمْلِكُ الطَّرِبُ الْمُحْزُونُ مَنْطِقَهُ	وَدَمَعُهُ ، وَهَمَا فِي قَبْضَةِ الطَّرِبِ) (١)
غَدَرْتَ يَامَوْثُ ، كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ	بِمَنْ أَصَبْتَ ! وَكَمْ أَسَكَّتَ مِنْ لَجَبٍ ! (٢)
وَكَمْ صَحَبْتَ أَخَاهَا فِي مُنَازَلَةٍ !	وَكَمْ سَأَلْتَ فَلَمْ يَنْخَلْ وَلَمْ تَخِبْ !
(طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ ،	فَزِعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ)
(حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَملاً ،	شَرِقْتُ بِالذَّمِّ حَتَّى كَادَ يَشْرُقُ لِي)
تَعَثَّرْتُ بِكَ فِي الْأَفْوَاهِ أَلْسُنُهَا ،	وَالْبُرْدُ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَقْلَامُ فِي الْكُتُبِ) (٣)
/ كَأَنَّ « خَوْلَةَ » لَمْ تَمَلَأْ مَوَاكِبَهَا	دِيَارَ بَكْرٍ ، وَلَمْ تَخْلَعْ ، وَلَمْ تَهَبِ
(وَلَمْ تُرِدْ حَيَاةً بَعْدَ تَوَلِيَةِ ،	وَلَمْ تُغِثْ دَاعِيَاً بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ) (٤)

(١) « الطرب » ، خفة ودهشة غالبية تأخذ المرء عند الحزن أو عند السرور .

(٢) « اللجب » ، الضجيج واختلاط الأصوات .

(٣) « البرد » ، جمع « بريد » ، وهو الرسول الذي يخرج على فرس من بلد إلى بلد .

(٤) « الحرب » ، ذهاب المال وهلاكه ، يقول الملهوف « يا ويلاه ، واحرباه » .

- (أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ ،
 (يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِي غَيْرُ مُلْتَهَبٍ !
 (بَلَى ، وَحُرْمَةٌ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً
 (وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَاثُهَا ،
 (وَهَمُّهَا فِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ نَاشِئَةٌ ،
 (يَعْلَمَنَّ حِينَ تُحْيَا حُسْنَ مَبْسِمِهَا ،

 (وَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَتَى فَقَدْ خُلِقْتَ

 (فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسِينَ غَائِبَةً ،
 (وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا

 (وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا
 (قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤَيْتِهَا ،
 (وَلَا رَأَيْتُ عَيْونَ الْإِنْسِ تُدْرِكُهَا ،
 (وَهَلْ سَمِعْتَ سَلاماً لِي أَلَمَّ بِهَا ؟
 (وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ ،

 (قَدْ كَانَ قَاسِمَكَ الشَّخْصِينَ دَهْرُهُمَا ،

 (وَالْمَجْدِ وَالْقَصَادِ وَالْأَدَبِ)
 (وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةُ النَّشَبِ) (١)
 (وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ)
 (وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالنَّشَبِ) (٢)

 (كَرِيمَةً ، غَيْرَ أَتَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ)

 (وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسِينَ لَمْ تَغِبِ)
 (فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تُؤَبِّ) (٣)

 (إِلَّا بِكَيْتُ ، وَلَا وَدَّ بِلَا سَبَبِ)
 (فَمَا قَنَعَتْ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجُبِ !)
 (فَهَلْ حَسَدَتْ عَلَيْهَا أَعْيُنَ الشُّهْبِ ؟)
 (قَدْ أَطَلْتُ ، وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كَثِبِ) (٤)
 (وَ يُقَصِّرُ عَنْ أَحْيَائِنَا الْعُيُوبِ ؟)

 (وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَفْدِيُّ بِالذَّهَبِ)

(١) « النَّشَبِ » ، ما يملكه الإنسان من مالٍ وعقارٍ وغيرهما .

(٢) « الشنب » ، رقة في أطراف الأسنان ، وصفافؤها ونقاؤها وبريقها .

(٣) « آبَ يُووب » ، رجع .

(٤) « من كَثِب » ، من قرب .

٢٣٣ / (وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَثْرُوكِ تَارِكُهُ ، إِنَّا لَنَعْفُلُ ، وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ)
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقْتًا كَانَ بَيْنَهُمَا ! كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ (١)

ولست تخطيء فيما نرى ، ما تضمنته هذه الأبيات من القصيدة من العاطفة التي عطفته على هذه التي يرثيها ، وما يتوهج في ألفاظها من نيران قلبه . ولست تخطيء أنين الرجل وحنينه وبكائه . ولا بد لنا هنا من بعض القول في أبيات منها نشرح به أمر أبي الطيب على وجهه .

قد ذكرنا قبل أن الانتقال من معنى إلى معنى في شعر أبي الطيب ، هو الموضع الذي ينبغي لنا الوقوف عنده وتمييزه والتبصر في أوائله وأواخره ، إذ كان الانتقال في شعره هو الذي يُعينك على الكشف عن أسرار قلبه ونفسه وحياته . (٢) فإذا شئت الآن فانظر إلى انتقاله من قوله في مخاطبة الموت : « وَكَمْ صَحِبْتَ أَخَاهَا فِي مَنْزِلَةٍ ! » إلى ذكر ما أفزعه وكرهه ، وهز نفسه وحز فيها إذ يقول :

« طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ »
« حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرَقْتُ بِالذَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ لِي »

والرأى عندنا أن هذين البيتين هما أول ما قاله أبو الطيب من القصيدة حين بلغه خبر موت خولة وهو بالكوفة ، (٢) ففزع قلبه ، واضطرب أمره ، وانتشرت عليه عواطفه ، ففي البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب ، وعليها وسَمٌ من لوعته وحرقته .

(١) «الورد» غشيان الإبل للماء للشرب ، و «القرب» سيرها ليلاً لورد الماء .

(٢) انظر مثل هذا ، في شأن الأبيات التي يقولها الشاعر حين يفاجئه شيء ، ثم يضمها بعد في خلال

قصيدته ، ص : ٣١١ ، والتعليق رقم : ١ ، ثم ص : ٣١٢ - ٣١٥ ، ثم ص : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ثم ص : ٣٥٣ .

٢٣٤ وقد غلب أبا الطيب بيّانه في هذين البيتين ، فصّرّح فيهما بكل ما يضمّر / لخولة من الحبّ . انظر كيف جعل الخبر يَطْوِي الجزيرة كلّها يقصدهُ وحدهُ دون غيره ، وقد تخصّص ذلك بقوله « حتى جأني » ، وفي هذا من غلبة الحبّ على قلب أبي الطيب ما جعله يرى أن هذا الخبر بموتها = الذي سمعه وهو بالعراق ، وكان قد علمه الناس ولا شك = لم يقطع أرض الجزيرة إلّا ليلغفه هو ، والحبّ دائماً يخصّ ويضيّق بمثل ذلك ، ولا يرى فيه الشّرْكة ، ولو تساوى الناس جميعاً في المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا الطيب نسّب الفرع الذي لحقه إلى آماله ، إذ كانت آماله كلّها في الحياة بعد حُبّه لخولة متعلّقةً بها وبحياته ، فلما جاءه الخبر بموتها فرعتْ آماله هذه أملاً أملاً إلى الشكّ في الأمر الواقع ، وإلى طلب الحيلة في ردّه وتكذيبه ، عسى أن تجد لها مُتعلّقاً تستمسك به . فلما أخفقت الآمال أملاً أملاً ، وقطّعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين ، سقطت نفسُ الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوتها ، وغرقت في دمعها حتى شرّقت به . وهذه حالة في الحبّ القويّ العنيف الذي يستولى على القلب ، ولا يجعل للحياة بآمالها معنى إذا فقد من يحبّ ، أو ساءه من أمره ما يسوءه . فهذا من أبي الطيب دليل على أن كلامه هذا ليس كلام شاعرٍ يرثي أخت صديقه وأميره ، وإنما هو كلامٌ قلبٍ محبٍّ مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجّعته المنيةُ فيه .

ومثل ذلك في الدلالة على ما أصاب قلب أبي الطيب من الفجيجة التي تخصّصه

بموت « خولة » ، قوله :

« أرى العراقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيْتُ ، فكيفَ لَيْلُ فَتَى الْفِتْيَانِ فِي حَلَبِ ؟ »

« يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِي غَيْرُ مُلْتَهَبٍ ، وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرُ مُنْسَكِبٍ »

٢٣٥ / فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره ، وإنما يطول عليه من أجل حبيته التي فأتته بها الموت . ثم زاد أبو الطيب في الدلالة بقوله : إن سيف الدولة يظن أن فؤاده غير ملتهب ، وأن دمعته غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا ؟ أيحبّ سيف

الدولة أن يلتهب قلبه وينسكب دمه من أجل أخته ، أو يسوءه إذا لم يكن ذلك كذلك ؟

هذا ، ولا نشكُّ نحن = من قَبَل ما جمعناه عندنا من الدلائل في هذا الأمر المتعلِّق بحب أبي الطيب و « خولة » أخت سيف الدولة = في أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على أمرهما ، وأنه كان قد وعدَّ أبا الطيب عِدَّةً لم يَف له بها في أن يزوجه أخته هذه ، وكان ذلك سرًّا بينهما ، اتَّصل بعضُ خبره بأبي فراس الحمداني ، فكان سبباً في العداوة الباغية بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمره وأمر « خولة » والحب الذي بينهما .

ومن الشواهد غير ما ذكرناه مما يدلُّ على الحب الذي بينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدولة ، قوله :

« وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَرُورٍ خَلَاتُهَا ، وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ »

الآيات الثلاثة ، فقد ذكر أبو الطيب أخلاق « خولة » ، ثم ذكر ما كانت عليه من علو النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ثغرها ابتسامتها ، وهذه كافية في الدلالة على معرفته « خولة » معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاء . وأيضاً قوله :

/ « وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا إِلَّا بِكَيْتٍ وَلَا وَدًّا بِلَا سَبَبٍ »

وهذا دليل على ما كانت تُسبغ عليه « خولة » من صنائعها وفواضلها مما يستجلب له البكاء حين يذكرها ، وما نظنُّ أن صنائع « خولة » عنده كانت معشّار صنائع سيف الدولة ، ولكن حُبُّ أبي الطيب هو الذي جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله : « وَلَا وَدًّا بِلَا سَبَبٍ » ، وفي رواية أخرى « بلا ودٍ ولا سبب » ، وكان هذه الرواية الثانية يراد بها نفى أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثرون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالأمر الذي بينهما ، من أن صنائع « خولة » التي كانت تتخذها عند أبي

الطيب لم تكن من أجل هذا الودّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عنصُرُها . ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة ، ممن كان يتزوّد في القول ويتكذّب عليه بما هو منه برّاء ، ولينفي التّهم بذلك عن هذه التي كان يحبّها ويمنحها قلبه .

وإذا شئت الزيادة فاقرأ قوله :

فليت طالعة الشمسين غائبةً

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة وأقرأ :

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها

ثم انظر إلى هذا الالتفات إلى الماضي الذي جعلناه من المذهب في الكشف عن أسرار أبي الطيب ، إذ ذكر ما كان منه حين رثى أخت سيف الدولة الصغرى - من ذكر « خولة » هذه ، وذلك إذ يقول ، [ص : ٢٣٦] :

« قاسمتك المنون شخصين جوراً

/ فعاد يقول في هذه :

« قد كان قاسمك الشخصين دهرهما ، وعاش دُرهما المفدي بالذهب »

« وعاد في طلب المتروك تاركه ، إنا لنغفل والأيام في الطلب »

وتدبر الصلّة بين هذا وذاك ، والحسرة المتميزة في قوله : « إنا لنغفل » ، و « ما كان أقصر وقتاً كان بينهما » .

وندع هذا الآن ، ونتنقل بك في مواضع من الديوان على غير ترتيب ، لئرى أثر هذا الحبّ في شعر أبي الطيب وفي حياته ، وما أصابه وهو في ظلّ سيف الدولة من جرّاء هذا الحبّ . وكان حق هذا الموضوع من هذا الباب أن نتبّع لك حياة أبي الطيب سنة سنة ،

ونكشف لك عن تدرُّج هذا الحبِّ في شعره وقصائده حتى تنتهى إلى الغاية ولكن
وقف المتنبي في مجلس سيف الدولة يُنشدُه قصيدته التي أولها :

وَآخَرَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيهُمُ وَوَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ (١)

وقد زعموا أن سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا : « جرى له خطاب مع قوم متشاعرين ، وظنَّ الحَيْفُ عليه والتحامل » ، إلى غير ذلك . وقد أتى المتنبي في هذه القصيدة بكل عجيبة من القول في الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له ، كقوله :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بَأَنِّي خَيْرٌ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ

..... / كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ ، وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ

٢٣٨

وقوله في حُبِّ سيف الدولة :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ تُفَارِقَهُمْ ، وَجُدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

وقوله في إنذاره :

لَعْنٌ تَرَكْنَ ضُمِيرًا عَنْ مَيَامِينِنَا لِيُحْدِثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدْمُ (٢)
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ ، فَالرَّاحِلُونَ هُمْ

قالوا : فلما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة ، وقف له رَجَالَةٌ في طريقه ليغتالوه ، فلما رآهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم ، سلَّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يُقَدِّموا عليه . وُئِمِّي ذلك إلى أبنَى العشائر ، فأرسل عشرة من خاصَّته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله إلى أبنَى الطيب ، فسار إليهم حتى قَرَّبَ منهم ، فضرب

(١) « الشيم » ، الماء البارد ، ويعنى قلب الغافل الذى لا يجده ما يجده أبو الطيب من الحرارة في قلبه .

(٢) « ضمير » ، يقال هو جبل أو حصن قريب من دمشق ، يكون على بين القاصد مصر خارجاً من

دمشق . يشير إلى نيته أن يرحل إلى مصر .

أحدهم يده إلى عِنَان فرسه ، فسَلَّ أبو الطيب سيفه ، فوثب الرجل أمامه ، وتقدّمت فرسه الخيل ، وعبرت فَنَطْرَةً كانت بين يديه ، واجترهم إلى الصحراء ، فأصاب أحدُهم نَحَرَ فرسه بسهم ، فانتزع أبو الطيب السهمَ ورَمَى به ، واستقلّت الفرس ، وتباعد بهم ليقطعهم عن مددِ كان لهم ، ثم كرّ عليهم ، بعد أن فَنَى النُشَاب فلما يفسوا منه ، قال له أحدهم في آخر الليلة : نحن غِلْمَانُ أبنِ العشائر ! فقال قصيدته التي مضت :
 « ومُنْتَسِبٍ عندى إلى مَنْ أَحْبَبَهُ » ، (١) ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة / مستخفياً ، فأقام
 عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل به ذلك أو أمر به وكان ذلك في سنة ٣٤١ ، فلما رَضِيَ عنه سيفُ الدولة ، قال له قصيدةً أولها :

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرُّكْبِ وَالْإِبِلِ
 ظَلِلْتُ بَيْنَ أَصِيحَابِي أَكْفِكْفُهُ وَظَلَّ يَسْفُحُ بَيْنَ العُدْرِ وَالْعَدَلِ
 أَشْكُو النَّوَى ، وَلَهُمْ مِنْ عِبْرَتِي عَجَبٌ ، كَذَاكَ كُنْتُ ، وَمَا أَشْكُو سِوَى الكِلَلِ

ثم انتقل من هذا المعنى إلى معنى غيره فقال :

وَمَا صَبَابَةٌ مُشْتَقِي عَلَى أَمَلٍ مِنْ اللِّقَاءِ ، كَمُشْتَقِي بِلَا أَمَلٍ

وكانه بهذا الانتقال يهون على سيف الدولة الأمر ، ويذكر له أن هذا الحب الذي بينه وبين « خولة » كائن على غير أمل ، وأنه لا يطمع في أن يظفر بإدراك أمله من زواجها . ثم يدلُّ على ذلك بما كان من الحادثة التي كاد يُقتل فيها ، والتي تولى أمرها أبو العشائر (وهو من قوم خَوْلَة) ، ويذكر لسيف الدولة أن أهل « خولة » لن يدعوه أن يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة ، فانتقل من معنى البيت إلى قوله :

(١) انظر ما سلف ص : ٣٠٩ ، وخبر هذه الحادثة هو من لفظ أبي الطيب ، كما رواها ابن جنى في روايته

ديوان أبي الطيب ، عن أبي الطيب ، (الديوان : ٣٢٧ ، ٣٢٨) .

«مَتَى تُزُرُ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيَارَتَهَا لَا يُتَحَفُّوكَ بِغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ» (١)

وهذه صفة ما لقي أبو الطيب في ذلك اليوم الذي رويناها لك . فانظر إلى هذا الانتقال الذي يدلُّ دلالة واضحة على ما في ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التي كادت تُودي بحياته ، ثم انظر الترفق في قوله : « لا يُتَحَفُّوكَ بِغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ » ، وذلك لما بينه وبين أبي العشائر من / المودة والحب ، فهو يجعل أداة القتل (تُحَفَّة) ، وقد قال لأبي العشائر في هذه الحادثة نفسها أبياتاً تدل على حُبِّه له ، وتقرب إليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ، (٢) ويقول له في آخرها :

« فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا ، يَكُ قَاتِلًا بِكَفِّهِ ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفٌ »

وفي تلك السنة نفسها ، سنة ٣٤١ ، يقول أبو الطيب ما نقلناه في رأس هذا الباب :

« لِعَيْنَيْكَ ، مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ وَاللُّحْبُ ، مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ »

فعلى ما نذهب إليه من شدة تأثير الحوادث في أبي الطيب ونفسه ، واستخراجه معاني شعره من تلك الحوادث ، وتهجّمه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تجد في هذه القصائد ما يشير إلى هذه الواقعة وما لقي فيها من الكيد .

والظاهر أن هذه الجفوة التي كانت في سنة ٣٤١ ، امتدّت إلى أوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جرّائها أن انقطع أبو الطيب مُدّة عن مدح سيف الدولة فاستبطأه وتنكّر له ، فركب سيف الدولة يوماً في رجاله ، وقدم عليه أبو الطيب راكباً مُهَرَّه ، فلما سلّم عليه ازورّ عنه وأعرض ، فقال أبو الطيب :

أَرَى ذَلِكَ الْقُرْبَ صَارَ آزُورًا وَصَارَ طَوِيلُ السَّلَامِ آخْتِصَارًا

(١) « أمحفه » ، أهدى إليه طُرْفَة تعجب المرسل إليه لغرابتها ، « التحفة » ، الطرفة الغربية المحببة .

(٢) انظر ما سلف ص : ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

تَرَكْتَنِي الْيَوْمَ فِي خَجَلَةٍ ، أُمُوت مِرَارًا وَأُحْيَا مِرَارًا ،
 أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًّا ، وَأَزْجُرُ فِي الْخَيْلِ مُهْرِي سِرَارًا ،
 وَأَعْلَمُ أَنِّي إِذَا مَا أَعْتَذَرْتُ ، إِلَيْكَ ، أَرَادَ أَعْتِذَارِي أَعْتِذَارًا ،
 / كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ الْبَاهِرَا ، تِ ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّي آخْتِيَارًا ،

٢٤١

ثم يذكر له العلة في ذلك الانقطاع عن مدحه فيقول ، [ثم انظر ص : ٣٥٤] :

(وَلَكِنْ حَمَى الشُّعْرَ ، إِلَّا الْقَلْبَ لَمْ ، هَمُّ حَمَى النَّوْمِ إِلَّا غِرَارًا)
 (وَمَا أَنَا أُسْقِمْتُ جِسْمِي بِهِ ، وَلَا أَنَا أُضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا)
 (فَلَا تُلْزِمْنِي ذُنُوبَ الزَّمَانِ ، إِلَيَّ أَسَاءَ وَإِيَّايَ ضَارًا)

وهذا الهمُّ الذي يُسْقِمُ الجِسْمَ وَيُضْرِمُ نَارًا فِي الْقَلْبِ ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُ الْإِنْسَانُ رَدًّا ،
 لَا يَكُونُ إِلَّا هَذَا الْحَبَّ الْعَنِيْفَ الَّذِي تَنْقَطِعُ دُونَهُ الْأَمَالُ ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الِهِمُّ إِلَّا ذَلِكَ ،
 فَإِنْ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ مَمْتَعًا بِكُلِّ شَيْءٍ فِي ظِلِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، فَقَدْ كَانَ صَاحِبَ إِقْطَاعِ وَمَالٍ
 كَثِيرٍ قَدْ أَسْبَغَهُ عَلَيْهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ انْظُرْ مَا فِي قَوْلِهِ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ ، مِنْ الْجَزَعِ
 الْمَشُوبِ بِالْعِزَّةِ وَالتَّرْفُعِ ، وَالرَّقَّةِ أَيْضًا .

وحسبك هذا من شعره وهو في جوار سيف الدولة ، ثم انظر إلى أثر هذا الحب في
 شعره بعد فراق سيف الدولة ، فإنه أدلُّ وأبلغ في الكشف عن سرِّ قلبه . ولا بأس في أن
 تُسردَ لك ذلك على ما وقع في ترتيب ديوانه .

فمن آثار هذا الحب في شعر أبي الطيب ، ما وقع في القصيدة الأولى التي أنشدتها
 كافوراً في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيت قبل أن نالم
 نتعرض لعاطفة أبي الطيب في شعره إلى أن اتصل بسيف الدولة ، فإذا أنت عُدت إلى
 شعره في ذلك العهد الأول ، لم تجد فيه إلا قسوةً وشدةً وعنفاً ليس لشعر ، وقلماً لأن

الرجل أو ترقق إلا متكلفاً للغزل . وكان قد فارق قبل سيف الدولة رجالاً أحبهم وصحبهم ٢٤٢
 وبأذهم مكنون صدره من / الودِّ ، ولم يظهر في شيء من شعره بعد فراقهم أثر لهذا الفراق
 إلا قليلاً قليلاً . ولكنه حين فارق سيف الدولة ودخل مصر اختلف الأمر اختلافاً بيناً ،
 وظهرت في شعره رِقَّةٌ لا عهد له بها ، ولا تكون العِلَّةُ في هذه الرِقَّة التي ظهرت فيه بعد أن
 جاوز الأربعين ، واستحكم واستمرَّ مَرِيره ، واستوت طبيعته على طريقة من القوة والتشدد
 والاستمساك = لا تكون من أجل فراقه سيف الدولة وحسب ، فإن ذلك الفراق بين
 (الرجلين) لا يعمل في تغيير الطبيعة المتأصلة كل هذا العمل . وليس لشيء من العمل
 في تغيير الطبائع وتبديلها مثل ما للحبِّ في القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق
 سيف الدولة ، يتلَّفُ قلبه إلى تلك التي خَلَّفها من ورائه ، وخَلَّفَ عندها قلبه وعواطفه ،
 فأثار ذلك في قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجرُّ منها .

فكان أول ما لقي كافوراً لقيه بالبيت الذي عدّه الأدباء والنقاد من سوء أدب
 المتنبى ومن جفائه وغلظته . وليس الأمر على ذلك ، فإن الرجل لم يكن جافياً ولا غليظاً
 ولا سيئ الأدب ، ولا ضعيف البيان ، ولكنه كان كما حدَّثناك مُرَهَفَ الحسِّ ، تغلبه
 العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، بل تُصَرِّفُ عاطفته هذا البيان كما شاءت ،
 والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ، ولا تفرِّق بين لقاء الملوك ولقاء الصعاليك ، فلذلك
 رمى في وجه كافور بهذا ، في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، [انظر ما سيأتى ص : ٣٦٢] :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 تَمَنِّيْتَهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقاً فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

ثم يمضى أبو الطيب على طريقته حتى يرق رِقَّةً ، لو أنت قلبت ديوانه لم تجد لها
 شبيهاً ولا مثيلاً ، وذلك قوله في خطاب قلبه ، ذلك القلب الذي حَطَمَ فيه فراقُ « خولة »
 وهُدَّ بنيان رُجولته وقُوَّتُه :

حَبِّتِكَ قَلْبِي ، قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأْيٍ ، (١)
 (وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ ،
) فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُذِرَ بِرُبُّهَا
 إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقِ تَخْلَاصاً مِنَ الْأَذَى
 وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تُدُلُّ عَلَى الْفَتَى ،
 (أَقَلُّ اشْتِيَاقاً أَثِيهَا الْقَلْبُ ، رُبَّمَا
) تُخَلِّقُ الْوَفَاءَ ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا
 وَقَدْ كَانَ غَدَاراً ، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا)
 فَلَسْتَ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتَكَ شَاكِيَا)
 إِذَا كُنَّ إِثْرُ الْعَادِرِينَ جَوَارِيَا)
 فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا
 أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أُمَّ تَسَاحِيَا
 رَأَيْتَكَ تُصَفِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسِ صَافِيَا)
 لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا)

أَيُّ رِقَّةٍ ، وَأَيُّ تَوَجُّعٍ ، وَأَيُّ جَمَالٍ !!

فاقرأ الآن الأبيات وتدبرها ، وأنظر في خطابه قلبه - على غير عاداته - خطاباً رقيقاً متهدداً ذا زفّرات ، وانظر اضطراب أمره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورُجولته ، يقول لقلبه : « لست فوادي إن رأيتك شاكياً » ، ثم يعود فيقول : « تُخَلِّقُ الْوَفَاءَ ... » فليس في الأبيات حُبُّ لسيف الدولة وحسب ، بل فيه نَفْحَاتٌ مِنْ لَوْعَةِ الْحُبِّ الَّذِي يَسْتَوْلِي عَلَى الْقَلْبِ : حُبُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي يَهْجُرُهَا الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ لَا يَهْجُرُهَا ، وَإِنَّمَا يُهَاجِرُ قَلْبَهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ وَيَعَانِدُهُ وَيُرَاغِمُهُ .

هذا ، وقد ظهر نفسُ هذا الأثر في كثير من شعر المتنبي ، وهو في جوار كافور ، بعد فراقه سيف الدولة . ظهر في حكمته ظهوراً بيّناً ، وذلك كقوله ، وذلك في رمضان سنة ٣٤٦ :

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ
 مَنِّي ، بِحِلْمِي الَّذِي أُعْطِيتُ وَتَجَرَّبِي
 فَمَا الْحَدَاثَةَ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ،
 قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشُّبَّابِ

(١) يريد بهذه الكتابة (سيف الدولة) .

٢٤٤ / وهذا القول ليس من مذهب المتنبي في كلامه الأول إلى فراقه سيف الدولة .
ومثّل ذلك قوله ، في ذى الحجة سنة ٣٤٦ :

أودُّ مِنَ الأَيَّامِ ما لا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إليها (بَيْنَنَا) وَهِيَ جُنْدُهُ
(يُبَاعِدُنَ حَبًّا يَجْتَمِعُنَ وَوَصْلُهُ ، فَكَيْفَ بِحَبِّ يَجْتَمِعُنَ وَصَدُّهُ ؟)
(أَبَى خُلُقِ الدُّنْيَا حَبِيْبًا تُدِيمُهُ ، فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيْبًا تُرُدُّهُ)

ثم تَلَفَّت المتنبي إلى ما كان من فراقه « خولة » ومُهَاجَرَتِهَا مراغماً لقلبه ، متكلِّفاً
الصبر والجلد ، فقال في عَقَبِ ذلك :

(وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَنِي تَغْيِيراً تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِيْدُهُ)

وكان أبو الطيب يظنُّ أن في الفراق ما يُنسيه « خولة » ويمحو من قلبه آثارها . وقد
فارق ، وعلم أن ذلك لن يكون ، وأن ما كان من اندفاعه ومُراغَمَتِهِ عند أول الفراق ، إنما
كان أمراً يخالف طبيعة حبه التي وصفها في شعره قبل وهو عند سيف الدولة بقوله :

إِلَامَ طَمَاعِيَةِ العَاذِلِ وَلَا رَأَى فِي الحُبِّ لِلعَاقِلِ
(يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ، وَتَأْيِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ)

٢٤٥ هذا وإذا أنت أخذت في دراسة شعره في المدح والحكمة في هذه الفترة ،
وجدت آثار هذا الحب الذي انقطعت منه آمال اللقاء والنظر والابتسامه والتلطف ،
وما رُمى في قلب أبي الطيب من الكمد والحسرة والأسف والحنين ، فأصبح كلامه وبيانه
من تلك العواطف اليائسة التي انطوى / عليها قلبه ، وأضطرب بها ضميره وفكره ، (١)
وبذلك تميّز شعره في هذا العهد ، من شعره فيما سبقه ، وتباين عنه تبايناً عظيماً .

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلاً في بيت بيت وقصيدة قصيدة في موضعه من كتابنا عن أبي الطيب ،
ونعتذر عن ذلك هنا ، لما نرى من تشعب الموضوع وسعته ، وما يقتضى من الوقت .

ويقول أبو الطيب يذكر فِرَاقَهُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ وَمَقْدَمَهُ عَلَى كَافُورٍ ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ

رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ ٣٤٧ :

فِرَاقٌ ... ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدَمِّمٍ	وَأُمَّ ... ، وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرٌ مُيَمِّمٍ
وَمَا مَنَزَلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ	إِذَا لَمْ أُبَجِّلْ عِنْدَهُ وَأُكْرَمِ
سَجِيَّةِ نَفْسٍ لَا تَزَالُ مُلِيحَةً	مِنَ الضَّيِّمِ ، مَرْمِيًّا بِهَا كُلِّ مَحْرَمٍ (١)
(رَحَلْتُ ... فِكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنِ	عَلَى !! وَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيِّعِمٍ !!) (٢)
(وَمَا رَبَّةُ الْقُرْطِ الْمَلِيحِ مَكَائُهُ ،	بِأَجْرَعٍ مِنْ رَبِّ الْحُسَامِ الْمُصَمِّمِ)
(فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ	عَذَرْتُ ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمِّمِ)
(رَمَى ، وَأَتَّقَى رَمِيَّ ، وَمِنْ دُونَ مَا أَتَّقَى ،	هُوَّى كَاسِرٌ كَفَى ، وَقَوْسِي ، وَأَسْهَمِي)

فهو بالبيت الأول قد عيّن من أراد بهذه القصيدة . فالذى فارقه هو سيف الدولة ،
والذى قصده ويّممه هو كافور ، وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيت الرابع
قال : « رحلتُ » ، يعنى رحلته عن حلب ، ثم ذكر بعده ما كان من جرّاء هذا الفراق ،
وأبان عن الذى كان سبباً فيه ، وقابل فى ذلك بين اثنين : رجل وامرأة . فذكر باكية
تبكى على فراقه بعينى غزال ، وبأكياً يبكى بعينى أسد ، وجازعةً لفراقه زينتها قرطها الذى
فى أذنها ، وجازعاً زينته حسامه . وقد اتفق الشراح أيضاً = ولا شك فيما قصده / أبو
الطيب = على أنه قصد سيف الدولة بقوله « ضيّعِم » ، وقوله : « رَبِّ الحُسَامِ المُصَمِّمِ » .
والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وبأبى الطيب ، ومعرفة
سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعد ما رأيت أنه عنى بالبأكية الجازعة لفراقه
« خولة » أخت سيف الدولة ، ثم قال بعد : « فلو كان ما بى من حبيب مُقَنَّعٍ عذرتُ »

(١) « المحرم » ، من مخارم الجبال ، وهو الطريق المفضى إلى أفواه الفجاج .

(٢) الشادن : ولد الغزال ، يريد به المرأة الغريرة الحسنة ، والضيّعِم : الأسد .

وصبرت على ما يصيبني منه لحبي إياه ، والأذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا ، فهو لا يحمل على فراق ولا بين ، ولكن الذى حملنى على الفراق كَوْنُ هذا الأذى إنما أصابنى « من حبيب مُعَمَّم » ، هو سيف الدولة . ثم صرح فى البيت الأخير مبيناً عن هواه فقال : إن سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الأذى الذى أصابه منه) ، واتقى بدرعه أن يرميه أبو الطيب بسهم مثله ، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عمَلٌ لا محل له ، إذ كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لن يرميه جزاءً له كما رماه ، لما فى قلبه من حُبِّ « خولة » أخته وهواها الذى يحبس يده ، ويكسر كفه ، ويحطم قوسه ، ويُدقُّ سهامه . هذا وقد رووا أن أبا الطيب اتصل به وهو بمصر أن قوماً نَعَوْهُ فى مجلس سيف الدولة بحلب ، فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء فى أولها قوله : [قالها فى أول سنة ٣٤٨ ، فيما أرجح] .

بِمَ التعلُّلُ؟! لا أَهْلٌ ولا وَطَنٌ ،
أريدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى
لا تَلَقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِبٍ
فَمَا يُدِيمُ سُورٌ مَا سُرِّتَ بِهِ ،
/ (مِمَّا أَضْرَّ (بأهل العشق) أَنَّهُمْ
(تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنْفُسُهُمْ
تَحَمَّلُوا حَمَلْتَكُمْ كُلَّ نَاجِيَةٍ ،
(مَا فِى هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهَجَّتِى عَوْضٌ
يَا مَنْ نُعِيتُ عَلَى بُعْدِ بِمَجْلِسِهِ ،
كَمْ قَدْ قُتِلْتُ ، وَمِ قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمْ !!

٢٤٧

وفى هذه الأبيات عندنا قول كثير نوجزه ونمد منه أطرافاً نتفادى بها الإطالة ،
ففى الأبيات الأولى تأخذ عينك أثر الأحزان التى كانت فى قلب الرجل متمثلة مصورة فى
شعره . وتدبر عبارته عن آلامه بقول : « بِمَ التعلُّلُ » !! وتأمل هذا السكون الذى

يَعْقُبُ استفهامه وتعجبه ، فهو بيانٌ في غير لفظ ، ثم يعود إلى القول فيقول : « لا أهل ، ولا وطن ، ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكنٌ » ، فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن إليه إلا ولده « محسّد » ، وهو مهاجرٌ لا وطن له ، وهو بمصر غريبٌ لا صديق له ولا نديم ، وقد سَمِمت نفسه كل شيءٍ حتى الكأس من الخمر لا تسليهِ ولا تحركه . ثم تَمَمَّ ذلك بلوعة قلبه ، إذ فقد سَكَنَهُ وحببيه الذى يسكن إليه ويأوى . ثم مضى ينتقل في المعنى حتى انتقل من تجلده تارةً ، ومن أحزانه أخرى ، إلى الداءِ الذى يَسُلُّ قلبه وَيُسَقِّمُهُ ، فقال منتقلاً على عاداته التى بيّناها قبل ، [ما سلف ص : ٣٤٠ تعليق : ٢] .

مَمَّا أَضُرَّ (بِأَهْلِ الْعِشْقِ) أَنَّهُمْ هُوُوا ، وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا ، وَلَا فَطَنُوا

وهو بيان عن نفسه وما يحزُّ فيها من آلام « خولة » ، وما لقيه بعدها من الاضطراب بين رجولته التى تأتى أن تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التى / تَأْتِي إِلَّا أَنْ ٢٤٨ تخشع لخولة ، وتتعبد بذكرها وهواها وآلام حبها . وكان من جرّاء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل) قلبه ، وقسا عليه وتعنّف به ، وذمّ له هذه التى قد تَوَلَّه بها ، وهى التى أَضُرَّتْ به وَأَشَقَّتْهُ وَعَذَّبَتْهُ ، سَفْهًا وَجَهْلًا مِنْهُ ، إِذْ أَرَادَ مَا لَا يَكُونُ ، وَمَا لَا تَأْتِي بِهِ الْأَقْدَارُ ، وَلَا تَرْضَى بِهِ التَّقَالِيدُ الاجْتِمَاعِيَّةُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كَمَا ذَكَرَ فِي الْبَيْتِ الْمَاضِي ، فَقَالَ فِي عَقْبِ ذَلِكَ معانداً ومراعماً لما في قلبه :

« تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ »

يرحمك الله يا أبا الطيب ثم انطلق يعاند قلبه ، ويذمُّ له « خولة » ، ولا ذنب لها إلا ما تَكَلَّفَهُ هو بالفراق وإيرادة نسيانها ، « وتَأْتِي الطَّبَاغُ عَلَى النَّاقلِ » أن يكون ذلك . ثم انظر خطابه بعد لسيف الدولة بقوله :

يَا مَنْ نُعِيْتُ ، عَلَى بُعْدٍ ، بِمَجْلِسِهِ ، كُلُّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ

فوربك إني لإخالٌ أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكى ، فإن في الشطر الأخير عبراتٍ من دمعه لا تزال تجول فيه وتترقق . فكلُّ ذلك آثارٌ بينةٌ على انتقال طبيعة

أبى الطيب من تكبرها وعتوها وتزمتها ، إلى حالة نفسية طارئة قد نفذت فيه آلامها وأهوالها ، فهو يعانى منها ما يعانى ، ويضطرب لها ويهتز ويتلذع ، حتى كان شعره بعد فراق سيف الدولة كثير الشكوى ، مخالطاً بالحزن والحسرة والألم ، وقد تنبه إلى ذلك أبو الطيب نفسه ، فقال فى قصيدة من مدائحه لكافور ، فى شوال سنة ٣٤٧ :

(لَحَى اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ ! فَكُلُّ بَعِيدِ الِهْمِّ فِيهَا مُعَذَّبٌ
/ (أَلَا لَيْتَ شِعْرِي ، هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعْتَبُ !؟)
وَبِي مَا يَذُودُ الشُّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ ، وَلَكِنَّ قَلْبِي ، (يَا أَبْنَةَ الْقَوْمِ) ، قَلْبٌ

وهذا الذى به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذى ذكره أولاً فيما

تقدم ، [ص : ٣٤٧] :

وَلَكِنَّ حَمَى الشُّعْرَ ، إِلَّا الْقَلِيلَ ، هَمُّ حَمَى النَّوْمِ إِلَّا غِرَارًا
وَمَا أَنَا أَسَقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ، وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

وهو حب « خولة » الذى ملأ قلب الرجل وأخذه وتفرد به دون فكره وإرادته .

.... فلما ماتت « خولة » رحمها الله فى سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، تغيرت طبيعة أبى الطيب واسودت الدنيا فى عينه ، وامتلاً قلبه حُزناً ، وتقطعت نفسه عليها حسرات ، فكان شعره بعد من هذه المادّة ، وأول ذلك ما كان من شعره فى القصيدة التى رثاها بها ، إذ يقول لسيف الدولة :

فَلَا تَنَلِّكَ اللَّيَالِي !! إِنَّ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ التَّبَعِ بِالْغَرْبِ (١)
وَلَا يُعِنُّ عَدُوًّا أَنْتَ قَاهِرُهُ ، فَإِنَّهُ يَصِدُّنَ الصَّقْرَ بِالْحَرْبِ (٢)
(وَإِنْ سَرَّرَنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعَنَ بِهِ ، وَقَدْ أَتَيْنَكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ)

(١) « النبع » ، شجر صلب تصنع منه القسي . و « الغرب » ، شجر ضعيف العيدان .

(٢) و « الحرب » ، طائر لا يصيد ، وهو ذكر الجبارى .

(وَرُبَّمَا أَحْتَسَبَ الْإِنْسَانُ غَايَتَهَا ،
 وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لِبَائَتَهُ
 / تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ
 فَقِيلَ : تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً ،
 وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهَجَّتَهُ
 وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرٍ غَيْرٍ مُحْتَسَبٍ)
 وَلَا أَنْتَهَى أَرْبٌ إِلَّا إِلَى أَرْبٍ (١)
 ٢٥٠ . إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ (٢)
 وَقِيلَ : تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
 أَقَامَهُ الْفِكْرَ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ

وأعد قراءة الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وتدبر نفس أبي الطيب فيها ، فهو يكاد ينقطع ويسقط من العجز والتعب والفكر في الذي أصابه بموت حبيته « خولة » . فإذا أردت أن تعرف تمام حالة أبي الطيب هذه ، وامتداد فكره فيها ، فاقرا قصيدته التي قالها حين توفيت عمّة عضد الدولة بن بويه في سنة ٣٥٤ ، فبئيل موت أبي الطيب بقليل ، والتي يقول فيها :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!

 لَوْ فَكَّرَ (الْعَاشِقُ) فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ ، لَمْ يَسْبِهِ

وبقى كثير من الإشارات إلى هذا الذي في قلبه ، طويناه حتى يأتي أجله ، والله المستعان .

(١) « اللبانة » ، الحاجة .

(٢) « الشجب » ، الهلاك ، يريد الموت .

 يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ
 لَمْ يَكُنْ ، غَيْرَ أَنَّ أَرْكَ ، رَجَائِي
 وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ حَيْلِي ،
 قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِي ، وَزَادِي ، وَمَائِي
 فَأَرَمَ بِي حَيْثُ شِئْتَ مِنِّي ، فَأَيْتِي
 أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرُّوَاءِ
 وَفُوَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَمَا
 نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

٢٥١ / قد ذكر الرواة في موضع القول من فراق أبي الطيب حضرة سيف الدولة أسباباً
 موجبةً لهذا الفراق ، كالذي يروون من أنه كان بحضرة سيف الدولة ، وفي المجلس أبو
 الطيب اللغوي ، وابن خالويه النحوي ، وجرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي
 وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه
 (من كُمة مفتاحاً من حديد) يشير به إلى المتنبي ، فقال له المتنبي : ويحك ! اسكت ،
 فإنك أعجمي ، وأصلك خوزي ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وجحة المتنبي
 بذلك المفتاح ، فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي من ذلك ، ولا سيما إذ لم
 ينتصر له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد أسباب مفارقتة لسيف الدولة .

٢٥٢ = وكالذي يروون من كيد أبي فراس له عند سيف الدولة بمثل قوله له : « إن / هذا
 المتشدد (يعني المتنبي) كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار
 عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق معتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من
 شعره !! فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » ، فأعرض عن أبي الطيب لذلك .

فهذه الروايات وغيرها ، كما حدثناك قبل ، (١) هي من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، ولكننا نستفيد منها على علاقتها ، ونأخذ منها ونَدْعُ ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه إن شاء الله .

والرأى عندنا أن فراق أبي الطيب لسيف الدولة مشكلةً معقدةً يطول تفسيرها وتبيينها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف . ومختصره أن هذا الفراق كان لأسباب قد اقتضاها حُبُّ أبي الطيب « خولة » أخت سيف الدولة ، وبقي أبو الطيب في جوار صاحبه وحبيبته يتلذع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوامٍ مُجرَّمة ، وهو على عِدَّة من سيف الدولة أن يحقق آمال فكره السياسية ، وأمانى قلبه وعواطفه بزواج « خولة » ، ثم أدركه اليأس ، وظنَّ أن في الفراق راحةً له ونسياناً ، وهو ما أشار إليه في قوله ، على ما فسرناه به : (٢)

« وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِراً تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ »

وقد حمله على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قَوْم) / « خَوْلَة » كأبي فراسٍ وأبي العشائر وغيرهما ، وما فعلوه من تحريض الأدباء عليه ، كابن خالويه ، وإغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم ، فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله له في عيد الأضحى سنة ٣٤٢ :

أزَلُّ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَيْتِهِمْ ، فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّداً
(إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمْ) ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَداً
(وَمَا أَنَا إِلَّا سَمَهْرِي حَمَلْتُهُ ،) فَزَيْنَ مَعْرُوضاً ، وَرَاعَ مُسَدِّداً)

(١) ص : ٣٠٧ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٣٥٠ .

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةٍ قَصَائِدِي ،
فَسَارَ بِهِ ، مَنْ لَا يَسِيرُ ، مَشْمَرًا ،
(أَجْزَنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا ، فَإِنَّمَا
وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي ، فَإِنِّي
إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا
وَعَنِّي بِهِ ، مَنْ لَا يُعْنِي ، مُعَرِّدًا
بِشِعْرِي أَتَاكَ المَادِحُونَ مُرَدِّدًا)
أَنَا الطَّائِرُ المَحْكِيُّ والآخِرُ الصَّدَى)

وقوله أيضاً في ذلك ، في صفر سنة ٣٤٣ :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحَتَّ ضَبْنِي شَوْبِعْرٌ
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامَتْ عَنْهُ عَادِلٌ ،
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيهُ ،
وَمَا التِّيَّةُ طَبِي فِيهِمْ ، غَيْرَ أَنِّي
وَأَكْبَرُ تِيهِي أَنِّي بَكَ وَائِقٌ ،
لَعَلَّ لِسِيفِ الدَّوْلَةِ القَرْمِ هَبَّةٌ
رَمَيْتُ عِدَاهُ بالقَوَافِي وَفَضْلِهِ
ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ (١)
وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَا حِكٌ مِنْهُ هَا زِلٌ
وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
بَغِيضٌ إِلَى الجَاهِلِ المُنْتَعَا قِلُ (٢)
وَأَكْثَرُ مَالِي أَنَّنِي لَكَ آمِلٌ
يَعِيشُ بِهَا حَقٌّ وَيَهْلِكُ بَاطِلُ (٣)
وَهُنَّ العَوَازِي السَّلَامَاتُ القَوَاتِلُ

فهذه أبيات صارحة الدلالة على ما كان يلقاه أبو الطيب في ذرى سيف الدولة من الشعراء في بلاطه . ثم انظره ، فقد بين في هذه الأبيات أيضاً عن وشايات وسعايات كان يكاد بها لدى سيف الدولة من قبل : من الطعن في نسبه ، والتشهير به في خلقه وضميره ، وذلك حيث يقول في جمادى الآخرة سنة ٣٤٢ :

أَنَا السَّابِقُ الهَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ ،
(وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِي مَا يَرِيئُنِي
أُعَادَى عَلَيَّ مَا يُوجِبُ الحُبَّ لِلْفَتَى ،
إِذِ القَوْلُ قَبْلَ القَائِلِينَ مَقُولُ
أُصُولُ ، وَلَا لِلقَائِلِيهِ أُصُولُ)
وَأَهْدَأُ والأفكارُ فِي تَجَسُّولُ

(١) « الضبن » ، ما بين الإبط والكشح في الإنسان .

(٢) « طبي » ، أى شأني وعادتي .

(٣) « هبةُ السيف » ، هزته ومضاؤه في الضريبة .

٢٥٤ / سِوَى وَجَعِ الحُسَادِ دَاوٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبِ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلَا تَطْمَعَنَّ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ
وَإِنَّا لَنَلْقَى الحَادِثَاتِ بِأَنْفُسِي كَثِيرُ الرِّزَايَا عِنْدَهُنَّ قَلِيلُ
يَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ)

وقد كان يَتَوَلَّى أمرَ هذا الكيد كُلهُ أبو فراس الحمداني ، وعندنا أن المنافسة في الشعر لم تكن هي السبب ، وإنما كانت « خولة » السبب الأكبر الذي جلب عليه كيد أبي فراس ، ثم أبي العشائر ، مع أنه هو الذي قَدَّمه إلى سيف الدولة وقربَه إليه على ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أغرى أبو العشائر غلمانَه بقتله ، وقد رأيت قَبْلُ أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حُبَّهُ لأبي العشائر ولا ضَعْفُ ، [انظر ما سلف : ٣٠٨ ، ٣٤٤ - ٣٤٦] . وهذا لأن الأمر لم يكن منافسةً في شعرٍ أو غيره ، وإنما كان غيرةً من أبي العشائر على بعض حُرْمه . وأبو الطيب ، كما حدَّثناك في مواضع ، كان يضع (الرجولة) وتوابعها في المنزلة الأولى ، ويحبُّ من عدوِّه أن يستمسك بعُرْوَتِهَا ، فلذلك لم يَحْقِدْ على أبي العشائر حين أخذته الغيرة على حُرْمه ، بل ازداد تعطفًا عليه وتلطُّفًا له ، على تكبُّره وتعاليه وعُتُوِّه ، حتى قال له ، [انظر ص : ٣٠٨ ، ٣٠٩] :

(وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الفِدَاءُ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنيفُ)
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا ، يَكُ قَاتِلًا ، بِكَفِّيهِ ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ)

وبهذا يصبح لفراق أبي الطيب لسيف الدولة معنىً يُعقل ويعتمد عليه ويُعتدُّ به ، ثم تتسق حالته النفسية الظاهرة في شعره ، وتتساوق معاني ديوانه متدرِّجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها من الكيد والعدوان ، وما مُنِيَتْ به من حُرْقَةِ الحبِّ ، ولوعة الحرمان .

/ خرج أبو الطيب من حَلَب حيث كان سيف الدولة ، قاصداً دمشق ، وقد ٢٥٥
 آحتال لذلك حتى تمَّ له الفراق قبل أن تدركه مكاييد أوى فراس وأصحابه ، وذلك فى
 أواسط سنة ٣٤٦ ، وكان يحْمِل بين جنبه قلباً ممزقاً قد اعتورته السَّهام ، أو كما قال ،
 وهو يعزى سيف الدولة حين ماتت والدته ، وذلك فى سنة ٣٣٧ :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُوَادِي فِي غِشَاءِ مِنْ نِبَالِ
 فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ
 وَهَانَ فَمَا أَبَالِي بِالرَّرَايَا ، لِأَنِّي مَا أَتَفَعْتُ بِأَنَّ أَبَالِي

فَهُوَ قد أُصِيب فى آماله السياسية ، وأُصِيب فى هَوَى قلبه ، وأُصِيب فى محبة
 سيف الدولة ، وما كان يضمّر له من الإخلاص والتوقير والودّ ، فانطوى على ما به ، محزوناً
 ضَجِيراً مَلُولاً ، يتبرّم بالدنيا ويضيق بها وبأهلها ذرعاً . فلما وافى دمشق ودخلها ، كان بها
 رجل يهودى من قبَلِ كافور ، كان أبو الطيب يستثقل ظله على قلبه ، وكان قد لقيه قبَلُ
 فى سنة ٣٢٧ ، حين نزل على صاحبه أبى على (هرون بن عبد العزيز الأوراجى) الكاتب ،
 فسوّلت نفس هذا اليهودى لإرادته ورغبته أن يحمل أبا الطيب على أن يمدحه بعد أن
 مدح أمير الأمراء سيف الدولة ، وتقدر أبو الطيب هذا اليهودى وغثيث به نفسه ، فسكنها
 بالإعراض عنه وازدراؤه والتهاون به ، فغضب اليهودى (ابن ملك) غضبة يهودية ، حتى
 إذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته فى طلب أبى الطيب أن يقدم عليه ، فعلها
 ابن ملك ، وكتب إلى كافور أن أبا الطيب قال : « لا أقصدُ العبد ، وإن دخلت مصر
 فما قصدى إلاّ أبى سيده » . (١) ثم ضاقت دمشق بأبى الطيب ، فخرج منها يريد
 صاحبه الأمير أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طعيج بالرّملة الذى مدحه فى سنة ٣٣٦
 كما قدمنا ، [ص : ٢٩٠ ، وما بعدها] فاستقبله / وأنزله منزلاً كريماً ، وحمل إليه الهدايا النفيسة ،
 ٢٥٦ وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمله على فرس بموكبٍ ثقيل ، وقلده سيفاً محلى ، جزاءً لما كان

(١) خير ابن ملك اليهودى فى رواية ابن جنى لديوان المتنبي : ٤٣٥ (طبعة عزام) .

مدحه به أولاً ووفاء بالصُّحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لأصحابه : « أَتُرَوْنَهُ يَبْلُغُ الرَّمْلَةَ وَلَا يَأْتِينَا !! » . وبلغ ذلك أبا الطيب ، وأنَّ كافوراً يَجِدُ عليه في نفسه : أن يَقْصِدَ عُمَّالَهُ (كَأَبْنِ طُغْجِ) ولا يقصده ، وأتت آبنَ طُغْجِ كُتُبَ كافور في طلب أبي الطيب ، وكان آبن طغج ، فيما نرى ، رجلاً بصيراً ذاهية مترفقاً حُلُو اللسان مُطَاع الرَّغْبَةِ ، فأخذ يراود أبا الطيب ، وأبو الطيب يتعسَّر عليه ويضيق بطلبه ، لما تحمل نفسه من الضُّجر والتبرم . وبعد لأيٍ ما ظفر به الأمير آبن طُغْجِ وحمله على المسير إلى كافور . فلما قدم عليه ، أمر له بمنزِلٍ ، ووكل به جَمَاعَةً ، وأظهر التُّهْمَةَ له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتَّى أخرج به بكرمه ، فلم يجد أبو الطيب الذي يقول :

« وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيْدًا »

.... لم يجد بُدًّا من أن يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصى ، علَّه يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزَّى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور ، فرمت في وجه كافور بأبياتها لا أبيات أبي الطيب ، [في جُمَادَى الْأُولَى سنة ٣٤٦] ، [انظر ما سلف : ٣٤٨] :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيْتَهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه إقذاعٌ وفُحْشٌ وسخرية وتهكُّم . وبقي أبو الطيب بعد ذلك بمصر يحتال لأمره ، ولا يزال / يَنْفُثُ في كل شعير ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظلاً من الحزن والفجيرة والحسرة واليأس ، ولكنه كان مع ذلك يجتهد في أن يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ، ليجرَّب نفسه بعد أن أخفق في عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد) ، وكان يُرِيدَانِهِ على أن يصحبهما إلى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبى ، فأبى عليهما وخالفهما ، فذلك حيث يقول أبو الطيب ، يذكر ما كان من أمره وأمرهما ، ويعرِّض بحاجته نفسه لكافور ، [في شعبان سنة ٣٤٩] :

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ ،
 وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةٌ ،
 (وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أُدَلَّ عَوَازِلِي)
 (وَأُعَلِّمُ قَوْمًا خَالَفُونِي ، فَشَرَّقُوا)
 سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابٌ
 ضَعِيفٌ هَوَى يُبْعَى عَلَيْهِ ثَوَابٌ
 عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابٌ)
 وَغَرَبْتُ ، أَنِّي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا) (١)

 (إِذَا نَلْتُ مِنْكَ الْوَدَّ فَالْمَالُ هِينٌ)
 (وَمَا كُنْتُ - لَوْلَا أَنْتَ - إِلَّا مُهَاجِرًا)
 وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ)
 لَهُ كُلُّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابٌ)

ولم يكن أبو الطيب يؤمل من كافور ماله أو عطاياه أو هداياه ، فقد كان غنياً بما أعطاه سيف الدولة ، أو ما آدخره من عطائه وإقطاعه الذي كان له بالشام ، (٢) بل كان يريد أن يلقى بعض بلاد الصعيد ، أو صيداء كما ذكروا ، / وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التي تترامى إلى غاياتها التي قدمناها قبل . وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمّت نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولايةً وصار لك أتباعٌ فمن يطيقك ؟ » وهذا من كلام الرواة وحسب والذي نراه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يضمن له حباً ولا كرامة ، بل كان يزدريه في نفسه ، وحسبته ما لطمه به في أول لقاء كما مرّ بك ، وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين إلى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله ، (سنة ٣٤٩) :

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً ، وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبِعَادِ يُشَابُ

(١) يعني بالتشويق ذهاب صاحبيه إلى العراق قاصدين المهلبى ، والتغريب مقدمه هو على مصر ليمدح كافوراً .

(٢) يذكرون أن سيف الدولة تقدم إلى (ديوان البر) بإخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المنتهى فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة (أربع سنين) .

وأبين تعريضاً وأبلغ إفصاحاً عن حقارة هذا الأسود في نفس أبي الطيب ، ما يقوله له في أول مديحه ، [في شوال سنة ٣٤٧] :

أغالبُ فيك الشَّوقَ ، والشَّوقُ أغلبُ ، وأعجبُ من ذا الهجرِ ، والوصلُ أعجبُ
والضمير في قوله (فيك) يرجع إلى سيف الدولة ، ويريد بالهجر مفارقتة سيف الدولة ، وبالوصل مَقْدَمَه على كافور ، ثم يزيد فيقول بعد :

أما (تَغَلَطُ) الأيامُ فيَّ بأنْ أرى (بَغِيضاً) تُنَائِي ، أو (حبيباً) تُقَرِّبُ
وللهِ سَيْرِي ، مَا أَقَلَّ تَيْبَةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الحَدَالِي وَغَرَّبُ (١)
عَشِيَّةَ أَحْفَى الناسِ بي (مَنْ جَفَوْتُهُ) وأهدى (الطَّرِيقَيْنِ) التي أتَجَنَّبُ

/ فانظر إلى نفس أبي الطيب في شعره ، ودقة بيانه بقوله : (أما تَغَلَطُ الأيامُ) ، وهذا التصريح الذي وضعناه بين الأقواس يريد به سيف الدولة وكافوراً ، أفتظنُّ أن هذا كان مما يخفى على (الأستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم ؟ وهل كان يخفى على كافور ما سخر أبو الطيب به في شعره من ذكر سواده والتعريض به ، وجعله من مادة مدحه له ، والإتيان في ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدلُّ على تمكن الأصول البيانية في لسان أبي الطيب وقلبه ؟ انظر إلى قوله وهو يهنيء كافوراً ببناء الدار التي أقامها بإزاء الجامع الأعلى على البركة ، [في رجب سنة ٣٤٦] :

تَزَلَّتْ ، إِذْ نَزَلَتْهَا الدَّارُ ، فِي أَحْسَدَ - مِنْهَا ، مِنْ السَّنَى والسَّنَاءِ
وهذا لا بأس به ، ولكن تدبّر التهكم العجيب في هذه الأبيات ، وذكر المستحيلات التي لا تقع ولا تكون ولا تُتوَهَّم ، إذ جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء !!

تَفْضَحُ الشَّمْسُ - كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ - سٌ - بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ (سَوْدَاءِ)
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ - الَّذِي المَجْدُ فِيهِ - لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءِ

(١) « العية » التأنى والتوقف ، « الحدالي » ، موضع بالشام . ، « غرب » ، جبل هناك .

وهذا الضياء هو سواده !!

إِنَّمَا (الْجِلْدُ) مَلْبَسٌ ، وَأَبْيَضَاضُ الـ
 كَرَمٌ فِي شَجَاعِيَّةٍ ، وَذَكَاءٌ
 نَفْسٍ خَيْرٌ مِنْ أَبِيضَاضِ الْقَبَاءِ (١)
 فِي بَهَاءٍ ، وَقُدْرَةٌ فِي وَفَاءٍ
 نَ (بَلَوْنِ الْأُسْتَاذِ ، وَالسَّحْنَاءِ)

٢٦٠ / ثم يجعله بعد ذلك (رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ) ، [انظر مئة ص : ٣٥٧] وذلك لأنه
 عجيبة عن عجائب الدهر . وتدبر كل شعر الرجل في مدح كافور تجد أمثال ذلك بيناً
 دالاً على نفسه ، وتنبه لألفاظ الرجل فإنها هي التي كان يطوى تحتها معاني تهكمه
 بكافور كقوله : « يا رجاء العيون » ، وتنبه إلى قلبه المعاني ، ولفتها عن وجوهها ، كقوله
 مثلاً ، [انظر ما سلف : ٣٤٨] .

وَمَا كُنْتُ مَمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَى ، وَلَكِنْ بَأْيَامِ أَشْبَنَ النَّوَاصِيَا
 (عِدَاكَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِيَا ، وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا)

وهذا البيت الأخير تعريض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حق المعنى أن
 يكون :

(عِدَاكَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا . وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِيَا)

وذلك أن الأعداء يستعظمون ما كان من تملكه البلاد ، ويعُدونه أمراً عظيماً
 كالرقى إلى السماء = وذلك لحسدتهم وعداوتهم التي تريبو في صدورهم ، فترمى في الواقع
 بالوهم فيتعاضم في العيون = ولكن كافوراً لبعدهمته ، لا يراها أمراً عظيماً ، بل هي
 مساع في الأرض لا جهد فيها إلا كجهد المشي فهذا هو المعنى الذي قلبه أبو
 الطيب ببيانه القوي ، ليعرضه مدحاً ، وهو ذمٌ بليغ وهجاء نافذ .

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هناك من أقبح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الأستاذ

فكان كافور يُجيد فهمَ ذلك وينفذ إلى أسراره ، ويُبصِّر به إن لم يكن قد أدركه ، فقد كان أبو الطيب وهو بمصر مُلقًى بالرزايا ، مقصوداً بالعداوة من أقوام بعينهم كانوا يمهّدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والإخلاص ، وهم يعملون على إهلاكه . وكان كافور / يتقَى ذلك بدهائه وحيلته وخبرته السياسية ، فكان يهادى المعزّ لدين الله الفاطمي صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وهو مع ذلك يُذعن بالطاعة لبني العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وأيضاً ما كان من عداوة الوزير أبى الفضل ابن خنزابة (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن ابن الفرات) ، وكان عالماً فاضلاً له درسٌ يلقيه وهو في وزارته ، وكان المتنبى لم يمدحه ولا عبّاً به ، فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغاً ، حتى إن المتنبى ذكره بعد خروجه من مصر فقال ، [في ربيع الأول سنة : ٣٥١] :

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ ، وَلَكِنَّهُ ضَحِكُ كَالْبُكََا
بِهَا (نَبَطِيٌّ) مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ يُدْرَسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَآ !

والنبطى هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالأنسَاب قائماً عليها ، ألف كتباً في أسماء الرجال والأنساب ، وقصدته العلماء لذلك ، كالحافظ المحدث أبى الحسن الدارقطنى ، وقدم عليه من العراق وأقام عنده .

وأقام أبو الطيب بمصر على كُرهٍ ، إلى أن وردَ أبو شجاع فاتك غلامُ الإخشيد (محمد بن طُغج) من الفيوم ، فلقية المتنبى بالميدان على رِقْبَةٍ من كافور . وكان فاتك عند مقدّمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار ، فأنشده قصيدته التى أولها ، [في جمادى الآخرة سنة ٣٤٨] :

لَا حَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ ، فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وقال له فيها يذكر ما كان منه :

(وَمَا شَكَرْتُ لَأَنَّ الْمَالَ فَرَحَنِي ، سَيَّانٍ عِنْدِي إِكْثَارٌ وَإِقْلَالُ)

لَكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنَا ، وَأَنَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ بُحَّالٌ
/ لَطَفْتَ رَأْيِكَ فِي بَرِّي وَتَكْرِمَتِي ، إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْعَلِيَاءِ يَحْتَالُ
وَقَدْ أَطَالَ تَنَائِي طُولَ لَابِسِهِ ، إِنَّ الشَّنَاءَ عَلَى التَّنْبَالِ تِنْبَالٌ (١)

يشير بالتنبال إلى كافور ، ثم يزرِفِر المتنبى زفرته من جوف قلبه :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ ، الْجُودُ يُفْقِرُ ، وَالْإِقْدَامُ قَتَالٌ
وَأِنَّمَا يَيْلُغُ الْإِنْسَانَ طَاقَتُهُ ... ، مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالٌ (٢)
إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكُ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ
ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي ، وَحَاجَتُهُ مَاقَاتُهُ ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالٌ

وكذلك كان أبو الطيب قد يئس من بقائه في مصر ، ويرم بالمال وأصحاب المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعدَّ له العدة ، واعتمد على الهرب بحيلته ودهائه قبل أن يُدْرِكه كافور الذي أرصد له الرُقباء وبثَّ عليه العيون . وانتَهز هذا الداهيةُ الخبيرُ البصيرُ الفرصةَ في العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠ = وكان رَسْمُ كافورٍ أن يستقبل العيدَ بيومٍ ، (هو يوم الوقفة الآن) ، وتُعَدُّ فيه الخِلعُ والحُمْلاناتُ والهدايا وأنواع المبارِّ لرابطة جُنْدِهِ ، وراتبة جيشه ، وصبيحة العيد تُفَرَّقُ ، وثاني اليوم يذكر له من قَبْلِ ، ومن رَدَّ واستزاد = فأهتبل المتنبى غفلةً كافور واشتغاله بالعيد ، ودفن رِمَاحه بَرًّا ، وسار ليلته ، وحمل بِغَالِهِ وجماله ، وهو لا يَأْلُو سِيراً وَسُرَى . وقطع في هذه الليلة مسافة أيام ، حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، إلى أن جازه على الجِلل والأحياء والمفاوز والمجاهيل والمناهل والأواجن فلما بلغ كافوراً الخبيرُ ، بذل في طلبه ذخائر الرغائب ، وكتب إلى عمّاله في سائر أعماله ولكن يقول المتنبى [في قصيدته لما نالته الحمى بمصر سنة ٣٤٨] :

(١) « التنبال » ، القصير اللقيم .

(٢) « الشملال » ، الناقة السريعة الخفيفة المشي .

فَرَبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي بِسَيْرٍ ، أَوْ قَنَاقَةٍ ، أَوْ حُسَامٍ
وَصَاقَتْ نُحْطَةً فَخَلَصْتُ مِنْهَا تَخْلَاصَ الْخَمْرِ مِنْ نَسِجِ الْفِدَامِ (١)

(١) « الفِدَامُ » ضرب من التسيج ، يجعل على فم إبريق الخمر ، ابتغاء تصفيتها وترويقها .

 فَلَمَّا أَنَحْنَا ، رَكَزْنَا الرِّمَّا
 حَ يِّنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى
 وَبِتْنَا نُقْبَلُ أَسْيَافَنَا
 وَنَمْسُحُهَا مِنْ دِمَائِ الْعِدَى
 لَتَعْلَمَ مِصْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ،
 وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ - أَنَّى الْفَتَى
 وَأَنْى وَفَيْتُ ، وَأَنْى أَيْتُ ،
 وَأَنْى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
 وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ،
 وَلَا كُلُّ مَنْ سِيَمَ خُسْفًا أَنْى

٢٦٣ / خرج أبو الطيب من مصر ، وقد آجتواها ، وُبِعِضَتْ إليه هذه الحياة الفاسدة
 التى بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتى وَصَفَهَا فى قصيدته حين مرض بالحمى وهو
 بمصر فقال ... ، [من قصيدة الحمى ، فى ذى الحجة سنة ٣٤٨] :

(وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خَبِيًّا جَزَيْتُ عَلَى آبِتْسَامٍ بَابِتْسَامِ)
 (وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ)
 يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي ، وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ ،
 / (وَأَنْفُ مِنْ أُخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ)
 أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ الْكُلَامِ

وتنازعت قلبَ أبى الطيب كلُّ أسباب همه ويأسه : همُّ الحب ويأسه من اللقاء ،
 وهمُّ السياسة ويأسه من إدراك المطلب وتحقيق الآمال ، وأثبت كل ذلك فى قصيدته التى

قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصلها على ما رسمنا فيما مضى يقول ، [في يوم

عرفة ، ذى الحجة سنة ٣٥٠] :

عَيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدَّتْ يَا عَيْدُ ، بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرٍ فَيْكَ تَجْدِيدُ ؟
أَمَّا (الْأَجْبَةُ) فَالْيَيْدَاءُ دُونَهُمْ ، (فَلَيْتَ دُونِكَ يَيْدَاءُ دُونَهَا يَيْدُ)

.....
لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَبْدِي شَيْعاً تُتِيْمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ
يَا سَاقِيَّ ! أَحْمَرُ فِي كُوُوسِكَمَا ، أَمْ فِي كُوُوسِكَمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ ؟!
أَصْحْرَةٌ أَنَا ؟! مَا لِي لَا تُحَرِّكُنِي هَذِي الْمُدَامُ ، وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ !
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا ، وَ (حَبِيبُ النَّفْسِ) مَفْقُودُ
مَاذَا لَقَيْتُ مِنَ الدُّنْيَا !! .. وَأَعْجَبُهُ أَنِّي - بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ - مَحْسُودُ
أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِنًا وَيَدًا .. أَنَا الْعَنِيُّ ، .. وَأُمُوَالِي الْمَوَاعِيدُ

ثم يخلص أبو الطيب إلى ذم مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمماطلة ، وما كان من ولاية كافور الأسود الخصى عليها ، وما كان يجري من المكر فيها وفي سياستها ، ثم يهجو كافوراً بأفحش الهجاء ، ثم يذكر هم نفسه وفراق سيف الدولة ، وذلك قوله :

/ أَوْلَى اللَّتَامِ كُوَيْفِيرٌ بِمَعْدِرَةٍ فِي كُلِّ لُؤْمٍ ، وَبَعْضُ الْعُذْرِ تَفْنِيدُ
وَذَاكَ ، أَنَّ (الْفُحُولَ الْبَيْضَ) عَاجِزَةٌ عَنِ الْجَمِيلِ ، فَكَيْفَ (الْخِصْيَةِ السُّودُ) !

٢٦٥

ونحن نقدم العذر لأبي الطيب فيما ذم به مصر ، وما ذكر من أخلاقها ، فقد كان الرجل منكوباً في نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيداً ، وأثبت عليه الأسود كافور عداوة باغية ، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه ، وقد أعذر أبو الطيب بمدحه إياه أياً كان ، بعد أن كان في جوار أمير العرب سيف الدولة . هذا وليس يمنعنا من شهادة الحق - ولو على أنفسنا - ما يأتي به بعض الناس من الغضب الباغى (للقومية) . وقد ذكر أبو الطيب عيوباً لا تزال متأصلة في مصر ، ولا خير في الغضب من ذكرها ، بل

الخير كل الخير في معرفتها والتنبيه لها والعمل على إصلاحها . والحقيقة التي لا تُجحد أن أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسأل مصر ويقتلها من الخلق الفاسد ، وقد كشف عنه في قصائده التي قالها في هجاء كافور ومدح فاتك ورثائه . وليس أبو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك يومئذٍ وأدركه ، بل قد عرف ذلك كثيرٌ من أهل عصره ، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا ، وقفت على ذلك ، وعلمت أن الرجل كان بصيراً نافذاً إلى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها . ولا بأس هنا من أن نذكر لك آياتاً قد قالها القاضي التنوخي الكبير ، حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً ، يقول :

تَرَكْنَا أَرْضَ مِصْرَ لِكُلِّ فَدَمٍ	لَهُ بَاعٌ يُقَصِّرُ عَنِ ذِرَاعِ
نُفُوسٍ لَا تَلِيْقُ بِهَا الْمَعَالَى ،	وَأَخْلَاقٍ تَضِيْقُ عَنِ الْمَسَاعِي
أَقَمْتُ بِهَا وَمِنْ مَحَنِ اللَّيَالِي	مُقَامُ الْأَسَدِ فِي كَهْفِ الضَّبَاعِ
/ أَقُولُ ، وَقَدْ نَأَوْنَا ، بُعْدًا وَسُحْقًا	لِشَرِّ الْخَلْقِ فِي شَرِّ الْبِقَاعِ
وَكَمْ خَلَّفْتُ مِنْ كَرَمٍ مَهِينِ	بِعَرْضَتِهَا ، وَمِنْ عَرْضِ مُضَاعِ
وَأَجْسَامٍ مُسَمَّنَةٍ شِيَاعِ ،	وَأَحْسَابٍ مُضْمَرَةٍ جِيَاعِ
وَنَقَصٍ فِي أَكَابِرِهَا حَضِيضِ ،	وَجَهْلٍ فِي أَصَاغِرِهَا مُشَاعِ
لَقَدْ نَامَتْ سَرِيرَتُكُمْ ، وَكَانَتْ	فَضِيحَتُكُمْ قِنَاعًا لِلْقِنَاعِ
جَعَلْتُمْ ذَنْبَنَا أَنَا سَمِعْنَا ... ،	وَمَا الْأَذَانُ إِلَّا لِلْسَّمَاعِ

٢٦٦

وهذا ليس مما يُغضبُ منه ، فإن في التاريخ من أمثال ذلك ما لا يُدفع ، وقد كانت في مصر لذلك العهد ، وفي غير مصر ، أخلاقٌ فاسدة هي التي عَصَفَتْ بالمجد العربي وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم ، حتى صرنا إلى ما نحن فيه الآن . فهذا الغضبُ التاريخي لا محل له ولا وجه ، إلا القصور في معرفة التاريخ . هذا وليس بمنكر أن تكون هناك فضائلٌ أخرى تُلطف هذه العيوب وتخفف منها ، فتُنسى في جانبها ، وتُخفى صورتها في ظلها .

.... سار أبو الطيب يَطْوِي الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله هارباً من كافور وما أتبعه من الطَّلَبِ ، وقطع في سيره الفلاة ما بين مصر وطور سيناء خائفاً يترقب ، وتراءت له أيامه كلها بأهوائها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعلت أمواجها ، وأدركته رجولته وفُتُوته ، حين لَفَحَتْهُ هَبَّات الهجير وقد نَصَبَ لها حُرَّ وجهه ، وتنسَّم من سمائها التي اعتادها في أوَّل أيامه قبل أن يستنيم إلى بعض الدَّعة ، ويركن إلى غَفَلَاتِ الراحة ، وكذلك غَلَبَ ما كان به من اليأس والضَّجَر ، ومدَّ ذراعيه يَسْتَمْسِك بالحياة ، يَبْغِي الظفر وتحقيق الأمل . ومن هنا قال في قصيدته التي / ذكر فيها رحلته عند وروده إلى الكوفة يصف النُّوق التي نجا على ظهرها ، [في شهر ربيع الأول سنة ٣٥١] :

٢٦٧

(وَلَكِنَّهُنَّ (حِبَالُ الْحَيَاةِ) ، (كَيْدُ الْعُدَاةِ) ، (مَيْطُ الْأَذَى)
ضَرَبْتُ بِهَا التَّيْهَ ضَرْبَ الْقِمَارِ ، إِمَّا لِهَذَا وَإِمَّا لِذَا
إِذَا فَرَعَتْ قَدَمَتَهَا الْجِيَادُ ، وَبِيضُ السُّيُوفِ ، وَسُمُرُ الْقَنَا
.....

وَقُلْنَا لَهَا : أَيْنَ أَرْضُ الْعِرَاقِ ؟ فَقَالَتْ - وَنَحْنُ بَتْرَبَانَ - : هَا

ولم يكن أبو الطيب في مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يَقْصِدُهُ ، بل كان متردداً بين أن يقصد المدينة ويقيم بها ، أو يقطع في رحلته الفلاة إلى نجد ، أو ينحدر إلى العراق . ولعله كان يتلقَّف الأخبار وهو في طريقه ، حتى يرى رأيه في قصده ، ويتَّقَى شَرَّ الكيد الذي كان يُكَادُ به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تَقَحُّمِهِ على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم . (١) والظاهر من شعر أبي الطيب أنه ، لأمرٍ ما ، اعتمد الرحلة إلى الكوفة

(١) قد حاولنا أن نهتدي في ظلام التاريخ إلى وجه من الرأى ، فلا نقرر الآن شيئاً ، فإن ذلك يقتضى التنقيب في تاريخ العلويين خاصة في ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التي بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فإذا تم لنا شيء من السند التاريخي ، فحينئذ نقدم على القطع برأى من أمر مدخله الكوفة . هذا على أن في أيدينا أشياء ، ولكنها لا تكفي في الدلالة على الوجه الصحيح .

ودخولها . وقد رأيت قبل في خبر موت جدته أنه حين أراد دخول الكوفة ليراها ، منعه العلويون ، فيما ذهبنا إليه ، وحملوه على مفارقة جوارها إلى بغداد ، (١) فكان من جرّاء ذلك ما استعلن في قصيدته التي يرثي بها جدته ، من الحدة والتهور / والثورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والضميم ، فكان مما قال :

لِئِنْ لَدَّ يَوْمَ الشَّامَتِينَ يَوْمَهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مَتَى (لِأَنفِهِمْ رَغْمًا)
تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ ، وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ ، وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْعَشْمَا
وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَحِيَّتِي ، وَإِلَّا فَلَسْتُ (السَّيِّدَ الْبَطْلَ الْقَرْمَا)
(إِذَا فَلَ عَزَمِي عَنِ مَدَى خَوْفِ بَعْدِهِ ، فَأَبْعُدُ شَيْءٌ مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمًا)
وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَانَتْ نُفُوسُهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
(كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتَ فَاذْهَبِي ، وَيَا نَفْسُ ، زِيدِي فِي كَرَائِبِهَا قُدْمَا)
(فَلَا عَبَّرْتُ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِنِي ، وَلَا صَحَبْتَنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

وقد قلنا ثم أنه أراد بالشامتين الذين كان لأنوفهم (رغمًا) - العلويين ، وأنه أندر وأوعد وهدد يريدهم بذلك ، لما أنزلوه من الكيد له حتى خفيت نسبته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يسير ذلك في نفسه ، وهو في كل مرة يلقي من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيت من إرصادهم لقتله بكفر عاقب ، [ص : ١٥٤ - ١٥٦ ، والتعليق هناك] .

فالآن ، يتمكن أبو الطيب - بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة (من سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١) - من دخول الكوفة ، بعد أن حيل بينه وبينها في موت جدته ، وقد لقي في هذه السنوات من المصائب والأرزاء ما فتت حيناً في عضده ، وما رمى في قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخل الكوفة وقد رَغِمَتْ أنوف من منعوهُ عن دخولها أولاً ، ومن فارق الكوفة وتغرب غير قابل لما أرادوه عليه من ظلمهم له فيقول :

(١) انظر ما قلته في شعره في رثاء جدته فيما سلف ص : ١٦٠ - ١٦٥ ، ثم ص : ١٧٠ - ١٧٧ ، ثم

ص : ٢٤٠ - ٢٤٣ ، ثم ص : ٢٧٧ ، والتعليق : ١ ، ثم ص : ٢٨٠ - ٢٨٢ .

/ فَلَمَّا أَنْحَنَّا رَكَزْنَا الرِّمًا ح ، بَيْنَ (مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى)

فَانظُرْ إِلَى قَوْلِهِ : (مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى) ، أَتَكُونُ (مَكَارِمَهُ وَالْعُلَى) هَذِهِ هِيَ السَّقَاءَةُ وَمَا إِلَيْهَا ؟ إِذْ تَكْذَبَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ فَرَعَمُوا أَنْ أَبَاهُ كَانَ (سَقَاءً بِالْكَوْفَةِ يَسْقَى الْمَاءَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ) . وَالْعَجَبُ أَنْ يَذْكَرَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذِهِ الْمَكَارِمَ وَالْعُلَى وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْكَوْفَةِ ، الَّتِي كَانَ بِهَا مَنْ يَعْرِفُهُ مِنْ لِدَاتِهِ الَّذِينَ كَانَ مَعَهُمْ فِي الْمَكْتَبِ وَهُوَ صَغِيرٌ . إِنْ يَكُنْ مَا زَعَمُوا فَتَبَّأُ (لِابْنِ السَّقَاءِ) هَذَا مِنْ شَيْخٍ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنَ النَّاسِ !! هَذَا ، وَفِي الْآيَاتِ الَّتِي تَلَى هَذَا الْبَيْتَ نَفْحَةٌ مِنْ نَفْحَاتِ الصَّدْقِ ، وَصُورَةٌ مِنْ قُوَّةِ الْعَزِيمَةِ ، وَكَرَمِ الْعَنْصَرِ ، وَعِزَّةِ نَفْسٍ تَتَمَيَّزُ فِي أَلْفَظِهَا ، لَا قَبْلَ لِكْذَابٍ وَلَا دَعَى بَأَنْ يَجْعَلَهَا تَتْرَائِي فِي كَلَامِهِ وَاضِحَةً بَيْنَهُ سَمْحَةٌ مُسْتَعْلِنَةٌ يَقُولُ :

وَبَيْنَا نُقَبُّلُ أَسْيَافَنَا
لِتَعْلَمَ مِصْرٌ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ،
(وَأَنْتَى وَفَيْتُ ، وَأَنْتَى أَيْتُ ،
(وَمَا كُتُّلُ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى ،
(وَمَنْ يَكُ قَلْبٌ كَقَلْبِي لَهُ ،
(وَلَا بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلَةٍ
وَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الْفَتَى ،
وَتَمَسَّحُهَا مِنْ دِمَائِ الْعِدَى
وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ ، أَنْتَى الْفَتَى
وَأَنْتَى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا)
وَلَا كُتُّلُ مَنْ سِيَمَ حَسَنًا أَبِي)
يَشُقُّ إِلَى الْعِزِّ قَلْبَ التَّوَى)
وَرَأَى يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفَا)
عَلَى قَدْرِ الرَّجُلِ فِيهِ الْخَطَى

وَفِي قَوْلِهِ : « وَأَنْتَى وَفَيْتُ » الْبَيْتَانِ ، إِشَارَاتٌ بَيْنَهُ إِلَى مَا مَضَى فِي كَلَامِنَا عَنْ نَسَبِهِ وَغَيْرِهِ ، وَلَا تُطِيلُ بِإِعَادَتِهَا هُنَا مَرَّةً أُخْرَى . وَكَذَلِكَ أَرْغَمَ / أَبُو الطَّيِّبِ أَنْوْفَ أَعْدَائِهِ جَمِيعًا ، وَأَرَاهُمْ أَنْ عَزَمَهُ لَا يَزَالُ مَاضِيًا مُتَقَحِّمًا لَا يُرَدُّ عَلَى بَعْدِ الشَّقَةِ وَتَطَاوُلِ الْأَيَّامِ ، وَأَنَّهُ قَرَّبَ إِلَيْهِ مَا كَانُوا يَبَاعِدُونَهُ عَنْهُ بِتَهْكُمْهِمْ وَسُخْرِيَتِهِ بِهِ إِذْ قَالُوا : « مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ! وَمَا تَبْتَغِي ؟ » .

وقد صدق إذ قال :

إِذَا فُلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدِهِ ، فَأَبْعُدُ شَيْءًا ، مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمًا

لَمْ يَرِدْ فِي خَبَرِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَدْخَلِهِ الْكُوفَةَ فِي شَهْرِ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ ٣٥١ شَيْءٌ
يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِهِ التَّارِيخُ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ إِلَى وَجْهِ بَعِينِهِ . وَالَّذِي فِي رِوَايَةِ الرَّوَاةِ أَنَّهُ تَوَجَّهَ
بَعْدَهَا إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ (بَغْدَادِ) ، وَلَكِنْ مِنْ قَبْلِ رِحْلَتِهِ حَدَّثَ بِالْكَوْفَةِ حَدَّثَ حَضْرَهُ
الْمُنْتَسِبِي ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا خَارِجِيًّا كَانَ قَدْ ثَارَ بِالْكَوْفَةِ ، وَكَانَ مِنْ بَنِي كَلَّابٍ ، وَاجْتَمَعَتْ
إِلَيْهِ فِئَةٌ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ الْخَوَارِجِ ، فَانْتَهَضَ إِلَيْهِمْ أَبُو الْفَوَارِسِ دَلِيرُ بْنُ لَشْكُرُوَزَّ ، وَانصَرَفَ
هَذَا الْخَارِجِيُّ قَبْلَ وَصُولِ دَلِيرٍ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَمَدَحَهُ أَبُو الطَّيِّبِ ، وَأَنْشَدَهُ وَهُوَ فِي الْمِيدَانِ ،
فَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ بِمَرْكَبٍ ذَهَبٍ . وَلَسْنَا نَعْرِفُ سَبَبًا لِمَدْحِ أَبِي الطَّيِّبِ هَذَا الرَّجُلَ
(دَلِيرِ) ، وَلَمْ يَرِدْ فِي كِتَابِ التَّارِيخِ الَّتِي بَأَيْدِينَا ذَكَرَ هَذَا الْحَادِثَ ، وَلَا ذَكَرَ الْخَارِجِيَّ
الَّذِي ثَارَ بِالْكَوْفَةِ فِي سَنَتِهِ تِلْكَ . وَهَذَا مِمَّا يَجْعَلُنَا نَأْخُذُ الْحَذَرَ فِي الْقَطْعِ بِرَأْيِي ، وَالظَّاهِرُ
أَنَّ لِهَذَا الرَّجُلِ (دَلِيرِ) عِلَاقَةً بِالْمَشَاكِلِ الْعُلُويَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِلذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْكَوْفَةِ ، وَأَنَّهُ
كَانَ مِمَّنْ يَمِيلُونَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ، وَأَبُو الطَّيِّبِ ، فَإِنَّ نَفْسَ أَبِي الطَّيِّبِ ،
كَمَا رَأَيْتَ كَانَتْ نَفْسَ الرَّجُلِ الْمُنْتَصِرِ الظَّافِرِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ هُوَجِ الْعَوَاصِفِ سَالِمًا
غَالِبًا ، كَمَا مَرَّ بِكَ فِي قَوْلِهِ :

فَلَمَّا أَنْحَنَّا رَكَزْنَا الرِّمًا حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى

٢٧١ / أَقَامَ أَبُو الطَّيِّبِ بِالْكَوْفَةِ أَشْهُرًا ثُمَّ خَرَجَ مِنْ سَنَتِهِ تِلْكَ إِلَى بَغْدَادٍ فَنَزَلَ عَلَى
صَاحِبِ لَهْ هُوَ عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ الْبَصْرِيِّ ، (١) وَأَقَامَ عِنْدَهُ فِي دَارِهِ . وَبَيْنَ مَنْ نَزَلَ إِلَى الطَّيِّبِ
عَلَى هَذَا الْفَتَى دُونَ سِوَاهُ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، أَنَّهُ قَصِدَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدِي

بفعله ازدرائه لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد أيضاً أن يكون على مقربة من سياسة الدولة ، ليخبر الرجال الذين كانوا يُوقدون نار الفتنة إذ ذاك ، وليروّز ما عندهم . وهذا بين مما قدمناه قبل ، (١) من المراسلة التي كانت بينه وبين سيف الدولة . وبين أيضاً أنه كان متعالماً عند أهل السياسة في ذلك العهد أن أبا الطيب كان مقدّمه من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمى (صاحب الرسالة الحاتمى) : أن معز الدولة بن بويه الديلمى (ساءه أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه) ، يعنى سيف الدولة .

ثم إن أبا الطيب لم يقف أمره عند ذلك ، بل قد رغب إليه جماعة من أصحاب الوزير المهلبى أن يمدح الوزير ، فأبى عليهم أبو الطيب وجبّهم بأسوأ الرد . وكان السبب في سوء ردّهم أن أبا الطيب ، كما علمت ، لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الأعاجم الذين مزقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم - ونعنى منهم هنا بنى بويه - وكان المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وكان مشايعاً لهم في كثير . وعلى أن مشايعة الوزير المهلبى لبنى بويه كانت ، فيما نرى ، ارتفاعاً للرزق ، فإن أبا الطيب لم يعبأ به ، بل أغضى عنه تهاوناً وازدراءً . فأحفظ ذلك الوزير المهلبى ، فأسد عليه الأدباء والشعراء وأغراهم به ليغيظوه ويكيدوا له ، ويغلظوا / له القول في مجلسه . فكان ما رأيت قبل من هجائهم إياه ، وزعمهم أن أباه كان سقاءً بالكوفة ، كما ورد في الشعر الذى قدمناه في أول الأبواب .

ولا يفوتنك هنا أن تعلم أن التنوخى الذى روى قصة نسبه كان بالعراق لذلك العهد . وأيضاً أن ابن أم شيبان الهاشمى ، وأبا الحسن الزيدى العلوى كانا كذلك ببغداد . وقد رأيت في الباب الأول كلامنا عن هؤلاء وما ادّعوه من أن أباه كان سقاءً ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبى الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدو بنى بويه ، إذ كان من أصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخذهم لسره وآرائه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسى ومعز الدولة الديلمى (العلوى الفاطمى)

المذهب ، وازدراؤه لوزير معز الدولة (أبو محمد المهلبى) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له بإغراء المهلبى وغيره ، نقول : إن هذا كله ممّا يجعلك تستيقن فساد الروايات التى يرويها الرواة عن أمر المتنبى ، وخاصةً ما كان ظاهر التحامل ، بين الضغينة ... عفا الله عنهم !! لقد رموا الرجل بكلّ نقيصة ، ووضعوا لكل ما كان يتمدّح به فى شعره قصة تخالف ذلك : رأوا المتنبى يتمدّح بالكرم ويمدّح عليه ، فوضعوا القصص فى بُخله وشراسته على المال ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بها نفسه ، فوضعوا الأكاذيب فى حكايات جُبنه وخوره إلى غير ذلك من الأحاديث التى لا تصلح لتحقيق ولا ترجمة .

وبقى أبو الطيّب ببغداد مستهيناً بكل كيدٍ وحقدٍ ، وأخذَ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علىّ بن حمزة البصرى . ثم فرغ من أمره ورجع إلى الكوفة / فى أواسط سنة ٢٧٣ ٣٥٢ وبقى بها ، ولم يقل شعراً بلغنا ، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد ، وكان الوزير المهلبى قد مات .

والظاهر من أمر أبى الطيب أنّه حين بلغه وهو بالكوفة فى سنة ٣٥٢ موث « خولة » أخت سيف الدولة ، تمزّقت أحلامه ولم يبق له قلب يمدّه بالقوة والتدافع والثورة ، كالذى كان له من قبل ، واستيأس من أمره إلا قليلاً . فلما جاءه كتاب سيف الدولة فى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ يذكر العوائق التى تمنعه عن فتح العراق ، ويبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق والحُسر ، على ما قدمنا فى شرح قوله : (١)

« فهمتُ الكتابَ ، أبرّ الكُتُبَ فسمعاً لأمرِ أميرِ العربِ »

..... أُحِيطَ بِأَبِي الطَّيِّبِ ، وَأَسْلَمَتْ نَفْسُهُ قِيَادَهَا لِأَحْزَانِ قَلْبِهِ ، فَلَمْ يَحْمِلْ نَفْسَهُ عَلَى الرَّحْلَةِ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، لِقَلَّ يُذَكِّرُهُ الْمَكَانُ وَأَهْلُهُ ، بِمَكَانِ قَلْبِهِ وَالسَّكِينَةِ ، نَعْنَى « خَوْلَةٌ » ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْسَى هَمَّهُ بِقَصْدِ أَرْضِ غَيْرِ الشَّامِ الَّتِي يَتَلَقَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا فِي حَنِينٍ وَأَنْبِينٍ وَبِكَاءٍ .

وكان أبو الفضل بن العميد ، (١) وهو بالرى ، يخرج كل عام خَرَجَتَيْنِ إِلَى أَرْجَانِ ، فَبَلَغَهُ مَقْدَمُ الْمُتَنَبِّئِيِّ إِلَى بَغْدَادِ ، فَرَأَسَلَهُ ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي الْحَضُورِ إِلَيْهِ بِأَرْجَانِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ « كَانَ يَسْمَعُ بِأَخْبَارِ أَبِي الطَّيِّبِ ، وَكَيْفِيَّةِ اشْتِهَارِهِ فِي الْأَقْطَارِ ، وَتَرْفُوعِهِ عَنِ مَدْحِ الْوُزَرَاءِ ، فَسَمِعَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ / مَدِينَةِ السَّلَامِ مُتَوَجِّهًا إِلَى بِلَادِ فَارَسِ ، وَكَانَ يَخَافُ أَنْ لَا يَمْدَحَهُ ، وَيَعَامَلَهُ مَعَامَلَةَ الْمُهَلَّبِيِّ = فَيَتَكَّرَهُ مِنْ ذِكْرِهِ ، وَيَعْرُضُ عَنْ سَمَاعِ شِعْرِهِ » . وَالصَّحِيحُ مِنْ هَذَا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ كَانَ يَخَافُ أَنْ لَا يَعْأَ بِهِ الْمُتَنَبِّئِيُّ ، فَرَأَسَلَهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاضِلِهِ . فَمَضَى أَبُو الطَّيِّبِ فِي سِيرِهِ مِنْ بَغْدَادِ إِلَى أَرْجَانِ يَصْحَبُهُ تَلْمِيذُهُ عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ الْبَصْرِيَّ . قَالَ عَلِيُّ هَذَا : « فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهَا (أَبُو الطَّيِّبِ) ، وَجَدَهَا (يَعْنِي أَرْجَانِ) ضَيْقَةَ الْبُقْعَةِ وَالذُّورِ وَالْمَسَاكِنِ ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ : تَرَكْتُ مَلُوكَ الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَعَبَّدُونَ لِي ، وَقَصَدْتُ رَبَّ هَذِهِ الْمَدْرَةِ !؟ فَمَا يَكُونُ مِنْهُ !! ثُمَّ وَقَفَ بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ وَأَرْسَلَ غَلَامًا لَهُ عَلَى رَاكِلَتِهِ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ : مَوْلَايَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيُّ خَارِجَ الْبَلَدِ - وَكَانَ وَقْتُ الْقَيْلُولَةِ ، وَهُوَ مَضْطَجِعٌ فِي دَسْتِهِ - فَثَارَ مِنْ مَضْجَعِهِ ، وَاسْتَبْتَبْتَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ حَاجِبَهُ بِاسْتِقْبَالِهِ ، فَرَكِبَ وَاسْتَرْكَبَ مِنْ لَقِيهِ فِي الطَّرِيقِ ، فَفَصَلَ عَنِ الْبَلَدِ بِجَمْعٍ كَثِيرٍ ، فَتَلَقَّوهُ وَقَضَوْا حَقَّهُ وَأَدْخَلُوهُ الْبَلَدَ . فَدَخَلَ عَلَى أَبِي الْفَضْلِ فَقَامَ لَهُ مِنَ الدَّسْتِ قِيَامًا مُسْتَوِيًا ، وَطُرِحَ لَهُ كُرْسِيُّ عَلَيْهِ مِخْدَةٌ دِيْبَايَجَ ، وَقَالَ أَبُو

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي ، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان ، وكان من أئمة الترسل ، وقد سمي بالجاحظ الثاني ، وكان من دهاة السياسة وتدير الممالك .

الفضل : كُنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب » ، وكان دخول أبى الطيب أرجان ولقاؤه ابن العميد فى شهر صفر سنة ٣٥٤ .

كان أبى العميد من رجال عصره فى السياسة وتدير الملك ، ومن شيوخهم فى العلم والفلسفة وما إليهما ، ومن أفذاذ البلغاء والأدباء ، وكان أمةً وحده . فلا عجب أن يحتفل له ببيان أبى الطيب احتفالاً عظيماً فى أول اللقاء ، فيمدحه بقصيدته المشهورة : « بادِ هَوَاكَ صَبْرَتْ أُمُّ تَصْبِرًا » ، والتي يقول فيها يصف أبى العميد :

٢٧٥ / مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنْتَى بَعْدَهَا جَالَسْتُ رِسْطَالِيْسَ وَالْإِسْكَانْدَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرًا
وَلَقَيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ الْإِلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا

وأكرمه أبى العميد واحتفل له ، فبقى عنده المتنبى شهرين أو أشف قليلاً ، وكان المتنبى ، وهو فى جوار ابن العميد ، لا يزال يُعاوده همُّ قلبه ويغلبه اضطرابُ نفسه ، فكان ذلك فى شعره ، ولكنه كان يتأسك على الضعف ، ولا يعطى المقادة إلا مقهوراً . وقد وقع ذلك فى قصيدته التى مدح بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد إلى هذا الاضطراب فى شعر أبى الطيب . رَوَوْا أَنَّهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ :

بَادِ هَوَاكَ ، صَبْرَتْ أُمُّ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاءَ ، إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَأَيْتَسَامُكَ صَاحِبًا لَمَّارَاكَ وَفِي الْحَشَا مَا لَا يُرَى !!

فقال له ابن العميد : يا أبا الطيب ، أتقول : « بادِ هَوَاكَ ، ثم تقول بعده : كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ » ؟ ما أسرع ما نقضت ما ابتدأت به !! فكان جوابُ أبى الطيب : « تلك حال ، وهذه حال » . وهذا هو ما نقول به فَإِنَّ أبا الطيب كان يذكر « خولة » أحياناً فلا يُخْفِي هَوَى ، ولا يَرُدُّ دَمْعًا ، وتنطلق عواطفه من عقال رجولته ، فإذا ما ارتدَّت إليه قُوَّتُه وإرادته ، رَدَّ ذلك برجولته وأبدى الصَّبْرَ ، وأظهر الابتسامَ والرضى . وهذه حالة من أحوال الحُبِّ الطاغى المسيطر ذى السلطان والغلبة . وظهورها فى شعر أبى الطيب فى بيتين

متعاقبين ينقضُ معنى أحدهما معنى الآخر ، كما قال ابن العميد ، دليلٌ على أن الرجل كان أحياناً في أسر الهوى لا يملك نفسه ، ولا يجِدُ في تناقضِ معانى البيتين شيئاً . وذلك لأن هذا التناقض الذى نراه فى معانى شعره ، يكون عنده اتساقاً فى معانى / عواطفه وحبه ، وتعبيراً بليغاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه ، ... فهذا قوله : « تلك حال ، وهذه حال » .

وَأَنْظُرُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ حِينَ وَدَعَ ابْنَ الْعَمِيدِ قَالَ : [سنة ٣٥٤] :

وَمَنْ لِي بِيَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ كَرِهْتُهُ ، قَرَّبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ
 (وَأَلَّا يَخُصَّ الْفَقْدُ شَيْئاً ، .. لِأَنِّي فَقَدْتُ ، فَلَمْ أَفْقِدْ دُمُوعِي وَلَا وَجْدِي)
 تَمَنَّيَ يَلْدُ الْمُسْتَهَامُ بِذِكْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي فَنِيلاً وَلَا يُجْدِي
 وَغَيْظٌ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَا ، وَلَكِنَّهُ غَيْظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدِّ
 فَإِمَّا تَرَيْنِي لَا أَقِيمُ بِلَدَةٍ ، فَافَّةٌ غَمْدِي فِي دُلُوقِي مِنْ حَدِّي (١)

وهذه الإشارة التى فى البيت الثانى بقوله : (لأننى فقدتُ ...) ، هى إلى صاحبتة « خولة » التى ماتت فى سنة ٣٥٢ ، فلم ينسها بل بقى مضطرباً مغلوباً على أمره لا يستطيع الصبر تارة فتغلبه دموعه ، ويتحاملُ أخرى بصبره فينطوى على وجدته ولوعته ، والنار التى فى حشاهُ .

(١) « الدلوق » ، سرعة انسلال السيف وخروجه من غمده . يقول : إن رأيتنى منزعجاً لا أقيم ببلدة ، فإن ذلك لمضائى كالسيف الحاد ، تخرجه حدة حده ، فينزلق فيخرج بغتة من غمده .

 مَعَانِي الشُّعْبِ طِيْباً فِي المَعَانِي
 بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
 وَلَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا
 غَرِيبُ الوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
 مَلَاعِبُ جَنَّةٍ ، لو سَارَ فِيهَا
 سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ
 إِذَا غَنَّى الحَمَامُ الوُرُقَ فِيهَا
 أَجَابَتْهُ أَغَانِيُ القِيَانِ
 وَمَنْ بِالشُّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ
 - إِذَا غَنَّى وَنَاحَ - إِلَى البَيَانِ
 وَقَدْ يَتَقَارَبُ الوَصْفَانِ جِدًّا
 وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتْبَاعِيَانِ

- ٢٧٧ / وَرَدَ عَلَيَّ أُمِّي الطَّيِّبِ - وَهُوَ عِنْدَ ابْنِ العَمِيدِ - كِتَابٌ مِنْ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بِشِيرَازَ
 يَسْتَزِيرُهُ وَيَطْلُبُ مِنْهُ المَسِيرَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِأُمِّي الطَّيِّبِ رَغْبَةٌ تَحْمَلُهُ ، فَلَمْ يَخْفَ إِلَى
 اسْتِدْعَائِهِ . فَكَلِمَةُ ابْنِ العَمِيدِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي وَلِلدَّلِيمِ ؟ فَقَالَ لَهُ : عَضُدُ الدَّوْلَةِ
 أَفْضَلُ مِنِّي ، وَيَصِلُكَ بِأَضْعَافٍ مَا وَصَلْتُكَ بِهِ . فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ : « إِنِّي مُلَقِّي مِنْ
 هَؤُلَاءِ المَلُوكِ ، أَقْصِدُ الوَاحِدَ بَعْدَ الوَاحِدِ ، وَأَمْلِكُهُمْ شَيْئاً يَبْقَى بَقَاءَ النَّيِّرِينَ ، وَيُعْطُونِي
 ٢٧٨ عَرَضاً فَانِياً وَلي ضَجْرَاتٌ / وَاخْتِيَارَاتٌ ، فَيَعْقُونَنِي عَنْ مُرَادِي ، فَأَحْتَاجُ إِلَى
 مَفَارِقَتِهِمْ عَلَيَّ أَقْبَحُ الوَجْوهِ !! » (١) فَكَاتَبَ ابْنُ العَمِيدِ عَضُدَ الدَّوْلَةِ بِهَذَا الحَدِيثِ ، فَوَرَدَ

(١) أَعَدَّ قِرَاءَةَ هَذَا النِّصِّ . فَإِنَّهُ مَلَىءُ بِإِشَارَاتٍ كَثِيرَةً تَطَابِقُ أَكْثَرَ الَّذِي قَلَنَاهُ فِي هَذَا الكِتَابِ .

الجواب بأنه مُملِكٌ مُرادَه في المُقَامِ والظَّنن . فسار المتنبى من أَرَجَان ، فلمَّا كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عَضُدُ الدَّوْلَةِ بأبى عُمَرَ الصَّبَّاح ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشدُه ، فقال المتنبى : النَّاسُ يَتَنَاشِدُونَ ، فَاسْمِعْهُ . (١) فأخبره أبو عُمَرَ أنه رُسِمَ له ذلك من المجلس العالى . ثم دخل البلد ، فَأَنْزَلَ داراً مفروشةً ، وأنشدَ أبا عمر قصيدته التى قالها في الكوفة ، والتى قال فيها ، [انظر ما سلف : ٣٦٩ ، ٣٧٤] .

فَلَمَّا أَنْخَنَّا رَكَزْنَا الرُّمَّا حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَى
وَبِتْنَا نُقْبَلُ أَسْيَافَنَا ، وَنَمْسُحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ، وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ ، أَنَّى الْفَتَى
(وَأَنَّى وَفَيْتُ ، وَأَنَّى أَيْتُ ، وَأَنَّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده هذه الأبيات ، فقال عضد الدولة : « هَوْنَا يتهَدِّدنا المتنبى !! » .

ويبين مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يحقر الأعاجم ويبغضهم لما أصابوا به قومه من البلاء ، وكان استعصاؤه على ابن العميد وجدَّالُه معه في الرحلة إلى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسى ، ومن أجل أن هؤلاء ، بنى بُويّه ، كانوا أعداءً صاحبه سيف الدولة = ومن أجل أنهم كانوا من / شيعة العلويين الفاطميين الذين لا يرضى عنهم أبو الطيب ولا سيف الدولة = ومن أجل أنه يعلم أن مديحَه فيهم سيبقى لهم ذكراً خالداً في شعره ، وهم له أعداءٌ ، ولكن الرجل ، كما علمت قبل ، كان مضطرباً قد داخله اليأس واستبدَّ به ، فسار وهو يقول :

وَأَيَّا شِعْتِ يَا طُرُقِي فَكُونِي ، أَذَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكَا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشدُه كأنه يختبر شعره ، لم يصبر المتنبى فرماه بقوله : « النَّاسُ يَتَنَاشِدُونَ ، فَاسْمِعْهُ » ، إذ كان شعره قد سارَ مسير النيرين الشمس والقمر ، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة ، غضب

(١) أعد قراءة هذه الجملة مرَّاتٍ ، فإنَّ في ضميرها حقيقة أبى الطيب .

لنفسه ولعريته ولشعره ، فاختار من قصائده قصيدةً فيها ذكر ظفره بمراده ، وفلججه على الخصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافرٍ الذى كان عنده قبل أن ينزل على عضد الدولة ، لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلةً لإساءة عضد الدولة بإساءةٍ مثلها . ولذلك لما سمع عضد الدولة :

« وأنى وفيتُ ، وأنى أُييتُ ، وأنى عتوتُ على من عتا »

عرف مراد المتنبى فقال : « هوناً يتهددنا المتنبى !! » .

ويين أن هذا اللقاء الأول ، وضع بين أبى الطيب وعضد الدولة أسباب الحذر والاحتراس ، فكان أحدهما يتملق الآخر خوف البغى والعدوان . ولا شك أن عضد الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسى ، أبى الطيب ، كثيراً ، وكان يُرصد عليه العيون والرقباء على أن أمر أبى الطيب ، كان / بيناً ، فإنه حين حضر سباط عضد الدولة بعد أيام من مقدّمه عليه ، أنشده قصيدته التى أولها ، [سنة ٣٥٤] :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّباً فِي المَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ ، وَالْيَدِ ، وَاللِّسَانِ
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ ، لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

فهذا هجاء بين لأرض فارس وأهلها . فقد زعم أن سليمان عليه السلام = الذى علم منطلق الجن والطيور والحشرات والبهائم = لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان ، فأخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ! وأنه = من هوانهم على الله ، وقتلهم فى الأرض = لم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على مثل عضد الدولة . ولم يكتف أبو الطيب بذلك ، بل أتبع هذا قوله بعد :

إِذَا غَنَى الْحَمَامُ الْوُزُقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَانِي الْقِيَانِ
(وَمَنْ بِالشَّعْبِ ، أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ - إِذَا غَنَى وَنَاحَ - إِلَى الْبِيَانِ)

فتمَّ المعنى وأبان مقصده من الأبيات الأولى ، إذ جعلهم أقل منزلةً من الطير في البيان والإفصاح . ولم يكتف أيضاً بهذا ، بل أراد أن يُعلمَ عضد الدولة ، أن هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح إليه ، وليست بالأرض التي تحرِّصُ عليه أو يحرصُ عليها ، وأنه غريبٌ عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئاً ، وأنه عربيٌّ ليس بأعجمي يميل إليهم أو يكون له شأنٌ بينهم ، فقال :

وَلَكِنَّ (الْفَتَى الْعَرَبِيَّ) فِيهَا (غَرِيبُ الْوَجْهِ ، وَالْيَدِ ، وَاللِّسَانِ)

فكُلُّ ما قال أبو الطيب في مديح هذا الديلمي (عضد الدولة) ليس / من قلبه ولا من نفسه . وشعره بين الدلالة على أن الرجل كان يقول مُتَكَلِّفاً بعد أن أُخرج بمقدمه عليه . وقد فطن عضد الدولة إلى كُلِّ هذا ، فقد كان أديباً شاعراً جيداً القريحة ، وقال :

« إن المتنبى كان جيِّدَ شعره بالعُربِ » (يعنى غرب فارس) ، ويُشير بذلك إلى عدوِّه سيف الدولة خاصةً . وبلغت المتنبى مقالة عضد الدولة فقال : « الشعرُ على قدرِ البقاع » وهذا تصريح بليغ ، ولا شك أن عضد الدولة أُخبر بقول المتنبى هذا .

ولم يكن كل ذلك مما يمنع هذا الملك المدبِّرَ عضد الدولة الديلمي = الذي وصلَ بدهائه وسياسته وحسن تدييره أن كان أوَّلَ من حُوطب بالملك في الإسلام ، وأوَّلَ مَنْ حُطِبَ لَهُ على المنابر بعد الخليفة = من أن يكسو أبا الطيب من نعمته ، ويُغرِّقه بِنَدَاهُ وكرمه . فإنهم يروون أنه حين أنشده : « مغاني الشعب » ، حمل إليه من أنواع الطيب في الأردية والأمان ، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد إليه فرسه الملقب بالمجروح = وكان قد اشترى له بخمسين ألف شاةٍ = وبدرةٍ دراهمها عدلية ، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل ، وعمامة قومت بخمسمئة دينار ، ونصلاً هندياً مرصع النجاد والجفن بالذهب .

هذا ، وقد كان الجمال الطبيعي ، الذي مَسَحَ اللهُ به بلاد فارس ، ممَّا أراح نفس أبي الطيب وأراح همَّها قليلاً ، فكان شعره الذي مدح به عَضُدُ الدولة مقارباً ليس فيه اضطرابٌ بين ، أو أثرٌ ظاهرٌ من داءِ قلبه ، إلا في أبياتٍ قلائل . ولم يظهر في شعره ذلك ، لأن مُدَّةَ إقامته هناك كانت قليلة ، فإنه بقي بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الآخر إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤ .

/ولكن ظهر همُّ أبي الطيب واستعلن ، وعادت إليه ذكرى « خولة » وموتها ، وذكر
٢٨٢ آماله ومغامرته وجرأته ، حين توفيت عمَّة عضد الدولة ، فرثاها بقصيدةٍ ليس فيها شيءٌ
إلا هذه الأبيات ، [سنة : ٣٥٤] :

لا تُقَلِّبُ الْمُضْجَعِ عَن جَنْبِهِ	لَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ
وَمَا أذَاقَ الْمَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ	يَنْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُجْبِهِ ،
نَعَافُ مَا لَا بَدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!	نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى ... ، فَمَا بَالُنَا
عَلَى زَمَانِ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ !!	تَبَخَّلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا
وهذه الأجسامُ مِنْ تُرْبِهِ !!	فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهِ ،
حُسْنُ الَّذِي يَسْبِيهِ ، لَمْ يَسْبِهِ ((لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى
فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ	لَمْ يَرُ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ ،
مِثَّةَ جَالِيُنُوسَ فِي طَبِّهِ	يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ ،
وزاد في الأمنِ عَلَى سِرْبِهِ	وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمَرِهِ ،
كعَايَةِ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ	وَعَايَةَ الْمُفْرِطِ فِي سَلْمِهِ ،
فُوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ	فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ

ففي هذه أثرٌ بين لتفكير أبي الطيب في الموت ، بعد الذي لقي من فقد
« خولة » ، كما بيناه في مواضع .

 لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجَعَةٍ
 لَا تَقْلِبُ الْمُضْجَعِ عَنْ جَنْبِهِ
 نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا
 نَعَاؤُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!
 يَمُوتُ رَاعِي الضُّأْنِ فِي جَهْلِهِ
 مَيْتَةً جَالِينُوسَ فِي طَبِّهِ
 وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُنُقِهِ
 وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ
 وَغَايَةَ الْمُفْرِطِ فِي سَلْمِهِ
 كَغَايَةَ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ
 فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ
 فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ

- ٢٨٣ / أشرنا قبلُ إلى أن الرجلين (أبا الطيب وعضد الدولة) ، كانا يتخادعان ، وأنهما
 كانا في الباطن عدوين لا يأمن أحدهما جانب صاحبه ولا غدرته ولا سوء المنقلب . ويُبينُ
 لك عن هذا أن أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له ، كما رأيت ، لم يستطع القرار بأرض
 فارس أكثر من ثلاثة أشهر ، ولولا ما أشرنا إليه لأستطاب أبو الطيب المكان الذي وجد
 فيه غاية الإكرام ، والمال الكثير المبدول ، والعطايا السابعة الكريمة . وهو مع ذلك دليلٌ
 على أن أبا الطيب ليس من الطمع والحرص على المال بالمنزلة التي يذكرونها بها ، / ويتابعهم
 ٢٨٤ عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين
 وقضية هذه العداوة بين أبي الطيب وبنى بويه الدئليين قضية معقدة طويلة ، ولها
 في التاريخ الإسلامي والعربي أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا ونجعلها في وجهين قريين :

فالأول منهما : ما عُرف عن أبي الطيب من بغضاءِ الأعاجم على ما فصلناه في

مواضع .

والآخر : هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية ، والدعوة العلوية ، والدعوة الفاطمية والدعوة القرمطية ... وهذه هي أكبر مشاكل التاريخ الإسلامي ، وخاصة في هذا العصر الذي كان المتنبى أحد رجاله الأفاضل .

كان العلويون يريدون إخراج سلطان الخلافة من يد العباسيين إلى أيديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعاة العلويون أن يحزموا أمرهم ، ويجمعوا إليهم رؤوس الدولة فيكونوا من شيعتهم . وكان من شيعة العلويين ، ممن نذكرهم هنا ، بنو بويه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغلبيون . ثم غلبت على بنى بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاملين عليها في المشرق ، واستعصى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بنى بويه علويةً أعجمية ، وكانت سياسة بنى حمدان علويةً عربية . فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة وضراً وضراً ما كان من استجابة بنى بويه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء بنى حمدان عليها ومناواتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بويه يعلمون أن بنى حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الديلمية الأعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية ، / وأنهم يعملون على نقضها . وكان دليل ذلك عندهم مناصرة بنى حمدان للخلافة العباسية ، مع أنهم من رؤوس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بويه أن هذه المناصرة إنما يراد بها إزاحة بنى بويه عن مواضعهم من العراق ، وإبعادهم عن مقر الخلافة .

٢٨٥

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته في اتخاذ العدة واستجلاب العدد ، وتهيئة أمره لفتح العراق ، على ما ذكرناه ، استحرت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة ، وهو رأس بنى حمدان ، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهماً . وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قبلاً في سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان أبو الطيب ، كما علمت ، من المقرّبين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهبه في السياسة ، وأن هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حذره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقي له (عدواً مداجياً) . وقد كان أبو الطيب ، فيما ذهبنا إليه ، علوياً منكوباً في نسبه ، فليس بمستنكر أن يُراد به ، من قبل العلويين ، ما أريد به من قبل وهو بطبرية سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويون عبيدهم السودان ليقتلوه ، [انظر ما سلف : ١٥٥ ، والتعليق : ١] فيكون من ذلك أن يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة في إيذاء الرجل والنيل منه . وأيضاً ما كان الدعاة الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولاً ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من « نسل اليهود » ، كما قدمنا في خبر نبوته ، إذ قال : [انظر ما سلف : ٢١٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٩] :

« فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ (بِعَجَلِ الْيَهُودِ) »

٢٨٦ / يريدُ (بعجل اليهود) أحد الدعاة الفاطميين . ولعل الذي جعل الفاطميين يكيّدون له ، سعاية الأسود الخصى كافور ، فإنه كان قد بذل أموالاً في طلب المتنبى حين مخرجه من مصر قبل هجائه له ، فلا عجب أن يبذل أكثر من ذلك بعد أن يبلغه الهجاء المفضّع المفرع ، وما فيه من السخرية والتمثيل به كقوله :

(وَأَسْوَدُ ، مَشْفَرُهُ نِصْفُهُ) يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به ، كقوله ، [سنة ٣٤٩] :

أَلَا فَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولُ شُكُوكُ النَّاسِ وَالثُّهْمُ
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مَنْ دَيْنُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقَدَمُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا

وقد كان كافور ، كما قدمنا ، على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً ، يخادعهم ويداجيهم معاً ، فليس بعيداً أن يكون هو الذي حمل الفاطميين الذين بالعراق على الإِرْصَادِ لأبي الطيب ، وأن يكون بذل مالا كثيراً للانتقام منه .

والظاهر أن عضد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذي يُكادُ به أبو الطيب ، ففضل أن يرفع يده عن دمه ، فأغرى بعض أتباعه بأن يُوقع في نفس أبي الطيب شيئاً من الخوف والرعب ، فيخف أبو الطيب للرحلة عن شيراز ، ويتعد عن دياره ليلقى حتفه في مكانٍ آخر . ولذلك « استأذنه المتنبى في المسير عن شيراز ليقضى حوائج في نفسه ثم يعود إليه » . وكان هذا من أبي الطيب ضرباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلما عزم الرحلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زاده كرامةً ليوقع في نفسه أنه مُصدِّقه ، « فأمر أن تُخلع عليه الخلع / الخاصة ، وتُعاد صلته بالمال الكثير » ، ويقيننا أن أبا الطيب حين وجد ذلك ، من إكرام عضد الدولة له ، وكان قد بلغه طرف من أخبار الكيد الذي يُكادُ به ، عَرَفَ ما يريدُه عضد الدولة وما يُراد به ، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها = وهو مفارق له في أوّل شعبان سنة ٣٥٤ = إشاراتٍ كثيرة ، منها قوله :

وَمَنْ يَظُنُّ (نثر الحبّ جوداً ، وَيَنْصِبُ تَحْتَ ما نثر الشباكا)

وهذا المثل ، هو مثل لما تراه قبل من أمر عضد الدولة . ثم انظر إلى يأس أبي الطيب وقد علم أنه قد أُحيط به ، وأنه مقتولٌ لا محالة إذ يقول :

« وَأَيُّ شَيْءٍ يَا طُرُقِي فَكُونِي ، أذاةً ، أو نَجاةً ، أو هَلَاكًا »

« وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ، يَعُودُ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ آمِتْسَاكًا »

فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دَيْرِ العاقول - وهي ضيعة بالعراق - اجتمعت عليه بنو أسدٍ وبنو ضبّة ، فقتلوه وقتلوا غلمانَه وقتلوا ولده محسداً . وقد قدمنا لك أنّ سيف الدولة كان قد أوقع بعمر بن حابس من بني أسدٍ ، وبنو ضبّة ، وبنو رياح من بني تميم ، وذلك في سنة ٣٢١ ، وقد هجاهم أبو الطيب في مدحه لسيف الدولة في تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً في أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بني أسدٍ وبنو ضبّة (١) قال أبو الطيب لسيف الدولة ، وذلك قديماً في سنة ٣٢١ :

(١) انظر ما سلف ص : ٢١٥ - ٢١٨ .

٢٨٨ / مَهْلًا أَلَا لِلَّهِ مَا صَنَعَ الْقَنَا فِي «عَمْرُو حَابٍ» وَ «ضِبَّةِ الْأَغْتَامِ»

يريد عمرو بن حابس من بنى أسد .

لَمَّا تَحَكَّمَتِ الْأَسِنَّةُ فِيهِمْ جَارَتْ ، وَهَنَّ يَجْرَنَ فِي الْأَحْكَامِ
فَتَرَكْتَهُمْ خَلَلَ الْبُيُوتِ كَأَنَّمَا غَضِبْتَ رُؤُسَهُمْ عَلَى الْأَجْسَامِ
أَحْجَارُ نَاسٍ فَوْقَ أَرْضٍ مِنْ دَمٍ ، وَنَجُومٌ بَيِّضٌ فِي سَمَاءِ قَتَامِ
وَذِرَاعُ كُلِّ أَبِي فَلَانٍ كُنْيَةً حَالَتْ ، فَصَاحِبُهَا أَبُو الْإِيْتَامِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ بَنِي أُسَيْدٍ وَبَنِي ضِبَّةِ هُوَئِلَاءِ كَانُوا مِنْ شِيعَةِ الْعُلُوِيْنَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا
قَدْ انْحَازُوا إِلَى الْأَعَاجِمِ مَخْدُوعِينَ ، وَصَارُوا بَعْدَ مِنْ شِيعَةِ بَنِي بُؤَيَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ . وَلَيْسَ
يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ كَافُورٌ هُوَ الَّذِي أَمَدَّهُمْ بِالْمَالِ لِيَقْتُلُوا الرَّجُلَ ، وَتَوَسَّطَ لَهُ فِي ذَلِكَ أَصْحَابُهُ
مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوْ الْفَاطِمِيِّينَ .

هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ . أما
ما يروونه من السخف في حكاية مقتله بسبب القصيدة التي أولها :

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضِبَّةً وَأَمَّهُ الطُّرْطُبَةَ
وَإِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ رَحْمَةً لَا مَحَبَّةَ

..... إلى آخر الفحش القبيح الذي ورد بها ، فلنا في نقده ونقضه وجوه لا نطيل

القول بها هنا ، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد ورد أن سبب قتله : « أنه
لَمَّا وَرَدَ عَلَى عَضْدِ الدَّوْلَةِ وَمَدْحِهِ ، وَصَلَهُ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَثَلَاثَةِ أَفْرَاسٍ مُسْرَجَةٍ
مُحَلَّاةٍ بِالذَّهَبِ ، ثُمَّ دَسَّ لَهُ مِنْ يَسْأَلُهُ : أَيْنَ هَذَا الْعَطَاءُ مِنْ عَطَاءِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ؟ فَقَالَ

أبو الطيب : « إِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ / كَانَ يُعْطَى طَبْعاً ، وَعَضْدُ الدَّوْلَةِ يُعْطَى تَطْبَعاً » ٢٨٩

فَبُلِّغَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَغَضِبَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ أَرْضِهِ ، جَهَّزَ إِلَيْهِ قَوْمًا مِنْ بَنِي ضِبَّةٍ فَقَتَلُوهُ ،
بَعْدَ أَنْ قَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا ثُمَّ انْهَزَمَ ، فَقَالَ لَهُ غَلَامُهُ أَيْنَ قَوْلُكَ :

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

فقال : قَتَلْتَنِي قَتَلَكَ اللهُ ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ » ، فمثل هذه الرواية لها تأويل
وسياق فيما قدمناه لك .

وَرَحِمَ اللهُ أبا الطيب إذ يقول :

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْتَةٍ وَذُهُوبِ
تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَالِبٍ ، وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ

وَأَنْتِ يَا أبا الطيب

فَدَتِكَ نُفُوسُ الحَاسِدِينَ ، فَإِنَّهَا مُعَذَّبَةٌ فِي حَضْرَةِ وَمَغِيبِ
وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرِيبِ

أبو فِهْر

محمود محمد شاكر

٣ شوال سنة ١٣٥٤

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥

قَضِيَّةُ الْمَتَّبِي
وَأَرْبَعُ تَرَاجِمٍ لَمْ تُنْشَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه ونعمه ، والصلاة والسلام على صفوته من خلقه محمد رسول الله ، وعلى أبويننا إبراهيم وإسماعيل ، وعلى سائر رُسُلِهِ إلى عباده .

وبعد ، فهذا ما كنت كتبتُه قديماً في صحيفة « البلاغ » بعنوان « بينى وبين طه » ، وكان غرضي أن أكشف الحقيقة التي انطوى عليها كتاب الدكتور طه حسين « مع المتنبي » . كتبتها يومئذ والدكتور طه حسين حيٌّ بعد ، يستطيع أن يرُدَّنِي إن جُرَّتْ عن الحقِّ ، أمَّا اليوم فأنا أعيدُ نشرها بعد أن فارقنا ، غفر الله لنا وله ، ويستقبلها جيلٌ لم يشهد تلك الأيام ، وهي عندهُ خبرٌ من الأخبار . ولم أنشرها على ما كتبت عليه يومئذ ، إلا لأنها أصبحت تاريخاً يُروى ، ولأنها تتضمنُ تفصيلاً كثيراً عن أشياء ذكرتها في كتابي ، يبينُ بها الفرقُ بين منهجي في دراسة الشعر والشعراء ، وبين منهج غيري ممن كتب سيرهم ، أو فسّر شعرهم ، كما أشرت إليه في المقدمة الأولى . ثم ضممتُ إليها ما كتبتُه في مجلة « الرسالة » يومئذ عن « نبوة المتنبي » ، وردَّ أخى وصديقي الأستاذ الجليل سعيد الأفغانى إلى أن انقطع القول بينى وبينه ، / لأنه أيضاً رواية تاريخ ، وإبانة عن منهج . ثم لم أثبت شيئاً مما كتبت عن كتابي هذا مما فيه ثناءٌ عليه ، لقلّة انتفاع هذا الجيل به ، إلا كلمةً واحدةً أثبتتها ، لا لما فيها من ثناءٍ ، بل لأن صاحبها كانَ أستاذى وصديقى ، ولأن وفاته كانت أحد الأسباب الداعية إلى ترك الاستمرار في نقد كتاب الدكتور طه ، رحم الله الراحل ، وغفر له ولنا جميعاً .

ثم ألحقت بهذا التاريخ أربع تراجم للمتنبي لم تُنشر ، لأن الكتب التي نُقلت عنها لم تزل مخطوطة ، ولأن فيها شيئاً جديداً كثيراً عنه ، لم يقع لي ولا لأحدٍ قبلي . وقد بينتُ

أمرُ أولاهنَّ في مقدمة هذه الطبعة الثانية ، وأما التراجم الثلاث الأخر ، فقد بينتُ أمرهنَّ في مقدمة الطبعة السابقة . وكان الفضلُ كلُّ الفضل في الوقوف على هذه التراجم الثلاث الأخيرة ، مصروفاً إلى أخى وصديقى الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، نقل بعضها قديماً بخطه ، وصوّر لي بعضها . وشكرى له لا يفي بقليل كرمه ، فكيف بالكثير الذى غمرنى به آسياً ومواسياً فى كلِّ ضراءٍ لحقتنى ، أو آتياً ومواتياً فى كلِّ سرِّاءٍ زادها بهجةً إسراعهُ إلىَّ وهو أنا ، وأنا هو ؟ أطال الله بقاءه ونفع به .

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة :
٣ شارع الشيخ حسين المرصفي
السبت : ١٥ رجب ١٣٩٧
٢ يولييه ١٩٧٧

پینی و بین طہ

إِنَّمَا أَنفُسُ الْأُنَيْسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارِسُنَ جَهْرَةً وَأَغْتِيَالاً
مَنْ أَطَاقَ التَّمَامَ شَيْءٌ غِلَاباً
وَأَغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤلاً
كُلُّ غَاذٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الْعُضُنْفَرُ الرَّبُّبَالاً

/ نشر الأستاذ الجليل ، عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية ، الدكتور طه ١١/٢
حسين بك كتاباً سماه « مع المتنبي » ، ولدته المطبعة وفيه سبعمئة صفحة وإحدى عشرة
صفحة ، كلها جيد النسق ، جميل الرونق ، لو تمنى عالم عَزَبٌ لَأَلْقَى في أمنيته أن يكون
له بعدادها ولَدٌ يحملون عنه العلم من جيل إلى جيل .

وقد عشت مع المتنبي زمناً يطول أو يقصر ، كما عاش معه الدكتور الجليل ،
وكتبت عنه كتاباً متواضعاً في مئة وسبعين صفحة من القطع الكبير ، نشره المقتطف في
أول شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، لذكرى ألف مضت على مقتل أبي الطيب ، كما كتب
عنه الدكتور الجليل كتاباً فخماً ، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في شهر يناير سنة
١٩٣٧ .

١٢/٢ فمن حق المتنبي عليّ أن أقرأ ما كتب عنه الدكتور طه وغير / الدكتور طه ، كما
أنه من حقّ نفسي عليّ أن أضع التاريخ في موضعه الذي أرّخته به دورة الفلك ، فإن
التاريخ لا يصلح معه الأدب الذي أدبنا به الله تعالى في قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ

لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، والله بما تعملون خبيرٌ ([سورة المجادلة : ١٢] ، فوالله إنا لنفسح للدكتور الجليل في مجالسنا حتى يبلغ الغاية التي هو لها أهل ، وعلى وُدِّنا أن نفسح له في التاريخ أيضاً لولا أن التاريخ « يحتج بشدة » .

فبينى وبين الدكتور الجليل أمران جليلان أيضاً : أولهما ما يقوله هو عن المتنبى ، وآخر الأمرين ما يقوله كتابى الذى نشر فى يناير سنة ١٩٣٦ ، وكتابه الذى نشر فى يناير سنة ١٩٣٧ . ففى أولهما حديثٌ رويناها : « أن إبراهيم النظام المعتزلى قال لرجل : أتعرف فلاناً المَجُوسِيَّ ؟ قال : أجل ، أعرفه ، ذاك الذى يَحْلِقُ وَسَطَ رَأْسِهِ مِثْلَ الْيَهُودِ . فقال النظام : لا مَجُوسِيًّا عَرَفْتُ ، ولا يَهُودِيًّا وَصَفْتُ » = (والنصارى لا اليهود هم الذين يخلقون وسط رؤوسهم) = وفى آخرهما خبران رويناها ، أحدهما عن الرياشى فيقول : كان الفرزدق مَهِيئاً تخافه الشعراء ، فمرَّ يوماً بِالشَّمْرَدَلِ وهو ينشد قصيدته حتى بلغ إلى قوله :

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعاً وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ ، غَيْرُ حَزِّ الْغَلَّاصِمِ

فقال له الفرزدق : والله يا شَمْرَدَلُ ، لتتركنَّ هذا البيت أو لتتركنَّ / عِرْضَكَ ! (يتوعده بالهجاء) . فقال الشمردل : تُحْذُهُ عَلَى كُرْهِ مَنِّي يَا أَبَا فِرَاسِ ! فهو اليوم فى قصيدته :

* تَحِنُّ بَزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي *

قال الرياشى : وكان الفرزدق يقول :

« خَيْرُ السَّرْقَةِ مَا لَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ »

يريد سرقة الشعر ، لا يجب فيها قطع يد السارق .

= والخبر الآخر عن الضحاك الفُقَيْمِيَّ قال : « بينا أنا بكأظمة ، وذو الرُّمَّةِ ينشد

قصيدته التى يقول فيها :

أَحِينَ أَعَادَتْ بِي تَمِيمٌ نِسَاءَهَا وَجُرِدْتُ تَجْرِيدَ الْيَمَانِي مِنَ الْغَمِدِ

إذ راكبان قد تدلّيا من نَعْفِ كاظمة ، متقنعان ، فوقفا ، فلما وقف ذو الرمة ،
حَسَرَ الفرزدق عن وجهه وقال : يا عُيَيْدُ (وهو الراكب الآخر ورواية الفرزدق) ،
أَضْمُمُهَا إِلَيْكَ . فقال ذو الرمة : نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَبَا فِرَاسِ ! فقال الفرزدق : دع ذا عَنكَ .
فانتحلها الفرزدق في قصيدته ، وهي أربعة أبيات .

والفرزدق كان فحلاً قَطِماً من فحول الشعر ، كان ينفُض الشعراء بلسانه نفُض
النَّدَافِ ضَرِيبة القطن ، فلا عجب أن يكون مهيباً تخافه الشعراء ، وتَتَّقِي شَبَاةَ لسانه
بالعفو له عن بعض ما يُغَيِّرُ عليه من جيد شعرهم وبضائع أفكارهم . فهذا أدب الشاعر
اللصّ أبا فراس ، لم يُرَوِّ عنه أنه أغار على / شعر أحد من شعراء عصره في غيبة صاحبه ،
وإنما كان مذهبه في اللصوصية أن ينحطّ على صاحب الشعر كالصَّقر لا يبالي ، أن
يستلبه ما شاء اغتصاباً في مشهده ، على الرضى أو على الغضب ، وعلانية غير
مستخفّ بريية ، ولا مُهادِنٍ بحيلة ، ثم لا يأخذه حين يأخذه إلا كما هو بنصّه
لا يغيره ولا يبدّله ولا يُسْقِطُ منه ، ولا يأخذ بعض المعنى ويدع سائره . إن الفرزدق
شاعر بليغ قد أوتى حظاً من الشعر سجّد له الأخطل حين سمع إنشاده ، وشهد له
جرير بالعلو ، وتساقط دونه الشعراء تساقط الجياد دون الغاية ، أتظن الفرزدق = هذا
اللصّ = كان يَزْعُمُ شيء عن أن يعتمد إلى المعنى الذى أرادَه الشمردل أو ذو الرمة ،
فيأخذه فيضعه في أى اللفظ شاء ؟ أَوْرَأَيْتَهُ إن فعل ، كان يعجز عن تجويد المعنى
وتحسين اللفظ وإبداع القافية ؟

إن الفرزدق لخليق أن يفعل فَيُخْفِي مَأْخِذَهُ وَسَرَقَتَهُ ، فيجود الشعر ، فيزيد في
بيانه ، فلا يعرف النقاد من أين أخذ ولا كيف سرق ، فيبرأ من صعلكة الشعراء
وغاراتهم وسرقاتهم . ولكن هذا أدب الفرزدق ، وهو أدب الإغارة والسطو وانتهاج
أقوال الشعراء من جيّد القوافى .

ولكنّ آثني عشر قرناً قد دارت على آداب الناس دورة الرّحى ، فطحنت أدباً كثيراً وذرتّه في الهواء ، فكان مما طحنت وذرت أدب جَمّ بعضه « أدب الإغارة والسطو » ، وهو أدب لا يقوم به ولا يعتمد على أصله ، إلا أصل في النفس قوى مستحكّم متماسك عزيز يأنف الدنيّة ، ويأبى الخفيّة ، ويتهجم حين يتهجم مُقدماً حاسراً متدفّعا كأنه قبلة تنطلق

١٥/٢ / وبعد ، فإن الأوّل قال : « من يمدح العروس إلا أهلها » ، فأنا أعود بالله من أن أكون كأهل العروس ، ما يعرفون من نعت حسن إلا نعتوها به ، وإن كانت شوهاء مدبرة ، وأعود بالله من شر النفس وما تأمر به وتتولّج فيه وما تنزّو إليه ، وأعود بالله من أن أكون ذليلاً ضرعاً لا يدفع عن نفسه ولا يحمى حماه .

هذا ما أقدمه بين يدي نقد كتاب الأستاذ الجليل (عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية) الدكتور طه حسين بك ، الذي سماه فيما يسمى « مع المتنبي » . وعلى للقارئ أن لا أُخَلّ بما أختصره له من أبواب هذا الكتاب وفصوله ، ولي على القارئ أن يتابع النقد ، ويفصل بينى وبين الدكتور الجليل ، فما كان من مالى فهو لى وإن جحده الجاحد ، وما كان للدكتور فأنا أدعه له طيب النفس ، وأسأل الله أن تقرّ به عين الدكتور .

قسم الدكتور الجليل عميد الأدب العربي كتابه إلى خمسة كتب ، فالكتاب الأول فى صبا المتنبي وشبابه ، والفصل الأول من هذا الكتاب كالمقدمة يقول فى ص ٦ : « لا أريد أن أدرّس المتنبي إذن ، فالذين يقرأون هذه الفصول لا ينبغى لهم أن يقرأوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغى أن ينتظروا منها ، ما ينتظرون من كتب العلم

والنقد ، وإنما هي خواطر مرسله تثيرها في نفسى قراءة المتنبي قراءة المتنبي من غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق منسجم » . ثم يقول في ص ٧ : « وقل ما تشاء في هذا الكلام الذى تقرؤه : قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، / وقل إنه كلام يَهْدَى به صاحبه هذياناً ، قل إنه كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح ، فأنت محق في هذا كله ، لأنى مرسل نفسى على سجيتها » .

هذا مختصر الفصل الأول من ص ٣ إلى ٨ ، ونحن لا نعلق عليه بشيء إلى حين ، ومن شاء فليقرأه كله ، فإنه بيان بليغ معجز ، وفن رفيع لا يعرفه ولا يجيده ولا يتأتى له وإن ركب إليه كل مَرَكَب ، إلا الدكتور الجليل طه حسين بك !

أما الفصل الثانى والثالث من الكتاب فهما في نسب المتنبي ، من ص ٩ إلى ص ٣٤ . وقد أراد الدكتور بهذين الفصلين أن يخلص إلى القول بأن « مولد المتنبي كان شاذاً ، وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها » ص : ٤٤ . فلذلك زعم الدكتور أنه يشك في نسب أبى الطيب ، وأنه يتوقف في القطع برأى في صحة ما يرويه الرواة من نسبه . وسيجد القارئ من طرافة ما يقول الدكتور طه حسين لذة لا تُعَدُّها لذة النكتة المصرية البارة من رجل همُّه أن يكون حاضر البديهة ، سريعاً إلى تصوير فنه العبقريّ في ألفاظ تهكم يقول الدكتور :

« قد تعودّ الناس أن يؤمنوا بأن المتنبي رجل خالص النسب ينتهى من قبل أبيه إلى جَعْفِيّ ، ومن قبل أمه إلى هَمْدان » ، ولكن « ديوانه لا يثبت ذلك ولا يؤكده ، بل لا يسجله ولا يذكره » ، بل « لعل ديوانه ينفيه نفياً هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح » ص : ٩ . « فالمتنبي لم يمدح / أباه !! ولم يفخر به !! ولم يَرِّثه !! ولم يظهر الحزن عليه حين مات » ص : ٩ أيضاً . ثم إن المتنبي « كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح وإلى الحرب والبأس على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب !! الذى سماه المؤرخون الحسين » . وأكثر من ذلك ، فقد اختلف المؤرخون في جده : « ولم يجمعوا على الاسم الذى يلصقونه به » ص : ١٠ : والمؤرخون يزعمون « أنهم كانوا يعرفون عن (والد المتنبي)

شيئاً يسيراً جداً ، كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سقّاء في الكوفة » ص : ١١ ، ولعلمهم لم يقصدوا بذلك إلا أحد أمرين : « الرفع من شأن المتنبى أو الوضع من قدره فكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبي المتنبى إلا مثل ما عرفوا من أمر جدّه ، أى لم يعرفوا شيئاً » ص : ١٢ . إذن ، « أكان المتنبى يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبى شيئاً » ص : ٩ ، وقد « اتّهم المتنبى في نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائليه ، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس » ص : ١٧ ، وقال في جواب سائليه :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يُفُوقُ أَبَا الـ
وإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ
فَخَرًّا لِعَضْبِ أَرْوْحٍ مُشْتَمِلَةٍ
وَلِيَفْخَرَ الْفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ لَهُ
أَنَا الَّذِي بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ الـ
إِن الْكِذَابَ الَّذِي أُكَادُ بِهِ

/ ويقول في آخر هذه الأبيات :

١٨/٢

وَرَبِّمَا أَشْهَدُ الطَّعَامَ ، مَعِيَ
وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ ،

والدكتور لا يحتاج أن يقف عند شيء من هذه القصيدة إلا شيئاً واحداً « هو هذا الكذاب الذى كان المتنبى يُكاد به عند أبى العشائر » = « أتراه يمسّ نسبه من قريب أو بعيد ؟ » ص : ١٦ . ثم يقول فى ص : ١٧ : « ليس فى ذلك من شك عندى » ، وهذه الأبيات « تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير ولقواه » ص : ١٧ . هذا هو الفصل الثانى من كتاب الدكتور طه من ص : ٩ إلى ص : ١٧ مختصراً بتوسع !!

إن الدكتور طه حسين رجل عبقرى ليس فى ذلك شك عندى ، فهو من قبل شكه فى نسب أبى الطيب قد استطاع أن يشك فى الشعر الجاهلى وفى أشياء كثيرة !! واستطاع أن يتغلب بتوفيق الله له على خصومه والمناوئين له ، واستطاع أن يقوم كالجبل لا يعمل فيه السيف عمل السيف ، ويعمل هو فى السيف عمل الجبل فى تثليمه وتحطيمه وتكسيه ، ورجع السيف عودَه على بدئه ، حديده لا تنفع ولا تقطع !!

ولكن هل يستطيع الدكتور الجليل ، أو كتابه الأجل أن يجيبنى : لماذا شكَّ الدكتور طه حسين فى نسب أبى الطيب ؟ وما هى الأسباب التى دفعته إلى هذا الشك ؟ أما الدكتور الجليل فأكبر الظن فيه أنه يترفع ، على عادته ، عن الإجابة ، فهو رجل عبقرى ، والعبقرى لا يقال له « لماذا ؟ » . / فإذا قيل له : « لماذا » ؟ زوى وجهه ١٩/٢ وانصرف ، وترك سائله لصخرة الأعشى التى ذكرها فى لاميته المشهورة . وأما كتابه الأجل فهو أطوع لسائله وأسرع إلى جوابه .

سألت كتاب الدكتور : « لماذا شك صاحبك فى نسب أبى الطيب ؟ » فقال : « لا أدرى والله » ... كذا !! إذن فما هى الأسباب التى دفعته إلى ما يظهر من الشك ؟ فقال الكتاب : « إن الدكتور يزعم أنك إذا قرأت ديوان أبى الطيب مستأنياً متمهلاً ، لا تجد فيه ذكراً لأبيه ، ص : ٩ ، وأنت تجده لم يمدحه ، ولم يفخر به ، ولم يرثه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات » ، ص : ٩ ، وهذا كافٍ فى تشكيك العلماء فى نسب أبى الطيب ، وهو كافٍ فى اليقين بأن المنتبى لم يعرف أباه .

هذه هى الأسباب التى دفعت الدكتور الجليل طه حسين بك عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية إلى الشك فى نسب المنتبى ، فمن حق المنتبى علينا أن ننظر فيها ، أهى مما يحمل على الشك فى نسب رجل لم يشك فى نسبه الذى رواه المؤرخون أحد ، من يوم أن روى ذلك النسب إلى اليوم السادس من شهر شوال سنة ١٣٥٤ ، والأول من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، وهو يوم صدر كتابى عن المنتبى !

ألا فليحدثنا الدكتور طه ، أيكون لزماً على كل شاعر أن يمدح أباه ، وأن يفخر به ، وأن يرثيه ، وأن يظهر الحزن عليه حين يموت ؟ فإن لم يفعل الشاعر ذلك ، فهو شاعر : « لا يعرف أباه » ! إني أجد من الشعراء من فخر بأبيه ، وقد كان ذلك في شعر كثير من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وعصر / بنى أمية أو بنى العباس ، ثم أجد فيهم كثيراً لا يُعدُّ كثرةً من لا يفخر بأبيه ولا ذكره في شعره ، أفكل هؤلاء لم يكن يعرف أباه ولا يثبت نسبه لضعفه وخسته ؟ وليحدثنا الدكتور الجليل عن شعراء العرب الذين رثوا آباءهم من الجاهلية إلى يومنا هذا ، وليحدثنا الدكتور الجليل عن هؤلاء الشعراء الذين أظهروا الحزن على آبائهم حين ماتوا ، وليرجع الدكتور إلى ما شاء من كتب الشعر ، وكتب الأدب ، فيجمع لنا أسماء الشعراء الذين رثوا آباءهم وحزنوا عليهم ، وليثبت أن هؤلاء كانوا من الأشراف ذوى الأنساب = وأن سائر الشعراء الذين لم يفعلوا مثل الذى فعلوا ، هم من السوقة الملتطمين اللقطاء الذين لا يعرفون آباءهم ولا يثبتون أنسابهم !

٢٠/٢

إن الدكتور طه رجل ذكى صاحب حيلة ونَفَاز ، فربما رأى رأى فأراده ليتخذه رأياً ، فيختلق له الأسباب ، فيرى الأسباب لا تغنى فى رأى ، وأن الاعتراض يأكلها سبباً سبباً ، فيحتال بجعل الاعتراض فى سياق قوله ، ويأتى به على وجهٍ ليجعله ظهيراً لرأيه . وهذا الذى نقوله ليس بزعم من عند أنفسنا ، بل هو ما ترى ...

رأى الدكتور طه أن إغفال الشاعر ذكر أبيه لا يدلّ على شيء البتة ، وأن الشعراء الذين لم يفخروا بآبائهم ، ليسوا أقلّ نسباً ولا أخطأ مَعْرِساً من الذين فاحروا ونافروا بآبائهم ، وأن التاريخ يحدثنا « أن أبا جرير الشاعر لم يكن شيئاً ، وأن جريراً أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو ، ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن / طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجدته شعره ، وأعانه على أن يخلفه خلقاً جديداً » ص : ١٢ . فهذا جرير « كان أبوه يشرب من ضرع العنز مخافة أن يُسمع صوتُ الحلب فيطلب منه لبن ، ففاخر به ثمانين شاعراً فغلبهم . فاخر جرير بهذا البخيل الكثر اللقيم

٢١/٢

الفرزدق ، وأبوه غالب بن صعصعة ، وكان غالب من أجواد العرب المعروفين ، وكان جدّه كذلك ، وهو الذى مَنَعَ الوئيد فى الجاهليّة فلم يدع تميماً تكيد بناتها وسُمى : « مُحَيى المَوَّذات » . وعرف الدكتور ذلك فأراد أن يتأوَّله على الوجه الذى يرضى به ، فزعم أن « شعر جرير غلبَ غروره » ، ووالله ما أدرى ماذا يريد الدكتور طه بهذا الزعم وما فهمته ولن يفهمه أحد لقد عرف الدكتور الجليل أن المتنبي = وهو الشاعر الذى رمى شعراء عصره فأصماهم فغلبهم فذهب بأرزاقهم عند الأمراء = كان يستطيع أن يفعل ما فعل جرير ، وأن يفخر بأبيه السقاء ، على أبنى فراس الحمدانى وغيره من أشرف الشعراء فى عصره ، وعرف أن كثيراً من الشعراء غير جرير قد فخرُوا بأبائهم على من كان أكرم منهم أباً وأماً ، فماذا يفعل الدكتور بعد ذلك ؟ إنها لمشكلة تلد مشاكل ! إذن ، فما الذى يضيره أن يقول : « أما المتنبي فلم يستطيع شعره أن يغلب غروره (!!) ، ولم يستطيع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطيع أن يخلق أباه خلقاً ، ومن يدري ؟ لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف أباه فصوّره كما أراد لا كما كان ، وأن المتنبي لم يكن يعرف أباه فلم يستطيع أن يصوّره لا كما أراد ولا كما كان » ، وانتهى كلام الدكتور ص : ١٣ .

٢٢/٢ حقاً إن طه حسين بك رجل صاحب حيلة لا تفرغ ، وحقاً إن له فناً قد / غلب به أهل الفنون ، وحقاً إنه لعبرى ! هذا الدكتور يقول إن شعر جرير قد أعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً ، ومعنى ذلك أن جريراً ، قد صوّر أباه صورة ليس بينها وبين الحقيقة سبب ولا نسب ، ومعنى ذلك أيضاً أن معرفته لأبيه لم تُعْنِ فى هذا الخلق الجديد شيئاً ، لأنه التمس له من فنه الشعرى صورة متخيّلة زيّنها له شيطان شعره ، ولم تُعِنه حقيقة أبيه لما فيها من لؤم وخسة وضعة . فإذا كان المتنبي لا يعرف أباه كما يزعم ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه إذا أراد أن يصوّره فلن يرجع إلى حقيقته لينتزع منها الصورة ، كما أن جريراً لم يرجع إليها ، وإنما المرجع هنا إلى شيطان الشعر ، فهو وحده الذى « يخلق أباه خلقاً جديداً » ، كما خلق جرير أباه خلقاً جديداً . وجُهد المتنبي فى هذا أقل من جهد جرير ، فالمتنبي الذى لا يعرف أباه ولا يعرف حقيقته ، يتخيل ما يشاء من الآباء كأحسن الآباء ،

أما جرير « الذى يعرف أباه » ، فمن جُهدِه أن يغالط نفسه ، وأن يغالط الناس الذين يعرفون أباه ، وأن يطمس صورة أبيه البخيل الكز اللئيم لثلاً تترأى له وهو ينقل الصورة الجديدة ، فتفسد عليه فنه . ثم على جرير أن يتخيل ما لم يكن من صورة الأبوة الكريمة الممدحة التى يستطيع أن يغالب بها الشعراء ويفاخرهم ويظهر عليهم بها فى فخره ونفاره . لعل المسألة إذن أن الأمر فى جرير والمنتبى هو ما قال الشاعر :

إِنِّي وَكُلُّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ شَيْطَانُهُ أَتْنَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ

فشيطان أبي الطيب كان أنثى ، ضعيف المنة قليل الخير ، يكذب صاحبه / فى طلب الخيال القوى للآباء ، وكان شيطان جرير ذكراً فحلاً قد امتلأ قوة ، لا يطلب خيالاً إلا أدركه وظفر به وغلب به الشعراء !!

٢٣/٢

إنى أشفق على الدكتور طه حسين بك من بدوات عبقريته ، [فهى تصور له الأشياء كما يريد ها هو ، لا كما يجب أن تكون] !! فيتورط فيحتال ، فتكون حيلته كالكذبة البلقاء لا تجد ما يسترها . أراد الدكتور أن يثبت فى أثناء هذا الفصل أن أبا الطيب « لا ينتسب إلى الرجال ، لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غنائاً » ، ص : ٥١ ، وأن المنتبى هو الذى يأتى فى شعره بالدليل على ذلك ، فهو يقول :

أنا آبنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا أَلِ سَبَاحِثَ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُهُ مِنْ نَجَلَةٍ
وَإِنَّمَا يَذْكَرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حَيْلَهُ

« فالمنتبى كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس ، وإنما ينسب نفسه إلى متجزئ ، له بعضٌ يمتاز عن كله ، وبَعْضُهُ هَذَا يَفُوقُ آبَاءَ الْبَاحِثِينَ عَنْ نَسَبِهِ » ، ص :

. ١٥

لقد مضى على زمن وأنا أجد اللذة فى تتبع كتب الفكاهة ، فكان أعجب ما يعجبني منها المُحَالَات ، وهو الكلام الذى يأتى به الرجل تحسبه مستقيماً ، وهو محال لا يكون ولا يفهم على وجه من الوجوه . وأشهد أن فنّ الدكتور طه فى شرح هذا

الشعر أعجب إلى الآن من ذلك . كيف لا ؟ وهو عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية ، وهو بعد ذلك إمام الأدباء / المجددين في هذا العصر ! أيما امرئ في القراء ٢٤/٢
فهم شرح الدكتور الذى نقلناه ، فله عندنا ثلاث نسخ من كتابنا عن المتنبي من طبعته الثانية . أى شئ هذا الذى ينسب نفسه « إلى متجزئ » بعضه يمتاز عن كله !
وأنا أتولى تفهيم الدكتور معنى هذا الشعر ، فالمتنبي يقول : أنا ابن من ولدُه يفوق
أبا الباحث ، ويعنى بذلك نفسه = هذا كل ما أراد المتنبي أن يقوله . (١) والذى أوهم
الدكتور فأوقعه فمرغ كلامه في هذا (المتجزئ الذى له بعض يمتاز عن كله) ، هو قول
أبى الطيب [بعضه] فى البيت . ولعل حيلة الدكتور أو عبقريته تقول : فلماذا لم يقل :
« أنا ابن من نجله ... » ؟ فلو قال المتنبي ذلك لما كان قوله : « والنجل بعض من نجله »
يعطى من المعنى إلا أقله ، ولا يزيد فى كلام أبى الطيب شيئاً ، لأنها حقيقة معروفة
ابتداءً . ولكن المتنبي أراد أن يقول للسائل :

إن الحقيقة المقررة هى أن الولد بعض الوالد (أى جزء منه) ، فإذا كان الولد
(وهو جزء) يفوق أباك (وهو كل) ، فما ظنك (بالكل) الذى يكون (جزؤه) خيراً
من (كل أهلك) ؟ ولذلك قال المتنبي (بعضه) ولم يقل (نجله) .

هذا هو المعنى على الصورة التى أظن أن الدكتور يفهم بها البيت ! وهذه المعادلة
المنطقية لا بد وأن يتشابه طرفاها . فإذا كان والد / الباحث رجلاً ، فلا بد إذن من أن يكون ٢٥/٢
والد المتنبي رجلاً أيضاً . ولكن الدكتور طه يقول : « هو لا ينسب نفسه إلى رجل ، لأنه
لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال » ، ص : ١٥ . ويقول : « هو إذن
لا ينتسب إلى الرجال ، إلخ » ص : ١٥ أيضاً ، « ولكن المتنبي كان يؤثر أن ينتسب إلى

(١) قول المتنبي : « أنا ابن من بعضه » مأخوذ من قول رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها
أغضبني » أخرجه البخارى وغيره . و « البضعة » ، بفتح فسكون ، القطعة من كل شئ ، أى بعض الشئ .

الرمح والسيف على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذى سماه المؤرخون الحسين ، ص : ١٠ من هذا الكتاب الجليل !

هذا بعضٌ من خَلَطٍ كثير وقع فى الفصل الثانى فى الكتاب من ص : ٩ إلى ص : ١٧ . وهذا ، غير الأخطاء التى تدل على أن الدكتور صادق فيما يقول فى مقدمة كتابه ، أن هذه الفصول لا ينبغى أن تقرأ « على أنها علم ، ولا أنها نقد ، وإنما هى خواطر مرسلة ، تثيرها قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نَسَقٍ منسجم » ، ص : ٦ . فإذا كانت القراءة فى غير نظام ولا مواظبة على نَسَقٍ ، فالفهم إذن كذلك . وإذن فقد صدق الدكتور أيضاً ، وأدرك حقيقة ما يجب أن يشعر به قارئ كتابه إذ يقول : « قل ما تشاء فى هذا الكلام قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً فأنت محق فى هذا كله » ، ص : ٧ ، وصدق .

وميعادنا الأسبوع القادم لنظهر الدكتور على أخطائه ، ونُدُلُّه على المواضع التى أخذها من كتابنا فى هذا الفصل ، وأفسدها على الناس ، لأنه أراد أن يحاكى ، فخذلته المحاكاة ، وأراد أن يقلدَ فخانه التقليد .

- ٢ -

٢٦/٢ / رَغِبَ إلينا بعض بلغاء العربية ، وَمَنْ هُمُّهُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقَّ وَيَبْطُلَ الْبَاطِلَ ، وَأَنْ يَبْرَأَ
الأدب من داء اللجلجة ، وَزَمَانَةَ الثَّرَثَةِ ، وَعِلَلَّ التَلْفِيقَ وَالتَّمْوِيهَ الَّتِي يُرْتَجَى بِهَا التَّلْيِيسُ
عَلَى الْعُقْلَاءِ ، وَاسْتِمَالَةَ الدَّهْمَاءِ إِلَى فَاسِدِ الْآرَاءِ = أَنْ نَعْمَدَ إِلَى النِّقْدِ الَّذِي كَتَبْنَاهُ فِي بِلَاغِ
السَّبْتِ الْمَاضِي ، وَالَّذِي كُنَّا عَلَى نِيَّةِ إِتْبَاعِهِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا بَعْدَهَا ، فَتَقَدَّمَ لَهَا كَلِمَةٌ فِي
مَجْمَلٍ مَا نَنْقُدُهُ مِنْ كِتَابِ الدُّكْتُورِ طَهْ حَسِينِ الَّذِي سَمَاهُ فِيمَا يُسَمَّى « مَعَ الْمُتَنَبِّئِ » ، وَأَنْ
نَحَدِّدَ أَغْرَاضَ النِّقْدِ وَنَمَيِّزَ بَيْنَهَا ، وَنَفْصَلَ أَبْوَابَهَا ، وَأَنْ نَجْتَهِدَ فِي جَمْعِ الْمُؤْتَلِفَاتِ مِنْ أَبْوَابِ
النِّقْدِ فِي نَسْقٍ مَفْصَّلٍ ، وَالمُتَشَابِهَاتِ مِنْ فَعَلَاتِ الدُّكْتُورِ فِي قَرْنٍ مُشْتَرِكٍ ، وَأَنْ نَجْعَلَ مِنْهَا
عَلَى ذِكْرِ مَا كَتَبَهُ النِّقَادُ وَالْأَدْبَاءُ وَالمُتَرَجِّمُونَ لِأَبِي الطَّيِّبِ ، وَأَنْ نَشْرِكَهُمْ مَعَنَا فِي الْإِنْتِصَافِ
مِنَ الدُّكْتُورِ طَهْ ، فَإِنَّ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْ كِتَابٍ قَدْ فَرَّغَ النَّاسُ مِنْ قِرَائَتِهِ فِي فَبْرَايِرِ سَنَةِ
١٩٣٦ ، يَسْتَطِيعُ الْوَقِيعَةُ فِي كِتَابٍ لَمْ يَفْرُغَ النَّاسُ مِنْ قِرَائَتِهِ بَعْدُ ، فَمَا بِالْكَ فِيمَا مَضَى
عَلَيْهِ بَعْضُ الْعَامِ ، وَمَا مَضَى عَلَيْهِ أَعْوَامٌ !

ولكنى أعتقد أن ليس شىء أشقَّ على القارىء من أن يقدم له الناقد بين يدي
نقده مجمل ما يتعاطاه من الأغراض والأبواب والفصول والغايات ، وخاصة إذا كانت
٢٧/٢ أغراض النقد تتناول فيما تتناول كلَّ الأصول التي بُنى / عليها الكتاب = وخاصة إذا كان
الكتاب من كتب الدكتور طه حسين بك ، فإن ما يكون فيه من اضطراب الآراء
وتخالفها وتناقضها ، وما يقع فيه من الذبول اللفظية المكررة المعادة على غير جدوى
ولا فائدة ، وما ينزو به من القفرات « الأولمبية » المحكمة من فكرة إلى فكرة لا تصل بينهما

صلة من المنطق ، ولا تربطها من رابطة إلا الألفاظ الدائرة التي توقع التشابه في نفس القارئ إذا غفل ولم يتدبَّرها = كل ذلك يجعل اختصار الأغراض وتحديدتها أمراً عسيراً لا يُثمر ثمرة تكون كفاءً لما يلقاه في سبيله من نصِّبِ الفكرة وعلاج الرأى .

وأيضاً ، فإن جَمْعَ المؤتلفات ، وضَمَّ المتشابهات كُلاً إلى كُـلِّ ، هو أشقُّ على القارئ ، وأحرى أن يحمله على سوء الظنِّ فيما نكتب ، وربما وقع أحد المتشابهين في أول الكتاب والآخر في أدباره ، فإذا عرضنا لنقدهما معاً ، نُخَيِّلُ للقارئ أننا لم ننصف الدكتور طه ، إذ أخذنا جزءاً من كلامه في باب من الأبواب وتركنا سائر الباب ، فلعل في سائره ما يفسِّر ذلك أو يوجِّهه أو يحدد الرأى فيه ويقرِّبه إلى جهة الصواب ، وينزع بنا إلى جهة الخطأ والتحامل . ولو فعلنا ذلك لكانت المشقة أبلغ ، والجهد في الحكم على النقد أشدَّ وأصعب ، فإن هذا المذهب في القول يقتضى القارئ أن يُلمَّ ، وهو يقرأ ، بأطراف الكتاب كله على معنى الإحاطة ، مع التنبُّه السابق إلى الخطأ والتلبس والطفرة في الكلام ، وأن يكون قد عرف مثل الذى عرفنا من وجه التأويل في الفكرة أو الرأى أو المذهب . فهذا كما ترى لا يستطيعه قارئ النقد على الوجه المرضي .

/ وأما أن نجعل كتب النقاد والكتّاب والأدباء الذين درسوا أبا الطيب ، وكتبوا عنه على ذكْرٍ منا حين ننقد ، فسنحمل النفس عليه ، مع ما تعرف فيه من العنت حتى نبليغ رضا الأدباء والقراء . وفي الانتصاف لمن لم ينتصف لنفسه ، فضيلة الصّدق ، وشيمة العدل ، وحسن الجزاء عند الله وعند الناس .

٢٨/٢

ولا بأس ، فهذه كلمة نُجمل فيها بعض أغراض النقد على سبيل العرض والتقديم ، لا على سبيل التحديد والبسط والإحاطة . فأول ذلك أننا اعتمدنا أن نكشف عن الطريقة التي انتهجها الدكتور طه في كتابه وهو يترجم حياة أبى الطيب . فهل كان الدكتور مقلداً في نهجه أم مبتدعاً ؟ وهل استطاع أن يسوق القول على النهج الذى

لا يختلف ، أم أعنى فاختلف واضطرب ؟ وهل أصاب فيها خيراً أم أخطأه الخير ، ولم يستحقب من ذلك إلا مَعَرَّةَ التقليد والمحاكاة ؟ والقول في هذا لا يكون مُدْرِكاً غايته من الإصابة والبيان إلا أن نفرغ من نقد أجزاء الكتاب جزءاً جزءاً ، وبعد أن نميز الفاسد من الصالح ، ونفصل بين المؤلف والمختلف ، والسليم وذى الآفة ، وما تسلم نسبه إلى الدكتور طه ، وما يُسْتَلْحَقُّ إلى نسبٍ غير نسبه ، إلى آخر هذا الباب .

والثانية : أن نعرض الأخطاء التى ارتطم فيها الدكتور خطأً خطأً فى فصل فصل وكتاب كتاب ، ونبين فساد المذاهب وبطلان الحجج ، ونكشف عن ضعف الصلة بين الفكرة والفكرة ، ونحدّد سوء الانتقال من مقدمة / لا تنتج النتيجة التى استولدها منها ، ٢٩/٢ وننصّو عن كلامه الزينة التى سترته ، وما نحوض فيه من شعر المتنبى فأفسد معناه وأخطأ فهمه .

وثالثة العلل ، أو ما يذهب قوم إلى تسميتها « ماخذ » ، ويذهب آخرون إلى تسميتها « سرقات » ، ونحن لا نرجح أحد الاسمين فى حاق التسمية !! ولكننا تعودنا فى كتب الدكتور طه نقله معانى الناس إلى معانيه ، وأنفته من نسبة الأشياء إلى أصحابها والذين رموا أنفسهم فى نارها حتى استخلصوها بعد أن أصابهم البلاء والأذى وجهدهم الجُهد . وما أستطيع هنا أن أحدد كل الكتب التى أدركتها يد الدكتور طه ، ولكن أقرب الكتب هى (١) كتابنا عن أبى الطيب المتنبى الذى نشره المقتطف فى يناير سنة ١٩٣٦ (٢) وكتاب « ذكرى أبى الطيب » للدكتور عبد الوهاب عزام (٣) وكتاب « أبى الطيب المتنبى » لمحمد كمال حلمى بك (٤) وكتاب « المتنبى » للأستاذ شفيق جبرى ، وكثير غير ذلك مما فاضت به الصحف فى السنة الماضية حين احتفل الناس بمرور ألف سنة على مقتل أبى الطيب ، ثم آراء طائفة من القوم الأعاجم المستشرقين الذين ترجموا لأبى الطيب أو ذكروه فى بعض كتبهم أو مقالاتهم .

وهذا أوان العودة إلى ما كنا فيه من كلمتنا السالفة ، وقد بينا أن الدكتور طه حسين بك إنما يشك في نسب المتنبي ، ويزعم أنه كان (لا يعرف أباه) ، لأن أبا الطيب لم يذكر والده في ديوانه !! ولأنه لم يمدحه !! ولأنه لم يفخر به !! ولأنه لم يرثه !! ولأنه لم يظهر الحزن عليه حين مات !! / ولأنه سئل عن أبيه وجدّه فلم يستطع ، أو لم يُردِّ ، أن يجيب سائله ! وآثر أن ينتسب إلى الحمد والكرم والبأس ، كما توهم الأستاذ الجليل !! وذلك حيث يقول :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْبَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ
وَإِنَّمَا يَذْكَرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حَيْلَهُ
فَخَرًّا لِعَضْبِ أَرْوْحٍ مُشْتَمِلَةً وَسَمَّهَرِيَّ أَرْوْحٍ مُعْتَقِلَةً

إلى آخر الأبيات التي أخطأ الدكتور في فهمها ، فزعم أن أبا الطيب « ينتسب إلى

متجزىء ، له بعض يمتاز عن كله » !! [انظر ص : ٤١٠ ، ٤١١] .

وقد عرفت أن العلل التي حملت الدكتور على الشك في نسب المتنبي ، وإنكاره صِدْقَ الرواة فيما رووه من أن أباه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب ، وأن أمه كانت همدانية صحيحة النسب ، إنما هي علل واهية وأسباب واهنة ، المتعلق بها كالمعلق بخيوط من بيت العنكبوت . فإن الشعراء الذين لم يذكروا آباءهم في دواوينهم ، ثم لم يمدحوهم ، ولم يرثوهم ، ولم يظهروا الحزن عليهم حين ماتوا ، ولم يفخروا بهم في أشعارهم وقصيدهم ، لا تلزمهم لازمة الشك في أنسابهم ، ولا تلحق بهم معرة أن يكونوا (لا يعرفون آباءهم) ، ثم هم ليسوا أقل شأنًا ولا أخس نسبًا ، ولا أنكد مفرسًا من الذين فعلوا ذلك وأتوا به وذكره في أشعارهم . وأيضاً فإن التاريخ يشهد أن القليل من الشعراء هم الذين رثوا آباءهم وأمهاتهم ، وأظهروا الحزن عليهم في أشعارهم ، أو فخروا بهم ومدحوهم في قصيدهم . ولو أردنا أن نخرج الدكتور الجليل / لقلنا : إن أبا الطيب عاش من سنة ٣٠٣ إلى سنة ٣٥٤ ، وكان في عصره هذا من الشعراء من لا نحصيهم كثرة ، فهل هو بمستطع أن يدلنا على عدّة الشعراء المعاصرين للمتنبي ، الذين رثوا آباءهم أو أمهاتهم أو مدحوهم

وفخروا بهم أو بكَوْهم وأظهروا الحزن عليهم حين ماتوا ؟ فإذا قرر لنا أن أكثر الشعراء المعاصرين قد فعلوا ذلك ، وأن الذين فعلوه هم من أشرف أهلهم ، ومن الذين (يعرفون آباءهم) ، ويعرف التاريخ أنسابهم وأصولهم ، ويعدّد مفاخرهم ومثالبهم ، وأن سائر من لم يفعل ذلك منهم ، هم السفلة والغوغاء وأوشاب الناس الذين (لا يعرفون آباءهم) ولا يثبتون أنسابهم = إذا قرّر الدكتور الجليل ذلك أخذنا معه المتنبي بالقياس ، وبغير نظر في دلائل شعره ومخايل كلامه ، ووضعناه معه حيث وضعه في المنزلة التي يكون الرجل فيها (لا يعرف أباه) .

لا تجد في الناس من يطيق أن يتابع الدكتور طه في شكّه من أجل علل كهذه العلل ، فإن وجدته فلن تجد من يتابعه في أنها دليل على أن المتنبي لم يكن يعرف أباه . وأكبر الظن أن كل من قرأ كتاب الدكتور طه يشعر أن هذه العلل عللٌ مفتعلة للشكّ لا أصل لها في نفس الدكتور ، ولا في نفس أحدٍ غيره ممن (يريد أن يدرس المتنبي) أو من (لا يريد أن يدرسه) .

أو تدرى لماذا شك الدكتور طه حسين في نسب أبي الطيب ، وكيف أخذ يجد في نفسه الحاجة إلى هذا الشك ، وأين وجد هذه الكلمات التي اتخذها ذريعة يتوسّل بها إلى تعليل شكّه ؟ ولماذا لم يستطع إلا أن يتوقّف في الشك / ويذهب يزعم لنفسه أو للناس ٣٢/٢ أن المتنبي كان (لا يعرف أباه) ؟ وما المعنى الذي أراده أو صرّح به في قوله يصف المتنبي بأنه (لا يعرف أباه) ؟ فخذ خبر ذلك كله بما ترى وتسمع !

ما في الدنيا أديب عربيٌّ لم يقرأ هذه الكلمة التي قالها ابن رشيق حين أفضى به القول إلى ذكر أبي الطيب ، وذلك إذ يقول : « ثم جاء المتنبي فملاً الدنيا وشغل الناس » . وقد صدّق وصدّقت الأيام قوله ، فقد ذكروا من شروح ديوانه أكثر من أربعين شرحاً ، وما تكاد تجد كتاباً من كتب التراجم أو كتب الأدب لم يذكر المتنبي أو لم يترجم له ، ثم أفرد بعض القدماء كتباً لترجمته ، ثم جاء من بعدهم المحدثون والمعاصرون فكتبوا عن أبي الطيب على طريقة أهل العصر . وما رأيت أحداً من هؤلاء شك في نسب

أبى الطيب ، أو في اسم أبيه المتداول ، فكلهم = من ألف سنة إلى أول يناير سنة ١٩٣٦ = إجماع على التسليم بصحة ما رواه الرواة ، من أن والد المتنبي كان سقياً بالكوفة ، وأنه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب ، وأن أمه كانت همدانية صحيحة النسب أيضاً .

ثم جاء كاتب هذه الكلمات فقال كلمته عن شاعر العربية ولسانها الحكيم أبى الطيب ، ونشرها المقتطف في عدد خاص ، احتفالاً بذكرى ألف سنة مرتت على مقتله ، وتداولها الناس ، ومنهم الدكتور طه حسين بك ، في السادس من شهر شوال سنة ١٣٥٤ (أول يناير سنة ١٩٣٦) . وقد كانت الفصول الأولى ، أو أكثر الكتاب ، في نقد الروايات التي وصلت إلينا في كتب الأوائل والأواخر عن حياة أبى الطيب ، وقد أثبتتها بإسنادها في / أول الكتاب ، وطفقت أنقذها من كل وجه معروف للنقاد ، حتى خلصت من ذلك إلى الشك في صحتها ، أو صححة الأقوال التي تضمنتها ، والأخبار التي أتمت بها ، وجمعت الأدلة التي تهيأت لي في ذلك الوقت ، وجعلتني أبصر فساد النية وسوء القصد ، فقطعت الرأي فيها بأنها نكايّة وكيدٌ وإرادة الحط من قدر الرجل = دفع الرواة إليه العداوة والحسد وما هو من بابهما . وهذه الروايات التي كان الأدباء جميعاً ، ولا يزالون ، يقطعون بصحتها ، كنت أول من شك فيها وبين فسادها ، وقذف بها في وجوه روايتها . وأدخلني شكّي في هذه الروايات مداخلة من هنا وأخرجني من ثم ، حتى ذهبت في الرأي مذهباً لم أسبق إليه ، فزعمت أن أبا الطيب كان علويّاً شريف النسب ينتهي نسبه إلى علي بن أبى طالب رضى الله عنه . وقد أثار هذا الرأي الأدباء ، فمنهم من وافق ، ومنهم من توقف ، ومنهم من عارض بالحجة ، ودفع بالبرهان كما تبين له ، ومنهم من أخذ بعض الرأي وترك بعضه ، ومنهم من كان هذا الشك الذي أتيت به في نسب المتنبي أنه جُعْفِيُّ الأب همدانيّ الأم وأن أباه كان سقياً = حافظاً له على النظر بين اليقين والشك ، ولكنه نهج نهج العلماء المشبتهن فجرى في نقد الروايات في هذه الأخبار وغيرها على طريقتنا ، ولم يوافقنا في النتيجة ، بل ذهب مذهباً آخر وسطاً ، فكان قوله إن والد المتنبي « لم يكن رجلاً نأية الشأن » = أعنى الأستاذ الجليل المثبت الدكتور عبد الوهاب عزام صاحب (ذكرى أبى الطيب) المطبوع ببغداد في ربيع الآخر سنة

/ فهل عرفت الآن لماذا شك الدكتور طه في نسب المتنبي ؟ شك لأن إنساناً قبله ٣٤/٢
سبقه إلى هذا الشك ونسى أن شك هذا الإنسان قد بُنى على الجهد والنصب وطول
العلاج والتمرس بالنقد العَرضي الذي لا يسلم عليه أحد = وأن شك الدكتور طه الذي أتى
به في كتابه ، عُرياً متكشف لا تستره حجة ، لا يُقنعه برهان .

إذن فكيف بدأ الدكتور طه يجد في نفسه الحاجة إلى هذا الشك ؟ لقد أَلَّف
الدكتور أو أملي - أو ما يشاء - كتاباً سماه « في الشعر الجاهلي » ، وتوهم أنه قادر على
الاضطلاع به ، فوقعت إليه كلمات يشكُّ بها أصحابها في نسبة الشعر الجاهلي إلى
أصحابه ، فأعجبه ذلك وحُبِّب إليه ، فأغرى به ، ودار دورةً في الأوهام حتى وقع على
مذهب فيلسوف عظيم يُسمَّى ديكرت ، فاستعار مذهبه لكتابه ، فزعم أن ذلك هو
المذهب الجديد المبتدع في نقد الشعر والأدب ، وجعل يرى ذلك مذهباً ، وجعل
المطيفون به يرددون ذلك القول في عبقرية هذا الرجل التي استعلنت للناس في هذا
المذهب الذي سمّوه « مذهب الشك » = وكانوا في ترديدهم كما قالت العرب في ذلك :
« أنت كآبنة الجبل ، مهما يُقلُّ ثقلٌ » ، يريدون كالصَّدى ، صدَى الصوت . إذن
فالدكتور طه هو صاحب مذهب الشك في الأدب ، وهو مبتدعه والقيّم عليه ورائضه
وسائسه . وقد جاء الزمن الذي لَجَّ فيه الناس في ذكر أبي الطيب ، وقام من بينهم رجلٌ
غير الدكتور طه حسين بك ، فشكَّ في نسب المتنبي ، أفيحلُّ لصاحب « مذهب
الشك » أن لا يشكَّ في نسب المتنبي / حين يتكلم عنه ؟ ساء ذلك رأياً !! إذن فلا بُدَّ
٣٥/٢ له من الشك حين يتكلم عنه ، ولا بُدَّ له من أن (يصطنع) مذهبه في الشك ، ولا بُدَّ له
من طلب الأسباب التي (تحمله على هذا الشك) !! وإذن فليطلب الأسباب من هنا
ومن ثمَّ ، وليتلقَّف أطرافها التي يتعلق بها تلقَّف الغريق العودَ لا يرسله من يده ، وإن
هوى به إلى قرارة اليمِّ .

إذن ، فأين وجد الدكتور طه هذه الكلمات التي اتخذها ذريعة يتوسل بها إلى
تعليل شكه أو تسويغه ؟ لقد جهد فلم يستطع أن ينال فيما كان بين يديه علة أو سبباً

ينفعه ، حتى جاء الأستاذ عزام فنشر كتابه في ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ ، أى منذ سبعة أشهر ، فقال فى ص : ٢٩ : « وقد حرص المتنبى على أن لا يذكر نسبه فى شعره ، فما ذكر أباه ولا جده ولا أحداً من آبائه ، ولا صرح باسم قبيلة ولا عشيرة » .

ثم عاد الأستاذ عزام يقول فى ص : ٣٦ : « ويخبرنا صاحب اليتيمة (الثعالبي) أن والد المتنبى سافر به إلى الشام وسواءً أصح ما يقوله الثعالبي أم لم يصح ، فما ذكر المتنبى والده بكلمة ، ولا رثاه حين مات كما رثى أبو العلاء المعرى أباه وأمه رثاءً بليغاً . وهذا يشهد بما اتفقت عليه الروايات من أن والد أبى الطيب لم يكن رجلاً ثابته الشأن » .
وجزى الله عزاماً خير الجزاء ، بما مهّد للدكتور الجليل من سبيل الحجّة والبرهان والدليل للرأى الذى ارتآه فى نسب أبى الطيب !!!

أفليس هذا على التحقيق هو قول الدكتور طه حسين بك فى ص : ٩ - ١٠ / من كتابه الجليل : « فأنت تقرأ ديوان (المتنبى) من أوله إلى آخره ، وتقرؤه مستأنياً متمهلاً ، فلا تجد فيه ذكراً لهذا الرجل الطيب الذى أنجب للقرن الرابع شاعره العظيم . لم يمدحه المتنبى ، ولم يفخر به ، ولم يرثه المتنبى ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات !! أكان ذلك لأن المتنبى لم يعرف أباه ؟ أم كان ذلك لأن المتنبى عرف أباه ولكنه لم ير له خطراً ؟ ... كل ذلك ممكن » .

وفى ص : ١٠ : « أكان المتنبى يعرف جدّه ؟ لا يحدثنا ديوانه بشيء ، ومن أعرض عن ذكر أبيه لم يُستغرب منه أن يُعرض عن ذكر جدّه ، ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده » ، إلى آخر هذه المقدمات والنتائج .

ولكن أين هذا من ذاك ؟ فكلمة الأستاذ عزام ، على ما فيها من بعض الخطأ ، فهى على ذلك لا تزال كلمة الرجل الثبّت العالم الذى لا يريد أن يتهجم بهواه على ما ليس بحقّ ولا بصواب . وأما كلمة الدكتور التى نقل إليها كلام عزام ، فسييلها سبيل ما تقول العرب للذى يأتهم بالأباطيل والأكاذيب والمُحال ، وما لم يكن وما لا يمكن أن يكون :

« جاءَ بقرتي حمار » ، والحمار لا قرون له . وإن يكن في كلام الدكتور طه شيء ، فإن هذا الشيء ليس السبب الذي يحمل على الشك ، ولا العلة ، ولا البرهان على المذهب ، وإنما هو المعجزة : إذ انقلبت كلمات الأستاذ عزام حين دخلت كتابه « مع المتنبى » من قرتي كبش نطّاح إلى قرتي حمار !!

فهل اكتفى الدكتور طه بما اختلعه من كتاب عزّام ؟ كلاً ... ، فإنه أراد أن يأتي بكلمة أخرى تكون كالبخور في جوّ الساحر ، فقال في ص / ١٠ : « إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبى ويسمونه « حُسَيْنًا » ، فإنهم لم يتفقوا على جدّه ولم يجمعوا على الاسم الذي يُلصقونه به (هكذا) ، فهو الحسين حيناً ، وهو عبد الصمد حيناً آخر » .

ومن أخطاء هذا الكلام المموّه في اختلاف المؤرخين واتفاقهم ، أن يكتب الدكتور أنهم اختلفوا في اسم جدّه (فهو الحسين حيناً وهو عبد الصمد حيناً آخر) ، وليس كذلك ، فإن المؤرخين اختلفوا في اسم جدّه (والد أبيه) فقالوا هو (الحسين ، أو الحسن ، أو مُرّة) ، أما جدّه الأعلى (والد جدّه) فسموه (عبد الصمد أو عبد الجبار) ، فهذا خلط كما ترى .

وهذا ليس شيئاً ، ولكن هل يحسب الدكتور أن اختلاف المؤرخين في جدّ رجل من الناس يكون دليلاً ، أو كالدليل ، على شيء من ضعة في النسب أو ضعف في الأرومة ؟ إن ظن ذلك فقد وَهَم . فلو رجع إلى كتب التراجم لوجد الخلاف يقع بين المؤرخين في أسماء الآباء والأجداد ، ولا يكون ذلك عند أحد من النسابين مطعناً يُثَلَّب به الرجل في نسبه ، أو يُعَمَّر في أصله ، أو يتخذ للشك في صحة انتسابه إلى قبيلة من القبائل . وسبب اختلاف المؤرخين والنبابيين في أسماء عمود النسب معروف لكل من مارس علوم العربية ، وعلم أن أصل بنائها على الرواية ، والرواية يقع فيها النسيان والخطأ والتحريف والسقط وما إلى ذلك ، وخاصة فيما هو كالأنساب : اسم بعد اسم بعد اسم ، فليس يربط ذلك بعضه ببعض معنى يقيمه ، أو يذكر به ، أو يحفظه من

الإسقاط . ولو شئنا لضربنا له الأمثال بمن لا يختلف في أمره ، ولا يقال فيه ما يقول الدكتور في أبى الطيب إنه (لا يعرف أباه) .

/ وليس في اختلاف الرواة في نسب المتنبي ، أو خطئهم في رواية أسماء أجداده ما يسوغ القول بأن المتنبي لم يكن يعرف أباه أو يعرف جده ، ولا يدل على أنه كان مدخول النسب وضيع النشأة خسيس الأصل . وإنما يكون ذلك أشبه وأحق وأثبت ، حين يكون هذا الاختلاف قد وقع من المتنبي نفسه ، ويكون هو الذى اضطرب وأخطأ ، ولكن الدكتور طه يعرف ويقول في كتابه إن المتنبي لم يذكر في ديوانه أباه ولا جدّه . وعلى ذلك ليس يدخل هذا الاختلاف في باب معرفة المتنبي لأبيه وجده أو جهله بهما . وإتيان الدكتور به على مجرى الشبهة والشك والارتباب ، تقحّم وخلط وفساد .

أفتدري أين وجد الدكتور طه هذه الكلمات التى اتخذها أيضاً سبباً في الشك والزعم بأن المتنبي كان يعرف أباه ؟ ههنا وجدها !

فقد روينا في كتابنا [ص : ١٣٨] من حديث التنوخى عن ابن أم شيان الهاشمى أنه قال ، وقد جرى ذكر المتنبي : « كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى عِيدَان ، يستقى على بعير له ، وكان جُعْفِيًّا صحيح النسب » . وروينا أيضاً أن التنوخى قال : إن المتنبي كان يكتنن نسبه . فقلنا فى [ص : ١٤٨] : « ثم إن التنوخى يروى هذا الخبر (يعنى خبر كتمان النسب) ، ويروى أنه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب . وما تصح نسبة سقاء إلى جُعْفِيّ بن سعد العشيرة إلا أن يذكر نسبه متصلاً إلى جُعْفِيّ . لأن سقاء يدعى الانتساب إلى جُعْفِيّ ، لا بُدّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُدّ . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصّ واحد يذكر / فيه نسب المتنبي إلى رجل من جُعْفِيّ لا يختلف في أمر نسبه . فما ظنك بمن اختلف في جدّه الأدنى والذى بعده ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه في عمود النسب » .

هذه الجملة الأخيرة من كلامنا هى التى أخذها الدكتور ، فأقحمها فى الأسباب التى حملته على الشك فى نسب المتنبي وتوهم أنها تدخل فى معنى ما يريد من

الارتباب في معرفته لأبيه أو جده . ولقد وَهَم ، فلسنا ممن يلقي القول على عواهنه حتى ندخلها في كلامنا ونجعلها من أسباب شكنا (لا شك الدكتور) في النسب الذى رواه الرواة . ولم نأت بهذه الكلمة في آخر كلامنا ، إلا لذلك التَّوْحَى راوى هذه الأخبار ، من أن أباه كان سَقَاءً ، ثم كان جعفياً صحيح النسب ، ثم أن المتنبى كان يكتم نسبه . وقد بينا في كتابنا فساد هذه الأقوال مجتمعة ، فإن بعضها ينقض بعضاً ، فأبن أم شيبان يقول إن أباه كان سَقَاءً ، وأنه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب ، إذن فهو يعرف النسب من لَدُنْ والد المتنبى إلى جُعْفِيٍّ ، وإلا فكيف عرف النسب وصحَّحه ، ولم يشك فيه ؟ روى ذلك التَّوْحَى وزعم أنه سأل أبا الطيب عن نسبه فكتمه ، فلماذا لم يتحوَّل إلى صاحبه ابن أم شيبان فيعرف منه النسب ؟ ولئن صحَّ أن التَّوْحَى قد صرفه ما يصرف الناس عن السؤال ، أفلم يسأله أحدٌ غيره ؟ ثم ، ألم يكن بالكوفة كلها من يعرف نسب هذا السَقَاءِ غير ابن أم شيبان الهاشمى ؟ بلى ! لقد عرفه أيضاً ، كما روى التَّوْحَى ، رجل آخر هو أبو الحسن الزَّيْدِيَّ العلوى . وعلامَ يكتم المتنبى نسبه عن التَّوْحَى ، وهو يعلم أنه قد صحب ابن أم شيبان وأبا الحسن الزَّيْدِيَّ العلوى ؟

/ وقد زعم التَّوْحَى أنه سأل المتنبى عن أحدهما ، فقال له المتنبى عنه : « تُرِبِي ٤٠/٢
وصديقى وجارى بالكوفة » ؟ فإذا كان هذان الرجلان قد صحَّحا نسب المتنبى إلى « جُعْفِيٍّ » ، فقد عرفاه وأثبتاه علماً ، فأعجَبْ لهؤلاء ، أكانوا أيضاً يكتمون نسبه ؟ حتى بلغ الأمر مبلغاً عجيباً ، إذ لم يقع لأحدٍ ممن كان يتحفَّى بأخبار المتنبى نصٌّ واحد يذكر فيه نسبه إلى « جُعْفِيٍّ » ، أو إلى رجل قريب ممن لا يختلف في نسبته إلى « جُعْفِيٍّ » ، ولكن الأمر وقع بخلاف ذلك ، فقد اختلفوا في جدِّه ووالد جده ، ولم يأتوا بعد ذلك بشيء .

فهذا سياق قولنا في بطلان هذه الروايات التى استبضعها التَّوْحَى ، وهو الذى استدعى قولنا : « فما ظنك بمن اختلف في جدِّه الأدنى والذى بعده » ، فأخذ الدكتور هذه العبارة ولم يهتد إلى موضع (يُلصقها) به إلا هذا المكان من كتابه ، فأفسدها وأفسد مذهبه بها .

وبعد ، فقد رأيت كيف كان كتاب الدكتور طه يتقمم الآراء من ههنا ومن هنا ليشك ، ويثبت أنه هو الذى بدأ الشك في نسب أبى الطيب ، فهو يعلم من أمر الدنيا كثيراً ، ويعلم أو يتوهم أن الناس سيدكرونه بذلك وينسون من أقام المذهب على الجادة ، وذلك لذيوع اسمه وشهرته ، وتحفوت أسم غيره وجهل الناس به . وهذه عادة هو مُعَرِّى بها ، وهى محببة إليه ... ولكن « سَقَطَ العِشَاءُ بهِ على سِرْحَانِ » ، كما زعموا ، من أن رجلاً خرج يلتمس العشاء فوق على ذئب فأكله (وهذا مثل يُضْرَبُ للرجل يطلب الأمر التافه فيقع في هلكة) . والدكتور طه حسين بك ، عميد الأدب العربى بالجامعة / المصرية ، حين ألقى محاضرتيه فى أسبوع المتنبي فى السنة الماضية ، كان أحسن رأياً ، وأكرم عملاً ، وأنجى من التلف وسوء المنقلب ، فقد بدأ كلامه ذلك اليوم بهذه العبارة : « ولقد شكَّ بعض الناس فى نسب المتنبي وأنا أوافق على هذا الشك » ، ويعينى أنا بذلك . والظاهر أن هذه العبارة قد سقطت من الطبعة الثانية من « أمالى » الدكتور طه حسين عن المتنبي !! هذا على أننا كنا نحبُّ له أن يعلم أن موافقته لرأينا ومخالفته ، وبخاصة فى الأدب ، سواءً = صدق أبو الطيب .

ومن جهلتُ نَفْسُهُ قَدْرَهُ ، رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وإلى الأسبوع المقبل تنمة هذا الحديث ، لماذا لم يستطع الدكتور طه إلا أن يتوقف فى الشك ، ويذهب يزعم لنفسه أو للناس أن المتنبي كان (لا يعرف أباه) ؟ ثم ما المعنى الذى أراده أو صرح به فى قوله يصف المتنبي بأنه (لا يعرف أباه) ؟

- ٣ -

٤٢/٢ رأيت مما كتبناه قبلُ في الكلمتين السالفتين أن الرواة حدثونا أن المنتبى هو « أحمد بن الحسين السَّقاء » ، وأنه جُفِّئُ الأب هَمْدَانِي الأمِّ ، وأن شَرَّاح ديوانه = على كثرتهم وجليل منزلتهم في العلم = ثم جميع من ترجم له في مَدْرَج كتاب ، أو في كتاب مُفْرَد = تناولوا أمر هذا النسب وماله وما عليه بالتسليم واليقين . وتصرَّمت على ذلك ألف سنة وما فوقها ، حتى نشرت كتابي عن المنتبى في مقتطف يناير سنة ١٩٣٦ ، وبنَّيْتُهُ على نقد الرواية وتزييف الخبر ، بما تهيأ لي إذ ذاك من أسباب وعلل ، فخرَّجْتُ من ذلك بالشك في صحة هذه الروايات والأخبار التي وصلتنا عن المنتبى ونسبه ، ثم جمعتُ من طوائف الرأى ما جعلني أزعم أن والد المنتبى كان عَلَوِيًّا ينتهى نسبه إلى علي بن أبى طالب رضى الله عنه . وبذلك كنت أوَّل من شك في هذا النسب المروى ، وأوَّل من انتهى به الشك إلى هذا الرأى .

ثم جاء الدكتور طه حسين بعدى بعامٍ ، يَعْلُو عَدُوًّا ويزعم للناس أنه يشكُّ هو أيضاً ، في نسب المنتبى ، فيبنى شكَّهُ على عِلل ملفقة قد بيَّنتُ زيفها وبطلانها ، وأنها ليست مما يحملُ أحداً على الشك أو ما هو دونه . ثم دَلَّلت على الموضوع الذى نَقَل منه هذه العِلل في كتاب الأستاذ عبد الوهاب عزام ، ثم فى كتابي ، وذكرتُ ما دخلها من فساد ، إذ حُمِلت من مكانٍ هى فيه أولى وبه أليق ، إلى مكان لا تصلح له ولا يصلح هو عليها . وكان / سبب هذه الفعلة ، أن الدكتور الجليل ، وهو صاحب « مذهب الشك » ٤٣/٢ الذى كان أول من (اصطنعه) حين ألَّف كتابه « فى الشعر الجاهلى » - أنف لنفسه أن

يسبقه أحد إلى الشك في نسب المتنبي الذي أجمعت الرواية على التسليم به . وما دُمتُ أنا قد سبقته إليه ، فعلى رَغْمِي وِرْغَمِ التاريخ أن يكون هو أولى به مني وأحق . وإذن فليؤلف كتاباً ، وليُسَمِّ هذا الكتاب « مع المتنبي » - وليشك في نسب المتنبي ، وليتقَمِّ الأدلة من هنا ومن ثم ، محتالاً على تلييسها وتزيينها بما أوتى من حسن منطقي وبلاغة أسلوب وإعجاز بيان !! ولو زعموا أن « المَخِيلَةَ تَقْتُلُ نَفْسَ الخائل » ، (المخيلة : الخيلاء والكبر إعجاباً بالنفس) !

ولكن ، لماذا لم يستطع الدكتور الجليل إلا أن يتوقف في الشك الذي اصطنعه ، فذهب يزعم لنفسه أو للناس أن المتنبي كان (لا يعرف أباه) ؟ هذه هي المسألة التي وقفنا عندها في الكلمة السالفة ، وإليك خبرها .

قلَقَ الدكتور حيناً إلى مذهبه القديم في الشك ، فحاصَ حَيْصَةَ بين الكُتُب ، فوجد في كتاب عزام وكتابي من الأسباب الملفقة والعلل المزورة ما يُقَوِّمُ أودَ هذا الشك الذي انتحاه ودبَّ إليه ، فاتمَّ رأيه وقال : « هذه أسباب كافية وعلل وافية ، وإذن فلنشك ! » لكن أيشك في « وجود » المتنبي نفسه ، كما شك في وجود بعض شعراء الجاهلية ؟ كلاً ، فهذا ليس بشيء ، والعلل التي وقع عليها لا تؤدي إلى هذا الرأي . وثارت به بدوات العبقرية = والدكتور طه حسين بك رجل عبقرى بارع ، ليس في ذلك / شك عندي = فأخذت تُدِيرُ له الرأي والحجَّة والبرهان وما إلى ذلك ، ويستعصي الأمر ، وتلجُّ هي فيه ، حتى وضعت المشكلة وضعاً منطقياً خالصاً ، وللمنطق حيلة ، وفيه غناء ، وبه المُستعان في توليد الآراء !

يقول الرواة : « إن المتنبي جعفيُّ الأب همدانيُّ الأمُّ » ، والدكتور محمولٌ على الشك في هذا القول ، وإذن فهو ليس بجعفي ولا همداني ، فأى قبيلة ينتسب إليها ؟ ذكر عزام في كتابه ص : ٢٩ : « أن المتنبي لم يصرح باسم قبيلة ولا عشيرة » ، وعلى ذلك لن يجد الدكتور في ديوانه قبيلة غير هاتين يستطيع أن ينسبه إليها . وعلى ذلك فالرجل غير منسوب إلى قبيلة من قبائل العرب . أيكون ، إذن ، علويُّ النسب كما زعم (محمود

شاكراً (في كتابه ؟ ربما ، ولكن نفس الدكتور لا تطاوعه على أن يستلب هذا الإنسان شكّه وما وُلد له هذا الشك . إذن فهو ليس بعلويّ أيضاً . وأظلمت الدنيا عليه ، وهي مُظلمة . فهذا رجلٌ لا ينتسب إلى قبيلة من القبائل ، ولا إلى العلويين ولا غيرهم ، وهو عربيٌّ ولا شك ، فقد صرح الدكتور بذلك كما صرح شعره ، والعرب يعتزّون بالانتساب إلى قبائلهم « ويحرصون على ذلك أشد الحرص » ، فكيف الرأى ، وقد أدخله الشك مدخلاً لا يستطيع الخروج منه ؟ وهنا أسعفته العبقرية مرةً أخرى ، فالمتنبى لم يذكر أباه ، ولم يمدحه ، ولم يرّثه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات !! إذن ، إذن ، إذن ، فالمتنبى لا يعرف أباه . وليس في هذا شك ، فلو أنه كان قد عرّفه ، لذكره ، ثم لمدحه ، ثم لراثه ، ثم لانتسب إليه ، ثم لعرّف له قبيلة ينتهى إليها نسبه !!

هذا المنطق فاز الدكتور ، ووُلد له شكّه شيئاً يستطيع أن يسمّيه في / الآراء رأياً ، ٤٥/٢
وإذن فالكتاب قد حَضَرَ وُفِرغ منه ، وإذن فليُنشر الكتاب على الناس في أقرب فرصة ، ليطمس به ذكر هذا الواغل الطُفيلي الذي دخل على « مذهب الشك » آثماً ، وخرج منه سارقاً ! هذا الذي نشر له المقتطف كتابه عن المتنبى في يناير سنة ١٩٣٦ .

أنا أعرف الدكتور طه حسين بك ، وأعرف كيف يفكر ، وأعرف كيف يتهجم على غير بصيرة في الرأى . فأنا أشهد ، والدكتور يشهد معي ، أن هذا هو ما خطر له وهو يفكر في هذا الأمر . والدكتور الجليل ، وهو الراوية الثبت ، يذكر أنه كلّمنى في أسبوع المتنبى من العام الماضى (سنة ١٩٣٧) ويذكر ما دار بينى وبينه من حديث سنروى لك بعضه فيما يلى ، بعد أن نبّين ماذا أراد الدكتور بمعنى قوله في صفة المتنبى إنه (لا يعرف أباه) .

ولعل القارىء قد عرف ، قبل أن تُعرّفه ، أن الدكتور الجليل طه حسين بك يعنى بقوله : إن المتنبى كان (لا يعرف أباه) : أن هذا الرجل كان ولداً بين رجل وامرأة (لا يعرفهما أو لا يعرف أحدهما على الأقل) ، أو كان منبوذاً لغير رِشدة ، أو كان لقبطاً . وطىّ هذا معنى أنت تعرفه بعد ، وإلاً فهذا هو يقول في أول الكتاب كما

حدثتك ، إن المتنبي (لم يكن يعرف أباه) ثم يقول في ص : ١٠ : « إن المؤرخين الذين ذكروا جدّه لم يجمعوا على الاسم الذي يلصقونه به !! » وفي ص : ١١ : « إن المتنبي لا ينتسب إلى الرجال (هكذا) ، لأنه لا يريد ، أو لا يستطيع ، أن يجد في الانتساب إلى الرجال غناء » .

٤٦/٢ / ويقول في ص : ٢٥ : « ومن حقاك أن تسألني لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبي ، وأظهر الشك في معرفته لأبيه وأمه ؟ ... فأعلم يا سيدي إنما آثرتها لأنتهى منها إلى حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهي أن المتنبي لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه !! التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعنيني ! وإنما الذي يعنيني ، ويجب أن يعينك ، أن شعور المتنبي الصبي بهذه الضعة ، أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، قد كان العنصر الأول الذي أثر في شخصية المتنبي » .

ثم يقول في ص : ٢٧ : « ولماذا احتاج المؤرخون أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا ، أو لم يريدوا !! أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك » ؟

وفي ص : ٣١ : « هذا يدل من غير شك على أن سرا من الأسرار كان يكتنف حياة أبي الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقة الصلة التي كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتي كانت بين الحسين السقاء وبين هذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتي اقتضت أن تُهمل أم المتنبي إهمالاً تاماً !! » .

٤٧/٢ ثم يقول بعد حديث طويل كله شبهة مثل هذه في ص : ٣٤ : « هذا كله يكفيني لأقتنع بأن « مولد » المتنبي كان شاذاً !! وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها » . هذا ما نقلناه لك فتدبره ، فإن معناه ظاهر ، وهو أظهر عند من قرأ كتاب الدكتور من ص : ٩ إلى ص : ٣٤ . / والدكتور على عادته يُجمِّع القول ويُديره من هنا وهنا ، « ويصطنع » اللفظ الساخر ليدل على غرضه بغير تصريح ، كما ترى في قوله في اسم

جدّ المنتبى : « إن المؤرخين لم يجمعوا على الاسم الذى (يلصقونه به) » ، ثم يعقب على ذلك بقوله ص : ١٠ : « ومهما يكن من شيء فقد كان للمنتبى أب ، وكان له جدّ ، لأننا لا نعرف إنساناً ليس له أب ولا جدّ ، لا نستثنى من ذلك إلا اللذين استثناهما الله عز وجل حين قال : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) . وأنت بعدُ تعرف المعنى الذى أراده الدكتور الجليل .

وفى العام الماضى أُخبرْتُ أن الدكتور طه يذهب إلى أن المنتبى « لَقِيطٌ لِعَيْتَةٍ » ، فاستعدت بالله ، واستكبرت أن يقول الرجل هذا القول ، حتى كان يوم اجتمعنا فى دار الجمعية الجغرافية لأسبوع المنتبى ، (١) فكان من حديثه لى أن قال : أنت تذهب إلى أن المنتبى علوىُّ النسب ، وأنا قد قرأت هذا الفصل ، وأوافقك على الشكِّ فى النسب ، ولكنى لا أوافقك فى أنه علوىُّ ثم ماذا ، يا محمود ، لو قلنا إن المنتبى « لقيط » !!؟ وقد والله تُحِيلُ لى أن الشيطان فَاغْرَفِيهِ بينى وبين هذا الرجل ، فرجفتُ رَجْفَةً وَعُدْتُ بالله ثم قلت له : إن هذا رأى منقوضٌ من وجوه ، وهو على كلِّ حال نتيجة للشك فى نسب المنتبى ، مع التوقف عند مجرد هذا الشك ، قبل القول بأنه علوىُّ أو جُفَعِيٌّ أو هذا أو ذاك » ، وأردت أن أنبهه بهذه الكلمة إلى أن رأيه / مسلوخ من كتابى ، وذلك أنه أخذ ٤٨/٢ الشك فى النسب منى ، وعجز عن أن يقول شيئاً فى نسب جديد (يلصقه به) .

وهذا الرأى وحده هو سر اهتمام الدكتور طه بالكتابة عن المنتبى ، فلو لم يكن وَقَعَ عليه لما كتب عنه . فهو يقول فى ص : ٤ : « وليس المنتبى هذا من أحب الشعراء لى ، وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كلِّ البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحبِّ والإيثار ، ولقد أتى علىَّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطرُ لى أننى سأعنى بالمنتبى أو أطيل صحبته أو أديم التفكير فيه » .

(١) أرجو أن يعلم قارئى هذا بعد أربعين سنة من كتابته ، أن هذا الحديث قد نشر سنة ١٩٣٧ ، وقرأه

الدكتور طه يومئذ ، ولم ينكره ولم يكذبه . أقول هذا لأنى سمعت أن بعض الناس يزعم أن هذا اللقاء لم يحدث ، وهذا من أعاجيب زماننا !!

وقال في ص : ٥ : « وقد قلت في غير هذا الموضوع إنى لست من المحيين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه » .

فلولا أنى شككت في نسب أبى الطيب ، ولولا أنه أخذ هذا الشك منى ، وانتهى إلى أنه (لقيط) ، لما كتب عنه حرفاً واحداً ، لأنه لا يجب الرُّجُل ولا فنه ، وتساءلتى لماذا ؟ كما يقول الدكتور ، فجواب ذلك أن الأستاذ المازنى قد شرح في كتابه « قبض الريح » سرُّ هذا بأحسن بيان وأدقِّ فكرٍ ، يقول المازنى ص : ٨٣ : « لقد لفتنى من الدكتور طه في كتابه « حديث الأربعاء » ، وهو مما وضع ، وفي « قصص تمثيلية » ، وهى ملخصة ، أن له ولعاً بتعقُّب الزُّناة والفسَّاق والفَجرة والزُّنادقة » .

ثم ساق الأدلة من الكتابين على ذلك ، إلى أن قال في ص : ٨٩ : « وللقارىء أن يسأل لماذا لم يؤثر الدكتور « نحواً » آخر من « أنحاء » الأدب الغربى ، وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيِّره ؟ لماذا عُنى على وجه الخصوص بقصص / الزُّناة والزوانى ، وبحكايات الجهاد ، كما يقول هو ، « بين العواطف والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى ؟ » .

ثم شرع المازنى يقارن بالقسط والحق بين الدكتور طه وبشار الأعمى وأبى العلاء ، وقد استوفى الكلام على الغريزة الجنسية عند بشار وأبى العلاء ، وأثرهما في شعرهما وآرائهما ونظراتهما إلى الحياة ، وحياة المرأة خاصة ، حتى انتهى إلى هذه الكلمة في ص : ١٠٩ :

« فلا عجب إذا رأينا الدكتور كلفاً بتناول المُجَّان وأهل الخلاعة من شعراء العرب ، وتلخيص القصص التي تدور على الخيانات وما إليها ، وتسويغ ذلك والاعتذار له ، حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسانه غير ما تلجُّ به الرغبة في الكشف عنه والإفضاء به من مكنونات نفسه » .

وأنا أنصح من يريد أن يفهم ما تَنطَوِي عليه كلمات الدكتور طه في كُتبه ، أن يرجع إلى هذه الفصول التي كتبها المازنى في « قبض الريح » فيقرأها ويتدبرها ، فإنها من

أجود ما يُكْتَب ، وأحسن ما يعينك على التغلغل في أسرار طائفة من النفوس الإنسانية ومنهجها ، وإدراك ما ترمى إليه في أحاديثها وأشعارها وأخبارها وتأليفها واختيارها وما إلى ذلك .

وبعد ،

فهل يستقيم هذا الرأى الذى ذهب إليه الدكتور طه من أن المتنبي (لم يكن يعرف أباه) ، وأنه « لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه وأنه كان يشعر بالضعة والضعف من ناحية / أسرته ، ص : ٢٦ ، وأنه « لما تقدّمت به السنُّ قليلاً قد عرف من أمر نفسه !! ومن أمر أسرته ما أنكره وما لم يستطع أن يُقيم معه فى الكوفة ، فأثر الرحيل » ، ص : ٣٣ ، وأن « الكِذَابَ الذى كان يُكَاد به عند أئى العشائر ، ويراه أهون عنده من ناقله ، لم يكن كِذَاباً كُلُّهُ !! » وإنما كان له أصل « يملأ صدر المتنبي غيظاً وحفيظةً ، ويدوذه عن الكوفة ، بل يبغض إليه الحياة فى العراق ، ويحمله على أن يُنفق عمره غريباً مُجَوِّلاً فى الآفاق !! » ، ص : ٣٤ ؟؟؟

لم يستطع الدكتور الجليل العبقري أن يأتى ببيت واحد من ديوان أبى الطيب يؤيد به هذا الرأى ، ومع ذلك فهو يقول به ويكرّره ويعيده !! هذا على أن منشأ الشك فى هذا الأمر لابد أن يكون من ديوان الرجل نفسه . والدكتور يقول إن المتنبي كان يشعر بالضعة من ناحية أسرته ، وأنه عرف من أمر نفسه وأمر أسرته ما أنكره ، فأين وجد المتنبي يشعر بالضعة ، أو ينكر أمر نفسه وأمر أسرته ؟ وأين هذا الأثر الذى أتاح له أن يقتنع « بأن مولد المتنبي كان شاذاً ، وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته (كلها !!) ؟ وتأمل هذه المبالغة فى قوله (سيرته كلها) ، وقرأ الكتاب كله فلا تجد الدكتور طه حسين بك أشار فى موضع واحد إلى (حكاية) هذا النسب ، ولا أدخله فى شىء من العلل التى أراد أن يعلل بها ما (يرى من رأى) !! فهو بذلك عاجزٌ من ناحيتين : عاجز من ناحية شعر المتنبي ، وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبي وتحليلها على ضوء هذه الضعة ، وهذا « المولد الشاذ » . ولا أدرى بعدُ علامَ أجهَد الدكتور لسانه وكفَّ / مُستمليه ، بإملاء

هذه الفصول عن نسب المتنبي ؟ ففيها الخطأ ، كما بينا ذلك كله ، وفيها سوء النقل من الكتب ، وفيها ضعف الفهم للشعر ، وفيها فساد الفكر وتناقضه ، وفيها قذُف المتنبي بأنه (لا يعرف أباه) ، وكَبُرَ ذلك مقتاً عند الله وعند الناس . لقد كنا أقرب الناس إلى الإغضاء عما في كلام الدكتور طه من الخطأ والنقص والتناقض ، لو أنه ترك هذه الآراء جانباً ومضى على غلوائه يأتي بما يشاء من ذيول كلامه الطويل والتي تختال فيها كتبه ومؤلفاته !

وأستغفر الله مما فرط ، فقد نسيت أن أذكر لك أن الدكتور الجليل أراد أن يُلبس على قارئ كتابه فيوهمه ، حقاً ، أن المتنبي كان يشعر بالضعفة والضعف من ناحية أسرته ، فاستشهد في هذا الفصل ص : ١٣ ، بأبيات أبي الطيب التي أولها :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يُفُوقُ أَبَا الْبَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُهُ مَنْ نَجَلَهُ
وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ تَفَرَّوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ

واستخرج من هذين البيتين أن أبا الطيب « لا ينتسب إلى الرجال لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد في الانتساب إليهم غناء » ، ص : ١٥ = وأن هذه الأبيات « تصور ضعف المتنبي من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه » .

٥٢/٢ / وقد بينا فيما مضى فساد فهم الدكتور لهذين البيتين ، فالمتنبي ينتسب إلى رجل لم يصرح باسمه لا « إلى متجزىء له بعض يمتاز عن كله !! » ، كما فهم الدكتور العبقري . إن الدكتور طه حسين بك ، عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية ، رجل قد أثبتت التجارب والأيام ، ثم مؤلفاته ، أنه لا بصَّرَ له بالشعر ولا بمعانيه ، وسيأتي في مواضع أخرى من كلامنا تأييد هذا الرأي بأدلة كثيرة « تَقْصِي بِالضَّاحِكِ اسْتِعْرَابَهُ » ، كما يقول البحتري ، وسنسوق إليك هنا « فصلاً » من هذا الباب .

وأحب للقارئ أن ينفذ عن نفسه غبار هذه المعاني التي جاءت في كلام الدكتور طه ، ويبدأ معنا من حيث يجب أن يبدأ ، ليكون ذلك أنقى لنفسه ، وأظهر لفهمه مما علق به .

لو فرضنا أن المتنبي كان ، كما يزعم صاحبنا ، (لا يعرف أباه) ، وأنه كان يشعر بالضعة من قبل أبيه وأمه فلا يجهر بذكرهما ، وبالضعف من ناحية نسبه وأسرته ، وأنه قد عرف من ذلك ما أنكره وبغض إليه الحياة في الكوفة = ولو فرضنا أيضاً أن « الكذاب الذى كان يكاد به » هو بسبيل من هذا الأمر ، كما زعم الدكتور فى ص : ١٦ ، فهناك أمران لا مناص عن أحدهما : فإما أن يكون هذا « الكذاب » مما قالته فيه الشعراء ، تَنبِئُهُ فيه بالضعة ، وأنه « لا يعرف أباه وينكر أمره وأمر أمه » ، وإما أن يكون مما قيل قولاً ، ولم يُقل شعراً .

٥٣/٢ / أما الأول : فالدكتور مُطالب بإظهارنا على هذا الشعر إن كان سمع به أو قرىء عليه ، وما هو بمستطيع إن شاء الله !! فإنه إذا صح أن أحداً من الشعراء قد عرض بوالد المتنبي أو أبيه على هذه الصورة التى اخترعها الدكتور طه ، فعندئذ يصح أن يجيب المتنبي الشعرَ بالشعر ، وأن يكون هذا الشعر مما « يصور ضَعْفَهُ من ناحية أبلغ تصوير وأقواه !! » = هذا على أنه كان أولى بالمتنبي عند ذاك أن يسكت ، فذلك خيرٌ له من أن يفضح نفسه فى مجلس أبى العشائر ، ويحمل الناس على اللجاج فى السؤال عن نسبه ، والتقصى لأخبار أمه وأبيه وجدّه وجدّته . هذا صريح العقل .

وأما إذا كان هذا التعريض مما تداوله لسان ناطق وأذن سامعة ، وعرف المتنبي خبر ذلك ، فكان أولى به إذن أن يسكت عنه فى شعره ، وإن شاء تكلم فيه فى مجلس مُقنّع يراوغ فيه بالحجة ويدافع بالحيلة ، حتى يقطع عن نفسه شرّ هذا اللسان ، ولا يتحامقُ فيتحداه هذا التحدّى المؤذى الداعى إلى الشر والمماحكة وطلب الوقعة بقوله فى ذكر ذلك المفترى عليه :

وَرُبَّمَا أَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِيَ مَنْ لَا يُسَاوِي الخُبْرَ الَّذِي أَكَلَهُ
وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِي ، وَأَعْرِفُهُ وَالذُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهَلَهُ

ونرجو الدكتور طه أن يتفهّم = على سبيل الجِدِّ ، لا سبيل العَبَثِ كما يقول عن

٥٤/٢ نفسه = قول أبي الطيب : « ويظهر الجهل بى وأعرفه » ، فإن / هذا لا يقوله من يخشى أن يتطلع الناس إلى نسبه ، فينكروا منه سواةً أنكراها هو من قبل .

وأيضاً يا مولانا الدكتور الجليل ، كيف تستطيع أن تقول في رجل يشعر بالضعة من ناحية أبيه وأمه ونسبهما أو صلتهما ، وهو يدأب على الفخر بأنه لا يذكر الجدود ولا يوليهم اهتمامه؟؟ ولو صحَّ أنه مما يجوز أن يفخر به حين يكاد « بالكذاب » ، ويتم في نسبه ، فكيف يجوز أن يذكره في غير مناسبة تقتضيه أو تحمل عليه ؟ أياي الرجل وفيه العيب والعار ليدل الناس على عاره وعيبه ويقول : هأنذا فانظروني؟؟

هذا المتنبي يقول في صباه لغير مناسبة :

لَا بِقَوْمِي شَرُّتُ بَلْ شَرُّوْا بِي ، وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّأ دَ وَعَوَّذُ الْجَانِي وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

ويقول وهو بمصر في قصيدة الحمى ، ولغير مناسبة أيضاً :

وَلَسْتُ بِقَانِجٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بَأَنَّ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامِ

إلى غير ذلك من شعره الذي يدل دلالة صريحة على أن الرجل لم يكن يشعر بالضعة ، وإنما كان يكتفم أمراً جليلاً يخاف منه على نفسه . وإن الرجل إذا كان يشعر بالضعة في نسبه ، لا يأتي فينبه في شعره لغير سبب ولا علة إلى ذكر هذا النسب . ولو فعل ذلك لكان أحقق الحمقى ، وأشأمهم على نفسه .

/ وأيضاً يا سيدى العميد ، لو كان الأمر كما زعمت حين تقول في ص : ١٦ :

« ما عسى أن يكون هذا الكذاب ؟ أترأه يمسُّ نسبه من قريب أو بعيد ؟ » ، ثم تجيب

نفسك في ص : ١٧ : « ليس في ذلك عندي من شك ، فقد اتهم الرجل في نسبه » ،

أليس المعقول بعد هذا أن يكون الذين تولوا هذا « الكذاب » ونطقوا به ، واتهموا المتنبي في

نسبه ، وسألوه عن أبيه وجده فلم يستطيع أن يجيب = أن يكونوا قد عرفوا من خبر هذا

النسب الموضوع الدنيء طرفاً يلوِّحون به لهذا المتنبي ، فيهبج ويضطرب ويختلط عليه

أمره ؟ ولو كان هؤلاء قد اتهموه في نسبه كما تزعم ، لملأوا على أبى الطيب الدنيا بما يعرفون من عار أمه وأبيه ، ولتجاوبت به صدور أعدائه من الشعراء وغير الشعراء ، لفرط عداوتهم له وغيظهم منه ، ولترددت هذه الخسنة في نسبه في كل مكانٍ وعلى كل لسانٍ .

أجل يا سيدى ، فإن مثل الذى جَمَّجَمَتْ به من القول في نسب المتنبى ، لو كان على ذلك العهد (من سنة ٣٠٣ - ٣٥٤ من الهجرة) ، وفي البلاد العربية ، وفي غمرة تلك الفتن والوشايات والأكاذيب ، لما خفى على أهل الكوفة وهم قومه ، ولانتشر وملاً الأسماع والبِقَاع ، ولأخفت ذِكْر المتنبى ودسَّ رأسه في التراب من الهوان والعار ، ولم يجعل من دأبه أن يفخر بتركة ذكر الآباء والأجداد .

وقد بقى في هذا الفصل كثير من التناقض ، وسوء النظر ، وقلة التمهيد للآراء

وتقليبها على وجوهها ، وضعف المنطق ، وتركه ولا نبالى / به ، إذ كان فيما يستقبل من ٥٦/٢
فصول هذا الكتاب « مع المتنبى » ، ما هو أدلُّ عليه وأعلقُّ به . وقد رأيت أن الدكتور في هذا الفصل أراد أن يسلبنا شكنا في نسب المتنبى الذى رواه الرواة ، وأن يعارض رأينا في علوية أبى الطيب برأى لا يستقيم ولا يُسمَّى رأياً ، إذ يتهدم فيقول « إنه رجل لا يعرف أباه » . وقد خرج الدكتور منه ، بعد الذى كتبناه ، بنصيب الرجل الذى سرق قميصاً فبعثه مع ابنه ليبيعه ، وكان ابنه هذا يعرف أن أباه سرق القميص من رجل بعينه ، فعارضه في الطريق من سرقة منه ، فأسلمه إليه . فلما رجع قال له أبوه : بعث القميص ؟ فقال الولد : نعم ! قال : بكم ؟ قال : برأس المال !!

وأنا والله أشدُّ إشفاقاً على الدكتور طه حسين بك منه على نفسه ، ولكم وددت أنى يأتى الرجل بشيء في كتابه يقال له عنده : لم تخطيء يا سيدى . ولكن لعن الله الحظوظ ، فإنها ربما وضعت الرجل مناً في غير موضعه الذى هو له أوفق ، فيضطر إلى ما لا معدى عنه من طلب الشيء يحسن به مكانه ويثبت فيه ، فيكون في طريقه المرلة والعطب والهلاك ، وما نعوذ بالله منه ، ورحم الله من قال : « العرئى الفادح ، خير من الزئى الفاضح » .

وإلى السبت المقبل ، نستقبل الفصل الثانى من كتاب الدكتور حفظه الله .

- ٤ -

٥٧/٢ / يبدأ الفصل الثاني من كتاب الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك « مع المتنبي » من ص : ١٨ - ص ٣٤ ، وهو عن نسبه أيضاً من قبل أمه وجدته . وهو أيضاً فصل من الشك كالذى مضى ، بدأه الدكتور الجليل بهذه الكلمة الجليلة : « وهل كان المتنبي يعرف أمه ؟ مسألة فيها نظر ، كما يقول الأزهريون » ، ص : ١٨ . ونحن بسبيلنا من اختصار هذا الفصل على القاعدة التى جرينا عليها فى الكلمة الأولى من حذف الحواشى ، والإبقاء على مادة الفكر ، وعلى رأى ، وعلى الأسباب ونتائجها ، ثم نتبع ذلك بالنقد المفصل للفصل كله . يقول الدكتور :

« فديوان المتنبي صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه ولكن الخطب فى أم المتنبي أعظم منه فى أبيه » ، فالرواة والمؤرخون « ذكروه فسموه الحسين » ، أما هى فلم « يذكروا من أمرها شيئاً » ، « وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المتنبي » ، ص : ١٨ ، وهذه الأم (جدة المتنبي) أيضاً « لا نعرف لها اسماً ولا أباً » ، وإنما قال بعض الرواة : « إنها همدانية صحيحة النسب ، وإنها كانت من صوايح نساء الكوفة » ، « هذا وديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووضع جموح الشاعر فى غير موضعه من الرثاء :

٥٨/٢ / وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّحْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا

ص : ١٩ ، وينتهي الدكتور بعد ذلك إلى قرارة الأشياء ! فلا يكاد « يشك في أن المتنبي قد كان عربياً » ص : ٢١ ، « وقد كان المتنبي يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى » ص : ٢٣ . والدكتور الجليل يفهم كل شيء ، ولكن لا يفهم « الشك في عربية المتنبي ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أم أعجمية » ص : ٢٤ . ويريد الدكتور أن يقرر بهذه الكلمة أن أم المتنبي عربية ، ثم يقول الدكتور إنه يظهر الشك في معرفة المتنبي لأمه وأبيه ! ، لينتهى من هذه المسألة إلى « حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبي لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن (يَجْهَر !!) بذكر أمه وأبيه . التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعينى ، وإنما الذى يعينى ويجب أن يعينك ، هو أن شعور المتنبي الصبى بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، قد كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبي وبغض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياةً يحيط بها كثير من الغموض ، وبأخذها كثير من الشذوذ . رأى نفسه شاذاً لأمر ليس له فى يد ، ففكر تفكير الشاذ ، وعاش عيشة الشاذ » ، ص : ٢٦ .

ثم يقول : « وتسألنى ، ومن حقك أن تسألنى ، عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبي ، وعن مواطن هذا الشذوذ فلاحظ قبل كل شيء غموض الأمر فى نسبه ، ولاحظ بعد ذلك خلوة ديوانه من ذكر أمه وأبيه أو / الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد ٥٩/٢ هذا وذاك هذا الكذاب الذى كان يكاد به عند أبى العشائر . ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ، ووجد الشوق إلى لقاءها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء ، لم يستطع أن يدخل الكوفة أليس هذا كله دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبي ؟ » ، ص : ٢٧ . ثم ينطلق يتكلم وينشد قصيدته فى رثاء جدته إلى أن يقول : « هذا يدل من غير شك على أن سراً من الأسرار كان يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقة الصلة التى كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السقاء وهذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تُهْمَل أم المتنبي إهمالاً تاماً » ، ص : ٣٢ . والمتنبي يقول عن نفسه :

تَغْرَبُ لَا مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْماً

« فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حباً في الغربة » ، وإنما « تغرب منكراً للحياة في الكوفة » . وما الذى ينكر المتنبى من ذلك ؟ ينكر أمرين : « أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية ، والآخر يتصل بالحياة السياسية . وليس من شك عندي ، ولك أن تشكّ ، في أن المتنبى لما تقدّمت به السنّ قليلاً قد عرف من أمر نفسه وأمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه في الكوفة ، فأثر الرحيل » ، ص : ٣٣ . فهذا هو الأمر الاجتماعي . وأما السياسي فسيأتى ذكره في فصل آخر ، « وهو عندي أثر من آثار الأمر الأوّل » ، ص : ٣٤ .

ثم ينتهى الدكتور بهذا : « ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعني بأن طفولة المتنبى / لم تكن طفولة عادية وبأن الكذاب الذى كان يُكادُ به عند أبى العشائر لم يكن كذاباً كُله ، وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظةً » ، « هذا كله يكفينى لأقتنع بأن « مولد » المتنبى كان شاذاً ، وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها » ، ص : ٣٤ .

فهذه سبع عشرة صفحة اختصرناها في هذه الأسطر ولم نخل بموضع رأى للدكتور الجليل .

والدكتور في هذا الفصل يقرر أن المتنبى « لا يعرف أمه » كما كان لا يعرف « أباه » ، وبين أنه بينى شكّه في معرفة المتنبى لأمه على العلل التى اصطنعها في أمر أبيه ، فالمتنبى لم يرثها ، ولم يظهر الحزن عليها حين ماتت ، ولم يذكرها !! ولم يمدحها أيضاً ، أليس كذلك يا سيدى الدكتور ؟ وقد جمع ذلك في قوله : « فديوان المتنبى صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه » . وقد فرغنا في الكلمات الماضية من القول في أن إغفال ذكر الآباء ، وهم مادة فخر الشعراء ، لا يتخذ أصلاً في تقرير النسب ، ولا يجدى في الحكم بأن الرجل منهم « كان يعرف أباه » أو كان « لا يعرف أباه » .

وإذا تجاوزنا للدكتور فقلنا إنَّ له بعض العذر في أمر والد المتنبي ، وقلنا إنَّ الخطب في هذا الشك الذى اصطنعه هيَّئ ، وله وجهٌ ، وفيه مقالٌ ، فإن هذا الفصل من كتابه يجعلنا نقول له مثل الذى قال : من أن « الحَظْبُ في أم المتنبي (في كتابه) أعظم من الخطب في أبيه » . !!

٦١/٢ / إن الدكتور طه رجل لا يستقيم على رأى ، ولا يُلمَّ به إمام العارف الذى لا يغفل عن موضع التناقض والاختلاف والفساد الذى يركب بعضه بعضاً . فهو يقول : « كان المتنبي يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى » ، ثم يقرر بعقب ذلك : « ولعل هذا الرأى كان أبلغ المؤثرات في حياته العملية » ، ثم يزيده تقريراً بقوله : « وهو أبلغ المؤثرات في حياته الفنية على كل حال » . ويعنى بهذا التقرير الأخير أن (عربيته) كان لها الأثر في شعره . فإذا كان المتنبي كالذى يقرر وبالغ في تقريره ، فما الذى ينكر من أن « ديوانه صامت بالقياس إلى أمه ، صمته بالقياس إلى أبيه » ؟ وما الذى كان يريد من المتنبي ؟ أكان يريد أن يمدح أمه ؟ والعرب لا يفعلون ذلك = أم كان يريد أن يذكر أسم أمه في الشعر ؟ والعرب أيضاً قلماً يفعلون ذلك إلا لضرورة = أم كان يريد أن يفخر بأمه ؟ والعرب أيضاً لا يفخرون بأمهاتهم وإنما الفخر عندهم بالآباء ، وهم أصل الدم وصلة العصب = أم كان يريد أن يرثى أمه ويظهر الحزن على موتها ؟ والعرب أيضاً كانوا قلماً يرثون أمهاتهم أو يظهرون الجزع على موت النساء عامة ... ولو كان لهذا الدكتور طريقة في الفكر يتعقب بها المعانى ، ويستقصى الأغراض ، ويستوعب الأسباب والروابط ، لما جعل صممت ديوان المتنبي عن ذكر أمه أو مدحها أو الفخر بها أو الحزن عليها وراثتها موضعاً للنظر ، أو شبهة في الغموض ، أو علة للشك وهو يقول إنه عربى ، وأن عربيته كان لها أبلغ الأثر في حياته الفنية ... التى هى شعره .

٦٢/٢ أما كان أولى به أن ينظر نظرة العقلاء من العلماء فيقول : إن المتنبي رثى / جدته ، ولم يرث أمه ، ويسأل نفسه عن سر ذلك ؟ وسر ذلك بغير شك أن أمه ماتت وهو صغير لم يشهدا وهو شاعر يقول ويفصح = أو لعله وجد لموتها من الغم ما صرفه عن قول

الشعر . وهذا ليس بغريب ولا عجيب ، فكم من شاعر يُنكَبُ النكبة تُرَضُّهُ رَضُّ القَصْبَةِ ، فما يستطيع أن يثبت آلامه في بيت واحد من الشعر ؟ أليس أحد هذين هو الأقرب إلى عقل العقلاء ، وتصرف أهل البصر ؟ ولكن هذا الرجل ، كما قلنا لك مراراً ، يرى الرأى بادیء الرأى فلا يتبصر فيه ولا يقلبه ولا يروزه ، ويعزم على القول متهجماً فيصرفه هواه عن القصد ، فيلجئه ذلك إلى الاستعانة ببداوات عبقريته ، فلا تزال به تتقمم هذا وذاك ، وهو لا يبالي أن يناقض أو يخالف أو يتورط أو يغالط عقله ، ويفسد عقول الأشياع والمريدين من أصحابه .

ومن البلاء الذى لا بلاء بعده ، أنه حين يتخبَّط في مثل هذا ، يعمد إلى « اصطناع » الهدوء في إلقاء القول ، وكأنه على ثقة مما يقول ، ويزيد « فيصطنع » المنطق أيضاً ، وما يريد بذلك إلا إيهام من لا يقف متدبراً عند القول وقرينه ، وما يترافدان به من المعانى والأغراض .

ثم يبائع في التلبيس فيسوق إثر ذلك شبهة أخرى يقول فيها : « ولكن الخطب في أم المنتبى أعظم من الخطب في أبيه . فقد سكت المنتبى نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا في أسميه بعض الاختلاف ، وعرفوا له صناعة هي السقاية في الكوفة . وهذا على قلته وضالته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المنتبى ، لأنهم لم يعرفوا من / أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً . فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أبها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية ، وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المنتبى وأحبته وكلفته به ، وعمرت حتى رآته رجلاً » ، ص : ١٨ .

فتدبر هذا الكلام الفضفاض الطويل ، وهو لَعُوٌّ بيتدىء ، وثرثرة لا تنتهى وكل ذلك لأن المؤرخين لم يعرفوا من أمر أم المنتبى شيئاً ، ولم يذكروا اسمها ولا اسم أبيها !! والدكتور مُغرئٌ بهذا الضرب من الإفاضة حتى يصدع رأس القارىء بالضجيج اللفظى ، فينام فكره ، فيتلقى ما يريد به من الرأى نائماً أو كالنائم . وإلا فالأمر أهون من ذلك

بكثير أيها الدكتور العبقرى . فلو أنك أمرت مستمليك أن يمد يده فيتناول كتاباً من كتب تراجم الرجال فيقرأ لك طرفاً منها ، لعلمت أن أصحاب هذه الكتب ، وهم المؤرخون ، قلّما يعرضون في التراجم لذكر أمهات الرجال أو ذكر أسمائهن أو أسماء آبائهن . ومن الإنصاف أن نلاحظ أن المؤرخين لم يكونوا يقدرّون في أكبر الظن في سنة ١٩٣٧ ، أنه سيُتشكك في نسب المنتبى ، وسيُلتَمَس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة ! ولو أنهم قدرّوا شيئاً من ذلك ، « لأمكنهم أن يحتاطوا له بعض الاحتياط » !! أو كما قال الدكتور في ص : ١٩ .

ما أظن أحداً يستطيع أن يُخْرِج من شعراء العربية وهم ألوف لا تنتهى ، مئة شاعرٍ يعرف المؤرخون أسماء آبائهم وصناعة هؤلاء الآباء ، وأمّهاتهم وأسماءهن . ولعل الدكتور يطلب بعد ذلك من المؤرخين أن يصفوا له الآباء / والأمهات ، وحليتهم ، وطولهم ، وعرضهم ، ولون عيونهم ، وما إلى ذلك = وإلا زعم أن هؤلاء جميعاً لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم !

وهذه الأباطيل هي الأصل الذى بنى عليه الدكتور شكّه في هذا الفصل ، وهو أصل فاسدٌ كله .

وإنما شأن المنتبى من قبلها شأن مَنْ سبقه ومن عاصره ومن جاء بعده . فلماذا نقذف المنتبى وحده بهذا « المَقْت » الذى طَلَع به الدكتور ، ولا نأخذه بالقياس على أشباهه ونظرائه ، ونجعل الأمر فيه أمرهم ؟

هذا على أن المنتبى لم يذكر له أحدٌ من شعراء عصره شيئاً عن أمه ، يهجوها أو يعرض أو يعجز ، حتى يكون « صمت ديوانه عن ذكرها » سبباً في توجيه النظر إلى أمرها . ثم يكون هذا الأمر من القُبْح والمَقْت بحيث ينكره المنتبى = ثم يكون هذا الإنكار داعية للمنتبى أن لا يَجْهَر بذكرها !! = ثم يكون في سنة ١٩٣٧ ، حافزاً للدكتور العبقرى ليشك في « معرفة المنتبى لأمه » = ثم يكون هذا الشك سبباً في اقتناعه غاية

الاقتناع « بأن مولد المتنبي كان شاذاً ! وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ ، وتأثر به في سيرته كلها » !!

فإذا كان الأمر كما رأيت الآن ، فأى عجب فى أن لا يذكر المتنبي أمه شاباً ومكتهاً ، وراضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، وما إلى ذلك من أوهام الدكتور طه .

وانظر إلى هذه الحقيقة التى يذكرها ، « حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبي لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه / وأبيه ، التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعينى ، وإنما الذى يعينى ، ويجب أن يعينك ، هو أن شعور الصبى بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، قد كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبي » = ثم انظر إلى قوله : « لماذا احتاج المؤرخون أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا (أو لم يريدوا) أن يتحدثوا عن أمه !! » = ثم انظر إلى هذه الصلة الفاجرة التى يعينها الدكتور بقوله : إن سرّاً من الأسرار « يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستترُّ عنّا حقيقة الصلة التى كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السّقاء وهذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تُهمل أم المتنبي إهمالاً تاماً » .

ألا إن أم المتنبي لم تُهمل إهمالاً تاماً لسرّ من الأسرار ، بل شأنها شأن غيرها من أمهات الشعراء والرجال الذين لا نعرف عن أمهاتهم شيئاً وهم السّواد ، وقلّ أن يكون قد ذكّر من أمرهن شيء فى كتب التراجم .

إن عادة الدكتور أن يعتمد إلى الأصل الفاسد الذى بينى عليه كلامه ، فيطيل فى ذكره والتنبيه إليه بشبّه لا حقيقة لها ، ثم يدير الكلام من هنا ومن هنا ، ويحتال فى الإكثار والإطالة ، متلبساً بالهدوء والوقار ، ملوّحاً بالمنطق ، مخادعاً بالفكر ، ليتوهم من لا يدرك حقيقة هذا الأصل الفاسد الذى يعتمد عليه ، أن الرجل قد أتى بشيء ، وأنه قد فكّر ، وأنه قد علم ثم أخيراً أنه قد أجاد وأحسن ! وما به شيء من ذلك .

٦٦/٢ وأنت إذا رجعت إلى هذا الفصل بعد الذى بيناه من أن صمت ديوان / أبى الطيب عن أمه ، وصمت المؤرخين عن ذكرها ، أمرٌ لا غبار عليه = عرفت أن هذا الفصل وَحَلَّ كُلَّهُ ، وليس فيه من جهد الفكر إلا جهد الاحتياى وإرادة التلبىس والتّمويه على البسطاء ، ومن لم يدرُسْ على أصل حكيم مقرّرٍ ، ومن لا يقفُ على المعانى والأغراض وقوف المتثبت .

ولا نحبُّ أن نقف طويلاً عند إبطال هذه الأباطيل ، فإن أمرها بيّنٌ ظاهر . وقد تكلمنا فى الكلمة السالفة عن المعنى الذى أرادته الدكتور طه فجمع له كل هذا الغنّاء من الألفاظ والمعانى والآراء والأفكار ، ليقول إن المتنبى « لا يعرف أباه » و « لا يعرف أمه » ، وليقول إن « مولد » المتنبى كان شاذّاً ، ثم يفعل ذلك ليوقع فى نفس القارىء أن هذا الرجل كان ولداً لغير رِشْدَةٍ بين رجل وامرأة من الناس لا يعرفهما ، وينكر من أمرهما ما كان . واللّهمّ إنا نعوذ بك من فضوح الدنيا وفُضُوح الآخرة ! فهذه فضيحة عقلية « كبرى » ، لا يرضاها لنفسه إلا من تبع هواه ، وانتقاد لغرائزه ، وأعطى السّلم لصاحب الأمر والنهى فى شهوات متّبعية .

ثم يريد الدكتور تغطية هذا الفصل النَّغْل المعيون برأى جديد !! (النَّغْل : تَنْقُب الجلد من سوء الدّباغ . ومَعْيُون : ظاهر الفساد تراهُ العين) ، وهو أن المتنبى « عربىٌّ » ! فمن الذى شك ، يا سيدى ، فى عريّة المتنبى ، وهل فى الأرض أحدٌ تكلم فى هذا ، أو خاض فيه ، أو عرّض له ؟ وأىُّ شىء يحمل مؤلفاً على أن يملأ ستّ صفحات من كتابه (من ص : ١٩ - ٢٥) بكلام لا وزن له ، ولا غنّاء فيه ، ولا معنى يُراد له ؟ ويتعالم على الناس فيقول : / « ونحن إذا انتهينا إلى (قرارة الأشياء) لا نكاد نشك فى أن المتنبى قد كان (عربياً) » !! وقد أنصف الدكتور إذ وقع له لفظ (القرارة) فى هذا الرأى ، فإنه شىء ساقط حقاً لا يأتى إلّا من القَرّار . ولماذا يدور لسانه بما يملأ صفحتين على هذا النمط : « إنما أفهم الشك فى عريّة المتنبى ، لو أن المؤرخين روّوا له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرّأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً

عربياً » ، ص : ٢٤ ، « ولكنى لا أفهم الشك في عربية المتنبي ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية » ، ص : ٢٥ ؟؟

ولكن ، أيدرى القراء من أين أخذ الدكتور العبقري هذا المعنى فأفاض فيه للذَّجاجة لا للغرض ؟ فاعلم يا سيدى أن الأستاذ الجليل المفكر العاقل عبد الوهاب عزام حين تكلم عن نسب أبى الطيب الذى يذكره الرواة قال فى ص : ٣٤ : « ولكننا إذا رجعنا إلى الحقائق ، وتطلبنا الأدلة القاطعة ، لم نجد فى شعر أبى الطيب ما يدلنا دلالة صريحة على أن الرجل يَمَانٍ أو مُضَرِّىٌّ ، أو ما ينبىء بعشيرة أو قبيلة » ، ثم ذكر ثلاثة أدلة على خُمول نسب أبى الطيب ، ثم قال بعدها فى ص : ٣٥ : « ومهما يكن ، فلا ريب أن شاعرنا كان (عربياً قحاً) ، فلا يعيبه أن كان من بيت فقير ، وكفاه أن كان كما قال القائل :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

/ « فالرجوع إلى الحقائق » ، فى كلام عزام انحط فى كلام الدكتور إلى « قرارة الأشياء » ، وكلام عزام فى أن الفقر لا يحطُّ من قيمة الرجل العربى ، اقتطع منه أن المتنبي « عربى » . وتوهم الدكتور أن ثمة مَنْ شكَّ فى نسب المتنبي ، أو من سيَّشك فيه لقول عزام : « فلا ريب أن شاعرنا كان عربياً قحاً » ، ثم نفخ الدكتور فى الكلمة الواحدة من روحه حتى بلغت ست صفحات من فصل هو ست عشرة صفحة فهل يملك القارىء بعد ذلك شيئاً إلا العجب ، ثم الضحك ، ثم إسناد كفه إلى حشاه من الإفراط فى هذا الضحك ؟

ومن عجيب أمر الدكتور طه ، وهو الرجل العبقري الحاذق ، أنه إذا كتب أراد أن يتظرف فى كلامه ، فيأتى من ظرفه كلام كقطع الليل المظلم . يقول فى ص : ١٩ : « ومن الإنصاف أن نلاحظ أن المتنبي لم يكن يقدر فى أكبر الظن ، أننا سنتشكك فى نسبه ، وسنلتمس (ووجه الحق) بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدر شيئاً من ذلك ، لأمكن

أن يحتاط له بعض الاحتياط ! ومن يَدْرِي ؟ لعله كان يزدرى شكنا ، كما كان يزدرى كَيْد المعاصرين ، ولعله كان يُجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أنا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أبا الـ باحث ، والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ
وإنَّما يذكُرُ الجُدودَ لَهُم مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنفَدُوا حِيلَهُ

وأنت ظريف ، ظريفٌ جدًّا يا سيدى الدكتور ، حين تنوهم أن المتنبي لو عرف أنك ستلتمس (قفا الباطل) الذى تسميه (وجه الحق) ، وقدر / موقفه منك (لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط) !! آلمتنى يحتاط لك !! وهو الذى وقف لهؤلاء المعاصرين الكائدين له فى حضرة سيف الدولة ، ويخاطب سيف الدولة فيقول :

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا (عَيْبًا) فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي ، أَنَا الثُّرَيَّا ، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

آلمتنى الذى استعلَى على الملوك والسلاطين والخلفاء فى عهده !! ورمى فى وجوههم بهذا القول :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ (مَقْتُهَا) وَمَا يَفْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ
وَأَنْتَى رَأَيْتُ الضَّرَّ أَحْسَنَ مَنَظَرًا وَأَجْمَلَ مِنْ مَرَأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرُ

يحتاط من أجلك أنت خوفًا وفرقًا ؟

آه لو علم الدكتور أسرار الألفاظ التى يستعملها الرجل فى شعره ، إذن لتوصّل إلى فقه نفسية المتنبي ودراستها ، ولأخلد بكلامه هذا إلى الأرض ، ودسّه فى التراب ، وغيبه وستره عن الناس .

وآلمتنى يقول لك : « أنا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أبا الباحث » !

كلًّا يا سيدى ، فثمة أن المتنبي قال لكبير كُتَّاب سيف الدولة أوى الفرج

السامري :

أَسَامَرِيٌّ ضُحْكَاةً كُلِّ رَأْيٍ فَطِنْتِ ، وَكُنْتَ أُغْبِيَّ الْأَغْبِيَاءِ
صَعُرْتَ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتَ : أَهْجَى ! كَأَنَّكَ مَا صَعُرْتَ عَنِ الْهَجَاءِ !
/ وَمَا فَكَّرْتَ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ ، وَلَا جَرَّبْتَ سَيْفِي فِي هَبَاءِ

٧٠/٢

هذه نفس المتنبي تطل علينا من شعره ، لا من خفة روح الدكتور طه .

وأنا قد أثبت هذه الكلمات وأثبت كلام المتنبي ، ليعرف القارئ أن الدكتور الذى يدعى أنه يؤلف عن المتنبي ، ويقول فى آخر كتابه ص : ٧٠٦ : « فما أكثر ما بقى فى نفسى من المتنبي » ، يجهل كل الجهل نفسية المتنبي ! وإن كلمة واحدة فى كلام مؤلف ، لتدل أكبر الدلالة على صدقه أو كذبه فيما يدعى . وليس كذلك الخطأ ، فإن الخطأ بسبيل أخرى غير التغلغل فى نفس الشاعر الذى تكتب عنه ، والإحاطة بآرائه وعواطفه ، وما يحتمل أن يصدر منه وما لا يحتمل . فهذه الكلمات التى قالها الدكتور ، هى الدليل على أنه « لم يعرف المتنبي » كما لم « يعرف المتنبي أباه وأمه » ! ولشد ما عجبنا من هذا « الاحتياط » الذى أراده الدكتور من المتنبي . وكلما قرأت ذلك أو مثله فى كتاب « مع المتنبي » تمثل لى أبو الطيب وهو ينشد :

وَمَنْ جَهِلْتُ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وللسبت المقبل تنمة نقد هذا الفصل ، وإظهار شئ من سائر عيوبه وما آخذه ،

والله المستعان !!

- ٥ -

٧١/٢ / رأيت في الكلمة السالفة وما قبلها أن الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك = عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومؤلف كتاب « مع المتنبي » حالاً ، ومؤلف كتاب « في الشعر الجاهلي » سابقاً = أراد أن يشك في نسب المتنبي الذي رواه الرواة ، فشك على غير بينة أتى بها ، ولا لنقد « اصطنعه » ، ولا لعلّة توقّف فيها ونظر إليها ، ولا لأصل من علم الرواية أحاط به ، ولا لضرورة ملجئة لهذا الشك تحمله على تفسير شعر المتنبي وتحليله على حقيقة يهتدى إليها ، أو فرض ينصب نفسه للجدال فيه بالحجة والبيان والتصريف .

ثم انطلق يهيم في خياله إذ يزعم أن المتنبي « كان لا يعرف أباه ولا أمه » ، لأنه لم يذكرهما في شعره ، وأنه كان لا يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه ، لأن « مولده » كان شاذاً . ونعوذ بالله من خطرات السوء ، ومن قذف أعراض الناس بالأباطيل والأوهام ، فما في الدنيا شر من حديث الإفك وتعاطي « التظرف » بإسقاط المروءات .

٧٢/٢ / وأما هذه الكلمة فهي في إظهار سائر فساد هذا الفصل الثاني من كتاب الدكتور ، وبيان مغالطاته وتناقضه ، وسوء ما يكون فيه من الرأى والتأويل والتخيل الفاسد .

وأول ذلك أنه كان بمصر شريف من ولد العباس يعرف بأبي جعفر الشقّ ، فدخل عليه يوماً كاتبه أبو الحسين ، فوجده يبكي بكاءً شديداً ويقول : وأنقصام

ظهراه ، واهلاكاه ! فقال له : ما للشريف ، لا أبكى الله عينيه ؟ فقال : ماتت الكبيرة = يريد أمه ، وكان بها باراً . فقال الكاتب : ماتت ؟ قال : نعم ! فشقَّ الكاتب جيبه ، وأظهر من الجَزَع ما يجب لمثله . ثم ما لبث أن أنكر الأمر إذ لم يجد دليلاً : لا أَحَد يعزِّيه ، ولا في الدار حركة ، فما هو إلا أن أتت الخادمة فقالت للشريف : الكبيرة = تعنى أمه = تقرئك السلام وتقول : إيش تأكل اليوم ؟ قال : قولى لها : ومتى أكلت قطُّ بغير شهوتك ! فابتدر الكاتب يقول له : يا سيدى ، الكبيرة في الحياة !! فقال : وإيش تظنُّ أنها ماتت من حقِّ ، إنما رأيت البارحة في المنام كأنها راكبة على حمارٍ مصرىِّ تسقيه من النيل ، فذكرت قول الشاعر :

إذا ذَهَبَ الحِمَارُ بِأَمِّ عَمْرٍو فَلا رَجَعْتَ ولا رَجَعَ الحِمَارُ

وكذلك الدكتور طه حسين بك ، توهم بغير بينة أن المتنبي (لا يعرف أباه) ، ثم توهم أيضاً (أنه لا يعرف أمه) ، وجعل كلام أحلامه حقيقة يستنبط منها حقائق في الفصلين الأولين من كتابه ، ثم يُفَيِّق في سائر الكتاب / من تفسير هذه الأحلام وينزع عنها . ولكن قبل ذلك يحلِّم مرة أخرى في شأن جدته فيقول : « وكل ما نعرفه نحن أن جدته قد عطفت عليه ، وهذه السيدة التي قتلها حب حفيدها فيما يقال وكما سنرى (لا نعرف لها اسماً ولا أباً) ، وإنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون إنها همدانية صحيحة النسب ، وأنها كانت من صوالم نساء الكوفة ، وهذا كل ما نعرفه عنها التاريخ . وهو كذلك كلُّ ما نعرفه عنها ديوان المتنبي . أستغفر الله ، فديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور ، وصاغته الكبراء ، ووضع جموح الشاعر في غير موضعه من الرثاء وهو قوله :

ولو لم تكُونى بنتُ أكرمِ والدٍ لكان أباك الضَّحْمَ كوثك لي أمًّا

فأقل ما في هذا البيت أن المتنبي يذكر لنا أن جدته قد كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها ، ولكن المتنبي لم يذكر لنا شيئاً عن

هذا الوالد الذى كان أكرم الناس ، انتهى بنصه من ص : ١٨ ، ١٩ . ورحم الله من قال : « عِي الصَّمْت خَيْرٌ مِنْ عِي المنطق » !

وما أدري والله من أى أمور هذا الرجل أعجب ؟ أمن أوهامه ؟ أم / من استخراجها ٧٤/٢ (الحقائق) من أوهامه ؟ أم من توهمه أن هذا البيت من كلام المتنبي يشكك فى نسب جدته ؟ أم من هذا الشرح العجيب الذى علق به على البيت ؟ وقد بينا فى الكلمات السالفة هذه الأوهام العجيبة التى طافت برأس الدكتور الجليل ، وكشفت عن فُضُوح الرأى التى استخراجها من هذه الأوهام ، ووصفها بأنها (حقيقة لا تقبل الشك) . وبقي هذا البلاء العريض الذى ابتلينا به فى فهم الشعر ممن لا يُحسِن فهمه ، ولا يُبصر مواقع الألفاظ من المعانى . فالنحاة (يزعمون) أن « لو » حرف امتناع لوجود ، فيقولون فى التمثيل : (لو لم تكن جاهلاً لفهمت) أى (وجود) الجهل (منع) الفهم ، فهذا تقرير للجهل لا تشكيك فيه . وهذه مسألة بينة واضحة وضوح الصُّبح لدى عيين . فكذلك المتنبي ، يقرر أن جدته بنت أكرم والد ، فوجود هذا الوالد الكرم هو الذى منع أن يكون (والدها الضخم كونها أمه) ، فهذا تقرير لكرم عنصرها من جهة ، وفخر بنفسه من الجهة الأخرى ، فلذلك قال فى البيت الذى يليه :

لَيْنٌ لَدَّ يَوْمِ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَنفِهِمْ رَغْمًا

ثم انساق بعد ذلك يفخر بنفسه ويصفها بالجلال والحرية والشجاعة والمكارم فأين (بعض التشكيك) الذى خوَّض فيه هذا الرجل الحاذق الفطن المتكلم !؟ ... وليس هذا فحسب ، فتمَّ السؤاة الأخرى فى شرحه حيث يقول الدكتور الجليل : « فأقل ما فى هذا البيت أن المتنبي يذكر لنا أن جدته قد كانت بنت أكرم

والد » ، فهل فى القراء من يستطيع أن يفهم / معنى قوله (فأقل ما فى هذا البيت ...) ؟ ٧٥/٢ وأين الباقي الأكثر يا سيدى الدكتور وما هو ؟ لقد كان أولى بك أن تقول : « فكل ما فى

هذا البيت » لأن المتنبى يقرر أنها بنت أكرم والد ، وأن هذا قد منع ما وراء ذلك من قوله : « لكان أباك الضخم كونك لى أما » . وهذا من حيل الدكتور طه في التعبير للإيهام والتلبيس ، وخلط الباطل بالحق حتى يفسد في نظر من لا يتدبر .

ثم يقول الدكتور بعقب ذلك : « ولكنها ، يعنى جدة المتنبى ، لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها » .

فهل يفهم أحد من الناس = ولو كان من الجهال = هذا الذى قاله الدكتور ؟ وهل يستطيع أن يستخرج المعنى الذى ذكره الدكتور العبقري من ألفاظ هذا الشعر ؟ هل قال المتنبى لجده : إنك غير محتاجة إلى هذا الوالد الكريم لأنى حفيدك ؟ يا سيدى الدكتور طه ، هل تتكرم فتسمح لى أن أقول لك مرة أخرى ، وما بين الأولى والآخرة إلا (فَرَكَه كَعَب) : إن النحاة يزعمون أن (لو) هذه التى استعملها المتنبى فى أول البيت هى حرف امتناع لوجود ، وأن (وجود) الأب الكريم (منع) أن يكون حفيدها المتنبى هو أباه الضخم ؟ فأين هذا يا سيدى من الخلط الذى تقوله من أنها (لم تكن محتاجة إلى النسب لأنه حفيدها) ؟

/ ثم ما هذا التعسف يا مولانا الجليل ؟ وما هذا التحكم فى السنة من مات من الشعراء ؟ ثم ما هذه السيطرة التى حَبَاكَ الله بها على عباده ؟ ثم ما هذا السلطان الذى مُلِكْتَهُ على ما يجب أن يُقال وما لا يجب ؟ ومن الذى حَوَّلَكَ الحق فى أن تقول بعقب هذا الغثاء : « ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الوالد الذى كان أكرم الناس » ؟ لماذا يذكر المتنبى ذلك ؟ وأى ضرورة فى الشعر تقتضيه أن يثبت لك فيه اسم هذا الوالد ونسبه وصفته وطوله وعرضه ؟ وهل كان جميلاً أو دميماً ؟ وهل هو أزرق الحدقة أم أسودها ؟ وهل هو أعمى أم مبصر ؟ وهل كان أقى الأنف أم أفطس ؟ أئذا لم يذكر لك المتنبى شيئاً عن والد جدته ، نصبت له نفسك فى مكان مُنْكَرٍ وَتَكْبِيرٍ تحاسبه على

الصغيرة والكبيرة حتى تبلغ ما تريد من الشك في نسبه وقذفه في أمه وأبيه ، وأنه لا يعرفهما ولا يستطيع أن يجهر بذكرهما !! وأن ثمة صلة بين الحسين السقاء وهذه الجدة (أقتضت أن تُهمل أم المتنبي إهمالاً تاماً) ؟ ومن الإنصاف ، كما يقول الدكتور ، أن نلاحظ أن المتنبي لو كُشف له غيبُ الأيام وعرف أن مثلك سيتشكك في أمره ، وبلغ هذا المبلغ الذى بلغت ، متعسفاً متحكماً متهجماً ، وأن مثل هذا القول سيجد أذنًا تصغى إليه وتسمع له ، لجمع شعره فأحرقه ، ولضرب الناس على روايته وهو يقول : « أتق الصَّيَّان لا تُصِيبُك بأعقائها » ، أو كما قال المثل . (الأَعْقَاءُ جمع عَقَى : وهو ما يخرج من بطن الصبى حين يولد قبل أن يطعم ، والعَقَى أسود لزوج كالغراء) .

فهذا كما ترى آستنطاق للشاعر بما لم يقل به ، وتلفيق على فهم القراء / بالمقدمات ٧٧/٢ الفاسدة ، وهوى غالب على فكرٍ مضطرب ، وسوء فهم للشعر ليس بعده سوء ولا فساد ، وتعسفٌ بغيض ، وتحكمٌ غليظ ثقيل ، بغير ضرورة موجبة ، ولا معنى مستور يُراد له التوضيح والبيان وهذا كما ترى أدب الدكتور الجليل طه حسين بك وفقهه في العربية ومعاني ألفاظها ، وكرسى الجامعة من وراء ذلك كله يُعينه ، فكأنه رُوْحُ الْقُدُس !!

وأعجبُ العجب ، والصيامُ في رَجَب ، ما سنذكره لك من المثال المنصوب في كتاب الدكتور طه للتناقض أولاً ، ولسوء الفهم ثانياً ، وللتعسف البغيض الغليظ ثالثاً ، إذ يتخيل الدكتور أنه وحده الذى له حَقُّ النظر والاستنباط والحكم ووضع النتائج من شعرِ المتنبي ، وأنه ليس لغيره مثل الذى له من ذلك . يقول : « وإذا كان الكائدون للمتنبى من معاصريه قد عجزوا عن أن ينفروه ويُنفدوا حيله ، ويضطروه إلى أن يذكر لهم آباءه وأجداده ، فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبي منافسةٌ ولا خصومةٌ ، وليس هؤلاء الباحثون

المعاصرون من العلم بأمر المتنبي ودخيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه في القرن الرابع .
فليس هناك شك في أن الذين عاصروا المتنبي وخصموه ، كانوا يعرفون من سيرته ومن
أمره جملةً أكثر جداً مما نعرف ، لأننا لا نعرف شيئاً ، أو لا نكاد نعرف شيئاً ... » ،
ص : ٢٠ .

وأول ما في هذه العبارة أنه قد أراد بها الرد على رجل واحد ، لا على / (هؤلاء
المعاصرين الباحثين) ، وهذا الرجل الواحد هو (محمود شاكر) الذى شك في النسب
الذى رواه الرواة ، وزعم أن المتنبي كان علويًا . فما من أحد غيره حاول أن يعرف حقيقة
الأمر في نسب المتنبي . وكتمان هذا الرجل المؤلف آسمى وذكرى لا يجدى عليه شيئاً ،
ولا ينقضى . بل إن جعله المعاصر الواحد والباحث الواحد « معاصرين وباحثين
جملة » ، دليل على أنه متخلف عاجز عن الفكر في القول الذى يريد أن يرده بهذه
الكلمات . وأنا أشهد ، والدكتور الجليل يشهد معى ، أنه أعجزُ الناس عن النقد ، ثم
أبلغهم عجزاً عن نقدي أنا خاصة وسيرى القارئ أمثلة كثيرة من هذا العجز ،
حين أراد أن يتعرض للذكرى في كتابه بالتلميح لا بالتصريح ، حتى بلغ من عجزه أنه كان
يَعْمِد إلى النص الذى اعتمد عليه في استنباط رأى ، فيهمل النص ويرويه في ألفاظ من
عنده ملفقة ، حتى يفسد معناه الذى هو له . ومع ذلك فلا يتحرج ولا يتذم من أن
يشير في أسفل الصحيفة إلى الكتاب الذى نَقَلَ عنه بالجزء والصحيفة !!

ودع هذا ، فإذا كان هؤلاء المعاصرون الباحثون عاجزين عن إدراك حقيقة القول
في نسب المتنبي للعلل التى ذكرها ، فلماذا لم يكن هو من جملة هؤلاء الباحثين
المعاصرين ؟ ولماذا يكتب إذن عن نسب الرجل حتى يرميه بالداء القبيح في عرض أمه
وأبيه ؟ وكيف يبيح لنفسه أن يقول أنه اقتنع بأن (مَوْلِد) المتنبي كان شاذًا ؟ إلى آخر
هذا السخف الذى عرضناه ! أترى هذا الدكتور ليس من المعاصرين ؟ أتراه يملى على
غلامه هذه الفصول وهو / مِنْ وَرَاءِ حُدُودِ الدُّنْيَا فِي بَحْثِهَا الْآخِرَةِ ؟

وإذا كان هذا الرجل يعترف بأنه لا يعرف عن المتنبى شيئاً أو لا يكاد يعرف شيئاً !! فما غناء هذا الكتاب الذى كتبه ؟ وعلى أى شيء اعتمد ؟ ومن أخذ ؟ وكيف استوحى ؟ ألا إن فى الكلام ما يسمى (فاسداً) كما قالوا - وعندى أنا أن فى الكلام ما لا يستحق أن يسمى (فاسداً) ، لأن هذا اللفظ لا يستغرق كل معانى الفساد الذى يكون فيه . ألا ترى ذلك يا سيدى الدكتور ؟ فإن لم تكن تراه ، أفلا تراه أنت يا سيدى القارىء ؟ بلى وربِّ الذى قال (ﷺ) : « الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار » .

...

ومن أعجب السخف وأغربه وأعرقه نسباً فى الأباطيل ، ما عرض له الدكتور فى ص : ٢٣ ، ٢٤ إذ يقول : « وقد أنبأنا المتنبى برأيه هذا (يعنى عربيته !!) فى نفسه حين قال :

لا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ، وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِمَجْدُودِي
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّأ دَ ، وَعَوَّذُ الْجَانِي ، وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

فهذا البيت الثانى صريح فى أن المتنبى كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه وإنما يشرف به قومه ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلاهم وخصالهم » . ولا يفوتنك أن تسمع / لهذا العبقرى حين يقول إن البيت الثانى صريح « فى كذا وكذا » - وعلم الله أن هذا الصريح الذى أتى به فى كلامه هو البيتان جميعاً ، وليس بيتاً واحداً !! ثم يقول فى إثر ذلك : « فما الذى يمنعنا أن نصدق المتنبى ، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانياً ، لا شيء إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم (تأمل هذا جيداً) ، أفنجدد عربيتهم لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب ؟ وما يمنعنا إذن أن نجدد إنسانية الناس ، لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناسى الأولين » ، ووقفت العبقرية فى ص : ٢٤ .

فأنت ترى أن هذا الرجل يزعم لك أن المنتبى فى هذين البيتين يرى (أنه عربى قحطائى) ، ولم يقل المنتبى ذلك كما ترى ، بل قال : « وبهم فخر كل من نطق الضاد » ، والقحطانيون والعدنانيون كلاهما ينطق الضاد ، والإجماع على أن « فخر من نطق الضاد » ، وهم العرب ، هم قريش من عدنان ، فأين المرجح الذى جعل الدكتور يستخرج من كلام المنتبى أنه كان يرى (أنه عربى قحطائى) فى هذا البيت ؟ وأين الدليل على أن « فخر من نطق الضاد » هم قحطانيون لا عدنانيون يا سيدى الدكتور ؟ أفترى لماذا أتى هذا الرجل بهذه الكلمات ، وبهذا التأويل الفاسد ، وبهذا التعسف الغليظ ، وبتحميل البيت ما لا يتحمل من المعانى والأغراض ؟ إذن فأعلم أنه ما أتى بذلك إلا ليعارض هذا المسمى (محمود شاكر) ، لأنه هو الذى قال / فى كتابه أن « فخر من نطق الضاد » ، هم - ولا شك - أبناء على رضى الله عنه وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ . وجعل ذلك من الأدلة على (علوية) أبى الطيب فى باب النسب .

وأكثر من ذلك أن الرجل حين غلى صدره بهذا العشاء الذى يقذف الناس به ليرد على قولى فى (علوية) أبى الطيب ، ناقض نفسه ، وأتى بالدليل على اضطراب فكره ، وقلة تبصره ، وسرعة تهجمه على الحق والباطل ، برأى ضعيف وإدراك واهن . فهو حين شك فى نسب أم المنتبى وأبيه ، وقذفهما بالكبيرة الفاجرة ، حصل من الأدلة على ذلك أن المنتبى لم يذكر لنا نسبه ولا نسب أمه ولا جدته ، ولا ذكر المؤرخون شيئاً من ذلك ، فأنتهى إلى الرأى الذى قال به : من أن المنتبى (لا يعرف أباه ولا أمه) ، أو أنه لقيط لغير رِشدة . ولكنه فى هذا المكان لا يرى أن هذا الإغفال للنسب مما يمنعنا من القول بأن المنتبى (عربى قحطائى) ، وجعل أمره فى ذلك أمر « الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم » . فلماذا ، أيها العبقري ، لم تجعل أمره فى معرفة (أبيه وأمّه) ، أمر هذه الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم وأضاعها المؤرخون ؟ بل عمدت إلى القذف فى عرض الرجل ، ولم تتق الله ، ولم تحفظ على نفسك شمائل أصحاب المروءة والحياء والستر ؟ أم تُرك تزعم أيضاً فى

إحدى بَدَوَاتك أن هذه (الكثرة التي لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم) ، هي كثرة من الناس لا تعرف آباءها ولا أمهاتها ، وأنها ولدت لِغِيَّة من غرور الشيطان وتسويله وتزيينه !!

/ وليس هذا فحسب ، بل أنظر إلى هذا الرجل إذ يأتي للتدليل على هذا الذى ٨٢/٢ قال بقوله : « وما يمنعنا إذن أن نوجد إنسانية الناس ، لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأوَّل ، أو إلى الأناسيِّ الأوَّلين ؟ » .

أين هذا من ذلك أيها الرجل ؟ أتجعل الانتساب إلى قبيلة بعينها أو إلى رجل بعينه ، كالانتساب إلى جنس الإنسان ؟

اسمع ، يا سيدى الدكتور ، إنك لرجل كثير المغالطة ، شديد اللَّدَد ، غير مستقيم الرأى ، مضطرب الفكر ، متخلف النَّظَر ، فإن الشرط فى أن تكون عربياً هو أن تكون متحدراً من سلالات عربية رجلاً رجلاً . هذا هو الأصل . وأما أن تكون إنساناً ، فقد قال المناطقة فى تعريفه أنه « هو الحيوان الناطق » الذى يمشى على آثنين لا على أربع ، وبذلك يمتاز الإنسان ، وليس يُشترط فى إثبات إنسانيته أن يكون حافظاً لنسبه إلى الإنسان الأوَّل أو الأناسيِّ الأوَّلين !! فإذا تكلمت بكلام المنطق فلتنظر نَظَر المنطق ، وإلا فالعيبى والسكوت خير كله ، وقد قالوا ، أو رحم الله من قالوا : « عيبى الصمت خير من عيبى النُّطق » ، فوالله إن هذه الأقوال التى تأتينا بها لتفضح أمة بأسرها ، لا رجلاً واحداً .

ومن ظريف تخليط الدكتور الجليل أنه يقول فى معرض حديثه عن اللُّغو الجميل فى عربية المتنبي : « ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبي ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمه أعجمية ، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ، وما دام هو ينبئنا أنه عربى صريح » ، ص : ٥٢ . فالقرائن وصمت الخصوم = فى منطق الدكتور ، وفى هذا

الموضع خاصة = / هو مما لا يجعله يشك أو يقارِفُ الشك على الأصح ، ولكنه حين ٨٣/٢ دفعته طبيعته وغريزته إلى ذكر السَّوءات فى صلة والد المتنبي بأمه ، وصلته بجَدِّته ، وصلة المتنبي بهم جميعاً ، لم يَقم للقرائن ولا لصمَّت الخصوم وزناً ، ولم يَحْفَل بهم ، بل جعل

هذه القرائن نفسها ، وهذا الصمت نفسه ، دافعاً من دوافع الشك ، وسبباً من أسبابه ، ودليلاً على الرأى الفاجر الذى اعتمده وامتدَّ فيه واستطال ، فأطلق لسانه فى عرض الرجل وأمه وأبيه وجدته .

وقد أردنا الإطالة والتكرار فى هذا الفصل من كلامنا خاصة ، لنكشف للقراء عن هذه الفوضى العقلية ، وهذا الاضطراب الفاسد المفسد ، وعن التعسف القبيح والسيطرة الباغية ، وعن ثقل النفس التى يُعْذُّها من يجهل ظرفاً وتظرفاً ، وعن البذاء الذى لا ينتهى أبداً إلى غاية يقف عندها وقفة المتحرِّج ، وعن سوء الفهم للشعر وقلة البصر به ، وعن تحميل الألفاظ العربية ما لا تحتل من المعانى ، وعن فساد الاستنباط الذى « يصطنع » صاحبه الهوى ، والتهجم على غير هدى ولا بيان = وما نفع ذلك إلا لنوُدِّى أمانة الله التى حُمِّلناها بقول رسول الله ﷺ : « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُذُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَاتِّحَالَ الْمَبْطَلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » . وقد رأينا من شباب هذا الجيل مَنْ أخذ يقول فى العلم عن هذه الأصول الفاسدة من التعسف والتهجم والانطلاق إثر الغرائز الدنيا ، وهؤلاء هم الذين يتعبّدون بذكر الدكتور الجليل طه حسين بك ومَنْ لَفَّ لَفَّهُ ، فتقاذفتهم هذه العبادة بتزكية من الدكتور طه حسين إلى الصحف والمجلات والمطابع ، فرَمَوْا فى / وجوه الناس بالعتِّ البارد الغليظ من الفهم والظرف والأدب ، حتى اختلط على الناس الأمر ، فكرهوا الأدب واستنقصوا أهله ، واستسقطوهم واسترذلوهم ، وبادروا إليهم بالمهانة والمذمة ، ثم انتهوا إلى الإعراض عنهم وإغفالهم ، فضاء المُجيد وهو قليل ، فى هذا العُبار الثقيل الذى ثار فملاً الجوّ ، وأعمى الأعين ، وتحوّل فى الأنوف إلى مثل السّدادة من الجيفة المتعفنة .

- ٦ -

٨٥/٢ لا يَهُولُنكَ ، أيها القارئ الكريم ، ما ترى من ضَخامة بعض هؤلاء الفلاسفة الذين يملأون الأوراق والمجالس وقاعات المحاضرة بالثرثرة والإفاضة والتطويل ، فكثيرٌ ذلك لَغْوٌ وَعَبَثٌ وَعُدْوَانٌ على جهود الوادعين المتواضعين الساكنين ، وإنما هم قوم حَشَوُهُم ألقابٌ لها رنينٌ وصوتٌ وصدىٌ تتجاوب فيه الأصدااء ، وإنما هم قوم يتصدَّقون على القراء بالذى يستلبونه من قول الناس وآرائهم وفنونهم كالذى زعموا من أن ابن أبى ليلى كان يساير رجلاً من وجوه أهل الشام ، ^(١) فمراً بحمال معه رُمانة ، فتناول هذا الشامى رمانةً فأخفاها في كُفِّه ، فعجب ابن أبى ليلى من ذلك واستكبره ، ثم رجع إلى نفسه وكذَّب عينيه ، حتى مرَّ بهما سائلٌ فقيرٌ ، فأخرج الشامى الرمانة من كُفِّه فناوله إياها ، فقال له ابن أبى ليلى : قد فعلت عَجَباً ! قال الشامى : وما هو ؟ قال : رأيتك أخذت رمانةً من حمالٍ وأعطيتها سائلاً . قال الشامى : وإنك ممن يقول هذا القول ؟! أما علمت أنى أخذتها سيئةً ، وأعطيتها فكانت عشرَ حسنات ! فقال ابن أبى ليلى : أما علمت أنك أخذتها فكانت سيئةً ، وأعطيتها فلم تُقبَل منك ؟

و كثير من هؤلاء الأذعياء من الفلاسفة يذهبون مذهبَ هذا الشامى الكبير الوجيه ، فيعتقدون في أنفسهم أن لهم حقَّ السُّطو على مجهود الناس ، / وأنهم حين يُعطون الناس ما أخذوه ، يزيدونه من أسمائهم سُمُوماً ، ويمنحونه من جاههم جاهاً ،

(٥) نشرت في جريدة البلاغ ، السبت ٧ من المحرم سنة ١٣٥٦/٢٠ من مارس سنة ١٩٣٧ .

(١) ابن أبى ليلى : هو عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة ، كان فقيهاً عالماً نبيلاً . توفى سنة ١٤٨ هـ .

ويضعون فيه سرهم وسرَّ عظمتهم ، وتراهم يجترئون على الناس ، ولا يتذمّمون من العدوان والإغارة والتبجح بادّعاء الملّك فيما لا يملكون ويُغريهم بذلك أن أكثر المنكوبين بهم هم من المستضعفين الذين يتهيّبون أن يقاضوهم ، أو أن يُغيروا عليهم فيستردّوا أقوالهم ، وآراءهم على الرغم والممارسة والتشبيث .

وقد شاء الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك ، عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، أن يؤلف كتاباً يسميه (مع المتنبي) ، ويشاء هذا الكتاب أن يسير بين صَفحات الكتب ، فيتناول ما يشاء منها بغير إذن ولا نسبة ، غير متذمّم من إثم ، ولا متحرّج من عدوان .

وقد كشفنا في الكلمات السابقة السالفة عن الأئحاء والآراء والأصول التي استلبها أو « اصطنعها » كتاب الدكتور طه حسين من كتابى عن المتنبي ، ومن كتاب العالم الجليل الأستاذ عبد الوهاب عزام . على أن للدكتور في ذلك فضيلة ليست لغيره ، فإنه كان يُبدّل ويغيّر ، ويضع هذه الأشياء في غير مواضعها ، متحرّياً إخفاءها بالحيلة والجرأة ، متوخّياً أسلوب الإفاضة والثرثرة الذى لزمه وانطلق فيه وامتدّ عليه .

وهذا حينُ القول في سائر ما أخذه من كتابنا في الفصلين الثاني والثالث من كتابه من ص : ٩ إلى ص : ٣٤ ، وستترك أشياء مما كان لنا / الفضل في تنبيه الدكتور إلى النظر فيها ، والوقوف عندها ، لنُدع لقارىء كتابنا وكتاب الدكتور موضعاً يُعمل فيه فكره ، ويصرّف فيه رأيه ، و « يصطنع » أسلوب (شرلوك هولمز) في استجلاء الغوامض ، وحُسن البصر ، وتتبع الدقائق التي تُفضى به إلى جمع الأدلة لتكوين الرأى ، ثم وضع الجانى بحيث لا يجد مساعاً للتخلّص من الاعتراف بجنايته .

١ - يقول الدكتور الجليل في ص : ٢٧ : « وتساءلتنى ، ومن حَقك أن تسألنى ، عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبي وعن مواطن هذا الشذوذ فلاحظُ

قبل كل شيء غموض الأمر في نسبه ، ولاحظ خُلو ديوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد هذا وذاك ، هذا الكذاب الذى كان يُكاد به عند أبي العشائر ، ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ووجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء ، لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد ، وكتب إلى جدته لِتَشْخَصَ إليه .

٢ - ثم قال فى ص : ٢٨ : « لماذا كاد الكائدون للمتنبى فى نسبه ؟ لماذا تعمّد العُربة عن الكوفة وألح فيها ، وتجنّب الحياة فى العراق ما وسّعهُ هذا التجنّب ؟ لماذا « عجز » عن دخول الكوفة حين خفّ للقاء جدته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أن تشخص إليه ؟ كل هذه حقائق واقعة لا نستطيع أن نشكّ فيها (هكذا) ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً » .

٣ - / ثم يثبت الدكتور أبياتاً من رثاء المتنبى لجدته من ص : ٢٨ - ٣١ ، ٨٨/٢ ، ويقف عند أبيات من هذه القصيدة فيستخرج منها مواضع للقول والسؤال والشبهة ، فيقول تعقيباً على هذا البيت :

طَلَبْتُ لها حَظًّا ففَاتَتْ ، وفَاتَنِي وَقَد رَضِيْتُ لِي ، لَو رَضِيْتُ بها ، قِسْمًا

« فهو قد طلب لجدته حظاً لم تدركه لأنها أسرع إلى الموت ، ولأن هذا الحَظَّ أبطأ على صاحبه » ، ص : ٣١ . وأرجو أن يقف القارىء عند هذا الكلام العربى المبين من أستاذ الأدب العربى بالجامعة المصرية . فظاهرُ كلام هذا الفطن الفهامة البليغ ، يُفصح عن أن المتنبى « لم يدرك هذا الحظ » ، والسبب فى هذا الإخفاق أن جدته ماتت ، وأن الحَظَّ أبطأ عليه . فليقرأ القارىء بيّت المتنبى وشرح الدكتور الجليل ، ليعلم صدق الذى نقول به : من أن الرجل متخلف الفهم فى العربية ، مُضطرب الفكر فى المنطق ، لا بصّر له بالشعر ، ولا طاقة له على استيعاب معانيه . وما دام الأمر كذلك ، فهو لا قدرة له على استنباط المعانى من الشعر . ودعواه فى التوقّف عند الأبيات لربطها بحوادث حياة الرجل ، دعوى باطلة يبطلها هذا التخلف فى الفهم وسوء العلم بمعانى الكلام العربى !؟

٤ - ويقف أيضاً عند قول المتنبي :

هَبِينِي أَخَذْتُ الثَّأْرَ فَيْكَ مِنَ الْعِدَى فَكَيْفَ بِأَخِذِ الثَّأْرِ فَيْكَ مِنَ الْحُمَى

٨٩/٢ / فيقول معلقاً عليه : « فمن حقنا أن نسأل عن هؤلاء الأعداء من هم ، ومن عسى أن يكونوا ؟ » ، ص : ٣١ .

٥ - ويقف أيضاً ، وما أكثر وقوفه ، عند قول المتنبي :

لَيْنٌ لَدَّ يَوْمِ الشَّامَتِينَ يَوْمِهَا ، لَقَدْ وُلِدْتُ مِنِّي لِأَنْفِهِمْ رَغْمًا

فيقول فى ص : ٣٢ : « فهو يحدثنا بأن قوماً قد يسرون بموت جدته ، ويشمتون بموتها ، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت ، وأعجزها الموت عن أن تكبّتهم وتردّ كيدهم فى نحورهم ، فقد ولدته رَغْمًا لأنوفهم ، وكبّتا لما فى صدورهم من الحقد والشنآن » .

٦ - ثم يقف أخيراً ويقول : « ولكنك تقف من هذا الوصف المألوف فى شعر

المتنبي عند هذا البيت الذى لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكير :

تَغْرَبُ ، لَأُمُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ ، وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حباً فى الغربة ، ولكن إيثاراً لها ولمشقاتها وأخطارها على العافية فى الكوفة . وهو لأمرٍ ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرض لما قد تنكشف عنه من الأخطار والأهوال » ، ص : ٣٢ - ٣٣ .

فهذه ستة مواضع من كلام هذا الدكتور الجليل من ص : ٢٧ إلى ص : ٣٣ ،

كلها مأخوذة من كتابنا كما سنرى .

٩٠/٢ / فى الفقرة الأولى يقول إن المتنبي « لم يستطع أن يدخل الكوفة » ، وفى الثانية

يسأل : « لماذا عجز المتنبي عن دخولها » ؟ ونص هذا من ديوان أبى الطيب :

« وردَ على أبي الطيب كتاب من جدّته لأمه ، تشكو شوقها إليه ، وطول غيبته عنها ، فتوجّه نحو العراق ، ولم يمكنه دخول الكوفة (على حالته تلك) ، فانحدر إلى بغداد » .

وقد جعل الدكتور الجليل (انظر ص : ٢٧) هذا النصّ ، على تأويله واختصاره ، دليلاً على أن « شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبي » ، فليسأل القارئ ، آية صلة بين هذا وبين أسرة المتنبي ؟ وأى سبب يصل قولهم بأن المتنبي (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) بقول الدكتور : إن المتنبي كان (لا يعرف أباه ولا أمه) ، وأن الغموض والشذوذ كان يحيط به وبأسرته ؟ والدكتور قد ألغى ، كما ترى ، قولهم (على حالته تلك) ، وهى تقيّد معنى (لم يمكنه) . وفعل الدكتور ذلك لغير سبب ولا علة ولا فرض ، وهو لم يعرض هذا النص على القارئ ولم يتكلم فيه ، فهل من أمانة العلماء أن يفعل أحدهم هذا الفعل ؟ ولكن الدكتور معذور معذور .

فقد سقت هذا النص في كتابي [ص : ١٧٠] وقلت : « وهو نص غريب كما ترى ، وليت شعري وشعرك ما الذى أرادوا بقولهم : (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) ، وهو قد أتاها قاصداً دخولها ، ورؤية جدّته التى تحبه ويحبها ؟ ... ويقطع صاحبنا الأرض من أقصى / الشام إلى أسفل العراق ، ودخول الكوفة همّه ، ثم يمتنع لغير سبب مذكور ٩١/٢ أو معقول !! إذن فلا مناص من القول بأنه (قد مُنع من دخول الكوفة) » .

وهذا هو التأويل الصحيح ، كما ترى . وقلنا بهذا ، لأننا ذهبنا إلى وجود مشكلة بين أبي الطيب والعلويين فى الكوفة ، وأن هذه المشكلة اقتضت أن يُصير العلويون على منع أبى الطيب من دخول الكوفة ، وبيننا ذلك فى [ص : ١٧٢] من كتابنا هذا ، ولكن ما الذى يحمل الدكتور طه على الأخذ بهذا التأويل الذى أولنا به النص ، فيقول (لم يستطع) ، ويقول تارة (عجز) ؟ فالعداوة بين أبى الطيب والعلويين فى الكوفة - كما فرضنا - كانت هى العلة فى أن أبى الطيب (لم يستطع) وعجز عن أن يدخلها . ولكن الدكتور فرض أن المتنبي (لم يعرف أباه ولا أمه) ، فهل فى هذه علة تجعل المتنبي (لا يستطيع) أو (يعجز)

عن أن يدخل الكوفة ؟ وإذا فرضنا أنه يستطيع أن يُجرى هذا الفرض مُجرى العلة للعجز عن دخولها ، فلماذا جاء هذا الأحمق المتنبي من الشام إلى الكوفة يقطع الفلوات ؟ ألم يعرف أنه (لا يعرف أباه ولا أمه) إلا حين دخل في حدود هذه البلدة ؟ فعند ذلك (عجز) عن دخولها = أم تُرى أن جهل المتنبي بأبيه وأمه قد يكون سبباً في أن يمنعه أهل الكوفة من دخول بلدتهم ؟ ... هذه مشكلة عجيبة نرجو أن يتولأها الدكتور الجليل بما عهدنا فيه من قوة المنطق والفلسفة والإفاضة والثروة والتعسف الغليظ . وهذا الاضطراب القبيح هو الدليل على أن / الدكتور لم (يُعط) رأياً ، وإنما (أخذ) رأياً لم يحسن فهمه ولا عَرَفَ موقعه من الكلام .

...

والدكتور الجليل يقول في الفقرة الثانية : « كل هذه حقائق واقعة ، لا نستطيع أن نشكَّ فيها ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً » . ومع أنه لا يستطيع أن يعللها ، أى أن يُجرىها من فرضيه الذى فرضه مُجرى منطقياً ، فهو برغم ذلك يجعلها من أسباب الشكِّ في نسب الرجل وصلة أبيه بأمه وجدته ، ومن الأدلة على أن الرجل لم يكن (يعرف أباه ولا أمه) ، هذا أعجب العجب !!

...

وأما الفقرات الأربع الباقية التى وقف عندها في أبيات من قصيدة المتنبي ، فهى مع الأسف العظيم ، بعضٌ مما وقَّفنا نحن قراء كتابنا عليه ، وشرحناه لهم ، ووصلناه بحياة المتنبي صلةً لا تنقطع ، ولا يدخلها الضعف والتناقض ، ولا تحتلُّ معانيها بالفرض الذى زعمناه من أن المتنبي كان علوى النسب ، وأن بينه وبين العلويين مشكلةٌ سببت شيئاً من العداوة ، بل تكاد تكون من السبيل المفضية إلى القول به وتحقيقه تحقيقاً صحيحاً . أما الدكتور الجليل فقد وقف عندها على آثارتنا ، ولم يستطع أن يوفق بينها وبين الفرض الذى زعمه ، فلذلك لم يستطع أن يعللها تعليلاً قاطعاً أو شبيهاً بالقاطع ، وعمد إلى الحيلة

فجعلها من أسباب الغموض ومن أسباب الشك ، ثم / زادها سُقوطاً فجعلها من الأدلة ٩٣/٢
على هذا الفرض ، بعد هذا العجز كلّه ، وبعد هذا التخلف العقليّ البين .

فقد وقفنا عند قول المتنبي :

طَلَبْتُ لَهَا (حَظًّا) فَفَاتَتْ ، وَفَاتَنِي ، وَقَدْ رَضِيْتُ لِي ، لَوْ رَضِيْتُ بِهَا ، قِسْمًا

في كتابنا (ص : ١٧٣ ، ١٧٤) ، وشرحنا البيت شرحاً وافياً ، وصححنا أقوال
شراح الديوان فيه ، ثم ضمنا إلى البيت قوله :

سَأَطْلُبُ (حَقِّي) بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا آلَتْشُمُوا مُرْدُ

وقلنا في (ص : ١٧٦ ، ١٧٧) إن (الحَظُّ) الذي طلبه ، و (الحقُّ) الذي
سيطلبه ، أمرٌ واحدٌ ، هو حل المشكلة التي بينه وبين العلويين في مسألة نسبه إلى عليّ
ابن أبي طالب رضي الله عنه ، هذا في الفقرة الثالثة .

أما الرابعة التي وقف عندها الدكتور في قوله :

هَبْنِي أَخَذْتُ الثَّأْرَ فَيْكِ مِنَ الْعِدَى ، فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فَيْكِ مِنَ الْحُمَى

فقد وقفنا عنده في مواضع (ص : ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢٤١ - ٢٤٣) ، فقلنا في ص :

١٧٠ « فقد أثبت أبو الطيب أن لجذته ثم له أعداء ، كان همّه كله أو / أكثره أن يأخذ ٩٤/٢
منهم ثأرها وثأره » ، ثم دللنا على أن هؤلاء الأعداء هم العلويون على مذهبنا .. أما الدكتور
الجليل فهو لم يزيد على أن سأل ! وما سؤال لا جواب له !!

إن الرجل يريد أن يُعرّف قارئه كتابه أنه قد تدبّر شعر المتنبي ونظر فيه ،
ولكن ... أين يذهب عن القارئ الفطن أن الدكتور طه قليل البصر بالشعر ، سيء
الفهم له ، بعيد كل البعد عن القدرة على الاستنباط منه ؟ خاصة وأن الدكتور الجليل

لا يفتأ يرمى في كلامه بالدليل إثر الدليل على صِدْق ذلك ... كما بيناه في مواضع من الكلمات السابقة وفي هذه الكلمة .

وأما الخامسة التي وقف عندها في قول أبي الطيب :

لَيْنَ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا ، لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لِأَنفِهِمْ رَغْمًا

فهى في كتابنا (ص : ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٤١) وقلنا في ص : ١٧٤ :

« إن هؤلاء الأعداء والشامتين كانوا من أشرف الكوفة ، إذ لا يُعقل أن يكونوا غير ذلك ، لا يُعقل مثلاً أن يكون أولئك الأعداء والشامتون من طبقة السَّقائين والنساجين ومن إليهم . فلو كان ذلك / كذلك ، لما حفل المتنبي بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رَغْمًا لأنوفهم ، وهو مَنْ هو في الكبرياء والتسامى والغلو في الترفع والعظمة » . ٩٥/٢

وأما السادسة التي وقف فيها الدكتور الجليل عند قول أبي الطيب :

تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

فقد وقفنا عندها أيضاً من قبله وقلنا (في ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣) في سبب تغرُّبه :

إن العلويين ، وهم هؤلاء الأعداء والشامتون بموت جدته ، كانوا في سنة ٣٢٦ هـ حين ترك الكوفة في غبار راحلته : « قد أرادوه على نُحْطَةِ حَسَنِفٍ ، فأبى أبو الطيب أن يركبها ، وشمخ بأنفه أن يذلَّ لأحدٍ من الناس ، أو أن يقبل له حكماً يُريد أن يُجرَّبه عليه ، وفيه المذلة والهوان وإهدار الكرامة ، وإسقاط الفتوة والمروءة وآثر أن يخرج عن الكوفة مراغماً لهم ، مفضلاً آلام الغربة على الهوان في الوطن » .

وليعُدُّ القارىء إلى تعليق الدكتور فى هذه الفقرة ليرى مشابه القول ، وظرف هذا الدكتور العظيم ، إذ كان كل هممه أن يغيّر قولنا « على الهوان فى الوطن » إلى « على العافية فى الكوفة » ، وهو تغيير يدلُّ أصدق الدلالة على عقل صاحبه وحسن فهمه للمعانى التى ينمو إليها فى كلامه !!

/ وبَعْدُ :

٩٦/٢

فإن قارىء كتابنا يعلم أننا وقفنا عند أبيات كثيرة من هذه القصيدة غير التى ارتطم فيها الدكتور الجليل ، وقد تجاوزنا عنها ، إذ لم يبق فيه موضع لتناول شيء أكثر من ذلك . فهذه الأربعة الأخيرة وحدها ثقيلة الحمل ، قد ناء بها كتابه الجليل ، فاضطرب وتحاذل واسترخت مفاصله ، فكيف ، بالله ، يطيق بعدها تناول شيء هو عليه أثقل وله أقتل ؟

هذا مع أننا بعد كتابة هذا الكتاب الذى نشره المقتطف فى يناير سنة ١٩٣٦ ، قد وقفنا على أشياء من معانى هذه القصيدة لها شأن وفيها مقال ، لا أظن الدكتور طه يتنبه لها ، ولو طفق يقرأ هذه القصيدة وحدها سنوات .

وتسألنى ، ومن حَقِّك أن تسألنى ، لم هذا التبجُّح ؟ وفيم هذا التعسُّف ؟ وعلام تدعى حق الوقوف عند هذا الشعر ؟ أكان شعر المتنبى (تَرْكَةً) لا يدخل فى ميراثها غيرك ؟ أم هو (وَقْفٌ) قد حبسه المتنبى عليك ؟ فأجيبك ، ومن حَقِّ أن أجيبك ، أن هذا الذى وقفت عنده ونبَّهت إليه ، ودعوت إلى النظر فيه ، وسُقته فى كتابى على سبيل من التدبُّر والتأمل والتبصُّر ، إنما هو من شعر المتنبى ، وليس من شعر غيره ، وقد زعموا أن أكثر من ستين شارحاً شرحوا هذا الديوان ، وأن أكثر القدماء قد ترجموا لأبى الطيب ، وأن عشرات من المؤلفين فى هذا العصر قد ترجموا لهذا الرجل ، وتناولوا شعره على طريقة أهل العصر من التحليل والتشريح . / وقد انقضى على ذلك ألف سنة ، ومع كل هذا فأنا

أجزم لك ، وأصرُّ على هذا الجزم ، أن أحداً من هؤلاء جميعاً لم يقف عند بيت واحد مما وقفتُ عنده ، وتكلّمت فيه ، وتأوّلت معناه ، ووصلته بتاريخ الرجل = وأنّ أحداً من هؤلاء لم يستنبط من هذا الشعر الذى تدبّرتُه شيئاً من الذى استنبطته أنا من الحالات النفسية والعقلية التى كانت تعتلج في صدر المتنبي وفكره . ثم أنا أزعم لك فوق ذلك أن الدكتور طه في مثل قوله في ص : ٢٨ ، حين قدّم للأبيات التى أثبتّها من رثاء المتنبي لجدته فقال :

« فاقراً معى هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأنى المتمهل الذى لا يمرُّ بالشعر مرّاً ، والذى لا يشغله الجمال الفنّي عن التماس نفس الشاعر ، وما يُكنن في ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكتومة ، والخواطر التى لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح » = أقول بلا مثنويّة : إنّما أخذ الدكتور طه ذلك كلّهُ من فضول كلامنا عن هذه القصيدة ، وهداه إلى هذا التنبيه منهجنا في الكلام عنها ، وتنبهنا نحن على مثل ذلك في ذيل (ص : ٢٤١ ، تعليق : ٣) ، عند ذِكْرِ هذه القصيدة ، وفي أكثر من عشرة مواضع في أثناء كلامنا في الكتاب كله .

وقد قلتُ إن هذا إنّما هو أصل من أصول العلم والاستنباط ، وقارىء كتابي يعرف ذلك حق المعرفة ، والدكتور طه أحد هؤلاء ، ولكنه مؤلّف أيضاً !! وله في التأليف مذهبٌ لم يخرج عنه في أكثر ما ألف ، مذهبٌ قد استخرجه من مذهب الأَحْمِرِ السعدى اللصّ الذى يقول :

/ وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُرَى أَجْرُرُ حَبْلًا لَيْسَ فِيهِ بَعِيرُ
وَأَنْ أَسْأَلَ النَّكْسَ الدَّنِيءَ بِعَيْرِهِ ، وَبُعْرَانُ رَبِّي فِي الْبِلَادِ كَثِيرُ !!

= بُعْرَانُ كثيرة ، يأخذ منها ما يشاء كما يشاء ، ويذهب بها أين شاء ! وللسبت

المقبل اليدء في نقد الفصل الخامس من كتاب الدكتور الجليل .

- ٧ -

/ لقد كان من عملنا في الكلمات الماضية أن كشفنا عن عوارِ الفصل الثاني ٩٩/٢
والثالث من كتاب الدكتور طه الذى سماه « مع المتنبي » ، وأبنا عن الأصل الذى بناه
عليه ، ومن أين أخذه ، وكيف أحاله عن وجهه ، وأخرجه عن طريقته ، وتعهده
بطبيعته الجبارة !! فأفسده أيما إفساد ، وأراد أن يجعله فناً جديداً في نسب أبى الطيب ،
فكان قَدْفاً جريئاً في عَرْضِ الرجل . ثم زدنا فرددنا مواضع القول = الذى أفاض فيه
الدكتور حين اطمأن له ، واتكأ عليه ، واسترخى فيه ، وتوَحَّى به الراحة والدعة =
إلى أصله وشبيهه من كتابى عن المتنبي ، ومن كتاب الأستاذ العالم الجليل عبد الوهاب
عزام . ثم ختمنا القول فى الكلمة السادسة بالجمع بين ما وقف عنده الدكتور فى كتابه
من شعر المتنبي ، والذى وقفتُ عليه أنا من قَبْلُ من هذا الشعر نفسه ، ولم يسبقنى إليه
سابقٌ على امتداد ألف سنة تَحَطَّمْ عامٌّ منها على عامٍ .

ومن رجع إلى ما كتبتَه جملةً واحدة ، ولم يدعْ طَرْفَ عينه من كتاب الدكتور
طه ، استيقن يقيناً لا يخامرُه الشكُّ أن الدكتور طه إنما كان فى هذين الفصلين كالناقل
المسئ ، وكالمترجم المتخلف الذى لا يعرف معنى الكلام ، ولا يبصر عُنْصُرَ القول
من أين أتى ، وكيف تدرَّج ، وإلى أين انتهى !!

وما ذلك إلا لما قلنا به من أن الدكتور الجليل رجل هو فى فهم الشعر وإدراك
معانيه ، ثم فى العريية وحدود ألفاظها ، ومقاطع جملها ، ومطالع / تراكيبها وفصولها ١٠٠/٢
وغاياتها ، كالذى زعموا من أن خالد بن صفوان الخطيب البليغ ، دخل يوماً إلى

الحمام ، وفيه رجلٌ ومعه ابنه ، فأراد الرجل أن يعرف خالداً ما عنده من البيان والفصاحة فقال لابنه : يا بنى أبداً بيداك ورجلاك !! ثم التفت إلى خالدٍ كالمتباهي فقال : يا أبا صفوان ، هذا كلامٌ قد ذهب أهله ! فقال خالد : هذا كلامٌ لم يخلق الله له أهلاً قط ! وإنما الدكتور رجل يتعلم في الشعر العربي والأدب العربي بما سوَّغ من شهرة وصيتٍ ، وما استوطأ من سكوت الناس عنه ، وما استعلَى به من كرسي الجامعة = وإلا فهو أديب من الأدباء ، إذا أردت أن تصف أدبه بما تصفه به كُتبه قلت : ليس بذاك ! ولويت عنك ، وانصرفت إلى شأنك ، وشغلت نفسك بما هو أجدى عليها وأليق بها من أدب غيره ، ممن طمست أسماءهم هذه الطبول ذوات الدوى والطين والعجيج الذى لا ينتهى من الدكتور فلان إلى الأستاذ علان .

هذا خلاصة ما تخرج به من مَعْنَاة كلامنا في الفصول الماضية التى نقدنا بها الفصل الثانى والثالث من كتاب الدكتور الجليل .

وأما الفصل الرابع الواقع فى الكتاب من ص : ٣٥ - ٤٨ ، وقد سماه الدكتور : (الحياة الإسلامية حين ولد المتنبي) ، فقد كنتُ على نية الكلام فيه ، ولكنى وجدته مما لا يتعلّق بشيء مما نحن بسبيله ، وما رأيت فى نقده غناءً للقارىء ، ولا فى الفصل نفسه موطناً يستحق أن يتكلف له القلم مؤونة التسطير ، فلذلك أغفلناه . ونبدأ بعون الله فى الفصل الخامس وقد سماه : (صبي المتنبي فى العراق) وموقعه من (جغرافية) هذا الكتاب بين ص : ٤٩ ، ٩٢ . / وما أظن القارىء بالذى يكلفنى أن أختصر له هذا الفصل ١٠١/٢ قبل البدء فى النقد ، على ما تعودناه فى الكلمات السالفة ، ولكنى له زعيم بأن أجعله على حالة يكون فيها كالذى قرأ الفصل كُله لم يُفتته منه شيء ، مضمناً قولى ما لا بد من ذكره من كلام الدكتور طه ، بعد إسقاط لغوه ، وقصّ ذيوله ، واطراح فضوله .

هكذا يبدأ الفصل الخامس فى ص : ٤٩ : « وطفولة المتنبي مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه » ، ثم يقول بعد لغو : « والذى نعرفه عن صبي المتنبي ينقسم قسمين : أحدهما يثبتنا به الرواة ، وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ،

ولكنى لا أهمله ولا ألغيه = والثاني ينبئنا به المتنبي نفسه فيما حُفِظ لنا من ديوان شعر الصبى ، وأنا أطمئن إليه اطمئناناً تاماً ، وآخذه أخذ الناقد الذى لا يصدّق كل ما يُلقَى إليه في غير تفكير .

وليقرأ القارئ هذا الكلام مرة وأخرى ، وليتدبّره ، وليعرف أوّله من آخره قبل أن يقرأ كلامنا ، وما نريد له ذلك إلا ليخبر نفسه ، ويقيس ما عنده ، فإن جودة العلم لا تتكوّن إلا بجودة النقد . ولولا النقد لبطل كثير علم ، ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطاً لا خلاص منه ولا حيلة فيه ...

ثم إن هذا الكلام الذى نقلناه ، لنا فيه وجهان من القول : أمّا أحدهما ، فالدلالة على موضع النقل من كتابنا نقلاً بيّناً لا خفاء فيه ولا لبس = وأمّا الآخر ففساد الكلام فيه فساداً لا صلاح له .

يقول الدكتور إن صبى المتنبي ينقسم إلى قسمين : « أحدهما ينبئنا به / الرواة ، ١٠٢/٢ و (أنا) أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكنى لا أهمله ولا ألغيه » ص : ٤٩ . والقارئ يعلم كما قدمنا أننا أوّل من شكّ في الروايات التى رويت في ترجمة أبى الطيب جميعها ، من مبدأ القول فى نسبه إلى غاية القول فى مقتله ، ولم نجعل شكنا كما جعله الدكتور حين سؤل له أن يشكّ ، لغير علة حاضرة أو سبب مذكور .

كلاً ، فقد تتبعنا نقد سنّد الرواية ونصّها على طريقتنا حتى زيفنا زيفها وأبطلنا باطلها ، وميّزنا المدخول من الأصيل ، والصحيح من السليم ، فقول الدكتور هذا هو وصف لما فعلناه نحن ، وكان من حقنا عليه أن يضع مكان قوله : « (وأنا) أقف منه موقف التحفظ والاحتياط فلا أهمله ولا ألغيه » ، ما نصّه : « ومحمود شاكر) يقف منه موقف التحفظ » إلى آخر العبارة ، وذلك للسبب الذى ذكرناه ، من أن تحفظنا واحتياطنا وشكنا ، إنما بُنى على أسبابٍ وعلل . وأمّا الدكتور فلم يفعل من ذلك فى كتابه شيئاً .

وَتَمَّ شَيْءٌ آخَرَ أَحَبُّ أَنْ يَعْلَمَهُ الدُّكْتُور طه ، وَهُوَ أَنِّي أَعْرِفُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَرَفَّقُ بِهَا فِي اسْتِجْلَابِ الْأَدَبِ إِلَى نَفْسِهِ ، مَا لَا قَبْلَ لَهُ بِإِنْكَارِهِ وَلَا الْمَكَابِرَةَ فِيهِ ، ثُمَّ لِيَقْرَأَ الْقَارِئُ قَوْلِي فِي [ص : ٣٠٧ ، ٣٠٨] مِنْ كِتَابِي هَذَا مَا نَصَهُ :

« وَأَعْلَمُ أَنْ أَكْثَرَ مَا يَرَوَى فِي تَرْجُمَةِ هَذَا الرَّجُلِ وَغَيْرِهِ مِنَ الرِّجَالِ ، إِنَّمَا كَانَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَنَاقَلُهَا مَجَالِسُ الْأَدْبَاءِ ، وَلَا يُرَادُ بِهَا التَّحْقِيقُ ، وَلَا يُنْظَرُ فِيهَا إِلَى صَدَقِ الرِّوَايَةِ وَسِيَاقِ التَّارِيخِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ إِنْ كَثِيرًا / مِمَّا يُرَوَى فِي تَرَاجِمِ رِجَالِنَا ، كَانَ مِمَّا يُرَادُ بِهِ مَضْعُوعُ الْكَلَامِ فِي مَجَالِسِ الْأَمْرَاءِ أَوْ فِي سَامِرِ الْأَدْبَاءِ . هَذَا عَلَى أَنَّهَا رُبَّمَا حَمَلَتْ فِيمَا تَحْمِلُ أَشْيَاءَ لَوْلَا وُرُودُهَا فِي هَذِهِ النُّصُوصِ ، لِأَفْتَقَدْنَا مِنْ حَلَقَاتِ التَّارِيخِ حَلَقَاتٍ لَا يَنْتَظِمُ أَمْرُهَا إِلَّا بِهَا ، وَلَا يَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَيْهَا ، فَلَمَثَلُ هَذَا كَانَ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ النَّظَرِ فِي النُّصُوصِ وَتَمْيِيزِهَا ، وَرَدِّ بَعْضِهَا وَالْأَخْذَ بِبَعْضِ ، حَتَّى لَا تَنْقَطِعَ بِنَا السَّبِيلَ فِي التَّرْجُمَةِ لَهُؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ . فَلَا يُفَوِّتَنَّكَ هَذَا إِذَا قَرَأْتَ مَا نَكْتُبُ ، أَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَقْرَأَ أَوْ تَكْتُبَ » . انْتَهَى مِنْ كَلَامِنَا .

وَالدُّكْتُور فِي هَذَا الْبَابِ « يَصْطَنَعُ » التَّحْفِظَ وَالْإِحْتِيَاظَ فِي الشُّكِّ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ (لَا يَهْمِلُ النَّصَّ وَلَا يَلْغِيهِ) تَقْلِيدًا لِقَوْلِنَا : (فَلَمَثَلُ هَذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ ، وَرَدِّ بَعْضِهَا وَالْأَخْذَ بِبَعْضِ) ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا تَقْلِيدًا قَبِيحًا ، وَاعْتِدَاءً مُفْرِطًا فِي الْعَدْوَانِ ، وَتَأَثُّرًا لَخَطَوَاتِنَا عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ النَّفْسِ وَالرَّأْيِ وَالْفِكْرِ وَالتَّجْدِيرِ ، فَمَا يَكُونُ ؟

أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ أَنَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَقْلِدُنَا ، وَيَدُلُّ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى أَنَّهُ مَقْلُدٌ ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَحْسُنُ أَنْ يَقْلُدَ ؟ أَمَا رَأَيْتَ قَبْلُ فِي الْفُصُولِ الْمَاضِيَةِ أَنَّهُ حِينَ تَكَلَّمَ فِي نَسَبِ الْمُتَنَبِّيِّ ، وَالرِّوَايَةِ عَنْهُ مَنْقُولَةٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَقَلُوا هَذِهِ الْأَخْبَارَ نَفْسَهَا ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ (يَتَحْفِظُ أَوْ يَحْتَاظُ) ، أَوْ (لَا يَهْمِلُ النَّصَّ أَوْ يَلْغِيهِ) ، بَلْ تَعَلَّوْا بِهِ

الجرأة ، ويتقاذفه الوهم ، « فيشك في غير تحفظ ولا احتياط » ويُهمل النصوص ويُبلغها جملةً ، ليذهب إلى رأيٍ فاسد ، يقذف به عِرْض الرجل حيث جعله (لا يعرف أباه ولا أمه) ، / وأن مولده كان (شاذاً) . فما الذى حمّله بدءاً على نبذ الاحتياط ، وإطراح ١٠٤/٢ التحفظ ، وإسقاط الرواية جملةً واحدة ؟ ثم ما الذى حمّله على (اصطناع) الاحتياط والأخذ بالتحفظ والتعلق بالرواية ، فيأخذ بعضها ويردُّ بعضها أو (أن لا يهملها ولا يبلغها) ؟ هل تجد عندك أيها الدكتور علة تنبذها للناس ، علّها تستر هذا العوار الذى فى كلامك ؟ وما أصدق ما قاله مبذول العُذرى :

وما كُلُّ مَنْ مَدَّدَتْ ثَوْبَكَ دُونَهُ ، لَتَسْتُرُهُ فِيمَا أَتَى ، أَنْتَ سَاتِرُهُ

وما الذى جعل الرواة فى قلوبهم : إن والد المتنبي هو الحسين السَّقاء ، وأن جدته كانت همدانية صحيحة النسب ، وأن نسب أبيه ينتهى إلى جُعْفَى = أَكْذَبَ منهم حين يقولون : إن المتنبي فى صباه فعل كذا ، وكان من أمره كذا ؟ وما العلة فى أن الرواة حين ذكروا جدّه لم يتفقوا عليه ولا على الاسم (يلصقونه) به كما قلت فى ص : ١٠ ، أو حين ذكروا صباه أثبتوا شيئاً صحيحاً (وألصقوا) معه شيئاً كذباً موضوعاً ؟ أفى المنطق أن يكون ذلك كذلك ؟ أم المنطق أن يكونوا فى ذكر صباه ، أكذبَ منهم فى ذكر أبيه وأمه وجده وجدته ! « نَبَّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » !

وأما القسم الثانى ، وهو الذى « يُنبئنا به المتنبي نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر المتنبي » = يقول الدكتور الجليل المفكر العبقري أنه « يطمئن إليه اطمئناناً ما ، ويأخذه أخذ الناقد الذى لا يصدّق كل ما يُلقَى إليه فى غير تفكير » . فهذا كلام لا أدرى ، والله ، كيف أصفه ؟ وإنما أدعُ للدكتور طه / نفسه أمر هذا الوصف إذ يقول ١٠٥/٢ فى ص : ٧ من كتابه وعن كلامه هذا وأمثاله : « قل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه ، قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، قل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً ، قل إنه

كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح ، فأنت مُحق في هذا كله » ، وليختر القارىء بعد هذا أحق القولين بالإثبات ، وأليقهُما بالصفة ، وأدلهما على الغرض الذى يوحيه كلام الدكتور .

فمن قرأ شعر المتنبي في زمان صباه لم يجد فيه خيراً واحداً يكون كالرواية عن أمر هذا العهد من عمره ، وإنما هو شعر لا خبر فيه ولا حديث . والدكتور قد جعل هذا الشعر - كما هو بين من كلامه - قريناً لأخبار الرواة ، فلذلك يقول : « فأنا أطمئن إليه اطمئناناً ما » ، وجعله أحد قسمين مما نعرفه عن صبي المتنبي . وإذا ظن ظان أن الدكتور يريد بهذا القول ما يستنبطه من هذا الشعر من حالته النفسية وتعليقها ببعض الأخبار التى رويت لیتتمّ النقص ، ويزيد في تصوير هذا العهد من حياته ، فالدكتور نفسه قد سدّ عليه هذا الباب بقوله : « فأنا أطمئن اطمئناناً ما ، وآخذه أخذ الناقد الذى (لا يصدّق) كل ما يلقى إليه في غير تفكير » ، فإنّ الاطمئنان لا موضع له هنا ، إلا أن يكون في صحّة نسبة هذا الشعر إلى أبى الطيب ، وهو مما لا يشك فيه الدكتور ، ولا يدعى فيه أنه موضوع على لسانه ثم يقول : إنه يأخذه أخذ الناقد الذى (لا يصدّق) كل ما يلقى إليه في غير تفكير . وليس في هذا الشعر ولا في استنباط الدكتور منه ، ما يصحّ أن يكون / موضوعاً (للتصديق أو التكذيب) ، حتى يستطيع هذا الظان أن يذهب بكلام هذا الرجل الدكتور العبقري هذا المذهب الجميل . ١٠٦/٢

وإذا أردت أن تتحقّق من أن هذه العبارة لا معنى لها البتة ، فارجع إلى الفصل كلّ من ص : ٤٩ - ٩٢ فاقراه ، فلا تجد الدكتور أتى بيت واحد من شعر المتنبي في صباه يكون فيه ذكر حادثة في هذا العهد . وإذا كان الأمر كذلك ، وصحّ عندك ، وتحققت منه ، علمت أن هذا القسم الثانى الذى زعم أنه يعرفه عن (صبي المتنبي) ، إنما هو من اللغو والفضول ، وأن الدكتور لم يعمد إلى هذا التقسيم إلا ابتغاء الحيلة ، وطلباً لإيهام قارىء كلامه بحسن الوصف وجمال الترتيب والتقسيم = وأن الرجل قد تعود الكلام ، فصار عنده شهوة تطلب لذّة ، فلا يغلبها عقله ، وإنما لها عليه الغلبة . وقد قالوا في مثل

ذلك : إن الحجاج بن يوسف نأبته في صديق له مصيبة الموت ، وكان رسولُ عبد الملك ابن مروان عنده ، فقال الحجاج : ليت إنساناً يعزيني بأبيات . فقال رسول عبد الملك : أقول ؟ قال : قل . فقال : « وكلُّ خليل سوف يفارق خليله ، يموت أو يُصَلَّبُ ، أو يقع من فوق البيت ، أو يقع البيت فوقه ، أو يقع في بئر ، أو يكون شيئاً لا نعرفه » . فقال الحجاج : قد ، والله ، سلّيتني عن مصيبتى بأعظم منها في أمير المؤمنين ، إذ وجّه مثلك رسولاً = فانظر إلى شهوة الكلام ما تفعل .

ثم يقول الدكتور : « فأما الرواة فيحدثوننا أن المتنبي دفع إلى مدرسة / من مدارس ١٠٧/٢ العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين ، فبدأ في هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ص ٤٩ - ٥٠ ، ويقول في ذيل هذا الكلام (خزنة الأدب ج ١ ص : ٣٨٢ طبع القاهرة) ، ثم يعقب في ص : ٥٠ : « ولكن المتأخرين ، والمُحدثين منهم خاصة ، يذهبون في فهم هذا الخبر مذهباً ، أقل ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان (هكذا هكذا يا دكتور طه) في تفسير اختلاف الصبي إلى هذه المدرسة الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

« أما أنا فلست أدري ، أكانت المدرسة العلوية هذه ممتازة أرستقراطية حقاً ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ، ولكنها تعلّم على مذهب الشيعة العلويين . فلفظ « العلويين » في هذا الخبر عندي ، يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة . وواضح جداً أن المدارس في مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة . فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ، وللسنين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس علوية ، كما تسمى أهل السنة مدارس عباسية .

« وأكبر الظن عندي أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءهم في طور الصبا إلى المدارس العامة ، وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب .

١٠٨/٢ / « فاختلف المتنبى إلى هذه المدرسة العلوية لا يدلُّ على امتياز ولا على استثناء ، وإنما يدلُّ على الاتجاه الدينى الذى وُجِّهَ إليه الصبى » ، انتهى كلام الدكتور ص : ٥٠ - ٥١ .

وفي هذا الكلام أعاجيب ! فالدكتور ينقل عن كتاب مطبوع متداول هو خزانة الأدب للبغدادى ، ويحدد الجزء ١ والصفحة ٣٨٢ ويقول : « إن المتنبى دفع إلى مدرسة من مدارس العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين » . والنص هناك أن المتنبى : « اختلف إلى كُتَّاب فيه (أولاد أشرف الكوفة) ، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » . وفي هذا النص من كتاب البغدادى سقط أو خطأ لا شك فيه ، فما فى العلم شىء يمكن أن يسمى « دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » ، وصواب العبارة « فكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » ، كما روينا النص بتمامه وصححناه فى هامش ص : ١٦٧ من كتابنا هذا عن المتنبى . وليس العجبُ فى أن لا يدقق الدكتور طه فى نصِّ ما يقرأ ، فهذا شىء ليس فى طبيعته ولا مما يتأتى له إن أرادَه وعمَدَ إليه ، واجتهد فيه وبالغ فى الاجتهاد = ولكن العجب فى أن هذا الذى يقوله الدكتور طه ليس نصًّا حتى يشير عنده إلى كتاب البغدادى ، فإن الدكتور يزعم أن المتنبى « دفع إلى مدرسة من مدارس العلويين أو مكتب من مكاتبهم » ، والبغدادى يروى أنه « اختلف إلى كُتَّاب فيه (أولاد أشرف الكوفة) » ، (فالكُتَّاب) صار فى كلام الدكتور طه مدرسة أو مكتباً (وأشرف الكوفة) ، صار فى كتاب الدكتور هذا (العلويون) ، فلماذا فعل ذلك ؟ فعل الدكتور هذه الفعلة / المستهجنة ، لأنه أراد أن يتأوَّل كلمة (العلويين) إلى (الشيعة) ، وهو الاسم الذى يجمع (العلويين نسباً) ، ومن يتشيع للعلويين ممن لا ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولذلك قال : « فلفظ العلويين فى هذا الخبر عندى يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة » ، وليس فى الخبر هذا اللفظ (العلويون) كما نقلناه لك ، بل فيه (أولاد أشرف الكوفة) ، وهى كلمة لا يمكن تأويلها ولا تحويلها عن معناها

إلى معنى (الشيعة) ، كما أراد الدكتور طه . وخبر البغدادي نصًّا لا يقبل المكافحة ولا اللجاج ، فلذلك أزاله الدكتور ورواه بألفاظٍ من عنده تمهيداً للمذهب الذى أراد أن يذهب به . فكيف يرى القارئ تصرّف الدكتور في نقل العلم وهو قد خشى أن ينقل النصّ ، وتجنّب ذكره لما يعلم من فساد رأيه ، وفُسولة مذهبه ، ولما هو عليه من قبح التهجم ، وسوء الاستنباط .

وإذا قيل إن المتنبى اختلف إلى (كُتّاب فيه أولاد أشرف الكوفة) فمعنى ذلك بغير شك أنه (كتاب فيه أبناء العلويين نسباً من أهل الكوفة) ، وإلا فما معنى ورود هذا اللفظ في الخبر ؟ أو لم يكن راوى الخبر ، وهو الأصفهاني المعاصر للمتنبى ، على علم كعلم الدكتور طه بأن للشيعة عامة مكاتب ، سواء منهم العلويون نسباً أو غيرهم من شيعة أهل البيت ، كما كان لأهل السنة مكاتب ؟ أو لم يكن يستطيع الأصفهاني أن يقول إن المتنبى (اختلف إلى كُتّاب للشيعة) ؟ لو أنه أراد هذا المعنى الذى تطلّبه الدكتور طه ، فحرّف ، وبدّل ، وأفسد ، وتهجّم بغير علم ولا بينة ولا تثبت .

/ ومسكين هذا الدكتور طه ، أفندرى لم ركب هذا المركب ؟ ولم حرّف وعمد إلى ١١.٢ التلبيس والتمويه ابتغاء استمالة الدهماء من قراء كتبه ؟ أتدري لم تورّط في هذا كله ؟ ألا فأعلم أنه أراد أن يخالفنى (أنا) وحدى . فإنى جعلت اختلاف المتنبى إلى (كُتّاب فيه أولاد أشرف الكوفة) موضع النظر ، وأخذت أعلّل ذلك ، وقلت : « فدخول (أحمد ابن عيدان السّقاء ، كما زعم الرواة في نسبه) ، والذى هو المتنبى ، بين أبناء العلويين (نسباً) في كُتّاب لهم ، غريبٌ عجيبٌ ، فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أن بين جدة المتنبى وبين العلويين سبباً موصولاً قوياً ، هو الذى شرّح صدورهم وأرضاهم أن يدخلوا بين أبنائهم غلاماً (كان أبوه سقاء في بلدهم !!) » ص : ١٦٨ من كتابنا هذا . ثم قلت : « هذه واحدة من علاقة أبى الطيب وجدته بالعلويين » ، ثم انطلقت أجمع الدلائل من الروايات ومن شعر المتنبى على وجود هذه الصلة ، لأنتهى إلى القول بأنه كان

علويّ النسب . والدكتور طه خالفنا في أوّل كتابه ، فجعل المتنبي (لا يعرف أباه ولا أمه) ، وزعم أن (مولده كان شاذاً !!) ، فخشى أن ينتقض عليه قوله إن هو نقل هذا النص وذهب يتكلم فيه ليزيده إيضاحاً وبيانا ، فما وجد محيصاً من أن يطمسه ليزيده عمىً وخفاءً ، فترجمه إلى لغته الضعيفة المستهجنة ، ثم تكلم فيه بعد ذلك على الهوى لا على الثبوت ، وعلى التلبس لا على التوضيح .

ثم أعجب من ذلك أن يقول : « ولكن (المتأخرين والمحدثين منهم خاصة) يذهبون في فهم هذا الخبر مذهباً أقلّ ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة ، فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية / ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان (!!) في تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العلوية الارستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة » .

(فالتأخرون والمحدثون) ، في كلام هذا الرجل ، جميعاً قد تقمّموا في فرد واحد هو « محمود شاكر » . ويدلّك على اضطراب الرجل حين ذكرني وعرض لي أنه قال بعد ذلك أنهم يذهبون (مذهباً) ، ولم يقل (مذاهب) ، وإلا لكان ذلك المذهب منهم جميعاً حجة على من هو مثل الدكتور طه . ونحن لم نقل إنها كانت (مدرسة أرستقراطية ممتازة) ، بل قلنا إن العلويين نسباً (كانت لهم مكاتب خاصة يتلقى فيها أولادهم مبادئ العلوم) ص : ١٦٧ = ثم يزعم بعد هذا وذاك وذلك أن هؤلاء (المتأخرين المحدثين) الذين هم (محمود شاكر وحده) ، يرسلون لأنفسهم العنان !! في تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العلوية الأرستقراطية ، ويفسرونه « تفسيرات مختلفة » . ويشهد الله أننا لم نفسره إلا (تفسيراً واحداً) لا ثاني له في كلامنا الذي قيدناه في كتابنا ، ولا نعلم أحداً فسّره تفسيراً آخر .

ومن قبل ما فعل الدكتور هذه الفعلة في ص : ٢٠ من كتابه حيث زعم أن شيئاً يسمى (الباحثين المعاصرين) قد تكلموا في نسب المتنبي وحاولوا أن يعرفوا حقيقة الأمر فيه ، ثم طفق يُزري بهم . وقد مضى أن بينا في الكلمة الخامسة : أن هؤلاء (الباحثين

المعاصرين) هم جميعاً جملةً واحدةً (محمود شاكر وحده) ، ثم نقضنا هذا اللغو والفضول الذى أتى به ، وقلنا إن علة ذلك الفعل أن هذا الرجل عاجزٌ عن النقد ، ثم هو أبلغ عجزاً حين ينقدنى أنا خاصة . [انظر ما سلف ص : ٤٤٩ ، ٤٥٠] أفأريت الآن أيها القارئ الكريم كيف يضطرب الرجل ، وكيف / يختلط رأيه ، وأين يذهب بفكره حين ١١٢/٢ يعرض لنقدى أو الحديث عن كتابى ، فتراه لا يكتفى بإضمار أسمى وتجاهله وإغفاله ، حتى يزيد ذلك بأن يجعل (الباحث الواحد) و (المعاصر الواحد) : باحثين ومعاصرين = وأن يجعلنى (أنا وحدى) : المتأخرين ، والمحدثين ، جميعاً ؟ أأريت كيف يُدلّس في كلامه ؟ إنّه لا يدع هذا الداء الذى يلجئه إلى مثل الذى يُقال فيه : « شرٌّ من الموت ما يُتمنى معه الموتُ » !

وللأسبوع المقبل تنمة القول في هذا الفصل العجيب .

- ٨ -

١١٣/٢ / فرغ الدكتور طه من الكلام عن النص الذى حرفه وبَدَّله وأفسد معناه ، ابتغاء الرد علىّ فيما ذهبت إليه من دخول المتنبي كتاباً بالكوفة فيه « أولاد أشرافها » من العلويين نسباً . فكان من جراء ذلك أن استظهر بالعلم ، واستعان بالعبقرية ، ولجأ إلى التحقيق الفذ الذى هو فيه نسيح وحده وإمام أهله ، فخلص إلى نتيجة عجيبة لم تكن من قبل فى هذا النص . وتأويل ذلك أن الدكتور الجليل زعم - فيما يُسَوَّل له أن يزعم - أن البغدادي صاحب خزانة الأدب روى فى الجزء ١ ص : ٣٨٢ : « أن المتنبي دُفع إلى مدرسة من مدارس العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين ، فبدأ فى هذه المدرسة أو هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ص : ٤٩ - ٥٠ .

وأظن القارئ يعلم أن هذا الباطل كله الذى نسبه الدكتور طه إلى (خزانة الأدب) ليس فيها ، وإنما هو نص محرّف مبدّل ليس بينه وبين نص البغدادي فى الخزانة سبب ولا نسب ، كما بينا فى الكلمة السالفة . ويتمخض الدكتور الجليل عن النتيجة العبقرية التى احتفل لها فى ص : ٥١ فيقول :

١١٤/٢ « ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبي فى هذه المدرسة التى اختلف إليها فى صباه ، فالراجع بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة ، وقرأ فيها القرآن كلّهُ أو بعضه ، وتلقى فيها أصول / الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين (!!) ، وسمع الشعر وروى منه أطرافاً ، وتعلم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام » .

ولست تشك أيها القارئ أن هذه فائدة جليّة ، وعلم ضخم قد استخرجه

الدكتور واستنبطه واحتفزه من صخرة جافية نائية هي هذا النص : « أن المتنبي دُفع إلى مدرسة من مدارس العلويين » ، فأنت تعلم كما علمك الدكتور الأمين الوثيق الرواية المثبت ، أن الرواة « لم يزيدوا على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ، فأنت هو ففصله ووضّحه بعد (بَحْثٍ لم يَطُل) ، ثم رجح ما فصله ووضّحه ، أو حققه على الأصح ، ولكن ما يقوله الدكتور طه شيء ، والواقع شيء آخر ، فإن نص البغدادي في خزانة الأدب ج ١ ص : ٣٨٢ هو هذا :

« اختلف المتنبي إلى كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » . وقد قلنا إن في هذا النص خطأ ، وصوابه : « فكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » . فهل تجد ، أيها القارئ الكريم ، بعد هذا النص في كلام الدكتور طه معنى جديداً لم يكن فيه ؟ وكيف تحب أيها القارئ أن تصف الدكتور طه حين يقول لك : « إن الرواة لم يزيدوا على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ؟ وماذا تقول له حين ترى أن الذى أتاك به من التفصيل والتوضيح ، وما استخرجه من الفوائد الجليلة ، هو شيء مكتوب مسطور قد رواه الرواة في هذا الخبر الذى أسقط الدكتور منه وحرّفه وبدّله ؟

/ صِفُهُ كما تشاء ، وقل ما يبدو لك ، أما أنا فأحِبُّ إِلَيَّ أن أقول إن الدكتور رجل ١١٥/٢ طيب القلب ، سليم الصدر ، ظريف مسكين ، قد حُذِع ، والكريم مخدوع ! وأن شهوة الكلام هي سبب البلاء الذى آتَيْتْ به في هذا المكان وأمثاله ، وهي شيء في أصل طبيعته ، ومغرورٍ سَجِيته ، وهو قال لك في مقدمة كتابه ص : ٧ : « قل ما تشاء في هذا الكلام الذى تقرؤه ، قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً ، فأنت محق في هذا كله ، لأنى مرسل نفسى على سجيّتها » = شهوة الكلام هي أغلب سَجِيَّته عليه ، فما لك بعدها مقال تقوله ، وما هو إلا ما وصفه لك الدكتور .

ثم يقول الدكتور بعقب هذا في ص : ٥٢ : « وقد كان لهذه المدرسة (تأثير ظاهر)

في عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان » = وقد حقق الدكتور طه العبقري الأوحى الفدُّ أن هذا (التأثير الظاهر) قد ظهر في ثلاث خصال في هذا الشعر الذى قاله في صباه ، فهو يقول :

« الخصلة الأولى : أن الصبى مقلد في الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ في المدرسة ، والخصلة الثانية ، أن هذا الشعر ، شعر صبى متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة ، وبآراء الغلاة منهم خاصة ... والخصلة الثالثة : أن هذا الشعر شعر صبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم وقد يجوز أن نضيف خصلة رابعة : وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء . »

116/2 / ولا أدري ما نصيب القراء ، أو شعور القراء ، حين يقرأون هذا الكلام ؟ أياكون نصيبهم الضحك ، أم البكاء ، أم الحزن ، أم غير ذلك ؟ أما أنا فمن طبيعتى حين أقرأ كلام الدكتور طه في أكثر ما يكتب أن أضحك ما واتانى الضحك وأوسع لى المجلس . فهذا هو يزعم لك أن هذه (المدرسة العلوية) كان لها (تأثير ظاهر فى عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان) ، وأول هذا التأثير الذى كان لهذه المدرسة أن (فن المتنبى فى صباه كان فنا تقليدياً ليست له قيمة خاصة ، ص : ٥٢) ، وأن الصبى (مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة) . فهل هذه المدرسة على الخصوص هى التى أثرت فى المتنبى الصغير (تأثيراً ظاهراً) حتى جعلته مقلداً فى الفن الشعرى ؟ أم أن كل متعلم شاد مبتدىء مقلد بالضرورة الملجئة إلى التقليد ؟ ثم الخصلة الثالثة ، وهى أن المتنبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة ، هى أيضاً مما يصح أن يكون من التأثير الظاهر الذى كان لهذه المدرسة ؟ فكيف يكون ذلك يا سيدى الدكتور العبقري ؟ وكيف يصح لك أن تقذف به ، والمدرسة شىء لا صلة بينه وبين أخبار القرامطة وأمورهم ؟ ثم الخصلة الرابعة التى أضافها الدكتور على أثنائه الثلاث ، وهى « أن الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم للهجاء » ، فمن أين

يأتى تأثير المدرسة فى (طول لسانه واستعداده للسخرية ثم المهجاء) ؟ وهل فيما نزل به الوحى على الدكتور العبقرى أن كل من تعلم فى هذه المدرسة كان طويل اللسان ، مستعداً / للسخرية ، ثم مقلداً فى الفن الشعرى ، ثم على صلة بأخبار القرامطة ١١٧/٢ وأمورهم !؟

وإن يكن فى كلام الدكتور طه شىء من الصواب فهو فى الخصلة الثانية حيث قال : « إن هذا الشعر شعْرُ صَبِيٍّ متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة ، وآراء الغلاة منهم خاصة » ، ص : ٥٢ . ومعنى الصواب هنا على الاتساع والبَحْبَحَة ، وتأويل ذلك : أن المتنبي قد تأثر بمذهب الشيعة ، وذلك ضرورة اقتضاها اختلافه إلى كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة ، كما نص البغدادى ، وأما سائر كلام الدكتور فليس فيه بعد ذلك صواب ، فشعر المتنبي فى صباه ليس فيه الأثر ولا الدليل عليه ، وليس فيه شىء من مذهب الغلاة من الشيعة ، كما سنين ذلك بعد فى الكلمات المقبلة ، عند تعرض الدكتور فى كتابه للتعلق بهذا الوهم ، فى كثير من أوهامه التى لا تنتهى .

وبعد ، فالدكتور طه يقف فى ص : ٥٣ عند المقطوعات الأولى من شعر المتنبي فى صباه ، ليرى - أراه الله الخير - أنها تصور حقاً كل هذه الخصال التى أحصاها ! وعدّها عدّاً ، وهى أربع . يقف الدكتور عند قول المتنبي الذى زعموه أوّل شعرٍ نظمه ، وهو :

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتَهُ فَافْتَرَقْنَا وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ آجْتِمَاعًا
فافترقنا حَوْلًا ، فَلَمَّا التَّقِينَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا

وقد أراد الدكتور طه أن يبين لقارىء كتابه مقدار العنت الذى / تكلفه المتنبي ١١٨/٢ الصبى وحمل نفسه عليه فى صناعة هذين البيتين ، فشرح البيتين بما لا غناء فى ذكره ولا فائدة فى ص : ٥٤ . ثم قال : « وأكبر الظن أن الفكرة التى حملت الصبى على أن ينظم هذين البيتين هى هذه التى توجد فى الشطر الأخير من البيت الثانى وهى : « كان تسليمه علىّ وداعاً » ، أُعْجِبُ الفتى بهذا المعنى ، فأراد أن ينظمه ، وأن يصل إليه ، فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت » .

ونحن لا نرى بأساً بهذا الكلام على ضعفه وقلة غنائه ، ولو وقف عنده الدكتور طه لكان مستوراً ، وكان هذا القول شبيهاً بأن نجعله ممن قد سُوغ البَصْرَ بالشعر والفهم له والنقد فيه ، ولكن الدكتور طه لا يُبقى على نفسه ، ولا يحفظ عليها ما يحفظ عليها الستر ، فيتخبَّط ويرتطم ، فيقول مبيناً عن الأسباب التي حملته على هذا الرأى .. يقول : « وأنت ترى مظهر التكلف في قوله :

« بأى من ودِّدته فافترقنا »

« فكلمة (وددته) هنا نائية قلقة ، مُكرِّهة على الاستقرار في مكانها الذى هى فيه . أراد أن يقول (أحببته) ، فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدى له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن ، فلم يجد إلا (وددته) هذه » ، ص : ٥٤ - ٥٥ .

وبهذا الضرب من الكلام كشف الدكتور ما أسبغ عليه الكلام الأوّل من حجاب ، ودلّ على الذى هو مطبوع عليه من التخلف في النقد وسوء الفهم للشعر ، وقلة البصر به وبنقده . وقد تولى الأستاذ الجليل / والكاتب المفكر عباس محمود العقاد ، ١١٩/٢ في عدد شهر مارس سنة ١٩٣٧ من مجلة الهلال ، تهجينَ هذا الضرب من النقد واستسقاطه ، وأبان عن فساده ، بما أبان عن فساد مذهب الدكتور طه في نقد الشعر وفهمه ، فقال : « والخلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جدُّ بعيد . فنحن نرى من جهة أن أبا الطيب لو أراد أن يقول « أحببته » بدلاً من « وددته » لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير المقبول في العروض ، ونرى من جهة ثانية أن أبا الطيب كان مستطيعاً أن يستخدم هنا « حَبَبْتُهُ » الثلاثية بدلاً من « أحببته » الرباعية ، كما استخدمها هو نفسه في قوله وهو شاعر كبير :

حَبَبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأَى وقد كان غَدَّاراً فكنْ أَنْتَ وَايَا

فلا ضرورة في الوزن ولا استكراه . وفضلاً عن هذا لا نظن كثيراً يحسبون مع الدكتور أن « وددته » في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح التي لا تعبر

عنه كلمة غيرها ... فالمودة هي ذلك الحب الرقيق الذى فيه حُنُوٌّ وشوق ، (١) وليس فيه عنف ولا اعتلاج ، وليست في العربية كلمة هي أصلح لهذا المعنى من « وددته » التى اختارها الشاعر ، وليجرب الدكتور طه أن يغيّرها في كلام منشور ، فسيعلم أن هذه الكلمة في نظم المتنبي الصبى هي أشبه الكلام بنظم المتنبي الكبير .

« ومن المحقق أن « المودة » ومشتقاتها ليست من الكلمات التى يلجأ إليها شاعرنا

اضطراراً ، أو لعجز في الوزن والصياغة ، فهي مألوفة في قصائده / العديدة ، وتكاد تكون ١٢٠/٢

لازمة له في التعبير عن الحب بشتى معانيه ، ونذكر أمثلة على ذلك منها قوله :

ما الخِلُّ إلا مَنْ أودُّ بقلبه وأرى بِطَرْفٍ لا يرى بسوائه

وقوله :

وكلُّ وِدَادٍ لا يدومُ على الأذى دَوَامَ وِدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفٌ «

ثم سرد الأستاذ العقاد بعد ذلك كثيراً من شعر المتنبي الذى وردت فيه هذه الكلمة ومشتقاتها ، وعقب على ذلك بقوله : « ومثل هذا التكرار لهذه الكلمة جدير بالتسجيل ، لأنه ذو دلالة نفسية ، فوق دلالاته الصناعية أو اللغوية ، لأنه يدلُّ على افتقار الشاعر طول حياته إلى الود والأوداء ، حتى قنع بالتزييف والطلاء ، كما قال :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المَنايَا أن يَكُنَّ أمانِيَا
تمنيتها ، لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعنى ، أو عدواً مُداجِياً

وهي ظاهرة لا نظير لها في عامة الشعراء » ، انتهى كلام الأستاذ العقاد ، وليس لنا بعده شيء نقوله إلا كان مما يسوء الدكتور طه ولا يُبقي عليه ، إذ لم يُبق هو على نفسه .

(١) يقول أبو فهر : انظر قول المجنون ، وهو يؤيد مقالة الأستاذ العقاد :

الحُبُّ والوُدُّ نِيطًا بالفُؤَادِ مَعًا فَأَصْبَحَا فِي فُؤَادِي ثَابِتِينَ مَعًا

١٢١/٢ / ثم قال الدكتور بعد الذى نقلناه آنفا : « ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

بأى من وِدِدْتُهُ فافترقنا وقَضَى اللهُ بعدَ ذاك اجتماعاً

« فتراه فى نفسه حسناً مستقيماً ، ولكنه مع الشطر الأول قلقٌ ، يظهر عليه التكلف الشديد ، لا لشيء فيما أظن ، إلا لأن الشاعر الصبى قد أُعْجِلَ ولم يملك ما ينبغى له من الأناة ، ولم يتمَّ معناه الذى ضمنه الشطر الأول ، وإنما وثب منه وثوباً إلى هذا المعنى الثانى ، لأنه عَجِلَ يريد أن يصل إلى الشطر الذى ألقى إليه ، والذى حمّله على نظم البيتين » ، ويريد الدكتور قول المتنبي « كان تسليمه على وداعا » .

وأنت يا سيدى الدكتور الجليل رجل عبقرى ، شاعرٌ الطبيعة ! فنان النفس ! ملهم الحس ! فهلا خبّرت قارىء كلامك ، ما هو تمام معنى الشطر الأول ؟ فإنتك تزعم أن المتنبي « لم يتم معناه ، وإنما وثب وثوباً إلى المعنى الثانى » - الذى هو « وقضى الله بعد ذاك اجتماعاً » . وهذه القضية التى تريد قارىء كلامك أن يسلم لك بها لا تصحُّ عند أحد ، حتى تقرر ما تسميه (تمام معنى الشطر الأول) ، فبذلك يُعرَف أن المتنبي لم يصبر على إتمام المعنى ، فقلق وتخير واستبدّت به شهوة الكلام ، كما تستبد ببعض مَنْ خلق الله من خلقه ، (فوثب وثوباً) إلى المعنى الثانى ، فكان الشطر الثانى قلقاً مع الشطر الأول لمكان هذه الطفرة ، وموضع هذه الوثبة . أمّا عندنا وعند سائر من رزقه الله الفهم وحسّن البصر بالكلام العربى ، فليس فى الشطرين قلق ، وإنما فيهما فسولة المعنى وضعفه وقتلته .

١٢٢/٢ / وإذا أردنا بيان فساد هذين البيتين قلنا فيهما قولاً على مذهب غير هذا المذهب الضعيف الذى اختاره الدكتور طه وانجذب إليه بطبيعة ضعفه فى فهم الشعر ، ولكن ليس هذا موضع ذلك ، لأننا بسبيل نقد كلام الدكتور وإظهار فساده ، والكشف عن حيله التى يتعامل بها حين يكتب فى مثل ذلك من الأدب .

والدكتور طه هو أبداً الدكتور طه حين ينقد الشعر ، فهو لا يملك إلا أن يقول :
 (انظر وتأمل ، ولا تنس هذا ، وأعرف ذاك) وما إلى ذلك مما ليس فيه تفصيل ولا بيان ،
 فإذا أراد التفصيل والبيان ، وعمد إلى الدلالة على موضع النقد ، اختلط واضطرب ووقع
 أوله في آخره ، وأعلاه في أدناه ، ولم يأت إلا بمثل الذى يقال فيه : « اختلط المرعى
 بالهمل » ! [المرعى : من الإبل الذى له راع ، والهمل : الذى لا راعى له] . وإذا شئت
 أن تستيقن هذا فاقرأ تنمة هذا الكلام فى ص : ٥٥ إذ يقول : « فانظر إلى قوله : « فافترقنا
 حولاً » بعد قوله : « وقضى الله بعد ذاك اجتماعاً » ، وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعاً ،
 فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى الشك فى أن الصبى قد أنفق
 جهداً ثقيلاً ووقتاً طويلاً ، حتى استخرج من نفسه هذين البيتين » ، انتهى . وهو كلام كما
 ترى : « أينما تُوجَّهْ لا يأت بِخَيْرٍ » ، وليس فيه إلا التظاهر والتكثير بالكلام الذى
 لا ضابط له ولا حد ، (كالصنعة ، والمحاولة وإنفاق الجهد الثقيل ، والوقت الطويل) ،
 وإنما هو يا سيدى ثرثرة ولغو وغثاء كما ترى .

ثم يقول الدكتور الوقاف على « هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التى قالها صبينا فى
 حديثه كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضاً » ، ص : ٥٦ :

١٢٣/٢ / أبلَى الهوى أسفا يوم النوى بدنى
 وفرق الهجر بين الجفن والوسن
 روح تردد فى مثل الخلال ، إذا
 أطارت الريح عنه الثوب لم بين
 كفى بجسمى نحولاً أننى رجل
 لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

« فواضح جداً أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير ، وأن الفكرة التى يريد الصبى
 تصويرها هى الإغراق فى وصف النحول » ، ص : ٥٧ ، وفى ص : ٥٦ - ٥٧ : « وكان
 حظ هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس
 وأحبوه ، وتمثلوا به ، لأنه وحى الطبيعة البرىء ، وأهملوا ما قبله ، لأنه متكلف
 مصنوع » ، انتهى .

ولو وقف الدكتور عند هذا القول لو فر على نفسه حسن الظن به ، ولأبقى على رضى القارىء عنه ، ولاجتنب أن ينصب فكره وعقله غرضاً للرماء ممن يحسنون الفهم . ولكن الدكتور ليس يفعل ذلك ، لأنه مسلط على نفسه ، فعاد مرة آخر للنقد ، ولتعليل ما أحس به من التكلف البين في هذا الشعر ، فأخذ يتلمس العليل ويتحسسها في حروف الشعر ، فلم يأت بشيء بل قال : « انظر كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت الأخير :

« أبلَى الهوى ، أسفاً يوم النوى بدنى »

/ فأسفاً هنا ، كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوها عن موضعها أظهر من أن يدل عليه . ١٢٤/٢

وأيضاً ، يعود الأستاذ العقاد إلى ضغط الدكتور طه وحزقه بأخطائه في فهم الشعر أو البصر بمعانيه ، وحدود ألفاظه ، فيقول في عدد الهلال المذكور آنفاً - بعد أن نقل كلام هذا الدكتور : « وعندنا أن الطريقة المثلى لتحقيق الكلام الذى تجيء به ضرورة الوزن ، أن نحذف الكلمة ، وننثر البيت ، وننظر بعد ذلك إلى قوة المعنى وقوة الأثر ، فإن بقيت للمعنى قوته ، وبقي له أثره ، فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير إقامة العروض ، فهل « أسفاً » في الشطرة التى عابها الدكتور من الكلمات التى يصدق عليها هذا القياس ؟ لا نظن ، بل هى كلمة تتعلق بها كل قوة البيت ، كما تتعلق بها نغمته الموسيقية ، ودلالته فى الشعور بسبب البلى يوم النوى ، وهو الأسف والحسرة » ، انتهى كلام العقاد ، وهو كلام جيد يقصر عن مثله الدكتور طه تقصيراً كبيراً .

ثم يقول الدكتور : « ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئاً من الموسيقى قد (وُفق) الشاعر إليه بين (الهوى والنوى) وهو يدل على شيء من (الرقى فى صناعة النظم) ، وعلى أن الصبى قد (استطاع أن يتصرف) شيئاً ما فى الألفاظ » .

وإذا أردت أن تعرف فساد هذا الكلام كل المعرفة ، فلا تكن كاللكتور طه يجعل

عامية هذا الزمن الذى نعيش فيه ، وما هى فيه من البعد / عن ألفاظ العربية الفصيحة ، ١٢٥/٢
 لمكان النشأة الأولى فى يوتنا بين الجاهلات من عجائز الحدم وما فوقهن - هى الأصل
 الذى تقيم عليه كلامك وفهمك ونقدك . بل أعلم أن هذا (الصبى) قد نشأ فى
 الكوفة ، أى فى بلد عربى ، وهذه النشأة كانت فى القرن الثالث من الهجرة أو أوائل القرن
 الرابع ، والعربية لا تزال بعد فى هذه البلاد على حالة من الخير ، لم يصبها إلا الدخيل من
 الفارسية وغيرها ، وبعض ما فشا من اللحن والخطأ . ولم تكن الكلمات العربية قد أهملت
 بعد كما أهملت فى هذا العصر ، فكان مثل قولك : (النوى والهوى) من الألفاظ الدائرة
 على السنة القوم ، يتلقنها الولد الصغير من لسان أمه وأبيه وجارته وذادته ، وقد كان
 الأمهات والحدم والجوارى لذلك العهد يحفظن الشعر ويتمثلن به ، وإن لم يُقمنه على
 الأصل . وكان الشعر العامى وهو أشبه بهن وأعلق بنفوسهن - مما يكثر فيه هذا الضرب
 من الألفاظ ، وهذا الصنف من المقابلة بين اللفظ وزنته أو شبيهه ، وكن يتغنن بكثير من
 ذلك . فالصبى بنشأته يتلقن هذا الكلام ، ويعرفه ويستعمله فى حديثه ، فظهوره فى شعر
 المتنبى الصبى ليس يدل على شىء من الموسيقى (وفق) إليه الشاعر بين (الهوى
 والنوى) ، أو على شىء من (الرقى فى صناعة النظم) « وإنما يدل - إذا أراد اللكتور أن
 يذهب هذا المذهب من الكلام - على الاستعداد الطبيعى فى هذا الصبى لنظم الشعر ،
 ومعاناة القريض . وأنت بعد ترى مقدار النقص فى مثل قول اللكتور أنه يدل أيضاً -
 (على أن الصبى قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما فى الألفاظ) ، فما يكون ذلك إلا فى
 / مثل زماننا هذا ، إذ ينشأ ناشئنا فى العامية الدانية ، وإنما يحفظ اللغة حين يتعلم ، ثم ١٢٦/٢
 يكون له أن يتصرف فيها ، فإن سوغ القدرة استطاع ، وإلا لم يستطع هذا التصرف .

ولعل اللكتور يعرف أن فىمن عاصر المتنبى من الشعراء ، جماعة منهم كانوا

لا يحسنون القراءة ولا الكتابة ، وإنما كانوا أصحاب صناعة أو أهل خدمة ، لم يأخذوا

الشعر عن أحد من أهل العلم به ، ومع ذلك قد رَوَى الرواة لهم شعراً حسناً لا بأس به ،
وكانت فيه موسيقا ، وكان فيه رُقْيٌ في النظم ، وكان فيه تصرف في الألفاظ !!
وللسبت المقبل طَرْفٌ من القول في نقد هذا الفصل .

- ٩ -

/ يقول الدكتور طه في كتابه ص : ٥٩ : « قيل للمتنبي وهو في المكتب : ١٢٧/٢ ما أحسن هذه الوفرة ! فقال :

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى مَنَشُورَةَ الضُّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعْلِيهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ^(١)

ثم يزعم أنه لم يرو هذين البيتين إلا « لما يصوران من نزاع هذا الصبي الحداث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك ، وما ينمان به من حفيظة تضطرب في نفس الصبي ، وضغينة تضطرم في قلبه الغض ، وتطلق لسانه بهذا الكلام الملتهب » . وهذا كلام لا بأس به ، على أنه مختصر من كلامنا عن هذين البيتين في [ص : ١٨٢ - ١٨٥] من كتابنا هذا عن المتنبي ، ولم يكن للدكتور من فضل إلا تبديل الألفاظ . ولا نطيل بذكر كلامنا في هذا المكان طلباً للمقارنة ، ولكنني أدل القارئ على أني حين تكلمت عن / هذين البيتين ، ١٢٨/٢ حاولت أن أستخرج منهما الأصول التي بُنِيَتْ عليها نفس أبي الطيب ، وحللت معانيهما في ستة أصول ، لعلها هي أظهر ما استوت عليه نفسه حتى بلغ الغاية في أعقاب عمره . وكلام الدكتور طه الذي نصفه بقولنا (لا بأس به) ، هو أبداً من (عند غيره) ، حتى ولو كان هذا الكلام مما يصح أن يقع عليه المبتدئون من طلاب الأدب ، فإذا تجاوزه الدكتور إلى

(*) نشرت في جريدة البلاغ ، السبت ٢٨ من المحرم سنة ١٣٥٦ / ١٠ من إبريل سنة ١٩٣٧ .

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، وسال حتى بلغ آخر شحمة الأذنين . و « الضفر » ، خصلة الشعر المضفورة كالغديرة ، وقوله : « معتقل صعدة » ، أي حامل رمحه إلى الحرب . و « يعلها » ، يسقيها من الدم مرة بعد مرة . و « الوافي السبال » ، الطويل اللحية .

ما يأتي به من (عند نفسه) ، تهالك وتهذّل ، وجاء كلامه متخلعاً متحرّفاً لا يدلُّ إلا على القدرة العبقريّة في مادة الإطالة والتهويل والثرثرة .

ودليل ذلك ما يقوله بعقب ما نقلناه لك . « ولك في فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر : فهل كانت الوفرة التي استُحسِنَتْ له وفَّرته هو ؟ وإذن فهو غير راضي عن نفسه ، ولا مطمئن إلى حاله ، وإنما هو متحرِّق إلى الشباب الذي يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التي تتيح له خوض غمار الحرب ، وعَلَّ صعدهته من دماء الأعداء = أو هل كانت الوفرة وفرة تَرَبُّ من أترابه في المكتب ؟ فالصبي إذن يهجو ، ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يُعَنون بوفراتهم ، وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة » .

والوجه الثاني ، مع الأسف ، سخيّف جداً ، وفاسد جداً ، وهو إلزامٌ للماضين من العرب ، بما يألفه بعض العرب المحدثين . فعادة العرب في الجاهلية والإسلام توفير الشَّعر ، والعناية به ، في الرجال والنساء والصبيان جميعاً ؟!

ومع ذلك فهذان الوجهان تقسيمٌ باطلٌ لا معنى له ، وثرثرة فارغة / لا خير فيها . هذا على أن المعنى فيهما واحد لا يختلف ، وما يدلُّ أن عليه لا يتناقض ولا يتباعد . فعلام ذكر الوجهين إذن ، ما دام نص الكلام يدلُّ على أن المقصود هي وفرة المتنبي نفسها لا غيرها ؟ وعَقْل العقلاء يدلُّ أيضاً على أنهم يعنون تلك لا غيرها ، والعادة المعروفة لأهل ذلك الزمان هي الإبقاء على الوفرة المسترسلة في الصغار والكبار ، وعادة أهل الكوفة والبلاد التي يكثر فيها (العلويُّون) على الخصوص هي ما ذكرنا ؟

١٢٩/٢

ثم لو أن الدكتور طه كان قد تتبع خبر المتنبي ، لعرف أن مُعاداً اللاذقي قال في حديثه : « قدم أبو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمئة وهو لا عِذار له ، (وله وفرةٌ إلى شحمتي أذنيه) ، فأكرمه وعظَّمته لما رأيتُ من فصاحته وحُسن سَمْتِه » .

وهذا دليل على أن الوفرة المقصودة هي وفرة المتنبي نفسه . وقد أردنا بهذه الكلمة أن ندلِّك ، أيها القارئ ، على طبيعة الدكتور طه التي لا تفارقه أبداً ، لتجعلها منك على

ذُكِرَ أَنِّي قرأت كلامه ، ولو شئنا أن نتعقب فعلات الدكتور في كل وجه من كتابه ، وعند كل سطر ، وبين كل لفظٍ لفعلنا ، ولأنشأنا كتباً عدة في بيان المذهب العقلي الذي يتمرغ فيه كلامه !!

ومع أن الفائدة منه محققة لقراء كتب الدكتور ، فإن الوقت لا يمدنا بمؤوته من الساعات ، وعندنا من العمل الذي يشغلنا بالاستفادة من العلم ، ما يقطعنا دون ذلك . فاعلم أننا ستتجاوز لك عن أشياء من هذا الكتاب ، / لا للصواب الذي فيها ، بل للبلاء ١٣٠/٢ الذي نحن فيه مما يؤذى ويُمضّ ويقلق .

وقد شاء الدكتور طه ، ولا ردّ لمشيئته ، أن يجعل البيتين السالفين أول حجر يُلقى به في البناء الحَرَج الذي أراد بناءه ، من أن المتنبي كان من القرامطة ، فقال في ص : ٦٠ : « ومهما يكن من شيء ، ففي هذين البيتين ربح البيئة الدامية التي كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبي ، بين تلك الغارات التي كانت تنتهي بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين » .

ولو تدبّر القارئ لعلم أن الدكتور لم يفعل ذلك إلا لغرض في نفسه قدّم له ، وأراد هنا أن يدلّ عليه ، ثم يشاء بعد أن ينسحب عليه في مواضع من كتابه .

وهذا عمل غير صالح ، وإلا فلم نخصّ (البيئة الدامية) بالقرامطة ؟ والكوفة وغير الكوفة من بلاد العربية كانت ميداناً ومَجالاً ووعى دائرة ، ونزاعاً مستمراً قائماً بين الطوائف كلها لذلك العهد ، ولم يكن القرامطة وحدهم هم (حملة السلاح) .

وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا هذا ص : ١٩١ ، ١٩٢ وهو الفصل الذي فيه هذا

البيتان فقلنا :

« وكانت الكوفة ، التي نشأ بها أبو الطيب وشبّ وترعرع وتفتّى ، / لذلك ١٣١/٢

العهد ، بلداً من بلاد الإسلام قد رمتها القرامطة بجيوشها مرّات ، وفعلت بأهلها الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية في شغل عن الكوفة بانقسامها شيعاً يأكل بعضها بعضاً ، وظهرت شوكة الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاء ، فأوقعوا بين المسلمين ، وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف في ثورة دائمة لا تفتت ، ولا تنقطع الحروب في ناحية إلا اتقّدت نيرانها في ناحية أخرى .

« ولا شك أن إحساس أبى الطيب قد ألمّ بذلك كله وفصله ونقده ، وعرف الداء الذى كمن في بدن العربية ، واستلّ قوتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثورته ثورة ، وإلى حقه حقداً » .

فاختصاص القرامطة وحدهم بذلك لا مسوّغ له كما ترى ، وهذا ما قلناه في ص : ١٩٤ و ص : ١٩٥ ، قلنا : « كان الذكاء والثورة والنظر والتجربة والاختلاط بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجّبه من فساد أقيستهم ، وبُطلان مذاهبهم ، ثم اعتماده في نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو السلطان أو القضاء إلا بالسوء والقبیح ، ثم طبيعته الشاعرة المرفهة التى تلتقط صور الأشياء ، ثم تنتزع منهما الأنحيلة الشعرية = كل ذلك أسرع (بالفتى) إلى ضرب من القول الساخر الذى لم تر العربية مثله في شعر شاعر .

« إلا أن سخريته التى انفرد بها لم تكن بعدُ فى كِبَرِهِ إلا ضرباً من الحكمة / والعبرة لا يفطن لها إلا أفذاذ العقول ، ثم يدلّون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالغون فى تصويرها ، بل يضعون لها (اللفظ) الذى يخرجها مخرج الحكمة ، ويزيدها روعةً فى السّخر .

« وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من سُخريته فى (صغره) تدلّ على ما استحکم فى شعره بعدُ ، وصار فى شاعريته طبيعة متأصلة مستحكمة .

« مرّ المتنبي برجلين قد قتلَا جُرْداً ، وأبرزاه يُعجّبان الناس من كِبَرِهِ ، فقال :

لقد أصبح الجُرْدُ المُسْتَعِيرُ أسير المنايا صريع العطب
 رمَاهُ الكِنَانِيُّ والعامريُّ وتلاه للوجه فعل العرب
 كِلا الرجلين أتلى قتله .. فأيكما غل حر السلب ؟
 وأيكما كان من خلفه ؟ فإن به عضة في الذنب

« قتل الرجلان الكنانى والعامرى هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجبا الناس من كبره ، وهذا سُخْفٌ منهما إذ شغلا أنفسهما بعبث لا معنى لمثله عند المتنبي الذى يريد فى نفسه قتل الملوك ، فمن هنا قال : (الجُرْدُ المُسْتَعِيرُ) الذى أغار عليهما كما تغير الجيوش ! ثم لما فرغ من جعله كذلك ، ذكر أن الفأر وقع فى (أسر المنايا) كما يقع العدو فى الأسر حين رماه الكنانى والعامرى بالسهم كما يرمى العدو . وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلوبهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول إلا فأراً !! ثم لا يكتفى صاحبا بهذا ، بل يقول : إنهما أخذوا يصارعانه ، كما يصارع العربى خصمه ، مستعيناً عليه بالقوة حتى يكبّه على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : (وتلاه للوجه فعل العرب) . ثم يقول بعد : كِلا كما تولى قتله - وذلك لكبر الفأر وشدته !! - ولكن من منكما الذى سرق حر ثيابه وجيد سلاحه ؟ كما يسرق السارق فى الحرب أسلاب القتلى ويخفيها عن أصحابه من المقاتلة . ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميتاه بسهميكما ، وكان أحداً من خلفه ، فمن منكما الذى كان من ورائه ليحتال على صرعه ؟ وقد عرفت حيلته فى صراع هذا الفأر العظيم !! فإنه عضه فى ذنبه ، وهذه العضة بينة ثم = وأنت إذا عدت فقرأت الأبيات على ما تكلفنا شرحه ، رأيت بلاغة الرجل فى السخرية ، ودقته فى اختيار الألفاظ ، وإيجاز الصورة التى يريد أن يتفكك لك بها » ، إلى آخر هذا الفصل الذى أطلنا بنقله .

فجاء الدكتور طه أيضاً وذكر هذه الأبيات فى ص : ٦٠ ثم قال :

« فظاهر أن هذا الشعر ليس شعر صبى يُقرزم ، (١) وإنما هو شعر شاعر قد

(١) القرزام (بكسر القاف وسكون الراء) الشاعر الدون . يقال : « هو يقرزم الشعر » ، أى يقول شعراً

راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلم كيف يصرف هذا الكلام كما يحب من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على إجادة النظم ، إلى التماس الهجاء المحض والسخرية اللاذعة ، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب .

١٣٤/٢ / وهذه العبارة كما ترى ، هي جزء نفخ فيه الدكتور من كلامنا ، ثم طفق بعد ذلك يشرح هذه الآيات بما لا يخرج عن المعنى الذى قلنا ، وقطع فى ذلك من ص : ٦١ - ٦٢ . وأنا على يقين من أن الدكتور لم يتعب نفسه فى هذا الكلام إلا لِمَا وجد فى كلامنا عن سخرية المتنبي .

وقد كنت أول من وقف عند هذه الآيات ، وبيّن أنها سخرية .

والحقيقة أنه بعد هذه الآيات لم يوفّق فى الكتاب كله إلى الكشف عن موضع واحد من سخرية المتنبي ، التى قال عنها فى ص : ٥٣ : « وخصلة رابعة : وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً (للسخرية) ثم الهجاء » . فالدكتور على عادته يأخذ أصل الرأى من غيره ، ثم ينسأه نسياناً تاماً ، ولا يستطيع تطبيقه على شىء مما يقع تحت يده ، إلا أن يجد تحت يده أيضاً شيئاً يأخذه يكون بسبيل من هذا !!

ثم لا يكاد الدكتور ينتهى من الكلام عن سخرية المتنبي فى ص : ٦٤ ، حتى يقفز (القفزة الأولمبية) المشهورة ، فيقول فى إثر ذلك : « قال الرواة : وقد خرج المتنبي من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله ، وفصح لسانه ، وأصبح فتى يملأ العين والأذن » . وهذا الذى (ألصقه) الدكتور طه بالرواة ليس يصح على علّاته ، وهو قد جعل خروج المتنبي إلى (البادية) دون أن يعين آية بادية ، لحاجة فى نفسه . / والحقيقة التى رواها الرواة : « أن المتنبي حين خرج من الكوفة صعد إلى بادية السماوة فى مشارف الشام » ، وهذه هى إحدى الروايات = والرواية الثانية « أنه

سافر مع أبيه إلى الشام فلم يزل ينتقل من حاضرة إلى بادية = والرواية الأخرى : « أنه خرج إلى البادية فعاد عربياً قحاً » ، وظاهر أن المراد بالبادية في هذا النص الأخير بادية الشام ، لأن الروایتين السالفتين تدلان على ذلك ، ويؤيده قول الواحدى في أول شرح ديوانه : « وُلد أبو الطيب بالكوفة ونشأ بالشام والبادية » .

هذا على أن الدكتور طه قال إن المتنبي خرج مع (أبيه) ، ولا ذكر في الروايات (لأبيه) إلا رواية من قال : « إنه خرج مع أبيه إلى الشام » ، فكيف يُحرّف الدكتور النص ، ويأخذ بعضاً ويدع بعضاً ؟ أو تدرى لماذا فعل الدكتور طه هذه الفعلة المستنكرة ؟ فعلها لأنه يريد أن يوقع نفسه في إشكال ، (١) وأن يحلّ هذا الإشكال على رأى مبيّت ، فيقول لك في ص : ٦٤ : « إن من العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبى على أن يرتحل إلى البادية فهل ارتحل إليها كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه البيعة (القرمطية) التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ؟ » ثم يقول فى ص : ٦٥ : « ليس من اليسير أن نقطع بشيء من / هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون (تأمل هذا !) هو أن رحلة المتنبي إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ، فقد ربا جسمه ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلّم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية . وشعر المتنبي فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، بيّن لنا هذا أوضح تبين وأجلاه » . وظاهر من هذين الكلامين أنه فى أولهما قال إنه من (العسير) أن يقطع بأحد السببين ، ولكنه فى آخرهما كان من (اليسير) عليه أن يقطع بنتيجة السببين جميعاً ! وهذا كلام ضعيف هالك ، فإذا قطع الدكتور بهذه النتائج ، فالأسباب أيضاً فى حكم المقطوع بها بغير شك .

(١) تبين لى بعد كتابة هذه المقالة أن الدكتور طه ، أخذ هذا الرأى على عادته ، من الأعجمى المستشرق ،

بلاشير ، ولذلك فالدكتور معذور فى هذه الأخطاء ، التى وقع فيها !

والدكتور يقطع بأن المتنبي تعلم أصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا ، قبل إيراد الحجة أو شبهها على هذا الذى قطع به !! وليس ذلك فحسب ، بل إنه كما قلنا تعمد أن يذكر (البادية) بغير تعريف ليقول بهذا القول . وهذا فعل غير حميد ، إذ كان يجب عليه أن يعين البادية التى رحل إليها المتنبي ، لأنه إذا صحَّ أن الرحلة كانت إلى بادية السماوة (وهذا صحيح ولا شك) ، فمن التهجم أن نقول إنه تعلم أصول القرامطة هناك ، فلم تكن بادية الشام موطناً من مواطن الدعوة القرمطية ، بل كانت من أعداء القرامطة ، وكثرت عليها غاراتهم ، واشتدت فيها حروبهم . وأما موطن الدعوة القرمطية ، فكان فى جنوبى الكوفة إلى البحرين ، من أواخر القرن الثالث ، إلى أن خفَّت وذهبت ريجها . فشأن هذه البادية التى رحل إليها وكثرت عليها غارات القرامطة ، شأن الكوفة التى رحل منها وكانت عليها غارة القرامطة . وإذا كان وجوده فى الكوفة لا ينتج القول بأنه / كان قرمطياً ، كما ذهب الدكتور إليه فيما بعد ، فكذلك رحلته فى بادية الشام لا تأتى بشيء يعضد هذا القول .

وكما رأيت قبل أن الدكتور أقحم القرمطية فى الأبيات المذكورة فى أول هذا الكلام ، تراه يعود فى ص : ٦٥ فينقل هذه الأبيات ويجعلها : « كافية كل الكفاية !! (تعجب) لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية) وهو قرمطيُّ الرأى ، متحفز ليكون قرمطي السيرة أيضاً » . فانظر أيها القارئ كيف يفعل هذا الدكتور : فى المرة الأولى قال (البادية) بغير تعريف وعلى غير تحقيق ، ثم عاد بعد صفحة واحدة يقول (البادية القرمطية) معرفة موصوفة ، فهل يستطيع هذا الدكتور أن يحقق ما هذه (البادية القرمطية) ، وأين تقع ؟ وأين كان مكانها من الدنيا ؟ وكيف يجمع بين الروايات ويعدّل بينها ، ويأخذ منها ما يصح ؟

وأنظر الآن إلى هذه (القرمطية) التى يزعمها فى هذه الأبيات :

إلى أى حين أنت في زىٍ مُحَرَّمٍ وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمٍ ؟
وَالْأْتُمْتُ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا ، تَمَّتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فَثَبَّ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَّةً مَاجِدٍ ، يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

/ يقول الدكتور : « فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره الغلام إلى تغيير ١٣٨/٢
حاله ... » ، ثم يقول فى ص : ٦٧ : « ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصوّر
ما عاد به من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد (يعنى
القرمطية) » .

وقد زاد فى هذه المرة فى صفة البادية التى لا يعرفها : أنها (مقتنعة بالمذهب
الجديد) ؟!

وهذه من عجائب الدكتور الكثيرة ، وهل يرى أحد من الناس فى هذه الأبيات
دليلاً على (قرمطته) ؟ ليكن القرامطة من دعاة الخروج على الملوك والسلاطين ، أفكُلُّ
خارج على الملوك وعلى الدولة هو قرمطي بالضرورة ؟

لقد كان من الأصول المقررة عند العلويين الخروج على الخلفاء ، أفكان العلويون
أيضاً قرامطة ؟ أَوْ كُلُّ من تكلم بمثل هذه الروح الثائرة ، فهى دليل على أنه (قرمطي) ؟
اسمح لى أن أقول لك يا سيدى الدكتور أن هذه الأوهام التى تتخيّلها ليست تصلح
للكلام فى تاريخ الشعر ، ولا بيان معانيه ومراميه وأغراضه .

ثم اسمح لى يا سيدى الدكتور أن أسألك من أين عرفت أن هذه الأبيات قد قالها
المتنبى بعد أن رجع من البادية ؟ وما الدليل على ذلك ؟ والذى فى الديوان المطبوع أنه قال
(فى صباه) وفى بعض المخطوطات : (قَالَ وَهُوَ فِي / الْمَكْتَبِ) أى بالكوفة ، فكيف لك ١٣٩/٢
بالقطع بأنها مما قاله بعد أن رجع من البادية !!

وأكثر من ذلك أن ترتيبها فى الديوان لا يدل على شىء من ذلك - إن كنت قد
اعتمدت على ترتيب الديوان . وإذا كانت (الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن

الابتدال ، وتكسبه عدوية تحس فيها ريح الصحراء) كما تقول في ص : ٦٧ ، هي الدليل على أنه قالها بعد عودته من البادية ، فلماذا جعلت القصيدة ، التي ذُكرت في الديوان قبلها ، وذُكرتها أنت بعدها ، من شعره بعد عودته من البادية ، والقصيدة كلها (رطانة) لا رصانة فيها ، وهي مبتذلة اللفظ ، مَلْحَةٌ تتذوق منها مرارة بغیضة مستكرهة ؟ هذا على أنها مما ذكرها الرواة في شعره الذي قاله وهو في (المكتب) بالكوفة ؟ هذا طرفٌ من القول في القرمطية ، وسنعود إليه في الكلمة المقبلة ، بالتوضيح والبيان .

ولا بأس من أن نذكر للقارئ فكاهة طريفة من حيل الدكتور طه ، فإننا حين ذكرنا هذه الأبيات في (ص : ١٨٥ ، ١٨٦ من كتابنا هذا) ، قلنا بعد شرح البيتين اللذين ذكرناهما في أول المقالة :

« وهي وإن كانت مما قال في صغره (نعني هذه الأبيات الثلاثة) ، إلا أنها أمثل من الأبيات الأولى في الدلالة على المعاني التي ذكرناها ، والأصول / التي استنبطناها ، فتدبرها على ما قدمنا لك ، تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير ، إلا في موضع واحد قل في شعره بعد الكبر ، وذلك هو تقديم الثقة بالله على الثقة بسيفه ونفسه » :

وقد سمع الدكتور لنا ، فتدبر البيت الأخير على طريقتنا في شرح البيتين الأولين ، فقال في ص : ٦٧ : « وانظر إلى هذا البيت الأخير :

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللَّهِ وَثَبَةً مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

فهو لا يريد بهذا (الوثوب) إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام المؤلف .

وقد أقر الدكتور كلامنا عن الأبيات الأولى ، وعرف كيف نقف عند الألفاظ لنستخرج منها المعاني ، فوقف عند قوله (ثِبْ وَثَبَةً مَاجِدٍ) فجعله الخروج على السلطان .

ولكن الدكتور لم يستنبط هذا المعنى ، ولا كان مما يتأتى له أن يعرفه ، لولا أننا نبهنا إليه في أبيات أخرى لم يذكرها الدكتور في كتابه البتة !! مع أنها أدل على هذه (القرمطية) العملية التي يزعمها ، وهي الأبيات التي أولها :

١٤١/٢ / مُحِبِّي قِيَامِي ، مَا لِذَلِكُمُ النَّصْلِ بَرِيئاً مِنَ الْجَرْحَى سَلِيماً مِنَ الْقَتْلِ

فقلنا نحن في ص : ١٩٨ : « وقوله (مُحِبِّي قِيَامِي) يعنى ثورته وظهوره وخروجه » ، فنقل الدكتور هذا إلى الموضع الذى نصحنا فيه القراء بتدبر الأبيات الميمية ، ثم توكل على الله وترك هذه اللامية خشية هذه الفضيحة ، مع أنها أصل له في الدلالة على مذهبه !!

وللأسبوع المقبل .

- ١٠ -

١٤٢/٢ /والآن ننشر القول في مشكلة (القرامطة) التي أراد الدكتور طه أن « يستحدثها »
في المتنبي .

وقد كنا في الكلمة السالفة قد طوينا القول طياً لأسباب غلبتنا على الإرادة ، حتى
هجم علينا بعض كبار أصحابنا باللوم والتعنيف - وقد استحققناهما - فلهم العُتْبَى
حتى يَرْضَوْا . فهذه كلمة نستدرك بها ما فات ، ونستأنف القول من مبدئه حتى
لا يتفلت من الرأى ما يجب له الحفظ والإمساك .

ومن الظلم البين للدكتور طه أن نقول إنه (استحدث) مشكلة القرامطة ، فليس
هو بذاك الذى (يستحدث) شيئاً لم يكن !! ولكنى أنسب استحداثها إليه ، لأنه رجل
عبرى نابغة فذٌ ، وللعبرى علينا أن ننسب إليه كل ما يقوله ، وإن لم يكن هو صاحبه
ولا مبتدعه ولا البادىء به .

وأول من أحدث هذه الخرافة ، فيما نعلم ، أحد الفعّة المستشرقة الأستاذ
(بلاشير) ، وقيد قوله هذا في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة ج ١ ص : ٣٦٤) فقال :

١٤٣/٢ / « ولقد هذب دعاة القرامطة من شأن بنى كلب الذين كانوا يعيشون عيشة
البدو في سُهوب تلك الصحراء ، ومن المحتمل (تأمل هذا) أن يكون هذا الشاعر
الشاب قد أتصل في ذلك الوقت ببعض هؤلاء (الزنادقة) ، إلا أنه من المرجح (تأمل)
أيضاً أن هذا الاتصال لم يترك أثراً واضحاً في حياته لحدثة سنه (تأمل هذا واذكروه) ،

ومن المحقق من جهة أخرى أن إقامة أبا الطيب بين هؤلاء البدو ، قد أكسبته معرفة واسعة باللغة العربية كثيراً ما فآخر بها فيما بعد .

واستطرد هذا المستشرق على ضرب من الرأى ليست له سِنادةٌ تحمله ، أو عُكازةٌ تُقيم أودَه . ولسنا في سبيل الكلام عنه ، ولكن لو أعدنا على القارىء كلام الدكتور طه بترتيبه في كتابه ، لما خرج من هذا إلا هذا ، ولكان كل فضل الدكتور هو فيما استبدَّ به من القدرة على الحشو واللغو والغلو فيهما .

وسيرى القارىء ذلك في مكانه من كلامنا هذا ، ومن كتابنا في نقد هذا الكتاب (مع المتنبي) . ومأثرةٌ أخرى للمستشرقين ، فقد زعموا أن المستشرق الأعجمى الأستاذ (مسنيون) ألقى في مؤتمر المستشرقين الأخير في رومية بحثاً ادَّعى فيه أن أبا الطيب كان (قومطياً) ، ذكر ذلك الأستاذ عزام في كتابه ص : ٣٢٩ ، ثم عقب عليه بقوله : (ورأيت بعض أدبائنا يميل إلى هذا الرأى !!) .

١ - / وترتيب حجة الدكتور طه في أمر القرمطية التي يزعمها على المتنبي هو ١٤٤/٢ ما نحكيه لك ، فحين ذكر بيتي المتنبي حين قيل له وهو بالمكتب : (ما أحسن هذه الوفرة !) ، فقال :

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعْلَهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ

فقال ، بَعْدَ حَشْوٍ ، في ص : ٦٠ : « ففى هذين البيتين ربح البيئة الدامية التي كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبي ، بين تلك الغارات التي كانت تنتهى (بالقرامطة) إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين » .

٢ - ثم زعم الدكتور العبقري في ص : ٦٤ أن الرواة قالوا : « خرج المتنبي من

الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها « فهل ارتحل الفتى إلى البادية التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه (البيئة القرمطية) التي كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفي في ذلك الوقت ، تبعث الرعب في قلوب فريق منهم ، وتبعث الحب في قلوب فريق آخر » .

ثم في ص : ٦٥ : « ليس من اليسير أن نقطع بشيء من هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبي إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ، فقد ربا جسمه ، ونما عقله ، وفصح لسانه ، (وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً) ، وشعر المتنبي / في صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبين وأجلاه » . وانظر ما نقلناه لك من كلام بلاشير في أول هذه الكلمات ، وفرّق ما بين الكلامين .

٣ - ثم حين ذكر الأبيات التي قالها المتنبي في صباه ، وهى قوله :

إلى أى حين أنت في زىٍّ مُحْرِمٍ ؟ وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ ؟ وَإِلَى كَمْ ؟
وإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا ، تَمُتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فِتْبٌ وَاتِّقَا بِاللَّهِ وَثْبَةٌ مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْقَمِّ

يقول الدكتور طه في ص : ٦٥ : « وهذه الأبيات الثلاثة ... كافية كل الكفاية !! لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية !!) وهو قرمطى الرأى ، متحفز ليكون قرمطى السيرة أيضاً » ثم في ص : ٦٧ : « وهو لا يريد بهذا (الوثوب) إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف » ، « ليس عندى من شك أن هذه الأبيات تصور ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش في بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد (يعنى القرمطية) » . ثم يقول : إن هذه الأبيات فيها : « الرصانة اللفظية التى تدفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسيبه عدوية تُحسّ فيها ربح الصحراء » انتهى ! فكأن هذه الكلمة هى التدليل على أن الأبيات الثلاثة من شعر المتنبي بعد عودته من البادية .

٤ - / ثم في ص : ٦٨ ذكر من قصيدته التي أولها :

١٤٦/٢

كُفِّي ، أَرَانِي ، وَيِّكَ ، لَوَمَكِ الْوَمَا هَمُّ أَقَامَ عَلَيَّ فُوَادٍ أَنْجَمَا
أبياتاً هي :

يا أيها المَلَكُ المُصَنِّفِي جَوْهَرًا من ذاتِ ذِي المَلَكُوتِ أُسْمِي مَنْ سَمَا
نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لِأَهْوِيَّتِيهِ فَتَكَادُ تُعَلِّمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعَلِّمَا
وَبِهِمْ فِيكَ ، إِذَا نَطَقْتَ فَصَاحَةً من كلِّ عُضْوٍ مِنْكَ ، أَنْ يَتَكَلَّمَا
أَنَا مُبْصِرٌ ، وَأَظُنُّ أَنَّي نَائِمٌ ! مَنْ كَانَ يَحْلُمُ بِالْإِلَهِ فَأَحْلُمَا
كَبَّرَ العِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ صَارَ اليَقِينِ مِنَ العِيَانِ تَوَهُمَا

وقد قدم الدكتور لهذه الخمسة الأبيات في ص : ٦٧ بقوله : « وإذا كانت هذه

الأبيات (يعني الثلاثة الماضية) تصور تأثر المتنبي بالبيئة العملية القرمطية ، فإن
(هذه) تصور تأثر المتنبي بالمذهب النظري للقرامطة وغلاة الشيعة . وهذه القصيدة

التي مدح بها المتنبي - فيما يقول الديوان - رجلاً يعرف بأبي الفضل ، وأراد أن

يستكشفه عن مذهبه ، فيما يقول الديوان أيضاً ، وفيما / يقول الرواة كذلك ، وعندى ١٤٧/٢

أن المتنبي لم يُرد أن يمتحن أبا الفضل وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل . ثم في

ص : ٦٩ : « فنحن هنا بإزاء رأيٍ صريحٍ في الحُلُولِ وهذا الكلام صريحٌ في

انحراف المتنبي عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التي هي إلى

(الإلحاد) أقربُ منها إلى أى شيءٍ آخر . ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه

القصيدة في الديوان ، زعم للرواة ، أو زعم الرواة له ، أنه إنما يمتحن بهذه الأبيات أبا

الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه = كلامٌ يقصد به إلى الاعتذار وإلى التقيّة أكثر من أى

شيءٍ آخر . وعندى أن المتنبي حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها ، لا بالبيئة القرمطية

العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون في البادية . ومن يدري ؟ لعل

هذا الداعي كان أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه . ومن يدري ؟ لعل المتنبي لم يعد إلى

الكوفة مصطحباً أباه وجده ، وإنما عاد مصطحباً رجلاً آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن

يستقرُّوا في الكوفة ، وأن يدعُوا فيها لمذهب القرامطة . ومهما يكن من شيء ، وسواء واتتنا النصوص أم لم تواتنا ، فإنى أجد في نفسى شعوراً قوياً جداً بأن المنتبى قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة .

هذا هو ترتيب حجة الدكتور العبقري فيما زعمه من أن المنتبى كان من القرامطة = بل داعياً من دعائهم كما ذكر في ص : ٧٣ من كتابه . ونحن لا نحب أن نقول إن هذا ١٤٨/٢
الرأى ، وهذا الفرض ، وهذا (الشعور القوى جداً) فى نفس / الدكتور طه ، إنما هو من كلام هؤلاء المستشرقين الأعاجم ، إذ لم نطلع على كثير مما كتبوه ، إلا ما نُقِلَ إلينا من موجز كلام الأستاذ (بلاشير) ، وما رُوِيَ لنا عن الأعجمى المتغالى فى إفساد التاريخ العربى والإسلامى خاصة الأستاذ (مسنيون) . فنحن ندعه لمن تحقَّقه واطلع عليه ، فإن نُقِلَ إلينا بتمامه قلنا فيه ونقدناه بما علمناه إن شاء الله . أما الآن فأمامنا بلاءٌ هو أضرُّ على العربية من بلاء الأعاجم ، فلنقصد قصده ، ولنصرف إليه .

فأنت ترى ، كما قلنا ، أن هذا الدكتور العبقري قد أراد أن يتدرَّج إلى خديعة قارىء كتابه فى القول بقرمطية المنتبى ، فأقحم ذكر القرامطة فى الفقرة الأولى من كلامه إقحاماً ليس فى الشعر ما يحمل عليه أو يقتضيه ، بل ليس فى التاريخ ما يُعيِّنه تعييناً يوجب القول به ، ويلزمنا نسبة هذا الأثر إليه دون غيره من المؤثرات .

فلما فرغ من ذلك التقديم ، ونحَلَّص بهذا التطريق لرأيه ، زعم لك أن الرواة قالوا : إن المنتبى خرج مع أبيه إلى البادية ، مع أن رواية الرواة كلهم تعيَّن أنه خرج إلى (بادية الشام) ، وهى بادية معادية للقرامطة ، كثرت بينها وبينهم الحروب ، فلم تكن ، كما يوهم كلام الدكتور طه فى سياق حديثه ، موطناً من مواطن الدعاة من القرامطة . ولو قد قال الرواة إنه خرج إلى (البادية) على غير تعيين ، لكان ثمة قولٌ لقائل أن يزعم أن المنتبى انحدر إلى بادية البحرين ، حيث تحتفل الدعوة القرمطية ، ولكان قول الدكتور إنه / تعلم ١٤٩/٢

أصول القرامطة في جانب من الصواب ! فما دام الرواة كلهم إجماع على أنه خرج إلى بادية الشام ، فليس يصحّ أن يقال إن أبا الطيب قد تعلم أصول القرامطة هناك ، إلا أن يكون في تأويل الشعر ، أو في نصوص الرواية ، أو في مادة التاريخ ، ما يسوق الفكر إلى هذا الرأي أو يحمل عليه أو يقربه أدنى تقريب إلى جهة الترجيح . ولو قد كان في هذا كله شيء من ذلك ، لكان لزاماً على الدكتور أن يبينه ويأتى به على وجه الحجة لمذهبه ... ولكن الدكتور لم يفعل من ذلك شيئاً ، إلا أن يتهجم فيقول في أدبار هذه الفقرة : إن « شعر المتنبي في صباه (بعد عودته من البادية إلى الكوفة) يبين هذا أوضح تبين وأجلاه » .

ثم يستجمع الدكتور أداة عبقرته ، ويحتفل بأسباب نبوغه الغريب ، فيستدل على الذى زعمه من الشعر الذى قاله المتنبي في صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، فيذكر في الفقرة الثالثة أبيات المتنبي التى أولها :

« إلى أى حين أنت في زىٍّ مُحَرَّمٍ ؟ »

فيزعم أنها كافية كل الكفاية !! لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية !!) التى يتوهمها توهُماً ، « وهو قرمطى الرأى متحفز أن يكون قرمطى السيرة أيضاً » .

وقد قلنا آنفاً إن هذه الأبيات بعينها هى المذكورة فى الديوان بما ترجمته : « وقال فى صباه » ، بغير توقيت لأوان قولها ، ثم إن القصيدة التى / قبلها فى الديوان مما نُصِّ ١٥٠٪٢ على أنها مما قاله وهو (فى المكتب) بالكوفة . ثم إن بعض النسخ المخطوطة من الديوان تقول فى رأس هذه الأبيات : « وقال وهو (بالمكتب) » ، فمن أين أتى الدكتور بهذا البيان عن وقت مَقَالها بعد عودته من البادية ؟ وما الذى رجَّح عنده أن تكون مما قاله بعد أن تعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية ؟

ولكن الدكتور يزعم بعد هذا الرجم بالغيب فى توقيت الشعر ، أن هذه الأبيات

الثلاثة كافية كل الكفاية لإثبات قرمطية أبى الطيب ، وذلك لما فيها من ذكر القتال ، ومن التحرق الذى يظهره فيها إلى تغيّر حاله ، والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة ، ص : ٦٦ من كتابه . أفكّل شعر فيه مثل ذلك يا سيدى الدكتور العبقرى هو مما يقال فيه إنه كاف كل الكفاية !! لإثبات قرمطية صاحبه ؟ لأن المتنبي الصغير يقول ، ويشتد فى قوله ، ويتطلب الموت تحت ظلال السيوف ، ولا يرضى بعيش الذل والمهانة = يوجب ذلك عليك القول بأنه قرمطى ؟ أفليس فى أهل ذلك الزمان من الشعراء من قال مثل ذلك القول وذهب هذا المذهب ، إلا القرامطة وحدهم هم المبتدعة له ، والداعون إليه ؟

إنك تنسى ما تقول يا سيدى الدكتور العبقرى ، فقد بدأت فى ص : ٥٢ تقول إن المدرسة العلوية التى زعمت ، كان لها تأثير « ظاهر » فى عقل هذا الصبى / وقلبه ينبئنا به الديوان = فقد حفظ الديوان للمتنبى مقطوعات من الشعر قالها الصبى وهو يختلف إلى المكتب . ثم ذكرت أن الخصلة الأولى من خصال هذه المقطوعات هى « أن الصبى مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة ، أو ما كان يسمع من شعر القدماء ، ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى ، فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد يلتمس الفتى نفسه فى هذا التقليد ، حتى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها ، واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المران » . حقاً يقيناً ، يا سيدى الدكتور ، إنك قلت هذا ، فما الذى جعل عندك هذه الأبيات الثلاثة التى قالها فى صباه وهو فى المكتب مما قاله بعد عودته من البادية ، مخالفاً بذلك رواية النسخ المختلفة من ديوان أبى الطيب ؟ ثم لماذا لا يكون فى هذه الأبيات بعينها مقلداً يتأثر بالذى حفظه فى المدرسة ، أو ما كان يسمعه من شعر القدماء والمعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير ؟ وقد كثرت هذه المعانى فى أشعار القدماء والمعاصرين الذين سبقوا أبى الطيب كثرة بينة ، لسنا فى حاجة إلى الدلالة عليها برواية أشعار فى هذا المعنى ، وهو معنى مبتذل مطروق قل أن يخلو منه شعر شاعر ؟

لماذا لا يكون هذا الشعر ، بعد الذى رأيت وعلمت ، مما يدل دلالة قاطعة تنفى عنك كل شك فى « أن هذه الأبيات (تصور) ما عاد به الغلام من البادية المقتنعة بالمذهب الجديد من دعوة القرامطة » ؟ ما هذا التحكم الباغى ، والتعسف الغليظ الذى تحمل عليه معانى الشعر حملاً ، لتقول برأى ضعيف / قد سبقك إلى التدللى إليه بعض ١٥٢/٢ الأعاجم من المستشرقين ؟

وليتك يا سيدى الدكتور وقفت عند هذا الضرب من التعسف ، وهذا الخلط فى الرأى وسوء التدبير فى الفكر ، بل احتفل لك المنطق ، وأعانك الذوق العبقري ، حتى جعلت تترقى إلى التلبيس على القارىء ، ليجعل لرأيك هذا وزناً يُعْتَدُّ به ، فزعمت أن فى هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى [ص : ٦٥ من كتابه] ، وأنها تصور ما عاد به الغلام من البادية من الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء [ص : ٦٧ من كتابه] = وذلك ليتوهم القارىء حقاً أن هذا الشعر مما قيل بعد عودته من (البادية القرمطية) التى زعمت !!

وليكن هذا حقاً لا يختلف عليه أحد من الناس ، ولا يمارى فيه ذو بيان أو فن أو ذوق ، ليكن كل ذلك صواباً ... ولكن كيف - بالذى خَلَقَكَ فسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ - تقول فى القصيدة التى ذكرت بعضها فى الفقرة الرابعة التى نقلناها ، إنها مما قاله بعد عودته من البادية القرمطية ، إذا أنت أردت أن ترزها بها الميزان من الذوق الفنى ؟ فهذه الأبيات التى زعمت أنه (مدح) بها أبا الفضل ليست فيها جزالة ، ولا هى مما يكون فيها رصانة لفظية ترفع اللفظ عن الابتذال ، فتكسبه عذوبة تُحس فيها ريح الصحراء !! بل هى كلام ساقط مردول أشبه بالرُّقْية منه بالشعر . وليقرأ القارىء هذه الأبيات من أولها :

كُفَى ، أَرَانِي ، وَبِكَ ، لَوْ مَلَكَ الْوَمَا
وَحَيَالُ جِسْمٍ لَمْ يُحَلِّ لَهُ الْهَوَى
/ وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ لَهَيْبِهِ ،
وَإِذَا سَحَابَةٌ صَدَّ حُبِّ أَبْرَقَتْ
هَمُّ أَقَامَ عَلَى فُوَادٍ أَنْجَمَا
لِحْمًا فَيَنْجِلُهُ السَّقَامُ وَلَا دَمَا
يا جَنَّتِي ، لظننتِ فِيهِ جَهَنَّمَا
تَرَكْتَ حَلَاوَةَ كُلِّ حُبِّ عَلَقَمَا

يا وَجْهَ ذَاهِيَةَ الذِي لَوْلَاكَ مَا
 إِنْ كَانَ أَغْنَاهَا السُّلُو ، فَإِنِّي
 غُصْنٌ عَلَى نَقْوَى فَلَاةٍ نَابَتْ ،
 لَمْ تُجْمَعِ الْأَضْدَادُ فِي مُتَشَابِهِ
 أَكَلِ الضَّنَى جَسَدِي وَرَضَّ الْأَعْظَمَا
 أُمْسِيْتُ مِنْ كِبِدِي وَمِنْهَا مُعْدِمَا
 شَمْسُ النَّهَارِ تُقَلُّ لَيْلًا مُظْلِمَا
 إِلَّا لِتَجْعَلَنِي لِغُرْمِي مَعْنِمَا

إلى آخر هذه القصيدة الغثة الساقطة المزدولة اللفظ والمعنى . فهل يجد القارئ فيها إلا رطانة قبيحة ، وألفاظاً مبتذلة ، ومُلُوحة تُكْسِبُهُ رِيحَ البعر في الأرض السَّبِيحَةَ ، لا رِيحَ الصحراء !! وكيف يقول المتنبي هذا القول القبيح ، وقد زعم الدكتور أنه عاد من البادية ، وقد فَصَحَ لسانه ، وجاد بيانه !!

وقد ذكرت هذه القصيدة في كتابي هذا (ص : ١٨٧) وقلت : « ومن قرأ القصيدة كلها ألقاها كلها ، فما فيها بيت واحد من (الشعر) ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌ كله ... » ، وقلنا إنه لم يقلها إلا تنذراً وعبثاً بهذا الجاهل الدعوى في الفلسفة المسمى بأبي الفضل ، وأن أبا الطيب إنما أثبتتها في ديوانه ليذكر بها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك وغاية الاستغراب ، ولذلك بناها على المبالغة في المدح ، بما ينقل الكلام عن معنى المدح إلى معنى الهجاء والسخرية ، فأعجم القصيدة وأتى فيها بكل ساقطة من الفلسفة وما إليها ، وأخلَّ بعريتها إخلالاً بيناً لم يقع مثله في ساقط شعر / أبي الطيب وسفسافه ورديته « فهذا هو الوجه في تأويل هذه القصيدة ومعانيها عندنا ، أما الدكتور طه فهو لحاجته إليها في القول بأن المتنبي كان قرمطياً ، نقلها من هذا المعنى إلى معنى الجد ، ثم الإلحاد والزندقة ، على عادته من الولوع بأخبار الملحدين والزنادقة وأهل الزيغ والفسوق ، كما بيناه في بعض كلامنا الأول ، [انظر هذا ص : ٤٣٠] .

وليت ذلك فحسب أن يكون كل ما يفعله الدكتور طه ليقول بهذا الرأي المرقوع المتخرق الضعيف السلوخ من كلام مَنْ لا يجيد فهم العربية من الأعاجم المستشرقين = كلاً ، بل يعمد إلى النصوص فيلغيها جملة واحدة لغير علة بيّنة ، أو شبهة قائمة ، أو دليل مقنع . فالرواة الذين رووا ديوان أبي الطيب إجماعاً كلهم على التقديم لهذه القصيدة بهذه الكلمات :

« وقال وهو (بالمكتب) يمدح إنساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه »

فالدكتور يسخر من الديوان والرواة ، كما رأيت في الفقرة الرابعة ، فالمنتبى لم يرد أن يمتحن أبا الفضل هذا ولا أن يستكشفه عن مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل !! وذلك ليقول بأن أبا الفضل هذا كان من دعاة القرامطة ، وأن مديحه جاء على وفق مذهبه ، وفسر الشعر على ذلك ! وتفسيره = على ما فيه من الخطأ في فهم الشعر ، وفي توجيهه إلى هذا الرأي من نحلة القرامطة = لا يصح أن يثبت أمر قرمطية المنتبى ثبوتاً لا مجال للشك فيه ! وذلك لأنه تأويل وليس بتفسير ، وليس في الشعر نفسه دليل عليه .

هذا على أن الرواة الذين ذكروا (أبا الفضل) هذا قالوا : إن المنتبى « وقع في صغره / إلى ١٥٥/٢ واحد يُكنى أبا الفضل (بالكوفة) من المتفلسفة فهوَّسه وأضله كما ضلَّ » . فهذا نصٌّ صريحٌ في أن أبا الفضل هذا كان بالكوفة لا بالبادية ، وأنه كان من المتفلسفة لا من القرامطة . ولو أنه كان من القرامطة لذكروا ذلك ، ولبالغوا فيه ، لعظم عداوتهم لأبي الطيب ، فإن المتفلسفة إن يكونوا ضاللاً ، فإن الحرج في وصفهم بالكفر والإلحاد كثير ، وأما القرامطة ، فأهل العلم جميعاً ، حتى الفاطميون (وقد كانوا لهم أتباعاً) ، يرمونهم بالكفر والزندقة والإلحاد في غير تحرُّج .

فلو كان ما ذهب إليه الدكتور مما يمكن أن يصح ، لكان لتاريخ أبا الطيب شأن آخر غير هذا الشأن ، ولكان للكلام في عقيدته ودينه منهج غير هذا المنهج الذى جرى عليه الرواة والمؤلفون من أعدائه ، ومن المُجَلِّين عليه ، والمتحلِّين ببيغضه والكراهة له والخط منه .

فهذا كما ترى (عمَلٌ غيرُ صالح) من الدكتور طه النابغة العبقرى = وبيان كافٍ كل الكفاية لما قلنا به مراراً ، من أنه يتجنب فيما يكتب إثبات النصوص كما رويت ، ويأبى إلا أن يطمس معانيها ، ويُحرِّف كَلِمَها عن مواضعه ، وهو يعلم أنه لا حجة له فيه ، ولا دليل عليه . وإذا لم يرض القارىء بذلك ، وظننا نتخيَّف الدكتور ونظلمه ونميل

عليه ، فليقرأ نص مقدمة القصيدة وهو : « وقال وهو بالمكتب » ، ومع كل هذا الوضوح وكل هذا البيان ، وكل هذا التصريح ، يزعم الدكتور أن أبا الطيب قالها بعد عودته من البادية فهل فى التحكم البغيض والتعسف الغليظ ما هو أبغض من هذا وأغلظ ؟ / ١٥٦/٢
 أستغفر الله بل ثمة ما هو أغلظ من ذلك ، إذ يزعم الدكتور أن المتنبى « حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرواة ، أو زعم الرواة له ، أنه إنما امتحن بها أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . وهو كلام (تأمل ما يأتى) يُقصد به إلى الاعتذار ، وإلى التقيّة أكثر من أى شىء آخر » ، [ص : ٦٩ من كتابه] . فلماذا الاعتذار ، وعلام التقيّة ؟ لا ندرى ، فجواب هذا اللغو كلّه عند صاحبه العبقريّ الذى لا تنفد حيّله ، ولا تنقضى عجائبه !!

وللأسبوع المقبل تتمّة القول فى هذا الفضول .

- ١١ -

/ رأيت - أراك الله الخير ، وبصرك به ، وسددك إليه - من فعلات الدكتور طه ١٥٧/٢
وأخطائه وما تورط فيه ، وما تهجم عليه بغير علم ، وما قطع به بغير بينة ، وما حرّف من
الكلام عن مواضعه ، وما أسقط من نصوص الروايات ، وما تأوّل به على سوء الفهم
وفقدان البصر بالعربية = رأيت ما يملك ولا شك على العجب ، وبغريك بإسقاط الثقة
بما يقول هذا الدكتور النابغة العبقرى ... هذا إذا تورّعت في الصفة الواجبة الثبوت عليه ،
وأخذت نفسك بالوقار ، وتجمّلت بحسن الأدب في (حضرة) أديب هو عند أصحابه
وأشيعاه من كبار الأدباء ، غفرانك اللهم ، بل كبير الأدباء ، فلم تُردّ لذلك أن تجرحهم
بالأذى ، أو تُؤذّنهم بالعداوة وخيراً إن شاء الله فعلت .

ورأيت في كلمتنا الأخيرة خاصة - عن خرافة (القرمطية) التي صبّها الدكتور
على المتنبي - أشياء ، منها أن الدكتور إنما استلب هذه الفكرة من الأستاذ (بلاشير)
المستشرق ، ولكن (بلاشير) يقول إنه من (المحتمل) أن يكون المتنبي قد اتصل ببعض
القرامطة ، ثم (يرجح) أن هذا الاتصال لم يترك أثراً في حياته وشعره لحدائثة سنه . فلما
استولى عليها الدكتور طه ، واستبدّها ، وتملكها تملك المالك لما يملك ، تصرف فيها بحقه
وحقّ الملك ، فجعل (المحتمل) يقيناً لا شك فيه !! وجعل هذا الاتصال الذي لم يترك
أثراً في حياته أو شعره عند (بلاشير) ، اتصالاً كان له أكبر الأثر وأبينه وأوضحه / في ١٥٨/٢
حياة المتنبي !! واستدلّ على ذلك بأبيات وصفها بأنها (كافية كلّ الكفاية لإثبات
قرمطية المتنبي) ، على عادته في سوء فهم الشعر ، وفي التحكّم والتكلف والتعسف
والغلظ المُفضى إلى البغض . ثم استدلّ في موضع آخر بأبيات لم يحسن فهمها على

الوجه الذى تقتضيه ألفاظها ، ولا أدرك معانيها على الضرب الذى يجعل الحجة فيها كالقلعة المحصنة ، لا يجد النقد فيها عورة ينفذ منها .

ومنها : ما رأيت من تعمده أن لا يروى أحاديث الرواة (بنصها) وتمامها ، بل يسقط منها ما يشاء ويبقى ما يشاء ، هذا على أنه يأتي بها بألفاظٍ من عند نفسه ، ليوافق بها الرأى الذى بينه وعمد إليه ، ويفعل ذلك علماً منه بأن فى (نصوص الرواة) ما يفسد عليه مذهبه ويُسقط قوله ، وأن فيها من وجوه القول والتأويل ما هو أرجح من قوله ، وأهدى وأسدُّ من تأويله .

ومنها : ما فعل فى توقيت القصيدة التى مدح بها المنتبى الرجل المسمى بأبى الفضل . فالرواة مجمعون على أنها قيلت بالكوفة وهو يومئذ فى المكتب ، والدكتور يخالفهم بغير بينة من علم مروى ، ولا استنباط مرضى ، ولا نقد ضعيف أو قوى ، ثم يزعم على ذلك أنها مما قاله المنتبى بعد عودته من البادية (القرمطية) المتوهمة ، ثم يُؤوّل ألفاظها ويفسرها على هذا الذى ذهب إليه ، فدلّ بذلك على اللجاجة فى الخطأ والحرص عليه ، وقلة البصر بالشعر ، وجهل الأصول المقررة فى تاريخ القرامطة ونشأتهم وأصول معتقدتهم .

ومنها : أنه لم يذكر نصَّ الرواة فى صفة (أبى الفضل) هذا ، من إنه / كان من (المتفلسفة) ، ومن أنه كان فى الكوفة ، بل زعم بغير برهان ولا دليل ولا نقد أنه كان من (القرامطة) ، بل من دعاتهم ، وأن المنتبى لقيه بالبادية ورجع معه إلى الكوفة !!

هذا بعض ما فعله ، ثم تخيّل وتوهّم واتسع فى الخيال والوهم حتى زعم أن المنتبى (اشتغل) فى الكوفة بنشر الدعوة القرمطية [ص : ٧٣ من كتابه] ، بل زاد على ذلك أن زعم أنه لا يستبعد (بل يرجح جداً !) أن يكون فى بغداد مركز قوى للدعوة القرمطية ، ذهب إليه المنتبى ، فأدّى إليه شيئاً ، وتلقّى منه شيئاً ! وترك بغداد قاصداً الجزيرة والشام [ص : ٧٣ من كتابه] ، وأنه حين ذهب إلى الشام ذهب داعيةً من دعاة القرامطة !! [ص : ٧٣ من كتابه أيضاً] .

وليس بنا ولا بك حاجةٌ إلى نقدِ هذا الكلام ، فأنت قد رأيت أن (القرمطية) التي يقذف بها المتنبي ، إنما هي كما بينا آنفاً قد بُنِيَتْ على التلفيق والتدليس ، وأقيمت على إفساد النصوص وإسقاطها وتجاهلها ، والتزيُّد فيها بالوهم الكاذب ، أو بإثبات بعضها على وجه غير صحيح ولا أمين ولا ثقة . فإذا كان أمرها كذلك ، فكل ما يأتي منها وما يخرج وما يتفرع وما يتشعب ، فهو تلفيق ولغوٌ وعَبَثٌ وباطلٌ لا أصل له ، لأن الأصل الذي خرجت منه هو ذاك الأصل ... !

والآن ... يزعم هذا الدكتور (أن الرواة حدثوه !!) أن المتنبي ارتحل عن الكوفة إلى بغداد في الخامسة عشرة من عمره ، بعد جلاء القرامطة عن الكوفة ، « وارتحل معه أبوه ! » [ص : ٧١ من كتابه] .

١٦٠/٢ / ونحن نقطع من قِبَلِنَا ، « وعلى مسئوليتنا » ، بأن ليس أحدٌ من الرواة زعم أو قال إن المتنبي ارتحل إلى بغداد في الخامسة عشرة من عمره أولاً = ولا أنه ارتحل عن الكوفة ثانياً ، ولا أنه حين ارتحل إلى بغداد ارتحل معه أبوه ثالثاً .

فإذا كان الدكتور طه صادقاً في هذا الذي أتى به ليدلِّس على مذهبه في (قرمطية) المتنبي ، فهو الصادق !!

ولابدُّ من القول بأن (الرواة الذين حدثوه) إما أن يكونوا قد حدثوه عن طريق الوَحْيِ الخَفِيِّ ، أو في حُلْمٍ أو رؤيا رآها بعد ثَقَلَةٍ أخذته من طعام شهى !!

ومن هذا الباب ، وعلى هذا الصراط ، وفي مثل هذا الحُلْمِ ، يزعم الدكتور طه أن المتنبي قال قصيدته التي أولها :

أَهْلًا بِدَارِ سَبَاكَ أَغْيِدُهَا أَبْعُدُ مَا بَانَ عَنكَ خُرْدُهَا

« يمدح رجلاً (رسمياً !) هو محمد بن عبد الله (هكذا في الأصل) العلوي » ، وأنه قالها (في بغداد) ، انتهى ، [ص : ٧٤ من كتابه] .

وقبل أن نتجاوز إلى النقد ، يجب علينا أن نصحح اسم الرجل الذى مدحه فهو : « محمد بن عبيد الله » بالتصغير « العلوى الكوفى المعروف بالمشطَب » ، (١) وقد ذكر المنتبى اسم أبيه على التصغير فقال :

مُرْتَمِيَاتِ بِنَا إِلَى آبنِ عُبَيْهِ بِدِ اللَّهِ غِيْطَانُهَا وَفَدَفَدَهَا

/ وأول ما فى كلام هذا الرجل المعروف الدكتور طه حسين بك أنه زعم أن (محمد ابن عبيد الله العلوى) هذا كان رجلاً (رسمياً !!) ، أى من رجال الحكم وأعوان الدولة وأهل السلطان هذا ، على أن الرواة لم يذكروا له فى ديوان أبى الطيب شيئاً يدل على عمل (رسمى أو غير رسمى) ، وقصيدة أبى الطيب نفسها ليس فيها إشارة إلى ذلك . إذن ، فمن أين أتى الدكتور بهذه (الرتبة) التى خلعها على (محمد بن عبيد الله) ؟؟ أوجد ذلك فى شيء من كتب التراجم أو كتب التاريخ ؟ فإن كان وجده فليظهرنا عليه ، وما هو بفاعل . ونحن على يقين من أن الدكتور إنما وصف هذا الرجل بهذه الصفة اجترأ وتزويداً على غير بصر ولا بينة ، ولا إثارة من علم ، بل للهوى والتدليس على مذهبه ورأيه .

والثانى : أنه زعم أن القصيدة قيلت فى (بغداد) !! وليس أحدٌ من الرواة قال هذا ، ولا فى القصيدة ما يدل عليه ، بل الدليل على نقيضه كما سترى ، ولا فى المكان الذى ذكر فيه (محمد بن عبيد الله العلوى) ، ما يؤجِّه الرأى إلى ذلك كما سترى . (٢)

قال العكبرى فى شرحه ج ١ ص : ١٩٠ عند قول أبى الطيب :

يَالَيْتَ بِي ضَرْبَةٌ أُتِيحَ لَهَا كَمَا أُتِيحَتْ لَهُ مُحَمَّدُهَا

(١) انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٥٢ ، والتعليق : ١ ، ففيه بيان كافٍ ، ثم ص ١٦٨ ، والتعليق

(٢) تبين أن الذى قاله الدكتور طه من أن « محمد بن عبيد الله » رجل رسمى ببغداد ليس من اجتهاده ، بل

« كان محمد بن عبيد الله هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شاب دون العشرين سنة ، فقتل منهم جماعة ، وجرح في وجهه ، فكسته الضربة حسناً ، فتمنى أبو الطيب مثل ضربته ، فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا » ، انتهى .

١٦٢/٢ / فلو جاءنا الدكتور ببعض تُرّهاته ، (١) فزعم أن قتال هذا العلوى دليل على أنه كان رجلاً (رسمياً) ، وما نظنه إلا أتى من هذا الفهم السيء ، فالمتنبى نفسه قد قاتل في آخر عمره قوماً من العرب بظاهر الكوفة أيضاً ، فهل كان المتنبى إذ ذاك رجلاً (رسمياً !!) ؟ هذه واحدة . والثانية أن هذه الرواية تدلّ دلالة واضحة بينة لكل ذى عينين ، أن الواقعة كانت بظاهر الكوفة ، فهل يكون المعقول مدح المتنبى ببغداد أم بالكوفة ؟ وهل يتوهم أحد أن يترك المتنبى الكوفة ، ويقطع الأرضين إلى بغداد ، لمدح بعد غدٍ من كان قريباً منه بالأمس ؟ والرواية تقول إن (محمداً) هذا كان فتى دون العشرين سنة ، فما نظن أن هذا الفتى كان قد بلغ أن يكون رجلاً (رسمياً) ، كما ادعى الدكتور طه !! ثم ما هو العمل (الرسمى) الذى كان عليه محمد بن عبيد الله هذا ببغداد ؟ فإن الرجل العالم لا يحلّ له أن يقول ما لم تأت به رواية صريحة ، إلا بدليل مستنبط ظاهر الحجّة قريب البرهان ، وإلا كان ما يقوله اجترأً على التاريخ .

هذا على أنه ليس في الرواة من روى أن المتنبى قد فارق الكوفة ورحل عنها على إثر حرب من حروب القرامطة ، ولا على إثر قتال كهذا القتال الذى كان من (محمد بن عبيد الله العلوى) ، حتى يحلّ لكاتب مؤرخ أن يتّجه بالرأى إلى هذا الوجه خلافاً للرواية ، ومناقضة للاستنباط الصحيح من ألفاظ القصيدة كما سيأتى ، وحتى يتسع في أمره فيكون للرأى موضعٌ وللحجة مجالٌ . والمسألة كلها في رحلة المتنبى إلى بغداد ، هي أن البديعى قد روى في كتابه أن / المتنبى قال : « أذكر وقد وردت في صباى من الكوفة إلى بغداد » ، وذكر حديثاً لا يمتُّ إلى الحرب بصلة . أفیحل أن يكون ذلك الذى

(١) أستغفر الله ، إنما هي ترهات المستشرق بلاشير ، ادعى ملكيتها الدكتور طه ، كما سلف قريباً .

قاله الدكتور طه تأويلاً لهذه الكلمة ، أو أن يكون استنباطاً صحيحاً يربط تاريخ أبى الطيب على هذا الوجه ؟ هذا كثير ، بل قبيح ، بل غليظٌ جداً يا سيدى الدكتور .
ونتعجل فنضمُّ الشكل إلى شكله . فالدكتور يقول ويعترف في [ص : ٨٦ ، من كتابه] أنه لا يرى في هذه القصيدة = التى يزعم أن المتنبى قد قالها بعد عودته من البادية (القرمطية) ورحلته إلى بغداد = « مذهب القرامطة ، ولا إشارة إلى مذهب الحلول » .
وهذا صحيح فليس فى القصيدة إشارة إلى ذلك ، بل إنها عندنا دليل على فساد مذهب الدكتور فى (قرمطية) المتنبى . فالأشبه والأقرب والأجدر بالاستنباط أن يكون هؤلاء القوم الذين حاربهم (محمد بن عبيد الله العلوى) هم جماعة من القرامطة . فأنت تعلم - كما قال الدكتور طه - أن القرامطة كانوا قد أكثروا الغارة على الكوفة ، والرواة والمؤرخون قد أكثروا من رواية غاراتهم عليها ، فليس ببعيد ولا مستنكر أن يكون هؤلاء من القرامطة ، وأن يكون المتنبى قد مدح (محمداً) لأنه ردَّ القرامطة عن الكوفة ، ووطنه ووطن أهله .
وعلى ذلك يكون المتنبى من أعداء القرامطة والناقمين على أفاعيلهم . وصلة المتنبى بالحمدانيين تقرب هذا الرأى ، فقد كانوا من أعداء القرامطة ، وقد قاتلهم أبو الهيجاء بن حمدان عم سيف الدولة فى سنة ٣١٥ مع يوسف بن أبى الساج . ثم إنهم رووا أنه قد جرى حديثٌ / وَقَعَةَ ابن أبى السَّاج هذا مع أبى طاهر القرمطى صاحب الأَحْسَاء فى مجلس أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طنج ، فذكر المتنبى ما كان فيها من القتل = وكان القرمطى قد قتل من جيش ابن أبى الساج وجيش ابن حمدان مقتلة عظيمة = فهال ذلك بعض الجلساء ، فقال المتنبى :

أَبَاعَتْ كُلُّ مَكْرَمَةٍ طُمُوجَ وَفَارِسَ كُلِّ سَلْهَبَةٍ سُبُوجَ
وَطَاعِنَ كُلِّ نَجْلَاءٍ غَمُوسَ وَعَاصِيَ كُلِّ عَدَائٍ نَصِيحَ
سَقَانِي اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ يَوْمًا دَمَ (الأعداء) مِنْ جَوْفِ الْجُرُوجِ

و (الأعداء) هنا هم القرامطة ، وقد كان بنو طنج من الذين قاتلوا القرامطة وردُّوهم وكرهوا أمرهم أشد الكره . وقد أخطأ الدكتور طه فى الفصل السادس من

الكتاب الثاني [ص : ٢٨٠] ، ففهم أن هذه الأبيات « تدلُّ على أنه لم يَصْدَفْ عن (القرمطية) إلا كارهاً » ، مع أن أمرها على العكس ، فهي دليل على بغض المتنبي للقرامطة .

وندع هذا ، ففي حديث الدكتور طه عن هذه القصيدة ، التي مدح بها المتنبي (محمد بن عبيد الله العلوي) ، عجائب من الكلام الذي يدلُّك على أنه ليس ذا بَصَرٍ بالشعر ، ولا صاحب قوة في الفهم ، ولا ربَّ طريقة في الاستنباط . وقد استأنف القول فيها من [ص : ٨٠ من كتابه] ، وجعل يخلط بكلامٍ محمومٍ حتى بلغ [ص : ٨٣] ، إذ يقول عن بيتي المتنبي :

١٦٥/٢ / لَا نَأْقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا ، وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا ، وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

« هذه المحاولة التي أراد بها الشاعر أن يظهر شيئاً من الجهد حين وصف نعله ... ليست مبتكرة ، وإنما هي إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نُوَاس الإجمال والإيجاز في قوله :

إِلَيْكَ أبا العَبَّاسِ مِنْ دُونِ مَنْ مَشَى عَلَيْهَا ، اَمْتَطَيْنَا الْحَضْرَمِيَّ الْمُلسِنَا

ويقول الدكتور تعقيماً على هذا في ص : ٨٤ : « وإذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ، لأنها على الأقل تبيننا بأن الشاعر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى (بغداد) راكباً ، وإنما ذهب إليها راجلاً .

وهذا الاستنباط الذي يتعالم به الدكتور طه ليس بشيء ، وإنما هو استنباط (موضعي) لا غناء فيه ، ولعله اختلسه من قول ابن رشيقي في العمدة [ص : ٢٠٠ - ٢٠١] ، إذ ذكر بيت أبي نُوَاس وبيت أبي الطيب ثم قال : « ولو شاء قائل أن يقول إن أبا

نواس لم يرذ ما ذهب إليه أبو الطيب ، لكن أراد أنه معه في بلدة واحدة فقصدته في حاجته محتدياً نَعْلَهُ ، لكان ذلك أظهر وجهاً ، ما لم يكن الحضرمي من الجلود مخصوصاً به المسافر دون الحاضر ، وظاهر الكلام أن مقصد الشاعرين واحد .

166/2 / ولو اتبعنا طريقة الدكتور في هذا الاستنباط (الموضعي) من بيتين فحسب ، لكان كلام ابن رشيقي عن توجيه بيت أبي نواس هو هو في توجيه بيتي أبي الطيب ، فليس ثمة ما يمنع أن يكون أبو الطيب قد قال ذلك القول (تقليداً صرفاً) من جهة ، أو أن يكون قاله في الكوفة نفسها ، وتكذب تكذب الشعراء ليستجدي كف ممدوحه ، إذ يزعم له أنه قاسى هولاً ولقى عظيماً ، تعظيماً لأمر الذي يمدحه = أو على عادة بعض الشعراء في التمدح بالصعلكة والرحلة ، كما قال ابن رشيقي في هذا الباب نفسه .

أما إذا حملنا قول أبي الطيب على الصدق ، وأنه قد خرج حقاً من الكوفة راجلاً قاصداً (محمد بن عبيد الله العلوي) ، فالاستنباط على غير ما ذهب إليه الدكتور الذي لا بصّر له بالشعر ، ولا قدرة له على الاستنباط . يقول المتنبي :

لا نَأْتِي تَقْبُلَ الرَّدِيفِ ، ولا بالسَّوِطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدَهَا (١)
شِرَاكُهَا كُورُهَا ، ومِشْفَرُهَا زِمَامُهَا ، والشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا (٢)
أَشَدُّ عَصْفِ الرِّيَاحِ يَسْبِقُهُ تَحْتَى مِنْ خَطْوِهَا ، تَأَيَّدُهَا (٣)

(١) « الرديف » ، هو الرجل يركب خلف راكب الناقة .

(٢) « الشراك » ، أحد سيور النعل تكون على وجهها . و « الكور » ، هو رَحْلُ الناقة بأدواته ، مثل السرج للفرس . و « المشفر » ما يقع على ظهر الرجل من مقدم الشراك ، جعله بمنزلة الزمام للناقة تُرْمُ به . و « الشسوع » أحد سيور النعل ، يُدْخَلُ بين الإصبعين ، ويدخل طرفه في الثَّقْبِ الذي في صدر النعل المشدود في زمام النعل . و « مقود الناقة » ، الحبل الذي يشد في الزمام أو اللجام تقاد به ، و « زمام الناقة يكون في الأنف » ، و « زمام النعل » الذي يشد به الشسع .

(٣) « التأيد » ، اختلف الشراح في تصريفه وتوجيهه ، والمراد هنا تأييدها أسرع من عصف الرياح .

في مِثْلِ ظَهْرِ الْمِجَنِّ مُتَّصِلٌ بِمِثْلِ بَطْنِ الْمِجَنِّ قَرْدُدُهَا (١)
مُرْتَمِيَاتٍ بِنَا إِلَى ابْنِ عِيْبٍ بِاللهِ غِيْطَانُهَا وَفَدَفْدُهَا

فالمتنبى يذكر أنه قد (ركب) نعله ماشياً فقطع أرضاً وصفها بالبيتين الأخيرين ،
إذ يقول إنها (كظهر المِجَنِّ) ، منبتره مرتفعة غليظة ، ويعنى بها / التلال ، وهي متصلة ١٦٧/٢
بأرض (كبطن المِجَنِّ) ، منخفضة كثيرة الحصى والحجارة ، و « القَرْدُدُ » مُرْتَفَعٌ من
الأرض إلى جانب وَهْدَةٍ منخفضة ، وهي وَهْدَةٌ غليظة ، كلفظها .

وقد قال الرواة إن (القَرَادِيدِ) قلما تكون إلا في بَسْطَةِ من الأرض ، وفيما اتسع
منها ، فترى لها مَتْنًا مُشْرِفًا عليها (غليظاً) ، لا يُنْبِتُ إلا قليلاً ، وبه شبهوا (قَرْدُودَةَ)
الظهر ، وهي ما نسميه (سلسلة الفقار) ، لغلظها وارتفاعها وانخفاضها . ثم ذكر من
صفة هذه الأرض في البيت الأخير ، أنها (غِيْطَانٌ وَفَدَفْدٌ) ، و « الغيطان » هو جمع
« غائط » ، وهو المتسع المطمئن المنخفض من الأرض في البوادي ، لا في السواد والأرض
المزروعة .

يقول الشاعر يصف « خَرَقًا » ، وهي الفلاة الواسعة :

وَخَرَقٍ تَحَدَّثُ غِيْطَانُهُ حَدِيثَ الْعَدَارِي بِأَسْرَارِهَا

ثم ذكر (الْفَدَفْدُ) ، وهي الفلاة التي لا شيء بها ولا نبات ، وأرضها غليظة ذات
حصى وفيها صلابة .

فما الذى يستنبطه القارىء من صفة هذه الأرض التى قطعها المتنبى بعد شرح
هذه الألفاظ ؟ أليس أن الأرض التى قطعها المتنبى ماشياً هى بادية قاسية جافية وعرة
المسالك ، قليلة النبت ؟ فهذه صفة الأرض التى تحيط بالكوفة ، فإن الكوفة يدور عليها

(١) « المِجَنِّ » ، الثَّرْسُ الذى يستتر به المحارب ، وهو أمْلَسُ مرتفع الوسط ، ويأتى فى الكلام شرح بقية

جَبَلٌ (سَاتِيْدَمَا) ، وظاهرها أرض صَلْبَةٌ في غربها ، إذ تقع الكوفة على شاطئِ الفرات من ناحية الشرق ، وأما غربها وهو / (ظاهرها) ففي قلب بادية الغرب التي تفضي إلى نجد . ١٦٨/٢
فَمِنْ هذا لا يجد من يفهم أو يعقل مَحِيصاً من القول بأن المتنبي قد خرج من الكوفة قاصداً محمد بن عبيد الله العلوي في البادية حيث (واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة) ، كما قالت الرواية فيما قدمنا آنفاً .

أما الطريق إلى بغداد فهو ما ترى . فالكوفة واقعة على الشاطئِ الغربي من الفرات ، وبغداد واقعة على الشاطئِ الشرقي من دجلة ، فالمتنبي لو كان قد ذهب إلى بغداد لركب البحر أولاً حتى يصل إلى شاطئِ الفرات الشرقي ، ثم يقطع أرضاً سهلةً كثيرة النبت هي الواقعة بين النهرين (دجلة والفرات) ، ثم يركب البحر مرةً أخرى من شاطئِ دجلة الغربي حتى يبلغ الشاطئِ الشرقي الذي عليه بغداد . فهل ترى أن ذكر ركوب البحر مرتين قد ورد في شعر المتنبي ؟ وهل رأيت الفرق بين أرض سهلة ، في حَضْنِ نهرين ، كثيرة النبات ، وبين فلاةٍ قاسية كثيرة الحصى ذات (قَرْدِدٍ وغيطانٍ وفَدَايدٍ) لا نبات فيها ، هي التي وصفها المتنبي في شعره ؟ وهل يصح بعد هذا لقائل أن يقول : إن المتنبي ارتحل إلى بغداد راجلاً ؟! (١)

إن الدكتور طه ، كما نقول ونكثُرُ ونُبَيِّدُ ونُعيِدُ ، رجل لا بَصَرَ له بالشعر ، ولا قُدْرَةَ له على الاستنباط ، وليس الأدب من عمله ، ولا الكتابة فيه مما يحسن . فإن أخذتك بعد هذا عدوى الشكِّ الذي لا أصل له من الدكتور طه ، فأعلم أن الدكتور قد ترك من هذه القصيدة كثيراً لم يتعرض / له ، لأنه مما يهدمُ رأيه هَدْمًا . خذ إليك ما يقوله المتنبي على إثر الأبيات التي ذكرناها :

(١) الذي أوقع الدكتور طه في هذا كله ، هو الأعجمي الألكن ، الأستاذ بلاشير ، كما أشرت إليه آنفاً .

وهذا عيب الاستسلام إلى هؤلاء الأعاجم ، لا فضل لهم إلا قبح التوريط في الخطأ .

إلى فتى يُصِدِّرُ الرِّمَاحَ وَقَدْ
له أيادٍ إلى (سَالِفَةٌ) ،
أَنْهَلَهَا فِي الْقُلُوبِ مُورِدُهَا
أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعَدُّهَا

ثم يقول في آخر القصيدة :

وَكَمْ وَكَمْ نِعْمَةٌ مُجَلَّلَةٌ ،
وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٌ سَمَحَتْ بِهَا ،
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْ
أَقْرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَيَّ ، فَلَا
فَعُدُّ بِهَا ، لَا عَدِمْتُهَا أَبَدًا ،
رَبَّيْتُهَا ، كَانَ مِنْكَ مَوْلُودُهَا
أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى مَوْعِدُهَا
بِرٌّ ، إِلَى مَنْزِلِي تَرُدُّدُهَا
أَقْدِرُ ، حَتَّى الْمَمَاتِ ، أَجْحَدُهَا
خَيْرُ صَلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُوذُهَا

فتأمل قوله : « له أيادٍ إلى سالفة » ، أى أنه كان يكرمه قبلُ بعطاياه ، ثم تأمل قوله :

« وكَمْ وكَمْ » إلخ ، فكل ذلك دليل على الذى سبق إلى المتنبي من كرم (محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى) ، وليس يكون شئ من ذلك إلا أن يكون هذا الرجل من أهل الكوفة الذين عاشهم المتنبي ، ونال من فواضلهم ، كما بينا ذلك فى كتابنا هذا [ص : ١٥٢ ، ١٥٣] .

كفى هذا ، بل لا بُدَّ من إظهارك على ضرب من فقدان الدكتور طه البصر بالشعر إذ يقول : إن فى هذه القصيدة ما يدل على أن المتنبي كان لا يزال فى حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام : « وذلك حين أراد أن / يذكر الضربة التى تلقاها ١٧٠/٢ ممدوحه فى وقعة من الوقعات !! (تأمل هذا ، وعُدْ إلى ما مضى) ، فزعم أن هذه الضربة شرفت ممدوحه ولم تلحق به ضرراً ولا أذى » ، [ص : ٨٥ ، من كتابه] .

والدكتور يعنى قول المتنبي :

يَا لَيْتَ بِي ضَرْبَةً أُتِيحَ لَهَا كَمَا أُتِيحَتْ لَهُ مُحَمَّدُهَا

أَثَّرَ فِيهَا وَفِي الْحَدِيدِ ، وَمَا أَثَّرَ فِي وَجْهِهِ مُهَنْدَهَا
(فَاغْتَبَطْتُ إِذْ رَأْتُ تَزِينُهَا بِمِثْلِهِ ، وَالْجِرَاحُ تَحْمَدُهَا)

فالمتنبى يقول فى البيت الأخير أن الجراح هى التى شُرِّفَتْ وعظمت وتزينت
بحدوثها لممدوحه ، والدكتور يزعم لك أن المتنبى يقول : إن الممدوح هو الذى
شُرِّفَ ... إلى آخر ما أتى به من كلام الأحلام .

وهذا الضرب من الفهم ، وهذا النوع من البصر بالشعر ، وبهذه الأمانة التى
ثقلت فى السموات والأرض ، نختتم نقد الفصل الخامس من كتاب الدكتور طه . وما بقى
فى هذا الفصل مما لم نعرض له ، فالقارىء بعد الذى كتبناه أُمَّلِكُ له وأهدى فيه .
وللسبت المقبل نَقْدُ ما بلى ذلك من كلام مولانا العالم البصير المتبُّت .

- ١٢ -

/ أما الفصل السادس من كتاب الدكتور طه ، فهو الذى يسود صفحات كتابه ١٧١/٢ من ص : ٩٢ إلى ص : ٩٨ ، يقول فى فاتحته : « وأول مسألة تعرض لنا فى هذا الطريق ، مسألة « تاريخية » بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان ، فمتى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها فى الشام ، قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟ » [ص : ٩٢ من كتابه] .

وأما أول ما يتساءل عنه الدكتور ، وهو : متى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ فهو سؤال من الباطل بحيث علمت ، مما قدمناه فى الكلمة السالفة ، إذ قلنا إن وضع رحلة المتنبى إلى بغداد على مذهب الدكتور ، إنما أتاه من قبل أنه لم يفهم الشعر الذى استنبط منه حقيقة هذا رأى ، وقد رحل المتنبى إلى بغداد ولا شك فى بعض أيامه ، (١) ولكنه لم يرحل إليها مادحاً (محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى) = بل كانت رحلته لمدحه من الكوفة إلى ظاهر الكوفة فى البادية ، حيث كان محمد يقاتل جماعة من العرب أو من القرامطة ، على ما ذهبنا إليه .

وإذا أنت أنطلقت مع الدكتور فى قراءة كلامه عن هذه المسألة ، رأيت / فيها ١٧٢/٢ من رأى ما تعرف وما تنكر ، من مثل قوله : إنه يخالف الأستاذ (بلاشير) فى إقامة

(٥) نشرت فى جريدة البلاغ غرة ربيع الأول سنة ١١/١٣٥٦ من مايو سنة ١٩٣٧ .

(١) انظر ما سلف : ٦٥ ، ٦٦ ، ثم ص : ١٩٢ ، والفهارس (بغداد) .

المتنبى ببغداد ، وأنه - أعنى الدكتور - يرجح أن إقامته بها لم تطل ، وأنه لم يكن آمناً في بغداد ، كما لم يكن آمناً في الكوفة ، وأنه لم يختلف إلى مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من الأشخاص الظاهرين إلا محمد بن عبد الله (هكذا) العلوى ، (١) الذى مدحه بالقصيدة التى فرغ من تحليلها (كما يتوهم) آنفاً ، [ص : ٩٢ ، ٩٣ ، من كتابه] .

ولقد تعلم أن هذا كله باطل ، لأن الأصل الذى بُنى عليه باطل . وقد قدّمنا فى كلامنا الدليل على بطلان الأصل ، فلا نصدّع أنفسنا بالعودة إليه والإفاضة فيه ، فإن ذلك تعب فى غير طائل ، كما كان رأى الدكتور نفسه تعباً فى غير طائل .

ومن أعجب الأباطيل التى يتردّى فى مهاويها الدكتور طه ، فىأتى بالدعوى الموضوعية المتكذّبة مجترئاً متهجماً غير متهيّب من نقد ، ولا متحرّج من إثم ، ما يقول فى ص : ٩٣ : « وأكبر الظن أن خوف المتنبى واحتياطه هما اللذان حملاه على أن يخفى (اسمه ونسبه) ، إن كان له نسب ، على القبائل التى كان ينتقل بينها أثناء رحلته » ، انتهى . وحقاً قالت الرواة إن المتنبى كان (يكتم نسبه) ، فما فى ذلك شك ، ولكن من أين أتى الدكتور طه بقوله إن المتنبى كان يخفى (اسمه) ؟ وأى امرئ من الرواة زعم له ذلك أو حدّثه به وأوحى إليه : أن المتنبى فى هذه الرحلة بعينها ، كان قد خرج خائفاً يترقّب ، [ص : ٩٣ من كتابه] ، حتى يلجأ إلى مثل هذا الفعل ؟ إنه ليس أهون على الدكتور / طه من أن يقول القول يدّعيه مُستأنفاً غير مسبوق إليه ، ثم يضمّه إلى هذه الفقرات التى يتقمّمها من هنا ومن ثمّ ، لينشئ فى كلامه معنى التاريخ ، وإن كان التاريخ ليتبرّأ منه براءة الذئب من دم أبن يعقوب .. !!

(١) انظر ما سلف ص : ٦٥ ، ٦٦ ، ودخوله على إمام اللغة « ابن دريد » ، وانظر اجترأ الدكتور طه على

ما لا يعلم بالنفى والإثبات . فهذا يضاف أيضاً إلى وجوه بطلان قول الدكتور طه .

أما المسألة الثانية ، وهى : هل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها المتنبى فى الشام قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟ ، فهى المسألة على الحقيقة . وليس بفخرٍ أن نقول إننا كنَّا أوَّل من تنبَّه إلى توقيتها ، وجعلها من مادة التاريخ . وقد قلنا فى ذيل [ص : ١٥٢ من كتابنا هذا] : « أعلم أننا نجتهد فى تاريخ ما لم يؤرِّخ من قصائد المتنبى = وقد وجدنا فى ذلك المشقَّة وما فوقها = لترجم للرجل على بينة وهُدَى ، وستجد فائدة ذلك فى كثير مما يمرُّ بك إن شاء الله » .

وكل من قرأ كتابنا عرف الذى أتينا به من ذلك ، لا بل إن الدكتور طه حسين بك نفسه فى أول لقاء لى معه فى يوم من أيام أسبوع المتنبى بالجمعية الجغرافية وقَّف إلى يثنى على كتابى بما أستحى أن أردده فى هذا المكان من كلامى ، ثم اعترف بأن أحدًا لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبى هذه ، وأنه قد رضى كل الرضا ، أو كما قال ، عن الذى تدرَّجت فيه من بيان رحلته حين مخرجه إلى الشام ، وأن هذا الترتيب الذى اهتديتُ إليه هو الترتيب .. إلى آخر كلامه الذى أذكره ولا أنساه له . (١) وسترى فيما يلى أن الدكتور طه هذا العبقرى ، لم يزد فى كلامه الذى أفضى به إلى الناس عن رحلة المتنبى - شيئاً ليس فى كلامنا الذى لم نُسبق إليه .

/ ومع ذلك يزعم الدكتور طه فى [ص : ٩٤ من كتابه] : « أن توقيت هذه ١٧٤/٢ القصائد إن لم يكن ممكناً كله ، فليس مستحيلاً كله » = وهذه العبارة هى ترجمة عملنا ، بعد أن فرغنا من سردِ رحلة المتنبى = : « هذا موجز رحلته الأولى بالشام ، وتفصيلها غير مُيسَّر بعد لعموضها ونقصها ، ولهذا الرحلة تفسير آخر سنعرضه بعدُ » ، انتهى . [انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٩٨] .

ثم زعم الدكتور بعقب ذلك أن له (هو !!) « إلى ذلك التوقيت طريقتين : فأما أولاهما فتتصل بنفس الشاعر ، وأما ثانيتهما فتتصل بطريق الشاعر حين اضطرابه فى بلاد الشام . فأما الطريقة الأولى ، وهى الطريقة النفسية ، إن صحَّ هذا التعبير ، فإننى أستنبطها

(١) انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٠٣ ، والتعليق : ١ .

من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التي كان يحياها المتنبي قبل أن تُلَمَّ به الكارثة ، فقد رأينا قرمطى الهوى في الكوفة لا يتحفظ ولا يحتاط ، ورأينا شيعياً في بغداد ومتحرّجاً يصطنع الحذر ، ورأينا أنه في أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك . وإذن فلا بد أن يمتاز شعر المتنبي في هذا الطور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر في هذا الشعر ... والثاني تحفظ واحتياط يدفع الشاعر إلى أن يخفى آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك .. فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الحلتين في طائفة من قصائد المتنبي ، فأكبر الظن أن هذه القصائد قد قيلت في هذا الطور « ، انتهى ، والحمد لله كثيراً !

وهذا ضرب من الحَظَل في الرأى لا ينتصب للمدافعة عنه والمنايذة دونه ، أو لا يَقِفُ جهده على العمل به والتصرف فيه ، إلا مَنْ كان في مثل بادرة الدكتور / العبرى وتدفعه واندلاقه ، مجترئاً على الحق ، وإن أَلغى باب المنطق أو أغلقه = ومتهجماً ١٧٥/٢ على الحكم ، وإن أبطل عمل العقل . وإلا فأى امرئ في هذه الدنيا التي ابتلينا بممارستها والتصرف فيها ، يستبيح لنفسه أن يستنبط شيئاً من كلام ، ويستخرج من هذا الاستنباط معنى يقيمه صِفَةً على صاحبه ، ثم يجعل هذا هو السبيل إلى تحديد معانى الكلام نفسه أو توقيته أو تاريخه !؟

وبيان ذلك أن الاستنباط الذى يكون من القوة بحيث يُثبِت صِفَةً أو يقرّر رأياً ، أو يستحدث معنى لم يكن ، ليس إليه سبيل إلا بعد الفراغ من الترتيب ، والترتيب يقتضى التعاقب ، والتعاقب هو توقيت الكلام في مواقيته وتحديدته في حدوده . فالدكتور قد استنبط من شعر المتنبي - على ما فيه من الخطأ - أنه كان قرمطى الهوى في صباه من سنة كذا إلى سنة كذا ، فكيف يجعل هذا الرأى نفسه هو السبيل إلى التوقيت ؟ وكيف يتم له العمل به في تفصيل هذا التاريخ ؟ هذا ما لا نعلمه . والدكتور لعلمه بفساد هذا المذهب ، لم يستطع أن يطبّقه في شيء مما أتى به البتة ، بل لقد شهد أنه « أكثر اعتماداً على الطريقة الثانية الجغرافية ، منه على الطريقة الأولى النفسية » ، وما ذلك إلا لأنه

تكلم في قضية قديمة جادلته عليها ، ولم يعرف يومئذ ما وراءها ، وإنما هو كلام يقال (والسَّلام) !!

أما الطريقة الثانية التي (يصطنعها) الدكتور طه ، وهي الطريقة الجغرافية ، فيقول في بيانها في [ص : ٩٥ من كتابه] : « فالظاهر أن المتنبي قد خرج من / بغداد متابعاً ١٧٦/٢ طريق الجزيرة ، حتى انتهى إليها فأقام فيها وفي شمال الشام دَهراً ، ينتقل بين القبائل البادية ، وبين المتحضرين في المدن ، يمدح الرؤساء وسرأة الناس ، كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً » = ثم يدعى هذه الدعوى الباطلة : « وهو في أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية ، وتهيئهم للخروج على السلطان العباسي » إلى آخر كلامه = ثم يقول : إنك إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبي رأيتَه ينقسم إلى ثلاثة أقسام جغرافية :

« القسم الأول : قيل في الجزيرة وشمال الشام = والقسم الثاني قيل في اللاذقية ، وهو موقوف على التنوخيين = والقسم الثالث في طرابلس » ، [ص : ٩٦ من كتابه] . ويخيل إلى الدكتور أن المتنبي قد جاء سورية من شمالها ، ثم مضى فأقام في طرابلس حيناً (قصيراً) = تأمل هذا = ثم انحرف إلى اللاذقية فأطال فيها المقام ، ثم انصرف عنها إلى طبرية ، فأقام قليلاً ، ثم عاد إلى اللاذقية ، ثم تركها إلى البادية غير بعيد من حمص ، فلم يكذ يعلن الدعوة إلى الثورة حتى أخذ وألقى في السجن » ، [ص : ٩٧ من كتابه] . ومهما يكن من شيء !! فهو يفترض أن المتنبي قد سلك هذه الطريق التي رسمها ، وإذن فسيسلك هذه الطريق نفسها في درس شعره في هذا الطور على النحو الآتي : (١) شعره في سورية الشمالية (٢) شعره في طرابلس (٣) شعره في اللاذقية (٤) شعره حين كان يستعد للثورة في البادية (٥) وأخيراً شعره في السجن » ، [ص : ٩٨ من كتابه] ، انتهى كلامه حفظه الله .

١٧٧/٢ / هذا ما قاله الدكتور طه . وانظر الآن ما قلناه في [ص : ١٩٨] من كتابنا هذا ، ثم قارن بينهما واحكم بما شئت :

« خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه = على ما وقع عندنا من الرأى = من الكوفة إلى بغداد ، ثم (خرج لوقته !!) متخذاً طريقه في ديار ربيعة بين النهرين ، إلى نصيبين ، ورأس عين ، وحرّان ، ومنبج ، وطفق ينتقل بين القبائل في جوف البوادي حتى انقضى به المسير إلى الشام في سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها (أعنى بعلبك وطرابلس وحمص) ، ثم كره الأرض التي نزلها ، ثم صعد سنّته إلى منبج ، وحلب ، واللاذقية ، وأنطاكية ، ومدح بها من مدح ، ثم اعتقل بجمص ، لِمَا قالوا به من أدعائه العلوية ، ثم النبوة ، ثم العلوية ، ثم استُتِيب وأشهد عليه بالكذب فيما ادّعى ، ثم تاب وأطلق . هذا موجز رحلته الأولى بالشام ، وتفصيلها غير ميسر بعد لغموضها ونقصها . ولهذا الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد » .

١٧٨/٢ هذا ما قلناه : ولعلك رأيت ما فيه مما (يشبه) كلام الدكتور طه ، هذا العبقري ، ولعلك فَطَنْتَ إلى أن الدكتور طه كما قدمنا يزعم أنه يخالف الأستاذ (بلاشير) في إقامة المتنبي ببغداد ، وأنه (أى الدكتور) يرجح أن المتنبي لم يطل الإقامة ببغداد = ونحن نقول ، كما رأيت ، أن المتنبي خرج من بغداد (لوقته) . ونحن لا نحب أن نخرج الدكتور طه فنلجئه إلى مازق ضنك يلتزمه لا يتقلقل فيه إلا على أذى يدركه ، أو جائحة تناله ، إذ نطلب إليه أن / يعرض علينا شعر المتنبي ليستخرج منه كل هذا الذى قال به في التقسيم الجغرافى ، وهو نفسه قد تجنّب ذلك في كتابه . ولو قد كان يطيقه ، أو يصبر عليه ، أو يُسوّغ القدرة على التصرف فيه ، لما كان أحجم على القول فى ذلك استكثاراً وتضخيماً وتفخيماً لكتابه ، وتلبساً بالفهم ، وتظاهراً بأداة العلم ... ولكنه قد وسّعه أن يدع ذلك ، لأنه لا يسعه أن يقول فيه بمثل الذى قاله فى نسب المتنبي أو قرمطيته من الحشو اللفظى الرائق المعجب الذى استكثر به وتجمّل . والمسألة كلها أن الدكتور أخذ الذى كتبناه فى ترتيب رحلة المتنبي ، فقدّم له بهذه المقدمة المنطقية ، ليرى قارىء كلامه

أنه قرأ أو تدبّر وفكّر وأجهد تلافيف دماغه ، فاستخرج هذا الترتيب (الجديد) لهذه الرحلة ! وما به شيء من ذلك ، وقد عافاه الله منه وعصمه دونه ، ومثّعه بالعافية من وبلّته وعقاييله .

وثمّة في هذا الفصل من القول المعترض في مدارج الكلام ، ما هو خطأ وتحكم وتشدق بغير علم ، وتلبّيس بالهوى ولجاجة ، ننصرف عنه ولا نعرض له ، إذ كان في الذي قدّمنا من الرأى في الكلمات السالفة ما يبطلها ويدلّ على فسادها ، ويظهر عوارها ، ويكشف عن قلتها وفُسولتها .

وأما وقد فرغنا من هذه الأبواب الأولى التي هي مظنة العلم والفهم في كتاب الدكتور طه ، والتي يُشبهه للقارىء أن فيها من الرأى ما هو مستحدث غير قديم ، ومن العلم ما هو محقق غير مضعوف ، ومن الاستنباط ما هو مبتدع / غير مروى ولا متّبع = ١٧٩/٢
فما نجد بُدًا من الضرب عليها بكلمة تبين عن غرض الدكتور من الإتيان بها ووضعها ، أو تأليفها ، أو جمعها ، أو إملائها ، أيّ ذلك شئت .

وخلاصة ما أراد أن يقول به الدكتور طه في جميع هذه الفصول من أول كتابه ، إلى آخر ص : ٩٨ منه : أن نسب المتنبي عنده موضع شك ، ولكن شك الدكتور هذا في نسبه ليس يعتمد على دليل ولا شبهة . ثم إن هذا الشك قد يدفعه إلى القول بأن المتنبي لم يكن يعرف أباه ، ولم يكن يعرف أمه ، ولم يكن يعرف لنفسه قبيلة ينتمى إليها ، وأن مولده كان شاذاً ليس كمولد غيره من أبناء (الآباء) ، ثم أفضى من ذلك إلى صفة المتنبي في طفولته ، ثم في صباه ، ثم اختلج الرأى اختلافاً ، فزعم أن المتنبي كان قرمطياً ، لا بل كان من دعاة القرامطة ، وأن رحلته إلى الشام كانت لذلك ، وأنه كان قد خرج

إليها » ليمتحن الرؤساء والسراة وأوساط الناس وفقراءهم ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهبؤهم للخروج على السلطان العباسي ، الذي كانوا يخضعون له في ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلؤن والاضطراب » ، ص : ٩٦ .

وقد قدّمنا في أوّل كلماتنا أن الدكتور طه إنما شك في نسب المتنبى تقليداً لنا ، وقصاً على آثارنا ، لأننا أوّل من فطن إلى الشك في رواية الرواة ، وأوّل من صرّح بذلك ، وأجلب على كلامهم الشبهة وأدخل عليها التضعيف . ثم جمعنا الأسباب ، وأخرجنا منها مسيبتها ، حتى انتهينا إلى القول بأن / المتنبى كان علويّ النسب ، وأتينا بما يحملنا على ذلك من شعر المتنبى نفسه ، وما كان في نفسه من اجتناب العلويين من أهل زمانه في مدح أو ذم ، مع أنه قد نشأ في بلدتهم (الكوفة) ، وتخرّج من كتاب كان فيه (أولاد أشراف الكوفة) ، وقد استقصينا بعض ذلك فيما مضى .

وأما الدكتور طه فحين قلدنا في الشك ، أخرج الأمر أولاً ، فلم يستطع مناصباً من قذف المتنبى بأنه كان (لا يعرف أباه ولا أمه ، وأن مولده كان شاذاً) . فلما بلغ ذلك لم يجد في رأيه غناء ، ولا وجد له وزناً ، ولا اهتدى إلى طريق يتعسّفها من هذا الرأى حتى يبلغ القول في حياة المتنبى والترجمة له مبلغاً يُحمد عليه = فأبلس وانتشر عليه الرأى ، فلم يجد له مخرجاً إلا أن يضع يده على رأى الأستاذ (بلاشير) في أن المتنبى حين خرج من الكوفة اتصل بالقرامطة ، فاصطنع هذا الرأى ، ثم تملكه ، ثم تصرّف فيه تصرف المالك على ما بيناه آنفاً ، وتعسّف وأخطأ ، وعمى عن وجه الصواب في فهم الشعر الذى استدلل به لرأيه واستجلبه لمذهبه . ولماذا ، لماذا ؟ لأنه أراد أن يقلدنا وأن يجعل قرمطية المتنبى هي سبب رحلته عن الكوفة ، وهي سبب تقلقه في البلاد واضطرابه ، وهي الغرض الذى كان ينشده في حياته ، وهي الرأى الذى كان يمتحن عليه الرجال ، وهي التى كانت أخيراً سبباً في مقتله ... وأن يكون كتابه تقليداً لكتابنا ، إذ جعلنا مشكلة نسبه العلويّ هي التى كانت سبب مخرجه من الكوفة ، وهي كانت سبب تقلقه في البلاد واضطرابه ، وهي الغرض الذى كان ينشده في أول حياته ، وهي التى أدّت به إلى السجن

في الذى زعموه من أمر (نبوته) ، ثم هى التى كانت أخيراً فى ختام أيامه سبباً فى مقتله = ، ولأننا / جعلنا المتنبي فتىً عربياً قد أنكر أمر الدولة وما وقعت فيه من سلطان الأعجمية ، وكان بهذه العربية يمتحن الناس ، فيأنس إليهم ، ويستوحشهم ويفرُّ من أرضهم = ولأننا جعلنا المتنبي داعية سياسياً من دعاة العربية فى أقطارها = فلم يجد الدكتور بُدّاً من أن يفعل مثل الذى فعلناه ، فيجعل القرمطية فى كتابه بإزاء العلوية فى كتابنا .

ونحن هنا لا نفخر بأننا أول من كتب تاريخ المتنبي على هذا الوضع الذى تراه فى كتابنا ، ولكننا نقرّر ذلك إقراراً للحق ، وبيانا للذى فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ آراءنا فأفسدها ، ووضعها فى غير موضعها ، واستعملها بغير حقه ، وأخرج كتابه على غرار كتابنا غير متهيّب ولا متورّع من مذمّة أو إثم . وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملقّقة لأنفسنا = وما يعلم من أن الأصل فى كثير من قراء زماننا أن يتعبدوا للأسماء الرنانة المعروفة ، والألقاب العظيمة المشهورة ، وأن خطأهم الكبير هو الصواب الكبير ، لأنهم هم قائّته والناطقون به ونحن لا نبالى بشيء من هذا كله ، ولو جاءنا الدكتور طه فالتمس هذا الكتاب منّا لنزلنا له عنه ، ما كان نزلنا عنه مما يردُّ عن العلم هذا الفساد الذى أظهره بكتابه كما بيّنا ، وما كان هذا النزول سبباً فى ستر عُيوب رجل قد نصّب نفسه ، أو قد نصّب سواه ، صدرّاً فى الأدب العربى فى مصر ، وفى معهد من أكبر معاهدها ، هو كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ولكن

/ ونتهى من هذه الكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه فى ص : ٩٨ ، ١٨٢/٢
فإن فى الذى يستقبل من كتاب الدكتور طولاً قد امتدّ وسمق وتسامى !! (١) وإن فى

(١) انظر سبب بتر هذه السلسلة من نقد كتاب الدكتور ، موضّحاً فى أول كتابنا هذا ص : ١٠٧ .

حاجة النفس لَمَا يشغلنا عن الدكتور طه وما يأتى به أو يَقَعُ فيه أو يَعْرِضُ دونه :

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعْتَنَى الَّذِي أَخَذَتْ مِنِّي ، بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرِيبي

...

نبوة المتنبى

نبوة المتنبى

محمود محمد شاكر

/ كتب الأخ سعيد الأفغانى كلمة عن (دين المتنبى) فى العددىن من الرسالة ١٨٥/٢ (١٦١ و ١٦٢) سنة ١٩٣٦ ، وقد عرض فيها لنبوة أبى الطيب التى يزعمونها وقعت . وكانت منه مندوحة عن القول (أو كما قال) ، (بأن تنبؤه فى الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشك فيه ، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة حتى التى كانت تميل إليه كل الميل ، فإنها لم تنف الأمر ، وإنما التمسست له المعاذير) . ثم علق على هذا فقال :

« قرأت أخيراً عدد المقتطف الذى كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبى خاصة ، فإذا به يذهب إلى نفي تنبؤ أبى الطيب الذى اتفقت عليه كل المصادر تقريباً . وقد أنعمت فى تدبر الأسباب الحادية على النفى فلم أجد مقنعاً ، به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة !!

« والتاريخ لا يثبت خيراً أو ينفىه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه ، ولا بد فيه حال النفى من التعرض لجميع الأخبار المثبة خيراً خيراً ، وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر !!

« وأمر ادعاء المتنبى العلوية ليس فيه ما يهيج عليه كل هذا ، على رغم ذلك الخيال الجميل الذى لبس ادعاءه إياها فى الكتاب المذكور !!

« وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم خجل أبى الطيب / وحيائه ١٨٦/٢

كلما سئل عن أمر لقبه المنتبى ؟ ولم كان يعمدُ إلى اشتقاقه من « النَّبُوَّة » تارةً ، ويعتذر بأنه شيء كان في الحداثة تارةً ، ويقول إنه يكره التلقب به ، وأنه (يناديه) به من يريدُ الغضب منه ؟ وعلى أى شيء تقع كلمة كافور : « من ادعى النبوة بعد محمد ، أما يدعى الملك مع كافور » ، وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروج الاختلاق !!

« وقد روى المعرى - وهو الحجّة الثابت - أمر التنبؤ ، وما حَفَّ به من حادثٍ ومعجزاتٍ في رسالة الغفران . وأبو العلاء كان أحرى أن يشكَّ أو يكذب الخبر ، لو أن في الأمر مجالاً للشكِّ واحتمالاً للتكذيب ، لأنه أشدُّ حباً للمنتبى ، وعصبيةً له ، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكم نقداً للأخبار ، مع قرب زمان ، وصفاء ذهن ، وقوة حجة ، ومواتاة وسائل التحقُّق إذ ذاك ! » انتهى .. الرسالة ١٩٣٦ (العدد ١٦١ - ص : ١٢٥٥) .

وأنا قد قرأتُ هذا الكلام في موعده حين صدرت الرسالة وأردتُ أن أردّه ، ثم بدا لى أن أدعه حيث هو ، فإن الذى قرأ ما كتبت يعلمُ مقدار ما فى هذا الكلام من الجودة وحُسن الأداء ، وقوَّة الحجّة وجلاء البيان ، وسعة الاضطلاع وبلاغة الفهم ، ولكن بعض أصحابنا لم يزل بى حتى أخذ منى موثقاً أن أقول كلمتى فيه .

وهذا النقد الذى رمانى به أخى الأستاذ سعيد ليس ممّا يثيرنى ويُغرينى بحمل السلاح والاستعداد للمعركة . ولستُ أقول هذا استصغاراً لما يقول / أخى ، أو استكباراً لما قلتُ ، بل هو حكمى عليه مجرداً من كلِّ ما يجعل الحكم قاصراً أو باغياً .

وهذا الذى كتبه الأخ سعيد ليس ممّا أعدّه عندى نقداً ، وإنما هو اعتراضٌ ، والاعتراض شبهة ، والشبهة يزيلها البيان . أما النقد فأمر آخر لم يسوغ للأخ أن يظفر بالقدرة عليه فيما كتب .

وقد أتى الأخ سعيد فى كلامه من قبل أنه عدَّ الأخبار المروية عن نبوة المنتبى

وغيرها أخباراً صحيحةً ابتداءً ، وهذا أوّل الزلل في نقد الناقد . ولا بد لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار ، أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول في علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة . فلا بُدّ لي هنا من أن أدلّ الأخ على الأصل في الأخبار حتى يعرف فرق ما بين الذي انتهينا إليه ، والذي وقف عنده غيرنا ، ثم نكشف له عن الشبهة التي جعلته يعترض الذي كتبناه والذي رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه .

فالأخبار جميعاً تحتمل الصدق والكذب كما يقولون . ومعنى ذلك أنها على حالة من البراءة الأولى لا توصف بصديق ولا بكذّاب . ولا يستحقّ الخبرُ صفة الصدق إلاّ بالدليل الذي يدلّ على صدقهِ ، فإذا لم تجد الدليل على صدقهِ ذهبت عنه صفة الصدق وبقي موقوفاً . فإذا اعترضته الشبهات من قبل / روايته أو من قبل درايته ، مالت ١٨٨/٢ به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه ، فلا يؤخذ به ولا يعتمد عليه ، ويكون عمل الناقد بعد ذلك أن ينظر في هذا الخبر نظرة التدبير ، ليستخرج الحقيقة التي من أجلها تكذّبهُ راويه ، وبذلك يقع على حقائق مدفونة قد سترها الراوي بما كذّب . وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا [انظر ص : ٣٠٦ ، ٣٠٧] ، وإليك ما قلناه :

« أعلم أن أكثر ما يُروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا ، كان مما يُراد به مَضْعُ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء . هذا على أنها ربما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها في هذه النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلاّ بها ، ولا يستمر إلاّ عليها . فلمثل هذا كان لا بُدّ لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، وردّها بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يفوتك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أن تقرأ أو تكتب » .

وأنا حين أردت أن أكتب عن المنتبى نظرت في هذه الأخبار خبراً خبراً ، فلم أجد دليلاً واحداً يجعلها تستحق عندي صفة الصدق ، فأبقيتها موقوفة . ثم عدت فنظرت ، فتناوشتها الشبهات واعتورتها الطعون ، فلم أجد بُدأً من وسمها بالكذب . ثم عدت إليها فعارضتها بالعقل وشعر الرجل وحوادث التاريخ ، لأستخرج منها الحقائق التى يستترها الرواة والمتكذّبون ، فوقعت لى / أشياء هى التى جعلتها أصلاً فيما كتبت . وأنا على يقين من أن الأستاذ سعيداً لم يتنبّه إلى هذا الذى فعلناه ، مع أنه هو الأصل فى الكتابة والتحقيق . أما التسليم فليس يجدى شيئاً ، إلا التكرار والمتابعة ، ثم الزلل والتورط فيما أراد الكذابون أن يحملوا الناس عليه ويوقعوهم فيه .

١٨٩/٢

ويقينى أن الأخ سعيداً لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات فيما يزعم إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ ، ورواها المعرى - وهو الحجة الثبت - « وهو أشد منا حبا للمنتبى ، وعصبية له ، وهو أنفذ بصيرة وأحكم نقداً للأخبار ، مع قرب زمان وصفاء ذهن وقوة حجة ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك » ، ونحن لا ننكر على المعرى شيئاً من ذلك ، ولكن الذى ننكره أن الذى كتبناه كان عصبيةً لأبى الطيب ، أو حُباً له أو فيه . ليكن المعرى صاحب عصبية ، فذلك لا يجعلنا نحن من أهل العصبية حتى نعبث بالحقيقة ، ونلعب بفنّ النقد من أجل أبى الطيب أو غيره من الرجال .

أما أن رواية المعرى - وهو صاحب عصبية لأبى الطيب - مما يصحح هذه الأخبار أو يرجح الصدق فيها ، فهو حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه ، فإن أبا العلاء لم يُشهِد كُتِبَهُ أنه لا يروى إلا الصحيح من الأخبار ، وتُرِكَ المعرى الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرى بمنزلة عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرى ليس يكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب إليه ، ولا نفى صفة الصدق عنه .

/ وأحبُّ أن أقرب إلى الأخ حقيقة هذه الروايات فهو يعلم أن الرواة قد رووا للرسول ﷺ معجزات كثيرة ، وكثير من الذى رَوَّه لم يشبهه أهل العلم بالحديث على

١٩٠/٢

طريقتهم ، وقد رواها قومٌ على عهد الصحابة والتابعين ، وهى كذبٌ مخترعٌ بشهادة أئمة هذا العلم ، وقد بقيت هذه الآثارُ مرويةً إلى يوم الناس هذا ، وهى عند المتأخرين شائعة معروفة متداولة مصدقة ، وقد وردت فى كتب كثير من الأئمة العلماء ، أفيكون تداولها وذيوغها وتصديقُ العامة لها ، وورودها فى بعض كتب العلماء ، هو الدليل الذى لا دليل غيره على صحة هذه الأخبار ؟! وأكثر من ذلك ، أيقون ظهورها على عهد الصحابة والتابعين - على قرب زمن كما يقول الأستاذ - وتصديق بعض العامة لها فى ذلك العصر ، وسكوت بعض العلماء عن الكلام فيها ، مما يدل على صدقها ؟!

ونحن قد أتينا فى الذى كتبناه عن المنتبى بالشبهات التى ترجح الكذب فى هذه الروايات التى يراد بها الوضع من قدر الرجل والتحقيق له ، والطعن فى نسبه أو عقله أو خلقه أو أدبه . لا ، بل بيننا أن ألفاظ هذه الروايات وحدها تحمل أكبر شبهة ، كالذى روى عن هذا اللادقى المسمى معاذ بن إسماعيل ، وقد روى الخبر بطوله فى كتب كثيرة ، وأوردناه بتمامه فى كتابنا [انظر ما سلف ص : ٢٠٠ - ٢٠٤] ، واختصره الأخ سعيد فى كلامه فى العدد (١٦١) من الرسالة . ولا أدرى لم اختصره ، فإن الذى يقرؤه يجد فيه سمة الوضع والكذب مستعلنة بما لم تستعلن به فى حديث غيره . وقد بينا بعض وجوه نقده فى كتابنا [انظر ما سلف ص : ٢٠٩ - ٢١٢] . فكانت حجة الأستاذ سعيد فى ردِّ قولنا / وإسقاطه أنه (لم يجد فيه مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة) . ١٩١/٢ . وكان حقاً على الأستاذ أن يعلمنى وجوه الضعف فى قولى حتى أستبرئ منه ، أما هذه الكلمة المجردة ، فليست بالتى تسقط كلامنا جملة واحدة ، حتى ولو كان هذا الكلام سَقَطاً محضاً .

أمّا ما اعترض به علينا ، فنحن نبين له وَجْهَ بُطلانه . يقول : « وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، فقيم كان خجل أبى الطيب كلما سئل عن أمر لقبه المنتبى ... ؟ » إلى آخر قوله ، فإن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواية ، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم فى خرافة النبوة . وإذا كان أمر نبوته مشهوراً متعالماً ، أو كما يقول اللادقى

إن دعوته (قد عمت كل مدينة بالشام) ، وقد بلغ من شهرتها أنه قبض عليه من أجلها بالشام أيضاً وحبس (دهرًا طويلاً) ، وأن له قرآنًا أنزل عليه .. ويزعم أبو على بن أبى حامد أن أهل الشام كانوا يحكون له سوراً منه كثيرة وأبو الطيب إذ ذاك بحلب ، فكيف يُعقل بعد هذه الشهرة أن يتدر إليه هؤلاء فيسألونه عن حقيقة هذا اللقب ؟ إن السؤال عن (حقيقة اللقب) ، بعد هذه الشهرة التي يزعمونها ليدلُّ دلالة قاطعة على وضع هذه الأحاديث المروية والأخبار المتداولة التي تهوّر كثير من الأدباء في التسليم بصحتها ، كما فعل الأخ سعيد . ولقد كان هؤلاء الذين يزعمون أنهم سألوا أبا الطيب عن حقيقة اللقب (المنتبى) يسألونه وهو بالشام ، وفي الشام أظهر نبوته ، وفي الشام أشتهر أمره ، وأكبر من ذلك أنهم يزعمون أنهم كتبوا عليه / وثيقةً أشهدوا عليه فيها ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله . فهلاً كان الأوّل بهم أن يظهروا هذه الوثيقة ، ولمّا يمض عليها كثير دهر ، وقد أخذها عليه وإل من الولاة ، فهى ، ولا بُدَّ ، محفوظة في ولايته ؟ وكان أبو الطيب شجراً في حلوق الأدباء والشعراء وكثير من أصحاب السلطان وهو في جوار سيف الدولة ، وقد أوقعوا بينه وبين أميره بكل ما ملكوا من أسباب للوقعة ، أفطن أنهم كانوا يحجمون عن إظهار هذه الوثيقة ، وإحراجها بها ، والعمل بها على تحقيره ، ثم على المنافرة بينه وبين سيف الدولة !! كانت كل هذه النقائص بالشام ، ومع ذلك لم يكن من أثرها إلا هذه الروايات الضعيفة التي تحمل ألفاظها الشكوك والريب .

وأسخف من هذه الرواية ، رواية من يروى أنه كان يعمد إلى التمويه على الناس بقوله : إن هذا اللقب (المنتبى) مشتق من « النبوة » ، فليس يُعقل أن أبا الطيب - وهو يعلم أن نبوته كانت مشهورة كما ذكر الرواة - يعمد إلى هذا التوجيه الضعيف الميئ ، وهو يعلم أنه كاذب ، وأن الناس مكذبوه ، لأنهم يعلمون حقيقة أمره .

واعذاره بأنه يكره التلقب به ، وأنه يدعو به من يريد العَضُّ منه ، فهو بسبيل من ذلك في الضعف والسخف . على أنه مع ذلك لا يدلُّ دلالةً ما على حدوث النبوة التي يزعمونها ، بل على العكس من ذلك ، إنه ليدلُّ على أن هذا اللقب مفتعل موضوع

للكيد له والغضُّ منه ، وأنهم كانوا قد وضعوه له لِيَغِيظُوهُ به . ومثل ذلك كثيرٌ في كل عصر ومكان . ولعل الأخ سعيداً / لا يعدم رجلاً في بلده قد تَبَزَّه الناس بِنَبْرٍ يَغِيظُونَهُ به ، ١٩٣/٢ ولا نشكُّ أن هذا الرجل (يكره التلقُّبَ به ، وإنما يدعو به من يريد الغضُّ منه) .

وأما كلمة كافرٍ فهي كلمة مفتعلة موضوعة تافهة ، وإلا تكن كذلك ، فليس فيها أيضاً ما يدلُّ على شيءٍ محقِّقٍ كان قد حدث من أبى الطيب . وكافورٌ كان قد سمع هذه الدُّعوى التى يزعمونها عن نبوة أبى الطيب وسلَّم بها ، ثم تكلم ، وليس تسليمُ كافرٍ بها سنداً لها يحقِّق تاريخها ، ويثبت وقوعها بعد الذى ذكرنا لك من ضعف الروايات .

هذا ، وقد أراد الأستاذ سعيدٌ أن يعلمنا سُبُل التحقيق فى التاريخ فقال : « والتاريخُ لا يثبت خبراً أو ينفية تبعاً لميل مؤلف أو رأيه » إلى آخر قوله ، وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر ، وذلك أنه بعد اعتراضه قال : « وكافور ليس من الذين يخلقون على شاعر ، ولا من يروِّج الاختلاق » ، ولم يرد فى كلامنا ذكر كافرٍ واختلاقه حتى يعقب الأستاذ هذا التعقيب . هذه واحدة ، والأخرى أن الأستاذ قد حكم على كافرٍ حكماً لم يرد له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى : أن كافرًا لم يكن يخلق على الناس ، ولا يروِّج الاختلاق ... ؟ لقد أتينا نحن بالروايات ونقضناها بالدليل - ضعيفاً كان أو قوياً - أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره .

ثم بقى اعتراض الأستاذ الذى يقول فيه : « وأمر ادعاء المنتبى العلوية ليس فيه ما يهيجُ عليه الناس كلُّ هذا » . وأنا لا أعلم ماذا يريد الأستاذ سعيد / بقوله (كلُّ هذا) ، وإذا أردنى على أن أجيبه على ذلك ، فليبين لى صورة المبالغة فى قوله (كلُّ هذا) ، فأنا لا أعلم من أمر هذه المسألة أكثر من أن الرجل قبض عليه بالشام وحبس . أما هياجُ الناس ، فلم يردُّ له ذكرٌ فى كلامنا ولا فى كلام الرواة . وأما حبسه أو قتاله من أجل العلوية ، فليس يبدع فى التاريخ ، وكان لزاماً على الأستاذ قبل أن يكتب هذه الجملة ويصوغ هذا الاعتراض ، أن يرجع إلى كتب التاريخ ليعلم أن الذين قاتلوا أبا الطيب

وحبسوه ، كانوا قد قاتلوا من قبله قوماً أو حبسوه من أجل ادعاء العلوية ، وكذلك فعلوا مع العلويين الذين خرجوا عليهم فى أرضهم وديارهم . فقتاله وحبسه ليسا يُثبتان أن هذا الذى كان من أبى الطيب ، إنما كان إظهاره النبوة لا ادعاءه العلوية .

وبعد ، فلو حمل الأخ سعيد نفسه على تدبّر الذى كتبناه فى المقتطف عن المنتبى ، لما وقع هذا الاعتراض الذى حاك فى صدره . وقد أشرنا مرات فى كتابنا إلى وجوب ذلك ، فقد كنا نترجم للرجل ترجمة صحيحة يقرأها القارئ ليمثل صورة هذا الشاعر العبقري ، وفاءً له وتقديراً ، بعد مرور ألف سنة على وفاته ، فلم يكن سيئنا أن نتعرض لأصول النقد وشرحها وتفصيلها ، ولم نأخذ الروايات جميعها بالنقد مرة واحدة ، فإن ذلك كان يقتضى منا وقتاً كثيراً وكتاباً كبيراً ، ولكن من يطلع على الذى كتبناه منصفاً متدبراً عارفاً بطرف من أصول نقد الرواية ، يعلم يقيناً أننا لم نكتب حرفاً واحداً إلا بعد أن استوفينا عندنا نقد الأخبار (خبراً خبيراً) كما يريد / الأستاذ سعيد . وليس عسيراً على المتدبر أن يستخرج من الذى كتبناه الأصول التى نقدنا بها هذه الأخبار . ولعل الأستاذ قد قرأ كثيراً مما فاضت به الصحف والمجلات عن المنتبى ، وقرأ فى خلال ذلك كثيراً من نقد الأخبار التى رُويت ، ولعله رأى أيضاً أن هؤلاء قد اتخذوا كتابنا مصدراً استنبطوا منه أصول النقد التى وضعناها ، وقاسوا عليها فأخطأوا وأصابوا ، وليس هو بأقل منهم حتى يفوته ما أصاب غيره .

حول « نبوة المتنبى »

سعيد الأفغانى

/ كنت عائداً من جولة فى قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل ١٩٦٢/٢ محمود محمد شاكر فى العدد (١٦٧) من الرسالة الغراء ، التى كتبها رداً على حاشية بحثنا فى دين المتنبى المنشور فى العددى (١٦١ ، ١٦٢) من المجلة المذكورة .

وكانت قراءتى لرده ، بعد عشرة أيام من صدوره . فإذا تأخرت فى التعليق عليه ، فهذا عذرى أبسطه للقراء الكرام ، وأنا أعوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والعصبية للرأى والهوى ، فما يزال الناس - والله الحمد - يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله ، لا بدعواه وتبجححه . وقد ولى زمن كان فيه الولوع بالإغراب والإتيان بالجديد - ولو تافهاً - سبيلاً إلى الشهرة وذبوع الصيت ، وأقبل زمان فيه للتفكير حُرمة وللعقل وزن ، وكفى فيه المؤلفون مؤونة الثناء على النفس ، والتحدث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفردت به من معجزات .

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقبلون ما يطالعون كل مُقلِّب ، يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويُقلِّبونه ويتدبِّرون ما فيه ، حتى تنكشف لهم منه / مواطن الحسن والقبح ، ١٩٧٢/٢ ويلمسون فيه آثار العجلة ، كما يلمسون مواضع التؤدة والروية .

وفى هذا ما كاد يصرفنى عن الرد ، سيراً على قاعدتى فى ألا أحفل نقداً ولا رداً إلا إذا كان حقاً . وسببى حينئذ أن آخذ نفسى به وأشكر لصاحبه ، وإلا فإن الزبد

يذهب جُفاء وما ينفع الناس فيمكث في الأرض . وخروجى اليوم على قاعدتى ، إنما كان لمنزلة الكاتب الفاضل ، لا لِمَا في الردِّ نفسه . وليس في الأمر كُلاً ما ظنه الأستاذ شاكر : فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك ، إنما هى حاشية على كلام له المحل الثانى من بحثى ، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرُّض لمؤلف ، وشتان بين أسطر عُلقَت عرضاً فى حاشية ، وبين كلام مطوّل أنشئ للنقد خاصة .

أنا أدرى - والإنصاف شريعة - أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير ، ففى الكتاب إحسان ، وفيه إصابة واجتهاد ، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطأها مرة .

وبعد ، فإنى أشكر الأستاذ على نقله كلامى بحروفه ، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا : هل بلغ الأستاذ فى الجواب على أسئلتى ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه ، أم قصر دون هذه الغاية ؟ أمّا أنا فقد عدت إلى / كتاب الأستاذ كما طلب إليّ ، « وأنعمت - ثانية - فى تدبر الأسباب الحادية على نفى تنبؤ أبى الطيب فلم أجد فيها مقنعاً » ، كما لم أعثر فى رده الذى تفضل به على شىء من الحججة . وإليك البيان :

١ - وهن الأستاذ رواية التنوخى لأنه صاحب الوزير المهلبى ، ولأن المهلبى عدو المنتبى ، فلا يبعد أن يكون التنوخى تحامل على أبى الطيب إرضاء للمهلبى . (١)
فنحن نسأله : هل يكفى هذا الاحتمال فى تبرير ردِّ رواية التنوخى ، وهى كما يراها المنصف تحمل فى مطاويها دليل الصدق والأمانة فى نقل الحديث ، لا دليل الوضع والكذب ؟ سأل التنوخى أبى الطيب عن معنى (المنتبى) فأجابه : « إن هذا شىء كان فى الحدائث » ، وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو كما قال الراوى جواب مغالط ،

وكان فى وسع التنوخى أن يحمّل المنتبى - لو أراد وضعاً وتحاملاً - جواباً صريحاً فى ادّعائه النبوة . ولو استقام هذا الأصل الذى بنى عليه الأستاذ رواية التنوخى ، لجاز لكل من أراد نفى خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه . وما أحسب أن خبراً - مهما كان صحيحاً - يستعصى إسقاطه على هذا الأصل !

إنما السبيل أن ينقّب الأستاذ عن نص صحيح صريح فى تجريح الراوى التنوخى ، وأنه عهد منه وضع الأخبار ودرس الروايات ، أو أن يلجأ إلى حجة - لا إلى احتمال - قوية يرضاهها العقل والمنطق السليم .

٢ - / استهل الأستاذ كتابه بفرض فرضه ، وخلاصته أن المنتبى علوى ١٩٩/٢

صحيح النسب ، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العلويين ، زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ . ثم ذهل حضرته عن أن هذا كان منه فرضاً ودعوى ، فراح يعدّه بعد صفحات حقيقة واقعة يبنى عليها ، ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب ، مستنداً إليها ، الروايات ، وبتهم الراوين . وهو بذلك يخرج على أصول سنّها هو لنفسه ، وأخبر عنها فى رده علينا حين قال : « ولا بد لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار ، أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول فى علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة » . ونحن ننقل للقارىء أدلة على هذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ، ليستبين أن الكاتب لم يتمكن من ضبط فكرته ، فانتشرت عليه وتفرقت . قال فى ص : ٨٥ : « بينا لك فيما مرّ ما بين أبى الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم » ، يقصد بما مرّ احتمالاه الذى لخصناه آنفاً . وقال فى ص : ٩٢ : « وبين على مذهبنا فى نسب المنتبى أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية » ، وقال فى ص : ١٠٢ : « وكأنى بالمنتبى فى طريقه يظهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوى الأصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ... ! » . فأنت ترى أن هذا النسب العلوى وعداء العلويين كان فرضاً أول الكتاب ، ثم صار حقيقة مقررة فى وسطه .

٢٠٠/٢ / وماذا فى أن يكون المنتبى علوياً حتى يهتم به العلويون هذا الاهتمام ، وحتى يحتال هو لإذاعته فى القبائل والمدن بالدهاء ، والبلاذ تعج عجيجاً بالعلويين والأشراف ؟
والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هذه التى افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التى تحمل أمر تنبئه ، ويشغل الأمراء والناس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدعى العلوية فقط ، فيقول فى رد رواية اللادقى ص : ٨٥ : « أما اللادقى فمجهول ، ولا يتيسر نقد سنده ، ولكن مما لا شك فيه أن اللادقية التى نسب إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله » ، هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمة التى أحدثوها فى التاريخ العربى كله أيها الأستاذ !؟ ولم لا يفتالونه مرة واحدة ، ويريجون أنفسهم من وضع الأخبار والدسّ عند الحكام ؟ إن فى الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سلّمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر .

وقد رددت أنا قسماً كبيراً من رواية اللادقى هذا ، ولكن لشيء غير ما ذهب إليه الأستاذ الكرم ، وسأبينه قريباً . وما أكثر ما يبين الإنسان لنفسه الخطئة فى البحث ، ثم « تنتشر عليه الفكرة » فيبنى على غير أساس . ولست أجد كلاماً فى تصوير عمل الأستاذ وأصوله فى بحوثه ، أصدق من قول الجاحظ فى إبراهيم النظام وهو هذا : « وكان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه / وجوده قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، لكان أمره على الخلاص ، ولكنه يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً » . (١)

٢٠١/٢ ٣ - يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبهة واحدة ، بعد أن يقرّ بإحكامه ، ويقول عنه ص : ٨٦ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته

عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة.... إلخ » ، وقد أطل فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا . والذى فى كلام أبى على هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » ، وجلّى أنهم استتابوه من دعوى النبوة ، فرجع بذلك إلى الإسلام . أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ ، فإن من المؤلف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنساب ونفيتها .

٤ - عرض الأستاذ لرواية الهاشمى التى فيها : « كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى ، إلى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق » . وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلّى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . / ومنها ومن الرواية التى قبلها ، نفهم أنه لما ٢٠٢/٢ أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين . وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ، ولا داع لأن يرجع الأستاذ [ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨] ، إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، وليقول : « إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على بن أبى حامد العلوية » ، فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها ، لم تسلم له من الأصل ، وبقي المنتبى جعفياً يميناً . وإذا كان لا بد من إيراد احتمال ، فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الرواية فى غنى عن هذا الفرض أيضاً ، وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه ، وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة .

٥ - بقيت رواية الناشئ القائلة : « كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عنى ، وكان المنتبى إذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يعرف ولم يلقب بالمنتبى » . هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحججة ، فلنفرضه صحيحاً ، ولننظر ماذا تحتته : إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بعد بالمنتبى ولم يعرف فى الكوفة ، وإذا شئنا الدقة فى التعبير قلنا : إنه لم يبلغ أهل الكوفة أمر هذا

اللقب ، فيجوز أن يكون لقب به فى الشام ، ويجوز ألا يكون . وليس فى خبر الناشئ شىء آخر غير هذا . وبيان ذلك أن أبا الطيب ادعى النبوة للأعراب ، ثم سجن ثم أطلق / ٢٠٣/٢ وانتهى أمره ونسيه الناس ، ثم حصل فى الكوفة سنة ٣٢٥ ، وحضر مجلس الناشئ فتى فى الثانية والعشرين ، ولما عاد إلى الشعر واتصل بالأمرء وبسيف الدولة وناول الناس وناولوه ، وناول الشعراء وناولوه ، وتفاقم الشر بينه وبين الناس ، نبشوا تاريخه - وهو هناك معروف - فأذاعوا منه هذه الزلة التى كانت فى حديثه ، وتعلقوا بها ، وسار له فى الناس هذا اللقب : (المنتبى) .

لهذه الأسباب - وهى للقارئ معروضة - لم أجد فى كلام الأستاذ شاكر « مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة » . وأظن أنى أبت له - كما أحب هو - وجوه الضعف فى قوله ، وسواء على وعلى الحق : أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا . ولا بد أن يكون القارئ شعر بحرصى على وزن كلامى حرفاً حرفاً ، وأنى لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه . وقد عجبت كل العجب من الأستاذ - وهو الناقد الأصولى الفنان - حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقى ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فإن الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثمة حاجة لأدلّ القراء على سبب إهمالها ، لأن تهافتها بين ، وكثير أن تُجرّد عليها حملة كالتى نزل بها الأستاذ الميدان ، فخصص لها صفحتين من كتابه القيم . وهو يعلم - حفظه الله - أن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع ، والمعقول ، كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث . وأنا أستحى من شرح هذا فى مجلة (الرسالة) ، على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً فى أن يعرفنا أن الخبر / ٢٠٤/٢ ما يحتمل الصدق والكذب ، وأن وأن إلخ إلخ ، مما يدرسه الطلاب المبتدئون . وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتحقيق من دون أن أؤمن على قرأى . أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ : رواية ، دراية ، أصول نقد ... إلخ ، وكلامى وكلامه أمام القارئ ، وله وحده أن يحكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء ، وما التهويل بمغني عن أحدنا فتيلاً .

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التى سوَّغت له رد الروايات فلم يفعل .
أقول لم يفعل ، لأن أقواله : « رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه » ، « إن هذا
الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة » ، « أخبار متداولة تهوّر كثير من الأدباء
فى التسليم بصحتها » ، « أما كلمة كافور فمفتعلة » « وأسخف من هذه الرواية رواية من
يروى » = إن أقواله هذه ، ولو أتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية
والمعنوية ، هى أليق بمظاهرة هتافية ينادى فيها بسقوط فلان وفلان ، منها يبحث علمى ،
العمدة فيه الحجة والبرهان . وأى شئ فى أن ينز كاتب روايات التاريخ بالبطلان
والكذب ، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان !!

هذا وقد حمل الأستاذ أقوالى ما ليس تحمل ، فأنا لم أدع للمعرى تنزهاً عن الخطأ ،
ولم أقل بأن « ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره » ، وما جعلت
قرب الزمن دليلاً على الصحة ، بل هو مما ييسر للمحقق / وسائله . كما أنى لم أسلم بكل
٢٠٠٥/٢ الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء ، فقد رددت منها ما وجدت فيه إلى الرد سبيلاً ،
ونقدت حكماً أدرج فى مصدر من أمهات المصادر وأجلها ، وهو خزانة الأدب ، حين
وجدت للنقد مجالاً ، ولكل من النقد والرد والتسليم مواطن . وكيف تريدنى أن أقنع قرأى
بأمر لم أقتنع به ، وإلى أشياء أخرى يتحقق من رجوع إلى مقالى أنى لم أذهب إليها ؟
ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصية للمنتبى ، ولكنه هو قدّم لنا فى رده دليلاً على
عصيته لرأيه ، وليس لنا فى هذا الأمر يدان . ولما قلت عن كافور : « وكافور ليس من
الذين يخلقون على شاعر ، ولا ممن يروج الاختلاق » ، حُيِّل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً
فقال : « إن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع
أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى : أن كافوراً لم يخلق على الناس
ولا يروج الاختلاق ؟ لقد أتينا نحن (برك الله) بالروايات ونقضناها بالدليل - ضعيفاً
أو قوياً - أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره » اهـ .

وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا على النافى - كما لا يخفى على الأستاذ الأصولى - وأن على من يدعى على كافر الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة ، على رغم هذا نحيل الأستاذ على الذهبى الذى وصف دينه وتواضعه فقال : / « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهدد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط على مخلوقاً » ، وكان يرسل كل ليلة عيدٍ وقر بغلٍ دراهم فى صررٍ بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء » .

ونحيله أيضاً على الذهبى وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدييره وصلاحه . ويرى الأستاذ معنا أن فقه هذه الروايات - وهو الخبر بالرواية والدراية - يجعل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك ، وإن فى أمور ملكه وبعد غوره ، ما يشغله على الاختلاق على شاعر تكفى إشارة منه لتذهب برأسه . إن ما يسبغه المؤرخون على كافر من الصفات ، يكفى لنقول ببعده عن جميع السفساف جملة واحدة . ففى التاريخ بينة وفيه دليل ، ولكن للعجلة فى الحكم آفات .

هذا وفى نفسى مما أورده الأستاذ المحقق شىء ، فهل يسمح لى أن أطالبه بالدليل العلمى على قوله الجازم : « أعلم أن أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل (المنتبى) وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مضع الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء ... إلخ » . وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع فى قوله جواباً على سؤالى : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة إلخ » ، فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا / الأباطيل ؟ إني متى أعرفهم ، يسهل على من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق .

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جنى فى سبب تلقيب أبى الطيب بالمنتبى ، فابن جنى مفرط فى حبه لصاحبه والدفاع عنه ، وهو متهم فيه . فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جنى وعلى غير ما حوله ؟ فإن تعذر هذا ، فلا عليه أن

يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفكر السليم عليها . ولا بأس أن نقول له ، وقد قرأنا ختام رده الذى أثنى فيه على نفسه وعلى كتابه بما هو له أهل : أنت كما أثبتت على نفسك ، ولكن إذا كان كتابك قد اتخذته - كما زعمت - بعض الكتاب « مصدراً استنبطوا به أصول النقد » ، فلسنا بالذين نسمى الطعن المجرد للروايات أصولاً فى النقد ، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث . وهلاً إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الكتاب والمجلات التى نشروا بها ، والمواطن التى قلدوك فيها ، لهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به ؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله .

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسطراً تذكر عرضاً فى رد فكرة ، تثير مثل هذا الفاضل فيحمل منها هماً يجره وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه فى رده الذى تكرم به على مثل هذا الشكل .

لقد وددت والله لو أن الأستاذ شاكراً نقب عن الحجة وتحرى الحق لأعترف له به وأرجع إلى قوله . وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ / بالحقائق والبرهان ، منها إلى ٢٠٨/٢ الدعوى والانتقاض . وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب فى الجدل ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن طنين الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته . والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأستاذ شاكراً فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبى الذى قُدِّرَ بأربعة مجلدات ، وأتمنى أن أراه قريباً ، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد ، لا ألفاظها فقط . وليس بهم بعد ذلك أن تكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ ، أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس ، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية .

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأستاذ الأخبار خبراً خبراً ، فيعارض بينها ويقابل ، ويمحصها تمحيصاً يرضيه هو ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة فى الحط منه ، فإن هذا هو الأشكل بالأستاذ الكريم والأليق بفضله والأولى بسجاياه ، وله - فى الختام - شكرى وخالص تقديرى ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

نبوة المتنبى أيضاً

محمود محمد شاكر

/ أخى سعيد الأفغانى

٢٠٩/٢

وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإنى أشكر لأخى حُسن ظنّه بى فى بعض كلامه ، ومسارعته فى الرد على كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) . هذا على أنه ليس يجمُلُ بالأستاذ أن يحمَل نفسه تكاليف الرد على مثلى ، فإن الذى بيننا من التخالُفِ فى الطبيعة ، والتباين فى الجبلة ليقوم فى هذا الأمر مقام الرد . وأيضاً ، فليس مما يحسُنُ به أن يبسطَ عذره للقراء عن تأخر الردِّ بجولته فى قري (البقاع) ، وأن قراءته للذى أتيت به من الكلام كانت بعد عشرة أيام من صدوره . وليعلم الأستاذ الجليل أنى أحب أن يحملنى على طبيعتى ، وأن يتقبلنى على علتى ، وأن يعرفنى رجلاً شيمته العجزُ ودأبه التخلُّف ، فلا قبل له بمثل قدرة الأستاذ وقوته على مدِّ الشوْط ، هذا على ما ركَّب فى أصل خلقتى من الحدة والثورة وضيق الصدر . وليس أدلُّ على ما بيننا من تباين الجبلة - من الذى استيقنه الأستاذ وأثبتته فى من التخلُّف والعجز ، والذى رأيت فيه من القدرة والمسارة ، فهو لم يضيق ذرعاً بكل الذى كتبناه ، ولا تخلف فى ردِّ كلامنا وإسقاطه بالحجة والبيان والبرهان ، فى أوجز لفظ ، وأوزن فكر ، وأدق فهم ... ثم فى أقل وقت . وأنا - على / نقيضه ، فأنا كما وصفنى الأستاذ حين يقول : « أما أنا فما كنت أظنُّ !! ٢١٠/٢ أسطراً تذكر عرضاً فى ردِّ فكرة تثير (مثل هذا) الفاضل ، فيحملهما يحدِّد وقْرهُ وعنته اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه فى رده الذى تكرم به على مثل هذا الشكل » . ولا أدرى لم

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٧١) ، الاثني ٢٦ من رجب سنة ١٣٥٥/١٢ من أكتوبر سنة

لا يظنُّ الأستاذُ ذلك ؟ ألا فليعلم أخى سعيد أن اثنين وأربعين يوماً ليس كثيرَ دَهْرٍ على عاجزٍ وَجِلِّ هَيَّابٍ متخلّفٍ ، وأن كلمته الصغيرة - التى أثارتنى فحملت هماً أجد وَقْرَهُ وَعَنْتَهُ اثنين وأربعين يوماً - كانت مما يقتضينى عامين على الأقلِّ فى تقليبها وفهمها ودراستها أو اصل ليلها بالنهار ، ثم فى الاستعداد للردِّ ، ثم فى جمع شتات الذهن ، ثم فى نفض الذهول عن العقل والفكر ، ثم فى كتابة ما يُسَوِّلُ لى قليلٌ علمى تحريه والنظر فى صدوره وأعقابه .

وبعدُ أيضاً ، فإن أخى سعيداً قد رمانى بقارصاتٍ ، وهو الذى يقول عن كلمتى فى الرسالة : « وصحف الرسالة أحوجُ إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاض ، وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب فى الجدل ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن (طنين) الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته » اهـ .

ولست أدرى ! فلعلَّ صحف الرسالة قد غنيت بأساليب البيان العبرى ، والسخرية النابغة من مثل قوله عن كلمات فؤاد صروف (طنين الأستاذ صروف) ، فالطين فى هذه العبارة كلمة بيانية مبتدعة ، فيها من الفنِّ والموسيقى ما يتضاءل معه إبداع جلة الكُتَّاب والشعراء والموسيقيين . ومثل / الذى يقول : « وأنا أعوذُ بالله من ٢١١/٢ الغرور ، والذهاب بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والعصية للرأى والهوى ، فما يزال الناس - والله الحمد - يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق ، وإتقانه لعمله ، لا بدعواه و (تبجُّحه) » ، إلى آخر هذا الكلام البليغ الذى لو أرادَه الجاحظ وجهد فيه واحتفل له ، لما تعلق بذيله ، ولا جرى فى غباره . وأنا أعوذُ بالأخ أن يعودَ إلى مثل هذا القول ، فإنى أكره أن أجرى أحمألى بالذى أعلم أنه يؤذيه ويُرمِضُه ، فيذهله عن منازل الصَّبْرِ ، ويستفزّه عن مواطن الحلم .

وليس أحبُّ إلى نفسى من أن أهتدى إلى الحق على علم وبصيرة ، وأن أخضع له على الرضى والغضب ، وأن أعمل على إقراره ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . فلا يتبعن - أخى الأستاذ سعيد - ظنه أننا من أهل الغرور ، والذهاب بالنفس ، والجهل بمقدارها ، والمكابرة

في العلم ، والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة . وسأنتهى - إن شاء الله - مع الأخ إلى النهاية التي يرضاها غير باغ ولا ظالم . فأوّل ما أبدأ به بيان ما ورد في كلمته (الرسالة ١٧٠) ، من التهافت في بعض القول ، ثم أعقب على ذلك بذكر نبوة أبي الطيب ، وتقرير القول في نفيها على وجه يبلغ بنا رضاه ، ثم أجيبه عن كل ما سألني من شيء . فإن اعترض في خلال ذلك ، نظرت في الذي يأتي به ، فإن غلبنا على الحق ، أسلمنا وبذلنا له الطاعة ، وإن رضى ، قولنا فهو عند قاعدته التي ذكرها « ألا يحفل نقداً أو رداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيله أن يأخذ نفسه به ، ويشكر لصاحبه » .

٢١٢/٢ ١ - / قال الأستاذ سعيد حين ذكر خبر التنوخى ورأينا في رده : « سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبي) فأجابه : « إن هذا شيء كان في الحدائث » ، وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو ، كما قال الراوى ، جواب مغالط » اهـ .

والأصل الذى اعتمد عليه الأستاذ فيما ينقل هو (طبقات الأدباء) لابن الأنبارى ، ونص الخبر ثم : « قال التنوخى ، قال لى أبى : فأما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبي ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أولاً ، فجأوبنى بجواب مغالط ، وقال : إن هذا شيء كان في الحدائث ، فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » . وهذا نص قد اختصره ابن الأنبارى على عادته ، وجاء الأستاذ سعيد فأراد أن يبين وجه المغالطة في الجواب ، فزعم أن أبا الطيب يعنى التلقيب لا التنبؤ في جوابه . وكان أولى بالأستاذ قبل أن يؤول الكلام على هذا الوجه ، أن يتدبر القول وينظر فيه على الصورة التى يؤوله بها ، ثم يبين وجه المغالطة بياناً لا يسقطه العقل .

يقول التنوخى : إنه سأل أبا الطيب عن معنى (المتنبي) ليسمع منه هل تنبأ أو لا - أى هل كان اللقب لحادث عن نبوة كانت منه أم هو تَبَزُّ بُزَّ به ولُقِّب - فيجيبه أبو الطيب : « إن هذا التلقيب كان في الحدائث » ، فأين المغالطة في هذا الجواب ! وفي المسألة وجهان : إما أن يكون التنوخى قد سأل أبا الطيب مصرحاً بالذى أراده فقال

له : هل ادَّعيت فسُمِّيتَ المتنبى ؟ فيقول أبو الطيب : « هذا شيء كان في الحداثة » ،
 فيكون المراد « النبوة » ولا شك ، / وإمّا أن يكون قد سأله عن علة تلقيه بالمتنبى ،
 فيقول : « هذا شيء كان في الحداثة » ، فيكون جواب رجل لا يجب أن يمتد في الحديث
 فهو يقطعه على سائله ، فهو يقول له : إن هذا اللقب وسببه كانا في الحداثة ، ولست
 براض عن سؤالك . فليس في هذا مغالطة . ثم إن امتناعه عن ذكر علة غير النبوة في
 سبب التسمية ، دليل على أن « النبوة » هي العلة في التلقيب ، لأن اللفظ صريح في
 الدلالة على المعنى . وليس يغفل أبو الطيب عن معنى هذا اللقب ، ولا يظن أن الناس
 غافلون عنه ، فيكون امتناعه عن ذكر العلة مما يوقعهم في حيرة من تأويل معناه .

ثم ما الذى يضرُّ أبا الطيب لو كان هذا التلقيب في الكبر ولم يكن في الحداثة ؟
 فحرصه على تخصيص ما أراد من المعنى بالحداثة ، ينفي إرادة (التلقيب) ألبتة . وأولى
 حين يكون التخصيص بالحداثة أن يراد بذلك « النبوة » ، فإن قوة التدفع ، وسمو
 الطموح ، وإشراف النفس ، وتهاويل الأمل ، هي بالحداثة ألزم ، وهي التى تؤرث نيران
 الشباب فتدفعه إلى المغامرة والتهور والمخاطرة على غير هدى ولا بصيرة ، حتى يركب بها
 صاحبها الحدتُ العُرُّ كلَّ مركب من الحماقة ، ويردُّ بها كل مورد من الغرور ، فلا يرعوى
 عن أن يدعى ما لا مطمَع له فيه ، ولو كان النبوة .

وقول التنوخى بعد جواب أبى الطيب : « فاستحييت أن أستقصى عليه
 فأمسكت » ، دليل على أن الرجل أكتفى بإشارة أبى الطيب إلى حادث « النبوة » ،
 وأمسك عن الذى كان يريدُه أولاً من التصريح فى إثبات ما كان من أمره فى ادعاء
 « النبوة » .

/ واختصار ابن الأنبارى خبر التنوخى ، هو الذى دفع الأستاذ إلى هذا التأويل . ٢١٤/٢
 وأصل خبر التنوخى أنه قال : « حدثنى أبى قال : أمّا أنا فأتى سألته بالأهواز سنة أربع
 وخمسين وثلاثمئة - عند اجتيازه بها إلى فارس فى حديث طويل جرى بيننا - عن معنى
 « المتنبى » ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا ، فأجابنى بجواب مغالط لى ، وهو أن

قال : هذا شيء كان في الحداثة أوجبه الصورة ! فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت . فالمغالطة في قوله « أوجبه الصورة » ، والصورة ههنا الصفة ، على اصطلاح أهل الكلام ، وصفة الحداثة لا توجب ادعاء « النبوة » ، فهذا هو وجه المغالطة . فلما رأى التنوخى - وهو شاب لم يَعدُ السابعة والعشرين من عمره ، وأبو الطيب إذ ذاك شيخٌ قد نيف على الخمسين - ما أصاب هذا الشيخ من الحرج وضيق الصدر حتى لجأ إلى المغالطة في التعليل ، وتسويغ فعلته على السفسطة ، آستحيا أن يستقصى على هذا الشيخ ، فأمسك عن الذى يؤلمه ويغيظه ، ويضع من كبريائه ، ويحط من شيخوخته ، ويلجئه إلى ركوب الإحالة فى المنطق ، والفساد فى التعليل .

٢ - ويقول الأستاذ سعيد : « يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبة واحدة ، بعد أن يقرّ بإحكامه ، ويقول عنه فى ص : ٨٦ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة ... إلخ » . وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا : (سبحان الله يا سعيد !!) ، والذى فى كلام أبى على / هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد عليه فيها ٢١٥/٢ ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام » ، وجلّى أنهم استتابوه من دعوى النبوة فرجع بذلك إلى الإسلام ، أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبة الأستاذ (!!) ، فإن من المألوف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنساب ونفيها » اهـ .

وعجبٌ أمر الأستاذ سعيد فى حرصه على تأويل الكلام بما لا وجه له ولا أصل . وهو فى نقله هذا النص قد اعتمد على كتاب ابن الأنبارى ، وهو مؤلّع باختصار الأخبار (واختزلها) ، وهذا تمام خبر أبى على بن أبى حامد :

« أخبرنا التنوخى ، حدثنى أبى ، قال حدثنى أبو على بن أبى حامد ، قال : سمعت خلقاً يجلب يحكون - وأبو الطيب بها إذ ذاك - أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها ،

إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبيل الإخشيدية ، فقاتله وأنفره ، وشرّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب . وحبسه في السجن حبساً طويلاً ، فاعتلّ وكاد أن يتلف ، حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطان ما ادعاه : ورجوعه إلى الإسلام ، وأن تائب منه ، ولا يعاود مثله ، وأطلقه . فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية في هذا الخبر ، ولا في غيره مما روى عن أبي عليّ بن أبي حامد هذا ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه ، / وهو لم يذكرها فيه ولم تردّ عنه في ٢١٦/٢ خبر غيره ، ثم تعمد إلى الكلام فتؤول بعضه على النبوة وبعضه على العلوية ، فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ ورحم الله أبا عثمان الجاحظ ، فلو أنه أدرك عصرنا هذا لقال في ذلك أمثل مما قال في إبراهيم النظام ، (١) فنص الخبر مبين عن أمير حمص كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها (١) بأن ما ادعاه باطل - وهو النبوة - (٢) وأنه رجع إلى الإسلام (٣) وأنه تائب منه (٤) وأنه لا يعاود مثله . فهذه أربعة في قرن كانت في هذه الوثيقة ، فكيف تسوّغ عربية الكلام للأستاذ سعيد تأويله وبيانه ؟ فلو سلمنا للأستاذ سعيد بالذي ذهب إليه لكان سياق الكلام هكذا : « حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطان ادعائه العلوية ، وأنه رجع إلى الإسلام ، وأنه تائب (منه) ، وأنه لا يعاود مثله » ، فعلى أيّ الكلام عطفت جملة قوله « وأنه رجع إلى الإسلام » ، وإلى أيّ مذكور يرجع الضمير في قوله « وأنه تائب (منه) » ؟ وكيف تردّ أوائل هذا الكلام على أواخره ليستقيم على عربيته !؟

إن أخى الأستاذ سعيداً ليأخذ من الكلام ما يشاء ويدع ما يشاء ، وبذلك (تزول شبهة الأستاذ) ، أو كما قال .

٣ - ثم يقول : « عرض الأستاذ لرواية الهاشمي التي قال فيها : (كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيها ادعى أنه علوي ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوي ،

(١) وصفنا الأستاذ سعيد بمقالة أبي عثمان في إبراهيم النظام ، فراجعه ص : ٥٤٦ .

إلى أن أشهد عليه في الشام بالتوبة وأطلق) . وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . / ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين ، وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض » اهـ .

يقول الأستاذ سعيد إن هذا الخبر الذى رواه يعنى (أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى) ، والخبر يقول إنه « ادعى العلوية ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » ، والعربية تقول إن هذا النص لا يمكن تأويله على الوجه الذى أراده الأستاذ ، فإن لها ألفاظاً ، وإن لألفاظها معانئ ، وإن لمعانيها حدوداً ، فأخراج المعنى عن حدّه إخراجٌ للفظ عن معناه ، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية . يقول الخبر : « ثم عاد يدعى أنه علوى » فيقول الأستاذ مؤولّه ، ومعنى ذلك « ثم بقى على دعوى العلوية » !! ثم يقول الأستاذ : « ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم ، (أو لا نفهم ، فالأمر بعد هذا سواء) ، أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين » . ففى الخبر الذى قبل هذا أقحم الأستاذ العلوية ولا ذكر لها فيه ، وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية . وفى هذا الخبر الذى رواه ولا ذكّر للوثيقة فيه ، أقحم الوثيقة التى يراد بها الإشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التى ادّعاها ، وذكرها الخبر مرتين . فهذا أروغ ما وقع لى من القدرة على الجمع بين الروايات (كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث ، وأنا أستحى / أن أشرح هذا فى مجلة (الرسالة) ... مما يدرسه الطلاب المتدثون) . (١)

وهذا الخبر أيضاً اعتمد الأستاذ فى نقله على (اختزال) أبى البركات (ابن الأنبارى) فى طبقات الأدباء . وسياق الرواية هكذا : « وقد كان المنتبى لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ، ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه

(١) انظر ص : ٥٤٨ ، من كلام الأستاذ سعيد .

علوى ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهرًا طويلًا وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق . وقد كان هذا النصُّ أمثل من (مختزل) ابن الأنبارى للذى يعتمده الأستاذ من التأويل ، وهو أحفل له في استخراج مادة الجدل في التفسير والتوجيه . على أن هذا الخبر هو كما وصفناه في كتابنا هذا ص : ٢٠٧ ، « عجيبٌ لا يُفْرَغُ من العجب من اختصاره وتداخله » . فمن ذلك أنه صريحٌ بينٌ في الدلالة على أنه قد أُشْهِدَ على أبى الطيب مرتين : (الأولى) إشهداً عليه بأنه قد كذب في (الدعويين) ، و (الآخرة) استتابةً وإشهداً عليه بالتوبة .

ففى المرة الأولى ذكر ابن أم شيبان الهاشمى (دعويين) أُشْهِدَ أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما ، فإن أراد (بالدعويين) دعوى العلوية ودعوى النبوة جميعاً ، كان كلامه كله خَلَطًا مُتَدَاخِلًا ، فإنه ليس يكفى فيمن ادعى النبوة أن يشهد على نفسه بالكذب ، بل لا بُدَّ معه من الاستتابة والرجوع إلى الإسلام والإقرار به ، فإن لم يُعْطِ ذلك قُتِلَ ، فإن كان فِعْلَ معه ذلك / وتاب وأقر ، فما قوله بعد ذلك : « وحُبس دهرًا طويلًا ٢١٩/٢ (سنتين) وأشرف على القتل ، (ثم) استتيب ، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » ، ولم أعيدت استتابته ؟ أيكون هذا كله لغواً باطلاً من القول !!

فإن أراد (بالدعويين) ادعاء العلوية في المرة الأولى والمرة الآخرة ، فالأمر في ذلك على خلاف المعقول . أيقدم الوالى الإشهاد بالكذب في دعوى العلوية ، وهى لا تُخْرِجُ من الإسلام ، ولا يكفر بها مُدَّعِيها ، ولا يقتل من أجلها إن أصرَّ عليها = وَيَدْعُ آدعاه النبوة فلا يقتله أو يستتبهه إلا بعد أن يجسه دهرًا طويلًا حتى يشرف على القتل ، فيومئذ يستتبهه ويُشْهِدَ عليه بالتوبة !!

ولفساد هذا الخبر وجوهٌ أخرى ، ولكنه على أى وجهيه أدركه ، لا يسوِّغ للأستاذ أن يقول فيه « وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » ، إلا أن يلغى معانى الكلمات التى وردت فيه ، أو يحيلها عن وجهها ، فتكون « ثم » ، « وعاد » كلمات مغسولة من المعانى ، ثم يزيد على ذلك أن يزيد فى الكلام

معاني ألفاظ لم تكن فيه كقوله : « وحين ترك النبوة بقي على ادعائه العلوية » . ولو أراد الأستاذ أن يتأول هذا الخبر على وجه مُقَارِبٍ ، لما خرج له إلا أن يقول فيه : « إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية ، وحين تركها بقي على ادعاء النبوة حتى استتيب فأطلق » ، وهذا محال .

وليعلم الأستاذ أنى تركت له أبواباً من القول توطئء له أن ينفذ إلى / الاعتراض ، فليعترض قولى بما شاء ، ولكننى أسأله أن ينظر فى اعتراضه أولاً ، ثم فى الخبر بعُد ، ثم فى كلامى آخرًا ، فلعله يجد فى ذلك ما يمنعه من الاعتراض ويقنعه بالصواب . وأسأله أيضاً أن يتحرى فى فهم الأخبار ما تقتضيه عريية الكلام حتى تستقيم له المعانى ، وتنتج به الآراء إلى الحق والهدى إن شاء الله .

/ نبوة المتنبى أيضاً

محمود محمد شاكر

/ اللهم إنا نعوذ بك من فتنة الرأى والهوى ، كما نعوذ بك من سوء الاقتداء ٢٢١/٢ والتقليد .

٤ - يقول الأستاذ سعيد الأفغانى فى العدد (١٧٠) من (الرسالة) بعقب حديثه عن رأينا فى ردّ رواية اللاذقى - الذى كان قد آمن بنبوة المتنبى أبى الطيب ، وأسلم له ، وبايعه بيعة الإقرار بصدق نبوته ، وزاد أن أخذ البيعة لأهله كذلك : « وقد رددتُ أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقى هذا لشيء غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم ، وسأبينه قريباً » . وقد وقى الأستاذ بعِدته فأبان خير الإبانة عن (الشيء) الذى من أجله (ردّ قسماً كبيراً) من رواية (اللاذقى هذا) . وهذا بيانه بعد كلام كثير ، يقول : « وقد عجبْتُ كل العجب من الأستاذ - وهو الناقد الأصولى الفنّان (أستغفر الله يا سعيد) - حين لم يَدْرِ لم اختصرت حديث اللاذقى ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فإن الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثَمَّت حاجةٌ لأدُلّ القراء على سبب إهمالها لأن تهافتها بين . وكثيرٌ أن تُجَرَّدَ عليها حملةٌ كالتى نزل بها الأستاذ الميدان !! فخصَّص لها صفحتين من كتابه القيم ، وهو يعلمُ حفظه الله أن من أدلّة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول ، كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث » اهـ .

/ عونك اللهم ! فلستُ أدرى من أين أبدأ فى بيان تهافتِ هذا القول وتناقضه ! ٢٢٢/٢

هذا رجلٌ سمَّاهُ أبوهُ مُعَاذاً ، فكان عند الذين قرأوا حديثه « أبا عبد الله مُعَاذ بن إسماعيل اللاذقي » ، وهو في الرواة مجهول غير معروف بصدق ولا بكذب ، وقد جاءنا هذا الرجلُ ينبئنا عن أبي الطيب خبرَ قدومه اللاذقية سنة نيفٍ وعشرين وثلاثمئة ، فيأتي بحديثٍ طويلٍ ممتدِّ .

١ - يذكر فيه حلية أبي الطيب وصفته وسمته وحسن أدبه .

٢ - ثم يذكر حديثاً جرى بينه وبين أبي الطيب ، فيقول له اللاذقي : « والله إنك لشابٌ خطير ، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير ! » ، فيكون جواب أبي الطيب : « ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبيُّ مرسل » .

٣ - ثم يذكر رسالة أبي الطيب إلى أمته الضلالة المُضِلَّة ! وغرض رسالته .

٤ - ثم ما سمع من قرآن أبي الطيب الذي وصفه بقوله : « فأتاني بكلامٍ ما مرَّ بمسمعي أحسنُ منه » .

٥ - ثم يذكر عدد آيات هذا القرآن .

٦ - ثم يخرج إلى ذكر معجزة هذا المتنبي في حبس المدرار (المطر) ، لقطع أرزاق العصاة والفجَّار .

٧ - ثم يقول إنه خرج مع غلام أبي الطيب ليرى المعجزة ، فلما / استيقنها واطمأن بها قلبه ، انفلت إلى أبي الطيب وهو يقول : « ابسط يدك ... أشهد أنك رسولُ الله » ، فبسط يده فبايعه بيعة الإقرار بنبوته .

٨ - ثم لم يَنْ هذا اللاذقي حتى أخذ بيعته لأهله .

٩ - ثم يقول بعد : « ثم (صحَّ) أن البيعة عمّت كل مدينة بالشام » (يا سبحان الله) .

١٠ - ثم يعقبُ على ذلك أن معجزة أبي الطيب كانت « بأصغر حيلةٍ تعلمها من بعض العرب وهي (صدحةُ المطر) » .

- ١١ - ثم يزعمُ أبو عبد الله مُعَاذُ بنِ إِسْمَاعِيلَ اللّاذِقِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! « أَنَّهُ رَأَى أَهْلَ السَّكُونِ وَحَضْرَمَوْتَ وَالسَّكَّاسِكَ مِنَ الْيَمَنِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَلَا يَتَعَاظَمُونَهُ ، حَتَّى إِذَا أَحَدُهُمْ لَيَصْدَحُ عَنْ غَنَمِهِ وَإِبِلِهِ وَعَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، فَلَا يَصِيبُهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَطْرِ .
- ١٢ - ثم يقول إنه سأل أبا الطيب هل دخلت السكون ؟ فيقول له : نعم !
أما سمعت قولي :

مِلْتُ الْقَطْرَ ، أَعْطَشَهَا رُبُوعاً وَإِلَّا فَاسْقِهَا السَّمَّ التَّقِيْعَا
أُمْنِسِي السَّكُونَ وَحَضْرَمَوْتَا وَوَالِدِي وَكِنْدَةَ وَالسَّيْبَا

ثم يقول هذا اللاذقي بعقب ذلك : « فَمَنْ تَمَّ اسْتِفَادَ (أَبُو الطَّيِّبِ مَا جَوَّزَهُ عَلَي طَعَامِ أَهْلِ الشَّامِ) .

- ١٣ - / ثم يختم حديثه بما كان يمحرق به أبو الطيب على أهل البادية بإيهاهم ٢٢٤/٢
أن الأرض تُطْوَى له ، وكيف كان ذلك .

- ١٤ - ثم يزعمُ أن أبا الطيب سئل في تلك الأيام عن النبي ﷺ ، فقال :
« أَخْبَرَ بِنَبْوَتِي حَيْثُ قَالَ : « لَا نَبِيَّ بَعْدِي » ، وَأَنَا اسْمِي فِي السَّمَاءِ (لَا) .

هذا مختصر حديث هذا اللاذقي ، وأنت إذا قرأته بتمامه رأيت أنه أحق قول يعجز عن الإتيان بمثله أحق معنوه ، لما فيه من الاضطراب والسخف والتلفيق والكذب ، وقلة مبالاة هذا الرجل بنسبة الكفر إلى نفسه ، حين زعم أنه قال لأبي الطيب : « ابسط يدك ، أشهد أنك رسول الله » ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فهذه أغراض في كلام اللاذقي قد بينا لك عددها (١٤) ، تناول منها الأخ سعيد ثلاثة أغراض هي الثلاثة المتتابعة في تعدادنا ، وقذف بالباقيات وردها وأهلها ، لأنها مما (يرفضه العقل ، ويكذبه الواقع) ، كما قال في كلمته الأخيرة ، ومن قبل ما قال في كلمته

التي نشرها في (الرسالة - العدد ١٦١) : « وسأعفى نفسى من أشياء كثيرة ، وردت في (الصبح المنبى) لا يقبلها عقل ولا تؤيدها قرائن » ، ويعنى هذه الرواية عن اللاذقي .

وأنا أسأل الأستاذ سعيد أن ينصف نفسه وينصفنا ، وأن يعفينا من التأويل وطلب الحجة فيما لا تأتى منه الحجة إلا متكلفاً على أبعد وجه وأضل سبيل .

فانظر ، أيها الأستاذ سعيد : إِمَّا جَاءكَ رَجُلٌ بِحَدِيثٍ قَدْ اسْتَيْقَنْتَ أَنَّ نَصْفَهُ كَذِبٌ قَدْ مُزِجَ بِقَوْلٍ غَيْرٍ مَعْقُولٍ ، أَفَأَنْتَ مُصَدِّقُهُ فِي سَائِرِ الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَكَ بِهِ ؟ فَإِنْ قُلْتَ : لَا أَصَدِّقُهُ فِي سَائِرِ حَدِيثِهِ ، فَقَدْ بَطَلَ مَا جَاءَ بِهِ هَذَا / اللَّاذِقِي كُلَّهُ ، لِأَنَّ أَرْبَعَةَ ٢٢٥/٢ أَحْمَاسٍ مِنْ حَدِيثِهِ مِمَّا (يَرْفُضُهَا الْعَقْلُ وَيَكْذِبُهَا الْوَاقِعُ) كَمَا قُلْتَ أَحْيَرًا ، وَمِمَّا لَا يَقْبَلُهَا عَقْلٌ ، وَلَا تُؤَيِّدُهَا قَرَائِنٌ ، كَمَا قُلْتَ أَوْلَى .

وإن شئت أن تتطلب الجدل فقلت : أصدق بعضه ، وأكذب بعضه . فإنك غير قادر على أن تنشئ لهذا الرأي حجة يلجأ إليها ، أو دعاية يعتمد عليها ، فإن هذا اللاذقي رجلٌ مجهول في الرواية لا يُعلم حاله في صدق أو كذب ، ومن كان كذلك نُظر في قوله ، فإن كان الذى يأتى به من الرواية صدقاً ، كان ذلك مانعاً من اتهامه بالكذب إلا بينة أخرى ، وإن كان كذباً لم تجد بُدّاً من وسمه بالكذب وإسقاط روايته كلها ، وجملة واحدة ، ويصبح ما أتى به كله كأن لم يُرو ولم يعرف ، فلا ينظر إليه في رواية أو تاريخ .

فإن قلت : أقبل المعقول وأرد غير المعقول . فلا بُدَّ من أن نقول لك إنك قد اعتمدت في بعض قولك على مذهب أهل الحديث في علم الرواية ، فقلت : « إن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول » ، ونعم ، فإن رواية ما يستحيل أن يقع ، وما لا يأتى على وجه يرتضيه العقل ، ساقط عند المحدثين ، وهم يتهمون صاحبه بالكذب والوضع فلا نقبل له رواية أبداً ، ولو كانت صادقة ، ولو كان في قول غيره من الصادقين ما يقع عليها حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة . فهذا مذهب القوم بتمامه ، ومذهب عقلاء الناس في أمر دينهم وديارهم .

وأعلم أيها الأستاذ سعيد أن القول يُرَدُّ ويُرفَضُ ويُكذَّبُ صاحبه ، لأنه غير معقول ويستحيل وقوعه ، ولا يمكن في العقل أن يطرَدَ عكسُ هذه القضية . فليس يُقْبَلُ القولُ ويُرتَضَى ويُصدَّقُ صاحبه لأنه معقول وجائز وقوعه وحدوثه . ولست أشك في موافقتك لى على هذا ، إذَنْ فليس من / الحكمة ولا من الصواب ولا من العدل ولا من ٢٢٦/٢ العلم أن تختصر حديث اللاذقي ، فتأخذ منه المعقول الجائز الحدوث ، وأنت تردّ سائر حديثه بل أكثره ، ثم تقول عنه في عدد الرسالة (١٦١) : « وقد حفظ لنا (التاريخ) مشهداً من مشاهد هذه الدعوة (النبوة) في اللاذقية » . فليس شيء من كلام الوضاعين والكذابين مما يصحُّ أن يعتمد عليه في تاريخ أو غيره .

ثم لو نظر الأستاذ سعيد إلى هذا الحديث الذي عدّه (مما حفظ التاريخ من مشاهد دعوة أوى الطيب إلى نبوته) ، لوجدَ يقيناً أن هذا المختصر من حديث اللاذقي هو أيضاً (مما يرفضه العقل ويكذبه الواقع) و (مما لا يقبله عقل ، ولا تؤيده قرائن) ، فإن فيه من الوهن والضعف والتخالف والتناقض ما لو تدبّره الأستاذ - وهو يدرس شعر أوى الطيب ، ويصوّر منه نفسه وطبائعها وغرائزها - لعلم أنه موضوعٌ متكلفٌ ليس فيه من الصدق شيء . ولم أُرِدْكَ بسوءٍ ، أيها الأخ ، إذ قلت في كلمتى السابقة : إنك تأخذ من الكلام ما تشاء ، وتدع ما تشاء ، فتزول بذلك شبهاتك .

إن للرواية أصولاً لا يتأتى لأحد أن يخرج عنها إلا بحجة لا تسقط عند النقد والنفذ ، ومن أصول الرواية ألا تُقبَلُ روايةٌ من كذب في أحاديث أو وضعها ، وإن كان سائر الذى يرويه مما تُعضدُه فيه رواية غيره من الصادقين ، فكيف بمن يكون أمره في الحديث الواحد : أربعة أحماسٍ كذب غير معقول ، والخمسة الباقي تختلف عليه الآراء في وصفه بأنه صدق أو كذب ، أو معقول أو غير معقول ، أو تؤيده قرينة أو لا تؤيده قرينة ؟ ألا إن هذا أولى بالإسقاط والرفض والنّبذ حيثما تُقف ، وكذلك هو حديث هذا اللاذقي المجهول .

٢٢٧/٢ ٥ - / وقد أراد أستاذنا سعيد أن يوهم قارئ كلامه أننا اتخذنا رأينا - في نسبة أبي الطيب إلى الشجرة العلوية المباركة - (برهاناً) على رد رواية هذا اللادقيّ المجهول لقولنا في ص : ٢٠٧ : « أما اللادقي فمجهول ولا يتيسر لنا نقد سنده ، ولكن مما لا شك فيه أن اللادقية التي نسب إليها ، كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومَحَطّاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله . فلذلك لم يتورّع عن بتر بقية كلامنا ، فقد قلنا بعقب هذا وبغير فصل : « فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وأنت تتبصر في أصل الرواية على وهنّها وتضاربها ، وتَهَالِك معانيها التي يفسد بعضها بعضاً كما ستري » . فلو كنا قد اتخذنا هذا (برهاناً) لقلنا مكان (فلا بأس) (فلا بد) ، ليستقيم المعنى الذي أراده لنا الأستاذ الجليل . وبخيل إليّ أن الأستاذ سعيداً سيحاول أن يقع في هذا الكلام بالتأويل . فأنا أضرب له المثل على الفرق بين هذا وذاك ، ليدع هذا الذي يعتمد إليه من أفانين الكلام . فإنك لو أردت أن تعلم جاهلاً دين الإسلام بعد إيمانه بصدق القرآن ، وأنه وَحْيٌ من العزيز الحكيم ، ثم أخذت تفهمه أن الصلاة عمود الدين ، وأن الله أمر بها عباده ، والبرهان والدليل على ذلك قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » ، فلست تقول له بعقب ذلك : « (فلا بأس) من الصلاة » ، وإنما تقول : « فلا بد من الصلاة » .

ولو تدبر الأستاذ قليلاً ، كما سألناه في كلمتنا الأولى (عدد الرسالة ١٦٧) ، لعلم أن الإشارة في هذا الموضوع هي إلى الذي قلناه في كتابنا ص ١٥٠ - ١٥٦ ، / من أنه كان بينه وبين العلويين عداً وحفيظة ، (١) بلغ من أمرها أنهم أرصدوا له قوماً من السودان عبيدهم في طريقه بكفر عاقب ليقتلوه - وذلك مُنصَرَفَةً من طبرية سنة ٣٣٦ - حتى إن

(١) قد صرفنا القول في كتابنا ونحن نذكر العلويين ، ونريدهم بذلك العلويين نسباً ، والعلويين مذهباً

(الشيعة) ، إذ لم نجد ضرورة للتفريق بين هؤلاء وهؤلاء . وليس يخفى على القارئ موضع هذا وذاك .

أبا الطيب لم يحجم عن التعريض بهم ، وهو يمدح كبيراً من أولاد علي رضى الله عنه بالرملة ، وهو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى فقال فى مديحه :

أَتَانِي وَعَيْدُ (الأَدْعِيَاءِ) وَأَنَّهُمْ أَعَدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَّقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُمْ فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ

وقال فى مدح الأمير ابن طنج ، وقد صحبه أبو القاسم العلوى وأقام معه فى الرملة يحضر مجالسه :

وَفَارَقْتُ شَرَّ الأَرْضِ أَهْلًا وَثُرْبَةً بِهَا (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمِ

فلهذا ولغيره من آثار العداوة والبغضاء بين أبى الطيب والعلويين (مذهباً أو نسباً) قلنا فى ص : ١٥٠ : « إن عندنا فى أقوال العلويين المعاصرين، عن أبى الطيب سبباً للتوقف دون التسليم » .

هذا ، على أن عندنا من الأسباب ما يحملنا على ردِّ رواية العلويين فى أخبار أبى الطيب ، وقد ذكرنا بعضها متفرقاً فى كتابنا ، وبعض آخر لم نذكره لضيق الوقت ، ورغبة فى اختصار القول ، واعتماداً على فطنة القارىء ، / إذ كان فى وضع كلامنا ما يُشِيرُ إلى ٢٢٩/٢ أطرافه .

٦ - قلت فى كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) إن الأخ سعيداً قد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات التى رُوِيَتْ فى نبوة أبى الطيب ، فيما يزعم ، إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلان ، ورواها المعرى - وهو الحجة والثبت ، وقلنا : إن الحكم = بأن رواية المعرى - أو غيره من العلماء ، هذه الأخبار ، مما يصححها أو يرجح الصدق فيها = حكم خطأ لا يصحُّ لأحد أن يتابع عليه ، ولم أقل ذلك إلا لقول الأستاذ فى عدد الرسالة (١٦١) : « وسأعتمد فى قص الحادث (يعنى النبوة) على أبى العلاء خاصة ، لفضله

وتحرّيه وقرب زمانه » ، وهذه الكلمة الأخيرة وحدها تدلُّ على أن الأستاذ يُعَدُّ ما يرويه أبو العلاء عن أبي الطيب مما ترجح فيه كفة الصدق على كفة الكذب . ولكن الأستاذ لم يرض قولنا هذا ، فعاد يقول في كلمته الأخيرة : « هذا وقد حمل الأستاذ أقوالى ما ليس تحمل : فأنا لم أدع للمعري تنزهاً عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر في كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة ، بل هو مما يسر للمحقق وسائله » اهـ . وأنا لا أحب أن أكثر القول على أستاذنا فى نقد كلامه هذا ، بل أقول : إن كان فى يدك دليل على صحة هذه الروايات والأخبار فأظهره ولا تكتمه ، فمن قبل ما قلنا لك فى مقالنا بعدد الرسالة (١٦٧) إن « الخبر لا يستحق صفة الصدق إلا بالدليل الذى يدل على صدقه ، فإذا لم تجد الدليل على صدقه ، ذهبت عنه صفة الصدق وبقي موقوفاً ، فإذا اعترضت الشبهات من قبل روايته أو درايته ، مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه » . ولكن أستاذنا لم يُرد أن يقف عند هذا القول ، / وزعمه من (التهويل) ويقول : « وما التهويل بمُعْنٍ عن أحدنا فتياً » ، وزعم أنى « لم أجد بأساً فى أن أعرفه أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب ، وأن وأن ... إنلخ إنلخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون » . وظن أن فى هذا القول مذهباً له عن الإتيان بدليله على صدق الروايات التى يزعم أنها من التاريخ وأنها صحيحة . ويخرج من هذا ويدعه ليقول : « إننا نبزنا روايات التاريخ بالبطلان والكذب ، ثم لا يكون دليلنا عليها إلا أنها كذب وبطالان » . وليس الأستاذ ببالغ من كلامنا مبلغاً يسقطه أو يحزُّ فيه ، إلا أن يثبت لنا أولاً صحة هذه الروايات ، ومن أين لأحد أن يسلم بصحتها ، ويقنع بأنها خالية من الكذب والوضع وسوء القصد فى الإساءة والتشهير والتسميع بأبى الطيب ؟ فإذا فعل ذلك فقد بلغ أول الحق ، وكان له أن يَجْبَهَنَا بما شاء من القول مصرحاً ومعرضاً . فالدليل الدليل أيها الأستاذ سعيد .

٧ - ومن أعجب أمر الأستاذ سعيد أنه ينشئ من الكلمة الواحدة تردُّ في الكلام جملة لها معنى يُوجَّهه هو كيف أراد على ما خيَّلت ، ويضعها حيث شاء من الحديث غير متبيب ولا متلفتٍ عن يمين وشمال ، ولو خرج بالكلام الذى أمامه من العربية ... كما مرَّ بك في كلمتنا السابقة . فمن ذلك أنه وقف عند قولنا في الكلمة الأولى (الرسالة عدد ١٦٧) : « وتَرَكُ المعرى الشك (في تلك الأخبار) أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرى بمنزله عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرى ليس يكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب إليه ، ولا ينفي صفة الصدق عنه » . وليس يذهب عن أحد من القراء أننا أردنا بهذا الكلام أن ندفع ظنَّ / مَنْ ٢٣١/٢ يظن - أى الناس كان - أن توفَّقنا دون التسلم بما رواه المعرى في خبر نبوة أبى الطيب أو نقدنا له ، أو تكذيبنا أو إسقاطنا لما روى - يكون طعناً فيه ، أو يعدّ مما يوجب نسبة الكذب إلى أبى العلاء . ولكن الأستاذ سعيداً ترك هذا ، وأراد أن يبالغ وينشئ حول كلامه (خطأ من النار) ، فأخذ كلمتنا : « وليس المعرى بمنزه عن الخطأ والغفلة » ، وردّها بقوله : « وأنا لم أدع للمعرى تنزهاً عن الخطأ » ، فكيف - أيها الأستاذ سعيد - تزعم أننا قلنا إنك ادعيت للمعرى تنزهاً عن الخطأ ، وكيف تخرج هذا الذى ذهبت إليه من كلامنا ؟

ليعلم الأستاذ أنى لا أحفل بمثل هذا ، ولا أنظر إليه ، ولا أقف عنده ، ولكنى أبينه له ولغيره ، ليعلم أن كل أحد يستطيع أن يقول ما يشاء ، فيما يشاء ، على أى وجه يشاء ... ولكن ذلك لا يجوز على أحد ، ولا يغفل عنه من قرأ الأول والآخر ، ونظّر وفهّم وجمّع وعرف معانى الكلام ، وكيف خرج ، وإلى أين ينتهى . وليعلم أيضاً أن كل أحد يستطيع أن يفهم من الكلام ما يشاء على غير قاعدة من منطق أو عربية ، ولكن فهمه لا يكون حجة يأتى بها الناس ويظهرُ بها عليهم ، ويحاول أن يسقط أقوالهم بها . لا بُدَّ للكلام من منطقٍ عقليٍّ وفقهٍ عربيةٍ حتى يُفهم ، وإلا أصبحت المعانى فوضى لا ضابط لها ولا وكيل عليها ولا حفيظ .

وللقارىء أن ينظر إلى فَعَلات الأخ سعيد هذه ، فقد قلنا فى كلمتنا الأولى ٢٣٢/٢ (الرسالة عدد ١٦٧) عند ردِّ اعتراضه : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه / إنما هو من أباطيل (الرواية) ، وقد أتى به القوم ليعضدوا قولهم فى خرافة النبوة إنخ » ، فجاء ينقل هذا فى كلامه مرتين هكذا :

« إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل (الرواية) » ، فنحن نقول : « الرواية » ، وهو يقول على لساننا « الرواية » ، وبين اللفظين فرق « كبير » فى عربيتهما ، وفى موقعهما من الكلام . ولو أردنا الذى أراده الأخ سعيد لكلامنا لقلنا : « من أكاذيب الرواية » . ولو رجع الأخ إلى كلامنا الذى أعقب هذه الكلمة ، لعلم لِمَ قلنا (أباطيل الرواية) ، ولم نقل (أكاذيب الرواية) . هذا على أنى أقول أيضاً إن الذى زعموه من خجل أبى الطيب حين كان يسأل عن أمر لقب « المنتبى » - هو من أكاذيب الرواية : فإذا أراد الأستاذ أن يعرف من هم هؤلاء الرواة ، فليرجع إلى الكتاب الذى نقل عنه هذا الكلام ، فينظر مَنْ هم ، ومع ذلك فليس تغنى معرفة الرواة شيئاً فى هذا الأمر . وتعبٌ أن أمضى على هذا الوجه فى تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم ، فعليه أن يريحنا قليلاً بتدبره فى كلام هؤلاء الناس ، والنظر فى معانى رواياتهم بالذى توجهه العربية ، مع المقارنة بين هذه المعانى المختلفة المتباينة ، فعند ذلك يعرف كيف كان التناقض فى الرواية ، وكيف هدمت الروايات بعضها بعضاً فى خبر نبوة أبى الطيب .

...

وبعد ... فإن فى كلام الأستاذ من وجوه التهافت ما لا تطيعنى (الرسالة) على الإفاضة فيه ، ولا يواتينى الزمن على إزهاقه من أجله ، ولكنى أنصح / للأخ أن لا يلجأ إلى ضروب القول التى يخرج بها الكلام عن حدِّه إلى مجاهل من المغالطة والاعتراض ، وإرادة الغلبة واتباع الظن ، وفتنة الرأى ، والإصرار على خطرات النفس . وليعلم الأستاذ أنى

لست ممن يتغفل عن مواضع التحريف في القول ، أو الإحالة في الحججة ، أو الفساد في التأويل . فإن أراد أن يعود إلى الحديث والكتابة ، فليعد على مذهب مرضيٍّ متبع معروف غير منكر . فإن فعل ، فما أنا بالذى يسوءه أو يغضبه ، وما أريد من شيء إلا أن أهتدى إلى الحق على يدي مَنْ كان له فضل السبق ، وحسن الحديث ، وكال الغلبة بالحق هذا وقد أعفينا الأستاذ من كثيرٍ قولٍ في الذى جاء في مقاله الأخير - لو أردنا أن نكيل له من جرأته بمثل كَيْلِهِ لفاعلنا فأشَوِينَا ولكن :

عَبَّأْتُ لَهُ جِلْمِي لِأَكْرَمِ غَيْرِهِ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ، وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ

حول « نبوة المتنبى أيضاً »

سعيد الأفغانى

٢٣٤/٢ / قرأت للأخ شاكر مقالیه الأخرین المطولین جداً فی الرسالة (١٧١) ،
 (١٧٢) ، فإذا ما أريد أن قوله قد قلته سابقاً فی الرسالة (١٧٠) ، فليرجع إليه فهو رد
 على مقالیه هذين أيضاً .

لما عرف الأستاذ شاكر أنا « لا نحفل رداً ولا نقداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيلنا
 حينئذ أن نأخذ به أنفسنا ونشكر لصاحبه » ، عاذ بذلك ، فراغ رَوْغَةً عدل فيها بالكلام
 عن وجهه الذى يجب أن يكون فيه ، فلم تظفر اعتراضاتنا - لسوء حظها - منه بجواب .
 وقد كنا طلبنا إليه التعرض لهذه الأخبار التى رماها جملة بالكذب ، فبين وجوه بطلانها ،
 والسبب الحادى لرواتها على وضعها ، بيان يزيل اللبس ويرضى الأمانة والعقل ، فأبى
 وطفق يتعلق بتوافه الأمور . فهذا كلام شغل أربعة أعمدة من (الرسالة) فى تزييف رواية
 اللاذق ، وقد عرف القراء قيمتها عندنا ، وذاك كلام يعرض لبسطى عذرى فى التأخر
 بالرد ، وذلك كلام آخر طويل يدور حول ياء سقطت من كلام له نقلناه إلخ .

٢٣٥/٢ / استوفى الأخ ستة عشر عموداً زَوَى عنا فيهن حججه المزعومة ونافع بيانه ،
 وأطلق قلمه فسطر من القول النبيل ما نمر به مرَّ الكرام . ولما أشرف على الختام قال :
 « وتعبت أن أمضى على هذا الوجه فى تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء
 الناس الذين نقل كلامهم » . وقد علم أصلحه الله وعلم القراء أن البحث والحوار كله

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٧٤) ، الاثنين ١٧ من شعبان سنة ١٣٥٥/٢ من نوفمبر سنة

يدور حول هذا فقط ، ففيم الهرب منه والاشتغال بغيره ؟ ولست أنا الذى أدعى بطلان الروايات فأحتاج لمعرفة وجوه البطلان ، وإنما نفع ذلك وغناؤه - إن تم - عائدان عليه وحده ، فهو الذى ألف واستهدف ، وهو الذى ادعى وأعوزه البرهان .

وقد كنت ظننت أنى مع أستاذ يعيننى فى إزالة ما حول هذا البحث من شُبُهٍ بالعلم الواسع والحجة البالغة ولطف التأثى وحسن القصد ، فإذا بى أمام امرىء يريدتها جدلاً ومرأى ، أو استطالة قولٍ وحب غلبة ، مع معرفته من نفسه الحدة وضيق الصدر .
فما أنا - وقد عرض الأستاذ لنا أدبه عرضاً صحيحاً - بالذى يجاربه فى أسلوبه .
وكل ما تفضل به من غمز آحتل من مكانه محل الحجة ، لا يحدونى على مقابلته أو مشاكته ، ولا على الخروج على قاعدتى التى أطمعته فورطته ، وكانت خليقة منه بغير ما فعل .

ليت الأستاذ شاكراً كان تريت فلم يحرص على صدور رده عقب كلمتى بلا تأخر ، ولم يخرج عما أخبرنا من طبعه فى الإبطاء والتخلف ، فإن الناس / لا يقدرُونَ ٢٣٦/٢ الكلام بسرعة صدوره ، وإنما يقدرونه بما يحمل من الحق والصواب .

ليته تريت وتدبر وأنعم فى كلامه وكلام غيره ، إذن لما أعجله حب الرد للرد ، فجعله ينقض فكرة هى له على أنها لغيره ، ويستنجد لدفعها بالعربية والمنطق والأصول ، ويبان ذلك باختصار أنه :

كان أشكل عليه فى كلام أبى على بن أبى حامد أمر الوثيقة التى كتبها على المنتبى بعد أن استتابوه من دعوى النبوة ، فذهبنا نحن إلى أنها فى إبطال علويته لا تنبئه ، وأمر علويته ورد فى روايات ثانية ، فكان من الأستاذ أن أورد رواية أبى على ثم علق على كلامنا فيها بقوله : (الرسالة ص : ١٦٦٥) .

« فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية فى هذا الخبر ولا فى غيره مما روى عن على بن أبى حامد هذا ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه ، وهو لم يذكرها فيه ، ولم ترد عنه فى خبر

غيره ، ثم تعمد إلى الكلام فتوَوَّل بعضه على النبوة وبعضه على العلوية فتجعل التوبة للأولى والثيقة للآخرة ؟ » .

والذى قلناه نحن هو هذا (الرسالة ١٧٠) : « وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ (ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨) من كتابه إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، وليقول : (إن المراد بالنبوة (تأمل) فى حديث أبى بن أبى حامد : العلوية) ، فمن المقحم ومن المؤوَّل أيها الباحث / المحقق الذى لا ينسى اليوم ما قاله أمس؟! ثم قلنا : « فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل ، وبقي المنتبى جعفياً يمينياً . وإذا كان لابد (تدبر) من إيراد احتمال ، فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الروايات فى غنى عن هذا الفرض أيضاً (تأمل وتدبر) وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه ، وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابه الوثيقة » .

فنظرية الإقحام أنت قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن ، وكلمتنا بدئت بقولنا : (إذا كان لابد من احتمال) ، أما كلمتك فبدئت : (إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على العلوية) (ص : ٢٠٨) من كتابك القيم ، ^(١) وأياً كان صاحب اكتشاف الإقحام ومؤوَّل النبوة بالعلوية ، فهو ونظريته خليقان بما تفضل به الأستاذ من استنكار واستبشاح .

لقد رماني الأستاذ بدائه : عدم التدبر والتحريف ، وأراد أن يتناول فكرة لى كيفما اتفق له لينقدها ، فوقعته يده على فكرته هو منقولة فى كلامى ! وقاتل الله العجلة ،

(١) نص كلامى فى هذه الصفحة مختلف جداً ، لأنى قلت : « وترى أن نص أبى بن أبى حامد يرجح دَعوى العلوية لا دعوى النبوة » ، والكلام قبله من أول ص ٢٠٨ ، يوضح مقصدى كل التوضيح ، لأن استتابة مدعى النبوة ، لا تحتاج إلى وثيقة تكتب ، لأن الذى يكتب فى وثيقة هو فى الأمر يُحشَى فيه معاودة الدعوى ، كالعلوية مثلاً .

فقدماً ذكروا أن تاجراً أضمر أخذ عدل من أعدال شريكه ، فوضع رداءه عليه ليعرفه في الظلمة ، ثم ذهب وجاء رفيقه ليصلح أعداله ، فوجد رداء رفيقه على عدله ، وظن أنه نسيه ، فرفعه ووضع على عدل شريكه . ولما كان الليل أتى الشريك بحمّال واطأه ، ففتح الحانوت / واحتمل العدل الذى عليه الرداء وأخرجه هو والرجل ، وجعلا يترواحان ٢٣٨/٢ على حمّله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً ، فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله !!

فعلى القارئ المتبع أن يرجع حيثما وجد نقلاً لكلامى إلى الأصل المنقول عنه ، فلست أفرغ دائماً لبيان ما حرّف ، ولا أحتمل إلا تبعة ما قلته بحروفه ، غير مروى بكلام من غيرى . ومن أول كلامى بجُمّل من عنده ثم شرع فى ردّها ، فإنما رده على تأويله فحسب .

كان رغب إلينا الأخ شاكر ألا نتبع ظننا فى أنه من أهل الغرور والذهاب بالنفس والجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة . وقبل كلمته هذه كان ادعى لنفسه تدبراً وإمعاناً وأصولاً ودراية ، ثم فى الأخير جُلماً عند المقاتل البادية ، حين لمزنا بالحاجة إلى هذه الصفات ، وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبتاً ، وسبحان الذى قال : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

فهل أجد حرجاً فى أن أقول ثانية : « صحف الرسالة أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاص » .

وإن القراء « لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة فى الخط منه » ، وحرام أن أقتل الوقت فى تتبع المزالق التى زلّ فيها صاحبنا فى مقالته هذين ، فما هى بنافعتنا فيما ظهر ، / لتباين أسلوبينا فى البحث و (اختلاف ٢٣٩/٢ فى الجيلة) ، على ما قال الأخ شاكر .

وما أنا بعائد إليه ، لأن الحقيقة لم تفد شيئاً بخوض هذا البحث معه ، ولن أجارى

أخى فى طريقه التى سلكها فما هى لى بطريق ، ولا أرب لى بتعسف المتاهات . ولولا أن
يظن العجول من القراء أن نظرية الإقحام وتأويل النبوة بالعلوية التى رمانى بها الأستاذ على
عجلة وخطأ ، هى نظريتى وفكرتى ، لما خططت حرفاً من كلمتى هذه .
وبعد ، فليس عندى لأخى الأستاذ على أقواله فى غير السلام .

كلمة الراقى

المقتطف والمتبى

/ المقتطف شيخ مجلاتنا ، كلهن أولاده وأحفاده ، وهو كالجد الأكبر : زمن ٢٤٣/٢
يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفراد لا يلحق ، وعلم يزيد على العلم ، بأنه في الذات التي تفرض
إجلالها فرضاً ، وتجب لها الحرمة وجوباً ، ويتضاعف منها الاستحقاق ، فيضاعف لها
الحق .

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى ؟ وهل هو إلا عرش حتى درجاته الجيل تحت
الجيل ؟ وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضية بالنواميس إلى
النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ، وهو كالعقل المنفرد بعبقريته ، واجبه الأول أن يكون
دائماً الأول . فقد أنشئ هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يغنى عنه ، ثم طوى في
الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغنى عنه . ثم أسفت
الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات
والممثلات ، وبقي هو على الوفاء لمبدئه العلمى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أخذ عليه
في العلم والأدب ميثاق كميثاق النبيين في الدين والفضيلة ، فبين يديه الواجب
لا الغرض ، وهمه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها ، وهديته الحقيقة الثابتة في الدنيا
لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه في كل ذلك طريق الفيلسوف ، / من هدوء نفسه ٢٤٤/٢
لا من أحوال الدهر ، فهو ماض على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل في منزلة منزلة من
يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه .

وقد بدأ المقتطف مجنده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبي ، ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف .

ولست أغلو إذا قلت : إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود محمد شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرج المقتطف في زهاء ستين ومئة صفحة ، تدلُّه في تفكيره ، وتوحى إليه في استنباطه ، وتنبيهه في شعوره ، وتُبصِّره أشياء كانت خافيةً وكان الصدق فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفةً وكان فيها الكذب . ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الأشياء التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها .

ولقد كان أول ما خطر لي بعد أن مضيت في قراءة هذا العدد = أن المؤلف جاء بما يصحُّ القول فيه : إنه كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله . ثم لم أكد أمعن في القراءة ، حتى نُحِيلُ إليَّ أنه قد وضع لشعر المتنبي ، بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين ، تفسيراً جديداً عن المتنبي نفسه . وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض ، إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم .

/ إن هذا المتنبي لا يَفْرُغ ولا ينتهي ، فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يَفْرُغ . وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتدُّ في الزمن . وكان الرجل مطوياً على سِرِّ ألقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سِرُّ نفسه ، وسِرُّ شعره ، وسِرُّ قوته . وبهذا السِرِّ كان المتنبي كالملك المغصوب ، الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلُّفِ والغموض ، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل .

ومن هذا السِرِّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدَّرُ في نسقٍ عجيب ،

متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونموٌ وشبابٌ ، وعرض بين ذلك شعر أبي الطيب عرضاً حتى خيّل إليّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها . وبذلك انكشف السرُّ الذي كان مادّة التهويل في ذلك الشعر الفخم ، إذ كانت في واعية الرجل دولةٌ أضخمُ دولةٍ عجز عن خلقها وإيجادها ، فخلقها شعراً أضخمَ شعرٍ ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة ، متحقّقة في صورة من صور الإمكان اللغويّ .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي : سرُّ حُبّه ، فقال إنه كان يجب حوّلته أخت سيف الدولة ، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم ترضه ، فقال إنه كان يؤمّل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف . وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس أحد في الدنيا المكتوبة (أي التاريخ) يعلم هذا السرُّ أو يظنّه . والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف / الباحث المدقّق بين الإثبات والنفي . ومتى ٢٤٦/٢ لم يستطع المرء نفيّاً ولا إثباتاً في خبرٍ جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبيك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدُّ .

ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة ، لقلت إن المؤلف قد صدّق فهناك موضع لا بدّ أن يُبحث في القلبِ الشاعرِ الذي وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوّت فيه القوة سرّها ، وبثّ فيها الجمال وحيه = وأصغر هذه الثلاث ، أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلّها ...

مصطفى صادق الرافي



أربع تراجم للمتنبى

- ١ - ترجمة على بن عيسى الرّبعيّ (٣٢٨ - ٤٢٠ هـ)
- ٢ - من كتاب « بغية الطلب » لابن العديم (٥٥٨ - ٦٦٠ هـ)
- ٣ - « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)
- ٤ - « المُقَفَّى » للمقرئزى (٧٧٦ - ٨٤٥ هـ)

١ - ترجمة المتبني للربيعي

ترجمة المتنبي للرِّبَعِيِّ

« ترجمة الرِّبَعِيِّ لأبي الطيب » ، هي أقدم ترجمة له وقعت في أيدينا ، وهي أهمُّهنَّ جميعاً ، لأن الرِّبَعِيَّ كان آخر من لقي أبا الطيب بشيراز ، في شعبان سنة ٣٥٤ قبل مقتله في رمضان سنة ٣٥٤ ، وعنها نقل ابن العديم وابن عساكر والمقرئزي ، مع التصرف في النقل . وقد وقفت عليها في آخر شرح الواحدى لديوان أبي الطيب ، نقلها كاتبها بخطه ، وألحقها بآخر الشرح . وهذه النسخة مخطوطة نفيسة محفوظة بمكتبة فيض الله بالآستانة تحت رقم : ١٦٤٩ ، وقد ذكرت خبرها في مقدمة هذه الطبعة من كتابي « المتنبي » .

...

ترجمة الرِّبَعِيِّ

هو أبو الحسن ، علي بن عيسى بن الفرغ بن صالح الرِّبَعِيُّ الزُّهَيْرِيُّ ، (١) النحويّ ، ولد ببغداد سنة ٣٢٨ هـ ، فأخذ النحو والأدب عن أبي سعيد السِّيرَافِيِّ ، [الحسن بن عبد الله بن المَرزُبَانِ / ٢٨٨ - ٣٦٨ هـ] ، ثم هاجر إلى شيراز ، لما نزلها أبو علي الفارسي ، [الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسي / ... - ٣٧٧ هـ] ، ولازمه عشرين سنة يأخذ عنه النحو ، ولقى أبا علي الفارسيّ أيضاً حين عاد الفارسي إلى بغداد واستوطنها في سنة ٣٧٥ ، [تاريخ بغداد ٧ : ٢٧٥] ، إلى أن مات أبو

(١) انظر التعقيب في آخر الترجمة ، وقوله « الرِّبَعِيُّ الزُّهَيْرِيُّ » هو علي عادة القدماء في النسبة إلى القبيلة ،

ثم إلى البطن من القبيلة .

على الفارسي . وقد رجع الربيعي من شيراز إلى بغداد ، فأقام بها إلى أن مات في ليلة السبت لعشر بقين من المحرم سنة ٤٢٠ هـ ، وعمره يومئذ اثنتان وتسعون سنة ، ودفن بمقبرة باب الدير في بغداد ، ولم يتبع جنازته إلا ثلاثة أنفس ، [المنتظم لابن الجوزي ٨ : ٤٦ / البداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٢٧] .

وقد حدثنا الربيعي نفسه أنه سمع من أبي الطيب شعره ببغداد وشيراز ، في الخبرين ، رقم : ١٤ ، ورقم : ١٧ ، وأنه سمع من المتنبّي بعض شعره أكثر من عشرين مرة ، في الخبر رقم : ١٦ ، وأنه رأى مع المتنبّي ديوانه بخط ابن أبي الجوع الوراق المصري ، على ورق منصوريّ ، وكتبه هو عن هذا المخطوط من إملاء المتنبّي حرفاً حرفاً ، ونقل عنه بغير الإملاء .

تعقيب

• « الربيعي » ، قال ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » ، [٣ : ٣٣٦ ، طبعة إحسان عباس] :

« الربيعي ، بفتح الراء ، والباء الموحدة ، بعدها عين مهملة ، هذه النسبة إلى « ربيعة » ، ولا أعلمُ أهو ربيعة بن نزار ، أم غيره » .

• « الزُهيري » ، وزاد ياقوت في نسبه فقال « الربيعي الزهيري » ، في « معجم الأدباء » [٥ : ٢٨٣ ، طبعة جب] ، وكتبها السيوطي في « بغية الوعاة » ، [٢ : ١٨١ ، طبعة أبي الفضل إبراهيم] : « الزُهري » ، ^(١) وكتبها في « الفلاحة والمفلوكون »

(١) « الزُهري » ، نسبة إلى بني زُهرة بن كلاب بن مرة « فقط ، وهم من قريش ، ومحال أن يكون الربيعي

[ص : ١١٣ ، مطبعة الشعب سنة ١٣٣٢ هـ] : « الزيدي » ، (١) وكلتا النسبتين تصحيف ، والصواب ما عند ياقوت ، فيما أرجح ، وذلك لأنني رأيتُ القفطي في كتابه « إنباه الرواة » [١ : ٣٧٤] في ترجمة أبي علي الفارسي قال : « وذكر الربيعي في صدر شرحه « الإيضاح » نسب أبي علي فقال : أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسي ، وأمه من ربيعة الفرس ، سدوسية ، من سدوس (بن) شيبان . »

و « ربيعة الفرس » هو « ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان » .

فولد « ربيعة بن نزار » : « أسد بن ربيعة » و « ضبيعة بن ربيعة » .

وولد « أسد بن ربيعة » : « جديلة ، وعنزة ، وعميرة » .

وولد « جديلة بن أسد بن ربيعة » : « دُعَمي » ، وفيه البيت والعدد ، و « جدّي »

دخل بنوه في بني شيبان ، و « جدان » دخل بنوه في بني زهير بن جشم ، من بني النمر بن قاسط [جمهرة ابن حزم : ٢٩٥] .

و « سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة » ، ينتهي نسبهم إلى « دُعَمي »

ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار [ابن حزم : ٣٠٧ - ٣١١] .

ثم « النمر بن قاسط بن أفصى بن دُعَمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار »

[ابن حزم : ٣٠٠] ، الذين دخل « جدان بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار » في

« بني زهير بن جشم » ، هم من بني « النمر بن قاسط » ، فيكون « الزهيري » في نسبة

« الربيعي » إليهم ، ويكون قول ياقوت في نسب « علي بن عيسى » : « الربيعي الزهيري » ،

دلالة على أنه من « بني جدان بن جديلة بن أسد بن ربيعة » ، وأن بني « جدان بن

(١) « الزيدي » ، نسبة إلى المذهب الزيدي الشيعي ، والربيعي ليس من الشيعة في شيء ، وكتاب

« الفلاحة » نشرة سيئة كثيرة التصحيف والتحريف لا يعتد بها .

جديلة « دخل نسبهم في نسب أبناء أخيه « دُعْمَى بن جديلة » ، الذي ينتهي إليه نسب أم أبي علي الفارسي ، التي هي من بني « سُدُوس بن شيبان بن ذهل » ، الذين ينتهي نسبهم إلى « دُعْمَى بن جديلة بن أسد بن ربيعة » .

فكأن هذه العلاقة بين « علي بن عيسى الرِّبَعِيِّ » ، وأبي علي الفارسي هي التي دعته أن يذكر لنا « أم أبي علي الفارسي » ، وأنها من « ربيعة الفرس ، سُدُوسِيَّة من بني سُدُوس بن شيبان » ، وهي أيضاً التي دعته إلى أن يفارق وطنه بغداداً إلى شيراز ليقيم بها مع أبي علي الفارسي عشرين سنة .

هذا اجتهادٌ مني في نسبة « الرِّبَعِيِّ » التي توقّف في أمرها ابن خلكان ، فلعلّي أصبْتُ الصواب ، فإن أكن أصبت فبحمد الله وتوفيقه ، وإن أكن أخطأت فاستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١)

ترجمة المتنبي للربيعي

من مخطوطة « شرح ديوان المتنبي للواحدى »

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال علي بن عيسى النحوى رحمة الله عليه .

١ - قال لى أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن : (١) « كان يُثَقَّلُ عليَّ أن أدعى المتنبي دهرًا ، إلى أن أنستُ به ، (٢) وقبح الله أهل الكوفة ، يضيِّقون فى الأسماء على أنفسهم ، فلا يُفرِّق بين بعضهم وبعض إلا بالقاب . (٣) »

« وقال لى : مولدى الكوفة ، ورَضَعْتُ بِلَبَّانِ علوية من بنات عُمَيْدِ الله بن يحيى . (٤) »

(١) هذا نصٌّ عظيم الخطر ، لأنه من كلام المتنبي نفسه ، وهو نص قاطع فى الصلة الحميمة بين أبى الطيب والعلويين ، كما ذهبْتُ إليه فى أمر نسبه ، وفى أمر ما زعموه من نبوته . والعجب لابن العديم وابن عساكر ، كيف لم يذكر الخبر بنصّه عن المتنبي ، أو الأصح ، كيف لم يذكره ياقوت الحموى الذى رأى ديوان المتنبي بخط أبى الحسن على بن عيسى الربيعي ، ونقل عنه أنه أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، ، دون أن ينسب ذلك إلى المتنبي نفسه (ترجمة ابن العديم رقم : ٨) .

(٢) فى المخطوطة : « أنسبُ به » ، وهو تصحيف ، صوابه ما أثبت ، وفى ترجمة ابن العديم : « ثم أُلْفِتُهُ » .

(٣) ما سلف رواه ابن العديم فى ترجمته رقم : ٨ .

(٤) خبر رضاع المتنبي ، رواه ابن العديم فى ترجمته فى آخر رقم : ٨ ، واقتصر على قوله : « آل عبيد الله » ،

وقد بين المتنبي نفسه أنهم « آل عبيد الله بن يحيى » ، وأنا أخشى أن يكون قوله « يحيى » تصحيفاً . والنساخت كثيرًا ما يصحفون ، فيكتبون « يحيى » مكان « على » . فإذا صحّ هذا ، فهم « آل عبيد الله بن على » ، الذين منهم « المشطب » : « محمد بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، الذى مدحه المتنبي ، وذكرت أمره فيما سلف : ١٥١ ، تعليق : ٣ وما بعد ذلك ، وقد رجحتُ أن المتنبي أخوه من الرضاع . انظر ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ .

« ونشأت بالبادية ، وكنت أحبُّ البطالةَ والجولانَ وصُحبةَ ذوى الغاراتِ والحروبِ والتَّيهِ عن الدنِيَّاتِ من الأخلاقِ ، وقلْتُ الشعرَ صبيًّا » . (١)

٢ - وزعم ابنُ عمِّ له في الكوفة : أنَّه أحمد بن الحسين بن الحسن بن مُرَّة بن عبد الجبار ، من جُعْفَى . وقال : « لا أعرف باقي نَسَبنا ، هو مُنْقَطَع » . (٢)

٣ - وقال : أبو أحمد عبد العزيز بن الفضل ، أخبرني الشيخُ أبو الحسين على ابن أحمد بن أبي سَعْدَةَ بمدينة السَّلام قال : لَمَّا دخل المتنبي مدينة السلام خارجاً إلى فارس ، أراد أن يَضْمَنَ الطريقَ من مدينة السلام إلى باب واسِطٍ من معزِّ الدولة ، وكان الواسِطَةُ الشريفُ أبو عبد الله بنُ الدَّاعِي ، وكنتُ أنا كاتبُهُ ورسولُ المتنبي إليه في هذه الوَسَاطَةِ ، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك ، وذكر : إنَّ هذا الرجلَ شاعرٌ ، إن طالبتُهُ بما يلزُمُه من مالي هَجَانِي . (٣)

(١) هذا الجزء من الخبر ، يتضمنه خبر ابن العديم رقم : ٨ .
 (٢) هذا خبر ظاهرُ الخطر ، لأنه يدلنا لأول مرَّة ، على أن أبا الطيب ، كان له « ابن عمِّ » ، عرفه الرعي في الكوفة ، ومعنى الخبر شبيه بخبر رواه الرعي أيضاً ، وذكر فيه أنَّ لأبي الطيب أخاً مكفوفاً كان يسأل الناس بجسر بغداد ، وسأله أيضاً عن نسبه ، [ابن العديم رقم : ٨] .
 (٣) هذا الخبر رقم : ٣ ، من أهم الأخبار ، لأن له علاقة وثيقة بحال المتنبي مع العلويين ، ولذلك أعلق عليه ببعض التطويل :

● « معزُّ الدولة » البويهى ، أحد ملوك الديلم ، وعم عضد الدولة الذى مدحه المتنبي في آخر عمره ، كان صاحب العراق . وكان علوى الهوى ، وغالى في ذلك ، حتى إذا كانت سنة ٣٥٢ ، قبل وفاته بأربع سنوات ، وجاء عاشر المحرم ، فأمر بتغليق أسواق بغداد ، وأن يلبس النساءُ المسوخَ من الشعر ، وأن يخرجن في الأسواق حاسراتٍ عن وجوههن ، ناشراتٍ شعورهن ، يَلْظِمْنَ وجوههن ، يُتْحَنَ على الحسين بن على بن أبى طالب (ابن الأثير ٨ : ١٩٧ / البداية والنهاية ١١ : ٢٤٣) .

● « أبو عبد الله بن الداعى » ، هو العلوى الزيدى : « محمد بن الحسن (وهو الداعى الصغير) بن القاسم بن على بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحانى » ، بن القاسم بن الحسن بن زيد بن على بن أبى طالب (جمهرة ابن حزم : ٤٠) ، كان معزُّ الدولة يعظمه تعظيماً شديداً ، وأجبره على أن يتولَّى نقابة الطالبين سنة ٣٤٩ ، وغاب =

قال أبو الحسين : فدخل إلى المتنبى ، وأنا أسكن « دَرَبَ الزَّعْفَرَانِيِّ » ، وكنت رَمِداً قَلِقاً من الوجع ، فأنشدني :

أَيَا أُنْسِ الْقُلُوبِ ، وَقَدْ تَعَالَتْ أَمَانِيهَا ، وَضَوْءَ النَّاطِرِينَ
لَيْنِ جَرَحَتْ شَكَاتِكَ كُلَّ قَلْبٍ بِأَنْفَقَدَ فِي الْفُؤَادِ مِنَ الرُّدَيْنِيِّ

= معز الدولة في سفرة إلى نصيبين ، واستخلف ابنه عز الدولة بختيار ببغداد ، فخطب في حضرته بشيء عن العلوية فلم يرض ذلك ، وامتنع ، وخرج مغضباً ، ودبر أمره وخرج محتفياً ، ومعه ولده الأكبر ، وخلّف أولاده وعياله ونعمته وكل ما تحويه داره ببغداد ، ولم يستصحب غير جبة صوف بيضاء وسيفاً ومصحفاً ، وسار إلى بلاد الديلم ، وليس الصوف وأظهر النسك والعبادة ، وحارب بعد ذلك وشمكير فهزمه ، وعزم على المسير إلى طبرستان ، وكتب إلى العراق كتاباً يدعوهم إلى الجهاد (ابن الأثير حوادث سنة ٣٥٣ ، وسنة ٣٥٥ / تكملة تاريخ الطبري للهمداني : ١٨٩ ، وتجارب الأمم لمسكويه ٢ : ٢٠٧) .

● « درب الزعفراني » ، قال ياقوت : « هو بكرخ بغداد ، كان يسكنه التجار وأرباب الأموال ، وربما يسكنه بعض الفقهاء » ، وهو منسوب إلى « الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني » ، كان ثقة من أجل العلماء ، وروى عنه البخاري في صحيحه ، وهو الذي قرأ على الشافعي كتبه القديمة ، وكان يومئذ شاباً ، وتوفي سنة ٢٦٠ ، وقد وصف الخطيب البغدادي هذا الدرب في ترجمة الزعفراني (٧ : ٤٠٧) فقال : « ودرب الزعفراني المسلوك فيه من باب الشعر إلى الكرخ ، إليه ينسب » ، وأكثر المحدثين ببغداد منسوبون إلى هذا الدرب .

هذا ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه (٧ : ٣٠٣ ، ٣٠٤) ترجمة : « أبي محمد الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد ، الأديب ، كان تاجراً ممولاً وإليه ينسب « خان ابن حامد » الذي بدرب الزعفراني ببغداد » ، قال الخطيب البغدادي :

« حدثني الصوري قال : ذكر لي الحسن بن حامد أن المتنبى لما قدم بغداد نزل عليه ، وكان القيمّ بأموره ، وأن المتنبى قال له : لو كنت مادحاً تاجراً لمدحتك » .

قال البغدادي : « مات بمصر في يوم الأحد ، مستهلّ شوال سنة سبع وأربعمئة » ، ولكن العجب لابن الجوزي في المنتظم ، فإنه نقل ما قاله عنه الخطيب البغدادي ، ولكنه وضعه في وفيات سنة ٣٨٥ (المنتظم ٧ : ١٨١) .

فهذا خير دخول أبي الطيب ببغداد ونزوله في دار الحسن بن حامد بدرب الزعفراني ، وسيأتي في رقم ١٣ أن المتنبى في دخلته الثانية إلى بغداد نزل في دار أبي الحسن العروضي ، في « رَيْضِ حُمَيْدٍ » . فهذا موضع تحقيق لدخلته الأولى ودخلته الثانية ، متى كانت الأولى ومتى كانت الثانية .

وأَوْهَنَ مَا وَهَنْتَ لَهُ الْمَعَالِي ، وَأَقْدَى مَا بَعَيْنِكَ كُلَّ عَيْنٍ ،
لَحَظْتُكَ فِي الثَّوَابِ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يُطِيفَ بِهِ كِتَابُ الْكَاتِبِينَ
إِسَاءَاتُ الزَّمَانِ أَجَلٌ نَعْمَى إِذَا سَلِمْتَ حَيَاةُ أَبِي الْحُسَيْنِ
فَكَمْ مِنْ مِحْنَةٍ طَرَقَتْ فَكَانَتْ لِمُحْتَقِبِ الذُّنُوبِ قَضَاءَ دَيْنِ

وما نعلم أنه قال ببغداد شعراً غير هذا . (١)

٤ - ومما ذكِرَ أن المتنبي رحمه الله قاله وهو بواسط في خروجه إلى فارس ، ولم يقع في النسخ ، ولم يروه الناس ، وذكرَ رَؤَيْتُهُ المعروف بأبي الحسين محمد بن محمد بن سلمان الكوفي ، ويُعرف أيضاً بأبي السُّوداني ، (٢) بيان هذه القصيدة ودفعها إليه أبو جعفر محمد بن الحسين بن حمزة العلوي ، وذكر أنه وجدها في بعض نسخ شعره ، وذكر أبو الحسن أنها منحوالة (٣) : -

أَفِيقَا ، خُمَارُ الْهَمِّ نَعَّصِنِي الْخَمْرَا وَسُكْرِي مِنَ الْأَيَّامِ جَنَّبَنِي السُّكْرَا
تَسْرُّ خَلِيلِي الْمُدَامَةُ ، وَالَّذِي بِقَلْبِي يَأْتِي أَنْ أُسْرَكَمَا سُرَا
لَبِسْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ أَحْسَنَ مَلْبَسِي ، فَعَرَّفْتَنِي نَابَا وَفَرَّقْتَنِي ظُفْرَا (٤)

(١) هذا الخبر ، والشعر الذي فيه ، انفردت به ترجمة الريعي هذه ، ولم يذكره الراجكوتي في « زيادات ديوان شعر المتنبي » .

(٢) هذا خبر طريف آخر فيه ذكر رواية للمتنبي . أما « السُّوداني » فهكذا ضبط في المخطوطة ، ولا أعرف هذا الضبط . والنسب التي تشبهه هي « السُّوداني » بالضم وبالبدال المهملة ، و « السُّوداني » بالضم وبالذال المعجمة ، و « السُّوراني » بالضم وراء وباء ، و « السوراني » ، بضم وراء ونون .

(٣) القصيدة الآتية ، ذكرها البديعي في « الصبح المنبي » : ١٠٤ - ١٠٧ (طبعة دار المعارف) ، والراجكوتي في « زيادات ديوان شعر المتنبي » عن البديعي ، وعن نسخ مخطوطة لديوان المتنبي ، وانظر تعليقاته على الأبيات .

(٤) في الصبح ، وفي الراجكوتي « أحسن ملبس » ، وهي أجود مما في المخطوطة . وفي الصبح المنبي : « فَعَرَّفْتَنِي ... وَمَزَقْتَنِي » ، وفي الراجكوتي : « فَعَرَّفْتَنِي وَمَزَقْتَنِي » ، والذي هنا أجود . يقال : « عَرَّقَ الْعَظْمَ وَتَعَرَّقَهُ » أخذ اللحم عنه بأسنانه نهشاً . و « فَرَى الْجِلْدَ يُفْرِيه فَرِيًّا » ، شَقَّه وَمَزَقَهُ بِظْفَرٍ أَوْ بِحَدِيدَةٍ .

- وَفِي كُلِّ لَحْظٍ لِي وَمَسْمَعٍ نَعْمَةٍ ،
 سَدِكَتُ بِصَرْفِ الدَّهْرِ طِفْلاً وَيَافِعاً ،
 أَرِيدُ مِنَ الْإَيَّامِ مَا لَا يُرِيدُهُ
 وَأَسْأَلُهَا مَا أَسْتَحِقُّ قَضَاءَهُ ،
 وَلِي كَيْدٌ مِنْ رَأْيِ هِمَّتِهَا النَّوَى ،
 تَرُوقُ بَنَى الدُّنْيَا عَجَائِبُهَا ، وَلِي
 أُخُو هِمَمٍ رَحَالَةٌ لَا تَزَالُ لِي
 وَمَنْ كَانَ عَزْمِي بَيْنَ جَنَبَيْهِ حَتَّى ،
 صَحِبْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ مُعْتَبِطاً بِهِمْ ،
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْعَبْدَ لِلْحُرِّ مَالِكاً
 وَمِصْرٌ لِعَمْرِي أَهْلٌ كُلُّ عَجَبِيَّةٍ
 يُعَدُّ إِذَا عُدَّ الْعَجَائِبُ أَوْلَى
 فَيَا عَجَبَ الدُّنْيَا ، وَيَا عَبْرَةَ الْوَرَى ،
 لَوَيْبِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ أَنَّ بَنِيهَا الـ
- ثَلَاحِظُنِي شَزْرًا ، وَتُسْمَعُنِي هُجْرًا (١)
 فَأَفْنَيْتُهُ حَزْمًا وَلَمْ يُفْنِنِي صَبْرًا (٢)
 سِوَايَ ، وَلَا يَجْرِي بِخَاطِرِهِ فِكْرًا
 وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَطْبِي حَاجَةً قَسْرًا (٣)
 فَتَرَكْبُنِي مِنْ عَزْمِهَا الْمَرْكَبَ الْوَعْرًا (٤)
 فَوَادَّ بِيضَ الْهِنْدِ لَا يَبِيضُهَا يُغْرَى
 نَوَى تَقَطُّعِ الْبَيْدَاءِ أَوْ أَقْطَعُ الْعُمْرَا
 وَصَيَّرَ طُولَ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شِبْرًا
 وَقَارَقْتُهُمْ مَلَانَ مِنْ حَنْقِ صَدْرَا
 أَيْتُ إِبَاءَ الْحُرِّ مُسْتَرْفِدًا حُرًّا (٥)
 وَلَا مِثْلَ ذَا الْمَخْصِيِّ أُعْجُوبَةٌ نُكْرًا
 كَمَا يَتَنَدَا فِي الْعَدِّ بِالْإِصْبَعِ الصَّغْرَى
 وَيَا أَيُّهَا الْمَخْصِيُّ مَنْ أُمَّكَ الْبَطْرَا (٦)
 لَوَيْبِيٌّ دُونَ اللَّهِ يُعْبَدُ فِي مِصْرَا (٧)

(١) في المخطوطة: «ومسمع نعمة»، وهو تصحيف صوابه في الصبح، والزيادات، وفي سائر البيت بعد ذلك خلاف.

(٢) في الصبح، والزيادات: «فأفنيته عزمًا»، وهي جيدة. و«سديك بالشئ»، لزمه ولصق به.

(٣) في الصبح، والزيادات، خلاف في رواية العجز: «وما أنا ممن رام حاجته بصرًا»، والراجح كوني «قسرًا». و«اطبى الحاجة»، دعاها وطلبها.

(٤) في الصبح: «ولي همة»، كأنها سبق قلم.

(٥) في الصبح والزيادات: «مستزقًا»، وهذه أجود.

(٦) في الصبح والزيادات: «فيا هرم الدنيا».

(٧) في الزيادات: «لويبية... اللويبي»، وهما أجود مما في المخطوطة، فإن «لويبة»، هي التي بين

الإسكندرية وبرقة، وكافور ليس منها بلا ريب، بل هو من «التوبة»، جنوب من مصر، من السودان.

وَيَسْتَعْدِمُ الْبَيْضَ الْكَوَاعِبَ كَالدَّمَى
 قَضَاءً مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ أَرَادَهُ ،
 وَلِلَّهِ آيَاتٌ وَلَيْسَتْ كَهَذِهِ ،
 لَعَمْرُكَ مَا دَهْرٌ بِهِ أَنْتَ طَيِّبٌ ،
 وَأَكْفَرُ يَا كَافُورٌ حِينَ تُلُوْحُ لِي ،
 عَثَرْتُ بِسَيْرِي نَحْوَ مِصْرَ فَلَا لِعَاءً
 وَفَارَقْتُ خَيْرَ الْخَلْقِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ ،
 فَعَاقَبَنِي الْمَحْصِيُّ بِالْعَدْرِ جَازِيًا ،
 وَمَا كُنْتُ إِلَّا فَائِلَ الرَّأْيِ لَمْ أُعْنَ
 وَقَدَّرَنِي الْخِنْزِيرُ أَنِّي هَجَوْتُهُ
 جَسَرْتُ عَلَى بَيْدَاءِ مِصْرَ فَفَتُّهَا
 سَأَجْلِبُهَا شُعْتَ النَّوَاصِي مُشِيحَةً
 وَأُطْلِعُ بَيْضًا كَالشُّمُوسِ مُطَلَّةً ،
 فَإِنْ بَلَغَتْ نَفْسِي الْمُنَى فَبِعَزْمِهَا
 وَرُومَ الْعِبْدَى وَالْعَطَارِفَةَ الْغُرًّا (١)
 أَلَا رُبَّمَا كَانَتْ إِرَادَتُهُ شَرًّا
 أَظُنُّكَ يَا كَافُورُ آيَتُهُ الْكُبْرَى
 أَيَحْسِبُنِي ذَا الدَّهْرِ أَحْسِبُهُ دَهْرًا
 فَفَارَقْتُ مُذْ فَارَقْتُكَ الشَّرْكَ وَالْكَفْرًا
 بِهِ ، وَلِعَاءً بِالسَّيْرِ عَنْهَا وَلَا عَثْرًا (٢)
 وَأَكْرَمَهُمْ طَرًّا لِأَنْذَلِهِمْ طَرًّا
 لِأَنَّ رَحِيلِي كَانَ عَنْ حَلَبٍ غَدْرًا
 بِحَزْمٍ وَلَا آسْتَصْحَبْتُ فِي وَجْهَتِي حِجْرًا (٣)
 وَلَوْ عَلِمُوا قَدْ كَانَ يُهْجَى بِمَا يُطْرًا (٤)
 وَلَمْ يَفْتِ الْبَيْدَاءَ إِلَّا مَنْ اسْتَجْرًا (٥)
 تَحُولُ غَدَاةَ النَّقْعِ عَنْ لَوْنِهَا غُبْرًا (٦)
 إِذَا طَلَعَتْ بَيْضًا وَإِنْ غَرَبَتْ حُمْرًا
 وَإِلَّا فَقَدْ أَبْلَغْتُ فِي حِرْصِهَا الْعُدْرًا

(١) « العبدى » ، من الجموع الكثيرة للفظ « العبد » .

(٢) فى الصبح والزيادات : « فلا لعاء بها » ، وهو خطأ .

(٣) « الحجر » ، العقل وحسن الرأى .

(٤) فى الصبح : « وقد أرى الخنزير » .

(٥) فى الصبح والزيادات : « على دهياء ... ولم يفت الدهياء » ، ولا شك أن صوابها « دهناء مصر ...

والدهناء » ، و « الدهناء » الفلاة ، وبه سميت « دهناء بنى تميم » .

(٦) البيت فى الصبح :

سَأَجْلِبُهَا أَشْبَاهَ مَا حَمَلْتَهُ مِنْ
 أَسْنَتِهَا جُرْدًا مُقْسَطَلَّةً غُبْرًا

٥ - وُجِدَ في بعض النُسخ أنه كَتَبَ من رَامَهُرْمَزَ إلى كاتب كانت له عليه مِنَّةٌ ، هذه الأبيات ، = الشَّيرازيُّ : هذا الرجل هو أبو الفضل عبد الرحمن بن الحسين العنْدجاني ، وكان عامل رَامَهُرْمَزَ من قَبْلِ مُعِزِّ الدولة ، وكان حَدمَ أبا الطيب وقتَ اجتيازه بِرَامَهُرْمَزَ خارجاً إلى آبن العميد ، وادَّعى أنه كتب إليه هذه القطعة = وحدَّثني جماعة أن هذه الأبيات هو قالها عن المتنبي إلى نفسه ونَحَلها إيَّاه :

لَئِنْ حُمَّ بَعْدَ الْقُرْبِ نَأَى وَلَمْ أَحْزُ مِنْ الْوَصْلِ مَا يَشْفِي الْفُؤَادَ مِنَ الْوَجْدِ
وَلَمْ تَكْتَحِلْ عَيْنَايَ مِنْكَ بِنَظْرَةٍ يَعُودُ بِهَا نَحْسُ الْفِرَاقِ إِلَى السَّعْدِ
فَلِي لَحَظَاتٌ فِي الْفُؤَادِ بِمُقَلَّةٍ مِنَ الذِّكْرِ تُذْنِكُمْ كَأَنَّكُمْ عِنْدِي
إِذَا هَاجَ مَا فِي الْقَلْبِ لِلْقَلْبِ وَحِشَّةٌ فَزَعْتُ إِلَى أُنْسِ التَّذَكُّرِ مِنْ بَعْدِ^(١)

٦ - وقيل : إنه لما رأى « فاتكاً » من بعيدٍ وعلم أنه يريد قتاله قال :

أَفْرِغِ الدَّرْعَ يَا سِرَاجُ عَلَيَّ وَأَنْظِرِ الْيَوْمَ مَا تَرَى مِنْ قِتَالِي
فَلَيْنَ رُحْتُ فِي الْمَكْرِ صَرِيحاً فَانَعِ لِلْعَالَمِينَ كُلِّ الرَّجَالِ^(٢)

ذِكْرُ مَقْتَلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ

٧ - قال أبو أحمد رحمه الله : ^(٣) وجدتُ في آخر نسخة محمد بن هاشم الخالدي التي بخطه لشعر المتنبي رحمه الله . ^(٤)

« كُنَّا كَتَبْنَا كِتَاباً إِلَى أَبِي نَصْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُبَارَكِ الْجُبَلِيِّ نَسَأَلُهُ شَرْحَ ذَلِكَ =

(١) هذا خبرٌ لم أره في شيء من الكتب . هكذا ضبطت في المخطوطة ، والأجود : « مِنْ بَعْدِ » .

(٢) في ديوان المتنبي (عزام) ص : ٥٨٨ ، هذا الشعر ، وأن المتنبي كان معه عبداً يقال له « سراج » ، فقال

له : يا سراج ، أخرج إليّ الدرع . فلبسها وتميهاً للقتال ، ثم قال ...

(٣) « أبو أحمد » هو « عبد العزيز بن الفضل » ، الذي مضى في إسناد الخبر : ٣ .

(٤) هو بنصّه أيضاً منقولاً من خط الخالدي ، في ترجمة المتنبي لابن العديم رقم : ٨١ .

وهذا الرجل من وجوه التَّناء بهذه الناحية ، (١) وله أدبٌ وحُرْمَةٌ = فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فيه :

« وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب رحمه الله ، فأنا أنسقه لكما وأشرحه شرحاً بيّناً . أعلمنا أن مسيره كان من واسطٍ في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، قُتِلَ بِنِيزَع ، (٢) ضَيْعَةَ تَقْرُبُ من دير العاقول ، في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . والذي تولّى قتله وقتل ابنه وغلامه رجلٌ من بنى أسدٍ يقال له « فاتك بن أبي الجهل بن فراس بن بدادٍ » . وكان من قوله لما قتله وهو مُنْعَفِرٌ : « قُبْحاً لهذه اللحية يا سَبَّاب ! » ، وذلك أن فاتكاً هذا قرابةً لوالدة « ضبّة بن يزيد العيني » الذي هجاه المتنبي بقوله : (٣)

(١) « التَّناء » ، جمع « تانيء » ، وهم المقيمون بالبلدة في أرض العجم ، وأصلهم منها .

(٢) في المخطوطة « بنيزع » ، بالنون ، وهو كذلك في ديوان المتنبي (عزام) هامش ص : ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، غير أن ياقوتاً الحموي اقتصر على ذكرها في حرف الباء ، نقلاً من خط أبي بكر محمد بن هاشم الخالدي صاحب هذا الخبر .

(٣) هكذا هنا وفي خبر ابن العديم وغيرهما ، والذي في آبن الأثير ٨ : ٢٣٣ (سنة ٣٦٤) ، و ٨ : ٢٥٧ (سنة ٣٦٩) : « ضبّة بن محمد الأسدي » . قال في الموضع الأول :

« وذلك أن بختيار كتب إلى ضبّة بن محمد الأسدي ، وهو من أهل عين التمر ، وهو الذي هجاه المتنبي ، فأمره بالإغارة على أطراف بغداد وقطع الميرة عنهم ، وكتب بمثل ذلك إلى بنى شيبان » . وقال في الموضع الثاني ، (سنة ٣٦٩) :

« وفيها أرسل عضد الدولة سرية إلى عين التمر ، وبها ضبّة بن محمد الأسدي ، وكان يسلك سبيل اللصوص وقطاع الطرق ، فلم يشعر إلا والعساكر معه ، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً ، وأخذ ماله وأهله ، ومُلكَت عين التمر ، وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين رضي الله عنه ، فعوقب بهذا » .

وهما خبران مهمّان في شأن مقتل المتنبي وتفسيره . ثم انظر « ديوان المتنبي » (طبعة عزام) ص : ٥٨٧ ، وفيها سماه أيضاً « ضبّة بن محمد العيني » ، فهذا موضع للبحث والتحقيق . هذا وقد جاء في ديوان المتنبي (عزام) ، هامش ص : ٥٨٨ ، عن علي بن حمزة البصري أن المتنبي كتب هذه القصيدة في « ضبّة » بواسطٍ ، يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة .

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضَبَّةً وَأُمَّهُ الطَّرْطَبَةَ

ويقال إن « فاتكاً » خال « ضبّة » ، وأن الحميّة داخلته لما سمع ذكراً بالقبيح في الشعر ، وما للمتنبي شعرٌ أسخف من هذا الشعر ولا أوهَى كلاماً ، فكان على سخافته وركاكته سبب قتلِه وقتلِ ابنه وذهابِ ماله .

• وأما شرح الخبر ، فإن « فاتكاً » كان صديقاً لي ، وكان كما سُمي فاتكاً لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال ، فلما سمع الشعر الذي هُجِيَ به « ضبّة » أحفظه ذلك واشتدّ عليه ، ورجع على « ضبّة » باللوم ، وقال له : قد كان يجب أن لا تجعل لشاعرٍ عليك سبيلاً ! وأضمر غير ما أظهر ، واتصل به خبر انصراف المتنبي من بلد فارس إلى العراق ، وأن اجتيازه بجبل ودير العاقول ، فلم يكن ينزل عن فرسه وجماعة من بنى عمّه ، رأيهم في المتنبي مثل رأيه ، في طلبه واستعلام خبره من كل صادرٍ وواردٍ ، وكان « فاتك » يتحرى خوفاً أن يفوته . وكان كثيراً ما يجيئني وينزل عندي ، فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مُجتازين عنه : قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل ، فأى شيء عزمك أن تفعله متى لقيته ؟ قال : ما عزمي إلا للجميل ، وأن أعدله على ما أفحش فيه من الهجاء . فقلت له : هذا الأليق بأخلاقك والأشبه بأفعالك . فتضحك ثم قال : والله يا أبا نصر ، لئن أكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه ولأمحقن حياته ، إلا أن يُحال بيني وبينه . فقلت له : كُف ، عافاك الله ، عن هذا القول ، وأرجع إلى الله ، وأزل هذا الرأي من قلبك ، فإن الرجل شهير الاسم بعيد الصوت ، وقتلك إياه في شعرٍ قاله لا يحسن ، وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام ، فما علمنا أن شاعراً قُتل بهجاء [وقد قال الشاعر] :

هَجَوْتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إِنِّي مَدَحْتُهُ وَمَا زَالَتِ الْأَشْرَافُ تُهَجِّي وَتُمدَحُ

« ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله ! فقال : يفعل الله ما يشاء ! وانصرف ، فلم يمض لهذا القول إلا ثلاثة [أيام حتى وافى] المتنبي ومعه بغال موقرة كل شيء من الذهب

والفضة والثياب والطيب والجوهر والآلة ، لأنه إذا [كان مسافراً لم يُخْلَف] في منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يُساوي درهماً واحداً فما فوقه ، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره ، [لأنه كان قد انتخبها] وأحكمها قراءةً وتصحيحاً . قال : فتلقَّيْتُهُ وَأَنْزَلْتُهُ دَارِي وَسَاءَ لْتُهُ عن أخباره ؟ وعمَّن لقي ؟ وكيف وجد مَنْ قَصَدَهُ ؟ [فعرفني] من ذلك ما سُررت به ، وأقبل يصف لي ابن العميد وفضله وأدبه وعلمه وكرمه ، وسماحة المملك ألى شجاع فَنَاحُسِرُو ، ورغبته في الأدب وميله إلى أهله . فلما أمسينا قلت له : على أى شيء أنت مُجْمِع ؟ قال : على أن أتخذ الليل جملاً ، فإن السير يخف فيه على . قلت : هذا هو الصواب = رَجَاءٌ أَنْ يُخْفِيَهُ اللَّيْلُ ، ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً = وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ معك من رَجَالِهِ هذه المدينة الذي يَحْبُرُونَ الطريق ويعرفون المواضع المَخُوفَةَ فيه ، جَمَاعَةٌ يمشون بين يديك إلى بَغْدَاد . فقطب وقال : ولم قلت هذا القول ؟ قلت : تستأنس بهم . قال : أمَّا وَالْجُرَازُ فِي عُنْقِي فَمَا بِي حَاجَةٌ إِلَى مُؤَنَسٍ غَيْرِهِ . قلت : الأمر كما تقول ، والرأى فيما أشرتُ به عليك . فقال : تلويحك هذا يُنبئني عن تعريض ، وتعريضك يُخبر عن تصريح ، فعرفني الأمر وبين لي الخُطْب . قلت : إن هذا الجاهل « فاتكاً الأسدَى » كان عندي منذ ثلاثة أيام ، وهو مُحْفَظٌ عليك لأنك هجوت ابن أختِهِ ، وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراس والتيقظ ، ومعه أيضاً نحو العشرين فارساً من بنى عمِّه قَوْلُهُمْ مِثْلُ قَوْلِهِ = قال : وعلامة كان عاقلاً لبيباً فارساً يسمع كلامنا = فقال : الصواب ما رآه أبو نصر ، خُذْ معك عشرين راجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد . فاغتاظ غيظاً شديداً وشم الغلام شتماً قبيحاً ، وقال : وَاللَّهِ لَا تُحَدِّثْ عَنِّي أَنِّي سِرْتُ فِي خُفَارَةِ غَيْرِ سِيفِي . فقلت له : يا هذا ، فأنا أوجه قوماً من قبلي في حاجة يسيرون بمسرك ويكونون في خُفَارَتِكَ . قال : وَاللَّهِ لَا فَعَلْتَ شَيْئاً مِنْ هَذَا . وقال لي : يا أبا نصر ، أَبْخُرُوءِ الطَّيْرِ تُخَشِينِي ، ومن عبید العصا تخاف علي ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ مِخْصِرَتِي مَلَقَاةٌ عَلَى شَاطِئِ الْفِرَاتِ وَبَنُو أَسَدٍ مُعْطِشُونَ لِحَمْسٍ ، وَقَدْ نَظَرُوا إِلَى الْمَاءِ كَبَطُونِ الْحَيَاتِ ، مَا جَسَرَ لَهُمْ خُفٌّ وَلَا ظِلْفٌ أَنْ يَرِدَهُ ! حَاشَ لِلَّهِ مِنْ فِكْرٍ أَشْغَلَهُ بِهِمْ لِحْظَةَ الْعَيْنِ . فقلت له : قل إن شاء الله . فقال : كَلِمَةٌ مَقُولَةٌ لَا تُدْفَعُ مَقْضِيًّا وَلَا تَسْتَجْلِبُ آتِيًّا ! ثم ركب فكان آخر العهد به .

« قال : ولما صحَّ عندي خبر قتله ، وجَّهت مَنْ دَفَنه وآبَنه وغلَامَه ، وذَهَبْتُ دماؤهم هَدْرًا » .

« أمَّا قوله : « أَبْخُرُوءِ الطَّيْرِ تُخَشِّينِي ، ومن عبيد العصا تخاف عليَّ » ، فإن بنى أسيد يُلقَّبون « خُرُوءَ الطَّيْرِ » ، قال امرؤ القيس : (١)

فَرَّتْ بَنُو أَسِيدٍ خُرُوءُ الطَّيْرِ عَنْ أَرْبَابِهَا
ويُلقَّبون أيضًا « عبيد العصا » ، قال الشاعر ، ونظَّمه امرؤ القيس أيضًا :

* قَوْلًا لِلدُّودَانَ عَبِيدَ الْعَصَا * (٢)

٨ - قال أبو أحمد رحمه الله : (٣) حدثني الشريف عليُّ بن عُمر أنَّ المتنبيَّ كان له أبُّ سقاء بالكوفة يعرف بعبدان السِّقَاءِ ، (٤) وأنه كان يعرف بأبن عبدان

(١) هذا ليس لامرئ القيس ، بل لدختوس بنت لقيط بن زُرارة ، ترضى أباها ، وقُتِلَ يوم شُعب جَبَلَة . وخبر ذلك في الأغاني (١١ : ١٣١ - ١٦٣ ، الدار) ، وهذا البيت في الأغاني (١١ : ١٤٦) في أربعة أبيات ، وهو في ثلاثة عشر بيتاً في « بلاغات النساء » لطيفور ص : ١٨٥ ، وأول الأبيات عند أبي الفرج في الأغاني :

بَكَرَ النَّعْيُ بِخَيْرٍ خِنْدِفٍ ، كَهَلِهَا وَشَبَابِهَا

وهو من مجزوء الكامل : « متفاعِلن متفاعِلن » ، ابن العديم رقم : ٨١ ، في آخرها .

(٢) هذا لامرئ القيس ، وتمامه :

* مَا غَرَّكُمْ بِالْأَسِيدِ الْبَاسِلِ *

(٣) هو الذي يروى عنه الربيعي ، كما سلف رقم : ٣ ، ورقم : ٧ .

(٤) هكذا هي هنا « عبدان » بالباء الموحدة ، وانظر ما كتبه آنفاً ص : ١٣٧ تعليق : ١ .

السقاء ، وأنه خرج من الكوفة سنة عشرين وثلاثمئة ، ثم دخل بغداد ، ورحل إلى فارس سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، ثم إنه أراد الرجوع فقتل في الطريق .

٩ - ومما قاله في صباهُ وشدَّ عنه بعضُه ، قوله : (١)

سَيْفُ الصُّدُودِ عَلَى أَعْلَى مُقْلَدِهِ	يَفْرِي طُلَى وَامِقِيهِ فِي تَجْرُدِهِ
مَا اهْتَزَّ مِنْهُ عَلَى عَضْوٍ لِيَبْتَرُهُ	إِلَّا اتَّقَاهُ بُتْرَسٍ مِنْ تَجْلِيدِهِ
ذَمَّ الزَّمَانَ إِلَيْهِ مِنْ أَحَبَّتِهِ	مَا ذَمَّ مِنْ بَدْرِهِ فِي حَمْدِ أَحْمَدِهِ
شَمْسٌ إِذَا الشَّمْسُ لَاقَتْهُ عَلَى فَرْسٍ	تَرَدَّدَ الثُّورُ فِيهَا مِنْ تَرَدُّدِهِ
إِنْ يَقْبَحُ الْحُسْنُ إِلَّا عِنْدَ طَلْعَتِهِ	فَالْعَبْدُ يَقْبَحُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِهِ
قَالَتْ عَنِ الرَّفْدِ طَبَّ نَفْسًا فَقُلْتُ لَهَا	لَا يَصْدُرُ الْحُرُّ إِلَّا بَعْدَ مَوْرِدِهِ
لَمْ أُعْرِفِ الْخَيْرَ إِلَّا مَذْعَرَفْتُ فَنِي	لَمْ يُوَلِّدِ الْجُودُ إِلَّا مُنْذُ مَوْلِدِهِ
نَفْسٌ تُصَعَّرُ نَفْسَ الدَّهْرِ مِنْ كِبَرِ	لَهَا نُهَى كَهْلِهِ فِي سِنِّ أَمْرِدِهِ

١٠ - وقال أيضا في صباه يهجو الذهبي : (٢)

لَمَّا اتَّسَبْتَ فَكُنْتَ أَبْنَاءَ لِعَيْرِ أَبِي	ثُمَّ اخْتَبِرْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى أَدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَةً	مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لَا الذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَبِكَ بِهِ	يَأْيُهَا اللَّقْبُ الْمُلقَى عَلَى اللَّقْبِ

(١) انظر هذه الأبيات في ديوان المتنبي (طبعة عزام) ص : ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٢) انظر هذه الأبيات في ديوان المتنبي (طبعة عزام) ص : ٥٣٤ .

١١ - وجدت هذين البيتين في نسخة منسوية إلى أبي الطيب : (١)

أتانى عنك قولٌ فازدهانى ومثلك يتقى أبداً ويرجى
ولولا ظنةٌ لحقت فؤادى وجدت إليك طوقاً منك نهجا

...

١٢ - وجدت في نسخة من شعره ، قال علي بن ممر : رأيت أبا الطيب

ينشد بعض أهل سوق البز فكتبت إليه : (٢)

يا حاضراً عندي إذا لم يحضر عين الضمير يراك أحسن منظر
أكثرت من نشر اللآلى أنفاً فتركت سوق البز سوق الجوهر
إنى لأسمع من قريضك معجراً تحت الصخور له وغرف الأبحر
عجباً لأذان ليسن حليته فصعين للطائي أو للبحثري

فلم يجبنى ، فكتبت إليه :

يا واحد الإنشاء والإنشاد ومهذب الآباء والأجداد
لك سيف شعر لا يبارى ، واسمه فارى الدروع وآكل الأعماد
وصلت هديتنا فما كافأنا أيا يسد عليك باب سداد
لا تفسد الأدب المشهى بالجفا ، يا ذا البراعة ، أيما إفساد
لو كنت بحراً لم يشب بملوحة ، أو كنت بداراً لم يشن بسواد

...

١٣ - وجدت في نسخة أخرى من شعره ، حدث أبو جعفر محمد بن

(١) ليسا في زيادات شعر المتنبي للراجكوتى .

(٢) لم أقف على هذا الخبر والشعر الذى فيه فى شىء من الكتب .

الحسن ، قال : حضرت مجلس المتنبي في دَخَلته الثانية إلى بغداد ، في دار أبي الحسن العروضي في رِبَضِ حُمَيْد ، وعنده جماعة من الأدباء ، ودخل عليه هرون بن المُنَجَّم فطاوَلَهُ الحديثَ ، وكان ينشده مما قاله في وصف الحروب والخيل ، فقال له هرون : أقول ما قال الشاعر :

أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ سَيْفٍ وَرُمْحٍ ، طَوِيلُ الْعُمْرِ بَيْنَهُمَا قَصِيرُ

فَأَعْجَبَ الْخَلْقُ بِهَذَا الْبَيْتِ ، فَأَطْرَقَ الْمَتَنَبِيُّ سَاعَةً فَأَنْشَدَهُ لِنَفْسِهِ :

فَإِنْ أَغْمَدْتُ ذَا وَكَسَرْتُ هَذَا فَإِنَّ كَثِيرَ مَا أَبْقَى يَسِيرُ

فَأَعْجَبَ مِنْ حَضَرَ بِخَاطِرِهِ وَسُرْعَةِ اقْتِضَائِهِ هَذَا الْبَيْتِ وَإِجَارَتِهِ مَا تَقَدَّمَ . (١)

١٤ - ووجدتُ في ديوان بخطِّ علي بن عيسى النحويّ ، في أوّل ديوانه :

وكان رجلٌ من أهل مصر يعرف بأبي عبد الله الخَرَشِيِّ ، ادَّعَى إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وكان ورّاقاً لَقِيَ أبا الطَّيِّبِ بِمِصْرَ ، فكتب علي ديوانه « السُّلَمِي » ، فقال لي أبو الطَّيِّبِ بِفَارِسَ لما رأى هذا النسبَ : أما رضيَ هذا الرجل أن عمل لنفسه نَسَباً حتى نسبني إلى من لستُ منه ! (٢)

١٥ - قال : ورأيتُه مرّةً يكرهُ أن ينتسب ، قال : لأنني كنت أطرّاً على قومٍ بعد قوم من البادية ، فلا أختار أن يعرف أحدٌ نسبي ، لئلا أكون ممن يُعَادِيهِ . ورأيتُه مرّةً أخرى يتشكك ويقول : أكثر الناس لا يعرف جميع آباءه ، وأكثرُ العرب = زَعَمَ = علي

(١) لم أقف على هذا الخبر في شيء من الكتب .

(٢) هذا الخبر رواه ابن العديم رقم : ١٠ مختصراً ، وفيه فائدة ليست هنا ، وهي قول الربيعي : « رأيتُ عنده

(أي عند المتنبي) جزءاً من شعره بخطِّ ابن أبي الجوزع المصري ، وعليه بخط آخر : المتنبي السُّلَمِيُّ البغدادي .

ذلك ، إنما يكون في الحَيِّ واحد يَنْسُبُهُمْ . وقال لي مرة أخرى : الإنسان بأفعاله لا يَنْسَبْتُهُ ، وقد يوجد في كل الناس الفاضل والناقص ، وأَيْش ينفع النسب ؟ (١)

١٦ - قال : (٢) وكان على ظهر كتابية خارجاً من الديوان بخطّ آبن أبي الجُوع الأبيات ، وهي (٣) :

* لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْدُ الْمُسْتَغِيرُ * (٤)

ووجدتُ أيضاً خارجاً من ديوانه : « وقال في صباحه يهجو الذهبي : » لَمَّا نُسِبْتَ « ، الأبيات . (٥)

هذا ما كان خارجاً من ديوانه ، وقُرئ عليه وسمعتُهُ أكثر من عشرين مرة . (٦)

١٧ - ثم وجدتُ ببغداد شيئاً منسوباً إليه لم أسمعُه منه ولا أُرَوِّيه ، لأنه قال لي بعد السماع الكثير : لا تَرَوْ عَنِّي إِلَّا مَا صَحَّ مِنَ الدِّيوانِ مِمَّا كُتِبَ لِي أَوْ رَأَيْتَهُ مِنِّي ، (٧) وكان معه ببغداد جزآن في أرباع وَرَقٍ مَنْصُورِيٍّ بِحَطِّ آبن أبي الجُوع ، وصار معه إلى فارسَ الأوَّل منهُما وضاع الآخر ، وقد كنت كتبتُه من هذا الجزء في دار المتنبي حرفاً حرفاً من إملائه عليّ من هذا الجزء ، ومن نقلي أنا بغير الإملاء . وكان يُقرأ عليه هذا الديوان فأسمعه بقراءة الناس ببغداد وشيراز ، وكنت إذ ذاك لا أرى القراءة عليه بنفسي ، لأنه ربّما كان

(١) هذه أخبار عن المتنبي مهمة جداً في شأن كتان نسبه ، وكيف كان المتنبي يتكلم في شأن النسب ، ودلالة ذلك .

(٢) « قال » هو الربيعي نفسه الذي يقول ، وقوله : « على ظهر كتابية » ، هكذا هو ، ولعله « على ظهر كتابه » ، بالهاء المضافة .

(٣) « ابن أبي الجوع » ، سيأتي تمام اسمه ونسبه في ترجمة ابن العديم رقم : ٦ ، والمقرئزي رقم : ٢٣ .

(٤) هو في شعره في شرح الواحدى وغيره ، وتمامه :

* أَسِيرَ الْمَنَائِيَا صَرِيْعَ الْعَطْبِ *

(٥) هي السالفة في رقم : ١٠ .

(٦) قائل هذا هو الربيعي .

(٧) في المخطوطة : « مما كتب له » ، ولعل صواب ما بعده « أو رويته عنى » .

أخذ مني ما يتعلق بنحو أرويه له عن أبي علي الفارسي رحمة الله عليه ، فكنت أكره مع ذلك القراءة عليه . (١)

١٨ - وسألني بعض أصدقائي أن أقرأ له عليه الفارسيات ليحملها إلى خراسان ، (٢) فَقَرَأْتُهُنَّ تَكْرِمَةً لِمَنْ قِيلَتْ فِيهِمَا حَسْبٌ . ولا أعلم أحداً يَصْنُدُ [في رواية] هذا الديوان ممن اتَّصَلَتْ مَخَالِطُهُ وَمَجَالِسَتُهُ بِهِ كَصِنْدُقِي فِيهِ . (٣)

١٩ - ثم إنه = يعنى المتنبي = سار عن حضرة الأمير عضد الدولة ، ومعه خيل مختارة ومطايا منتخبة ، موقرة بالعبيد والسلاح والعين والورق ، وفاخر الكسي ، وطرائف التحف ، وغرائب الألفاف ، يُغْدُ السِيرَ بِنَفْسِهِ وَعَبِيدِهِ لَا غَيْرُ ، وَأَعْيُنُ أَعْدَائِهِ تَرْمُقُهُ ، وأخباره إلى كل بلد يحلّه تسبقه ، حتى إذا كان حيال « الصافية » من الجانب الغربي من سواد بغداد ، أسفل منها بنحو عشرة فراسخ ، عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من أصحابه ذوى عُدَّةٍ وَنَجْدَةٍ فاغتاله هناك ، فقتله وابنه مُحَسِّدًا وَغَلَامًا له يقال له « مُفْلِحٌ » وأخذ جميع ما كان معه مما ذكرناه ، بعد أن أبلى فيهم ، وذلك في يوم الاثنين لست ليالٍ بقين من شهر رمضان . (٤)

(١) هذا خبر مهم جدًا ، في قراءة المتنبي شعره ببغداد شيراز .

(٢) قوله « الفارسيات » يعنى ما قاله المتنبي في آبن العميد وعضد الدولة .

(٣) هذا الخبر رقم : ١٨ ، رواه ابن العديم في ترجمته رقم : ١١ مع اختلاف في اللفظ واضح . ومكان

النقط بياض في المخطوطة قدر كلمتين محوَتين .

(٤) الخبر رقم : ١٩ ، لم أجده بهذا اللفظ . وانظر ديوان المتنبي (عزام) ص : ٥٨٧ ، وفيه ذكر غلامه

٢ - ترجمة المتبى لابن العديم

(٢)

/ ترجمة المتنبي من « بغية الطلب »

٢٤٩/٢

لابن العديم

١ - / أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، أبو الطيب الجعفي ٢٦
الكوفي الشاعر المعروف بالمتنبي .

٢ - وقيل : هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار ، وكان والده الحسين
يعرف بعيدان السقاء .

٣ - وكان أبو الطيب شاعراً مشهوراً مذكوراً محظوظاً من الملوك والكبراء الذين
عاصروهم ، والجيد من شعره لا يُجاري فيه ولا يُلحق ، والردىء منه في نهاية الرداءة
والسقوط ، وكان يتعظم في نفسه ويترفع ، وقيل : إنه ادعى « النبوة » في حدائته فلقب
المتنبي لذلك ، وكان عارفاً باللغة قيماً بها .

٤ - قدم الشام في صباه وجال في أقطارها ، وصعد بعد ذلك إلى الديار
المصرية ، وكان بها في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة . (١) ثم قدم حلب وافداً على الأمير
سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان مادحاً له ، (٢) فأكرمه ونفق عليه ،
وصار خصيصاً به ، ملازماً له حَضراً وسَفْراً ، / إلى أن خرج من حلب غضباناً بسبب

٢٥٠/٢

(١) دخوله مصر وكونه بها في سنة ٣٣٥ هـ ، خير جديد لم أجد من ذكره ، انظر الآتي رقم : ٦٦ :
وترجمة المقرئ رقم : ١٧ وهو يجب إعادة النظر في ترتيب رحلة المتنبي منذ صباه ، إلى أن لقي سيف الدولة سنة
٣٣٧ هـ ، وقرأ تنمة الخير وقوله : « الدفعة الثانية » .

(٢) في الأصل : « ومادحاً له » ، كأنه أراد أن يكتب « ومدحه » .

كلامٍ وقع بينه وبين أبي عبد الله بن خالويه في مجلس سيف الدولة ، فضر به ابن خالويه بمفتاح . وكان دخوله إلى حلب سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة ، وخروجه منها إلى مصر الدفعة الثانية في سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، ^(١) وكان نزوله بحلب في محلتنا المعروفة بأدرني كسرى [هكذا في الأصل] . قال لي والدي : وكانت داره داراً هي الآن خانكاه سعد الدين كمشثكين ملاصقة لداري .

٥ - وكان ابن خالويه مؤدّب ولدى الأمير سيف الدولة : أبي المكارم ، وأبي المعالي . فظفرت بجزء بخط ابن خالويه ذكر فيه ما يحفظه الأميران المذكوران ، فذكر أنواعاً من الفقه والأدب وأشعار العرب ، وقال في جملتها : « ويحفظان من شعر الشاعر المعروف بالمتنبي كذا وكذا قصيدة » ، وعينها ، ولم يذكر أنهما يحفظان لغيره من العصرين شيئاً . وهذا يدل على عظم قدره وجلالة أمره في ذلك الزمان .

٦ - روى عن أبي الطيب : القاضي أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي ، وأبو الفتح عثمان بن جنى التّحوي ، وأبو محمد الحسن بن علي بن الصّقر الكاتب ، وأبو الحسن علي بن أيوب بن الحسين بن السّاربان الكاتب ، ^(٢) والأستاذ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه ، وأبو عبد الله / بن باكويه الشيرازي ، ^(٣) وأبو الحسن علي بن عيسى الرّبيعي ، وأبو القاسم بن حسن الحمصي ، وعبد الصمد بن زهير بن

(١) انظر ص : ٥٨٣ ، والتعليق السالف رقم : ١ .

(٢) « الساربان » يقال لمن يحفظ الجمال في مرعاها . قال الخطيب في تاريخه (١١ : ٣٥١) « علي بن أيوب ابن الحسين بن أيوب بن أستاذ ، أبو الحسن ، القمي الكاتب المعروف بابن الساربان سكن بغداد وذكر لنا أنه سمع من المتنبي ديوان شعره ، سوى القصائد الشيرازيات . فقرأت عليه جميع الديوان ، وكان رافضياً ، وكان يذكر أن مولده بشيراز في سنة سبع وأربعين وثلاثمئة ، ومات ببغداد في سنة ثلاثين وأربعمئة » . عجيبة !! إذا كان ما قاله هذا الرافضي صحيحاً ، فمتى سمع من المتنبي ديوانه ، وهو قتل سنة ٣٥٤ ؟

(٣) ترجمته في الأنساب للسمعاني ٢ : ٥٥ ، والإكمال لابن ماكولا ١ : ١٦٦ ، والمشتبه للذهبي : ٤٤ ، وتبصير المتنبي لابن حجر : ٥٧ ، وتاج العروس (باك) ، ولباب الأنساب للسيوطي ١ : ٩١ ، وهو في أكثرها : « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن باكويه » ، وانفراد ابن حجر في لسان الميزان (٥ : ٢٣٠) فقال : « محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن باكويه » ، توفي بعد عشرين وأربعمئة .

هارون بن أبي جَرادة ، ومحمد بن عبد الله بن سَعْدِ النَحْوِيِّ الحَلِيَّان ، وعبد الله بن عبيد الله الصُّفْرِيُّ الشاعر الحلبى ، وعبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الجُوع الورَّاق المِصْرِيُّ ، (١) وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن المَغْرِبِيِّ ، وأبو بكر الطائى ، وأبو القاسم النَّيْلَبُخْتِيُّ ، وأبو محمد الحسن بن عمر بن إبراهيم ، وأبو العباس ابن الحَوْتِ ، (٢) وجماعة سواهم . [انظر ترجمة المقرئى رقم : ٣٢] .

٧ - أنبأنا تاج الأمانء أحمد بن محمد بن الحسن ، قال ، أخبرنا الحافظ أبو القاسم على بن الحسن عمى قال ، قال لنا هبةُ الله بن عبد الله بن أحمد الواسطى ، قال لنا أبو بكر الخطيبُ : « عِيدَان » بكسر العين ، والياء المعجمة باثنتين من تحتها ، هو والدُ ألى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ، كان يُعْرَفُ بعِيدَانِ السَّقَاءِ .

٨ - أخبرنى صديقنا أبو الدرِّ ياقوت بن عبد الله الرومى ، مولى الحَمَوِى أخبار الرضى
/ البغدادىُّ قال : رأيت / ديوان ألى الطيب المتنبى بخط ألى الحسن على بن عيسى
٢٧
٢٥٢/٢
الرَّبِيعِىِّ ، قال فى أوَّله : « الذى أعرفه من نسب ألى الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن مُرَّة بن عبد الجبار الجُعْفِيِّ ، وكان يكتم نسبه ، وسألته عن سبب طيِّه ذلك فقال : إني أنزل دائماً بعشائر وقبائل من العرب ، ولا أحبُّ أن يعرفونى ، خيفة أن يكون لهم فى قومى تِرَةٌ . وهذا الذى صح عندى من نسبه . قال : واجتزت أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله السَّلَامِى الشاعر على الجسر ببغداد ، وعليه من جملة السُّؤال رجل مكفوف . فقال لى السَّلَامِى : هذا المكفوف أخو المتنبى ، (٣) فدنوت منه فسألته عن ذلك فصدَّقه ،

(١) انظر ترجمة الربعى رقم : ١٦ ، ١٧ ، وفيه صفة الديوان وصفة ورقه .

(٢) هكذا ضبط فى الأصل .

(٣) هذه أيضاً فائدة لم نجدها من قبل عند أحد . هكذا قلت فى الطبعة السالفة ، ثم وجدت فى تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (١ : ١٩٥) خبراً يذكره عن ألى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى ، وذكر المتنبى فقال فى آخر الخبر : « وكان أخوه ضريراً يتصدَّق ببغداد ، وأدعى أنه حُسَيْنِى ، ثم ادعى بكلب أنه نبيى ، فأشرف على القتل فاستتابوه » . [انظر ما سياتى ص ٦١١ ، تعليق : ٣] ، ثم انظر شبيهاً بهذا الخبر ، عن ابن عم للمتنبى فى شأن نسبه ، فى ترجمة الربعى رقم : ٢ .

وانتسب هذا النسب وقال : « من ها هنا أنقطع نسبنا » . وكان مولده بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمئة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله . ^(١) [الربيعي رقم : ١ ، ٢ / وابن عساكر رقم : ٣ / المقرئ رقم : ٥] .

٩ - « قال الربيعي : وقال لي المتنبي : « كنت أحب البطالة وصحبة البادية ، وكان يذم أهل الكوفة ، لأنهم يضيِّقون على أنفسهم في كل شيء ، حتى في الأسماء فيتداعون بالألقاب ^(٢) = ولما لُقبتُ ثقل ذلك عليّ زماناً ، ثم ألفتُهُ » . ^(٣) / ٢٥٣/٢ = ^(٢) وكان يذمُّ أهل الكوفة ، لأنهم يضيِّقون على أنفسهم في كل شيء ، حتى في الأسماء فيتداعون بالألقاب ^(٢) = ولما لُقبتُ ثقل ذلك عليّ زماناً ، ثم ألفتُهُ » . ^(٣)

١٠ - « وقال الربيعي : رأيت عنده بشيراز جزءاً من شعره بخط ابن أبي الجُوع الوراق المصري ، ^(٤) وعليه بخط آخر : « المتنبي السلمي البغداديُّ » فقال : ما كفاه أن عزاني إلى غير بلدي ، حتى نسبني إلى غير أبي ! ^(٥)

١١ - « قال : وما أظن أن أحداً صدق في رواية هذا الديوان صدقي ؛ فإنني كنتُ أكثره ونحن / بشيراز ، وربما أخذ عني من كلام أبي علي النحوي ، وسمعت شعره

(١) هذا خبر الربيعي صاحب المتنبي ، الذي جاء فأيد قولي في « علوية » أبي الطيب ، وكنت استخرجت هذا القول استخراجاً من دراسة ديوانه ، بلا دليل قاطع في الرواية إلا ما رواه البغدادي في الخزانة عن الأصفهاني (انظر ما سلف : ١٦٧) من أن المتنبي ، « اختلف إلى كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة » . فالمتنبي إلا يكن علويًا كل العلوي ، فإنه أخوهم من الرضاع . و « آل عبيد الله » هم بنو : « عبيد الله بن علي بن عبد الله بن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومنهم العلوي الذي مدحه المتنبي صغيراً ، وهو الأشتر ، أو المشطب » أبو الحسين محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن الحسين ، انظر ما سلف ص : ١٥١ تعليق : ١٥٣/٣ ، ١٦٤/١ ، تعليق : ١٦٧/١ ، تعليق : ١٦٨/١ ، تعليق : ١ . هذا ، وانظر الخبر مختصراً في ترجمة المقرئ الآتية رقم : ٢ ، وانظر أصله في ترجمة الربيعي رقم : ١ .

(٢) ما بين الخططين (=) من كلام الربيعي معترضاً في كلام أبي الطيب .

(٣) وهذا أيضاً خبر جديد مهم جداً ، في سبب تلقيبه « المتنبي » ، وهو في ترجمة الربيعي رقم : ١ ، وكل أخبار الربيعي مهمة .

(٤) انظر ما سلف . رقم : ٦ ، ص : ٥٨٥ .

(٥) ترجمة الربيعي رقم : ١٤ ، ثم رقم : ١٧ ، فيه ذكر ديوان المتنبي بخط ابن أبي الجُوع .

يُقْرَأُ عَلَيْهِ دَفْعَاتٍ ، ولم أقرأ عليه إلا العضديات والعميديات ، فإني قرأتها تكرامة لمن قُلت فيه ، ونقلتُها بخطي من مُدرَج بخطه كان معه . (١) هذا آخر كلام الرَّبَعِيِّ .

أخبار
الخطيب البغدادي
٢٥٤/٢

١٢ - أخبرنا أبو اليُمْنِ زيد بن الحسن بن زَيْد الكندي ، فيما أذن لنا فيه ، قال ، أخبرنا أبو منصور بن زُرَيْق قال : قال لنا أبو بكر الخطيب : (٢) / أحمد بن الحسين بن عبد الصَّمْد أبو الطيب الجُعْفِي - المعروف بالمتنبي ، بلغني أنه ولد بالكوفة في سنة ثلاث وثلاثمئة ، ونشأ بالشام ، وأكثر المُقَام بالبادية ، وطلب الأدب وعلم العربية ، ونظر في أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حدائته ، حتى بلغ فيه الغاية التي فاق [بها] أهل عصره ، وعلا شعراء وقته . واتصل بالأمير أبي الحسن بن حَمْدان المعروف بسيف الدولة ، وانقطع إليه وأكثر القول في مديحه . ثم مضى إلى مصر فمدح بها كافور الخادم ، وأقام هناك مدة ، ثم خرج من مصر وورد العراق ، ودخل بغداد وجالس بها أهل الأدب ، وقرئ عليه ديوانه .

١٣ - فحدثني أحمد بن أبي جعفر القَطِيعِي ، عن أبي أحمد عُبيد الله بن محمد بن أبي مسلم الفَرَضِيّ قال : لما ورد المتنبي بغداد سكن في رَيْض حُمَيْد ، فمضيت إلى الموضع الذي نزل فيه لأسمع منه شيئاً من شعره ، فلم أصادفه ، فجلست أنتظره ، وأبطأ عليّ ، فانصرفت من غير أن ألقاه ، ولم أعد إليه / بعد ذلك . وقد كان القاضي أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم الحاملي يسمع منه ديوانه ورواه عنه .

١٤ - قال الخطيب : أخبرنا علي بن المُحَسِّن التنوخيّ ، عن أبيه قال ، حدثني أبو الحسن محمد بن يحيى العلويّ الزيديّ قال : (٣) كان المتنبي وهو صبيّ ينزل

(١) انظر ترجمة الربيعي رقم : ١٨ .

(٢) هذه الأخبار من رقم : ١٢ - إلى آخر رقم : ١٧ ، في كتاب تاريخ بغداد ، ٤ : ١٠٢ - ١٠٤ ،

ثم انظر تمامها هنا منذ رقم : ٢٣ .

(٣) خير أبي الحسن محمد بن يحيى الزيديّ العلوي ، مذكور أيضاً في تكملة تاريخ الطبري للهمداني

الجزء الأول : ١٤٩ [بيروت ١٩٦١] ، وفيه بعد قوله : « فجاءنا بعد سنين بدويّاً قحاً » ما يلي بنصه : « وكان لا يعترف بنسبه ، ويقول : متى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين قبيلة ، وكان أخوه =

في جوارى بالكوفة ، وكان يُعَرَّفُ أبوه بعِيدَانِ السَّقَاءِ ، يستقى لنا ولأهل المحلَّة ، ونشأ هو محباً للعلم والأدب ، فطلبه ، وصحبَ الأعراب في البادية ، فجاءنا بعد سنين بدويًّا قُحًّا ، وقد كان تعلم الكتابة والقراءة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم . فأخبرني / وراق كان يجلس إليه يوماً قال لي : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عِيدَانِ قَطُّ ! فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعيِّ ، سمَّاه الوراق ، وأنسيه أبو الحسن ، يكون نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلاً ، فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعتني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه ، فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر . (١) قال : فقال له ابن عِيدَانِ : فإن كنت قد حفظته في هذه المدة فما لي عليك ؟ قال : أهبُّ لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه عليَّ إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كُفِّه وقام ، فَعَلِقَ به صاحبه وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبته لي ! قال : فمنعناه منه وقلنا له : أنت شَرَطْتَ على نفسك هذا للغلام ! فتركه عليه . (٢)

١٥ - وقال أبو الحسن : كان عِيدَانِ والد المتنبي يذكر أنه من جُعْفِيٍّ ، وكانت جَدَّةُ المتنبي هَمْدَانِيَّةً صحيحة النَّسَبِ لا أشك فيها ، وكان جارتنا ، وكانت من صلحاء الكوفيات . [المقرئى رقم : ٤] .

١٦ - قال التنوخيِّ ، قال أبي : فاتفق مجيء المتنبي بعد سنين إلى الأهواز منصرفاً من فارس ، فذاكرته بأبي الحسن ، فقال : تَرِنِي وصديقي وجاري بالكوفة ! وأطراه ووصفه . وسألت المتنبي عن نسبه ، فما اعترف لي به ، وقال : أنا رجل أُحْبِطُ

= ضريراً يتصدَّق ببغداد ، وادَّعى أنه حُسَيْنِي ، ثم ادعى بكلِّب أنه نبيُّ ، فأشرف على القتل . ثم استتابوه « ، ومن أول قوله : « كان أخوه ضريراً يتصدق » إلى آخر الكلام ، ليس من كلام أبي الحسن الزيدى العلوى بلا شك ، وهو زيادة من أخبار أخرى زادها الهمداني . وانظر ما سلف : ٦٠٩ ، تعليق : ٣ .

(١) في التاريخ : « فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة [فبعيد ! فقال : إن كنت حفظته] فما لي عليك » .

(٢) انظر ترجمة المقرئى الآتية رقم : ٣ .

القبائل وأطوى البوادي وَحَدِي ، ومتى انتسبت / لم آمن أن يأخذني بعض العرب
بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها ، وما دُمْتُ غير منتسبٍ إلى أحدٍ ، فأنا
أَسْلَمٌ على جميعهم ويخافون لساني . (١)

١٧ - قال : واجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضي أبي الحسن
ابن أمّ شيبان الهاشمي الكوفي ، وجرى ذكر المتنبى فقال : كنت أعرف أباه بالكوفة
شيخاً يسمى « عِيدَان » يَسْتَقِي على بعير له ، وكان « جُعْفِيًّا » صحيح النسب . (٢)
قال : وقد كان المتنبى لما خرج إلى كَلْب وأقام فيهم ، ادعى أنه عَلَوِيٌّ حَسَنِيٌّ ، (٣) ثم
ادّعى بعد ذلك النُبُوَّةَ ، ثم عاد يدّعي أنه علويٌّ ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب
في الدعويين ، وحُبس دهرًا طويلًا وأشرف على القتل ، ثم استُتِيبَ ، وأشهد عليه بالتوبة
وأطلق . (٤)

أنخبار ابن
أبي الجوع الوراق
٢٩

١٨ - قرأت بخط عبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الجوع
الوراق المصري : سألت أبا الطيب المتنبى أحمد بن الحسين بن الحسن / عن مولده
ومنشئه ، فقال : ولدتُ بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمئة في كِنْدَةَ ، ونشأتُ بها ، ودخلتُ
مدينة السلام ، ودرتُ الشام كلَّ سهله وجبيله .

(١) الخبران : ١٥ ، ١٦ سيأتيان في ترجمة المقرئ رقم : ٤ .

(٢) إلى هنا من الخبر في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ٥ .

(٣) انظر رقم : ١٤ ، والتعليق عليه ، وفيه عن أبي الحسن محمد بن يحيى الزيدي ، أنه ادعى أنه

« حُسَيْنِيٌّ » ، وهذا هو الصواب المحض .

(٤) سيأتي هذا الجزء من الخبر مختصراً في ترجمة المقرئ برقم : ٨ .

١٩ - أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر البغدادي في كتابه قال ، أخبرنا الرئيس أبو الحسن علي بن علي بن نصر بن سعيد البصري قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل قال ، أخبرنا علي بن أيوب بن الحسين بن الساريان قال : (١) ولد أبو الطيب أحمد / بن الحسين بن الحسن المتنبي بالكوفة في محلة كندة ، سنة ثلاث وثلاثمئة ، وقال الشعر وهو صبي في المكتب .

٢٥٧/٢

٢٠ - وقرأت في بعض النسخ من شعره أن مولده قيل على التقريب لا على التحقيق . (٢)

٢١ - وقرأت في تاريخ أبي عبد الله محمد بن علي العظيبي الحلبي ، (٣) وأخبرنا به المؤيد بن محمد الطوسي إجازة عنه : قيل إنه ولد - يعنى المتنبي - سنة إحدى وثلاثمئة ، والأول أصح والله أعلم .

٢٢ - أخبرنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الحموي ، قال : ذكر أبو الریحان محمد بن أحمد البيروني ، ونقلته من خطه : أن المتنبي لما ذكر في القصيدة التي أولها : « كُفِّي أَرَانِي وَيَكْ لَوْمَكِ الْوَمَا »

.... النور الذي تظاهر لاهوتيه في ممدوحه ، وقال :

« أَنَا مُبْصِرٌ وَأَظُنُّ أَنِّي حَالِمٌ »

ودار على الألسن ، قالوا : قد تجلّى لأبي الطيب ربّه ! وبهذا وقع في السجن = و« الوثاق » الذي ذكره في شعره :

(١) انظر ما سلف رقم : ٦ ، ص : ٥٨٤ .

(٢) الذي يقول : « قرأت » هو ابن العديم نفسه .

(٣) في المخطوطة « العظيبي » ، غير منقوطة الطاء ، وهو « محمد بن علي بن محمد بن أحمد ، أبو عبد الله التنوخي الحلبي ، المعروف بالعظيبي » ، وانظر ترجمته في الأعلام للزركلي ، والتعليق عليه ، وذكره ابن العديم في « تاريخ القدماء ، لأبي العلاء » ص : ٥١٢ وحدث عنه .

« أَيَا حَدَّدَ اللَّهُ وَرَدَّ الْخُدُودِ »

/ ولم يذكر سبب لقبه - على صدقه ، وإنما وَجَّه له وَجْهًا ما ، كما حكى عنه
 أبو الفتح عثمان بن جنى أن سببه هو قوله :
 أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ

وإنما هو أن الخيوط في رأسه كانت تُدِيرُهُ وتزعجه ، فتَحَيَّنَ غِيْبَةَ سيف الدولة
 في بعض غزواته ، وقصد أعراب الشام ، واستغوى مقدار ألف رجل منهم ، واتصل
 خبره بسيف الدولة ، فكَرَّرَ راجعاً وعاجله ، فتفرق عنه أصحابه ، وجرى به أسيراً ،
 فقال له : أنت النبي ؟ قال : بل أنا المتنبى ، حتى تطعموني وتسقوني ، فإذا فعلتم
 ذلك فأنا أحمد بن الحسين ! فأعجب بثبات جأشه وجرأته في جوابه ، وحقق دمه ،
 وألقاه في السجن بحمص ، إلى أن قرَّرَ عنده فضله ، فأطلقه واستخصَّه . ولما أكثروا
 ذكره بالمتنبى تلقب به كيلاً يصير ذمًّا إذا احتشم أُخْفِيَ عنه ، وشتماً لا يُشَافَهُ به ،
 واستمر الأمر على ما تولى التلقب به . (١)

• قلت (٢) : قول أبي الريحان إنه تحين غيبة سيف الدولة في بعض غزواته ،
 إلى آخر ما ذكره ، ليس بصحيح ، فإن أهل الشام وغيرهم من الرواة لم ينقلوا أن
 المتنبى ظهر منه شيء من ذلك في أيام سيف الدولة ومملكته بحلب والشام ، ولا أنه
 حبسه منذ اتصل به ، وإنما كان ذلك في أيام لؤلؤ الإخشيدى أمير حمص .

٢٥٩/٢

تابع أخبار
 الخطيب البغدادي

٢٣ - / (٣) أخبرنا أبو اليُمن زيد بن الحسن البغداديّ كتابةً قال ، أخبرنا
 أبو منصور بن زُرَيْقٍ قال ، أخبرنا أبو بكر الخطيب قال ، وأخبرنا علي بن المحسن

(١) في الأصل « التلقب به .

(٢) القائل هو ابن العديم ، في نقد هذا الخبر الغريب !!

(٣) هذه الأخبار من رقم : ٢٣ إلى آخر رقم : ٢٦ ، من تمام أخبار الخطيب في تاريخ بغداد ، والتي

ذكرها من رقم : ١٢ ، إلى رقم : ١٧ .

٣٠. التنوخي قال ، حدثنا أبي / قال ، حدثني أبو علي بن أبي حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون ، وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك ، أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية ، فقاتله وأسره وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهنراً طويلاً ، فاعتل وكاد أن يتلف ، حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ، ولا يعاود مثله ، وأطلقه .

قال : وكان قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن أنزل عليه ، وكانوا يحكون له سُوراً كثيرة ، نسخت منها سورة ضاعت وبقي أولها في حفظى وهو : « والنجم السيار ، والفلك الدَّوَّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، أمض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضل عن سبيله » . قال : وهي طويلة لم يبق في حفظى منها غير هذا . (١)

قال : وكان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ، ونحن إذ ذاك بحلب يُذكر له هذا القرآن وأمثاله مما كان يحكى عنه ، فينكره ويبحده .

٢٦٠/٢ / قال : وقال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة : لولا أن الآخر جاهل ، لما رضى أن يدعى بالمتنبي ، لأن « متنبي » معناه كاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال له : أنا لست أرضى أن ادعى بهذا ، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني ، ولست أقدر على الامتناع . (٢)

٢٤ - قال الخطيب ، قال لنا التنوخي ، قال لي أبي : فأما أنا فإني سألته بالأهواز في سنة أربع وخمسين وثلاثمئة عند اجتيازه بها إلى فارس ، وفي حديث طويل جرى

(١) هذا من الخبر ذكره المقرئ في ترجمته الآتية برقم : ١٠ ، مختصراً .

(٢) هذا الجزء من الخبر ، في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ١١ .

بيننا عن معنى « المتنبى » ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبى أم لا ؟ فأجابنى بجوابٍ مُعَالِطٍ لى ، وهو أن قال : هذا شيء كان فى الحداثة أوجبته الصورة : فَأَسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسْتَقْصَى عَلَيْهِ ، وَأَمْسَكْتُ . (١)

٢٥ - وقال لى أبو على بن أبى حامد ، قال لى أبى ونحن بحلب ، وقد سمع قوماً يحكون عن أبى الطيب المتنبى هذه السورة التى قدّمنا ذكرها : لولا جهله ، أين قوله : « أمض على سننك » إلى آخر الكلام من قول الله تعالى : (فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) ، [سورة الحجر : ٩٣ ، ٩٤] إلى آخر القصة ، وهل تتقاربُ الفصاحةُ فىهما أو يشتهبهُ الكلامان . (٢)

٢٦ - قرأت فى نسخة وقعت إلى من شعر أبى الطيب المتنبى ذكر فيها عند

قوله :

٢٦١/٢	خَفِيَّ عَنْكَ فِى الْهَيْجَا مَقَامِ نُحَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهْجِ الْجِسَامِ وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْجِمَامِ لَحَضْبِ شَعْرٍ مَفْرِقِهِ جُسَامِ وَلَا سَارَتْ وَفِي يَدِهَا زِمَامِ	/ أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ مُعَاذُ ، إِنِّى ذَكَرْتُ جَسِيمَ مَا طَلَّبِى وَأَنَا أَمْثَلِى تَأْخُذُ التَّكْبَاتُ مِنْهُ وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصًا وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِى ، / إِذَا أَمْتَلَأَتْ عَيُونَُ الْحَيْلِ مَنِّى ،
٣١	فَوَيْلٌ لِلتِّيْقِظِ وَالْمَنَامِ	

وقال ، قال أبو عبد الله مُعَاذُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ اللَّادِقِيُّ : قَدِمَ الْمُتَنَبِّىُّ اللَّادِقِيَّةَ فِى سَنَةِ

(١) سياتى هذا الخبر فى ترجمة المقرئى الآتية فى رقم : ٨ بغير هذه الألفاظ والتعليق عليه هناك ، ثم انظر

تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ، الأول : ١٤٩ [بيروت : ١٩٦١] .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقرئى الآتية برقم : ١٢ .

نَيْفٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثُمِئَةً ، وَهُوَ كَمَا عَدَّرَ ، (١) وَلَهُ وَفْرَةٌ إِلَى شَحْمَتِي أُذُنِهِ ، وَضَوْوَى إِلَى فَأَكْرَمْتُهُ وَعَظَّمْتُهُ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَحُسْنِ سَمْتِهِ . فَلَمَّا تَمَكَّنَ الْأَنْسُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَخَلَوْتُ مَعَهُ فِي الْمَنْزِلِ اغْتَنَامًا لِمَشَاهِدَتِهِ وَاقْتِبَاسًا مِنْ أَدَبِهِ ، وَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ ، قُلْتُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَابَّبٌ حَظِيرٌ ، تَصْلُحُ لِمُنَادِمَةِ مَلِكٍ كَبِيرٍ . فَقَالَ لِي : وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ أَنَا نَبِيُّ مُرْسَلٍ ! فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَهْزِلُ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنِّي لَمْ أَحْصِلْ عَلَيْهِ كَلِمَةً هَزَلٍ مِنْذُ عَرَفْتُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا تَقُولُ ؟ فَقَالَ : أَنَا نَبِيُّ مُرْسَلٍ . قُلْتُ لَهُ : مُرْسَلٌ إِلَى مَنْ ؟ قَالَ : إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ الْمُضَلَّةِ . قُلْتُ : تَفْعَلُ مَاذَا ؟ / قَالَ : أَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئْتُ جَوْرًا . قُلْتُ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِإِذْرَارِ الْأَرْزَاقِ وَالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ لِمَنْ أَطَاعَ وَأَتَى ، وَضَرْبِ الْأَعْنَاقِ وَقَطْعِ الْأَرْزَاقِ لِمَنْ عَصَى وَأَبَى . فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ أَخَافُ مِنْهُ عَلَيْكَ أَنْ يَظْهَرَ ! وَعَدَلْتُهُ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ ، قَالَ بَدِيهًا :

٢٦٢/٢

أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ مُعَاذُ ، إِنِّي خَفِيْتُ عَنْكَ فِي الْهَيْجَا مَقَامِي

الْأَبْيَاتِ ، فَقُلْتُ لَهُ (٢) : قَدْ ذَكَرْتَ أَنَّكَ نَبِيُّ مُرْسَلٌ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ أَفِيُوحَى إِلَيْكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : فَأَتَلْ عَلَيَّ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ إِلَيْكَ ! فَأَتَانِي بِكَلَامٍ مَا مَرَّ بِسَمْعِي أَحْسَنُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ : وَكَمْ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : مِئَةٌ عِبرَةٌ وَأَرْبَعٌ عَشْرَةَ عِبرَةٌ . قُلْتُ : وَكَمْ الْعِبرَةُ ؟ فَأَتَى بِمَقْدَارِ أَكْبَرِ الْآيِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ . قُلْتُ : فَأَسْمَعُ فِي هَذِهِ الْعِبرَةِ أَنَّ لَكَ طَاعَةً فِي السَّمَاءِ ، فَمَا هِيَ ؟ قَالَ : أَحْبِسُ الْمُدْرَارَ ، لِقَطْعِ أَرْزَاقِ الْعُصَاةِ وَالْفُجَّارِ . قُلْتُ : أَتُحْبِسُ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرَهَا ؟ قَالَ : إِي ، وَالَّذِي فَطَرَهَا ، أَفَمَا هِيَ مُعْجِزَةٌ ؟ قُلْتُ : بَلَى وَاللَّهِ . قَالَ : فَإِنْ حَبَسْتُ عَنْ مَكَانٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا تَشْكُ فِيهِ ، هَلْ تُؤْمِنُ بِي وَتُصَدِّقُنِي عَلَى مَا أَتَيْتُ بِهِ مِنْ رُبِّي ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ . قَالَ : سَأَفْعَلُ ،

(١) هكذا وردت هنا ، وفي المقرئ رقم ١٣ ، ولعل صوابها : « ولما يعذر » ، أي لم يثبت شعر عذاره ،

وهو شعر خده ولحيته . وانظر الخبر فيما سلف ص : ٢٠٠ ، وفيه ، « وهو لا عذار له » .

(٢) في الأصل : « لم ذكرت » ، وعلى « لم » علامة (ص) ليدل على الخطأ .

ولا تسألني عن شيء بعدها حتى آتيتك بهذه المعجزة ، ولا تُظهِرُ شيئاً من هذا الأمر حتى يَظْهَرَ ، وانتظر ما وَعِدْتُهُ من غير أن تسألَهُ . فقال لي بَعْدَ أَيامٍ : أتحبُّ أن تنظرَ إلى المعجزة التي جرى ذكرها ؟ قلت : / بلى والله . فقال لي : إذا أرسلتُ إليك أحدَ العبيد ٢٦٣/٢ فاركبْ مَعَهُ ولا تَأْخُرْ ، ولا يَخْرُجْ مَعَكَ أَحَدٌ . قلت : نعم . فلما كان بعد أيامٍ تَغَيَّمَتِ السماءُ في يومٍ من أَيامِ الشتاءِ ، وإذا عَبْدُهُ قد أقبل فقال : يقول لك مولاي ، أركبْ للوعدِ . فبادرتُ بالركوبِ معه ، وقلت : أين ركب مولاك ؟ فقال : إلى الصحراءِ ، ولم يخرجْ معه أَحَدٌ غيري = واشتدَّ وَقَعُ المَطَرِ ، فقال : بادِرْ بنا حتى نَسْتَكِينَ معه من هذا المَطَرِ ، فإنه ينتظرنا بأعلى تلٍّ لا يُصِيبُهُ فيه المَطَرُ . قلت : وكيف عَمِلَ ؟ قال : أقبلَ ينظُرُ إلى السماءِ / أول ما بدأ السحابُ الأسود وهو يتكلم بما لا أفهم ، ثم أخذَ السَّوْطَ ٣٢ فأدار به في موضعٍ سَتَنظُرُ إليه من التَّلِّ وَهُوَ يُهَمُّهُمْ ، والمطر ممَّا يليه ، ولا قطرةً منه عليه ! فبادرت معه حتى نظرتُ إليه ، وإذا هو على تلٍّ على نصف فرسخٍ من البلدِ ، فَأَتَيْتُهُ وإذا هو عليه قائمٌ ، ما عليه من ذلك المطر قطرةً واحدةً ، وقد خُضَّتْ في الماءِ إلى رُكْبَتِي الفرس ، والمطر في أشدِّ ما يكونُ . ونظرتُ إلى نحو مئتي ذراعٍ في مثلها من ذلك التَّلِّ يابسٌ ما فيه ندى ولا قطرةً مطر . فسَلَّمْتُ عليه ، فردَّ عَلَيَّ وقال لي : ما ترى ؟ فقلت : أبسطُ يدك ، فإني أشهدُ أنك رسولُ الله ! فبسطَ يده فبايعته بيعةَ الإقرار بنبوته ، ثم قال لي : ما قال هذا الخبيثُ لما دَعَا بِكَ ؟ - يعني عبده - فشرحت له ما قال لي في الطريق لما استخبرته ، فقتل العبدَ ، وقال :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ، أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌّ فِي هِمَّتِي ، كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

/ وأخذتُ بيَعته لأهلي ، ثم صَحَّ بعد ذلك أن البيعة عَمَّتْ كُلَّ مَدِينَةٍ بالشام ، ٢٦٤/٢ وذلك بأصغر حيلةٍ تَعَلَّمَهَا من بعض العرب ، وهي « صَدْحَةُ المَطَرِ » يَصْرِفُهَا بها عن أَيِّ مكانٍ أَحَبَّ بعد أن يَحْوِي عليه بعضاً ، وينفُثُ بالصدحة التي لهم ، وقد رأيتُ كثيراً

منهم بالسُّكُونِ ، وَحَضْرَمَوْتِ ، والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاضمونه ، حتى إن أَحَدَهُمْ يَصْدَحُ عَنْ غَنَمِهِ وَإِبْلِهِ وَبَقَرِهِ ، وعن القَرِيَةِ من القُرَى فلا يصيبها من المطر قطرة ، ويكون المطر مما يلي (الصَّدْحَةُ) = وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ السُّحْرِ ، ورأيت لهم من السُّحْرِ ما هو أعظم من هذا . وسألتُ المتنبى بعد ذلك : هل دخلت السُّكُونُ ؟ قال : نعم ، ووالدي منها ، أما سمعت قولي :

أُمْنَسِي السُّكُونِ وَحَضْرَمَوْتًا وَوَالِدَتِي وَكِنْدَةَ وَالسَّبِيْعَا

فقلت : مِنْ ثَمَّ اسْتِفَادَ مَا جَوَّزَهُ عَلَى طَعَامِ أَهْلِ الشَّامِ ! (١) وَجَرَتْ لَهُ أَشْيَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوبِ وَالْحَبْسِ ، وَالإِنْتِقَالِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، حَتَّى حَصَلَ عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَعَلَا شَأْنُهُ .

• قلت : و « الصَّدْحَةُ » التي أشار إلى أنها تمنع المطر معروفة إلى زماننا هذا . وأخبرني غير واحد ممن أثق به من أهل اليمن أنهم يصرفون المطر عن الإبل والغنم ، وعن زَرْعِ عُدُوِّهِ ، وَإِنْ رِعَاءَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ بِيَلَادِهِمْ يَسْتَعْمَلُونَ ذَلِكَ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السُّحْرِ .

٢٧ - وذكر أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن فُورَجَةَ في كتاب / « التَّجَنِّي » على ابن جِنِّي » قال : أَخْبَرَنِي أَبُو الْعَلَاءِ أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْمَعْرِيُّ ، عَمَّنْ أَخْبَرَهُ مِنَ الْكِتَابِ قَالَ : كُنْتُ بِالْأَبْيَانِ فِي بَعْضِ بِلَادِ الشَّامِ ، فَأَسْرَعَتِ الْمُدِيَّةُ فِي إِصْبَعِ بَعْضِ الْكِتَابِ وَهُوَ يَبْرِي قَلَمَهُ ، وَأَبُو الطَّيِّبِ حَاضِرٌ ، فَقَامَ إِلَيْهِ وَتَقَلَّ عَلَيْهِ وَأَمْسَكَهَا سَاعَةً بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَرْسَلَهَا وَقَدْ أَنْدَمَلَتْ بِدَمِهَا ، فَجَعَلَ يُعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُرِي مَنْ حَضَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ . (٢)

٢٦٥/٢

(١) هذا الخبر رقم : ٢٦ ، إلى هنا في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ١٣ .

(٢) هذا الخبر في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ١٤ ، وقد رواه المعري في رسالة الغفران : ٣٥٥ ، بغير هذا

قال : ومما كان يُمَحْرَقُ به على أبياتِ الباديةِ ، أنه كان مَشَاءً قَوِيًّا على السيرِ سِيراً
 لا غايةَ بَعْدَهُ ، وكان عارفاً / بالفَلَوَاتِ ومواقعِ المياهِ ومحالِّ العَرَبِ بها ، فكان يسيرُ من حِلَّةٍ ٣٣
 إلى حِلَّةٍ بالباديةِ في ليلةٍ ، وبينهما مسيرةُ ثلاثِ ، فيأتي ماءً ويغسلُ يديه ووجهه ورجلهُ ، ثم
 يأتي أهلَ تلكِ الحِلَّةِ فيخبرها عن الحِلَّةِ التي فارقتها ، ويُريهم أن الأرضَ طُوِيَتْ له . فلَمَّا
 عَلَتْ سِنُّهُ رَغِبَ عن ذلك وزَهَدَ فيه ، وأقْبَلَ على الشَّعرِ وقد وُسمَ بتلكِ السِّمَةِ .

٢٨ - أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر قال ، أخبرنا الرئيس
 أبو الحسن علي بن علي بن نصر بن سعيد قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن
 يحيى قال ، أخبرنا علي بن أيوب بن الحسين قال : أنشدنا أبو الطيب المتنبي لنفسه ،
 وكان قوم في صباحه وشَوْأُ به إلى السلطان / وتكذَّبوا عليه ، وقالوا له : قد آنقاد له خَلْقٌ من ٢٦٦/٢
 العَرَبِ ، وقد عزم على أخذِ بَلَدِكَ ! حتى أَوْحَشُوهُ منه ، فاعتقله وضيَّقَ عليه ، فكتب
 إليه يمدُّهُ :

أَيَا نَحَدَدَ اللَّهُ وَرَدَ الْخُدُودِ وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ
 فَهَنَّ أَسْلَنَ دَمًا مُقْلَتِي ، وَعَدَّ بِنَ قَلْبِي بِطُولِ الصُّدُودِ

قال فيها في ذكر الممدوح :

رَمَى حَلْبًا بِنَوَاصِي الْخَيُْولِ وَسُمِّرَ يُرْقِنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ
 وَيَبِيضُ مُسَافِرَةً مَا يُقْمَنَ ، لَأ فِي الرِّقَابِ وَلَا فِي الْعُمُودِ
 يَقْدَنُ الْفَنَاءَ غَدَاةَ اللَّقَاءِ إِلَى كُلِّ جَيْشٍ كَثِيرِ الْعِدِيدِ
 فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الْحَرَشِنِيُّ ، كَشَاءِ أَحْسَ بَزَارِ الْأَسُودِ
 يَرُونَ مِنَ الدُّعْرِ صَوْتَ الرِّيَاحِ صَهِيلَ الْجِيَادِ وَخَفَقَ الْبُنُودِ
 فَمَنْ كَالْأَمِيرِ ابْنَ بِنْتِ الْأَمِيرِ ، أَمْ مَنْ كَابَائِهِ وَالْجُدُودِ
 سَعَوْا لِلْمَعَالِي وَهُمْ صَبِيَّةٌ ، وَسَادُوا وَجَادُوا وَهُمْ فِي الْمُهُودِ

أَمَالِكُ رَقِي ، وَمَنْ شَأْنُهُ
دَعْوَتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ ،
دَعْوَتُكَ لَمَّا بَرَّانِي الْبَلَى ،
وَقَدْ كَانَ مَشِيهُمَا فِي النَّعَالِ ،
/ وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفَلِ ،
تُعْجَلُ فِيَّ وَجُوبُ الْحُدُودِ ،
وَقِيلَ عَدَوْتُ عَلَى الْعَالَمِينَ ،
فَمَا لَكَ تَقَبُّلُ زُورِ الْكَلَامِ ؟
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ ،
وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى « أَرَدْتُ »
وَفِي جُودِ كَفِّكَ مَا جُدْتُ لِي

هَبَاتُ اللَّجَيْنِ وَعَتَّقُ الْعَبِيدِ
وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
وَأَوْهَنْ رِجْلِي ثِقْلُ الْحَدِيدِ
فَقَدْ صَارَ مَشِيهُمَا فِي الْقِيُودِ
فَهَا أَنَا فِي مَحْفَلٍ مِنْ قُرُودِ
وَحَدَى قَبْلَ وَجُوبِ السُّجُودِ
بَيْنَ وِلَادِي وَبَيْنَ الْقَعُودِ !
وَقَدَّرُ الشَّهَادَةَ قَدَّرُ الشُّهُودِ
وَلَا تَعْبَانِ بِمَحَلِ الْيَهُودِ
وَدَعْوَى « فَعَلْتُ » بِشَأْوِ بَعِيدِ
بِنَفْسِي ، وَلَوْ كُنْتُ أَشَقَى ثُمُودِ

٢٦٧/٢

٢٩ - وذكر أبو منصور الثعالبي في اليتيمة عن ابن جني أنه قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لُقِّبْتُ بالمتنبي لقولي :

/ أنا في أمة ، تداركها الله ،
غريبٌ كصالحٍ في ثُمُودِ
مَا مُقَامِي بِدَارِ نَحْلَةٍ إِلَّا
كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

٣٤

٣٠ - أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال ، أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السَّمْعَانِي قال ، أنشدنا عمر بن محمد السَّرْحَسِيُّ قال ، أنشدنا الحسن بن علي الحافظ قال ، أنشدنا الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه قال ، أنشدنا المتنبي :

/ وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى
عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

٢٦٨/٢

٣١ - قال ، قيل للمتنبي : على مَنْ تَنَبَّأت ؟ قال : على الشعراء . فقيل : لكل نبي معجزةٌ ، فما معجزتك ؟ قال : هذا البيت . [المقرئى رقم : ١٥] .

٣٢ - وقرأت في رسالة عليّ بن منصور الحلبي المعروف بِدَوْحَلَةَ ، (١) وهي التي كتبها إلى أبي العلاء بن سليمان ، وأجابه عنها برسالة الغفران ، وذمّ فيها أبا الطيب المتنبي ، وقال : وذكر ابن أبي الأزهر والقَطْرُبَلِيُّ في التاريخ الذي اجتمعا على تصنيفه : أن الوزير علي بن عيسى أحضره إلى مجلسه فقال له : أنت أحمدُ المتنبي ؟ فقال : أنا أحمدُ النبي ، ولي علامةٌ في بطني ، خاتم النبوة . وأراهم شبيهاً بالسلعة على بطنه ، فأمر الوزير بصفه فَصُفِعَ وقيد ، وأمر بحبسه في المطبق . (٢)

• ثم طالعت التاريخ المشار إليه فقرأت فيه في حوادث سنة اثنتين وثلاثمئة قال : وفيها جلس الوزير علي بن عيسى للنظر في المظالم ، وأحضر مجلسه المتنبي ، وكان محبوساً ليخلى سبيله ، فناظره بحضرة القضاة والفقهاء فقال : أنا أحمد النبي ، ولي علامة في بطني خاتم النبوة ، وكشف عن بطنه وأراهم شبيهاً بالسلعة على بطنه ، فأمر الوزير بصفه فصفع مئة صفعة ، وضربه وقيده وأمر بحبسه في المطبق .

• فبان لي أن أبا الحسن عليّ بن منصور الحلبي ، رأى / في تاريخ ابن أبي الأزهر والقَطْرُبَلِيِّ ذَكَرَ أحمد المتنبي فظنّه أبا الطيب أحمد بن الحسين ، فوقع في الغلط الفاحش لجهله بالتاريخ ، فإن هذه الواقعة المذكورة في هذا التاريخ في سنة اثنتين وثلاثمئة ، ولم يكن المتنبي وُلِدَ بَعْدُ ، فإن مولده على الصحيح في سنة ثلاثٍ وثلاثمئة ، وقيل إن مولده

(١) نشرت هذه الرسالة الدكتورة بنت الشاطيء في أول الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وهذا الجزء

الآتي هو في ص : ٢٥ ، ٢٦ ، ولكن بغير هذا اللفظ الذي هنا .

(٢) سيأتى هذا الخبر في ترجمة المقرئى رقم : ٩ .

سنة إحدى وثلاثمئة ، فيكون له من العمر سنة واحدة = وأبو محمد عبد الله بن الحسين الكاتب القطريلي ، ومحمد بن أبي الأزهر ماتا جميعاً قبل أن يتعرع المتنبي ويعرف .
[المقرئ رقم : ٩] .

وهذا المتنبي الذي أحضره علي بن عيسى هو رجل من أهل أصبهان تنبأ في أيام المقتدر يقال له : أحمد بن عبد الرحيم الأصبهاني ، ووجدتُ ذكره هكذا منسوباً في كتاب عبيد الله بن أحمد بن طاهر الذي ذيل به كتاب أبيه في تاريخ بغداد .

٣٣ - أخبرني ياقوت بن عبد الله الحموي قال : وقع لي كتاب مصنف في

٣٥ أخبار أبي الطيب صغير الحجم تصنيف الأستاذ / أبي القاسم عبيد الله بن عبد الرحيم الأصبهاني ، (١) وذكر فيه ادعائه النبوة وقال فيه : وقد هجاه الشعراء بذلك ، فقال الضبُّ الضريُّ الشاميّ فيه :

أطللت ، يا أيها الشقي ، دمك / لا رحم الله روح من رحمك
أقسمت لو أقسم الأمير علي / قتلك قتل العشار ما ظلمك

٢٧٠/٢

ويروى « قبل العشاء » ، فأجابه المتنبي فقال :

إيهأ أتاك الحمام فأخترمك / غير سفيه عليك من شتمك
همك في أمرٍ ثقل في / عين دواة من صلبه قلمك
وهمتي في آتضاء ذى شطب / أقد يوماً بحده أدمك
فأحسأ كليباً وأقعد على ذنب ، / وأطل بما بين ألتيك فمك

(١) هكذا جاء اسمه هنا وفي ترجمته عند ابن عساكر الآتية برقم : ٣ ، أما في خزنة الأدب فقال : « أبو

القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني » ، وكذلك أيضاً في كتابه الذي نشر في تونس سنة ١٩٥٥ باسم « الواضح في مشكلات شعر المتنبي » . ورواية ابن العديم من كتاب الأصفهاني أتم وأوضح من الموجود في كتابه المطبوع باسم « الواضح » في هذا الخبر ، والذي بعده . وهذا دال على أن المطبوع مختصر اختصاراً مخلاً في بعض الأحيان ، وهو في المطبوع ص : ٧ ، مع اختلاف .

قال : وهجاه شاعر آخر فقال ، وقيل هو الضَّبُّ أيضاً :

قد صَحَّ شِعْرُكَ وَالنُّبُوَّةُ لَمْ تَصِحَّ والقولُ بالصُّدُقِ الميِّنِ يَتَضَحُّ
الزَّمْ مَقَالَ الشُّعْرِ تَحْظُ بِرُبِّيَّةِ وعن التَّنْبِيِّ لا أباكَ فَانْتَرِحْ
تَرَبِّحُ دَمًا قَدْ كُنْتَ تُوجِبُ سَفْكَهُ ، إن الممتع بالحياة لَمَنْ رَبِحْ

فأجابه بأبيات وهي :

نارُ الدَّرَايَةِ من لِسَانِي تُقْتَدَحُ يَغْدُو عَلَيَّ مِنَ النَّهْيِ ما لَمْ تُرِخْ
بَحْرٌ لو اغْتَرِفَتْ لُطَامَةٌ مَوْجِهِ بالأرضِ والسَّبْعِ الطَّبَاقِ ما تُرِحْ
أمرى إِلَيَّ ، فإن سَمَحْتُ بِمَهْجَةٍ كَرُمْتُ عَلَيَّ ، فإن مِثْلِي من سَمَحْ

...

٣٤ - / أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن رَوَاحَةَ ٢٧١/٢

الحموي ، وأبو يعقوب يوسف بن محمود السَّوَي الصُّوفِي ، قالا ، أخبرنا أبو طاهر أحمد ابن محمد بن أحمد السُّلْفِي إجازةً ، إن لم يكن سماعاً ، قال ، سمعت أبا عبد الله الحسين ابن علي بن همام الحُسَيْنِي الطالِقَانِي ببغداد يقول : هجا أبو عبد الله بن الحجاج أبا الطيب المتنبي لما دخل بغدادَ بمقطعاتٍ ، منها :

يا دِيْمَةَ الصَّفْعِ هُبِّي ، عَلَيَّ قَفَا المَتَنَّبِي
ويا قَفَاهُ تَقَدَّمْ ، تعالِ وَأَجْلِسْ بِجَنبِي
ويا يَدِي فَاصْفَعِيهِ بالنَّعْلِ حَتَّى تَدْبِي
إن كان هذا نبيُّ ، فالقِرْدُ لا شك ربي (١)

فلما بلغ أبا الطيب قال :

عَارِضَنِي كَلْبُ بَنِي دَارِمٍ ، فَصُنْتُ مِنْهُ الْوَجْهَ وَالْعَرِضَا
وَلَمْ أَكَلِّمَهُ احْتِقَارًا بِهِ ، مَنْ ذَا يَعِضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَا
كَذَا رَوَاهُ السَّلْفِيُّ « هُبِّي » ، وَالْمَحْفُوظُ « صَبِي » .

٣٥ - وقال لي ياقوت الحموي : وذكر الأستاذ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الرحيم الأصبهاني في أخبار أبي الطيب ، (١) قال : وقد تعلق قوم / ممن يتعصب على المتنبي ، فانترع من شعره أبياتاً زعم أنها تدل على فساد اعتقاد ، وقد جعل لها من يتعصب له وجهاً ، منها :

هَوْنٌ عَلَى بَصْرِ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ ، فَإِنَّمَا يَقْضَاثُ الْعَيْنِ كَالْحُلْمِ

٣٦ / قالوا : هذا البيت من اعتقاد السوفسطائية ، وقوله في أخرى :

تَمَتَّعَ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمَلُ كَرَى تَحْتَ الرَّجَامِ
فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ مَعْنَى سَوَى مَعْنَى أَنْتَبَاهُكَ وَالْمَنَامِ

قالوا : فهذا ينسب عن اعتقاد الحشيشية ، وقوله في أخرى :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ : تَسَلَّمَ نَفْسُ الْمَرْءِ بَاقِيَةً ، وَقِيلَ : تَشْرَكَ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ

قالوا : فهذا مذهب من يقول بالنفس الناطقة ، وقوله في عَضُدِ الدَّوْلَةِ :

نَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا ، فَمَا بَالُنَا نَعَاؤُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبَخَّلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ ، وَهَذِهِ الْأَجْسَادُ مِنْ تُرْبِهِ

(١) انظر التعليق السلف ص : ٦٠٠ : تعليق : ١ وهو في المطبوع ص : ٧ ، ٨ مع اختلاف ، والاختصار

فهذا مذهب الهوائية وأصحاب الفضاء ، وقوله في ابن العميد :

يُعَلِّلْنَا هَذَا الزَّمَانُ بِذَا الوَعْدِ وَيَخْدَعُ عَمَّا فِي يَدَيْهِ مِنَ التَّقْدِ
فَإِنْ يَكُنِ المَهْدِيُّ مَنْ بَانَ هَدْيُهُ فَهَذَا ، وَإِلَّا فَالْهُدَى ذَا فَمَا المَهْدَى !

/ قالوا فهذا مذهب أهل النجوم .

٢٧٢/٢

٣٦ - وقال لي ياقوت الحموي : نقلت من خط أبي الرِّيحان محمد بن أحمد

البيروني في رسالة له سماها « التعلُّل بإجابة الوهم ، في معاني نظوم أولى الفضل » ، قال في أثناء كلامٍ ذكره : ثم إن لي من أخلاقهم - يعني الشعراء - أسوة حسنة ومَسَلَاة أكيدة ، بإمام الشعراء الذي طرَّق لهم ولمن بعده إلى طريقته المخترعة في الشعر ، وخلفهم من معاني كلامه في بروق تخطف أبصارهم وبصائرهم « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا » ، أبي الطيب المتنبي ، حتى إن أفاضل أهل زماننا كأحمد بن فارس يحسده على ما آتاه الله من فضله ويقول : إنه مبخوت ، وإلَّا (قال لي ياقوت : كذا رأيت مبيضا بخطه) ويقول : سألت أبا الفضل بن العميد عن معنى قوله :

وَقَاوُكُمَا كَالرَّبِيعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ

فأجابني بأن المتنبي خرج من الدنيا بعد ستين سنة عاشها ، ولم يكن وقف على

معناه !

وكان أبو الطيب ، على ضيق عَطْنِهِ ، رفيع الهممة في صناعته ، فاقترصر لها في رحلته بمدح عضد الدولة ووزيره آبن العميد ، وراوده الصاحبُ إسماعيلُ بن عبَّاد على التزاورِ رغبةً في مديحه ، فأبى الانحطاط إلى الكتَّبة ، وهذا ما حمَّله على الخوض في مساوي شعره ، وليس يترفع عن حلِّه ونثره في أثناء / كتابته ، ومشاركة الحاتمي في إدامة حلِّ نظمه في رسائله ، بعد مقالته التي عملها فيه محرِّضاً عليه ومُتَنَادِراً به كنوادِر الخنثين = كما حمل

٢٧٤/٢

٣٧ مثله أبا محمد المهلبى مُسْتَوَزَّرَ بختيار بن معز الدولة على إغراء سفهاء بغداد عليه ،
ومعاملته بالسخف الذى أعرض بوجهه عنه وعنهم ، ولم يزد / فى الجواب على الحسأ ،
ترفعاً وتنزهاً واكتفاءً من مهاجاتهم ، على ما فى خلال شعره من مثله قوله :

أَفْضِلُ النَّاسَ أَغْرَاضٌ لِدَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وذكر أبياتاً مثله ، وقال : ثم ما يُدْرِينِي هل كان فى سبب الفتك به من الأعرابى
نُبذَ من ذلك الإغراء ، (١) فالقائل بالشر غير مبالٍ أيضاً بفعله ، وخاصةً عند استماع
ما كان حِطَى به لدى المقصودين من القبول والإقبال ، حتى إنه قال عند دخوله إلى
شيراز : أنا لا أنشد مائلاً ! فأمر عَضُدُ الدولة بكرسى له ، فلما دَخَلَ ورآه ، أنشده
قائماً ، فأمره بالجلوس فأبى وقال : هَيْبَتِكَ تمنع عن ذلك ! فوقع قوله وفعله منه أحسن
المواقع . (٢) وكان المهلبى مع بختياره ينكر أن عَضُدَ الدَّوْلَةِ فعل ذلك ، (٣) حَقّاً
وجهاً بالقدر .

قال : ومما يغيظنى حقاً ، قوم مُتَّسِمُونَ بالفضل يكابرون عقولهم فى أمره ،
/ ويرتكبون فى إطفاء نوره ، (٤) كشمس المعالى قابوس ، فقد كان يقول : ليس للمتنبى
فى ديوانه ما يسوى استماعاً إلا أربعة أبيات ، ثم لم يكن يتدىء من ذات نفسه بالإشارة
إليها ، وكان سوء خلقه يمنعنى من سؤاله عنها = وكأبى الفتح البُستى فى قوله :

سُعِلْتُ عَنِ الْمُتَنَّبِيِّ فَقُلْتُ مَقَالَ آمْرِئٍ [مُنْصِيفٍ] لَيْسَ يَغْلُو (٥)
لَهُ فِي مَوَاضِعَ فَصْلِ الْخِطَابِ ، وَسَائِرُ مَا قَالَهُ فَهُوَ فَسَلُ

(١) هذا هو نفس ما ذهبت إليه فى مقتل أبى الطيب استظهاراً من الشعر والأخبار ، لا من نص منقول .

انظر ما سلف ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) سيأتى خير عضد الدولة ، عند المقرئى فى ترجمته برقم : ١٩ .

(٣) فى الأصل : « يناكر أن عضد الدولة » .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعله « ويرتكبون الإثم فى إطفاء نوره » ، كما يدل عليه آخر الخبر .

(٥) ما بين القوسين : زيادة منى ، ليقوم وزن البيت ، والشعر ليس فى ديوان البستى المطبوع قديماً ، ولا فى

قال : ولو كان قلبه فقال : إن مواضع منه فسئل ، وسائر ما قاله فصل خطاب ،
لكان أبعد عن الإثم ، وأقرب إلى الصدق والصواب .

٣٧ - وذكر ابن الصائبي في كتاب الوزراء : أن ابن العميد كان يجلس المتنبي
في دسسته ، ويقعد بين يديه فيقرأ عليه الجمهرة لابن دريد ، لأن المتنبي كان يحفظها عن
ظهر قلب .

٣٨ - وقرأت في بعض مطالعاني أن المتنبي لما اجتاز بالرملة ومدح طاهر بن
الحسن بن طاهر بن يحيى العلوي ، أجلسه طاهر في الدست ، وجلس بين يديه حتى
فرغ من مدحته .

٣٩ - / وقرأت في كتاب « نزهة عيون المشتاقين » لأبي الغنيم الرندي ، قال : ٢٧٦/٢
حدثني جماعة أن المتنبي لما مدح طاهر بن الحسن بن طاهر أجازة ألف دينار .

• قلت : والقصيدة التي مدحه بها هي القصيدة البائية التي أولها :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَّ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ ، وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَّ لَحْظَ الْحَبَائِبِ

٤٠ - وقال ابن فورجة في كتاب « التجني على ابن جني » : حدثني الشيخ
أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه بأصبهان ، وكان تربية ابن العميد ونديمه ،
قال : حضرت مجلس ابن العميد بأرجان وقد دخل عليه أبو الطيب ، وكان يستعرض
سيوفاً ، فلما بصُر بأبي الطيب نَهَضَ من مجلسه وأجلسه في دسسته ، ثم قال لأبي الطيب :
اختر سيفاً من هذه السيوف . فاختار منها واحداً ثقیلاً الحلي ، واختار ابن العميد آخر
غيره ، فقال كل منهما : سيفي الذي اخترته أجود ! ثم اصطلحا على أن يجرباهما ، فقال
ابن العميد : فماذا / نجربهما ؟ فقال أبو الطيب : في الدنانير ، فيؤتى بها فينضد بعضها

على بعض ، ثم تُضْرَبُ به ، فإن قَدَّها فهو قاطع . فاستدعى ابن العميد بعشرين ديناراً ،
فُضِدَتْ ، ثم ضربها أبو الطيب فقَدَّها وتفرقت في المجلس ، فقام من مجلسه المفخَّم
يلتقط الدنانير المتبددة في كُمَّه ، فقال ابن / العميد : ليلزم الشيخ مجلسه ، فإنَّ أحدَ
الخدَّام يلتقطها ويأتيه بها . فقال : بل صاحبُ الحاجة أولى بها !

قال ابن فُورَجَة : وكان رجلاً ذا هيئة ، مُرَّ النفس ، شجاعاً ، حُفَظَةً للآداب ،
عفيفاً ، وكان يشين ذلك كُلَّهُ بِيُخْلِهِ .

٤١ - قرأت على ظهر نسخة قديمة من شعر المتنبي ما صورته : وحكى أبو
بكر الخُوَارِزْمِيُّ أن المتنبي كان قاعداً تحت قول الشاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللُّومِ شَاعِرٌ يُلُومُ عَلَى الْبُخْلِ الرَّجَالَ وَيَبْخُلُ

وإنما أعرب عن طريقته وعادته بقوله :

وُقُوفٌ شَحِيحٌ ضَاعَ فِي التُّرْبِ حَائِمُهُ

قال : فحضرت عنده يوماً وقد أُحْضِرَ مَالٌ ، فَصُبَّ بين يديه من صلات سيف
الدولة على حصيرٍ قد افترشه ، فَوَزِنَ وأعيد في الكيس ، وتخلَّلت قطعة كأصغر ما تكون
بخلال الحصير ، فأكبَّ عليه بمجامعه يعالج لاستنقاذها منه ، وبشتغل عن جلسائه ،
حتى توصل إلى إظهارِ بعضها ، وأنشد قول قيس بن الخطيم :

تبدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ بَيْنَ غَمَامَةٍ ، بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبٍ (١)

/ ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها ، وقال : إنها تُحْضَرُ المائدة . (٢)

(١) في هامش الأصل : « المعروف : تحت غمامة » .

(٢) انظر هذا الخبر في ترجمة ابن عساكر الآتية رقم : ٢٤ .

٤٢ - أنبأنا أحمد بن زاهر بن عبد الوهَّاب البغدادي في كتابه ، عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري قال ، أخبرنا أبو غالب بن بشران إجازةً قال ، أخبرنا محمد بن نصر الكاتب = قلت : ونقلته من خطه ببغداد = قال ، حدثني أبو الفرج عبد الواحد بن نصر البَغَاء ، قال : كان أبو الطيب المتنبي يَأْسُ بِي ويشكو عندي سيفَ الدولة ، ويأْمُنُنِي على غَيْبَتِهِ له ، وكانت الحال بيني وبينه صافيةً عامرةً دون باقي الشعراء ، وكان سيفُ الدولة يَغْتَاطُ من عظمتِهِ وتعاطيهِ ، ^(١) ويجفو عليه إذا كلمه ، والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ويتغاضى في بعضها .

قال : وأذكر ليلةً ، وقد استَدَعَى سيفُ الدولة بَدْرَةَ فشَقَّها بسكين الدواة ، فمدَّ أبو عبد الله بن خَالَوَيْهِ النَّحْوِيُّ جانبَ طَيْلَسَانِهِ ، وكان صُوفاً أزرق ، فحثا فيه سيفُ الدَّولةِ صالحاً ، ومددتُ ذَيْلَ دُرَاعَتِي ، وكانت دِيْبِاجاً ، فحشيتُ لِي فِيهَا ، ^(٢) وأبو الطيب حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا أو يطلب شيئاً منها ، فما فعل ، فغاضه ذلك ، فنثرها كلها ، فلما رأى أنها قد فائتته ، زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيفُ الدولة ، فداسوه وركبوه ، وصارت عمامته وطُرْطُورِهِ في حلقة ، واستحى ، ومضت به ليلةً عظيمة ، / وانصرف ، فخاطب أبو عبد الله بن خَالَوَيْهِ ٢٧٩/٢ / سيفُ الدولة في ذلك ، فقال : من يتعاضم تلك العظمة ، يَتَضَعُ إلى مثل هذ المنزلة ، ٣٩ لولا حماقته !

٤٣ - ومما يحكى من بخله وشُحِّه ما قرأته في تاريخ أبي غالب همام بن الفضل ابن المهذَّب المعري - سِيَرِهِ إلى بعض الشُّرَافِ بَحْلَبَ - قال : وكان سيفُ الدولة قد أقطعهُ - يعنى المتنبي - ضيعةً تعرف بِبِصْفٍ ، من ضياع معرّة النعمان القبلية ، فكان

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها « تعاليه » أو « تعاضمه » .

(٢) هكذا هنا ، ولعله « فحشا لى » كالأولى .

يتردد إليها ، وكان يوصف بالبخل ، فَمِمَّا ذَكَرَ عَنْهُ مَا حَدَّثُوهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَصَّافٍ أَنْ كَلَبًا مِنْ كِلَابِ الضَّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِصَهْيَانٍ ، كَانَ يَطْرُقُ تَيْنَ بَصَّافٍ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَبِي الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِيِّ ، فَقَالَ لِلنَّاطُورِ : إِذَا جَاءَ الْكَلْبُ فَعَرَّفْنِي بِهِ . فَلَمَّا جَاءَ عَرَّفَهُ ، فَقَالَ : شُدُّوا عَلَى الْحِصَانِ . وَخَرَجَ إِلَيْهِ فَطَرَدَهُ أَمِيالًا ، ثُمَّ عَادَ لَا يَعْقُلُ مِنَ التَّعَبِ ، وَقَدْ عَرِقَ فَرَسِهِ ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُ بَصَّافٍ : يَا أَسْتَازَ ، كَيْفَ جَرَى أَمْرُ الْكَلْبِ ؟ فَقَالَ : كَأَنَّهُ كَانَ فَارِسًا مَرَّةً ! إِنْ جِئْتَهُ بِالطَّعْنَةِ عَنِ الْيَمِينِ عَادَ إِلَى الشَّمَالِ ، وَإِنْ جِئْتَهُ مِنَ الشَّمَالِ عَادَ إِلَى الْيَمِينِ .

٤٤ - قال أبو [غالب] همام المعريّ : وحدثنا عنه أن أبا البهاء بن عديّ ، شيخ رَفَنِيَّةَ ، كان صديقاً له ، فنزل عنده بِبَصَّافٍ ، فسمعوه وهو يقول له : يا أبا البهاء ، أوجز في أكلك ، فإن الشمعة تتوى . (١)

وسمعه يحاسب وكيلاً له وهو يقول : والحبتان ما فعلتا ؟ - يعني فضةً .

٤٥ - / أخبرني ياقوت بن عبد الله مولى الحمويّ قال : قرأت في أخبار المتنبي تصنيف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الرحيم الأصبهانيّ قال ، وأخبرني أبو الحسن الطرائفي ببغداد أنه قال : (٢) رأيت المتنبي وقد مدح رجلاً بقوله :

انصُرْ بِجُودِكَ الْفَاطَا تَرَكْتُ بِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ مَنْ عَادَاكَ مَكْبُوتَا
فَقَدْ نَظَرْتُكَ حَتَّى حَانَ مُرْتَحَلٌ وَذَا الْوَدَاعُ ، فَكُنْ أَهْلًا لِمَا شِيتَا

فأعطى دون الخمسة دراهم وقبلها . (٣)

(١) توى (من باب سمع) يتوى : أى هلك وذهب ضياعاً ، والزيادة بين القوسين استظهار من الخبر

السالف .

(٢) انظر هذا الخبر وما بعده في كتاب « الواضح ... » للأصفهاني ، ص : ٩ ، ١٠ .

(٣) هذا الخبر سيأتي مبتوراً في ترجمة المقرئى برقم : ١٩ .

٤٦ - قال : وأخبرني الطرائفي ، قال ، حدثني المتنبى قال : أول يوم وصلتُ بالشُّعر إلى ما أردته ، أني كنت بدمشق ، فمدحت أحد بني طُغج بقصيدتي التي أولها :

أيا لَأَيْمَى إِنْ كُنْتَ وَقْتَ اللُّوَائِمِ عِلِمَتْ بِمَا بِي يَبِينُ تِلْكَ المَعَالِمِ

فأثابني الممدوح بمئة دينار ، ثم أبيضت أيامي بعدها .

٤٧ - قال أبو القاسم بن عبد الرَّحِيم (١) : واتصل بعد هذا بأبي العشائر

الحسين بن علي بن الحسين بن حَمْدَانَ ، وَتَفَقَّ عليه نفاقاً تاماً ، فأجرى ذكره / عند ٢٨١/٢
سيف الدولة أبي الحسن علي بن حَمْدَانَ ، فأمر بإحضاره عنده ، فاشتطَّ المتنبى عليه ، واشترط أن ينشده جالساً ، وأن لا يُكَلِّف تقبيل الأرض بين يديه ، فأجابه إلى ذلك ، وأنشده ، فصادف من سيف الدولة رجلاً قد غُدِيَ بالعلم وحُشِيَ بالفهم ، فأعجبه شعره ، واستخلصه لنفسه ، وأجزل عطائه ، وأكرم مثواه ، ووصله بصلات كثيرة ، وسلمه إلى الرُّوَّاض فعلموه الفروسية ، وصحب سيف الدولة في عدة غزوات إلى بلد الروم ، منها « غزوة الفناء » / التي لم ينج منها إلا سيف الدولة بنفسه ، وأخذت عليه الروم ٤٠ الطريق ، فجردَّ السيف وحمل على العسكر وخرق الصفوف ونجا بنفسه .

٤٨ - قرأت بخط محمد بن علي بن نصر الكاتب من كتابه الموسوم

بالمفاوضة ، وأخبرنا به أبو حفص عُمَر بن محمد بن معمر بن طرزد وغيره ، إجازة عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، قال ، أنبأنا أبو غالب بن بشران قال ، أخبرنا ابن نصر قال ، حدثني أبو القاسم الرُّقِّي المنجَّم عن سيف الدولة : أنه انهزم في بعض السنين ، وقد حُلِّلت الصناديق عن بغاله في بعض دروب الروم ، وأنها ملأت الدروب ، وكان على فرس له يعرف بالثُرَيَّا ، وأنه حرَّك عليها نحو الفرسخ حتى نزل ، ولم يعثر ولم

(١) هذا الخبر غير موجود في كتاب « الواضح » للأصفهاني ، فالمطبوع مختصر .

يتلعثم ، وأخبرني أنه بقي في هذه السفرة في تسعة أنفس أحدهم المتنبى ، وأنه كان يحدث أبا عبد الله بن خَالَوَيْهِ النحويّ حديث الهزيمة ، وأن المتنبى كان يجرى بفرسه ، فَأَعْتَلَقْتُ بعمامته طاقةً من الشجر المعروف بأَمِّ غَيْلان ، فكلما جرى الفرس انتشرت / العمامة ، ٢٨٢/٢ وتخيّل المتنبى أنه قد ظفّر به ، فكان يصيح : الأمان يا عِلْج ! قال : فهتفتُ به وقلت : أيُّما عِلْج ؟! هذه شجرة قد عُلِقْتُ بعمامتك ! فودّ أن الأرض ساخت به وما سمعته يقول ذلك . فقال ابن خَالَوَيْهِ : أيها الأمير ، أفليس قام معك حتى بقي في تسعة أنفس ! تكفيه هذه الفضيلة !

٤٩ - وقرأت في مجموع بخطّ بعض الفضلاء : أنه لما فعل ذلك ، لحقه سيفُ الدولة وضحك منه وقال له : يا أبا الطيب ، أين قولك :

الحَيْلُ واللَّيْلُ واليِّدَاءُ تُعْرِفُنِي وَالطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

ولم يزل يضحك منه بقية يومه في مُنْهَزَمِهِ .

٥٠ - أنبأنا أبو الحسن علي بن أبي عبد الله بن المقير ، عن أبي علي الحسن بن جعفر بن المتوكل البغداديّ ، ونقلته من خطه ، قال ، حدثني الشيخ الإمام الفصيحُ وقت قراءتي عليه ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ، وهو ابن عيدان السقاء ، قال : قدم بعض الأشراف من الكوفة فدخل إلى مجلسٍ فيه المتنبى ، فنهض الناس كلهم له سوى المتنبى ، فجعل كل واحد من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدد هناك ، فقال له المتنبى : يا شريف ، كيف تحلّفت الأسعار بالكوفة ؟ فقال : كل راوية برطلين خبز . (١) / فأحجله . وقصد الشريف أن يعرض بأن أباه كان سقّاء . (٢)

٢٨٣/٢

(١) « الراوية » : قرية السقّاء .

(٢) الخبر في ترجمة المقرئ برقم : ٢٤ ، ثم انظر ما سيأتي رقم : ٦٨ ، ٨١ .

٥١ - ذكر ابن فورجة في «التجني على ابن جني» وقال: وأما محله - يعني المتنبي - في العلم فقال الحسن بن علي بن الحلاب: سمعته يقول: من أراد أن يُعرب علي بيتاً لا أعرفه فليفعل. قال: وهذه دعوى عظيمة، ولا ريب أنه صادق فيها.

٥١ م - وأخبرت عن أبي العلاء بن سليمان المعري أنه كان يسمي المتنبي: «الشاعر»، ويسمي غيره من الشعراء باسمه، / وكان يقول: ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها. (١)

٥٢ - وقرأت في بعض كلام أبي العلاء: قد علم أن أحمد بن الحسين كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام، يغير الكلمة بعد أن تُروى عنه، ويفر من الضرورة وإن جلب إليها الوزن.

٥٣ - سمعت شيخنا ضياء الدين الحسن بن عمرو الموصلي المعروف بأبي دهن الحصا، يقول: كان أبو العلاء المعري يعظم المتنبي ويقول: إياي عنى بقوله: أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

٥٤ - أنبأنا أحمد بن أزهر بن عبد الوهاب السبكي قال، أخبرنا / أبو بكر ٢٨٤/٢ محمد بن عبد الباقي الأنصاري إجازة، عن أبي علي التنوخي قال، حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الصقر الكاتب = رجل من أهل مغلثايا، (٢) وممن نشأ بالموصل، وكان أبوه عاملاً لسيف الدولة على أنطاكية، وهو من أهل الأدب = قال: جرى ذكر أبي الطيب المتنبي بين يدي أبي العباس النامي المصيصي، فقال لي النامي: كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي! قال، وقال لي في هذا المجلس: كنت أشتهي أن أكون قد

(١) في الأصل: «أن يفرم عنها».

(٢) هكذا ضبطت في أصل ابن العديم، وضبطها ياقوت بفتح الميم وسكون العين وفتح اللام.

سبقته إلى معنيين قالمها ، ما سبق إليهما ، ولا أعلم أن أحداً (اخترعهما) قبله . (١)
فقلت : ما هما ؟ قال : أما أحدهما فقلوه :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُوَادِي فِي غِشَاءِ مِنْ نِيَالٍ
والآخر قوله :

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونَ غِبَارَهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْآذَانِ (٢)

٥٥ - أخبرني ياقوت بن عبد الله الحموي قال ، (٣) حكى لي بعض الفضلاء

في المذاكرة ، قال : لما ورد المتنبي إلى شيراز مادحاً لعضد الدولة ، كان يجتاز على مجلس
أبي علي ، وقد اجتمع إليه أعيان أهل العلم ، وكان زياً المتنبي زياً عجيباً ، يلبس طُرُوراً
طويلاً وقباً ، ويعمل له عذبة طويلة تشبهاً بالأعراب ، فكان أبو علي يستثقله ويكره زيه ،
ويجد في نفسه نفوراً منه ، وكان إذا / اجتاز عليهم يقول أبو علي لتلاميذه : إذا سلم
عليكم فأوجزوا في الرد ، لئلا يستأنس فيجلس إلينا . وكان أبو الفتح عثمان بن جني
يُعجب بشعره ويحب سماعه ، ولا يقدر على مراجعة شيخه فيه ، فقال أبو علي يوماً : هاتوا
بيتاً تعربونه . فابتدر أبو الفتح فأنشد للمتنبي :

حُلَّتِ دُونَ الْمَزَارِ ، فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْتُ لِحَالِ النَّحُولِ دُونَ الْعِنَاقِ

فقال أبو علي : أعد أعد ! فأعاده ، فقال : ويحك ، لمن هذا الشعر ، فإنه غريب

المعنى ؟ قال : هو للذي يقول :

أَمْضَى إِرَادَتَهُ فَسَوْفَ لَهُ قَدْ وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى فَنَّمَّ لَهُ هُنَا

(١) في الأصل : « أخير عنهما قبله » .

(٢) الخبر مختصراً في ترجمة المقرئ برقم : ٢٥ .

(٣) انظر ترجمة ابن عساكر التالية رقم : ٢٦ .

قال : فازداد أبو عليّ عجباً وقال : ما أعجب هذه المعاني وأغربها ! مَنْ / قائلها ؟ ٤٢

قال : الذى يقول :

وَوَضَعَ النَّدى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَى مُضِرٌّ ، كَوَضَعَ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدى

قال : فاستخفّ أبا عليّ الطربُ ، وقال : ويحك ! من قائل هذا ؟ قال : الذى

يقول . قال : = ونسى البيت الذى أنشده = قال : فقال أبو عليّ : أحسن والله ، وأطلت

أنت ، من يكون هذا ؟ قال : هو صاحب الطُّرطور الذى يمرُّ بك فتستثقله ولا تحبُّ

محاضرتَه . قال : ويحك ! أهداك يقول هذا؟! فقال : نعم . قال أبو عليّ : والله ما ظننت

أن ذلك يأتى بخير أبداً ، إذا كان / فى الغد ومرّ بنا فاسألوه أن يجلس إلينا لنسمع منه ، ٢٨٦/٢

فلما كان فى الغد ومرّ بهم ، كلموه وسألوه النزول عندهم ، ففعل ، واستنشده أبو عليّ ،

فملاً صدره وأحبه ، وعجب منه ومن فصاحته وسعة علمه ، فكلم عَضُدَ الدَّولة فيه حتى

أحسن إليه وضاعف جائزته .

• قلت : وهذه الحكاية لا يقبلها القلب ولا تكاد تثبت ، فإن أبا عليّ الفارسيّ

كان يعرف المتنبي قبل أن يصيرَ بشيراز حين كانا بحلب ، وقد حكى أبو الفتح عثمان بن

جنّى ، عن أبى عليّ الفارسيّ فى كتاب « الفَسْرِ » ، ما يشهد بخلاف ما تضمنته الحكاية

= قال أبو عليّ : خرجت بحلب أريد دار سيف الدولة ، فلما برزتُ من السُّور إذا أنا

بفارس متلثمٌ قد أهوى نحوى برمح طويل ، فكدتُ أطرحُ نفسى من الدابة فرقاً ، فلماً

قُرب منى ثنى السنانَ وحسّر لثامه ، فإذا المتنبي ، وأنشدنى :

نَثَرْتُ رُووساً بِالْأَحْيَدِ مِنْهُمْ كَمَا نُثِرْتُ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

ثم قال : كيف ترى هذا القول ؟ أحسنُّ هو ؟ فقلت : ويحك قتلتنى يا رجل ! قال

ابن جنّى : فحكيت هذه الحكاية بمدينة السلام لأبى الطيب ، فعرفها وضحك لها ،

وذكر أبا عليّ بالثناء والتقريض بما يقال فى مثله .

٥٦ - وجرى للمتنبي مع ابن خالويته مثل هذه الواقعة التي حكاها أبو علي ،
 فإنني نقلت من خطّ أبي الحسن علي بن مُرشد بن علي بن مقلد بن / نصر بن منقذ ٢٨٧/٢
 الكنانى المالكى ، من كتابه الموسوم « بالبداية والنهاية » فى التاريخ قال فيه : حدثنى أبى
 قال ، حدثنى = ويبيّض ، ولم يذكر من حدّث أباه = قال ، حدثنى ابن خالويته ، وكان
 نديماً ومجالساً لسيف الدولة ، قال : خرجت فى بعض الأيام إلى ظاهر حلب ، فقعدت
 أطالع فى كتاب وأنظر إلى قُوَيْقٍ ، فما رفعت رأسى إلا من وقع فرس ، فنظرت فإذا بفارس
 مسدّد نحوى رحمه ، فقلت : والله ما أعرف بينى وبين أحد من الناس ما يوجب هذا !
 ورأيت الفارس متلثماً ، فلما دنا حطّ لثامه ، فإذا بأحمد بن الحسين المتنبي ، فسلمّ علىّ
 ، فرددت السلام وجاريتته الحديث ، فقال : كيف رأيت قصيدتى التى أنشدتها أول أمسِ
 الأمير سيف الدولة ؟ فقلت : والله إنها لمليحةٌ ، وإن أولها لا يحتاج إلى تمام فى قولك :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ

وفيهما كذا وكذا . فقال : ما رأيت إلا مليحاً ؟ والذى فيه ما سبقنى إليه مَنْ
 ٤٣ أحسنَ فيه من ذكر « الدراهم » ، فإنها / لا تأتى فى شعرٍ إلا بَرَدَتَهُ وَضَعَفَتَهُ ،
 إلا ما جاءنى :

نَثَرْتُهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَدِ نَثْرَةَ كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

٥٧ - أخبرنى أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن عليّ إذناً ، عن أبى الفتح
 محمد بن عبد الباقي البطي ، عن أبى نصر الحميدى قال ، أخبرنا غرسُ النُّعْمَةِ محمد بن
 هلال بن المُحَسِّن بن أبى إسحق الصّائى قال ، وحدثنى ، / رضى الله عنه = يعنى أباه ٢٨٨/٢
 هلال بن المُحَسِّن = قال ، حدثنى أبو إسحق جدّى ، تجاوز الله عنه ، قال : لما ورد أبو

الطيب أحمد بن الحسين المتنبى إلى بغداد متوجّهاً إلى حضرة الملك عَضُد الدَّوْلَة بفارس ، أعدّه له أبو محمد عشرة آلاف درهم وثياباً كثيرة ، مقطوعة وصباحاً ، وفرساً بمَرَكَبٍ ، ليعطيه ذلك عند مَدِيحِهِ له ، فَأَخَّرَ المتنبى من ذلك ما كان متوقّعاً منه ، وحضر مجلس أُنِي محمد للسلام عليه الذى لم يخلط به غيره ، فغاظ أبا محمد فِعْلُهُ ، وخاطبَتُ المتنبى على استعماله ما استعمل ، وتأخيره من خدمة الوزير ما أَخَّرَ ، فقال : لم تَجْرِ عادتي بمدح مَنْ لم يتقدّم له إلّى جميل . فقلت : إن الوزير شديد الشّعْفِ بموردك ، معتقداً فيك الزيادة بك على أَمَلِكْ ، والامتناعُ من خدمته إلا بعد الاستسلاف لصلته غير مُسْتَحْسَنٍ منك ، بل مستقبَحٌ لك ! فقال : ليس إلى مخالفة عادتي سبيل ! واتّصل ذلك بأبى محمد من غير جهتى ، فأكد غيظه وأظهر الإقلال به والاطّراح له ، وفرّق ما كان أعدّه على الشعراء ، وزادهم مُدَّةَ مُقام أبى الطيب من الإحسان والعطاء . وتوجّه أبو الطيب إلى شيراز ، ثم عاد منها ، فكانت وفاته فى الطريق بين دير العاقول ومدينة السلام ، على ما شُرح فى أخباره . وقد كان أبو محمّد اعتقد أن يَقْطَعَهُ بالفعال الجميل والحباء الجزيل عن قصد شيراز ، فلما جرى أمره على ما جرى تغيّرت نيّته ، واستحالت تلك العزيمة منه .

• قلت : وهذا الوزير أبو محمد ، هو المُهَلَّبِيّ .

٥٨ - قال ، وحدثنى قال ، حدثنى أبو علىّ والدى قال ، حدثنى / أبو ٢٨٩/٢

إسحاق جدّى قال : راسلت أبا الطيب المتنبى فى أن يمدحنى بقصيدتين ، وأعطيته خمسة آلاف درهم ، ووسّطت بينى وبينه صديقاً له ولى ، فأعاد الجواب بأننى ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا من أوجب علىّ حقاً سواك ، وإن أنا مدحتك تنكّر لك الوزير أبو محمّد المهلبىّ ، لأننى لم أمدحه ، وجرى بيننا فى ذلك

ما قد عرفته ، فإن كنت لا تُراعى هذه الحال ولا تبالِها فعلتُ ، ولم أُرِدْ منك عِوَضاً من مالٍ . قال : فنبهني والله إلى ما كان ذهب عني ، وعلمت أنه نصحني ، فلم أعاوده . (١)

.....
.....
.....
.....

(١) في هامش المخطوطة عند آخر هذا الخبر ما نصه : « بلغ ، بدر الدين عبد الواحد » ، أى بلغت من مراجعة النسخة عند هذا الموضع . وفي المخطوطة بعد هذا خرم مقداره ورقة واحدة ، هي الورقة : ٤٤ ، أشرنا إليه بهذه النقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقى

٥٩ / - وذكر على بن عيسى الرَّبَعِيُّ في كتاب « التنبيه » الذى رَدَّ فيه على ابن ٢٩٠/٢ جنى في كتاب « الفَسْر » ، قال : كنت يوماً عند المتنبى بشيراز ، فقبل له : أبو علىِّ الفارسىِّ بالباب ، وكانت بينهما مودة ، فقال : بادروا إليه فأنزله ! فدخل عليه أبو علىِّ وأنا جالس عنده فقال : يا أبا الحسن ، خذ هذا الجزء = وأعطاني جزءاً من كتاب « التذكرة » ، وقال : اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذاكرتُك بهما ، وهما :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّشْمُوا مُرْدُ
تُقَالُ إِذَا لَاقُوا ، خِفَافٌ إِذَا دُعُوا ، كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا ، قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا

فهما مثبتان في التذكرة بخطى . قال : وهذا من فعل الشيخ أبى علىِّ الفارسىِّ

عظيم . (١)

قال الرَّبَعِيُّ : وكان قَصْدُ أبى علىِّ الفارسىِّ نَفْعُهُ ، لا التَأْدِبَ وَالتَّكْثُرَ ، وَأَيًّا قَصَدَ

فهو كثير .

٦٠ - قرأتُ بِخَطِّ يحيى بن سلامَةَ بن الحسين بن محمد الحَصْنَكْفِيِّ في تعليقي

/ له : حكى أن السَّرِيَّ الرَّفَاءَ حين قصد سيفَ الدَّوْلَةِ بن حمدان ، رحمه الله ، أنشده ٢٩١/٢

بديهاً بيتين ، هما :

إِنِّي رَأَيْتَكَ جَالِسًا فِي مَجْلِسٍ قَعَدَ الْمُلُوكُ بِهِ لَدَيْكَ وَقَامُوا
فَكَانَكَ الدَّهْرُ الْمُحِيطُ عَلَيْهِمْ وَكَانَهُمْ مِنْ حَوْلِكَ الْيَوْمَ

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قال فيه من الشعر ، وبعد يومين أو ثلاثة أنشده أبو الطيب المتنبي :

أَيَذْرَى الدَّمْعُ أَيَّ دَمٍ أَرَاقًا

إلى أن انتهى إلى قوله :

وَحَصْرٍ تَثُبُّ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقًا

قال : فقال السري : هذا والله معني ما قدر عليه المتقدمون ! ثم إنه حُم في الحال وتحامل إلى منزله ، فمات بعد ثلاثة أيام .

● قلت : هكذا وجدته بخط الحَصَكْفِي ، والمتنبي فارق سيف الدولة في سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، والسري توفي بعد سنة ستين وثلاثمئة ببغداد - على ما نقله الخطيب في تاريخه - وقيل سنة اثنتين وستين وثلاثمئة ، فعلى هذا لا يكون لهذه الحكاية صحة . وقد نقل أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب السقطي في تاريخه المسمى « بلوابع الأمور » : أن السري توفي سنة أربع وأربعين وثلاثمئة ، فعلى هذا تكون هذه الحكاية محتملة الصحة ، بشرط / أن يكون موت السري بالشام ، ولم ينقل ذلك ، كيف ؟ وهو أن هذه القصيدة من أول شعر أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة ، والله أعلم . ٢٩٢/٢

٦١ - أخبرنا ياقوت بن عبد الله الحموي قال : وحدث أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي أن الصاحب إسماعيل بن عبّاد قال بأصبهان ، وهو يومئذ على الإنشاء : بلغني أن هذا الرجل ، يعنى المتنبي ، قد نزل بأرجان متوجّهاً إلى ابن العميد ، ولكن إن جاءني خرجت إليه من جميع / ما أملكه ! وكان جميع ما يملكه لا يبلغ ثلاثمئة دينار ، فكنا نعجب من بُعد همته وسمو نفسه . وبلغ ذلك المتنبي ، فلم يعرج عليه ولا التفت إليه ، فحقدتها الصاحب حتى حملة على إظهار عيوبه في كتاب ألفه لم يصنع فيه شيئاً ، لأنه أخذ عليه مواضع تحمّل فيها عليه . ٤٦

٦٢ - أخبرني بعض أهل الأدب قال : وجدت في كتاب بعض الفضلاء ،
عن أبي القاسم عبد الصمد بن بابك قال ، قال أبو الفتح بن جني : كنت أقرأ ديوان
أبي الطيب عليه ، فقرأت قوله في كافور :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ

حتى بلغت إلى قوله :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدةً ولا أشتكى فيها ولا أتعتبُ
/ وبى ما يذود الشعر عنى أقله ولكن قلبي يا آبنة القوم قلبُ

٢٩٣/٢

فقلت له : يعز علي ، كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ؟
فقال : حذرناه وأذرناه فما نفع ، ألسنتُ القائل فيه :

أنا الجود ، أعطيت الناس ما أنت مالك ، ولا تُعطينن الناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني لكافور ، بسوء تدبيره وقلة تمييزه . (١)

٦٣ - وأحضر إلي عماد الدين أبو القاسم علي بن القاسم بن علي بن الحسن
الدمشقي ، وقد قدم علينا حلب في رحلته إلى خراسان ، جزءاً فيه أخبار سيف الدولة بن
حمدان ، تأليف أبي الحسن علي بن الحسين الديلمى الرزاد فنقلت منه : « وكان لسيف
الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته ، وكان يحضره أبو إبراهيم ، وابن
مائل القاضي ، وأبو طالب البغدادي وغيرهم ، فوقع بين المتنبي وبين أبي عبد الله الحسين
ابن خالويه كلام ، فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه ففتحه ،
وخرج دمه يسيل على ثيابه ، وغضب فمضى إلى مصر ، فامتدح كافوراً الإخشيدى » .

٦٤ - أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد القاضي ، عن أبي الحسن علي

(١) الخير في ترجمة ابن عساكر رقم : ١٤ ، وفي ترجمة المقرئ الآتية برقم : ٢٦ .

٢٩٤/٢ ابن أحمد بن منصور الغسائي ، وأبي الحسن علي بن المسلم السلمي قالا ، / أخبرنا أبو نصر بن طلاب قال ، أملى علينا أبو عبد الله المحسن بن علي بن كوجك ، وأخبرنا أن أباه حدثه قال : كنت بحضرة سيف الدولة ، وأبو الطيب اللغوي ، والمتنبي ، وأبو عبد الله بن خالويه ، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي ، والمتنبي ساكت ، فقال له الأمير سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ! فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغوي ، وأضعف قول ابن خالويه ، فحرد منه ، وأخرج من كومه مفتاح حديد لبيته ، ليلكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : اسكت ويحك ! فإنك عجمي ، وأصلك حوزي ، وصنعتك الحياكة ، فما لك وللعربية !

٦٥ - ودفع إلى بعض الشراف من أهل حلب كتاباً فيه تاريخ جمعه أبو غالب همّام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري ، قال في حوادث سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة : وفيها وصل أبو الطيب المتنبي الشاعر إلى سيف الدولة ، ومدحه بالقصيدة الميمية :

وَقَاوُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمَةٌ

بعد انصرافه من حصن برزويه . وقال في حوادث سنة ست وأربعين وثلاثمئة : فيها سار المتنبي من الشام إلى مصر .

٦٦ - ووقع إلى أجزاء من تاريخ مختار الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المُسَبَّحِي ، فقرأت فيه قصيدة لأبي الطيب يرثي بها أبا بكر ابن طغج / الإخشيد ، ويعزى ابنه أونوجور بمصر ، في سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة . (١) والقصيدة ليست في ٤٧ / ديوان شعره ، فقد كان أبو الطيب صعد إلى مصر مرة أخرى قبل هذه المرة التي ذكرناها ، (٢) وأول القصيدة :

(١) هذا خبر مهم لما فيه من تحديد التاريخ . وانظر ما سلف رقم : ٤ ، والمقرزي رقم : ١٧ .

(٢) انظر ما سلف رقم : ٤ ، ص : ٥٨٣ .

هُوَ الزَّمَانُ مُشِيتٌ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بَدَعَا
 إِنْ شِيتَ مُتٌ أَسْفَاءً، أَوْ فَايَبَ مُصْطَبِرًا، قَدْ حَلَّ مَا كُنْتَ تَحْشَاهُ وَقَدْ وَقَعَا
 لَوْ كَانَ مُمْتَبِعٌ تُغْنِيهِ مَنَعْتُهُ لَمْ يَصْنَعْ الدَّهْرُ بِالْإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا
 وهي طويلة .

٦٧ - وقرأت في كتاب أبي القاسم يحيى بن علي الحضرمي الذي ذيل به تاريخ أبي سعيد بن يونس،^(١) وذكر فيه من دخل مصر من الغرباء فقال: أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الشاعر، أبو الطيب، يعرف بالمتنبي، رحل من مصر سرًا من السلطان ليلة النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجه الأستاذ كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق .

٦٨ - أنشدنا علي بن أحمد الماذرائي قال: كتب إلي أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي في حاجة كانت له إلي بالرملة:

٢٩٦/٢

/ إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالَّذِي زَانَ الْإِمَامَةَ بِالْوَصِيِّ
 وَأَبَانَ فِي يَوْمِ الْعَدِيدِ رِ لِكُلِّ جَبَّارٍ غَوِي
 فَضَّلَ الْإِمَامَ عَلَيْهِمُو بَوْلَايَةَ الرَّبِّ الْعَلِيِّ
 إِلَّا قَصَدْتَ لِحَاجَتِي وَأَعَنْتَ عَبْدَكَ يَا عَلِي

قال: وكان يتشيع، وقيل: كان ملحدًا، والله أعلم. (٢)

• قلت: وسنذكر في ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر حكاية عن الخالديين، تدل على أن المتنبي كان مخالفًا للشيعة. (٣)

(١) هو المؤرخ الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري، صاحب تاريخ مصر، وتوفي سنة ٣٤٧ هـ.

(٢) هذه حكاية غريبة، وشعرها أغرب منها!!

(٣) وانظر ما سيأتي رقم: ٨١، وما سلف رقم: ٥٠.

٦٩ - أنبأنا أبو اليُمن الكندي ، عن الشيخ أبي منصور مؤهوب بن أحمد بن الجوالقي قال ، قال علي بن حمزة البصريُّ صاحب أبي الطيب المتنبي ، أو غيره ممن صحب المتنبي - شك فيه أبو منصور - قال : بلوت من أبي الطيب ثلاثَ خلالٍ محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لأط ، وبلوت منه ثلاثَ خلالٍ ذميمة كلُّ الذم ، وتلك أنه ما صام ولا صلَّى ولا قرأ القرآن ، عفا الله عنا وعنه آمين .

٧٠ - وذكر ابن فورجة في كتاب « التجنى على ابن جنى » ، عن أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، عن رجل من أهل الشام كان / يتوكل لأبي الطيب في داره ، يعرف بأبي سعد = قال : وبقي إلى عهدنا = قال : دعاني أبو الطيب يوماً ونحن بحلب ، أظنه قال : ولم أكن عرفت منه الميل إلى اللهو مع النساء ولا الغلمان ، فقال لي : رأيت الغلام ذا الأصداع الجالس إلى حانوت كذا من السوق ؟ = وكان غلاماً وسيماً فحاشاً فيما هو بسبيله = فقلت : نعم ، وأعرفه . فقال : أمض فأتني به ، واتخذ دعوة وأنفق وأكثر . فقلت : ولم قدر ما أنفقه ؟ فلم يزدني على قوله : « أنفق وأكثر » ، وكنت أستطلع رأيه في جميع ما أنفق ، فمضيت واتخذت له ثلاثة ألوان من الأطعمة ، وصحفاتٍ من الحلوى ، واستدعيت الغلام فأجاب ، وأنا متعجب من جميع ما أسمع منه ، إذ لم تجر له عادة بمثله ، فعاد من / دار سيف الدولة آخر النهار وقد حضر الغلام ، وفرغ من اتخاذ الطعام ، فقال : قدّم ما يؤكل ، وواكل ضيفك ! فقدّمتُ الطعام فأكلا وأنا ثالثهما ، ثم أجنّ الليل ، فقدّمت شمعة ومرفع دفاتره ، وكانت تلك عادته كل ليلة ، فقال : أحضِرْ لضيفك شراباً واقعد إلى جانبه فنادمه . ففعلت ما أمرني به ، كل ذلك وعينه إلى الدفتر يدرُس ولا يلتفت إلينا إلا في الحين بعد الحين ، فما شربنا إلا قليلاً حتى قال : افرش لضيفك وافرش لنفسك وبتْ ثالثنا . ولم أكن قبل ذلك أبايته في بيته ، ففعلت ، وهو يدرس حتى مضى من الليل أكثره ، ثم أوى إلى فراشه ونام . فلما أصبحنا قلت له : ما يصنع الضيف ؟ فقال : آحبه وأصرفه . فقلت له : ولم أعطيه ؟ فأطرق ساعة ثم قال : أنطه ثلاثمئة درهم . فتعجبت من ذلك ، ثم جسّرت نفسي فدنوت إليه وقلت :

٢٩٧/٢

٤٨

إنه / ممن يُجيب بالشيء اليسير ! وأنت ، فلم تنل منه حظاً ! فقطّب ثم قال : أتظنني من ٢٩٨/٢ هؤلاء الفسقة ؟ أنطه ثلاثمئة درهم ولينصرف راشداً . قال : ففعلت ما أمرني به وصرفته . قال : وهذا من بديع أخباره ، ولولا قوة إسناده لما صدقت به .

٧١ - أنبأنا أبو الحسن بن المقير ، عن أبي الفتح بن البطي ، عن أبي نصر الحميدي قال ، أخبرني غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن أبي إسحاق الصّالي قال ، وحدثني رضى الله عنه = يعنى والده هلال بن المحسن = قال ، حدث الرضوي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي قال ، حدثني أبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف حكار قال : لما وصل أبو الطيب المتنبي إلى حضرة عضد الدولة في أول مجلس شاهده فيه ، قال لى عضد الدولة : أخرج واستوقفه واسأله : كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم في نفسه منّا ؟ قال : فأمثلت ما أمرني به ، ولحقته وجلست معه وحادثته وطاولته ، وأطلت معه في المعنى الذى ذكرته ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال : ما خدّمت عيناى قلبى كاليوم ! فجاء بالجواب موزوناً ، واستوفى القول فى اختصار من اللفظ . (١)

٧٢ - قرأت فى مجموع صالح بن إبراهيم بن رشدين بخطه : قال لى أبو نصر ابن غياث التصرائي الكاتب : اعتل أبو الطيب المتنبي بمصر العلة التى وصّف الحمى فى أبياته من القصيدة الميمية ، فكنت أوصل عيادته / وقضاء حقه فيها ، فلما توجه إلى الصلاح وأبل ، أغببت زيارته ثقة بصلاحه ، ولشغل قطعنى عنه ، فكتب إلى : « وصلّتنى ، وصلك الله ، مُعتلاً ، وقطعتنى مُبلاً ، فإن رأيت أن لا تحبب العلة إلى ، ولا تكدر الصحة على ، فعلت إن شاء الله » . (٢)

(١) الخبر فى ترجمة ابن عساكر الآتية برقم : ٢٠ ، وفى ترجمة المقرئ الآتية برقم : ١٨ .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقرئ الآتية برقم : ٢٧ .

٧٣ - ونقلت من هذا المجموع بخطه : ذكر لي أبو العباس بن الحوت

الوراق - رحمه الله (١) : أن أبا الطيب المتنبي أنشده لنفسه هذين البيتين :

تُضَاخِكَ مِنَّا دَهْرُنَا لِعِبَا بِنَا وَعَلِمْنَا التَّمْوِيَةَ لَوْ نَتَعَلَّمُ
شَرِيفٌ زُغَاوِيٌّ ، وَزَانٍ مُدَكَّرٌ ، وَأَعْمَشُ كَحَّالٌ ، وَأَعْمَى مُنَجَّمٌ (٢)

٧٤ - أنشدنا أبو حفص عمر بن علي بن قشام الحلبي قراءة عليه بها ، قال ،

أنشدنا الحافظ أبو بكر محمد بن علي بن ياسر الجياني الحافظ قال ، أنشدني أبو القاسم
زاهر بن طاهر قال ، أخبرنا أبو الحسين البهيري ، قال أنشدنا محمد بن الحسين بن
موسى السلمي قال ، أنشدني محمد بن الحسين البغدادي قال ، أنشدني المتنبي :

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ وَعَيْدٌ لِمَنْ سَمَى وَضَحَى وَعَيْدًا
فَذَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كَانَ أَوْحَدًا

٧٥ - / أخبرني الشيخ الصالح أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان

٣٠٠/٢

الأسدئي قال ، أخبرنا محمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الخطيب قال ،
أخبرنا أبو بكر محمد بن منصور بن محمد السمعاني قال ، سمعتُ الشيخ أبا الحسن علي
ابن أحمد المدني قال ، سمعتُ أبا عبد الرحمن السلمي قال ، سمعتُ السيد أبا الحسين
محمد بن أبي / إسماعيل العلوي يقول : دخل المتنبي على الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد
ابن الحسين وبين يديه مجامر من آسٍ ونرجس ، قد أخفى فيها مواضع النار ، لا ترى
النار وتشم رائحة النَّد ، فقال : يا أبا الطيب ، قل فيه شيئاً ! فأنشأ يقول :

٤٩

(١) انظر ما سلف رقم : ٦ ، ص : ٥٨٥ ، تعليق : ١ .

(٢) هذا الخبر في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ٢٩ . « زغاوي (بفتح الزاي وضمها) منسوب إلى

« زغاوة » ، وهي قبيلة من السودان ، فلذلك تعجب المتنبي . وانظر ما سيأتي في المقرئ : ٢٩ .

أحبُّ الذي حَبَّتِ الأنفُسُ وأطيبُ ما شَمَّهُ المَعطِسُ
 ونَشَرَّ من التَّدِّ ، لَكِنَّهُ مَجَامِرُهُ الآسُ والنَّرَجَسُ
 ولَسْتُ أرى وَهَجاً هَاجَهُ ، فَهَلْ هَاجَهُ عِرْكَ الأَقْعَسُ
 وإنَّ الفِئَامَ التي حَوَّلَهُ لَتَحْسُدُ أَقْدَامَهَا الأَرُوسُ (١)

٧٦ - أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر البغدادي في كتابه

قال ، أخبرنا الرئيس أبو الحسن علي بن علي بن نصر بن سعيد البصري قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل قال ، أخبرنا علي بن أيوب بن الحسين بن الساريان قال : وخرج ، يعني المتنبى ، من شيراز / لثمان خلون من شعبان قاصداً إلى ٣٠١/٢ بغداد ثم الكوفة ، حتى إذا بلغ دَيْرَ العاقول وخرج منه قَدْرَ ميلين ، خرج عليه فرسانٌ ورجالة من بنى أسد وشيبان ، فقاتلهم مع غلامين من غلمانه ساعةً وقتلوه ، وقُتِلَ معه أحد الغلامين وهرب الآخر ، وأخذوا جميع ما كان معه ، وتبعهم ابنه المحسّد طلباً لكتيب أبيه ، فقتلوه أيضاً . وذلك كله يوم الاثنين لثمانٍ بقين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة .

٧٧ - أنبأنا زيد بن الحسن الكندي قال ، أخبرنا أبو منصور بن زريق قال ،

أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب قال : خرج المتنبى إلى فارس من بغداد فمدح عَضُدَ الدولة ، وأقام عنده مدةً مديدة ، ثم رجع يريد بغداد ، فقتل في الطريق بالقرب من النعمانية ، في شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . (٢)

٧٨ - وقرأت في تاريخ أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني : لما هرب المتنبى

(١) في الأصل : « الذي حوله » ، والفئام : الجماعات .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٤ : ١٠٥ .

الشاعر من مصرَ وصارَ إلى الكوفة فأقام بها ، وصار إلى ابن العميد فمدحه ، فقبل إنه صار إليه منه ثلاثون ألف دينار ، وقال له : تمضى إلى عضد الدولة ! فمضى من عنده إليه فمدحه ووصله بثلاثين ألف دينار ، وفارقه على أن يمضى إلى الكوفة ، يحمل عياله ويحى معهم إليه ، وسار حتى وصل إلى النعمانية ، بإزاء قرية تقرب منها يقول لها « بُنُورَى » ، (١) فوجد أثر خيلٍ هناك ، فَتَنَسَّمَ خبرها ، فإذا خيل قد كمنت له فصادفته لأنه قصدتها ، فَطَعِنَ طَعْنَةً نُكِّسَ عن / فرسه ، فلما سقط إلى الأرض نزلوا فاحتزُّوا رأسه ذبحاً ، وأخذوا ما كان معه من المال وغيره ، وكان مذهبه أن يحمل ماله معه أين توجه ، وقُتِلَ ابنه معه ، وغلّامٌ من جملة خمسة غلّمة كانوا معه ، وأن الغلام المقتول قاتل حتى قتل ، وكان قَتْلُ المتنبي يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة .

• قال الفرغاني : وحُدِّثَ أنه لما نزل المنزل الذي رحل منه فقتل ، جاءه قوم خفراء فطلبوا منه / درهماً ليسيروا معه ، فمنعه الشُّحَّ والكِبْر ، فأندروا به ، فكان من أمره ما كان .

وقيل بأنهم لما طلبوا منه الخِفَارَةَ اعتذر في ذلك ، إذ قال لهم : لا أُكذِّبُ نفسى في قولى :

يُذِمُّ لِمُهَجَّتِي سَيْفِي وَرُمَحِي

ففارقوه على سخطٍ وأندروا به ، وكان من أمره ما كان .

٧٩ - وقرأت في جُذَادَةِ طِرْسٍ مطروح في النسخة التي وقعت إلى سماعٍ جَدِّ

(١) انظر ما سيأتى في المقرئى رقم : ٢١ ، والتعليق عليه ، وما سيأتى هنا رقم : ٨١ .

جَدُّ أَبِي ، القاضي أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة من شعر المتنبي ، (١) على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبي ، وفيها مكتوب بغير خط النسخة : « المتنبي أبو الطيب ، أحمد بن الحسين ، عاد من / شيراز من عند فناخسرو وابن العميد وزيره بأموال جزيلة ، فلما صار بالصافية من أرض واسط ، وقع به جماعة من بنى أسد وغيرهم ، فقتلوه وخمس غلمان (كذا) كانوا معه وولده ، وسلبوا المال ، وذلك في شوال من سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، وكان المتولَّى لقتله رجل منهم يقال له فاتك بن أبي جهل ، وهو ابن خالة ضببة الذي هجاه المتنبي . وكان على شاطيء دجلة . (٢) »

٨٠ - وسمعت والدي رحمه الله يقول لي : بلغني أن المتنبي لما خرج عليه قُطَاع الطريق ومع آبنه وغلمانه ، أراد أن ينهزم ، فقال له ابنه : يا أبه : وأين قولك ؟ :
 الحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ
 فقال له : قتلتنى يا ابن اللحناء ، ثم ثبت وقاتل حتى قُتِل .

٨١ - سِيرَ إِلَى الشَّرِيفِ الْأَجَلِّ الْعَالِمِ تَاجِ الشَّرَفِ ، شَرَفُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيِّ الْحُسَيْنِيِّ ، جَزَاءً بِمَخْطِهِ فِي مَقْتَلِ أَبِي الطَّيِّبِ كَتَبَ فِيهِ مَا نَقَلْتَهُ ، وَصُورْتَهُ : « نَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ هَاشِمِ الْخَالِدِيِّ أَحَدِ الْخَالِدِيِّينَ فِي آخِرِ النُّسخَةِ الَّتِي بِمَخْطِهِ مِنْ شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ مَا هَذِهِ صُورْتَهُ :

(١) ابن العديم ، كاتب هذه الترجمة هو : « عمر بن أبي الحسن أحمد بن أبي غانم هبة الله بن محمد بن هبة الله ابن القاضي أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة » .

(٢) هذا الخبر مذكور في ترجمة المقرئ الآتية برقم : ٢٠ .

« ذكر مقتله »

٣٠٤/٢ / « كنا كتبنا إلى أبي نصر محمد بن المبارك الجبلي نسأله شرح ذلك ، وهذا الرجل من وجوه التَّنَاءِ بهذه الناحية ، (١) وله أدب وحرمة ، فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فيه : (٢)

« وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب المتنبي رحمه الله ، فأنا أنسقه لكما وأشرحه شرحاً بيّناً :

أعلما أنّ مسيره كان من واسط في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة وقُتِلَ بِيَزْعَ ، (٣) ضيعة بقرب من دير العاقول ، في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . والذي تولى قتله وقتل ابنه وغلّامه رجل من بني أسد يقال له : « فاتك بن أبي الجهل بن فراس بن بداد » ، وكان من قوله لما قتله وهو مُنْعَفِرٌ : قبحاً لهد اللّحية يا سبّاب ! وذلك أن فاتكاً هذا قرابة لوالدة ضبّة بن يزيد العيني الذي هجاه المتنبي بقوله :

ما أنصفَ القومُ ضبّةً وأمّه الطُرْبُبةُ

٣٠٥/٢ ويقال : إن فاتكاً نحال ضبّة ، وأن الحميّة داخلته لما سمع ذكرها بالقيح / في الشعر ، وما للمتنبي شعر أسخف من هذا الشعر ولا أوهى كلاماً ، فكان على سخافته ٥١ وركاكته / سبب قتله وقتل ابنه ، وذهاب ماله .

(١) « التناء » جمع « تانيء » وهم المقيمون بالبلدة في أرض العجم ، وأصلهم منها .

(٢) سيأتي خبر مقتل المتنبي عن الخالدين مختصراً في ترجمة المقرئ برقم : ٢١ .

(٣) انظر « بنوري » و « بنوزي » فيما سلف رقم : ٧٨ ، وما سيأتي في المقرئ برقم : ٢١ ، وقد نقل هذا

• وأما شرح الخبر ، فإن فاتكاً كان صديقاً لى ، وكان كما سُمِّيَ « فاتكاً » ، لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال ، فلما سمع الشعر الذى هُجى به ضبّة أحفظه ذلك واشتد عليه ، ورجع على ضبّة باللوم وقال له : قد كان يجب أن لا تجعل لشاعرٍ عليك سبيلاً ! وأضمر غير ما أظهر ، وأتصل به انصراف المتنبي من بلاد فارس إلى العراق ، وأن اجتيازه بجبّل ودير العاقول . فلم يكن ينزل عن فرسه ، وجماعة معه من بنى عمه رأيهم فى المتنبي مثل رأيه ، فى طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد . وكان فاتك يتحرّق خوفاً أن يفوته ، وكان كثيراً ما يجيئنى وينزل عندى ، فقلت له يوماً وقد جاءنى ، وهو يسأل قوماً مجتازين عنه : قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل ، فأئى شئ عزمك أن تفعله به متى لقيته ؟ قال : ما عزمى إلا الجميل ، وأن أعذله على ما أفحش فيه من الهجاء . فقلت : هذا الأليق بأخلاقك والأشبه بأفعالك . فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر ، والله لئن اکتحلت عينى به ، أو جمعتنى وإياه بقعة ، لأسفكن دمه ، ولأمحقن حياته ، إلا أن يُحال بينى وبينه . فقلت له : كُف ، عافاك الله ، عن هذا القول ، وارجع إلى الله ، وأزل هذا الرأى عن قلبك ، فإن الرجل شهير الاسم بعيد الصوت ، وقتلك إياه فى شعر قاله لا يحسن ، وقد هجّت الشعراء الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام ، فما علمنا أن شاعراً قُتِل بهجاء ، وقد قال الشاعر :

/ هَجَوْتُ زُهَيْراً ثُمَّ إِنى مَدَحْتُهُ وما زالتِ الأشرافُ تُهَجى وتُمدَحُ

٣٠٦/٢

ولم يبلغ جرّمه ما يوجب قتله ! فقال : يفعل الله ما يشاء ! وانصرف ، فلم يمض لهذا القول إلا ثلاثة أيام حتى وافى المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شئ من الذهب والفضة والثياب والطيب والجوهر والآلة ، لأنه كان إذا سافر لم يخلف فى منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يساوى درهماً واحداً فما فوقه ، وكان أكثر إشفاقه على دقاته ، لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً . قال : فتلقّيته وأنزلته دارى وساءلته عن أخباره ؟ وعمن لقى ؟ وكيف وجد من قصده ؟ فعرفنى من ذاك ما سررت به ، وأقبل يصف لى ابن العميد وفضله وأدبه وعلمه وكرمه ، وسماحة الملك فنأخسرو ورغبته فى الأدب وميله

إلى أهله . فلما أمسينا قلت له : على أى شىء أنت مُجمِع ؟ قال : على أن أتخذ الليل
جَمَلاً ، فإن السير فيه يخفُّ على . قلت : هذا هو الصواب ! = رجاء أن يخفيه الليل ،
ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً = والوجه أن يكون معك من رجالة هذه المدينة الذين
يخبرون الطريق ويعرفون المواضع المخوفة فيه ، جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد . فقطب
وقال : ولم قلت هذا القول ؟ قلت : تستأنس بهم ! قال : أمّا والجراز في عنقي ، فما بي
حاجة إلى مؤنسي غيره . قلت : الأمر كما تقول ، والرأى في الذى أشرت به عليك .
فقال : تلويحك هذا ينبيء عن تعريض ، وتعريضك يخبر عن تصريح ، فعرفنى الأمر وبين
لى الخطب . قلت : إن هذا الجاهل فاتك الأسدى ، كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو
مُحَفَّظ عليك لأنك هجوت آبن أخته ، وقد تكلم بأشياء / توجب الاحتراس والتيقظ ،
ومعه أيضاً نحو العشرين فارساً من بنى عمه ، قولهم مثل قوله . قال غلامه ، وكان عاقلاً
ليبياً فارساً يسمع كلامنا = فقال : الصواب ما رآه أبو نصر ، أخذ معك / عشرين رجلاً
يسرون بين يديك إلى بغداد . فاغتاظ غيظاً شديداً وشتّم الغلام شتماً قبيحاً ، وقال :
والله لا تُحدّث عني أنى سرت في تخفارة أحد غير سيفى . قلت : يا هذا ، فأنا أوجه قوماً
من قبلى في حاجة يسرون بمسيرك ويكونون في خفارتك . قال : والله لا فعلت شيئاً من
هذا . ثم قال لى : يا أبا نصر ، أبحرؤ الطير تُحشّينى ، ومن عبيد العصا تخاف على ،
ووالله لو أن محصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد مُعْطِشُونَ لخمس ، وقد
نظروا إلى الماء كبطون الحيات ، ما جسّر لهم خف ولا ظلّ أن يرده ! حاش لله من فكر
أشغله بهم لحظة العين ! فقلت له : قل إن شاء الله . فقال : كلمة مقولة لا تدفع
مقضيّاً ، ولا تستجلب أتيّاً ! ثم ركب فكان آخر العهد به .

قال : ولما صح عندى خبر قتله ، وجّهت من دفته وابنه وغلامه ، وذهبت دماؤهم

هدراً . (١)

(١) خير مقتل المتنبي هذا عن الخالدى رواه الربعى في ترجمته رقم : ٧ .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً .

وكتب محمد بن هاشم الخالدي بالموصل في سنة خمس وخمسين وثلاثمئة ، وهو يستغفر الله ويستقبله من كل ذنب وخطيئة عن عمد أو خطأ .

/ أما قوله : « أَبِخْرُو الطَّيْرَ تَحْشِينِي ، وَمَنْ عَيْدَ الْعَصَا تَخَافُ عَلَيَّ » ، فَإِنَّ بَنِي
أَسَدَ يَلْقَبُونَ « خُرُوءَ الطَّيْرِ » ، قَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ :

* فَرَّتْ بَنُو أَسَدٍ خُرُوءَ الطَّيْرِ عَنْ أَرْبَابِهَا * (١)

ويلقبون أيضاً « عَيْدَ الْعَصَا » ، قَالَ الشَّاعِرُ - وَنَظَّنُّهُ امْرَأَ الْقَيْسِ أَيْضاً - :

* قَوْلًا لِذُودَانَ عَيْدِ الْعَصَا * (٢)

آخر ما كان بخط أبي بكر الخالدي .

* مَا عَرَّكُم بِالْأَسَدِ الْبَاسِلِ *

كذا في الأصل قد أتم هذا البيت ، وأظن أنه بخط أخيه أبي عثمان ، ولا أحققه .

٨٢ - أَخْبَرَنَا تَاجُ الْأَمْنَاءِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ كِتَابَةً قَالَ ، أَخْبَرَنَا عَمِي

أَبُو الْقَاسِمِ ، عَنْ أَبِي غَالِبِ شُجَاعِ بْنِ فَارِسِ بْنِ الْحُسَيْنِ الدُّهْلِيِّ قَالَ ، أَنْشَدَنِي الْحَكِيمُ

أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيِّ النِّيسَابُورِيِّ ، لِأَبِي الْقَاسِمِ الْمُظْفَرِ الزُّوزَنِيِّ

الكَاتِبِ ، (٣) يَرَى الْمُتَنَبِّيَ :

(١) الشعر لدختوس بنت لقيط بن زُرارة ، وقد مضى التعليق عليه في ترجمة الربيعي ، في آخر الخبر رقم :

(٢) مضى في آخر الخبر رقم : ٧ في ترجمة الربيعي .

(٣) في الهامش : (قلت : هو المظفر بن علي) .

لا رعى الله سرب هذا الزمان / كان من نفسه الكبيرة في
 ما رأى الناس ثانی المتنبي / كان في لفظه نبياً ، ولكن
 إذ دهانا في مثل ذلك اللسان / في كبرياء ذى سلطان
 أي ثان يرى ليكر الزمان / ظهرت معجزاته في المعاني (١)

٣٠٩/٢

٨٣ - أنشدني نجيب الدين داود بن أحمد بن سعيد بن خلف بن داود الطيبي
 التاجر ، إملاءً من لفظه بحلب قال ، أنشدني شمس الدين بن الوالي بالموصل ، لأخت
 المتنبي ترى أخاها المتنبي لما قُتل : (٢)

يا حازم الرأي إلا في تهجمه / على المكاره غاب البدر في الطفل
 لنعم ما عاملتك المرهفات به / ونعم ما كنت توليها من العمل
 الأرض أم أصبناها بواحدنا / فاسترجعته وردته إلى الحبل

(١) هو في ترجمة المقریزی الآتية برقم : ٣٣ .

(٢) خبر أخته هذا ، لم أجده إلا هنا ، وسيأتي في ترجمة المقریزی أيضاً رقم : ٣٤ .

٢ - ترجمة المتبى لابن عساكر

(٣)

ترجمة المتنبى لابن عساكر
عن مخطوطة لكتاب « الإبانة » للعميدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

/ « هذه نبذة من أخبار أبى الطيب المتنبى رحمه الله تعالى مما أورده ابن عساكر فى ٣١٣/٢ ترجمته » .

قال الشيخ الإمام الحافظ الثقة [ثِقَّة] الدين أبو القاسم على بن الحسن بن الحسين الدمشقى ، ابن عساكر ، فى حرف الألف .

١ - أحمد : هو ابن الحسين بن الحسن بن عبد الصّمد ، أبو الطيّب الجعفىّ الشاعر المشهور بالمتنبى ، قدم دمشق ومدح بها . روى عنه القاضى أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملىّ الفقيه .

٢ - وقال أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد [٤ : ١٠٢] : أحمد بن الحسين بن عبد الصّمد الشاعر المعروف بالمتنبى .

٣ - وقال الحسن المتطبّب : وظفرت بمختار صغير فى أخبار المتنبى قد اختاره ياقوت بن عبد الله العرى ، من مختار ألفه [ياقوت] بن عبد الله الرومىّ الأصل ، البغدادىّ المنشأ ، الحموىّ المولىّ ، رحمه الله تعالى ، فنقلت منه ما يأتى ذكره : وهو أنه ذكر فى نسب المتنبى فقال : « وقال قوم : هو أحمد بن الحسين بن عبد الصّمد الجعفىّ .

وقال أبو الحسن على بن عيسى الرّبعىّ النحوىّ : الذى أعرفه من نسب أبى الطيب أنه أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبار الجعفىّ ، / وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث ٣١٤/٢ وثلاثمئة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عبّيد [الله] . (١)

(١) ما بين القوسين زيادة من ابن العديم ، انظر ترجمته الماضية رقم : ٨ .

٤ - وكان محظوظاً في حال حياته ، مازال معظماً عند الملوك ، وفي حال وفاته .
قد انتدب العلماء لديوانه وشرحوه شروحا كثيرة ، وهما [كذا] ضربان ، منهم من تكلم
على ديوانه أجمع ، ومنهم من تكلم على بعضه .

٥ - فمن تكلم على شعره أجمع ، فهو أول من شرحه : « ابن جنى » ، له
كتاب في شرح ديوانه وقد سماه « الفسر » = وكتاب « اللامع العزيزى » و « معجز
أحمد » أيضاً ، لأبى العلاء المعرى = وكتاب لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى =
وكتاب « الموضح » لأبى زكريا يحيى بن على التبريزى = وكتاب عبد القاهر الجرجانى =
وكتاب أبى منصور محمد بن عبد الجبار السمعانى = وكتاب أبى القاسم إبرهيم بن محمد
الإفليلى = وكتاب أبى الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم = وكتاب الكمال عبد الرحمن
ابن محمد الأتبارى = وكتاب فى سرقات المتنبي للحسن بن محمد بن وكيع وسماه
« المنصف » = وكتاب لأبى البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى = وكتاب لأبى اليمن
زيد بن الحسن الكندى = وكتاب لعبد الواحد بن محمد بن على بن زكريا = وكتاب محمد
ابن على بن إبرهيم الهراسى الكافى = وكتاب أبى الحسن محمد بن عبد الله الدلفى ، عشر
مجلدات = وكتاب كمال الدين القاسم بن القاسم الواسطى = فهذه سبعة عشر شرحاً
مستوفاة لسائر ديوان المتنبي .

• وأما من تكلم عن أبيات منه مشكلة ، أو صنّف فيه مأخذاً ، فمنه :
٣١٥/٢ / كتاب « الوساطة » للقاضى [على] بن عبد العزيز الجرجانى = وكتاب أبى بكر محمد
ابن العباس الخوارزمى = وكتاب عبد الرحمن بن دُوست النيسابورى = وكتاب أبى
الفضل أحمد بن محمد العروضى = وكتاب « التجنى » ، على ابن جنى « لابن فورجة » =
وكتاب « الفتح على أبى الفتح » لابن فورجة أيضاً = وكتاب معانى أبياته لابن جنى =
وكتاب « التنبيه » لأبى الحسن على بن عيسى الرّبعى ، وقد ردّ فيه على ابن جنى = وكتاب
سعد بن محمد الوحيد ، وقد ردّ فيه على ابن جنى أيضاً = وكتاب لأبى القاسم عبيد الله
ابن عبد الرحيم الأصفهانى = وكتاب الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر = وكتاب لأبى

عبد الله محمد بن جعفر القَزَّاز القَيْرَونِيّ = وكتاب أبي القاسم علي بن جعفر بن القطاع = وكتاب الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد = وكتاب لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن الصَّقْلِيّ = وكتاب « قصائد المتنبي » للأعلم الشنتمري = وكتاب « نزهة الأديب ، في سرقات المتنبي من حبيب » ، لِحَسَنُونِ المِصرِيّ = وكتاب « الانتصار المُنبِيّ ، عن شعر المتنبي » ، لأبي الحسن بن محمد المغربي = وكتاب « التنبيه المنبى عن رذائل المتنبي » ، لأحمد المغربي أيضاً = كتاب « بقية الانتصار ، المكثّر من الاختصار » ، للمغربي أيضاً = وكتاب « الرسالة الخاتمية » ، لأبي الحسن محمد بن المظفر الخاتمي = وكتاب « جبهة الأدب » للخاتمي أيضاً = وكتاب « المآخذ الكِنْدِيّة ، من المعاني الطائِيّة » = وكتاب « الاستدراك على ابن الدهان » ، للوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري = وكتاب « الإبانة » للصاحب العميدِيّ ، [الموجودة فيه هذه النسخة] .

٦ - / قال أبو عبد الله ياقوت الرُّومِيّ الحمويّ : ولم نسمع بديوان شعر في ٣١٦/٢ الجاهلية ولا في الإسلام شرح هكذا بهذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا بتداول شعرٍ في أمثال أو طُرف أو غرائب على ألسنة الأدباء في نظم أو نثرٍ أكثر من شعرِ المتنبي .

٧ - قال : وكان أبو العلاء المعري إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحتري كذا ، قال أبو تمام كذا . فإذا ذكر المتنبي قال : قال الشاعر كذا . فقليل له يوماً : لقد أسرفت في وصفك المتنبي ، أليس هو القائل :

بَلَيْتُ بَلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَوُقُوفَ شَحِيحِ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتِمُهُ

كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ قال : أربعين يوماً . فقليل له : ومن أين علمت ذلك ؟ فقال : سليمان بن داود عليه السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوماً . فقليل له : ومن أين تعلم أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : (هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) ، وما عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه ؟

٨ - قال أبو عبد الله ياقوت الروميّ : قيل : كان المتنبي يوماً جالساً بواسطة وعنده ابنه المحسّد قائماً ، وجماعة يقرؤون عليه ، فدخل عليه بعض الناس فقال : أريد أن تُجيز لنا هذا البيت ، وهو :

/ زَارَنَا فِي الظَّلَامِ يَطْلُبُ سِتْرًا فافتضحنا بنوره في الظلام

٣١٧/٢

فرفع رأسه وقال : يا محسّد ، قد جاءك بالشّمال فأتته باليمين . فقال محسّد ارتجالاً ،

وهو :

فالتجأنا إلى حنادسٍ شعريّ سترتنا عن أعين اللّوأم

معنى قول المتنبي لولده : « جاءك بالشّمال فأتته باليمين » ، أى إن اليسرى لا يتمُّ بها عمل ، وباليمينى تتمُّ الأعمال ، ومُراده أن المعنى يحتمل الزيادة فأوردّها ، وقد أَلطف المتنبي في الإشارة ، وأحسن ولده في الأخذ . قال وأنشده المتنبي مما ليس في ديوانه قوله :

وحبيبٍ أخفوه مني نهارةً فتحفني وزارني في اكتّام
زارني في الظلام يَطْلُبُ سِتْرًا فافتضحنا بنوره في الظلام

٩ - قال ياقوت الروميّ : وقرأت في رسالة أبي الحسين على بن منصور الحلبيّ المعروف بابن القارح ، ويعرف بدوخلة ، قال : كان أبو محمد بن وكيع التّيسّي سمساراً في بلده ، وكان متأدباً ظريفاً ويقول الشعر ، وعمل كتاباً في سرقات المتنبي وحاف عليه كثيراً ، وسألني يوماً أن أخرج معه إلى ثونّة لنشرب ، (١) فخرجت معه ، واستصحب مغنياً يعرف بابن ديار ، فلما غنى طرب ، فأمره ألا يغنيه إلا بشعره ، فغنى :

لو كان كلُّ عليلٍ يزدادُ مثلك حسناً
/ لكان كلُّ صحيجٍ يودُّ لو كان مُضنيّ
يا أكمل الناسِ حسناً صلِّ أكمل الناسِ حُرنا
غنيّت عنيّ ، ومالي وَجّهٌ به عنك أغنى

٣١٨/٢

(١) « تونة » ، جزيرة قرب تيسس ودمياط .

فقلت له : هل تثقل عليك المؤاخذة ؟ قال : [لا] . قلت : أبياتك مسروقة ،
الأول من قوله :

فلو كان المَرِيضُ يَزِيدُ حُسْنًا كما تَزْدَادُ أَنْتَ على السَّقَامِ
لَمَا عِيدَ المَرِيضُ إِذَنْ وَعُدَّتْ شِكَايَتُهُ من النُّعْمِ الجِسَامِ

والثاني من قول رؤية :

مَسْلَمَ ما أَنَسَاكَ ما حَيَّيْتُ لو أَشْرَبُ السُّلْوَانَ ما سَلَيْتُ
ما بي غِنَى عَنكَ ، وإن غَنَيْتُ

فقال : والله ما سمعت بهذا ! فقلت : إذا كان الأمر على هذا ، فأعذر المتنبي على
مثله ، ولا تبادر إلى الخط عليه ولا المؤاخذة له .

١٠ - قال المصنف : وقرأت في بعض الكتب أنه لما خرج المتنبي بأرض
سَلْمِيَّةَ من عمل حِمص في بني عدى الكلبيين ، قبض عليه ابن علي الهاشمي في ضيعة له
يقال لها « كُوْتُكَيْنَ » ، وأمر النجار فجعل في رجله قُرْمَةً وفي عنقه ، من خشب
الصفصاف ، فقال المتنبي :

زعم المُقِيمُ بكَوْتُكَيْنَ بَأَنَّهُ مِنْ آلِ هاشِمٍ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ
فأَجَبْتُهُ : مُذْ صِرْتُ مِنْ أبنائِهِمْ صَارَتْ قُيُودُهُمْ من الصَّفْصَافِ

/ ولما أن صار معتقلاً في الحبس ، كتب إلى الوالي رحمه الله تعالى :

يَدِي أَيُّها الأَمِيرُ الأَرِيبُ لا لِشَيْءٍ إلا لِأُتَى غَرِيبُ
أو لِأُمِّ لها إِذا ذَكَرْتَنِي دَمٌ قَلْبٍ بدمع عَيْنِ سَكُوبُ
إن أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتَكَ أَخْطَأُ ت ، فَإِنِّي على يَدَيْكَ أَتُوبُ
عائِبٌ عابِنِي لَدَيْكَ ، ومنه خُلِقْتُ في ذَوِي العُيُوبِ العُيُوبُ

وقد تقدّم شعره الذي قاله في السجن للضبّ الضرير (؟؟)

١١ - قال أبو عبد الله ياقوت الرومي : ولم يزل المتنبي بعد أن خرج من الاعتقال في خمولٍ بالشام وضعيفٍ حالٍ ، يمدح الناس بعشرة دراهم فما دونها . واتفق أنه اتصل بأبي العشائر ، فأكرمه وعرف منزلته ، وكان أبو العشائر يومئذ وإلى أنطاكية من جهة سيف الدولة بن حمدان . ولما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية قدّم المتنبي إليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب . وكان سيف الدولة كثير الميل إلى الشعراء والشعر ، فاشتراط عليه المتنبي - وذلك في أول اتصالٍ له به - أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد ، وأنه لا يُكَلِّف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسبوه إلى الجنون ، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وتطلّع إلى ما يردُّ منه ، فلما أنشده حسن موقعه عنده وقرّبه وأجازته الجوائز السنّية ، وأقرّه على هذه الشروط مُدَّة بقائه عنده ، ومالت نفسه إليه وأحبّه ، فسلمّه إلى الرّواض فعلموه شيئاً من الفروسية والطراد والمثاقفة . وحضر مع سيف الدولة غزواته إلى بلاد الروم ، / فكان مما شهدته « غزوة الفناء » ، و « غزوة المصيبة » . أما « غزوة المصيبة » ، فدخل سيف الدولة بلاد الروم في أربعين ألفاً فلم ينبج معه إلا نفر يسير = وأما « غزوة الفناء » ، فهلك كل من معه ، وأخذت الروم عليه الطريق في الجبل ، وكان سيف الدولة مقداماً مجرباً ، فجردّ السيف وحمل على العسكر ، فخرق الصفوف ونجا بنفسه في ستة أنفار ، المتنبي أحدهم ، فكانت منزلة المتنبي عند سيف الدولة مَكِينَةً ، بحيث أنه كان لا يصبر عنه سفيراً ولا حضراً .

٣٢٠/٢

١٢ - وحدث أبو الحسن علي بن الحسين الزرّاد الدّيلمي في كتاب ألفه في أخبار سيف الدولة بن حمدان : إنّما كان سبب انصراف أبي الطيب عن سيف الدولة إلى مصر ، أنه كان لسيف الدولة مجلس يحضره أهل العلم عامة كل ليلة ، فيتكلمون بحضرته ويبحثون ويتناظرون ، فتمارى في بعض الليالي المتنبي وأبنُ خالويه النحوي في شيء جرى بينهما بحضرة سيف الدولة ، فقام ابن خالويه وضرب وجه المتنبي بمفتاح كان في يده ، فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك ، إذ لم ينتصر له سيف الدولة قولاً ولا فعلاً ، فخرج من فوره إلى دمشق ، وقصد كافر بمصر .

١٣ - قال أبو منصور ، وحدثني جماعة من أهل الأدب : أن المتنبي عوتب في آخر أيامه على تراجع شعره ، فقال : قد تجاوزت في قولي ، وأغفيت طبعي ، واغتتمت الراحة منذ فارقت بني حمدان ، وفيهم من يقول :

وَقَدْ عَلِمْتَ بِمَا لَاقَتْهُ مَنَا قَبَائِلُ يَعْرُبُ وَبَنَى نِزَارِ
/ لَقِينَاهُمْ بِأَرْمَاحِ طَوَالِ تُبَشِّرُهُمْ بِأَعْمَارِ قِصَارِ

٣٢١/٢

يعنى أبا زهير بن مهلهل بن نصر بن حمدان ، وفيهم من يقول :
أخا الفوارس لو رأيت مواقفي والحيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تحط يد الوغى والبيض تشكل والأسنة تنقط
يعنى أبا العشائر .

١٤ - وقال أبو الفتح بن جني : كنت قرأت ديوان المتنبي عليه ، فلما وصلت إلى قوله :

أُغَالِبُ فِيكَ الشُّوقَ ، والشُّوقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، والوَصْلُ أَعْجَبُ
فلما انتهيت إلى قوله منها :

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ ! فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَدَّبُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعَبُ
وَبِي مَا يَذُودُ الشُّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ
وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ ، إِذَا شِئْتُ مَدَحَهُ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ، تُمْلِي عَلَيَّ وَأَكْتُبُ
إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانَ شَيْئًا وَرَاءَهُ وَيَمَّمُ كَافُورًا فَمَا يَتَغَرَّبُ

فقلت له : يعز علي كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ! فقال :
حذرناه وأندرناه فما نفع فيه الحذر ، ألسنت فيه القائل :

/ أَخَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلَا تُعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ

٣٢٢/٢

فهو الذى أعطانى لكافور بسوء تدييره وقلة تمييزه .

١٥ - قال أبو عبد الله الرومى : وقرأت فى كتاب « المفاوضة » : حدثنى الحلبيُّ المؤدّب قال : كان سيف الدولة يميل إلى أبى العباس النامى الشاعر المشهور ميلاً شديداً ، إلى أن جاءه المتنبي فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم ، نحلاً به وعاتبه ، وقال : كم تُفضّل علىّ ابن عِيدان السَّقَاء !! فأمسك سيف الدولة ولم يجبه ، فلجّ وألحّ عليه وطالبه بالجواب ، فقال له : لأنك لا تحسن أن تقول :

يُعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرِ مُفْتَخِرٍ وَقَدْ أَغَدَّ إِلَيْهِ غَيْرَ مُحْتَفِلٍ

قال : فهض من بين يديه مغضباً ، واعتقد أن لا يمدحه أبداً .

١٦ - قال : وذكر الشيخ ابن الدّهان سعيد بن المبارك فى كتابه الذى سماه « المآخذ الكندية ، فى المعانى الطائية » : أنه قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتشدّق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرّق مئتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره !! فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه . وكان المتنبي غائباً ، وبلغته القصّة ، فدخل على سيف الدولة وأنشده :

/ أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اليَوْمِ عَاتِبًا فَدَاهِ الوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِبًا ٢٢٣/٢

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته ، فخرج من عنده متغيّراً . وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا فى الوقعة فى حق المتنبي ، وانقطع المتنبي يعمل فى القصيدة الميمية التى أولها :

وَاحْرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمٌ

فأنشدها ، وجعل يتظلم فيها من التقصير فى حقه ، فهمّ جماعة بقتله بحضرة سيف الدولة ، مما وجدوا من شدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه ، فلما وصل فى إنشاده إلى قوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملي ، فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم
أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

علم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : ومن أنت يا دعي كندة ، حتى تأخذ أعراض
أهل الأمير في مجلسه !! فاستمر المتنبي في إنشاده ولم يرد عليه ، إلى أن قال :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمنت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك غيظاً في أبي فراس ، فلما وصل إلى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والطعن والضرب والقربان والقلم

/ قال أبو فراس : وما أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة ٣٢٤/٢

والرياسة والسماحة ؟ أتمدح نفسك وتأخذ جوائز الأمير ؟ فقال المتنبي :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ، إذا استوت عند الأنوار والظلم

فغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة ، وكثرة دعاويه فيها ،

وضربه بالدواة التي بين يديه ، فقال المتنبي في الحال :

إن كان سركم ما قال حاسدنا ، فما لجرج إذا أرضاكم ألم

فأعجب سيف الدولة هذا البيت ، ورضى عنه في الحال ، وأدناه إليه ، وقبل

رأسه ، وأجازه بألف دينار ، ثم أردفه بألف دينار أخرى ، فقال المتنبي :

جاءت دنائرك مختومة عاجلة ألفاً على ألف

أشبهها فعلك في فيلق قلبته صفاً على صف

١٦ - وحديث عبد الصمد بن بابك قال : حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن

نصر البازيار ، وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوي ، فتأرياً في
أشجع السلمى وأبي نواس البصري ، فقال ابن خالويه : أشجع أشعر إذ قال في هارون

الرشيد :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ ، ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغَّتُهُ ، وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

/ فقال المتنبي : لأبي نواس ما هو أحسن من هذا في [بنى] بَرَمَك حيث يقول :

٣٢٥/٢

لَمْ يَظْلِمِ الدَّهْرُ إِذْ تَوَالَتْ فِيهِمْ مُصِيبَاتُهُ دِرَاكَا
كَانُوا يُجِيرُونَ مَنْ يُعَادِي مِنْهُ ، فَعَادَاهُمْ لِذَاكَ

١٧ - قال أبو عبد الله : وقرأت في سيرة بعض أهل الأدب أن أبا الطيب سأل كافوراً أن يُؤليه صيداء من بلاد الساحل ، أو غيرها من نواحي الصعيد ، فقال له كافور : أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم القوت والمعين ، سمّت نفسك إلى النبوة ، فضلاً عن الملك والإمارة ، فإن أصبت ولايةً وصار لك أتباع ، فمن يطيقك ؟ ثم وقعت الوحشة بين المتنبي وكافور ، حتى إن كافوراً وضع عليه العيون والأرصاد خوفاً منه ، وأحسّ المتنبي بالشر ، فكمتم أمره عنه ، ولم يزل في تسترٍ من أمره ، وطال تحفظه على كافور ، واشتغل عنه ، فهرب المتنبي من مصر ، ولما أحسن كافور بهربه ، بذل في طلبه الأموال وسرّح الطيور والخيول فلم يظفر به . ولما خلص المتنبي إلى العراق هجاً كافوراً بقصائد كثيرة ، منها ما هو مشبوت (؟؟) في ديوانه ، ومنها ما هو في الرواية التي هي مشبوتة في ديوانه (؟؟) ، فمن ذلك قوله في قصيدة له :

أَبَا النَّثْنِ ، كَمْ قِيدْتَنِي بِمَوَاعِدِ مَخَافَةَ نَظْمِ اللَّفْؤَادِ مُرُوعِ
وَقَدَّرْتَ مِنْ فَرْطِ الْجَهَالَةِ أَنَّنِي أُقِيمُ عَلَى كِذْبِ رَصِيفِ مُصَنَّعِ
/ أُقِيمُ عَلَى عَيْدِ نَحْصِي مُنَافِقِ لَعِيمِ رَدِيءِ الْفِعْلِ لِلْجُودِ مُدْعِي
وَأَتْرَكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ الرُّضَى كَرِيمِ الْحَيَّا أَرْوَعاً وَأَبْنَ أَرْوَعِ
فَتَنِي بِجُرْهُ عَذْبٌ ، وَمَقْصِدُهُ غِنَى ، وَمَرْتَعٌ مَرَعَى جُودِهِ خَيْرَ مَرْتَعِ
تَظَلُّ إِذَا مَا جِئْتَهُ الدَّهْرَ آمناً بِخَيْرِ مَكَانٍ بَلْ بِأَشْرَفِ مَوْضِعِ

٣٢٦/٢

١٨ - قال أبو عبد الله : وتنازع نُدَمَاءُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ فِي بَيْتِ الْمَتْنَبِيِّ :

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً ، الشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُحُورًا
 فقال أبو الفضل : أثبتوه حتى أتأمله ، فأثبت البيت ووضع بين يديه ، فأطرق
 ملياً يفكر فيه ، ثم قال : هذا يعطلنا عن المهم ، وما كان الرجل يدرى ما يقول !
 قال أبو عبد الله : وكان ابن العميد كثير الانتقاد لشعر المتنبي ، لما أنشده
 القصيدة الأولى قال له : يا أبا الطيب أتقول :

بَادٍ هَوَاكَ ، صَبْرَتْ أَمْ لَمْ تَصْبِرًا وَنُكَاكَ ، إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
 ثم تقول بعده :

كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَابْتِسَامُكَ صَاحِبًا لَمَّا رَأَاهُ ، وَفِي الْحَشَا مَا لَا يُرَى
 فسرعان ما نقضت ما ابتدأت به ! فقال : تلك حال وهذه حال ، وقد تختلف
 المقاصد .

٢٢٧/٢

/ وقال المتنبي من قصيدة مدح بها ابن العميد المذكور :

مَا كَفَانِي تَقْصِيرُ مَا قَلْتُ فِيهِ فِي عُلَاهُ حَتَّى ثَنَاهُ أَنْتَقَادُهُ

١٩ - وحدث محمد بن الحسن الخوارزمي قال : مررت بمحمد بن موسى
 الملقب بسبيويه الموسوس ، وهو على مسجد عفان وهو يقول : مدح الناس المتنبي
 حيث قال :

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ

ولو قال : « ما من مداراته بُدُّ » ، لكان أحسن وأجود .

قال : واجتاز المتنبي بمسجد ابن عمر ، وبسبيويه الموسوس ، فوقف عليه وقال :
 أيها الشيخ ، كنت أحبُّ أن أراك ! فقال له : رعاك الله وحيّاك . فقال له : بلغني أنك
 أنكرت عليّ قولي :

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ

فما كان الصواب عندك ، فقال له : إن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ، ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا موقع لها في هذا الموضع ، ولو قلت : (ما من مداراته بُدُّ) ، أو (مُداجاته) أو (مُحَاباته) ، لأصبت ! وهذا رجل منا ، وكنى عن نفسه ، قد قال :

أَتَانِي فِي قَمِيصِ اللَّاذِ يَسْعَى عَدُوٌّ لِي يُلَقَّبُ بِالْحَبِيبِ

/ فقال المتنبي : مع هذا غيره ؟ قال : نعم .

٣٢٨/٢

فقلتُ له : متى استعملتَ هذا ؟ لقد أقبلتَ في زِيِّ عَجِيبِ !
فقال : الشَّمْسُ أَهْدَتْ لِي قَمِيصاً مَلِيحَ اللَّوْنِ مِنْ نَسِجِ الْمَغِيبِ

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبويه يصيح : أَنْبَكَمَ الرَّجُلُ وَجَلالِ اللَّهِ !!

٢٠ - وحدث أبو القاسم عبد العزيز المعروف بالحكار = وكان كاتب الإنشاء بحضرة عضد الدولة عظيم المنزلة منه ، ثم وَرَرَ لابنه صمصام الدولة = قال : لما دخل المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه وقال له : سألته كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم في نفسه منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبي في هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعته مني أنه قال : « ما خَدَمْتُ عَيْنَايَ قَلْبِي كَالْيَوْمِ » ، فجاء الجواب موزوناً ، وهو من مشطور السريع ، ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه . وكان ذلك من آكد الأسباب التي حَطَّيَ بها عنده ، [ابن العديم رقم : ٧١ / المقرئ رقم : ١٨] .

٢١ - قال أبو عبد الله : وحدثت أن المتنبي لما ورد على عضد الدولة بشيراز اتفق أن أبا على الفارسي بها ، وكان ممر المتنبي على دار أبي على إلى دار عضد الدولة ، فكان إذا مرَّ به يستثقله أبو على ويذمه على قبح زيِّه ، وما يأخذ به نفسه من الكبرياء والحمق . وكان لابن جنى هوى في أبي الطيب ، كثير الإعجاب بشعره لا يبالي بأحد

يذمه أو يحط منه ، وكان يسوءه إطناب / أرى على في ذمّه ، فقال أبو علي يوماً : اذكروا بيتاً ٣٢٩/٢
من الشعر نبحت فيه ، فبدأ ابن جنى وأنشد للمتنبي :

حُلَّتْ دُونَ الْمَزَارِ ، فَالْيَوْمَ لَوْزُرُ تَ لِحَالِ التُّحُولِ دُونَ الْعِنَاقِ

فاستحسنه أبو علي واستعاده ، وقال : لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى ؟ فقال
ابن جنى : للذي يقول :

أزوركم وسواد الليل يشفع لي وأنتنى وبياض الصبح يغري بي

فقال : هذا والله حسن بديع جداً ، فلمن هما ؟ قال : للذي يقول :

أمضى إرادته ، فسوف له قد ، واستقرب الأقصى فتم له هنا

فكثر إعجاب أرى علي واستغرب معناه وقال : لمن هذا ؟ فقال ابن جنى : للذي
يقول :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلی مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

فقال : حسن والله ، وقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا من القائل ؟ قال : هو

الذي لا يزال الشيخ أيده الله يستقله ويستقبح زيّه وفعله ، وما علينا من القشور إذا

استقام اللب ؟ قال أبو علي : ومن تعنى ؟ أمتنى ؟ قلت : نعم . قال : والله لقد حببته

إليّ وعرفتني قدره ! وقام ودخل على عضد الدولة فأطال في الثناء عليه ، ولما اجتاز به

استنزله واستنشده وكتب عنه أبياتاً من شعره . (١)

٢١ - / وحكى الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الرّبعي في كتاب « التنبيه » ٣٣٠/٢

الذي ردّ فيه علي ابن جنى في كتاب « الفسر » قال : كنت يوماً عند المتنبي بشيراز ،

فقيل له : أبو علي الفارسيّ بالباب ، وكانت بينهما مودة ، فقال بادروا إليه فأنزلوه ، فدخل

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٥٥ ، وانتقاده هذه الرواية ورفضها .

إليه أبو علي وأنا جالس عنده فقال : يا أبا الحسن خذ هذا الجزء = وأعطاني جزءاً من

كتاب « التذكرة » وقال : اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكركت بهما وهما :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَّا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا آلَتَمُوا مُرْدُ
تَقَالُ إِذَا لَاقَوْا ، خِفَافٌ إِذَا دُعُوا ، كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا ، قَلِيلٌ إِذَا عُتُوا

فهما مثبتان في التذكرة بخطي ، وهذا من فعل الشيخ أبي عليّ عظيم . (١)

٢٢ - قال الربيعي : وحكى عن بعض من كان يأنس إليه الصاحب بن

العميد (كذا) قال : دخلت يوماً إليه فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب ،

فظننته حزينا لأجلها ، فأخذت أعزبه وأسليه ، فقال : ويحك ، ما وجومي لأجل

ما ظننت ! قلت : فلا يحزن الله الوزير ، فما الخبر ؟ قال : إنه ليغيظني أمر هذا

المتنبي ، واجتهادى في أن أحمل ذكره ، وقد ورد على نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها

كتاب إلا وقد صُدِّرَ بقول المتنبي :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

/ حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرِقْتُ بِالذَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

٣٣١/٢

فكيف السبيل إلى ما اعتمدنا عليه في إخماد ذكره ؟ فقلت : القدر لا يُعَالَبُ ،

والرجل ذو حظٍّ من إشاعة الذكر وشياع الاسم ، فالأولى ألا يُشْتَغَلَ بما هذا سبيله .

٢٣ - قال أبو عبد الله : وجدت ديوان أبي الطيب بخط أبي بكر محمد بن

هاشم أحد الخالدين ، وقد كتبه بيده في سنة خمس وخمسين وثلاثمئة بالموصل ، قال

فيه ، عند فراغه من مدائح سيف الدولة ، ما حكيت على وجهه حرفاً حرفاً :

« هذا آخر ما عمله المتنبي في مولانا الأمير أطل الله تعالى بقاءه وكبت أعداءه ،

وكنا شاهدناه في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة بميَّا فارقين ، ومولانا أدام الله عزّه ، فعمل عدة

أشعار وهو مقيمٌ بها ، أنشدنا منها :

* إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ *

ومنها :

* أَيَقْدَحُ فِي الْحَيْمَةِ الْعُدْلُ * (١)

وغير ذلك ، وأنشدنا أيضاً مما عمله في مولانا أيده الله تعالى في غير مَيَّافَارِقِينَ قصائد كثيرة في مجالس متفرقة ، وكل ذلك بحضرة مولانا أدام الله عزه . فمما أنشدنا قوله :

* وَفَاوَكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ *

٣٣٢/٢

/ ومنه :

* رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ *

ومنه :

.....
ومنه : مرثية في والده مولانا أطل الله بقاءه ورضى عنها ونظر وجهها ، التي أولها :

* نُعِدَّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي *

ومنه :

* غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْحَدِعُ *

ومنه :

* عَوَازِلُ ذَاتِ الْحَالِ فِي حَوَاسِدُ *

ومنه :

* لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ وَمَا لَقِيَ *

ومنه :

* لِيَالِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ *

(١) في الأصل : « أينفع » والصواب ما في الديوان .

ومنه :

* دُرُوعٌ لِمَلِكِ الرُّومِ هَدَى الرِّسَائِلُ *

ومنه :

* تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ *

/ ومنه :

٣٣٣/٢

* طَوَالَ قِنَاءَ تُطَاعِنُهَا قِصَارُ *

« وغير ذلك مما كان ينشده سيّدنا أيده الله ونحن حضوراً . وأمّا غير هذا من شعره ، فإنه أنشدناه في مواضع كنا نجتمع فيها للمذاكرة عندنا وعنده . وكان ، رضى الله عنه وقتل قاتله ، محباً لنا ، مائلاً إلينا ، يكثر وصفنا وتقريظنا في مجلس مولانا سيف الدولة ، أدام الله تعالى تأييده ، وفي غيره . ولما افترقنا كان يكاتبنا بأخباره وحاجاته من مصر والكوفة وبغداد . وكان رحمه الله تعالى مُفْتَنّاً في علم اللغة والمعرفة بالشعر ، وما يشكل من معانيه ويَدِقُّ من معرفته ، كثير الرواية ، جيد النقد .

« ولقد حكى بعض من كان يحسده أنه كان يضع من الشعراء المحدثين ، وَيُعْضُ منهم . وربما قال : أنشدوني لأبى تمامكم شيئاً حتى أعرف منزلته في الشعر . فتذاكرنا ليلة في مجلس مولانا أدام الله عزه بميافارقين وهو معنا ، فأنشد أحدنا لمولانا أيده الله شعراً له فيه ، قد ألمّ فيه بمعنى لأبى تمام ، فاستحسنه مولانا أدام الله تعالى تأييده ، واستجاده واستعادته . فقال المتنبي ، وكان ذلك في أوّل ليلة التقينا به : نعم هذا يشبه قول أبى تمام ، وأتى بالبيت المأخوذ منه المعنى ، فقلنا : قد سررنا يا أبا الطيب لأبى تمام إذ عرفت شعره ! فقال : يا إخوتي ، أو يجوز للأديب أن لا يعرف أبا تمام ويروى شعره ، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده ؟! فقلنا : إن إنساناً ذكّر أنك تقول كيت وكيت ، فأنكر ذلك وحلّف مجتهداً أن هذا شيء ما نطق به قط ، وما زال بعد ذلك / إذا التقينا ينشدها بدائع أبى تمام ويتعجب منها ، وكان يروى شعره بأسره أو أكثره . »

• وهذا الخبر نقلته من خطّ الخالديّ حرفاً حرفاً؟ وهو ردُّ على أبي الحسن المغربي والحامّي وغيرهما ، فإنهم ادّعوا أن المتنبي كان [ينتقص أبا تمام] ، ويرى نفسه فوقه بكثير .

٢٤ - قال أبو علي محمد بن أحمد بن فورجة : كان المتنبي رجلاً داهية ، مُرّ النفس شجاعاً عاليّ الهمة ، حُفظةً للآداب ، عارفاً بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويُسقطه إلا بخله وشَرَّهه على المال ، فحدثني المؤيد أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر قال :

بلغني أنه قيل للمتنبي : قد شاع عنك من البخل ما قد صار سَمراً للرفاق ، وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله ، وتذمُّ البخل وأهله ! ومعلوم أن البخل قبيحٌ ، ومنك أقبحٌ ، لأنك تتعاطى كِبَر النفس وعلوَّ الهمة وطلبَ الملك ، والبُخل ينافي سائر ذلك ! فقال : إنَّ لُبْحلي سبباً ، وذلك أنني أذكر وقد وردتُ في صباى من الكوفة إلى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم في جانب مندلي ، وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دُكَّانٍ يبيع الفاكهة ، (١) فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة ، فاستحسنتها ونويتُ أن أشتريها بالخمسة دراهم التي معي ، فتقدّمت إليه وقلت : بكم تبيع الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث : اذهب ، فليس هذا من أكلك ! فتماسكت معه وقلت : أيها الرجل : دع ما يغيظ واقصد الثمن ! فقال : ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جبّهني به ما استطعت أن / أحاطبه في المحاططة ، فوقفت حائراً ، وإذا بشيخ من التّجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من دُكَّانه ودعا له وقال له : يا مولاي ، هنا بطيخ باكور ، بدُستورك أحمله إلى منزل مولانا ! فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ قال بخمسة دراهم . قال الشيخ التاجر : بدرهمين . فقال : بدرهمين . فباعه الخمسة بطاطيخ بدرهمين وحملها إلى داره ، ودعا له ، وعاد إلى دُكَّانه مسروراً بما فعل ،

فقلت له : يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ! آسَئِمْتَ عَلَيَّ في هذا البطيخ وفعلت كيت وكيت ، وكنت قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً ! فقال : آسكت هذا يملك مئة ألف دينار ! فقلت : وإذا كان معه أضعاف ذلك ، هل يدفع لك إلا الدرهمين !؟ فلم يزدني على أن قال : دع ذا عنك ، فإنه يملك مئة ألف دينار ! فعلمت يومئذ أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مئة ألف دينار ، وأنا فلا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينار .

• وقد وقع في شعر المتنبي الوصية بالحزم في ضبط الأموال لا البخل بها . وذلك في قوله في مدائح كافور ، وهو :

ولا يَنْحَلِّلُ في المَجْدِ مالَكَ كُلَّهُ فيَنْحَلِّلُ مجْدُ كان بِالْمَالِ عَقْدُهُ
ودَبْرُهُ تَذْيِيرَ الذي المَجْدُ كَفَّهُ إذا حَارَبَ الأَعْدَاءَ والمَالُ زَنْدُهُ
فلا مَجْدٌ في الدُّنْيَا لمن قَلَّ مَالُهُ ، ولا مَالٌ في الدُّنْيَا لمن قَلَّ مَجْدُهُ

• / قال بعضهم : قد أمر المتنبي كافوراً بالبخل حيث حرمه ، وسلك في ذلك مسلك كثير ، فإن كثيراً يحكى عنه أنه دَخَلَ على هشام بن عبد الملك ، وكان هشامٌ بخيلاً ، فمدحه ، فلم يُثَبِّهْ وجَبَّهُهُ بما يكره ، فقال يخاطبه :

إذا المَالُ لم تُوجِبْ عَلَيْكَ عَطَاءَهُ صَنِيعَةُ تَقْوَى ، أو نَحْلِيلاً تُوَامِقُهُ
مَنْعَتِ ، وبعضُ المَنْعِ حَزْمٌ وَقُوَّةٌ ، ولم يَفْتَلِدْكَ المَالُ إلا حَقَائِقُهُ

فقيل لكثير : ما حملك على أن تُعَلِّمَ أمير المؤمنين البخل ؟ فقال : إنه منعني من رَفْدِهِ ، وآلَمَنِي بَرْدُهُ ، فأردت أن أُحِبُّ إليه المال فيمنع غيري كما منعني ، فنتفق على ذمِّه .

• وقال أبو عبد الله : لكنني وجدتُ القصيدة التي منها هذان البيتان في أبي بكر

ابن عبد العزيز بن مروان .

٢٤ - وقال أبو بكر الخوارزمي : كانت أدوات المتنبي كلها جيدة ، نظمه

ونثره ، وعربيته ولغته ، وكان شجاعاً حسنَ العقل حسنَ المداراة للملوك ، عارفاً بطريق

انتزاع الأموال منهم ، ولم يكن فيه ما يُعاب به سوى بُخْلِهِ ، ولقد حضرتُ عنده يوماً بحلب ، وقد أُحضِرَ مالاً من صلاتِ سيف الدولة / بن حمدان ، فصُبَّ بين يديه ، ٢٣٧/٢ فوزَّته وأعادته إلى الأكياس ، وإذا بقطعة من تلك الدراهم قد تخلَّلت نخل الحصار وأنسابت فيه ، فأكبَّ المتنبي عليها بسائره ، وجعل يُنقَّب عنها بإصبعه ، ويعالج استنقاذها من الحصار إلى أن ظهرت بعض الظهور ، فسُرَّ بذلك ، ورفع إلينا رأسه وهو يتمثل بيت ابن الخطيم :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبٍ

فلم يزل يبحث عنها حتى استخرجها من الحصار وأودعها الكيس ، فعذله بعض جلسائه على هذا الفعل فقال : أما كان يكفيك ما في هذه الأكياس ، حتى أذميت إصبعك لأجل هذه القطعة ؟ فقال : مَهْ ، فإنها تخضّر المائدة . (١)

٢٥ - قال أبو عبد الله : وجدت أبا الفتح عثمان بن جنى قال ، حدثني المتنبي وقت القراءة عليه قال : قال أبو الفضل جعفر بن أبي الفضل بن جعفر بن حنزابة ، وكان وزير كافور : أَعْلِمْتُ أَنِي أَحْضَرْتُ كَتَبِي كُلَّهَا ، وَجَمَاعَةَ مِنَ الْأَدْبَاءِ يَطْلُبُونَ لِي مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَ مَعْنَى قَوْلِكَ :

أَزْوَرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَى وَبِياضِ الصُّبْحِ يُعْرِى بِي

فلم يظفروا به ؟ وكان ابن حنزابة أكثر من رأيتُ كتباً . قال ابن جنى ثم إني عثرت بالموضع الذي أخذ منه معنى بيته ، أخذه من قول ابن المعتز :

فَالصُّبْحُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَّادٌ

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٤١ .

٣٣٨/٢ • / قال أبو عبد الله : وكان آبنُ حنزابة هذا وابنُ العميد وأبو محمد المهلبى ، ثلاثتهمُ ، يخطبون على المتنبى ومنتقصون منه ، وينقدون عليه معانى شعره ويؤاخذونه بها ، وثلاثتهمُ كانوا وزراءً فضلاء .

والحمد لله وحده ، والصلاة على أكمل خلقه محمدٍ وعِترته الطاهرين وصحبه أجمعين ، صلاةً دائمةً إلى يوم الدين .

٣ - ترجمة المتنبي للمقرئ

(٤)

ترجمة المتنبي للمقريزي
من كتابه « المقفى »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ / - أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الكوفى ، ٣٤١/٢ ،
الشاعر المعروف بالمتنبي . وقيل : بل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار . وكان
أبوه الحسين يعرف بعيدان السقاء ، و « عيدان » بكسر العين المهملة ، وسكون الياء
آخر الحروف ، قاله الخطيب البغدادي .

٢ - وقال ياقوت الحموى : رأيت ديوان أبي الطيب المتنبي بخط أبي الحسن
على بن عيسى الربعى ، قال فى أوله : الذى أعرفه من نسب أبى الطيب أنه : أحمد بن
الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى ، وكان يكتم نسبه ، وقد سألته عن سبب طيه
ذلك ، فقال : إني أنزل دائماً بعشائر وبقبائل [من] العرب ، ولا أحب أن يعرفونى ،
خيفة أن يكون لهم فى قومي تيرة . وهذا الذى صحح لى من نسبه . (١)

٣ - وقال القاضى أبو على المحسن بن على التتوخى ، حدثنى أبو الحسين
[أبو الحسن] محمد بن يحيى الزيدى العلوى ، قال : كان المتنبي وهو صبى ينزل فى
جوارى بالكوفة ، وكان أبوه يعرف بعيدان السقاء ، يستقى لنا ولأهل المحلة ، ونشأ وهو
محب للعلم والأدب وطلبه ، وصحب الأعراب فى البادية ، فجاءنا بعد سنين بدويًا . وقد
كان تعلم الكتابة والقراءة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان
علمه من دفاترهم . فأخبرنى وراق كان / يجلس إليه يوماً قال لى : ما رأيت أحفظ من
هذا الفتى ابن عيدان قط ! فقلت له : كيف ؟ فقال : كان عندى اليوم وقد أحضر رجل
كتاباً من كتب الأصمعى يكون نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، فأخذ ينظر فيه طويلاً ، فقال له

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٨ .

الرجل : يا هذا أريد بيّعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه ، فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر ! فقال له ابن عِيدَان : فإن كنتُ قد حفظتُه في هذه المدة ، فما لى عليك ؟ قال : أهبُّ لك هذا الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، وقلت : هياً ! فأقبل يتلوه علىّ إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كفه ، فعَلِقَ به صاحبه يطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك من سبيل ، وقد وهبته لى ! قال : فمنعناه منه وقلنا له : أليس شرطت على نفسك هذا للغلام ؟ فتركه . (١)

٤ - وقال لى أبو الحسين [أبو الحسن] : كان عِيدَان والد المتنبي يذكر أنه من جُعْفَى ، وكانت جدة المتنبي هَمْدَانِيَّة صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، [وكانت] من صلحاء النساء الكوفيّات .

• قال التنوخى : فاتفق مجيء المتنبي بعد سنين إلى الأهواز مُنصرفاً من فارس ، فذاكرته بأبى الحسين [بأبى الحسن] فقال : تَرَى وصديقى وجرارى بالكوفة . وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف به ، وقال : أنا رجل أُخِيط القبائل ، وأطأ البلاد والبوادي ، ونخفت أننى متى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطلبة = [بطائلة] = بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها ، وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم من جميعهم ، ويخافون لسانى . فذكرت له / ما أخبرنى به أبو الحسين من انتسابه إلى جُعْفَى ، وأن جدته هَمْدَانِيَّة ، فما أنكر ذلك ولا اعترف به . (٢)

وقال : ومحلُّ أبى الحسين [أبى الحسن] فوق أن يحكى إلا صدقاً . (٣)

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ١٤ .

(٢) هذا الخبر مضى فى ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ١٥ ، ١٦ .

(٣) هذه الجملة التى انفرد بها هذا الخبر هنا ، والتى أراد بها التنوخى تصحيح خبره عن أبى الحسن محمد بن

يحيى العلوى ، تزيدنى شكاً فى رواية التنوخى وفى صدقه ، راجع ما سلف ص : ١٤٣ - ١٥٣ .

٥ - قال : واجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضي أبى الحسين [أبى الحسن] [ابن أم] شيبان الهاشمي الكوفي ، وجرى ذكر المتنبى فقال : أعرف أباه بالكوفة شيخاً ينضح على بعير له ، يُسمّى عيدان ، وكان جُفياً صحيح النسب . (١)

• ثم رأيت رجلاً كوفياً ضريراً ببغداد ، ويذكر أنه أخو المتنبى من أبيه وأمه ، وسألته عن نسبه ، فقال : كان أبونا يقول إنه من جُفِي . (٢) انتهى .

٦ - وكان مولد أبى الطيب فى كِنْدَةَ من الكوفة سنة ثلاث ، وقيل إحدى وثلاثمئة ، والأول أصح .

٧ - وقد اختلف فى تسميته بالمتنبى ، فقيل إنه ادّعى النبوة فى حدائته ، وقيل غير ذلك .

٨ - قال القاضي التنوخى : وقد كان المتنبى لما خرج إلى كلب وأقام فيها ، / ادّعى أنه علويّ حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علويّ ، إلى أن ٣٤٤/٢
أشهد عليه بالشام والكوفة [أنه نبي !!] ، (٣) وأشرف على القتل ، ثم استُتيب . (٤)

• وقال (٥) : وكان يتردد فى نفسى أن أسأل أبا الطيب المتنبى عن تنبيهه والسبب فيه ، وهل ذلك اسم وقع عليه على سبيل اللقب ، أو أنه كما كان يبلغنا ؟ فكنت أستحى منه لكثرة من يحضر مجلسه ببغداد ، وأكره أن أفتح عليه باباً يكره مثله . فلما جاء إلى الأهواز ، ماضياً إلى فارس ، خلوتُ به ، وطاولته الأحاديث وجررتها إلى أن قلت له : أريد أن أسألك عن شيء فى نفسى منذ سنين ، وكنت أستحى خطابك فيه من كثرة من كان

(١) هذا الخبر مضى فى ترجمة ابن العديم برقم : ١٧ .

(٢) هذا الجزء من الخبر غريب جداً فى نسبه إلى التنوخى ، فإنه لم يذكر فى مكان آخر منسوباً إليه ، انظر

ابن العديم رقم : ٨ ، والتعليق عليه .

(٣) هكذا فى الأصل ، وانظر ما سلف ص : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، وانظر ص : ٥٨٥ ، تعليق : ٢ ، وأنه

« حُسْنِي » ، لا « حسنى » .

(٤) ابن العديم رقم : ١٧ .

(٥) القائل هو التنوخى .

يحضرك ببغداد ، وقد خلونا الآن ، ولا بد أن أسألك عنه . وكان بين يديّ جزء من شعره عليه مكتوبٌ « شعر أبي الطيب المتنبي » ، فقال : تريد تسألني عن سبب هذا ؟ وجعل يده فوق الكتابة التي هي « المتنبي » ، فقلت : نعم . فقال : هذا شيء كان في الخدائثة أو جبته صورة . (١) فما رأيت رَهْصَمَةَ أَلْطَفَ منها ، (٢) لأنه يحتمل المعنيين في أنه كان تنبياً واعتمداً الكذب ، أو أن عنده أنه كان صادقاً ، إلا أنه اعترف بالمتنبي على كل حال .

• / قال : ورأيت ذلك قد صُعب عليه ، فاستقبحت أن أستقصي وألزمه الإفصاح بالقصة ، فأمسكت عنه . ٣٤٥/٢

٩ - وحكى القُطْرُبِيُّ وابن أبي الأزهر ، في تاريخ اجتماعا على تصنيفه ، أن المتنبي أُخرج ببغداد من الحبس إلى مجلس الوزير أبي الحسن على بن عيسى فقال له : أنت أحمد المتنبي ؟ فقال أنا أحمد النبي ، وكشف عن بطنه فأراه سلعةً فيه ، وقال : هذا طابع نبوتٍ وعلامةُ رسالتى ! فأمر بقلع شُمْشُكِهِ وَصَفَعَهُ به خمسين ، وأعادته إلى محبسه . ذكر ذلك على بن منصور القارح في رسالته إلى أبي العلاء المعري . (٣)

١٠ - وقال أبو علي بن أبي حامد : سمعت بحلب يحكون ، وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك ، أنه تنبأ في بادية السّماوة ونواحيها ، إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل

(١) هذا الخبر إلى هنا ، مذكور في ترجمة ابن العديم برقم : ٢٤ ، مع اختلاف كبير في اللفظ ، ثم انظر ما سلف من الكلام في هذا الخبر ص : ٥٥٢ - ٥٥٤ وما بعدها .

(٢) في الأصل « دهثمة » وكذلك في تكملة تاريخ الطبرى للهمداني الجزء الأول : ١٩٥ [بيروت ١٩٦١] ، على تحريف فيه وتصحيف . ولا معنى للدهثمة ، و « رهسم في كلامه أو في الخبر رهسمة » ، إذا أتى منه بطرف ولم يفصح بجميعة . وهذا الخبر هنا أتم مما رواه الخطيب في تاريخ بغداد ، في ترجمة أبي الطيب .

(٣) مضى هذا الخبر في ترجمة ابن العديم برقم : ٣٢ ، وقد ردّ الخبر وأظهر ما فيه من الخطأ الفاحش ، ثم انظر رسالة ابن القارح (الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، للدكتورة بنت الشاطيء) ص : ٢٥ ، ٢٦ . و « الجمشك » : ضرب من النعال ، يقال بالجيم والشين .

الإخشيدية ، وقاتله وأسره وشرّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما ، وحبسه في السجن دهنراً طويلاً ، ثم استتابه مما نقل عنه وأخرجه .

• قال : ومن قرّانه قوله من سورة : « والنَّجْمِ السَّيَّارِ ، والفَلَكَ الدَّوَّارِ ، واللَّيْلِ والنَّهَارِ ، إن الكافر لفي أخطار ، آمضِ على سَنِّكَ ، وأقف أثر مَنْ / كَانَ قَبْلَكَ من ٣٤٦/٢ المرسلين ، فإن الله قامع بك زَيْع مَنْ أَلْحَدَ في دينه وضلَّ سبيله » ، وهي طويلة . (١)

١١ - وقال له ابن خالويه النحويّ ، في مجلس سيف الدولة : لولا أنك جاهل لما رضيت أن تُدعى بالمتنبي ، لأن « متنبي » معناه كاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال له : أنا لست أرضى أن أُدعى بهذا ، وإنما يدعونى به من يريد الغضب مني ، ولست أقدر على الامتناع . (٢)

١٢ - وقال أبو علي بن أبي حامد : قال لي أبي ، وقد سمع قوماً يحكون عن أبي الطيب المتنبي هذه السورة التي قدما ذكرها : لولا جهله ، أين قوله : « آمض على سَنِّكَ » إلى آخر الكلام ، من قول الله تعالى : (فاصدع بما تُؤمر وأعرض عن المُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ) إلى آخر القصة ، فهل تتقارب الفصاحة فيهما ؟ أو يشتبه الكلامان ؟ (٣)

١٣ - وقال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقيّ : قدم المتنبي اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمئة ، وهو كما عدّ ، (٤) وله وقرة إلى شحمتي أذنيه ، وضوى إلى فأكرمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ، وقلت له يوماً : والله إنك لشاب خطير ،

(١) هذا الخبر ، ذكره ابن العديم في ترجمته برقم : ٢٣ مطولاً .

(٢) هذا الخبر أيضاً جزء من الخبر رقم : ٢٣ ، في ترجمة ابن العديم السالفة .

(٣) هذا الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٢٥ .

(٤) هكذا هنا وفي ابن العديم رقم : ٢٦ .

تصلح لمنادمة ملك كبير ! فقال لي : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟! أنا نبي مرسل . قلت له : مرسلٌ إلى مَنْ ؟ قال : إلى هذه الأمة الضالَّة المضلَّة . قلت : تفعل ماذا ؟ قال : أملؤها عدلاً كما مُلِئت جوراً . قلت : / بماذا ؟ قال : بإدِّرار الأرزاق ، والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الأعداق وقطع الأرزاق لمن عصى وأبى . فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيم ، أخاف منه عليك أن يظهر ! وعذلته على قوله ذلك ، فقال بديهاً :

أبا عَبْدِ الإِلهِ مُعَاذُ إِيَّيْ خَفِيَّ عَنْكَ فِي الْهَيْجَا مَقَامِي
ذَكَرْتَ جَسِيمَ مَا طَلَبِي ، وَأَنَا نُخَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهْجِ الْجِسَامِ
أَمْثَلِي تَأْخُذُ التَّكْبَاتُ مِنْهُ فَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْجَمَامِ
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصاً لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِي وَلَا سَارَتْ فِي يَدِهَا زِمَامِي
إِذَا أَمْتَلَّتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي ، فَوَيْلٌ لِلتِّيْقُظِ وَالْمَنَامِ

فقلت له : ألم تكن ذكرت أنك نبي مرسلٌ إلى هذه الأمة ؟ أفيوحي إليك ؟ قال : نعم . قلت : فأنتل عليّ شيئاً من الوحي إليك . فأتاني بكلام ما مرَّ عليّ سمعي أحسن منه . فقلت : ولم أوحى إليك من هذا ؟ فقال : مئة وأربع عشرة عِبْرَةً . قلت : ولم العِبْرَةُ ؟ فأتى بمقدار أكبر من الآي من كتاب الله . قلت : ففِي كَمْ مُدَّةٍ أُوحِيَ إِلَيْكَ ؟ قال : جملةً واحدة . قلت : فأسمِعْ في هذه العِبْرَ أن لك طاعةً في السماء ، فما هي ؟ قال : أحبس المدرارَ ، لقطع أرزاق العُصاة والفُجَّار . قلت : أتحبس من السماء قَطْرَها ؟ قال : إي ، والذي فَطَرها ، أفما هي معجزة ؟ قلت : بلى . قال : فإن حبستُه عن مكانٍ تنظر إليه ولا تشكّ فيه ، هل تؤمن بي وتصدِّقني على ما أتيتُ به من ربِّي ؟ / قلت : إي والله . قال : سأفعل ، ولا تسألني عن شيء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر ، وانتظر ما وُعدتُه من غير أن تسأله . فقال لي بعد أيام : أتُحِبُّ أن تنظر إلى المعجزة التي جرى ذكرها ؟ قلت : بلى والله . قال لي : إذا أرسلت إليك أحدَ العبيد فأركب معه ولا يخرج معك أحدٌ . قلت : نعم . فلما كان بعد أيام تغيّمت السماء

٣٤٧/٢

٢٤٨/٢

في يوم من أيام الشتاء ، وإذا عبَّدهُ قد أقبل فقال : يقول لك مولاي ، أركب للوعد . فبادرت بالركوب معه ، وقلت : أين ركب مولاك ؟ فقال : إلى الصحراء ، ولم يخرج معه أحدٌ غيري . واشتد وَقَعُ المطر ، فقال : بادِرْ بنا حتى نستكنَّ معه من هذا المطر ، فإنه ينتظرنا بأعلى تلٍّ لا يصيبه فيه المطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : أقبل ينظر إلى السماء أوَّلَ ما بدا السحاب الأسود ، وهو يتكلَّم بما لا أفهم ، ثم أخذ السَّوط فأدار به في موضعٍ ستنظر إليه من التلِّ ، وهو يُهمِّهم والمطر مما يليه ، ولا قطرة منه عليه . فبادرت معه حتى نظرتُ إليه ، وإذا هو على تليٍّ على نصف فرسخ من البلد ، فأتيته ، وإذا هو عليه قائم ما عليه من ذلك المطر قطرة واحدة ، وقد خُضَّت في الماء إلى رُكبتَي الفرس ، والمطر في أشدِّ ما يكون ! فنظرت إلى نحو ممتي ذِرَاعٍ في مثلها في ذلك التلِّ يابسٌ ما فيه ندَى ولا قطرةً مطر ، فسَلَّمت عليه ، فردَّ عليَّ وقال لي : ما ترى ؟ فقلت : أبسط يدك ، فأني أشهد أنك رسول الله ! فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوته ، ثم قال لي : ما قال لك هذا الخبيث لما دعاك ؟ - يعني عبده ، فشرحت له ما قال لي في الطريق لما استخبرته ، فقتل العبد وقال :

/ أَيَّ مَحَلِّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللّٰهُ هُوَ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

٣٤٩/٢

وأخذت بيعته لأهلي ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة عمَّت كل مدينة بالشام ، وذلك بأصغر حيلة تعلَّمها من بعض العرب ، وهي « صدَّحة المطر » يَصْرِفُهَا بها عن أيِّ مكان أحبَّ بعد أن يَحْوِيَّ عليه بعضاً وينفث بالصدَّحة التي لهم . وقد رأيت كثيراً منهم بالسُّكُون وحضرموت والسَّكاسك من اليمن ، يفعلون هذا ولا يتعاطمونه ، حتى إن أحدهم يصدح عن غنمه وإبله وبقره ، وعن القرية من القرى فلا يصيبها من المطر قطرة ، ويكون المطر مما يلي « الصدَّحة » ، وهو ضرب من السحر . ورأيت لهم من السحر ما هو أعظم من هذا ، وسألت المتنبي بعد ذلك : هل دخلت السُّكُون ؟ قال نعم ، ووالدي منها ، أما سمعت قولي :

أُمْنِسِي السُّكُونَ وَحَضْرَمُونَ وَوَالِدَتِي وَكِنْدَةَ وَالسَّبِيْعَا

فقلت : من ثم استفاد ما جوزه على طعام أهل الشام . (١)

١٤ - وقال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري : أخبرني بعض الكتاب ،

قال : كنت بالديوان في بعض بلاد الشام ، فأسرعت المذبة في إصبع بعض الكتاب وهو يبري قلمه ، وأبو الطيب حاضر ، فقام إليه وتفل عليه ، وأمسكها ساعة بيده ثم أرسلها وقد اندملت بدمها ، فجعل يعجب من ذلك ، ويبري / من حضر أن ذلك من معجزاته . (٢)

١٥ - وقال أبو الفتح عثمان بن جني النحوي : سمعت أبا الطيب يقول : إنما

لُقبْتُ بالمتنبي لقولي :

أَنَا فِي أُمَّةٍ ، تَذَارِكُهَا اللَّهُ ، غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ

مَا مُقَامِي بِدَارِ نَحْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

١٦ - وقيل له : على من تنبأت ؟ قال : على الشعراء . فقيل : لكل نبي

معجزة ، فما معجزتك ؟ قال قولي :

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

١٧ - ودخل أبو الطيب في صباه إلى الشام وجال في أقطارها ، وصعد بعد

ذلك إلى مصر ، وكان بها في سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة ، (٣) وقدم وافداً على سيف الدولة

ابن حمدان بحلب في سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة ، فأكرمه ونفق عليه ، إلى أن خرج من

حلب غضبان بسبب كلام وقع بينه وبين أبي عبد الله ابن خالويه في مجلس سيف الدولة ،

(١) هذا الخبر كله في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٢٦ .

(٢) الخبر ذكره ابن العديم في ترجمته السالفة برقم : ٢٧ ، انظر رسالة الغفران ص : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٣) هذا تاريخ جديد مهم في ترتيب رحلة المتنبي يحتاج إلى تفصيل ، وانظر ابن العديم رقم : ٦٦ .

فضربه ابن خالويه بمفتاح في سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، وصار إلى مصر مرة ثانية ، ومدح بها الأستاذ أبا المسك كافور الإخشيدي ، ولم يمدح بمصر غيره سوى فاتك الإخشيدي المعروف بالمجنون ، عندما بعث إليه من الفيوم = وكان مقيماً بها / لأن له مالاً بها كثيراً = ٣٥١/٢ كسوةً وجمالاً ، (١) جاء مبلغ ذلك ستمئة دينار ، وذلك أنه بلغه تقصير كافور به ، فمدحه بقصيدة أولها (٢) وكان المتنبي يقف بين يدي كافور وهو متكئ على سيفه في عشية كل عيد ، والشعراء تنشد مدائحها في كافور . فكلما فرغ شاعرٌ من إنشاده رفع كافور رأسه إلى المتنبي وقال : إيش تقول يا أبا الطيب في هذا الشاعر ؟ فيقول له ما يمكنه . وما زال مع كافور كذلك إلى أن هرب ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمئة . وسبب هربه تقصير كافور في حقه ، فإنه طلب منه أن يوليّه عملاً من أعمال مصر ، فلم يجبه إلى ذلك فسخط . وعندما عزم على الهرب من مصر أرسل إلى أبي بكر الفرغانى ، أحد جلساء كافور ، يقول له : إني أجذ وجعاً ، وللأستاذ عندي رُقعة فيها مُهمٌ ، فتدفعها إليه عشية العيد عند العتمة إذا تحلاً ، فقد هنيئته بالعيد ، وذكرت عُذرى في التأخر . فأخذ الفرغانى الرقعة ، وهرب المتنبي من ساعته ، وأصبح الناس بشغل العيد ، وجلس كافور عشية العيد للشعراء ، فسأل عن المتنبي وقال : سلوا عنه ! فتوائى من قيل له ، وتوانى الفرغانى أيضاً تلك الليلة في إيصال الرُقعة إلى كافور ، فلم يُوصّلها إليه إلا من الغد ، فجاء بها كافوراً مع العتمة ، وقال له ، والشمع بين يديه : دَفَع لى عبدك أبو الطيب المتنبي رُقعةً وهو ضعيفٌ من شىء يجذّه ، وعرفنى أنّ فيها مُهمّاً ! فأفهمه كافور أنه قد هجاه في الرقعة ، (٣) فأخذها بيده وقال : أرسلوا إلى أبى الطيب سلّوا عنه . فمضى

(١) كان في المخطوطة : « لأن له بها مالاً كثيراً وكسوةً وجمالاً » ، والكلام غير مستقيم ، ولا يستقيم

إلا بحذف الواو ، وسياقه : « عندما بعث إليه من الفيوم : كسوةً وجمالاً » .

(٢) الكلام في المخطوطة متصل ، وهو سهو . والقصيدة التي يعنىها هي قوله :

* لَأَخِيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ *

(٣) في المخطوطة : « فافهمه كافور » ، والصواب ما أثبت .

٣٥٢/٢ عدة من / الرسل في طلبه ، فانكشف الأمر أنه هرب . فوضع كافور الرُّقعة في الشمعة وأحرقها بيده وعلم أنه هجاه ، وأخذ يسب من حسن له التقصير في أمره ، وتأسف عليه ، وقلق بذهابه .

١٨ - وقدم المتنبي على عضد الدولة بشيراز ، فلما وصل إلى حضرته في أول مجلس شاهده فيه ، قال لأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف : أخرج ، واستوقفه واسأله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم في نفسه منا ؟ قال : فامتثلت ما أمرت به ولحقته ، وجلست معه وحادثته وطاولته ، وأطلت معه في المعنى الذي ذكرته ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه مني أن قال : « ما خدمت عيناى قلبى كاليوم » ، فجاء الجواب موزوناً ، واستوفى القول في اختصار من اللفظ . (١)

١٩ - ويقال إنه لما دخل على عضد الدولة بشيراز قال : أنا لا أنشد ماثلاً . فأمر له عضد الدولة بكرسى ، فلما دخل ورآه ، أنشده قائماً ، فأمره بالجلوس فأبى ، وقال : هيبتك تمنع من ذلك ! فوقع قوله وفعله منه أحسن موقع . (٢)

• ومن شعره :

آنصُرْ بِجُودِكَ أَلْفَاظاً تَرَكْتُ بِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ مِنْ عَادَاكَ مَكْبُوتَا
فَقَدْ نَظَرْتُكَ حَتَّى حَانَ مَرْتَحُلٌ وَذَا الْوِدَاعُ ، فَكُنْ أَهْلًا لِمَا شِيتَا

/ فأعطاه دون الخمسة دراهم وقبلها . (٣)

٣٥٣/٢

(١) في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧١ ، ثم ترجمة ابن عساكر برقم : ٢٠ .

(٢) مضى هذا الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة ، في خلال الخبر رقم : ٣٦ .

(٣) هذا موضع سقط لا شك فيه ، فلذلك فصلته ولم أجعل له رقماً ، وألحقته بالخبر رقم : ١٩ ، وانظر

الخبر تاماً في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٤٥ .

٢٠ - وخرج من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصداً بغداد ، ثم سار منها إلى الكوفة ، حتى إذا بلغ دير العاقول وخرج منه قدر ميلين ، خرج عليه فرسانٌ ورَجَّالة من بنى أسدٍ وشييان ، فقاتلهم مع غلامين من غلمانة ساعة ، وقتلوه وقتلوا معه أحد الغلامين وهرب الآخر ، وأخذوا جميع ما كان معه ، وقتلوا ابنه المحسّد ، وذلك يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة بالقرب من النعمانية = وقيل : لخمس بقين من رمضان المذكور = وقيل : فى شؤال بالصافية من أرض واسط ، والذي قتله فاتك بن أبى جهل ، ابن خالة « ضبّة » الذى هجاه المنبى ، وكان على شاطىء دجلة . (١)

٢١ - وذكر الخالديان ، عن أبى نصر محمد بن المبارك الجبلى قال : خرج المنبى من واسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، وقُتِلَ بِنُورَى = بفتح أوله ، وضَمّ ثانيه ، وبعده زائى معجمة ، مقصورٌ على وزن « فَعُولَى » (٢) = بشطّ الفرات ، ضيعةٌ بقرب دير العاقول ، فى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان ، وكان معه يوم قُتِلَ سبعون ألف دينار . وأُخْرِجَ من الماء مقتولاً ، ودفن بالصائفة ، / والذي قتله فاتك بن أبى جهل بن فراس بن بداد ، وهو قرابة لوالدة ضبّة بن يزيد العيى الذى هجاه المنبى بقوله :

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضِبَّةً وَأُمَّهُ الطَّرْطِبَةَ

ويقال : إِنَّ فَاتَكَ خَالَ ضِبَّةٍ . (٣)

(١) هذا الخبر مذكور فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٩ .

(٢) أما ياقوت فذكرها « بالراء » ولم يقل « راء مهملة » ، فأخشى أن يكون تصحيفاً فى معجم البلدان .

وفى معجم ياقوت فوائد ، فراجعها هناك . وانظر ما سلف فى ابن العديم رقم : ٧٨ ، ثم رقم : ٨١ « بيزع » .

(٣) انظر رواية الخالدين لمقتل المنبى مطولة فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٨١ .

٢٢ - وديوان شعر المتنبي مشهورٌ ، والجيد من شعره لا يجارى فيه ولا يلحق ،
والردى منه في غاية الرداءة والسقوط ، هذا هو الإنصاف في حقه . والناس فيه مذهبان ،
وقد تعصبت له وعليه طوائف ما بين غالٍ ومقصرٍ .

٢٣ - وقد روى عنه القاضي أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي ،
وأبو الفتح عثمان بن جنى ، وأبو محمد الحسن بن علي بن الصقر الكاتب ، وأبو الحسن علي
ابن أيوب بن الحسين بن الساريان الكاتب ، والأستاذ أبو علي أحمد بن مسكويه ، وأبو
عبد الله بن باكوئه الشيرازي ، وأبو الحسن علي بن عيسى الربعي ، وأبو القاسم بن حسن
الحمصي ، وعبد الصمد بن زهير بن هرون بن أبي جرادة ، ومحمد بن عبد الله بن سعد
النحوي الحلبي ، وعبد الله بن عبيد الله الصفري الشاعر الحلبي ، وعبيد الله بن محمد بن
أحمد بن محمد بن أبي الجوع الوراق المصري ، وأبو إسحق إبراهيم بن عبد الله المغربي ، وأبو
بكر الطائي ، وأبو القاسم النيلبختي ، وأبو محمد الحسين بن عمر / بن إبراهيم ، وأبو
العباس بن الحوت ، وجماعة سواهم . (١)

٢٤ - ويقال إن بعض الأشراف قدم من الكوفة فدخل إلى مجلس فيه المتنبي ،
فنهض الناس كلهم له سوى المتنبي ، فجعل كل واحد من الحاضرين يسأله عن الأحوال
في الكوفة وما تجدد هناك ، فقال المتنبي : يا شريف ، كيف خلفت الأسعار بالكوفة ؟
فقال له : راوية برطلين خبز ! فأخجله . وذلك أنه قصد أن أباه عيدان كان سقاءً . (٢)

٢٥ - وقال أبو العباس النامي المصيصي : كان قد بقي من الشعر زاوية
دخلها المتنبي ، وله معنيان ما سبق إليهما ، قوله :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُوَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ

(١) انظر ترجمة ابن العديم فيما سلف رقم : ٦ .

(٢) هذا الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٥٠ .

والآخر :

في جَحْفَلٍ سَتَرَ العيونَ غُبَارُهُ فكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالآذَانِ (١)

٢٦ - وقال أبو الفتح بن جنّي : كنت أقرأ ديوان أبي الطيّب عليه ، فقرأتُ

قوله في كافور :

أغالبُ فيكَ الشوقَ ، والشوقُ أغلبُ _____ وأعجبُ من ذا الهَجْرِ ، والوصلُ أعجبُ

/ حتى بلغتُ إلى قوله :

٣٥٦/٢

ألا ليتَ شِعْرِي ، هل أقولُ قصيدةً فلا أشتكى فيها ولا أتعتبُ
ولى ما يذودُ الشعرَ عَنِّي أقلُّه ولكنَّ قلبي ، يا أبنَةَ القومِ ، قُلبُ

فقلت : يعزُّ عليّ ، كيف يكونُ هذا الشعرُ في ممدوح غير سيف الدولة ؟ فقال :

حذرناه ، وأنذرناه ما نفع ، ألسْتُ القائل :

أخا الجُودِ أعطِ الناسَ ما أنتَ مالِكُ ولا تُعْطِينَ الناسَ ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني لكافورٍ بسوءِ تدييره وقلة تمييزه . (٢)

٢٧ - وذكر صالح بن إبراهيم بن رشدين قال ، قال لي أبو نصر بن غياث

النصراني الكاتب : اعتلَّ أبو الطيّب بمصر العلة التي وصف الحمى في أبياته من

القصيدة الميمية ، فكننتُ أواصل عيادته وقضاء حقوقها ، فلمَّا توجَّه إلى الصلاح وأبَّل ،

أغيبْتُ زيارته ، ثقةً بصلاحه ، ولشغل قطعني عنه ، فكتبَ إليّ :

« وَصَلَّتْني ، وَصَلَّكَ اللهُ ، مُعْتَلًّا ، وَقَطَعْتَنِي مُبِلًّا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ لَا تَحْبِبَ العلةَ

إليّ ، وَلَا تَكْذُرُ الصَّحَّةَ عَلَيَّ ، فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ » . (٣)

(١) هذا الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٥٤ .

(٢) الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٦٢ .

(٣) هذا الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٢ .

٢٨ - / وقال علي بن حمزة البصري : بلوت من المتنبي ثلاث خصال ذميمة
كُلِّ الذم ، وهي أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن = وبلوت منه ثلاث خصال محمودة :
ما كذب ولا زنى ولا لاط . ٣٥٧/٢

٢٩ - وقال أبو العباس بن الحوت الوراق : أنشدني أبو الطيب المتنبي
لنفسه :

تَضَاحَكَ مِنَّا دَهْرُنَا لِعِبَاءِ بِنَا وَعَلَّمْنَا التَّمْوِيَةَ لَوْ نَتَعَلَّمُ
شَرِيفُ زُغَاوِيٍّ ، وَزَانٍ مَذْكُرٌ ، وَأَعْمَشُ كَحَالٍ ، وَأَعْمَى مِنْجُمٌ (١)

٣٠ - وما أحسن قوله :

هَنِيئاً لَكَ الْعَيْدُ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ ، وَعَيْدٌ لِمَنْ سَمَى وَضَحَى وَعَيْدًا
فَذَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى كَمَا أَنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدٌ كَانَ أَوْحَدًا (٢)

٣١ - وقال ، وقد نُعي في مجلس سيف الدولة ، وهو يومئذٍ عند كافور بمصر :

يَا مَنْ نُعِيْتُ عَلَى بُعْدِ بِمَجْلِسِهِ كُلُّ بَمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ
/ كَمْ قَدْ قُتِلْتُ ، وَكَمْ قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمْ ، ثُمَّ أَنْتَفِضْتُ فزَالَ الْقَبْرُ وَالْكَفَنُ
قَدْ كَانَ شَاهِدًا دَفَنِي ، قَبْلَ قَوْلِهِمْ ، جَمَاعَةٌ ، ثُمَّ مَاتُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوا
مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

٣٥٨/٢

٣٢ - وقال ، وقد مرض بمصر ، وهي أحسن ما وُصِفَتْ به الحمى :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِجَابًا جَزَيْتُ عَلَى آبِتْسَامٍ بَابِتْسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَتَامِ
وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

(١) الخبر في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٣ ، وشرح المعنى هناك .

(٢) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٧٤ .

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلَا وَرَائِي
 وَمَلْنِي الْفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنْبِي
 قَلِيلٌ عَائِدِي ، سَقِمَ فُؤَادِي ،
 عَلِيلُ الْجِسْمِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ ،
 وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً
 بَدَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا ،
 يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنِ نَفْسِي وَعِنَهَا ،
 إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي ،
 كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا ، فَتَجْرِي
 / أَرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ
 وَيَصْدُقُ وَعَدُّهَا ، وَالصَّدْقُ شَرٌّ
 أَبْنَتَ الدَّهْرِ ، عِنْدَ كُلِّ بِنْتٍ ،
 جَرَحَتْ مُجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ
 يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ : أَكَلْتَ شَيْئًا !
 وَمَا فِي طَبِّهِ أُنِّي جَوَادٌ
 فَإِنْ أَمْرُضُ فَمَا مَرِضَ اصْطِبَارِي ،
 وَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى ، وَلَكِنْ

تَحُبُّ بِي الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
 يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ
 كَثِيرٌ حَاسِدِي ، صَعَبٌ مَرَامِي
 شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ
 فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
 فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
 فَتَوَسَّعَتْ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
 كَأَنَّ عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
 مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ
 مُرَاقِبَةُ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
 إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ
 فَكَيْفَ خَلَصْتِ أَنْتِ مِنَ الرَّحَامِ ؟
 مَكَانٌ لِلسُّيُوفِ وَلِلسَّهَامِ
 وَدَاوُكٌ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
 أَضَرَ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ
 وَإِنْ أَحْمَمَ فَمَا حُمَّ اعْتِرَامِي
 سَلِمْتُ مِنَ الْجِمَامِ إِلَى الْجِمَامِ

٣٥٩/٢

٣٣ - وراثه أبو القاسم المظفر بن علي الزوزني الكاتب بقوله :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ
 كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْدٍ
 كَانَ فِي لَفْظِهِ نَبِيًّا ، وَلَكِنْ
 إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ
 شَيْءٌ وَفِي كِبْرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ
 ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

٣٤ - وقالت أختُ المتنبي لما قُتِلَ : (١)

يا حازمَ الرأى إلا في تهجِّمه على المكاره ، غابَ البدرُ في الطفلِ
لنعم ما عاملتك المرهفاتُ به ! ونعم ما كنتُ توليها من العملِ !
/ الأرضُ أمُّ أصبناها بواجدها فاسترجعته ، وردتهُ إلى الحبلِ

٣٦٠/٢

٣٥ - ومن عجيب نقد الشعر : أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة بن حمدان

قصيدته التي أولها :

* على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ *

[فلما بلغ المتنبي إلى قوله :

وقفت ، وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ] ، (٢) كأنك في جفنِ الردى ، وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلَّمى هزيمةً ، ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسمٍ

[قال سيف الدولة : قد انتقدتهما عليك] ، (٣) كما انتقد على امرئ القيس

قوله :

كأننى لم أركبَ جواداً للذِّة ولم أتبطنُ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبِ الرُّقَّ الروى ولم أقل لخيلى : كرى كرى ، بعد إجفالِ

فكما كان ينبغي لامرئ القيس أن يركبَ القسم الأخير من بيته الأول ، على

القسم الأول من بيته الثاني ، فيقول :

(١) شعرها في ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٨٣ .

(٢) الكلام متصل في المخطوطة ، وما بين القوسين هو حق الكلام .

(٣) الكلام متصل فيها ، وحق الكلام ما أثبت .

٣٦١/٢

/ كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا ، وَلَمْ أَقْلِ
لخَيْلِي كُرَى كَرَّةً ، بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أُسْبَأِ الزُّقَّ الرَّوِيَّ لِلذِّةِ
وَلَمْ أُتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

فيقرن لذة الشرب بلذة النكاح ، وركوبه الجواد بأمره خيله بالكر = فكذلك كان
ينبغي أن تركب هذين البيتين فتقول :

وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفِ
وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَعْرُكٌ بِاسِمِ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

حتى يأتلف المدح بتيقن الموت ، مع توضيح الوجه وتبسم الثغر ، ويأتلف (١)

(١) الكلام غير تام في المخطوطة . والقصة معروفة ، انظر نسخة ديوان المتنبي ص : ٢٧٧ طبعة الدكتور

عبد الوهاب عزام . الصبح المنبي (دار المعارف) ص : ٨٤ ، ٨٥ .

الفهارس

هذا الكتاب أربعة أقسام :

الأول : « قصة هذا الكتاب ، وفساد حياتنا الأدبية » . ورمزت لهذا القسم في

الفهارس بالعدد المغربي (1)

الثاني : « كتاب المتنبي » ، ورمزت لهذا القسم في الفهارس بالعدد المغربي (2)

الثالث : « قضية المتنبي » ، ورمزت لهذا القسم في الفهارس بالعدد المغربي (3)

الرابع : « أربع تراجم للمتنبي ، لم تُنشر » ، ورمزت لهذا القسم في الفهارس

بالعدد المغربي (4)

فوضعت هذا الرمز قبل أرقام الصفحات التي تليه ، تيسيراً

وتوضيحاً لما تطلبه في الفهارس ، في أي الأقسام الأربعة يقع ما تطلبه .

فهرس شعر أبي الطيب

- ١ (متقارب) ولكنه ضحكك كالبيكا
١. ٦٤، ٧٠، ٧٣، ٢. ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٢،
٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣. ٤٤٤، ٤٢٢
- ٢ (وافر) جُعلتُ فداءه وهم فِدائِي ٢٣٨. ٢
- ٣ (وافر) فَطِئْتُ وَكُنْتُ أَعْبَى الْأَعْبِيَاءِ ٤٤٤. ٣
- ٤ (خفيف) أسد القلب آدمي الرواء ٣٦٤، ٣٥٧، ١٧٧. ٢
- ٥ (متقارب) أسير المنايا صريع العطب ٦٠٣. ٤، ٤٩١. ٣، ١٩٥. ٢
- ٦ (متقارب) فسمعا لأمر أمير العرب ٣٧٧، ٣٣٠. ٢
- ٧ (طويل) فكل بعيد الهم فيها معذب ٦٩٣، ٦٦٥، ٦٤٣. ٤، ٣٦٤، ٣٥٤. ٢
- ٨ (طويل) فباعدنا عنه ونحن الأقارب ٢٢٨، ١٤٩. ٢
- ٩ (طويل) سكوت بيان عندها وعطاب ٣٦٣. ٢
- ١٠ (خفيف) لا لشيء إلا لأني غريب ٦٦٣. ٤، ٢٣٠، ٢٢٥، ١٦٣. ٢
- ١١ (طويل) فداء الورى أمضى السيوف مضاربا ٦٦٦. ٤
- ١٢ (بسيط) لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا ٢٥٥، ١٨١. ٢
- ١٣ (وافر) فهل من زورة تشفى القلوبا ٢٨٧. ٢
- ١٤ (رجز) فرب رأى أخطأ الصوابا ٢١٩. ٢
- ١٥ (طويل) وردوا رقادى فهو كحظ الحباب ١. ٥٢، ٢. ١٥٤، ١٥٦، ١٦٩، ٢٩٣، ٣. ٦٢٩. ٤، ٥٦٥
- ١٦ (طويل) مُنِعْنَا بِهِ مِنْ جِيئةٍ وَذَهَابِ ٣٩٢. ٢
- ١٧ (بسيط) كناية بهما عن أشرف النسب ١. ٣٣٨، ٢. ٣٤٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٤. ٦٢٦، ٦٧٢
- ١٨ (بسيط) ثم اختيرت فلم ترجع إلى أدب ٦٠٣، ٦٠٠. ٤
- ١٩ (بسيط) منى بجلوى الذى أعطت وتجربى ١. ١٠٧، ٢. ٣٤٩، ٣. ٥٣٠، ٤. ٦٧١، ٦٧٧

- ٢٠ (بسيط) في الشرق والغرب من عاداك مكبوتا ٦٩٠ ، ٦٣٢ . ٤
- * * *
- ٢١ (وافر) ومثلك يتقى أبداً ويرجى ٦٠١ . ٤
- * * *
- ٢٢ (كامل) يغدو على من النهى ما لم ترخ ٦٢٥ . ٤
- ٢٣ (وافر) وفارس كل سلهبة سبوح ٥١٤ . ٣
- * * *
- ٢٤ (طويل) عواذل ذات الخال في حواسد ٦٧٣ . ٤
- ٢٥ (طويل) كأنهم من طول ما التثموا مرد ٦٣٠ . ١ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ١٧٦ . ٢ ، ٤٦١ . ٣ ، ٦٨٨ ، ٦٧٢ ، ٦٤١ ، ٦٢٢ . ٤
- ٢٦ (بسيط) بما مضى أم لأمر فيك تجديد ٣٧٠ . ٢
- ٢٧ (طويل) فأت الذي صيرتهم لى حسدا ٣٥٨ . ٢ ، ٣٦٢ ، ٦٣٧ . ٤ ، ٦٤٨ ، ٦٧١ ، ٦٩٤
- ٢٨ (بسيط) لا تحسدن على أن ينأم الأسد ١٧٦ . ٢
- ٢٩ (متقارب) أم الخلق في شخصي حي أعيدا ٢٥٩ . ٢
- ٣٠ (طويل) قربت به عند الوداع من البعد ٣٨٠ . ٢ ، ٦٢٧ . ٤
- ٣١ (طويل) من الوصل ما يشفى الفؤاد من الوجد ٥٩٥ . ٤
- ٣٢ (وافر) وقود الخيل مشرفة الهوادي ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ . ٢
- ٣٣ (خفيف) وبنفسى فخرت لا بجدوى ٢٣٣ ، ١٨٩ ، ١٦٧ ، ١٦٠ . ٢ ، ٧١ ، ٦٦ . ١ ، ٦٨٨ ، ٦٢٢ ، ٦١٥ . ٤ ، ٤٥١ ، ٤٣٢ . ٣
- ٣٤ (متقارب) وأوهن رجلى ثقل الحديد ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢١٥ . ٢ ، ٨٨ . ١ ، ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٦١٥ . ٤ ، ٣٨٩ ، ٢٣١
- * * *
- ٣٥ (طويل) وحيدا ، وما قولى كذا ومعنى الصبر ٤٤٣ . ٣ ، ٣١٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٤ . ٢
- ٣٦ (وافر) طوال فنا تطاعنها قصار ٦٧٤ . ٤
- ٣٧ (وافر) طويل العمر بينهما قصير ٦٠٢ . ٤
- ٣٨ (كامل) إلا السعاية بينهم مغفور ١٤٩ . ٢

- ٣٩ (كامل) دون اللقاء ولا يشطُّ مزارُ ٣٢١ . 2
- ٤٠ (طويل) وسُكْرِي مِنَ الْأَيَّامِ جَنَّبِنِي السُّكْرَا ٥٩٤ - ٥٩٢ . 4
- ٤١ (كامل) وبكائك إن لم يجر دمعك أو جرى ٦٦٩ . 4 ٣٧٩ . 2
- ٤٢ (متقارب) ... لَا يَخْتَصِرُصْنَ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا ٣٠١ . 2
- ٤٣ (متقارب) وَصَارَ طَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصَارَا ٣٥٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ . 2
- ٤٤ (بسيط) فَإِنِّي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْتَارِ ٢٧٥ . 2
- ٤٥ (وافر) وَكُلُّ عُدَاوِي قَلِقُ الضُّفُورِ ٢٧٦ . 2
- ***
- ٤٦ (متقارب) وَأَطِيبُ مَا شَمَّهُ الْمَعْطَسُ ٦٤٩ . 4
- ٤٧ (كامل) هانت على صفات جالينوسًا ١٨٩ . 2
- ***
- ٤٨ (وافر) ولم تقبل على كلام واش ٣٢٦ ، ٣٠٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ . 2
- ***
- ٤٩ (سريع) فَصَنَّتْ عَنْهُ الْوَجْهَ وَالْعِرْضَا ٦٢٦ . 4
- ***
- ٥٠ (طويل) أَقْلُ جُرَىءَ بَعْضُهُ الرَّأْيِ أَجْمَعُ ١٨٩ . 2
- ٥١ (بسيط) غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ٦٧٣ . 4
- ٥٢ (بسيط) فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بَدْعَا ٦٤٥ . 4
- ٥٣ (وافر) وَوَالِدِي وَكَنْدَةَ وَالسَّبِيْعَا ٦٨٨ ، ٦٢٠ . 4 ، ٥٦١ . 3 ، ٢٠٤ ، ١٤١ . 2
- ٥٤ (خفيف) وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَجْتِمَاعَا ٤٨٢ ، ٤٨٠ ، ٤٧٩ . 3
- ٥٥ (طويل) مَخَافَةَ تَطْلِمِ الْفُؤَادِ مُرْوِعُ ٦٦٨ . 4
- ***
- ٥٦ (طويل) وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدِيهِ خَفِيفُ ٤٨١ . 4 ، ٣٦٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٠٩ . 2
- ٥٧ (كامل) مِنْ آلِ هَاشِمٍ بِنِ عَبْدِ مَنْفَا ٦٦٣ . 4 ، ٢٠٤ ، ١٥٧ . 2
- ٥٨ (سريع) عَاجِلَةٌ الْفَأَّا عَلَى الْفِ ٦٦٧ . 4
- ٥٩ (منسرح) وَالسَّجْنِ وَالْقَيْدِ يَا أَبَا دُلْفِ ٢٢٥ . 2
- ***

- ٢٣٩ . 2 (طويل) وغيرى بغير اللاذقية لاحق ٦٠
- ٢٣٧ . 2 (كامل) أبداً غرابُ البين فيها ينعق ٦١
- ٦٤٢ . 4 (وافر) أيديرى الدمع أى دم أراقا ٦٢
- ٦٧٣ . 4 ، ٣٤٦ ، ٣٣٣ . 2 (طويل) وللحب ما لم يبق منى وما بقى ٦٣
- ٦٧٤ . 4 (طويل) تذكرت ما بين العذيب وبارق ٦٤
- ٦٨٧ ، ٦١٩ . 4 ، ٢١١ ، ٢٠٣ . 2 (رجز) أى عظيم أتقى ٦٥
- ٦٣٦ . 4 (خفيف) زرت كحال التحول دون العناق ٦٦
- ***
- ٣٩٠ ، ٣٨٢ . 2 (وافر) أذاة أو نجاة أو هلاكا ٦٧
- ***
- ٤٩٩ ، ٤٨٧ . 3 ، ١٨٣ . 2 (سريع) منشورة الضفرين يوم القتال ٦٨
- ٦٩٣ ، ٦٧٤ ، ٦٦٥ ، ٦٤٣ . 4 ، ٣٥٩ . 2 (طويل) ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ٦٩
- ٢٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ . 2 (طويل) وآخر قطن من يديه الجنادل ٧٠
- ٦٧٣ . 4 ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٢٦٧ . 2 (طويل) فكتم هارب مما إليه يؤول ٧١
- ٣٦٧ ، ٣٦٦ . 2 (بسيط) فليسعد النطق إن لم يسعد الحال ٧٢
- ٦٧٣ . 4 ، ٣١٩ . 2 (وافر) تأن وعدة مما تُبيل ٧٣
- ٢٨٢ ، ٢٨١ . 2 (كامل) أبداً إذا كانت لمن أوائل ٧٤
- ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ . 2 (منسرح) تعجز عنه العرامس الدلل ٧٥
- ٣٢٩ - ٣٢٧ . 2 (خفيف) فمتى الوعد أن يكون القفول ٧٦
- ٦٧٣ . 4 (متقارب) أيقدح في الحيمة العذل ٧٧
- ١٨٩ . 2 (بسيط) إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً ٧٨
- ٢٦٩ . 2 ، ٩٤ . 1 (وافر) فساعة هجرها يجد الوصالا ٧٩
- ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٣٤ . 2 (كامل) فى الناس ما بعث الإله رسولا ٨٠
- ٣٩٩ . 3 (خفيف) يتفارسن جهرة واعتيالاً ٨١
- ٢٤٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ . 2 (خفيف) تكن الأفضل الأعز الأجلأ ٨٢
- ٤٩٧ . 3 ، ١٩٨ . 2 (طويل) بريئاً من الجرحى سليماً من القتل ٨٣
- ٣٢٢ . 2 (طويل) تفوت من الدنيا ولا موهب جزل ٨٤

- ٣٤٥ . 2 (بسيط) ٨٥ دعا فلبأه قبل الركب والإيل
- ٦٦٦ . 4 (بسيط) ٨٦ وقد أغدأ إليه غير مُحْتَفِل
- ٦٩٢ ، ٦٧٣ ، ٦٣٦ . 4 ، ٣٦١ ، ٣٢٠ . 2 (وافر) ٨٧ نصيبك في منامك من خيال
- ٥٩٥ . 4 (خفيف) ٨٨ وانظر اليوم ما ترى من قتالي
- ٣٥٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ . 2 (متقارب) ٨٩ وتغفر للمذنب الجاهل
- * * *
- ٢٥٧ ، ٢٥٦ . 2 (طويل) ٩٠ فتسكن نفسى أم مهان فمسلم
- ٦٧٣ . 4 (طويل) ٩١ إذا كان مدح فالنسيب المقدم
- ٦٩٤ ، ٦٤٨ . 4 (طويل) ٩٢ وعلمنا التوية لو نتعلم
- ٦٩٧ ، ٦٩٦ . 4 (طويل) ٩٣ على قدر أهل العزم تأتي العزائم
- ٦٣٨ ، ٦٣٧ . 4 (طويل) ٩٤ كما نثر فوق العروس الدراهم
- ٤ ، ٤٤٣ . 3 ، ٣٩٢ ، ٣٤٤ ، ١٦٠ ، ١٥٩ . 2 (بسيط) ٩٥ بأننى خير من تسعى به قدم
- ٦٦٧ ، ٦٦٦ ، ٦٥١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٤
- ٣٨٩ . 2 (بسيط) ٩٦ كيما تزول شكوك الناس والتهم
- ٢٦١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٠ . 2 (وافر) ٩٧ وعمر مثل ما تهب اللئام
- ٢٩٤ . 2 (كامل) ٩٨ عرضاً نظرت وخلت أنى أسلم
- ٢٦٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ . 2 (منسرح) ٩٩ تفلح عرب ملوكها عجم
- ٢٧٤ ، ٢٥٢ ، ٢٤٥ . 2 (خفيف) ١٠٠ ... غذاء تضى به الأجسام
- ٣١٩ . 2 (خفيف) ١٠١ ... لة فيك وخائته قريك الأيام
- ١٧٦ - ١٧٣ ، ١٧٠ ، ١٦٧ - ١٦٠ . 2 (طويل) ١٠٢ بها أنف أن تسكن اللحم والعظمًا
- ٢٤١ - ٢٤٣ ، ٢٨١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٤٣٤ . 3 ، ٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
- ٦١٤ . 4 ، ٥٠٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠١ . 3 ، ١٨٧ . 2 (كامل) ١٠٣ هم أقام على فؤاد أنجمًا
- ٥٠٣ ، ٥٠٠ ، ٤٩٦ ، ٤٩٥ . 3 ، ١٨٥ . 2 (طويل) ١٠٤ وحتى متى فى شقوة وإلى كم
- ٣٥١ . 2 ، ٤٥ ، ٤٤ . 1 (طويل) ١٠٥ وأم ومن يمت خير ميمم
- ٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ١٦٩ ، ١٥٦ . 2 ، ٥٢ . 1 (طويل) ١٠٦ كأنهم ما جف من زاد قادم
- ٦٣٣ . 4 ، ٥٦٥
- ٢٣٧ . 2 (بسيط) ١٠٧ فإنما يقظات العين كاللحم
- ٢٤٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ . 2 (بسيط) ١٠٨ ولا القناعة والإقلال من شيجى

- ١٠٩ (بسط) ونبلى خبرى عن صمّة الصم
- ١١٠ (بسط) فبما النفوس تراه غاية الألم
- ١١١ (وافر) خفى عنك فى الهبجا مقامى
- ١١٢ (وافر) بسير أو قناة أو حسام
- ١١٣ (كامل) جلبت جمامى قبل يوم جمامى
- ١١٤ (خفيف) فافتضحنا بنوره فى الظلام
- ==
- ١١٥ (بسط) ولا نديم ولا كأس ولا سكن
- ١١٦ (بسط) فلا أعاتبه صفحا وإهوانا
- ١١٧ (كامل) ثم اعترفت لها فصارث ديدنا
- ١١٨ (بسط) ولا أمرٌ بخلق غير مضطغين
- ١١٩ (بسط) وفرق الهجر بين الجفن والوسن
- ١٢٠ (بسط) ثم استوى فيه إسرارى وإعلانى
- ١٢١ (وافر) بضوتهما ولا يتحاسدان
- ١٢٢ (وافر) بمنزله الربيع من الزمان
- ١٢٣ (وافر) أمانيها ، وضوء الناظرين
- ١٢٤ (كامل) فكأنما يصيرن بالآذان
- ***
- ١٢٥ (كامل) زان الإمامة بالوصى
- ١٢٦ (طويل) لفارقت شيبى موجع القلب باكيا
- ==
- ١٢٧ (كامل) وأرى بطرف لا يرى بسوائه
- ١٢٨ (مجت) ما أنصف القوم ضبة
- ١٢٩ (سريع) نعاف ما لائد من شربه
- ***
- ١٣٠ (كامل) ... فى كل مليحة ضراتها

- ١٣١ (خفيف) فى عُلَاهُ حَتَّى ثَنَاهُ اعْتِقَادُهُ ٦٦٩ . 4
- ١٣٢ (طويل) وَأَشْكُو إِلَيْهَا يَيْشًا وَهِيَ جَنْدُهُ ٦٧٥ . 4 ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ . 2
- ١٣٣ (منسرح) أَبْعُدْ مَا بَانَ عَنْكَ تُخَرِّدُهَا ٥١٢ ، ٥١١ . 3 ، ١٥٢ . 2 ، ٥٨ ، ٥٧ . 1
٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٥١٥
- ١٣٤ (بسيط) يَغْرِى طُلَى وَآمِقِيهِ فِى تَجَرُّرِهِ ٦٠٠ . 4
- ***
- ١٣٥ (منسرح) وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ ٤٠٤ . 3 ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٣٣ ، ١٣٧ . 2 ، ٤٦ . 1
٤٤٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٠ ، ٤١٤ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨
- ***
- ١٣٦ (منسرح) غَيْرِ مَنْفِيهِ عَلَيْكَ مَنْ شَتَمَكَ ٦٢٤ . 4
- ١٣٧ (طويل) وَفَاؤُكَ كَالرَّبِيعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٦ . 2
٦٧٣ ، ٦٦١ ، ٦٤٤ ، ٦٣٠ ، ٦٢٧ . 4 ، ٣١٩
- ***
- ١٣٨ (مديد) يَا لَقَحْطَانِي وَيَعْرِيَّةَ ٦٥ . 1
- ***

أبيات لغير المتنبي

- ١ (طويل) وَلَمْ يَأْتْ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ هَائِبًا سَعْدُ بْنُ نَاشِبِ الْمَازِنِيِّ ٤٦ . 1
- ٢ (طويل) بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبٍ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ ٦٧٧ ، ٦٣٠ . 4
- ٣ (وافر) عَدُوٌّ لِي يُلَقَّبُ بِالْحَبِيبِ سَيُويهِ الْمَوْسُوسُ ٦٧٠ . 4
- ٤ (مجتث) عَلِيٌّ قَفَا الْمُتَنَبِّيَّ ابْنُ الْحِجَاجِ الشَّاعِرِ ٦٢٥ . 4
- ***
- ٥ (كامل) وَالْقَوْلُ بِالصَّدْقِ الْمُبِينِ يَتَضَيِّحُ الضَّبُّ الضَّرِيرِ ٦٢٥ . 4
- ٦ (طويل) وَمَا زَالَتْ الْأَشْرَافُ تُهْجَى وَتُمدَّحُ ٦٥٣ ، ٥٩٧ . 4
- ***
- ٧ (بسيط) فَالصَّبِيحُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَادُ ابْنِ الْمَعْتَزِ ٦٧٧ . 4
- ٨ (طويل) وَجُرِّدَتْ تَجْرِيدًا لِيَمَانِي مِنَ الْعَمْدِ ذُو الرِّمَّةِ ٤٠١ . 3
- ٩ (كامل) وَمُهَدَّبُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ عَلِيُّ بْنُ مَرْ ٦٠١ . 4
- ***
- ١٠ (طويل) أَجْرُرُ حَبِيلًا لَيْسَ فِيهِ بَعِيرُ الْأَحْيَمِرِ السَّعْدِيِّ اللَّصِ ٤٦٤ . 3

٤٤٦ . 3		فَلَا رَجَعْتَ وَلَا رَجَعَ الْجَمَارُ	(وافر)	١١
٦٦٥ . 4	أبو زهير الحمداني	قبائل يعرّب وبنى نزارٍ	(وافر)	١٢
١١٦ . 1		مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُنُودَ نَارٍ	(كامل)	١٣
٦٠١ . 4	على بن مُرّ	عَيْنُ الضَّمِيرِ يِرَاكُ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ	(كامل)	١٤
* * *				
٦٦٥ . 4	أبو العشائر الحمداني	وَالخَيْلُ مِنْ تَحْتِ الْفَوَارِسِ تَنْحَطُ	(كامل)	١٥
* * *				
٤٨١ . 3	المجنون	فَأَصْبَحَا فِي فُؤَادِي ثَابِتِينَ مَعَا	(بسيط)	١٦
٣٧١ . 2	(المحسن التنوخي)	لَهُ بَاعٌ يَقْصُرُ عَنْ ذِرَاعِ	(وافر)	١٧
* * *				
٦٦٨ . 4	أبو نواس	فِيهِمْ مُصِيبَاتُهُ دِرَاكَا	(بسيط)	١٨
* * *				
٦٣٠ . 4	الشاعر	يَلُومُ عَلَى الْبُخْلِ الرِّجَالَ وَيَنْحَلُ	(طويل)	١٩
٦٢٨ . 4	أبو الفتح البُستِيّ	مَقَالَ امْرِئٍ مَنْصِفٍ لَيْسَ يَعْطُو	(متقارب)	٢٠
١٤٧ . 2		وَأَرَعْدُ يَمِينًا وَأَبْرُقُ شِمَالَا	(متقارب)	٢١
٦٩٧ ، ٦٩٦ . 4	أمرؤ القيس	وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِيًا ذَاتَ نَحْلَخَالٍ	(طويل)	٢٢
٦٩٦ ، ٦٥٦ . 4	أعنتُ المتنبّي	عَلَى الْمَكَارِهِ غَابَ الْبَدْرُ فِي الطُّفْلِ	(بسيط)	٢٣
٦٥٥ ، ٥٩٩ . 4	أمرؤ القيس	مَا عَرَّكُمُ بِالْأَسَدِ الْبَاسِلِ	(سريع)	٢٤
* * *				
١٥٨ . 2	ابن لنكك	ضَلُّوا عَنِ الرَّشْدِ مِنْ جَهْلٍ بِهِ وَعَمُوا	(بسيط)	٢٥
٦٦٨ . 4	أشجع السُّلَمِيّ	رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامُ	(كامل)	٢٦
٦٤٢ . 4	السريّ الرفاء	فَعَدَّ الْمَلُوكُ بِهِ لَدَيْكَ وَقَامُوا	(كامل)	٢٧
٤٠٠ . 3	الشَّمْرَدَلِ	وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرِ حَزِّ الْغَلَّاصِمِ	(طويل)	٢٨
٦٦٣ . 4		كَمَا تَرْدَادُ أَنْتَ عَلَى السَّقَامِ	(وافر)	٢٩
* * *				
٥١٥ . 3	أبو نواس	عَلَيْهَا امْتَطَيْتُنَا الْحَضْرَمِيّ الْمُلْسَنَا	(طويل)	٣٠
٦٦٢ . 4	أبو محمد بن وكيع	يَزْدَادُ مِثْلَكَ حُسْنًا	(مجتث)	٣١
٦٩٥ ، ٦٥٦ . 4	المظفر بن عليّ الزُّوزَنِيّ (أبو القاسم)	إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَاكَ اللَّسَانِ	(خفيف)	٣٢
* * *				

- ١٥٩ . 2 ابن لنكك (خفيف) ٣٣ متبئكم ابن سقاء كوفان ..
- * * *
- ١٥٨ . 2 (خفيف) ٣٤ ... من الناس بكرة وعشيا
- ٦٥٥ ، ٥٩٩ : 4 دختنوس بنت لقيط بن زرارة (كامل) ٣٥ .. الطير عن أربابها
- ٤٦٩ . 3 مبدول العذرى (طويل) ٣٦ لتستره فيما أتى أنت ساترة
- ٥١٧ . 3 (متقارب) ٣٧ حديث العذرى بأسرارها
- ٦٧٦ . 4 كثير (طويل) ٣٨ صنعة تقوى ، أو خليلاً ثوامقه
- ٥٦٩ . 3 (طويل) ٣٩ وأعرضت عنه وهو بادٍ مقابلة
- ١١٥ . 1 (طويل) ٤٠ وذو باطل إن شئت أرضاك باطله العجبر السلولى
- * * *
- ٦٢٤ . 4 (طويل) ٤١ لا رجم الله روح من رجمك الضب الضير الشامى
- * * *
- ٦٦٣ . 4 رؤبة (رجز) ٤٢ مسلم ما أنساك ما حبيت
- ٤٠٨ . 3 (رجز) ٤٣ إني وكل شاعر من البشر
- ٤٤٢ . 3 (رجز) ٤٤ نفس عصام سودت عصاماً
- ١٤٠ . 2 (رجز) ٤٥ يا حيداً مقامنا بالكوفة
- * * *
- ٤٠٠ . 3 الفرزدق (طويل) ٤٦ تحن بزوراء المدينة ناقتى

وتأمله :

حين عجل تبتغى البو رائيم

* * *

فهرس الحديث والأمثال

- « الحياءُ من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاءُ من الجفاء ، والجفاءُ في النار » ٤٥١ . 3
 « المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثؤنثي زور » ٧٤ . 1
 « يحمل هذا العلم من كلِّ خلفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ٤٥ . 3

أمثال

- « أنت كآبنة الجبل ، مهما يُقلُّ تَقُلُّ » ٤١٧ . 3
 « اتقى الصبيانَ لا تُصيبك بأعقائها » ٤٤٩ . 3
 « جاء بقرئى جمار » ٤١٩ . 3
 « جاوز الحزام الطُّبَّين » ٤٢ . 1
 « اختلط المرعىُّ بالهَمَلِ » ٤٨٣ . 3
 « خلالك الجوّ فيبضى وأصفرى » ٢٩ . 1
 « خمُرُ أبى الرِّوقاءِ ليست تُسكُرُ » ١٠٤ . 1
 « خيرُ السرقة ما لا يحبُّ فيه القَطعُ » ٤٠٠ . 3
 « سقط العشاءُ به على سرحانٍ » ٤٢٢ . 3
 « شَبَّ عمرو عن الطُّوقِ » ١١٤ . 1
 « شرٌّ من الموتِ ، ما يُتمنى معه الموتُ » ٤٧٥ . 3
 « العُرَى الفادح ، خيرٌ من الرِّىِّ الفاضح » ٤٣٣ . 3
 « عيى الصمب ، خيرٌ من عيى النطقِ » ٤٤٧ . 3 ، ٤٥٣
 « العَمَراتُ ثمَّ ينجلين » ٧٥ . 1
 « لا محوسياً عرفت ، ولا يهودياً وصفت » ٤٠٠ . 1
 « ما كُلُّ بيضاء شحمة ، ولا كُلُّ سوداء ثمرة » ١٠٦ . 1
 « المَحِيلَةُ تقتل نفسَ الخائلِ » ٤٢٤ . 3
 « مَنْ يمدحُ العروسَ إلا أهلها » ٤٠٢ . 3

أمثال عامية

- « جِلْمُ القَطَطِ كُلُّهُ ففران » ١١٦ . 1
 « رَجَعَت رِيمةٌ ، لعادتها القديمة » ١٠١ . 1
 « من دَقْتُهُ وأفْتِلَ لَهُ » ٩٨ . 1

سيرة أبي الطيب المتنبي (أفردتها بالذِّكر ، ولم أدخل بعضها في فهارس الأعلام)

- أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفيّ ، (ابن عيّدان السقاء)
- أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفيّ
- أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفيّ
- نسبه : 1 . 56 ، 2 . 137 ، 4 . 589 ، 590 ، 607 ، 609
- والد المتنبي (عيّدان السقاء ، الحسين) : 1 . 53 ، 2 . 137 ، 138 ، 140 ، 148 ، 158 ، 162 ، 168 ، 172 ، 3 . 403 ، 410 ، 413 ، 416 ، 419 ، 420 ، 426 ، 434 ، 435 ، 438 ، 440 ، 449 ، 469 ، 4 . 599 (عيّدان بالياء الموحدة) ، 611 - 613 ، 624 ، 666 ، 681 ، 683
- أمُّ المتنبي (همدانية) : 2 . 163 ، 164 ، 170 ، 172 - 170 ، 3 . 403 ، 413 ، 416
- مرضعة المتنبي ، من آل عبيد الله بن يحيى (علي) العلوية : 1 . 551 - 57 ، 2 . 153 ، 164 ، 168 ، 182 ، 4 . 609 ، 610 ، 589
- جدُّ المتنبي : 3 . 418 ، 419
- جَدَّةُ المتنبي : 2 . 139 ، 163 - 177 ، 181 ، 182 ، 184 ، 186 ، 197 ، 198 ، 218 ، 220 ، 238 ، 242 - 277 ، 283 ، 287 ، 288 ، 306 ، 371 - 375 ، 3 . 434 ، 435 ، 440 ، 446 ، 449 - 457 ، 462 ، 469 ، 473 ، 4 . 612
- زَوْجُ المتنبيّ وعياله : 1 . 51 ، 70 ، 2 . 239 ، 318 - 322
- أخوه المكفوف لأبيه وأمه ، ببغداد : 1 . 561 ، 4 . 609 ، 610 ، 683
- أخت المتنبيّ (تربيته) : 4 . 606 ، 696
- ابن عمِّ للمتنبيّ بالكوفة : 4 . 590
- المحمّد ، ابن المتنبيّ : 1 . 70 ، 2 . 240 ، 318 ، 4 . 604 ، 649 ، 661 ، 691
- سِرّاج ، غُلامُ المتنبيّ : 4 . 595
- مُفْلِح ، غُلامُ المتنبيّ : 4 . 604
- راوية شعر المتنبيّ (أبو الحسين محمد بن محمد بن سلمان) : 4 . 592
- وكيل المتنبيّ بحلب (أبو سعد) : 4 . 646
- صاحبُ المتنبيّ (علي بن حمزة البصري) : 4 . 596
- صاحب المتنبيّ (أبو الحسن العروضي) : 4 . 591

- صاحب المتنبي (الحسن بن حامد التاجر) : 4 . 4 . ٥٩١
- صاحب المتنبي (الحسن بن علي بن الحلاب) : 4 . 4 . ٦٣٥
- دار المتنبي بحلب : 4 . 4 . ٦٠٨ ، وانظر أيضاً « زبدة الحلب » لابن العديم ٣ : ١٧
- ضيعة المتنبي بمعرة النعمان (بصّف) : 4 . 4 . ٦٣١

- عمود صورة المتنبي ، كما رأيتها : ٤٩١ - ٧٥ ، ٧٧ ، ثم الكتاب كله .

- هذا موجز سيرة المتنبي . ثم إذا ما تصفّحت « فهرس الأعلام » ، وجدت كثيراً مما يمكن أن يُضمّ إليه ، من ذكر من روى عن المتنبي ، أو من رآه أو سمعه أو صحبه ، أو كتب شعره أو ديوانه ، أو طارحه الحديث . وبعض ذلك مُبين أمام بعض الأعلام المذكورة في الفهرس الذي يلي هذا .

فهرس الأعلام

- إبراهيم النظام المعتزلى : ٤٠٠ . 3 ، ٥٤٤ ، ٥٥٥
 أبو إبراهيم (جليس سيف الدولة) : ٦٤٣ . 4
 إبراهيم بن حبيب السقطى (أبو إسحق) : ٦٤٢ . 4
 إبراهيم بن عبد الله بن (المغربى) (أبو إسحق) : 4
 ٦٩٢ ، ٦٠٩
 إبراهيم عبد القادر المازنى : ١٠٦ . 1
 إبراهيم بن محمد (الإفلىلى) : ٦٦٠ . 4
 ابن الأثير (ضياء الدين) (صاحب التاريخ) : 4
 ٦٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩١
 إحسان عباس : ٥٨٦ . 4
 أبو أحمد (عبد العزيز بن الفضل) : ٥٩٠ . 4
 ٥٩٩ ، ٥٩٥
 أحمد بن إبراهيم الضبى (أبو العباس) : ٦٤٢ . 4
 أحمد بن بويه الديلمى (معز الدولة) : ١٥٩ . 2
 أحمد تيمور باشا : ١٢ ، ١١ . 1
 أحمد بن أبى جعفر القطيعى : ٦١١ . 4
 أحمد حسن الزيات (صاحب الرسالة) : ١ ، ٨١
 أحمد بن الحسين المالكى (أبو الفرج) (مدحه
 المتنبى) : ٢٥٦ . 2
 أحمد راتب النفاخ : ٦٠٣ ، ٥٤ . 1
 أحمد بن زاهر (أزهر) بن عبد الوهاب البغدادى :
 ٦٣٥ ، ٦٣١ . 4
 أحمد بن سليمان (أبو العلاء المعرى)
 أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى (أبو الفرج)
 (مدحه المتنبى) : ٢٨١ . 2
 أحمد بن عبد الرحيم الأصفهاني المتنبى : ٦٢٤ . 4
 أحمد بن على بن ثابت (الخطيب البغدادى)
 أحمد بن عمران (أبو أيوب) (مدحه المتنبى) : 2
 ٢٨٣ ، ٢٤٠
 أحمد بن فارس : ٦٢٧ . 4
 أحمد لطفى السيد : ١٥ . 1
 أحمد محرم (الشاعر) : ٧٩ . 1
 أحمد بن محمد ، أبو الحسن (المغربى)
 أحمد بن محمد (أبو الفضل العروضى) : ٦٦٠ . 4
 أحمد بن محمد بن أحمد ، أبو طاهر (السلفى)
 أحمد بن محمد بن الحسن (تاج الأمانة) : ٦٠٩ . 4
 ٦٥٥
 أحمد بن محمد ، مسكويه (الأستاذ أبو على) : 4
 ٦٢٢
 أبو أحمد بن نصر (البازيار)
 أحمد بن يحيى بن زهير بن أبى جرادة (القاضى أبو
 الحسن) (جد جد والد ابن العديم) : ٦٥١ . 4
 الأخيضر السعدى الشاعر اللص : ٤٦٤ . 3
 الإخشيذ (محمد بن طفنج) (أبو بكر) : ٢٢٣ . 2
 ٦٤٤ . 4 ، ٣٣٦ ، ٣٠٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥
 الإخشيذية : ٢٠٠ . 2 ، ٢٢٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
 ٦٨٥ ، ٦١٦ . 4 ، ٣٢٨ ، ٣٠٣
 الأخطل : ٤٠١ . 3
 الأدعياء (من العلويين) : ١٥٤ - ١٥٦ ،
 ٢٩٣ ، ٢٥٣ ، ١٦٩
 ابن أبى الأزهر (المؤرخ) : ٦٢٤ ، ٦٢٣ . 4
 أبو إسحق الصائى : ٦٣٩ ، ٦٣٨ . 4
 إسحق بن كيغلف (ابن كيغلف)
 بنو أسد (عمرو بن حابس) : ٦٦ : 1 ، ٩٢ ، ٩٣ ،
 ٢١٥ . 2 ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، 4
 ٦٩١ ، ٦٥٢ ، ٦٤٩ ، ٥٩٩ ، ٥٩٦

- أسد بن ربيعة بن نزار : 4 . ٥٨٧
- إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على (الخديوى) : 1 . ٢٠
- الأشتر (المشطب) : 2 . ١٥١ ، 4 . ٦١٠
- أشجع السلمى : 4 . ٦٦٧
- الأشراف (العلويون) : 2 . ١٥٢ - ١٥٤ ،
١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٥٤٤ . 4
- الأصفهاني (أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن)
(صاحب إيضاح المشكل) : 1 . ٥٣ ، ٥٤ ،
2 . ١٤٢ - ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
١٨٧ ، ٤٧٣ . 3
- الأصمعى : ٦٨١
- الأعاجم (العجم) : 2 . ١٩٧
- الأعلم الشتمرى (يوسف بن سليمان ، أبو
الحجاج) : 4 . ٦٦٠ ، ٦٦١
- الأعشى : 1 . ٣٩ ، 3 . ٤٠٥
- أبو الأغر بن سعيد بن حمدان : 2 . ٢١٥ ، ٢١٦
- الإفليلي (إبراهيم بن محمد ، أبو القاسم) : 4 . ٦٦٠
- أمين المعلوف (معجم الحيوان) : 1 . ٤٣ ، ٤٤ ،
٤٥
- ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد ، أبو البركات
الكمال) : 4 . ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ،
٦٦٠
- أنستاس الكرملى القس : 4 . ٤٣
- الأنطاكى (أحمد بن عبد الله بن الحسين)
(الحسن بن عبد الله بن الحسن)
(على بن أحمد الأنطاكى)
- الأوراجى (هرون بن عبد العزيز) : 2 . ٢٥٧ ،
٢٥٩ ، ٣٦١
- أونوجور (بن الإخشيد) : 4 . ٦٤٤
- أبو أيوب (أحمد بن عمران) (مدحه المتنبى) : 2 .
٢٤٠
- أبو أيوب (المورياتى) : 2 . ١٧٨ ، ١٧٩
- ***
- ابن بابك (عبد الصمد بن بابك ، أبو القاسم) : 4 .
٦٤٣
- البازيار (أبو أحمد بن نصر) (وزير سيف الدولة) :
4 . ٦٦٧
- ابن باكويه الشيرازى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)
(روى عن المتنبى) : 4 . ٦٠٨ ، ٦٩٢
- البيغاء (أبو الفرج) (عبد الواحد بن نصر) : 2 .
١٥٨ ، ٦٣١ . 4
- بجكم التركى : 1 . ٧٢
- البحترى : 4 . ٦٦١
- بختيار (عز الدولة) بن معز الدولة : 4 . ٦٢٨
- بدر الخرشنى : 1 . ٨٨
- بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى (أبو الحسين)
(مدحه المتنبى) : 1 . ٦٧ ، ٧١ ، ٨٤ - ٨٧ ،
٩١ - ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، 2 . ٢٣٤ ، ٢٥٩ -
٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣٢٦
- البيدىعى (صاحب الصبح المتنبى) : 1 . ٧٤ ، 3 .
٥١٣ ، ٥٦٢ ، 4 . ٥٩٢ - ٥٩٤
- أبو البركات (محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل)
أبو البركات بن أبى الفرج (ابن زيد التكريتى) : 4 .
٦٧٥
- بنو برمك : 4 . ٦٦٨
- ابن برهان (أبو القاسم بن برهان) (عبد الواحد بن
على) : 2 . ١٣٧
- بشار بن برد : 3 . ٤٢٨
- بشر بن عبد الوهاب القرشى : 2 . ١٤١
- ابن بشران (أبو غالب) : 4 . ٦٣١
- البغدادى (صاحب الخزانة) : 1 . ٥٣ ، 3 . ٤٧١ -

التنوخيون : ١٤٩ . ٢ ، ١٢٠ ، ٨٩ ، ٨٧ . ١

٥٢٥ . ٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٠ - ٢٢٨ ، ١٥٠

توفيق الحكيم : ١١٨ . ١

الثريّا (فرس لسيف الدولة) : ٦٣٣ . ٤

الثعالبي (أبو منصور) (يتيمة الدهر) : ٤١٨ . ٣ ،

٦٢٢ . ٤

بنو ثعلبة : ٢١٥ . ٢

ثمود : ٦٨٨ . ٤ ، ٢٣٣ . ٢

الجاحظ : ٥٥٥ ، ٥٥١ ، ٥٤٤ . ٣

جالينوس : ١٩٠ ، ١٨٩ . ٢

جُدّان بن جديلة بن أسد : ٥٨٧ . ٤

جُدّيّ بن جديلة بن أسد : ٥٨٧ . ٤

جديلة بن أسد بن ربيعة : ٥٨٧ . ٤

ابن أبي جرادة (عبد الصمد بن زهير بن هرون)

(روى عن المتنبى) : ٦٠٨ . ٤

ابن أبي جرّادة (أحمد بن يحيى بن زهير)

الجرجاني (علي بن عبد العزيز ، القاضي) : ٦٦٠ . ٤

جرجى زيدان : ٢٥ ، ٢٤١

جرير : ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠١ . ٣

أبو جعفر المنصور : ١٧٧ . ٢ - ١٧٩

أبو جعفر (محمد بن الحسن) : ٦٠١ . ٤

أبو جعفر (محمد بن الحسين بن حمزة)

أبو جعفر الشَّقّ (الشريف العباسيّ) : ٤٤٥ . ٣ ،

٤٤٦

جعفر بن أبي الفضل بن جعفر (ابن حنراية)

جعفى (بن سعد العشيّرة) : ١٤٨ . ٢ ، ٢١٢ . ٣ ،

٤٠٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ - ٤٢٧ ، ٤٦٩ ، ٥٤٥ ،

٥٧٢ ، ٥٩٠ . ٤ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦٨٢ ،

٦٨٣

٤٧٧ ، ٦١٠ . ٤

ابن بقبلة : ١٤٠ . ٢

أبو بكر (بدر بن عمار)

(محمد بن رائق)

أبو بكر الخوارزمي : ٦٣٠ . ٤

أبو بكر الطائى (روى عن المتنبى) : ٦٠٩ . ٤ ،

٦٩٢

أبو بكر الفرغانى (صاحب المتنبى) : ٦٨٩ . ٤

أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان : ٦٧٦ . ٤

بلاشير (المستشرق) : ١٠٨ ، ٩١ ، ٨٢ . ١ ،

١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ٤٩٣ . ٣ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ،

٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ،

٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨

أبو البهاء بن عدىّ (شيخ رفقية) : ٦٣٢ . ٤

بهاء الدولة بن عضد الدولة : ١٤٣ . ٢ ، ١٤٤ ،

بنو بويه : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ٢٢٤ ،

٣٠٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ،

البيرونى (أبو الريحان) (محمد بن أحمد) : ٦١٤ . ٤ ،

٦٢٦

ابن البيطار (العشاب) : ١١٣ . ١

تاج الأمان (أحمد بن محمد بن الحسن)

التبريزى (يحيى بن على ، أبو زكريا) : ٦٦٠ . ٤

الترك : ١٩٧ . ٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٩٦ ،

٣٠٣

بنو تغلب : ٢٢٣ ، ٢١٥ . ٢

تغلب بن داود بن حمدان (أبو وائل)

أبو تمام : ٦٧٥ ، ٦٧٤ . ٤

تميم (بنو ضبة) و (بنو رياح) : ٦٦٠ . ١

تنوخ (ملوك تنوخ) : ١٥٠ . ٢ ، ٢٢٨ ،

التنوخى (المحسن بن على)

- ابن جنى (أبو الفتح) : 1. ٧٣، 2. ١٤٤، ١٨٥،
 3. ٥٤٨، 4. ٦٠٨، ٦١٥، ٦٢٠، ٦٢٢،
 ٦٢٩، ٦٣٥-٦٣٧، ٦٤١، ٦٤٣، ٦٦٠،
 ٦٦٥، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٧، ٦٨٨، ٦٩٢،
 ٦٩٣
- الجهشياري (صاحب الوزراء والكتاب) : 2.
 ١٧٧
- الجواليقي (أبو منصور، موهوب بن أحمد) : 4.
 ٦٤٦
- ابن أبنى الجوع الوراق المصري (عبيد الله بن محمد
 ابن أحمد) : 4. ٥٨٦، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٩،
 ٦٩٢، ٦١٠
- جويدي الكبير (المستشرق) : 1. ١٨.
- جويدي الصغير (المستشرق) : 1. ١٧-١٩
- ***
- الحاتمي (محمد بن المظفر، أبو الحسن) : 2. ١٤٥،
 ٣٧٦، ٦٧٥، ٦٦١، 4.
- ابن أبنى حامد (أبو علي بن أبي حامد)
 ابن الحجاج الشاعر (أبو عبد الله) : 4. ٦٢٥
- الحججاج بن يوسف الثقفي : 3. ٤٧١
- ابن حجر العسقلاني : 4. ٦٠٨
- ابن حزم (جمهرة النسب) : 4. ٥٨٧
- ابن حسام زاده (عبد الرحمن)
 أبو الحسن العلوي (محمد بن يحيى العلوي الزيدي) :
 1. ٥٦، 2. ١٣٨، ١٣٩، ١٤٧، ١٥١،
 ١٦٤، ١٧٠، ١٨٢، ٢٠٦، ٢١٢، ٣٧٦،
 3. ٤٣١، 4. ٦٠٩-٦١٣، ٦٨١، ٦٨٢
- أبو الحسن الطرائقي (رأى المتنبي) : ٦٣٢، ٦٣٣
- أبو الحسن العروضي (صاحب المتنبي) : 4. ٥٩١
- الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (أبو علي الفارسي)
 الحسن بن جعفر بن المتوكل البغدادي (أبو علي) :
- ٦٣٤ . 4
 الحسن بن حامد التاجر (صاحب المتنبي) : 4 .
 ٥٩١
 أبو الحسن بن أم شيبان القاضي (علي بن محمد بن صالح)
 (محمد بن صالح بن علي)
 ١٣٨ . 2
 الحسن بن عبد الله بن حمدان (ناصر الدولة) : 2 .
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٣٢١
 الحسن بن عبد الله بن المرزبان (أبو سعيد السيرافي)
 الحسن بن عبيد الله بن طُغج (ابن طغج) (أبو محمد) :
 3 . ٥١٤ ، 4 . ٦٣٣
 الحسن بن علي الحافظ : 4 . ٦٢٢
 الحسن بن علي بن الحلاب (سمع المتنبي) : 4 . ٦٣٥
 الحسن بن علي بن الصقر الكاتب (أبو محمد) (روى
 عن المتنبي) : 4 . ٦٠٨ ، ٦٩٢
 الحسن بن علي بن أبي طالب : 4 . ٦٠٢
 الحسن بن عمر بن إبراهيم (أبو محمد) (روى عن
 المتنبي) : 4 . ٦٠٩
 الحسن بن عمرو الموصلي (ابن دُهن الحصا) : 4 .
 ٦٣٥
 الحسن بن لنكك (ابن لنكك) : 2 . ١٥٨ ، ١٥٩
 الحسن بن محمد بن وكيع (ابن وكيع) (أبو محمد)
 حَسَنَوْنِ الْمَصْرِي : 4 . ٦٦١
 أبو الحسين (محمد بن محمد بن سلمان) (رواية
 المتنبي)
 أبو الحسين (كاتب أبي جعفر الشق) : 4 . ٤٤٥ ،
 ٤٤٦
 أبو الحسين (الناشيء) (الشاعر)
 أبو الحسين (بدر بن عمار)
 (علي بن إبراهيم التنوخي)
 (علي بن أحمد المري)

الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم، وأخوه محمد):

١. ٥٨، ٢. ١٥٨، ٣. ٣٦٢، ٤. ٦٤٥، ٦٥١،

٦٥٢، ٦٧٢، ٦٩١

ابن خالويه: ٢. ٣٥٧، ٣. ٣٥٨، ٤. ٦٠٨، ٦١٦،

٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٦٤،

٦٦٧، ٦٨٥، ٦٨٨، ٦٨٩

الخرشني (ملك الروم): ١. ٨٨، ٢. ٨٩، ٣. ٢٢٦،

٢٢٧

خروء الطير (بنو أسد): ٤. ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٥٤،

٦٥٥

الخصيبي (محمد بن عبد الله بن محمد)

الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت، أبو

بكر): ٢. ١٣٧، ٣. ١٣٨، ٤. ٥٩١، ٦٠٩،

٦١١، ٦١٥، ٦١٦، ٦٤٢، ٦٤٩، ٦٥٦،

٦٨١

ابن خلكان (وفيات الأعيان): ٤. ٥٨٦، ٥٨٨،

خليل مطران: ١. ١١٨

الخوارزمي (محمد بن العباس)

الخوارزمي (أبو بكر): ٤. ٦٧٦

عقولة (أخت سيف الدولة الكبرى): ١. ٤٤،

٤٥، ٤٩، ٥١، ٦٨، ٧٠، ٢. ٣٣٦-٣٥٥،

٣٥٧-٣٦٠، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٥

الدارقطني الحافظ المحدث: ٢. ٣٦٦

داود بن أحمد بن سعيد بن خلف بن داود الطيبي

التاجر: ٤. ٦٥٦

الداني (محمد بن عبد الله، أبو الحسن): ٤. ٦٦٠،

دختوم بنت لقيط بن زُرارة: ٤. ٥٩٩، ٦٥٥،

أبو الدرّ (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي)

الدرّوز: ٢. ٢٢٨

ابن دريد (محمد بن الحسن بن دريد، أبو بكر):

١. ٦٥، ٣. ٥٢٢، ٤. ٦٢٩

أبو الحسين (علي بن أحمد بن أبي سَعْدَة)

أبو الحسين البَجْرِيّ: ٤. ٦٤٨

الحسين بن إسحق التنوخي: ٢. ٢٣٨

الحسين بن عبد الرحمن الثقفي (أبو علي الحكيم): ٤.

٦٥٥

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان

العدوي (أبو العشائر)

الحسين بن علي بن أبي طالب: ٤. ٥٩٠، ٥٩٦،

الحسين بن علي بن همام الحسيني للظالقاني (أبو

عبد الله): ٤. ٦٢٥

الحسين بن محمد بن الصقر الكاتب (أبو عبد الله):

٤. ٦٣٥

الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر: ٤. ٦٦٠

الحصكفي (يحيى بن سلامة)

الحكّار (عبد العزيز، أبو القاسم): ٤. ٦٧٠

الحكيم النيسابوري (أبو علي، الحسين بن

عبد الرحمن)

بنو حمدان (الحمدانيون): ٢. ١٥٩، ٢١٥ -

٢١٩، ٢٢٣-٢٢٥، ٢٢٩، ٢٩٥-٢٩٨،

٢٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦-٣٠٨، ٣٨٨، ٣٨٩،

٣. ٥١٤، ٤. ٦٥٥

ابن خنزابة (جعفر بن أبي الفضل): ٢. ٣٦٦، ٤.

٦٧٧، ٦٧٨

ابن الحَوْت (أبو العباس بن الحوت): ٤. ٦٠٩،

٦٤٨، ٦٩٢، ٦٩٤

الخارجي: ٢. ٣٢٠

خالد بن صفوان الخطيب (أبو صفوان): ٣.

٤٦٦، ٤٦٥

الخالدي (محمد بن هاشم الخالدي، أبو عثمان): ٤.

٥٩٥، ٥٩٦، ٦٥١، ٦٥٥، ٦٧٢-٦٧٥

- دُعْمِيُّ بن جديلة بن أسد : 4 . 587 ، 588 ،
دُعْيُ كِنْدَةَ : 4 . 766
أبو دلف بن كنداج (سجان المتنبى) : 2 . 224 ،
225
دلير بن لشكروز (أبو الفوارس) : 2 . 375
الدمستق (قرقاش) : 2 . 226 ، 227 ، 267
دنلوب : 1 . 21
ابن الدهان (سعيد بن المبارك) : 4 . 766
ابن دُهْن الخصا (الحسن بن عمرو الموصلى)
دَوْحَلَة (على بن منصور الحلبي ابن القارح) : 4 .
623 ، 661
الديلم : 2 . 197 ، 221 ، 249 ، 296 ، 303 ،
4 . 591
ديكارت : 1 . 14 ، 3 . 417
* * *
الذهبي (هجاه المتنبى) : 4 . 600 ، 603
الذهبي (المؤرخ) : 2 . 137 ، 3 . 548 ، 4 . 608
ذو الرمة : 1 . 39 ، 3 . 400 ، 401
* * *
ابن رائق (محمد بن رائق ، أبو بكر) : 1 . 91 - 97 ،
2 . 259
الراجكوتى (عبد العزيز الميمنى) : 1 . 38 ، 53 ،
65 ، 4 . 592 - 594
الراضى (الخليفة) : 1 . 72
الرافعى (مصطفى صادق الرافعى)
الرَّبِيعِىَّ (على بن عيسى الربيعىُّ الزُّهَيْرِىُّ) (روى عن
المتنبى) : 1 . 50 ، 55 ، 56 ، 2 . 153 ، 164 ،
3 . 182 ، 4 . 585 - 589 (ترجمة الربيعى) ،
589 - 604 (ترجمته للمتنبى) ، 608 -
610 ، 611 ، 612 ، 613 ، 614 ، 615 ، 616 ،
617 ، 618 ، 619 ، 620 ، 621 ، 622 ، 623 ، 624 ، 625 ،
626 ، 627 ، 628 ، 629 ، 630 ، 631 ، 632 ، 633 ، 634 ، 635 ،
636 ، 637 ، 638 ، 639 ، 640 ، 641 ، 642 ، 643 ، 644 ، 645 ،
646 ، 647 ، 648 ، 649 ، 650 ، 651 ، 652 ، 653 ، 654 ، 655 ،
656 ، 657 ، 658 ، 659 ، 660 ، 661 ، 662 ، 663 ، 664 ، 665 ،
666 ، 667 ، 668 ، 669 ، 670 ، 671 ، 672 ، 673 ، 674 ، 675 ،
676 ، 677 ، 678 ، 679 ، 680 ، 681 ، 682 ، 683 ، 684 ، 685 ،
686 ، 687 ، 688 ، 689 ، 690 ، 691 ، 692 ، 693 ، 694 ، 695 ،
696 ، 697 ، 698 ، 699 ، 700 ، 701 ، 702 ، 703 ، 704 ، 705 ،
706 ، 707 ، 708 ، 709 ، 710 ، 711 ، 712 ، 713 ، 714 ، 715 ،
716 ، 717 ، 718 ، 719 ، 720 ، 721 ، 722 ، 723 ، 724 ، 725 ،
726 ، 727 ، 728 ، 729 ، 730 ، 731 ، 732 ، 733 ، 734 ، 735 ،
736 ، 737 ، 738 ، 739 ، 740 ، 741 ، 742 ، 743 ، 744 ، 745 ،
746 ، 747 ، 748 ، 749 ، 750 ، 751 ، 752 ، 753 ، 754 ، 755 ،
756 ، 757 ، 758 ، 759 ، 760 ، 761 ، 762 ، 763 ، 764 ، 765 ،
766 ، 767 ، 768 ، 769 ، 770 ، 771 ، 772 ، 773 ، 774 ، 775 ،
776 ، 777 ، 778 ، 779 ، 780 ، 781 ، 782 ، 783 ، 784 ، 785 ،
786 ، 787 ، 788 ، 789 ، 790 ، 791 ، 792 ، 793 ، 794 ، 795 ،
796 ، 797 ، 798 ، 799 ، 800 ، 801 ، 802 ، 803 ، 804 ، 805 ،
806 ، 807 ، 808 ، 809 ، 810 ، 811 ، 812 ، 813 ، 814 ، 815 ،
816 ، 817 ، 818 ، 819 ، 820 ، 821 ، 822 ، 823 ، 824 ، 825 ،
826 ، 827 ، 828 ، 829 ، 830 ، 831 ، 832 ، 833 ، 834 ، 835 ،
836 ، 837 ، 838 ، 839 ، 840 ، 841 ، 842 ، 843 ، 844 ، 845 ،
846 ، 847 ، 848 ، 849 ، 850 ، 851 ، 852 ، 853 ، 854 ، 855 ،
856 ، 857 ، 858 ، 859 ، 860 ، 861 ، 862 ، 863 ، 864 ، 865 ،
866 ، 867 ، 868 ، 869 ، 870 ، 871 ، 872 ، 873 ، 874 ، 875 ،
876 ، 877 ، 878 ، 879 ، 880 ، 881 ، 882 ، 883 ، 884 ، 885 ،
886 ، 887 ، 888 ، 889 ، 890 ، 891 ، 892 ، 893 ، 894 ، 895 ،
896 ، 897 ، 898 ، 899 ، 900 ، 901 ، 902 ، 903 ، 904 ، 905 ،
906 ، 907 ، 908 ، 909 ، 910 ، 911 ، 912 ، 913 ، 914 ، 915 ،
916 ، 917 ، 918 ، 919 ، 920 ، 921 ، 922 ، 923 ، 924 ، 925 ،
926 ، 927 ، 928 ، 929 ، 930 ، 931 ، 932 ، 933 ، 934 ، 935 ،
936 ، 937 ، 938 ، 939 ، 940 ، 941 ، 942 ، 943 ، 944 ، 945 ،
946 ، 947 ، 948 ، 949 ، 950 ، 951 ، 952 ، 953 ، 954 ، 955 ،
956 ، 957 ، 958 ، 959 ، 960 ، 961 ، 962 ، 963 ، 964 ، 965 ،
966 ، 967 ، 968 ، 969 ، 970 ، 971 ، 972 ، 973 ، 974 ، 975 ،
976 ، 977 ، 978 ، 979 ، 980 ، 981 ، 982 ، 983 ، 984 ، 985 ،
986 ، 987 ، 988 ، 989 ، 990 ، 991 ، 992 ، 993 ، 994 ، 995 ،
996 ، 997 ، 998 ، 999 ، 1000

- الفرج (: ٦٧٥ . 4)
 الزيدية : ١٤١ . 2

 ابن ألى الساج (يوسف) : ٥١٤ . 3
 الساربان (على بن أوب)
 السبيع (قبيلة) : ٢٠٤ ، ١٤٢ ، ١٤١ . 2
 سدوس بن شيبان بن ذهل : ٥٨٨ ، ٥٨٧ . 4
 السرى الرفاء : ٦٤٢ ، ٦٤١ . 4 ، ١٥٨ . 2
 أبو سعد (وكيل المتنبى) : ٦٤٦ . 4
 سعد بن محمد (الوحيد)
 سعد بن ناشب المازنى : ٤٦ . 1
 سعد بن ألى وقاص : ١٤٠ . 2
 سعيد الأفغانى : ٥٧٤ - ٥٣٣ ، ٣٩٥ . 3
 أبو سعيد الجيمرى : ٢١٩ . 2
 أبو سعيد السيرافى (أبو سعيد) الحسن بن عبد الله بن
 المرزبان
 سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى (أبو سهل)
 مدحه المتنبى) : ١٨٢ . 2
 أبو سعيد بن يونس (ابن يونس) (عبد الرحمن بن
 أحمد بن يونس) ، المؤرخ المصرى : ٦٤٥ . 4
 السكاسك : ٢٠٣ . 2
 السكون (قبيلة) : ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٣ ، ١٤١ . 2
 ابن سلام (صاحب الطبقات) : ٨٣ . 1
 السلامى الشاعر (محمد بن عبيد الله ، أبو الحسن) :
 ٦٠٩ . 4 ، ٥٦ . 1
 السلفى (أبو طاهر ، أحمد بن محمد بن أحمد) : 4 .
 ٦٢٥
 سليمان (عليه السلام) : ٦٦١ . 4 ، ٣٨٣ . 2
 سليمان بن ألى سليمان (أبو أوب المورىانى) : 2 .
 ١٧٩ ، ١٧٨
 السمعانى (أبو سعد ، عبد الكرىم بن محمد بن
 منصور) : ٦٢٢ ، ٦٠٨ . 4
 السمعانى (محمد بن منصور بن محمد)
 السمعانى (محمد بن عبد الجبار ، أبو منصور) : 4 .
 ٦٦٠
 أبو سهل (سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى)
 أبو السودانى (أبو الحسين محمد بن محمد بن سلمان)
 السيرافى (أبو سعيد الحسن بن عبد الله) : ٥٨٥ . 4
 سيويه (الإمام) : ٦٠ . 1
 سيويه الموسوس (محمد بن موسى) : ٦٦٩ . 4 ،
 ٦٧٠
 سيد بن على المرصفى : ٩ ، ٨ . 1
 سيف الدولة (أبو الحسن ، على بن ألى الهيجاء
 عبد الله بن حمدان العدوى التغلبى) : ٣٨ . 1 ،
 ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٧ ، ٩٠ ،
 ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤٤ . 2 ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،
 ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٩٥ ، ٢١٥ - ٢١٩ ،
 ٢٢٢ - ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ - ٣٣١ ،
 ٣٣٣ - ٣٥٧ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ - ٣٩١ ، ٤٤٣ . 3 ،
 ٥١٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦ ، ٦٠٧ . 4 ، ٦٠٨ ،
 ٦١١ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ - ٦٣٨ ،
 ٦٤١ - ٦٤٦ ، ٦٦٤ - ٦٦٧ ، ٦٧٢ -
 ٦٧٧ ، ٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٣ - ٦٩٧
 أم سيف الدولة : ٣٢٠ . 2
 أخت سيف الدولة (الصفرى) : ٣٣٨ ، ٣٣١ . 2
 (الكبرى) (خولة) : ٣٣٧ . 2 ،
 ٣٤٥
 السيوطى (بغية الوعاة) : ٦٠٨ ، ٥٨٦ . 4

 الشافعى : ٥٩١ . 4

- ٦٧٠
 الصُّورَى : ٥٩١ . 4
 الصولى (كتاب الأوراق) : ٧٢ . 1
 * * *
- الضبِّ الضرير الشامى الشاعر : ٦٢٥ ، ٦٢٤ . 4
 ٦٦٣
 بنو ضبة (من تميم) : ٦٦ . 1 ، ٢١٦ . 2 - ٢١٨ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٠
 ضبة بن محمد الأسدى (ضبة بن يزيد) : ٥٩٦ . 4
 ضبة بن يزيد العينى (ضبة بن محمد) : ٥٩٦ . 4
 ٥٩٧ ، ٦٥١ - ٦٥٥ ، ٦٩١
 ضبيعة بن ربيعة بن نزار : ٥٨٧ . 4
 الضحاك الفقيمي : ٤٠٠ . 3
 * * *
- أبو طالب البغدادي (جليس سيف الدولة) : 4
 ٦٤٣
 الطالبيون : ٥٩٠ . 4
 أبو طاهر السلفى (أحمد بن محمد بن أحمد)
 أبو طاهر القرمطى (صاحب الأحساء) : ٥١٤ . 3
 طاهر بن الحسن بن طاهر العلوى (أبو القاسم)
 (مدحه المتنبى) : ٥٨ ، ٥٢ . 1 ، ١٥٣ . 2 ،
 ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، 3
 ٥٦٥ ، ٦٢٩ . 4 ، ٦٤٥
 الطباخ « صاحب تاريخ حلب » : ٨٩ . 1
 الطرائفى (أبو الحسن)
 ابن طغج (محمد بن طغج الإخشيد أبو بكر) :
 (مدحه المتنبى) : ٢٢٣ . 2 ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٦٤٤ . 4
 ابن طغج (الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن
 طغج) (مدحه المتنبى) : ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٣ ،
 ١٥٣ . 2 ، ١٥٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٥٤ ،
- أبو شجاع فاتك (المجنون) : ٣٦٦ . 2
 شجاع بن فارس بن الحسين للذهلى (أبو غالب) :
 ٦٥٥ . 4
 شفيق جبرى (كتاب المتنبى) : ٤١٣ . 3
 الشمرّدل (الشاعر) : ٤٠١ ، ٤٠٠ . 3
 شمس الدين الوالى بالموصل : ٦٥٦ . 4
 شمس المعالى قابوس : ٦٢٨ . 4
 شوسر (الشاعر الإنجليزى) : ١٢٠ . 1
 بنو شيان بن ذهل : ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٦ ،
 ٦٤٩ ، ٦٩١
 ابن أم شيان (أبو الحسن)
 (محمد بن صالح بن على) : ١٣٨ . 2 ،
 ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٢ ، ٣٧٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٠ . 3 ، ٥٤٥ ،
 ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٧٢ ، ٦١٣ . 4 ، ٦٨٣
 شيرزىل بن عضد الدولة : ١٤٣ . 2
 الشيعة (العلويون) : ٥٨ . 1 ، ٦٣ ، ١١٩ ، 2 ،
 ١٤١ ، ٤٧١ . 3 - ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٢ ، ٦٤٥ . 4
 * * *
- ابن الصاى (كتاب الوزراء) : ٦٢٩ . 4
 الصاحب إسماعيل بن عبّاد : ٦٢٨ ، ٦٢٧ . 4 ،
 ٦٤٢ ، ٦٦١ ، ٦٧٢
 الصاغانى : ١٣٧ . 2
 صالح عليه السلام : ٢٣٣ . 2 ، ٦٢٢ . 4 ، ٦٨٨ ،
 صالح بن إبراهيم بن رشدين : ٦٤٧ ، ٦٤٨ ،
 ٦٩٣
 أبو صفوان (خالد بن صفوان)
 الصقلى (على بن عبد الرحمن ، أبو الحسن) : 4
 ٦٦١
 صنمضام الدولة بن عضد الدولة : ١٤٣ . 2 ، 4

عبد الله بن سيف الدولة (أبو الهجاء)
 عبد الله بن عبد الرحمن (الأصفهاني) (وانظر :
 عبيد الله بن عبد الرحيم) : ١٤٢ . ٢
 عبد الله بن عبيد الله الصُّفْرَى الشاعر الحلبي (روي
 عن المتنبى) : ٦٩٢ ، ٦٠٩ . ٤
 عبد الحميد العبادي : ١٠٠ . ١
 أبو عبد الرحمن السُّلَمَى : ٦٤٨ . ٤
 عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدقي
 المصري ، الحافظ (ابن يونس) : ٦٤٥ . ٤
 عبد الرحمن بن حسام زاده الرومي التركي (صاحب
 رسالة في قلب كافوريات المتنبى) : ٧٣ . ١ ،
 ٧٤
 عبد الرحمن بن الحسين القنْدُجاني (أبو الفضل) :
 ٥٩٥ . ٤
 عبد الرحمن بن دوست النيسابوري : ٦٦٠ . ٤
 عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي (أبو
 محمد) : ٦٤٨ . ٤
 عبد الرحمن بن أنى ليلي (القاضي) : ٤٥٥ . ٣
 عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي (مدحه المتنبى) :
 ٢٥٧ . ٢
 عبد الرحمن بن محمد الأنباري (الكمال) (ابن
 الأنباري)
 عبد الرزاق (رئيس مطبعة المقتطف) : ٤٧ . ١
 عبد الصمد بن بابك (ابن بابك) : ٦٦٧ . ٤
 عبد الصمد بن زهير بن هرون بن أنى جرادة : ٤ .
 ٦٩٢
 عبد الصمد بن محمد القاضي (أبو القاسم) : ٤ .
 ٦٤٣
 عبد العزيز الميمنى (الراجكوتى)
 عبد العزيز بن الفضل (أبو أحمد)
 عبد العزيز بن محمود بن الأخضر البغدادي (أبو

٢٩٠ - ٢٩٤ ، ٣٦١ ، ٣٠١٤ ، ٥٦٥
 بنو طغج الإخشيديون : ٦٦٣ . ٤ ، ٥١٤ . ٣ ، ٢٩٦ . ٢
 طه حسين : ١ . ٨ - ١٩ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٤ ،
 ٨٣ ، ٩٩ - ١٢٣ ، ٣٩٥ . ٣ ، ٥٣٠
 أبو الطيب اللغوى : ٦٤٤ . ٤ ، ٣٥٧ . ٢
 أبو الطيب (محمد بن حمزة بن عبيد الله العلوي
 العباسي) (هجاء المتنبى) : ٢٢٤ ، ١٥٥ . ٢
 طيفور (بلاغات النساء) : ٥٩٩ . ٤
 * * *
 عاد : ١٣ . ١
 عازر : ٢٣٤ . ٢
 أبو العباس النامى المصيصى (النامى)
 أبو العباس بن الحوت (ابن الحوت)
 عباس محمود العقاد (العقاد) : ١ . ٧٧ ، ٧٨ ، ٣
 ٤٨٠ - ٤٨٤
 العباسيون : ٢ . ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ،
 ٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٢٨ ، ٣٦٦ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩١
 أبو عبد الله (محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبى)
 (معاذ بن إسماعيل اللاذقى)
 أبو عبد الله الخرشنى الوراق (لقي المتنبى) : ٤ .
 ٦٠٢
 عبد الله بن أحمد (الفرغانى ، أبو محمد)
 عبد الله بن أنى إسحق الحضرمى : ١ . ٨٣
 أبو عبد الله بن ياكويه (ابن ياكويه)
 عبد الله بن الحسين (العكبرى ، أبو البقاء)
 عبد الله بن الحسين ، أبو محمد الكاتب (القطريلي)
 عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموى
 (أبو القاسم) : ٦٢٥ . ٤
 أبو عبد الله بن الداعى العلوى الزيدى (محمد بن
 الحسن الداعى الصغير) : ٤ . ٥٩٠ ، ٥٩١

- محمد (: ٦٤٩ ، ٦٢١ ، ٦١٤ . 4)
 عبد العزيز بن يوسف بن الحَكَّار (أبو القاسم) : 4 .
 ٦٩٠ ، ٦٤٧
 عبد القادر حمزة (صاحب البلاغ) : 1 . 1٠٦ ،
 ١٠٧
 عبد القاهر الجرجاني : 4 . ٦٦٠
 عبد الكريم بن محمد بن منصور (السمعاني ، أبو
 سعد) : 4 . ٦٢٢
 عبد اللطيف بن يوسف بن علي (أبو محمد) : 4 .
 ٦٣٨
 عبد المطلب بن الفضل بن المطلب الهاشمي (أبو
 هاشم) : 4 . ٦٢٢
 عبد الملك بن مروان : 2 . ١٤١ ، 3 . ٤٧١
 عبد الواحد بن علي (أبو القاسم بن برهان النحوي) :
 2 . ١٣٧
 عبد الواحد بن محمد بن علي بن زكريا : 4 . ٦٦٠
 عبد الواحد بن نصر الكاتب ، أبو الفرج (البيهقي)
 عبد الوهاب عزام : 1 . ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٩ - ٩٨ ،
 ١٠٨ ، ١١٤ ، 3 . ٤١٣ - ٤٢٤ ، ٤٤٢ ،
 ٤٥٦ ، ٤٦٥ ، ٤٩٩ ، 4 . ٥٩٦
 عبيد الله بن أحمد بن طاهر (صاحب ذيل تاريخ
 بغداد) : 4 . ٦٢٤
 عبيد الله بن عبد الرحيم الأصفهاني (أبو القاسم)
 (انظر عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني)
 (صاحب الواضع في مشكلات شعر المتنبّي) :
 2 . ١٤٢ ، 4 . ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ،
 ٦٦٠
 آل عبيد الله بن يحيى (... بن علي) (رضاع المتنبّي) :
 1 . ٥٥ - ٥٧ ، 2 . ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،
 ١٨٢ ، 4 . ٥٨٩ ، ٦١٠ ، ٦٥٩
 عبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد (ابن أبي الجوع)
 عبيد الله بن محمد بن أبي مسلم الفرضيّ : 4 . ٦١١
 عُبَيْد (راويةُ الفرزدق) : 3 . ٤٠١
 عُبَيْد العِصَا (بنو أسد) : 4 . ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٥٤ ،
 ٦٥٥
 عثمان بن جنى النحوي (أبو الفتح) (ابن جنى)
 عجل اليهود : 2 . ٢١٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٩
 العجم (الأعاجم) (الموالى) : 2 . ١٩٧ ، ٢٢١ -
 ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠١ - ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ ، 4 . ٥٩٦
 العُجَيْر السلولي (الشاعر) : 1 . ١١٥
 عدنان : 3 . ٤٥٢
 ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله) : 1 . ٥٠ ،
 ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٨٩ ، 2 . ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، 4 . ٥٨٥ ،
 ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٢ - ٦٠٤ ،
 ٦٠٧ - ٦٥٦ (ترجمته للمتنبي)
 ابن العديم (جدُّ جدِّ أبيه) : 4 . ٦٥٠ ، ٦٥١
 بنو عدى (عدى بن أسامة بن مالك بن تغلب) : 2 .
 ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩
 عز الدولة بختيار بن معز الدولة : 4 . ٥٩١ ، ٥٩٦
 ابن عساكر (علي بن الحسن بن الحسين الدمشقي ،
 أبو القاسم) : 1 . ٥٠ ، ٥٥ ، 4 . ٥٨٥ ، ٥٨٩ ،
 ٦٢٤ ، ٦٥٩ - ٦٧٨ (ترجمته للمتنبي)
 أبو العشائر (الحسين بن علي بن الحسن بن حمدان)
 (مدحه المتنبّي) : 1 . ٤٩ ، ٨٧ ، 2 . ١٥٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ - ٣٠٠ ،
 ٣٠٤ - ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٤٤ -
 ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، 3 . ٤٠٤ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، 4 . ٦٦٣ - ٦٦٥
 عضد الدولة البويهى الديلمي : 1 . ٥٠ ، ٧٢ ، 2 .

- ٦٩٢
 على بن جعفر ، أبو القاسم (القطاع)
 أبو على بن أبي حامد : 2 . ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٢ ، 3 . ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،
 ٥٧١ ، ٥٧٢ ، 4 . ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٨٤ ،
 ٦٨٥
 على بن الحسن (أبو القاسم) (عم ابن العديم) : 4 .
 ٦٠٩
 على بن الحسن بن الحسين الدمشقي (ابن عساكر)
 على بن الحسين الدَّيْلَمي الزَّرَاد (أبو الحسن) : 4 .
 ٦٤٣
 على بن حمزة البصري (راوية المتنبى) : 2 . ١٦٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، 4 . ٥٩٦ ، ٦٤٦ ، ٦٩٣
 على بن سيار بن مكرم (على بن محمد بن سيار)
 على بن أبي طالب (الوصي) : 2 . ١٤٠ ، ١٥٥ ،
 ١٦٠ ، ٢٥٣ ، 3 . ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٥٢ ،
 ٤٦١ ، ٤٧٢ ، ٥٦٥ ، 4 . ٦٤٥ (الوصي)
 على بن أبي عبد الله بن المقير : 4 . ٦٣٤
 على عبد الرازق : 1 . ٧٩
 على بن عبد الرحمن ، أبو الحسن (الصقلي)
 على بن عبد العزيز (الجرجاني) : 4 . ٦٦٠
 على بن علي بن نصر بن سعيد (أبو الحسن الرئيس) :
 4 . ٦١٤ ، ٦٢١ ، ٦٤٩
 على بن عيسى ، أبو الحسن (الوزير) : 4 . ٦٢٣ ،
 ٦٢٤ ، ٦٨٤
 على بن عيسى الربعي الرُّهَيْري (الربيعي)
 على بن عُمَر (الشريف) : 4 . ٥٩٩
 على بن القاسم الكاتب : 2 . ١٥٤
 على بن القاسم بن علي بن الحسن الدمشقي (عماد
 الدين ، أبو القاسم) : 4 . ٦٤٣
 على بن كوجك (جليس سيف الدولة) : 4 . ٦٤٤
- ١٤٣ ، ٣٥٥ (عمته) ٣٨١ - ٣٩١ ، 4 .
 ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٦٠٤ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ،
 ٦٣٩ ، ٦٤٧ - ٦٥١ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٩٠
 العَظِيمِي (محمد بن علي الحلبي) : 4 . ٦١٤
 العقاد (عباس محمود العقاد)
 المكبري (شرح ديوان المتنبى) : 2 . ١٥١ ، 3 .
 ٥١٢ ، 4 . ٦٦٠
 أبو العلاء المعري (أحمد بن سليمان) : 2 . ٢٠٥ ،
 ٢١٢ ، 3 . ٤١٨ ، ٤٢٨ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦ ،
 ٥٤٧ ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، 4 . ٦٢٠ ، ٦٢٣ ،
 ٦٣٥ ، ٦٤٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨
 أبو علي التنوخي (المحسن بن علي)
 أبو علي (هرون بن عبد العزيز الأوراجي)
 أبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد) : 4 . ٥٨٥ ،
 ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٠٤ ، ٦١٠ ، ٦٣٦ -
 ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٧٠ - ٦٧٢
 ابن علي الهاشمي : 2 . ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ،
 4 . ٦٦٣
 على بن إبراهيم التنوخي (أبو الحسين) (مدحه
 المتنبى) : 2 . ٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٢ - ٢٥٤
 على بن أحمد الأنطاكي (مدحه المتنبى) : 2 . ٢٨٤
 على بن أحمد الماذرائي : 4 . ٦٤٥
 على بن أحمد المديني (أبو الحسن) : 4 . ٦٤٨
 على بن أحمد المري (أبو الحسين) (مدحه المتنبى) :
 2 . ٢٧١ - ٢٧٤
 على بن أحمد بن أبي سعدة (أبو الحسين) : 4 . ٥٩٠
 على بن أحمد بن منصور الفساني (أبو الحسن) : 4 .
 ٦٤٣ ، ٦٤٤
 على بن أيوب بن الحسين بن الساريان الكاتب
 (روى عن المتنبى) : 4 . ٦٠٨ ، ٦٢١ ، ٦٤٩ ،

أبو عمر الصباغ : ٢٨٢ . 2
عمر بن أحمد بن هبة الله ... (نسه) (ابن العديم) :
٦٥١ . 4

عمر بن الخطاب : ١٤٠ . 2
عمر بن أبي ربيعة : ٣٩ . 1
عمر بن سليمان الشرايى (مدحه المتنبى) : ٢٥٦ . 2
عمر بن على بن قشام الحلبي : ٦٤٨ . 4
عمر بن محمد السرخسى : ٦٢٢ . 4

عمر بن محمد بن معمر بن طرز (أبو حفص) : 4 .
٦٣٣
عمرو بن حابس (من بنى أسد) : ٦٦ . 1 ، 2 ،
٣٩١ ، ٢١٦

ابن العميد (أبو الفضل) (محمد بن الحسين)
(مدحه) : ٥٠٠ . 1 ، 2 ، ٣٧٨ - ٣٨٠ ، 4 .
٥٩٥ ، ٦٠٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٠ - ٦٤٢ ، ٦٤٨ ،
٦٥٠ - ٦٥٣ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٨ .
العميدى (الصاحب ، أبو سعد محمد بن أحمد)
(صاحب الإبانة) : ٥٥٠ . 1 ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ،
عَميرة بن أسد بن ربيعة : ٥٨٧ . 4
عَنْزَة بن أسد بن ربيعة : ٥٨٧ . 4
عيسى بن مريم (المسيح عليه السلام) : ٢٣٤ . 2 ،
٦٨٨ ، ٦٢٢ . 4

غالب بن همام بن الفضل المعرى : ٦٤٤ . 4
أبو غالب (شجاع بن فارس بن الحسين الذهلى)
غالب بن صعصعة (أبو الفرزدق) : ٤٠٧ . 3
أبو غالب بن بشران : ٦٣١ ، ٦٣٣ . 4
غرس النعمة (محمد بن هلال بن الحسين بن أبى
إسحق الصالى)
أبو الفنائم الرندى (صاحب نزهة عيون المشتاقين) :
٦٢٩ . 4

على بن المحسن بن على التوخى : ١٣٧ . 2 - ١٤٠ ،
١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٤ ، ٦١١ ،
٦١٦ ، ٦١٥

على بن محمد (أبو الحسن الفصيحى) : ٥٨ . 1
على بن محمد بن سيار بن مكرم التيمى (مدحه
المتنبى) : ٢٨٦ . 2 ، ٦٣ . 1
على بن محمد بن صالح ، أبو الحسن (ابن أم شيبان) :
١٣٨ . 2

على بن محمد بن على بن فورجة (ابن فورجة)
على بن مَر (مدح المتنبى) : ٦٠١ . 4

على بن مرشد بن على بن مقلد الكنانى المالكى
(كتاب البداية والنهاية) : ٦٣٨ . 4

على بن المُسَلَّم السُّلَمى (أبو الحسن) : ٦٤٤ . 4
على بن منصور الحاجب (مدحه المتنبى) : ٢٥٦ . 2
على بن منصور الحلبي (أبو الحسين) (دَوَخلَة)
(ابن القارح)

العلويون (العلوية) (الأشراف) (الشيعة) : 1 .

٤٩ - ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ١١٩ ، ١٤١ . 2 ،
١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧٥ - ١٧٥ ،
١٨٢ - ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ - ٢٠٦ ،
٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ - ٢٣٢ ،
٢٣٥ - ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
٢٨١ ، ٢٨٧ - ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ،
٣٠٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ - ٣٧٤ ، ٣٧٦ ،
٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ . 3 ، ٤٢٣ ،
٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ - ٤٦٢ ،
٤٧١ - ٤٧٩ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠٤ ، ٥٢٨ ،
٥٣٩ - ٥٤٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨ - ٥٦٤ ،
٥٦٥ ، ٥٧١ - ٥٧٤ ، ٥٨٩ . 4 - ٥٩١ ،

٦٨٣ ، ٦٥٩ ، ٦١٠

- فاتك الإخشيدى (المجنون) (أبو شجاع) : 2 .
٦٨٩ . 4 ، ٣٦٦
- فاتك بن أنى الجهل الأسدى : 4 . ٥٩٥ ، ٥٩٦ ،
٦٩١ ، ٦٥٥ - ٦٥١ ، ٦٢٨ ، ٦٠٤ ، ٥٩٨
- فاطمة بنت رسول الله ﷺ (الفاطميون) : 2 .
٤٥٢ . 3 ، ١٦٠
- الفاطميون : 2 . ٢١٩ ، ٢٢٢ - ٢٢٩ ، ٢٣٨ ،
٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
٣٦٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ،
٥٠٧ . 3
- أبو الفتح البستى : 4 . ٦٢٨
- أبو الفتح (ابن جنى)
أبو فراس (الفرزدق)
أبو فراس الحمدانى : 2 . ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٣١٧ ،
٣٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٤٢ ، ٣٢٥ ، ٣١٨ ،
٣٦٧ ، ٦٦٦ . 4 ، ٤٠٧ . 3 ، ٣٦١
- أبو الفرج (أحمد بن الحسين المالكى)
أبو الفرج الأصفهانى (الأغانى) : 4 . ٥٩٩
- أبو الفرج السامرى (كاتب سيف الدولة) : 3 .
٤٤٤ ، ٤٤٣
- الفرزدق (أبو فراس) : 3 . ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ،
الفرغانى (عبد الله بن أحمد ، أبو محمد) : 4 . ٦٤٩ ،
٦٥٠
- الفرغانى (أبو بكر) : 4 . ٦٨٩
- الفصيحى (على بن محمد ، أبو الحسن) : 4 . ٦٢٤
- أبو الفضل (مدحه المتنبى) : 1 . ٦٤ ، ٦٥ ، 2 .
٥١٠ - ٥٠١ . 3 ، ١٨٨ ، ١٨٧
- أبو الفضل (أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى)
أبو الفضل (عبد الرحمن بن الحسين الغندجاني)
أبو الفضل (ابن العميد)
أبو الفضل إبراهيم : 4 . ٥٨٦
- أبو الفضل العروضى (أحمد بن محمد)
فتاخسرو (عضد الدولة) : 4 . ٦٥١ ، ٦٥٣ ،
أبو الفوارس (دلير بن لشكروز)
ابن فورجة (على بن محمد بن على ، أبو الحسن) :
١٦٥ . 2 ، ٦٢٠ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣٥ ،
٦٦٠ ، ٦٤٦
- ابن فورجة (محمد بن أحمد بن فورجة ، أبو على) : 4 .
٦٧٥
- فؤاد صروف (المقتطف) : 1 . ٧ ، ٣٥ ، ٤١ -
٥٥١ ، ٥٤٩ . 3 ، ٧٩ ، ٤٧
- الفيروزبادى (صاحب القاموس) : 2 . ١٣٧
- ٥٥٥
- قابوس (شمس المعالى)
ابن القارح (دوخلة) (على بن منصور) : 4 .
٦٨٤ ، ٦٦١
- أبو القاسم (طاهر بن الحسن بن طاهر)
أبو القاسم (عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى)
(صاحب إيضاح المشكل)
أبو القاسم الرقى المنجم : 4 . ٦٣٣
- قاسم الرجب (الكتبى) : 1 . ٧٩ ، ٩٨
- أبو القاسم الثيبلى (روى عن المتنبى) : 4 .
٦٩٢ ، ٦٠٩
- أبو القاسم بن برهان النحوى (عبد الواحد بن على)
(ابن برهان)
أبو القاسم بن حسن الحمصى (روى عن المتنبى) : 4 .
٦٩٢ ، ٦٠٨
- القاسم بن القاسم الواسطى ، أبو الحسن : 4 . ٦٦٠
- القاهر (الخليفة) : 1 . ٩١
- قحطان : 3 . ٤٥١ ، ٤٥٢
- القرامطة (القرمطية) : 1 . ٨٢ ، ١٠٩ ، ١١٩ ،
١٥٥ . 2 ، ١٩١ ، ٢٢٤ ، ٣٨٨ ، ٤٧٨ . 3

٢٩٤. 2

اللاذقي (معاذ بن إسماعيل اللاذقي)

لقيط بن زُرارة : 4 . ٥٩٩

لؤلؤ (أمير حمص) : 2 . ٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٣٠٥ . 3 ، ٥٥٥

٦٨٤ ، ٦١٦ ، ٦١٥ . 4 ، ٥٥٦

ابن لنكك (الحسن ...)

ابن أبي ليلى (عبد الرحمن) : 3 . ٤٥٥

ابن مائل القاضي (جليس سيف اللولة) : 4 . ٦٤٣

المازني : (إبراهيم عبد القادر) : 3 . ٤٢٨

ابن ماکولا (صاحب الإكمال) : 2 . ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٥١

٦٠٨ . 4

مالك بن دينار : 2 . ١٤٠

مَبْدُول العذريُّ الشاعر : 3 . ٤٦٩

المتقي (الخليفة) : 1 . ٩٢ ، ٩٤

المجنون (فاتك الإخشيدى) : 4 . ٦٨٩

مجنون ليلى : 3 . ٤٨١

المجوس : 3 . ٤٠٠

محب الدين الخطيب : 1 . ١٢

محسن الأمين الحسيني العاملي : 2 . ١٤١

المحسن بن علي التنوخي (أبو علي) (التنوخي) :

١٣٧ - ١٣٩ ، ١٤٥ - ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٨

١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ١٩٩

٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٧٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٧٦

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ - ٥٥٤ ، ٥٥٤

٦١١ ، ٦١٦ ، ٦٣٥ ، ٦٨١ - ٦٨٤

المحسن بن علي بن كوجك (أبو عبد الله) : 4 . ٦٤٤

محمد صلى الله عليه وسلم : 1 . ١٢ ، ٣٤ - ٣٦ ، ٦٧ ، ١٧٦ . 2 ، ١٧٦

٢٠٩ ، ٢٠٤

أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طنج)

٥٣٠ - ٤٨٩ ، ٤٧٩

قرقاش (الدمستق)

قريش : 3 . ٤٥٢

القرزاز القيرواني (محمد بن جعفر ، أبو عبد الله) :

٦٦٠ ، ٦٦١ . 4

القطاع (علي بن جعفر) : 4 . ٦٦١

القطريلي (عبد الله بن الحسين الكاتب ، أبو محمد)

(المؤرخ) : 4 . ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٨٤

القفطي (إنباه الرواة) : 4 . ٥٨٧

قيس بن الخطيم : 4 . ٦٣٠

قيصر الروم : 1 . ٤٥

كافور (الإخشيدى) (الأستاذ) (أبو المسك) :

٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٥٠٠ ، ٧١ - ٧٣ ، ٧٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ١٧٧

١٩٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٦١ - ٣٦٨ ، ٣٦٨

٣٧٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٣٩

٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٦٤٥ ، ٦٤٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٦

٦٦٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٣

٦٩٤

ابن كثير (البداية والنهاية) : 4 . ٥٩٠

كُتَيْر : 4 . ٦٧٦

ابن كرويس الأعمور (هجاه) : 2 . ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠

٢٧٣ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٠

بنو كلاب : 2 . ٢٠٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٥ ، ٥٥٥ . 4 ، ٥٥٥

٦١٦ ، ٦٨٥

بنو كلب (الكلبيين) : 2 . ٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٤٩٨ . 3 ، ٤٩٨

٥٤٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٦٠٩ . 4 ، ٦١٣ ، ٦١٣

٦١٦ ، ٦٦٣ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

ابن كنداج (أبو دلف)

كندة (قبيلة) : 2 . ١٤١ ، ١٥٩

ابن كيغلغ الأعمور (إسحق بن كيغلغ) (هجاه) :

- أبو محمد (المهلبى) الوزير
 محمد بن أحمد البيرونى (أبو الريحان) : 4 . 614 ،
 615
- محمد بن أحمد ، أبو سعد (العميدى)
 محمد بن أحمد بن فورجة ، أبو على (ابن فورجة)
 محمد بن أحمد بن القاسم المحاملى (أبو الحسين)
 (روى عن المتنبى) : 4 . 608 ، 611 ،
 659 ، 692
- محمد بن إسحق التنوخى : 2 . 149 ، 234 ، 238
 محمد بن إسماعيل العلوى (أبو الحسين) : 4 . 648
 محمد بن جعفر بن محمد بن هرون بن فروة (ابن
 النجار المؤرخ)
 محمد بن الحسن (الداعى الصغير) بن القاسم بن على
 (أبو عبد الله بن الداعى)
 محمد بن الحسن الخوارزمى : 4 . 669
 محمد بن الحسن (أبو جعفر)
 محمد بن الحسن بن دريد (ابن دريد)
 محمد بن الحسين (أبو الفضل ، الأستاذ الرئيس)
 (ابن العميد)
 محمد بن الحسين البغدادى (صاحب المتنبى) : 4 .
 648
 محمد بن الحسين الموسوى (الشريف الرضى) : 4 .
 647
 محمد بن الحسين بن موسى السلمى : 4 . 648
 محمد بن الحسين بن حمزة العلوى (أبو جعفر) : 4 .
 592
- محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس العلوى العباسى
 (أبو الطيب)
 محمد بن رائق (أبو بكر) (ابن رائق)
 محمد سامى الدهان : 1 . 69
 محمد بن طنج (الإخشيد) (ابن طنج) : 1 . 88 ،
- محمد بن العباس (الخوارزمى) : 4 . 660
 محمد بن عبد الله ، أبو الحسن (الدانى)
 محمد بن عبد الله بن سعد الحلبي النحوى (روى
 عن المتنبى) : 4 . 609 ، 651 ، 692
 محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبى (أبو عبد الله)
 (مدحه المتنبى) : 2 . 277 ، 278
 محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل (أبو البركات) :
 4 . 614 ، 621 ، 649
 محمد بن عبد الباقي الأنصارى (أبو بكر) : 4 .
 631 ، 633 ، 635
 محمد بن عبد الباقي البطنى (أبو الفتح) : 4 . 638
 محمد بن عبد الجبار ، أبو منصور (السمعانى) :
 4 . 660
 محمد بن عبد الرحمن بن على الحسينى (تاج
 الشرف) : 4 . 651
 محمد بن عبد الملك الفرضى (الهمدانى) ، (صاحب
 تكملة تاريخ الطبرى)
 محمد بن عبيد الله السلامى الشاعر (السلامى)
 (أبو الحسن)
 محمد بن عبيد الله بن أحمد (المسبحى)
 محمد بن عبيد الله العلوى النقيب (الأشر)
 (المشطب) (المصهرج) (مدحه المتنبى) :
 1 . 52 ، 57 ، 65 ، 101 ، 102 ، 168 ،
 197 ، 311 . 511 - 522 ، 4 . 589 ، 610
 محمد على (الخديو) : 1 . 20
 محمد بن على بن إبراهيم (المراس الكافى) : 4 . 660
 محمد بن على بن أحمد العظيمى التنوخى الحلبي (أبو
 عبد الله) : 4 . 614
 محمد بن على بن نصر الكاتب (ابن نصر) (كتاب

- مرجليوث (المستشرق) : ١٢٠١ - ١٩ ، ١٠٧ ، ١١٨
- مساور بن محمد الرومي (مدحه المتنبى) : ٨٤ . ١ ، ٩٤ ، ٨٩ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥
- المُسَبَّحِي (مختار الملك ، محمد بن عبيد الله بن أحمد) : ٦٤٤ . ٤
- المشترقون الأعاجم : ١٢٠١ - ٢٥ ، ٨٢ ، ٩١ - ٩٣ ، ١٠٧ ، ١١٨
- مسكويه (أحمد بن محمد بن مسكويه) (روى عن المتنبى) : ٦٩٢ ، ٦٢٩ ، ٦٢٢ ، ٦٠٨ . ٤ ، ٥٠٢ ، ٤٩٩ . ٣ (المستشرق) : ٥٠٢ ، ٤٩٩ . ٣
- المسيح عليه السلام (عيسى بن مريم) المشطب (المصهرج) (الأشتر) (محمد بن عبيد الله العلوي) (مدحه المتنبى) (المشطب) (المصهرج)
- مصطفى صادق الرافعي : ٧٦ ، ٦٨ ، ٥٤ . ١ ، ٥٧٩ - ٥٧٥ ، ٣٩٥ . ٣ ، ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٧٨
- مصطفى عبد الرازق : ١٠٠ . ١ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٨
- المطلبى : ١٥٤ . ٢
- المظفر الزوزني (أبو القاسم) الشاعر : ٦٥٥ ، ٦٩٥
- معاذ بن إسماعيل اللاذقي (أبو عبد الله) (صاحب المتنبى) : ١٩٩ ، ١٩٦ . ٢ - ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٤ ، ٥٣٨ ، ٤٨٨ . ٣ ، ٥٥٩ - ٥٥٦ ، ٥٧٠ ، ٦١٧ . ٤ - ٦٢٠ ، ٦٨٨ - ٦٨٥
- أبو المعالي بن سيف الدولة : ٦٠٨ . ٤
- معاوية رضي الله عنه : ١٤١ . ٢
- ابن المعتز : ٦٧٧ . ٤
- معد بن عدنان : ٩٣ . ١
- المفاوضة) : ٦٣٣ . ٤ - ٦٤٨ . ٤
- محمد بن علي بن ياسر الجياني (أبو بكر ، الحافظ) : ٦٤٨ . ٤
- محمد بن عمير العطاردي : ١٤١ . ٢
- محمد بن القاسم الصوفي : ١٥٤ . ٢
- محمد كمال حلمي بك (كتاب المتنبى) : ٤١٣ . ٣
- محمد بن المبارك الجبلي (أبو نصر) : ٥٩٥ . ٤ ، ٦٩١ ، ٦٥٢
- محمد بن محمد بن سلمان الكوفي (أبو الحسين) (أبو السؤداتي) (راوية المتنبى) : ٥٩٢ . ٤
- محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطيب (أبو عبد الرحمن) : ٦٤٨ . ٤
- محمد محي الدين عبد الحميد : ٣٦ . ١
- محمد مرسي الخولي : ٦٢٨ . ٤
- محمد بن المظفر ، أبو الحسن (الحاتمي)
- محمد بن منصور بن محمد السمعاني (أبو بكر) : ٦٤٨ . ٤
- محمد بن موسى (سيبويه الموسوس)
- محمد بن نصر الكاتب : ٦٣١ . ٤
- محمد هاشم عطية : ٧٩ . ١
- محمد بن هاشم (الخالدي) (أحد الخالدين)
- محمد بن هلال بن المحسن بن أبي إسحاق الصائغ (غرس النعمة) : ٦٤٧ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ . ٤
- أبو محمد بن وكيع السمسار التنبى (ابن وكيع)
- محمد بن يحيى العلوي (أبو الحسن العلوي)
- محمد يوسف نجم : ٧٤ . ١
- محمود محمد الخضيرى : ١٦ ، ١٤ . ١
- مُحَيُّ المؤودات (غالب بن صعصعة) : ٤٠٧ . ٣
- مختار الملك (المسبحي)
- امرؤ القيس : ١ . ١ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٩٩ . ٤ ، ٦٥٥ ، ٦٩٦

- ناصر الدولة (الحسن بن عبد الله بن حمدان)
 ناصيف اليازجى (شارح ديوان المتنبى) : ٣٧ . 1 ،
 ٨٧ ، ٤٤
- التأمى (أبو العباس المصيصى الشاعر) : ١٥٨ . 2 ،
 ٦٩٢ ، ٦٦٦ ، ٦٣٥ . 4
- نايف بن عبد العزيز آل سعود (الأمير) : ٦ . 1 ،
 ابن النجار (المؤرخ) (محمد بن جعفر بن محمد بن
 هرون) : ١٤٣ ، ١٤٢ . 2 ،
 النصارى : ٤٠٠ . 3
 النصرانية : ٦٧ . 1
 أبو نصر (محمد بن المبارك الجبلى)
 أبو نصر الحميدى : ٦٣٨ . 4
 أبو نصر بن طلاب : ٦٤٤ . 4
 أبو نصر بن غياث النصرانى الكاتب : ٦٤٧ . 4 ،
 ٦٩٣
 تليو (المستشرق) : ١٧ . 1 - ١٩
 الثمر بن قاسط بن أقصى بن دُعوى : ٥٨٧ . 4
 أبو نواس : ٥١٦ ، ٥١٥ . 3 ، ٦٦٧ ، ٦٦١ . 4 ،
 ٦٦٨
 النواصب : ١٥٦ . 2
 هرون الرشيد : ٦٦٧ . 4
 هرون بن عبد العزيز (الأوراجى) (أبو على)
 (مدحه المتنبى) : ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣٦١ ،
 هرون بن المنجم : ٦٠٢ . 4
 هاشم بن عبد مناف (هاشمى) (الهاشميون) : 2 .
 ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٦٦٣ . 4
 الهاشمى (ابن أم شيبان)
 الهاشميون : ٥٣ . 1
 هبة الله بن عبد الله بن أحمد الوسطى : ٦٠٩ . 4
 الحراس الكافى (محمد بن على بن إبراهيم)
- معز الدولة (أحمد بن بويه الديلمى) : ١٥٩ . 2 ،
 ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٥٩٠ . 4 ، ٥٩١ ، ٥٩٥ .
 المعز لدين الله الفاطمى : ٣٦٦ . 2
 المغربى (إبراهيم بن عبد الله المغربى أبو إسحق) :
 ٦٩٢ . 4
 المغربى (أحمد بن محمد ، أبو الحسن) : ٦٦١ . 4 ،
 ٦٧٥
 المغيث بن على بن بشر العجلى (مدحه المتنبى) :
 ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٠ . 2
 المقندر (الخليفة) : ٦٢٤ . 4
 المقرزى : ٦٨١ ، ٦٠٣ ، ٥٨٥ . 4 ، ٤٩ ، ٥٠ . 1 -
 ٦٩٧ (ترجمته للمتنبى)
 ابن المقبر (أبو الحسن ...) : ٦٤٧ . 4
 أبو المكارم بن سيف الدولة : ٦٠٨ . 4
 ابن مكرم (على بن محمد بن سيار بن مكرم التيمى)
 ابن ملك اليهودى : ٣٦١ . 2
 أبو منصور (الجوالقى)
 أبو منصور بن زريق : ٦١١ ، ٦١٥ ، ٦٤٩ ،
 ٦٦٥
 منصور فهمى : ١٠٠ . 1
 المهلبى (أبو محمد الوزير) : ١٥٨ ، ١٤٥ . 2 ،
 ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٣٦٢ ، ٣٢٩ ، ١٦١ ، ١٥٩
 ٦٧٨ ، ٦٣٩ ، ٦٢٦ . 4 ، ٥٤٢ . 3
 الموربانى (أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان)
 موهوب بن أحمد (الجوالقى) (أبو منصور)
 مؤنس : ٢١٦ . 2
 المؤيد بن محمد الطوسى : ٦١٤ . 4
 ه ه ه
 النابغة الذبيانى : ٣٩ . 1
 الناشء (أبو الحسين) : ٢٣٢ . 2 ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٥ . 3

- هشام بن عبد الملك ٦٧٦ . 4
 هلال بن المحسن بن أبى إسحق الصائى : 4 . ٦٣٨ ،
 ٦٣٩ ، ٦٤٧
 همام بن الفضل بن المهذب المعرى (أبو غالب)
 (صاحب التاريخ) : 4 . ٦٣١ ، ٦٣٢
 همدان (همدانية) : 3 . ٤٠٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٣ ،
 ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٩ ، ٦١٢ . 4
 الهمداني (محمد بن عبد الملك) (صاحب تكملة
 تاريخ الطبرى) : 1 . ٥٦ ، ٩٣
 أبو الهيجاء (ابن حمدان ، عم سيف الدولة) : 2 .
 ٣٢٢ ، ٥١٤
 هـ هـ هـ
 أبو وائل (تغلب بن داود بن حمدان) : 2 . ٣٢٠
 الواحدى (شارح ديوان المتنبى) : 1 . ٣٧ ، ٨٧ ،
 ١٠٩ ، ١٤٢ . 2 ، ٥٨٥ . 4 ، ٥٨٩
 الوحيد (سعد بن محمد) : 4 . ٦٦٠
 الوصى (على بن أبى طالب) : 4 . ٦٤٥
 ابن وكيع (الحسن بن محمد بن وكيع ، أبو محمد
 التيسى) : 4 . ٦٦٠ ، ٦٦٢
 هـ هـ هـ
- يأنس (غلام مؤنس) : 2 . ٢١٦
 اليازجى (ناصيف اليازجى)
 ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى (أبو الدر) :
 ١ . ٥٦ ، 2 . ١٥٣ ، 4 . ٥٨٧ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ،
 ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٢ ، ٦٥٩ ،
 ٦٦١ - ٦٧٢ ، ٦٧٦ - ٦٧٨ ، ٦٨١
 يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الحصكفى : 4 .
 ٦٤١ ، ٦٤٢
 يحيى بن على أبو زكريا (التبريزى) : 4 . ٦٦٠
 يحيى بن على الحضرمى (أبو القاسم) : 4 . ٦٤٥
 أبو اليُمن (زيد بن الحسن بن زيد الكندى)
 اليهود (عجل اليهود) : 2 . ٢١٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ،
 ٢٣٣ ، ٣٨٩ ، 3 . ٤٠٠ ، 4 . ٦٢٢ ، ٦٨٨
 يوسف بن أبى الساج : 3 . ٥١٤
 يوسف بن سليمان (الأعلم) أبو الحجاج : 4 .
 ٦٦٠
 يوسف بن محمود السَّوى الصُّوفى (أبو يعقوب) :
 4 . ٦٢٤
 ابن يونس (عبد الرحمن بن أحمد بن يونس ، أبو
 سعيد) : 4 . ٦٤٥

فهرس المواضع

- ٥٩٢ ، ٥٩٦ - ٦٠٤ ، ٦٠٨ - ٦١٣ ،
٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٩ ،
٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٨٣ ،
٦٩١ ، ٦٨٤
- البقاع (الشام) : ٥٥٠ ، ٥٤١ . ٣
بُنُورَى : (بنوزى) ٦٥٢ ، ٦٥٠ . ٤
بُنُورَى (بالزراى) (بنورى) : ٦٩١ . ٤
بين النهرين : ٥٢٦ . ٣
بيزغ (تيزغ) : ٦٥٢ ، ٥٩٦ . ٤
تُرْبَان : ٣٧٢ . ٢
الْتِيَه (تيه بنى إسرائيل) : ٣٧٢ ، ٣٦٧ . ٢
جَبَل : ٦٥٣ ، ٥٩٧ . ٣
جرش (جسمى ...) : ٢٧٥ ، ٢٧١ . ٢
الجزيرة (الشام) : ٣٣٩ - ٣٤١ ، ٥١٠ . ٣
٥٢٥
- الْحَدَالَى : ٣٦٤ . ٢
الحديثة : ٢١٦ . ٢
حَرَّان : ٥٢٦ . ٣ ، ٢٢٢ ، ١٩٨ . ٢
حصن بَرَزَوِيَه : ٦٤٤ . ٤ ، ٣١٠ . ٢
حضر موت (محلة بالكوفة) : ١٤٢ ، ١٤١ . ٢
٢١٠ ، ٢١١ ، ٥٦١ . ٣ ، ٦٢٠ . ٤
حلب : ١٩٨ ، ١٤٧ . ٢ ، ٩٠ - ٨٧ ، ٨٤ . ١
٢٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ . ٣
٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ . ٣
٥٢٦ ، ٥٥٤ ، ٦٠٧ . ٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٥ ،
٦١٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٥٦ ، ٦٧٧ ،
٦٨٨ ، ٦٨٤
حماة : ٢٢٢ . ٢
- آدرنى كسرى (بحلب) : ٦٠٨ . ٤
الآستانة : ٥٨٥ . ٤
الأردن : ١٥٥ . ٢ ، ٩١ . ١
أرجان : ٦٤٢ ، ٦٢٩ . ٤ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨ . ٢
أصهبان : ٦٤٢ ، ٦٢٩ ، ٦٢٤ . ٤
الألب (جبل فى أوربة) : ١٠٩ . ١
أنطاكية : ٢٢٢ ، ١٥٠ - ١٤٧ . ٢ ، ٩١ . ١
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ،
٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ،
٣١٤ - ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٥٢٦ . ٣ ، ٦٣٥ . ٤
٦٦٤
الأهواز : ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٤٦ ، ١٣٩ . ٢ ، ٣
٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٦١٦ . ٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣
أوربة : ٢١ . ١
٥٥٥
- باب الشعير (بغداد) : ٥٩١ . ٤
بحيرة طبرية (طبرية)
البحرين : ٥٠٢ ، ٤٩٤ . ٣
البصرة : ١٧٨ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٤١ . ٢
بَصْف (قرية للمتنبى بمعرة النعمان) : ٦٣١ . ٤
٦٣٢
بطن هنريط (هنريط)
بعلبك : ٥٢٦ . ٣ ، ٢٩٤ ، ٢٢٢ ، ١٩٨ . ٢
بغداد (مدينة السلام) : ٧٢ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٥٦ . ١
٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٩٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٣٧٣ ،
٣٧٥ - ٣٧٨ ، ٤١٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ،
٥١٠ - ٥١٨ ، ٥٢١ - ٥٢٦ ، ٥٨٥ . ٤

- حصص: ١٩٨. 2، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢٤٢، ٢٢٥،
 ٢٥٦. 3، ٥٢٦، ٥٥٥، ٦١٥. 4،
 ٦٦٣، ٦٨٤
- ***
- خان آبن حامد (بغداد): ٥٩١. 4
 خانكاه سعد الدين كُمشتكين (بجلب): ٦٠٨. 4
 خراسان: ٦٤٣. 4، ٣٠٢. 2
 خرشنة (جبل ملوك الروم): ٨٨. 1 - ٩٢. 2،
 ٢٢٧
- ***
- (دار العلم) للشريف الرضى: ١٦٧. 2
 درب الزعفراني ببغداد: ٥٩١. 4
 دمشق: ٥٤. 1، ٥٥، ٧٠، ٩١، ٩٣. 2،
 ١٤٧، ١٩٨، ٢٢٣، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٤،
 ٣٦١، ٥٢٦. 3، ٦٣٣. 4، ٦٥٩، ٦٦٤
- ديار ربيعة: ٥٢٦. 3
 دير العاقول: ٥٩٦، ٥٩٧، ٦٣٩، ٦٤٩،
 ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٩١
- ***
- رأس عين: ١٩٨. 2، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٢. 3،
 ٥٢٦
 رامهُزْمُز: ٥٩٥. 4
 رَبِضٌ حَمِيدٌ (ببغداد): ٥٩١. 4، ٦٠٢، ٦١١
 رَفْنِيَّة: ٦٣٢. 4
 الرملة: ١٥٢. 1، ١٥٣، ١٥٦، ١٦٩، ١٧٢،
 ٢٩٠ - ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٢٨،
 ٣٦١، ٣٦٢، ٦٢٩. 4، ٦٤٥
- رومية: ٤٩٩. 3
 الرّى: ٣٧٨. 2
- ***
- السبيع (محلة بالكوفة): ١٤١. 2، ٢٠٤، ٢٢٠. 4،
 السكاسك: ٥٦١. 3، ٦٢٠. 4،
 السكون (محلة بالكوفة): ١٤١. 2، ٢٠٤،
 ٢١٠، ٢١١، ٥٦٠. 3، ٦٢٠. 4، ٦٨٧،
 ٦٨٨
 سَلَمِيَّة: ٢٠٤. 2، ٦٦٣. 4،
 سَمِيَّاسُط: ٢٢٧. 2
 السماوة (بادية السماوة): ٤٩٢. 3، ٤٩٤،
 ٥٥٤، ٦٨٤. 4
 سواد العراق: ١٤٠. 2
 سورستان: ١٤٠. 2
 سوق حَكَمَة: ١٤٠. 2
 سورية: ٥٢٥. 3
 سوق البز (ببغداد): ٦٠١. 4
- ***
- الشام: ٢٤. 1، ٤٩، ٥٠، ٦٢، ٦٧، ٨٢،
 ٨٧، ٨٩، ٩٤، ١٤١. 2، ١٥٨، ١٦٠،
 ١٦٥، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٨٦، ١٩٨،
 ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢ -
 ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٦١،
 ٢٨١، ٣٠٠ - ٣٠٧، ٣١١، ٣٢٨ - ٣٣٠،
 ٤١٨. 3، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٩٢ -
 ٤٩٤، ٥١٠، ٥٢١، ٥٢٧ - ٥٣٨، ٥٣٩،
 ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٥٧، ٦٥٦، ٦٥٧، ٥٦٠، ٥٦١،
 ٦٠٧. 4، ٦١٣، ٦١٥، ٦١٩، ٦٢٠،
 ٦٤٢، ٦٤٤، ٦٤٦، ٦٦٤، ٦٨٣، ٦٨٧،
 ٦٨٨
 الشَّعْب (بفارس): ٢٨١. 2، ٢٨٢
 يوم شعب جبلة: ٥٩٩. 4
 شيراز: ٥. 1، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٠. 4،
 ٥٨٥ - ٥٨٨، ٦٠٣، ٦٠٨، ٦١٠، ٦٢٨،
 ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٤١، ٦٤٩، ٦٥١،

٢٥٦. 2: الفراديس
القرات: 1. 92، 2. 222، 3. 224، 4. 518، 4.
- ٦٩١
- فرنسا: 1. 109
- القسطاظ (مصر): 1. 92، 2. 147، 3. 347
- الفيوم: 4. 689
- ***
- القاهرة: 1. 77
- القسطنطينية: 1. 55
- قسرين: 2. 256
- قويق: 4. 638
- ***
- كاظمة (تَعْفُ كاظمة): 3. 400، 4. 401
- كراجي (بالهند): 1. 80
- كرخ بغداد: 4. 591
- كفر عاقب: 1. 52، 58، 63، 2. 150،
169، 172، 254، 290-293، 373
3. 564، 565
- كندة (حلة بالكوفة): 1. 53، 2. 137، 141،
142، 145، 148، 204، 4. 610-614، 683
- كوتكين: 2. 157، 204، 224، 4. 663
- الكوفة: 1. 49-53، 56-59، 62-65،
82، 87، 2. 137-153، 156-173،
187، 191، 192، 196-198، 211،
215، 229-256، 277-284،
306، 327، 337، 372-382، 3،
404، 421، 429، 431، 436، 438،
446، 457-463، 471-479،
485، 488-503، 507، 510-
528، 545، 546، 589، 600، 610-
614، 634، 649، 650، 659، 674
- ٦٩١، ٦٩٠، ٦٧١، ٦٧٠
- ***
- الصابية (غربي بغداد): 4. 4، 604، 651، 691
- الصعيد (مصر): 2. 363، 4. 668
- صهبان (قرية بالشام): 4. 632
- صيداء: 2. 363، 4. 668
- ***
- ضُمَيْر (جبل): 2. 344
- ***
- طَبْرِيَّة (بحيرة طبرية): 1. 67، 91-97، 2،
103-106، 169، 203-209،
265، 268، 273، 287-292، 3، 525
4. 564
- طبرستان: 4. 591
- طرابلس (الشام): 2. 198، 3. 525
- طور سيناء: 2. 372
- ***
- العراق: 1. 64، 79، 90، 92، 2. 140،
158-170، 216، 222، 224، 261،
301-303، 328، 330-339،
341، 362، 372، 374، 377، 3،
429، 457، 459، 466، 4، 590،
611، 639، 653، 668
- العواصم: 2. 374
- عين التمر: 4. 596
- ***
- عَرَب: 2. 364
- ***
- فارس: 2. 139، 302، 378، 384، 385،
3، 503، 4. 590، 592، 600، 616،
639، 649، 653، 682، 683

- مقبرة باب الدير ببغداد: ٥٨٦ . 4
مَلْطِيَّة : ٢٢٦ . 2
مَنْبِج : ٥٢٦ . 3 ، ٢٢٢ ، ١٩٨ . 2
الموصل: ٩٢ . 1 ، ٢١٥ . 2 ، ٢١٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ،
٦٧٢ ، ٦٥٦ ، ٦٥٥ ، ٦٣٥ . 4
مِيَّافارقين : ٦٧٣ ، ٦٧٢ . 4

نجد: ١٩٧ . 2
نحلة: ٦٢٢ . 4
نَصِيْبِيْن : ٥٩١ . 4 ، ٥٢٦ . 3 ، ٢١٥ ، ١٩٨ . 2
النعمانية: ٦٩١ ، ٦٥٠ ، ٦٤٩ . 4
النوبة: ٥٩٣ . 4
نيزغ (نيزع) : ٥٩٦ . 4
النيل: ٤٤٦ . 3

الهند (كراچي) : ٨٠ . 1
هَنْرِيْط (بطن هنريط) : ١٤٨ . 2

واسط: ٥٩٦ ، ٥٩٢ ، ٥٩٠ . 4 ، ٢٤٠ . 2
٦٩١ ، ٦٦١ ، ٦٥٢ ، ٦٥١

اليمن: ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٣ ، ١٤٢ - ١٤٠ . 2
٦٢٠ . 4 ، ٥٦١ . 3

مقبرة باب الدير ببغداد: ٥٨٦ . 4
مَلْطِيَّة : ٢٢٦ . 2
مَنْبِج : ٥٢٦ . 3 ، ٢٢٢ ، ١٩٨ . 2
الموصل: ٩٢ . 1 ، ٢١٥ . 2 ، ٢١٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ،
٦٧٢ ، ٦٥٦ ، ٦٥٥ ، ٦٣٥ . 4
مِيَّافارقين : ٦٧٣ ، ٦٧٢ . 4

لبنان: ٣٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ . 2
لويبة: ٥٩٣ . 4

مدينة السلام (بغداد)
مسجد ابن عمر: ٦٦٩ . 4
مسجد عفان: ٦٦٩ . 4
مشهد الحسين بن علي: ٥٩٦ . 4
مصر (القسوطاط) : ٤٩ ، ٢٤ ، ٢٠ ، ١٨ . 1
٤٩٢ ، ٢٢٢ . 2 ، ٩٢ ، ٨٠ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٤ ، ٥٠
٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٢ ، ٣٢٧ ، ٢٢٣
٤٤٥ ، ٤٣٢ . 3 ، ٣٨٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧١ - ٣٦٥
٤ ، ٦٠٨ ، ٦٠٧ ، ٦٠٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩١ . 4
٦٧٤ ، ٦٦٨ ، ٦٦٤ ، ٦٥٠ - ٦٤٣ ، ٦١١
٦٩٤ ، ٦٩٣ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨
مصر الجديدة: ٧٧ ، ٤٤ . 1
المطبق (سجن) : ٦٢٣ . 4
مَعْلَنَّايا : ٦٣٥ . 4
معرفة النعمان: ٦٣١ . 4
المغرب: ٣٦٦ ، ٣٠٢ ، ٢٢٢ ، ١٦٤ . 2

أماكن أخرى

- الأزهر: ٢٤ . 1
دار العلوم: ٢٤ . 1
دار الكتب المصرية: ٥٥ . 1
الجمعية الجغرافية: ١١١ ، ١٠٦ ، ١٠٣ ، ٩٩ . 1
٥٢٣ ، ٤٢٧ . 3
لجنة التأليف والترجمة والنشر: ١٠١ . 1
مجمع اللغة العربية بدمشق: ٥٤ . 1
المدرسة الخديوية الثانوية: ٨ . 1

أسبوع المتنبى: ١٠٣ ، ٩٩ . 1

« غزوة المصيبة » (سيف الدولة) : ٦٦٤ . 4
« غزوة الفناء » (سيف الدولة) : ٦٦٤ . 4

فهرس الكتب

كتب عن المتنبي

« زيادات شعر المتنبي » ، للراجكوتى : 1 . 38 ، 53 ، 65 ، 4 . 592 - 594

« ديوان المتنبي » رواية ابن جنى (عزام) : 4 . 596 ، 600

« شرح ديوان المتنبي » ، للواحدى : 1 . 37 ، 87 ، 109 ، 4 . 585 ، 589 ، 660

« شرح ديوان المتنبي » (للعكرى) : 3 . 512

« شرح ديوان المتنبي » لناصرى اليازجى : 1 . 37 ، 44 ، 87

« الفسر » لابن جنى : 4 . 637 ، 641 ، 660

« اللامع العزى » للمعرى : 4 . 660

« معجز أحمد » : 4 . 660

« الموضح » ، للتريزى : 4 . 660

« شرح ديوان المتنبي » لعبد القاهر الجرجانى : 4 . 660

« شرح السمعانى لديوان أبى الطيب » : 4 . 660

« شرح الإفليل لديوان أبى الطيب » : 4 . 660

« شرح الأعلم لديوان المتنبي » : 4 . 660

« شرح ديوان المتنبي » لابن الأنبارى : 4 . 660

« شرح ديوان المتنبي » ، لأبى اليمى الكندى : 4 . 660

« شرح ديوان المتنبي » لعبد الواحد بن محمد بن على بن زكريا : 4 . 660

« شرح ديوان المتنبي » لهراس الكافى : 4 . 660

« شرح ديوان أبى الطيب » للقاسم بن القاسم الواسطى : 4 . 660

« شرح ديوان أبى الطيب » للدانى : 4 . 660

* * *

« التنبيه » لعلى بن عيسى الربعى : 4 . 641 ، 660 ، 671

« الواضح فى مشكلات شعر المتنبي » عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ، وهو أيضاً .

« إيضاح المشكل فى شعر المتنبي » عبيد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى : 2 . 142 ، 167 ، 4 . 624 ، 660

« الرسالة الحاتمية » للحاتمى : 2 . 145 ، 4 . 661

« جبهة الأدب » أو « الرسالة الموضحة » للحاتمى : 2 . 145 ، 3 . 376 ، 4 . 661

« كتاب المفاوضة » لمحمد بن على بن نصر الكاتب : 4 . 633

- « كتاب الصاحب بن عباد » : ٦٦١ . 4
- « نزهة الأديب ، في سرقات المتنبي من حبيب » لحسنون المصرى : ٦٦١ . 4
- « بقية الانتصار ، المكثّر من الاختصار » للمغربي : ٦٦١ . 4
- « التنبية المُنْبِي ، عن رذائل المتنبي » للمغربي : ٦٦١ . 4
- « الانتصار المُنْبِي ، عن شعر المتنبي » للمغربي : ٦٦١ . 4
- « قصائد المتنبي » للأعلم الشنتمرى : ٦٦١ . 4
- « كتاب أبي الحسن الصقلي » : ٦٦١ . 4
- « كتاب القطّاع » : ٦٦١ . 4
- « كتاب القزاز القيرواني » : ٦٦١ . 4
- « كتاب للحسين بن محمد بن طاهر » : ٦٦٠ . 4
- « كتاب أبي الفضل العروضي » : ٦٦٠ . 4
- « كتاب الخوارزمي » (محمد بن العباس) : ٦٦٠ . 4
- « كتاب عبد الرحمن بن دوست النيسابوري » : ٦٦٠ . 4
- « المنصف » أو « سرقات النبي » لابن وكيع : ٦٦٠ ، ٦٦٢
- « التّجنيّ على ابن جنّي » لابن فورجة : ٦٢٠ . 4 ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٤٦ ، ٦٦٠
- « الفتح ، على أبي الفتح » لابن فورجة : ٦٦٠ . 4
- « كتاب الوحيد في الرد على ابن جنّي » للوحيد : ٦٦٠ . 4
- « المآخذ الكندية ، من المعاني الطائية » ، لابن الدهان : ٦٦١ ، ٦٦٦
- « الاستدراك على ابن الدهان » لابن الأثير : ٦٦١
- « الإبانة عن سرقات المتنبي » ، للعميدى : ٥٥ . 1 ، ٦٥٩ . 4 ، ٦٦١
- « الصُّبح المُنْبِي » للبيدي : ٧٤ . 1 ، ٥١٣ . 3 ، ٥٦٢ ، ٥٩٢ . 4 ، ٥٩٤
- « الوساطة » للقاضي الجرجاني : ٦٦٠ . 4
- « مختار في أخبار المتنبي » لياقوت بن عبد الله العربي : ٦٥٩ . 4
- « مختار من أشعار المتنبي » لياقوت الرومي : ٦٥٩ . 4
- « رسالة في قلب كافوريات المتنبي » (لابن حسام زاده) : ٧٣ . 1 ، ٧٤

- « أبو الطيب المتنبي » لمحمد كمال حلمي بك : ٤١٣ . 3
- « المتنبي » لشفيق جبري : ٤١٣ . 3
- « ذكرى أبي الطيب » لعبد الوهاب عزام : ٥٧ . 1 ، ٦٠ ، ٧٩ - ٩٨ ، ١٠٨ ، ٤١٣ . 3 ، ٤١٦ ، ٤١٩ ،
- ٤٢٣ - ٤٢٥
- « مع المتنبي » لطفه حسين : ١٠١ . 1 - ١٢٢ ، ٣٩٩ . 3 - ٥٣٠

سائر الكتب

- « مجموع في علم البلاغة » ، لابن جنى : ٦٥ . 1
 « بلاغات النساء » لطيفور : ٥٩٩ . 4
 « التعلل بإجابة الوهم ، في معاني منظوم أولى الفضل » ، للبيروني : ٦٢٧ . 4
 « الجمهرة » لابن دريد : ٦٢٩ . 4
 « تاج العروس » ، للزبيدي : ١٣٧ . 2 ، ٦٠٨ . 4
 « الإيضاح » ، لأبي علي الفارسي : ٥٨٧ . 4
 « التذكرة » لأبي علي الفارسي : ٦٤١ . 4
 « شرح الأشموني على ألفية ابن مالك » : ٣٦ . 1
 « الأوراق » للصولي : ٧٢ . 1
 « كتاب الوزراء » لابن الصائبي : ٦٢٩ . 4
 « الوزراء والكتاب » للجهشياري : ١٧٧ . 2
 « أخبار سيف الدولة » للزّراد : ٦٦٤ . 4
 « تكملة تاريخ الطبري » للهمداني : ٥٦ . 1 ، ٩٣ ، ٥٩١ . 4 ، ٦١١ ، ٦٨٤
 « تاريخ ابن يونس » ، لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدقي : ٦٤٥ . 4
 « ذيل تاريخ ابن يونس » ، يحيى بن علي الحضرمي : ٦٤٥ . 4
 « تاريخ المسبّحي » للمسبّحي : ٦٤٤ . 4
 « تاريخ همام بن الفضل المعري » : ٦٤٤ . 4
 « تاريخ القطريلي وابن أبي الأزهر » : ٦٢٣ . 4 ، ٦٨٤
 « تاريخ الفرغاني » للفرغاني : ٦٤٩ . 4
 « تاريخ ابن الأثير » : ١٤٤ . 2 ، ٥٩١ . 4
 « المقفّي » للمقريزي : ٦٨١ . 4
 « مجموع لصالح بن إبراهيم بن رشدين » : ٦٤٧ . 4 ، ٦٤٨
 « تاريخ حلب » للطباخ : ٨٩ . 1
 « تاريخ أبي غالب همام بن الفضل المعري » : ٦٣١ . 4 ، ٦٣٢
 « البداية والنهاية » لعلي بن مرشد بن مقلّد بن نصر الكناني المالكي : ٦٣٨ . 4
 « البداية والنهاية » لابن كثير : ٥٩٠ . 4
 « نزهة عيون المشتاقين » لأبي الغنائم الرّندي : ٦٢٩ . 4
 « تاريخ ابن أبي الأزهر ، والقطريلي » : ٦٢٣ . 4 ، ٦٨٤
 « تاريخ بغداد » للخطيب : ٥٩١ . 4 ، ٦٠٨ ، ٦١١ ، ٦٤٢ ، ٦٥٩ ، ٦٨٤

- « ذيل تاريخ بغداد » لعبيد الله بن أحمد بن طاهر : 4 . 6٢٤
- « تاريخ العظيّمى » : 4 . 6١٤
- « تاريخ دمشق » ، لابن عساكر : 1 . ٥٥
- « زبدة الحلب ، من تاريخ حلب » لابن العديم : 1 . ٤٤ ، ٨٩
- « لوامع الأمور » لابراهيم بن حبيب السقطى : 4 . 6٤٢
- « تاريخ القدماء لأبى العلاء » : 4 . 6١٤
- « رسالة الغفران » لأبى العلاء : 4 . 6٢٠ ، 6٨٤
- « رسالة ابن القارح » : 4 . 6٨٤
- « المعلقات العشر الجاهلية » : 1 . ٩ ، ١٠
- « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهاني : 4 . ٥٩٩
- « الحيوان » للجاحظ : 3 . ٥٤٤
- « العمدة » لابن رشيق : 3 . ٥١٥
- « الحماسة » لأبى تمام الطائي : 1 . ٩
- « الكامل » للمبرد : 1 . ٩
- « رغبة الآمل » لسيد بن على المرصفي : 1 . ٩
- « خزانة الأدب » للبغدادي : 1 . ٥٣ ، 3 . ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٥٤٧ ، 4 . 6١٠ ، 6٢٤
- « يتيمة الدهر (لثعالبى) » : 3 . ٤١٨ ، 4 . 6٢٢
- « الأنساب » للسمعاني : 4 . 6٠٨
- « جمهرة النسب » لابن حزم : 4 . ٥٨٧ ، ٥٩٠
- « الإكمال » لابن ماكولا : 4 . 6٠٨
- « المشتبه » للذهبي : 4 . 6٠٨
- « تبصير المنتبه » ، لابن حجر : 4 . 6٠٨
- « لسان الميزان » لابن حجر : 4 . 6٠٨
- « طبقات الأدباء » لابن الأنبارى : 3 . ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦
- « إنباه الرواة » للقفطى : 4 . ٥٨٧
- « الفلاكة والمفلوكون » : 4 . ٥٨٦
- « وفيات الأعيان » لابن خلكان : 4 . ٥٨٦
- « لباب الأنساب » للسيوطى : 4 . 6٠٨
- « بغية الوعاة » للسيوطى : 4 . ٥٨٦
- « ذكرى حبيب » للبيدعى : 1 . ٧٤

- « في الشعر الجاهلي » طه حسين : ١٣ . 1 ، ١٨ ، ٢٩ - ٣٤ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ٤٢٣ . 3 ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ . 3 ، ٣١ . 1 : طه حسين : ١٠٧ ، ١٨ . 1
- « حديث الأربعاء » لطف حسين : ٣١ . 1 ، ٤٢٨ . 3
- « قصص تمثيلية » ، ترجمة طه حسين : ٤٢٨ . 3
- « قبض الريح » للمازني : ٤٢٨ . 3
- « وثائق من كواليس الأدباء » لتوفيق الحكيم : ١١٨ . 1
- « مداخل إعجاز القرآن » محمود محمد شاكر : ١٧ . 1
- « قضية الشعر الجاهلي ، في كتاب ابن سلام » محمود محمد شاكر : ١٧ . 1
- « أباطيل وأسمار » محمود محمد شاكر : ١٦ . 1 ، ٢٠ ، ٢٤
- « تاريخ تمدن الإسلامى » لجرجى زيدان : ٢٤ . 1
- « الشاهنامة » ترجمة عبد الوهاب عزام : ٨٠ . 1
- « معجم الحيوان » لأمين المعلوف : ٤٣ . 1
- « المعجم الطبى » للدكتور محمد شرف : ٤٣ . 1
- « مقال عن المنهج » لديكارت : ١٤ . 1
- « دائرة المعارف الإسلامية » : ٨٢ . 1 ، ٩١ ، ٤٩٨ . 4

صحف ومجلات

- « صحيفة الجهاد » : ٣٠ . 1 ، ٣٤
- « مجلة الرسالة » : ٧٥ . 1 ، ٨١ ، ٣٩٥ . 3 ، ٥٣٤ ، ٥٣٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ - ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ - ٥٧١
- « صحيفة البلاغ » : ٧٥ . 1 ، ١٠٦ ، ٣٩٩ . 3 ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٥ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٨
- « مجلة الهلال » : ٣٠ . 3 ، ٤٨٠ ، ٤٨٤
- « المقتطف » : ٧٥ . 1 ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ٣٩٩ . 3 ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٦٣ ، ٥٣٣ ، ٥٤٠ ، ٥٧٧
- « مجلة الزهراء » : ١٤ . 1
- « مجلة الجمعية الملكية الآسيوية » : ١٢ . 1

مكاتب

- « مكتبة فيض الله بالآستانة » : ٥٨٥ . 4
 « لجنة التأليف والترجمة والنشر » : ٣٩٩ . 3
 « المكتبة السلفية » : ٣٨ ، ١٤ ، ١٢ . 1
 « المطبعة المصرية » : ٣٦ . 1
 « مكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية » : ٥٥ . 1

الفرق وأشباهها

- الزنادقة (الزندقة) : ٥٠٧ ، ٥٠٦ ، ٤٩٨ . 3
 الهوائية ، أصحاب الفضاء (فرقة) : ٦٢٧ . 4
 مذهب النفس الناطقة (فرقة) : ٦٢٦ . 4
 السفسطائية (فرقة) : ٦٢٦ . 4
 الحشيشية (فرقة) : ٦٢٦ . 4
 الحُلُول : ٥١٤ ، ٥٠١ . 3
 الإلحاد : ٥٠٧ ، ٥٠٦ ، ٥٠١ . 3
 الفرعونية : ٢١ . 1
 الفينيقية : ٢١ . 1
 الحروب الصليبية : ٦٧ . 1

فهرس

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

- ٥ - فاتحة الرسالة / ٦ - مدخل الرسالة ، وبدء الرحلة / ٧ - الرحلة إلى المنهج / ٨ - الاهداء إلى المنهج ،
وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه / ١٠ - تفسير جديد لأزمة الفعل عند سيبويه / ١٤ - سبب تأليف سيبويه
كتابه / ١٥ - منهجى فى تذوق الكلام / ١٦ - منهجى فى التذوق ، وكتابه « المتنبى » كيف استقبل /
١٧ - كتابى « المتنبى » كيف استقبل / ١٨ - لم أفارق منهجى قط فى مقالاتى وكتبى / ١٩ - لم أفارق منهجى فى
« القوس العذراء » (وهى شعر) / ٢٠ - تذوق شعر الشماخ / ٢١ - كلام فى « المنهج » و « ما قبل المنهج » ،
ما هو ؟ / ٢٢ - « ما قبل المنهج » ، المادة ، والتطبيق / ٢٣ - كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة /
٢٤ - أصول « المنهج » من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٢٥ - أصول « ما قبل المنهج » ، وبيان ذلك /
٢٧ - أصول « ما قبل المنهج » ، اللغة وأسرارها / ٢٨ - أصول « ما قبل المنهج » ، الثقافة وأسرارها ، « البراءة » من
« الأهواء » / ٢٩ - العواصم التى تحمى « ما قبل المنهج » / ٣٠ - العواصم التى تأتى من قبل « الثقافة » /
٣١ - رأس كل ثقافة هو « الدين » ، الأصل الأخلاقى / ٣٢ - « الأصل الأخلاقى » الفريد بالكمال فى ثقافتنا /
٣٤ - تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٣٥ - التفسير الصحيح لقضية « الحروب الصليبية » / ٣٦ - إخفاق
« الحروب الصليبية » ، ثم فتح القسطنطينية / ٣٧ - تأريخ « المسيحية الشمالية » فى المآزق (أوربة) وتفسيره /
٣٨ - إخفاق « الحروب الصليبية » وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٣٩ - بحث « المسيحية الشمالية » عن مخرج ،
ظهور « بيكن » وطبقته / ٤٠ - ظهور « توما الإكوينى » وطبقته ، واستمدادهم من المسلمين / ٤١ - فاجعة فتح
القسطنطينية وأثرها فى أوربة / ٤٢ - فتح القسطنطينية لم يكن شرًا على أوربة / ٤٣ - الإصلاح الدينى فى أوربة ،
« لوثر » و « كلفن » ، واستمدادهم من المسلمين / ٤٤ - مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام /
٤٥ - المرحلة الرابعة هى التى أدت إلى « عصر النهضة » / ٤٦ - إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة /
٤٧ - مدد « عصر النهضة » كله مأخوذ من دار الإسلام / ٤٨ - بدء ظهور طبقة « المستشرقين » وأهدافهم
ووسائلهم / ٤٩ - وصف حقيقة طبقة « المستشرقين » وعملهم للتبشير والاستعمار / ٥٠ - أهداف المسيحية
الشمالية وحقيقتها / ٥١ - أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٥٢ - انفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف
أمريكا ، وكيف كان ذلك / ٥٣ - إبادة الهنود الحمر هو خلُق الحضارة الأوربية ، « الاستشراق » / ٥٤ - عمل
« الاستشراق » و « المستشرقين » ونهبُ ثرائنا / ٥٥ - حقيقة « الاستشراق » ، وظهور دهاقيه الكبار /
٥٦ - « المستشرق » حامل هموم المسيحية الشمالية ويمثل أهدافها / ٥٧ - لأى هدف كتب « المستشرقون »
ما كتبوا؟ وصفة « المستشرق » / ٥٨ - ما كتبه « المستشرقون » موجه إلى المثقف الأوربى لا غير / ٥٩ - الصورة
التي صوروا بها العالم الإسلامى للمثقف الأوربى / ٦٠ - عمل « الاستشراق » موجه للمثقف الأوربى لحمايته /
٦١ - « الاستشراق » يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٦٢ - كتب « المستشرقين » لا توصف بأنها علمية /
٦٣ - أسباب نفى صفة « العلمية » عن كتب « المستشرقين » / ٦٥ - « المستشرق » عارٍ من شروط « المنهج »
و « ما قبل المنهج » / ٦٦ - نشأة « المستشرق » تنمعه من الدخول تحت شروط « المنهج » الثلاثة / ٦٧ - شروط
« المنهج » : « اللغة » و « الثقافة » و « البراءة من الأهواء » / ٧٠ - تنمة القول فى خلُق « المستشرق » من شروط

- « المنهج » / ٧١ - سرُّ « الثقافة » المثلّم ، ولم ؟ / ٧٢ - طُورَان في الطريق إلى « الثقافة » : الدين واللغة / ٧٤ - « الدين واللغة » غير قابلين للفصل / ٧٥ - « ثقافة عالمية » كلمة باطلة ، ولم ؟ / ٧٦ - لغة « المستشرق » و « ثقافته » تخرجه من شروط « المنهج » / ٧٧ - دوافع « المستشرق » في الكتابة حقُّ له / ٧٨ - ختام قضية « الاستشراق » / ٧٩ - قصة ملؤها المضحكات والمبكيات / ٨٠ - كيف كان الأمر في القرن الحادى شعر الهجرى / ٨١ - « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين / ٨٢ - الجبرتيُّ الكبير والإفرنج (المستشرقون) / ٨٤ - الفرق بيننا وبين أوربة في ذلك الوقت / ٨٥ - « الاستشراق » وتحوّفه من نهضتنا يومئذٍ / ٨٦ - « الاستشراق » ونذيرُه للمسيحية الشمالية / ٨٧ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار / ٨٨ - صراع بريطانيا وفرنسا في دار الإسلام في الهند / ٨٩ - وقّع نذير « الاستشراق » في فرنسا ، نابليون / ٩٠ - « نابليون » السفاحُ مدمّر القاهرة / ٩١ - قصة مُفحمة / ٩٣ - حقيقة « الحملة الفرنسية » في مصر / ٩٥ - « مينو » الخبيث ، وجلاء الفرنسيين عن مصر / ٩٦ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته / ٩٧ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نفائس الكتب / ٩٩ - سرقة الكتب لوأد اليقظة ، وسفح دماء رجالها / ١٠٠ - سفح الدماء لوأد اليقظة / ١٠١ - جهاز « الاستشراق » وعمله في دار الإسلام / ١٠٢ - « الاستشراق » وفكرة نابليون في خديعة « الديوان » / ١٠٤ - « الاستشراق » كامنٌ في أحشاء جزّار القاهرة نابليون / ١٠٥ - سياسة جزّار القاهرة في « إنشاء الديوان » / ١٠٦ - إخفاق نابليون ومستشرقوه في ترويض الجماهير المصرية / ١٠٧ - خيبة أمل الجزّار في « تدجين » المشايخ / ١٠٨ - رسالة نابليون إلى خليفته كبير وخطّرها / ١٠٩ - نص الرسالة وكيف عبّث بها الرافعي ، فضيحة !! / ١١٢ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم ، وزحفهم البطيء / ١١٣ - « لينتز » الفيلسوف الألماني يخرّض فرنسا على غزو مصر / ١١٤ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر / ١١٦ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « اليقظة » في مصر / ١١٩ - إرهاب نابليون ومقاصده في رسالته إلى « كبير » / ١٢٠ - مقاصد « نابليون » وإرهابه وجذور قضيتنا مع الغرب / ١٢١ - عمل « الاستشراق » ، والزحف الشامل على دار الإسلام / ١٢٢ - جاليات المسيحية الشمالية في قلب دار الإسلام / ١٢٣ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين / ١٢٤ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة في دار الإسلام في كل زيّ / ١٢٥ - عمل « الاستشراق » في إقامته الطويلة بدار الإسلام في مصر / ١٢٦ - بدء سقوط هيئة المشايخ عند المماليك المصرية / ١٢٧ - الثورة على المماليك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها / ١٢٩ - ثورة المشايخ على المماليك جزءٌ من « اليقظة » / ١٣٠ - المشايخ الثوّار ، كيف استجابوا لدعوة نابليون لإنشاء « الديوان » / ١٣١ - ما كان « الاستشراق » يوحيه إلى المشايخ عند دُتو الحملة الفرنسية / ١٣٢ - ما كان « المستشرقون » يفعلونه مع المماليك ، ومع الكنيسة القبطية / ١٣٣ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية لما لم تستجب لإغرائهم / ١٣٤ - سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ١٣٥ - إسناد المشايخ ولاية مصر لمحمد على / ١٣٦ - صفة أخلاق محمد على ، ومراقبة « الاستشراق » له / ١٣٧ - غُدر محمد على بالذى ولّاه مصر ، السيد عمر مكرم / ١٣٨ - إحاطة « القناصل » بمحمد على ، وتحريضه على غزو جزيرة العرب / ١٣٩ - قصة فكرة البعثات إلى أوربة / ١٤٠ - « جومار » وتطويره مشروع نابليون إلى بعثات طلبة / ١٤٢ - رفاة الطهطاوى وخيره ، وما فعل به « المستشرقون » / ١٤٥ - حقيقة « مدرسة الألسن » التي أنشأها رفاة الطهطاوى ، وخطّرها / ١٤٦ - خاتمة الرسالة ، وتمة القول في خطر « مدرسة الألسن » / ١٤٧ - الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وجعل التعليم كله في قبضة المبشّر « دنلوب » / ١٤٨ - « تفرغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، وبعث الانتاء إلى « الفرعونية » البائدة / ١٤٩ - ختام الرسالة ؛ والحمد لله وحده .

- ١٥١ - مقدمة هذه الطبعة
- ١٥٣ - وفيها ظهورُ نصرٍ ثالثٍ جيد ، هو من كلام المتنبي نفسه . ويثبتُ إثباتاً قاطعاً أنه أرضعته امرأة علوية من بناتِ « آل عبيد الله بن يحيى (أو : ابن علي) » . وهو الفيصلُ في شأن علوية المتنبي ، يؤيد ما افترضته استنباطاً عن طريق منهجي في « التذوق » ، أن المتنبي علويُّ النسب . وأخبارٌ أخرى بعضها يتعلقُ بقضية كتابي هذا
- ١٨٧ - الكلمة التي أُلقيت بعد تسلّم جائزة الملك فيصل العالمية صورة البراءة التي حاز بها هذا الكتابُ جائزة الملك فيصل العالمية

رسالة الكتاب (١)

- ٥ - خطبة كتاب المتنبي
- ٧ - قصة هذا الكتاب ، ولَمحةٌ من فساد حياتنا الأدبية
- (٨) بدءُ قصتي مع الشعر الجاهلي ، وكيف انتهت بي إلى اتخاذِ منهجي في « التذوق » ، تذوقِ الكلام عامةً ، والشعر خاصةً (١٢) قضية الشعر الجاهلي في الجامعة ، ومعارضتي لمنهج الدكتور طه حسين بمنهجي في « التذوق » (١٨) خداع المستشرقين : نلّينو وجويدى في مسألة « السطو » على آراء الآخرين (١٩) تنبهي يومئذ (سنة ١٩٢٦) إلى أسباب « فساد حياتنا الأدبية » وكيف تمّ إفسادها عن طريق العمل السياسي للاستعمار . « التفريغ الثقافي » . كيف تم تفريغنا من ثقافتنا ، لإحلال ثقافة أخرى في نفوس المتعلمين . وكيف تمّ بعد ذلك اعتمادُ حياتنا الأدبية على « السطو » و « على » الثرثرة » وهما أبشع داءٍ أفسد حياتنا الأدبية ولم يزل مستمرّاً إلى يومنا هذا (٢٢) من « التفريغ الثقافي » ، نشأت قضية فاسدة ، هي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » وما شاكل هذه الألفاظ الفارغة . شرح هذه القضية ، وذكر صفة العاملين على إحداثها في حياتنا الأدبية . (٢٥) المعنى الصحيح لما يسمّى « التجديد » ، وكيف كان ينبغي أن يكون . (٢٨) شهادتي على جيلي الذي أنا منه (٢٩) شهادة الدكتور طه على هذا الجيل نفسه في سنة ١٩٣٥ ، بعد عشر سنواتٍ فيها شهد عواقب ما أحدثه منهجه الانفعالي في تلامذته من الجامعيين وغيرهم .

(٣٤) « المتنبي » ، كيف ألفت هذا الكتاب ؟ (٣٦) « التذوق » ، معناه عندي ، وقراءة شعر المتنبي على وفق هذا المنهج المتشعب (٣٧) ديوان المتنبي أول ديوان مرثب على تأريخ القصائد ، وإحساس العرب بالتاريخ . وقراءتي شعره مرثباً على التأريخ ، وقراءتي إياه « متذوقاً

(٣٩) محاولتي قراءة شعر الجاهلية وما بعدها ، لكى أؤرخها « بالتذوق » (٤٠) قراءة شعره وأخباره ، « متذوقاً » ، ومفائدة ذلك . (٤١) كيف تمّ تأليف هذا الكتاب (٤٣) خير أمين المعلوف واستدلاله على حُبّ المتنبي « خولة » أخت سيف الدولة ، وهو نفس ما انتهيتُ إليه فى هذه القضية (٤٦) كيف بدأتُ كتابة « المتنبي » بعد طول تردّدٍ وخوفٍ ، وقد استقرّ مذهبى فى « تذوق » الشعر والأخبار .

(٤٩) « عمود صورة المتنبي » فى كتابى هذا ، منذ مولده إلى يوم مقتله . (ا) فى الكوفة من سنة ٣٠٣ - ٣٢٠ غلامٌ علويُّ النسب (ب) خروجه بالشام لإعلان علويته ، وإبطال خبر ما زعموه من ادعاء « النبوة » من سنة ٣٢١ - ٣٢٣ (ج) من سنة ٣٢٣ - ٣٣٦ ، رحلته فى الشام ، يتخلّلها دخوله الكوفة سنة ٣٢٥ (د) من سنة ٣٣٦ - ٣٤٦ ، لقاءه أبا العشائر ثم مصاحبة سيف الدولة (هـ) حبه « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم مفارقة الشام إلى مصر من سنة ٣٤٦ وإقامته بها إلى سنة ٣٥٠ (و) ثم رحيله عنها إلى العراق ، ثم مقتله سنة ٣٥٤ (ز) شخصيته أبنى الطيب العامة فى الكتاب عن طريق « التذوق » (ح) حُبّ أبى الطيب لجدته وزوجه وعياله ، وحُبّ « خولة » ، واستخرجت هذا كله عن طريق « تذوق الشعر والأخبار » = ثم شرح هذه الفقرات الثانية .

(٥٤) ادعاء « علوية المتنبي » ، كان فرضاً محضاً فى سنة ١٩٣٦ ، ثم فى سنة ١٩٥٨ وقفت على أول نصٍّ يؤيد ما ذهبت إليه (٥٥) فى سنة ١٩٦٢ ظهر نصٌّ ثانٍ يؤيد ما ذهبت إليه فى علوية المتنبي ، ويؤيد أيضاً ما استنبطته بالتذوق أنه كان لا يحبُّ الشيعة (٦١) علوية أبى الطيب ، ومسألة كتّان النسب ، وشرح هذه القضية (٦٥) دخوله على ابن دريد فى نحو سنة ٣٢٠ ، خبر جديد أيضاً (٦٦) مع سيف الدولة فى السياسة (٦٨) شرح عواطف أبى الطيب (٧٠) شرح قضية أبى الطيب فى مصر عند كافور ، وأثر فراقه سيف الدولة فى نفسه . ونظرة فيما يتضمنه شعره فى مدح كافور من السخرية والازدراء .

(٧٥) « الغمراتُ ثم يتجلينُ » ، بعد ظهور كتابى « المتنبي » ، ذكر خير الرافعي ، وخبر

العقاد

(٧٩) « كتابان فى علم السطو » . و « السطو » هو السنة التى سنّها أدباؤنا الكبار فى الحياة الأدبية . كتابان ألفا بعد ظهور كتابى ، وهما من الأدلة على فساد حياتنا الأدبية بينة « السطو » الباقية إلى يومنا هذا ، بل لعلها اليوم أشدّ بشاعة . الكتاب الأول : « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، وبعض دلائل السطو والفساد = (٩٩) الكتاب الثانى : « مع المتنبي » للدكتور طه حسين ، وفى الكتاب ما فيه ! (١٢٢) خاتمة فساد حياتنا الأدبية بالسنن الفاسدة التى سنّها شيوخنا وأدباؤنا الكبار

« المتنبى » (2)

- ١٢٧ تقديم المقتطف لكتابتى « المتنبى »

- ١٢٩ مقدمة الأستاذ فؤاد صرّوف

* * *

- ١٣٥ خطبة الكتاب فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥

- ١٣٦ نفثة قديمة (شعر)

* * *

- ١٣٧ (١) المتنبى ونسبه ، ونشأته من سنة ٣٠٣ إلى سنة ٣٢١

(١٣٧) الاختلاف فى نسبه (١٣٨) أخبار نسبه ، وكتانه هو هذا النسب (١٤٠)
مولده فى الكوفة دار العلويين ، ونقد بعض أخبار الكوفة (١٤٢) صاحب « إيضاح المشكل »
ونقد خبره عن المتنبى ، (١٤٣) المتنبى وبنو بويه (١٤٥) أخبار القاضى التنوخى ، ونقد هذه
الأخبار وتجميع رواياتها ، وعلاقة المتنبى بالتنوخيين (١٥١) : بيان عن شأن العلويين فى حياة
المتنبى (١٥٣) الإشارة فى التعليق إلى الأخبار الجديدة عن نشأته ، وأنه أرضعته امرأة علوية
(١٥٥) الإشارة فى التعليق إلى علوى عباسى يرجح أن له شأنًا فى الإرصاء لقتل المتنبى بكفر
عاقب ، وهو جديد (١٥٨) نقد الأخبار عن والد المتنبى « عيدان السقاء » .

- ١٦٣ (٢) الحديث عن جدّة المتنبى وأمه

- ١٦٧ (٣) الأدلة الداعية إلى افتراض علوية المتنبى

(١٦٧) كان أول أدلتى خبر « اختلاف المتنبى إلى كُتاب فيه أولاد أشراف الكوفة » ،
وتعلم فيه دروس « العلوية » ، وحذق العربية فى هذا الكُتاب ، وما جاء بعد ذلك بسنين مما يؤيد
حُجَّتى فى علويته . (١٦٨) فى التعليق ، إشارة إلى تدليس المستشرقين (١٦٩) الدلائل على
علويته ، كما استنبطتها باتخاذ مذهبى فى « التذوق » ، ما جاء فى خبر نبوته أنه ادعى أنه علوى ،
إرصاء العلويين لقتله بكفر عاقب ، دلائل مُستخرجة من خبر وفاة جدته ومن رثائه إياها
(١٧٢) أثر العلوية فى حياته ، وفى مسألة كتان نسبه (١٧٧) قصة أضفتها إلى الكتاب ، عن
وليد لأنى جعفر المنصور ، تشبه ما افترضته فى قضية المتنبى وأصله العلوى .

- ١٨١ (٤) أم المتنبى وجدته ، وعلاقتها بالعلويين

(١٨١) دلالة أوائل شعره على ما في نفسه ، وعلاقة جدته بكتبان نسبه (١٨٣) ستة أصول نفسية ظهرت في شعر صباه (ا) « الالتفات » ، وهو الخروج من معنى محدود إلى معنى مترامى الأطراف (انظر ص : ٢٨٣) (ب) دلائل الرجولة والفتوة وبعيد المهمة التي استغرقت كل شعره (ج) الثورة الدائمة التي لم تحب (د) طالب ثأر من عدو لا يكاد يفصح عنه (هـ) الإشارة الخفية أبداً إلى صفة هذا العدو (و) هذه الثورة من أثر تربية جدته ، ودلائل كل ذلك من شعره في صباه (١٨٧) خير أئى الفضل الذى يزعمون أنه أضله ، وتفنيده ذلك بنص المتنبي نفسه في تقديمه لشعره في أئى الفضل هذا (١٨٨) تأثر المتنبي بألفاظ الفلاسفة ، ودلالة ذلك (١٩١) في الكوفة من مولده سنة ٣٠٣ إلى سنة ٣١٧ ، وصفة حياته وحياة أهل الكوفة في هذه المدة (١٩٢) خروجه إلى بغداد سنة ٣١٩ ، وقصة له في بغداد رواها هو ، ويؤيدها الخبر الجديد الذى وقفت عليه من دخوله على إمام العربية ابن دريد ، كما سلف في ص : ٦٥ (١٩٤) « السخرية » طبيعة المتنبي في شعره ، وهى منفذ آلامه (١٩٦) تأمل المتنبي في حياة أمته ، وما كان يجده من ذلك ، حتى عَفَّ عن الطموح إلى توجيه شعره إلى مدح الأمراء والخلفاء ، ثم فراق الكوفة إلى بادية الشام سنة ٣٢٠ ، حتى نزل دمشق سنة ٣٢١ ، ثم تجوله بعد ذلك في بلاد الشام ، حتى كان ما كان من خبر اعتقاله وحبسه بمحص .

(٥) نبوة المتنبي ، وبطلانها وتأريخ ذلك في سنة ٣٢١ ، ٣٢٢

- ١٩٩

(١٩٩) سرد الروايات التى رُويت عن « نبوة » المتنبي (٢٠٦) مقدمة لنقد هذه الروايات (٢٠٧) نقد خبر ابن أم شيبان العلوى الهاشمى ، يقول فيه إنه « ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » (٢٠٨) نقد خبر أئى على بن أئى حامد وقوله : إن لؤلؤاً أمير حمص « استتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه (أى النبوة) ورجوعه إلى الإسلام » (٢٠٩) نقد قصة أئى عبد الله بن إسماعيل اللاذقى في شأن « نبوة » المتنبي (٢١٢) معجزات أئى الطيب التى ذكرها المعرى في « رسالة الغفران » وتفسير ذلك ، و « قرآن » أئى الطيب (٢١٣) ختام رأينا في شأن نبوة المتنبي ومسألة حبسه

(٦) حبس المتنبي كان من أجل إظهاره نسبته « العلوية » لا غير

- ٢١٥

(٢١٥) لقاء المتنبي سيف الدولة سنة ٣٢١ برأس العين ، ومدحه بقصيدة لم يسمعها منه ، ودلالة هذه القصيدة ، إذ هى القصيدة الفريدة التى مدح بها أميراً من الأمراء بشعر صباه (٢١٨)

حبسه لإظهار علويته ، لا لدعوى « النبوة » ، وعلاقة العلويين والفاطميين بهذا الحبس ، ودلائل ذلك من شعره (٢٢٤) بقاءه في السجن إلى سنة ٣٢٣ ، ودلالة شعره على استخفافه بالسجن ، وأنه لم يجبس لادّعاء النبوة ، بل لإظهار نسبه العلويّ (٢٢٦) تفسير القصيدة التي كانت سبباً في إطلاقه ، ومدحه ابن طفج (٢٣٢) سبب تلقيب أبي الطيب : « المتنبي » (٢٣٥) الدليل على أنه منذ خرج من السجن إلى سنة ٣٢٥ لم يكن معروفاً بهذا اللقب (٢٣٥) نبذة عن ظهور دليل جديد يؤيد ما ذهب إليه في سبب تلقيبه « المتنبي »

(٧) حياة المتنبي في الكوفة من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٦

- ٢٣٧

(٢٣٧) خروجه من السجن بجمص ، وبقاؤه قليلاً عند التنوخين في اللاذقية ، ثم عودته إلى الكوفة عند جدّته (٢٣٩) استنباط زواجه وهو بالكوفة ، ودليل ذلك من شعره (٢٤٠) مقارنة نهج شعره قبل سنة ٣٢٦ ، واختلافه عن شعره الذي قاله بعد ذلك (٢٤١) استنباط المعاني التي دعت إلى فراق الكوفة سنة ٣٢٦ ، من رثائه جدّته بعد ذلك سنة ٣٣٥ ، وارتباط ذلك بنسبه العلويّ . ثم خروجه إلى الشام مرةً أخرى .

(٨) رحلته في الشام من سنة ٣٢٦ إلى سنة ٣٢٧

- ٢٤٥

(٢٤٥) رحلته في الشام ، ومعاني شعره وخصائصها في هذه المدة (٢٤٦) ظهور مذهبه الجديد في الشعر في مدح علي بن إبراهيم التنوخي سنة ٣٢٦ ، ومقارنته بشعر صباه (٢٤٩) آراؤه السياسية ، وأنفته من حكم الموالى والديلم والعبيد والعجم (٢٥٠) خصائص شعره في هذه المدة ، وأن لها أصولاً تاريخية في حياته ، وعلاقة ذلك بإضطهاد العلويين في الكوفة وفي الشام (٢٥٢) ما سمّيته « توقيع المتنبي » في شعره (٢٥٣) خروجه من اللاذقية إلى طبرية وما لقي من أذعياء العلويين ، وأثر هذه الرحلة في شعره (٢٥٥) تنمة القول في ذكر بعض من لقيهم أو مدحهم خلال هذه الرحلة ، ودلالات أخرى من شعره

(٩) المتنبي مع بدر بن عمّار الأسدي بطبرية ، وإقامته معه من سنة

- ٢٥٩

٣٢٨ - ٣٣٣

(٢٥٩) تغير شعره ومعانيه بعد لقاء بدر بن عمار ، ودلالة هذا الشعر على اتجاهه السياسي والنفسي (٢٦٢) اتجاهه العربي وازدراؤه للأعاجم وسلطانهم (٢٦٤) حدة إحساسه بالجمال ، وصفة الأسد الذي قتله بدر ، وهي إحدى القصيدتين اللتين تدلان على تغير منهجه في الشعر (٢٦٧) ظهور السخرية في شعره ، وهي أصل من الأصول الستة المذكورة في ص : ١٨٣ (٢٦٨) مكاييد الأعور ابن كرويس التي أدت إلى مفارقتها بدر بن عمار وخروجه من طبرية (٢٧٠) إكثاره من المعارض والإنذار والوعيد في شعره ، وعلاقته بتلقيه « المتنبي »

(١٠) رحلته في الشام من سنة ٣٣٣ - ٣٣٦

- ٢٧٣

(٢٧٣) ابن كرويس من شيعة العلويين وأثر ذلك في شعره (٢٧٤) خصائص شعره في هذه المدة ، ورحلته في الشام (٢٧٨) دلالة شعره في مدح الخصيبى على منهجه وآماله في المطالبة بحقه ، وهو علويته (٢٨٠) كتاب جدته إليه تدعوه إلى الكوفة ، فمنعه العلويون من دخولها ، فماتت جدته سنة ٣٣٥ ، فبقى قليلاً في بغداد ، ثم عاد إلى رحلته في الشام (٢٨١) دلالات شعره بعد عودته ، ومعنى « الالتفات » في شعره (انظر ص : ١٨٣) (٢٨٣) بعض خصائص شعره في هذه المدة ، في أنطاكية ، وهو مهم (٢٨٩) رجوعه إلى طبرية مراغماً للعلويين وصاحبهم ابن كرويس (٢٩٠) إرصاد العلويين له عبيدهم بكفر عاقب ليقتلوه ، وهو في طريقه قاصداً أبا محمد بن طفج (٢٩١) أثر هذه المكيدة في شعره حين مدح ابن طفج وصاحبه أبا طاهر العلوي (٢٩٣) ما في مدحه أبا طاهر العلوي من لمز للعلويين (٢٩٤) هجاؤه ابن كيقلغ وهو في طريقه إلى لقاء أبي العشائر الحمداني

(١١) المتنبي وأبو العشائر الحمداني ، سنة ٣٣٦

- ٢٩٥

(٢٩٥) مع أبي العشائر في أنطاكية ، واستيلاء سيف الدولة على الشام . صُحبتة للحمدانيين لمذهبه العربي لا للتكسب (٢٩٧) خصائص شعره في هذه السنة ، وما يتعلق بعداوة العلويين والفاطميين (٢٩٨) مكايدهم يومئذ ، ودلالة قصيدة اللامية على كُلك ذلك

(١٢) المتنبي وسيف الدولة ، من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦

- ٣٠١

(٣٠١) المتنبي مع سيف الدولة وسياسته العربية ، وهو المذهب الذي حُبب إليه سيف الدولة (٣٠٣) أهداف سيف الدولة السياسية (٣٠٤) تفسير خصائص شعره في صحبة سيف الدولة ومشابهُها لخصائصه في صحبة بدر بن عمار ، واختلاف شعره هذا عن سائر شعره (٣٠٥) لقاء سيف الدولة يومئذ بأنطاكية ، ليس أول لقاء . تنفيذ بعض الروايات عن هذا اللقاء (٣٠٨) السياق التاريخي لهذا اللقاء (٣١٠) تفسير أول قصيدة مدح بها سيف الدولة ، ودلالاتها الفنية والسياسية (٣١٢) تفسير ظاهرة « الانتقال » في شعر أبي الطيب وخطرها ، وهو فصل مهم (٣١٥) عودة إلى تفسير القصيدة الأولى (٣١٧) تفسير شعر أبي الطيب في أنطاكية ، ودلالته بمنهج « التذوق » على مرض زوجته ثم وفاتها ، وهو تطبيق مهم (٣٢٢) خصائص شعره عند سيف الدولة ، ودلالاتها على أن صلته بسيف الدولة للحب ولأهداف السياسة ، لا للتكسب والمال ، والأدلة على ذلك (٣٢٧) دلالة قصيدته التي قالها بعد فراق سيف الدولة سنة ٣٥٢ (٣٢٩) دلالة قصيدته التي قالها بعد فراقه سنة ٣٥٣

(١٣) حبُّ المتنبي « خولة » أخت سيف الدولة

- ٣٣٣

(٣٣٣) العواطف الكامنة في نفس أبي الطيب ، مستنبطةً بمنهجي ، في « التذوق » من شعره (٣٣٦) الأدلة على حبه « خولة » ، مستنبطة بتطبيق منهج « التذوق » في شعره . الدليل الأول في رثائه أخت سيف الدولة الصغرى سنة ٣٤٤ (٣٣٧) الدليل الثاني في رثاء أخته الكبرى خولة سنة ٣٥٢ (٣٤٠) « الانتقال » في شعر أبي الطيب ، هو الذي يَسِّر هذا الاستنباط (وانظر ص : ٣١١ ، ٣١٢) وتطبيقه على هذا الرثاء (٣٤٣) دلائل أخرى من شعره عند سيف الدولة على هذا الحب على مذهبنا في « التذوق » (٣٤٧) دلائل أخرى على هذا الحب في مدة إقامته عند كافور (٣٤٨) البيت الذي عابوه في أول قصيدة أنشدها كافوراً سنة ٣٤٦ ، دليل صحيح على ما كان في نفس أبي الطيب من مفارقة ديار حبيبته « خولة » (٣٤٩) دليل آخر من قصيدته أيضاً في سنة ٣٤٦ (٣٥٠) دليل آخر من قصيدته في السنة نفسها (٣٥١) قصيدته في سنة ٣٤٧ ، فاتحتها دليل آخر واضح الدلالة على حبِّ « خولة » (٣٥٢) دليل آخر من قصيدته سنة ٣٤٨ (٣٥٤) عودة إلى علاقة هذا بقصيدة في رثائها سنة ٣٥٢ ، وفي رثاء عمه عضد الدولة سنة ٣٥٤

(١٤) فراق سيف الدولة ، وذهابه إلى كافور بالفسطاط ، من سنة

- ٣٥٧

٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠

(٣٥٧) أسباب فراقه سيف الدولة وتفنيده الروايات التي ذكّرت أسباباً لا يُعتدُّ بها ، لتناقضها وضعفها (٣٥٨) الوشائيات التي كان يُكاد بها عند سيف الدولة منذ سنة ٣٤٢ وما كان من عداوة أبي فراس وأبي العشائر له ، لحبه « خولة » (٣٦١) خروج أبي الطيب إلى كافور ، و « ابن مَلَك » اليهودي الذي أراد أن يُغرَى كافوراً بأبي الطيب ، ونزوله بالرملة حيث مدح ابن طفج وأبا طاهر العلوي ؛ وحرص كافور على أن يقصده أبو الطيب (٣٦٢) ودلالة أول قصيدة مدح بها كافوراً على ازدراجه له وسخريته به ، وعلى ما في قلبه من الشجن لفراق سيف الدولة وأخته « خولة » (٣٦٣) بطلان قصده كافوراً لطلب عطائه وماله . دلالة سائر قصائده في مدح كافور من هجاءٍ خفيٍّ لكافور (٣٦٦) فهم كافور لتعريض أبي الطيب به وبسواده ، وتضييقه من أجل ذلك على المتنبي ، حتى فرّ منه المتنبي وفارقه ، وعداوته لابن حنّابة ، وإعجاب المتنبي بأبي شجاع فاتك « المجنون » (٣٦٧) خروجه من الفسطاط خفيةً ، ونجاته من أسر كافور

(١٥) رحلة المتنبي إلى الكوفة وبغداد ، من سنة ٣٥١ إلى سنة ٣٥٤

- ٣٦٩

(٣٦٩) دلالات قصيدة « الحمى » التي أصابته بالفسطاط سنة ٣٤٨ (٣٧٠) هجاؤه كافوراً ، وعذره في التعريض بأهل مصر (٣٧٢) رحلته في الفلوات حتى دخل الكوفة ظافراً مراغماً للعلويين الذين منعه من دخولها في سنة ٣٣٥ ، ودلالة قصيدته التي ذكر فيها هذه الرحلة ، وربط ذلك برثاء جدته سنة ٣٣٥ (٣٧٥) ذكر الخارجي (أو القرمطي) الذي ثار بالكوفة سنة ٣٥١ ، ومدح دليّ بن لشكروّز (٣٧٥) إقامة قليلة بالكوفة ، ثم الرحلة إلى بغداد ، وما كان من أمر الوزير المهلب الذي أغرى به الشعراء ، وادعاهم أن أباه كان سقياً بالكوفة (٣٧٧) خروج إلى بغداد سنة ٣٥٢ ، ثم عودته إلى الكوفة ، حيث بلغته وفاة « خولة » سنة ٣٥٢ ، ثم رسالة من سيف الدولة إليه في سنة ٣٥٣ (انظر ص : ٣٣٠) ، ودلالة هذا الشعر (٣٧٨) دعوة ابن العميد أبا الطيب في سنة ٣٥٤ ، وإجابته هذه الدعوة ، ونزوله بأرجان في صفر ، وبعض دلالات شعره في أبن العميد

(١٦) المتنبي عند عضد الدولة الديلمي بشيراز سنة ٣٥٤

- ٣٨١

(٣٨١) رأى المتنبي في ملوك زمانه ، وبلغه عضد الدولة (٣٨٢) استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ ، واستنشدته فأنشدته مقصورته التي ذكر فيها دخوله الكوفة مراغماً للعلويين ، فأدرك عضد الدولة أنه يتهدده ، وبنو بويه الديلم علويون فاطميون (٣٨٣) أول قصيدة مدح بها

عضد الدولة تتضمن تعريضاً بما في قلبه من بُغض الأعاجم (٣٨٤) المتنبي وعضد الدولة
الديلمي عدوان يتخادعان (٣٨٥) دلالة شعره في رثاء عمه عضد الدولة عن ضمير قلبه وقديم
حُبّه « حولة » ، وإشارة إلى شعوره بأنه مقتول لا محالة

(١٧) مقتل أبي الطيب في ٢٧ من شهر رمضان سنة ٣٥٤

- ٣٨٧

(٣٨٧) قضية العداوة بين أبي الطيب وبنى بويه الديلميين العلويين ، وشأن سيف الدولة
في ذلك (٣٨٩) علاقة العلويين والفاطميين بمقتله (٣٩٠) صلة مقتله بقوم من بنى أسد وبنى
رياح الذين أوقع بهم سيف الدولة سنة ٣٢١ برأس العين ، حيث لقيه المتنبي قديماً ومدحه
(٣٩٠) آخر قصيدة قالها المتنبي تدل على أنه كان يائساً متوقفاً للهلاك ، وقد كان ما توقع

قضية المتنبي (3)

تقديم هذه القضية

- ٣٩٥

قضية المتنبي الأولى : « بينى وبين طه » / نشرت في صحيفة البلاغ ، السبت من
ذى الحجة سنة ١٣٥٥/١٣ من فبراير سنة ١٩٣٧

- ٣٩٧

(١) بينى وبين طه ، تفنيد كلام الدكتور طه ، في أن المتنبي كان لا يعرف أباه (٤٠٢)
وصف الدكتور طه لما كتبه هو عن المتنبي ، وشكّه كما زعم في نسب المتنبي ، واعتماده في ذلك على
معارضتى في شأن علوية المتنبي (٤٠٣) أسباب شكه التي رآها ، وبيان ضعفها وتناقضها ،
كقوله : « إن المتنبي لم يمدح أباه ، ولم يفخر به ، ولم يرثه » (٤٠٨) خطأ الدكتور طه في فهم
شعر المتنبي

(٢) « بينى وبين طه » / نشرت في صحيفة البلاغ ، السبت ٩ من ذى الحجة

- ٤١١

سنة ٢٠/١٣٥٥ من فبراير سنة ١٩٣٧

(٤١٢) أغراض هذا النقد . (٤١٤) الشك في النسب لا بد له من علة صحيحة . وتمة
القول في أسباب شكه كما ذكرها (٤١٥) حقيقة السبب الذى من أجله شك الدكتور في نسب
المتنبي ، ومن أين أخذ بعض أسبابه (٤١٩) الاختلاف في سياق الأنساب ، لا يكون علة للشك
في أنساب الناس (٤٢٠) بيان لما كان في كتابى هذا من الكلام في نسب المتنبي ، لم كان ؟ وكيف

- كان ؟
- ٤٢٣ - (٣) « بينى وبين طه » / (نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٧)
- (٤٢٣) إبطال الحجج التى أدت به إلى القول بأن المتنبي « لقيط » ، وأن كُـلُّ شك أو ارتياب لا بد له من حُجَّة داعية من ديوان الرجل نفسه (٤٣١) ردّ ادعائه أن المتنبي كان يشعر بالضعة من أجل ذلك ، وهو قول بلا دليل
- ٤٣٤ - (٤) « بينى وبين طه » / (نشرت فى صحيفة البلاغ ، الثلاثاء ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/٩ من مارس سنة ١٩٣٧)
- (٤٣٤) إبطال قول الدكتور طه بأن المتنبي كان « لا يعرف أمه » أيضاً ، وهو اتهام له معنى لا يستحسن ذكره ، وما فيه من التناقض (٤٣٨) منهجٌ يؤدّي إلى فساد الحياة الأدبية
- ٤٤٥ - (٥) « بينى وبين طه » / (نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/١٣ من مارس سنة ١٩٣٧)
- (٤٤٥) تنمة القول فى إبطال الحجج فى أن المتنبي « لا يعرف أمه » ، وسائر حججه فى شذوذ حياة المتنبي ، بلا أساس مقبول (٤٥٠) طبيعة الخلاف بين منهجين فى دراسة الأدب ، وهو تنمة للقول فى نسب المتنبي
- ٤٥٥ - (٦) « بينى وبين طه » / (نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ٧ من المحرم ١٣٥٦/٢٠ من مارس سنة ١٩٣٧)
- (٤٥٥) نقد ما وقف عنده الدكتور طه من شعر المتنبي ، وفيه الفرق بين منهجى فى « التذوق » ، ومنهجه « الانفعال » العقيم ، وأيهما أصحُّ فى استخلاص الحقائق من الشعر ؟
- ٤٦٥ - (٧) « بينى وبين طه » / (نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ١٤ من المحرم سنة ١٣٥٦/٢٧ من مارس سنة ١٩٣٧)
- (٤٦٧) نشأة المتنبي فى الكوفة ، وتعرضه لصلة العلويين بحياة المتنبي ، وهو أيضاً دالٌّ على الفرق بين المنهجين ، وإبطال ما تخلل ذلك من الآراء التى لا أصل لها (٤٧٣) تحريفه ألفاظ الأخبار المروية ، وما يؤدّي إليه هذا الفعل من الأخطاء (٤٧٣) طرف آخر من إرادته معارضى بلا دليل صحيح
- ٤٧٦ - (٨) « بينى وبين طه » / (نشرت فى البلاغ ، السبت ٢١ من المحرم سنة ١٣٥٦/٣ من إبريل سنة ١٩٣٧)

- (٤٧٧) تنمة تنفيذ ما قاله في نشأة المتنبي ، وادعاؤه « قرمطية » المتنبي ، بلا دليل صحيح ، وما في ذلك من التناقض . (٤٧٩) تنفيذ ما قاله في شعر المتنبي في صباه ، وهو فصل دال على المنهج الانفعالي غير الناضج في فهم الشعر
- (٩) « بيني وبين طه » / (نشرت في البلاغ ، السبت ٢٨ من المحرم سنة ١٣٥٦ / ١٠) - ٤٨٧
من إبريل سنة ١٩٣٧)
- (٤٨٧) تنفيذ حججه في أن المتنبي « قرمطي » ، وفساد منهجه المفضي إلى هذا الاستنتاج من شعره ، وفيه الفرق بين منهجي في « التدوق » ومنهجه العقيم (٤٩٥) أبيات أخرى ظنّها تدل على قرمطيته ، وأخطاؤه التي ارتكبتها في سبيل هذا المنهج الانفعالي العقيم
- (١٠) « بيني وبين طه » / (نشرت في البلاغ ، السبت ٦ من صفر الخير سنة ١٣٥٦ / ١٧ من إبريل سنة ١٩٣٧) - ٤٩٨
- (٤٩٨) تمام القول في « قرمطية المتنبي » . أول من أحدث خرافة « قرمطية » المتنبي ، هو المستشرق الأعجمي بلاشير ، واحتجّنها منه الدكتور طه على عادته ، وما في أقواله من الرّجيم والغلو (٤٩٩) ترتيب حججه في ذلك ، ثم تنفيذها (٥٠١) مزاعمه في القصيدة التي تهكم بها المتنبي برجل يقال له أبو الفضل (٥٠٣) إغفاله مقدمات القصائد التي كتبها المتنبي نفسه (٥٠٤) تورّطه في استنباط معان لا قيمة لها من شعر أبي الطيب في صباه ، وفي الدلالة على فرق ما بين منهجي ومنهجه .
- (١١) « بيني وبين طه » / (نشرت في صحيفة البلاغ ، الثلاثاء ٢٣ صفر الخير سنة ١٣٥٦ / ٤ من مايو سنة ١٣٥٦) - ٥٠٩
- (٥٠٩) تنمة الكلام في فساد القول « بقرمطية » المتنبي (٥١١) مثال من أخطاء الدكتور باعتداده على تخليط المستشرق بلاشير (٥١٣) فساد قوله في الاستدلال بشعر لأبي الطيب في مدح صاحبه العلوي في صباه ، وإقحامه ذلك في قضية « القرمطية » (٥١٥) منهجه الانفعالي العقيم حين طبّقه على قصيدة المتنبي ، أوقعته في أخطاء متتابعة (٥١٦) تطبيق منهجي في « التدوق » يصحح أخطاءه في هذا الشعر
- (١٢) « بيني وبين طه » / (نشرت في صحيفة البلاغ ، الثلاثاء غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٦ / ١١ من مايو سنة ١٩٣٧) - ٥١٢
- (٥٢١) تنفيذ ما قاله في توقيت قصائد المتنبي بالشام ، ولم وقع في هذه الأخطاء ، والمقارنة بين ما قاله هو وما قلته أنا ، وفيه ختام هذه القضية « بيني وبين طه »

نبوة المتنبى

- ٥٣٣ - « نبوة المتنبى » / « محمود محمد شاكر » / « الرسالة » (١٦٧) الاثني ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥/١٤ من سبتمبر سنة ١٩٣٦)
- ٥٤١ - حول « نبوة المتنبى » / « سعيد الأفغانى » / « الرسالة » (١٧٠) الاثني ١٩ من رجب سنة ١٣٥٥/٥ من أكتوبر سنة ١٩٣٦)
- ٥٥٠ - « نبوة المتنبى » أيضاً / « محمود محمد شاكر » / « الرسالة » (١٧١) الاثني ٢٦ من رجب سنة ١٣٥٥/١٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٦)
- ٥٥٩ - « نبوة المتنبى » أيضاً / « محمود محمد شاكر » / « الرسالة » (١٧٢) الاثني ٣ من شعبان سنة ١٣٥٥/١٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٦)
- ٥٧٠ - حول « نبوة المتنبى » أيضاً / « سعيد الأفغانى » / « الرسالة » (١٧٤) الاثني ١٧ من شعبان سنة ١٣٥٥/٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٦)

كلمة الرافعى

- ٥٧٧ - « المقتطف والمتنبى » / « مصطفى صادق الرافعى » / « الرسالة » (١٣٢) الاثني ١٨ من شوال سنة ١٣٥٤/١٣ من يناير سنة ١٩٣٦)

أربع تراجم للمتنبى لم تُنشر (4)

- ٥٨٥ - (١) « ترجمة المتنبى للرَّبِيعى » (٣٢٨ - ٤٢٠ هـ) / ملحقه بأخر شرح الواحدى لديوان المتنبى (مخطوط)
- ٦٠٧ - (٢) « ترجمة المتنبى لابن العديم » (٥٥٨ - ٦٦٠ هـ) / من كتابه « بغية الطلب » (مخطوط)
- ٦٥٩ - (٣) « ترجمة المتنبى لابن عَسَاكِر » (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) / من آخر نسخة من « الإبانة للعديدى » (مخطوط)
- ٦٨١ - (٤) « ترجمة المتنبى للمقرئزى » (٧٧٦ - ٨٤٥ هـ) / من كتابه « المُقْفَى » (مخطوط)

فهرس شعر أنى الطيب	- ٧٠١
فهرس أبيات لغير المتنبي	- ٧٠٧
فهرس الحديث والأمثال	- ٧١٠
فهرس سيرة أنى الطيب	- ٧١١
فهرس الأعلام	- ٧١٣
فهرس المواضع	- ٧٣١
فهرس كُتُبٍ عن المتنبي	- ٧٣٥
فهرس سائر الكتب	- ٧٣٧
فهرس الصحف والمجلات	- ٧٣٩
فهرس المكاتب / والفرق وأشباهاها	- ٧٤٠
فهرس رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا	- ٧٤١
فهرس كتاب المتنبي	- ٧٤٣